تفسير العهد الجديد

وليم باركلي

بشارة مرقس

Bibliotheca Alexandrina
0013972

دار الثقافة

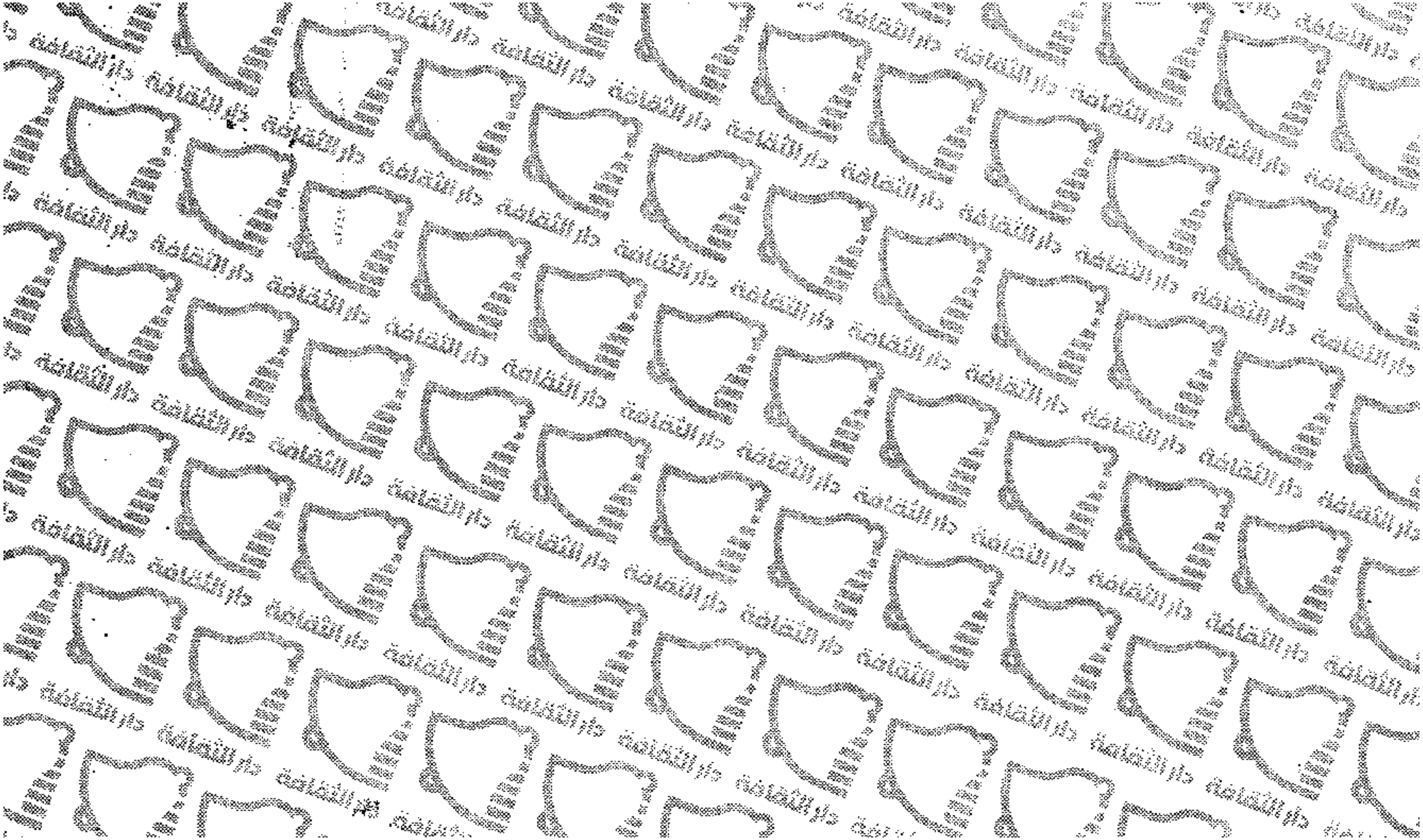
دار الثقافة

تفسير العهد الجديد

للدكتور

وليم باركلي

أستاذ العهد الجديد بجامعة جلاسجو

المجلد الأول

١ ـــ انجيـــل متـــى ترجمة الدكتور القس فايز فارس.

٢ ـــ انجيـل مـــرقس ترجمة الدكتور القس فهيم عزيز.

دار الثقافة

طبعـــة أولـــى

مجلـد باركلـي جـ ١
صدر عن دار الثقافة ص . ب ١٢٩٨ – القاهرة
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم إقتباس أو إعادة نشر أو طبع بالرونيو للكتاب أو أى جزء منه بدون إذن الناشر ، وللناشر وحده حق إعادة الطبع) ١٠ / ٥٧٠ ط١ ك١ / ٣ – ٣ / ١٩٩٣ .
رقم الإيداع بدار الكتب : ٣٦٥٤ / ١٩٩٣
جمع فى سيوبرس
طبع بدار نوبار للطباعة – شبرا – القاهرة

مجلس التحرير

دكتور بطرس عبد الملك   الأستاذ حبيب سعيد
دكتور القس صموئيل حبيب   دكتور القس فايز فارس
دكتور القس فهيم عزيز

هذه السلسلة

الدكتور وليم باركلي من كبار المفكرين والباحثين في العالم المسيحي في هذا العصر ، وهو أستاذ العهد الجديد في جامعة جلاسجو باسكتلندا . وقد قام بإعداد دراسات مسلسلة في العهد الجديد تدل على تعمق في البحث والدرس . وطلاوة في حسن التعبير ، وطرافة في المعنى ، وسهولة في الاستيعاب . وقد بيع من هذه السلسلة التي تشمل أسفار العهد الجديد كلها مليون نسخة في عام واحد في بريطانيا وحدها ، وأعيد طبعها حتى الآن خمس مرات . وما يزال الإقبال عليها شديدًا .

وقد صحت عزيمة دار الثقافة عن إصدار هذه السلسلة تباعًا ، ويقدمها في العربية نخبة من المترجمين في أسلوب سهل خالٍ من الحذلقة اللغوية والإعجاز اللفظي .

ومما يقوله المؤلف في مقدمته العامة أن الهدف من إصدار هذه السلسلة هو وضع نتائج أبحاث العلم الحديثة تحت تصرف القاريء العادي ، الذي لم ينل حظًا موفورًا من الدراسات اللاهوتية ، ثم تطبيق تعاليم أسفار العهد الجديد على الحياة العملية في هذا العصر .

وليست هذه السلسلة تفسيرًا بالمعنى الذي نفهمه عادة من التفاسير الأخرى ، ولكنها دراسات تحليلية في الآيات والفقرات والأمثال والأحداث بأسلوب شائق فيه جاذبية التاريخ ، وعذوبة الخيال ، وقوة العظة ، وعمق التحليل ، وروحانية المعنى .

ودعاؤنا أن تقود هذه الدراسات جميع القراء إلى معرفة الرب يسوع المسيح ، في وضوح وجلاء أكثر ، وإلى محبته حبًا أعزر ، وإلى السير وراءه في خطوات أقرب .

مجلس التحرير

محتويات انجيل متى

الموضوع	الصفحة
مقدمة لانجيل متى	١٧
الأصحاح الأول :	
سلسلة نسب الملك	٢٤
مجيء المخلص إلى العالم	٢٧
الأصحاح الثاني :	
مكان ميلاد الملك	٣٠
ولاء الشرق	٣١
الملك الماكر	٣٢
هدايا المسيح	٣٣
الهروب إلى مصر	٣٥
قتل الأطفال	٣٦
العودة إلى الناصرة	٣٦
الأصحاح الثالث :	
ظهور يوحنا المعمدان	٣٩
رسالة يوحنا المعمدان	٤١
معمودية يسوع	٤٨
الأصحاح الرابع :	
زمن الامتحان	٥١
التجربة الأولى	٥٣
التجربة الثانية	٥٤
التجربة الثالثة	٥٥
يسوع يخرج للخدمة	٥٦
يسوع الكارز (البشير)	٥٧
يسوع يدعو الصيادين	٥٨
أساليب السيد	٥٩

الموضوع	الصفحة
الأصحاح الخامس :	
العظة على الجبل	٦١
الغبطة العظمى	٦٢
سعادة المساكين	٦٣
سعادة الحزانى	٦٥
سعادة الودعاء	٦٦
سعادة الروح الجائعة	٦٨
سعادة الشفقة الكاملة	٧٠
سعادة القلب النقي	٧٢
سعادة التوفيق بين البشر	٧٣
سعادة المتألمين لأجل المسيح	٧٤
ملح الأرض	٧٨
نور العالم	٧٩
الاشراق في سبيل الله	٨١
يسوع والناموس	٨٢
بين القديم والجديد	٨٦
الغضب المنهى عنه	٨٨
الحاجز الذي لا يمكن تخطيه	٩١
اصنع السلام في وقته	٩٢
الرغبة المحرمة	٩٣
العلاج الجراحي	٩٤
الرباط الذي لا ينفصم	٩٥
كلمة الإنسان تربطه بوعد	٩٨
مبدأ المعاملة بالمثل	١٠٠
العطاء الكريم	١٠٤
المحبة المسيحية	١٠٦

الموضوع	الصفحة

الأصحاح السادس :

وازع الثواب في الحياة المسيحية ١١١
أعمال صالحة بدوافع خاطئة ١١٤
الدافع الصحيح للصدقة ١١٥
عيوب في الصلوات ١١٧
الصلاة التي يرفعها التلميذ ١٢١
الأب السماوي ١٢٢
تقديس اسم الله ١٢٥
ملكوت الله ومشيئة الله ١٢٧
خبزنا اليومي ١٢٩
الغفران البشري والالهي ١٣٢
التجربة والانتصار عليها ١٣٥
خاتمة الصلاة الربانية ١٣٩
حديث عن الصوم ١٤٠
الكنز الحقيقي ١٤٤
العين سراج الجسد ١٤٦
الله والمال ١٤٩
القلق وعلاجه ١٥٢

الأصحاح السابع :

خطأ دينونة الآخرين ١٥٧
الحق وسامعه ١٥٨
ميثاق الصلاة ١٥٩
القانون الذهبي ١٦١
الحياة في مفترق الطرق ١٦٣
الأنبياء الكذبة ١٦٥
الثمار المكثفة ١٦٧
كشف النقاب عن الخداع ١٧٠
الأساس الصحيح الوحيد ١٧٢

الأصحاح الثامن :

المحبة تعمل ١٧٥
تطهير برص ١٧٦
شفاء غلام قائد المئة ١٧٩
معجزة في كوخ صياد ١٨٢
معجزات بالجملة ١٨٤
حساب النفقة ١٨٥
مأساة اهمال لحظة العزم الخالدة ١٨٦
هدوء وسط العاصفة ١٨٧
عودة العقل للمجنونين ١٨٩

الأصحاح التاسع :

تزايد المعارضة لعمل يسوع ١٩٢
غفران وشفاء ١٩٢
الرجل الذي كرهه الجميع ١٩٤
حيثما تكون الحاجة أكثر ١٩٥
بهجة الحاضر وأحزان المستقبل ١٩٧
مشكلة كل فكرة جديدة ١٩٨
اللمسة المقيمة ١٩٩
كل قوى السماء في خدمة امرأة ٢٠٢
امتحان الإيمان ومكافأته ٢٠٣
لا حياد ازاء المسيح ٢٠٤
عمل يسوع الثلاثي ٢٠٥
الحنان الإلهي ٢٠٦
الحصاد المنتظر ٢٠٧

الأصحاح العاشر :

رسل الملك ٢٠٩
مهمة رسول الملك ٢١١
معدات رسول الملك ٢١٤
تصرف رسول الملك ٢١٦
التحدي الذي يقدمه الملك لرسله ٢١٨
فطنة رسول الملك ٢٢١

الموضوع	الصفحة
مجيء الملك	٢٢٢
رسول الملك وآلام الملك	٢٢٣
تجرد رسول الملك من الخوف	٢٢٤
تحرر رسول الملك من الخوف	٢٢٥
ولاء رسول الملك ومكافأته	٢٢٦
التكاليف التي يضعها الملك أمام رسوله	٢٢٨
مكافأة من يرحبون برسول الملك	٢٢٩
الأصحاح الحادي عشر :	
النبرات الست في صوت يسوع	٢٣٢
نبرة الاعجاب	٢٣٤
الملكوت والعنف	٢٣٦
نبرة التوبيخ الحزين	٢٣٧
نبرة الدينونة مع القلب المنفطر	٢٣٨
نبرة السلطان	٢٤٠
نبرة الحنان	٢٤١
الأصحاح الثاني عشر :	
مواقف متأزمة	٢٤٤
الإنسان والسبت	٢٤٥
بين الحب والناموس	٢٤٩
مميزات مسيح الرب	٢٥١
هزيمة الشيطان	٢٥٢
استحالة الحياد	٢٥٥
الخطية التي لا تغفر	٢٥٦
القلب والكلام	٢٥٩
الآية الوحيدة	٢٦١
خطر القلب الخالي	٢٦٢
القرابة الحقيقية	٢٦٣

الموضوع	الصفحة
الأصحاح الثالث عشر :	
التعليم بالأمثال	٢٦٥
الزارع خرج ليزرع	٢٦٧
الحق والمستمع	٢٧٠
الحنطة والزوان	٢٧٥
بداية صغيرة	٢٧٦
قوة المسيح المغيرة	٢٧٨
كنز أثناء عملنا اليومي	٢٨٠
اللؤلؤة الثمينة	٢٨٢
صيد السمك وفرزه	٢٨٣
كنوز قديمة في أسلوب جديد	٢٨٤
حاجز التعصب وعدم الإيمان	٢٨٥
الأصحاح الرابع عشر :	
مأساة قتل يوحنا المعمدان	٢٨٦
الشفقة والقدرة على إشباع الآلاف	٢٨٩
في ساعة الضيق	٢٩١
التعثر والنجاة	٢٩٢
خدمة المسيح	٢٩٣
الأصحاح الخامس عشر :	
وصايا الناس ووصايا الله	٢٩٥
العلاج الحقيقي والشر الحقيقي	٣٠٠
امتحان الإيمان واستجابته	٣٠٣
لطف يسوع	٣٠٥
خبز الحياة	٣٠٥
الأصحاح السادس عشر :	
عميان إزاء العلامات	٣٠٧
الخمير الخطير	٣٠٨
سؤال في قيصرية فيلبس	٣٠٩

الموضوع	الصفحة
عجز الأوصاف البشرية	٣١١
الوعد العظيم	٣١٣
أبواب الجحيم	٣١٥
مركز بطرس في الكنيسة	٣١٦
التتويج العظيم	٣١٨
التحدي العظيم	٣١٩
اضاعة الحياة ووجودها	٣٢١
التحذير والوعد	٣٢٢
الأصحاح السابع عشر :	
جبل التجلي	٣٢٤
لاشارة إلى طريق الصليب	٣٢٨
الإيمان الضروري	٣٢٩
ضريبة الهيكل وكيفية دفعها	٣٣٠
الأصحاح الثامن عشر :	
العلاقات الشخصية	٣٣٣
مثل الأولاد	٣٣٤
يسوع والولد	٣٣٥
المسئولية الرهيبة	٣٣٦
الاستئصال الجراحي	٣٣٨
الراعي والخروف الضال	٣٣٩
محاولة المصالحة	٣٤١
قوة حضور المسيح	٣٤٣
كيف نغفر	٣٤٤
الأصحاح التاسع عشر :	
مشكلة الطلاق	٣٤٦
هل تتحقق الصورة المثالية	٣٥١
ترحيب يسوع بالأطفال	٣٥٥
الشاب الذي أدار ظهره للمسيح	٣٥٦

الموضوع	الصفحة
أخطار الثروة	٣٥٨
جواب حكيم لسؤال خاطىء	٣٦٠
الأصحاح العشرون :	
العمل والأجور في ملكوت الله	٣٦٢
نحو الصليب	٣٦٥
العظمة الحقيقية	٣٦٦
استجابة الحب لنداء الحاجة	٣٧٠
الأصحاح الحادي والعشرون :	
بداية الفصل الأخير في الرواية	٣٧٢
ما حدث في الهيكل	٣٧٤
الإعلانات لبسطاء القلب	٣٧٧
طريق شجرة التين	٣٧٨
التذرع بالجهل	٣٨٢
الأفضل بين ابنين رديئين	٣٨٣
الكرم والكرامون	٣٨٤
الأصحاح الثاني والعشرون :	
فرح ودينونة	٣٨٨
الحق الانساني والحق الإلهي	٣٩١
إله حي لأناس أحياء	٣٩٣
الوصية العظمى	٣٩٥
آفاق جديدة	٣٩٦
الأصحاح الثالث والعشرون :	
الكتبة والفريسيون	٣٩٨
صار الدين عبئا ثقيلا	٤٠٠
ديانة المباهاة	٤٠١
اغلاق الباب	٤٠٣
عندما تصير الصلاة دينونة	٤٠٤

الموضوع	الصفحة
مبعوثون للشر	٤٠٥
علم التملص	٤٠٦
فقدان الإحساس بالتناسب	٤٠٧
النقاوة الحقيقية	٤٠٨
البوار المقنع	٤٠٩
وصمة القتل	٤٠٩
الإعراض عن نداء الحب	٤١٠

الأصحاح الرابع والعشرون :

الموضوع	الصفحة
رؤيا الأمور الآتية	٤١٢
القضاء على المدينة المقدسة	٤١٤
فزع الحصار المخيف	٤١٥
يوم الرب	٤١٦
الاضطهاد الآتي	٤١٧
أخطار تواجه الإيمان	٤١٨
المجي الثاني	٤١٨
مجيء الملك	٤١٩
الاستعداد لمجيء الملك	٤٢١

الأصحاح الخامس والعشرون :

الموضوع	الصفحة
مصير غير المستعدين	٤٢٣
دينونة الموهبة المدفونة	٤٢٤
مقياس الله في الدينونة	٤٢٦

الأصحاح السادس والعشرون :

الموضوع	الصفحة
بداية الفصل الأخير من المأساة	٤٢٨
اسراف المحبة	٤٢٩
الخائن يساوم	٤٣١
نداء الحب الأخير	٤٣٢
قبلة الخائن	٤٣٣
نهاية الخائن	٤٣٤
العشاء الأخير	٤٣٥
عيد الأجداد	٤٣٥
جسده ودمه	٤٣٧
تحذير السيد	٤٣٨
خانته الشجاعة	٤٣٩
صراع في البستان	٤٤١
القبض على يسوع	٤٤٣
المحاكمة أمام اليهود	٤٤٤
جريمة المسيح	٤٤٥

الأصحاح السابع والعشرون :

الموضوع	الصفحة
الرجل الذي حكم على يسوع	٤٤٨
بيلاطس يخسر المعركة	٤٥١
هزم الجنود	٤٥٢
الصليب والعار	٤٥٣
انتصار النهاية	٤٥٥
الإعلان المتألق	٤٥٧
القبر هدية	٤٥٧
مهمة مستحيلة	٤٥٨

الأصحاح الثامن والعشرون :

الموضوع	الصفحة
الإكتشاف العظيم	٤٦٠
التعليل الأخير	٤٦٠
مجد الوعد الأخير	٤٦١

محتويات انجيل مرقس

الموضوع	الصفحة

المقدمة ٤٦٤

الأصحاح الأول :

بدء القصة ٤٧٢
بشير الملك ٤٧٥
اليوم الفاصل ٤٧٦
وقت الاختبار ٤٧٨
البشارة المفرحة ٤٨١
يسوع يختار رفقاءه ٤٨٢
يسوع يبدأ معسكر عمله ٤٨٤
انتصار المسيح الأول على قوات الشر . ٤٨٦
المعجزة الخاصة ٤٨٨
ابتداء التجمهر حول يسوع ٤٨٩
ساعات التأمل ونداء العمل ٤٩٠
شفاء الأبرص ٤٩١

الأصحاح الثاني :

الإيمان الذي لا يمكن أن يختفي ٤٩٤
المناقشة التي لا تجاوب ٤٩٥
الرجل المكروه من كل الناس ٤٩٧
حيث الحاجة أكبر ٤٩٩
الزمرة السعيدة ٥٠٠
ضرورة الاحتفاظ بشباب العقل ٥٠١
التقوى الحقيقية والمزيفة ٥٠٣

الأصحاح الثالث :

تصارع الأفكار ٥٠٦
في وسط الجماهير ٥٠٨
الجماعة المختارة ٥٠٩
القرار الخاص به ٥١١
حلف أم غزو ٥١٢
الخطية التي لا تغتفر ٥١٣
القرابة وأساسها ٥١٤

الأصحاح الرابع :

التعليم بالأمثال ٥١٦
من الأرض إلى السماء ٥١٨
سر الملكوت ٥٢٠
الحصاد مؤكد ٥٢٢
النور الذي ينبغي أن يرفع عاليًا ٥٢٤
الحق الذي لا يمكن أن يخفى ٥٢٥
ميزان الحياة ٥٢٧
شريعة الزيادة ٥٢٨
النمو الغير متطور والنهاية المؤكدة ٥٢٩
من الصغر إلى الاتساع ٥٣١
المعلم الحكيم والمتعلم النابه ٥٣٣
السلام في حضرته ٥٣٤

الأصحاح الخامس :

طرد الشياطين ٥٣٦
الذين طلبوا من يسوع أن يتركهم ٥٣٧
شاهد للمسيح ٥٣٩
في ساعة الحاجة ٥٤٠
الرجاء الأخير للمعذب ٥٤١

الموضوع	الصفحة

ثمن الشفاء ٥٤٢
الرغبة والرجاء ٥٤٤
الاختلاف الذى يعمله الإيمان ٥٤٥

الأصحاح السادس :

بلا كرامة في وطنه ٥٤٦
بشيرو الملك ٥٤٨
رسالة الملك ورحمته ٥٤٩
ثلاثة أحكام على يسوع ٥٥٠
إنتقام امرأة شريرة ٥٥١
أشجان الجموع ٥٥٥
القليل الذي تكاثر في يد يسوع ٥٥٦
التغلب على العاصفة ٥٥٧
الجموع الباحثة ٥٥٨

الأصحاح السابع :

الطاهر والنجس ٥٦٠
شرائع الله وأحكام الناس ٥٦٢
الفرصة الآثمة ٥٦٣
النجاسة الحقيقية ٥٦٤
الإعلان أن العالم للمسيح ٥٦٦
يعمل كل شيء حسنا ٥٦٨

الأصحاح الثامن :

حنان ومجد ٥٧٠
العميان الذين يطلبون آية ٥٧١
الفشل في التعليم من الاختبار ٥٧٢
رجل أعمى يتعلم كيف يرى ٥٧٣
الإكتشاف العظيم ٥٧٤
التفكير اليهودي عن المسيا ٥٧٥
المجرب يتكلم بلسان صديق ٥٧٧
طريق التلمذة ٥٧٨

الموضوع	الصفحة

من يضيع حياته يجدها ٥٧٩
القيمة العظمى في الحياة ٥٨٠
عندما يأتي الملك إلى خاصته ٥٨١

الأصحاح التاسع :

المجد في قمة الجبل ٥٨٣
مصير النذير (يوحنا المعمدان) ٥٨٤
النزول من على الجبل ٥٨٥
صرخة الإيمان ٥٨٦
سبب الفشل ٥٨٧
مواجهة النهاية ٥٨٨
الطموح الحقيقي ٥٨٩
مساعدة المحتاجين
هي خدمة للمسيح نفسه ٥٩٠
درس في عدم التعصب ٥٩١
الثواب والعقاب ٥٩٢
الهدف الذي يستحق كل تضحية ٥٩٣

الأصحاح العاشر :

ملح الحياة المسيحية ٥٩٥
للخير أم للشر ٥٩٧
لمثل هؤلاء ملكوت السموات ٥٩٩
كم من الصلاح تحتاج ٦٠٠
خطورة الغنى ٦٠١
المسيح ليس مدينًا لأحد ٦٠٢
النهاية تقترب ٦٠٤
مطلب الطموح ٦٠٥
ثمن خلاص الإنسان ٦٠٦
معجزة على جانب الطريق ٦٠٨

الأصحاح الحادي عشر :

مجيء الملك ٦١٠

الموضوع	الصفحة

الآتي ٦١١
الهدوء الذي يسبق العاصفة ٦١٢
التينة الغير مثمرة ٦١٢
غضب يسوع ٦١٣
قواعد الصلاة ٦١٥
سؤال مكير وجواب قاطع ٦١٦

الأصحاح الثاني عشر :

الرفض والجزاء ٦١٨
قيصر والله ٦١٩
الأفكار الخاطئة عن الحياة الآتية ٦٢٢
المحبة لله والمحبة للقريب ٦٢٣
ابن داود ٦٢٥
ديانة خاطئة ٦٢٦
أعظم عطية ٦٢٨

الأصحاح الثالث عشر :

يوم الرب ٦٢٩
خراب المدينة ٦٣١
آلام مدينة ٦٣٢
الطريق الصعب ٦٣٣
أخطار الأيام الأخيرة ٦٣٤
مجيئه الثاني ٦٣٦
اصحوا ٦٣٧

الأصحاح الرابع عشر :

العمل الأخير يبدأ ٦٣٨
المحبة المسرفة ٦٣٩
الخائن ٦٤٠
الاستعداد للعيد ٦٤٢
آخر صيحات المحبة ٦٤٤
رمز الخلاص ٦٤٥
فشل الأصدقاء ٦٤٧
لتكن ارادتك ٦٤٨
القبض عليه ٦٤٩
شاب ما ٦٥٠
المحاكمة ٦٥١
الشجاعة والجبن ٦٥٢

الأصحاح الخامس عشر :

صمت يسوع ٦٥٤
رغبة الجماهير ٦٥٥
استهزاء العساكر ٦٥٦
الصليب ٦٥٧
المحبة اللانهائية ٦٥٨
المأساة والانتصار ٦٥٨
الرجل الذي وهب يسوع قبره ٦٦٠

الأصحاح السادس عشر :

قولوا لبطرس ٦٦١
إرسالية الكنيسة ٦٦٢

مقدمة لإنجيل متى

البشائر المتفقة :

تعرف الثلاث بشائر الأولى (متى، مرقس، ولوقا) باسم «البشائر المتفقة» «Synoptic Gospels». والكلمة «Synoptic» تتكون من كلمتين يونانيتين معناهما «يرى معًا» .. فكل بشارة من هذه البشائر الثلاث تروي لنا الأحداث عينها في حياة السيد المسيح. ومع أنه توجد بعضُ الأجزاء التي ترد في بشارة دون الأخرى، لكن الصفة الغالبة في هذه البشائر الثلاث هي أن مادتها متشابهة، وترتيب الأحداث متقارب. ومن اليسير أن نضع الأحداث التي ترويها كل بشارة في عمود، ونقارن بين روايات البشائر الثلاث وبذلك تتكون لدينا فكرة أوضح عن العلاقة بين هذه البشائر فإذا قارنا على سبيل المثال — قصة اشباع الخمسة آلاف في البشائر الثلاث: (متى١٤: ١٢—٢١، مرقس٦: ٣٠—٤٤، لوقا٩: ١٠—١٧) نجد القصة تروى بالكلمات عينها تقريبًا. ويمكن أن نجد مثالاً واضحًا في قصة شفاء المفلوج (متى٩: ١—٨، مرقس٢: ١—١٢، لوقا٥: ١٧—٢٦). فالتشابه في روايات البشائر الثلاث شديد، بحيث تجعلنا نستنتج أن البشيرين الثلاثة استقوا معلوماتهم من مصدر واحد، أو أن بشارتين اعتمدتا على الثالثة كأساس لمادتيهما.

أقدم البشائر:

إذ نبدأ دراسة الأمر بأكثر تدقيق، نجد أن هناك أسبابًا تحملنا على الإعتقاد، بأن بشارة مرقس هي أقدم البشائر المكتوبة، وأن المادة الموجودة في بشارة متى، وبشارة لوقا مستقاة من بشارة مرقس كأساس لهما. ويمكن تقسيم بشارة مرقس إلى ١٠٥ فقرة، ونستطيع أن نجد ٩٣ فقرة منها في بشارة متى، و٨١ فقرة منها في بشارة لوقا. ومن هذه الفقرات الـ ١٠٥ الواردة في بشارة مرقس، نجد أربع فقرات فقط لا وجود لها في بشارة متى وبشارة لوقا.

وفي بشارة مرقس٦٦١ عددًا، وفي بشارة متى ١٠٦٨ عددًا، وفي بشارة لوقا ١١٤٩ عددًا. ويورد متى أكثر من ٦٠٦ من الأعداد الواردة في مرقس، ويورد لوقا ٣٢٠ منها. ومن الخمسة والخمسين عددًا الموجودة في مرقس، والتي لا يذكرها متى، نجد لوقا يورد ٣١ — وفي كل بشارة مرقس لا نجد إلا ٢٤ عددًا غير واردة في كل من بشارتي متى ولوقا.

ومما هو جدير بالملاحظة أن البشائر لا تورد المادة والفكر فحسب، بل الكلمات أيضاً، فبشارة متى تستخدم ٥١ في المائة من كلمات بشارة مرقس، وبشارة لوقا تستخدم ٥٣ في المائة منها.

هذا فضلاً عن أن متى ولوقا يتبعان عادة ترتيب مجرى الأحداث الذي يستخدمه مرقس. وفي بعض الأحيان يختلف واحد منهما في هذا الترتيب، لكنهما لا يختلفان كلاهما معاً، في ترتيب أية حادثة، فدائماً نجد واحداً منهما على الأقل يتبع نظام مرقس.

تنقيح بشارة مرقس:

وقد يتبادر إلى الأذهان أن بشارة مرقس اختصار لكل من بشارة متى وبشارة لوقا، لكن حقائق معينة تظهر لنا أن بشارة مرقس أقدم من بشارة متى وبشارة لوقا ـــ وإذا ساغ لنا أن نستخدم هذا التعبير، يمكن القول إن بشارة متى وبشارة لوقا ـــ يبدوان كتنقيح لأسلوب بشارة مرقس فإن مرقس يظهر أحيانًا كأنه يحد من قوة المسيح، أو على الأقل قد يبدو الأمر كذلك في عين الناقد. ويمكن أن تظهر هذه الفكرة من الأمثلة التالية:

المثال الأول:

مرقس١:٣٤ «فشفى **كثيرين** كانوا مرضى بأمراض مختلفة وأخرج شياطين كثيرة».
متى٨:١٦ «فأخرج الأرواح بكلمة **وجميع** المرضى شفاهم».
لوقا٤:٤٠ «فوضع يديه على كل **واحد منهم** وشفاهم».

المثال الثاني:

مرقس٣:١٨ «لأنه كان قد **شفى كثيرين**».
متى ١٢:١٥ «وتبعته جموع كثيرة **فشفاهم جميعًا**».
لوقا ٦:١٩ «لأن قوة كانت تخرج منه **وتشفي الجميع**».

وهنا نرى متى ولوقا يحولان كلمة «كثيرين» التي يوردها مرقس إلى «جميع» ، لكي لا تكون هناك فكرة محدودية قدرة المسيح.

المثال الثالث:

مرقس٦:٥،٦ «ولو يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة .. وتعجب من عدم إيمانهم».

متى١٣:٥٨ «ولم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم».

هاتان الروايتان وصف لزيارة يسوع لوطنه الناصرة. ونرى متى يحجم عن أن يذكر أن يسوع لم يقدر أن يصنع أية قوات، ويغير الأسلوب، لكي لا تكون هناك شبهة بمحدودية قوة يسوع.

المثال الرابع:

نلاحظ أن كلا من متى ولوقا لم يورد هذه الأحداث الواردة في مرقس .

مرقس٣:٥ «فنظر حوله إليهم بغضب حزينًا على غلاظة قلوبهم».

مرقس٣:٢١ «ولما سمع أقرباؤه خرجوا ليمسكوه لأنهم قالوا إنه مختل».

مرقس١٠:١٤ «فلما رأى يسوع ذلك اغتاظ».

ولعل متى ولوقا لم يذكرا هذه الأجزاء، خشية أن يكون فيها إقلال من شأن يسوع، من حيث

نسبة الإنفعالات البشرية إليه من غضب وحزن وغيظ (١)

تعاليم يسوع:

ذكرنا أن بشارة متى تحتوى على ١٠٦٨ عدداً، وبشارة لوقا تحتوى على ١١٤٩ عددًا، وأنهما يعيدان ذكر ٨٥٢ عددًا مما أورده مرقس. وهذا معناه أن في متى ولوقا مادة أكثر مما يورده مرقس. وعندما نذكر المادة الورادة في متى ولوقا، والتي لا ترد في مرقس نلاحظ أنها تحتوى على تعاليم يسوع. فكلاهما أخذ من مرقس رواية الأحداث في حياة يسوع، لكنهما أخذا رواية التعاليم من مصدر آخر. وقرينة ذلك أن ٢٠٠ عددًا في متى تتشابه مع نظيرها في لوقا، وهذه مختصة بتعاليم يسوع. ونحن لا نعرف المصدر الذي استقيا منه هذه التعاليم، ولكن علماء الكتاب المقدس يعتقدون أن هناك كتاب يجمع تعاليم المسيح، ويرمزون إليه بحرف (ك) وهو يشير إلى كلمة يونانية معناها «المصدر».

وهناك من يقول إن متى هو الذي جمع أقوال يسوع، وكتبها باللغة العبرية، وصار متها المصدر الأول الذي استقى منه كتاب البشائر تعاليم يسوع. ونحن مدينون لمتى بالكثير، لأنه هو الذي يروى لنا العظة على الجبل، مع كثير من تعاليم يسوع، بينما يروى لنا مرقس أحداث حياة يسوع.

متى العشار:

ونحن نعرف القليل عن متى نفسه، فإن دعوته جاءت في (متى٩:٩) ونعرف أنه كان عشارًا، ولذلك نستنتج أنه كان مكروهًا جدًا من اليهود لأنه كان يعمل في خدمة الغزاة، كانت لمتى وزنة واحدة، هى قلمه، بينما كان معظم التلاميذ صيادين وليست لديهم خبرة بالكتابة والتعبير، أما متى فكان خبيرًا في ذلك . وعندما دعاه يسوع وهو يجلس على مكان الجباية ، ترك كل شيء، لكنه أخذ قلمه معه، واستخدم هذا القلم ليكتب روايته عن تعاليم يسوع.

إنجيل اليهود:

ولكى نتتبع خاصيات بشارة متى ونحن نقرؤها، من المناسب أن نلقي نظرة سريعة على ما تتميز به هذه البشارة ــ وأول ما يظهر لنا، أن هذه البشارة كتبت لليهود. كتبها يهودي ليقنع اليهود. ومن أهم أهداف متى، أن يبين أن نبوات العهد القديم قد تحققت في شخص يسوع، ومن ثم فلا بد أن يكون هو المسيا أو المسيح. وتوجد عبارة متكررة في البشارة وهي «لكى يتم ما قيل بالنبي القائل» فقد وردت هذه العبارة في هذه البشارة ١٦ مرة . فميلاد يسوع وإسمه تحقيق لنبوة (١:١ ٢١ــ٢٣)، كذلك هربه إلى مصر (١٤:٢، ١٥) وقتل الأطفال (١٦:٢ــ١٨)، وإقامة يوسف ويسوع في الناصرة (٢٣:٢)، واستخدام يسوع للأمثال في تعليمه تحقيق لنبوة (٣٤:١٣، ٣٥)،

---

(١) إن هذه الدراسة تبين لنا صورة البحث العلمي المقارن للبشائر الثلاث، لكنها لا تتعرض أبدًا لصحة الأحداث ولا لصدق الوحي فيها من الروح القدس. ولا شك أن الروح القدس أراد بحكمته العلوية أن تعطى لنا البشائر الثلاث صورة متكاملة للسيد له المجد . فقد نظر كل كاتب من زاوية معينة، لذلك نحن نحتاج إلى كل البشائر معًا لتكون لدينا الصورة التي يريد الروح القدس أن يعطيها لنا عن شخص ربنا يسوع. (المترجم).

وكذلك دخوله المنصور (٣:٢١ــ٤)، وبيعه بثلاثين من الفضة (٩:٢٧)، وإلقاء القرعة على ثيابه وهو على الصليب (٣٥:٢٧) ــ كل هذه تحقيق لنبوات في العهد القديم، لتنتزع من اليهود إعترافًا بأن يسوع هو المسيا.

أولاً ــ يهتم متى باليهود خاصة:

فتجديدهم قريب وعزيز إلى قلبه، وعندما جاءت المرأة الفينيقية تطلب معونة يسوع ، كان جواب يسوع عليها أنه لم يرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة (٢٤:١٥)، وعندما أرسل يسوع الإثني عشر لبث دعوته، قال لهم أن لا يمضوا إلى طريق أمم ولا يدخلوا إلى مدينة للسامريين (٥:١٠،٦)، إلا أن هذه البشارة لا تستبعد الأمم أبدًا، بل تذكر قول يسوع إن كثيرين من المشارق والمغارب سيدخلون إلى ملكوت الله (١١:٨)، وأن الكرازة بالإنجيل ينبغي أن تعم العالم (١٤:٢٤). ومتى هو الذي يذكر أمر يسوع إلى التلاميذ، أن يذهبوا إلى العالم أجمع، ليكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها (١٩:٢٨). لقد كان متى يهتم باليهود فعلاً ، لكنه كان يرى أنه في مستقبل الأيام، ستجتمع جميع الشعوب معًا في ملكوت الله.

وتظهر يهودية متى بجلاء، في نظرته إلى الناموس، فقد ذكر قول يسوع ، إنه لم يأت لينقض الناموس بل ليكمله، وإن أصغر نقطة في الناموس لن تزول، ولا ينبغي أن نعلم الناس أن يكسروا الناموس ، بل ان بر المسيحي ــ ينبغي أن يزيد عن بر الكتبة والفريسيين (١٧:٥ــ٢٠)ــ إن كاتب بشارة متى يعرف الناموس ويحبه، ويجد له مكانا في النظام المسيحي.

إلا أن متى، على الرغم من ذكره لسلطة الكتبة والفريسيين، بدليل قوله « على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه» (٢:١٣،٣)، لكنه يذكر الأقوال العنيفة ضدهم. فقد ذكر وصف يوحنا المعمدان لهم أنهم أولاد الأفاعي (١٧:٣ــ١٢)، وتذمرهم على يسوع أنه يأكل مع العشارين والخطاة (١١:٩)، وأنهم ينسبون قوة يسوع إلى عمل الشيطان (٢٤:١٢) ، ومؤامراتهم لإهلاكه (١٤:١٢) ، وتحذير التلاميذ من خمير الكتبة والفريسيين (١٢:١٦)، ثم يذكر توبيخ يسوع لهم أنهم غرس سيقلع (١٣:١٥)، وأنهم لا يميزون علامات الأزمنة (٣:١٦)، وأنهم قتلة الأنبياء (٣١:٢١). ولا يوجد أصحاح في العهد الجديد كله، يحتوى على دينونة للكتبة والفريسيين، مثل الأصحاح الثالث والعسرين من بشارة متى ــ ودينونة متى لهم، لا تنصب على ما يعلمونه، بل على أشخاصهم. فهو يدينهم بأنهم يقولون ولا يعملون.

ثانياً ــ بشارة متى تهتم بموضوع الكنيسة ورسالتها:

فهي البشارة الوحيدة بين الثلاث بشائر الأولى، التي تذكر لفظ الكنيسة ، وهي التي تذكر قول المسيح لبطرس بعد اعترافه العظيم في قيصرية فيلبس متى١٣:١٦ــ٢٣. «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» ، بينما لا يذكر مرقس ولوقا هذا التعبير (مر٢٧:٨ــ٣٢)، (لو١٨:٩ــ٢٢) وهو وحده الذي يذكر ضرورة تسوية الخلافات بواسطة الكنيسة (١٧:١٨) «وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة».

ويبدو أنه في وقت كتابة بشارة متى، كانت الكنيسة قد اتسعت وانتظمت، بكيفية جعلت متى يذكر هذه العبارات.

ثالثا ــ بشارة متى تهتم بالأيام الأخيرة والدينونة:

لذلك نراه يذكر ما تحدث به المسيح عن مجيئه الثاني وعن نهاية العالم وعن الدينونة . والأصحاح الرابع والعشرين من هذه البشارة، يتحدث بإسهاب عن خطاب المسيح في هذا الموضوع ــ كما أن بشارة متى هي البشارة الوحيدة التي تذكر مثل الوزنات (٢٥:١٤ــ٣٠)، ومثل العذاري الحكيمات والجاهلات (٢٥:١ــ١٣)، ومثل الخراف والجداء (٢٥:٣١ــ٤٦).

وكل هذه الأمثال تتصل بالأيام الأخيرة والدينونة.

رابعاً ــ بشارة متى هي بشارة التعليم:

قد رأينا كيف أن متى جمع أول مجموعة من تعاليم يسوع، وقد كان متى معروفا بالتنظيم والتنسيق، ومن عاداته أن يجمع في مكان واحد، كل ما يستطيع جمعه من تعليم يسوع عن موضوع معين. ولذلك نرى في هذه البشارة مجموعات من التعليم، عن ملكوت الله، مرتبة ومنسقة، في خمسة أقسام:

(١) دستور الملكوت (العظة على الجبل)	ص٥ــ٧
(٢) واجبات قادة الملكوت	ص١٠
(٣) أمثال الملكوت	ص١٣
(٤) العظمة والغفران في الملكوت	ص١٨
(٥) مجيء رب الملكوت	ص٢٤،٢٥

إلا أن متى قام بشيء أكثر من مجرد الجمع والتنظيم، فهو قد رتب التعاليم بكيفية تسهل على الناس حفظها غيباً، وينبغي ألا يغيب عن بالنا، أن متى كان يكتب في وقت لم تكن الطباعة قد عرفت، وكانت الكتب قليلة ومتناثرة في أماكن متباعدة، لأنها كانت تكتب بخط اليد ــ في مثل هذا الزمن، كان يتعين على من يريد أن يعرف شيئاً عن قصة يسوع وتعاليمه، أن يودع هذا في ذاكرته .. لذلك كان متى ، لتسهيل مهمة الاستظهار والحفظ في الذاكرة ، يرتب الأشياء ثلاثيات وسباعيات . فهناك ثلاث رسائل ليوسف ، وثلاث مرات أنكر فيها بطرس يسوع ، وثلاث أسئلة قدمها بيلاطس .

وهو يذكر سبعة أمثال عن الملكوت في ص١٣، وسبع ويلات للكتبة والفريسيين في ص٢٣ــ وسلسلة نسب يسوع التي يبدأ بها البشارة خير مثل على هذا، فإن القصد من هذه السلسلة إثبات أن يسوع من نسل داود. وفي اللغة العبرانية لا توجد أرقام، بل تستخدم حروف الأبجدية للدلالة على الأرقام ــ والحروف العبرانية لاسم داود هي (دود) باللغة العبرية.

وإذا عرفنا أن ترتيب الحروف العبرية هي ا ب جـ د هـ و ز، ووضعنا تحت كل حرف رقماً، كان حرف (د) يساوى رقم ٤ وحرف (و) يساوى رقم ٦ ومجموع حروف كلمة داود بالعبرية د+و+د= ٤+٦+٤=١٤. وسلسلة النسب تحتوي على ثلاث مجموعات من الأسماء في كل واحدة

منها نجد ١٤ اسماً.

هكذا نرى متى، يعاون الناس على حفظ الإنجيل، فإنجيل متى هو إنجيل المعلم.

خامساً ــ الفكرة المسيطرة في بشارة متى هي فكرة يسوع الملك:

إنه يكتب ليثبت أن يسوع ملك، ففي سلسلة النسب يبرهن على أنه من نسل الملك داود (١:١ــ١٧) واللقب «إبن داود» يتكرر في هذه البشارة أكثر من أي بشارة أخرى (١٥:٢٢و ٢١:٩، ٢١:١٥) والمجوس جاءوا يطلبون أن يروا المولود ملك اليهود (٢:٢)، والدخول الظافر موصوف بكيفية تعبر عن يسوع الملك (٢١:١ــ١١)، وأمام بيلاطس يقبل يسوع لقب الملك (٢٧:١١). وحتى على الصليب وضع عنوانه «ملك اليهود» فوق رأسه، وإن كان هذا على سبيل الإستهزاء (٢٧:٣٧).

وفي العظة على الجبل يذكر لنا متى أن يسوع كان يقتبس من الناموس، ثم يقول بلهجة ملكية «وأما أنا فأقول لكم» (٥:٢١،٢٧،٣٤،٣٨،٤٣). وقد قال يسوع صراحة «دفع إليَّ كل سلطان» (٢٨:١٨).

إن صورة يسوع كما يصورها متى هي صورة من ولد ليكون ملكاً، فيسوع يتمشى خلال بشارة متى في رداء ملكي، واهتم متى أن يبين للناس ربوبية يسوع المسيح، وليعلن لهم أن له الملك والقوة والمجد.

التفسير

الأصحاح الأول

سلسلة نسب الملك

(متى ١:١ — ١٧)

قد يبدو غريباً أن يبدأ متى بشارته بهذه الكيفية التي يذكر فيها مجموعة طويلة من الأنساب والأسماء، لكن إذا بدا هذا غريباً للإنسان المعاصر، لكنه كان أمراً طبيعياً وشائقاً وضرورياً بالنسبة لليهود، لأنهم كانوا يهتمون بنسبة الفرد ونقاوة أصوله.

وقد كان اليهود جد شغوفين بدراسة الأنساب، ويطلق متى على هذه المجموعة الطويلة من الأسماء لقب «كتاب ميلاد يسوع المسيح»، وقد كان هذا التعبير مألوفاً عند اليهود، لأنه يشير إلى سجل أجداد الفرد، مع تعليقات طفيفة إذا لزمت. ونحن نجد في العهد القديم ما يسمى «بكتاب المواليد» لبعض الرجال المشهورين مثل آدم (تكوين٥) ونوح (تكوين ١٠) وسام (تكوين١١). وعندما كتب يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير تاريخ حياته الشخصية، ابتدأه بذكر سلسلة نسبه، التي وجدها في السجلات العامة، وكان السبب في اهتمامه بهذا الأمر، حرص اليهود على نقاوة الأصل. وإذا كان في أجداد اليهودي أصل واحد غريب عن اليهودية، تعرض هذا الشخص لأن يفقد يهوديته، وعضويته في شعب الله. وكان على الكاهن أن يثبت أنه ينتسب إلى هرون . وإذا تزوج من إمرأة، كان عليه أن يحتفظ ببيان سلسلة نسبها إلى خمسة أجيال سابقة. وعندما أراد أن يعيد تنظيم عبادة الله بعد الرجوع من السبي، كان أهم عمل قام به هو تحقيق أنساب الناس. ويذكر سفر عزرا أن «من بني الكهنة بنو حبايا بنو هقوص بنو برزلاى الذي أخذ إمرأة من بنات برزلاى الجلعادي وتسمى باسمهم. هؤلاء فتشوا على كتابة أنسابهم فلم توجد فرذلوا من الكهنوت» (عزرا٢١:٦١،٦٢).

وكانت سجلات الأنساب تحفظ بواسطة السنهدريم. وكان اليهود الذين من أصل نقي يحتقرون هيرودس الكبير، لأنه كان نصف أدومي، ونستطيع أن ندرك أهمية هذا الأمر في نظر هيرودس، عندما نعرف أنه أتلف السجلات الرسمية، حتى أن أحداً لا يستطيع أن يثبت أنه أنقى منه أصلاً. وإذا كان هذا التقديم يبدو في نظرنا قليل الأهمية، إلا أننا نستطيع أن نقدر مقدار تأثر اليهود، بأن نسب يسوع يرجع إلى إبراهيم.

وكما ذكرنا سابقاً إن ترتيب السلسلة مكتوب بكيفية، تجعل من السهل على الناس استظهارها، لأن الطباعة لم تكن معروفة في ذلك الوقت، ولم يكن يسيراً على كثيرين أن تكون لديهم نسخ مكتوبة باليد. ولم تكن في اللغة العبرية أرقام للأعداد ، لذلك كانوا يستخدمون حروف الأبجدية للدلالة على الأرقام. فالألف تشير إلى رقم ١ والباء إلى رقم ٢ والجيم إلى رقم ٣ والدال إلى رقم ٤.

وكلمة (داود) العبرية مكونة من ثلاث حروف توضع عليها الحركات وهي الدال، والواو، والدال. ورقم الدال هو ٤ ورقم الواو هو ٦، لذلك فحروف كلمة داود في العبرية هي ٤+٦+٤=١٤.

ولكي يسهل حفظ الفكرة قسم الكاتب سلسلة نسب المسيح إلى ثلاثة أقسام كل منها ١٤ جيلاً . ومن دراسة هذه السلسلة ، نستقي بعض الدروس الروحية :

أولاً ــ دلالة التقسيم إلى ثلاث مراحل:

قسم متى سلسلة نسب المسيح إلى ثلاث مراحل: الأولى من إبراهيم إلى داود ــ والثانية من داود إلى سبي بابل ــ والثالثة من سبي بابل إلى المسيح.

ونحن نعلم أن داود هو الملك الذي يعتبر عصره العصر الذهبي في تاريخ اليهود، وأن السبى هو عصر الإنحطاط والمرارة والهزيمة لتاريخ اليهود.

وكأنما أراد متى أن يبين في الثلاث مراحل ثلاث حقائق:

١ــ أن الإنسان ولد ليكون عظيما. فقد خلقه الله على صورته كشبهه. لقد أراد الله للإنسان أن يكون مجيداً، وقد ظهرت بعض أمجاد الأمة اليهودية في الفترة بين إبراهيم وداود.

٢ــ أن الإنسان فقد عظمته وأمجاده ــ وتمثل هذه الفترة من داود إلى السبي . فعندما ترك الناس عبادة الله، ذاقوا مرارة الهزيمة.

٣ــ أن المسيح جاء ليستعيد الإنسان مجده ــ فإن الله لم يترك الناس يذوقون مرارة الأسر. لكنه رتب لهم مجيء إبن داود الذي يخلص شعبه من خطاياهم. لقد كان شعب اليهود في وسط آلامهم ومحنتهم، يتطلعون إلى عصر داود الذهبي، وينتظرون مجيء إبن داود، وهكذا جاء المسيح تحقيقاً لآمالهم وانتظاراتهم.

ثانياً ــ تحقيق أحلام الناس:

هذا الجزء يهتم بتوضيح أمرين عن يسوع:

١ــ الأمر الأول أنه إبن داود، ولهذا ذكرت هذه السلسلة. والعهد الجديد يذكر هذه الحقيقة مرات كثيرة، فيذكرها بطرس في أول عظة سجلت في الكنيسة المسيحية (أعمال٢:٢٩ــ٣٦).

ويذكر بولس أن يسوع المسيح من نسل داود حسب الجسد (رومية١:٣). وكاتب الرسائل الرعوية يحث على أن يذكروا أن يسوع المسيح، من نسل داود، قد أقيم من الأموات (٢تيموثاوس٢:٨) وكاتب سفر الرؤيا يسمع المسيح المقام يقول: «أنا أصل وذرية داود» (رؤيا٢٢:١٦).

ويسوع في قصة الإنجيل يخاطب بهذا اللقب مراراً. فبعد شفاء الأعمى الأخرس قالت الجموع: «ألعل هذا هو إبن داود» (متى١٢:٢٣). والمرأة الكنعانية التي طلبت من يسوع أن يشفى إبنتها، خاطبته بالقول «ياابن داود» (متى١٥:٢٢). والأعمى نادى يسوع بالقول ياابن داود (متى٢٠:٣٠،٣١) والجموع حيّت يسوع وهو داخل إلى أورشليم بإعتباره ابن داود (متى٢١:٩،١٥).

ولهذا الأمر دلالة هامة، فإن عامة الشعب ، والجماهير، هم الذين خاطبوا يسوع بالقول إنه «ابن داود» لقد كان اليهود شعباً منتظراً، و لم ينسوا أبداً أنهم شعب الله المختار. ومع أن تاريخهم كان سلسلة طويلة من المآسي، ومع أنهم في ذلك الوقت كانوا مستعبدين من الرومان، لكنهم كانوا دائماً ينتظرون المواعيد الإلهية عن مصيرهم. وقد كانت آمال عامة الشعب أنه في أحد الأيام سيأتي إلى العالم سليل من نسل داود، ليقودهم إلى المجد الذي اعتبروه م. وقد كان مجيء يسوع تحقيقاً لأحلام الناس. وإن كان الناس لم يفهموا هذه الحقيقة بالفعل، لأنهم كانوا يرون تحقيق أحلامهم في القوة والثروة والرخاء المادي، والمطامع السياسية التي كانوا يفكرون فيها، لكن الحقيقة أن أحلام السلام والجمال والرضى والعظمة ، لا يمكن أن تتحقق إلا في شخص يسوع المسيح وفي حياته التي عاشها.

٢ ــ وهذا الجزء ينبر أيضاً على الحقيقة أن مجيء يسوع هو تحقيق النبوات. ففيه تحققت رسالة الأنبياء. ونحن في هذه الأيام تتجه نحو قلة الإهتمام بالنبوات، ولا نشغل بالنا كثيراً بدراسة أقوال العهد القديم التي تحققت في العهد الجديد. لكن النبوات في الواقع تحتوي على حقيقة أبدية عظيمة، وهي أن لهذا العالم خطة ونظاماً، وأن في العالم قصداً، وأن الله يدبر خطة وأحداثاً لتقع في هذا العالم.

إن هذا العالم لا يتجه إلى المجهول، ولكنه يسير وفق خطة إلهية وضعها الله لهدف وقصد محدد.

ثالثاً ــ دلالة بعض الأسماء الواردة في سلسلة النسب:

من الغريب أن نرى أسماء بعض النساء في سلسلة النسب، مع أن اليهود كانوا يعتبرون المرأة من ممتلكات الرجل، وفي صلاة اليهودي الصباحية كان يشكر الله على أنه ليس أمميا أو عبداً أو إمرأة.

والأغرب من ذلك أن أسماء النساء اللواتي ذكرهن متى في سلسلة النسب، أسماء لا تشرف كثيراً.

فراحاب: هي زانية أريحا المشهورة (يشوع٢:١ــ٧).

وراعوث: موآبية وليست يهودية، وتقول الشريعة «لا يدخل عموني ولا موآبي في جماعة الرب. حتى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد» (تثنية٢٣:٣).

وثامار: لها قصة مخزية دبرتها بنفسها في (تكوين ص٣٨).

وبثشبع: أم سليمان، هي المرأة التي اختطفها داود من زوجها أوريا، بطريقة مخجلة وقاسية (٢صموئيل ١١،١٢).

ما الذي دعا متى أن يختار هذه الأسماء بالذات، ليجعلها في سلسلة نسب المسيح مع ما فيها من خزى وعار؟

إن في ذلك قصداً حكيماً سامياً، فقد أراد الكاتب أن تكون في هذه السلسلة تعبيراً عن بشارة الله في يسوع المسيح.

ففي المسيح:

(١) تحطمت الحواجز بين اليهود والأمم [١] ـــ فراحاب وراعوث وهما أمميتان وجدتا في سلسلة نسب المسيح. في المسيح ليس يهودي ولا يوناني ـــ إننا نرى في بداية الإنجيل، عمومية الإنجيل وشمول محبة الله للجميع.

(٢) وتحطمت الحواجز بين المرأة والرجل. فلم يكن المعتاد ذكر أسماء النساء في سلسلة النسب، لكنها وجدت في سلسلة نسب المسيح ـــ لقد زال روح الإحتقار القديم، وأمام الله يقف الرجال والنساء متساوين، لهم مكانهم الخاص في مقاصد الله.

(٣) وتحطمت الحواجز بين القديسين والخطاة، فقد فتح الباب لدخول الخطاة في طريق الدعوة الإلهية المقدسة، بذاك الذي قال: « لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة » (متى٩:١٣).

هنا نرى منذ البداية محبة الله تعانق الجميع، بل إن الله قد يجد من يخدمونه ممن كان قادة الدين الرسميون يقشعرون من مجرد التفكير فيهم.

مجيء المخلص إلى العالم

(متى ١:١٨ ـــ ٢٥)

يوسف ومريم:

يذكر الكتاب أن مريم كانت **مخطوبة** ليوسف. وفي الوقت عينه يذكر أنه أراد «تخليتها» أي طلاقها سراً.. وفي رسالة الملاك له في الحلم قال له «لا تخف أن تأخذ مريم **إمرأتك**».. ويمكن أن تتضح لنا هذه الأمور إذا عرفنا أن الزواج اليهودي كان يتم على ثلاث مراحل:

(١) المرحلة الأولى هي أن **يهب** الشاب والفتاة أحدهما للآخر، وكان هذا يتم عادة في سن الطفولة بواسطة الوالدين، فقد اعتبر اليهود أن الزواج أخطر من أن يترك لاختيار الشبان بأنفسهم، وعلى الآباء أن يرتبوا هذا الأمر الخطير.

(٢) المرحلة الثانية هي مرحلة **الخطبة** . وهي تأكيد للوعد الذي تم منذ الطفولة، وكانت الخطبة تتم عندما يكبر الخطيبان وتتم برضاهما، وهي ملزمة بالزواج، ولا يمكن فسخها إلا بالطلاق. وقد كانت تستمر عادة مدة سنة، وكانت الفتاة تدعى إمرأة الرجل المخطوبة له.

(٣) الخطوة الأخيرة هي **الزواج**، الذي يتم عادة بعد سنة من الخطبة، عندما تفارق المرأة بيت أبيها لتسكن مع زوجها.

كانت مريم مخطوبة ليوسف في المرحلة التي تسبق الزواج مباشرة، عندما وجدت حبلى من الروح القدس. وعندما أراد يوسف تخليتها سراً، ظهر له الملاك، ليبين له أنها حبلى من الروح القدس، وأنها ستلد إبناً وستدعو اسمه يسوع. وكلمة يسوع هي الكلمة العبرية «يشوع» ومعناها «الله خلاص».

---

(١) الأمم لفظة أطلقها اليهود على غيرهم، كما أطلق الرومان لفظة برابرة على غير الرومان، وكما أطلق العرب لفظة «أعاجم» على غير أبناء العروبة.

واليهود كانوا ينتظرون فداء الرب وخلاصه. وقديماً قال المرنم «وهو يفدى إسرائيل من كل آثامه» مزمور ١٣٠: ٨.

الميلاد العذراوي (*)

يردد متى البشير هذه الحقيقة في هذا الجزء في عدد ١٨. «وجدت حبلى من الروح القدس» وفي عدد ٢٠ «لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس».

هذا يؤكد حقيقة الميلاد العذراوي الذي حاول البعض إنكاره، حتى في أثناء حياة السيد المسيح نفسه على الأرض، مثل جماعة الفريسيين، ولا تحتاج هذه الحقيقة إلى إثبات، ولكن تأكيدها يظهر مما يأتي:

(١) التعبيرات الواضحة التي ذكرها الإنجيل في متى ١: ١٨، ٢٠، وفي لوقا ١: ٣٤، ٣٥ «فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا» فأجاب الملاك وقال لها: «الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى إبن الله».

(٢) إن الميلاد العذراوي تحقيق للنبوة القائلة «هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه عمانوئيل». وكلمة «العذراء» هنا تشير إلى الفتاة التي لم تتزوج.

(٣) شهادة غير المسيحيين لهذه الحقيقة كشهادة القرآن مثلاً، ومع أن القرآن يشكك الناس في مساواة المسيح بالله، لكنه لا ينكر حقيقة الميلاد العذراوي.

(٤) إن إنكار هذه الحقيقة تترتب عليه نتائج، تتنافى مع قداسة المسيح، وقداسة العذراء المباركة. وهذا لا يمكن أن يقبله العقل المؤمن بطهارة المسيح وسمو رسالته.

(٥) إن الميلاد العذراوى حقيقة هامة في التفكير اللاهوتى، فقد جاء المسيح في شبه جسد الخطية، لكنه لم يولد من زرع بشر. وبهذا لا يمكن أن ينطبق عليه ما ينطبق على سائر البشر، من حيث أنهم بالإثم صوروا وبالخطية حبلت بهم أمهاتهم.

« ... من الروح القدس»:

إلا أننا عندما نفكر في مولد المسيح من الروح القدس، لا يجب أن يقتصر تفكيرنا على مجرد الميلاد العذراوى، بل ينبغى أن نفكر في دلالة هذا التعبير «من الروح القدس» وانطباقه على رسالة المسيح وشخصيته، في ضوء الفهم اليهودي لمعنى «الروح القدس».

فالفكرة اليهودية عن الروح القدس وعمله، يمكن شرحها فيما يلي:

١ــ الروح القدس هو الذي يقدم **الحق الإلهي للبشر**، فهو الذي يعطى الأنبياء رسائلهم، وهو الذي يعلم رجال الله ماذا يفعلون ــ وعلى ذلك يكون المسيح هو الشخص الوحيد، الذي يقدم الحق الإلهي للبشر، بمعنى أنه الشخص الوحيد الذي يظهر لنا شخصية الله، والذي فيه نرى الحالة

(*) هذا الجزء عن الميلاد العذراوى إضافة من المترجم إلى النص الأصلي للشرح.

التي يريدنا الله فيها. قبل أن يجيء المسيح، كانت فكرة الناس عن الله باهتة تحوطها الظلال، أما يسوع فقد استطاع أن يقول «من رآني فقد رأى الآب» (يوحنا١٤:٩) في يسوع نرى محبة الله وشفقته، ورحمته بكيفية لم تظهر من قبل للعالم.

٢ــ اعتقد اليهود أن الروح القدس لا يقدم حق الله للبشر فحسب، بل إنه أيضاً **يعين البشر على تمييز الحق عندما يرونه أو يسمعونه** فالمسيح إذاً يفتح عيون البشر للحق، لأن عيون الناس أعميت بجهلهم، وقادهم تعصبهم إلى الضلال، وعقولهم وعيونهم أظلمت بخطاياهم وشهواتهم ــ ويسوع يفتح عيوننا حتى نستطيع أن نرى الحق ..إن الآفاق التي يفتحها المسيح أمامنا، تجعلنا ننظر إلى الأشياء بكيفية مختلفة، عن نظرتنا لها قبل أن يسكن المسيح في قلوبنا.

٣ــ وقد اعتقد اليهود بارتباط عمل الروح القدس **بعملية الخلق** فإنه عن طريق روحه قد مارس الله عمله كخالق ــ ففي البدء كان روح الله يرف على وجه المياه، فصارت الأرض الخربة الخالية، عالماً جميلاً منسقاً (تكوين١:٢). وقد قال المرنم «بكلمة الرب صنعت السموات وبنسمة فيه كل جنودها» (مزمور٣٣:٦) ، وكلمة (نسمة) (وريح) (وروح) في اللغتين العبرية واليونانية كلمة واحدة.

«ترسل روحك فتخلق. وتجدد وجه الأرض» (مزمو١٠٤:٣٠).
«روح الله صنعني ونسمة القدير أحيتني» (أيوب٣٣:٤).

فالروح هو خالق العالم ومعطي الحياة ــ ففي يسوع إذاً دخلت إلى العالم قوة الله للإحياء والخلق ــ في يسوع دخلت إلى العالم قوة الله نفسه .. القوة التي جعلت من الموت حياة ــ فنحن لا نكون أحياء فعلاً إلا إذا دخل يسوع حياتنا.

٤ــ كذلك ربط اليهود بعمل الروح، ليس عمل الخلق فحسب، **بل إعادة الحياة** . وفي سفر حزقيال يرسم لنا النبي صورة الوادي المليء بالعظام اليابسة ، ويصف لنا كيف دبت الحياة في هذه العظام اليابسة وهو يسمع قول الله «هكذا قال السيد الرب لهذه العظام. هأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون ... وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعلمون إني أنا الرب» (حزقيال٣٧:٥،٦).

هذه صورة لعمل المسيح المولود من الروح القدس. عندما يكون الناس أمواتاً بالخطية ، في موت العقل، والنفس، والقلب.. إن روح الله هو الذي يقدر أن يعيد الحياة ثانية إلى هذه القوى في الإنسان، وقد جاء المسيح إلى العالم بقوة هذا الروح، ليعيد صناعة وخلق وحياة هذا العالم.

إن متى إذ يذكر ميلاد المسيح من الروح القدس، لا يقصد أن يكتفي فقط بفكرة الميلاد المعجزي العذراوي، لكنه يريد أيضاً أن يوجه أفكارنا إلى يسوع، الذي يعلن الحق الإلهي للبشر، ويبين لهم من هو الله وماذا يريد الله من البشر، ويسوع يعطي لعيون البشر القدرة على تمييز هذا الحق الإلهي ــ يسوع هو القوة الخالقة بين البشر، وهو القوة التي تعيد الحياة إلى جميع الذين فقدوها ــ لأنه مولود من الروح القدس.

الأصحاح الثاني

مكان ميلاد المسيح

(متى ٢: ١ و٢)

ولد يسوع في بيت لحم، وهي قرية صغيرة تبعد نحو ستة أميال جنوب أورشليم، وقد كانت تدعى قديماً «إفراتة» ومعنى كلمة «بيت لحم» = بيت الخبز. والسر في هذه التسمية أنها كانت وسط بقعة خصيبة، على خلاف معظم أراضي اليهودية الجبلية — وقد كانت تقع على هضبة رمادية من الحجر الجيري، ترتفع نحو ٢٥٠٠ قدم فوق سطح البحر. وعلى جانبي الهضبة ترتفع قمتان، ليكون منظرها كمسرح وسط الجبال.

وبيت لحم بلدة تاريخية، فهناك دفن يعقوب راحيل، وأقام هناك عموداً على قبرها (تكوين٤٨: ٧، ٣٥: ٢٠). وهناك عاشت راعوث عندما تزوجت من بوعز (راعوث٢: ١). ومن بيت لحم كانت راعوث تستطيع أن ترى بلاد موآب، عبر وادي الأردن. وفوق الكل، فإن بيت لحم كانت مدينة داود (١صموئيل١٦: ١، ١٧: ١٢، ٢٠: ٦)، والتي اشتاق داود أن يشرب ماء من بئرها عندما كان هارباً طريداً على التلال (٢صموئيل٢٣: ١٤، ١٥) — وفيما بعد حصن رحبعام بيت لحم (٢أخبار١١: ٦) — ولكن البلدة كانت دائماً ترتبط في أذهان اليهود باسم داود، وكانوا ينتظرون منها مخلصاً يرسله الله لشعبه، حسب وعده في نبوات ميخا «وأما أنت يابيت لحم أفراته وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا، فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل» (ميخا٥: ٣).

وقد تعود الناس أن يصوروا مكان الميلاد، أنه مذود في فناء بجوار بيت صغير. إلا أن هذا التصوير قد يكون غير صحيح تماماً. فإن يوستينوس الشهيد، الذي عاش حوالي عام ١٠٥م، والذي كان موطنه قرب بيت لحم، يذكر في كتاباته أن يسوع ولد في كهف أو مغارة في أحد بيوت بيت لحم التي على الجبل. وقد يكون كلامه صحيحاً، لأن البيوت في فلسطين تقام على سفوح التلال والجبال، وخلف البيت يمكن أن تستخدم المغارات أو الكهوف مكاناً لتربية الحيوانات.

وفي بيت لحم الآن كهف بنيت فوقه كنيسة الميلاد الرومانية. وقد اعتبره الكثيرون زمناً طويلاً أنه مكان ميلاد يسوع، وقد حدث في أيام الامبراطور الروماني (هارديان)، أنه حاول أن يزيل هذه الذكرى فبنى فوق ذلك المكان هيكلاً وثنياً للإله (أدونيس)، لكن عندما صارت الدولة الرومانية مسيحية في بداية القرن الرابع، بنى أول إمبراطور مسيحي، وهو قسطنطين، كنيسة عظيمة هناك.

ويقول زوار تلك الكنيسة أن بابها منخفض، حتى أنه لا يمكن دخولها إلا زحفاً على الركب. وتحت مذبح تلك الكنيسة كهف صغير يضيئه ٣٥ مصباحاً فضياً، وفي أرضيته نجم، وحوله كتابة محفورة باللاتينية «هنا ولد يسوع المسيح من مريم العذراء».

عندما جاء رب المجد إلى أرضنا، ولد في كهف مع البهائم، وسواء أكان هذا المكان هو مكان

الميلاد الفعلي أم لا، فإننا لن نستطيع أن نصل إلى يقين تام، ولكنه من الجميل أن يكون بناء الكنيسة بهذه الكيفية، بحيث لا يستطيع إنسان أن يقترب إلى مكان ميلاد الطفل يسوع، إلا راكعاً على ركبتيه في خشوع واتضاع.

ولاء الشرق

(متى ٢: ١ و٢) « تابع »

عندما ولد يسوع في بيت لحم جاء حكماء من الشرق، ليقدموا فروض الولاء والطاعة له. ويسمى هؤلاء الرجال «بالمجوس». وهي كلمة يصعب ترجمتها. ويذكر هيرودوتس المؤرخ المشهور، أنهم كانوا في الأصل إحدى قبائل مادي، وهم جزء من الإمبراطورية الفارسية، وحاولوا الثورة على الإمبراطورية للتخلص من النفوذ الفارسي، وفرض السلطان «المادي». ولكن محاولتهم فشلت . ومن ذلك الوقت امتنعوا عن النشاط والطموح السياسي. وصاروا قبيلة من الكهنة، وأصبحوا في الدولة الفارسية، كما كان اللاويون في دولة اليهود، وكانوا يعلمون ملوك الفرس، ولم تكن تقدم ذبيحة في بلاد الفرس، دون حضور أحد المجوس، وهكذا صاروا رجال حكمة وقداسة.

وقد برع المجوس في الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية، كما اشتهروا بالإنباء بالمستقبل وتفسير الأحلام — وفيما بعد انحط استخدام لفظ «المجوس» ، فصار يدل على قراءة الطالع والسحر والرجم بالغيب. ولكن في الأصل، كان هؤلاء المجوس حكماء وأتقياء يبحثون عن الحقيقة.

وفي قديم الزمان كان الناس جميعاً يؤمنون بالفلك وعلاقته بحياة الإنسان، فاعتقدوا أنهم يستطيعون أن يعرفوا المستقبل من النجوم. وأن مصير الإنسان ومستقبله يحدده نوع النجم الذي يولد الإنسان في برجه. وكان لهم عذرهم في هذا الإعتقاد، فإن النجوم تدور دوراتها بنظام، فهى أكثر الأشياء انتظاماً في عالمنا، وهي تمثل التنسيق الطبيعي في الكون — فإذا حدث أن أضاء نجم لامع على غير انتظار، كان هذا دليلاً في نظرهم، على أن شيئاً غير عادي قد حدث.

ونحن لا نعلم ما هو النجم اللامع المضيء الذى رآه أولئك المجوس. ويذكر المؤرخون أن بعض النجوم والشهب ظهرت بكيفية غير عادية عام ١١ق.م، ٧ق.م. وفي عام ٥—٢ق.م حدثت ظاهرة فلكية غير عادية، ففي تلك السنوات، وفي أول يوم من الشهر المصرى (ميزوري) ظهر النجم سيريوس Sirius في مشرق الشمس، وأضاء بلمعان غير عادي — وإذا علمنا أن كلمة «ميزوري» معناها «مولد أمير» نستطيع أن ندرك كيف فكر هؤلاء المجوس أن ملكاً عظيماً قد ولد.

وقد يبدو غريباً أن يشد مثل هؤلاء الرجال الرحال من المشرق، ليفتشوا عن ملك وليد، ولكن العجب يزول إذا علمنا أنه في وقت مولد يسوع، كان العالم كله في تطلع وشوق إلى مخلص ملك. وقد عرف المؤرخون الرومان هذه الحقيقة، وقد كتب كثيرون يؤيدونها، ومنهم سوتيونيوس Soetonius في كتابه حياة فسباسيان، وتاسيتوس، ويوسيفوس.

إن زيارة المجوس للمسيح في مهده، ليست أسطورة جميلة، لكنها حقيقة من السهل حدوثها في

ذلك العهد القديم. فقد جاء يسوع إلى هذا العالم، والعالم يتطلع إلى أمل ينتظره، وكان الناس ينتظرون الله، والشوق إليه كان يملأ قلوب البشر، وقد تبين للناس أنهم لن يستطيعوا أن يؤسسوا عصرهم الذهبي بدون الله ... وعندما أتى يسوع إلى العالم، تجمعت أطراف الأرض عند مهده، فكانت هذه هي العلامة الأولى، لسيادة يسوع على العالم.

الملك الماكر

(متى ٢:٣ — ٩)

عندما وصلت إلى مسامع هيرودس الأخبار عن المجوس الذين جاءوا من الشرق يبحثون عن طفل، ولد ليكون ملكاً على اليهود اضطرب. وكان هذا طبيعياً أن يضطرب أي ملك، يسمع أن طفلاً قد ولد ليحتل عرشه. لكن اضطراب هيرودس كان مضاعفاً. ذلك لأنه كان نصف يهودي ونصف أدومي، وكان الدم الأدومي يجري في عروقه. وقد أظهر مقدرته ونفعه للرومان في الحروب، خاصة الحروب الأهلية في فلسطين . لذلك وثقوا به ، وعُين حاكماً سنة ٤٧ ق.م. وفي عام ٤٠ق.م. نال لقب «ملك». وكان يشتهي السلطة زمناً طويلاً، وقد دعي هيرودس الكبير. ولاعتبارات كثيرة كان يستحق هذا اللقب، فقد كان الحاكم الوحيد في فلسطين، الذي استطاع أن يحفظ الأمن والسلام في تلك البلاد المضطربة. وكان صاحب مشروعات عمرانية كبيرة، فقد بني الهيكل في أورشليم. وكان يمكن أن يكون كريماً إذ خفف الضرائب عن الشعب في أوقات الأزمات، وفي وقت المجاعة عام ٢٥ ق.م. حول طبقه الذهبى إلى سبيكة باعها ليشترى قمحاً، لينقذ الشعب من الموت جوعاً.

لكن هيرودس كان يفتقر إلى الإتزان في شخصيته، فقد كان كثير الهواجس والشكوك. وكانت هذه هي نقطة الضعف فيه التي أخذت تتزايد إلى حد بشع لا يحتمل، كلما تقدم به العمر. وكان إذا داخله شك في أي فرد ينافسه في سلطانه، أزاله من أمامه، أو قتله بلا تردد. وقد قتل لهذا السبب زوجته مريام، وأمها الكسندرا، كما قتل ابنه الأكبر انتيباتر ، وإبنين آخرين هما الكسندر وأرستبولس. وقد قال عنه أوغسطس قيصر «خير أن تكون خنزيراً في حظيرة هيرودس من أن تكون إبناً في قصره».

ولعلنا نتبين صورة من وحشية هذا الرجل، وطبيعته القاسية المجنونة، من الكيفية التي رتب بها الأمور في حالة موته. فعندما بلغ سن السبعين، وعرف أن أيامه قد قاربت على الانتهاء، اعتكف في مدينة أريحا الجميلة، وأمر بالقبض على جماعة من أشراف أورشليم، وحبسهم بتهم ملفقة. ثم أصدر أمراً أن يقتل هؤلاء السجناء في اللحظة التي يموت هو فيها. وقد علل هذا الإجراء، بأنه يعلم أن أحداً لن يبكيه عند موته، لذلك فقد دبر هذا الترتيب ليتأكد أن دموعاً ستذرف على أي حال عندما يموت.

نستطيع الآن أن ندرك ما يمكن أن يشعر به مثل هذا الرجل، عندما يسمع عن ميلاد طفل ليكون ملكاً. لقد اضطرب هيرودس، واضطربت مدينة أورشليم معه، لأن المدينة كانت تعرف

الخطوات التي يمكن أن يتخذها الملك هيرودس ليهلك الطفل. كانت مدينة أورشليم تعرف هيرودس، وكانت ترتعش خوفاً، وهي تنتظر رد فعل ذلك الخبر عنده.

دعا هيرودس رؤساء الكهنة والكتبة، وكان الكتبة هم فقهاء الكتب المقدسة والشريعة، وكان رؤساء الكهنة جميع الذين كانوا يشغلون وظيفة «رئيس الكهنة». وهذه الوظيفة كانت محصورة في عدد قليل من العائلات الارستقراطية. لذلك دعا هيرودس أرقى طبقات الكهنة وعلماء الفقه، ليسألهم عن المكان الذي تنص الكتب المقدسة أن المسيح سيولد فيه.

وقد اقتبس هؤلاء له الآية الورادة في (ميخا٥:٢)، والتي تفيد بأن مسيح الله سيولد في بيت لحم، فاستدعى هيرودس المجوس، وتحقق منهم زمان النجم، وأوصاهم أن يبحثوا بالتدقيق عن الطفل الوليد، مدعياً أنه يريد أن يذهب ويسجد له، بينما كانت الرغبة الوحيدة التي تتملكه هي قتل الصبي.

ونحن نستطيع أن نرى الناس يتخذون أحد مواقف ثلاثة من يسوع:

١ــ **موقف العداء والكراهية**: ونراه متمثلاً في شخص هيرودس. لقد خشي هيرودس أن الطفل الصغير سيتدخل في حياته، وفي مركزه وسلطانه، ولذلك كانت الرغبة الأولى عنده هي قتله، وكثيرون من الناس يتخذون هذا الموقف العدائي تجاه يسوع، لأنهم يرونه يتدخل في حياتهم. إنهم يريدون أن يعيشوا على هواهم، ويرون يسوع يقف معترضاً طريقهم، لذلك يريدون التخلص منه ــ وهذا شأن كل إنسان يريد أن تكون حياته وفق أهوائه ــ أما المسيحي، فإنه يحيا كما يريده المسيح أن يحيا، لأنه قد كرس حياته له، وأخضع إرادته له.

٢ ــ **موقف عدم المبالاة**: ونراه متمثلاً في رؤساء الكهنة والكتبة. فإنهم ظلوا منشغلين في عبادتهم الطقسية في الهيكل، وفي مناقشاتهم الرسمية الناموسية، ولم يعيروا يسوع التفاتاً. كانوا يقرأون عن المسيا كثيراً والمفروض أنهم كانوا ينتظرونه بشوق، لكن عندما سألهم هيرودس، أجابوه إجابة صحيحة، دون أن تتحرك عواطفهم ولا إرادتهم، ليبحثوا عن ذاك الذي قضوا حياتهم كلها في انتظاره. ويصدق عليهم نداء النبي القديم «أما إليكم ياجميع عابري الطريق..» (مراثي١:١٢).

٣ــ **موقف العبادة والإكرام**:

ونراه متمثلاً في جماعة المجوس. فقد وضعوا عند أقدام يسوع المسيح أثمن هداياهم. ولا بد لأي إنسان يذوق محبة الله في يسوع المسيح، من أن ينحني ساجداً، مبهوتاً بالعجب، مغموراً بالحب، ناطقاً بالتمجيد.

هدايا المسيح

(متى ٢:٩ ــ ١٢)

هكذا وجد المجوس طريقهم إلى بيت لحم. ويصف متى في أسلوب شاعرى جميل قيادة النجم لهم، وهناك في بيت لحم رأوا لمعان النجم وفرحوا فرحاً عظيماً ...

وقد انشغلت الأفكار كثيراً بقصة المجوس، وتعددت الروايات والأساطير بشأنها، فهناك رواية

تقول إن النجم بعد أن أرشد المجوس، سقط في بئر بيت لحم، وما يزال هناك يمكن لأصحاب القلوب النقية أن يروه .. على أننا نرى في أمثال هذه القصص إنشغال الخيال بالرواية الجميلة.

حاول البعض أن يعرفوا عدد المجوس، فمن قائل إنهم كانوا إثني عشر مجوسياً، إلا أن معظم الآراء تقول إنهم ثلاثة، استناداً إلى الأنواع الثلاثة من الهدايا التي قدموها ليسوع، والعهد الجديد لا يذكر لنا عددهم ولا أسماءهم .. لكن الروايات المختلفة تنسب إليهم أسماء وأوصافاً. فهناك رواية أن أسماءهم هي: كاسبار، وملكيور، وبلشاصر ــ وقيل إن ملكيور كان عجوزاً أشيب الشعر، طليق اللحية، وهو الذي قدم هدية الذهب، وكاسبار كان شاباً حليق الذقن، وهو الذي قدم هدية اللبان، وبلشاصر كان قصير القامة، أطلق لحيته حديثاً، وهو الذي قدم هدية المر.

أما الهدايا نفسها، فقد رأى فيها الشراح رموزاً لعمل يسوع ووظيفته:

١ــ فالذهب هو هدية الملك .. وقد ذكر سنيكا أنه في دولة بارثيا اليونانية، لم يكن أحد يتقدم إلى الملك دون هدية، والذهب ملك المعادن، لذلك فهو الهدية المناسبة للملوك. وقد ولد يسوع ليكون ملكاً، لكنه يملك بالحب لا بالقوة، يملك على قلوب الناس، لا من عرش لكن من صليب..إننا لا نقابل يسوع مقابلة الند للند ــ بل نذكر دائماً أنه ملك، نواجهه بالطاعة والخضوع ..فقبل أن نكون أصدقاءه وأحباءه يجب أن نخضع له.

٢ــ واللبان هو هدية الكاهن، فقد كان يستخدم في البخور. ووظيفة الكاهن هي أن يفتح أمام الناس الطريق إلى الله. وكلمة «كاهن» باللاتينية هي Pontife ومعناها «باني القنطرة». فالكاهن هو الذي يبني القنطرة بين الناس والله، وهذا ما فعله يسوع، فقد فتح الطريق للناس، لكي يدخلوا إلى محضر الله.

٣ــ والمر هو هدية لإنسان مصيره الموت، فهو يستخدم لتحنيط أجساد الموتى، وقد جاء يسوع إلى العالم ليموت.

وقد رسم الرسام الشهير هولمان هنت **Holman Hunt** صورة ليسوع، ظهر فيها يسوع صبياً يقف أمام حانوت النجار في الناصرة، والشمس تميل إلى الغروب، وقد وقف يسوع يتطلع إلى الشمس الغاربة، ويمد يديه وإذا بظله يقع على الحائط الخلفي على شكل صليب، ومن بعيد تتطلع مريم إلى هذا المنظر وتجزع، إذ ترى ظل الصليب، وكأنها تحمل في عينيها الخوف من المأساة المقبلة.

لقد جاء يسوع إلى العالم ليموت عن الناس، وليعطي حياته حتى الموت للبشر.[١] .

إن هذه الهدايا: الذهب واللبان والمر، وقد قدمت عند مهد المسيح، أنبأت أنه الملك الحقيقي، ورئيس الكهنة الكامل، ومخلص البشر.

---

(١) هدية المر ترمز إلى أن يسوع هو النبي المتألم، فقد أعلن عن إرادة الله، لا بكلامه فقط، بل بحياته وموته على الصليب.

الهروب إلى مصر

(متى ٢ : ١٣ ــ ١٥)

١ــ كان الناس في الزمان الماضي، يعتقدون أن الله يرسل للناس رسائله، عن طريق الرؤى والأحلام، لذلك فإننا نرى يوسف يحذر من هيرودس عن طريق حلم، ليهرب إلى مصر.

ونحن في الوقت الحاضر، لا نعلق كثيراً على أهمية الأحلام، من هذه الناحية، ونفهم أن الأحلام ليست الوسيلة الصحيحة التي يستخدمها معنا الله لإبلاغ رسائله، ذلك أن لنا في إرشاد الروح القدس خير معين ــ إلا أننا لا ينبغي أن نقلل من أهمية الأحلام بالنسبة للناس في الزمان الماضي.

٢ــ ولقد كانت مصر هي المكان الطبيعي الذي تعود اليهود أن يهربوا إليه، كلما صادفتهم اضطهادات، ولذلك تكونت في كل مدينة في مصر، جالية كبيرة من اليهود، حتى قيل إن مدينة الإسكندرية، كان بها نحو مليون يهودي في يوم من الأيام.

٣ــ ولقد روت القصص أخباراً وحكايات متعددة عن مجيء المسيح إلى مصر، وعن المكان الذي حلت به مريم وطفلها ويوسف .. ولا نستطيع أن نجزم بصحتها.

فقد قيل إن عصابة من اللصوص، هاجمتهم في الطريق إلى مصر، وأرادت قتلهم، والإستيلاء على ممتلكاتهم البسيطة، إلا أن أحد هؤلاء نظر إلى الطفل الصغير، ورفض أن يلحق به أو بأبويه أي ضرر، ونظر إليه قائلاً «أيها الطفل الصغير، إذا جاءت ساعة ما، احتجت فيها إلى رحمتك، فاذكر هذه اللحظة ، ولا تنس ما فعلته لك». ويقال إن اسم ذلك اللص كان ديماس .. وإنه هو اللص الذي تاب فيما بعد على الصليب .. وقصة أخرى تذكر أنه أثناء الرحلة إلى مصر تعبوا كثيراً من السفر، فاستراحوا في مغارة في أحد الجبال، وكان البرد قارساً، والبرد والجليد يغطيان الأرض ــ ويقال إن عنكبوتاً أراد أن يؤدي خدمة للطفل الصغير، فابتدأ ينسج خيوطه على باب المغارة حتى أغلقها فكانت أكثر دفئاً .. وحدث أن مرت في ذلك الوقت جماعة من الجنود الذين أرسلهم هيرودس لينفذوا أوامر قتل الأطفال، وأراد الجنود أن يبحثوا داخل المغارة، لئلا يكون أحد قد اختبأ فيها، لكن قائدهم عندما رأى خيوط العنكبوت تسد باب المغارة، وعليها ذرات الجليد البيضاء، تأكد أن أحداً لم يدخل المغارة.

ويقال إن هذا هو السر في أن الناس، يزينون شجرة الميلاد بالأوراق والخيوط الرفيعة البيضاء اللامعة، إشارة إلى ذرات الثلج على خيوط العنكبوت على باب المغارة...

وسواء كانت هذه القصص حدثت فعلاً أم لا ــ فإنها ترينا أن أي خدمة يقدمها شخص ما ليسوع، لا تبقى في طي النسيان، بل سوف تنال نصيبها من الذكر والعرفان.

٤ــ ويختتم متى هذا الجزء بذكره أن الهروب إلى مصر إتمام للنبوة القائلة «من مصر دعوت ابني»... وهذه عادة في متى أنه يبحث في العهد القديم عن أية أجزاء يمكنه بها أن يدلل على أن يسوع هو المسيا، ويطبق هذه الأجزاء حرفياً، حتى وإن كانت في وقتها لم يكن المسيح مقصوداً بها .. والإشارة

هنا إلى هوشع١١:١ عندما يقول الله «عندما كان إسرائيل غلاماً أحببته . ومن مصر دعوت ابني». والإشارة الأصلية هنا هي إلى إنقاذ الله لشعب إسرائيل من العبودية في أرض مصر أيام موسى، لكن هذا هو أسلوب متى الدائم في البحث عن نصوص في العهد القديم يطبقها على حياة المسيح. وإن لم يبدو هذا مقنعاً لنا، فقد يكون مقنعاً لليهود الذين كتب لهم متى بشارته.

قتل الأطفال

(متى ٢:١٦ ــ ١٨)

١ــ ذكرنا قبلاً طبيعة هيرودس التي لا ترحم أحد يكون موضع شك، وقد ابتدأ هيرودس حكمه بقتل أعضاء السنهدريم وهو أعلى مجامع اليهود، ثم قتل زوجته وأمها، واثنين من أولاده ... ويحكى عنه أنه عندما قاربت حياته على الإنتهاء، وضع في السجن عدداً كبيراً من نبلاء أورشليم، وأمر أن يقتلوا في اللحظة التي يموت هو فيها، لأنه كان يعلم أن الناس لن تحزن عليه فأراد أن تكون جنازة في معظم بيوت المدينة عقب موته.

٢ــ لذلك كان من الطبيعي أن يغتاظ عندما علم بسفر المجوس دون أن يخبروه بمكان الطفل المولود .. فأرسل وأمر بقتل جميع الأطفال في بيت لحم من ابن سنتين فما دون، لكي يضمن أن ذلك الطفل الوليد من هؤلاء الأطفال.

كان هؤلاء الأطفال هم أوائل الشهداء الذين راحوا ضحية مقاومة المستبدين للمسيح..

٣ــ ويختتم متى هذا الجزء أيضاً بالإشارة إلى أحد نصوص العهد القديم من إرميا٣١:١٥ «هكذا قال الرب، صوت سمع في الرامة، نوح بكاء وعويل كثير، راحيل تبكي على أولادها ولا تريد أن تتعزى لأنهم ليسوا بموجودين».

والصورة التي يرسمها إرميا هنا هي صورة الشعب اليهودي وهو في طريقه إلى السبي ... وفي طريقهم يمرون بالرامة، وهي المكان الذي دفنت فيه راحيل قرب بيت لحم (١صم١٠:٢) ويصور إرميا راحيل في قبرها تبكي الشعب اليهودي المنهزم والمسبي إلى أرض غريبة.

ولكن متى يستخدم أيضاً هذه النصوص ليجعلها تناسب الصورة الجديدة في قصة ميلاد المسيح وحياته.

العودة إلى الناصرة

(متى ٢ : ١٩ ــ ٢٣)

١ــ عندما مات هيرودس انقسمت مملكته بحسب وصيته إلى ثلاثة من أولاده، فتولى أرخيلاوس حكم اليهودية، وتولى هيرودس انتيباس حكم الجليل، وتولى فيلبس حكم الجزء الواقع وراء الأردن ــ وكان أرخيلاوس حاكماً قاسياً ، استهل حكمه بقتل ثلاثة آلاف من أشراف الشعب، لذلك

فضل يوسف الإقامة في الجليل في مدينة الناصرة.

٢ــ والناصرة مدينة كبيرة، جعلت يسوع يتطلع من صباه إلى آفاق أبعد وأوسع، مما لو كان قد تربى في اليهودية ... فمن تلال الناصرة ، يستطيع أن يتطلع إلى الغرب، فيرى مياه البحر الأبيض تمخر عبابها السفن الذاهبة إلى أقاصي الأرض. وإلى الجنوب، كان يمكنه أن يرى الطريق العظيم من دمشق إلى مصر، تعبره القوافل والتجار من مختلف الأجناس، وهو الطريق الذي عبره يوسف عندما بيع عبداً وأخذ إلى مصر، والذي عبره الإسكندر الأكبر في حروبه. ونحو الشرق كان يرى طريقاً آخر، يتجه إلى بلدان الدولة الرومانية الشرقية.

وهكذا كانت أنظار الصبي يسوع تتفتح لترى عالم الله الفسيح...

٣ــ ويختم متى هذا الجزء أيضاً بالإشارة إلى نبوة تقول « إنه سيدعى ناصرياً... » . وهذه النبوة تواجه المفسرين بصعوبة كبيرة، ذلك لأنه لا توجد آية في العهد القديم بهذا المعنى ــ وحتى مدينة الناصرة نفسها، غير مذكورة على الإطلاق في العهد القديم.

ولم يوجد حل كاف لهذه المشكلة. ويعتقد البعض أنه يشير إلى اعتقاد بعض اليهود في فترة ما بين العهدين، أن المسيا سيدعى ناصرياً .. والبعض الآخر يقول أن الكتاب الأقدمين، كانوا دائماً مغرمين بإستخدام المحسنات اللفظية مثل الجناس والطباق والكناية في أساليب الكتابة، وأن متى يشير إلى الآية الواردة في إشعياء١١:١ «ويخرج قضيب من جذع يسى وينبت **غصن** من أصوله » ، ذلك لأن كلمة **غصن** في الأصل العبرى هي كلمة «ناصر» إنه سيدعي الغصن .. الناصري.

السنون الصامتة:

ينتهى الأصحاح الثاني بالإقامة في الناصرة، ويبدأ الأصحاح الثالث بظهور يوحنا المعمدان وخدمته ــ وكان يسوع إذ ذاك في الثلاثين من عمره .. فكأن بين الأصحاحين فترة نحو ٢٨ سنة تقريباً، لا يذكر عنها الكتاب شيئاً .. ماذا حدث فيها، وماذا كان يسوع يعمل طوال هذه المدة؟

١ــ كان يسوع ينمو خلال هذه المدة، وينتقل من الطفولة إلى الصبا، إلى الشباب، إلى الرجولة، في بيت تقي مؤمن بالله.

٢ــ وكان يسوع يؤدى واجبه، باعتباره الإبن الأكبر. ويبدو أن يوسف مات ويسوع بعد صغير ــ وكان من الطبيعي أن يتولى يسوع رعاية شئون الأسرة، ويعمل في دكان النجارة في الناصرة. لقد قام بواجبه نحو الأسرة، وهذا شيء هام وضروري.

٣ــ لقد قضى يسوع وقتاً كبيراً في التأمل والصلاة، والاستعداد الروحي، للخدمة العظيمة التي كان يقوم بها.. لكن هذا لم يمنعه من أن يمارس العمل اليدوى، ليجوز في جميع اختبارات البشر، كيف يحصلون على المال لإعالة الجسد، كيف يتعاملون مع العملاء من الناس على اختلاف أنواعهم. لقد جاء يسوع ليساعد الناس، فكان عليه أن يجوز في اختبارات هؤلاء الناس.

يحكى عن مارى أنطوانيت زوجة لويس السادس عشر، الذي حدثت في عهده الثورة الفرنسية،

أنها تساءلت عن سر ثورة الناس ومظاهراتهم، فقيل لها إنهم يطلبون الخبز .. يريدون خبزاً فلا يجدونه — فقالت إذا لم يجدوا خبزاً، فلما لا يأكلون «بسكوتاً» ؟!! ذلك لأنها لم تحس بمشاعر وحاجات الناس.. أما يسوع فقد عاش مع الناس، واختبر اختباراتهم.

٤— لقد كان يسوع في هذه السنين، يؤدي العمل البسيط بأمانة، فكان هذا بداية للأمانة في العمل العظيم.

الأمين في القليل أمين أيضاً في الكثير.

الذي لا يكون أميناً في القليل .. لا يقدر أن يكون أميناً في الكثير.

إننا في طريقة أداء أعمالنا اليومية البسيطة، نحدد مستقبلنا ومصيرنا.

الأصحاح الثالث

ظهور يوحنا المعمدان

(متى ٣ : ١ — ٦)

كان ظهور يوحنا المعمدان، مثل إعلان مفاجيء لصوت الله، ففي ذلك الزمن كان اليهود يشعرون بحزن، لأن الله لم يعد يكلمهم بعد بالأنبياء، وقد مضت نحو أربعمائة سنة دون أن يظهر نبي واحد، وطيلة هذه القرون ، كان صوت النبوة صامتاً لكن في يوحنا المعمدان، عاد صوت النبوة يتكلم.

بماذا كانت تتميز رسالة يوحنا المعمدان؟

١ــ كان يوحنا يوبخ الشر حيثما وجد بلا وجل أو خوف، فإذا كان هيرودس قد أخطأ بزواج غير شرعي، فقد وبخه يوحنا. وإن كان الصدوقيون والفريسيون، وهم قادة الدين الرسميون، قد غرقوا في الطقوس الرسمية الشكلية، فلم يتردد في أن يؤنبهم على ذلك. وإذا كانت جماهير الشعب العادى تحيا دون أن تشعر بالله، فقد كشف يوحنا نقصاتهم. حيثما وجد يوحنا الشر، وبخه، سواء أكان من رجال الدولة أم رجال الدين أم جماهير الشعب. لقد كان كالنور يضيء في الظلام ، وكالريح أرسلها الله لتغمر البلاد.

وقد قال ديوجين إن الحق كالنور بالنسبة للعيون المريضة ، ومن لم يخدش مشاعر إنسان أبداً، لم يصنع أبداً أي خير. وكثيراً ما تحاول الكنيسة أن تحرص على مشاعر الناس أكثر مما ينبغي، لكن هناك أوقاتاً فيها ينبغي أن تتحول الرقة إلى توبيخ صارم.

٢ــ وقد حث يوحنا الناس على أن يسرعوا إلى طريق البر. فلم تكن رسالة يوحنا مجرد توبيخ سلبي، بل كانت دعوة إيجابية نحو مقاييس الله الأخلاقية . ففي الوقت الذي فيه كان يوبخ الناس لأجل أعمالهم وحياتهم، كان يدعوهم إلى نوع جديد من الحياة السامية، فقد وبخ الشر، ووضع أمام الناس صورة للخير. والكنيسة أحياناً تنشغل بأن تعلم الناس ما لا ينبغي أن يفعلوه، بينما تهمل أن تخبرهم بما ينبغي أن يعملوه حسب المقياس المسيحي.

٣ــ ولقد جاء يوحنا من الله. فقد خرج إلى الناس في الصحراء بعد أن كان قد قضى سنوات في الوحدة والتأهب. وقد وصفه أحدهم بأن قفز إلى الحلبة قوياً مسلحاً ناضجاً. إنه لم يأت برسالة من عنده، بل من عند الله.

٤ــ ولقد كان يوحنا يشير إلى غيره ــ فلم يكن نوراً يكشف الشر فحسب، أو صوتاً يوبخ الخطية فقط، بل كان علامة من الله، ليعد الطريق لذلك الآتي. وقد اعتقد اليهود أن إيليا سيأتي قبل المسيا، مستندين على نبوة ملاخي «هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب» (ملاخي ٤:٥). وقد كان يلبس رداء من وبر الإبل. ومنطقة من جلد على حقويه، وهذا هو مظهر إيليا (٢ملوك ٨:١). ويربط متى ظهور يوحنا بنبوة من إشعياء النبي ... «صوت صارخ في البرية اعدوا طريق

الرب . قوموا في القفر سبيلاً لإلهنا » (إشعياء ٤٠ :٣).

والصورة التي ترسمها لنا هذه النبوة، لا تكون واضحة إلا إذا علمنا شيئاً عن الطرق في ذلك الزمان. فقد كان السفر في الطرق المختلفة، يعتبر من أشق الأمور وأصعبها، وهناك مثل شرقي قديم يقول «هناك ثلاث حالات للشقاء، وهي المرض، والجوع، والسفر». لذلك كان الناس ينصحون المسافر قبل السفر، أن يسدد ديونه، ويعيد الأمانات التي عنده، ويترك ما يعول أسرته، ويودع الناس، لأن عاقبة السفر كانت غير مضمونة.

لم تكن الطرق ممهدة، لذلك كان السفر مخاطرة، ولم يكن هناك سوى عدد قليل من الطرق الممهدة صناعياً، ويروى يوسيفوس أن الملك سليمان أمر بتمهيد بعض الطرق المؤدية إلى أورشليم بحجارة البازلت السوداء، ليسهل الطريق على الحجاج الذين يزورون أورشليم، وليظهر عظمة حكومته وثراءها. ومثل هذه الطرق كانت تسمى (طريق الملك)، لأنها كانت تعد خصيصاً للملك، إذا أراد القيام برحلة، وقبل أن يصل الملك إلى أي مكان، كانت الرسائل ترسل إلى الناس ليعدوا طريق الملك.

كان يوحنا يعد طريق الملك، لذلك ينبغي على كل معلم وواعظ، أن لا يطلب توجيه أنظار الناس إلى نفسه، وإلى ذكائه ومهارته، بل إلى جلال الله.

ولقد اعتبر الناس يوحنا نبياً، لأنه كان نوراً يكشف الشرور، وصوتاً يدعو الناس إلى البر، وإشارة توجه نظر الناس إلى الله.

« ولكنني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه، بل عملوا به كل ما أرادوا .. حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان» متى١٧: ١٠—١٣.

معمودية يوحنا المعمدان:(١)

سمي يوحنا بلقب المعمدان لأنه كان يبشر ثم يعمد، وقد كانت معمودية يوحنا معمودية للتوبة، إذ كان يطلب إعترافاً ، ثم تعهداً وعزماً، ثم يعمد — ويمكن أن نصف دلالة معمودية يوحنا بما ذكره إشعياء قديماً «اغتسلوا .. تنقوا .. إعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني. كفوا عن فعل الشر. تعلموا فعل الخير. أطلبوا الحق . أنصفوا المظلوم..» إشعياء١: ١٦، ١٧.

وكان الأمم (الدخلاء) عندما يقبلون في اليهودية يعتمدون. لكن يوحنا أراد أن يعمد اليهود، نسل إبراهيم، ليعترفوا بخطاياهم ولا يغتروا لمجرد أنهم يهود ومن نسل إبراهيم — وقد كان هذا العمل موضوع سخط الفريسيين والناموسيين، لأنهم رفضوا أن يعاملوا كالأمم.. كانت معمودية يوحنا اعترافاً بخطية الإنسان، وبعدم وجود بر فيه. فكل من اعتمد من يوحنا، اعتبره المسيح أنه برر الله ... لذلك يقول في لوقا٧: ٢٩، ٣٠ «وجميع الشعب إذ سمعوا والعشارون برروا الله معتمدين بمعمودية يوحنا. وأما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه».

ولقد كان اليهود يعتقدون أن المسيا وإيليا، سوف يعمدون الناس. لذلك قالوا ليوحنا

---

(١) هذا الجزء إضافة إلى الشرح من المعرب .

(يوحنا١:٢٥) «فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي» إلا أن معمودية يوحنا تختلف عن معمودية المسيح، باعتبارها ذات طابع تجهيزي أو إعدادي. فهي لا ترتبط بحلول الروح القدس، ولا تعتبر مساوية للمعمودية المسيحية. بدليل أن أبلوس الإسكندري اعتبر ناقصاً في تعليمه، لأنه كان عارفاً معمودية يوحنا فقط (أعمال١٨:٢٥)، ولم يعلم أهل أفسس شيئاً عن الروح القدس (أعمال١٩:٣،٤).

رسالة يوحنا المعمدان

(متى ٣ : ٧ — ١٢)

في رسالة يوحنا المعمدان نرى وعيداً ووعداً. وهذه الفقرة مليئة بالصور الزاهية.

(١) الوعيد

فيوحنا هنا يصور الفريسيين والصدوقيين في صورة أفاعٍ تهرب من الغضب الآتي، ويمكن أن نرى في هذا التصوير إحدى صورتين:

الصورة الأولى من طبيعة الصحراء — ففي الصحراء بعض المناطق بها أعشاب جافة من العطش وشدة الحرارة، أحياناً تشتعل نار في الصحراء، فتلتهب وتمتد في كل هذه الأعشاب الجافة، وكلما امتدت النار ترى أمام النيران مجموعات من الأفاعي والعقارب، تجري هاربة من النار التي تكاد تأتي على الأعشاب التي كانت تسكن فيها.

الصورة الثانية من وقت الحصاد — تختبيء في وسط الزرع فئران وأرانب برية وربما أفاعٍ وطيور .. ويأتي الحصادون بالمناجل لكي يحصدوا المزروعات ويبقى الحقل خالياً، ولذلك تسرع كل هذه الحيوانات والحشرات في الهروب.

وكأنما يوحنا يقول للفريسيين والصدوقيين، إن مجيئهم إلى معموديته ليس ناتجاً عن توبة حقيقية، ولكن خوفاً من الغضب الآتي عليهم .. وإنهم إذا كانوا يريدون التوبة فعلاً، فليصنعوا أثماراً تليق بالتوبة.

ثم يحذرهم يوحنا بعدم جدوى اعتمادهم، على أنهم من نسل إبراهيم. ولهذا التحذير دلالته وغرابته في نظر اليهودي.

فقد كان اليهود يعتقدون أن بر إبراهيم محسوب لهم، وأنه كاف لكل نسله — وأن اليهودي له رجاء في الحياة الأخرى، بسبب بر إبراهيم لا ببره الشخصي، وقد كونوا مجموعة كبيرة من التعاليم على هذا الأساس. منها أن كل اليهود لهم نصيب في العالم الآتي، وأنه بسبب فضائل إبراهيم، تصل السفن بسلام إلى موانيها، وتسقط الأمطار، وبسبب إبراهيم، تمكن موسى من الحصول على الشريعة وغير ذلك...

لذلك نرى يوحنا هنا يبين لهم، أنهم لا يمكن أن يعيشوا على ذكريات الماضي، وأن الجيل الفاسد لا تخلصه حسنات أجداده ، والإبن الشرير، لا يشفع له صلاح أبيه.

(٣) ثم يعود يوحنا إلى صورة الحصاد، لكن بكيفية أخرى، ففي نهاية الموسم، يتطلع المزارع في بستانه أو حقله ، ليرى الأشجار التي لا تصنع ثمراً جيداً، ليقطعها فلا تضعف الأرض. وهكذا نرى الوعيد صادراً من يوحنا المعمدان، لجماعة الفريسيين والصدوقيين، بأن الفأس قد وضعت على أصل الشجر، فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار. إن الإنسان الذي يصير غير نافع في خدمة الله وفي خدمة إخوته، يقع تحت الدينونة بلا شك.

(٢) الوعد

بعد الوعيد يأتي الوعد — كان يوحنا يشير إلى غيره ...لقد كان في قمة شهرته ويتمتع بشعبية ساحقة، لكنه يعترف بأن الآتي أعظم منه، حتى أنه يعتبر نفسه ليس أهلاً أن يحمل حذاءه — وحمل الحذاء كان وظيفة العبد، فكأن يوحنا يقول إنه لا يستحق أن يكون حتى عبداً للمسيح. أما الوعد، فهو أن ذلك الآتي سيعمدهم بالروح القدس ونار.

وتاريخ اليهود حافل بالإشارات إلى الوقت الذي فيه يأتي روح الله، لقد سمع حزقيال الله يقول «وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل روحاً جديدة في داخلكم ... وأجعل روحي في داخلكم وأجعلكم تسلكون في فرائضي وتحفظون أحكامي وتعملون بها» حزقيال٣٦:٢٦،٢٧ «وأجعل روحي فيكم فتحيون» حزقيال٣٧:١٤ «ولا أحجب وجهي عنهم بعد لأني سكبت روحي على بيت إسرائيل يقول الرب» حزقيال ٢٩:٣٩ — وتنبأ إشعياء قائلاً «لأني أسكب ماء على العطشان وسيولاً على اليابسة. أسكب روحي على نسلك وبركتي على ذريتك » إشعياء٤٤:٣— ويقول يوئيل «ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويحلم شيوخكم أحلاماً ويرى شبابكم رؤى » يوئيل٢:٢٨.

إذاً ما هي عطية الله وما هو عمله؟ إذا أردنا إجابة هذا السؤال، فلنفكر في فهم اليهود لمعنى روح الله، لأن يوحنا كان يهودياً، وكان يتكلم لليهود:

(١) الكلمة روح بالعبرية هي «روح». ومعناها الروح، كما أن معناها النفَس أو نسمة الحياة — لذلك فموعد الروح في الفهم اليهودي هو موعد الحياة. وروح الله هو الذي يبعث نسمة حياة الله في الإنسان فينتعش، ولا يكون بعد خاملاً متعباً، لأن حياة جديدة تدب فيه.

(٢) وكلمة «روح» العبرية معناها أيضاً ريح .. وهي تشير إلى الريح القوية العاصفة — والريح دلالة على القوة لأنها تقلع الأشجار وتسير المراكب، فروح الله هو روح القوة ... وعندما يدخل روح الله في الإنسان، يتبدل ضعفه قوة، ويستطيع أن يواجه ما لم يكن في جهده أن يواجهه، ويحتمل ما لم يكن في وسعه إحتماله، ويعمل ما لم يكن في مقدوره أن يعمله ... فيتحول فشله إلى قوة ونصرة.

(٣) وروح الله في الفهم اليهودي، مرتبط بعملية الخلق، فقد كان روح الله يرف على وجه المياه، ثم تحولت الفوضى والخراب إلى عالم منظم ... هكذا روح الله يستطيع أن يخلق الإنسان خلقاً جديداً، ويخرج من فوضى حياته وخرابها، تنسيقاً ونظاماً ينسجم مع الله.

(٤) وروح الله في الفهم اليهودي له عمل خاص — فهو الذي يعلن حق الله للبشر — وكل اكتشاف

جديد هو من عطايا الروح. لذلك فروح الله هو مصدر المعرفة ــ كما أن الروح يجعل الإنسان قادراً أن يميز حق الله عندما يراه أو يسمعه. فهو يفتح العيون ويزيل سحابة الجهل وغشاوة الظلام من قلوب البشر.

هذا هو الوعد الذي كان يتحدث عنه يوحنا .. باعتباره مرتبطاً بعمل المسيح الآتى إلى العالم .. ليعمد بالروح القدس.

(٣) وعد مرتبط بوعيد

يتحدث يوحنا عن ذلك الآتى أنه يعمد بالروح القدس ونار ... ثم يقول «الذي رفشه في يده وسينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن، وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ» . وهنا نرى النار في صورتين: صورة الوعد وصورة الوعيد نار الروح ــ هي الوعد، والنار التى لا تطفأ ــ الوعيد.

أما نار الوعد فهي نار الروح، وفيها نرى الأفكار التالية:

١ــ فكرة الإنارة والإضاءة .. فالنار تضيء ، وتهدي السفن المسافرة إلى الميناء الأمين، وهكذا نار الروح في المسيح، وبالمسيح، تهدينا إلى الله .. الذي هو ملجأنا وحمانا.

٢ــ فكرة الدفء .. فعندما يحل المسيح في الحياة، يلهب قلب الإنسان بعاطفة الحب نحو الله ونحو الناس .. والمسيحية هي ديانة الحرارة والدفء.

٣ــ فكرة التطهير .. والتطهير معناه إبادة الضار، والزائف، وإبقاء الحقيقي الأصيل . وعندما يدخل المسيح حياتنا ، فإنه يحرق الشر، ربما بإختبارات مؤلمة، لكنها ضرورية، لأن كل الأشياء تعمل معاً للخير .. وإذ تتطهر قلوبنا نستطيع أن نرى الله.

أما نار الوعيد، فنراها في صورة عملية فصل القمح عن التبن .. فيجمع القمح في المخزن، وأما التبن فيحرق بالنار...

إن مجيء المسيح يتضمن حتماً عملية فصل وتقرير مصير،. إما أن نقبله أو نرفضه ــ ليس هناك حل وسط، وإذا لم نتخذ قراراً ، نكون قد اتخذنا فعلاً قراراً بالرفض، والناس تتميز بعضها عن بعض، بنوع القرار الذي تتخذه إزاء يسوع المسيح .. ولا مهرب من اتخاذ هذا القرار.

(٤) النداء

كان نداء يوحنا المعمدان في كل دعوته، يتلخص في دعوة واحدة «توبوا» (متى٣:٢). وقد كانت هذه دعوة يسوع نفسه في كرازته لأنه كان يقول «توبوا وآمنوا بالإنجيل» (مرقس١:٥) . لذلك كان من الضرورى أن ندرس ما هو المقصود بالتوبة، ما دامت هي نداء الملك وبشيره.

وقد استخدم يسوع ويوحنا كلمة «التوبة» دون أي شرح لمعناها. فقد كانا واثقين أن السامعين يعرفون ويفهمون معناها.

فما هو المفهوم اليهودي للتوبة؟

كانت التوبة عند اليهود أمراً جوهرياً في إيمانهم الديني وعلاقتهم بالله . وقد كتب أحدهم يقول «التوبة هي الشرط الوحيد اللازم لنوال غفران الله، واستعادة رضاه. والتائب الحقيقي لا يحرم أبداً من الغفران والرضى الإلهي». « ومن التعاليم الأساسية في الدين اليهودي، أن الله يغفر مجاناً خطايا التائب».

وقال الربيون (معلمو اليهود) «عظيمة هي التوبة فإنها تجلب شفاء للعالم. عظيمة هي التوبة لأنها تصل إلى عرش المجد».

وكان من تعاليم الربيين، أن الناموس خلق قبل الخليقة المادية بألفي عام، ولكن التوبة كانت من الأشياء الستة التي خلقت قبل الناموس، وهي التوبة، الفردوس، الجحيم، عرش الله المجيد، الهيكل السماوي. واسم المسيا ــ وقد قالوا إن الإنسان قد يطلق سهماً فيصل إلى مسافة عدة أمتار، ولكن التوبة تصل حتى عرش الله.

وقد قالوا إن الحكمة سئلت: «ما هو عقاب الخاطيء؟» فأجابت الحكمة «الشر يتبع الخاطئين» (أمثال١٣:٢١) وسئلت النبوة هذا السؤال عينه فأجابت «النفس التي تخطيء هي تموت» (حزقيال١٨:٤). وسئل الناموس فأجاب «يضع يده على رأس المحرقة فيرضى عليه للتكفير عنه» (لاويين١:٤). وسئل الله فقال: «ليتب وينل كفارته. ياأبنائي ماذا أطلب منكم. أطلبوني فتحيوا » ــ فبالنسبة لليهودي كان طريق العودة الوحيد إلى الله هو طريق التوبة.

والكلمة العبرية المستخدمة والمترجمة (التوبة)، من فعل عبراني هو (شوب) ومعناها يرجع أو يعود. ومنها الكلمة العربية (ثاب) و (يثوب). وهي قريبة من (تاب) و (يتوب). فالتوبة هي الرجوع عن الشر والتحول إلى الله. هي تغيير إتجاه الإنسان نحو الله، وتغيير سلوكه في الحياة، وثورة للإصلاح الديني والخلقي في الفرد أو الجماعة.

وابن ميمون، وهو أحد العلماء اليهود في القرون الوسطى يعرف التوبة بقوله: «أن يترك الخاطيء خطيته، وينزع أفكاره، ويقرر بعزم صادق أنه لن يعود إليها، كما هو مكتوب : ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره وليتب إلى الرب فيرحمه».

ويقول أحد المفكرين، إن اليهودي يمكنه أن يقبل التعريف المسيحي للتوبة، والوارد في أصول الإيمان الوستمنستري، إذا حذفت منه كلمتان فقط وهم «في المسيح». ذلك لأن تعريف التوبة في أصول الإيمان هو:

«التوبة للحياة هي نعمة خلاصية، بها يرجع الخاطيء إلى الله تعالى، بعد أن يدرك رحمة الله (في المسيح)، ويترك خطيته، حزيناً عليها كارهاً إياها، ويعزم عزماً ثابتا أن يطيع الله طاعة جديدة ويجتهد في ذلك».

والكتاب المقدس يتحدث مراراً عن الرجوع عن الخطية، والعودة إلى الله ــ فيقول حزقيال «قل لهم حي أنا يقول السيد الرب إني لا أسر بموت الشرير ، بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا ارجعوا ارجعوا عن طرقكم الرديئة فلماذا تموتون يابيت إسرائيل» (حزقيال٣٣:١١). وفي هوشع «ارجع ياإسرائيل إلى الرب إلهك لأنك قد تعثرت بإثمك. خذوا معكم كلاماً وارجعوا إلى الرب»

(هوشع١٣:١و٢).

مما تقدم يظهر لنا بوضوح أن للتوبة عند اليهود مطاليب أدبية، فهي العودة من الشر إلى الله، وتأكيد ذلك بالتغيير المماثل في الأفعال .. لقد كان يوحنا يسير في اتجاه مفهوم عند الناس، عندما طالبهم بالتوبة، وصنع أثمار تليق بالتوبة.

من بين الصلوات الجميلة التي كانت ترفع في المجمع اليهودي صلاة تقول:

«أرجعنا أيها الآب إلى شريعتك...».

«قربنا أيها الملك إلى خدمتك...».

«أحضرنا في توبة كاملة في محضرك...».

«مبارك أنت يارب، يا من تسر بالتوبة...».

إلا أن هذه التوبة، كان يجب أن تتأكد بتغيير حقيقي في الحياة. كتب أحد معلمي اليهود شارحاً (يونان٣:١٠) فقال: « إنه لم يذكر أن الله رأى مسوحهم أو صومهم، بل إنه رأى أعمالهم، أنهم رجعوا عن طرقهم الرديئة».

وقال معلمو اليهود: «لا تكونوا كالأغنياء الذين يحضرون ذبيحة عندما يخطئون لكنهم لا يتوبون. فإذا قال إنسان إنه سيخطيء ثم يتوب، فإن توبته ستكون غير مقبولة» ــ ومن بين الخطايا التي لا تغفر عندهم، خطية الذين يخطئون لكي يتوبوا، والذين يتوبون كثيراً، ويرتكبون الخطايا من جديد. وقد فسروا ذلك بقولهم «إذا كان إنسان يمسك بشيء نجس في يديه، فإنه يظل نجساً، حتى لو غسل يديه في كل بحار العالم . أما إذا ألقى الشيء النجس من يديه، فإن قليلاً من الماء يكفي لتطهير يديه».

وقد تحدث معلمو اليهود عما دعوه «قواعد التوبة التسع». وقد وجدوها في (إشعياء١:١٦و١٧) «اغتسلوا، تنقوا، إعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني، كفوا عن فعل الشر، تعلموا فعل الخير، أطلبوا الحق، أنصفوا المظلوم، إقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة».

وفي كتابات اليهود غير القانونية، يكتب إبن سيراخ قائلا: « لا تقل قد أخطأت فأي سوء أصابني، فإن الرب طويل الأناة. لا تكن بلا خوف من قبل الخطية المغفورة، لتزيد خطية على خطية، ولا تقل رحمته عظيمة فيغفر كثرة خطاياي. فإن عنده الرحمة والغضب، وسخطه يحل على الخطاة. لا تؤخر التوبة إلى الرب، ولا تتباطأ من يوم إلى يوم».

كما يقول «من اغتسل من لمس الميت ثم لمسه فماذا نفعه غسله. كذلك الإنسان الذي يصوم عن خطاياه، ثم يعود يفعلها. من يستجيب لصلاته، وماذا نفعه إتضاعه».

لقد اعتقد اليهود أن التوبة ليست مجرد حزن عاطفي، بل هي تغيير حقيقي في الحياة ــ كما يعتقد المسيحيون ... وقد كان اليهود كالمسيحيين تماماً يجزعون من استغلال رحمة الله، في الاستمرار في عمل الخطية.

لم تكن تلك فقط هي نظرة اليهودي إلى التوبة، فإلى جانب المطاليب الأخلاقية الصارمة في نظرتهم، كانت هناك جوانب أخرى مشجعة.

فقد كانت التوبة دائماً قريبة المنال، فهي على حد تعبيرهم، كالبحر يمكن لأى إنسان أن يستحم فيه في أى وقت. وهناك أوقات تغلق فيها أبواب الصلاة، لكن باب التوبة مفتوح على الدوام، ولا يمكن لإنسان أن يغلقه.

والتوبة ضرورية جداً. ومن القصص التي يرويها اليهود، حديث يقولون إنه دار بين ابراهيم وبين الله. قال إبراهيم لله «إنك إن طبقت العدل الصارم، فالعالم لا يستطيع أن يحتمل، وإن أردت أن تحفظ العالم فالعدل الصارم لا يرضي، فالعالم لا يستطيع أن يستمر دون رحمة الله، وباب هذه الرحمة هو التوبة ، ولو أن الله أجرى عدله ، لما بقي إنسان في الوجود ، لذلك فالتوبة ضرورية ، لتجعل الله يتنازل عن مطاليبه.

والتوبة تستمر مدى الحياة، فما دام في الإنسان نفس وحياة، يمكنه أن يتوب، فيد الله ممتدة تحت أجنحة المركبة السماوية، لتختطف التائب من قبضة العدالة ــ وقال الربي سمعان بن يوهاي «إذا عاش إنسان باراً كل أيام حياته، وتنكر للبر في نهايتها، فإنه يفسد كل شيء، لأنه مكتوب: « إن بر البار لا ينجيه في يوم معصيته » (حزقيال٣٣:١٢). وإذا كان إنسان شريراً كل أيام حياته، وتاب في نهايتها، فإن الله يقبله لأنه مكتوب : « والشرير لا يعثر بشره في يوم رجوعه عن شره » (حزقيال ٣٣:١٢).

ورحمة الله تجعله يقبل التوبة حتى الخفية منها ــ هكذا علم اليهود. فقد قال المعلم اليعازر «على مقتضى أسلوب العالم، عندما يسب إنسان آخر علناً، ويريد بعد فترة من الزمان أن يتصالح معه، يقول له الآخر: إنك أسأت إلىّ علناً، وتريد أن تتصالح معى سراً، إذهب استدع الذين كانوا حاضرين وقت إساءتك إلىّ . وأنا أتصالح معك. لكن الله ليس هكذا، فقد تجدف على الله علناً في السوق، ولكن القدوس يقبلك إذا تبت إليه بينك وبينه فقط».

إن رحمة الله تتسع لذلك الرجل، الذي يخجل من أن يذكر موضوع خجله إلا أمام الله فقط.

والله لا ينسى باعتباره إلهاً ــ ولكن رحمته تجعله لا يغفر فقط، لكنه ــ وهذا هو الذي يفوق تصورنا ــ ينسى خطية التائب.

« من هو إله مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنب لبقية ميراثه » (ميخا ٧:١٨) «غفرت إثم شعبك ــ سترت كل خطيتهم» (مزمور٨٥:٣) ــ والكلمة المترجمة «غفر» تترجم أيضاً «نسى» . قد يتسامح البشر، لكن الله ينسى تماماً.

ومن أجمل ما ردده اليهود، إن الله يلتقي في منتصف الطريق مع التائب، ويقول له «إرجع بقدر ما تستطيع، وسآتي لألتقي بك» . وهنا نرى صورة لما فعله الآب الذي ركض في حبه للقاء ابنه الضال، الشارد الراشد.

ومع ذكر كل هذه الرحمة، كان ينبغي تعويض ما يمكن تعويضه من الإساءات بقدر الإمكان، وكان على المسيء أن يطلب الغفران، والتائب الحقيقي، هو الذي تكون لديه الفرصة أن يعمل الخطية عينها مرة أخرى ثانية، ولكنه لا يعملها.

وقد اهتم معلمو اليهود بالعلاقات الإنسانية، حتى وجد بين تعاليمهم هذا القول الغريب «إن الصالح تجاه السماء وتجاه أقربائه، هو بالحقيقة صديق صالح. والصالح تجاه السماء وليس تجاه أقربائه صديق رديء. والشرير تجاه السماء وتجاه الناس خاطيء رديء، والشرير تجاه السماء ، وليس تجاه الناس ليس خاطئاً رديئاً».

ولقد كان تعويض الضرر أو الخسارة أمراً هاماً في نظرهم، لذلك اعتبروا أن من يقود غيره إلى الخطية هو أشر الخطاة، لأنه لا يستطيع أن يصلح خطأه، إذ أن خطيته انتقلت إلى الآخرين بالتأثير فيهم، بحيث لا يمكن حدها.

ومع تعويض الخسارة، علم اليهود بضرورة الاعتراف بالخطية. ونحن نرى هذا التعليم في العهد القديم مراراً وتكراراً مثل:

«إذا عمل رجل أو إمرأة شيئاً من جميع خطايا الإنسان ...فقد أذنبت تلك النفس، فلتقر بخطيتها التي عملت» (عدد٥:٦و٧).

«من يكتم خطاياه لا ينجح، ومن يقر بها ويتركها يرحم» (أمثال٢٨:١٣).

«أعترف لك بخطيتي ولا أكتم إثمي. قلت أعترف للرب بذنبي وأنت رفعت آثام خطيتي» (مزمور٣٢:٥).

وفي (إرميا٢:٣٥) نرى أن من يقول إنه لم يخطيء ولا يعترف بخطيته، فهو الذي يستحق المحاكمة. فالتوبة الحقيقية تتطلب التواضع بالإعتراف بالخطية.

ولم تكن التوبة مستحيلة على أحد من الناس، فقد كان معلمو اليهود يقولون: «لا ينبغي أن يظن إنسان في نفسه، أنه لكثرة شروره قد فاتت عليه فرصة التوبة، بل ليثق في الله ويتب ، والله سيقبله». والمثل الصارخ لهذا الأمر هو منسى الملك . فقد عبد البعل، وأحضر آلهة غريبة إلى أورشليم، وقدم ذبائح بشرية من الأطفال إلى مولوخ في وادي هنوم، ثم أُخذ أسيراً إلى أشور. وهناك نام على الشوك مقيداً بالسلاسل، ثم صلى إلى الله في ضيقه، والله سمع صلاته، وأحضره مرة ثانية إلى أورشليم ...«وصلى إليه واستجاب له وسمع تضرعه ورده إلى أورشليم إلى مملكته، فعلم منسى أن الرب هو الله» (٢أخبار٣٣:١٣).

إن الله قد يهدد الإنسان ويؤدبه ليعيده إليه ، وليس ثمة إنسان خارج دائرة قدرة الله.

وأخيراً كان اليهود يعتقدون، أنه إذا تاب كل جماعة إسرائيل توبة صادقة، ولو يوماً واحداً، فإن المسيا سيأتي . فإن قساوة قلوب الناس، هي التي تؤخر إرسال الله لفادى العالم، وربما كان هذا الاعتقاد في فكر يوحنا المعمدان وهو يؤدي رسالته.

لقد كانت التوبة عقيدة أساسية في الديانة اليهودية، كما هي في الإيمان المسيحي، لأنها عودة من الخطية إلى الله، نحو الحياة التي يريدنا الله أن نحياها.

معمودية يسوع

(متى ٣ : ١٣ ــ ١٧)

عندما جاء يسوع إلى يوحنا ليعتمد منه، دهش يوحنا ولم يكن راغباً أن يعمده .. فقد كان اعتقاد يوحنا، أنه هو الذي يحتاج إلى يسوع، وليس العكس.

ومنذ أن بدأ الناس يفكرون في قصة الإنجيل، وهم يجدون صعوبة في فهم معمودية يسوع. لقد كان يوحنا يدعو الناس إلى المعمودية ليتوبوا وتغفر لهم خطاياهم .. ولكننا إذا كنا نعتقد ما نعتقده فعلاً في شخص يسوع، أنه إبن الله، وحمل الله، بلا خطية، فهو لا يحتاج إلى مغفرة للخطايا.

لقد كانت معمودية يوحنا للخطاة الشاعرين بخطاياهم. ولم يكن يسوع واحداً من الخطاة.

قال بعض الكتاب الأولين، إن يسوع جاء ليعتمد ليرضي أمه وأخوته وتحت إلحاحهم. ونحن لا نرى هذا الرأي، وإنما هذا يدل على أن معمودية يسوع حيرت الناس منذ بدء شرح رواية الإنجيل، فلماذا ذهب يسوع ليعتمد من يوحنا؟

(١) ظل يسوع في الناصرة مدة ثلاثين عاماً، يعمل بأمانة الواجبات البسيطة في البيت وفي دكان النجار ــ وطيلة ذلك الوقت كان يدرك أن عالماً في انتظاره، وكان يحس بشعور متزايد بعمله المنتظر. ونجاح أي مشروع يتوقف على حكمة اختيار نقطة البداية، وقد انتظر يسوع حتى ساعة الصفر، وعندما رأى يوحنا يظهر في الميدان، أدرك أن الوقت قد جاء.

(٢) ولماذا كان هذا الأمر كذلك؟ هناك سبب واحد بسيط وحيوى. وهو أن اليهودي لم يكن يقبل أن يعمد أبداً. كان اليهود يعرفون المعمودية، لكنهم كانوا يطبقونها فقط على الدخلاء الذين يدخلون اليهودية من أديان أخرى، وقد كان طبيعياً في نظرهم، أن الدخيل الذي أفسدته الخطية يحتاج إلى المعمودية، لكن اليهودي لم يكن يقبل أبداً، أن واحداً من أبناء إبراهيم، من الشعب المختار يحتاج إلى المعمودية. كانت المعمودية للخطاة المنفصلين عن الله، لكن اليهودي لا يعتقد أنه كذلك. لذلك كان خروج كثيرين من اليهود إلى يوحنا ليعتمدوا منه، حدثاً تاريخياً هاماً، لم يحدث من قبل.

كانت هذه نقطة البداية التي اختارها يسوع، إذ وجد الناس يحسون بخطاياهم، وبحاجتهم إلى الله، كما لم يشعروا من قبل. وفي معموديته، ربط نفسه بالناس الذين يبحثون عن الله. لقد أراد أن يعتمد من يوحنا، ليمثل في ذلك الناس الذين جاء ليخلصهم.

والصوت الذي سمعه يسوع وقت المعمودية صوت هام للغاية «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» وهو مكون من اقتباسين من العهد القديم «أنت إبني» (مزمور٢:٧) «هوذا عبدي .. الذي سرت به نفسي» (إشعياء٤٢:١) ــ والإقتباس الأول من مزمور يعرف اليهود أنه يشير إلى المسيا،

الملك القوي الذي سيرسله الله، والإقتباس الثاني وصف العبد المتألم ، والوصف اكتمل في إشعياء ٥٣.

لذلك جاء يسوع في المعمودية ليؤكد أنه هو مختار الله، وأن الطريق الذي أمامه هو طريق الصليب. ففي تلك اللحظة عرف يسوع أن الله جعله ملكاً، لكن عرشه سيكون على صليب ... وأن الله أعد له نصراً، لكن هذا النصر سيأتي عن طريق سلاح من نوع جديد، هو المحبة المتألمة .. في تلك اللحظة وضع الله أمام يسوع مهمته، والطريق الوحيد الذي يمكنه بواسطته أن يحقق هذه المهمة.

حاشية: نضيف هذه الإضافات من المعرب على الشرح.

١ـــ قال له يسوع اسمح الآن .. لنهتم بهذه الكلمة (الآن) لماذا؟
(أ) ذلك لأن يسوع كان في حالة الإتضاع، إذ أخذ شبه جسد الخطية، مع أنه لم يعرف خطية صار خطية لأجلنا.
(ب) لأن معمودية يوحنا في ذلك الوقت ، كانت الأداة التي استخدمها الله ليعلن الناس بها تكريس نفوسهم لله.
(ج) لأن المعمودية كانت الفرصة الأولى التي ظهر فيها يسوع أمام الجمهور، ليبدأ بعد ذلك خدمته العلنية.

٢ـــ أما السبب الذي أورده يسوع للمعمودية فهو «لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر ». ذلك لأن المسيح كإنسان جاء مولوداً تحت الناموس، وقد كان عليه أن يكمل بر الناموس كإنسان، ونائباً عن البشر.

٣ ـــ لما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء ـــ كان الناس وهم صاعدون من الماء يعترفون بخطاياهم لكن يسوع لم تكن له خطايا يعترف بها لذلك صعد حالاً من الماء .

٤ـــ ثم انفتحت السموات له ـــ قال البعض إن نوراً باهراً ظهر وراء الجلد للحظة من الزمان . وقال البعض الآخر إن يسوع رأى ما وراء النجوم. وقد كان كل هذا لتشجيع المسيح في بدء خدمته الجهارية، ولتشجيع البشر على اتباعه، وسماع رسالته، لأن الخطية تقفل باب السماء أمامنا، ولكن بالمسيح تفتح السماء لنا.

دلالة نزول الروح القدس مثل حمامة:

رأى يوحنا هذا المنظر (يوحنا١:٣٣و٣٤) ورآه المسيح (مرقس١:١٠) وربما رأته الجموع.
١ـــ في بداية العالم القديم كان روح الله يرف على وجه المياه (تكوين١:٢) وهنا في بداية العالم الجديد ، ترى الروح يستقر على المسيح (إشعياء١١:٢و٦١:١).
٢ـــ كان المسيح رأس الكنيسة فالروح أعطاه مواهب للبشر.
٣ـــ إذا كان لا بد للروح من هيئة جسمية فيكون الشكل شكل الحمام، لأنه رمز السلام وعدم الضرر.

فقد جاء المسيح ليبشر القريبين والبعيدين بالسلام، ويصالح العالم التي حملت إلى نوح غصن الزيتون رمز الرضى والأزدهار بعد الغضب.
٤ــ كانت الحمامة هي الطائر الوحيد التي تقدم ذبيحة (لاويين١: ١٤).

٥ــ والحمامة تشير إلى الحياة الجديدة نتيجة عمل الروح القدس. ففي شريعة تطهير الأبرص في والثانية تغمس في الدم وتطير، إشارة إلى الموت والقيامة والحياة الجديدة بعد العار والموت والنجاسة.

إعلان الله بنوة المسيح لله

وصوت من السموات قائلاً « هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت »
وهنا نرى الثالوث الأقدس
الآب في مجده يعلم ارسالية المسيح وبنوته له .
الابن في إتضاعه ومعموديته.
الروح في حلوله وبركاته.

الأصحاح الرابع

زمن الإمتحان

(متى ٤: ١)

ينتقل بنا متى البشير خطوة فخطوة في استعراض قصة حياة يسوع. ابتدأ معنا بقصة ميلاده ثم معموديته. وفي المعمودية رأينا إعلان الله العظيم، عن شخص المسيح «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» — هنا علم المسيح أنه قد دقت ساعة بداية العمل .. لقد جاء ليظهر للناس طبيعة الله ومحبته، بل ليكسبهم إلى جانب الله .. وكان عمله يقتضي منه أن يصل إلى الصليب.

ومن المعروف أنه إذا امتلكت رغبة ما قلب إنسان، فإنه سرعان ما يفكر في كيفية تنفيذ هذه الرغبة .. هنا امتلكت المسيح رغبة ليخلص البشر ويقودهم إلى الله .. كيف السبيل إذاً؟ أى أسلوب عليه أن يتبعه؟ هل هو أسلوب القوة والسلطان، أو الآيات الباهرة، أو المحبة الصبورة المضحية. في هذا الجو، جاءت تجربة يسوع في البرية.

وقبل أن نتأمل في أنواع التجارب التي جاز فيها يسوع في هذه الفترة، يجدر بنا أن ندرس شيئاً عن طبيعة هذه التجارب وهدفها وظروفها...

(١) هدف التجربة:

الكلمة المترجمة هنا «ليجرب» تعني في الأصل اليوناني «الامتحان» لا معنى الغواية والرغبة في الإغراء على الشر — وفي العهد القديم، نرى صورة أخرى مماثلة في قصة امتحان ابراهيم «وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن ابراهيم» تكوين٢٢: ١.

صحيح أنه في قصة ابراهيم قام الله بعملية الامتحان، وفي تجربة المسيح سمح الله لإبليس أن يقوم بعملية الامتحان، لكن في الحالتين يجب أن يكون واضحاً أن الله لم يقصد بهذه التجارب إسقاط ابراهيم أو المسيح بل مجرد امتحان. إذاً فأية تجربة يضعها أمامنا الله، ينبغي ألا نعتبرها عقاباً لنا لأننا بشر، بل امتيازاً لأننا نستطيع أن ننتصر .. إن التجارب أو الإمتحانات يسمح بها الله ليقوينا لا ليضعفنا، ولننتصر فيها لا لننهزم.

(٢) مكانها:

كانت هذه التجربة في البرية الواقعة بين أورشليم والبحر الميت... وهي عبارة عن منبسط من الأراضي الرملية القاحلة...

وقد قصد يسوع أن ينعزل قليلاً في البرية، ليتأمل وحده في أفضل الوسائل لتحقيق رسالته العظيمة، التي كان عليه أن يبدأها حالاً .. ومن المناسب أن يخلو الإنسان إلى نفسه، ليتأمل قبل كل عمل جليل خطير ... هكذا فعل بولس الرسول، عندما ذهب وحده إلى العربية .. لكن التجربة يمكن أن تكون في الوحدة، كما قد تكون أيضاً في المجتمع وبين البشر.

(٣) زمانها:

اهتم البشيرون الثلاثة أن يظهروا، أن التجربة جاءت حالاً بعد المعمودية. ويذكر مرقس «وللوقت أخرجه الروح إلى البرية» (مرقس١:١٢) ـــ هذا يؤكد لنا أنه بعد كل اختبار عظيم في حياة الإنسان، يأتي رد فعل يعرضه للخطر ـــ ويمكننا أن نرى صورة لذلك في قصة إيليا، فإننا نراه في شجاعة وإيمان نادرين، يواجه وحده أنبياء البعل ويهزمهم على جبل الكرمل (١ملوك١٨:١٧ـــ٤٠) وقد كان هذا اختباراً رائعاً لإيليا. ولكن قتل أنبياء البعل أثار إيزابل، فهددت حياة إيليا. ومن العجب أن نرى ذلك النبي الشجاع، يهرب أمام إيزابل لينقذ نفسه ويذهب إلى بئر سبع (١ملوك١٩:٣)، بل نراه يخاطب الرب قائلا «يارب خذ نفسي» (١ملوك١٩:٤).

كل اختبار عظيم لا بد أن يعقبه رد فعل، فعلينا أن نكون حذرين عند النجاح، فإن تجارب النجاح قد تكون أكثر من تجارب الفشل.

(٤) مظهر التجربة:

اعتقد البعض أن هذه التجارب تمت كاختبار خارجي، إى أن إبليس ظهر للمسيح بهيئة جسمية، وحدثه بصوت مسموع. لكن الأرجح أن إبليس دخل في صراع مع نفس المسيح وقلبه وفكره.. أي أن التجربة كانت صراعاً روحياً عنيفاً. وأصحاب هذا الرأى يستدلون على رأيهم، بأنه لا توجد جبال في تلك المنطقة يمكن أن ترى منها ممالك العالم ومجدها...

هذا لا يقلل من أهمية التجربة. فإن الإنسان أحياناً يصارع مع إبليس صراعاً نفسياً لدرجة أنه يكاد يرى إبليس أمامه ـــ ويقال إنه في غرفة «مارتن لوثر» بقلعة وارتبورج بألمانيا، لا تزال توجد بقعة كبيرة من الحبر على الجدار نتجت عن محبرة ألقاها مارتن لوثر في وجه الشيطان وهو يحاربه ويجربه.

كما أنه ينبغي أن نلاحظ أن هذه التجارب، لم تكن هي المرة الوحيدة التي جرب فيها المسيح من الشيطان، فقد جربه الشيطان مرة في قيصرية فيلبس، عندما حاول بطرس أن يثنيه، ويبعده عن اتخاذ طريق الصليب، ونحن نرى المسيح يجيب بطرس بالكلمات عينها التي وجهها إلى إبليس في البرية:

«إذهب عني ياشيطان» (متى١٦:٢٣) ـــ وقرب ختام حياة المسيح قال لتلاميذه «أنتم الذين ثبتم معي في تجاربي» (لوقا٢٢:٢٨) ـــ ولم يكن هناك في التاريخ صراع أشد من صراع جثسيماني، عندما كان يسوع يجاهد مع المجرب، الذي أراد أيضاً أن يثنيه عن طريق الصليب (لوقا٢٢: ٤٢ـــ٤٤).

إن حياة المرء صراع دائم مع إبليس .. وليس هناك وقت نستطيع أن نقول فيه إننا بمأمن من التجربة.

(٥) نوع التجارب:

إذا تأملنا في التجارب الثلاث المذكورة هنا، وجدناها من نوع لا يمكن أن يواجهه، إلا شخص

ممتاز له قوى خارقة، ويعلم أنه يحوز هذه القوى .. إن تجربة تحويل الحجارة خبزاً، لا يمكن أن توجه إلا إلى شخص يقدر فعلاً، أن يحول الحجارة خبزاً — والهبوط من على جناح الهيكل، لا يمكن أن يقوم به، إلا شخص خارق القوى .. أي أن المسيح جرب عن طريق القوى الخاصة التي كان يمتلكها .. وهذا يشير إلى أننا كثيراً، ما تكون تجارب إبليس لنا عن طريق مواهبنا الممتازة .. وما أكثر الأذكياء الذين جربوا أن يستخدموا ذكاءهم في الشر والدسائس .. وما أكثر أصحاب المراكز والشخصيات القوية، الذين جربوا أن يستخدموا سلطاتهم في السيادة والتجبر..

ينبغي علينا أن نراقب دائماً،نقط ونواحي القوة فينا، فهي نفسها مواضع التجربة.

في ختام هذه الملاحظات على التجارب، يجدر بنا أن نفكر قليلاً في مصدر معرفتنا لهذه التجارب .. لقد كان يسوع وحده ..إن أعماله الأخرى وأحاديثه كانت في حضور التلاميذ، فكتموها .. أما قصة التجارب، فلا شك أن يسوع نفسه هو الذي رواها لتلاميذه. لذلك جدير بنا أن نقترب إلى رؤيتها برهبة واحترام ... إن يسوع هنا يريد أن يشركنا في اختباراته الروحية عن صراعه ضد قوى الشر.

إنه يقول للناس، إن الشيطان لا شك سيجربهم .. لكنه أيضاً يؤكد لنا، أنه فيما هو قد تألم مجرباً يقدر أن يعين المجربين.

التجربة الأولى

(متى ٤: ٢ — ٤)

وهي تجربة تحويل الحجارة إلى خبز. «إن كنت إبن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً».

ابتدأت بالتحدي والتشكيك ..«إن كنت إبن الله».

ثم استخدم فيها إبليس حاجة المسيح الجسدية إلى الخبز فقد كان جائعاً.

كانت البرية ممتلئة بالحجارة المستديرة البيضاء، التي هي أشبه ما تكون بأرغفة الخبز، وهي توحي بهذه التجربة إلى يسوع. ونحن نرى في هذه التجربة جانبين:

(١) أن يستخدم يسوع قواه الممتازة لأغراض أنانية. وهذا ما رفض يسوع عمله. هذه هي تجربة الكثيرين، أن يستخدموا ملكاتهم وقدراتهم لنفع ذاتي، ويسألوا أنفسهم «ماذا يمكن أن أستفيد من هذه الموهبة؟» بدلا من «كيف يمكنني أن أخدم الغير بهذه الموهبة».

كم من الناس يقعون في هذه التجربة. البعض يعطيهم الله صوتاً جميلاً، فلا يريدون استخدامه إلا بأجر. ليس عيباً أن ينتفع الإنسان من مواهبه، ولكن الخطر هو في الأنانية التي تجعل الإنسان يستغل مواهبه لنفع نفسه فحسب، دون نظر أو تقدير لظروف الغير، كالطبيب الذي يرفض أن يسعف حالة عاجلة دون أجر.

(ب) وهي تجربة استخدام المادة لكسب التقدير والشعبية من الناس. لقد كان المسيح يعلم أنه

المسيا، وفي البرية كان يفكر في الوسائل التي يكتسب بها الناس لله.

كيف يتحول الحلم إلى حقيقة ، وتتحول قلوب البشر نحو الله؟

كان إعطاؤهم الخبز المادي إحدى هذه الوسائل الناجحة. فالناس يهتمون إهتماماً كثيراً بالماديات — وربما كان في حديث إبليس ليسوع، إغراءاً شديداً مصحوباً بمحاولات لتبرير هذا العمل. ألا يشهد التاريخ بأن الله عمل هذا بعينه؟ ألم يعط الله لشعبه المن في البرية؟ ألم يقل الله لشعبه أنه سيمطر عليهم خبزاً من السماء ليأكلوا؟ أليس في نبوات العهد القديم ما يبرر تحقيق هذا الحلم عندما يقول إشعياء عن أبناء العصر المجيد إنهم «لا يجوعون ولا يعطشون» (إشعياء٤٩: ١٠)، لو أراد المسيح أن يعطي للناس خبزاً، لوجد من التاريخ ما يبرر هذا العمل.

ولكن تقديم الخبز المادي للناس بكيفية معجزية كوسيلة لاكتسابهم خطأً مزدوج، فإن ذلك يكون بمثابة «رشوة» للناس لكي يتبعوه، إذ أنهم سوف يجرون وراء ما يغنمونه منه. ولم يأت المسيح ليقدم للناس إكليلاً بل صليباً. إنه جاء ليدعو الناس إلى حياة البذل، لا حياة الأخذ. فلو أنه أغرى الناس بالماديات، لكان هذا إنكاراً لكل الحقائق التي قالها.

كما أن إعطاء الناس الخبز المادي، يصير أشبه بعلاج مظاهر المرض، دون محاولة علاج المرض ذاته. إن البشر جياع حقاً. وليس العلاج هو أن تقدم لهم خبزاً بكيفية معجزية، بل هو أن نتساءل لماذا هم جياع؟ هل هم جياع بسبب غبائهم أو إهمالهم أو عدم تدبيرهم؟ هل هم جياع لأن البعض يملكون أكثر مما ينبغي، والبعض الآخر يملكون أقل مما ينبغي؟ إن العلاج الحقيقي هو أن نبحث عن سبب الجوع، لتجده في نفوس البشر. وفوق الكل، فهناك جوع في القلب لا يمكن أن تشبعه الماديات. لذلك أجاب يسوع المجرب بالكلمات التي تعبر عن الدرس، الذي أراد الله أن يعلمه لشعبه في البرية. «فأذلك وأجاعك وأطعمك المن الذي لم تكن تعرفه، ولا عرفه آباؤك، لكي يعلمك أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل ما يخرج من فم الرب يحيا الإنسان» (تثنية ٨ : ٣).

إن الطريق الوحيد للحصول على الشبع الحقيقي، هو طريق الإعتماد الكامل على الله.

التجربة الثانية

(متى ٤: ٥ — ٧)

فشل المجرب في التجربة الأولى، فأعاد الكرة من زاوية أخرى — إذ أخذ يسوع بالرؤيا إلى المدينة المقدسة، وأوقفه على جناح الهيكل. وأغلب الظن أن ارتفاع هذا الجانب كان نحو ٤٥٠ قدماً، لأن الهيكل كان مبنياً فوق الجبل. وعلى سطح الهيكل، كان يقف كل صباح أحد الكهنة يحمل البوق ليضرب به، عندما تلوح تباشير الصباح، لينادي الناس أن موعد ذبيحة الصباح قد حان. فلماذا لا يقف يسوع هناك، ويلقي بنفسه إلى فناء الهيكل ليبهر الناس. ومن ثم يتبعونه. ألم يقل ملاخي «ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه» ملاخي ٣: ١ — ألم يذكر المزمور الحادي والتسعون «لأنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك في كل طرقك. على الأيدي يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك؟» مزمور٩١: ١١، ١٢.

لقد كان هذا هو الأسلوب الذي حاول المسحاء الكذبة أن يأتوا به في كل العصور ــ أسلوب المعجزات الباهرة ــ لقد قيل إن أحدهم ويدعي ثوداس قاد الناس ووعدهم أنه بكلمة واحدة يستطيع أن يشطر نهر الأردن قسمين. والرجل المصرى المذكور في (أعمال٢١:٣٨) ، أخرج خارج أسوار أورشليم أربعة آلاف رجل ، ووعدهم أنه بكلمة واحدة سيهدم أسوار أورشليم . وقد حاول أحدهم ، ويدعى « سمعان المجوسى » ، أن يطير في الهواء وهلك بسبب هذه المحاولة .

إن جميع الذين ادعوا أنهم مسحاء أو أنبياء، حاولوا إجراء معجزات باهرة وفشلوا. أما يسوع فإنه يستطيع أن يفعل ذلك فعلاً، فلماذا لا يفعله؟

لكن يسوع رفض الخضوع لدعوة إبليس. فإنه لو حاول أن يجتذب البشر بالمظاهر البراقة، يكون قد اتخذ طريقاً فاشلاً. ذلك لأن العمل الباهر يكون خلاباً وبراقاً في أول مرة، ثم يصير بعد ذلك شيئاً عادياً، وعلى المرء إذا أراد أن يحتفظ بإعجاب الناس، أن يواصل إجراء أعمال باهرة تتزايد يوماً فيوماً. إن الإنجيل المؤسس على إثارة العواطف، إنجيل فاشل لا محالة.

كما أن هناك سبباً آخر لرفض هذه الدعوة، وهو أن هذه ليست الكيفية التي تستخدم بها قوة الله. وفي سفر التثنية ٦:١٦ يقول الرب «لا تجربوا الرب إلهكم». وهذا ما أجاب به يسوع على الشيطان. ومعنى هذا أنه ليس من الواجب أن يضع الإنسان نفسه في موقف يهدد بالخطر، ويتوقع أن الله ينجيه منه. إن الله قد يطلب من الإنسان المخاطرة في سبيل الولاء له، ولكنه لا يطلب منه المخاطرة ليرفع مقامه الشخصي، ويعظم ذاته ــ فضلاً عن أن الإيمان الذي يعتمد على الآيات والعجائب ليس بالحقيقة إيماناً، بل هو شك يبحث عن برهان. إن قدرة الله المخلصة ليست إجراء يعبث به الإنسان، ويجري عليه الإختبارات والتجارب، بل هي حقيقة نثق بها في هدوء، خلال حياتنا اليومية.

التجربة الثالثة

(متى ٤:٨ ــ ١١)

هاجم إبليس يسوع من طريق آخر، بعد فشله في التجربة الأولى والثانية ــ لقد جاء يسوع ليخلص العالم، لذلك وضع أمامه إبليس صورة للعالم، وممالك الأرض ومجدها .. ثم استمع يسوع إلى صوت التجربة، «اسجد لى، وأنا أعطيك ممالك العالم». ألم يقل الله لمختاره «إسألنى فأعطيك الأمم ميراثاً وأقاصى الأرض ملكاً لك» مزمور٢:٨.

إن ما أراده إبليس هو أن المسيح يتفق معه ومع العالم ــ أن يتنازل المسيح قليلاً عن مطاليب الله، وأن يغمض عينيه قليلاً، متساهلاً مع الشرور أو الأمور المشكوك فيها، فيتبعه الناس جميعاً. لقد كانت هذه التجربة هي الدعوة للتقدم عن طريق التقهقر، والدعوة لربح العالم عن طريق مشابهة العالم. لكن جواب يسوع كان واضحاً وصريحاً «الرب إلهك تتقي وإياه تعبد» تثنية٦:١٣ــ لقد كان يسوع يعلم أنه لا يمكن أن يهزم الشر بالإتفاق مع الشر. إن المسيحية لا تنزل إلى مستوى العالم، ولكنها ترفع العالم إلى مستواها.

وهكذا اتخذ يسوع قراره ... لقد صمم ألا يغرى الناس ليتبعوه .. لقد صمم ألا يكون أساس

رسالته الإثارة والأعمال الباهرة .. لقد صمم ألا يعقد صلحاً مع الشر أو الشيطان، بل أن يعلن مطاليب الله في سموها وكمالها ورفعتها.

وكان معنى هذا القرار أنه اختار الصليب.

لكن الصليب كان معناه أيضاً النصرة والغلبة والمجد.

يسوع يخرج للخدمة

(متى ٤:١٢ ــ ١٦)

كان سماع يسوع بأن يوحنا المعمدان قد أسلم ليد هيرودس، إيذاناً ببدء خدمته الجهارية، فترك الناصرة وأتى فسكن في كفرناحوم، متخذاً إياها مركزاً، لخدمته. وقد كانت هذه الخطوة تعبيراً عن حركة الانتقال التي حدثت في حياته، إذ ترك وطنه واتخذ من مدينة أخرى وطناً له.

وعندما ذهب يسوع إلى الجليل ليبدأ خدمته، كان يعلم ماذا يفعل. لقد كان الجليل هو الجزء الشمالي من فلسطين، وفي الشمال الشرقي كانت سورية، وفي الشرق بحر الجليل وفي الغرب بلاد الفينيقيين ــ ورغم صغر مساحة الجليل إلا أنه كان مزدحماً بالسكان، ذلك لأن أرضه كانت خصبة بعكس أرض اليهودية ، وهي الجزء الجنوبي من فلسطين .

ولم يكن الجليل مختلفاً عن اليهودية في خصوبة الأرض وازدحام السكان فحسب، بل أن أهل الجليل كانوا يتميزون بصفات أخرى أيضاً. لقد كانوا يتميزون بالشجاعة والاندفاع الذي يؤدي إلى الشجار أحياناً. كما أنهم كانوا يتميزون بالتفتح لقبول الأفكار الجديدة. ولعل هذه الظاهرة الأخيرة ترجع إلى الحقائق التالية:

(١) إن لفظ « الجليل » مأخوذ من الكلمة العبرية (جليل) ومعناها دائرة. والإسم الكامل لتلك المنطقة هو «جليل الأمم» ذلك لأنها كانت محاطة بدائرة من الأمم: الفينيقيون في الغرب، والسوريون في الشمال والشرق، وحتى في الجنوب كان هناك إقليم السامرة. لذلك فقد كان إقليم الجليل هو الجزء الوحيد من بلاد فلسطين، الذي كان أكثر اتصالاً وتأثراً بالأمم غير اليهودية.

(٢) كانت الطرق الرئيسية العظيمة في العالم وقتئذ تمر خلال الجليل، فهناك طريق البحر من دمشق إلى مصر وأفريقية، وطريق الشرق المؤدى إلى بلاد فارس ــ لقد كانت اليهودية معزولة منفردة بعيدة عن كل تأثير أجنبي، لكن الجليل لا يمكن أن يكون كذلك، وقد قيل إن اليهودية تقود إلى لا شيء، بينما الجليل يقود إلى كل مكان.

(٣) ولقد كان لموقع الجليل الجغرافي أثر في تاريخه، ذلك لأن الغزاة كثيراً ما هاجموه أو جازوا من خلاله. وفي الأصل كانت تلك المنطقة من نصيب أسباط أشير ونفتالي وزبولون عندما امتلك الإسرائيليون الأرض (يشوع٩). ولكن هذه الأسباط لم تنجح نجاحاً كاملاً في طرد سكان الأرض الأصليين من الكنعانيين. وهكذا ترى أن الجليل منذ بداية تاريخه، كان مسرحاً للأجناس المختلفة الممتزجة. هذا فضلاً عن الغزوات الكثيرة التي أعقبت ذلك، وفي القرن الثامن قبل الميلاد، إحتله الأشوريون وسبوا السكان إلى بلاد أشور، واستمر تحت حكم الأجانب إلى القرن الثاني قبل الميلاد

ــ وعندما رجع اليهود من السبي تحت قيادة نحميا وعزرا، جاء بعض الجليليين وسكنوا في أورشليم

ــ وفي سنة ١٦٤ ق.م. طرد سمعان المكابي السوريين من الجليل إلى حدود بلادهم، وعند عودته أخذ معه إلى أورشليم ما تبقى من الجليليين.

وفي سنة ١٠٤ ق.م. أعاد أرستبولس (Aristobulus) غزو الجليل لصالح الأمة اليهودية، وأخذ يختن كل سكان الجليل، ليصيرهم يهوداً رغم إرادتهم.

وهكذا نرى الحقل الذي بدأ فيه يسوع خدمته الجهارية، في بلاد كان من الممكن أن تتقبل رسالته الجديدة أكثر من أي جزء آخر في فلسطين.

وحسب عادة متى (كما أشرنا من قبل) يفتش دائماً عن نصوص في العهد القديم، لكي يستخدمها كنبوات عن كل حادثة في حياة المسيح، لذلك نراه هنا يقتبس ما ورد في إشعياء (٩:١،٢) ، ليشير بها إلى خدمة المسيح في أرض زبولون ونفتاليم والضوء الذي أشرق فيها بدعوة يسوع.

يسوع الكارز (البشير)

(متى ٤:١٧)

يذكر متى في عبارة واحدة خلاصة الرسالة التي أتى بها يسوع «من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات ».

والكلمة المستخدمة هنا في اليونانية، من فعل يصف كلام البشير أو النذير أو المنادي، الذي يعلن رسالة الملك. فالكارز هو الرجل الذي يحمل رسالة مباشرة من الملك. هذه الكلمة تصف لنا شيئاً من مميزات كرازة يسوع، هذه الصفات التي يجب أن تكون في كل وعظنا وكرازتنا.

(١) صوت الكارز يحمل نبرة التأكيد ــ فليست هناك شكوك في رسالته وهو لم يأت ليقول لنا: ربما ولعل ومن المحتمل ــ لقد جاء برسالة لا جدل فيها. وقد قال الفيلسوف جوته «لا تخبرني عن شكوكك فإن عقلي مليء بها، إنني أريدك أن تخبرني عن يقينك».

والكرازة هي إعلان الحقائق المؤكدة، لأن الإنسان لا يستطيع أن يقنع غيره بشيء هو نفسه غير متأكد منه.

(٢) وصوت الكارز يحمل نبرة السلطان ــ إنه يتكلم عن الملك، ويضع أمام الناس شريعة الملك وقانون الملك وقرارات الملك.

(٣) ورسالة الكارز تنبع من مصدر غير الكارز نفسه .. إن مصدرها هو الملك. والواعظ لا يعظ من نفسه، ولا يعبر عن أفكاره الشخصية، بل ينقل صوت الله إلى الناس. لقد كان يسوع يتكلم بصوت الله، وبكلام الله.

ولقد احتوت رسالة يسوع دعوة للتوبة. كان يسوع ينادي الناس أن يتحولوا عن طرقهم الذاتية ويتجهوا إلى الله ... أن يرفعوا عيونهم عن الأرض ويوجهوها إلى السماء ... هذه الدعوة وهذا النداء ، كان ضرورياً ، لأن ملك الله كان قد اقترب . لقد جاءت الأبدية لتغزو الزمان ، لقد تدخل

الله ليأسر الأرض في شخص المسيح . لذلك كان من الضروري على الإنسان أن يتخذ الجانب الصحيح ، وأن يتجه الإتجاه الصحيح .

يسوع يدعو الصيادين

(متى ٤:١٨ — ٢٢)

كان بحر الجليل أهم مظاهر الجليل. وقد كان يسوع ماشياً عند بحر الجليل، عندما أبصر بطرس وأندراوس ثم يعقوب ويوحنا ودعاهم ليتبعوه — ولا يجب أن نظن أن هذه كانت أول مرة يلتقي فيها يسوع بهؤلاء الرجال، فلا بد أنه سبق والتقي بهم وتحدث معهم. ونحن نعلم من إنجيل يوحنا (١:٣٥) ، أن بعضهم كانوا من تلاميذ يوحنا المعمدان. لكن هذه المرة، كانت دعوة المسيح لهم حاسمة وقاطعة، فتركوا كل شيء وتبعوه.

ونحن نتساءل: لماذا كان هؤلاء الأشخاص هدفاً لدعوة المسيح، لم يكونوا على علم غزير، أو أصحاب نفوذ وسلطان، أو ثروة طائلة، لقد كانوا جماعة من العمال البسطاء، الذين حسب نظرة البشر «بدون مستقبل»...

ولكن هؤلاء الناس العاديين كانوا هدفاً لدعوة المسيح...

قيل أن سقراط أراد أن يدعو شاباً فقيراً ليكون تليمذاً له. فرد عليه الشاب بقوله «أنت تعلم ياسقراط أني فقير، ليس عندي شيء أعطيه إلا نفسي». فقال له سقراط «ها أنت ترى أنك قدمت لي أثمن شيء في الوجود».

هكذا يمكن أن نقول عن هؤلاء الصيادين: لم يكن لهم إلا نفوسهم .. وهذا ما أراده المسيح.

إلا أنه يحلو للبعض أن يتأمل في عمل صياد السمك، ليرى فيه مثلاً صالحاً لما ينبغي أن يكون عليه صياد الناس:

١— فالصياد يجب أن يكون صبوراً، ينتظر بطول أناة إلى أن تمسك السمكة الطُعم. فإذا كان قلقاً نافد الصبر، فإنه نادراً ما يعرف كيف يصطاد. وصياد الناس عليه أن يلقي الكلمة، وينتظر بصبر عمل روح الله في القلوب.

٢— والصياد يجب أن يكون مثابراً .. فلا يفشل سريعاً، بل عليه أن يعاود محاولات الصيد مرات كثيرة. وهكذا كل واعظ ومعلم.

٣— والصياد يجب أن يكون شجاعاً .. فالقارب صغير، والبحر متسع، مليء بالأخطار .. وهكذا حامل كلمة الله، يعرف أن إعلان الحق يحتاج إلى شجاعة وإقدام.

٤— والصياد يجب أن يكون حكيماً، إذ يختار الوقت والظروف المناسبة للصيد، وهكذا ربح النفوس يحتاج إلى حكمة.

٥— والصياد عليه أن يختفي عن الأنظار، فإن ظهوره أو حتى ظله، كافٍ أن يمنع السمك من

تناول الطعم...

وهكذا كل خادم حكيم، عليه أن لا يحاول تقديم نفسه للناس، بل ينبغي أن يقدم لهم المسيح.

أساليب السيد

(متى ٤: ٢٣ ـــ ٢٥)

كان يسوع قد اختار أن تبدأ رسالته في الجليل، وقد رأينا كيف كانت الجليل معدة جيداً للبذار. وفي الجليل اختار يسوع بداية حملته في المجامع. كان نظام المجمع من أهم النظم في حياة كل يهودي. وكان هناك فرق بين المجمع والهيكل. كان هناك هيكل واحد في أورشليم، لكن حيثما كانت تسكن جماعة ولو صغيرة من اليهود، كان هناك مجمع. وكان هدف الهيكل يتركز في تقديم الذبائح، ولم يكن فيه كرازة أو تعليم، بينما كان هدف المجمع هو التعليم. كان المجمع بمثابة «الجامعة الشعبية الدينية» للناس في ذلك الوقت، فإذا كانت عند إنسان ما أية أفكار دينية يريد مناقشتها أو تقديمها، فالمكان المناسب لذلك هو المجمع.

وكان نظام العبادة في المجمع، أن تعطى الفرصة لكل معلم جديد لكي يقدم تعليمه فيه. وكانت العبادة في المجمع تتكون من ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول عبارة عن صلوات، والجزء الثاني قراءات من الناموس والأنبياء. وكان الحاضرون يشتركون في القراءات، والجزء الثالث هو الخطبة أو العظة ـــ ولم يكن مقرراً أن يلقي هذه العظة شخص معين بالذات، فلم تكن هناك وظيفة خاصة لهذا الأمر. وكان رئيس المجمع يشرف على العبادة ويرأسها، ثم يمكن إعطاء الفرصة لأى زائر ممتاز أن يلقي العظة، وأى شخص لديه رسالة يمكن أن يتطوع بإلقائها، فإذا اقتنع رئيس المجمع أنه صالح لهذا الأمر، يسمح له بالكلام. وهكذا كانت أبواب المجمع والتحدث فيه مفتوحة أمام يسوع. وقد بدأ يسوع تعليمه في المجمع، لأنه كان يجد هناك أكثر الناس تديناً في عصره، وكان الباب للحديث إليهم مفتوحاً أمامه. وبعد الخطاب أو العظة كانت هناك فرصة للحديث والمناقشة والأسئلة. لذلك كان المجمع مكاناً مثالياً ، لتوصيل التعاليم الجيدة إلى الناس.

لم يكن يسوع يعظ فقط، بل كان يشفي المرضى أيضاً. لذلك لا غرابة أن ذاعت أنباء عمله، وجاء الناس من كل حدب وصوب ليسمعوه، ويروه، وينالوا شفاءً على يديه.

وقد جاء الناس من سورية (وهي مقاطعة كبيرة تمتد شمالاً وشرقاً وفي وسطها مدينة دمشق) ومن أجمل القصص التي تروى عنها ، ما رواه يوسيبيدس وهو أن ملكاً يدعى (أبجار) كان حاكماً لمدينة (أديسا) كان مريضاً، فكتب إلى يسوع يقول:

(أبجار) حاكم (أديسا) إلى يسوع المخلص الممتاز، الذي ظهر في بلدة أورشليم ـــ تحية ـــ سمعت عنك وعن عمليات الشفاء التي تقوم بها دون دواء ولا أعشاب، وأنه يقال عنك إنك تجعل العميان يبصرون، والعرج يمشون، وتطهر البرص، وتخرج الأرواح الشريرة، وتشفي المرضى بالأمراض المزمنة، وتقيم الموتى .

«سمعت كل هذه الأشياء عنك، واستطعت أن أصل إلى نتيجة، وهي أنك أحد شخصين: إما أنك الله نزلت من السماء لتصنع هذه الأشياء، أو أنك إبن الله ــ لذلك أكتب إليك راجياً أن تحضر لتشفيني ، من المرض الذي أصبت به . وقد سمعت أن اليهود يشتكون عليك . ويتآمرون بالشر ضدك. وأنا عندي مدينة صغيرة لكنها عظيمة رائعة تتسع لنا نحن الإثنين».

وقد قيل إن يسوع رد عليه قائلاً «طوبى لك لأنك آمنت بي دون أن تراني لأنه مكتوب عن الذين يرونني أنهم لا يؤمنون بي، بينما الذين لم يرونني سيؤمنون ويخلصون. أما عن طلبك حضوري فينبغي أن أكمل الأمور التي أرسلت لأجلها، وبعدها أرفع إلى الذي أرسلني. ولكن بعد صعودي سأرسل لك واحداً من تلاميذي ليشفي مرضك ويعطيك ومن معك الحياة».

وتروى القصة أن تداوس ذهب إلى أديسا وشفى أبجار. وإن كان لا يوجد دليل على صحة هذه القصة، لكنها تعطينا فكرة، كيف أن الناس من سوريا البعيدة، سمعوا عن يسوع، واشتاقوا من قلوبهم إلى البركات والمعونة والشفاء الذي يعطيه.

كما جاء أناس ولا شك من الجليل، وانتشرت أخبار يسوع في كل اليهودية، وجاء الناس منها، ومن عبر الأردن، والعشر مدن، وهي إتحاد فيدرالي بين عشر مدن يونانية مستقلة.

وتبين لنا أسماء هذه البلاد، أن اليهود لم يأتوا وحدهم إلى يسوع، بل أن الأمم جاءوا أيضاً إليه. وهكذا ابتدأت أطراف الأرض أن تحضر إلى يسوع.

هذا الجزء يلخص لنا نواحي نشاط يسوع في حياته:

١ــ لقد جاء يكرز بالإنجيل ــ أي يبشر. وقد درسنا أن الكرازة هي إعلان الحقائق الأكيدة ــ لذلك فقد جاء يسوع ليتغلب على جهل الناس. جاء ليعلن لهم حق الله، الذي لم يكن ممكناً أن يصلوا إليه بأنفسهم. لقد جاء لينهى الظن والتخمين، ويظهر للناس صورة الله الحقيقية.

٢ــ وقد جاء يسوع يعلم في المجامع. والفرق بين الكرازة ، والتعليم أن الكرازة هي إعلان حقائق لا تقبل المناقشة، أما التعليم فهو شرح معاني هذه الحقائق ودلالتها. لقد جاء يسوع ليتغلب على سوء الفهم الموجود عند الناس، فهناك من يعرف الحق ولكنه يسيء تفسيره، أو يعلم الحقيقة ويستخلص منها نتائج خاطئة. لقد جاء يسوع ليقدم للناس المعني الصحيح للديانة الصحيحة.

٣ــ وقد جاء يسوع يشفى من هم في حاجة إلى الشفاء. جاء لكي يتغلب على آلام البشر، فلم يكتف بأن للناس الحق بالكلمات فقط، بل حول الكلمات إلى أفعال. فالصورة المثالية لا تتجسد إلا في أعمال. لقد تجسد تعليم يسوع في أعمال الرحمة والشفاء التي قام بها.

لقد جاء يسوع كارزاً ليهزم جهل البشر.

جاء معلماً ليهزم سوء الفهم عند البشر.

جاء شافياً ليهزم آلام البشر.

ونحن ينبغي أن نكون هكذا.

الأصحاح الخامس

العظة على الجبل

(متى ٥: ١ ، ٢)

مقدمة:

في قصة معمودية يسوع، رأيناه يتبين أن الساعة قد أتت ليبدأ خدمته الجهارية . وفي التجارب في البرية، رأيناه يصارع مع إبليس. وهو يفكر ليقرر أسلوب تنفيذ رسالته، فرفض الأساليب التي عرضها أمامه إبليس، لأنها تخالف مشيئة الله الذي كان يريد أن تتميز خدمة المسيح بالتضحية والنقاوة التى تؤدى إلى الصليب.

وقد رأينا بعد ذلك، كيف ابتدأ يسوع يختار تلاميذه .. وفي العظة على الجبل، نرى السيد يقدم تعاليمه الأولى إلى تلاميذه.

ويقدم لوقا البشير أجزاء من العظة على الجبل، حالا بعد اختيار السيد المسيح لتلاميذه، مما يؤيد الاعتقاد أن المقصود بالعظة، أن تكون خطاب تدريب وتكليف للتلاميذ.

وقد لقبت هذه العظة بألقاب كثيرة. فمن الناس من أسماها «دستور المسيحية». ومنهم من أطلق عليها «العهد الأعظم للملكوت». ومنهم من أسماها «خطاب العرش» وقد اتفق الجميع على أنها تحتوي على زبدة تعاليم المسيح في الدائرة الخاصة بتلاميذه المختارين.

خلاصة الإيمان

ونحن نتحدث عن العظة على الجبل، كأنها عظة واحدة ألقاها السيد المسيح في مناسبة واحدة. لكن من المرجح أن الحقيقة غير ذلك. فهناك أكثر من سبب يدعو إلى الإعتقاد بأن هذه العظة هي أكثر من عظة واحدة ، وإنما هي خلاصة لكل المواعظ التي ألقاها المسيح . فإن العظة ممتلئة بالمعاني العميقة، مما يجعلها أطول من أن يلقيها السيد المسيح مرة واحدة، بالنسبة لحاجة السامعين أن يتأملوا ملياً في معانيها التي يسمعونها لأول مرة. كما أننا نلاحظ أنه بينما يقدم متى العظة في رواية واحدة متتابعة، فإن لوقا يقدمها في أجزاء متفرقة من إنجيله. فالعظة كما يقدمها متى في ١٠٧ عدداً ــ من هذه الأعداد المائة والسبعة نجد ٢٩ عدداً في إنجيل لوقا ٦: ٢٠ــ٤٩. كما أن ٣٤ عدداً من معاني العظة نراها في أجزاء متفرقة من إنجيل لوقا، و٤٧ عدداً مما ذكره متى من العظة، لا نظير لها في إنجيل لوقا.

فمثلاً تشبيه المؤمنين بالملح في متى ٥: ٣١، وفي لوقا١٤: ٣٤،٣٥، وتشبيههم بالنور في متى ٥: ١٥، ولوقا٨: ١٦ ــ والقول إن نقطة واحدة من الناموس لا تزول في متى ٥: ١٨، لوقا١٦: ١٧.

ومن هذا يتبين أن أجزاء متتابعة في إنجيل متى، نراها متفرقة في إنجيل لوقا ــ والأقرب إلى المعقول، أن متى أراد أن يجمع تعاليم المسيح في مجموعة واحدة، إلا أن لوقا أخذ الموعظة الواحدة ، ووزع

تعاليمها على أصحاحات إنجيله. لذلك فالأرجح هو أن هذه العظة هى خلاصة لتعاليم المسيح التي علمها لتلاميذه .

تقديم متى للعظة:

يقول متى لتقديم العظة: «ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل. فلما جلس تقدم إليه تلاميذه. ففتح فاه وعلمهم قائلاً. وفي هذا التقديم نرى نوراً خاصاً على دلالة هذه العظة.

(١) بدأ يسوع يعلم عندما جلس. والتعليم والمعلم جالس كان دليلاً على التعليم الرسمي في نظر الربيين اليهود. ومن هذا التقليد نسمع في الجامعات عن (كرسى الأستاذية) أي أن الأساتذة في القديم كانوا يعلمون وهم جالسون. وقد كان معلمو اليهود، يلقون تعاليمهم أحياناً وهم واقفون، لكن عند الشرح الرسمي لكلمة الله كانوا يجلسون. والمسيح هنا يقدم تعليماً رسمياً مركزياً له دلالته في المسيحية.

(٢) ثم يذكر متى أنه «فتح فاه» وعلمهم، وهذا التعبير ليس مجرد إشارة إلى الكلام، فهذه العبارة في اللغة اليونانية تدل على معنى مزدوج.

(أ) إنها تستخدم قبل الإشارة إلى كلام ذي قيمة خاصة ووقار خاص.

(ب) وهي تستخدم للتعبير عن أن المتكلم يتحدث بما في قلبه، وما يملأ فكره ـــ وهى هنا تدل على أن يسوع فتح قلبه، ثم فتح فمه ليكشف للتلاميذ عن جوهر التعاليم السماوية.

(جـ) قال متى فتح فاه «وعلمهم» قائلاً ـــ والفعل علمهم في صيغة الماضي ـــ إلا أن اللغة اليونانية بها صيغتان للماضى إحداهما (وهي الـAorist) تدل على الماضى التام. والأخرى (وهي الـ imperfect) تدل على الماضى المتكرر ـــ ويمكن أن تترجم العبارة أن «يسوع فتح قلبه وفمه وكان دائماً يعلمهم قائلاً».

إن العظة على الجبل أعظم مما نظن. إنها تعاليم المسيح الرسمية، وهي تعبير عما كان يجول في خاطر المسيح ويشغل قلبه، وهي خلاصة تعاليم المسيح في الفترة التي قضاها على الأرض معلماً.

الغبطة العظمى
« طوبـــى »

تبدأ العظة على الجبل بتسع تطويبات تبدأ كل واحدة منها بكلمة «طوبى» . هذه الكلمة غنية بمعانيها، فهي لا تصف بركة معينة سينالها الفرد أو الأفراد، ولكنها تصف حالة الغبطة والبركة والسعادة التي يتمتع بها أولئك الأفراد.. إنها تعبير يدل على مزيج من الإعجاب والتقدير والتعجب للحالة السعيدة، وأقرب تعبير إلى معناها هو ...«يالغبطة ... يالسعادة ...ياللبركة التي للفرد ...».

إن التطويبات إذاً ، ليست تعبيراً عن آمال مستقبلة بسعادة مرتقبة للمطوبين .. وهي ليست تنبؤات عن بركة مقبلة لهم .. ولكنها تهنئة بالحالة التي هم عليها ...إن البركة التي للمسيحي، ليست بركة مؤجلة لعالم مجيد آخر، إنها بركة كائنة الآن، وكائنة هنا في هذه الحياة ... إنها ليست تعبيراً

عن شيء سيناله المسيحي في المستقبل، أو سيدخل إليه فيما بعد .. إنها تعبير عن شيء قد دخله المسيحي فعلاً وقد ناله فعلاً .. صحيح أن هذه الغبطة والبركة ستصل إلى كمالها وإكليل تمامها، في العالم الآتي بمحضر الله، لكنها أيضاً حقيقة حاضرة نتمتع بها الآن.

إن التطويبات صوت يعبر قائلاً «بالسعادة المسيحي، وبالفرح أتباع المسيح، وبالغبطة كل من عرف المسيح رباً وفادياً»...

إنها تعبير يشع فرحاً وبهجة يملآن الحياة المسيحية.

والكلمة اليونانية المترجمة (طوبى) هي كلمة (مكاريوس) وهذه الكلمة استخدمت عادة لوصف الآلهة — وفي المسيحية فرح وبهجة تشبه فرح الآلهة — وقد تعود اليونانيون قديماً أن يصفوا جزيرة قبرص بأنها «الجزيرة المطوبة»، ذلك لأنهم اعتقدوا أنها جزيرة جميلة وخصبة وغنية، والإنسان يستطيع أن يحيا حياة سعيدة دون أن يتخطى حدودها، لأن فيها كل أسباب السعادة من حيث المناخ والأزهار والفاكهة والمعادن والموارد الطبيعية.

إذاً كلمة (مطوب) = (مكاريوس) تدل على حالة السعادة والغبطة النابعة من الداخل، والتي لا تعتمد على مصادر خارجية — وهنا نرى إختلاف هذه السعادة عن السعادة الإنسانية العادية. فسعادة الإنسان تعتمد على الظروف الخارجية والتغييرات التي تحدث في الحياة، فالظروف تمنح السعادة أحياناً، وتمنعها أحياناً أخرى. لكن سعادة المسيحي لا تتأثر بظروف الحياة، لأنها نابعة من داخله. وقد قال المسيح لتلاميذه «ولا ينزع أحد فرحكم منكم» يوحنا١٦:٢٢ إن التطويبات تتحدث عن الغبطة العظمى .. عن الفرح الذي يبحث عنا وسط آلامنا — الفرح الذي لا يمكن للحزن والخسارة والألم أن يمسه أو ينتقص منه — الفرح الذي يشرق وسط الدموع، ولا يمكن لشيء في الحياة أو الموت أن ينزعه.

إن العالم يمكن أن يحصل على أفراحه، ويمكنه بنفس السهولة أن يضيعها. إن تغيراً في ميزان الثروة، أو تدهوراً في الصحة، أو حتى تقلباً في الطقس يمكن أن ينزع الفرح الوقتي الذي يعطيه العالم. لكن المسيحي يمتلك ذلك الفرح الذي لا ينطق به، الذي ينبع من سيره الدائم في أنس مع ربه، وفي محضره المبارك.

إن جمال التطويبات كامن في أنها ليست أماني وآمالاً لسعادة منتظرة .. وهي ليست مواعيد بأمجاد مستقبلة .. إنها هتاف بركة دائمة وفرح مقيم، لا يمكن لشيء في العالم أن ينزعه.

سعادة المساكين

(متى ٥:٣)

لعله أسلوب غريب أن يبدأ المسيح حديثه عن الغبطة والسعادة بالقول:

طوبى للمساكين بالروح ... فماذا يقصد بلفظ «المساكين بالروح» . من المعلوم أن العهد الجديد

مكتوب باللغة اليونانية، ولكن المسيح كان يتحدث باللغة الآرامية، وهي لهجة قريبة من العبرانية ــ وإذا تأملنا في معنى كلمة «المساكين» في هاتين اللغتين، حصلنا على فهم عميق لمعنى الكلمة.

ففي اللغة اليونانية كلمتان للدلالة على حالة الفقر والمسكنة. الكلمة الأولى تصف الشخص الذي يعمل ويجاهد ليحصل على خبز الكفاف، والذي ليس لديه من ضرورات الحياة إلا ما يكفيه بالكاد ــ لكن الكلمة المستعملة في هذا النص، هي الكملة الثانية، وهي تدل على الفقر الكامل. إنها تصف الشخص الذي لا يملك شيئاً .. الشخص المعدم تماماً.

هذا يزيد دهشتنا من قصد المسيح بهذا التطويب، وفي اللغة الآرامية، يستخدم لفظ «مسكين» لوصف حالة الفقر في أربعة معانٍ متدرجة.

(١) فقد استخدمت أولاً للدلالة على الفقر العادى .

(٢) ثم تطور المعني ليدل على أن الإنسان بسبب فقره، يصبح بلا تأثير وبلا سلطة وبلا عون وبلا مركز.

(٣) ثم تطور المعنى ليدل على أن مثل هذا الشخص، لأنه بلا مركز، فهو دائماً مهضوم الحق، مظلوم ومضطهد من الناس.

(٤) وأخيراً أصبح معنى كلمة «مسكين» ، يدل على الإنسان الذي إذ ليس له سند أرضي، فإنه يضع ثقته الكاملة ورجاءه التام في الله.

وهذا هو المعنى الذي نراه واضحاً في استخدام كلمة مسكين في سفر المزامير.

« هذا المسكين صرخ والرب استمعه. من كل ضيقاته خلصه » مزمور٣٤:٦.

فسفر المزامير يقصد بالمسكين، الرجل الذي يلقي رجاءه على الله، لذلك فهو محبوب من الله وعزيز لديه.

«لأنه لا ينسى المسكين إلى الأبد. رجاء البائسين لا يخيب» مزمور٩:١٨

«يارب من مثلك المنقذ المسكين ممن هو أقوى منه ، والفقير والبائس من سالبه» مزمور٣٥:١٠

«هيأت بجودك للمساكين ياالله » مزمور ٦٨:١٠

يقضى لمساكين الشعب يخلص بنى البائسين ويسحق الظالم» مزمور٧٢:٤

«ويعلي المسكين من الذل» مزمور١٠٧:٤١

«مساكينها أشبع خبزاً» مزمور١٣٢:١٥

فإذا أخذنا المعنى اليوناني للكلمة، وهو حالة الفقر الكامل، والمعنى العبراني للكلمة وهو حالة التواضع والاعتماد الكلى على الله. فإن المعنى هنا يكون «ياالسعادة الشخص الذي تبين له فقره الروحي الكامل، ولذلك وضع ثقته الكاملة في الله».

إن مثل هذا الشخص، عندما يتبين حقيقة حالته، سوف يجوز في اختيار خاص، إذ أن روابطه بالأشياء سوف تنفصم، وروابطه بالله سوف تزداد، لأنه يعلم أن الله وحده هو عونه ورجاؤه وقوته. إنه سيصل إلى اليقين، بأن أشياء هذا العالم لا تعني شيئاً، وأن الله هو كل شيء بالنسبة له.

إن هذه الآية لا تصف الفقر بأنه شيء جميل. فالفقر ليس شيئاً جميلاً، والمسيح لم يمتدح حالة الفقر التي بسببها يعيش الناس في أكواخ قذرة، ويتضورون جوعاً، ويفقدون قواهم وصحتهم. إن هدف الإنجيل هو إزالة مثل هذه المظاهر من حياة الناس .. إن الفقر الذي يمتدحه المسيح هو الفقر الروحي، هو إحساس الناس بأنهم لا يمتلكون مقومات الحياة الروحية، ولذلك يلجأون إلى الله لمعونتهم وقوتهم.

إن المسيح يقول إنه لمثل هذا الذي وصل إلى حالة الفقر الروحي، يعطي ملكوت السموات. كيف يكون ذلك؟

في الصلاة الربانية يعلمنا المسيح أن نصلي قائلين : « ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأض ».

فإذا ربطنا بين هاتين الطلبتين فهمنا المعنى ــ إن ملكوت الله هو المجتمع الذي تجرى فيه مشيئة الله على الأرض، كما هي في السماء. وهذا معناه أن الذين يعملون مشيئة الله ، هم فقط رعايا ملكوت الله ــ ونحن لا نستطيع أن نعمل مشيئة الله، إلا إذا تبين لنا عجزنا، وجهلنا الكامل، وعدم استطاعتنا أن نواجه الحياة وحدنا، ومن ثم نضع ثقتنا التامة في الله ــ فالطاعة أساسها الثقة ــ وملكوت الله يمتلكه المساكين بالروح لأنهم تبينوا عجزهم الكامل بدون الله. ولذلك فقد تعلموا الثقة والطاعة.

فمعنى قول المسيح إذاً: «يالسعادة الشخص الذي تبين له عجزه التام، لذلك وضع ثقته الكاملة في الله، لأنه بهذه الكيفية وحدها، يستطيع أن يقدم لله الطاعة الكاملة التي تجعله مواطناً في ملكوت السموات».

سعادة الحزانى

(متى ٤:٥)

في هذه الآية نرى الكتاب يستخدم أقوى كلمة للتعبير عن الحزن والنواح على الموتى الأعزاء، وهو عينه التعبير المستخدم في الترجمة السبعينية للعهد القديم باللغة اليونانية، لوصف حزن يعقوب عندما اعتقد أن إبنه المحبوب يوسف قد مات (تكوين٣٧: ٣٤) «وناح على ابنه أياماً كثيرة». فهي تصف الحزن الذي يجرح القلب ولا يمكن إخفاؤه، والحزن الذي يجلب الدموع إلى المآقي.

هنا نرى المسيح أيضاً يقول «طوبى للحزانى ...».

وقد فسر المفسرون هذا القول ويمكن تفسيره بثلاثة معان:

أولاً: بالإشارة إلى الحزن الفعلي. أي التفسير الحرفي للكلمة .. ويمكن أن يكون الحزن بركة، لأنه يستطيع أن يكشف لنا عطف وحنان إخوتنا وأصدقائنا، كما أنه يرينا تعزية الله وشفقته. فكثيرون من الناس اكتشفوا في ظروف الحزن، عمق عواطف أصدقائهم، وعظم رحمة الله ، بكيفية لم يكونوا يعرفونها من قبل.

عندما تكون الأمور تسير سيراً طبيعياً، قد نعيش على سطح الإختبارات، لكن في أوقات الحزن، نصل إلى عمق الاختبار، وإذا كنا نقبل الحزن بالكيفية الصحيحة، فستدخل إلى نفوسنا قوة جديدة، ويغمرها جمال جديد.

ثانياً: ويفسر البعض أن المقصود بالحزن هنا، هو الحزن لأجل آلام البشرية وأحزانها..

في التطويب الأول، رأينا انفصال الإنسان عن الأشياء التي في العالم، لكن الله لا يريدنا أن تنفصل عن الأفراد والأشخاص الذين في هذا العالم، وإذا كان هناك في العالم شيء جميل، فهو التعاطف بين الأفراد والمشاركة بينهم في الظروف المختلفة، إن أمثال هؤلاء الناس الذين يحزنون لأجل آلام البشر ويتألمون مع غيرهم، ويعملون في سبيل تخفيف آلام الإنسانية، لا شك سيتعزون لأنهم بجهادهم ومعونة الله، سيخففون من آلام الإنسانية.

ثالثاً: وقد يشتمل المعنى على هذا التفسير أو ذاك، لكن المعنى الأساسي هو الحزن لأجل الخطية الشخصية، ولأجل عدم الاستحقاق الذاتي. لقد كانت الرسالة الأولى للمسيح هي «توبوا» ولا يمكن لإنسان أن يتوب، ما لم يحزن على خطاياه. إن الإنسان قد يعيش حياة عادية، لا يفكر كثيراً في آثامه، لكن شيئاً ما في طريق حياته، يوقفه وجهاً لوجه أمام شناعة خطيته، فيحزن ويتوب. هذا ما يعمله الصليب فينا، فإن الخطية قد تأخذ أجمل شيء في حياتنا، وتسمره وتحطمه على صليب. والصليب يفتح عيوننا لنرى خطايانا. وعندما نتبين فظاعة خطايانا لا شك أننا نمتليء من الحزن.

إن المسيحية تبدأ بالإحساس بالخطية، ويالسعادة ذلك الإنسان الذي يرى خطاياه ويحزن عليها، وينكسر قلبه على ما فعله ضد الله ويسوع المسيح. إن هذا الإنسان يرى الصليب فينكسر قلبه، ثم يرى طريق الخلاص والغفران.

إن مثل هذا الإنسان هو الذي يتعزى، لأنه يجتاز في اختبار التوبة، فيقبل الله قلبه المنسحق والمنكسر، ذبيحة مقبولة «ذبائح الله هي روح منكسرة. القلب المنسحق ياالله لا تحتقره» مزمور ٥١: ١٧

هذا هو الطريق إلى فرح الغفران وبهجة الخلاص .. لذلك فالآية معناها، يالسعادة الإنسان الذي ينكسر قلبه لأجل آلام العالم ولأجل خطاياه الشخصية ، فمن خلال هذا الحزن سوف يجد فرح الله.

سعادة الودعاء

(متى ٥:٥)

يظن البعض أن الوداعة تعني الخنوع والاستسلام والخضوع، لكنها في اللغة اليونانية من أعمق

الكلمات في معناها.

ولقد تحدث أرسطو الفيلسوف اليوناني الشهير كثيراً عن الوداعة. فقد كان أسلوبه أنه يضع الفضيلة باعتبارها وسطاً بين طرفين كلاهما رذيلة. فمثلاً الإسراف رذيلة، والتقتير رذيلة، لكن الكرم وسط بين الرذيلتين وهو فضيلة.

ويضع أرسطو الوداعة وسطاً بين رذيلتين إحداهما الغضب، والثانية عدم المبالاة ــ فكأنما الوداعة هي الوسط بين الغضب الشديد، وانعدام الغضب ــ وقد حاول أحدهم تفسير الآية بالقول «طوبى للإنسان الذي يغضب دائماً في الوقت المناسب، ولا يغضب أبداً في الوقت غير المناسب».

وإذا تساءلنا عن الوقت المناسب للغضب والوقت غير المناسب، فيمكننا أن نضع قانوناً عاماً، وهو أن لا نغضب لأجل إساءة أو ضرر شخصي يصيبنا، فهذا النوع من الغضب ينبغي على كل مسيحي الإقلاع عنه. ولكن من الممكن أن نغضب لأجل الإساءات التي تلحق بالآخرين. فالغضب الأناني خطية، ولكن الغضب غير الأناني، يمكن أن يكون طاقة فعالة في إصلاح العالم.

لكن الكلمة المترجمة «ودعاء» لها معنى آخر في اللغة اليونانية، فهي تستخدم لوصف الحيوانات التي تروض فتصير أليفة، فتدرب على طاعة الأوامر التي تصدر إليها. إنها تدل على أن الحيوانات قد أصبحت تحت سلطان وسيطرة وضبط مروضها. وإذا أخذنا هذا المعنى بهذه الدلالة يكون معنى الآية:

«طوبى للرجل الذي استطاع أن يضبط ويروض كل غرائزه ودوافعه، أو للإنسان المضبوط تماماً».

وطالما نفكر في هذا المعنى، نتبين أنه من غير الممكن للإنسان أن يضبط نفسه بنفسه تماماً، لذلك فالسعادة هنا، للشخص الذي يجعل الله يضبط حياته ويتسلط على كل غرائزه ودوافعه، ذلك لأننا في خدمة الله، نرى حريتنا التامة، وفي عمل مشيئته نجد سلامنا الحقيقي.

لكن كلمة «ودعاء» لها جانب آخر من المعاني، فهي تعني «المتواضع القلب». إنها تدل على الحالة التي تزيل كل أثر للكبرياء من النفس. وبدون التواضع، لا يمكن لإنسان أن يتعلم شيئاً، لأن الخطوة الأولى في التعلم، هي اعتراف الإنسان بجهله. ولا يستطيع معلم أن يعلم شخصاً يظن أنه يعرف كل شيء.

وبدون التواضع لا يمكن أن تكون هناك محبة حقيقية، لأن بداية المحبة الحقيقية هي الشعور بعدم الاستحقاق.

وبدون التواضع لا يمكن أن يكون هناك تدين حقيقي، لأن التدين الصحيح يبدأ باعتراف الإنسان بضعفه، وحاجته الدائمة إلى الله.

فالوداعة إذاً تصف حالة التواضع التي تجعل الإنسان قابلاً للتعلم وشاعراً بحاجته إلى الغفران. إنها تصف الإتجاه الوحيد الصحيح نحو الله. لذلك يمكن أن يكون معنى الآية:

« طوبى للرجل الذي لديه من التواضع ما يجعله عارفا بجهله وضعفه وحاجته ».

إن هؤلاء الودعاء هم الذين يرثون الأرض . فالتاريخ يشهد أن العظماء هم الذين استطاعوا أن يتحكموا في نفوسهم وغرائزهم وميولهم ودوافعهم. وسفر العدد يصف موسى القائد العظيم «وأما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض» عدد١٢:٣ والكتاب لا يظهر لنا موسى في صورة المستسلم الخانع، لكنه كان رجلاً يغضب في الوقت المناسب فقط. وكاتب سفر الأمثال يقول إن «مالك روحه خير ممن يأخذ مدينة» أمثال١٦:٣٢.

إن عدم وجود هذه الصفة في الاسكندر الأكبر، حطم حياته، لأنه في ثورة غضب وسكر، ألقى بحربة نحو صديق له فقتله. إن الإنسان لا يستطيع أن يقود غيره، ما لم يستطع أن يتحكم في نفسه، والإنسان يبقى تحت سلطان الآخرين، إلى أن يستطيع أن يكون ذا سلطان على نفسه.

لكن الإنسان الذي يضع نفسه تماماً تحت سلطان الله وضبطه، سيحصل على هذه الوداعة التي تجعله يرث الأرض. وقد لا توجد كلمة واحدة تعبر عن المعنى العميق الذي كان المسيح يقصده، ولعله يقصد الوداعة واللطف والرقة والتواضع.

ولعل المعنى لهذا التطويب يمكن أن يكون «بالسعادة الإنسان الذي يغضب دائماً في الوقت المناسب، ولا يغضب أبداً في وقت غير مناسب، الذي يضبط كل غرائزه ودوافعه وعواطفه، لأن حياته نفسها تحت سلطان الله، الإنسان الذي له من التواضع، ما يجعله عارفاً بجهله وضعفه وحاجته، لأن مثل هذا الإنسان أمير بين البشر وملك بين الناس».

سعادة الروح الجائعة

(متى ٥:٦)

إننا لا نستطيع أن نفهم المعنى الكامل للكلمات التي يقولها شخص ما، بدون أن تكون لنا دراية بالظروف التي ترتبط بحياة الناس وقت الحديث .. إنها تعطى للكلمة مدلولها الحقيقي .

وعندما نتأمل هذا التطويب، لا نستطيع أن نصل إلى عمق معناه دون أن نعرف معنى «الجوع» و«العطش» بالنسبة للناس في تلك الأزمنة القديمة...

فعندما نتحدث اليوم عن الجوع والعطش، فإن معنى الجوع الذي يتبادر إلى أفكارنا هو عدم الحصول على وجبة كاملة، أو نقص وجبة أو اثنتين من حياة فرد من الأفراد، وعندما نتحدث عن العطش، نفكر في الظمأ العادى الذي يجعل الإنسان يتلهف على كوب ماء يروى به غليله...

لكننا ونحن نحيا الآن في القرن العشرين، لا ندرك تماماً معنى الجوع والعطش، إلا إذا تأملنا في أحوال الناس في تلك العصور القديمة، التي نطق فيها المسيح هذه الكلمات.

فالشخص العامل في بلاد فلسطين، كان بالكاد يتناول قليلاً من اللحم مرة في الأسبوع، وخلال الأسبوع لا يكاد يجد الأود الكافي لحياته. بل كان دائماً على حافة الموت جوعاً...

ولم يكن الناس في فلسطين يفتحون الصنبور فيتدفق منه الماء البارد .. لكنه كان في وسط صحراء،

يتلهف على قليل من الماء في وسط الحرارة اللافحة، والرياح العاصفة، لكي يبرد لسانه من لهيب الحرارة...

فالجوع والعطش، كما اختبرهما الناس قديماً، لم يكونا مجرد إحساس بالمعدة الفارغة بين الوجبات، أو رغبة في إرواء ظمأ عادي بقليل من الماء .. كان الجوع تلهفاً نحو الحياة، وكان العطش إحتراقاً من شدة الظمأ. فكأنما هذا التطويب إنما هو تحد للقلب الإنساني، يسأله عن مقدار الرغبة في البر والصلاح.. هل تصل أشواقه إلى الدرجة التي تعادل فيها شوق الإنسان ، الذي أوشك على الموت جوعاً إلى الطعام.. ورغبة المحترق من الظمأ إلى الماء؟

إن كثيرين يرغبون في البر والصلاح، لكن رغبتهم رغبة عادية، وليست أشواقاً جارفة متطلعة إلى البر، أكثر من أي شيء في الوجود.

إننا كلما فكرنا في المعاني التي تحتويها هذه العبارة، شعرنا برهبة من عظم مطاليبها، لكننا في الوقت نفسه نشعر بكثير من العزاء والاطمئنان.. فأن مدلول التطويب يدل على أن الشخص الذي ينال البركة، ليس من الضروري أن يكون قد وصل إلى هذا البر، ولكنه الشخص الذي يشتاق إليه بكل قلبه وجوارحه .. فلو كانت البركة والسعادة للذين وصلوا إلى حالة البر فقط، لما نالها أحد قط . لكن السعادة ينالها ذلك الإنسان، الذي يشتاق إلى البر، وإلى الحياة السامية رغم سقطاته وضعفاته.

لقد اشتاق داود أن يبني هيكلاً للرب، ولكنه لم يستطع أن يحقق هذه الأمنية. لقد منع الله إتمامها في عهده، لكن الله قال له «من أجل أنه كان في قلبك أن تبني بيتاً لإسمي، قد أحسنت بكونه في قلبك» ١ ملوك ٨:١٨ .

فلو لم يستطع الإنسان أن يصل إلى البر والصلاح، لكنه بقي مشتاقاً وراغباً فيه، يجوع ويعطش إليه، فإنه لا يحرم من البركة.

بقيت فكرة واحدة تحتويها هذه العبارة، ولا يمكن الوصول إلى فهمها دون الإلمام بقواعد اللغة اليونانية. فإن اللغة اليونانية تستخدم حالات معينة لأفعالها تحدد المعاني التي تدل عليها بكل دقة... وعادة يعقب الأفعال التي تصف الجوع والشبع حالة تبين «الجزئية» partitive genitive بمعنى أن الإنسان يجوع إلى شيء من الطعام أو يعطش إلى شيء من الماء ... لكن في هذه العبارة لا يستخدم الكتاب المقدس هذه الحالة، ولكنه يستخدم حالة أخرى من الأسماء تدل على «الكلية» Accusntive Case فكأنما المعنى الموجود هنا «طوبى للجياع والعطاش إلى كل البر » لا إلى بعض البر...

هذا ما لا يفعله الناس .. إنهم يكتفون بشيء من البر. فقد يكون إنسان ما أميناً طاهراً صادقاً حريصاً في كل أعماله، ويكتفي بحالته هذه، بينما يكون قلبه غير مفتوح لمشكلات الناس، لا يتأثر بأحوالهم.. إن مثل هذا البر بر جزئي...

ويمكن أن يكون العكس، فنجد إنساناً يمتلىء قلبه بالحب والرغبة في المعاونة، لكننا لا نجد فيه ضعفات إنسانية أخرى.

إن هذا التطويب يعلمنا أن لا نكتفي بالبر الجزئي، بل أن نشتاق إلى كل البر .. أى نظل دائماً مشتاقين إلى البر ويكون معنى العبارة:

بالسعادة الإنسان الذي يشتاق إلى البر الكامل، اشتياق الذي يكاد يموت جوعاً إلى الطعام، والذي يكاد يهلك عطشاً إلى الماء، لأن مثل هذا الانسان سوف يشبع حقاً...

سعادة الشفقة الكاملة

(متى ٥:٧)

إن هذه العبارة، حتى كما تبدو حسب ظاهرها، تحتوى على مبدأ عظيم نراه في كل مواضع العهد الجديد. فالعهد الجديد يلح علينا في توكيد بأننا يجب أن نكون متسامحين لننال الغفران، ويقول يعقوب «لأن الحكم هو بلا رحمة لمن لم يعمل رحمة» يعقوب٢:١٣. ويقول السيد المسيح في نهاية مثل المديونين «فهكذا أبي السماوى يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته» متى١٨:٣٥ وبعد ختام الصلاة الربانية نقرأ ما يوضح لنا الطلبة القائلة «واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا» — «فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي. وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم» متى٦:١٢،١٤،١٥.

وعندما نتأمل في معنى الكلمة «رحماء» في أصلها اليوناني، ونقارنها بمعنى الكلمة ذاتها في اللغة العبرية والآرامية، وهي التي نطق بها السيد المسيح هذه التطويبات، نكتشف حقائق عجيبة مذهلة عن معنى «الرحمة» هنا.

فالرحمة في هذا التعبير لا تعني العطف على من هم في ضيق فحسب، ولا مجرد الشفقة العادية، ولكن معناها هو «وضع الإنسان نفسه في المكان عينه الذي يقف فيه الغير ليرى الأمور بعينيه، ويحس بإحساسه، ويفكر بعقله» — فهي ليست مجرد عاطفة أو انفعال، لكن الرحمة هنا معناها أن يحس الإنسان كأنه مشترك فعلاً في ظروف أخيه ذاتها..

إن كثيرين من الناس يشفقون ظاهرياً، ومن على بعد، إنهم لا يدخلون إلى حياة غيرهم من الناس، ليشعروا بمشاعرهم ويحسوا بإحساساتهم...

لو فعلنا ذلك، لتغير وجه الحياة أمامنا.

(١) إننا بذلك نعرف كيف نكون لطفاء فعلاً، بالكيفية المناسبة لحالة الشخص الذي أمامنا. فمرات كثيرة نشفق على الناس، بكيفية تزيد من متاعبهم، لأننا لم نتصور ظروفهم تصوراً كاملاً .. إن في الكتاب المقدس مثلاً رائعاً يبين لنا معنى الرحمة واللطف. ففي (لوقا ١٠:٣٨—٤٢) قصة دخول المسيح إلى بيت مريم ومرثا، نستطيع أن نلمس الظروف التي جاء فيها يسوع إلى هذا البيت. لقد كان الصليب قريباً، وكان كل ما يحتاج إليه هو فترة الراحة، والتأمل وسط إرهاق الحياة وتوترها. وقد كانت مرثا تحب المسيح، فقد كان أسمى الضيوف وأعزهم لديها، لذلك أرادت أن

تقدم له وجبه طيبة عظيمة، فشغلت نفسها وسط الأطباق الكثيرة وأواني الطهى والمواقد ... ولعل هذا العمل رغم النية الطيبة — لم يحقق للمسيح الراحة التي كان ينشدها ..لقد كانت مرثا تقسو على المسيح، في الوقت الذي أرادت أن تعبر فيه عن حبها ولطفها. أما مريم فقد استطاعت أن تفهم حاجة المسيح الفعلية. فجلست عند قدميه تسمع كلامه. لقد كان يحتاج إلى الهدوء والاستماع.

وهكذا نحن في مرات كثيرة نشفق على الناس، ونرحمهم بأسلوبنا نحن، وليس بالأسلوب الذي يحتاجون هم إليه فعلاً.

إن شفقتنا تتضاعف فعلاً، لو أننا وضعنا أنفسنا في مكان الغير.

(٢) الحق إن غفراننا للغير، واحتمالنا إياهم، يكون أسهل علينا بهذه الكيفية. إننا لو فهمنا الأسباب التي تجعل المرء يفكر بشكل معين، ويتصرف تصرفاً معيناً ، صرنا أكثر استعداداً للرحمة والغفران . وهناك مثل فرنسي يقول «لو عرفنا كل شيء لغفرنا كل شيء» . لكننا لن نعرف كل شيء إلا إذا جاهدنا لندخل إلى أعماق الشخص الآخر، واضعين أنفسنا في مكانه.

(٣) إن هذا ما فعله الله حقاً في شخص ربنا يسوع المسيح. إن الله — في المسيح — دخل فعلا إلى حياة الناس ، واتخذ لنفسه جسد إنسان .. ففي المسيح رأى الله الإنسان بعين إنسانية، وأحس بإحساسات البشر، وفكر بتفكير البشر.

فـؤاده حنـون   يـرق للإنسـان
لأنـه إنسـان   قد جرب الأحزان

إن الله يعلم ما هي الحياة الإنسانية، لأنه اتخذ لنفسه فعلاً حياة إنسانية.

لذلك فالرحمة العظمى، هي رحمة الله إذ أتانا في شخص يسوع المسيح الإنسان.

إن الذين يظهرون مثل هذه الرحمة، هم الذين ينالون هذه الرحمة أيضاً . فإننا إن إنعزلنا عن الناس، وأمسينا غير مبالين بهم، سوف ينعزلون عنا، ويصبحون غير مبالين بنا. أما إذا كنا نهتم بهم، فسوف تتجاوب قلوبهم بالإهتمام بنا..

إن هذه الحقيقة صحيحة من الجانب الإنساني.

وهي أيضاً صحيحة من الجانب الإلهي. فإن الذي يظهر مثل هذه الرحمة، يصير شبيهاً بالله في رحمته، فينال الغفران والرحمة.

إن معنى التطويب إذاً:

«يالسعادة الإنسان الذي يشترك اشتراكاً فعلياً في ظروف غيره من الناس، إلى حد يجعله يري بعيونهم، ويفكر بأفكارهم، ويحس بإحساساتهم، فإنه إن فعل ذلك، سيجد أن الغير سيعملون معه هذا الشيء بعينه، وسيعرف أن هذا هو ما فعله الله معنا في شخص يسوع المسيح».

سعادة القلب النقي

(متى ٥:٨)

إن من يقرأ هذا التعبير ينبغي أن يقف، ويتأمل ويمتحن نفسه.

إن الكلمة اليونانية المترجمة «أنقياء» تستعمل في مواضع كثيرة، وذات معانٍ متعددة، تضيف الكثير إلى فهمنا لمعنى هذه العبارة بالنسبة لحياتنا الروحية.

(١) فهي تعني « النظافة »، وتستخدم لوصف الملابس بعد غسلها.

(٢) وهي تعني «النقاوة» وتستخدم لفصل القمح عن التبن، وتطهير الجيش من الجبناء والخائفين، وغير المستعدين للجهاد.

(٣) وهي تعني «عدم الاختلاط» ، وتستخدم لوصف اللبن غير المخلوط بالماء، أو المعدن غير المغشوش.

لذلك يمكن أن نترجم العبارة «طوبى لأصحاب النيات غير المغشوشة، والدوافع غير المختلطة».

ولو فحصنا أعماق نفوسنا، لوجدنا أننا من النادر أن نعمل عملاً صالحاً بدون دوافع مختلطة. فعندما ندفع شيئاً لغرض عظيم، فلعل في أعماق قلوبنا مع الرغبة في مساعدة هذا الغرض، شيئاً من الرغبة في إبهاج نفوسنا والرضى عن ذواتنا، مع شيء من السرور، للشكر الذي نتلقاه، والتقدير الذي نناله نتيجة هذا العمل.

وإذا عملنا عملاً من أعمال التضحية، فربما نظرنا إلى نفوسنا نظرة الأبطال، واعتبرنا أنفسنا في مصاف الشهداء...

حتى أخلص الوعاظ، ليس متحرراً تماماً من خطر الرضاء عن نفسه، لأنه قدم عظة قوية رائعة.

قال أحد المستمعين ليوحنا بنيان، بعد أن استمع إلى عظة قوية منه «لقد كانت العظة رائعة اليوم» .. فرد عليه يوحنا بينان «لقد همس الشيطان في أذني بهذه افكرة عينها، وأنا نازل درجات المنبر».

إن هذا التطويب يتطلب منا، أن نفحص نفوسنا فحصاً دقيقاً. هل نحن نعمل لغرض الخدمة أو لنوال الأجر؟ هل دوافع خدمتنا غير أنانية، أو أننا نريد إظهار ذواتنا؟ هل الخدمة التي نقوم بها في الكنيسة، نقدمها لأجل المسيح، أو لنتال مركزاً وتقديراً؟ هل حضورنا إلى الكنيسة دوافعه الرغبة في اللقاء مع الله، أو إتمام واجب تعودنا عليه؟ هل قراءتنا للكتاب المقدس، مردها إلى رغبتنا في الشركة مع الله أو لنتال إحساساً بالتقوي، وامتيازاً عن الآخرين، لأننا نقرأ الكتاب المقدس؟

إن هذا الامتحان شيء عسير، لكنه ضروري، ليكشف لنا أننا نادراً ما نعمل عملاً، بدافع واحد غير مختلط...

إن أنقياء القلب هم الذين يعاينون الله أي يرون الله.

إننا نرى الله بقدر ما نستطيع أن نتعمق في معرفته...

فنظرة العالم الفلكي إلى النجوم، تختلف عن نظرة الإنسان العادى.. والإنسان العادي قد يسير في الطريق، ويرى النباتات والأعشاب والأزهار البرية، فلا يدرك منها إلا شكلها الخارجي، لكن عالم النبات، يستطيع أن يرى فيها، عالماً كبيراً مليئاً بالأنواع والأشكال والخصائص...

إن اتجاه القلب يحدد لنا ما نستطيع أن نراه، فأصحاب القلوب النقية يرون الله، وأصحاب القلوب الغير نقية، المختلطة بالرغبات الإنسانية والشهوات، لا يستطيعون أن يروا الله.

إننا نرى الله في الحياة ..

ونرى الله هناك في السماء ..

فمعنى هذا التطويب:

«ياالسعادة الإنسان الذي تصفو دوافعه ونياته، فإن مثل هذا الإنسان يستطيع أن يرى الله».

سعادة التوفيق بين البشر

(متى ٥ : ٩)

تستخدم كلمة « سلام » في اللغة اليونانية، للدلالة على خلو الحياة من القلاقل والاضطرابات، لكنها في اللغة العبرية والآرامية، التي نطق بها المسيح هذه التطويبات، لا تحمل معنى سلبياً فحسب، ولكنها تحمل معنى إيجابياً أيضاً.. إنها تعني كل ما يسعد الانسان ويبهجه، لذلك فهي التحية عند أهل الشرق . فعندما نقول لإنسان «سلام» لا نقصد أن يحيا بلا متاعب وقلق فحسب، ولكننا نقصد أن يتمتع بكل أنواع الخير. وهذا هو المعنى الذي تحمله كلمة «سلام» في الكتاب المقدس...

ونحن هنا نرى المسيح يقول: «طوبى لصانعي السلام». فالسعادة ليست لمن يحب السلام، بقدر ما هي لمن يصنع السلام. فهناك أناس يحبون السلام، لكنهم لا يتصرفون بكيفية تصنع السلام في النهاية .. فبعض الناس لا يواجهون المتاعب مواجهة إيجابية ويغمضون عيونهم عن كثير من المظالم، تجنباً للاضطرابات والقلاقل، لكن النتيجة النهائية لهذه السلبية في الحياة والتفكير لا تكون سلاماً، بل مزيداً من الاضطراب...

فالسلام الذي يباركه الكتاب المقدس، لا ينشأ من تجنب مواجهة المواقف والأزمات، ولكنه ينشأ من مواجهتها والتغلب عليها. إن البركة والسعادة ليست لمن يغمض عينيه، ويقبل الأمور سلبياً خوفاً من المتاعب، ولكنها لمن يكون إيجابياً في تفكيره وأسلوب حياته، فالسلام صناعة، أي شيء يحتاج إلى جهد. وقد لا يأتي السلام في بعض الأحيان، إلا نتيجة للجهاد والصراع، وفي صلب المسيح، أكبر مثال للصراع والألم في سبيل السلام.

وقد فسر البعض السلام المقصود هنا، بأنه العمل لخير الانسانية عامة، وبذلك يكون معنى

التطويب: يالسعادة الذين يعملون ليجعلوا العالم مكاناً أفضل، لحياة البشر جميعاً معاً — لكن التفسير القديم لآباء الكنيسة وعلماء الكتاب المقدس تفسير روحي، فهم يقولون إن صنع السلام، يأتي أولا في قلب الإنسان وضميره، ففي قلب كل إنسان معركة بين الخير والشر، والشخص الذي يربح هذه المعركة في جانب الخير، يصنع سلاماً لنفسه، ويجعل قلبه كله لله.

إلا أن المعنى المرجح الذي كان المسيح يقصده، هو المعني الذى كان علماء اليهود يفسرون به السلام، وهو أن أعظم عمل يقوم به الإنسان، هو إيجاد العلاقة الصحيحة، وحسن المودة بين الناس معاً. هذا ما كان يقصده المسيح. فهناك أناس يعتبرون خميرة مرارة ونكد في كل مكان يوجدون فيه، وحيثما يوجدون تحدث المشاجرات والمتاعب. إنهم يصنعون الخصام. وأمثال هؤلاء الناس موجودون في كل مجتمع، وهم يعملون عمل إبليس نفسه.

وهناك صنف آخر من الناس حيثما يذهبون تهرب المشاجرات، وتذوب الخصومات .. وأناس يعالجون الجروح، ويفيضون حلاوة تزيل كل أنواع المرارة .. إن هؤلاء الناس يعملون عمل الله. فالذي يفرق بين الناس يعمل عمل إبليس، والذي يوفق بين الناس يعمل عمل الله.

لهذا قال المسيح «طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون» .. وقد تعودت اللغة العبرانية إذا أرادت أن تصف إنساناً بصفة معينة، أن تستخدم اللفظة «ابن» وتضيف إليها اسماً مجرداً .. فالشخص المسالم يسمونه «ابن السلام» وقد قيل عن برنابا إنه «ابن الوعظ» (أعمال٤:٣٦) لأنه كان واعظاً مشهوراً. لذلك فإن صانعي السلام لقبوا أنهم (ابناء الله) بمعنى أنهم يقومون بعمل مثل عمل الله. فالإنسان الذي يوفق بين الآخرين يقوم بالعمل الذي يقوم به الله. لأن الله هو «إله السلام» رومية١٥:٣٣، «إله المحبة والسلام» ٢كورنثوس١٣:١١، تسالونيكي٥:١٣.

إذاً يكون معنى هذه العبارة: «ياللسعادة التي يتذوقها الذين يوفقون بين الناس، فإنهم يقومون بعمل مثل عمل الله.

سعادة المتألمين لأجل المسيح

أو

بركة الطريق الملطخ بالدماء

(متى ٥ : ١٠ — ١٢)

كانت الصراحة والأمانة من الصفات البارزة لربنا يسوع. لذلك كشف الناس صراحة، عما سيحدث لهم عندما يصيرون تلاميذاً له. إنه لم يأت ليجعل الحياة سهلة يسيرة ، بل جاء ليجعل الناس عظماء.

وليس من السهل على أبناء هذا القرن أن يتصوروا، مقدار الآلام والمتاعب التي لاقاها المسيحيون الأولون. لقد واجهتهم الصعوبات في كل جانب من جوانب الحياة.

١ــ ففي أعمالهم اليومية اعترضتهم الصعوبات. فالبنّاء منهم كان يواجه أحياناً ظروفاً، فيها يطلب منه أن يبني هيكلاً وثنياً، وكان يمتنع عن العمل فيفقد عمله.. وصانع الملابس، كان يطلب منه أحياناً أن يصنع ملابس للكهنة الوثنيين، وكان إزاء إحساسه المسيحي يرفض، ويفقد جزءاً من مصادر رزقه. لقد كان المسيحيون يواجهون كل يوم أمثال هذه الصعوبات، وكانت حماستهم للإيمان المسيحي، تجعلهم يرفضون أي عمل، يرون فيه مساساً بولائهم للمسيح.

وقد قيل إن رجلاً جاء إلى ترتليانوس بمشكلة من هذا النوع، وقال له: «ماذا أفعل؟ وكيف أعيش إذاً؟ » فرد عليه ترتليانوس قائلاً: «وهل ينبغي أن تعيش؟».

لقد كان المسيحيون يختارون الولاء للمسيح، قبل أن يختاروا الحياة ذاتها.

٢ــ وفي حياتهم الاجتماعية اعترضتهم الصعوبات أيضاً. لقد كانت أغلب الولائم والحفلات تقام في هياكل الأوثان، وكان الوثنيون يأخذون جزءاً من ذبائحهم، ويقيمون بها، ولائم يدعون إليها أصدقائهم، على اعتبار أنها مائدة الأوثان.

وكان المسيحيون في ذلك الوقت، يصرون على مناهضة الأوثان والوقوف ضدها، فلم يكونوا يقبلون الذهاب إلى هذه الولائم، وهكذا انفصلوا عن حياة الناس الإجتماعية.

٣ــ وفي حياتهم العائلية واجهوا الصعوبات الكثيرة. فقد كانت المتاعب تبدأ في الأسرة، عندما يصير أحد أفرادها مسيحياً، وكثيراً ما كان الشخص المسيحي يطرد من أسرته ، وتغلق أمامه أبواب بيوت أهله وأصدقائه. لقد جاءت المسيحية لتلقي على الأرض، لا سلاماً بل سيفاً، فانقسمت العائلات على بعضها ، وكان على الإنسان أن يبين فعلاً وعملياً حبه للمسيح، أكثر من أهله وأخوته وزوجته وأولاده.

٤ــ ولقد وصلت المتاعب إلى درجة التعذيب والإضطهاد الذي لا يوصف قد كان المسيحيون يطرحون للأسود الجائعة أو يحرقون أحياء ... وكان الموت بهذا الأسلوب أهون من الأسلوب الذي استخدمه نيرون، عندما كان يلفهم بالقماش والزيت، ويشعل النار فيهم ليضيء بهم حديقة قصره ، أو يلبسهم جلود الحيوانات المفترسة ، ويرسل وراءهم كلاب الصيد تمزقهم، أو يسكب عليهم الرصاص المصهور، أو يضع النحاس المحمى لدرجة الاحمرار على أدق الأجزاء في أجسادهم.. لقد كانوا أحياناً يقلعون عيونهم، وأحياناً يقطعون أجزاء من أجسادهم، ويلقونها في النار أمامهم. لقد كانوا يتفننون في تعذيبهم بأساليب تقشعر منها الأبدان عند مجرد التفكير فيها. لكن هذا هو المصير الذي كان على المسيحي أن يتوقعه، إذا عاش أميناً للمسيح.

لماذا كان المسيحيون مضطهدين:

١ــ كانت المسيحية ديانة جديدة، وكل شيء جديد يتعرض لنقد الناس وسخريتهم.. وقد كان كثيرون، خاصة من اليهود، يشيعون شائعات كاذبة عن المسيحيين.

(أ) فقد كانوا يسمعون المسيحيين يقولون إنهم يأكلون جسد ربهم ويشربون دمه، فاتهموهم بأكل لحوم البشرية، وأشاعوا عنهم أنهم يذبحون طفلاً كل أسبوع ويأكلونه .. وفي ذلك الوقت

لم يكن مصرحاً لغير المسيحيين أن يحضروا إجراء هذه الفريضة.

(ب) وقد أساء الناس فهم وليمة المحبة الأسبوعية، وأساءوا تفسير قبلة السلام المقدسة، التي كان المسيحيون يقبلون بها بعضهم بعضاً .

(جـ) وقد اتهموا المسيحيين أنهم ثوريون. وذلك لأنهم كانوا يقولون إن نهاية العالم قد اقتربت، وأن العالم سيحترق بالنار. فأخذ أعداؤهم يفسرون ذلك بأن المسيحيين سيشعلون نار الثورة.

(د) كما أن المسيحيين كانوا متهمين بتقطيع أواصر العلاقات العائلية، لأنهم لاحظوا أن كثيرين من المسيحيين قد انقطعت علاقاتهم العائلية مع أهلهم غير المسيحيين.

٢ــ وكان السبب الثاني للاضطهاد سياسياً. كانت الدولة الحاكمة في ذلك الوقت هي الدولة الرومانية، التي فرضت سلطانها على كل العالم المعروف يومئذ تقريباً.. ومع اختلاف الأمزجة والتقاليد والعادات، في البلاد التي كانت تحكمها هذه الدولة، كان لابد من وجود شيء يوحد الناس .. وكان هذا الشيء أولاً، هو عبادة آلهة روما نفسها أو روح روما.. وقد وافق الناس على هذه العبادة، لأن الدولة الرومانية حققت لهم الأمن والسلام، بتطهير الطرق من اللصوص ، والبحار من القراصنة، وساعدت على استقرار الأحوال...

ولكن عبادة روما تطورت، وتمثلت في شخص الإمبراطور نفسه.. وأخذ الناس يضفون على الامبراطور صفات إلهية. وقد حاول بعض الأباطرة وقف هذا الإتجاه، لكن فيما بعد شجعوه، حتى صارت عبادة الإمبراطور أمراً إجبارياً. وكان على الناس أن يخروا أمام صورة الإمبراطور، ويقولون «قيصر هو الله». وينالون شهادة بذلك. وهذا ما كان المسيحيون يرفضون أن يعملوه ..لأنهم كانوا يدينون بالولاء لربهم، ولا يسجدون إلا له.

لذلك اعتبرت الدولة اليونانية المسيحيين خارجين على القانون، وكانت الاجتماعات الدينية للمسيحيين تعتبر في نظر سلطة الدولة اجتماعات سياسية لجماعة خارجين على القانون.

لقد كانت جريمة المسيحيين هي أنهم رفعوا المسيح فوق قيصر، ولأجل هذا الولاء قاسى الآلاف من المسيحيين جميع صنوف التعذيب والاضطهاد.

كيف يكون هذا العذاب بركة وسعادة؟

قد يبدو غريباً أن يوصف هذا العذاب بأنه سعادة .. لكن الذي ينظر إلى ما وراء الحاضر المباشر، بعقل متفتح للإدراك، وبصيرة نافذة إلى الأعماق، يستطيع أن يرى أمجاد هذا الطريق الملطخ بالدماء .. ويعرف حكمة المسيح في قوله «طوبى لكم..».

١ــ كانت الاضطهادات فرصة لإعلان ولاء الفرد ليسوع المسيح. من بين الشهداء المشهورين بوليكاربوس أسقف سميرنا وتلميذ يوحنا الرسول، هذا جرته الجموع إلى دار الحاكم الروماني، وهناك أعطيت له الفرصة، إما أن يقدم العبادة لقيصر أو يموت ..فرد بوليكاربوس بجوابه الخالد «ستاً وثمانين عاماً خدمت فيها المسيح ولم يصنع معي شراً. فكيف أجدف الآن على ملكي ومخلصي» ..فأخذوه

حالا ليحرقوه، وقبل أن تلتهم النار جسده، قدم هذه الصلاة «أيها الرب الإله القدير أبو ربنا الحبيب والمبارك، والذي به عرفنا ذاتك، أشكرك لأجل تعطفك عليّ، بأن حسبتني أهلاً لهذا اليوم، ولهذه الساعة»...

إن كثيرين من المسيحيين لم يختبروا في حياتهم لحظة قدموا فيها تضحية حقيقية، لأجل الولاء لربهم .. إن استعدادنا الحقيقي للتضحية، هو إعلان لقيمة المسيحية في نظرنا.

٢- والألم لأجل البر، كما قال المسيح، هو السير في الطريق عينه، الذي سار فيه الأنبياء والقديسون والشهداء. فالألم لأجل البر، هو المشاركة في طريق الأبطال، ومن يتألم لأجل إيمانه يستطيع أن يقول «إني أسير في طريق الأنبياء والقديسين».

٣- واحتمال الضيق والإضطهاد، مشاركة في مناسبة عظيمة .. فالذي يشهد مناسبة عظيمة لا ينساها، فكم بالحري من يشترك فيها. إن لحظة الشهادة في سبيل المسيحية، لحظة خالدة في دراما الخلود. لذلك يقول المسيح «افرحوا وتهللوا» ، وكلمة (يتهلل) في اللغة اليونانية معناها الحرفي (يقفز من الفرح).

٤- واحتمال الإنسان للضيق والإضطهاد يسهل الطريق على من بعده. فنحن الآن نتمتع بالحرية في عبادتنا، لأن الشهداء قبلنا كانوا على استعداد أن يشتروا هذه الحرية بدمائهم، وعرقهم ، ودموعهم. إنهم فتحوا الطريق لنا .. ونحن أيضاً، كلما وقفنا بثبات في شهادتنا للمسيح، سهلنا الطريق للذين يأتون بعدنا.

٥ - وأخيراً فإنه لا يوجد إنسان يحتمل الإضطهاد وحيداً. فإذا كان على الإنسان أن يحتمل الخسارة المادية، أو فقدان الأصدقاء، أو الهزء والتعيير، أو الموت لأجل حبه للمبادىء السامية، فهو لن يبقى وحيداً، لأن يسوع نفسه سيكون أقرب إليه من أي وقت آخر .. إن قصة شدرخ وميشخ وعبدنغو، تتكرر كلما حدث ضيق أو إضطهاد. سأل الملك «ألم نلق ثلاثة رجال موثقين في وسط النار؟ » وكان الجواب «صحيح أيها الملك» فأجاب . وقال: «ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشون في وسط النار وما بهم ضرر، ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة».

إن الألم لأجل الإيمان هو الطريق إلى أعذب رفقة وصحبة مع المسيح نفسه.

وفي الختام نتساءل: لماذا نحسب أنه لا مفر من الاضطهاد؟

والجواب هو أن الكنيسة بالمعني الذي يريده الله، لا بد لها أن تكون ضميراً للأمة وللمجتمع. حيثما يوجد الصلاح والخير، فعلى الكنيسة أن تمتدحه، وحيثما يوجد الشر، فعلى الكنيسة أن توبخه .. ولا بد أن الناس سيحاولون أن يسكتوا صوت هذا الضمير المقلق لهم .. ولعله ليس من واجب الفرد المسيحي أن يبحث عن الأخطاء، أو ينتقد أو يدين، لكن حياته الصامتة نفسها ستكون دينونة على الآخرين، التي لا تعتصم بالفضائل المسيحية . لذلك فهو لن يسلم من كراهيتهم له.

وليس من المحتمل أن ولاءنا للمسيح يعرضنا الآن لخطر الموت، ولكن هناك أخطار أخرى قد

تتعرض لها بسبب هذا الولاء، فقد نتعرض للهزء والسب والإحتقار، إذا اعتصمنا بمباديء الحب والغفران المسيحي. وقد يضطهد العالم المسيحي الذي يصر على حياة الأمانة التامة في أعماله اليومية..

والمسيح لا يزال يحتاج إلى شهود، إنه يحتاج إلى الذين هم على استعداد أن يعيشوا له، وإذا تطلب الأمر أن يموتوا لأجله .. وفي كل هذه الحالات، يبقي الصراع المسيحي موجوداً .. ويبقى مجد الألم لامعاً ظاهراً.

ملح الأرض

(متى ٥:١٣)

كان للملح تقدير كبير عند القدماء، فقد اعتبره اليونان شيئاً إلهياً — وفي أمثال الرومان مثل شائع يقول « ليس هناك أكثر نفعاً من الملح والشمس ». وعندما تحدث المسيح إلى تلاميذه قائلاً «أنتم ملح الأرض» كان الملح مرتبطاً في أذهان الناس بصفات ثلاث:

(١) فالملح كان رمز النقاوة، ولا شك أن لمعانه وبريقه ولونه الأبيض كان يوحي بذلك. ولقد اعتقد الرومان أن الملح أنقى الأشياء، لأنه ناتج من أنقى الأشياء وهي البحر والشمس. وقد كان الملح يقدم قرباناً للآلهة...

والمسيحي يجب أن يكون مثلاً في النقاوة والطهارة. وإن من مظاهر العالم الذي نعيش فيه، انخفاض مستويات الأخلاق والآداب، فقد انحطت مقاييس الأمانة، والاجتهاد، والضمير الحي، والأخلاق .. لكن على المسيحي أن يرفع هذه المقاييس في حياته وحديثه ومعاملاته .. إن المسيحي لا يستطيع أن يسحب نفسه من العالم، لكن ينبغي عليه أن يحفظ نفسه بلا دنس من العالم (يعقوب ١: ٢٧).

(٢) كان الملح منذ القديم يستخدم لحفظ الأطعمة من الفساد. وقد عبر بلوتارك عن هذه الحقيقة بكيفية غريبة إذ قال: إن اللحم هو جزء ميت من جسم ميت، وإذا ترك لذاته يفسد، لكن الملح يحفظه طازجاً ويمنعه من الفساد، فهو بذلك كروح جديدة تدخل في الجسد الميت.

وإذا كان على المسيحي أن يكون كالملح، فعليه أن يتميز بطابع طرد الفساد والشر، فهناك أناس يسهل أن نكون صالحين في رفقتهم، كما أن هناك أشخاصاً يسهل عمل الشر في صحبتهم..

المسيحي ملح بمعنى أن واجبه أن يحفظ العالم من الفساد..

٣ـ لكن أعظم خاصيات الملح، أنه يعطي طعماً ومذاقاً للطعام. فالطعام دون ملح تمجه النفس — وهكذا المسيحية بالنسبة للحياة كالملح بالنسبة للطعام، إنها تجعل الحياة مقبولة ومستساغة...

ولكن المأساة أن الناس يتصورون أن المسيحية تجعل الحياة بلا طعم وبلا لذة. وفي حديث الإمبراطور يوليانوس عن المسيحيين يقول شاكيا:

«هل تأملت ملياً في حياة هؤلاء المسيحيين ؟ إن لهم عيناً غائرة، ووجنات صفراء شاحبة .. إنهم يعيشون بلا طموح، وتشرق الشمس عليهم فلا يفتحون عيونهم ليستمتعوا بها، وتقدم الأرض إليهم غناها فلا يتطلعون إليها. إن كل أشواقهم هي أن يتألموا حتى يموتوا».

هكذا تظهر المسيحية بالنسبة للبعض، كأنها تسلب من الحياة طعمها. وقد قال أحد الأدباء المشهورين مرة «كان يمكن أن أنضم إلى سلك الخدمة الدينية، لولا أن بعض رجال الدين الذين عرفتهم، كانوا يتصرفون ويظهرون كأنهم «حانوتية» (الذين يجهزون الأكفان والقبور للموتى).

إن المسيحي ينبغي أن يشع من حياته نور الفرح والسرور والأمل، وفي وسط عالم قلق، ينبغي أن يكون المسيحي ثابتاً، وفي عالم مغمور بالأحزان، على المسيحي أن يبقى ممتلئاً من بهجة الحياة ـــ والذين يظنون أن المسيحية هي عبوس واكتئاب يظلمون المسيحية، وما أكثر المرات التي يظهر فيها المسيحي كإنسان حزين في جنازة .. فواجب المسيحي أن يظهر طعم الحياة وأفراحها حيثما يكون..

ثم يواصل السيد المسيح حديثه قائلاً إن فسد الملح، وفقد «ملوحته»، فإنه لا يصلح لشيء إلا لأن يطرح خارجاً ويداس من الناس..

هذه هي الحقيقة التي يرددها العهد الجديد دائماً. إن فقدان النفع هو بداية الكوارث ـــ فإذا لم يكن المسيحي مؤدياً القصد من حياته كمسيحي، فسوف يكون في طريقه إلى المصائب ..إذا لم نعمل لأجل نقاوة العالم وحفظه من الفساد، وإشاعة البهجة والصفاء فيه، فإننا بلا شك نكون مصدر شقاء ومتاعب.

وقد استخدم المسيحيون الأولون هذه الآية بكيفية غريبة، مستخدمين التقاليد اليهودية أيضاً. فقد كان من عادة مجامع اليهود آن اليهودي الذي يضل بعيداً عن اليهودية، ثم يعود مرة ثانية إلى الإيمان، لا بد عليه قبل أن يقبله المجمع، أن يرتمي تائباً أمام باب المجمع، ويدعو الناس أن يدوسوا عليه وهم داخلون. وقد أخذت الكنيسة المسيحية الأولى في بعض الأماكن هذه العادة ، وأخذت تمارس هذه الطريقة مع المسيحي الذي يطرد من الكنيسة تأديباً له، بأن تطلب منه قبل أن تقبله الكنيسة ثانية، أن يرتمي عند باب الكنيسة، ويدعو الداخلين قائلاً «دوسوا عليّ ، أن الملح الذي فقد ملوحته».

نور العالم

(متى ٥:١٤، ١٥)

هذا أعظم ثناء يمكن أن يقدم إلى الفرد المسيحي، لأن المسيح يصف المسيحي هنا، بكلمة نعت بها نفسه عندما قال: «ما دمت في العالم فأنا نور العالم» يوحنا٩:٥ ـــ لذلك عندما يطلب المسيح من التلاميذ أن يكونوا نور العالم، فهو يطلب منهم أن يكونوا مثله.

وعندما استخدم يسوع هذا التعبير، كان يستخدم تعبيراً معروفاً عند اليهود. فقد كانوا يصفون

أورشليم بأنها «نور للأمم». وكانوا يلقبون المعلم المشهور عندهم بأنه «مصباح إسرائيل». والكيفية التي استخدم بها اليهود هذا التعبير توضح أمامنا الأسلوب الذي استخدمه المسيح أيضاً، فقد كان اليهود يعلمون أن الإنسان لا يجعل من نفسه نوراً، فأورشليم أضاءها الله، فالنور الذي يشع من الشعب أو الفرد مستعار من الله — هكذا الحال مع المسيحي، إذ لا يطلب منه أن ينتج النور، بل أن يعكس نور المسيح. فالنور الذي يضيء به المسيحي العالم، إنما يأتي من وجود المسيح في القلب.

وحين قال المسيح للتلاميذ «أنتم نور العالم» ماذا كان يقصد؟

(١) إن الهدف من النور هو أن يظهر للناس.

كان الناس يستخدمون المصابيح التي تضاء بالزيت والفتيل. ولم يكن استخدام أعواد الثقاب معروفاً في ذلك الوقت. لذلك لم يكن من السهل إعادة إشعال النور عندما ينطفيء. لذلك كان الناس إذا تركوا منازلهم، لا يطفئون المصباح، بل يضعونه تحت مكيال ، لئلا يتسبب في بعض الخسائر إذا ترك على المنارة وانقلب.

لكن القصد الأساسي من السراج، أن يضيء للناس، وليس أن يوضع تحت المكيال..

هكذا المسيحية، المقصود منها أن تظهر للناس . وقد قال أحدهم مرة «لا يوجد شيء اسمه المسيحية الخفية، فإما أن الخفاء يحطم المسيحية، أو أن المسيحية تتغلب على الخفاء».

فلا بد إذاً أن تظهر مسيحية الإنسان لجميع الناس، وليس في داخل الكنيسة فحسب. فالمسيحية التي يقف تأثيرها عند أعتاب الكنيسة، لا فائدة منها، بل على العكس ينبغي أن تظهر المسيحية بصورة أوضح في نشاطنا العادي في العالم. أتدرون أين يجب أن تظهر المسيحية؟ إنها تظهر في معاملاتنا العادية، في كيفية معاملتنا لصبي البقال، وفي أسلوبنا في مخاطبة عامل المطعم، وفي الأسلوب الذي نتعامل به مع من يشتغلون تحت إمرتنا، ومن نشتغل تحت إمرتهم، وفي ملاهينا وألعابنا، في أسوبنا في الكلام، وفي الكتب التي نقرؤها.

فالمسيحي يجب أن يكون مسيحياً بمعنى الكلمة في المصنع، والمتجر، والمكتب، وحجرة الدراسة، وعيادة الطبيب، والمطبخ، وفناء الألعاب، كما يكون في الكنيسة تماماً.

إن المسيح لم يقل «أنتم نور الكنيسة» بل قال «أنتم نور العالم».

(٢) من أهداف النور، الهداية والإرشاد، فالمنار يستخدم لهداية السفن في البحار، وبدون النور في الشوارع يتعثر الإنسان. النور يضيء الطريق. هكذا يكون عمل المسيحي، إنه يضيء الطريق أمام الآخرين، فمن الضروري أن يكون المسيحي قدوة ومثالاً أمام الآخرين.

وقد يحدث أن يقف جماعة من الناس في موقف، يجدون أنفسهم على وشك أن يعملوا عملاً لا يرضي الضمير الحي. فإذا كان في الجماعة شخص مسيحي. يستطيع أن يقول بشجاعة إنه لا يستطيع أن يشترك في هذا العمل. فإن كثيرين غيره سوف ينالون شجاعة لكي يمتنعوا هم أيضاً...

إن وظيفة المسيحي هي أن يكون قائداً في عمل الخير، وفي الامتناع عن الشر. وهناك كثيرون ليست لديهم الشجاعة الأدبية أن يقفوا في جانب الحق، لكنهم إذا وجدوا من يشجعهم ويقودهم، ساروا في طريق الحق. إن العالم محتاج إلى أنوار تهديه، فإن لم يجدها في جماعة المسيحيين، فأين يجدها؟

٣ــ والنور يستخدم أحياناً للإنذار والتحذير ــ إنه يحذرنا من مكامن الخطر. وهذا واجب المسيحي أيضاً. فليس أشق على النفس من سماع أحدهم يقول: «ما كنت أصل إلى هذه الحالة لو وجدت إنساناً يحذرني ويوبخني». إلا أن التوبيخ والتحذير لا يكون بروح الغضب والدينونة والثورة والتجريح، بل بروح الحب والعطف.

الإشراق في سبيل الله

(متى ٥:١٦)

وهنا نرى أمرين:

١ــ إن الناس يجب أن ترى أعمالنا الحسنة. وفي اللغة اليونانية كلمتان بمعنى الحسن والصلاح، الكلمة الأولى تصف الصلاح في طبيعته، والكلمة الثانية تصف الحسن، ليس في طبيعته فحسب، بل في جماله وجاذبيته. وقد استخدم السيد المسيح الكلمة الثانية في هذه العبارة. إن أعمال المسيحي لا ينبغي أن تكون صالحة في طبيعتها فحسب، بل أن تكون جميلة وجذابة .. ومن المؤسف أن ما يسمونه صلاحاً في المسيحية أحياناً يتسم بالبرود والجمود. فهناك صلاح يدعو إلى النفور، وصلاح جذاب.. وأعمال المسيحي ينبغي أن تكون جذابة مشرقة.

٢ــ وأعمالنا الحسنة هذه، ينبغي أن تكون جذابة .. لا لتجذب الأنظار إلينا نحن، بل لتجذبها إلى الله.

إن حديث السيد المسيح هنا يمنعنا من أن نظهر «الصلاح المسرحي» الذي هدفه جذب الأنظار إلينا.

قيل إن مودي كان يحضر مرة أحد المؤتمرات، التي كان يشترك فيها بعض الشباب المتحمس دينياً، وفي إحدى الليالي، قضى هؤلاء الشبان ليلة كاملة في حلقة الصلاة، وفي الصباح المبكر قابلوا مستر مودى وسألهم عما كانوا يفعلون. فقالوا له «ألا تستطيع أن تلاحظ أننا كنا نقضى الليل كله في الصلاة. ألا ترى أن وجوهنا تلمع لأننا كنا مع ربنا؟» فأجابهم مودي برفق قائلا: «ياأبنائي، إن موسى لم يكن يعرف أن وجهه كان يلمع» ــ إن الصلاح الذي تحس به، والذي يجذب الأنظار إلى ذاته، ليس هو الصلاح المسيحي.

إن المسيحي لا ينبغي أن يفكر فيما قد يفعله هو، بل فيما أعانه ربه أن يفعله.. ولا يحاول أن يجذب العيون إلى شخصه، بل يوجهها نحو الله. وما دام الناس يفكرون في المديح والشكر والتقدير الذي ينالونه لأجل ما يعملون، فإنهم لم يبدأوا بعد في الطريق الصحيح نحو الحياة المسيحية الحقة.

يسوع والناموس

(متى ٥:١٧ ــ ٢٠)

عند قراءة هذه الفقرة لأول وهلة، يبدو غريباً أن يتحدث المسيح بهذا الكلام في العظة على الجبل. ففي هذه العبارات يؤكد المسيح صفة الناموس التي لا تزول، ومع ذلك فإن بولس الرسول يقول: « لأن غاية الناموس هي المسيح» رومية١٠: ٤ بمعنى أن الناموس انتهى إلى المسيح. كما أننا نستطيع من دراسة حياة المسيح ، أن نراه يكسر الناموس في نظر اليهود، فلم يكن يراعي غسل الأيدى، وهو التقليد اليهودي الذي اعتبروه جزءاً من الناموس.

وقد شفى يسوع المرضى في السبت مع أن الناموس يمنع ذلك عند اليهود. بل إن المسيح قُدم إلى المحاكمة وصُلب بإعتبار أنه يكسر الناموس. ومع ذلك فإننا نجد المسيح هنا يتحدث عن الناموس بتوقير واحترام، لا يستطيع أن يصل إليه الكتبة والفريسيون. فقد حسب يسوع الناموس مقدساً، حتى أنه إلى أن تزول السماء والأرض، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس.

ولقد أثار هذا القول دهشة الناس، حتى إن البعض قالوا إن متى، وهو يكتب إنجيله لليهود، أضاف هذا الكلام من عنده ليقنع اليهود ... لكننا لا نوافق على هذا الرأى، فإن الكلام هنا يحمل نبرات المسيح. وسنرى ما يقصده المسيح منه.

١ــ معاني كلمة «الناموس»

عندما كان اليهود يتحدثون عن «الناموس» ، كانوا يقصدون واحداً من أربعة معان :

(أ) فقد استخدموا كلمة «الناموس» للدلالة على الوصايا العشر .

(ب) وقد استخدموا الكلمة عينها، للدلالة على الأسفار الخمسة الأولى في العهد القديم. فهي عندهم أهم الأسفار، وتحتوى على الناموس أو الشريعة.

(جـ) وقد استخدموا التعبير «الناموس والأنبياء »، لوصف الكتاب المقدس كله عندهم أي أسفار العهد القديم.

(د) كما أنهم استخدموا كلمة «الناموس» للدلالة على «ناموس الكتبة» أي الشروح والإيضاحات الشفوية، التي وضح بها الكتبة الشريعة.

وإبان حياة المسيح على الأرض، كان أغلب اليهود عندما يتحدثون عن الناموس، يقصدون شريعة الكتبة هذه، وهي الشريعة والقوانين التي عارضها يسوع بولس الرسول بشدة.

٢ــ شريعة الكتب:

في العهد القديم نجد قليلاً من الشرائع والنظم المحددة، وأغلب التعاليم التي تضمنها، كانت مبادىء عامة يأخذها الإنسان ويسترشد بها، ويطبقها في حياته الشخصية تحت إرشاد الله في الظروف المختلفة. والوصايا العشر ليست شرائع محددة ولكن كل وصية من هذه الوصايا تشير إلى مبدأ هام

يتخذه الإنسان ، ويستنبط منه القوانين التي ينظم بها حياته.

إلا أن اليهود في العصور المتأخرة بعد تلقي هذه الشريعة، لم يعتبروا المبادىء العامة الموجودة بها كافية. لقد حسبوا أن كل حالة من الحالات الدقيقة التي تمر بالإنسان، ينبغي أن يكون في الشريعة رد عليها وموقف منها. فإذا كانت حالة ما غير واضحة وضوحاً قاطعاً في الناموس، فلا بد أن تكون متضمنة فيه. لذلك اعتقدوا أنه من الناموس يمكن أن نستخرج قانوناً ينظم الحياة لكل إنسان ولكل موقف خاص يواجهه الإنسان. لذلك ظهرت الجماعة التي دعيت باسم «الكتبة» الذين خصصوا حياتهم للاجتهاد والشرح، واستنبطوا من المبادىء العامة التي في العهد القديم، آلافاً متعددة من القوانين والأحكام.

ونستطيع أن نورد أمثلة قليلة على ذلك:

من المبادىء التي يقدمها الناموس لحفظ السبت، أن الإنسان عليه أن لا يعمل فيه عملاً ما. لكن الناموسيين أرادوا أن يشرحوا هذا المبدأ فتساءلوا: ما هو العمل؟ ثم ابتدأوا يشرحون المقصود بالعمل. فمثلاً إذا حمل الإنسان حملاً يوم السبت يعتبر هذا عملاً. لكنهم عادوا فتساءلوا: ما هو الحمل؟ وابتدأ ناموس الكتبة يشرح ما هو الحمل؟ فقالوا «إن الحمل هو الطعام الذي يضارع وزن تينة يابسة، والخمر الذي يكفي أن يمتزج في كأس أو قدح، واللبن الذي يمكن شربه مرة واحدة، والعسل الكافي لوضعه على جرح، والزيت الكافي لدهن عضو واحد من أعضاء الجسم، والورق الذي يكفي لكتابة إنذار الجباية عن بيت واحد، والحبر الذي يكفي لكتابة حرفين من الكلام، والقصبة التي تصلح أن تكون ريشة للكتابة .... وهكذا قضوا ساعات لا عداد لها، يناقشون ما إذا كان يحل للإنسان أن ينقل مصباحا من مكان إلى آخر يوم السبت ، وإذا كان صانع الملابس يحسب متعدياً على الناموس إذا كان يحمل في ملابسه إبرة يوم السبت، وإذا ما كان يحل للإنسان أن ينقل مصباحاً من مكان إلى آخر يوم السبت ، وإذا كان يجوز للإنسان أن يخرج بأسنان صناعية يوم السبت، وإذا ما كان مصرحاً للإنسان أن يحمل طفله يوم السبت.. لقد بات الناموس في نظر الكتبة مجموعة كبيرة من الشرائع والقوانين والأحكام التافهة.

و«الكتابة» كانت تعتبر عملاً يوم السبت ... لكن ما هي الكتابة؟ قال الكتبة إن الذي يكتب يوم السبت حرفين من الأبجدية، سواء بيده اليمنى أو اليسرى، سواء بلغة واحدة أو لغتين، بحبر من نوع واحد أو من نوعين، فإنه يخطيء ... كذلك الذي يكتب حرفين دون وعى سواء بالحبر أو بأي نوع من الطلاء الذي يترك أثراً باقياً. كذلك الذي يكتب حرفين على حائطين متجاورين، أو على صفحتين متقابلتين، بحيث يمكن قراءتهما، معاً، يعتبر مخطئاً . أما الذي يكتب على تراب الأرض أو على الرمال، أو على أي شيء لا يترك أثراً باقياً فإنه لا يخطيء. كذلك إذا كان يكتب حرفاً على الأرض، وحرفاً على حائط البيت، أو حرفاً على صفحة، وحرفاً آخر على صفحة أخرى من الكتاب، بحيث لا يمكن قراءتهما معاً، فإنه لا يرتكب خطية.

ومحاولة شفاء المريض تعتبر عملاً غير مسموح به يوم السبت لكن ما هو الشفاء؟ إذا كانت الحياة يهددها خطر فإن الشفاء مسموح به يوم السبت، خاصة في أمراض الأذن والأنف والحلق،

ولكن بشرط اتخاذ الخطوات التي تمنع حالة المريض من أن تسوء فقط، ولا ينبغي عمل شيء يساعد على تحسن حالة المريض، وإلا يعتبر عملاً غير مسموح به. فيمكن وضع ضمادات على جرح يوم السبت بدون مرهم، ويمكن وضع حشوة من القطن في الأذن الملتهبة يوم السبت لكن بدون دواء!

هكذا كان الكتبة يشرحون أدق التفاصيل، ويعتبرون هذه القوانين ناموساً ينبغي أن يسير الناس عليه. ولقد كان «الكتبة» هم الذين يضعون هذه الشرائع والأحكام، ويتوسعون في شرحها وتحديدها. أما «جماعة الفريسيين» أي «المنفصلين أو المعتزلين»، فقد خصصوا حياتهم لاتباع هذه الشرائع، وامتنعوا عن كل أعمال أخرى عادية في الحياة.

ولم تكن هذه الشرائع مكتوبة مدة طويلة من الزمن، وكان الناس يتداولونها شفوياً بالرواية. ولكن في القرن الثالث بعد الميلاد، كتب اليهود ملخصاً لها وراجعوه، ويسمى هذا الملخص «المشنا» (mishnah) وهو يحتوي على ثلاث وستين مقالة في مختلف الموضوعات، ويبلغ عدد صفحاتها المكتوبة نحو ٨٠٠ صفحة. ثم ابتدأ علماء اليهود بعد ذلك يشرحون «المشنا» بشروح مختلفة تعرف باسم «التلمود» (Talmud)، والنسخة الأورشليمية من التلمود تقع في إثني عشر مجلداً، والنسخة البابلية من التلمود تبلغ ستين مجلداً.

وقد كان المدققون من اليهود في وقت حياة المسيح، يعتبرون أن خدمة الله هي حفظ آلاف متعددة من الشرائع والنواميس واتباعها، واعتبروا حفظ هذه الشرائع موضوع حياة وموت ومصير أبدي.

هذا الناموس، بهذا المعنى، لم يكن ما قصده المسيح عندما قال إنه لم يأت لينقض الناموس، وأن السماء والأرض تزولان قبل أن تزول نقطة أو حرف منه .. فإن المسيح نفسه كان يكسر هذه الشرائع الإنسانية الوضعية، وكان يدينها. وهكذا كان بولس الرسول.

٣ـ روح الناموس:

ماذا كان يسوع يقصد إذاً عندما تحدث عن الناموس؟ لقد قال إنه لم يأت لينقض الناموس بل ليكمله، ومعنى ذلك أنه جاء ليوضح المعنى الحقيقي للناموس. فإن وراء النواميس الكثيرة المتواترة عن الكتبة، كانت هناك حقيقة هامة، لم يفهمها الكتبة والفريسيون فهماً صحيحاً، وأساءوا إدراكها. هذه الحقيقة العظمى، هي أن واجب الإنسان أن يبحث عن إرادة الله، ومتى عرفها ينبغي عليه أن يكرس حياته لطاعتها، لقد كان الكتبة والفريسيون محقين في البحث والاجتهاد لمعرفة إرادة الله، وكانوا محقين في تكريس حياتهم لطاعتها، لكن وجه الخطأ الذي وقعوا فيه، أنهم ظنوا أن مشيئة الله تنحصر في طاعة المجموعة الهائلة من القوانين والشرائع التي وضعوها هم بأنفسهم.

ما هي المبادىء الحقيقية التي تكمن وراء الناموس، والتي جاء المسيح ليكملها، وما هي المعاني الحقيقية التي جاء يسوع ليظهرها؟

وإننا إذا نظرنا إلى الوصايا العشر، التي هي أساس كل الناموس، فإننا نستطيع أن نتبين أن معناها كله كامن وراء كلمة واحدة:

هي كلمة «الاحترام» أو بالأحرى «التوقير» ـ إنها تنادى بتوقير الله واسم الله، ويوم الله، واحترام الوالدين، والحياة، والممتلكات، واحترام الشخصية، والحق، واحترام سمعة الآخرين، واحترام الإنسان لذاته، حتى لا تتسلط عليه الرغبات الشريرة ـ هذه هي المباديء التي نراها من وراء الوصايا العشر. إن أساس الوصايا العشر هو توقير الله واحترام الآخرين، واحترام نفوسنا. فبدون هذه الروح لن يكون هناك ناموس.

ولقد جاء المسيح ليرينا عملياً في الحياة، كيف تكون اتجاهاتنا نحو الله ونحو الآخرين. لقد جاء ليعلمنا كيف نقدم لله التوقير الواجب، وللآخرين الاحترام الواجب. ولم يكن هذا الاحترام هو طاعة مجموعة هائلة من الأحكام الصغيرة. إن الله يطلب الرحمة لا الذبيحة، ويطلب المحبة لا الطقسية. هذه المحبة لا تظهر في مجموعة من النواهي التي ينبغي على الناس أن يتجنبوها، بل تظهر في استجابتهم الإيجابية لداعي المحبة، وتشكيل حياتهم وفقاً لمقتضياتها.

إن هذا التوقير الذي نراه أساساً للوصايا العشر لا يمكن أن يزول . إنه أساس العلاقة بين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان.

٤ـ الناموس والإنجيل:

إن حديث المسيح عن العلاقة بين الناموس والإنجيل يتضمن بعض المباديء العريضة نوجزها فيما يلي:

(أ) إن يسوع يقصد أن هناك نوعاً من الاستمرار بين الماضى والحاضر. فإنه ينبغي أن لا ننظر إلى الحياة كأنها معركة بين الماضى والحاضر. إن الحاضر وليد الماضى.

[بعد هزيمة دنكرك في الحرب العالمية الثانية، التي عانت منها بريطانيا أشد العناء، كان تفكير الناس متجهاً نحو البحث عمن يلومونهم بسبب هذه الكارثة التي أصابت القوات البريطانية، وقد حاول البعض أن يشيروا بأصبع الاتهام إلى بعض من كانوا يتولون القيادة في الماضى، لكن ونستون تشرشل قال للناس قولاً حكيماً حين قال «إن إبتدأنا مشاجرة بين الماضى والحاضر، سوف نتبين أننا قد فقدنا المستقبل].

إذاً كان لا بد أن يكون الناموس ليأتي الإنجيل، كان لا بد أن يعرف الناس الفرق بين الخير والشر، وكان لابد أن يتبين البشر عجزهم، عن أن يوقروا مطاليب الناموس، وأنهم قاصرون عن إرضاء الله. كان لا بد أن يشعر الناس بخطاياهم، وحقارتهم، وعدم استحقاقهم.

إن الناس ميالون إلى إلقاء اللوم على الماضى، وأحياناً يكونون محقين في ذلك، لكن في الوقت عينه، ينبغي أن يعترفوا بأنهم في الحاضر مدينون للماضى. والصورة التي يرسمها المسيح هنا هي أن واجب الإنسان، لا أن ينسى الماضى أو ينتقص منه، بل أن يبني على أساسه ويكمل. لقد دخلنا على تعب الآخرين، فيجب أن نتعب نحن أيضاً، ليدخل آخرون على تعبنا.

(ب) وفي هذا الصدد يحذر المسيح الناس، من أن يظنوا أن المسيحية ديانة سهلة. فقد يقول

المسيح حررنا من الناموس. لذلك فلنعمل كما نشاء. وقد يتصور البعض أن مسئولياتهم وواجباتهم قد انتهت. لكن المسيح هنا، يطلب أن يزيد بر المسيحيين على بر الكتبة والفريسيين. فماذا كان يقصد بذلك؟ إن الدافع وراء حياة الكتبة والفريسيين، كان رغبتهم في إرضاء مطالب الناموس. ومن الناحية النظرية، يمكن للإنسان أن يوفي مطاليب الناموس، بإطاعة كل الشرائع الدقيقة التفصيلية التي أوردها الناموس. وعند ذلك يقول الإنسان «لقد أكملت كل ما يطلبه الناموس، فليس هناك عليّ واجب آخر» ــ أما الدافع وراء حياة المسيحيين فينبغي أن يكون المحبة. إن رغبة المسيحي هي أن يظهر عرفانه، بالجميل العظيم لله الذي أحبه محبة فائقة لا توصف وإرضاء مطاليب المحبة، لا يمكن إتمامه ولو نظرياً. فنحن إن أحببنا من كل قلوبنا، فإننا نحس أنه ولو قدمنا خدمة طول الحياة، لو قدمنا الشمس والقمر والنجوم، فإننا نكون لم نقدم ما فيه الكفاية. فإن كل شيء في مجال الطبيعة يحسب شيئاً بسيطاً بالنسبة للمحبة.. فخدمة المحبة بلا حدود.

لقد كان اليهودي يريد إرضاء ناموس الله،، وللناموس حدود. لكن المسيحي يظهر عرفان جميل المحبة، ومطاليب المحبة لا حدود لها في الزمان وفي الأبد.

إن ما فعله يسوع، هو أنه وضع أمام الناس محبة الله وليس ناموس الله. وقديماً قال أوغسطينوس «إن الحياة المسيحية يمكن إيجازها في عبارة واحدة: «أحبب الله وافعل ما شئت». لكن عندما نتبين فعلاً كيف أحببنا الله، فإن رغبة حياتنا القصوى تكون أن تتجاوب مع هذه المحبة، وهذا هو أعظم عمل في العالم كله، لأنه العمل الذي يتطلب من الإنسان، أكثر جداً مما يتطلبه أي ناموس. إنه يتطلب الحياة كلها.

بين القديم والجديد

مقدمة للأعداد ٢١ ــ ٤٨ :

لقد جاء يسوع، لا لينقض الناموس بل ليكمله، وليعطي للناموس القديم معنى روحياً جديداً ــ وفي النصوص الواردة في متى ٥: ٢١ــ٤٨ نرى تعليماً من أهم التعاليم في العهد الجديد. وقبل أن ندرس فقرات هذا الجزء بالتفصيل، يجدر بنا أن نلاحظ أمرين في تعاليم المسيح هنا، وهما سلطان المسيح في التعليم، والمقياس الجديد الذي كان المسيح يقيس به الأفعال.

أولاً: سلطان المسيح في التعليم:

لقد تحدث المسيح بسلطان لم يفكر أو يحلم إنسان آخر أن يستخدمه أو يتحدث به. ولقد كان هذا السلطان مصدر دهشة جميع الذين استمعوا إليه. ففي بداية خدمته، وبعد التعليم الذي قدمه في المجمع في كفر ناحوم، قيل عن الذين استمعوا إليه «فبهتوا من تعليمه لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة» (مرقس١: ٢٢).

ويختتم متى روايته عن العظة على الجبل بهذه الكلمات:

«فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بهتت الجموع من تعليمه. لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان

وليس كالكتبة» (متى٧:٢٨،٢٩).

ومن العسير علينا أن نتصور كيف كان تعليم المسيح بهذا السلطان يبدو في آذان الذين سمعوه من اليهود .. إنه كان أمراً عجيباً. فقد كان الناموس مطلق القداسة في نظر اليهود، وقد قال علماؤهم إن الذي ينكر الناموس من السماء، ليس له نصيب في الحياة الأخرى. بل إنهم قالوا إنه إذا أنكر إنسان قدسية عبارة واحدة فقط في الناموس، ونسبها إلى موسى وليس إلى الله، فإنه يقع تحت دينونة ـــ ومع ذلك فإننا نرى فى هذا الجزء أكثر من خمس مرات، أن يسوع يقول «سمعتم أنه قيل .. وأما أنا فأقول لكم...» وكأنما به يتخذ لنفسه سلطاناً خاصاً، أن يوضح ويشرح ويضيف إلى الناموس.. الذي حسبه اليهود كلمة الله التي لا تتغير ولا يمكن تغييرها.. ولم يحاول يسوع أن يبرر ما يقوله، ولكنه تحدث بسلطان من له حق أن يتكلم، دون أن يبحث عن مبررات لرأيه...

ولم يكن أحد قد سمع شيئاً كهذا من قبل .. لقد كان الأنبياء في القديم يستهلون كلامهم بالقول «هكذا قال الرب .. أو هكذا يقول الرب». وكأنما يبررون ما يقولونه بأن الله كلمهم بهذا ـــ وكان الربيون اليهود والكتبة يبدأون حديثهم بالقول «هناك تعليم يقول كذا وكذا». ولم يكن أحد منهم يجرؤ أن يتحدث بتعليم معين، دون أن يبحث عما يؤيده ويبرره في الشريعة، ويقتبس من تعاليم القدماء ما يبرر ذلك ويؤيده.. لكن يسوع لم يفعل هذا أبداً. إنما قال «وأما أنا فأقول لكم ...». إن شخصاً عادياً لا يمكن أن يفعل هذا أبداً ... إن سلطان المسيح يبرر نفسه .. لقد تكلم بهذا لأنه إبن الله .. ولا يستطيع إنسان أن يستمع إلى كلام المسيح مخلصاً، دون أن يحس أنه يتكلم بكلام الله وبسلطان الله.

ثانياً: المقياس الجديد:

ولم يكن سلطان يسوع هو وحده المدهش، بل إن المقاييس التي وضعها أمام الناس كانت مذهلة أيضاً. لقد قال المسيح إنه في نظر الله لا يعتبر القاتل وحده هو المذنب والمستحق للعقاب، ولكن الذي يغضب على أخيه يستحق العقاب. والإنسان الذي يسمح لرغبة نجسة أن تجول وتبقي في خاطره وقلبه مذنب، كذلك الذي يزني. لقد كان هذا التعليم شيئاً جديداً، لم تتمكن عقول الناس أن تتبينه. فليس كافياً لكي يكون الإنسان بريئاً أن لا يقتل، ولكن ينبغي عليه أن لا يتمنى القتل. وليس عدم الزنى كافياً لإرضاء الله، لكن الرغبة نفسها أيضاً ينبغي أن نتحكم فيها.

فربما لم نضرب إنساناً في حياتنا، لكن من منا لم تراوده أبداً فكرة أن يضرب أحداً؟ لقد كان المقياس الجديد الذي قدمه المسيح، هو أن الأفكار تعادل الأعمال في أهميتها ، وأن لا نكتفي بأننا لا نرتكب خطية ما ، بل إنه يريدنا أن لا نفكر في أفعال معينة . هذا المقياس يختلف عن مقاييس الناس والعالم، فالعالم يعتبر الإنسان صالحاً ، إذا كان لم يعمل شيئاً شريراً ، والانسان لا يدين الناس حسب أفكارهم ونواياهم. ومن هذا المقياس الجديد تتبين الحقائق التالية:

(١) لونظرنا إلى الحقيقة في عمقها وجوهرها، لوجدنا أن نظرة المسيح هي النظرة الصحيحة، لأن طريق المسيح هو طريق الأمان الحقيقي. فلكل إنسان إلى حد ما ثاك جزء من الإنسان يهدف إلى الخير، وجزء آخر في الإنسان يهدف إلى الشر، وما دام الإنسان كذلك فإن معركة داخلية تدور

في حياته على الدوام، وهناك صوت يدعوه أن يعمل المحرم والممنوع، وصوت يدعوه أن يمتنع عنه. وقد شبه الفيلسوف اليوناني أفلاطون النفس يقودها جوادان، أحدهما هادىء مطيع يخضع للأوامر، والثاني جواد جامح ثائر. الأول هو العقل، والثاني هو العاطفة وعلى الإنسان أن يقود مركبة حياته لكي يستخدم العقل للتغلب على العاطفة — ولكن ما أكثر المرات التي تنطلق فيها العاطفة وتتغلب على العقل. إذاً ما دام هناك هذا الصراع فلا يوجد أمان، فالأمان الحقيقي هو السيطرة التامة على الرغبة الشريرة.

(٢) إذا كان مقياس صلاح الإنسان لا يعتمد على الأفعال الظاهرة فحسب، بل على الرغبات والنيات، فالله وحده هو الذي يستطيع أن يدين الناس، لأن الله وحده هو الذي يعرف سرائر الناس، فقد يكون هناك أناس تبدو أعمالهم الظاهرة صالحة وكاملة، ويستطيعون أن يقفوا أمام دينونة البشر، لكنهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام دينونة الله، فاحص القلوب ومختبر الكلى.

(٣) وإذا كان الأمر كذلك، فإن النتيجة الحتمية هي أن جميعنا نحن البشر ساقطون في الخطية، ولا يستطيع إنسان أن يقف بريئاً أمام دينونة الله. وحتى ولو عاش الإنسان بحسب الظاهر حياة أخلاقية كاملة، فأنت غير واجد مخلوقاً يستطيع أن يقول إن قلبه لم يشته عملاً شريراً، أو أن فكراً محرماً لم يخطر على باله يوماً ما.

وفي البحث عن الكمال الداخلي، لا يوجد طريق يرضي الله، إلا أن يقول الانسان إنه ميت، وأن المسيح يحيا فيه. وهذا ما قاله بولس «مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ» (غلاطية٢: ٢٠).

إن هذا المقياس الجديد يقتل كل كبرياء في الإنسان، ويدفعنا جميعاً إلى المسيح الذي وحده يستطيع أن يقدرنا أن نصل إلى المقياس الذي وضعه هو أمامنا.

الغضب المنهى عنه

(متى ٥: ٢١ — ٢٢)

هنا نرى المثل الأول للمقياس الجديد الذي يقدمه المسيح. فإن الناموس القديم يقول «لا تقتل» (خروج٢٠: ١٣)، لكن المسيح هنا، يبين أنه حتى الغضب على الناس ممنوع. وقد كان اليهود يعتقدون بتدرج الأحكام حسب الذنوب. فهناك ما يستوجب الحكم في مجلس القرية أو محكمة القرية، وهناك ما يستوجب النظر أمام المجمع أي السنهدريم، وهناك ما يستوجب أكثر من ذلك، مثل القطع والحرمان النهائي من جماعة اليهود. ونحن نرى المسيح هنا، يستخدم هذا النظام المألوف لدى اليهود، ليبين لهم التدرج في خطية الغضب والحكم عليها:

أولاً: الغضب المستقر في القلب:

يقول المسيح إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم .. وهي نفس العقوبة

التي يقررها اليهود على القاتل .. ويقول الشراح إن كلمة «باطلاً» غير موجودة في النسخ الأصلية المشهورة، وكأنما المسيح يوصي بعدم الغضب إطلاقاً سواء بسبب أو بدون سبب.

وفي اللغة اليونانية كلمتان للتعبير عن الغضب، الكلة الأولى «توموس» وهي تعبر عن اشتعال النار في الهشيم، وتصف الغضب الذي ينفجر سريعاً وينطفىء سريعاً. أما الكلمة الثانية وهي المستخدمة هنا في هذا النص فهي كلمة «أورجي» وهي تصف الغضب الكامن المتأصل في قلب الإنسان .. الغضب الذي يحتضنه الإنسان في قلبه ويراعيه دائماً.

هذا الغضب يقول عنه المسيح إنه مستوجب الحكم. وفي نظام اليهود يكون الحكم في محكمة القرية، وهي تتكون من ثلاثة شيوخ إذا كان سكان القرية أقل من ١٥٠، ومن سبعة إذا كانت البلدة أكبر، ومن ثلاثة وعشرين شيخاً في المدن الكبيرة .. والمسيح لا يقصد هنا تنفيذ هذه الشريعة حرفياً بإحالة كل من يغضب على أخيه باطلاً إلى المحاكمة، بل يقصد أنه إذا كان الناس يحيلون القاتل إلى المحاكمة، فإن الذي يغضب يعتبر كذلك في نظر الله.

والكتاب المقدس عامة ينهي عن الغضب. قال يعقوب الرسول «لأن غضب الإنسان لا يصنع بر الله» (يعقوب١: ٢٠)، ويطلب بولس الرسول من أهل كولوسى أن يطرحوا عنهم: «الغضب والسخط والخبث والتجديف والكلام القبيح» (كولوسى٣: ٨).

وحتى التفكير الأدبي الوثني لا يشجع على الغضب. فقد قال شيشرون إنه عندما يحدث الغضب، لا يمكن أن يعمل الإنسان شيئاً صحيحاً أو معقولاً. وقد قال سنيكا الفيلسوف إن الغضب «جنون قصير».

ثانياً: الاحتقار:

ثم ينتقل المسيح إلى درجة ثانية من شرور الغضب، فيقول: «ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع». وكلمة «رقا» لا يمكن ترجمتها، لذلك فهي مكتوبة في الترجمة كما هي، وهي أصلاً نبرة صوتية تدل على الإحتقار. والذي يقول لإنسان (رقا) يحتقر ذلك الإنسان، وكأنه يقول له أيها الأبله أو فارغ العقل — فهي تعبير عن الاحتقار.

هناك قصة عن أحد معلمي اليهود اسمه سمعان بن اليعازر تقول، إنه كان راجعاً من عند استاذه، وهو فخور بنفسه وعلمه وصلاحه، فقابل إنساناً قبيح الخلقة يحييه، لكن المعلم اليهودي لم يرد عليه التحية بل قال له «رقا .. ما أقبحك هل كل أبناء بلدتك على هذه الدمامة والقبح؟» — فرد عليه الرجل قائلا: «هذا ما لا أعلمه، ولكن يمكنك أن تذهب وتقول لذاك الذي خلقني كيف أن خليقته قبيحة بهذا القدر».

إن إحتقار الآخرين خطية ذميمة.

لذلك يقول المسيح إن من قال لأخيه «رقا» يكون مستوجب المجمع، ويقصد مجمع السنهدريم الذي هو أعلى مجامع اليهود. ولم يكن يسوع يقصد ذلك حرفياً، لكنه أراد أن يبين للناس أنه إذا كان الغضب المكنون في القلب رديئاً، فإن احتقار الآخرين أردأ.

واحتقار الآخرين عمل غير مسيحي، فهو قد ينتج عن الكبرياء، وهو شر خطير، أو عن الغنى والثروة. والتفاخر بالثروة شيء رديء، أو نتيجة العلم والمعرفة، لكن العالم الحقيقي يشعر دائماً بجهله وحاجته إلى المعرفة. إن احتقار إنسان مات المسيح لأجله شيء ممقوت.

ثالثًا : الحط من سمعة الآخرين :

ثم يوالى المسيح حديثه بقوله «ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم». والأحمق هو الغبي، ليس غباءً عقلياً بل غباءً أدبياً وأخلاقياً. هو الجاهل الذي قيل عنه في مزمور ١٤:١ «قال الجاهل في قلبه ليس إله». إي أن الجاهل يحيا حياة شريرة، ويتمنى لو لم يكن هناك إله يحاسبه على شروره. فكلمة (أحمق) لا يقصد بها الحكم على المقدرة العقلية، بل على الحياة الأدبية والأخلاقية. وإذا قال أحد لآخر يا أحمق فهو يقصد أنه يحيا حياة مستهترة فيسيء إلى سمعته.

ويعتبر المسيح هذا العمل، الإساءة إلى سمعة الآخرين، مستحقاً عقاباً أكثر مما سبق كله.

فهو مستوجب نار جهنم.

وكلمة «جهنم» كلمة لها تاريخ، وقد استخدمها اليهود ووردت في نصوص كثيرة في العهد الجديد:

(متى٥:٢٢،٢٩،٣٠ و١٠:٢٨ و١٨:٩ و٢٣:١٥،٣٣ ومرقس٩:٤٣و٤٥و٤٧ ولوقا١٢:٥ ويعقوب٣:٦).

وهي تستخدم للدلالة على النار المستعرة، وقد رمز بها إلى الجحيم.

وأصل الكلمة في التاريخ اليهودي يشير إلى وادي ابن هنوم، وهو وادٍ في جنوب غرب مدينة أورشليم. وقد اشتهر بأنه المكان الذي ابتدأ فيه آحاز الملك عبادة النار للإله الوثني مولك أو مولوخ، الذي كان يقدم له الأطفال ويحرقون كذبائح. وقيل عنه في سفر الأيام الثاني ٢٨:٣ «وهو أوقد في وادي ابن هنوم وأحرق بنيه بالنار حسب رجاسات الأمم». وعندما جاء يوشيا الملك المصلح، وأوقف عبادة الأوثان، أمر أن يكون وادي ابن هنوم مكاناً ملعوناً.

«ونجس توفه التي في وادى ابن هنوم لكي لا يعبر أحد إبنه أو إبنته في النار لمولك» ٢ملوك٢٣:١٠

وكان من نتيجة ذلك أن أصبح وادي ابن هنوم، هو المكان الذي تلقى فيه القاذورات والأوساخ وفضلات مدينة أورشليم وتحرق هناك. أي أنه صار «محرقة القمامة». لذلك كانت النار تشتعل فيه دائماً، ويسوده دخان مظلم كثيف، وظهر فيه نوع من الدود من الصعب قتله. لذلك صار صورة رمزية للجحيم، وقال عنه المسيح «حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ» مرقس٩:٤٤.

لقد صار وادي ابن هنوم رمزاً للعنة حيث تلقى الأشياء القذرة وغير النافعة وتحرق. لذلك استخدم الاسم «جهنم» للدلالة على قوة الله المدمرة التي هي «الجحيم».

وكأنما المسيح بهذا القول ، يؤكد أن تشويه سمعة الآخرين هو قتل لسمعتهم وكرامتهم .. وهكذا يريد أن يقول لليهود: لقد قيل للقدماء إن من يقتل يكون مستوجب الحكم، لكني أقول لكم،

إن الدينونة لا تقع على القاتل فقط، فالرغبات الشريرة تستحق الدينونة أيضاً.

فالغضب الكامن في قلب الإنسان، أمر رديء..

واحتقار الآخرين بالإشارة أو الكلام أردأ..

وتشويه سمعة الآخرين هو الأمر الأردأ ..

إن الإنسان الذي يمتلىء قلبه بالغضب فيفعل هذه الأمور، يعتبر قاتلاً في قلبه..

الحاجز الذي لا يمكن تخطيه

(متى ٥:٢٣ ، ٢٤)

كانت القرابين والذبائح شيئاً معروفاً لدى الذين تحدث إليهم يسوع بهذا الكلام، فإذا أخطأ إنسان، عاقت خطيته العلاقة بينه وبين الله. لذلك كانت الذبيحة والقربان سبيلاً إلى إصلاح هذه العلاقة وإعادتها.

وفي شريعة التقدمات والذبائح، نستطيع أن نلاحظ أن المقصود بالذبائح والتقدمات هو التكفير عن الخطايا التي يقع فيها الإنسان سهواً، أو مدفوعاً بنزوة خالية من ضبط النفس. ونلاحظ هذا في سفر اللاويين.

«إذا أخطأت نفس سهواً في شيء من جميع مناهي الرب التي لا ينبغي عملها وعملت واحدة منها. وإن سها كل جماعة إسرائيل، وعملوا واحدة من جميع مناهي الرب التي لا ينبغي عملها وأثموا.. وإن أخطأ رئيس وعمل بسهو واحدة من جميع مناهي الرب إلهه...» (لاويين٤:٢، ١٣: ٢٢ إلخ) هذه الخطايا السهوية تكفر عنها الذبائح والتقدمات.

أما إذا كانت الخطية تمس شخصاً آخر أو حقوقاً لآخرين، فلا يمكن أن تكون الذبيحة نافعة للتكفير، ما لم يصحبها اعتراف وندامة وتوبة، تشتمل على محاولة علاج نتائج العمل الضار الذي عمله الإنسان.

«إن أخطأ أحد وخان خيانة بالرب وجحد صاحبه وديعة أو أمانة أو مسلوباً أو اغتصب من صاحبه. فإذا أخطأ وأذنب يرد المسلوب الذي سلبه .. أو كل ما حلف عليه كاذباً يعوضه برأسه ويزيد عليه خمسه .. ويأتي إلى الرب بذبيحة لإثمه» (لاويين٦).

وقد كان يوم الكفارة العظيم مخصصاً للتكفير عن خطايا كل الأمة، ولكن اليهود كانوا يعرفون يقيناً أن الذبائح في يوم الكفارة العظيم، لا يمكن أن تكون فعالة ما لم يصطلح الإنسان مع أخيه وقريبه. إن الجفوة بين الإنسان والله لا يمكن علاجها، ما لم تعالج الجفوة بين الإنسان والإنسان أولاً. فإذا كان إنسان، يقدم ذبيحة خطية عن سرقة ارتكبها، فإن الذبيحة لا تنفع، ما لم يرد ما سرقه أولاً. أما إذا اكتشف أن المسلوب لم يرد، فإن الذبيحة تعتبر نجسة وتحرق خارج الهيكل.

هكذا أراد المسيح أن يصور هذه الحالة. فالإنسان لا يقدم الذبيحة بنفسه بل يحضرها إلى الكاهن ليقدمها نيابة عنه. وعند حضور الشخص إلى الهيكل يكون قد جاز في مجموعة من الأروقة، مثل رواق الأمم، ورواق النساء، ورواق الرجال، ليصل إلى رواق الكهنة الذي لا يمكن أن يدخله غير لكهنة. وهكذا يقف العابد في دوره في صف طويل، على استعداد أن يعطى الذبيحة أو القربان للكاهن، ويداه على رأس الذبيحة ليعترف بخطاياه، ويحملها على الذبيحة التي تنوب عنه .. وهناك يتذكر الخصام الذي بينه وبين أخيه.

فإذا أراد أن تكون ذبيحته مقبولة ، فعليه أن يسرع ليصلح الجفوة بينه وبين أخيه أولاً.

لقد عبر المسيح بوضوح وقوة عن هذه الحقيقة الأساسية ... أن الحاجز الذي لا يمكن تخطيه هو علاقتنا بعضنا مع بعض .. فما لم نصلح علاقتنا معاً، لا نستطيع أن نتوقع أن الله يغفر لنا خطايانا...

وهذا هو الحاجز الذي يقف بيننا وبين الله، وهذا هو السبب في أن صلوات كثيرة تبقى غير مستجابة.

اصنع السلام في وقته

(متى ٥:٢٥ ، ٢٦)

وهنا نرى المسيح يقدم نصيحة عملية. فهو يوصي الناس أن يعالجوا المشكلات من بدايتها قبل أن تتراكم، وتسبب مشكلات أكثر في المستقبل.

ويسوع يصور لنا صورة خصمين في طريقهما إلى قاعة المحكمة، وهو يوصيهما أن يتراضيا معا قبل أن يصلا إلى قاعة المحاكمة، وإلا فإن القانون سيأخذ مجراه، وتحدث المتاعب لواحد منهما على الأقل.

وقد تبدو صورة الخصمين في طريقهما معاً إلى المحاكمة، صورة غريبة بالنسبة لنا في الوقت الحاضر، لكنها كانت مألوفة في ذلك الزمان القديم...

ففي ظل القانون اليوناني كان هناك نظام يقضي بأن يمسك الخصم بتلابيب خصمه، ويأخذه إلى المحكمة. وقد كانت الظروف التي يجوز العمل فيها بهذا النظام نادرة، لكنها موجودة، وأكثرها في حالة التلبس بالجريمة، مثل التلبس بالسرقة أو الخطف أو سرقة الملابس، أو انتحال الجنسية دون حق، أو العودة من المنفى دون عفو — ونتيجة لهذه العادة كان يمكن أن ترى خصمين يسيران معاً في مدينة يونانية في طريقهما إلى المحكمة.

وربما كان يسوع يتكلم أيضاً في ضوء الشريعة اليهودية، ولم يكن مثل ذلك الموقف مستحيلاً في ظل القانون اليهودي. والواضح أنه يتكلم عن حالة دين، لأنه يذكر أنه سيوفيه إلى الفلس الأخير، وقد كانت أمثال هذه الحالات تسوى بمعرفة مجلس الشيوخ المحلي في القرية أو المدينة، وكان من

الممكن أن ترى خصمين معاً في طريقهما إلى المحكمة، فإذا ظهر أن واحداً منهما مذنب ، فإنه يسلم إلى شرطي المحكمة . ويدعوه لوقا في روايته (الحاكم) (لوقا١٢: ٥٨،٥٩). وقد كان من واجب المحكمة أن تتأكد من دفع الدين أو سجن المذنب حتى يوفيه.

ويمكن أن تعني نصيحة المسيح أحد أمرين:

(١) فقد تكون نصيحة عملية، لأن الاختبار يعلمنا أن المشاجرة أو الخلاف إذا لم يعالج سريعاً، فإنه يرسب في أعماق الإنسان وتصير العلاقات أسوأ، فالمرارة تولد المرارة. وكثيراً ما انتقل الخلاف من شخصين إلى أفراد أسرتيهما على تعاقب الأجيال، وكان نتيجة ذلك وجود انقسامات خطيرة في الكنيسة أو المجتمع، ولو أن واحداً من الأطراف نال نعمة الإعتذار أو الإعتراف بالخطأ في بداية الأمر، لتجنب الطرفان شروراً كثيرة. إن حسم النزاع سريعاً واجب ضروري، حتى إن كان يتطلب منا شيئاً من التواضع للاعتذار أو الاعتراف بالخطأ، لكن هذه خطوة ضرورية لعلاج الموقف في أغلب الحالات، لكن الإصرار على الخلاف يجعل علاجه مستعصياً بعد زمن.

(٢) وقد يكون قصد يسوع أن واجبنا تسوية الخلافات مع الناس في فرصة الحياة، لئلا تنتهي الحياة وتقف أمام الله، قاضي الجميع. وقد كان اليهود يعتقدون أن يوم الكفارة يكفر عن خطايا الناس ضد الله، لكنه لا يكفر عن خطايا الناس ضد بعضهم البعض.

وخلاصة النتيجة هي صنع السلام في وقته، وحل المشكلات قبل أن تتفاقم.

الرغبة المحرمة

(متى ٥:٢٧ ، ٢٨)

هذا نموذج آخر من المقياس الجديد الذي وضعه يسوع. فقد كان الناموس يقول «لا تزن» (خروج٢٠: ١٤). وكان الناموس يعتبر هذه الخطية أمراً شنيعاً، حتى أنه كان يعاقب الطرفين بالموت (لاويين٢٠: ١٠)، لكن المقياس الجديد لا يكتفي بدينونة الفعل نفسه، بل الفكر أيضاً.

إن المسيح هنا لا يتحدث عن الغريزة الطبيعية عند الإنسان، بل إن النص اليوناني يبين أن الدينونة هنا على من ينظر إلى إمرأة بدافع الشهوة، أو أن تكون نظرته، بحيث تثير فيه هذه الرغبة وتوقظها.

وقد عرف اليهود منذ القديم، أن استخدام العين قد يحدث بكيفية تثير الرغبة المحرمة، لذلك قالوا في أمثالهم «إن العين واليد هما سماسرة الشيطان، وإن العين والقلب هما خدام الخطية».

وفي عالم مليء بالتجارب، نرى أن أشياء كثيرة قد تثير في الإنسان هذه الرغبات المحرمة، منها أنواع من الكتب والصور والألعاب. بل إن بعض الإعلانات عن السلع قد يستخدمها الشيطان لإثارة هذه الرغبة، وربما يسوع المسيح يحذر من يستخدم عينيه ليحرك هذه الرغبة، ويحذر من يجد متعة في مثل هذه الأشياء. إن كل شيء طاهر للطاهر، لكن صاحب القلب النجس، قد يبحث في أي منظر من المناظر، ليجد فيه ما يحرك رغبات محرمة في نفسه.

العلاج الجراحي

(متى ٥: ٢٩، ٣٠)

هنا نرى يسوع يطلب علاجاً جراحياً حاسماً، ببتر كل ما يسبب لنا الخطية، أو يغرينا لفعلها.

والكلمة المستخدمة هنا بمعنى «العثرة» جديرة بالإلتفات. فالكلمة من أصل يوناني هو (Skandalon)، وهي مشتقة من كلمة معناها «العصا التي يثبت فيها الطعم في الفخ». ففي هذه العصا يوضع الطعم، لإغراء الحيوانات على دخول المصيدة أو الفخ، وبذلك تكون أداة في هلاكها. فكأن الكلمة تعني كل ما يتسبب في هلاك الإنسان، ووراء هذه الكلمة صورتان:

الصورة الأولى صورة حجر مخبأ في طريق إنسان ليصطدم به، أو حبل ممتد في طريق إنسان للإيقاع به.

والصورة الثانية صورة حفرة في الأرض، ومغطاة بعناية ببعض القش والأغصان، فلا يراها الإنسان، ويضع أقدامه عليها فيسقط في الحفرة.

إن العثرة هي الشيء الذي يصيد الإنسان ويخدعه ويؤدي إلى هلاكه.

ماذا يقصد المسيح بالقول أن نقطع كل ما يسبب لنا العثرة؟ لا شك أنه لا يقصد تطبيق الكلام حرفياً، لأن العادات الرديئة والرغبات الشريرة، ليست متعلقة بجزء معين محدد في جسم الإنسان، بل هي نابعة من العقل والقلب والتصور. وكل هذه أشياء معنوية وليست حرفية.

إن هذه الفقرة تأتي مباشرة بعد الحديث عن الرغبات والأفكار الممنوعة المحرمة. وكأنما يفترض المسيح أن أحداً سأله بعد حديثه قائلاً: كيف نستطيع أن نتخلص ونحرر أنفسنا من الرغبات والأفكار غير النقية؟ الواقع هو أن هذه الأفكار تفاجئنا دون إرادتنا، ومن الصعب أن نغلق الباب دونها.

ونحن إذ نفكر في الإجابة عن هذا السؤال، يمكن أن نفكر في بعض المواقف التي يتخذها الناس حيال هذه الأفكار الشريرة.

ومن بين هذه المواقف، الإصرار المستمر على عدم التفكير في هذه الأمور. فهناك أناس يجلسون ويرددون قائلين: عزمت أن لا أعمل هذا الشيء.. عزمت على طرد هذا الفكر من عقلي...

لكن الإختبار يعلمنا، أنه كلما كررنا هذا الكلام، تركز تفكيرنا فيما نريد أن نبتعد عنه.

والنموذج الواضح في التاريخ لهذا الموقف، هو حركة الرهبنة التي بدأت في عصور الكنيسة الأولى، فإن هؤلاء الرهبان أرادوا أن يقطعوا علاقتهم بالعالم الشرير فاختاروا صوامع في الصحارى ليتعبدوا فيها، ولكنهم لم ينجوا من صراع الأفكار الشريرة.

فقد قيل عن القديس أنطونيوس أب الرهبان، إنه قضى خمساً وثلاثين سنة في عزلة صائماً، مصلياً، معذبا جسده، لكنها كانت سنوات مليئة بالصراع. وقيل في تاريخ حياته، إن الشيطان كان يحاول

أن يذكره بثروته ومطامع العالم .. وقيل إن الشيطان إتخذ صورة إمرأة ظهرت له في إحدي الليالى بحركات خليعة لتسقطه . وهكذا لم ينج من الصراع...

إذاً فالصراع لإيقاف الأفكار الشريرة لا يمنعها وقد يزيدها. فكيف تتغلب عليها إذاً. هناك طريقان:

الأول هو العمل المسيحي. إن الطريق الأمثل لهزيمة الرغبات الشريرة، هو أن نتملىء من النشاط والخدمة المسيحية، حتى لا يكون هناك وقت لمثل هذه الأفكار أن تدخل إلينا .. أن نفكر في الآخرين كثيراً، بحيث ننسى أن نفكر في نفوسنا.

والثاني هو أن نملأ عقولنا بالأفكار الصالحة .. فالطريق الأكيد لهزيمة الفكر الشرير، هو الإنشغال بفكر صالح.

بهذا نقلع عيوننا المعثرة، لنستخدم عيوننا في الخدمة والعون للناس، ونقطع أيدينا الآثمة، لنمدها بالتضحية والجهاد لأجل الآخرين.

الرباط الذي لا ينفصم

(متى ٥:٣١ ، ٣٢)

عندما تحدث المسيح عن نظام الزواج، كان يضع يده على أمر محسوس محدد. فلم يكن هناك وقت في التاريخ، كان فيه الزواج مهدداً بالإنهيار، مثل تلك الأيام التي جاءت المسيحية فيها إلى العالم. ففي ذلك الوقت، كان العالم يشهد مرحلة خطيرة في العلاقات العائلية، كانت تهدد المجتمع بالإنحلال والإنهيار. وفي ذلك الزمان كانت النظم السائدة هي النظم اليهودية واليونانية والرومانية، ولكي نعلم الظروف التي تحدث فيها المسيح عن الزواج، ينبغى علينا أن نتأمل قليلاً في نظام الزواج عند اليهود واليونان والرومان.

١ــ الزواج عند اليهود:

إن المتأمل في المثل اليهودية للزواج، يراها نظرياً من أسمى المثل والمبادىء، فقد كان الزواج يعتبر واجباً مقدساً، ينبغى على الإنسان أن يقوم به إتماماً لوصية الله «أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض»، لذلك فإن الإمتناع عن الزواج أو تأخيره، لم يكن مقبولاً إلا لعذر واحد، وهو التفرغ لدراسة الشريعة الإلهية. وإذا قصر إنسان في الزواج، يعتبر أنه أنقص من صورة الله في العالم، وعارض مشيئة الله ووصاياه.

وعلى مقتضى هذه المبادىء، كان اليهودي يكره الطلاق، لأن صوت الله قد أعلن «فاحذروا لروحكم ولا يغدر أحد بإمرأة شبابه. لأنه يكره الطلاق قال الرب» ملاخى٢:١٥،١٦ ــ وقد كان عند الربيين اليهود أمثال وحكم جميلة في هذا الصدد، مثل قولهم «إن الله طويل الأناة على كل خطية إلا خطية عدم العفاف»، «خير لليهودي أن يموت من أن يرتكب خطية قتل أو عبادة

أصنام أو زنا»، «إن المذبح نفسه يفيض دموعاً عندما يطلق إنسان إمرأة شبابه».

لكن المؤسف أنه على الرغم من هذه المثاليات الرائعة عند اليهود، كان التطبيق العملي بعيداً كل البعد عن المبادىء النظرية. فقد كانت العلاقات الزوجية على شفا هاوية، وكانت المرأة تعتبر في نظر اليهودي شيئاً بلا إرادة أو شخصية، وكانت تظل تحت سلطان أبيها إلى أن تصير تحت سلطان زوجها، بدون حقوق شرعية على الإطلاق — وكان الرجل يستطيع أن يطلق زوجته لأي سبب، وقد قال ناموس الربيين، إن المرأة يمكن تطليقها سواء بإرادتها أو بدون إرادتها، أما الرجل فلا يمكن تطليقه إلا بإرادته فقط.

ولعل السر في هذه الظاهرة ، أن اليهود أساءوا تفسير الناموس. ففي سفر التثنية ١:٢٤ تقول الشريعة « إذا أخذ رجل إمرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء، كتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته».

وكانت إجراءات الطلاق سهلة للغاية، إذ كانت مجرد كتاب طلاق يقول فيه الزوج « ليكن كعلوماً أنه مني صدر هذا الكتاب بطلاقك وتحريرك حتى يمكنك أن تتزوجي آخر كما تريدين». ثم يقدم لزوجته هذا المكتوب أمام اثنين من الشهود — وهكذا يتم الطلاق.

وقد كان محور التفسير يدور حول عبارة «وجد فيها عيب شيء» فقد اختلفت في تفسير هذه العبارة المدرستان المشهورتان للتفاسير اليهودية، إحداهما مدرسة «شمعي» وكانت تميل إلى التضييق والتدقيق، وقد قال أنصارها إن هذا العيب ينبغي أن يكون فقدان العفة فقط. وقد قالوا إنه حتى إذا كانت المرأة شريرة مثل زوجة آخاب، فإن هذا لا يبرر طلاقها ما دامت لم تزن.

أما المدرسة الثانية فهي مدرسة «هليل»، وقد كانت متحررة للغاية، حتى أنهم قالوا أن سبب يمكن أن يكون عيباً في المرأة، فالإنسان يستطيع أن يطلق إمرأته إذا أفسدت طهي الطعام بزيادة الملح فيه، أو إذا خرجت إلى الشارع برأس غير مغطاة، أو تحدثت مع الرجال في الخارج، أو إذا تحدثت بالسوء عن والدى زوجها في حضوره، أو إذا كانت كثيرة الشجار .. بل إن بعضهم قالوا إن الرجل يستطيع أن يطلق إمرأته إذا وجد إمرأة أخرى أكثر جاذبية من زوجته.

وقد كانت آراء هذا الفريق تتفق مع الطبيعة الإنسانية الشريرة، لذلك كانت أكثر قبولاً عند الناس .. وهكذا نرى الظروف التي تحدث فيها المسيح عن الطلاق.

٢— الزواج عند اليونان:

كان على المسيحية أن تتخطى حدود فلسطين، لذلك لا بد أن ندرس شيئاً عن العلاقات في الأسرة في المجتمع اليوناني والروماني أيضاً.

كان المجتمع اليوناني ينظر إلى المرأة نظرة إقلال واحتقار — وأعظم ما كان يهدد العلاقات الزوجية هو أن العلاقات خارج الحياة الزوجية كانت بالنسبة لليونانيين أمراً عادياً لا يدعو للتعجب. وقد كتب دومستينوس قائلاً «إن لنا الغواني للمتعة، والسرارى والمحظيات لمساكنتهن، والزوجات لإنجاب

الأطفال الشرعيين ورعاية شئون المنزل بأمانة». بل إن هذه المبادىء اليونانية دخلت إلى المبادىء الرومانية فأفسدتها. وكان شيشرون الخطيب المشهور يدافع عن هذه المبادىء بحسبانها شيئاً عادياً مألوفاً.

وقد كانت نظرة اليونان إلى الزواج أمراً غير عادي. فقد كان اليوناني يتطلب من السيدة المحترمة أن تحيا في عزلة بحيث لا تظهر وحدها في الشارع، ولا تتناول طعامها في أماكن وجود الرجال، ولم يكن لها نشاط اجتماعي. وكان الزوج اليوناني يتطلب من زوجته النقاوة الأخلاقية الكاملة، ويعطى لنفسه كل الحريات في كسر الأخلاق. لقد كان اليونانيون يعتبرون الزواج ضرورة للأغراض المنزلية. وحتى سقراط نفسه قال: «هل يوجد من تأتمنه على أمورك الخطيرة، أكثر من زوجتك؟ وهل يوجد من يندر الحديث معه إلا هي؟».

كان من نتيجة هذه النظرة، أن نشأ موقف شاذ في هيكل أفروديت في كورنثوس. فقد كانت هناك ألف كاهنة، كن يحترفن البغاء المقدس، وكن يملأن شوارع كورنثوس كل مساء.. حتى إن مثلاً شائعاً حينذاك كان يقول «لا يستطيع كل إنسان أن يتحمل نفقات رحلة إلى كورنثوس».

ومن المال الذي كن يجمعنه، بنى اليونانيون هيكلاً ثانياً لأفروديت إلهة الحب. ولم يكن غريباً في نظرهم، أن يبنوا هيكلاً من إيرادات البغاء.

وهكذا نرى مقدار السقوط والإنحلال في الحياة الإجتماعية اليونانية، الذي كان من تقاليده الظاهرة العلاقات الجنسية خارج الزواج.

ولم تكن هناك أية عقبات في طريق الطلاق، إذ يكفى أن يطلق الرجل زوجته أمام شاهدين، ثم يعطيها مؤخر الصداق...

هذا هو الجو الذي جاءت المسيحية لتنشر فيه تعاليمها السامية عن الأخلاق والعلاقات العائلية المسيحية.

٣ــ الزواج عند الرومان:

وتاريخ تطور العلاقات في الزواج عند الرومان يعتبر مأساة، لأنه تطور من الحسن إلى الرديء فالأردأ. فلقد كان أساس المجتمع الروماني هو الأسرة، وكان السلطان لرب الأسرة. كان البيت بالنسة للرومان أهم شيء، وكانت الزوجة تلعب دوراً هاماً في الحياة الإجتماعية. لذلك كان البغاء أمراً محتقراً ومخجلاً، وكذلك الطلاق كان أمراً نادراً جداً.

ثم دخل تأثير اليونان. ومع أن الرومان هم الذين غزوا اليونان سياسياً، لكن اليونان غزوا الرومان فكرياً واجتماعياً. لذلك صار الطلاق أمراً شائعاً كالزواج. وقد تحدث سينكا الفيلسوف عن نساء كن يتزوجن ويطلقن مراراً كثيرة، حتى قيل إن بعضهن كن يميزن التاريخ، لا بالحكام الذين كانوا يحكمون أو بالحوادث المشهورة ، بل بوقت زواجهن من هذا أو طلاقهن من ذاك.

وقيل عن إمرأة أنها تزوجت ثماني مرات في خمس سنين.

كلمة الإنسان تربطه بوعد

(متى ٥:٣٣ ــ ٣٧)

مما يميز الموعظة على الجبل، المرات الكثيرة التي أشار فيها يسوع إلى التعاليم التي كان الناس يعرفونها من قبل. فقد كان معلمو اليهود يهتمون إهتماماً فائقاً بقول الصدق ومن تعاليمهم وأقوالهم : «إن العالم يثبت على ثلاثة أمور: «العدالة والصدق، والسلام». أيضاً «أربعة أشخاص لا يمكن أن يقفوا في محضر الله: المستهزيء، والمرائي، والكذاب، ومشيع المذمة». وأيضاً: «من يعطي كلمة ثم يغيرها، شرير كعابد الأصنام». وقد نادت مدرسة شمعي في التفسير، أن الصدق مطلوب حتى أن المجاملات العادية في الحياة الاجتماعية غير جائزة، مثل القول لعروس إنها جميلة إذا كانت قبيحة المنظر.

وكان إصرار اليهود على الصدق يتزايد، إذا كان الكلام مصحوباً بقسم أو حلف، فقد قالت الوصية: «لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً لأن الرب لا يبرىء من ينطق باسمه باطلاً» خروج٢٠:٧ ــ فهذه تنهي وتحذر من الحلف الكاذب. وفي سفر العدد نقرأ: «إذا نذر رجل نذراً أو أقسم قسماً أن يلزم نفسه بالقسم، فلا ينقض كلامه. حسب كل ما خرج من فمه يفعل» عدد٣٠:٢ ــ وفي التثنية «إذا نذرت نذراً للرب إلهك فلا تؤخر وفاءه. لأن الرب إلهك يطلبه منك فتكون عليك خطية... ما خرج من شفتيك إحفظ وإعمل» تثنية ٢٣: ٢١ــ٢٣.

لكن في زمن حياة السيد المسيح على الأرض، كان هناك نوعان من الحلف لا يمكن أن يرضى عنهما أي مبدأ سليم:

(أ) النوع الأول هو الحلف باستخفاف واستهتار. فكثيراً ما كان الناس يحلفون حيث لا يستدعي الأمر حلفاً. وأصبح من الشائع أن يستهل الناس كلامهم بعبارة «وحياتي» «ورأسي» إلى غير ذلك... وهكذا كان الناس يستخدمون الأسماء المقدسة والأشياء المقدسة على شفاههم بدون تفكير أو وقار. وقد ثار الربيون اليهود على هذه الحالة.

(ب) النوع الثاني هو الحلف للمراوغة والتملص. فقد قسم اليهود الأقسام إلى نوعين، نوع يجب أن يرتبط به الإنسان، ونوع يمكن للإنسان أن يتخلص منه. فالحلف الذي يشتمل على اسم الله يجب الوفاء به. أما إذا استطاع الإنسان أن يحلف دون أن يذكر اسم الله، فيمكنه أن لا يبر بقسمه. وكانت النتيجة أن الإنسان لكي لا يكون مرتبطاً بوفاء القسم، كان يحلف برأسه أو بالسماء أو الأرض أو بأورشليم.. وهكذا تفنن الناس في الحنث بعهودهم وأقسامهم. وكانت الفكرة من وراء هذا الإعتقاد ، هو أننا إذا حلفنا ذاكرين اسم الله ، فإننا نعتبر الله شريكاً معنا في معاملاتنا، أما إذا لم نذكر اسمه، فإن الله يكون لا دخل له بمعاملاتنا.

ولقد أراد يسوع أن يبين أننا لا نستطيع أن نبعد الله من أن يكون شريكاً لنا في كل معاملاتنا ، فالله في كل مكان. السماء عرشه، والأرض موطيء قدميه، وأورشليم مدينة الله، ورأس الإنسان ليست متاعاً حراً له، لأنه لا يستطيع أن يجعل شعرة واحدة منها بيضاء أو سوداء .. إن كل حياة الإنسان ملك لله، ولذلك فإننا سواء ذكرنا اسم الله أم لم نذكره، فإن الله موجود معنا.

هذا هو المبدأ الذي أراد يسوع أن يعلنه، هو مبدأ أبدي، فنحن لا نستطيع أن نقسم الحياة إلى قسمين، قسم يتدخل فيه الله وآخر لا دخل لله به، ونحن لا ينبغي أن تكون لنا لغتان إحداهما للتدين، والأخرى للعمل في المكتب أو الحقل أو المصنع .. ولا يمكن أن نحيا بمقياسين للسلوك، أحدهما للكنيسة والآخر للعمل.

إننا لا نستطيع أن ندعو الله إلى جزء من حياتنا ثم نطرده من الجزء الآخر. إنه موجود في كل الحياة وفي كل نواحي نشاطها.. إنه لا يسمع الكلمات التي ننطقها بأفواهنا فحسب، بل إنه يعرف ما يدور بأفكارنا. وهو لا يقصر اهتمامه على العبارات التي تشتمل على اسمه فحسب، بل يسمع كل عبارة، ولا يمكن أن نبعده عن معاملاتنا أبداً. فكل عباراتنا ووعودنا ينبغي أن تكون مقدسة، لأننا ننطق بها جميعها في حضرة الله.

إنتهاء الحلف:

يختتم هذا الجزء بوصية المسيح أن يكون كلامنا بلا حلف، بل نعم أو لا. وليس أكثر من ذلك.

هذا هو الموقف المثالي الذي لا يحتاج فيه الإنسان إلى حلف أو قسم لتأكيد صدقه، بل إن شخصيته ذاتها هي التي تؤكد صدقه.. وهكذا يصير الحلف غير لازم أو ضروري. وقد قال أكليمندس الإسكندري، إن على المسيحي أن يحيا حياة تجعل الناس يثقون في كلامه، فلا يتطلبون منه قسماً أو حلفاً. فالمجتمع المثالي هو الذي تكون فيه كلمة الإنسان، هي التي تربطه دون حاجة إلى حلف.

وهنا نأتي إلى سؤال: هل حديث المسيح هذا يمنع الإنسان أن ينطق بقسم على الإطلاق، حتى في قاعة المحكمة مثلاً؟

لقد امتنع بعض الناس عن القسم إطلاقاً، منهم الأسينيون Essenes ، وهم جماعة من اليهود، ومنهم فريق الكويكرز Quakers ، وهم طائفة مسيحية، ورفضوا الإدلاء بأي قسم تحت أي ظرف.

لكن البعض لا يتخذ هذا الموقف بمثل هذا الإصرار، ويقولون إن بولس الرسول في بعض المناسبات حلف. فقد قال مرة «ولكني أستشهد الله على نفسي أني إشفاقاً عليكم لم آت إلى كورنثوس» ٢كورنثوس ١:٢٣. وفي رسالته إلى أهل غلاطية قال « والذي أكتب به إليكم هوذا قدام الله أني لست أكذب فيه » غلاطية ١:٢٠. وقد قيل إن يسوع نفسه لم يعترض أن يستحلفوه بالله — في متى ٢٦:٦٣،٦٤ «فأجاب رئيس الكهنة وقال له أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح إبن الله. قال له يسوع أنت قلت.

إذن فما معنى القول «وما زاد على ذلك فهو من الشرير». إن هذه العبارة يمكن أن تعني أحد أمرين:

(أ) المعنى الأول هو أنه إذا كان من الضروري أن يحلف الإنسان، فإن هذه الضرورة ناتجة عن الشر الذي في الإنسان. فلو لم يكن هناك شر في الإنسان يجعل كذبه محتملاً، لما كانت هناك ضرورة

للحلف.

(ب) المعنى الثاني هو أنه من الضروري استحلاف الناس في بعض المناسبات، لأننا نحيا في عالم شرير. ففي العالم الكامل الذي هو عالم ملكوت الله، لا تكون ضرورة للحلف.

إن ما يقوله المسيح هو أن الإنسان الصالح لا يحتاج إلى الحلف أبداً، فإن صدق كلامه مؤكد من شخصيته ذاتها، لكن وجود ظروف تستدعي الحلف فيها، إنما يدل على أن البشر خطاة، وأن العالم الذي نحيا فيه عالم شرير — وقول المسيح هذا، يتطلب منا أن نحيا حياة صادقة صالحة، حتى لا يتطلب الناس منا أن نحلف ليصدقونا، كما يتطلب منا أن نحاول أن نصلح من هذا العالم المليء بالزيف والكذب، حتى يمكن الإقلال من المناسبات التي تتطلب الحلف قدر الإمكان.

مبدأ المعاملة بالمثل

(متى ٥:٣٨)

إن العبارات التي تعقب هذا القول، تعتبر من أهم أقوال المسيح، التي تتخذ أساساً لمبادىء الأخلاق المسيحية، فهي تميز الحياة المسيحية عن حياة الغير من الناس.

ويبدأ السيد هذا الجزء بذكر أقدم قانون في العالم، وهو عين بعين وسن بسن — وهو قانون المعاملة بالمثل. وهذا المبدأ يظهر في قوانين قديمة جداً، هي قوانين حمورابي الذي حكم بابل من سنة ٢٢٨٥— ٢٢٤٢ قبل الميلاد.

وقد كانت قوانين حمورابي، تميز بين الإنسان النبيل والعامل أو الفقير. ومن نصوص هذه القوانين:

«إذا تسبب شخص ما في فقدان عين إنسان نبيل، فلا بد أن تقلع عينه. وإذا تسبب في قطع أحد أطراف إنسان نبيل، فيجب قطع أحد أطرافه. أما إذا تسبب في قلع عين أو قطع أحد أطراف شخص فقير، فعليه أن يدفع وزنة من الفضة — وإذا تسبب في خلع أحد أسنان إنسان نبيل تخلع إحدى أسنانه، أما إذا تسبب في خلع أحد أسنان إنسان فقير فيدفع ثلث وزنة من الفضة».

وأساس هذا القانون هو توقيع العقوبة على مرتكب الضرر.

وقد صار هذ القانون جزءاً من تعاليم العهد القديم، فنراه مذكوراً ثلاث مرات على الأقل:

«وإن حصلت أذية تعطي نفساً بنفس، وعيناً بعين، وسناً بسن، ويداً بيد، ورجل برجل، وكيا بكي، وجرحاً بجرح، ورضاً برض» خروج ٢١:٢٣—٢٥.

وإذا أحدث إنسان في قريبه عيباً فكما فعل هكذا يفعل به. كسر بكسر، وعين بعين وسن بسن. كما أحدث عيباً في الإنسان، كذلك يحدث فيه» لاويين٢٤:١٩، ٢٠.

«لا تشفق عينك. نفس بنفس. عين بعين. سن بسن. يد بيد. رجل برجل» تثنية١٩:٢١.

كانت هذه من شرائع العهد القديم عندما كان الناس ميالين للقتال وسفك الدماء .. وقبل أن نبدأ بتوجيه النقد إلى العهد القديم يجدر بنا أن نلاحظ عدة أمور:

أولاً: إن شريعة المعاملة بالمثل، ليست شريعة همجية قاسية. بل هي في الحق بداية الرحمة. فإن القصد الأساسي من هذه الشريعة، هو الحد من النزعات الإنتقامية عند البشر. فقد كان الناس قديماً يعيشون في النظام القبلي.. وعندما يحدث أن فرداً من قبيلة ما، يسبب أذى لآخر من قبيلة أخرى، فإن كل أفراد القبيلة المُساء إليها يخرجون لينتقموا من كل أفراد القبيلة الأخرى .. وكان الإنتقام شنيعاً، إذ لا يرضى المنتقمون بأقل من القتل إنتقاماً. لذلك فإن شريعة المعاملة بالمثل، جاءت للحد من هذه النزعات الإنتقامية، والإكتفاء بعقاب الشخص المسيء وحده، عقاباً مماثلاً لما ارتكبه من جرم. فهذه الشريعة لم تكن وحشية أو همجية، بل كانت بداية للرحمة.

ثانياً: إن هذه الشريعة لم تكن تعطى للفرد الحق في توقيع العقوبة على من أساء إليه. بل كانت الشريعة دليلاً للقضاة في تحقيق العدالة. وفي التثنية ص١٩: ١٥ــ١٨ نرى كيف أن كل قضية كان لا بد أن يفحصها القضاة ويسمعوا الشهود.

ثالثا: إن هذه الشريعة، بمرور الزمان، لم تكن تنفذ دائماً حرفياً. فقد قال علماء اليهود، إن تطبيق الشريعة في بعض الأحيان، يقتضي مساواة عين تالفة بأخرى غير تالفة. أو خلع سن صحيحة سليمة، بدلاً من أخرى غير سليمة .. ومن ثم ابتدأوا يضعون نظام الدية النقدية للتعويض. وقد كانوا يضاعفون التعويض أحياناً، أو يعتبرون الشخص المصاب كأنه عبد سيباع في السوق، ويقدرون سعره قبل الإصابة وبعدها، ويطلبون من المذنب أن يدفع الفرق. وهكذا ابتدأوا يضعون قوانين لتقدير قيمة الألم أو الإهانة أو ضياع الوقت، إلى غير ذلك.

رابعا: إن شريعة المعاملة بالمثل، ليست هي كل المباديء الأخلاقية في العهد القديم. ففي العهد القديم قبسات وأمجاد من تعاليم الرحمة مثل:

«لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك. بل تحب قريبك كنفسك. أنا الرب» لاويين ١٩: ١٨

«إن جاع عدوك فأطعمه خبزاً وإن عطش فاسقه ماء» (أمثال ٢٥: ٢١)

«لا تقل كما فعل بي هكذا أفعل به. أرد على الإنسان مثل عمله» أمثال٢٤: ٢٩.

وهكذا نرى أن العهد القديم مليء بالرحمة أيضاً.

إذاً فقانون المعاملة بالمثل هو أساس الشرائع القديمة. وهدفه الأساسي هو الرحمة والحد من الانتقام. ولم يكن متروكاً للفرد أن يطبقه، لكن لجماعة الحكام والقضاة. ولم يكن ينفذ حرفياً في كثير من الأحيان .. لكن على الرغم من كل هذا، فإن المسيح محا مبدأ ذلك القانون. لأن مبدأ الثأر والمقابلة بالمثل لا مكان له في الحياة المسيحية، مهما حددناه ووضعنا في طريقه القيود.

إنهاء مبدأ المعاملة بالمثل

(متى ٥: ٣٩ ـــ ٤١)

درسنا في الجزء السابق، كيف أن مبدأ المعاملة بالمثل كان هدفه الحد من الانتقام، ثم قلنا في الختام ، ان المسيحية جاءت تمحو هذ المبدأ. جاء المسيح ليستبدل هذا القانون القديم للانتقام المحدود، بشريعة روحية تحمل روحاً جديداً جوهره إزالة الغل والغيظ وعدم مقابلة المثل بالمثل ـــ وقد ذكر السيد المسيح ثلاثة أمثلة أو حالات كنماذج لهذا الروح المسيحي الجديد، وتطبيقه في الحياة العملية. ونحن لو أخذنا هذه النماذج ونظرنا إليها نظرة ساذجة، وأسأنا فهمها بالنظرة الحرفية، فقدنا الهدف الأساسي منها. لذلك فمن واجبنا أن نتفهم حكمة المعاني التي يقصدها المسيح.

١ ـــ بعد أن وضع المسيح المبدأ الأساسي وهو «لا تقاوموا الشر» أورد النموذج الأول في قوله: «بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً». وهو لا يقصد بالطبع مجرد اللطمات على الوجه. فلو أن إنساناً عادياً أراد أن يستخدم يده اليمنى ليضرب إنساناً على خده الأيمن، لما استطاع ذلك إلا إذا عوج يده بكيفية تفقد اللطمة قوتها. وهو يستطيع أن يضرب الآخر على خده الأيمن إذا ضربه بظهر يده، وحسب ناموس الربيين اليهود كانت اللطمة بظهر اليد تعتبر احتقاراً مضاعفاً عن اللطمة بكف اليد. فكأنما أراد المسيح أن يقول «حتى إذا وجه إليك إنسان ما احتقاراً مضاعفاً لا ينبغي أن تعامله بالمثل أو تحنق عليه». وربما لا يحدث كثيراً أو لا يحدث على الإطلاق، أن يتعرض الإنسان لموقف فيه ينال لطمة على وجهه، لكن الحياة لا تخلو من أنواع أخرى من اللطمات المعنوية، من هزء أو تحقير أو سب أو إساءة. ويسوع يوصي المسيحيين أن لا يقاوموا الشر بسيطاً كان أم بالغاً. وقد تعرض يسوع نفسه لإساءات كثيرة، فقد قيل عنه إنه «أكول شره، وشريب خمر». وقد اعتبروه صديقاً ومحباً للعشارين والزواني، وكأنهم بذلك ينسبون إليه مشابهتهم . وقد نسب إلى المسيحيين الأولين، أنهم يتعمدون إشعال الحرائق، وأنهم يأكلون لحوم البشر، بل قد اتهموهم بانحطاط الأخلاق والفجور والإباحية، لأن عبادتهم كانت تحتوى على ما كان يسمى «وليمة المحبة». وعندما حمل اللورد «شافتسبري» لواء الدفاع عن الفقراء والمظلومين، حذروه أنه سيكون مكروهاً من الطبقة التي ينتمي إليها، وأنه لن يستطيع الوصول إلى كرسي الوزارة. وعندما ابتدأ «ولبرفورس» حملته لتحرير العبيد، أشاع عنه أعداؤه كل مذمة ممكنة.

وفي كل مجال يمكن أن يصادف المسيحي إساءة متعمدة أو غير متعمدة، كأن يغفل في دعوة إلى حفلة، أو لا يعطي المكان المناسب له، أو الذي هو جدير به، أو توجه إليه كلمات نقد جارحة ـــ والمسيحي الحقيقي ينبغي أن ينسى تماماً كل إساءة.. لقد تعلم من سيده أن يقبل الإساءة بلا غضب أو حنق، وأن لا يحاول رد الإساءة بأي حال.

٢ ـــ ثم ينتقل السيد المسيح إلى النموذج الثاني فيقول: «ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً» ـــ وهنا أيضاً لا ينبغي أن ننظر إلى الحديث نظرة حرفية، بل علينا أن نبحث عن المبدأ الكامن وراء هذه العبارة. والكلمة المترجمة «ثوب» هنا تشير إلى القميص الذي كان يصنع

عادة من القطن، ويلبسه الإنسان تحت ردائه أو تحت عباءته. وقد كان أفقر الناس عادة يمتلك أكثر من قميص «ثوب» — أما الرداء فهو العباءة الثقيلة التي كان الإنسان يرتديها فوق ثيابه في النهار، ويتدثر بها في الليل. وقد كان في شريعة اليهود أن الإنسان يستطيع أن يرتهن ثوب أخيه أو صاحبه وفاء لدين مثلاً، لكنه لا يستطيع أن يأخذ رداءه أي عباءته — إذ تقول الشريعة:

«إن ارتهنت ثوب صاحبك (والكلمة العبرية معناها عباءة أي الرداء الخارجي) فإلى غروب الشمس ترده له. لأنه وحده غطاؤه. هو ثوبه لجلده . في ماذا ينام» (خروج٢٢: ٢٦، ٢٧).

إذاً فقد كان من حق الإنسان أن يسترجع رداءه، ولا يمكن لغيره أن يأخذه منه في المخاصمة أو المحاكمة. ولكن يسوع هنا يقول: من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك الذي له حق في أخذه، فأترك أيضاً الرداء الذي ليس له حق فيه، ومعنى ذلك أن المسيحي لا ينبغي أن يتشاجر بسبب حقوقه الشرعية. فهناك أناس دائماً يتشاجرون ويتخاصمون بسبب حقوقهم وامتيازاتهم، ويلجأون للقضاء لأجل أتفه الأمور، إذا شعروا أن لهم حقاً فيها. ومما يؤسف له أنه حتى في الكنائس، يوجد أناس مثل ذلك، دائماً يطالبون بإمتيازاتهم وحقوقهم، ويثيرون الدنيا لو أحسوا بأدنى تعدٍ على مراكزهم وحقوقهم واختصاصاتهم. إن أمثال هؤلاء لم يفهموا المسيحية في سموها، فالمسيحي الحقيقي لا يفكر في حقوقه بقدر تفكيره في واجباته، ويهتم بمسئولياته أكثر مما يهتم بامتيازاته. إن المسيحي ينسى حقوقه أحياناً كثيرة في سبيل السلام. أما الذي يدافع من أجل حقوقه وامتيازاته مهما كان الثمن في الكنيسة أو خارجها، فهو بعيد عن طريق المسيح.

٣ — ثم ينتقل السيد إلى النموذج الثالث فيقول: «ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين». والصورة التي ترسمها هذه العبارة هي صورة بلد محتل، لأن أصحاب السلطان كان لهم حق تسخير الآخرين في أعمال متنوعة.

وعند الفرس، كان هناك نظام للبريد يقضي بتقسيم المسافات إلى مراحل، طول كل مرحلة مسيرة يوم واحد. وعند نهاية الرحلة يجد ساعي البريد مكاناً لتناول الطعام والراحة وإطعام الخيول واستبدالها .. لكن إذا حدث أن الساعي لم يجد هذه الضروريات في نهاية المرحلة، فقد كان من حقه أن يسخر أحد المواطنين ليعطيه الطعام والشراب، بل وليحمل الرسائل عوضاً عنه في بعض الأحيان.

وكان نظام السخرة سائداً في كل البلاد المحتلة، فقد كان الجنود المحتلون يسخرون الأهالي في كل الأعمال، وبكيفية شنيعة قاسية، وكان اليهود تحت الإحتلال الروماني، وكان سيف السخرة مسلطاً عليهم، ففي أي وقت كان اليهودي مهدداً بأن يرى جندياً رومانياً يقف على رأسه، ويطلب منه تحت تهديد السلاح أن يعمل له عملاً ما. وهذا ما حدث مع سمعان القيرواني حين سخروه أن يحمل صليب يسوع.

في هذا النور، نستطيع أن نفهم كلام المسيح، فهو يقول «افترض أن أحداً سخرك أن تسير معه لإرشاده، أو لتحمل له شيئاً مسافة ميل واحد، لا تذهب معه هذه المسافة وأنت ضجر ناقم حاقد، بل اذهب معه ميلين وأنت راضٍ».

أو كما قال أحدهم «إنك بالميل الأول تثبت عبوديتك، لكنك بالميل الثاني تثبت حريتك، لأنك ذهبت راضياً مختاراً».

وكأن المسيح يقول : « لا تفكر في معنى الحرية أنك تعمل كما تشاء ، بل فكر في الحرية أنها امتياز لخدمة الآخرين. وعندما تكلف بعمل ما حتى لو كان ثقيلاً وغير معقول، إعمله مسروراً كخدمة للغير».

فهناك طريقان لعمل الأشياء:

الطريق الأول هو أن تعمل ما يطلب منك، وليس أكثر، بكيفية تدل على أنك تكره هذا العمل، وتقوم به على مضض.

والطريق الثاني هو أن تعمل ما يطلب منك راضياً مبتسماً، حتى إنك تتقن العمل أكثر مما كان متوقعاً، وتكون مستعداً أن تعمل أكثر من المطلوب منك.

إن العامل المهمل، والخادم الضجر، والذي يقوم بمعاونة إنسان على مضض، لم يعرف المسيحية في سموها. فالمسيحي لا ينبغي أن يعمل ما يريده فقط، بل يعمل ما يساعد الآخرين، حتى لو كان طلب المساعدة خالياً من اللياقة والذوق.

وهكذا يضع السيد المسيح هذه القواعد الثلاث:

إن المسيحي لا ينبغي أن يرد الإساءة بمثلها، ولا ينبغي أن يتشاحن في سبيل الإصرار على حقوقه، ولا ينبغي أن يفكر أنه حر ليعمل ما يشاء، بل عليه أن يضع نفسه دائماً في خدمة الآخرين.

ما أبعدنا عن هذا المقياس! ليتنا نسعى دائماً أن نصل إليه..

العطاء الكريم

(متى ٥:٤٢)

يختم هذا الجزء بالوصية أن نعطي من يسألنا، وأن لا نرد من أراد أن يقترض منا. والحقيقة أن الشريعة اليهودية للعطاء وصلت إلى درجة رفيعة من السمو والجمال، وهي مبنية على ما ورد في سفر التثنية ١٥:٧ــ١١:

«إن كان فيك فقير أحد من إخوتك في أحد أبوابك في أرضك التي يعطيك الرب إلهك، فلا تقس قلبك. ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير. بل افتح يدك له واقرضه مقدار ما يحتاج إليه. احترز من أن يكون مع قلبك كلام لئيم قائلاً قد قربت السنة السابعة سنة الإبراء وتسوء عينك بأخيك الفقير ولا تعطيه. فيصرخ عليك إلى الرب فتكون عليك خطية. أعطه ولا يسوء قلبك عندما تعطيه لأنه بسبب هذا الأمر يباركك الرب إلهك في كل أعمالك. وجميع ما تمتد إليه يدك. لأنه لا تفقد الفقراء من الأرض. لذلك أنا أوصيك قائلاً افتح يدك لأخيك المسكين والفقير في أرضك » (تثنية

١٥: ٧ــ١١)

والشريعة تشير هنا إلى السنة السابعة التي فيها يصير الإبراء من كل الديون، وتوصي الإنسان أن لا يعتذر عن إقراض أحد بسبب قرب موعد هذه السنة السابعة خشية أن يلغى الدينَ ويفقد ما أقرضه.

وقد وضع الربيون اليهود تعاليمهم عن العطاء على أساس هذه الآيات، ووضعوا خمسة مباديء للعطاء:

(١) لا ينبغي الإمتناع عن العطاء، فمن يرفض العطاء يعتبر مثل عابد الأصنام، وإذا رفض إنسان أن يعطي، فقد يأتي اليوم الذي فيه يسأل المال ممن رفض أن يقدمه له.

(٢) ينبغي أن تكون العطية ذات نفع لمن تعطى له. إن شريعة سفر التثنية توصي بأن تقدم للإنسان ما يحتاج إليه. وقد فسروا ذلك بأن لا نكتفي بتقديم ما يحفظ الرمق فحسب، بل ينبغي أن نقدم للإنسان ما يساعده قدر الإستطاعة، على أن يحتفظ بالمستوى الذي كان يعيش عليه قبل أن يفتقر لذلك قيل إن «هليل» ــ وهو أحد كبار علماء اليهود ــ قال إن الابن الذي يفتقر وهو من أسرة نبيلة ينبغي أن يقدم له، لا الطعام فحسب، بل حصاناً ليركبه، وعبداً يجرى أمامه.. وقد ذكر المؤرخون أنه تعذر عليه مرة أن يجد عبداً، فقام هليل بنفسه وعمل مثل العبد وجرى أمام الابن النبيل.

والفكرة الجميلة وراء هذا التعليم، أن العطاء لا ينبغي أن يزيل الفقر ذاته فحسب، بل بالأكثر أن يزيل الشعور بالذل الذي ينتج عن الفقر.

(٣) ينبغي أن يكون العطاء في الخفاء، دون أن يدرى أحد، ولقد توسع علماء اليهود في هذا فقالوا، إن أسمى أنواع العطاء هو الذي لا يعرف فيه المعطى من الذي يتلقى عطاياه، والذي لا يعرف فيه المتلقي العطية من الذي أعطاها له. وقد كان هناك مكان ما في الهيكل، يأتي إليه الناس سراً ليقدموا عطاياهم، وكانت هذه العطايا توزع في الخفاء أيضاً لمساعدة الذين يفتقرون، ولدفع الأمهار لبنات العائلات الكريمة التي تفتقر، والتي بدونها لا يستطعن الزواج.

ولقد كان اليهود يبغضون العطايا التي يقدمها أصحابها للدعاية أو لنوال مركز ما، أو لمدح ذواتهم.

(٤) وقد جرى اليهود على استخدام الكيفية المناسبة لتقديم العطية بحسب طبيعة من يتلقون العطايا. فإذا كان إنسان ما بخيلاً حتى إنه أخفى ما له وتظاهر بالفقر، كانت الأموال تقدم له على سبيل العطية، لكنها تؤخذ فيما بعد من تركته على أنها قرض. لكن إذا كان إنسان ما يشعر بحرج أن يسأل المساعدة، فقد أفتى اسماعيل الربي اليهودي أن المعطي يذهب إليه ويقول له «يا بني، ربما تحتاج إلى قرض مني»، ويعطيه المال ويحفظ له كرامته، لكنه لا يطالبه بالمال بعد ذلك، وإن كان قد أعطاه ظاهر على سبيل القرض، لكنه في الواقع على سبيل العطية.

وقد قال علماء اليهود، إنه إذا كان إنسان لا يستطيع أن يقدم شيئاً، فعليه على الأقل أن يظهر شفقته وحنانه.

(٥) وأخيراً كان علماء اليهود يعتبرون أن العطاء امتياز وواجب مقدس لأنه عطاء لله. فليس العطاء لفقير أمراً اختيارياً بالنسبة للإنسان، إنما هو واجب لا يمكن الاعتذار عنه، لأن ذلك يعتبر رفضاً لله ذاته. «من يرحم الفقير يقرض الرب، وعن معروفه يجازيه» (أمثال١٩:١٧) — لذلك قالوا إن من يرحم الناس ترحمه السماء، ومن لا يرحم الناس لا ينتظر رحمة من السماء.

ولقد أشار علماء اليهود إلى أن الشفقة هي إحدى الفضائل القليلة التي لم يعين الناموس لها حداً.

ولكن هل قصد المسيح وهو يؤكد هذه التعاليم أن نعطى دون تمييز أو مراعاة لمن نقدم لهم؟ لا شك أن من أهم العناصر في العطاء، تأثير العطية على متلقيها. لذلك لا ينبغي أن تكون عطايانا لتشجيع الغير على الكسل أو الخمول، لأن العطية في هذه الحالة تنقلب ضرراً. لكن من الأفضل في الوقت عينه أن تقدم مساعدة إلى مجموعة من الشحاذين المحتالين المتظاهرين بالفقر، من أن نخاطر بعدم معاونة واحد منهم كان يحتاج فعلاً إلى المساعدة.

إن البعض يقدمون عطاياهم لجمعيات البر في الكنائس وغيرها، وهذا جميل لأنه يجعلهم لا يعرفون الشخص الذي تصل إليه معاونتهم فتكون مساعدتهم في الخفاء، لكن هذا لا يغنى عن المعاونة الشخصية لمن هم في حاجة عند اللزوم.

المحبة المسيحية

(متى ٥:٤٣ — ٤٨)

في هذه الآيات نرى أبلغ وصف للمحبة المسيحية. وقد وصف العالم اليهودي مونتفيور هذا الجزء بأنه «الجزء المركزى والأشهر» في الموعظة على الجبل. والحق أنه لا توجد مجموعة من الآيات تحمل صورة مركزة لمبدأ المحبة المسيحية في العهد الجديد أكثر من هذه الآيات، فهي تصف المسيحية العاملة، وحتى الذين لم تطأ أقدامهم أبواب الكنائس، يعرفون أن السيد المسيح قال هذا الكلام، ويدينون المسيحيين لأنهم لا يطبقون هذه الوصايا في حياتهم وفي هذه الآيات نرى معنى المحبة المسيحية، ودافع المحبة المسيحية:

أولاً : معنى المحبة المسيحية:

عندما ندرس هذا الجزء، لا بد أن نحاول فهم المعاني التي قصدها المسيح، وما يطلبه فعلاً من أتباعه، ذلك لأننا إذا أردنا أن نحيا وفق هذه العبارات، فعلينا أن ندرك بوضوح مدلولها. فما الذي يعنيه المسيح بمحبة أعدائنا؟

إن اللغة اليونانية — التي كتب بها العهد الجديد — غنية بألفاظها حتى إن الترجمة إلى لغة أخرى قد تلقي ظلالاً على المعانى.

وفي اللغة اليونانية أربع كلمات تعبر عن (المحبة):

(أ) فهناك كلمة تدل على المحبة في محيط الأسرة والعلاقات العائلية (Storge) وهي تصف محبة

الأب لطفله والطفل لأبيه. وقد وردت هذه الكلمة في تعبيرات أفلاطون وفليمون لتدل على المحبة العائلية. لكنها ليست الكلمة المستخدمة في هذا المجال.

(ب) وهناك كلمة تصف حب الرجل لفتاة (eros) وهي تعبر عن محبة مشتعلة بالعواطف والإنفعالات، وهي أقرب إلى كلمة «العشق» أو «الهيام» في اللغة العربية، لأن العوامل الجنسية تتدخل فيها. ويصف سوفوكليس هذا الحب بأنه «الشوق الهائل» ، وليس في التعبير شر على الإطلاق إلا أن الكلمة تصف المحبة البشرية. وقد تطور استخدام هذه الكلمة حتى صارت تصف فكرة الشهوة أكثر من الحب. ولم يرد ذكر هذا التعبير في العهد الجديد على الإطلاق.

(جـ) وهناك كلمة للتعبير عن أعمق عواطف المحبة والتقدير (Plilia) وهي تصف الأصدقاء والأحباء المقربين إلى الفرد. وقد تعنى هذه العبارة الإعزاز والعاطفة الحارة الصادقة. لكنها ليست الكلمة المستخدمة في هذا النص.

(د) وأخيراً فإن الكلمة المستخدمة هنا هي (agapé) ومعناها الأريحية التي لا يمكن التغلب عليها، والسلام الذي لا يقهر.

فإذا كنا نحب إنساناً بهذا المعنى، فإنه مهما كانت معاملته لنا، ومهما سبب لنا من الضرر أو الحزن، ومهما أساء إلينا بالكلام أو الفعل، فإننا لا نسمح أبداً للمرارة ضده تغزو قلوبنا، بل نعامله بإحسان لا يقهر، وبسلام لا ينتهي، ونسعى لخيره دائماً.

من هذه المعاني المتنوعة نستطيع أن نفهم شيئاً عن قصد السيد المسيح في هذه الآيات:

١ ـــ فهو لم يطلب منا أن نحب أعداءنا بنفس المشاعر التي نحب بها أقرباءنا وأفراد عائلاتنا. فإن ذلك ليس ممكناً وليس صحيحاً لأن هذا نوع آخر من المحبة.

٢ ـــ فما الفرق إذاً بين هذه المحبة وتلك؟ إن محبتنا لأعزائنا أمر عاطفي يأتينا دون أن نسعى إليه، بل ينبع من عواطف القلب. أما محبتنا لأعدائنا ، فإنها ليست ناتجة من قلوبنا فقط، بل من إرادتنا أيضاً. إن هذه المحبة التي يتطلب منا المسيح أن نقدمها لأعدائنا، شيء نسعى إليه بإرادتنا وبنياتنا، إنها إنتصار على مشاعر العداء التي نشعر بها شعوراً طبيعياً غريزياً. إن المحبة المسيحية عمل من أعمال الإرادة، فهي تصميم على مسالمة وخدمة أولئك الذين يضايقوننا ويسيئون إلينا. إنها إرادة المحبة لمن لا يحبوننا ومن لا نميل إليهم. ونحن في الواقع لا نستطيع أن نصل إلى هذا النوع من المحبة، ما لم يعيننا المسيح على أن نتغلب على مشاعر المرارة والغضب الطبيعية فينا، لنصل إلى السلام الذي لا يقهر لجميع الناس.

٣ ـــ ولعل هذه المحبة المسيحية لا تشجعنا كثيراً على أن نترك الناس يتصرفون على هواهم. فالأب المحب لطفله، لا يتركه يعمل كما يشاء، بل إن من مظاهر حبه لابنه أنه يعاقبه لتقويم خلقه، ولحمايته من نفسه. فمسالة الناس ليس معناها أن نتركهم على هواهم، إذ أنها تشتمل على نوع من التأديب والعقاب. لكن هذا التأديب لا ينبغي أن يكون دافعه الإنتقام الشخصي، بل مساعدة الآخرين للتخلص من أخطائهم.

٤ ــ ولا بد أن تدرك أن السيد المسيح وضع هذا المبدأ ليكون أساساً للعلاقات الشخصية. إن كثيرين يحاولون استخدام هذه الفقرة من تعاليم المسيح ليكون أساساً للعلاقات الدولية وللنهي عن الحروب والمنازعات بين الدول، ولكن حديث المسيح، وإن يشمل هذه الأمور، لكنه يتجه أولاً وأساساً إلى علاقاتنا الفردية الشخصية، بالأفراد الذين نتعامل معهم في حياتنا اليومية. من السهل أن نتغنى بالمسالمة بين الدول وإلغاء الحروب، بينما تكون حياتنا الشخصية كلها حقد ومرارة وخصام. فلا بد أن نذكر أن الهدف الأساسي لهذه الوصية هو العلاقات الفردية، وكلما رددنا هذه الآيات علينا أن نذكر أنها تخاطبنا كأشخاص وأفراد، فيقول كل فرد «إن السيد المسيح يقصدني شخصياً بهذا الحديث».

٥ ــ وينبغي أن نلاحظ أن هذه الوصية لا يمكن أن يطبقها إلا المسيحي. فإن نعمة المسيح وحدها هي التي تعطي للإنسان هذ الأريحية التي لا تنتهي. والمسالمة التي لا تقهر في علاقاته الشخصية مع الآخرين. فعندما يسكن المسيح في قلوبنا تنتعش هذه المحبة في حياتنا، وتتبخر عوامل المرارة والحقد. ولقد قيل إنه لو عاش الناس بحسب تعاليم العظة على الجبل، لصار العالم كاملاً، لكن الحقيقة هي أنه لا يمكن لإنسان ما، أن يبدأ الحياة حسب هذه المبادىء دون معونة ونعمة من المسيح. إننا نحتاج إلى يسوع المسيح ليعيننا أن نحفظ وصاياه.

٦ ــ وأخيراً ــ ولعل هذا من أهم الأمور ــ ينبغي أن نذكر أن هذه الوصية لا تكتفي بأن تعلمنا أن نترك الناس يفعلون ما يشاؤون لنا دون أن نحقد عليهم، بل إنها توصينا أن نكون إيجابيين ونعمل شيئاً لهم: هو أن نحب، ونبارك، ونحسن، ونصلي لأجل الذين يسيئون إلينا. ولا يمكن لإنسان أن يصلي لأجل آخر ويبقى حاقداً عليه. فعندما يتقدم الإنسان بنفسه وبالشخص الذي يجرب بأن يكرهه، أمام عرش النعمة، لا بد وأن يحدث شيء ما ... فنحن لا نستطيع أن نكره بعضنا البعض في محضر الله ... إن أضمن وسيلة للتغلب على الحقد والمرارة، هي أن نصلي لأجل أولئك الذين نخشى أن نكرههم.

ثانياً : دافع المحبة المسيحية:

لقد رأينا ما يقصده المسيح بالمحبة المسيحية، وهنا نتقدم لنرى السبب الذي جعله يتطلب منا ذلك. لماذا يريد المسيح أن تكون لنا هذه المحبة والسلام الذى لا يقهر، والإحسان الذي لا يمكن التغلب عليه ؟ إن السبب بسيط وواضح، فإن هذا الحب هو الذي يجعل الإنسان شبيهاً بالله.

لقد أشار السيد المسيح إلى عمل الله في العالم، الذي يتسم بالسخاء الذي لا ينتهي. فالله يشرق شمسه على الأبرار والأشرار، ويمطر على الصالحين والظالمين. ولقد قال أحد المعلمين اليهود مرة: «هل لاحظت مرة أن المطر هطل على حقل الصالح وامتنع عن النزول على حقل الشرير، أو أن الشمس أشرقت على بلاد الأبرار المؤمنين، وامتنعت عن بلاد الأشرار غير المؤمنين، إن الله صالح للجميع».

وفي أسطورة يهودية قديمة عن هلاك جيش المصريين في البحر الأحمر عند عبور العبرانيين، أن الملائكة ابتدأت تنشد أناشيد الحمد عند غرق المصريين، لكن الله قال لهم بحزن وأسى: «إن عمل يدي قد هلك في البحر، وأنتم تنشدون أمامي ! » ــ إن محبة الله لا تسر بهلاك أي مخلوق من

صنائعه. وقد قال المرنم «أعين الكل إياك تترجى وأنت تعطيهم طعامهم في حينه. تفتح يدك فتشبع كل حي رضى» مزمور ١٤٥: ١٥، ١٦ — إننا نرى من الله الإحسان العام نحو جميع الناس، حتى الذين خالفوا شريعته وكسروا قلبه.

ويذكر المسيح أننا ينبغي أن نحب أعدائنا لكي نكون أبناء أبينا الذي في السماوات. وفي اللغة العبرية لا نرى استخداماً كثيراً للصفات، لكن إذا أرادت اللغة أن تصف إنساناً بالمسالمة، قالت عنه إنه «ابن السلام» . وقيل عن برنابا إنه « ابن الوعظ » «لأنه كان شهيراً بالوعظ .. وهكذا فإن أبناء الله هم الذين يتشبهون بالله .. إن المسيح يريد أن تكون لنا هذه المحبة لكي نكون مثل الله .

يختتم المسيح هذا الجزء بقوله «فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل» — وقد أثارت هذه العبارة كثيراً من التساؤل. وقال البعض إنه لا يستطيع إنسان أن يكون كاملاً كالله، فكيف يطلب السيد منا المستحيل.

لكننا في دراستنا للغة اليونانية نجد أن الكلمة المستخدمة هنا (teleios) لا تشير إلى الكمال المعنوي الفلسفي المطلق، لكنها تشير إلى كمال نسبي. فالإنسان الذي أنهى مرحلة التعليم الجامعي، يعتبر أنه أكمل التعليم بالنسبة إلى المبتديء، والذبيحة التي تخلو من العيب، تعتبر أكمل وأنسب للغرض المعدة لأجله. فالشيء يكون كاملاً إذا كان يناسب الهدف المقصود منه. والكلمة «كامل» هنا معناها تحقيق الهدف، فالإنسان يكون كاملاً إذا كان يحقق الهدف الذي من أجله أرسله الله إلى العالم.

وعندما خلق الله الإنسان في العالم، تذكر لنا قصة الخليقة أن الله قال: «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» تكوين١: ٢٦.

لقد خلق الله الإنسان ليكون شبيهاً بالله. ومن صفات الله هذا الإحسان والجود الذي لا يقهر نحو كل الخليقة، فهو صالح نحو الجميع. فمهما عمل الناس، فإن الله يسعى لخير الناس.

هذه هي البيئة التي تحدث فيها المسيح عن مباديء المسيحية السامية في الزواج والطلاق. وهي التي قال فيها المسيح: «أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى. من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بإمرأته ويكون الإثنان جسداً واحداً. إذاً ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان..

إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم . ولكن من البدء لم يكن هكذا...» (متى١٩: ٣—٩).

ومع أننا سنعود في المستقبل إلى التأمل في المباديء المسيحية عن الزواج والعلاقة العائلية، في دراستنا للأصحاح التاسع عشر من إنجيل متى، إلا أننا نورد هنا بعض النقاط التي أدخلتها المسيحية إلى المجتمع الذي سبق أن وصفنا نوع الحياة فيه..

١ — إن الله قصد أن يكون الزواج ارتباطاً دائماً بين رجل واحد وامرأة واحدة.

٢ — إن الإتحاد في الزواج اتحاد كلي يشمل جميع نواحي الحياة . فهو ليس إتحاداً جسدياً فقط ، بل في كل الأمور .

٣ — إن الاحساس بهذا الإتحاد والشركة ، يعطي مجالاً لكل أنواع الرعاية والإهتمام .

٤ — إن الطلاق شريعة استثنائية أعطاها موسى لليهود لأجل قساوة قلوبهم ، والمبدأ المسيحي العام — أنه لا يجوز الطلاق إلا لعلة الزنا فقط .

٥ — إن على المسيحي أن يقدر هذه الأمور كلها قبل أن يتزوج ، والله يعطيه هذه النعمة حتى يقبل الشريعة المسيحية التي لا يقبلها الجميع « ليس الجميع يقبلون هذا الكلام ، بل الذين أعطي لهم » (متى ١٩: ١١) (المترجم).

لذلك فإنه عندما تكون حياة الإنسان في العالم متصفة بهذه السماحة والجود، وحب الخير للجميع، في تضحية وبلا ضجر، فإن حياة الإنسان تكون شبيهة بحياة الله. وهكذا يكون الإنسان كاملاً في لغة العهد الجديد.

إن الإنسان الذي يعمل أقصى جهده لخير البشر، هو أكمل الناس.

إن تعاليم الكتاب المقدس تؤكد لنا أن تحقيق أسمى معاني الإنسانية يتم عن طريق مشابهتنا لله، والأمر الذي يجعلنا نشبه الله، هو هذا الحب الذي لا ينتهي نحو البشر، والإحسان إليهم مهما عملوا.. فإننا بذلك نتعلم معنى الكمال المسيحي، فنغفر كما يغفر الله، ونحب كما يحب الله.

الأصحاح السادس

وازع الثواب في الحياة المسيحية

مقدمة للأعداد ١ ــ ١٨ من الأصحاح السادس

عندما تدرس الأعداد الأولى من الأصحاح السادس من بشارة متى نواجه سؤالاً هاماً هو: ما مكان وازع الثواب في الحياة المسيحية ؟ إن السيد المسيح يردد ثلاث مرات في هذا الجزء أن الله سيجازي ويكافيء الذين يقدمون له الخدمة التي يريدها بالكيفية التي يرضاها: «أبوك .. هو يجازيك علانية» ١٨،٦،٤ ــ إن هذا السؤال يقتضى منا أن نقف قليلاً لنتأمله وندرسه قبل دراسة هذا الأصحاح بالتفصيل.

كثيراً ما يقال إنه لا مكان لوازع الثواب في الحياة المسيحية. فنحن ينبغي أن نكون صالحين للصلاح نفسه لا رغبة في مكافأة، فالخير نفسه هو أكبر مكافأة، والفضيلة ثواب نفسها، وكثيرون قالوا إن مبدأ وازع الثواب ينبغي أن يزول من الحياة المسيحية.

وقد قيل أن أحد القديسين قديماً كان يتمنى لو أنه أطفأ نيران جهنم بالماء، وأحرق أفراح السماء بالنار، حتى يصنع الناس الصلاح دون طمع في ثواب أو خوف من عقاب، بل يفعلون الخير للخير ذاته.

وتبدو هذه النظرة في ظاهرها رائعة سامية، لكنها ليست النظرة التى كانت لدى يسوع. لقد رأينا كيف أنه ذكر الثواب ثلاث مرات في هذا الجزء. فإن الصدقة والصلاة والصوم إذا قام بها الإنسان بالأسلوب الصحيح، لا بد لها من ثواب. وليس هذا هو المكان الوحيد الذي تقرأ فيه تعليم المسيح عن الثواب . فهو يقول للذين يحتملون التعيير والإضطهاد من أجله « إفرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات » (متى ١٢:٥) وهو يقول «من سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره» متى ٤٢:١٠). وفي مثل الوزنات ينال العبد الأمين أجره (متى١٤:٢٥ــ٣٠) وفي مثل الدينونة الأخيرة نقرأ عن الثواب والعقاب، حسب تجاوبنا مع حاجات البشر في ظروفهم (متى٣١:٢٥ــ٤٦).

إذاً فقد كان المسيح يتحدث عن الثواب والعقاب، فلنحذر من أن نظهر أنفسنا وتفكيرنا أكثر روحانية من المسيح. هذا، فضلاً عن الحقائق التالية.

(١) إنه من القواعد الواضحة في الحياة أن أي عمل لا يؤدي إلى نتيجة ما يعتبر عقيماً وبلا معنى. فالصلاح الذى لا يؤدي إلى هدف يكون صلاحاً بلا معنى. وما لم تكن للحياة المسيحية أغراض وأهداف يسعد الإنسان بتحقيقها، فإنها تصير فى الأغلب بلا معنى. ومن يؤمن بالأسلوب المسيحي والمواعيد المسيحية، لا يمكن أن يعتقد بأنه لا توجد نتائج للصلاح إلا الصلاح نفسه.

(٢) إننا إن محونا كل الثواب والعقاب من الدين ، فكأننا نعطى للظلم الكلمة الأخيرة في الحياة .

وليس من المعقول أن نعتقد بأن نهاية الرجل الصالح والرجل الشرير واحدة ، فكأننا نقول إن الله لا يهتم إذا عاش الناس صالحين أو أشراراً ، أو كأنه لا يوجد ما يدعو إلى الصلاح . إننا إن أنكرنا فكرة الثواب والعقاب، فكأننا ننكر عدالة الله ومحبته. إن فكرة الجزاء والعقاب ضرورية لتعطى للحياة معنى وطعماً.

وسندرس هنا شيئاً عن الفكرة المسيحية للثواب، ثم نتأمل قليلاً في ماهية الثواب أو الجزاء المسيحي.

أولاً : الفكرة المسيحية عن الثواب

إذاً فالمسيحية تؤمن بالثواب والعقاب. لكن علينا ونحن نفكر في هذا الإتجاه أن نلاحظ هذه الأمور :

١ ــ عندما تحدث يسوع عن الثواب، لم يكن يفكر في الثواب المادي. وفي هذا يختلف إتجاه المسيح عن إتجاه العهد القديم، فقد كانت فكرة الصلاح في العهد القديم مرتبطة بالرخاء المادي. فإذا أصاب الرخاء شخصاً ما، وأخصبت حقوله، وزاد محصوله، وكثر أولاده، وتضاعفت ثروته، كان هذا برهاناً على أنه إنسان صالح. ولقد كانت هذه عقدة سفر أيوب.

فعندما أصابت أيوب التجارب والمصائب والخسائر، وجاء أصدقاؤه إليه ليقنعوه بأن كل ما أصابه جاء نتيجة لخطاياه، كان أيوب ينكر هذه الحقيقة بشدة، وهكذا دار الحوار بينهم.

فقد قال أليفاز التيماني: «أذكر من هلك وهو بريء. وأين أبيد المستقيمون ؟ » أيوب٤:٧. وقال بلدد الشوحي: «إن كنت أنت زكياً مستقيماً فإنه الآن يتنبه إليك، ويسلم مسكن برك» أيوب٨:٦. وقال صوفر النعماني: «إذ تقول تعليمي زكي وأنا بار في عينيك» ، ولكن ياليت الله يتكلم ويفتح شفتيه معك. ويعلن لك خفيات الحكمة. فتعلم أن الله يغرمك بأقل من إثمك» (أيوب١١:٤ــ٦).

إذاً فسفر أيوب كتب ليناقض الفكرة السائدة أن الصلاح والرخاء المادي يسيران جنباً إلى جنب، والتي تتضح من أجزاء كثيرة في العهد القديم. ففي المزامير يقول المرنم «أيضاً كنت فتى وقد شخت ولم أر صديقاً تخلى عنه ولا ذرية له تلتمس خبزاً» (مزمور٣٧:٢٥)، «يسقط عن جانبك ألف وربوات عن يمينك. إليك لا يقرب. إنما بعينيك تنظر وترى مجازاة الأشرار. لأنك قلت أنت يارب ملجأي. جعلت العلي مسكنك. لا يلاقيك شر ولا تدنو ضربة من خيمتك» (مزمور٩١:٧ــ١٠).

هذه الأقوال لم يصدر مثلها من يسوع، فهو لم يعد تلاميذه بالرخاء المادي بل على العكس وعدهم بأنهم سوف يصادفون ضيقات وتجارب واضطهادات وموتا ــ إذاً فالفكرة المسيحية عن الثواب، لا ترتبط بالرخاء أو الجزاء المادي.

٢ ــ ثم إننا يجب أن نلاحظ أن المكافأة العظمى لا تكون من نصيب الذين يبحثون دائماً عن المكافأة. ذلك لأنه إذا كان إنسان ما يبحث دائماً عن المكافأة، فإن هذه الرغبة تجعله يحسب حساب كل عمل يعمله، ومقدار الجزاء الذي يناله عليه، فتكون حركته في عمل الخير مشلولة،

فيفقد الجزاء الذي يبحث عنه، لأنه ينظر إلى الله وإلى الحياة من زاوية خاطئة.

فالشخص الذي يحسب دائماً حساب الجزاء الذي يستحقه، ينظر إلى الله نظرته إلى قاضٍ أو آلة حاسبة، وينظر إلى الحياة نظرة قانونية تجارية يحكمها نظام الأرباح والخسائر، والدائن والمدين. فهو دائماً يقدم إلى الله ورقة حساب قائلا: «لقد عملت هذا القدر من الأعمال، وأنا أطالب الآن بمكافأتي».

والخطأ الرئيسي في هذه النظرة أنها تعامل الحياة بالقانون لا بالمحبة. فنحن إن أحببنا شخصاً ما محبة عميقة بتواضع وبلا أنانية، فنحن نكون على استعداد أن نقدم له أغلى ما لدينا، ومع ذلك نظن ذلك قليلاً .. إننا مهما قدمنا لمن نحبه، نعتبر أنفسنا مديونين، فإن آخر شيء يخطر على تفكير المحب الحقيقي، هو التفكير في الجزاء والمكافأة التي يستحقها على ما قدمه من حب.

هذه هي الحقيقة الواقعة رغم التناقض الظاهر فيها. إن من يبحث عن المكافأة ويحسب لها ألف حساب، لا ينالها .. أما ذاك الذي يكون دافعه المحبة ولا يعتقد أنه يستحق أي مكافأة، هذا الشخص هو الذي ينال المكافأة.

ثانياً : ما هو الجزاء المسيحي؟

إذا كان الجزاء المسيحي ليس جسدياً مادياً، ولا يناله من يسعى إليه، فما هي إذا أنواع الثواب أو المكافأة التي نجدها في الحياة المسيحية...

قبل أن نتحدث عن ماهية الثواب المسيحي لا بد أن نذكر حقيقة جوهرية، وهي أن من يدرك الجزاء المسيحي لا بد أن يكون تفكيره روحياً .. فصاحب التفكير الجسدي لا يعتبر الجزاء المسيحي مكافأة أو ثواباً على الإطلاق.

١ ـــ وأول مكافأة ينالها المسيحي هي الإحساس بالرضا. فعمل الصواب وطاعة المسيح والسير في طريقه، يجلب الإحساس بالرضا للإنسان، مهما كانت نتائجه الأخرى. فقد يفقد المرء مركزه أو ثروته في سبيل طاعته للمسيح، وقد تقوده هذه الطاعة إلى السجن أو الموت أو فقدان محبة الناس والوحدة، لكنه رغم كل ذلك يحصل على شعور داخلي بالرضا، هذا الشعور يفوق كل الأشياء الأخرى مجتمعة معاً. فإن هذا الشعور لا يقدر بمال، فلا يوجد مثله في كل العالم. إن هذه القناعة هي تاج الحياة.

حكي عن أحد الشعراء واسمه «جورج هربرت» ، أنه كان عضواً في جماعة من الأصدقاء هواة الموسيقي، وكانوا يجتمعون ليعزفوا على آلاتهم الموسيقية في شبه أوركسترا (فرقة موسيقية) ويجدون في هذه الهواية سعادة كبيرة.

وفي أحد الأيام كان في طريقه إلى هذه الجماعة، عندما وجد عربة ساقطة في حفرة من الأوحال. فترك جورج هربرت آلته الموسيقية، وابتدأ يساعد صاحب العربة في إخراجها من الوحل، واستغرق ذلك وقتاً طويلاً، ذهب بعده إلى الجماعة وقد اتسخت ملابسه بالأوحال، بل بعد أن كان عزف

الموسيقى قد انتهى.

ولما ذكر لهم سبب تأخيره قالوا له: «لقد فاتك سماع الموسيقى»، فابتسم وقال: « نعم ، لكني سأستمع إلى الأغاني والموسيقي في منتصف الليل». وكان يقصد بذلك سعادة نفسه الداخلية لأنه قام بعمل مسيحي.

ويذكر «جودفرى وين» قصة أحد كبار الجراحين بانكلترا، أنه خلال الحرب ترك عمله الخاص الذي كان يدر عليه عشرة آلاف جنيه في العام، وخصص كل وقته وفنه لعلاج وجوه وأجساد الطيارين الذين أصابتهم الحرب بجروح وحروق. وقد سأله جودفري وين قائلاً «ما هو طموحك من وراء هذا العمل ياماك؟». فأجابه بالقول «أريد أن أكون طبيباً صالحاً» — فإن العشرة آلاف جنيه لم تكن تساوى شيئاً إذا قورنت بالرضى النفسي الذي كان يحس به وهو يقوم بعمل من أعمال التضحية مستخدماً كل جهده وفنه.

ففي العالم المادي من يملك قرشاً أكثر من أخيه هو الأغنى، لكن في العالم النفسي والروحي، يعتبر الرضا ثروة لا تقدر بمال، بل ولا يمكن أن نشتريه بالمال.

(٢) والمكافأة الثانية التي ينالها المسيحي هي عمل أكثر. إن الفكرة المسيحية عن الجزاء لا تحمل في طياتها الراحة والسكون والكسل، بل إنها تؤدي إلى مزيد من الجهد ومزيد من المطاليب. ففي مثل الوزنات (متى٢٥: ١٤ــ ٣٠) نرى أن مكافأة العبيد الأمناء كانت زيادة في مسئولياتهم التي أسندت إليهم.

ولعل في اختباراتنا العملية ما يؤيد هذه الحقيقة. فعندما يرى الأستاذ طالباً متوقد الذكاء موفور النشاط، لا يعفيه من واجباته، بل يكلفه بأعمال أكثر من غيره لكي يزداد علماً ودرساً.

إن جزاء المسيحية يختلف عن جزاء العالم. فإن مكافأة العالم التي يتوقعها أهله، إنهم يستريحون بلا عمل، بينما في المسيحية يضع الله مسئوليات متجددة على من يريد أن يزيد من أجرهم.

(٣) المكافأة الثالثة التي ينالها المسيحي هي رؤيا الله. إن مجرد التفكير في رؤيا الله بالنسبة للإنسان العالمي غير المؤمن، تسبب له رعباً لا فرحاً، وإنزعاجاً لا بهجة، فكلما سار الإنسان في طريق الذاتية والأنانية فإنه ينحرف بعيداً عن الله شيئاً فشيئاً، وهكذا تزداد الفجوة بينه وبين الله إتساعاً، حتى يصير الله غريباً بالنسبة له، يخافه ويريد أن يتحاشاه. لكن بالنسبة للشخص الذي أراد أن يسلك مع الله، فما دام قد عزم أن يطيعه، ويسعى نحو الخير والصلاح كل أيامه، فإنه يزداد قرباً لله يوماً بعد يوم، حتى إنه في النهاية ينتقل إلى محضر الله المجيد، بلا خوف، بل في فرح لا ينطق به ومجيد، وهذا هو أعظم جزاء في الوجود، بل في الحياة والخلود..

أعمال صالحة بدوافع خاطئة

(متى ٦:١)

كانت أركان الحياة الدينية العملية عند اليهود ثلاثة، يعتبرونها الأعمدة التي تقوم عليها الحياة

الصالحة وهي: الصدقة، والصلاة، والصوم. ولم يحاول السيد المسيح أن يختلف معهم في هذا الأمر، لكن ما أزعجه هو أنه كثيراً ما كان الناس يعملون هذه الأعمال الجميلة الجليلة مسوقين بدوافع خاطئة.

وقد كان الناس فعلاً يقومون بهذه الأعمال الثلاثة، ولكن بدوافع خاطئة. لذلك حذرهم المسيح أنهم إذا كانوا يقومون بهذه الأعمال الصالحة بدافع تمجيد ذواتهم وجذب المدح إلى نفوسهم، فإن هذه الأعمال ستفقد أغلب قيمتها. وقد يتصدق إنسان ما على فقير، لا رغبة في مساعدة الفقير، وإنما ليبين للناس مقدار كرمه، ولكي ينعم بالشكر الذي يناله من الفقير، وبالمدح الذي يناله من الآخرين، وقد يصلي إنسان ما بطريقة تبدى أن صلاته ليست متجهة إلى الله بل موجهة إلى الناس، فتكون صلاته محاولة لإظهار تقواه وتدينه بشكل ظاهر للجميع. وقد يصوم إنسان ما لا لمنفعة روحه، ولا ليتذلل أمام الله، وإنما ليظهر للعالم قدرته على ضبط النفس.

وخلاصة القول إن الإنسان قد يعمل الأعمال الصالحة لينال مدح البشر، وليزيد من مقامه، وليظهر للعالم مقدار صلاحه.

وقد رأي المسيح أن هذا النوع من الأعمال ينال نوعاً من الأجر أو الجزاء، فقد ذكر السيد ثلاث مرات هذه العبارة «الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم» (متى٦:٢، ٥، ١٦) — وكلمة « استوفوا » إنما تدلنا على أنهم قد نالوا أجرهم بالكامل، فلم يتبق لهم أجر بعد ذلك. إن يسوع يريد أن يقول للناس «إذا قدمتم صدقاتكم لتظهروا كرمكم، فسوف تحصلون على إعجاب الناس. لكن هذا هو الشيء الوحيد الذي سوف تحصلون عليه. هذه هو أجركم بالكامل. وإذا صليتم بكيفية تظهرون بها تقواكم أمام الناس، فسوف تشتهرون بين الناس بالتقوى. وهذا هو كل ما ستحصلون عليه. هذا هو أجركم بالكامل. وإذا صمتم بدافع الظهور أمام الناس بالتقوى والزهد والقدرة على ضبط النفس، فهذا ما ستنالونه فقط، هذا هو أجركم بالكامل».

إن معنى قول المسيح هنا أنه إذا كان هدفكم الوحيد هو الحصول على مكافأة العالم وتقدير الناس، فلا شك أنكم ستحصلون على هذا النوع من الأجر، فلا تنتظروا إذاً الأجر الذي يستطيع الله وحده أن يعطيه.

وإنه لأمر مؤسف، يدل على قصر النظر، إذا كان إنسان ما ينال أجرة زمنية زائلة متقلبة، ويترك فرصة الأجر السماوي الأبدي الذي لا يزول.

الدافع الصحيح للصدقة

(متى ٦:٢ — ٤)

كانت الصدقة عند اليهود من الواجبات الدينية المقدسة. ومن أقوى الدلائل على ذلك أن كلمة «الصدقة» وكلمة «الصديق» من أصل واحد. فكأنما الصديق هو الذي يصنع الصدقة. وقد اعتقد

بعض اليهود أن تقديم الصدقة يعطي للإنسان بركة خاصة من الله، ويكفر عن خطاياه السالفة. وفي سفر طوبيت (وهو أحد الأسفار غير القانونية) ١٢:٨ «أن دفع الصدقة خير من اكتناز الذهب، فهي تنقذ الإنسان من الموت وتطهر كل الخطايا».

ومن أمثال الربيين «من يعطى صدقة أعظم ممن يقدم كل الذبائح». لذلك كان الناس يضعون الصدقة في المرتبة الأولى من الأعمال الصالحة. وقد كان تعليم اليهود متفقاً مع تعليم المسيح، أن الصدقة لا ينبغي أن تكون لحب الظهور، فقد قالوا «إن من يتصدق في الخفاء أعظم من موسى»«وأن الصدقة تنقذ الإنسان من الموت إذا كان متلقيها لا يعلم من أين جاءته، ومعطيها لا يعلم إلى أين ذهبت صدقته . وقد قيل عن أحد الربيين إنه كان يلقي النقود خلفه عندما يريد أن يتصدق ، فلا يرى من يأخذها .

وقد قيل إنه من الأفضل عدم تقديم شيء لإنسان، من أن تقدم له شيئاً وتخجله. ومن بين العادات الجميلة في الهيكل، أنه كان يحتوى على حجرة اسمها «حجرة الصامت»، كان الراغبون في التكفير عن خطاياهم يأتون إليها ويتركون النقود فيها، فيأتي الناس الذين انقلب عليهم الدهر وافتقروا بعد غنى، وينالون مساعدة من هذه الأموال.

ولكن الناس لم يسيروا وفق هذه التعاليم، فكانوا كثيراً ما يهتمون بأن يرى الناس صدقاتهم، وأرادوا مجداً لذواتهم أكثر من معاونة الغير. وأثناء الخدمة الدينية في المجتمع كانت تجمع عطايا للفقراء وكان الناس يهتمون بأن يرى الآخرون مقدار ما يدفعون.

وقد روى أحد المؤرخين هذه الرواية فقال:

«كانت المياه في تلك البلاد نادرة بعض الأحيان، وكان الناس يشترونها ليرووا ظمأهم. وكان إذا أراد أحد الناس أن يعمل عملاً صالحاً، فإنه يختار أحد باعة الماء (ساقياً) يكون صوته جميلاً ويدفع له ثمن قربة الماء ويقول له: إسق العطشان ماء. فيذهب السقا إلى السوق ويتبعه صاحب المعروف، ويصرخ السقا منادياً: هلموا أيها العطاش تعالوا اشربوا من هذه العطية. فيأتي كل عطشان ليشرب، ويوجه صاحب المعروف إلى كل من يأتي ليشرب هذا القول: باركني فقد أعطيتك لتشرب. هذا هو النوع الذي ينهى عنه المسيح. ويستخدم العهد الجديد كلمة «المرائي» ليصف هذه الحالة، ومعنى الكلمة في اللغة اليونانية «ممثل» ـــ إن أمثال هؤلاء الناس يجعلون من عمل الخير تمثيلية لينالوا مجد أنفسهم.

دوافع العطاء :

ما هي الدوافع الكامنة وراء عملية العطاء والصدقة؟

(١) قد يكون الإنسان في العطاء مدفوعاً بشعور الواجب، فهو لا يعطي لأنه يريد ذلك، لكنه يشعر بإحساس الواجب يدفعه إلى ذلك. وربما يعتقد بعض الناس أن وجود الفقراء في العالم إنما ليعطي لهم الفرصة أن يتصدقوا عليهم. والعيب البارز في هذا الدافع، هو أن الإنسان يشعر أنه من طينة أخرى تختلف عمن يتصدق إليهم . ولقد قيل عن أحد هؤلاء الناس إنه قدم كثيراً لكنه لم

يكن أبداً يقدم ذاته.

(٢) وقد يعطي الإنسان حباً في الكرامة والتقدير. فإذا كانت عملية التصدق تتم بدون إعلان وذيوع عند الناس، فربما لا يعطى على الإطلاق. ومثل هذا قد يحزن أو يمتنع عن العطاء إذا لم يلق شكراً وتقديراً ومدحاً بسبب عطيته. إنه لا يعطي لمجد الله بل لمجد ذاته. إنه لا يعطي ليعين الفقير، بل ليرضي كبرياءه وإحساسه بالسلطان والمكانة الرفيعة.

(٣) وهناك من يعطي لأن قلبه الفياض بالمحبة لا يستطيع إلا أن يعطي. إنه لا يستطيع أن يتخلص من مسئوليته نحو كل من يحتاج، مهما كانت حال من يعطي لهم.

قيل عن رجل من هذا النوع إن البؤس كان «جواز سفر» إلى قلبه، فإنه لم يكن يستطيع أن يري إنساناً في حاجة إلا وقدم له المساعدة. وفي إحدى الليالي كان راجعاً إلى بيته فوجد إمرأة على رصيف الشارع لا تستطيع الحركة، فنقلها إلى بيته. وهناك اكتشف أنها إمرأة بلغت أشنع حالة من الرذيلة والفقر والمرض. لكنه على الرغم من ذلك قدم لها كل عناية ممكنة وأنفق عليها الكثير من ماله، وحاول أن يهديها إلى طريق الفضيلة ... ولم يحصد نتيجة عمله هذا سوى الشكوك التي ساورت الناس من جهة أخلاقه هو، لكنه مع ذلك استمر يلبي نداء قلبه في العطف والرحمة. وقد قيل إن هذا الرجل افتقر، لكنه ظل يبذل ما عنده للعطف على الغير. فلما سألوه «لماذا يمتلىء بيته بهؤلاء المساكين وبمن لا يستحقون العطف؟» أجاب : «إذا لم أأوعانهم أنا فلن يعاونهم أحد. ينبغي أن لا نفقدهم بسبب حالتهم».

هذا هو العطاء الحقيقي ، النابع من قلب يفيض بالحب، لمن لا يستحق، لأنه نابع من محبة الله.

إن الصورة الكاملة لهذا النوع من العطاء نراها في شخص المسيح نفسه، إذ يصفه بولس لأصدقائه في كورنثوس قائلاً «فإنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح، إنه من أجلكم افتقر وهو غني لكي تستغنوا أنتم بفقره» (٢كورنثوس٨:٩).

إن عطايانا لا ينبغي أن تكون ناتجة عن إحساس بالواجب فحسب، مرتبطة بالكبرياء والبر الذاتي، ولا ينبغي أن يدفعنا إليها حبنا للمدح والثناء والتقدير من الناس، بل ينبغي أن تكون من فيض القلب المحب .. ينبغي أن نعطي نفوسنا كما أعطانا المسيح نفسه. فهذا هو العطاء الصحيح.

عيوب في الصلوات

(متى ٦ : ٥ ـــ ٨)

كانت نظرة اليهود إلى الصلاة أسمى من نظرة سائر الشعوب إليها، فقد اعتبرت الديانة اليهودية أن الصلاة من أرقى الدرجات في سلم الواجبات الدينية. وقال الربيون إن الصلاة أعظم من كل الأعمال الصالحة. ومن بين أمثالهم الجميلة عن الصلاة العائلية «إن من يصلي مع أسرته يحيط بيته بسياج أقوى من الحديد»، وكان معلمو اليهود يأسفون لأنهم لا يستطيعون أن يصلوا طيلة اليوم.

لكن ثمة أخطاء زحفت إلى عادات اليهود في الصلاة، ولعل هذه الأخطاء لم تكن مقتصرة على صلاة اليهود، ولكن يتعرض لها كل مجتمع يهتم اهتماماً بالغاً بالصلاة. فلم تكن هذه الأخطاء نتيجة إهمال للصلاة، بل كانت نتيجة حماس وتكريس، لكنه اتخذ طريقاً خاطئاً:

١ ـــ قد انحدرت الصلاة إلى الطقسية:

كان على اليهودي أن يكرر نوعين من الصلوات يومياً..

الأولى هو: الشمعا Shema واسمها مشتق من كلمات عبرية هي (إسمع) وهي الكلمة التي تبدأ بها الصلاة الواردة في تثنية ٦:٤ــ ٩و١١ :١٣ ـــ٢١ وعدد ٣٧:١٥ــ ٤١ واستهلالها «إسمع ياإسرائيل الرب إلهنا رب واحد ...».

وكان على اليهودي أن يكرر هذه الأقوال مرة في الصباح وأخرى في المساء. وقد ذكر معلمو اليهود أنه ينبغى أن يردد الإنسان هذه «الشمعا» حالما ينبثق الضوء لتمييز اللون الأزرق من الأبيض ــ كما ينبغي تكرارها في المساء. فإذا جاء موعد ترديد هذه الصلوات، فيجب على اليهودي أن يقف حيثما يكون، سواء في الشارع أو البيت أو العمل ليرددها، وقد كان البعض يرددونها في وقار وتقدير، لكن كثيرين أصبحوا يرددونها همهمة أو تمتمة دون تقدير لمعانيها السامية.

الصلاة الثانية اسمها «الثماني عشرة» (شمونى إشرة) لأنها تتكون من ثماني عشرة صلاة، وكانت ولا تزال جزءاً هاماً من العبادة في المجتمع. وقد صارت هذه الصلوات فيما بعد تسع عشرة، لكنها احتفظت باسمها القديم، وأغلب هذه الصلوات كانت قصيرة ورائعة.

فالصلاة الخامسة مثلاً تقول:

«أرجعنا إلى شريعتك ياأبانا، أرجعنا إلى خدمتك يامليكنا، أرجعنا إليك بالتوبة الحقيقية. لك المدح ياربنا لأنك تقبل توبتنا».

والصلاة الثانية عشرة تقول:

لتظهر رحمتك يارب للمستقيمين، والمتواضعين، وشيوخ شعبك إسرائيل وباقي المعلمين. أحسن إلى الغرباء والأتقياء الساكنين بيننا، وإلينا جميعا: وأعط جزاءً حسناً للذين يتوكلون من كل القلب على اسمك، ليكون نصيبنا معهم في العالم الآتى، فلا يخزى رجاؤنا. لك الثناء والمدح ياربنا لأنك رجاء الأمناء...».

وها أنت ترى أن صلاة الثماني عشرة من أجمل الصلوات المكتوبة. وكان على اليهودي أن يرددها ثلاث مرات في اليوم، صباحاً وظهراً ومساءً. كان اليهود الأتقياء يصلونها بتأمل وتقدير، لكن الغالبية كانوا يتمتمونها بلا فهم. بل إن البعض صاروا يرددون ملخصاً لها حتى صارت مجرد أمر طقسي يردده الناس بلا وعي.

ونحن المسيحيون، وإن كنا نأسف لهذه الظاهرة، لكن ينبغي ألا ننتقد اليهود في ذلك، لأننا نقع في الخطأ عينه عندما نردد الصلاة الربانية أو الصلاة على المائدة وغيرها من الصلوات أحياناً.

٢ ــ كانت لليهود صلوات متعددة للمناسبات المختلفة، فلم يكن هناك ظرف ما، لا توجد له صلاة خاصة مكتوبة. كانت هناك صلوات قبل كل وجبة طعام، وصلوات لإشراق النور، وللنار، والبرق، ولرؤية الهلال الجديد، وللبحر، والأنهار، وعند تلقي الأخبار السارة، وعند استخدام أثاث جديد، وعند دخول مدينة ما أو مغادرتها. وكان الهدف من هذه الصلوات كلها، أن تكون الحياة دائماً في محضر الله، لكن الصلاة ابتدأت تتجه إلى الطقسية والمظهر الرسمي، فكان اليهودي يهتم بترديد الصلاة المناسبة في الوقت المناسب دون تأمل في معانيها. وقد تنبه المعلمون لهذا الخطر، وحذروا الناس منه وقالوا إن ترديد الصلاة كواجب فقط لا يعتبر صلاة، وإن على الإنسان أن يصلي في تواضع راجياً رحمة الله ... وقد كان الربي اليعازر يكتب صلاة جديدة كل يوم، لكي لا يقع في خطأ الطقسية.

٣ ــ وقد وضع اليهود الأتقياء مواعيد محددة للصلاة، فكانت أوقات الصلاة هي الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة حسب التوقيت اليهودي، أي الساعة السابعة صباحاً والثانية عشر ظهراً والثالثة بعد الظهر حسب توقيتنا الحالي . وكان على اليهودي أن يتوقف أينما كان في هذه المواعيد ليصلي. وهكذا صارت الصلاة إجراءً شكلياً وليست ذكراً حقيقياً لله. ونحن نرى أن اليهود ليسوا وحدهم الذين وقعوا في هذا النظام الطقسي، الذي يهتم بمواقيت الصلاة أكثر من الصلاة نفسها.

٤ ــ ومن الأخطاء التي وقع فيها اليهود أن بعضهم قال إن الصلاة لا تستجاب، إلا إذا كانت في الهيكل أو المجمع، لذلك كان الناس يذهبون إلى الهيكل في ساعات الصلاة. وقد كان التلاميذ يفكرون هذا التفكير عينه في بدء الكنيسة المسيحية، فنحن نقرأ في أعمال ٣: ١ «وصعد بطرس ويوحنا معا إلى الهيكل في ساعة الصلاة التاسعة».

وقد كان خطر هذا الإتجاه أن الناس يظنون أن عبادة الله مقتصرة على بعض الأماكن المقدسة فحسب، وينسون أن الأرض كلها هيكل الله. وقد رأى بعض المعلمين اليهود هذا الخطر فقالوا «يقول الله لإسرائيل صلوا في مجامع مدينتكم، وإن لم تقدروا ففي حقولكم، وإن لم تستيطعوا ففي منازلكم، وإن لم تقدروا فصلوا في مخادعكم. وإن لم تقدروا فاصمتوا متأملين في فراشكم».

لكن الخطأ يحدث، ليس من المبدأ أو النظام، بل من الناس الذين يستخدمون هذا النظام.

٥ ــ وقد ظن اليهود أن إطالة الصلاة دليل على التقوى، وأن الصلاة المستجابة هي الصلاة الطويلة، ذلك لأنهم اعتقدوا أنه إذا وقف الإنسان طويلاً أمام باب الله، فإن الله يستجيب له. وقد حاول معلمو اليهود تعليم الناس خلاف ذلك بقولهم، إنهم مهما طالوا الصلاة فلن يستطيعوا أن يخبروا بأعمال الله، وأن المزمور ١٠٦: ٢ يقول «من يتكلم بجبروت الرب ، من يخبربكل تسابيحه» وأن الحكيم قال «لا تستعجل فمك ولا يسرع قلبك إلى نطق كلام قدام الله. لأن الله في السموات وأنت على الأرض، فلذلك لتكن كلماتك قليلة» جامعة ٥: ٢ ــ ومع ذلك فقد استمر اليهود يظنون أن الصلاة الطويلة البليغة دليل التقوى، ولا يزال بعض المسيحيين يعتقدون ذلك.

٦ ــ وقد استخدم اليهود تكرار بعض العبارات في صلواتهم كعادة الشرقيين في القديم، عندما كانوا يكررون جملة أو كلمة واحدة عشرات ومئات المرات بحيث تقودهم إلى حالة تشبه التنويم

المغناطيسي أو الذهول النفسي .. ونحن نقرأ في سفر الملوك الأول ١٨:٢٦ كيف أن أنبياء البعل يصرخون مدة يوم كامل قائلين «يا بعل أجبنا».

وفي سفر الأعمال ١٩:٣٤ نقرأ عن الجمع في أفسس أنهم كانوا يهتفون مدة ساعتين «عظيمة هي أرطاميس الأفسسيين» ويردد إخواننا المسلمون في حلقات الذكر كلمة «هو» أو «حي» ساعات متوالية إلى أن يصلوا إلى ما يشبه الغيبوبة أو الإستغراق الروحي. وقد كان اليهود يعملون هذا بعينه في «الشمعا» ، كما كانوا يرددون أكبر عدد من أوصاف الله في صلاة واحدة ويكررونها، حتى أن إحدى الصلوات كانت تحتوي على ست عشرة صفة لله في مقدمتها.. وهكذا اهتم الناس بالكيفية التي يرددون بها صلواتهم أكثر من الاهتمام بالصلاة نفسها ، فضاعت قيمة الصلاة تماماً .

٧ ــ الخطأ الأخير الذي ذكره المسيح هو أن بعض الناس كانوا يصلون لكي يروا من الناس. وقد كانت طريقة الصلاة عند اليهود تجعل المباهاة أمراً سهلاً. فاليهودي كان يصلي واقفاً، مرفوع اليدين، منحني الرأس. وكانت مواعيد الصلاة التاسعة صباحاً والثانية عشرة ظهراً. والثالثة بعد الظهر، وأينما وجد اليهودي كان عليه أن يصلي في هذه المواعيد، فكان من السهل على المرء أن يدبر وجوده وقت الصلاة في مكان مزدحم، أو على زاوية أحد الشوارع الكبري، أو على الدرجة العليا لسلم المجمع، ثم يصلي بطريقة مسرحية تمثيلية لكي يظهر للناس. ومع أن معلمي اليهود حذروا الناس من الرياء فقالوا إن المرائي يجلب غضباً على العالم ولا تستجاب صلواته، لكن نظام الصلاة اليهودي كان يشجع على التظاهر، إذا كان في القلب كبرياء.

وقد وضع المسيح قاعدتين أساسيتين للصلاة:ــ

القاعدة الأولى: إن الصلاة ينبغي أن تقدم لله. فقد كان الناس يقدمون صلاتهم للناس وليس لله. وصف أحد الوعاظ مرة صلاة بليغة نطق بها أحد الأعضاء بقوله «إنها كانت أبلغ صلاة قدمها شخص ما لجمهور كنيسة مدينتنا».

إن كثيرين يصلون ليؤثروا في جمهور السامعين، أكثر من رغبتهم في الإتصال بالله.

إن الصلاة الحقيقية هي التي لا يفكر فيها الإنسان إلا في الله، سواء أكانت صلاة جمهورية أو فردية.

القاعدة الثانية: ينبغي أن نذكر أن الله الذي نصلي له، هو إله محبة، ولديه استعداد أن يجيبنا أكثر مما لدينا نحن من استعداد أن نصلي. إنه يعلم ما نحتاج إليه قبل أن نسأله. وعطايا الله التي يقدمها لنا لا ننتزعها منه إنتزاعاً، بل هو يعطيها برضى وسخاء. إننا لا نتقدم إلى إله نتملقه أو نزعجه أو نرغمه على استجابة صلواتنا . إننا نتقدم إلى من يرغب أن يعطي .. إننا نأتي إلى أبينا السماوي. وحين نعلم ذلك يكفي أن نأتي إلى الله ولمحة الرغبة في قلوبنا، وعلى شفاهنا عبارة واحدة «لتكن مشيئتك».

الصلاة التي يرفعها التلميذ

(متى ٦: ٩ — ١٥)

وقبل أن نتأمل بالتفصيل في هذه الصلاة الربانية، يجدر بنا أن نلاحظ بعض الحقائق العامة التي ينبغي أن نذكرها:

١— فهذه الصلاة، قبل كل شيء، علمها السيد المسيح لتلاميذه. ومتى يدمجها في العظة على الجبل، وهي حديث المسيح إلى تلاميذه، ولوقا يذكر أن يسوع علمها لتلاميذه إجابة لطلبهم عندما قال أحد التلاميذ «يارب علمنا أن نصلي» (لوقا١١:١) — فهي إذا صلاة لا يستطيع أن يرفعها إلا تلميذ المسيح، هي لا يقدر أن يرددها فاهماً معانيها، إلا ذاك الذي سلم حياته وخصصها للمسيح — فهي ليست صلاة الأطفال وليست صلاة العائلة — فإن الصلاة الربانية لا تكون صلاة حقيقية، إلا إذا كان من يقدمها يعلم ماذا يقول. ولا يمكن لأحد أن يعلم ذلك إلا إذا دخل في دائرة تلاميذ المسيح.

٢ — ثم يمكننا أن نلاحظ ترتيب الطلبات في الصلاة الربانية. فالطلبات الثلاث الأولى تتعلق بالله وبمجده، والطلبات الثلاث التالية تتعلق باحتياجاتنا وضرورات حياتنا. وهكذا نرى أن الله ينال المكان الأول، وبعد يمكننا أن نعود أن أنفسنا وحاجاتنا ورغباتنا، فإنه لا يمكن أن تكون الأمور في مكانها الصحيح، ما لم يعط لله المكان الصحيح. إن الصلاة لا يجب أن تكون محاولة لإخضاع إرادة الله لرغباتنا، بل هي دائماً محاولة لإخضاع إرادتنا لمشيئة الله.

٣ — والجزء الثاني من الصلاة الذي يتصل بحاجاتنا مرتبط بعضه ببعض ارتباطاً وثيقاً. فهو يعالج حاجات الإنسان الثلاث الأساسية، ويربطها بمجالات الزمن الذي يحيا فيه الإنسان.

فهو أولاً طلب للخبز، الذي هو ضرورة لقيام الحياة، وهكذا يضع حاجات الحاضر أمام عرش الله.

ثم طلب للغفران، وبذلك يضع الماضي في محضر الله ونعمته الغافرة. ثم طلب للعون في التجربة، فيضع المستقبل بين يدي الله.

في هذه الطلبات الثلاث المقتضبة نتعلم أنن نضع الحاضر والماضي والمستقبل أمام عرش نعمة الله.

٤ — كما أن هذه الصلاة لا تكتفي بأن نضع حياتنا كلها في محضر الله ، بل إنها صلاة تأتي بالله بالكلية إلى حياتنا . ونحن عندما نطلب الخبز لحفظ حياتنا الأرضية ، فإن هذه الطلبة توجه أفكارنا إلى الله الآب الخالق وحافظ الحياة كلها . وعندما نسأل الغفران ، تتجه أفكارنا إلى الله الإبن ، يسوع المسيح مخلصنا وفادينا . وعندما نسأل العون عن التجارب المقبلة ، تتجه أفكارنا إلى الله الروح القدس ، المعزي والمقوي والمنير والمرشد وحافظ طريقنا .

وهكذا نرى هذا الجزء الثاني من الصلاة ، يحمل حياتنا في الحاضر والماضي والمستقبل ، ليقدمها أمام الله الآب والإبن والروح القدس ، فنحن نقدم حياتنا بجملتها إلى الله بكماله .

الآب السماوي

(متى ٦:٩)

حين نستخدم كلمة « أب » لنصف بها الله ، فكأننا نقدم مختصراً للإيمان المسيحي . فهذه الكلمة تقرر كل علاقات هذه الحياة .

١ — فهي تقرر علاقتنا بالعالم غير المنظور :

يحدثنا دعاة المسيحية في البلادد الوثنية تقدم أعظم إحساس بالراحة والطمأنينة لعقول الوثنيين وقلوبهم ، لأنها تؤكد لهم أنه يوجد إله واحد فقط . ذلك لأن الوثنيين يعتقدون بآلهة كثيرة ، فلكل نهر أو مجرى أو شجرة جبل إله ، وهؤلاء الآلهة يتصارعون ويتنافسون ويغضب بعضهم على بعض ، ويغار أحدهم من الآخر ، وفي وسط هذا الازدحام من الآلهة وعواطفهم ، ينبغي على الإنسان أن يرضي الآلهة جميعهم ، وإلا صار فريسة لغضب أحدهم ، وهيهات أن يستطيع المرء إرضاء الجميع ، لذلك فإن حياة الوثنيين كانت دائماً في رعب وفزع من الآلهة .

ولم تصر الديانة مصدراً لراحة الناس وإطمئنانهم ، بل بالعكس كانت سبباً لخوفهم المستمر .

ومن الأساطير اليونانية أسطورة معروفة عن أحد الآلهة وهو «بروميثيوس» (prometheus)، تقول إن الناس لم يكونوا يعرفون النار، لذلك كانت حياتهم خالية من البهجة والراحة، ولكن بروميثيوس أشفق عليهم وأعطاهم النار عطية للناس من السماء — لكن زيوس Zeus كبير الآلهة غضب غضباً شديداً، لأن الناس نالوا هذه الهبة، وأمسك بروميثيوس وربطه بسلسلة في صخرة في وسط البحر الأدرياتيكي، حيث ذاق العذاب من الحرارة والظمأ بالنهار، ومن البرد بالليل. وسلط زيوس نسرا ليمزق كبد بروميثيوس. وكان الكبد ينمو مرة ثانية، ويعود النسر فيمزقه.

هذه هي صورة لفكرة الناس عما يحدث للإله الذي يريد أن يساعد البشر. لقد كانت فكرة البشر عن الآلهة، إنهم يتنازعون وتمتلىء حياتهم بالغيرة والغضب والإنتقام، وآخر شيء يفكر فيه الآلهة هو معاونة البشر، وهكذا كانت نظرة الوثنيين إلى العالم غير المنظور.

فما أجمل وأعذب الإحساس الذي يحس به الإنسان، عندما يعرف أن الإله الذي يسيطر على العالم هو «أب»...إننا نرتعد ونرتعش أمام إله غاضب غيور منتقم، لكننا نسعد بالطمأنينة في محبة الآب.

٢ — وكلمة أب تقرر علاقتنا مع العالم المنظور:

من السهل أن نفكر أن العالم الذي نحيا به — عالم الزمان والمكان — يتسم بالعداء. فهناك

المرض وهناك التغير في الحياة، وهناك القوانين الصارمة في الكون التي إذا خالفناها تعرضنا للخطر، وهناك الألم والموت. لكن إذا تأكدنا أن وراء هذا العالم بمتاعبه، لا نجد إلهاً ساحراً غيوراً متقلب الأطوار، بل الله الآب المحب، فإن نظرتنا إلى العالم المنظور تتغير. ومع أننا نراه مظلماً متعباً، لكننا نحتمله لأننا نعلم أن محبة الله كامنة وراء هذا الظلام والتعب. وسوف تقر عيوننا عندما نعلم أن نظام هذا العالم إنما هو لتدريبنا لا لراحتنا . فالإحساس بالألم مثلاً أمر متعب، ولكن للألم مكانه في خطة الله. فلو أن إنساناً ما كان تكوينه شاذاً، بحيث أنه لا يشعر بالألم على الإطلاق، فإنه لا يكون سعيداً، بل في الواقع يستهدف لخطر عظيم. ويكون مشكلة لغيره. ولو لم يكن هناك إحساس بالألم لما عرفنا أننا مرضى، وكانت الأمراض تسرى في أجسادنا وتفتك بنا دون أن ندري. إن الألم هو إشارة الخطر التي يحذرنا الله بها من خطر محدق بنا لنحاول تجنبه أو تفاديه.

إننا إذا نظرنا إلى الله كأب لنا أدركنا أننا لا نعيش في عالم يتسم بالعداء لنا، ولذلك تقرر علاقتنا مع العالم المنظور الذي نحيا فيه.

٣ ــ وكلمة «أب» تقرر علاقتنا مع غيرنا من الناس :

فإذا كان الله أبا ، فهو أب لجميع الناس . إن الصلاة الربانية لا تعلمنا أن نقول « أبي الذي في السموات » بل « أبانا الذي في السموات ». وفي كل الصلاة الربانية لا نرى إشارة إلى المتكلم الواحد بل إلى المجموع . لقد جاء المسيح ليمحو كلمات الأنانية من قاموس أفكارنا ، ويستبدلها بكلمة الجماعة . إن أبوة الله لا تقتصر على فرد معين . إن كلمة « أبانا » تحتوي على أبعاد الذاتية ، فأبوة الله هي أساس أخوة البشر . .

٤ ــ وكلمة « أب » تقرر علاقتنا مع أنفسنا :

فهناك أوقات في الحياة يحتقر فيها الإنسان نفسه ويكرهها. إنه يعرف حقارته وعيوبه، وأنه أردأ من أي شيء يزحف على الأرض. والإنسان نفسه يستطيع أن يدرك عدم استحقاقه أكثر من أي شخص آخر. وقد أضاف أحدهم إلى التطويبات «طوبي للذين يعالجون احتقارنا لنفوسنا»، أو طوبى للذين يعيدون إلينا احترامنا لنفوسنا. وهذا ما يعمله الله تماماً. ففي غمرة هذه المشاعر التي تظلم فيها نفوسنا، يذكرنا الله أنه وإن عدمنا من يهتم بنا، فإننا موضوع اهتمامه، وإننا برحمته اللانهائية نعتبر من النسل الملكي، وأبناء لملك الملوك.

٥ ــ وكلمة «أب» تقرر علاقتنا بالله نفسه:

إنها لا تزيل قوة الله وقدرته وجلاله، إنها لا تنقص من مقام الله جل جلاله، ولكنها تجعل هذه القدرة وهذا الجلال قريبين منا، بحيث نقدر على الإقتراب إليه.

في قصة رومانية قديمة، ذكر أن إمبراطوراً رومانياً انتصر في الحرب، وحسب مألوف العادات في ذلك الزمن، كان عليه أن يسير في موكب عظيم وسط شوارع روما، ووراءه الأسلاب والغنائم والأسرى . وسار الإمبراطور في ذلك الموكب مع جنوده، وامتلأت الطرقات بالناس يهتفون له ويحيونه. وكان الجنود على جانبي الطريق يمنعون الجموع المتزاحمة من الاقتراب من الموكب. وفي

أحد الشوارع الرئيسية، كانت منصة جلست عليها الإمبراطورة وطفلها الصغير. وعندما اقترب الموكب من المنصة قفز الطفل الصغير وأراد أن يخترق صف الجنود ليصل إلى مركبة أبيه. فأمسك به أحد الجنود وقال له «لا تستطيع أن تعمل هكذا يابني، هل تعرف من هو الذي في المركبة، إنه الإمبراطور ، ولا ينبغي أن تجرى نحو مركبته» فضحك الصبي الصغير وقال له «قد يكون إمبراطورك أنت، ولكنه أبي أنا».

هذا هو شعور المسيحي نحو الله .. إننا ندعوه «أبانا».

لقد تأملنا في كلمة «أبانا» ـــ لكن الله ليس أبانا فحسب لكنه «الذي في السموات» وهذه الكلمة في غاية الأهمية، لأنها تحمل إلينا حقائق عظيمة:

(١) إنها تذكرنا بقداسة الله:

ذلك أنه من السهل أن ننظر إلى أبوة الله نظرة رخيصة عاطفية خالية من الوقار، فنجعلها أساساً للتساهل الكبير في الحياة، وتصير ديانتنا رخيصة. وقد قال أحدهم عن الله «إن الله يغفر الذنوب، هذه وظيفته» ـــ لو أننا قلنا إن الله أبونا فحسب، لكان من الممكن أن يكون لنا هذا العذر، لكننا نقول إنه أبونا الذي في السموات .. هناك المحبة، ولكن إلى جانبها القداسة.

ولعلنا نلاحظ أن السيد المسيح كان حريصاً كل الحرص في وصف الله بكلمة «أب» ، فقد استخدم هذا التعبير في إنجيل مرقس ست مرات فقط، وكان ذلك في دائرة تلاميذه الضيقة.

كان لكلمة «أب» قدسيتها في نظر المسيح، فلم يكن يستخدمها لوصف الله إلا مع من يستطيعون أن يقدروا قيمتها. لذلك فمن الواجب أن نستخدم هذا التعبير بوقار. فالله ليس أباً متساهلاً يغمض عينيه عن أخطاء أولاده وخطاياهم، لذلك ننظر إليه باحترام وتوقير وخوف وإجلال، فيه المحبة والقداسة معاً.

(٢) وهذه الكمات تذكرنا بقوة الله:

ففي اختبارات المحبة الإنسانية، نجد كثيراً من مشاعر الفشل والخيبة. فقد نحب إنساناً لكننا نقف مكتوفي الأيدي إذا لا نستطيع أن نساعده، لعدم قدرتنا.

وقد تكون المحبة رغم شدتها عاجزة. وكثيرون من الآباء قد اختبروا هذه الحقيقة. لكننا عندما نقول «أبانا الذي في السموات»، فإننا نضع المحبة جنباً إلى جنب مع القدرة، ونحن نقول لأنفسنا إن قوة الله توجهها محبته على الدوام، لذلك يستخدمها الله دائماً لخيرنا. إن محبة الله تسندها قوته على الدوام، ولا تعاني هذه المحبة شيئاً من الفشل أو الخيبة.

عندما نصلي قائلين «أبانا الذي في السموات» نحن نذكر قداسة الله ومحبته، ثم نذكر قوة الله التي تعمل دائماً في محبة لخيرنا على الدوام.

تقديس اسم الله

(متى ٦: ٩)

لعل هذه الطلبة من أصعب الطلبات تفسيراً لمعانيها، فكثيرون يتساءلون ماذا تعنى تماماً، وماذا تتطلب؟

إن علينا أن نتأمل أولاً في معاني الكلمات. فالكلمة المترجمة «ليتقدس» مشتقة من فعل يوناني متصل بصفة هي «قدوس» (hagios) ومعنى الفعل هو معاملة شخص أو شيء باعتباره مقدساً. ومعنى كلمة «مقدس» = مختلف عن الآخرين. فالإنسان المقدس منفصل ومختلف عن الآخرين. والهيكل مقدس، لأنه مختلف عن سائر الأبنية. والمذبح مقدس لأنه مخصص لغرض يختلف عن سائر الأغراض العادية. ويوم الرب مقدس لأنه مختلف عن الأيام الأخرى. والكاهن مقدس لأنه منفصل عن غيره من الناس. فيكون معنى هذه الطلبة «لتكن نظرتنا ومعاملتنا لاسم الله بحسبانه فريداً عن سائر الأسماء».

ويمكننا أن نضيف شيئاً آخر، ففي اللغة العبرية كلمة «اسم» لا تعني اللفظ الذي نطلقه على الشخص فحسب، بل إن كلمة «اسم» تشير إلى طبيعة وخلق وشخصية الإنسان بقدر ما تعرفه. ويمكننا أن نرى هذه الحقيقة بوضوح في استخدام العهد القديم لكلمة «اسم» . يقول كاتب المزامير في (مزمور٩: ١٠) «ويتكل عليك العارفون إسمك. لأنك لم تترك طالبيك يارب» وطبيعي أن هذه الآية لا تشير إلى من يعرفون أن اسم الرب هو «يهوه» فيتكلون عليه، بل إلى الذين يعرفون طبيعة الله وصفاته، لذلك يتكلون عليه. ويقول المرنم أيضاً «هؤلاء بالمركبات وهؤلاء بالخيل. أما نحن فاسم الرب إلهنا نذكر» (مزمور٢٠: ٧) وهذه تعني أن البعض يتكلون على القوة والمادة، لكن المرنم يذكر صفات الله، وبذلك ينال الثقة والاطمئنان.

في ضوء هذا الفهم لكلمة «يتقدس» وكلمة «اسم» ، ندرك أن معنى هذه الطلبة «أعنا يارب لنعطي لشخصك في حياتنا مكاناً فريداً يليق بشخصك وصفاتك وطبيعتك».

وإذا أردنا أن نجمل هذا العمل المطلوب في كلمة أو كلمات، يكون المطلوب منا أن نكرم الله ونوقره ونبجله ونعظمه. فهذه الطلبة تدعو إلى تبجيل الله. فماذا تتطلب منا؟

١ ــ لكي نعطي الله الوقار اللائق ينبغي أن نؤمن بوجوده أولاً. ونحن لا نستطيع أن نوقر شخصية لا نؤمن بوجودها. والعقل الحديث يدهش لأنه لا توجد في الكتاب المقدس أدلة ومحاولات لإثبات وجود الله ، ذلك لأن الكتاب المقدس يعتبر وجود الله أمراً بديهياً . والبديهية حقيقة مسلم بها لا تحتاج إلى إثبات ، لكنها تستخدم في إثبات غيرها من الحقائق. وكتبة الأسفار المقدسة لم يشعروا بلزوم التدليل على وجود الله، لأنهم كانوا يختبرون وجود الله كل لحظة في حياتهم. ولو كنا قد سألناهم لقالوا إن الإنسان لا يحتاج إلى برهان لوجود الله للسبب عينه الذي لا يفتقر فيه إلى إثبات وجود ابنه أو زوجته. فهو يلتقي بابنه وزوجته كل يوم، وهكذا يلتقي بالله كل يوم.

على أننا إذا حاولنا أن نثبت وجود الله عقلياً، فيمكننا أن نبدأ من العالم الذي نحيا فيه، فإن النظام والترتيب الموجودين في عالمنا يثبتان وجود عقل عظيم في الكون وضع هذا الترتيب والنظام.

ولنفرض أن رجلاً كان يسير في الطريق، فوجد ساعة في تراب الأرض، وهو لم يكن قد رأى الساعات من قبل ولا يعلم ما هي. إنه يلتقط الساعة ويرى أنها تتكون من غلاف معدني، وفي داخلها مجموعة من العجلات والأذرع والأحجار الكريمة والزنبرك، ثم يرى أن جميع هذه الأشياء تتحرك طبقاً لنظام معين. وأن عقارب الساعة تسير بنظام دقيق، فماذا يمكن أن يقول هذا الرجل؟ هل يقول إن هذه المعادن والأشياء انعطفت بعضها على بعض، واجتمعت من أطراف الأرض بمحض الصدفة، ونظمت نفسها لتسير وفق هذا النظام الدقيق؟ كلا، بل إن التفكير المعقول هو أن هناك شخصاً ما جمع هذه الأشياء وصنع منها هذه الساعة. إن النظام يفترض وجود العقل الذي وضعه. ونحن ننظر إلى العالم فنراه جهازاً ضخماً يسير بنظام دقيق. فالشمس تشرق بنظام دقيق، وحركة المد والجزر والفصول المتعاقبة تسير في ترتيب ونظام، حتى إننا نجد أنفسنا مضطرين أن نعترف بضرورة وجود من وضع هذا النظام في العالم. إن وجود العالم بالصورة التي نراه عليها، يدفعنا إلى الاعتقاد بوجود الله.. وكما قال أحدهم: «لا يمكن أبداً لعالم من علماء الفلك أن يكون ملحداً».

ولو أننا نظرنا إلى نفوسنا، وإلى الحياة المتدفقة فينا، لعرفنا أن الإنسان عاجز عن أن يخلق الحياة.. ولو أننا نسبنا حياتنا ووجودنا إلى والدينا، وأجدادنا ، فلا بد من الوصول في النهاية إلى التفكير فيمن أوجد هذه الحياة في البداية، وهكذا نعود إلى اليقين بوجود الله.

وكما قال الفيلسوف «عمانوئيل كانت»: «إن القانون الأخلاقي الكائن فينا، والسموات المليئة بالنجوم فوقنا، تقودنا حتماً إلى الله».

٢ ــ لكن اليقين بوجود الله ليس كافياً وحده لقيادتنا لتوقير الله، بل علينا أن نعرف شيئاً عن طبيعة الله وصفاته لكي نحترمه. فلا يمكن للإنسان مثلاً أن ينظر باحترام ووقار إلى آلهة اليونان، عندما يقرأ عن حروبهم ومخاصماتهم وبغضهم وحبهم ومؤمراتهم. إن آلهة الشر والفساد والخلاعة لا يمكن أن تنال تبجيلاً. لكننا نري في صفات الله صفات ثلاثاً أساسية وهي القداسة والعدالة والمحبة. نحن نكرم الله لأنه موجود، ولأن صفاته تدعو إلى هذا الإكرام.

٣ ــ وقد يؤمن إنسان ما بوجود الله، ويقتنع عقلياً بأنه قدوس وعادل ومحب، ولكنه لا يقدم لله الوقار اللائق. ذلك لأنه من الضروري أن يكون عند الإنسان إحساس دائم ووعي مستمر بالله . فإكرام الله معناه أننا نحيا في عالم ممتلىء بالله ، ونحيا حياة تحس بوجود الله دائماً ولا تنساه أبداً. وهذا الإحساس والوعي لا يقتصران على أوقات وجودنا في الكنيسة أو الأماكن التي نسميها مقدسة فحسب، بل يسيطر علينا في كل مكان وفي كل وقت.. في المتجر وفي الشارع وفي السوق، في كل مكان.

والمشكلة عند عدد كبير من الناس هي أن إحساسهم بالله إحساس متقلب، فهو شديد في بعض الظروف وفي بعض الأماكن، وهو منعدم في غيرها. إن الاحترام والتوقير معناهما الإحساس الدائم بحضور الله.

٤ ــ بقي عنصر آخر في التوقير بالإضافة إلى العناصر السابق ذكرها، وهو طاعة الله والخضوع له. فقد نعتقد بوجود الله، ونعرف صفاته، ونشعر بحضوره، لكننا لا نطيعه. إن الاحترام الحق هو المعرفة مضافاً إليها الخضوع، وقد قال لوثر في قانون الإيمان إجابة على السؤال: «كيف يتقدس اسم الله بيننا؟».

قال: «عندما تصير حياتنا وعقيدتنا مسيحية حقة، ومعنى ذلك أن تكون عقيدتنا العقلية وأفعالنا العملية خاضعة تماماً لإرادة الله».

فلنذكر هذا عندما نرفع هذه الطلبة «ليتقدس اسمك».

ملكوت الله ومشيئة الله

(متى ٦:١٠، ١١)

إن التعبير «ملكوت الله» من التعابير التي يتميز بها العهد الجديد. ولا يوجد تعبير أكثر شيوعاً منه في الصلوات والعظات والأدب المسيحي. لذلك فمن الضروري أن ندرك معناه.

من الواضح أن التعليم عن ملكوت الله احتل مكاناً مركزياً في رسالة السيد المسيح. وأول ظهور للسيد المسيح على مسرح التاريخ يصفه مرقس بأنه أتى إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله (مرقس١:١٤) وقد وصف السيد المسيح نفسه البشارة بالملكوت كأنها التزام عليه «فقال لهم إنه ينبغي لي أن أبشر المدن الأخر أيضاً بملكوت الله لأني لهذا أرسلت» (لوقا٤:٤٣، مرقس١:٣٨).

ولوقا يصف نشاط المسيح بأنه «كان يسير في مدينة وقرية يكرز ويبشر بملكوت الله» (لو٨:١) فما هو ملكوت الله؟

عندما نتأمل في معنى هذه العبارة، نواجه بعض الحقائق المحيرة. فإننا نرى أن المسيح تحدث عند الملكوت بثلاث طرق مختلفة. فقد تحدث عنه باعتباره شيئاً موجوداً في الماضي. وقال إن إبراهيم وإسحق ويعقوب وكل الأنبياء في ملكوت الله (لوقا١٣:٢٨ ومتى٨:١١) فكأنما الملكوت له تاريخ في الماضي.

ثم تحدث عنه باعتباره شيئاً في الحاضر. فقد قال لتلاميذه: إن ملكوت الله داخلكم أو بينكم (لوقا١٧:٢١). فهو إذاً حقيقة حاضرة. ثم تحدث عنه باعتباره شيئاً للمستقبل، فقد علّم الناس أن يصلوا لأجل مجيء هذا الملكوت...

كيف يكون الملكوت إذاً في الماضي والحاضر والمستقبل في الوقت عينه؟

إننا نجد حلاً لهذا التساؤل في هاتين الطلبتين المرتبطتين معاً من الصلاة الربانية. فمن مميزات الأسلوب العبري كثرة استخدام الأسلوب المسمى «المطابقة أو التقابل» ــ فاللغة العبرية تتجه في أسلوبها إلى ذكر الحقيقة مرتين بأسلوب متقابل أو متطابق. فتذكر العبارة مرة ، ثم تشرحها أو

تفسرها بعبارة أخرى. ونستطيع أن نرى هذا الأسلوب بكثرة في سفر المزامير، عندما نرى الجزء الثاني من العدد، متقابلاً وشارحاً للجزء الأول منه. مثل:

«الله لنا ملجأ وقوة، عوناً في الضيقات وجد شديداً» (مزمور٤٦: ١)

«رب الجنود معنا، ملجأنا إله يعقوب» (مز٤٦: ٧)

«الرب راعي، فلا يعوزني شيء. في مراع خضر يربضني — إلى مياه الراحة يوردني» — (مزمور٢٣: ١، ٢).

ونحن إذا طبقنا هذا الفكر على هاتين الطلبتين من الصلاة الربانية، وقرأنا الطلبتين معاً.

«ليأت ملكوتك — لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض».

نستطيع أن نرى أن الطلبة الثانية منهما تقابل وتطابق وتشرح الطلبة التي قبلها. فنفهم معنى ملكوت الله.

«إن ملكوت الله هو المجتمع الذي تتم فيه مشيئة الله على الأرض بالكمال الذي تتم فيه هذه المشيئة في السماء».

هنا نستطيع أن نرى تفسيراً لحقيقة الملكوت، وكيف أنه في الماضي والحاضر والمستقبل في الوقت عينه. فإن أي إنسان في التاريخ الماضي كان يفعل مشيئة الله تماماً، كان ضمن دائرة ملكوت الله، وكل شخص في الحاضر يفعل مشيئة الله هو ضمن دائرة ملكوت الله، ولكن حيث أن هذا العالم ليس هو المكان الذي يقوم جميع الناس فيه بتنفيذ مشيئة الله كاملة تماماً، لذلك فإن كمال الملكوت يعتبر أملاً نترقبه في المستقبل، ونصلي لأجله.

ومعنى أن نكون في الملكوت هو أن نطيع مشيئة الله. ونحن نستطيع أن نرى أن هذا الملكوت، ليس شيئاً يختص بالشعوب والأمم والبلاد، بل هو شيء يتصل بكل فرد منا على حدة، إنه في الواقع أكثر الأمور إتصالاً بالشخص نفسه لا بالمجتمع. فهذا الملكوت يتطلب خضوع إرادتي وقلبي وحياتي.. هذا الملكوت يأتي عندما يتخذ كل منا قراراً شخصياً بالخضوع لمشيئة الله.

لقد كان المسيحيون الصينيون يصلون صلاتهم المشهورة.

«يارب أنهض كنيستك مبتدئاً بي»، ونحن نستطيع أن نستخدم الأسلوب عينه بالقول «يارب ليأت ملكوتك مبتدئاً بي» — فالصلاة لأجل إتيان ملكوت الله، هي الصلاة لإخضاع إرادتنا لمشيئة الله.

إن أهم شيء في العالم هو طاعة إرادة الله. أهم كلمات في العالم هي «لتكن مشيئتك» — لكن استخدام هذه الكلمات يختلف اختلافاً كثيراً من شخص إلى آخر.

١ — فيمكن أن يقول إنسان ما «لتكن مشيئتك» في استسلام وإحساس بالهزيمة. إنه يرددها، لا لأنه يريد أن يقولها، بل لأنه وقف أمام الأمر الواقع. إنه لا يستطيع أن يقول غيرها. وربما يقولها

لأنه يشعر أن الله أقوى منه وأنه لا فائدة من معاندة قوانين الحياة. قد يقول هذه العبارة لأنه يفكر في سلطان الله الذي لا مفر منه. فهو يقبل مشيئة الله لأنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً غير ذلك.

٢ ــ وقد يقول إنسان ما «لتكن مشيئتك» بنبرة الإستياء والإمتعاض . هناك من ينظر إلى إرادة الله كأقدام حديدية تدوسه. وهناك من يشعر أن الله عدو له، لكنه عدو قوي لا يستطيع مقاومته. لذلك يقبل مشيئته، ولكن في امتعاض وضيق وغيظ وحنق. وقد قيل إن بيتهوفن مات وحيداً وعندما وجدوا جسده رأوه يعض على شفتيه، وقبضتا يديه مضمومتان كأنه يلوح بهما في وجه إله السماء.

٣ ــ وقد يقول إنسان «لتكن مشيئتك» في محبة كاملة وثقة تامة. يقولها في فرح ورضى مهما كانت الأحوال. وينبغي أن يسهل على المسيحي أن يتخذ هذا الموقف ويقول «لتكن مشيئتك» بهذا الأسلوب، ذلك لأنه واثق من حكمة الله ومن محبة الله.

(أ) فهو واثق من حكمة الله. إننا أحياناً نريد أن نبني بناء أو نصلح شيئاً ما، فنستشير خبيراً ، ويوجهنا لبعض الأمور، وعادة نحن نرضى بحكمه وتوجيهاته ونقول له «إصنع ما تراه نافعاً فأنت خبير في هذه الأمور» . إن الله هو خبير الحياة، وإرشاداته لا يمكن أبداً أن تضللنا.

وعندما يقبل الإنسان كل شيء شاكراً ومعترفاً بحكمة الله، يسهل عليه أن يقول «لتكن مشيئتك».

(ب) وهو يثق بمحبة الله. إننا لا نؤمن بإله يسخر منا، أو بإله متقلب الأطوار، أو بالقدر الأعمى الجامد.

إننا نؤمن بإله اسمه «محبة»، وكما قال بولس «الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء» (رومية٨:٣٢). لا يستطيع إنسان أن ينظر إلى الصليب ويشك في محبة الله، وعندما نعتقد بمحبة الله يسهل علينا أن نقول «لتكن مشيئتك».

خبزنا اليومي

(متى ٦:١١)

قد يظن البعض أنه لا اختلاف على معنى هذه الطلبة، لكن الواقع أنه وإن كان معناها الظاهر البسيط لا يحتاج إلى إيضاح، لكن كثيرين من الشراح قدموا أنواعاً متباينة من المعاني لهذه الطلبة.

ورغم أنه من الأفضل أن نتأمل في معناها المباشر، لكن لا ضير في التأمل قليلاً في مختلف المعاني التي نسبها المفسرون إلى هذه الآية.

(أ) فقد قيل إن المقصود بالخبز هنا هو الخبز في العشاء الرباني. بل قد كانت الصلاة الربانية مرتبطة منذ العصور الأولى بخدمة العشاء الرباني، كما نلاحظ ذلك في النظم القديمة للعبادة. لذلك ظن البعض أن الصلاة هنا تطلب من الله أن يمتعنا كل يوم بالامتيازات التي ننالها عند الجلوس

على مائدة الرب لنتغذى بغذاء روحي.

(ب) وقد قيل أيضاً إن الخبز يقصد به الطعام الروحي من كلمة الله، فتكون هذه الطلبة لأجل التعليم الصحيح والعقيدة الصحيحة المتضمنة في كلمة الله، التي هي حقاً غذاء للإنسان عقلاً وقلباً وروحاً.

(ج) وقد قال بعض الشراح إن الخبز يشير إلى شخص السيد المسيح نفسه، فقد وصف نفسه بأنه «خبز الحياة» (يوحنا٦ :٣٣ــ٣٥) . وبذلك تكون الصلاة أن نشبع من شخص المسيح كل يوم، فنبتهج ونتقوى بالمسيح الخبز الحي.

(د) وقد رأى البعض أن الخبز المشار إليه هنا هو خبز ملكوت السموات في مفهوم اليهود، والذي أشار إليه أحدهم مرة بقوله: «طوبى لمن يأكل خبزاً في ملكوت السموات» (لوقا١٤:١٥) . فقد كان اليهود يعتقدون إعتقاداً راسخاً بأنه عندما يأتي المسيا، ويشرق فجر العصر الجديد، تقام وليمة المسيا حيث يجلس مختارو الله، ويكون طعامهم من اللحم والسمك المأخوذ من «بهيموث» و«لوياثان» بعد قتلهما. وكأنما تكون هذه الوليمة إحتفالاً يرحب فيه الله بشعبه. وبذلك تكون الصلاة المرفوعة هي أن يجد الإنسان مكاناً في وليمة المسيا لشعب الله.

ومع أننا لا نتفق مع هذه الشروح ونميل إلى المعنى المباشر للطلبة، لكن ينبغي ألا نرفض هذه المعاني تماماً، فهي تحتوي على بعض المدلولات الروحية النافعة.

ولعل صعوبة تفسير هذه الطلبة تزداد بغموض معنى الكلمة اليونانية المترجمة «كفافنا» (epiousios) وهي مترجمة «يومياً» في اللغة الإنكليزية. وحتى عهد قريب كان من المعروف أن هذه الكلمة لم ترد أبداً في غير هذا الموضع في كل اللغة اليونانية، وقد علم أوريجانوس بذلك واعتقد أن الكلمة من اختراع متى البشير. لذلك لم يكن من الممكن معرفة معناها بالضبط.

لكن منذ عهد قريب وجدت على إحدى أوراق البردي قائمة بطلبات من السوق أرادت إمرأة في القديم أن تشتريها، ووجدت على هذه القائمة هذه الكلمة (epiousios) «كفافنا» لقد كانت هذه القائمة مذكرة للمرأة بما تحتاج إليه من الطعام لليوم التالي . في هذا الضوء نستطيع أن نرى أن هذه الطلبة من الصلاة الربانية تطلب من الله أن يعطينا الأشياء التي نحتاج إليها في اليوم التالي. هي دعاء إلى الله أن يعطينا طعام الأطفال عندما يعودون من المدرسة، والرجال عندما يعودون من العمل. وهي طلبة بأن لا تكون مائدتنا خاوية عندما نجلس عليها اليوم.

وعندما ننظر إلى هذه الطلبة بهذا المعنى المباشر، على أنها تتضمن حاجاتنا الضرورية يوما فيوماً، نستطيع أن نرى حقائق نافعة خلال هذه الطلبة:

١ ــ فهي تخبرنا أن الله يهتم بأجسادنا. ولقد أظهر السيد المسيح في حياته هذه الحقيقة، فقد قضى وقتاً طويلاً يشفي أمراض الناس ويشبع جوعهم. واهتم بالناس عندما رآهم قد تبعوه مسافة طويلة إلى موضع خلاء ولم يكن معهم طعام للجسد.

إنه من الخير أن نتذكر أن الله مهتم بأجسادنا. وأي تعليم ينقص أو يحقر من شأن الجسد ليس

تعليماً صحيحاً. ونحن نستطيع أن ندرك نظرة الله إلى أجسادنا البشرية، حينما نذكر أن الله نفسه في شخص المسيح اتخذ هذا الجسد البشرى. إن الخلاص ليس خلاص النفس فقط، بل هو خلاص كامل، خلاص الجسد والعقل والروح، هذا هو ما تهدف إليه المسيحية.

٢ ــ وهذه الطلبة تعلمنا أن نصلي لأجل خبزنا اليومي، فنحيا يوماً بيوم دون أن نهتم ونقلق بأمور المستقبل البعيد المجهول.

ولعل السيد المسيح وهو يعلم تلاميذه هذه الصلاة كان يعود بذاكرته إلى قصة المن عندما أعطاه الله لبني إسرائيل في البرية (خروج١٦:١ــ٢١) . فقد كادوا يهلكون جميعاً في البرية عندما أرسل لهم الله المن، الخبز الذي من السماء، بشرط واحد وهو أن يجمعوا منه ما يكفي للحاجات الحالية فقط ، ولو جمعوا منه أكثر مما ينبغي واختزنوه فإنه يفسد ويتعفن. كان عليهم أن يكتفوا بطعام اليوم. وكما قال أحد معلمي اليهود: «نصيب كل يوم في يومه، لأن الذي خلق اليوم خلق قوت اليوم».

وقال آخر: من يملك طعام اليوم ويسأل: «ماذا آكل غداً، يعتبر قليل الإيمان» فهذه الطلبة تعفينا من القلق الذي تتميز به حياة الذين لم يتعلموا الثقة بالله.

٣ ــ وهذه الطلبة تتضمن إعطاء الله مكانه المناسب، فهي تعترف بأننا ننال من الله طعامنا اللازم لحفظ حياتنا، إذ لم يتمكن عالم ما من أن يخترع بذرة تنمو. يستطيع العالم أن يحلل البذرة إلى عناصرها الأساسية، لكن لا يمكن لبذرة مركبة صناعياً تركيباً كيماوياً أن تنمو أبداً. إن كل الكائنات الحية تأتي من الله، وطعامنا عطية مباشرة من الله.

٤ ــ وهذه الطلبة تذكرنا بحكمة فذة كيف تأتي الصلاة بمفعولها. فلو صلى إنسان ما هذه الصلاة جلس خاملاً منتظراً أن ينزل الله الخبز بين يديه، فسوف يموت جوعاً. إن هذه الطلبة تذكرنا ان الصلاة والعمل يسيران معاً جنباً إلى جنب، وإننا عندما نصلي ينبغي أن نعمل أيضاً لتتحقق صلواتنا. إن البذرة الحية تأتي من الله حقاً، ولكن على الإنسان أن يزرعها ويسقيها.

وقد قص أحدهم هذه القصة ليعبر في شيء من المبالغة عن هذه الحقيقة، قال:

« كان لرجل حصة في أرض، وقد بذل جهداً كبيراً في إصلاح هذه الأرض وتنقيتها من الحجارة، واستئصال الحشائش الضارة، وزيادة خصوبة التربة، حتى أمكن أخيراً أن يزرع فيها أجمل الأزهار والخضروات. وفي أحد الأيام كان يزوره أحد الرجال الأتقياء وأطلعه على حصته من الأرض، فقال الرجل التقي: أليس هذا بديعاً أن الله يستطيع أن يجعل كل هذا الجمال في مثل هذه القطعة من الأرض؟ فأجابه صاحب الأرض وهو يذكر الجهد المضنى الذي بذله: كان ينبغي أن ترى هذه الأرض عندما كانت متروكة لله فقط » !

إن جود الله ينبغي أن يرتبط بجهد الإنسان. فالصلاة مثل الإيمان، بدون أعمال ميتة. ونحن عندما نرفع هذه الطلبة إلى الله، نعترف بحقيقتين أساسيتين: إننا بدون الله لا نقدر أن نعمل شيئاً، وأنه بدون جهدنا وتعاوننا، لا يقدر الله أن يعمل شيئاً لأجلنا.

وأخيراً علينا أن نلاحظ أن السيد المسيح لم يعلمنا أن نصلي قائلين «أعطني خبز اليوم» بل علمنا أن نقول: «أعطنا اليوم» — إن مشكلة العالم ليست في قلة موارده وخيراته، ففي العالم وفرة من الخيرات، وفي أمريكا تفيض المخازن بالغلال ولا تسع، وفي البرازيل يحرقون مئات الأطنان من البن الفائض أو يلقونها في البحر. إن المشكلة ليست في قلة الموارد لكنها في سوء توزيعها. إن هذه الصلاة تعلمنا ألا نكون أنانيين في صلواتنا. إنها صلاة نستطيع أن نعاون الله في إجابتها، عندما نشترك نحن مع من هم أقل حظاً منا في الموارد ومقومات الحياة. فهي ليست صلاة لكي يعطينا الله خبزنا اليومي فحسب، بل لكي نشارك الآخرين في خبزنا اليومي أيضاً.

الغفران البشرى والإلهى

(متى ٦:١٢، ١٤، ١٥)

«اغفر لنا ذنوبنا»...

قبل أن يرفع الإنسان هذه الطلبة، بإخلاص وصدق، عليه أن يتحقق من أمرين:

الأمر الأول، حاجته الفعلية إلى هذه الصلاة.

والأمر الثاني، ما يعمل بينما هو يرفع هذه الصلاة.

فقبل أن يرفع الإنسان هذه الطلبة من الصلاة الربانية ينبغي أن يكون لديه إحساس بالخطية، وكلمة «الخطية» ليست من الكلمات الشائعة أو المرغوبة في عصرنا. فالناس يرفضون أن يطلق عليهم أنهم خطاة مستحقون للجحيم، أو أن يعاملوا على هذا الأساس. ذلك لأن جوهر المشكلة، أن الناس لديهم فكرة غير صحيحة عن الخطية ، إنهم يتفقون على أن اللصوص والسكيرين والقتلة والزناة وأمثالهم هم الخطاة، لكنهم هم ليسوا هكذا، فليست فيهم هذه الصفات، بل هم يعيشون حياة محترمة، ولم يتعرضوا لمحاكمة أو يدخلوا السجون أو تعلن أسماؤهم في الصحف كمجرمين، لذلك فهم يشعرون بأنه لا علاقة لهم بالخطية ولا علاقة للخطية بهم.

فما معنى كلمة «خطية» كما نفهمها في العهد الجديد. إن العهد الجديد يستخدم خمس كلمات يونانية لوصف الخطية:

(١) الكلمة الأولى وهي أكثر الكلمات شيوعاً هي (hamartia) ومعناها الحرفي «عدم إصابة الهدف» فكأنما الخطية هي أن نفشل في أن نكون كما يجب أن نكون وكما يمكن أن نكون. فالإنسان أمامه أهداف سامية لحياته وسلوكه، وفي طاقته إمكانيات رائعة للعمل والخدمة والتقدم، فإذا لم يستطع الإنسان أن يحقق هذه الأهداف في حياته، وإذا لم يستطع الإنسان أن يستخدم الإمكانات التي في طاقته، يكون قد أخطأ الهدف. وفي هذا نستطيع أن نرى أن هذه الحالة تنطبق علينا جميعاً. فليس منا من هو زوج صالح أو زوجة صالحة كما ينبغي أن يكون. وليس منا من هو ابن نافع أو ابنة نافعة كما يجب أن يكون. وليس منا من يعمل مستنفداً كل طاقاته وإمكاناته.

هل يجرؤ أحد منا أن يدّعي أنه عمل كل ما ينبغي عمله، ووصل إلى الهدف الكامل في حياته؟ إذاً فكل منا خاطيء بهذا المعنى.

(٢) والكلمة الثانية التي تترجم خطية هي كلمة (Parabasis) ومعناها الحرفي «التعدي» فالخطية هي تعدي الخط الذي يفصل بين الخير والشر. وما أكثر المرات التي فيها نتعدى هذا الخط، أحياناً بعدم الأمانة في الأمور الزهيدة أو بتغيير الحق بالكلام أو السكوت أو التشويه.

ويمكننا أن نسأل أنفسنا، ألم نتعد أبداً الخط الفاصل بين اللطف والخشونة، بين التضحية والأنانية؟ ألم يصدر منا عمل قاسي أو خالي من الذوق أحياناً؟ وعندما نفكر في هذا الإتجاه، نتبين أنه ليس فينا من يستطيع أن يقول إنه لم يخطيء.

(٣) الكلمة الثالثة التي تترجم خطية هي كلمة (Paraptoma) ومعناها الحرفي « الإنزلاق أو الزلل ». فالإنسان قد تنزلق قدماه وهو يسير في طريق موحل أو مغطى بالجليد ، وذلك دون إرادته على عكس « التعدي ». وما أكثر المرات التي ننزلق فيها بالعمل والكلام عندما نفقد سيطرتنا على اللسان أو الأعصاب . إن كل إنسان معرض لهذا عندما لا نتحفظ لسبيلنا .

(٤) الكلمة الرابعة التي تترجم خطية هي كلمة (anomia) ومعناها الحرفي «مخالفة القانون». إنها خطية الإنسان الذي يعرف الخير لكنه يعمل الشر. والإنسان معرض في إنسياقه لغرائزه أن يخالف القانون ويرتكب المحظور عمله. وحتى الذين لا يخالفون القانون يتمنون في بعض الأحيان أن يخالفوه. وقد نفترض جدلاً أن إنساناً ما لم يكسر الوصايا العشر، لكننا لا نجد إنساناً لم يتمنَّ مرة أن يكسر هذه الوصايا.

(٥) الكلمة الخامسة التي تترجم خطية هي كلمة (opheileme) وهي الكلمة المستخدمة هنا في الصلاة الربانية. ومعناها «دين» . والدين هو عدم الوفاء بالواجب. ولا يستطيع إنسان ما أن يقول إنه أوفى واجباته كلها نحو الناس ونحو الله. فهذا النوع من الكمال غير موجود بين البشر.

لذلك ، عندما ننظر إلى كلمة «الخطية» بهذه المعاني، نرى أنها مرض عام يشترك فيه كل إنسان. فقد يكون الإنسان محترماً ومبرراً أمام الناس ، لكنه أمام الله خاطيء. إن كل إنسان يحتاج حقاً أن يردد هذه الطلبة: «إغفر لنا ذنوبنا».

وكما أنه على الإنسان أن يتحقق من حاجته الفعلية إلى هذه الصلاة، عليه أن يتحقق مما يفعله وهو يرفع هذه الصلاة.

إن هذه الطلبة تكاد تكون أكثر طلبات الصلاة الربانية إرهاباً لنا، ذلك أننا نصلي قائلين « واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ». والمعنى الحرفي هو «اغفر لنا ذنوبنا بالقدر الذي نغفر به نحن أيضاً ذنوب المذنبين إلينا» وفي عددي ١٤، ١٥ يكرر متى هذا المعنى بذكر كلام يسوع الواضح جداً، وهو أنه إن غفرنا للآخرين يغفر الله لنا ، وإن لم نغفر للآخرين لا يغفر الله لنا.

لذلك فمن الواضح تماماً أننا إذا صلينا هذه الصلاة، وكان هناك ثمة ثغرة لم تلتئم، أو شجار

لم ينته بيننا وبين غيرنا من الناس، فكأننا نطلب من الله أن لا يغفر لنا ذنوبنا — وإذا قلنا إننا لن نستطيع أن نغفر «لفلان» إساءته أو «لفلانة» زلاتها، ورفعنا هذه الطلبة، فنحن نطلب من الله أن يعاملنا نفس المعاملة. وقد قال أحدهم إن «الغفران مثل السلام واحد لا يتجزأ». فالغفران الإلهي والغفران البشري مرتبطان أحدهما بالآخر ارتباطاً وثيقاً، ولا يمكن أن نفصل غفراننا بعضنا لبعض عن غفران الله لنا، وكلاهما متصلان ويعتمد أحدهما على الآخر.

لو تذكرنا هذا كلما جاءت هذه الطلبة على شفاهنا، لما جرؤنا أن نردد هذه الطلبة في بعض الأحيان.

يروى عن «روبرت لويس ستيفنسون» أنه كان يعقد صلاة لعائلته يومياً، وكانت عادة تنتهي بالصلاة الربانية. وفي أحد الأيام في أثناء الصلاة الربانية، قام من ركوعه وترك الحجرة. فقامت زوجته مسرعة وراءه منزعجة على صحته خشية أن يكون قد حدث له طارىء، وقالت له «ماذا حدث؟» فأجاب «إنني شعرت إني لست أهلاً أن أصلي الصلاة الربانية اليوم».

إن كل شخص ذي قلب غير صافح ليس أهلاً أن يصلي الصلاة الربانية. وما لم نصلح أمورنا مع الناس رفقائنا أولاً، لا نستطيع أن نصلحها مع الله.

ولكي يكون لنا الروح الغافر، يجب أن تكون لنا هذه الأمور:

(١) ينبغي أن نتعلم كيف نفهم الآخرين — فلا بد من سبب يفسر كل تصرف يعمله الشخص. فإذا كان ناقماً أو متجاوزاً عن الأدب أو حاد الطباع، فربما يعاني قلقاً أو ضيقاً. وإذا كان ينظر إلينا في شك أو كراهية أو إنعدام ثقة، فربما لم يفهمنا فهماً صحيحاً أو وصلته أخبار مشوهة أو غير صحيحة عنا أو عن أعمالنا وأقوالنا. وربما كان هذا الشخص نفسه ضحية الوراثة أو البيئة التي عاش فيها. وربما كانت طباعه الأصلية تجعل من العسير عليه أن يتعامل مع الناس، وتكون مشكلته الدائمة هي علاقاته مع الغير. إن الغفران يكون أسهل بالنسبة لنا عندما نحاول أن نتفهم الأمور قبل أن نسمح لنفوسنا أن تدين الآخرين ونحكم عليهم.

ينبغي أن نتعلم كيف ننسى. فما دمنا نتذكر ونعاود الإحساس بالإساءات الموجهة إلينا فليس هناك ثمة أمل في أننا سنغفر. فكثيراً ما نقول «إننا لن ننسى الإساءة التي لحقت بنا في التاريخ الفلاني وفي المكان الفلاني».

إن هذه الأقوال خطيرة جداً لأنها تجعل النسيان مستحيلاً، بل إنها تطبع الحوادث على ذاكرتنا.

يحكى أن الأديب الاسكتلندي الكبير «أندرو لانج» كتب مرة ملخصاً وتعليقاً على كتاب وضعه كاتب ناشيء — فرد عليه الكاتب الناشيء بهجوم عنيف قاس مليء بالمرارة والسباب — وبعد ثلاثة أعوام كان الأديب الاسكتلندي «لانج» يجلس مع اثنين من أصدقائه هما الشاعر «لارويت وروبرت بريدجز» — فلاحظ «بريدجز» أن «لانج» يقرأ كتاباً للكاتب الشاب نفسه. فقال للأديب «أرى أنك تقرأ كتاباً آخر لذلك الشاب الناكر الجميل الذي تصرف إزاءك تصرفاً معيباً». ولكن لدهشته تبين أن «أندرولانج» قد نسى ذلك الموضوع تماماً. لذلك قال «بريدجز» يصف هذا الأمر قائلاً

«لقد كان الغفران دليلاً على عظمة ذلك الشخص، لكن النسيان كان أسمى وأروع».

وليس ما يستطيع أن يطهر ذاكرتنا من المرارة القديمة التي يجب أن ننساها مثل روح المسيح المطهر.

(٣) ينبغي علينا أن نتعلم كيف نحب. لقد درسنا من قبل معنى المحبة المسيحية. إنها إتجاه نحو العطف الذي لا يقهر، والإحسان الذي لا يهزم .. إنها البحث عن أسمى خير للآخرين مهما فعلوا بنا، ومهما كانت معاملتهم لنا. هذه المحبة لن تكون لنا ما لم يدخل المسيح، وهو المحبة المتجسدة — في قلوبنا وحياتنا، والمسيح لن يأتي إلينا ما لم نقدم له الدعوة.

فلكي تنال الغفران من الله، ينبغي أن نغفر نحن للآخرين، فهذا هو شرط الغفران الذي لا يمكن لغير قوة المسيح أن تعيننا أن نتممه.

التجربة والإنتصار عليها

(متى ٦ : ١٣ « أ »)

١ — معنى التجربة :

عندما تطرق كلمة «التجربة» آذاننا ، نعتبرها كلمة شريرة، فإن المفهوم عند أكثر الناس أن كلمة «يجرب» معناها يغرى الإنسان أن يعمل الشر والفساد، بينما كلمة «يجرب» كما نراها في الأصل اليوناني معناها « يمتحن». وبذلك يكون معنى الكلمة الكتابي، ليس إغراء الإنسان لعمل الشر ، ولكن امتحان قوته وأمانته وقدرته على الخدمة. وفي العهد القديم نقرأ أن الله أراد أن «يمتحن» إبراهيم ليرى مقدار طاعته، عندما طلب منه أن يقدم ابنه إسحق ذبيحة. والكلمة التي استخدمها الكتاب هي نفس كلمة «جرب» وقد ترجمت في الترجمة العربية «امتحن» (تكوين٢٢:١)

وعندما نقرأ قصة تجارب المسيح نرى أنها تبدأ بالقول:

«ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من إبليس» (متى٤:١) فلو أننا فهمنا أن كلمة «يجرب» هنا معناها الإغراء بعمل الشر، فإن هذا يجعل الروح القدس شريكاً في محاولة إغراء المسيح لعمل الشر. إن المعنى الصحيح لكلمة «تجربة» هو «امتحان» أكثر منه قيادة الناس لعمل الخطية.

بهذا المعنى نستطيع أن ندرك حقيقة ثمينة عن التجارب. إن قصد التجارب ليس إسقاطنا. بل هدفها أن نكون أناساً أفضل. إن هدف التجربة ليس أن تجعلنا خطاة، بل أن تجعلنا صالحين. قد لا نسقط ونفشل في الامتحان لكن ليس هذا هو المقصود، بل المطلوب هو أن نخرج من التجربة أقوى وأنقى. فليست التجربة عقاباً للإنسانية بل هي مجد للإنسانية. فالمعدن الذي يرغب الناس أن يستخدموه في مشروع هندسي ضخم، يخضعونه لمجموعة قاسية من الاختبارات أكثر من المتوقع أن يتعرض لها فعلاً، لامتحان صلاحيته. هكذا يمتحن الله كل إنسان يريد أن يستخدمه استخداماً كبيراً في خدمته.

٢ ــ الشرير:

ومع أن كل هذا صحيح عن التجربة، لكن الكتاب المقدس يتحدث أيضاً عن قوة شريرة في هذا العالم. وليس الكتاب المقدس كتاب تأملات نظرية، لذلك فهو لا يناقش مصدر تلك القوة الشريرة، ولكنه يؤكد وجودها فحسب. وهذه الطلبة من الصلاة الربانية لا تطلب نجاة من الشر بل من «الشرير» فليس الشر في مفهوم الكتاب المقدس مجرد قوة معنوية ، لكنه قوة شخصية عاملة في معارضة الله .

ولعل التطورات التي مرت بها فكرة «الشيطان» في الكتاب المقدس تسترعي الاهتمام، فكلمة «شيطان» في اللغة العبرية معناها خصم أو عدو أو مقاوم، وكثيراً ما استخدمت هذه الكلمة للإشارة إلى أشخاص من البشر بهذا المعنى، فعدو الإنسان هو شيطانه، وفي العهد القديم عبارات كثيرة استخدمت فيها كلمة «شيطان» بالعبرية وترجمت باللغة العربية «عدو»، «خصم» «مقاوم» ــ فمثلاً استخدمها الفلسطينيون لوصف داود إذ خافوا أن يكون عدواً لهم في الحرب. ووردت في صموئيل الأول ٢٩:٤ «لا يكون لنا عدواً في الحرب». وفي اللغة الأصلية «لا يكون لنا شيطاناً في الحرب».

وقد أعلن سليمان أن الله أعطاه سلاماً ورجاء « فلا يوجد خصم ولا حادثة شر » (١ملوك ٥:٤). والكلمة الأصلية «لا يوجد شيطان ولا حادثة شر».

وقد اعتبر داود أن أبيشاي بن صروية شيطان له. وجاءت الكلمة مترجمة «مقاوم» (٢صموئيل ١٩:٢٢).

وفي كل هذه النصوص نرى أن كلمة « شيطان » معناها خصم أو عدو أو مقاوم.

ثم تطور المعنى فأصبحت الكلمة تعنى العدو الذي يشتكي إنساناً ما ــ وأصبحت كلمة الشيطان تعني «المشتكي»، ومن ثم تطور معنى الكلمة، فأصبح لا يصف الناس في الأرض، ولكنه أصبح يصف ملاكاً اعتقد اليهود أنه يشتكي الإنسان في السماء، ووظيفته هذه ضمن برنامج الدينونة في السماء. وفي أيوب١:٦، نرى الشيطان معدوداً بين أبناء الله مشتكياً ضد البشر «وكان ذات يوم أن جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم».

ثم أصبح معنى الكلمة يشير، لا إلى مجرد «تقديم الشكاية» ، بل إلى «اختلاق وإعدادا الشكاية» ضد الإنسان.

وللشيطان اسم آخر هو «إبليس» وهي كلمة مشتقة من كلمة يونانية «ديابولوس» «diabolos»، ومعناها «المفتري» أو «الواشي» وأصبح الشيطان إبليس هو الواشي والمفترى ضد الإنسان، وهو القوة التي خرجت لتعطل مقاصد الله وتهلك البشرية. فالشيطان هو رمز كل شيء ضد الإنسان وضد الله، ويسوع يعلمنا أن نصلي لننجو من هذه القوة المخربة المحطمة.

وكما ذكرنا أن الكتاب لا يشرح لنا أصل هذه القوة، فليس هدف الكتاب المقدس مجرد التأمل في نظريات فلسفية، لكنه يعلمنا أن نقاوم هذه القوة. وقد قال أحدهم: «إذا استيقظ إنسان ليجد النار مشتعلة في منزله، فلا يجلس على كرسي ليقرأ كتاباً عن مصادر الحرائق في البيوت أو ليكتب

مقالاً عن هذا الأمر. إن أول عمل يعمله هو محاولة إخماد هذه النار لإنقاذ بيته».

هكذا نرى أن الكتاب المقدس لا يضيع وقتاً في التأملات عن مصدر القوة الشريرة، ولكنه يعدنا لنحارب ضد هذا الشر المؤكد وجوده معنا.

٣ ــ مداخل التجربة :

إن حياتنا تتعرض دائماً لهجوم التجارب، لكن العدو لا يستطيع أن يبدأ الغزو دون أن يكون له رأس جسر يدخل منه. فما هي مداخل التجربة، ومن أين تأتينا؟ إذا أخذنا الحذر منها فإننا نتحصن ضدها، وإذا عرفنا الأماكن التي يحتمل أن تدخل منها، صارت لنا فرصة أكبر للانتصار عليها.

١ ــ قد يكون مدخل التجربة شيئاً خارجاً عنا، مثل الصحبة والأصدقاء الذين نعاشرهم. فهناك أشخاص يصعب أن يفكر الإنسان في عمل رديء وهو معهم. بينما يوجد آخرون تأثيرهم سيء ويسهل على الإنسان أن يتشجع لعمل الشر وهو في صحبتهم. وفي عالم مليء بالتجارب، على الإنسان أن يدقق في اختيار أصدقائه ونوع المجتمع الذي يحيا فيه، ليكون للتجارب فرصة أقل في مهاجمته.

٢ ــ ومن المؤسف أيضاً أن التجارب قد تأتينا ممن يحبوننا ويعطفون علينا. وهذه من التجارب التي يصعب علينا أن نحاربها. إنها تأتينا من الذين يحبوننا ولا يفكرون مطلقاً في الإضرار بنا، لكن أفق رؤياهم يكون ضيقاً فيقفون حائلاً دون إستجابة الإنسان لدعوة الله. فقد يشعر إنسان ما أن الله يدعوه لعمل معين، يتطلب منه التضحية بالمركز والمال، ويدعوه للمخاطرة وترك المستقبل العالمي المضمون. في هذه الحالة يتضافر الذين يحبونه في محاولة تثبيط همته وإرجاعه عن غرضه. وهم يعملون ذلك بدافع الحب والرغبة في إسعاده حسب تفكيرهم.

هذا ما حدث ليسوع الذي قال: «وأعداء الإنسان أهل بيته» (متى ١٠:٣٦) فإن أقرباءه جاءوا مرة ليمسكوه ويعيدوه إلى بيته قائلين إنه مختل (مرقس ٤:٢١)، فقد بدا لهم أنه يضيع حياته ومستقبله، ويعرض نفسه للسخرية، لذلك حاولوا أن يوقفوه. إن بعض التجارب القاسية تأتينا من خلال أصوات محبينا.

٣ ــ ومن الطرق الغريبة التي تأتينا التجربة بها، أسلوب نراه أحياناً في بعض المواقف ــ خاصة بين الشباب ــ فيه نرى الإنسان يريد أن يظهر أكثر براعة من غيره في ارتكاب المعاصي، وقد ذكر القديس أوغسطينوس شيئاً من هذا الاختبار في اعترافاته فقال:

«كنت بين نظرائي لا أريد أن أكون أقل منهم فجوراً، فكنت عندما أسمعهم يفتخرون بشرورهم، أريد أن أكون أسوأ منهم، لأستمتع، لا بلذة الشر نفسه فحسب، بل بلذة الافتخار به. لذلك جعلت نفسي أسوأ مما كنت، لكي لا أكون أقل من غيري، وإذا كنت لم أرتكب شراً معيناً كنت أقول إنني ارتكبته لكي لا يحتقرني رفقائي».

وما أكثر الناس الذين انغمسوا في بعض الشرور أو العادات لكي لا يظهروا أقل خبرة من أصحابهم.

٤ ــ لكن التجربة لا تأتينا من خارجنا فقط، بل إنها تأتي من داخلنا أيضاً. فإذا لم يوجد فينا شيء تستهويه التجربة، فإن التجربة لن تستطيع أن تغلبنا. لكن في كل منا نقطة ضعف، ومن هذه النقطة تبدأ التجربة هجومها. والنقطة الضعيفة القابلة للتأثر بالتجربة تختلف من إنسان لآخر. فما يعتبر تجربة قاسية على إنسان ما، قد لا يهز إنساناً آخر. والتجربة التي لا تؤثر في شخص ما، قد تكون تجربة لا يمكن مقاومتها بالنسبة لشخص آخر.

ففي كل إنسان نقطة ضعف يمكن أن تحطمه ما لم يكن على حذر، فهناك في نقطة ما عند كل إنسان، توجد الثلمة ويوجد الصدع، زلل في الطباع يمكن أن يشقي الحياة، عاطفة أو شهوة أو غريزة قوية بحيث تفصم رباط الاتزان في حياتنا في أي وقت، روغة في تكويننا الطبيعي تجعل ما يسعد إنساناً ما، يهدد إنساناً آخر. لذلك ينبغي أن نتنبه ونكون على حذر.

٥ ــ ومن الغريب أن تأتينا التجربة أحياناً، لا من أضعف نقطة فينا، بل من أقوى نقطة ــ فإذا كان هناك أمر ما تعودنا أن نقول عنه «هذا هو الشيء الذي لا يمكن أن نفعله أيضاً»، فلنحذر لئلا نقع فيه . والتاريخ مليء بقصص القلاع الحصينة التي اقتحمها الأعداء من المواضع التي اعتقد أصحابها أنها أكثر الأماكن حصانة وقوة، فلم يضعوا عليها الحراسة الكافية. وما من شيء يعطي التجربة فرصة سانحة مثل المبالغة في الثقة بالنفس. فلنكن على حذر دائماً من أضعف نقطة فينا، ومن أقوى نقطة أيضاً ــ لنكن دائماً على حذر.

٤ ــ مواجهة التجارب :

كيف ندافع عن نفوسنا ضد هذه التجارب.

١ ــ الوسيلة الأولى هي احترام النفس. فعندما كانت حياة نحميا في خطر، اقترح عليه بعضهم أن يترك العمل، ويغلق على نفسه في الهيكل إلى أن يزول الخطر، لكن جوابه كان «أرجل مثلي يهرب. ومن مثلي يدخل الهيكل فيحيا، لا أدخل» (نحميا٦: ١١).

فقد يهرب الإنسان من أمور كثيرة، لكنه لا يستطيع أن يهرب من نفسه، فهو يحيا مع ذكرياته، وإذا فقد احترامه لذاته تصير الحياة بالنسبة له لا تطاق.

يحكى عن الرئيس «جارفيلد» أن أصدقاءه نصحوه مرة أن يعمل أمراً نافعاً لكنه مناف للشرف، وقيل له «لن يعرف إنسان ما أنك فعلته» فكان جوابه «لكن الرئيس جارفيلد سيعرف، ولا بد أن أنام معه».

عندما يواجه إنسان ما تجربة، يمكنه أن يقول «هل رجل مثلي يفعل شيئاً كهذا ؟ »، ويدافع عن طريق احترام النفس.

٢ ــ الوسيلة الثانية العرف والتقاليد المرعية، فليس من العسير على الإنسان أن يستهين بالتراث الذي يوجد فيه، والذي هو حصيلة عدة أجيال. ولقد قيل عن بركليس أعظم سياسي أثينا، إنه عندما كان يذهب ليخطب في برلمان أثينا كان يهمس لنفسه قائلاً: «أذكر يابركليس أنك أثيني تخاطب

جماعة من الأثينويين » .

إن قوة العرف والتراث قوة عظيمة في الحياة، فنحن ننتمي إلى بلد وإلى مدرسة وإلى أسرة وإلى كنيسة. وما نفعله يؤثر فيما ننتمي إليه. وليس من الهين أن نخون التراث العظيم الذي نحن جزء منه.

٣ ــ الوسيلة الثالثة هي النظر إلى من يحبوننا ونحبهم. فقد يرضى إنسان ما أن يخطيء إذا كان هو وحده سيتحمل وزر خطيئته، لكنه إذا أحس بأن خطيته سوف تسبب الألم لمن يحبهم، وأنه إذا أغرق سفينة حياته، فسوف يغرق معه أحباؤه الذين يريد لهم الحياة، فإنه قد يجد قوة بها يواجه التجربة.

ولقد روت الكاتبة «لورا ريتشاردز» هذه القصة:

«جلس رجل قرب باب بيته يدخن غليونه، وجلس جاره الشرير بجانبه يغريه ويجربه. قال الجار: أنت رجل فقير ومتعطل عن العمل، وعندي وسيلة بها تحسن أحوالك وتعمل عملاً بسيطاً يصيبك منه المال الكثير. وإن هذا العمل لم يكن شريفاً بالمعنى المثالي، لكنه ليس أقل شرفاً من الأعمال التي يقوم بها كل يوم أشخاص محترمون. سوف تندم إذا تركت هذه الفرصة تمر، تعال معي لنعقد إتفاقاً وتتسلم العمل. وكان الرجل يصغى. وفي ذلك الوقت خرجت زوجته من البيت تحمل طفلها الصغير بين يديها وأودعته ذراع أبيه ريثما تنتهي من عمل ما. وحمل الرجل طفله وأجلسه على ركبتيه، ونظر الطفل إلى أبيه، وكأنه يخاطب بعينيه أباه ويقول: «أنا لحم من لحمك، ونفس من نفسك، حيثما تقودني سأتبعك. فهيا ياأبي سر في الطريق وستأتي أقدامي بعد أقدامك». ثم نظر الرجل إلى جاره وقال: «إذهب عني أيها الرجل، ولا تأت مرة ثانية».

قد يكون الإنسان مستعداً أن يدفع ثمن خطيته، إذا كان هو سيدفع الثمن. لكن إذا تذكر أن خطيته سوف تكسر قلب عزيز لديه، ستكون لديه حصانة ضد التجربة.

٤ ــ الوسيلة الرابعة هي حضور ربنا يسوع المسيح. إن يسوع ليس شخصية في كتاب، بل هو شخصية حية حاضرة. إننا كثيراً ما نسأل غيرنا: «ماذا تعمل إذا وجدت فجأة أن يسوع بجانبك. كيف كنت تعيش لو أن يسوع ضيف في بيتك؟». لكن أساس المسيحية هو أن يسوع المسيح بجوارنا فعلاً، وهو ضيف في كل بيت. إنه الموجود الذي لا مفر منه، لذلك وجب علينا أن نجعل الحياة كلها تروق لنظره.

وإننا نتحصن كثيراً ضد التجارب عندما نذكر حضور يسوع المسيح الدائم معنا.

خاتمة الصلاة الربانية

(متى ٦:١٣ «ب»)

تذكر بعض النسخ القديمة هذه العبارة كخاتمة للصلاة الربانية. وهي خاتمة طبيعية للصلاة، وتتفق مع الطلبات الورادة في الصلاة نفسها.

«فالملك» يقابل الطلبة «ليأت ملكوتك».

«والقوة» تقابل الطلبة «لتكن مشيئك».

«والمجد» يقابل الطلبة «ليتقدس اسمك».

«الملك» يشير إلى سلطان الله على العالم وعلى القلوب.

«القوة» تشير إلى القدرة على تنفيذ هذا السلطان .

«المجد» يشير إلى نتيجة استخدام هذا السلطان.

عندما نقول لله «لأن لك الملك» نأتي إليه في خشوع وإكرام، لأنه ملك الملوك. وعندما نقول له «لأن لك القوة» نأتي واثقين أنه قادر أن يعطينا أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر. وعندما نقول له «لأن لك المجد». نخضع إرادتنا له ونقدم له السجود والطاعة، إذ نمجده كإله.

في هذه الخاتمة نقدم سجودنا للثالوث الأقدس المبارك. فالملك قد أعطاه الآب للابن ربنا يسوع المسيح ملك الملوك ورب الأرباب. «إسألني فأعطيك الأمم ميراثاً وأقاصي الأرض ملكاً لك» (مزمور٢:٨).

والقوة للروح القدس الذي قال عنه المسيح لتلاميذه: «لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم» (أعمال١:٨).

والمجد لله الآب ــ «قدموا للرب ياأبناء الله قدموا للرب مجداً، وعزاً ــ قدموا للرب مجد اسمه» (مزمور٢٩:١، ٢).

«إلى الأبد» ــ هذه الأوصاف الثلاثة لا يمكن أن تجتمع معاً إلا لله وحده، فملكه لا يزول ، وقوته كاملة دائمة، ومجده لا يأخذه آخر ــ خاطبه المرنم بالقول.

«من قِدَم أسست الأرض، والسموات هي عمل يديك. هي تبيد وأنت تبقى .. وأنت هو وسنوك لن تنتهي. أما أنت يارب فإلى الدهر جالس، وذكرك إلى دور فدور» (مزمور١٠٢:١٢، ٢٥ــ٢٧).

«آمين» كلمة عبرية معناها «استجب» .. فيها توكيد لطلباتنا، وترديد لكل ما طلبناه. وهي اسم لربنا يسوع المسيح نفسه فهو «الأمين» (رؤيا٣:١٤). وهو ضمان استجابة صلواتنا، وتأكيد بأن صلواتنا قد بلغت العرش الإلهي.

حديث عن الصوم

(متى ٦:١٦ ــ ١٨)

يعتبر الصوم في الشرق إلى يومنا هذا جزءاً أساسياً من الحياة الدينية. فيصوم المسيحيون في مناسبات مختلفة وبقواعد معينة.

ولكي ندرس نظرة السيد المسيح إلى الصوم، يجدر بنا أن نتأمل في موقف اليهود في زمن السيد المسيح على الأرض من الصوم، والأخطار التي يحذرنا يسوع من أن نقع فيها عندما نصوم، ثم النظرة الصحيحة إلى الصوم.

١ ــ الصوم عند اليهود :

كان الصوم الإجباري الوحيد عند اليهود في زمن السيد المسيح هو صوم يوم الكفارة. ففي ذلك اليوم كان على اليهود أن يصوموا من الصباح إلى المساء « ليذللوا نفوسهم » (لاويين ١٦:٣١). وقد نص قانون الكتبة اليهودي أنه «في يوم الكفارة محظور الأكل أو الشرب أو الاستحمام أو دهن الرأس إلخ» . وكان اليهود يدربون أطفالهم على أن يصوموا في ذلك اليوم تدريجياً لكي يحفظوا هذه الفريضة عندما يكبرون.

ومع أنه لم يكن على اليهود صوم إجباري سوى هذا اليوم، إلا أنهم كانوا يصومون في مناسبات شخصية متنوعة. فقد كان الحزانى منهم يمتنعون عن أكل اللحم وشرب الخمر عند حدوث وفاة من وقت الموت إلى وقت الدفن. وكان البعض يصومون للتكفير عن ذنب ما. فقد قيل في كتب اليهود إن رأوبين صام سبع سنوات بسبب اشتراكه في بيع أخيه يوسف، فلم يشرب خمراً ولم يأكل لحماً. وإن شمعون ذلل نفسه للسبب عينه مدة عامين للتكفير عن كراهيته لأخيه. وقيل إن يهوذا لكي يظهر توبته عن خطيته مع ثامار، ظل إلى سن متأخرة لا يمتع نفسه بأكل اللحم وشرب الخمر

لقد كان الصوم عند اليهود إظهاراً لتوبتهم وحزنهم الداخلي لكي يمتنعوا عن خطاياهم.

وفي بعض الأحيان الأخرى كان الصوم عند اليهود توبة جماعية قومية للأمة. فقد صام جميع الشعب بعد كارثة الحرب الأهلية مع بنيامين (قضاة ٢٠:٢٦). وجعل صموئيل جميع الشعب يصوم لأنهم ضلوا وذهبوا وراء عبادة البعل (١صموئيل٧:٦). وطلب نحميا من الشعب أن يصوم اعترافاً بخطاياهم (نحميا٩:١) وهكذا نرى الصوم مظهراً لتوبة الجماعة أمام الله.

وفي أحيان أخرى كان الصوم إعداداً للإعلانات الإلهية. فقد صام موسى على الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة (خروج٢٤:١٥ــ١٨). وصام دانيال منتظراً الرب (دانيال٩:٣) . وربنا نفسه صام منتظراً صراع التجربة (متى٤:٣) وقد كان هذا مبدأ صحيحاً، فعندما نخضع الجسد، تكون القوى الروحية أكثر انتباهاً.

وكان الصوم أحياناً إلتجاءً إلى الله. فمثلاً عندما كان المطر ينقطع ويتعرض المحصول للخطر، كان ينادي بصوم عام استغاثة بالله.

وخلاصة القول كان الصوم عند اليهود مرده إلى دوافع ثلاثة كانت في أذهان الناس:

(أ) كان الصوم محاولة لجذب انتباه الله للصائم. ولعل هذا الدافع يتميز بالبدائية والسذاجة، لأنه يقصد به إثارة انتباه الله إلى الشخص الذي يذلل نفسه بالصوم.

(ب) كان الصوم محاولة للتدليل على أن التوبة حقيقية. كانت التوبة تتم بالكلام والصلوات، لكن

الصوم كان يظهر أنها حقيقة. ومن السهل أن نرى الخطر هنا في أن ينحرف القصد من الصوم ليصير بديلاً للتوبة، لا برهاناً عليها.

(ج) كان بعض الصوم نيابياً، فقد كان البعض يصومون لأجل الأمة كلها، لا لأجل نفوسهم فقط. وكأنما كان جماعة المكرسين الأتقياء يقولون في نفوسهم «إن الناس العاديين لا يستطيعون أن يقوموا بمثل هذا العمل والتذلل. إنهم منشغلون كثيراً في أعمالهم الدنيوية، لذلك فسنقوم نحن بهذا التعبد الإضافي لموازنة النقص في التقوى عند الآخرين».

كانت هذه أفكار اليهود عن الصوم.

٢ ــ أخطار:

وبالرغم من هذه النظرة السامية المثالية إلى الصوم، إلا أن ممارسة الصوم كانت منطوية على أخطار لا مفر منها. وأكبر خطر كان اعتبار الصوم دليلاً على الامتياز في التقوى. وبذلك يتعمد الإنسان أن يصوم لكي يستعرض تقواه أمام الناس، ويظهر لهم مقدار تسلطه على جسده، لا لكي يتعبد فعلاً لله.

هذا ما حذر المسيح منه، وما أعلن عدم رضائه عنه. إن المسيح لا يرضي بالصوم الذي يستخدم معرضاً للتقوى والتدين.

كانت أيام اليهود المخصصة للصوم هي أيام الإثنين والخميس، وقد كانت هذه الأيام نفسها هي أيام السوق، حيثما يتجمع من الريف عدد كبير من الناس في أسواق المدن والقرى وخاصة في سوق أورشليم. وقد كانت هذه فرصة مناسبة للراغبين في استعراض تقواهم أمام الآخرين، ليجدوا عدداً أكبر من الناس ليظهروا تدينهم أمامهم. بل إنهم كانوا يغيرون وجوههم، ويسيرون بشعر غير مدهون، وبملابس غير مرتبة، لكي لا يفوت الناس ملاحظة صومهم. لم يكن هذا نوعاً من العبادة، ولم يكن فيه اتضاع على الإطلاق، بل كان مظهراً لكبرياء روحية بغيضة، والمباهاة التي تنافي روح التدين الحقيقي.

ولعل أي معلم يهودي حكيم ما كان يرضى عن هذا الإتجاه في الصوم كما فعل المسيح تماماً، فقد عرف الجميع أن الصوم لمجرد الصوم بلا قيمة، ومن بين الأمثال اليهودية الشهيرة «إن الإنسان سيعطي حساباً في يوم الدينونة عن كل شيء جميل كان يمكنه أن يتمتع به لكنه لم يفعله».

وقد ذكر أحد الشراح قصة تعبر عن الفكرة الخاطئة عن الصوم، فقال إن مسافراً وسط مجموعة من الجبال الصخرية المعروفة في أمريكا باسم «Rocky mountains» تقابل مع أحد الكهنة الكاثوليك في وسط هذه الجبال. وقد تعجب لأن ذلك الكاهن يقوم بمثل هذه الرحلة بين هذه المرتفعات والصخور ومزالقها ومهاويها، وهو متقدم في السن، فسأله: «عَمَّ تبحث هنا؟» فأجابه الكاهن العجوز: «إني أبحث عن الجمال الذي في العالم». فرد عليه المسافر قائلاً «لكنك تأخرت في البحث لأنك قد تقدمت في العمر». فقص عليه الكاهن قصته، وتتلخص في أنه قضى معظم حياته تقريباً في الدير ولم يخرج أبداً خارج صومعته. ثم مرض مرضاً خطيراً، وخلال مرضه رأى

رؤيا. فقد كان ملاك، يقف بجوار سريره، فسأله «لماذا جئت؟» فرد عليه الملاك قائلاً «لأنقلك إلى وطنك» . فسأله الكاهن العجوز «وهل هو مكان جميل الذي سأذهب إليه؟» فقال الملاك «إن العالم الذي ستتركه جميل أيضاً» . فتذكر الكاهن أنه لم ير شيئاً من ذلك العالم سوى الأشجار والحقول المحيطة بالدير، فقال للملاك : ولكنني لم أرَ شيئاً من هذا العالم الذي سأتركه». فأجابه الملاك «أخشى أنك لن ترى جمالاً كثيراً في العالم الذي ستمضي إليه أيضاً» فاضطرب الكاهن وأخذ يرجو الملاك أن يمهله سنتين أخريتين في الأرض واستجيبت طلبته، فقرر أن يقضي السنتين وكل ما يملكه من مال في البحث عن الجمال الذي في العالم، وقال الكاهن «إنه حقاً حقاً عالم مليء بالجمال».

إنه لا توجد مزايا دينية في الصوم إذا كان المقصود منه تعذيب النفس وحرمانها لاستعراض التقوى والقداسة. فإن واجب الإنسان أن يقبل الجمال والبركات التي في العالم ولا يرفضها، فإن الله أعطانا كل شيء بغنى للتمتع.

٣ ــ مزايا الصوم الصحيح :

ومع أن المسيح انتقد النوع غير الصحيح من الصوم، لكن كلماته لا تعني أنه لا يوجد نوع مفيد من الصوم إن هناك صوماً نافعاً يجب على كل مسيحي أن يمارسه، وهناك أسباب كثيرة تؤكد لنا أن الصوم الحقيقي بركة كبيرة.

(١) فالصوم مفيد للجسد والصحة. فكثيرون منا يعيشون بكيفية تجعلنا نتعود على الحياة الناعمة الرخوة المترهلة . ومن الممكن أن يصل الإنسان إلى حالة فيها يعيش لكي يأكل، بدلاً من أن يأكل لكي يعيش. لذلك من الخير للكثيرين صحياً وجسدياً أن يصوموا أكثر مما يفعلون عادة.

(٢) والصوم مفيد لتدريب الإنسان نفسه. من السهل على الإنسان أن يصير عبداً لذاته ولرغباته، فيصل إلى حالة لا يستطيع أن يرفض لنفسه رغبة ما دام يمكنه تحقيقها. وفي هذه الحالة يحسن بالإنسان أن يدرب ذاته على ضبط النفس وأن يخصص وقتاً من كل أسبوع فيه يمتنع عن أن يجعل رغباته تتسلط عليه، وبذلك يتدرب على التحكم في نفسه، وفي ميوله.

(٣) والصوم يحفظنا من أن نكون عبيداً للعادات. فكثيرون تسيطر عليهم عادات في الطعام والشراب والمكيفات لا يستطيعون التغلب عليها، فتصير هذه العادات سلطاناً عليهم لا يمكنهم أن يوقفوها، وتتوق نفوسهم إليها حتى أنها بعد أن تكون متعة عارضة، تصير ضرورة متسلطة عليهم. والصوم يعين الإنسان في مثل هذه الحالات على أن يتخلص من قيود هذه العادات، فبدل أن نكون عبيداً لمسراتنا، نصير سادة لها.

(٤) والصوم يحفظ لنا قدرتنا على أن نستغني عن بعض الكماليات في حياتنا. فهناك أناس صارت الكماليات بالنسبة لهم ضرورة ملحة، وأصبحوا يحتاجون إلى كثير من الأمور، وإلا فإنهم يحسون بالشقاء. هذه الحالة من الإعتماد على مجموعة كبيرة من الأشياء تعطل نمو الشخصية الإستقلالية عند الإنسان ـــ وبعض أنواع الصوم تعاون الإنسان على أن يستغني عن بعض هذه الكماليات ويستطيع أن يقول مع بولس الرسول: «قد تعلمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه. أعرف أن أتضع وأعرف

أيضاً أن أستفضل في كل شيء وفي جميع الأشياء قد تدربت أن أشبع وأن أجوع وأن أستفضل وأن أنقص» (فيلبي ٤:١١،١٢).

(٥) والصوم يجعلنا نزداد تقديراً للأشياء فعندما تأتينا المسرات بكيفية محدودة نادرة نستمتع بها أكثر، لكن عندما تكثر أنواع المتع والمسرات فإن إحساسنا بها يتبلد، وما كنا نشعر بالسعادة والمتعة عندما نتناوله، يصير ضرورة لا نستغني عنها. فالصوم يزيدنا تقديراً للطعام والشراب ويجعل سرورنا به متجدداً.

لقد أصبح الصوم في هذه الأيام شيئاً بعيداً عن حياة الإنسان العادي ومع أن يسوع انتقد الصوم الذي يقصد به الناس إظهار تقواهم وبرهم، لكنه لم يقصد أبداً أن يستبعد الصوم من حياة الناس فمن الخير أن نمارس الصوم حسب ظروفنا وحاجاتنا، لكي لا تكون بركات هذه الأرض قيوداً لنا.

الكنز الحقيقي

(متى ٦:١٩ — ٢١)

تقتضي الحكمة في الحياة العادية أن يختار الإنسان الأشياء الأكثر بقاء. فسواء كان الإنسان يشترى سترة أو سيارة أو بساطاً أو قطعة من الأثاث، فإن الإنسان عادة يتجنب شراء الأشياء البالية السريعة التلف، ويحرص على أن يشترى شيئاً متيناً يبقى زمناً طويلاً.

هذا ما يقصده المسيح في هذه الآيات. فإنه يوصينا أن نركز اهتمامنا في الأشياء الأكثر بقاء.

الكنوز الضائعة :

يصور لنا السيد المسيح صورة الكنوز المعرضة للضياع متخذاً من مصادر الثروة في فلسطين أساساً للصورة التي يضعها أمامنا.

(أ) فهو يوصينا أن نتجنب اكتناز الأشياء التي يفسدها السوس. لقد كانت ثروة الإنسان في الرشق قديماً تتكون من الثياب الغالية الثمينة. فعندما أراد جيحزي خادم أليشع أن ينال كسباً غير مشروع من نعمان، بعد أن شفاه سيده، فإنه طلب وزنة فضة وحلتي ثياب (٢ملوك٥:٢٢). ومن الأمور التي أغرت عاخان ليخطيء ويخالف وصية الله كان ذلك الرداء الشنعاري النفيس (يشوع٧:٢١) . لكن الحقيقة هي أنه من الجهل أن يضع الإنسان قلبه على هذه الأشياء فإن السوس أو العثة تفسد هذه الثياب عند اختزانها، فيضيع جمالها وتفقد قيمتها فلا بقاء لمثل هذه المقتنيات.

(ب) وهو يوصينا أن نتجنب اكتناز الأشياء التي يفسدها الصدأ. والكلمة اليونانية المترجمة «صدأ» معناها الحرفي «التآكل». ولم تترجم «صدأ» إلا في هذا الجزء فقط. وأغلب الظن أن السيد المسيح يشير إلى اختزان الحبوب، كعادة القدماء في أجران ومخازن كبيرة، وهناك تأتي الفئران والسوس وسائر الحشرات، وتأكل هذه الحبوب. فلا دوام لمثل هذه المقتنيات.

(جـ) وهو يوصينا أن نتجب الكنوز التي يمكن أن ينقب السارقون ويسرقوها. فقد كانت أغلب البيوت في فلسطين تبنى بالطين والطوب المحروق، وكثيراً ما كان يحدث أن يعود الإنسان من الخارج، ليجد أن اللصوص قد نقبوا أحد حوائط البيت، وسرقوا ما اكتنزه من ذهب أو مال. فلا بقاء لكنز يتعرض لهجوم اللصوص.

وهكذا يحذرنا السيد المسيح من أن نوجه قلوبنا نحو ثلاثة أنواع من المسرات والمقتنيات.

١ ـــ النوع الأول هو المسرات التي تبلى مثل سترة قديمة، فإن أجمل رداء في العالم سيبلى في النهاية سواء أكلته العثة أو لم تأكله. وكل المسرات الجسدية لها زوال، فإن الإنسان كلما نال منها، احتاج إلى المزيد لكي تحدث في نفسه الأثر السار عينه، وهكذا تصير كالجرعة التي تفقد قوة تأثيرها تدريجياً، ومن الجهل أن يجد الإنسان لذته في أشياء تتناقص قيمتها تدريجياً إلى أن تنعدم.

٢ ـــ النوع الثاني هو المسرات التي يمكن أن يمحو الزمن لذتها، فهي كالحبوب في المخزن، تأكلها الفيران والحشرات شيئاً فشيئاً. فهناك أنواع من المتع تفقد جاذبيتها حتماً كلما تقدم الإنسان في العمر، سواء لضعف قدرة الجسد أو للنضوج العقلي. لذلك فلا جدوى للإنسان من أن يضع قلبه على المباهج التي تمحوها السنون، بل ينبغي أن يجد سروره في الأشياء التي لا يمكن للزمن أن يفنيها.

٣ ـــ النوع الثالث هو المسرات التي يمكن أن تسرق، وكل الأشياء المادية هكذا ... لا ضمان لأي منها، ولو جعلها الإنسان أساساً لسعادته، فإنه يبني سعادته على أساس من الرمال، فإذا وضع الإنسان أمله في ما يملكه من مال، ثم حدث ما ذهب بهذه الثروة، فإنه يحيا شقياً تعيساً. والرجل الحكيم هو الذي يبني صرح سعادته على الأشياء التي لا يمكن أن تضيع، على الأشياء التي لا تتحكم فيها تغيرات الحياة وظروف الزمان.

إن الإنسان الذي يكنز لنفسه كنوزاً على الأرض، ويضع أمله في مسرات الحياة الزائلة، ومقتنياتها المادية، معرض لأن يفقد هذه الكنوز، فلا دوام للأشياء المادية، ولا شيء منها باقٍ إلى الأبد.

الكنوز التي في السماء :

كان التعبير «كنوز في السماء» مألوفاً عند اليهود. وقد استخدمه السيد المسيح ليعني به ما كان مفهوماً عند اليهود، إذ كانوا يقصدون به أمرين على وجه الخصوص.

(الأول) قالوا إن أعمال الرحمة والشفقة التي يعملها الإنسان على الأرض تصير كنوزاً له في السماء. وكانت لديهم قصة مشهورة عن ملك أممي اسمه الملك «مونوباز الأديابيني» صار يهوديًا . وقيل عنه إنه وزع ثروته وكنوزه على الفقراء في سنة جوع شديد. فأرسل له أخوته قائلين «لقد جمع آباؤك الكنوز وأضافوها إلى ما جمعه آباؤهم لكنك ضيعت ثروتك وثروتهم». فرد عليهم قائلاً : «لقد جمع آبائي وأجدادي الكنوز للأرض، أما أنا فقد جمعت كنوزاً للسماء». لقد اختزنوها في مكان تحكمه يد الإنسان، أما أنا فقد وضعت كنوزي في مكان لا تصل إليه يد البشر ـــ لقد جمعوا كنوزاً من المال وجمعت كنوزاً في النفوس، جمعوها لنفوسهم وجمعتها لغيري، جمعوها لهذا

العالم وجعتها للعالم الآتي».

وهكذا يؤكد المسيح وعلماء اليهود أن ما نختزنه لأنفسنا ضائع، وما نوزعه على الآخرين يكون لنا كنزاً في السماء.

وقد صار هذا شعار الكنيسة المسيحية عند نشأتها، فقد اهتمت الكنيسة بالفقراء والمرضى والحزانى ومن لا معين لهم ومن لم يهتم بهم أحد؛ وفي أيام الاضطهاد اقتحمت السلطات الرومانية كنيسة مسيحية بحثاً عن الكنوز التي أشيع أنهم يحفظونها، وسأل قائد روماني الشماس لورنتيوس قائلاً : «أرني مكان الكنوز على الفور» فأشار الشماس إلى الأرامل والأيتام الذين كانوا يعولونهم والمرضى والفقراء الذين كانوا يهتمون بهم، وقال له: «هؤلاء هم كنوز الكنيسة». فقد آمنت الكنيسة دائماً بأنها تخسر ما تحتفظ به وتربح ما تنفقه.

(الثاني) وقد أشار اليهود بالتعبير «كنز السماء» إلى شخصية المرء وخلقه. فعندما طلب من العالم اليهودي «يوشي بن قسمة، أن يسكن في مدينة وثنية وينال أجراً مضاعفاً عن خدماته، قال إنه لا يسكن في مكان إلا في بيت الشريعة، ذلك لأنه في ساعة انطلاق الإنسان لن يأخذ معه فضة ولا ذهباً ولا أحجاراً كريمة، بل إن ما يصحبه إلى الأبدية خلقه وأعماله الصالحة».

إن الإنسان لن يأخذ من هذا العالم إلا ذاته، وكلما جاهد لتهذيب هذه الذات، عظم كنزه السماوي.

ويختتم السيد هذا الجزء بذكر هذه الحقيقة إنه حيث يكون كنز الإنسان فهناك يكون قلبه. فإذا كان كل ما يعتز به الإنسان موجوداً في الأرض فكل اهتمامه سيكون في الأرض، ولن يبالي بشيء في غير هذا العالم. وإذا كانت عين الإنسان دائماً على الأبدية، فإن متاع هذا العالم سيتضاءل في نظره.

ولو حسب الإنسان أن كل القيمة والفائدة في الأرضيات، فإنه يترك العالم ضجراً ناقماً، لكنه لو اتجه بأفكاره إلى العالم الآخر، فإنه يترك العالم مبتهجاً لأنه سيمضي إلى الله.

إن يسوع لم يقصد أن يعلمنا أن هذا العالم تافه وبلا قيمة، لكنه كان يكرر دائماً أن أهمية هذا العالم ليست في ذاته، بل فيما يؤدي إليه. إن هذا العالم ليس نهاية الحياة، بل هو مرحلة على الطريق، لذلك على الإنسان ألا يضع قلبه في هذا العالم وما فيه، بل عليه أن يتطلع على الدوام إلى ما وراء هذا العالم.

العين سراج الجسد

(متى ٦:٢٢، ٢٣)

يمكن أن ندرك فكرة هذه العبارات بوضوح إذا نظرنا إلى العين باعتبارها نافذة الجسد، فكما أن الضوء يدخل المكان عن طريق النافذة، ويتشكل حسب لون زجاجها وحالته ، وهكذا تتشكل حياتنا بحسب عيوننا. فإذا كانت النافذة صافية نظيفة، دخل الضوء غامراً الحجرة وملأ أركانها،

أما إذا كانت النافذة معتمة قذرة ملطخة، فإن الضوء سيجد ما يعطله فلا يغمر المكان. فكمية الضوء الذي يدخل إلى الحجرة تتوقف على حالة النافذة التي يمر من خلالها الضوء.

هكذا يريد السيد المسيح أن يصور لنا حياتنا، فإن كمية النور التي تدخل إلى قلب الإنسان ونفسه وكيانه تتوقف على الحالة الروحية للعين، لأن العين هي سراج الجسد أو نافذة الجسد. إن نظرتنا إلى الآخرين تتوقف على نوع العين التي لنا، فهناك أمور تعمي عيوننا وتشوه رؤيتنا.

كيف تظلم عيوننا :

١ ــ فالتعصب والتحيز يشوهان رؤيتنا للأمور ولا يوجد شيء يفسد حكم الإنسان وتقديره للأمور مثل التعصب، فهو يعوق الإنسان عن أن يصل إلى تقدير صحيح معقول، كما ينبغي على كل إنسان أن يفعل. وهو يعمي عين الإنسان عن رؤية الحقائق وإدراك دلالتها. ولعل جميع الاكتشافات الجديدة تقريباً كانت هدفاً للمقاومة بلا مبرر بسبب التعصب.

عندما اكتشف « السير جيمس سيمبسون» فوائد مادة الكلوروفورم في التخدير، كان عليه أن يواجه عاصفة من النقد والتعصب من الهيئات الطبية والدينية في عصره. وقد قال بعض رجال الدين إن تخفيف أوجاع النساء عند عملية ولادة الأطفال إنما هو تحد لناموس السماء.

إنه لمن الضروري أن نفحص نفوسنا فحصاً دقيقاً لنتأكد من أن تصرفاتنا مؤسسة على مبادىء سليمة. وليست مدفوعة بدافع التعصب البعيد عن العقل والمنطق. فالعين المتعصبة عين مظلمة لا تستطيع أن ترى بوضوح.

٢ ــ والغيرة تشوه رؤيتنا للأشياء. ويعطينا شكسبير مثلاً صارخاً للغيرة في مأساة «عطيل» ــ فإن عطيل المراكشي استطاع أن يشتهر بعدة أعمال بطولية، وتزوج من «ديدمونة» التي أحبته حباً جماً، وأخلصت له أيما إخلاص. وباعتباره قائداً لجيش البندقية أعطى عطيل ترقية لكاسيو، وتخطى ياجو في الترقية. فاشتعل قلب ياجو بالغيرة، فأخذ يدبر المؤامرات ويشوه الحقائق لكي يدخل في روع عطيل الشك في أن كاسيو وديدمونة يتآمران معاً ضده. واستطاع أن يلفق الأدلة لإثبات صدق هذه الشكوك، حتى أن الغيرة لعبت بعقل عطيل حتى قتل ديدمونة زوجته الوفية. إن الغيرة تحول الطبيعة الإنسانية إلى طبيعة وحشية خالية من العقل والمنطق. وكم من زواج تحطم على صخرة الغيرة التي تصور التصرفات البريئة على أنها علاقات آثمة. وكم من صداقات انقطع حبلها بسبب الغيرة التي تعمي العيون عن الحق.

٣ ــ والغرور يشوه رؤيتنا للحقائق، فهو يؤثر تأثيراً مزدوجاً في الإنسان، فيجعله غير قادر أن يرى نفسه على حقيقتها، وفي نفس الوقت يصير عاجزاً عن أن يرى الآخرين كما هم. فإذا اعتقد المرء في نفسه أنه على درجة فائقة من الحكمة والتعقل، لن يقدر أبداً أن يتبين جهالته وإذا كانت عيناه مفتوحتين لرؤية فضائله الشخصية فحسب، فلن يستطيع أن يرى رذائله. وعندما يقارن نفسه بغيره فلا بد أن النتيجة التي يصل إليها تكون في جانبه، فيرى عيوب الآخرين ولا يرى عيوبه هو. إن الغرور لا يمكن أن يصل إلى درجة النقد الذاتي، وبالتالي لا يستطيع أن يصلح نفسه. وهكذا

يصير النور الذي يري به نفسه والآخرين ظلاماً.

العين البسيطة :

ويذكر السيد في هذا الجزء فضيلة معينة تملأ العين بالنور، ورذيلة معينة تجعل النور ظلاماً. والفضيلة هي «العين البسيطة» ، والرذيلة هي «العين الشريرة» ــ فما معنى هذه الأقوال؟

إن الكلمة اليونانية المترجمة « بسيطة » استخدمت في بعض النصوص الكتابية هي ومشتقاتها بمعنى «سخية» ، والكلمات في الآيات التالية مشتقة من الكلمة عينها :

«الله الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعير» يعقوب١:٥

«أما المعطي فبسخاء» رومية١٢:٨

«سخاء التوزيع لهم وللجميع» ٢كورنثوس٩:١٣

إذاً فالعين البسيطة هي العين السخية ..

والكلمة اليونانية المترجمة «شريرة» ، تعني في الترجمة السبعينية وفي العهد الجديد معني «التقتير والتذمر»، ويظهر معناها عندما تقرأ (تثنية١٥:٩) «احترز من أن يكون مع قلبك كلام لئيم قائلاً قد قربت السنة السابعة سنة الإبراء وتسوء عينك بأخيك الفقير، ولا تعطيه فيصرخ عليك إلى الرب فتكون عليك خطية»

ما هو «سوء العين» في هذه الحالة؟ إن سفر التثنية يتحدث هنا عن إقراض الأخ الفقير عندما يكون في حاجة. لكن حسب نظام اليهود عندما تأتي السنة السابعة كانت تلغى كل الديون فهي سنة الإبراء، وربما يتردد الإنسان الحذر من أن يقرض أخاه مالاً إذا كانت السنة السابعة على الأبواب خشية أن تضيع عليه النقود. هذا ما يسميه الكتاب «سوء العين» وهذا هو معني «العين الشريرة» ــ العين البخيلة المتذمرة . لذلك يقول الحكيم «لا تأكل خبز ذي عين شريرة ولا تشته أطايبه» (أمثال٢٣:٦)، فكأنما الحكيم يوصينا أن لا تأكل عند ذلك الذي يعد علينا كل لقمة تأكلها لبخله وتذمره. كما يقول الحكيم أيضاً: «ذو العين الشريرة يعجل إلى الغنى» (أمثال٢٨:٢٢).

وكأنما السيد المسيح يقول لنا إن النظرة السخية إلى الأشياء تضيء أمامنا الحياة، والنظرة البخيلة المتذمرة الشريرة تجعل حياتنا مظلمة.

(أ) فعلينا أن نكون أسخياء في حكمنا على الآخرين. إن الناس عادة يبحثون عن العيوب ويشعرون ببهجة خبيثة عندما يرددون أخطاء الناس وعيوبهم ويحكمون عليهم. وما أكثر المرات التي نرى فيها الناس يجلسون حول فنجان شاي ويتناولون سيرة الأبرياء بالثرثرة والتشنيع، ولعل قتل السمعة أخطر من القتل ذاته .. لو أننا بحثنا عن أفضل ما في الناس بدلاً من التفكير في أسوأ ما فيهم، لتجنب العالم كثيراً من المآسي التي تكسر القلوب وتجرح النفوس.

(ب) وعلينا أن نكون أسخياء في أفعالنا .. فالعين البسيطة أو السخية تنظر بفيض من الحب والشفقة على الآخرين، وتقدر ظروفهم وتعطف عليهم عطفاً عملياً ، لتخفيف آلامهم وتدبير إعوازهم .. فعندئذ نرى الناس بوضوح إذ تصير أعيننا نوراً لنا.

أما إذا كانت عيوننا شريرة .. مقترة ومتذمرة، فإننا لا نستطيع أن نحيا مع نفوسنا أو جيراننا أو مع الله نفسه. فإذا كان إنسان ما دائم الحسد للآخرين، يغار من نجاحهم ومن سعادتهم، مغلقاً قلبه إزاء حاجات الآخرين، فإن حياته تمتلىء بالمرارة والضيق فيحرم من السعادة والسلام والقناعة .. إنه لا يستطيع أن يحيا مع نفسه.

وهذا الشخص يكرهه الجميع، ولا يحبون التعامل معه، والمحبة تستر كثرة من الخطايا، لكن الروح المتذمرة تفسد كثيراً من الفضائل. فمهما كان الإنسان الكريم مليئاً بالعيوب فهناك من يحبونه، ومهما كان البخيل المتذمر متزيناً بالفضائل ، فإن الناس يمقتونه .. إنه لا يستطيع أن يحيا مع الناس.

وليس من هو أكثر كرماً وسخاء من الله. وطبيعي أنه لا تكون هناك شركة بين اثنين لهما مبادىء متنافرة متناقضة. فلا يمكن إذاً أن تكون هناك شركة بين الله الذي يفيض حباً وجوداً وسخاءً وعطفاً وغفراناً، وبين إنسان قد تجمد قلبه بالتقتير والتذمر والكراهية.

إن العين المتذمرة تشوه رؤيتنا للأشياء فتجعل النور الذي فينا ظلاماً، بينما العين السخية تعيننا على أن نرى رؤية واضحة ، لأنها وحدها هي التي تنظر كما ينظر الله.

الله والمال

(متى ٦: ٢٤)

حياة السيد الواحد :

والمعنى الحرفي للعبارة الأولى، لا يمكن لأحد أن يكون عبداً لاثنين يمتلكانه» ولكي نتفهم معنى العبارة من الضروري أن نذكر شيئاً عن نظام العبيد في ذلك الزمان.

فلم يكن العبد فى ظل ذلك النظام يعتبر شخصاً ذا حقوق لشخصه، بل كان يعتبر شيئاً أو أداة عاملة يستطيع سيده أن يفعل به كما يشاء، فيمكنه أن يبيعه أو يضربه أو يطرده أو يقتله. إن السيد يمتلك العبد كأي شيء آخر. ولم يكن وقت العبد ملكاً له بل كان ملكاً لسيده. إن القوانين الحديثة تحدد للإنسان ساعات معدودة للعمل، بعدها يكون العامل حراً يعمل ما يشاء في وقته. وفي بعض الأحيان يجد الإنسان في هوايته التي يمارسها خارج ساعات عمله سعادة أكثر من السعادة التي يجدها في عمله الأصلي . فقد يعمل الإنسان موظفاً أو كاتباً ، أو يمارس العزف على القيثارة في أوقات فراغه، ويجد في الموسيقى متعته الحقيقية في الحياة...

أما العبد فلم يكن يملك وقتاً ما لنفسه، فكل دقيقة وكل لحظة من وقته يملكها سيده أو صاحبه.

ومع أن نظام العبيد قد مضى وانقضى، إلا أن علاقة العبد بسيده تصور لنا علاقتنا بالله جل جلاله، فإن الله هو السيد المطاع الذي لا ينبغي أن ننازعه في سلطانه على حياتنا، وليس لنا حق أن نتساءل عن رغباتنا الشخصية بل ينبغي أن نبحث دائماً عما يريده الله منا. ولا يستطيع المؤمن

أن يقول «سأعمل ما يريده الله مني في بعض الأوقات وما أريده أنا في أوقات أخرى» . فالمسيحي لا يستطيع أن يتخلى عن مسيحيته لحظة واحدة، والمسيحية تقتضي عمل مشيئة الله دائماً. إن الخدمة الجزئية والطاعة العرضية أو الوقتية ليست كافية.

وهكذا يشرح لنا المسيح بصورة قاطعة واجب الولاء الكامل لله.

ثم يسترسل السيد في الحديث فيقول «لا تقدرون أن تخدموا الله والمال». والكلمة المترجمة «المال» هنا هي كلمة «Mamon» وهي كلمة عبرية تشير إلى المقتنيات المادية. ولم تكن هذه الكلمة في الأصل تشير إلى شيء رديء، فقد كان للربيين اليهود مثل يقول «ليكن مال «Mamon» قريبك عزيزاً عليك كما لك تماماً» ، لكن معنى الكلمة تطور في التاريخ، فبعد أن كانت تشير إلى ما يعتز به الإنسان من مال ويودعه عند شخص ما ليكون في مأمن، تحول إلى أن صار معنى الكلمة يشير إلى المال كمعبود للناس يضعون فيه ثقتهم وآمالهم.

ولعل تاريخ هذه الكلمة يبين لنا بوضوح كيف يمكن للمقتنيات المادية أن تغتصب في حياة الإنسان مكاناً لا يجب أن تناله. ففي الأصل كانت الماديات أداة لحفظ حياة الإنسان، لكنها عندما تصير محط آمال الإنسان وموضع ثقته، عندئذ تصير إلهاً للإنسان، فالإله هو من نضع فيه ثقتنا ورجاءنا.

المكان الصحيح للمقتنيات المادية :

إن حديث المسيح يجعلنا نتساءل عن المكان الذي ينبغي أن تناله المقتنيات المادية في حياتنا. ونستطيع من تعاليم السيد المسيح أن نرى ثلاثة مباديء أساسية هامة :

١ ـــ إن كل الأشياء مصدرها الله: فالكتاب المقدس يبين ذلك بكل وضوح: «للرب الأرض وملؤها. المسكونة وكل الساكنين فيها» (مزمور٢٤:١). «لأن لي حيوان الوعر والبهائم على الجبال الألوف .. إن جعت فلا أقول لك لأن لي المسكونة وملؤها» (مزمور٥٠:١٠،١٢) ـــ وفي تعاليم المسيح نرى أن السيد هو الذي يعطي الوزنات لعبيده (متى٢٥:١٥) وصاحب الكرم هو الذي يسلم الكرم إلى الكرامين (متى٢١:٣٣).

ولهذا المبدأ نتائج بعيدة المدى. فالناس يمكنهم أن يشتروا ويبيعوا، ويمكنهم إلى حد ما أن يعدلوا أو يغيروا في الأشياء، لكنهم لا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً ما. إن الملكية الأصلية للأشياء ترجع إلى الله، ولا يوجد شيء في العالم يستطيع الإنسان أن يقول عنه «هذا ملكي» . وكل ما يمكنه أن يقوله: «هذا ملك لله. وقد أعطاه الله لي لأستخدامه» فلا يوجد شيء في العالم يجوز أن يعتبره الإنسان ملكاً خالصاً له، فكل شيء لله . وعلى الإنسان أن يستخدم الأشياء بالكيفية التي يريده الله أن يستخدمها بها.

ذهبت طفلة من سكان المدينة إلى الريف، ووجدت في أحد الحقول مجموعة رائعة من الأزهار فسألت معلمتها قائلة: «هل تعتقدين أن الله يسمح لي بقطف إحدى هذه الأزهار من بستانه؟».

هذا هو الإتجاه الصحيح نحو كل شيء في هذا العالم.

٢ ــ المبدأ الثاني هو أن الناس دائماً أهم من الأشياء. فإذا كان الحصول على المقتنيات وكسب المال وجمع الثروة يأتي على حساب معاملة الناس كالجماد، فإن جمع الثروة بهذه الكيفية يكون من أكبر الأخطاء. وإذا نحن نسينا هذا المبدأ أو أهملناه أو تجاهلناه فإن الكوارث تحدث ولا محالة في النهاية.

وعلى سبيل المثال حدث في بداية الثورة الصناعية في إنكلترا أن أصحاب المصانع كانوا يستخدمون الأطفال والصبيان للعمل في المصانع بأجور زهيدة، ويرهقونهم بالعمل الشاق لساعات طويلة لتخفيض أسعار المنتجات ولزيادة الكسب، وكان من آثار ذلك أن ضاعت القيم وانحطت الأخلاق حتى أن كارليل قال: «إذا كانت صناعة القطن تقوم على أجساد الأطفال العاجزين، فلتذهب هذه الصناعة. وإذا كان الشيطان يدخل إلى مصنع حلج القطن فأغلق المصنع».

فلنحذر أن نعامل الناس كأنهم أشياء أو أدوات ، فإن الإنسان أغلى من المال. لقد مات المسيح ليفدي هذا الإنسان وأصبح الإنسان ثميناً ذا قيمة أكثر من كل شيء آخر في هذا العالم. إذا نسي الناس هذا المبدأ تعرضت الأمة والمجتمع لأخطار داهمة ولمتاعب كثيرة.

٣ ــ المبدأ الثالث ــ هو أن الثروة دائماً خير ثانوى. فالكتاب المقدس لم يذكر أن المال أصل لكل الشرور، لكنه قال إن «محبة المال أصل لكل الشرور» (١تيموثاوس٦:١٠).

فقد يظن الإنسان أنه يستطيع أن يشترى كل شيء بثروته، وأنه يستطيع أن يتخلص من أي موقف بماله. وهكذا تصير الثروة مقياساً له، والرغبة الجارفة التي تسيطر عليه، والسلاح الوحيد الذي يواجه به الحياة. هنا تصبح الثروة شراً لأنها تصير في نظر صاحبها طريق الخلاص، وتحتل مكان الله ولا تصير خيراً على الإطلاق.

لكن إذا كان الإنسان يسعى في سبيل الثروة لكي يعين بها أسرته، ولكي يستخدمها لخير الآخرين، فإن الثروة تصير خيراً وإن كانت خيراً ثانوياً وليس أصلياً.

والحقيقة التي نستخلصها من هذه المبادىء هي أن اقتناء الثروة والمال والماديات ليس خطية، ولكنه مسئولية خطيرة. فإذا اقتنى الإنسان هذه الأشياء بكثرة، فإنه يستحق أن نصلي لأجله أكثر من أن نهنئه. وذلك لكي يستخدم ما يملكه بالكيفية التي تتفق مع مشيئة الله.

سؤالان عن الثروة :

بقي سؤالان خطيران عن الثروة يتوقف على إجابتهما الشيء الكثير.

السؤال الأول : كيف اقتنى الإنسان الثروة؟

هل حصل الإنسان على الثروة بطريقة يبتهج يسوع المسيح أن يراها، أو حصل عليها بطريقة يتمنى أن يخفيها عن يسوع؟ فقد يقتني الإنسان ثروة على حساب الأمانة والشرف.

تحدث أحدهم عن تاجر أقمشة في إحدي القرى أنه جمع ثروة كبيرة لأنه عندما كان يقيس القماش كان يضع إبهاميه داخل المقياس لكي يكون أقصر . وقد وصف هذا الشخص بأنه «كان يأخذ من نفسه ليضع في حافظة نقوده». فقد يزيد الإنسان من رصيده في البنك على حساب إفقار .

روحه ، وقد يجمع الإنسان ثروة بسحق منافس ضعيف له، وهكذا يبني نجاحه على فشل الآخرين أو بإزاحة المنافسين من الطريق. وإننا لنتعجب كيف يستطيع إنسان مثل هذا أن ينام الليل هادىء البال مستريح الضمير !!

فعلى كل فرد أن يسأل نفسه بإخلاص، « كيف اقتنيت ما أملك؟ »

السؤال الثاني : كيف يستخدم الإنسان الثروة؟

هناك طرق متعددة لاستخدام ثروة الإنسان...

(أ) فقد لا يستخدمها الإنسان على الإطلاق، ويجد البخيل سعادة في إكتناز المال، والنظر إليه، وبذلك تصير المقتنيات عديمة النفع، وعدم النفع يقود إلى الكوارث عادة.

(ب) وقد يستخدم الإنسان ثروته استخداماً أنانياً، فيطمع الإنسان في أجر أكبر ليحصل على كماليات أكثر، فيفكر في الثروة تفكيراً ذاتياً أنانياً باحثاً عن أنواع الملذات والرفاهية التي تحققها له.

(جـ) وقد يستخدم الإنسان ثروته استخداماً شريراً. فقد يستخدم الثروة في الرشوة، وإفساد الذمم، وتعويج القضاء ، والحصول على السلطة. وكل هذه في نظر الله خطايا جسيمة.

(د) وقد يستخدم الإنسان ثروته ليسعد هو والآخرون معه بها.

والإنسان لا يحتاج إلى كثير من المال ليكون سخياً كريماً، فيمكن أن يكون الفقير كريماً كما يمكن أن يكون الغني بخيلاً. ولقد تذكر بولس كلمات المسيح التي نسيها الجميع، وهي قول السيد «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ» (أعمال ٢٠:٣٥) — إنه من صفات الله أنه يعطي، وإذا كان العطاء يحتل في حياتنا مقاماً أكبر من الأخذ، فإننا نعرف أن نستخدم ما نملك بالكيفية الصحيحة سواء كنا نملك قليلاً أو كثيراً.

القلق وعلاجه

(متى ٦:٢٥ — ٣٤)

من الضروري قبل دراسة هذه الفقرة أن نتفهم جيداً ما ينهي عنه السيد المسيح وما يوصي به في هذه الآيات. فمع أن الترجمة العربية والترجمة الإنكليزية الرسيمة الأولى (١٦١١) تورد وصية المسيح بأنها «فلا تهتموا للغد» إلا أن أقدم الترجمات مثل ترجمة ويكلف، وتيندال، وجرانمو، تورد حديث المسيح بهذه الصيغة: «لا تنشغلوا بحياتكم» . وكأنما لا ينهي السيد المسيح عن الإهتمام العادي بأمور هذه الحياة، ولكنه ينهي عن القلق. والسيد المسيح لا يشجع حياة عدم الاكتراث أو اللامبالاة، لكنه يحذر من الهم والمخاوف والقلق الذي يسلب الحياة بهجتها وصفاءها.

ومحور الحديث هو كلمة «لا تهتموا» والفعل في اللغة اليونانية يفيد معنى القلق والهم. وقد وجدت

على أوراق البردي رسالة من زوجة إلى زوجها الغائب عنها تقول فيها : «لا أستطيع أن أنام الليل أو النهار بسبب اهتمامي بأحوالك» — وهذه حالة من القلق ولا ريب.

وقد كانت تعاليم الربيين اليهود توصي الإنسان أن يواجه الحياة بمزيج من الحذر والرصانة والصحو. فأصروا على سبيل المثال أن يعلم الأب إبنه حرفة وإلا فكأنما يشجعه الأب على تعلم السرقة. وفي هذا التعليم نرى إيمانهم بضرورة تخطيط نظام الحياة، وفي الوقت عينه نرى من أمثالهم القول: «من لديه رغيف خبز في سلته يسأل ماذا آكل غداً فإنه ضعيف الإيمان».

لقد أراد يسوع أن يؤكد لسامعيه درساً كانوا يعلمونه جيداً، درس الحرص ممتزجاً بالثقة، والاهتمام الخالي من الهم والقلق. وقد استطاع يسوع أن يوضح هذه الفكرة بصورة جديدة رائعة.

علاج القلق :

في هذه الأعداد العشرة يضع السيد المسيح سبعة أسباب وحجج إذا تعقلناها جيداً، انتصرنا تماماً على القلق :

١ — ففي عدد ٢٥ يقول «أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس»: فإذا كان الله قد أعطانا الحياة، فلا شك أنه يعطينا الطعام الذي يحفظ هذه الحياة، فمن أعطى الكثير لا شك يعطي الأقل. وإذا كان الله قد أعطانا الجسد، فلا بد أنه سيعطينا ما نلبسه فوق هذا الجسد. وفي المنطق البشرى إذا أعطى إنسان ما عطية ثمينة خيالية الثمن، فلا يعقل أن يتحول إلى بخيل يمتنع أن يقدم شيئاً أقل في القيمة. وما دام الله قد أعطانا الحياة، فلنثق أنه سيعطينا ما يكفي لحفظ هذه الحياة.

٢ — ثم يتحدث السيد المسيح عن الطيور في عدد ٢٦ مستهلاً حديثه بالقول : «أنظروا طيور السماء» . ثم يبين أنه لا قلق في حياة الطيور ولا تخزين شيء للمستقبل، ومع ذلك فإنها تحيا سعيدة مغردة. لقد كانت حياة الطيور والحيوانات موضوع تأمل أكثر من واحد من الربيين اليهود. فقد قال الربي شمعون : «لم أر في حياتي أحد الأيائل يجفف التين، أو أحد الأسود يختزن الطعام، ومع ذلك فإن طعامها يأتيها بلا قلق. فإذا كانت الحيوانات التي خلقت ليتسلط عليها الإنسان ولتخدمه تجد طعامها بلا قلق، فبالأولى جداً أنا الإنسان المخلوق لخدمة صانعي أجد طعامي بلا قلق... لكنني أفسدت طرقي وهكذا أقللت ثروتي».

ومن الجدير بالذكر أن السيد المسيح لا يقصد هنا أن الطيور لا تعمل، فقد قيل إنه من العسير أن يعمل إنسان ما بالجهد الذي يعمل به العصفور ليجد طعامه. لكن خلاصة قول المسيح إنها لا تقلق، وليست فيها تلك الرغبة الموجودة في قلب الإنسان والتي تجعله يحاول أن يختزن شيئاً للمستقبل المجهول، ويجد اطمئنانه في هذه الثروة المختزنة.

٣ — وفي عدد ٢٧ يقول السيد «ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة». وهنا يبين لنا أن القلق بلا قيمة ولا فائدة. والمعنى المباشر لهذا القول إن الإنسان مهما اهتم فلن يستطيع أن يزيد على طوله ذراعاً، إلا أن المعنى غير واضح، فليس من المعقول أن يفكر الإنسان

في زيادة قامته بمقدار ذراع أي أكثر من ٤٥ سنتيمتراً. ويغلب على الظن أن المعنى المقصود هو أن الإنسان مهما اهتم فلن يقدر أن يضيف إلى حياته أقصر خطوة ممكنة. إن القلق وكثرة الهم وعمل ألف حساب لكل شيء، لا يمكن أن يأتي بنتيجة على الإطلاق.

٤ ـــ وفي الأعداد من ٢٨ ـــ ٣٠ يتحدث السيد عن الأزهار. وحديث المسيح عن الأزهار يوضح كيف كان يسوع يحب الأزهار. وقد كانت زنابق الحقل تزهر يوماً واحداً على سفوح الجبال والتلال في فلسطين ثم تجف وتيبس، ومع ذلك فقد كانت تلبس في تلك الفترة القصيرة أزهى وأبهى رداء يفوق جمال ملابس الملوك. وبعد أن تجف هذه الزنابق كانت لا تستخدم إلا للحريق لسرعة إشعال النار في التنور (الفرن). وكأنما يريد المسيح أن يقول إنه إذا كان الله يعطي الزهور هذا الرداء الجميل رغم عمرها القصير، أفلا يعتني بكساء الإنسان؟ لا شك أن السخاء الذي به يكسو الله الزهور، لا يمكن أن يتجاهل الإنسان تاج الخليقة.

٥ ـــ والحجة التالية التي يوردها المسيح هي أن القلق من صفات الأمم الوثنية الذين لا يعرفون طبيعة الله (عدد٣٢)، ذلك أن القلق في جوهره يعني فقدان الثقة بالله. والأمم الذين يعتقدون بآلهة كلها غيرة وحسد وغضب وتقلب ليست لديهم ثقة بآلهتهم لأنها على هذا النحو . أما المؤمن بالله والذي يدعوه «أباً» فليس من المعقول أن يفقد الثقة في أبيه السماوي. إن المسيحي لا يستطيع أن يستسلم للقلق والهم لأنه يؤمن بمحبة الله.

٦ ـــ ثم يذكر السيد الطريقة الأولى التي بها ننتصر على القلق والهم، وهي تتلخص في القول: «لكن أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره» (عدد٣٣) فعلاج القلق هو الإهتمام بملكوت الله.

ولقد عرفنا من دراستنا للصلاة الربانية (متى٦:١٠) كيف أن الوجود في جو ملكوت الله هو عمل مشيئة الله وقبولها. فإذا أردنا أن نهزم القلق والخوف، فما علينا إلا أن نجعل نصب عيوننا عمل مشيئة الله وقبولها.

ولعلنا من اختبارنا في الحياة نعرف أن الحب العظيم يمكن أن يسيطر على كل اهتمام آخر.. إن مثل هذا الحب لله ولتحقيق مشيئته يمكن أن يكون إلهاماً دائماً لحياة الإنسان، فينقي حياته ويسيطر على كيانه ـــ لقد اعتقد يسوع أن هزيمة القلق تتم عندما يصير الله هو القوة المسيطرة على حياتنا ، وعندما يمتلك حبنا لله كل كياننا ووجداننا.

٧ ـــ وأخيراً يذكر السيد الطريقة الثانية للإنتصار على القلق وهي التدريب على فن الحياة يوماً فيوماً دون قلق على الغد . فقال «فلا تهتموا للغد. لأن الغد يهتم بما لنفسه. يكفي اليوم شره» (عدد٣٤).

ومن أمثال اليهود «لا تقلق على شرور الغد، لأنك لا تعلم ماذا يلده اليوم. فقد لا تكون غداً على قيد الحياة، وبذلك تكون قد أقلقت نفسك على عالم ليس لك».

فإذا كنا نحيا كل يوم بيومه، ونعمل عمل اليوم كما يظهر لنا فإن حصيلة أيامنا عندئذ ستكون خيراً بلا شك. إن نصيحة السيد أن نعالج مطاليب كل يوم كما تظهر لنا، دون أن نقلق على المستقبل

المجهول على الأشياء التي قد لا تحدث على الإطلاق.

جهالة القلق :

في ضوء تعليم السيد المسيح نستطيع أن نوجز حججه ضد القلق في هذه النقاط الثلاث :

١ ــ لا داعي للقلق :

فالقلق لا يؤثر في الماضي لأنه مضى وانقضى. إن ما تكتبه أصابع التاريخ لا تمحوه الدموع ولا تغيره الجهود، فما فات قد فات. وليس معنى ذلك أن يفصل الإنسان نفسه عن ماضيه. فإننا نتعلم من الماضي دروساً للمستقبل، لكننا لا نقلق لأجل الماضي، ونبكي عليه فنقتل الحاضر ونشقيه.

كما أن القلق لن يفيد شيئاً في المستقبل، فإن القلق لأجل المستقبل مجهود ضائع، فلن يكون المستقبل مخيفاً بالشكل الذي نتصوره ونخاف منه.

بل إن القلق ضار بالإنسان، فإن أمراض هذا العصر أغلبها نتيجة القلق مثل قرحة المعدة، والجلطة في الشريان التاجي.

عقولنا وأجسادنا تبلى. والقلق يؤثر على حسن تقديرنا للأمور، ويضعف قدرتنا على اتخاذ القرارات، ويجعلنا تدريجياً عاجزين عن مواجهة الحياة. فليبذل الإنسان جهده في كل موقف يواجهه، ثم يترك الباقي على الله.

٢ ــ والقلق أعمى :

فالقلق يرفض أن يتعلم من مدرسة الطبيعة. إن يسوع يطلب من الناس أن يتطلعوا إلى الطيور والأزهار ليروا السخاء الإلهي الظاهر في الطبيعة، وهكذا تمتلىء نفوسهم ثقة بالحب الكامن وراء هذا السخاء.

والقلق يرفض أن يتعلم من مدرسة التاريخ. عندما نقرأ حديث المرنم في مزمور ٤٢ نراه يقول «ياإلهي نفسي منحنية في. لذلك أذكرك من أرض الأردن وجبال حرمون من جبل مصعر» (مزمور٤٢:٦)، ونتساءل ما علاقة حالة المرنم بجبل حرمون؟ لكننا إذا رجعنا إلى التاريخ نرى أن هناك إنتصاراً لشعب الله تم في دخولهم إلى أرض كنعان، واستطاعوا أن ينتزعوا الأرض التي في عبر الأردن من وادي أرنون إلى جبل حرمون (تثنية٣:٨).

فكأنما المرنم يرى في التاريخ وفي أعمال الله في الماضي علاجاً لنفسه المنحنية. وهكذا نرى أن الإنسان الذي يتأمل في سجل أعمال الله الصالحة في الماضي لن يقلق لأجل المستقبل.

والقلق يرفض أن يتعلم من مدرسة الحياة، فنحن لا نزال نحيا مرفوعي الرؤوس، ولو أن أحداً سبق وقال لنا إننا سنجوز في الظروف التي جزنا فيها فعلاً لقلنا إن ذلك من المستحيل ... لكن الواقع أننا عشنا وتغلبنا على الظروف. إن الحياة تعلمنا أننا بكيفية ما استطعنا أن نتحمل ما ليس في قدرتنا تحمله وجزنا في ظروف كان يمكن أن تحطمنا ولم نتحطم .. فلماذا نقلق إذاً ؟

٣ ــ والقلق ليس من التدين في شيء :

فالقل لا ينتج عن الظروف الخارجية بل من قلب الإنسان. إن بعض الظروف الخارجية التي تجعل البعض يعيشون أشقياء في خوف وقلق، وقد يواجهها البعض الآخر في رصانة وهدوء وصفاء. فأسباب القلق والسلام لا تأتينا من الظروف، بل تنبع من قلب الإنسان.

قيل أن المتصوف الألماني «تولر» إلتقى يوماً مع أحد الشحاذين فقال له «ليعطك ربنا يوماً طيباً ياصديق» فرد عليه الشحاذ «أشكر الله أن كل أيامي طيبة» فقال «تولر» «ليسعد الله حياتك ياصديق»، فرد عليه الشحاذ قائلاً «أشكر الله لم أكن في يوم من الأيام غير سعيد» ــ فقال تولر في دهشة «ماذا تعني بذلك ؟ » فقال الشحاذ : « عندما تصفو السماء أشكر الله، وعندما تمطر أشكر الله. عندما يكون لدي الكثير أشكر الله، وعندما أكون جائعاً أشكر الله. لأنه ما دامت مشيئة الله رغبتي وإرادتي، وكل ما يرضيه يسعدني، فكيف أقول عن نفسي إني شقي بينما أنا لست كذلك؟» فنظر إليه تولر في عجب وسأله : «من أنت» فرد عليه الشحاذ «أنا ملك» . فسأله «وأين مملكتك؟» فكان جوابه الواثق «في قلبي».

لقد قال إشعياء قديماً « ذو الرأي الممكن تحفظه سالماً سالماً، لأنه عليك توكل » (إشعياء٢٦:٣).

قد تكون هناك خطايا أعظم من القلق. لكن لا توجد خطية تجعل الإنسان عاجزاً مثل القلق. «لا تهتموا بالغد» هذه وصية المسيح، وهي الطريق، ليس إلى السلام فحسب، بل إلى القوة أيضاً.

الأصحاح السابع

خطأ دينونة الآخرين

(متى ٧: ١ — ٥)

كان علماء الدين اليهود يكررون التحذير من دينونة الآخرين، وقالوا إن من يترأف على قريبه في الحكم يترأف الرب عليه. وقد قالوا إن هناك ستة أفعال عظيمة تفيد الإنسان في الدنيا والآخرة وهي الدرس، وزيارة المرضى، وإضافة الغرباء، والصلاة، وتعليم الناموس للأبناء وحسن الظن بالناس. وكان عدم دينونة الآخرين واجباً مقدساً عند اليهود.

ومع أن التاريخ مليء بالأحداث التي تروي لنا خطأ دينونة الآخرين، وكيف أن عدداً كبيراً من أتقياء الناس ظلمهم الناس بالحكم عليهم في دنياهم حكماً سيئاً وظهرت براءتهم وقداستهم فيما بعد، لكن البشر ما زالوا شغوفين بأن يدين بعضهم بعضاً.

إن وصية عدم دينونة الآخرين، من وصايا المسيح التي كثيراً ما يكسرها الناس ولا يهتمون بها.

ولو فكرنا في المقصود بهذه الوصية، لرأينا أن السيد المسيح يريدنا ألا نحكم على الآخرين أو ندينهم، حتى لو ظهر لنا أنهم مخطئون. ولهذه الوصية أسباب عديدة :

١ — إننا لا نعرف كل الحقائق عن الشخص الذي ندينه.

وقد قال هليل الربي «لا تحكم على إنسان حتى تجتاز في ظروفه» . فنحن لا نعرف قوة التجربة التي يتعرض لها الآخرون، فمن عاش ونشأ في بيئة مسيحية لا يعرف التجارب التي يتعرض لها من نشأوا في بيئات أخرى. وينبغي لمن يحكم أن تكون لديه معرفة كاملة . (فالقاضي يحتاج أن يسمع صوت الإتهام وصوت الدفاع قبل أن ينطق بالحكم).

٢ — إنه من المستحيل أن يكون الإنسان منصفاً غير متحيز في حكمه.

فالتحيز يحرفنا ويعمينا— وقد قيل إن اليونانيين قديماً كانوا يعقدون محاكماتهم الهامة في الظلام حتى لا يرى القاضي والمحلفون شخصية الذي يحاكمونه ولا يتأثروا إلا بالحقائق فقط.

٣ — والسبب الرئيسي الذي يورده يسوع لبيان خطأ دينونة الآخرين هو أنه ليس إنسان صالحاً ليدين إنساناً آخر. ويصور يسوع صورة إنسان في عينه خشبة، ومع ذلك فهو يريد أن يخرج القذى من عين غيره. إن هذه الصورة تثير ضحكة في نفوس السامعين، لكن رسالتها تصل حالاً إلى العقل. إن كثيرين من الذين يحضرون المباريات يسرفون في نقدهم للاعبين، لكنهم لو نزلوا إلى الملعب فإنهم سيلعبون أسوأ لعب. وهكذا في الكنيسة وفي العالم نرى الناقدين الذين ينتقدون غيرهم، بينما لا يتصورون أنفسهم في الموقف عينه.

الحق وسامعه

(متى ٧: ٦)

وقد أثار هذا القول اختلافات كثيرة في التفسير لأنه يحمل حسب الظاهر دعوة إنفصالية لا تتفق مع رسالة المسيحية التي هي لجميع الناس.

فقد فسرها اليهود المتنصرون في الكنيسة الأولى على أن بركة الله هي لليهود. وعلى كل أممي (وثني) يريد أن يعتنق المسيحية أن يتهود أولاً ويختتن لكي ينال بركات المسيحية.

وقد فسرها بعض المسيحيين الأول على أنها دعوة لعدم ممارسة أقداس المسيحية مثل فريضة العشاء الرباني في حضور غير المؤمنين المعمدين — وقد كانوا يبدأون فريضة العشاء الرباني بالقول : «المقدسات للمقدسين». وكان أحد الشمامسة يقول قبل الفريضة :

«ليخرج جميع الذين هم في دور تعلم الحقائق المسيحية. ليخرج جميع الذين جاءوا للإستماع. ليخرج جميع الهراطقة».

وفي «تعليم الرسل الإثني عشر» — الديداخي — وهو أقدم كتاب لنظم العبادة ويرجع تاريخه إلى عام ١٠٠ الميلادي نقرأ :

لا تسمحوا لأحد أن يتناول من الأفخارستيا إلا المعمدين باسم الرب، لأن الرب قد قال : لا تعطوا القدس للكلاب — فيكون معنى العبارة نوعاً من الإعتزال عن سائر الناس.

وربما كان هذا التفسير صحيحاً للحالة التي كانت تعيش عليها الكنيسة المسيحية الأولى في عصر كانت فيه الوثنية والإباحية هي الأسلوب السائد بين البشر.

لكن البعض يفسرون هذه العبارة تفسيراً آخر، ويربطون بينها وبين الحديث الذي قبلها، فهم يقولون إن هناك أناساً لا يقبلون التوجيه ولا التوبيخ، وإن رسائل النصح هي كالدرر — وقد قيل في الأمثال: «قرط من ذهب وحلي من إبريز، الموبخ الحكيم لأذن سامعة». وهؤلاء الذين لا يقبلون التوجيه الصالح، الذي يقدم بروح المحبة، كأنك ترمي لهم الدرر فيظنونها حجارة ويزدادون هياجاً .. فمثلاً عندما كان يسوع يوبخ الفريسيين، تصور الناموسيون أنه يقصد التشهير بهم ، فقالوا له «يا معلم حين تقول هذا تشتمنا نحن أيضاً» (لوقا١١: ٤٥).

فهؤلاء الذين لا يقدرون كلامنا، نصلي من أجلهم ونحبهم لكننا لا نقدم لهم نصيحة روحية، لأنهم لا يعرفون ولا يفهمون الروحيات.

وقد حاول البعض تفسير هذه العبارة تفسيراً أعم من ذلك فرأوا في هذه العبارة أسلوب التقابل الشعري الرائع في المزامير (انظر شرح متى ٦: ١٠) .

«لا تعطوا القدس للكلاب.

لا تطرحوا درركم قدام الخنازير ...»

وهنا تتقابل كلمة «لا تعطوا» مع«لا تطرحوا» و «الكلاب» مقابل «الخنازير».

أما « القدس » و « الدرر » فلا تتقابلان لأنهما تشيران إلى معنيين مختلفين. لذلك يظن البعض أن الكلمة المترجمة «القدس» وهي كلمة «قادوش» في العبرية كانت أصلاً مكتوبة « قادشا» ومعناها «قرط» بالأرامية، وقالوا حيث أنه لا توجد حروف علة في هاتين الكلمتين بالعبرية والآرامية، والحركات توضع على الحروف الثلاثة قداش أو «قدش» فربما عن طريق النسخ تغير المعنى، وربما كان المعنى الأصلي .

«لا تعطوا القرط للكلاب .
ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير».

ويكون المعنى أن هناك أشخاصاً ليسوا مستعدين ليتقبلوا الرسالة المسيحية التي تقدمها الكنيسة، لذلك فهم يحتاجون إلى شيء من الإعداد قبل أن تقدم لهم جوهر الرسالة المسيحية.

والمبدأ العام هو أننا لا نستطيع أن نحدث كل إنسان بكل شيء. فإنهم ينظرون إلى بعض تعاليمنا على أنها جهالة. فماذا نفعل لأولئك؟ هل نتركهم دون رسالة؟

والجواب على ذلك أن ما لا تستطيع الكلمات المسيحية أن تفعله، قد تفعله الحياة المسيحية.

في مناقشة بين الشباب المسيحي عن وسائل بث الدعوة، سأل المجتمعون فتاة مسيحية من إفريقيا قائلين : «ما هي الطريقة التي تتبعونها ياماريا لبث الدعوة بين الناس في بلادكم؟» . فقالت «نحن لا نوزع نبذاً فالناس لا يقرأون، ولا نعرف أن نعظ وربما لا يفهم الناس الوعظ، لكننا نرسل أسرة أو أسرتين لتعيش وسط الناس، فيرى الوثنيون نوع الحياة المسيحية فيقبلونها».

إن الضعف الذي يراه الناس في المسيحية، ليس في ضعف الحجج المسيحية، بل في ضعف الحياة المسيحية التي يحياها الناس.

ميثاق الصلاة

(متى ٧:٧ — ١١)

كل إنسان يصلي يريد حتماً أن يعرف نوع الإله الذي يصلي له وصفاته، ويريد أن يعرف الجو الذي تسمع فيه صلاته.

هل هو يصلي إلى إله بخيل ينتزع منه ما يطلبه إنتزاعاً؟

أم يصلي إلى إله ساحر يعطى عطايا ذات حدين أو وجهين، وجه نافع والآخر ضار؟ أم هو يصلي إلى إله حنون شفوق القلب على استعداد أن يعطي أكثر مما نطلب؟

لقد نبت يسوع في شعب يحب الصلاة. وقد كان المعلمون اليهود (الربيوّن) يذكرون أجمل العبارات عن الصلاة. ومن أقوالهم : «الله قريب من مخلوقاته قرب الأذن من الفم . البشر لا يكادون يسمعون شخصين يتكلمان في وقت واحد، لكن إذا تحدث الناس جميعهم وصلوا إلى الله في وقت واحد، فإنه يسمع صراخهم. ربما يتضايق الإنسان من مطاليب أصدقائه المتعددة، لكن الله يزداد في محبته لنا كلما طلبنا منه». لقد أحب السيد المسيح الصلاة، ويعطينا في هذا الجزء ميثاق الصلاة.

والحجة التي يقدمها السيد المسيح هنا في غاية البساطة والقوة. فقد كان أحد علماء اليهود يقول «هل يكره إنسان ابنه ؟» وحجة يسوع هي أن الأب لا يرفض أبداً طلبة ابنه، وإن الله الأب السماوي العظيم لا يرفض أبداً طلبات أولاده.

وقد اختار السيد المسيح بعناية فائقة، التشبيهات التي أوردها لتأييد هذه الحجة في نفوس سامعيه، ذكر منها متى اثنين وأضاف إليها لوقا ثالثاً ، «فمن منكم وهو أب يسأله إبنه خبزاً فيعطيه حجراً. أو سمكة فيعطيه حية بدل السمكة. أو إذا سأله بيضة أفيعطيه عقرباً؟ (لوقا١١:١١و١٢).

وجدير بنا أن نلاحظ أنه في كل تشبيه من هذه التشبيهات، يوجد تشابه بين الشيئين المذكورين.

فالحجارة الجيرية الموجودة على الشاطيء كانت مستديرة ولها شكل ولون أرغفة الخبز الشعير في تلك البلاد. فإذا سأل ابن من أبيه رغيف خبز، فهل يسخر منه الأب ويعطيه حجراً يشبه الرغيف تماماً لكنه لا يؤكل ؟

وإذا سأل الابن من أبيه سمكة فهل يعطيه أبوه حية؟ والحية المقصودة هنا هي ثعبان الماء، وحسب شريعة اليهود كان ثعبان الماء يعتبر نجساً ولا يجوز أكلة، فقد قالت شريعتهم: « كل ما ليس له زعانف وحرشف في المياه فهو مكروه لهم» (لاويين١١:١٢). فهل إذا طلب الابن من أبيه سمكة يعطيه هذه الحية وهي نوع من الأسماك، لكنها لا تؤكل ولا فائدة منها؟ هل يهزأ الأب من جوع ابنه بهذه الكيفية؟

وإذا طلب الابن من أبيه بيضة فهل يعطيه عقرباً، والعقرب حشرة سامة خطيرة لدغتها مؤلمة وقاتلة أحياناً، وهي عندما تضم أرجلها وذيلها تصير أشبه بالبيضة، فهل يرضى الأب أن يخدع ابنه ويعطيه عقرباً بدل البيضة التي يطلبها؟

هذا مستحيل ولا شك، حتى عند الآباء الأرضيين الأشرار المعرضين لعوامل الضعف الإنساني، ولا شك أن محبة الأب السماوي لأبنائه أعظم وأقدس وأكبر.

إن الله لن يرفض صلواتنا، ولن يهزأ بصلواتنا. لقد كانت لليونانيين قصص عن الآلهة وسماعهم لطلبات البشر، لكن الإجابة كانت تحمل أشواكاً في جانبها الآخر. فقد قالوا إن «أورورا» إلهة الفجر أحبت إنساناً بشرياً شاباً اسمه «تيتونس» وقد عرض «زيوس» كبير الآلهة على «أورورا» أن تطلب ما تشاء لحبيبها الشاب، فطلبت «أورورا» أن يعطيه كبير الآلهة إمتياز الحياة إلى الأبد، لكنها نسيت أن تطلب له الشباب الدائم. فأصبح «تيتونس» يكبر ويكبر في العمر ولم يدركه الموت، فصارت حياته لعنة بدلاً من أن تكون بركة وسعادة كما قصدت «أورورا».

هنا نتعلم درساً هاماً. إن الله يستجيب لصلواتنا ولكن هذه الإستجابة تكون دائماً بأسلوبه الخاص. وأسلوب الله هو أسلوب الحكمة الكاملة والمحبة الكاملة. إننا كثيراً ما نطلب أن يستجيب الله لصلواتنا بالكيفية التي نريدها نحن، ولو أن الله أجاب الصلوات على هوانا نحن، لأصابنا ضرر كبير لأن جهلنا يجعلنا نطلب أشياء تضرنا وتهلكنا.

إن المسيح يؤكد لنا أن الله لا يسمع الصلوات فحسب، بل إنه يستجيبها بحكمته ومحبته.

على أن ميثاق الصلاة يضع بعض المسئوليات علينا نحن البشر، ولعل الصيغة التي وردت بها الكلمات «اسألوا .. أطلبوا .. أقرعوا» باللغة اليونانية تزيد هذه المسئوليات وضوحاً.

فصيغة الأمر في اللغة اليونانية قد تستخدم بشكل قاطع محدد (Aorist Imperative) وقد تستخدم بشكل يدل على الإستمرار (present Imperative) فكأن معنى كلمات المسيح: استمروا في السؤال ــ استمروا في الطلب ــ واظبوا على أن تقرعوا.

وهذا الأسلوب يعلمنا المواظبة والإلحاح في الصلاة. هذا هو امتحان إخلاصنا. هل نحن نرغب حقاً فيما نصلي لأجله؟ هل الذي نطلبه يتسم بالأهمية والقدسية مما يجعلنا أن نأتي به دواماً أمام عرش الله وفي محضره؟

إن حديث السيد المسيح يؤكد لنا أن الله يستجيب صلواتنا بأسلوب حبه وحكمته، وإنه يجب علينا أن نحيا حياة الصلاة التي لا تفشل، برهاناً على إخلاصنا ورغبتنا الصادقة فيما نصلي لأجله.

القانون الذهبي

(متى ٧:١٢)

قمة الأخلاقيات :

تعتبر هذه العبارة من أقوال السيد المسيح قمة الأخلاق، وهي أكثر أقوال السيد المسيح شيوعاً في كل العالم، وقد اعتبرها الكثيرون قمة الأقوال في العظة على الجبل، وحجر الزاوية فيها.

وقد يستطيع الباحث أن يجد في تعاليم الربيين اليهود ما يماثل في بعض الأمور تعاليم السيد المسيح، لكن هذه العبارة ليس لها مثيل على الإطلاق، فلم يسبق أن نطق بهذا المعنى فرد في التاريخ، فهي تعليم جديد، ونظرة جديدة إلى الحياة والتزاماتها.

وقد نجد بعض ما يقابل هذه العبارة في صيغة سلبية في أقوال اليهود وفي تعاليم بعض الديانات الأخرى، لكن هذه الصيغة الإيجابية حديث فريد للسيد المسيح.

وقد قيل إن وثنياً جاء إلى شمعي، معلم اليهود المشهور بالجمود وضيق الفكر، وقال له إنه مستعد أن يصير دخيلاً يهودياً إذا استطاع شمعي أن يعلمه الناموس كله وهو واقف على رجل واحدة، فدفعه شمعي عنه بعصا كانت في يده. ثم ذهب الوثني إلى «هليل» المعلم اليهودي المشهور برحابة

الصدر والتعليم وقال له هذ الكلام بعينه، فقبله «هليل» ليكون دخيلاً وقال له «ما تكرهه لنفسك، لا تفعله بالآخرين ... هذا هو كل الناموس، والباقي شرح له فإذهب وتعلم ...».

وفي سفر طوبيت وهو من الأسفار غير القانونية كان طوبيت العجوز يعلم ابنه ما هو ضروري للحياة. فقال له من بين تعاليمه: «ما تكرهه أنت، لا تفعله لإنسان ما» (طوبيت٤:٦).

وفي كتاب «الرسالة إلى أريستياس» الذي يروي لنل شيئاً عن علماء اليهود الذين ذهبوا إلى الإسكندرية ليقوموا بالترجمة السبعينية للعهد القديم إلى اللغة اليونانية، يقال إن الملك المصري أقام وليمة لهؤلاء العلماء وكان يسألهم أسئلة عسيرة، ومن بينها «ما هو تعليم الحكمة؟» فأجاب أحد العلماء اليهود: «كما أنك ترغب في ألا يقع عليك شر، بل أن تنال كل خير، هكذا ينبغي أن تطبق هذا المبدأ على رعاياك والذين يسيئون إليك، وبرقة واعتدال تحذر النبيل، والصالح وتوبخه. لأن الله يجذب كل الناس إليه بإشفاقه.

وقد قال الربي أليعازر «لتكن كرامة صديقك غالية عليك مثل كرامتك أنت تماماً» . وقال كاتب المزامير في مزمور ١٥:٣ عمن ينزل في مسكن الرب أنه «لا يصنع شراً بصاحبه ولا يحمل تعييراً على قريبه».

وفي الديانات الأخرى نرى صوراً مشابهة للصيغة السلبية من هذا القانون. ففي تعاليم كونفشيوس قيل إن تسي كونج سأله: «هل توجد كلمة تصلح أن تكون قانوناً للحياة العملية كلها ؟ » فأجاب كونفشيوس «أليس كلمة «التبادل» هي هذه الكلمة ؟ ما لا تريده لنفسك لا تصنعه بالآخرين ؟

وفي أناشيد الإيمان البوذية نقرأ عن تعاليم مشابهة كيف أن جميع الناس يخافون الموت ويحبون الحياة، فليضع كل إنسان نفسه موضع الآخر فلا يقتل أو يتسبب في القتل.

ونرى نظائر لهذه في تعاليم الرومان واليونان. فالتعاليم الأخلاقية كلها ذكرت الصيغة السلبية: «لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه بك». لكن لم يذكر الصيغة الإيجابية أحد غير المسيح.

قانون المسيح الذهبي :

كيف تختلف الصيغة الإيجابية عن الصيغة السلبية؟ عندما نضع هذا القانون في الصيغة السلبية، لا يكون القانون أمراً دينياً على الإطلاق، بل يكون تعبيراً عادياً يتطلبه العرف والنظام في المجتمع. فلو أن الناس خالفوه لاختل النظام في المجتمع، وساد القتل والظلم والفوضى.

كما أن الصيغة السلبية لا تقرر إلا الإمتناع عن عمل الضرر بالغير، وهذا أمر ميسور إلى حد كبير أن يكون الإنسان سلبياً، لكنه ليس أمراً دينياً بل أخلاقياً. فالإنسان الذي بلا عقيدة ولا إيمان يستطيع أن يسير في هذا الطريق السلبي ليكون مواطناً نافعاً ولا يتعرض لطائلة القانون.

لكن ليس في مجرد السلبية صلاح ما، والصلاح القائم على عدم العمل يناقض طبيعة الصلاح المسيحي.

أما إذا وضعنا القانون في صورته الإيجابية كما ذكره المسيح، فإنه يفتح أمامنا آفاقاً لا حد لها

للتعبير عن حب المسيح في خدمة الغير. إننا نتخذ إتجاهاً جديداً نحو غيرنا من الناس، فنخرج من ذواتنا ممتلئين خدمة ورفقاً وأعمالاً صالحة، فما أبعد الفرق بين السكوت عن الإيذاء والضرر، وبين التقدم للرحمة والخدمة والمعاونة. إن الناموس هو الذي يمنعنا عن إيذاء الآخرين، ولكن المحبة هي التي تدفعنا لخدمتهم.

وعلى سبيل المثال: إذا كان شخص ما في سيارته، فإن الواجب القانوني يحتم عليه ألا يصدم شخصاً آخر فيؤذيه أو يقتله. ولكن الواجب المسيحي يفرض عليه أن يرحب بشخص مسكين ضعيف يجده في طريقه ويحمله في سيارته مخففاً عنه عناء السير.

ولعله من الميسور على الإنسان أن يعيش سلبياً فلا يسبب الضرر لغيره. لكن تطبيق المبدأ الإيجابي يتطلب إمتلاء من روح المسيح وفيض حبه ليخرج الإنسان من ذاته، وينسى نفسه. ويفكر في الآخرين. فيغفر للناس كما يرجو هو أن ينال غفران الآخرين، ويعاون الناس كما ينتظر من الآخرين أن يعاونوه، ويمدح الناس ويشكرهم كما ينتظر المدح والشكر منهم، ويتفهم ظروف غيره كما ينبغي أن يتفهم الناس ظروفه ويقدروها.

إن الإنسان في هذه الحالة لا يحاول التملص من الأعمال والمسئوليات لكنه يرحب بها ويبحث دائماً عن عمل يعمله أو خدمة يقدمها.

ولا شك أن حياته ستصير أكثر مشغولية وتعقيداً، فلن يجد وقتاً ينفقه في إرضاء أهوائه ولذاته الشخصية، لأنه سيجد نفسه متوقفاً بين لحظة وأخرى ليساعد مسكيناً أو يعاون صديقاً، فتصير الخدمة مبدأ سائداً على حياته في البيت والمصنع والمدرسة والمكتب والأتوبيس والشارع والقطار والملعب وفي كل مكان.

ولا يستطيع إنسان أن يكون كذلك إلا إذا ماتت الذات وانكمشت في داخله، لأنه لكي يطيع الفرد هذا القانون الذهبي، لا بد أن يكون أولاً إنساناً جديداً ويصبح الله والآخرون مركزاً لحياته .. وعندما يتكون العالم من أناس يتبعون هذا القانون، يصير العالم عالماً جديداً.

الحياة في مفترق الطرق

(متى ٧:١٣، ١٤)

قيل إن الحياة كلها تتركز في الإنسان عند مفترق الطرق. ففي كل لحظة وفي كل خطوة أو حركة نرى الإنسان يواجه موقفاً عليه أن يختار فيه الطريق الذي يسلكه. ولا يستطيع الإنسان أن يتجنب موقف الإختيار هذا، لأن الحياة لا تقف جامدة ساكنة لكنها مليئة بالحركة، وعلى الإنسان أن يتخذ طريقاً ما يختاره، ويرفض ما عداه. لذلك دأب عظماء الرجال في التاريخ أن يواجهوا الناس بهذا الموقف ويطلبوا منهم أن يختاروا.

ففي الأيام الأخيرة من حياة موسى، وقف يواجه الشعب بقوله : «أنظر قد جعلت اليوم قدامك

الحياة والخير، والموت والشر».

«قد جعلت اليوم قدامك الحياة والموت . البركة واللعنة. فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك..» (تثنية٣٠: ١٥ـــ ٢٠).

وهكذا فعل يشوع وهو يترك قيادة الأمة قرب نهاية حياته، واجه الشعب بمثل هذا الاختيار: «فاختاروا لأنفسكم اليوم من تعبدون» (يشوع٢٤: ١٥).

وقد سمع إرميا صوت الرب قائلاً له: «وتقول لهذا الشعب .. هكذا قال الرب. هأنذا أجعل أمامكم طريق الحياة وطريق الموت» (إرميا٢١: ٨).

وهذا هو نفس الاختيار الذي يواجه به يسوع الناس، في هذه العبارات. هناك طريق متسع ورحب، وكثيرون يختارونه، لكن نهاية هذا الطريق هلاك وخراب. وهناك طريق ضيق وصعب، وقليلون يختارونه، لكن نهايته الحياة.

يقول سيبس (Cebes) تلميذ سقراط في كتابه (تابولا Tabula) : «هل ترى باباً صغيراً، وطريقاً أمام ذلك الباب، طريقاً ليس مزدحماً بالناس، والمسافرون فيه قليلون. إنه الطريق الذي يقود إلى الحكمة الحقيقية».

ما هو الفرق بين الباب الضيق والباب الواسع؟

(١) إنه الفرق بين الطريق الصعب والطريق السهل.

ولا يوجد أبداً طريق سهل للإمتياز والعظمة والتفوق، ذلك لأن العظمة هي على الدوام نتيجة للجهد. وقد قال شاعر يوناني قديم: «يمكنك أن تجد الشر سهلاً ميسوراً بكثرة ووفرة، فطريقه ناعم ممهد، لكن الآلهة وضعت العرق والتعب في طريق الفضيلة» . وقال آخر : «تتطلب الآلهة منا الجهاد ثمناً للخيرات، فلا تسع في الطريق السهل الناعم لئلا تحصد المتاعب».

كان «ريتشارد بيرك» و «أدموند بيرك» أخوين في إنكلترا. وقد لمع نجم « أدموند » حتى صار عضواً في مجلس العموم، بينما بقي أخوه مغموراً. وفي أحد الأيام ألقى «أدموند بيرك» خطاباً رائعاً في مجلس العموم. واستمع أخوه «ريتشارد» إلى الخطاب الرائع ورآه الناس ساهماً شارد الفكر. فسألوه فيم تفكر؟ فقال: «إنني أتعجب كيف أن أخي ادموند استحوذ على كل مواهب الأسرة، لكني أعود وأتذكر أنه بينما كنا جميعاً نلعب، كان هو دائما يعمل ويتعب ».

قد نري في بعض الأحيان شخصاً ما يعمل عملاً ما في سهولة ويسر وبلا تعب وجهد حسب الظاهر، لكن هذه السهولة لا بد أنها نتيجة جهد وتدريب كبير. إن مهارة لاعب البيانو الفائقة، أو الخطيب المفوه، أو البطل الرياضي، لم تأت عفواً بل هي نتيجة عرق وجهد كبير. فالطريق إلى التفوق والعظمة مرصوف بالجهد والتعب، ومن قال غير ذلك فقوله وهم وخداع.

(٢) وهو الفرق بين الطريق الطويل والطريق القصير :

من النادر أن نرى نتيجة بارزة تأتي في لحظة عابرة. بل إن أفضل النتائج جاءت بعد أطول الأبحاث والمجهودات وكثرة التدقيق في التفاصيل. وقد نصح أحد الشعراء زميلاً له بأن يكتب ما يجول بخاطره، ويعود لقراءته بعد شهور وسنين ليتأكد من صلاحيته. وقيل إن أفلاطون الفيلسوف الخالد كتب العبارة الأولى في كتابه العظيم «الجمهورية» أكثر من ١٣ مرة ، وهو يصحح عبارته في كل مرة، لكي يجد أفضل تعبير ممكن. وقيل عن الشاعر الإنكليزي «توماس جراي» إنه بدأ كتابة إحدي قصائده الخالدة في صيف ١٧٤٢، لكنه لم يعرضها على مجموعة من أصدقائه لتنقيحها إلا يوم ١٢ يونيو سنة ١٧٥٠.

إن الأعمال الخالدة والرائعة لمشاهير الناس لم تأت نتيجة عمل قصير سريع لكنها استغرقت زماناً طويلاً .. إن الطريق الأطول هو الطريق الأفضل في النهاية.

(٣) وهو الفرق بين طريق النظام والترتيب، وطريق الفوضى والإهمال :

إن طريق النظام والتريب ليس طريقاً سهلاً، إنه طريق يربطنا ويقيدنا ويعيقنا في أكثر الأحيان، لكنه يقودنا إلى نتيجة مفرحة. وطريق الفوضي يترك لنا حرية كاملة دون قيود على الإطلاق، لكنه يقودنا في النهاية إلى الهلاك والخراب.

ما أكثر التلاميذ الذين عودوا نفوسهم على المثابرة، والدرس، وأخضعوا نفوسهم لنظام دقيق في مواعيد الدرس، وحصدوا النجاح ثمراً للنظام. وما أكثر التلاميذ الذين لم يدربوا نفوسهم على نظام ما، بل أطلقوا لنفوسهم العنان في إضاعة الوقت الثمين لبهجة زائلة أو متعة وقتية، فحصدوا الفشل نتيجة حتمية لإهمالهم.

هذه القاعدة تنطبق على الجميع، على الطالب والرياضي والعامل والموظف والطبيب ... من يدرب نفسه على النظام يتعب أولاً ويستريح في آخر الأمر ... ومن يترك نفسه لعوامل الفوضى، يبتهج وقتياً، ويحزن في الختام.

(٤) وهو الفرق بين طريق الإهتمام وطريق عدم المبالاة :

وهنا جوهر الأمر، فإن الذي يهتم وينظر إلى حياته نظرة جدية لن يأخذ طريقه إلى الباب الواسع. ولكل أمر في هذا العالم وجهان : ما يبدو في التو واللحظة، وما يبدو في المستقبل. والطريق السهل هو أن تنظر إلى الحاضر بإغراءاته، لكن الطريق الصعب هو أن تفكر في ما بعد اللحظة الحاضرة. إن الأسلوب الصحيح لمعرفة القيم الحقيقية للأشياء هو النظر إلى نهاية الطريق لا إلى بدايته، النظر إلى الأمور لا بمقياس الزمن الحاضر، بل في نور الأبدية.

الأنبياء الكذبة

(متى ٧:١٥)

لا بد أن كل كلمة من حديث المسيح عن الأنبياء الكذبة قد وجدت صداها في عقول اليهود الذين سمعوها لأول مرة. فقد كان اليهود يعرفون كل شيء عن الأنبياء الكذبة.

كان إرميا — مثلاً — من الذين اصطدموا مع الأنبياء الذين قالوا: سلام سلام ولا سلام: (إرميا ١٤:٦). وقد كانت صفة «الذئاب» هي الصفة التي تنسب إلى هؤلاء الأنبياء الكذبة. وفي أيام حزقيال حيث ساد الشر وصف حزقيال الأرض بقوله «رؤساؤها في وسطها كذئاب خاطفة خطفاً لسفك الدم لإهلاك النفوس، لاكتساب كسب» (حزقيال٢٢:٢٧).

ورسم صفنيا صورة قاتمة للحالة في إسرائيل عندما قال «رؤساؤها في وسطها أسود زائرة. قضاتها ذئاب مساء لا يبقون شيئاً إلى الصباح» (صفنيا٣:٣) — وعندما أراد بولس أن يحذر قسوس كنيسة أفسس قبل أن يودعهم قال لهم : «لأني أعلم هذا أنه بعد ذهابي سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية» (أعمال٢٠:٢٩). وقال يسوع إنه سيرسل تلاميذه كحملان في وسط ذئاب (متى١٠:١٦) وتحدث عن الراعي الصالح الذي يحمى قطيعه من الذئاب بحياته (يوحنا١٠:١٢).

كانت صورة الذئاب الخاطفة معروفة عند الجميع :

وقد قال يسوع إن هؤلاء الأنبياء الكذبة سيأتون في ثياب الحملان. وكان الرعاة وهم يسهرون على قطعانهم على التلال يلبسون جلود الأغنام كغطاء لهم، الصوف من الداخل والجلد من الخارج. ولكن يمكن لأى إنسان أن يلبس هذا النوع من اللباس دون أن يكون راعياً للغنم — وكأنما يريد المسيح أن يقول إن هؤلاء الأنبياء الكذبة سيأتون إلى المؤمنين بشكل مألوف لهم . كان إيليا يلبس رداء (١ملوك ١٩:١٣،١٩) وكان هذا الرداء من شعر أو صوف الغنم (٢ملوك ١:٨).

لذلك أصبح الرداء المصنوع من شعر الغنم علامة مميزة للأنبياء، فكانوا يلبسون هذا الزى ليتميزوا به عن عامة الناس. لكن أحياناً كثيرة كان بعض الأدعياء والأنبياء الكذبة يلبسون هذا الرداء ليخدعوا الناس، وفي هذا قال زكريا « ويكون في ذلك اليوم أن الأنبياء يخزون كل واحد من رؤياه إذا تنبأ ولا يلبسون ثوب شعر لأجل الغش » (زكريا١٣:٤).

إن قول المسيح معناه إن هناك من يلبسون ثياب الأنبياء، لكن حياتهم بعيدة كل البعد عن حياة الأنبياء.

كان الأنبياء الكذبة في الأيام القديمة، لكنهم كانوا أيضاً في أيام العهد الجديد. وقد كتبت بشارة متى عام ٨٥ م وفي ذلك الوقت كان هناك أنبياء في الكنيسة، فقد وجد بعض الناس الذين بذلوا كل ما عندهم. وتركوا كل شيء في سبيل التجول والسفر من كنيسة إلى كنيسة لتقديم رسالة اعتقدوا أنها جاءت من الله رأساً. وقد كان هؤلاء الأنبياء سبباً في نهضة الكنيسة لأنهم تركوا كل شيء ليخدموا الله والكنيسة. لكن وظيفة النبوة كان من الممكن سوء استخدامها، فقد استخدمها البعض لينالوا مركزاً ومكانة. واستخدمها البعض ليفرضوا أنفسهم على الكنائس المحلية فيضيفونهم ويكرمونهم ويعيشوا حياة هادئة مريحة ربما لدرجة الكسل والخمول.

ونستطيع أن نرى شيئاً من هذه الحقائق في كتاب (الديداكي Didache) أو «تعاليم الرسل» ، وهو أول كتاب تنظيمي في الكنيسة المسيحية، ويرجع تاريخه إلى عام ١٠٠م، فإن حديث هذا الكتاب عن الأنبياء المتجولين ينير أفكارنا كثيراً .. والكتاب يوصي بأن النبي الحقيقي أهل لكل

تكريم وترحيب ويجب أن يهتم الناس بكلامه ويطيعوه، ولا يقيدوا حريته. وفيما يلي بعض المقتطفات من هذه التعاليم القديمة عن النبي :

«إنه يمكث يوماً أو يومين عند الضرورة، لكنه إذا مكث ثلاثة أيام فهو نبي كاذب».

«إنه ينبغي ألا يطلب شيئاً إلا الخبز، فإذا طلب مالاً، كان نبياً كاذباً».

« من شخصيته يمكنكم أن تعرفوا إذا ما كان نبياً صحيحاً أو كاذباً». «كل نبي يعلم الحق ولا يعمل به يكون نبياً كاذباً» . «كل نبي يقول بالروح : أعطوني مالاً أو أشياء أخرى لا تصغوا إليه، لكنه إذا طلب أشياء لأجل المحتاجين، لا تدينوه». إذا جاء شخص متجول إلى كنيسة ما في مجتمع ما، وأراد أن يسكن هناك، فإذا كان يعرف حرفة ما، دعوه يشتغل ويأكل. وإذا لم تكن لديه حرفة، فاستخدموا حكمتكم حتى لا يعيش بينكم كمسيحي خامل. فإذا لم يقبل ما تسندون إليه من عمل، فهو مخادع وكاذب. إحذروا منه». (تعاليم الرسل فصل ١١،١٢)

إن التاريخ القديم والحوادث الحاضرة جعلت كلام السيد المسيح مفهوماً لمن سمعوه، ولمن قرأوا إنجيل متى وقت كتابته.

الثمار المكتشفة

(متى ٧ : ١٦ — ٢٠)

استخدم اليهود واليونان والرومان جميعاً هذا الأسلوب : إن الشجر تعرف من ثمارها. وقد قيل في أمثالهم «كما يكون الأصل هكذا تكون الثمار». وقد أعلن سينيكا الفيلسوف أن الخير لا يمكن أن ينتج عن الشر، كما أن شجرة التين لا يمكن أن تأتي من زيتونة.

لكن قول السيد المسيح وصل إلى حقيقة أعمق من ذلك. فقد قال السيد المسيح: «هل يجتنون من الشوك عنبًا ؟ » .

وكان هناك نوع من الشوك، ينبت ثماراً سوداء صغيرة مستديرة هي أقرب ما تكون إلى العنب في شكلها. وقال يسوع «هل يجتنون من الحسك تيناً؟» وكان هناك نوع من الحسك يزهر زهرة لو نظرنا إليها من بعد لرأيناها تخدعنا كأنها ثمرة من ثمار التين.

وهنا تظهر لنا الحقيقة التى أراد يسوع أن يعلنها، فقد يكون هناك تشابه في الشكل والمظهر بين ثمار الشوك والعنب، أو بين أزهار الحسك والتين .. لكن الفرق في الفائدة والطعم واضح بلا جدال. هكذا الأنبياء الكذبة، قد يتشابهون في المظهر مع الأنبياء الحقيقيين فيلبسون ثياب الحملان، وقد يتشابهون في الأسلوب معهم فيرددون العبارات عينها، لكن تعليمهم لا يمكن أن يغذي النفس، كما أن ثمار الشوك والحسك لا يمكن أن تشبع الإنسان وتحفظ حياته.

فإذا أردنا أن نتخير أي نوع من التعاليم، فعلينا أن نتساءل : هل هذا التعليم يسند الحياة ويقويها

على تحمل الأعباء والمسئوليات، وتسير في الطريق الذي ينبغي أن تكون فيه؟

لننظر إذاً إلى المعلمين الكذبة لنرى صفاتهم، فما دام الطريق صعباً والباب ضيقاً، فلنبحث عن المعلمين الحقيقيين الذين يرشدونا إليه، لئلا يغرر بنا المعلمون الكذبة بعيداً عن هذا الطريق.

والخطأ الأساسي للمعلمين والأنبياء الكذبة هو أنهم يعملون في سبيل المصلحة الذاتية. إن الراعي الحقيقي يهتم بالقطيع أكثر مما يهتم بحياته. أما الذئب فإنه لا يهتم بشيء إلا بإرضاء شراهته وبطنه. والنبي الكاذب لا يعلم الناس لكي يقدم لهم شيئاً بل لكي يأخذ منهم شيئاً. ولقد كان اليهود متنبهين لهذا الخطر، لذلك كان نظامهم يقضي بأن يكون للمعلم اليهودي (الربي) حرفة يقتات منها، لكي لا يتقاضى أجراً مقابل تعليمه الناموس.

وهناك ثلاثة طرق بها تتحكم المصلحة الذاتية في المعلم :

لماذا يعلم النبي الكاذب ؟

١ ـــ فقد يعلم الناس طامعاً في الربح . وقد حكى عن الكنيسة التي كان والد توماس كارليل الكاتب المشهور شيخاً بها ، أن خلافات حادة حدثت بين الخادم والكنيسة بسبب الماديات ومرتب الخادم. كان الخادم يطالب بشدة أن ينال أكثر وأكثر ، واحتدم النزاع حتى بلغ حد الخطورة. وأخيرًا وقف والد توماس كارليل وقال «أعطوا للأجير أجرته ودعوه يذهب».

حقاً لا يستطيع إنسان أن يعيش دون مقومات الحياة المادية ، ولا يستطيع أغلب الناس أن يقوموا بأفضل ما لديهم من جهد وعمل وهم في حاجة وحرمان .. لكن الإمتياز الأعظم للتعليم ليس الأجر الذي يناله المعلم، لكن بهجة رؤية العقول والقلوب عند الصغار والشباب والكبار تتفتح للمعرفة، ولإدراك الحق.

٢ ـــ وقد يعلم الناس لينال مقاماً واعتباراً فقط. فالناس أصناف : منهم من يعلم الآخرين ليفيدهم ويعاونهم، ومنهم من يعلم الآخرين ليظهر مهارته وقدرته هو. وقد قال أحدهم مرة : «لا يستطيع أحد أن يظهر براعته، وأن يظهر روعة المسيح، في الوقت عينه».

يروى عن القس ج.ب ستراثرز J-P- Strathers أنه كان مثالاً للقداسة والمقدرة، ولكنه رضي أن يبقى راعياً لكنيسة صغيرة مع أنه كان في إمكانه أن يحتل أعظم وأكبر منبر في إنكلترا. وجاء ذكره على لسان اثنين من المسيحيين كان أحدهما يعرفه شخصياً والآخر لا يعرفه، بل يسمع عن شخصيته فقط. قال الثاني وهو يشيد بخدمة ذلك القسيس : سيكون للقس ستراثرز المقعد الأول في ملكوت الله». فأجابه الأول قائلاً: «إنك لا تعرف الرجل جيداً .. إن تواضعه يجعله يخجل أن يأخذ المقعد الأول في أي مكان».

إن النبي الكاذب يستخدم رسالته ليوجد لنفسه مقاماً واعتباراً. إن غايته هي إظهار نفسه، أما

النبي الحقيقي فرغبته إخفاء ذاته.

٣ ـــ وقد يهتم النبي الكاذب بالتعليم لينقل إلى الناس أفكاره الشخصية. إنه ينشر مبادئه هو، بينما النبي الحقيقي يعلن حق الله . وقد قيل عن أحد الوعاظ إنه أثناء وعظه كان يقف قليلاً، كأنه يستمع إلى صوت معين. فالنبي الحقيقي يستمع إلى الله قبل أن يتكلم مع الناس، إنه لا ينسى أبداً أنه صوت يتكلم بإعلانات الله، ووسيلة بها تأتي النعمة لتغمر حياة البشر. إن واجب المعلم والواعظ أن يقود الناس، لا إلى أفكاره هو، بل إلى الحق الظاهر في يسوع المسيح.

نتائج التعليم الكاذب :

هذه الحقائق كانت عن شخصية النبي وكيف يمكن تمييزها، وننتقل الآن إلى تمييز نتائج خدمة النبي. ما هي ثمار النبي الكاذب في التعليم، أو ما هي نتائج التعليم غير الصحيح؟

١ ـــ يكون التعليم زائفاً عندما تكون نتيجته ديانة تعتمد أساساً على مراعاة المظاهر الخارجية.

كان هذا ما يعيب الكتبة والفريسيين، فبالنسبة لهم كان الدين هو مراعاة الناموس الطقسي. فإذا قام الإنسان بطقوس صحيحة في غسل الأيدي، وإذا حفظ السبت فلم يحمل شيئاً يزيد وزنه على تينتين، ولم يمش يوم السبت مسافة أكثر من المقرر، وإذا كان يراعي بدقة بالغة دفع العشور من كل شيء حتى من خضروات المطبخ. فهو رجل صالح في تقديرهم.

إنه من السهل الخلط بين التدين والممارسات الدينية. فمن الممكن ـــ وهذا يحدث كثيراً ـــ أن نعلم الناس أن التدين معناه الذهاب إلى الكنيسة، وحفظ يوم الرب، ودفع العشور بتدقيق، وقراءة الكتاب بانتظام . هذا كله جميل ولكن قد يعمل الإنسان كل هذه الأمور ويكون بعيداً عن المسيحية بعداً شديداً .. ذلك لأن المسيحية هي إتجاه من القلب نحو الله ونحو الإنسان.

٢ ـــ ويكون التعليم زائفاً عندما تكون نتيجته ديانة كلها حرم ونواهٍ :

إن الديانة المؤسسة على النواهي والحرم مثل : «لا تفعل هذا .. ولا تقرب ذاك .. إلخ» لا يمكن أن تكون ديانة صحيحة. هناك بعض المعلمين يقولون لمن عزموا على السير في طريق المسيح : «من الآن يجب ألا تذهب إلى دور السينما، ولا تدخن، ولا تتزين، ولا تقرأ رواية أو جريدة يوم الأحد. من الآن لا تدخل رواية تمثيلية، ولا تعمل هذا وذاك وذاك...».

إذا كانت المسيحية هي مجرد الإبتعاد عن عمل أشياء معينة، فإنها تصير ديانة سهلة عما هي في الواقع. إن جوهر المسيحية ليس السلبية وعدم عمل شيء، بل إنها تنادي بالعمل والإيجابية. إن مسيحية سلبية لا يمكن أن تتفق أبداً مع محبة الله الإيجابية.

٣ ـــ ويكون التعليم زائفاً عندما تكون نتيجته ديانة سهلة :

فقد كان هناك معلمون كذبة أيام بولس الرسول، نرى صدى تعاليمهم في الأصحاح السادس من رسالة رومية. لقد قال هؤلاء المعلمون لبولس : «هل تؤمن أن نعمة الله هي أعظم شيء في هذا الوجود؟ فيجيب بولس «نعم» ، «وهل تؤمن أن نعمة الله تتسع لغفران كل خطية ؟» فيجيب

«نعم» فيقولون «إذاً — فما دام الأمر كذلك — فلنحى في الخطية حسب هوى قلوبنا، وسوف تكون خطايانا الكثيرة فرصة رائعة لظهور نعمة الله الغنية وفاعليتها».

إن ديانة مثل هذه لهي ديانة ممسوخة، لأنها إهانة لمحبة الله. إن كل تعليم يفصل الصليب عن المسيحية، وكل تعليم يزيل نغمة التحذير من صوت المسيح، وكل تعليم يجعل الدينونة أمراً ثانوياً ويجعل الناس يستخفون بالخطية، هو تعليم كاذب لا مراء في ذلك.

٤ — ويكون التعليم زائفاً عندما يفصل الدين عن الحياة :

فكل تعليم يعزل المسيحي عن الحياة والنشاط العادي في العالم تعليم غير صحيح. ولعل هذا هو الخطأ الذي وقع فيه الرهبان والنساك، فقد اعتقدوا أن الحياة المسيحية تتطلب منهم الاعتزال في الصحراء أو الأديرة لكي يقطعوا علاقتهم بالحياة الدنيوية المليئة بالتجارب، وظنوا أن الحياة المسيحية الصحيحة تستلزم عدم العيشة في العالم.

لكن يسوع وهو يصلي لأجل تلاميذه طلب قائلاً : «لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير» (يوحنا١٧:١٥).

فلا يمكن أن يكون الجندي صالحاً ونافعاً إذا هرب من الميدان، والمسيحي هو جندي لربه يسوع المسيح. كيف يمكن للخميرة أن تعمل عملها إذا رفضت أن توضع في داخل العجين؟ وأي قيمة تكون للشهادة إذا لم تكن شهادة لغير المؤمنين. لقد أطلق أحدهم على أسلوب من يعتزلون حياة العالم لقب النظرة إلى الحياة من الشرفة (البلكون) — هذا الأسلوب خطأ لأن المسيحي ليس متفرجاً من الشرفة على أحداث الحياة، بل هو جندي يصارع ويقاتل في معركة الحياة.

٥ — ويكون التعليم زائفاً إذا كانت نتيجته ديانة منتفخة متكبرة تشجع الإنفصالية والإنقسام :

إن التعليم الذي يشجع الإنسان على أن يعتزل عن جماعة المسيحيين ويجعل لنفسه جماعة صغيرة تعتبر أنها وحدها على حق، وتتهم الآخرين أنهم خطاة هراطقة، لهو تعليم فاسد لا شك في ذلك. إن وظيفة الدين ليست أن يبنى حواجز للإنقسام بين الناس، بل أن يحطم هذه الحواجز. ولقد كان يسوع يحلم برعية واحدة وراعٍ واحد (يوحنا١٠:١٦) فالدين واسطة لتقريب الناس بعضهم من بعض، في أسرة واحدة ، لا لتفريقهم إلى جماعات متشاحنة متضاربة.

إن التعليم الذي يعلن أن كنيسة بالذات أو طائفة بالذات تحتكر نعمة الله، هذا تعليم فاسد ، لأن يسوع المسيح ليس عامل انقسام، بل هو وسيط وحدة واتحاد.

كشف النقاب عن الخداع

(متى ٧:٢١ — ٢٣)

تظهر هنا حقيقة تدعو إلى التعجب والدهشة، فإن المسيح يعترف أن كثيرين من الأنبياء الكذبة سينطقون بكلام عظيم وسيعملون أعمالاً رائعة. سيقولون له «أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا

شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة».

وقد اختلف الشراح في تفسير هذه العبارات. فقال البعض إنه يمكن للإنسان أن يتنبأ وهو بعيد عن حياة الإيمان والطاعة. فقد تنبأ بلعام وقيافا رئيس الكهنة، وتنبأ شاول فصار بين الأنبياء... لكن هذا لم يخلصهم ... فهناك من يتنبأون بإسم يسوع لغرض في نفوسهم، ولكن يسوع لم يرسلهم.

وهناك من يخرجون الشياطين باسم يسوع أيضاً دون أن تكون لهم حياة الإيمان، فقد أخرج يهوذا الشياطين، وكان الشيطان في قلبه، وكان ابن الهلاك. وهناك مواهب كثيرة تظهر للناس أنها من الله، فهناك من يتكلمون بألسنة الناس والملائكة، لكن ليست لهم هبة الله العظيمة : المحبة.

كما قال بعض الشراح إن العالم القديم كان يصف كل شفاء عجيب أنه معجزة، وكان للناس فكرة خاصة عن المرض أنه من عمل الشيطان. وكان كثيرون يعتقدون أنهم قد صاروا فريسة للأرواح النجسة عندما يصابون بالمرض. ويقول هؤلاء الشراح إنه عن طريق الإيحاء بإخراج الأرواح الشريرة، كان الناس يبرأون من بعض الأمراض، وهذا ما كان يعمله بعض المعلمين لشفاء الناس. ويستشهدون على ذلك بأن كثيرين من الوثنيين كانوا يقومون بمعجزات من هذا النوع. وقد اعترف بها آباء الكنيسة والقديسون مثل أوريجانوس الذي قال في معرض الحديث عن معجزات مشابهة قام بها اسكلابيوس وأبولو : لم ينكر أوريجانوس قيامهما بالمعجزات بل قال في كتابه (الحجج ضد سيلس جزء ٣:٢٢) «إن هذه القوة للشفاء في ذاتها ليست خيرة أو شريرة، لكنها في متناول الأشرار والصالحين على السواء».

على أننا لا نتعرض هنا للبحث في موضوع الأرواح الشريرة فإنه في حد ذاته موضوع خلاف ونقاش كثير، ولكننا نستخلص من هذه العبارات التي نطق بها يسوع الحقائق التالية :

١ ــ إن الطريق الصحيح لإظهار إخلاص الإنسان هو طاعته لله، فإن صورة التقوى وإنكار قوتها لا تنفع شيئاً. والمظاهر الخارجية أو الكلام الكثير، أو الأعمال الخارقة لا تغني عن الطاعة اليومية، وعمل مشيئة الله. إن برهان المحبة هو الطاعة.

٢ ــ إن يوم الدينونة سيكشف الإنسان على حقيقته، فذلك الذي وضع الشريعة، وأعلن إرادته، سيكون في ذلك اليوم قاضياً يحكم على الإنسان. ويمكن للإنسان أن يظل في صورة الخداع وقتاً من الزمان، لكن النقاب سيكشف عن الحقيقة في يوم من الأيام. إننا قد نخدع الناس، لكننا لا نستطيع أن نخدع الله «أنت عرفت جلوسي وقيامي. فهمت فكري من بعيد» (مز١٣٩:٢).

في ذلك اليوم لن ينفع الكلام بل سيسمع المخادعون صوت عقاب صارم «إني لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يافاعلي الإثم» ذلك لأنه «يعلم الرب الذين له».

الأساس الصحيح الوحيد *

(متى ٧:٢٤ ــ ٢٧)

بعد أن ألقى السيد المسيح عظته، أراد أن يبين لتلاميذه أن سماعهم لا يعني شيئاً إلا إذا عملوا بما سمعوا.

الفخر ليس في الذهاب إلى بيت الله، بل في عمل أعمال الله. والناس يقيسون نجاح الخدمة أحياناً بعدد الذين يحضرون ... لكن كم من الحاضرين لا يسمعون، وكم من الذين يسمعون لا يعملون.

فالنهضة الحقيقية هي التي ينتج عنها بناء روحي ثابت لا يتزعزع، ولهذا شبه المسيح عمل التعليم بالبناء على الصخر.

١ ــ رجلان متشابهان ظاهراً

فالذين يحضرون إلى الكنائس والمعابد، يتشابهون حسب الظاهر ويكون من الصعب التفريق بينهم .. لكن النتيجة تختلف.

هذان الرجلان انشغلاً إنشغالاً واحداً .. كل منهما اقتنع بلزوم بناء بيت لحماية أسرته من المطر والسيول والرياح .. أو في كلمة واحدة، للشعور بالأمان.

وكل منهما عزم على البناء، وأخرج فكرته إلى حيز التنفيذ واستطاعا بمهارتهما في البناء أن يواظبا إلى النهاية فلم يقفا في منتصف الطريق .. وصار البناء عالياً شامخاً...

هذه صورة للناس المترددين على الكنائس، الذين يشعرون بلزوم الخلاص ويعزمون أن يسلموا حياتهم للمسيح ... يدرسون الكتاب ويستمرون في ذلك ويعتقدون أنهم مخلصون.

٢ ــ الفرق بين الإثنين :

واحد بنى أسرع من الثاني. واحد حفر ليصل إلى الصخر فيبني عليه، والثاني أسرع في البناء على مسطح رملي دون أساس.

إن بعض الناس يعلنون في سرعة العاطفة وحماستها أنهم تجددوا، لكن الكلمة لا يكون لها أصل في نفوسهم، لذلك يصير إيمانهم كالنبات الذي ينمو سريعاً ويجف سريعاً.

واحد بذل مجهوداً أشق من الثاني. فالبناء على الرمل تم سريعاً دون عرق وتعب وجهاد في الحفر للوصول إلى الأساس الحجري، بينما الآخر بذل جهداً كبيراً. إن الحياة المسيحية لها تكاليفها.. إنها ليست طريقاً سهلاً رخيصاً.. بل هي طريق ضيق.. فيه توبة ودموع وتضحية وخدمة.

لكن النتيجة ظهرت حالاً. فأحد البيتين احتفظ بجماله، والثاني تعرض للكسور والشروخ ..

---

* هذا الشرح للمترجم .

عندما هبط جزء من الأرض. إن الثغرات في حياة من لا يؤمن إيماناً عميقاً حقيقياً، تصيب حياته بالكسور والشروخ والإهتزازات.

ولعلنا نلاحظ أن البيت المؤسس على الرمل، كلما زاد إرتفاعاً، كان البناء صعباً وخطراً. إذ يكون معرضاً للسقوط. هكذا المؤمن السطحي، كلما ظل في الكنيسة ، كان صعباً عليه أن يقدم تضحيات حقيقية لأجل المسيح، وذلك لأن محبة المسيح لم تملأ قلبه ... إذا قام بخدمة كان متكلفاً ضجراً، وإذا وعظ كان الكلام غريباً عليه لأنه لم يختبر عملياً عمق الإيمان. وكلما استمر زادت مشكلاته ومتاعبه.

إن السر ليس في المظاهر، بل في الشعور العميق بالخطية، والحاجة إلى يسوع في أعماق حياتنا، فيستقر الإيمان في القلب، وينمو الإنسان في مدارج القداسة.

٣ ــ الأساسات :

أساس صخري، والآخر رملي.

الصخر كتلة واحدة والرمل متفرق

الباني على الصخر يبني حياته على تعليم المسيح كمجموعة واحدة مرتبطة، قارنين الروحيات بالروحيات.

والباني على الرمل يبني حياته على تعاليم مفككة مجزأة .. يأخذ جزءاً من الحق ويترك آخر.

الصخر له أساس، والرمل لا أساس له.

واحد يسمع ويقرأ ويفهم ــ والثاني يسمع ويفهم ويعمل.

الأساس الحقيقي هو الطاعة .. فالطاعة معناها الاستماع والعمل.. من يسمع أقوالي ويعمل بها.

إن التدريب على الطاعة أعظم شيء في الحياة.

حدث في إنكلترا أن عوقب بعض البحارة عقاباً شديداً لأنهم لم يطيعوا التعلميات طاعة كاملة. وكتبت الجرائد أن البحرية كانت قاسية مع هؤلاء البحارة المكافحين والمجاهدين، وأنها أخذتهم بشدة على هفوة بسيطة في عدم الطاعة.

ولكن أحد البحارة القدامى قال إن أي عقاب لا يكون قاسياً بالنسبة لمن لا يطيع في البحر. وذكر أنه في أيام خدمته كان يخدم في زورق كان يجر مركباً آخر. وكان الزورق مربوطاً في المركب بسلسلة طويلة سميكة وحدثت عاصفة شديدة، وسمع البحارة في الزورق صوت القائد يأمرهم بالانبطاح .. وفي لحظة انبطح الجميع على وجوههم دون أن يدركوا السبب .. وفي اللحظة عينها سمعوا صوت السلسلة التي كانت تربط الزورق بالمركب تنقطع، وتجوز فوق الزورق كأنها سيف قاطع. ولو أن واحداً من بحارة الزورق كان قد توانى لحظة عن الانبطاح، لكان في عداد الأموات.

إن عدم الطاعة معناه الموت..

وهذا هو نوع الطاعة التي يريدها المسيح، لتكون أساساً لحياتنا وعلاقتنا معه.

الصخر يقاوم، والرمل ينجرف

وهكذا نرى أهمية الثبات، لكي لا نكون أطفالاً محمولين بكل ريح تعليم.

٤ ــ البيتان في التجربة :

نزل المطر ــ فاضت الأنهار ــ هبت الرياح.

والمطر قد يشير إلى التجارب السماوية التي لا بد أن يدخلها الإنسان فيها : كالموت ، والفقر والمرض .

والأنهار قد تشير إلى التجارب الأرضية ــ مثل اضطهادات العالم، والتعالم الفاسدة، وحيل الناس، ومكرهم الذي يقود البشر إلى طريق الضلال إذ يتغلغل تحت الرمال إذا كانت حياة الإنسان بلا أساس.

والرياح قد تشير إلى التجارب الشيطانية الشهوانية لروح الإنسان .

هذه التجارب تعترض الجميع.

لكن البيت المؤسس على الصخر ــ على التعليم الحقيقي الكامل، وعلى الطاعة التامة للسيد، يستطيع أن يصمد أمامها.

أما المؤسس على الرمل فيسقط سقوطاً عظيماً.

البناء يتهدم.

ويضر الساكنين فيه.

إن من يؤسس حياته على المظاهر يضر نفسه ويضر غيره .. لكن الأمان هو في طريق الإيمان ــ طريق الطاعة.

الأصحاح الثامن

المحبة تعمل

يعتبر متى أكثر كتاب البشائر نظاماً وترتيباً، فهو لا يكتب مواد بشارته بغير نظام. فإذا رأيناه يكتب حادثة بعد أخرى بنظام خاص، كان لا بد من وجود سبب قوي لذلك.

ونحن نراه يكتب لنا في الأصحاحت ٥،٦،٧ من بشارته، العظة على الجبل، ويروي فيها أقوال يسوع، وها نحن نراه في الأصحاح الثامن يروى لنا أعمال يسوع. في الأصحاحات الخامس والسادس والسابع نرى الحكمة الإلهية في الأقوال، وفي الأصحاح الثامن نرى المحبة الإلهية في الأعمال. فالأصحاح الثامن هو أصحاح المعجزات . فلننظر نظرة عامة إلى هذه المعجزات قبل أن نتناولها بالتفصيل.

هذا الأصحاح يذكر لنا سبع معجزات.

١ ــ ففي الأعداد (١ــ٤) نقرأ عن شفاء الأبرص. وهنا نرى يسوع يلمس المنبوذين المطرودين. فقد كان الأبرص طريداً من مجتمع البشر. ويكفي لمسه أو حتى الإقتراب منه، ليجعل الإنسان مخالفًا للشريعة. هنا نرى الإنسان الذي أبعده الناس عنهم، تحيطه وتضمه محبة الله بشفقة ورحمة.

٢ ــ وفي الأعداد (٥ــ١٣) نقرأ عن شفاء غلام قائد المئة. وقد كان قائد المئة هذا أممياً وثنياً، لذلك فاليهودي المدقق كان يعتقد أنه مجرد وقود لنار جهنم. وقد كان يعمل في حكومة أجنبية، وقوة محتلة، لذلك فاليهودي المتعصب لقوميته كان يعتبره مستحقاً للقتل لا للمعاونة. وقد كان غلامه عبداً، وفي عرف الناس في ذلك الوقت كان العبد مجرد متاع لصاحبه.

لذلك نرى في هذه المعجزة محبة الله تمتد لتعين الرجل الذي يكرهه الجميع، والعبد الذي يحتقره الكل .

٣ ــ وفي العددين (١٤،١٥) نقرأ عن شفاء حماة بطرس. وقد حدثت هذه المعجزة في منزل صغير حقير في فلسطين. لم يكن هناك جمهور لتجتذب بصره المعجزة، و لم تكن هناك أجهزة للدعاية .. فلم يكن حاضراً سوى يسوع وأفراد الأسرة فقط. وهنا نرى المحبة اللامتناهية للإله العظيم خالق الأكوان، تظهر في قوتها وعطفها لأسرة صغيرة.

٤ ــ وفي العددين (١٦،١٧) نرى يسوع يشفي جميع المرضى الذين طرقوا بابه في المساء، فنرى كيف تعم محبة الله الجميع. فلم يكن يسوع يعتبره تطفلاً أو إزعاجاً أن يطرق الناس بابه في كل وقت من النهار والليل، و لم تكن لديه ساعات محددة للعمل وساعات محددة للراحة ... فقد كان بابه وقلبه مفتوحين لكل إنسان في كل وقت .. ليجد كل إنسان معونة صادقة من محبة الله.

٥ ــ وفي الأعداد من (١٨:٢٢) نقرأ عن أحد الكتبة يتقدم ليتبع المسيح. وحسب الظاهر يبدو هذا الجزء غريباً على باقي الأصحاح، إذ لا تذكر فيه معجزة ما، لكن الحقيقة أننا هنا أمام معجزة

من معجزاته الشخصية.. فإن تأثر أحد الكتبة بشخصية المسيح تأثراً يحفزه على إتباعه، لهي معجزة ولا أقل من ذلك. فلقد نسي هذا الكاتب تكريسه لناموس الكتبة، ومع أن يسوع عارض هذا الناموس وخالفه في نقاط كثيرة، فإن الكاتب لم يعتبر يسوع عدواً بل صديقاً، ولم ينظر إليه كخصم بل كسيد يريد أن يتبعه. لقد رأى في يسوع مجداً وسمواً لم يره في إنسان من قبل، فحدثت المعجزة في قلبه، وهرع إلى يسوع يريد أن يتبعه.

٦ــ وفي الأعداد من (٢٣ ــ ٢٧) نرى معجزة إسكات العاصفة. وهنا نرى يسوع يتعامل مع الأمواج التي تهدد بإغراق حياة الإنسان. إننا نرى محبة الله تعيد السلام والوقار إلى عالم القلق والارتباك.

٧ ــ وفي الأعداد من (٢٨ــ٣٤) نقرأ عن شفاء مجنوني كورة الجرجسيين. وفيها نرى قوة الله تتعامل مع قوة الشيطان وتغلبه، فنرى صلاح الله يغزو شرور الأرض. ومحبة الله تحارب ضد مصائب الشر ومتاعبه، فتنتصر المحبة وتطرد الشر وتمنعه من إهلاك حياة البشر.

تطهير الأبرص

(متى ١:٨ ــ ٤)

الموت البطيء

بالنسبة للعالم القديم كان داء البرص أخطر وأشنع الأمراض، فلم يكن هناك مرض يحطم حياة الإنسان ويحقرها مثل هذا المرض. وكان المرض على أنواع ودرجات.

فمن أنواعه ما يبدأ بأورام صغيرة في الجسد، وتبدأ تتقرح، وتتقيح، ثم تسقط حواجب العين، وتجحظ العيون، وتتقرح الأوتار الصوتية، ويصير الصوت خشناً أجش، ثم تتقرح اليدان والقدمان، وهكذا يصير الإنسان مجموعة من القروح تستمر نحو تسع سنوات يعقبها ضعف عقلي، وانحلال في الجسم وغيبوبة تنتهي بالموت.

وقد تبدأ بعض أنواع البرص بفقدان الإحساس في بعض أجزاء الجسم ثم تتأثر خلايا الأعصاب، وتضعف العضلات وتتقلص أربطة العضلات حتى تصير الأيدي مثل المخالب. ويعقب ذلك تقرح الأيدي والأقدام... ثم تبدأ الأصابع والأظفار تسقط تدريجياً، وقد تستمر هذه الحالة نحو عشرين أو ثلاثين عاماً فيها يموت الإنسان تدريجياً وفي بطء.

كانت الحالة الجسدية للمصابين بالبرص شنيعة، لكن معاملة الناس لهم جعلت الحالة أفظع. ويروي المؤرخ المشهور يوسيفوس أن البرص كانوا يعاملون كأنهم فعلاً أموات. فعندما يظهر مرض البرص فيهم كانوا يعزلون عن الناس فوراً. وتذكر شريعة اللاويين « أن الأبرص الذي فيه الضربة تكون ثيابه مشقوقة ورأسه يكون مكشوفاً. ويغطي شاربيه وينادي نجس نجس. كل الأيام التي تكون الضربة فيه يكون نجساً. إنه نجس. يقيم وحده، خارج المحلة يكون مقامه» (لاويين ١٣:٤٥،٤٦).

وفي العصور الوسطى كان رجال الدين يصلون صلاة الموت على كل من يصاب بالبرص.

وفي أيام المسيح في فلسطين كان الأبرص يعزل خارج مدينة أورشليم وخارج كل مدينة لها أسوار. وكان للمصابين بالبرص مكان معزول في المجمع. وقد وضع اليهود إحدى وستين حالة يكون فيها الإتصال بالمصابين بالبرص سبباً للنجاسة .. فلمس الأبرص مثل لمس الميت. وإذا أدخل الأبرص رأسه في بيت، صار البيت نجساً من الأرضية إلى السقف. ولا يجوز تحية الأبرص ولو في مكان مكشوف، ولا يجوز الإقتراب من الأبرص لمسافة أقل من أربعة أذرع. وإذا كانت الريح تهب من ناحية إنسان أبرص وجب أن يقف الإنسان بعيداً عنه مسافة لا تقل عن مائة ذراع. وقد قال أحد الربيين أنه يرفض أن يأكل بيضة مشتراة من شارع مر به رجل أبرص، وكان الربيون يفتخرون بأنهم يهربون من المصابين بالبرص، أو يرجمونهم بالحجارة لكي يبتعدوا عنهم.

هكذا كان حال الرجل الذي لمسه يسوع. وبالنسبة لليهود تكون عبارة «ومد يده ولمسه» هي أغرب عبارة في كل العهد الجديد.

عطف يفوق على الناموس :

في قصة شفاء الأبرص نرى أمرين : اقتراب الأبرص من المسيح، وموقف المسيح منه.

١ ــ فقد اقترب الأبرص من يسوع بثقة. لم يكن يخالجه شك في أن يسوع إذا أراد يقدر أن يشفيه. هنا نرى الإيمان.

لم يكن أي أبرص يجرؤ أن يقترب من يهودي لئلا يرجم. لكن ذلك الرجل اقترب من يسوع، لقد وثق تماماً أن يسوع يرحب به، بينما يطرده الجميع. وكل إنسان يستطيع أن يقترب إلى يسوع مهما كانت نجاسته.

لقد وثق تماماً في قدرة المسيح، فقد كان مرض البرص هو المرض الوحيد الذي ليس له علاج عند الربيين، لكن الرجل آمن أن يسوع يقدر أن يفعل ما لا يقدر الآخرون عليه.

٢ ــ وقد جاء الرجل إلى يسوع متواضعاً. إنه لم يطالب بالشفاء لكنه قال «إن أردت تقدر أن تطهرني» وكأنه يقول : « أنا أعلم أنه لا قيمة لي، وأن الآخرين سيهربون مني، وليس لي شيء أطالبك به، لكنك إذا أردت تقدر أن تطهرني ».

إن القلب المتواضع الذي يعرف حاجته، هو الذي يجد طريقه إلى يسوع.

٣ ــ وقد جاء الأبرص إلى يسوع باحترام. فالكتاب يقول «قد جاء وسجد له» والفعل المستخدم في اللغة اليونانية لا يصف الإحترام العادي بل يستخدم فقط عند الإقتراب إلى الآلهة .. إنه يصف حالة الإنسان عند عبادة الله. لقد علم ذلك الأبرص أنه أمام يسوع في حضرة الله...

أما موقف يسوع منه فقد كان أولاً موقف الشفقة. كانت الشريعة تقضي بعدم لمس هذا الرجل .. لكن يسوع مد يده ولمسه.

وقد كانت المعلومات الطبية توضح أن لمس هذا المريض قد يؤدي إلى خطر كبير، لكن يسوع شعر بالتزام واحد وهو الواجب، وشعر بشريعة واحدة هي شريعة المحبة فصار هذا الواجب وهذه المحبة أقوى من كل شعور آخر.

فالطبيب الصالح لا يشمئز أو يتقزز من المريض مهما كانت قذارة مرضه، بل ينظر إليه كمخلوق إنساني يحتاج إلى معونته ورعايته. وهكذا نحن بالنسبة لله .. إنه لا ينظر إلينا في شناعة خطيتنا فيبتعد عنا، بل يرى فينا أطفالاً في حاجة إلى رعايته ومعونته وخلاصه.

التحفظ المعقول :

ومع أن يسوع تحدى الشريعة والعرف اللذين يقضيان بعدم لمس الأبرص ولمسه، ولكنه لم ينس واجب التحفظ والحرص من ناحية أخرى.

١ ــ فقد طلب من الرجل ألا يقول لأحد عن شفائه. وليست هذه هي المرة الوحيدة التي يطلب فيها يسوع عدم الكلام في مثل هذه المناسبات، فقد تكرر هذا الأمر مراراً (أنظر متى٩:٣٠، ١٢:١٦و١٧:٩ ومرقس١: ٣٤و٣٥و٤٣ و٧:٣٦ و٨:٢٦).

وقد نتساءل لماذا يطالب السيد المسيح الناس بالسكوت. والجواب أن فلسطين كانت دولة محتلة، واليهود جنس متكبر، لم ينسوا أبداً أنهم شعب الله المختار، وكانوا يحلمون باليوم الذي يأتيهم فيه المنقذ الإلهي. لكنهم كانوا يتوقعون هذا المنقذ من وجهة النظر السياحية والحربية .. لذلك كانت فلسطين أكثر أماكن العالم قابلية للإشتعال بالثورة.. بل إنها عاشت في ثورات متعاقبة .. فكانت تنساق لزعيم وراء زعيم، ولفترة قصيرة يحظى الزعيم بلحظات مجد، ثم تقضي عليه الدولة الرومانية.

فلو أن الرجل الأبرص ذهب وأذاع الخبر من مكان إلى مكان، لأتى الناس المتحمسون لينصبوا هذا الزعيم الجديد ذا القوة الخارقة ليكون قائداً لهم، ويبدأوا ثورة دموية أخرى لا يريدها المسيح ولا يرضاها .. لقد كان المسيح يريد أن يهذب عقولهم، ويغير أفكارهم ... لقد أرادهم أن يروا أن قوته في المحبة لا في السلاح .. لقد أراد أن يعمل في الخفاء حتى يعرف الناس من هو .. وما هي رسالته الصحيحة، رسالة الحب لا الدمار .. لقد طلب المسيح من الناس أن يسكتوا فلا يذيعوا معجزاته لئلا يسيء الناس استخدامها لتحقيق أغراضهم هم، لا مقاصد الله... لقد أرادهم أن يسكتوا حتى يعرفوا ما يمكن أن يقولوه عنه.

٢ ــ ثم أمر المسيح الرجل الأبرص أن يذهب إلى الكهنة ليقدم القربان حسب الشريعة ، ويأخذ شهادة أنه شفي . فقد كان اليهود يخافون البرص حتى أنهم اشترطوا طقوساً معينة للتأكد من الشفاء من المرض، وصفها سفر اللاويين (ص١٤) فيجب أن يفحص الكاهن المريض أولاً. «فإن رأى الكاهن وإذا ضربة البرص قد برئت من الأبرص، يأمر الكاهن أن يؤخذ للتطهر عصفوران حيان طاهران وخشب أرز وقرمز وزوفا. ويأمر الكاهن أن يذبح العصفور الواحد في إناء خزف على ماء حي. أما العصفور الحي فيأخذه مع خشب الأرز والقرمز والزوفا ويغمسها مع العصفور الحي في دم العصفور المذبوح على الماء الحي. وينضح على المتطهر من البرص سبع مرات فيطهره، ثم

يطلق العصفور الحي على وجه الصحراء. فيغسل المتطهر ثيابه ويحلق كل شعره ويستحم بماء فيطهر. ثم يدخل المحلة لكي يقيم خارج خيمته سبعة أيام، وفي اليوم السابع يحلق كل شعره، رأسه ولحيته وحواجب عينيه وجميع شعره يحلق. ويغسل ثيابه ويرحض جسده بماء فيطهر. ثم في اليوم الثامن يأخذ خروفين صحيحين ونعجة واحدة حولية صحيحة وثلاثة أعشار دقيق تقدمة ملتوتة بزيت ولج زيت . فيوقف الكاهن المطهر الإنسان المتطهر وإياها أمام الرب لدى باب خيمة الإجتماع، ثم يأخذ الكاهن الخروف الواحد ويقربه ذبيحة اثم... ويأخذ الكاهن من دم ذبيحة الاثم ويجعل الكاهن على شحمة أذن المتطهر اليمنى وعلى إبهام يده اليمنى وعلى إبهام رجله اليمنى...».

وهكذا تسير طقوس شريعة التطهير من البرص، وينال شهادة من الكاهن لإثبات شفائه.

لقد أمر يسوع الأبرص أن يمر في كل هذه الطقوس .. وكأن يسوع يطلب من المريض أن لا يهمل الأساليب المتبعة لاكتمال العلاج والتطهير في ذلك الوقت.

إننا لا ننال معجزات بسبب إهمال الوسائل العادية للعلاج ، ولكن معجزة الله تحدث عندما يعمل الإنسان ما في استطاعته أن يعمل ... فالمعجزة لن تحدث للكسالى العاطلين، الخاملين ، ولكنها تحدث للذين يعملون واجبهم بإخلاص ويطلبون من الله التدخل لمباركة حياتهم وإنقاذها.

إن نعمة الله لا توهب للمتواكلين .. بل للعاملين المتكلين عليه .

شفاء غلام قائد المئة

(متى ٨:٥ ـــ ١٣)

على الرغم من الإشارة العابرة، والظهور القصير لقائد المئة هذا في مسرح العهد الجديد، إلا أن قصته من أمتع القصص في الإنجيل.

وربما كان من المناسب أن نتأمل قليلاً في وظيفة «قائد مئة»، كما كانت في تلك الأيام. كان الفيلق الواحد في الجيش الروماني يتكون من ستة الآف جندي، وكان ينقسم إلى ستين فرقة في كل فرقة مائة جندي على رأسهم ضابط برتبة قائد مئة .... وقد كان نظام الجيش الروماني يعتمد أساساً على قواد المئة هؤلاء في الحرب والسلام، فهم بمثابة الروابط التي تربط الجيش الروماني معاً. وقد وصف أحد الرومان (بولييبوس Polybius) ما ينبغي أن يكون في قواد المئات من صفات فقال: «ينبغي أن يكونوا شجعاناً غير مندفعين للمخاطرة، يعتمد عليهم، حازمين، لا يتسرعون في القتال، ولكن إذا استدعى الأمر دافعوا عن مواقعهم حتى الموت».

ومن الملاحظ أن جميع قواد المئات الذين ذكرهم العهد الجديد، ارتبط ذكرهم بالشرف والنبل. فقد ذكر العهد الجديد عن قائد المئة الذى اعترف بيسوع أنه ابن الله عند الصليب، وكرنيليوس قائد المئة الذي كان أول من اعتنق المسيحية من الأمم، وقائد المئة الذي اكتشف أن بولس كان روماني الجنسية وأنقذه من غضب الجماهير الثائرة، وقائد المئة الذي أخبروه أن اليهود دبروا مكيدة

لقتل بولس في الطريق من أورشليم إلى قيصرية، واتخذ هذا القائد إجراءات لإفساد هذه المكيدة، وقائد المئة الذي عهد إليه فيلكس الوالي أن يعتني ببولس، وقائد المئة الذي كان مع بولس في رحلته الأخيرة إلى روما، والذي عامل بولس بلطف وقبل قيادته للذين في السفينة عندما هددتها العاصفة.

(متى٣٧:٣٤ وأعمال١٠:٢٢، ٢٦ و١٧:٢٣ و٢٤:٢٣ و٢٣:٢٤ و٤٣:٢٧).

نأتي الآن لشرح المعجزة :

١ ــ طلبة رجل صالح :

لكن شيئاً يبدو أكثر جمالاً في هذا القائد الذي في كفر ناحوم، وذلك هو كيفية معاملته ونظرته لغلامه أو خادمه. لا شك أن ذلك الخادم كان عبداً لقائد المئة. وكان مريضاً، واهتم سيده أن يعمل كل ما يستطيعه في سبيل شفائه .. كان هذا الاتجاه يخالف تماماً الاتجاه الطبيعي للسيد نحو عبده في ذلك الزمان . ففي الدولة الرومانية كان العبيد شيئاً لا يستحق الاهتمام على الإطلاق، ولا يهتم أحد بهم إذا تألموا أو مرضوا أو ماتوا.

وقد كتب أرسطو الفيلسوف عن الصداقات الممكنة في الحياة فقال :

«لا يمكن أن نفكر في مشاعر الصداقة أو العدالة تجاه الجماد، ولا نحو الخيول والثيران، و لا نحو العبيد باعتبارهم عبيداً، فلا يوجد شيء مشترك بين السيد والعبد، و ما العبد إلا آلة متحركة حية، كما أن الآلة هي عبد جامد».

هذه كانت نظرة العالم القديم إلى العبيد، فلم يكن لهم أية حقوق على الإطلاق، وكان السيد يملك حق قتل العبد إذا شاء.

وقد قسم فارو Varro الكاتب الروماني أدوات الزراعة إلى ثلاثة أقسام :

(١) الأدوات الناطقة وهي العبيد.
(٢) الأدوات غير الناطقة وهي البهائم.
(٣) الأدوات الجامدة وهي الآلات.

وكان من عادة الرومان أن يبيعوا العبد إذا مرض، أو على الأقل يهملونه.

لذلك كان من الغريب أن يظهر قائد المئة عاطفة الحب والاهتمام نحو هذا العبد .. ويأتي بنفسه إلى يسوع طالباً له الشفاء. ولعل هذا الروح نفسه هو الذي جعل طلبة القائد موضع تقدير المسيح، فإن الإنسان الذي يهتم بغيره يكون دائماً قريباً من قلب المسيح.

٢ ــ مفتاح البركة :

لم يكن هذا الشعور وحده هو الغريب في قائد المئة، لكنه كان يمتلك إيماناً ممتازاً فذاً. كان محتاجاً لقوة المسيح ليشفي غلامه، لكن مشكلة ما كانت في الطريق، فقد كان هو أممياً وثنياً وكان المسيح يهودياً ــ وحسب قانون اليهود لا يجوز لليهودي أن يدخل بيت أممي، لأن مساكن الأمم كانت

كلها نجسة عند اليهود حسب ما ذكرت المشنا (التقاليد اليهودية).

وقد ذكر في بعض الترجمات أن جواب المسيح على طلب قائد المئة كان في صيغة السؤال : هل أنا آتى وأشفيه ؟ أو أنا آتي وأشفيه ؟ — ولم يكن معنى هذا أن تقاليد اليهود عن النجاسة كانت موضع اهتمام من المسيح ، ولكن إذا صح هذا ، وكان السيد المسيح قد سأل هذا السؤال ، فهو إنما ليمتحن مقدار إيمان قائد المئة.

وهنا لمع هذا الإيمان ووصل إلى قمته . فقد كان بصفته العسكرية يعلم أن الأوامر العسكرية ينبغي أن تطاع فوراً وبلا مناقشة . لذلك قال للسيد المسيح ، إنه لا يطلب منه مشقة الذهاب إلى بيته ، فهو يشعر بعدم استحقاقه أن يدخل يسوع تحت سقفه ، وكل ما يطلبه أن يقول السيد المسيح كلمة واحدة ، فتطيعه جميع القوات وتشفى المريض .. هنا ظهر الإيمان الذي جعله يسوع مفتاحاً للبركة وللخير.

استخدم يسوع صورة يهودية واضحة وشهيرة . فقد اعتقد اليهود أنه عندما يأتي المسيا سوف تقام وليمة عظيمة فيها يجلس اليهود جميعهم ، وفيها يذبح بهيموث أعظم الحيوانات البرية ولوياثان أعظم الحيونات البحرية ، ليكونوا طعاماً لجميع من يحضرون هذه الوليمة.

كان اليهود يحلمون بهذه الوليمة ، ولكن لم يخطر ببالهم على الإطلاق أن أممياً واحداً يمكن أن يكون له نصيب فيها ، وقد اعتقدوا أنه في ذلك الوقت تكون جميع الأمم قد بادت وأمحت ، بناء على تفسير خاطيء لما جاء في إشعياء ١٢:٦٠ «لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد وخراباً تخرب الأمم».

لكن يسوع يقول هنا إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ليكونوا في هذه الوليمة ، وإن كثيرين من أبناء الملكوت أي اليهود سيحرمون منها. وهو يسميهم أبناء الملكوت حسب التعبير الذي يصفون به أنفسهم لأن الابن هو الوارث، وهم أبناء إبراهيم واسحق ويعقوب ، لكنهم سيحرمون من حق ميراث الملكوت.

كان هذا أمراً غريباً في نظر اليهود، فإن الأمم الذين كانوا يعتقدون أن نصيبهم هو الظلام والنار وجهنم سيجلسون في وليمة الملكوت حسب قول المسيح، بينما أبناء الملكوت يطرحون في الظلمة الخارجية.

لقد كان يسوع يريد أن يعلم اليهود أن مفتاح باب ملكوت الله، والوجود في حضرته، ليس في جنس معين أو قومية معينة، ولكنه الإيمان. كان اليهودي يظن أنه من الشعب المختار، ولذلك فهو عزيز لدى الله، وأن هذا كافٍ لخلاصه، لكن يسوع بيَّن بوضوح أن الشعب المختار هو الشعب المؤمن ، وأن المسيح ليس ملكاً لشعب معين ، بل هو حق لكل إنسان من كل أمة ما دام في قلبه الإيمان.

٣ — القوة التي تلاشى المسافات :

ولقد نطق يسوع بالكلمة التي كان يطلبها قائد المئة. قال له «اذهب وكما آمنت ليكن لك».

وشفى الغلام في تلك الساعة.

هنا نرى القوة التي تلاشي المسافات ، وتعمل عملها على بعد. كان الناس يظنون أن قدرة يسوع على الشفاء قاصرة على لقائه مع المريض، وحديثه معه، وتأثيره فيه ، لكننا هنا نرى القوة العجيبة الخارقة التي تفعل بسلطان رغم حواجز المسافات.

لقد حاول الناس والعلماء في العصر الحديث أن يدرسوا بعض الظواهر الغريبة في هذا الكون، وأقصى ما استطاعوا أن يصلوا إليه هو أن هناك قدرة لبعض العقول أن تلتقط الصور التي تحدث في أماكن بعيدة، أو أن تنقل بعض الأفكار إلى آخرين .. ولم يستطع العلماء أن يدركوا سر هذه الظواهر أو نوع الطريق العجيب الذي تسير فيه الصور والأفكار، وبعضهم افترض وجود حاسة سادسة عند بعض الناس، وآخرون أسموا هذه القوة باسم «الإدراك عن بعد» أو التليباثي « Telepathy » لكن هذه كلها مجرد افتراضات .. وحتى لو كانت صحيحة، فإنها مجرد عملية إدراك ونقل أفكار.

أما قوة يسوع ، فهي قوة خلاقة فعالة ، لا تدرك عن بعد فحسب ، لكنها تشفي عن بعد، وتقيم عن بعد .. ذلك لأنها قوة الله .. الله الذي استطاع بكلمته أن يخلق العالمين، فلا غرابة إذاً أن يشفي بكلمته المريض على بعد.

ولعلنا نقف من هذه المعجزة، موقف الواثقين أن الله ليس عنا ببعيد ، فهو معنا بكلمته وروحه وعمله .. وهو كذلك مع جميع المؤمنين بإسمه.

معجزة في كوخ صياد

(متى ٨: ١٤ ، ١٥)

عندما نقارن رواية متى مع رواية مرقس لهذه الأحداث والمعجزات التي قام بها يسوع (مرقس١: ٢١ــ٣٤). نرى أن هذه المعجزات تمت بعد أن كان يسوع قد زار المجمع. وقد كان يسوع أثناء وجوده في كفر ناحوم يتخذ من بيت بطرس مقراً له، إذ لم يكن له مقر شخصي. وقد كان بطرس متزوجاً وذكرت روايات بعض الكتاب أن زوجته صارت تعاونه فيما بعد في خدمة الإنجيل . ويروي أكليمندس الإسكندري أن بطرس وزوجته استشهدا معا ، وشاهد بطرس بنفسه آلام زوجته قبل أن يقاد هو إلى الموت ، وقيل إنه كان يناديها ويشجعها قائلاً لها : «تذكري ربك وسيدك».

عندما دخل يسوع بيت بطرس أو بالحري الكوخ البسيط الذي كان بطرس يعيش فيه ، رأى أن حماته كانت مريضة بالحمى.

وقد كانت هناك ثلاثة أنواع من الحميات منتشرة في ذلك الزمان. الحمى المالطية التي كانت تؤدى إلى ضعف المريض وفقر دمه. وكانت تستمر في المريض شهوراً فتضعفه وتؤدي إلى موته.

والحمى المتقطعة ، ثم حمى الملاريا. وفي تلك البقاع حيث كان نهر الأردن يلتقي ببحر الجليل، كانت هناك بعض المستنقعات حيث كان يتكاثر بعوض الملاريا. وقد كانت حمى الملاريا شائعة في كفر ناحوم، وغالباً ما كان يصاحبها التهاب الصفراء والقشعريرة، مما يسبب للمرضى بها آلاماً مبرحة. وغالبا كانت حماة بطرس مصابة بالملاريا.

لمس يسوع يد حماة بطرس، فشفاها .. والمعجزة على قلة ما كتب عنها، تكشف لنا عن شخصية المسيح وشخصية حماة بطرس.

١ ــ كان يسوع قد رجع من المجمع حيث شفى رجلاً به روح نجس (مرقس١:٢١ــ٢٨). وفي طريقه إلى البيت شفى غلام قائد المئة. لم يكن إجراء هذه المعجزات أمراً غير مكلف للمسيح، بل كانت تخرج منه قوة لإجراء هذه العجائب، ولا بد أن يسوع كان قد أجهد بعد طول اليوم وأعماله، وجاء إلى بيت بطرس لكي يستريح .. ولكنه سرعان ما دخل إلى البيت، فرأى الحاجة والمرض هناك .. لم يكن يوجد من يشهد هذه المعجزة فلا جمهور يغمره الإعجاب، ولا شخصيات تأخذها الدهشة .. لكن في كوخ الصياد الحقير. كانت إمرأة معذبة بالحمي، لذلك فاضت قوة المسيح نحوها لتشفيها .. لم يكن هناك وقت فيه يعتذر المسيح عن الخدمة .. فكلما دعته الحاجة، كان يلبي النداء .. هناك أشخاص يظهرون أفضل ما فيهم في المجتمعات الرسمية، وأمام الجمهور الكثير، ولكنهم عندما يخلدون لأنفسهم، يعبرون عن ضيقهم وتذمرهم ... لكن يسوع لم يكن هكذا ... فلم يكن يشعر أبداً أن آلام الناس مضايقة له، سواء كان أمام جمهور معجب، أو في كوخ صغير منفرداً .. لقد كان حبه في الحالتين على السواء .. وقدرته رهن للحاجة أينما وجدت.

٢ ــ وهذه المعجزة تكشف لنا شيئا عن حماة بطرس نفسها. فإنه سرعان ما تركتها الحمى وإذا بها تقوم لتخدم.. فهي تعتبر نفسها قد « خلصت لتخدم ». وما دام يسوع قد شفاها، فقد شعرت بواجبها أن تستخدم هذه الصحة الجديدة التي نالتها في خدمة الآخرين.. وهذا درس يجب أن يتعلمه الجميع، فكم من الناس يضيعون هباء، ما أعطاهم الله من قوة وبركة. ولقد صور «أوسكار وايلد» الكاتب المعروف هذه المأساة فيما أسماه « قصة قصيرة رائعة مروعة» فقال :

« مرة جاء المسيح من سهل أبيض إلى مدينة قرمزية، وما أن سار في أول شارع فيها ، حتى سمع أصواتاً حوله، فالتفت ورأى شاباً مطروحاً على قاعدة شباك يترنح من الخمر والمسكر، فسأله : لماذا تضيع نفسك في المسكر؟ فرد عليه قائلاً : ياسيدي، لقد كنت مصاباً بالبرص وطهرتني، فماذا أفعل غير ذلك ؟»

«ثم سار المسيح في المدينة فرأى شاباً يتبع إمرأة عاهراً، فسأله : لماذا تترك نفسك تهوي إلى مهاوي الرذيلة هكذا؟ فرد عليه قائلاً : ياسيدي، لقد كنت أعمى فأعدت إليّ البصر، فماذا أفعل غير ذلك؟ وأخيراً في وسط المدينة، رأى عجوزاً قابعاً على الأرض منخرطاً في البكاء فسأله : لماذا تبكي ؟ . فرد عليه قائلاً : ياسيدي لقد كنت ميتاً وأعدت إلى الحياة، فماذا يمكن أن أفعل إلا البكاء ؟ ».

هذه هي الصورة المروعة التي تبين لنا كيف يسيء الناس استخدام عطايا الله ورحمته بهم. لكن

حماة بطرس لم تكن هكذا، فقد أعاد إليها يسوع الصحة، فاستخدمتها في الخدمة، وهذا هو الأسلوب الصحيح لاستخدام كل عطايا الله.

معجزات بالجملة

(متى ٨: ١٦ و١٧)

كما رأينا من قبل، حدثت هذه الأحداث في نهاية يوم السبت كما يروي مرقس البشير (مرقس ١: ٢١ـــ٣٤). وهذا يفسر المشهد الذي تجمع فيه المرضى والسقماء بكثرة في نهاية اليوم. فحسب شريعة اليهود لم يكن العمل مسموحاً به يوم السبت، حتى الشفاء نفسه لم يكن جائزاً يوم السبت. كان الشيء الوحيد الجائز ، هو إيقاف حالة المريض من أن تسوء فقط، لكن لا ينبغي إتخاذ خطوات إيجابية نحو علاجه، ولم يكن من المسموح بأن ينال أحد عناية طبية يوم السبت، إلا إذا كانت حياته في خطر مؤكد.

كما أنه لم يكن مسموحاً أن يحمل الإنسان يوم السبت، حملاً يزيد وزنه عن وزن تينتين يابستين ، لذلك كان حمل أي مريض يعتبر خطية يوم السبت. وكان السبت ينتهي رسمياً، عندما يمكن رؤية نجمتين في السماء، وهذا يفسر ازدحام المرضى، وإقبالهم إلى يسوع لما صار المساء.

ونحن ينبغي أن نفكر فيما كان يسوع يعمله طيلة اليوم، فقد كان في المجمع ثم شفى الرجل ذا الروح النجس، وأرسل قوة شفائية لشفاء غلام قائد المئة، ثم شفى حماة بطرس. كان طيلة النهار يعلم الناس، ولا بد أنه واجه كثيرين ممن كانوا يضمرون له العداء ويقاومونه. والآن صار المساء، لقد جعل الله النهار للعمل والليل للراحة .. لكن يسوع لم يكن يفكر في وقت للراحة .. كان يريد أن يعمل أعمال الله ما دامت له الفرصة .. لقد كانت حاجات البشر وآلامهم تستحوذ على كل اهتمامه ، وتنال كل جهده وعنايته... فكان يبذل نفسه كل يوم للآخرين، ولا راحة له ما دامت هناك نفوس في حاجة إليه.

لقد أعاد هذا المنظر إلى ذهن متى البشير، نبوة إشعياء القديمة، التي تصف عبد الرب الذي حمل أوجاعنا وأمراضنا (إشعياء ٥٣: ٤).

إن من يتبع المسيح يجب ألا يبحث عن الراحة، ما دام هناك من يحتاجون إلى المعاونة، بل إن ضعفه سيزول ويشعر بقوة متجددة، كلما بذل من نفسه لخدمة الغير.. فكلما جاءت المطاليب، تجددت معها قوة الله، وسيجد أنه يستطيع أن يعمل لأجل الآخرين، ما لم يستطع أن يعمله حتى لنفسه.

حساب النفقة

(متى ٨:١٨ — ٢٠)

عندما نقرأ هذه الفقرة لأول وهلة يخيل إلينا أنها ليست في مكانها المناسب، ذلك لأن هذا الأصحاح هو رواية لسلسلة من المعجزات، فلماذا يضع متى هذا الجز وسط المعجزات؟

حاول البعض أن يفسر هذا الأمر، بأن متى وهو يفكر في شخصية المسيح، باعتباره عبد الرب المتألم، وقد سبق أن أشار إلى ما جاء في النبوة عنه في (إشعياء ٤:٥٣)، قادته هذه الصورة إلى أن يذكر هذه الحادثة هنا، والتي يتحدث فيها المسيح عن نفسه، أنه ليس له أين يسند رأسه .. وكما قال أحدهم : «إن المسيح ولد في مذود مستعار، ودفن في قبر مستعار». وهكذا أراد متى أن يوضح هذا الجانب من شخصية السيد المسيح.

ربما كان هذا التفسير صحيحا، وربما كان هناك تفسير آخر صحيح، وهو أن متى وهو يذكر المعجزات المادية التي أجراها يسوع، أدخل بينها معجزة أخرى من نوع آخر، وهي معجزة تأثير يسوع في الشخصية الإنسانية فإن الرجل الذي جاء إلى يسوع، وقال له يامعلم أتبعك أينما تمضي، لم يكن إنساناً عادياً بل كان «كاتباً» أي واحداً من «جماعة الكتبة».

وحسب معرفتنا لشخصية الكتبة، وأفكارهم، وكبريائهم، فإننا عندما نرى واحداً منهم يأتي إلى يسوع، ويلقبه بأعظم الألقاب التي يلقب بها المعلمون اليهود، وهو «يا معلم» أي «ربوني» .. ثم يؤكد هذا اللقب بإعلانه أنه مستعد أن يتبع يسوع أينما يمضي.. فلا شك أن في هذا معجزة التأثير العظيم ليسوع على الشخصية الإنسانية...

إن هذه الجملة العابرة، إنما توضح لنا أثر شخصية المسيح فيمن تبعوه .. ولعل من الأخطاء التي يقع فيها من يكرزون بإنجيل المسيح، أنهم يحدثون الناس عن يسوع، لكنهم لا يواجهونهم بشخصية المسيح، ليتركوا لشخصيته أن تعمل عملها في القلوب.

وعندما أعلن هذا الكاتب رغبته، إذ بيسوع يرد عليه، بأن للثعالب أوجرة ، ولطيور السماء أوكار، أما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه .. وكأنما أراد يسوع أن يقول له : « قبل أن تتبعني، فكر فيما ستعمل .. إعمل حساباً للنفقة ». إن يسوع لا يريد أتباعاً تدفعهم العاطفة لحظة، ثم تخبو وتموت .. لا يريد أشخاصاً يحملهم تيار المشاعر ثم تهمد مشاعرهم .. إنه يريد أشخاصاً يعرفون ماذا سيفعلون، لقد تحدث عن حمل الصليب في (متى ٣٨:١٠) قائلاً «من لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني».

ولقد قال في (لوقا ٢٦:١٤) «إن كان أحد يأتي إليّ ولا يبغض أباه وأمه وإمرأته وأولاده وإخوته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» — ولقد أوصى الشاب الغني أن يبيع أملاكه ويعطي للفقراء (متى ٢١:١٩) ... كان يقول للناس على الدوام «أعلم أن قلوبكم تتجه إليّ ، ولكن هل

محبتكم لي يمكن أن تجعلكم تقبلون هذه التضحيات».

ونحن في كل مجال في الحياة، يجب أن نواجه الحقائق والتكاليف، فإذا أراد شاب أن يصير عالماً، فينبغي أن نبصره بالتضحيات التي عليه أن يقوم بها، ليحيا حياة الدرس المتواصل دون كلل. وإذا أراد مستكشف أن يجمع فريقاً يصحبه، عليه أن يستبعد كل من تستهويه فكرة المخاطرة، دون أن يقدر متاعب الاستكشاف ومشاقه .. والمدرب الرياضي يذكر لمن يريد أن يكون بطلاً رياضياً، أن عليه احتمال مشاق التدريب وقيوده .. هذا التبصير ومواجهة الواقع لا يقصد به إخماد الحماس، بل مواجهة الواقع لأن الحماس إذا لم يواجه الواقع سيصير رماداً.

وطريق المسيح ليس طريقاً سهلاً، ولم يكن يسوع يخدع الناس أو يغريهم . إنه أراد أن يظهر لهم أن مجد المسيحية يستلزم صليباً..

مأساة إهمال لحظة العزم الخالدة

(متى ٨:٢١ و٢٢)

وهنا رجل آخر أراد أن يتبع المسيح، لكنه أراد أولاً أن يدفن أباه. فقال له المسيح «اتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم». ونحن قد نرى لأول وهلة أن كلام السيد المسيح فيه شيء من الشدة. فبالنسبة لليهودي كان دفن جسد الأب أمراً بل واجباً مقدساً. وعندما مات يعقوب، أخذ يوسف إذناً من فرعون ليذهب ويدفن أباه قائلاً «أبي استحلفني قائلاً ها أنا أموت. في قبري الذي حفرت لنفسي في أرض كنعان هناك تدفنني. فالآن أصعد لأدفن أبي وأرجع» (تكوين ٥٠:٥) ــ فما سر قول المسيح هذا؟ لقد جرت عدة محاولات لتفسيره.

قال البعض إن الترجمة اليونانية نقلت بعض التعبيرات خطأ من اللغة الآرامية التي كان يتكلم بها المسيح، وأن يسوع لم يقصد القول «دع الموتى يدفنون موتاهم» ولكنه أراد أن يقول : «اتركوهم ليدفنهم المختصون بأعمال الموتى ».

وعندما نقرأ حزقيال ٣٩:١٥ كما يلي : «فيعبر العابرون في الأرض وإذا رأى أحد عظم إنسان يبني بجانبه صوة حتى يقبره القابرون في وادي جمهور جوج »، نستطيع أن نفهم، أنه كانت هناك وظيفة «القابرين» الذين مهمتهم دفن الموتى، وكأن المسيح قال «دع القابرين يدفنون موتاهم».

وقال البعض إن يسوع أراد أن يصف المجتمع الذي كان الناس يعيشون فيه في ذلك الوقت بالموت الرروحي والفساد ، فكأنه يقول دع الموتى (روحياً) يدفنون موتاهم (جسدياً) ، وأن على التلميذ المطيع أن يخرج من جماعة الموتى حتى إذا كلفه ذلك ترك أبيه دون دفن .

على أن الرأى الأرجح هو أن التعبير الذي ذكره التلميذ «ائذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي» لم يقصد به أن أباه كان ميتاً في هذه اللحظة، ويريد أن يذهب ليدفنه، بل حسب التعبير الشائع

في بلاد الشرق، أن التلميذ لم يكن يريد أن يتبع يسوع ويسافر معه، دون أن يقوم بواجباته نحو أبيه وأسرته إلى أن يموت أبوه، وبذلك يكون هو حراً في إتباع المسيح أينما يمضي، كان ذلك الرجل يريد أن يقول ليسوع «سأتبعك يوماً ما، عندما يموت أبي، وأتحرر من واجباتي نحو أسرتي». وكأنه بذلك يؤجل قراره باتباع المسيح زمناً قد يصل إلى عدة سنوات.

كان يسوع يعلم القلب الإنساني، ويعلم أن ذلك الرجل إذا لم ينفذ قراره الآن فلن ينفذه فيما بعد. كان يسوع يعلم أن لحظات العزم عند الإنسان، إذا لم يغتنمها، فإنها لن تعود، وأن مأساة الحياة الإنسانية كامنة في إغفال هذه اللحظات وتأجيلها .. لذلك قال للرجل :

«إنك تعزم أن تتبعني، وتترك هذا المجتمع الميت. فخير لك أن تبدأ الآن في ساعة العزم .. فإذا انتظرت إلى أن يموت أبوك، فلن تتاح لك الفرصة. سيصير عزمك ميتاً».

لقد روى الكاتب الإنكليزي الشهير هـ.ج. ويلز عن لحظة مثل هذه في حياته .. فقد كان أهله يجهزونه ليكون تاجر أقمشة .. وفي ذات يوم، جاءه ما وصفه بأنه «صوت داخلي حافز عميق» يقول له : «أترك هذا العمل قبل أن تضيع الفرصة ويفوت الأوان مهما كلفك الأمر» . وترك ويلز تجارة القماش ولم يتردد .. وأصبح فيما بعد ألمع كتاب العالم ..

ليت الله يعطينا قوة التصميم التي تنقذنا من مأساة إغفال لحظات العزم الخالدة في حياتنا.

هدوء وسط العاصفة

(متى ٨:٢٣ ـ ٢٧)

كانت العواصف المفاجئة أمراً عادياً في بحر الجليل، كان هذا البحر بحيرة صغيرة طولها من الشمال إلى الجنوب ثلاثة عشر ميلاً، ومن الشرق إلى الغرب ثمانية أميال في أكبر أجزاء العرض اتساعاً، والمنطقة التي تقع فيها البحيرة منخفضة عن سطح البحر بنحو ٦٨٠ قدماً، وهذا يجعل مناخها معتدلاً دافئاً، وعلى الشاطيء الغربي للبحيرة جبال ذوات وديان وأخاديد، وعندما تهب رياح باردة من الغرب تمر خلال تلك الوديان والأخاديد، فتنضغط فيها وتهب على البحيرة في صورة عواصف شديدة، تظهر فجأة هذه الظواهر كانت من خصائص بحر الجليل، فبينما تكون الشمس مشرقة والجو معتدلاً، إذا بالجو يتغير فجأة وتهب الرياح العاصفة .

هذا ما حدث عندما كان يسوع وتلاميذه في السفينة، فقد هبت رياح وصفتها اللغة اليونانية الأصلية أنها رياح كالزلزال (Seimos) حتى غطت المياه السفينة.

ولعل صورة التلاميذ في خطر العاصفة على بحر الجليل، تعطي لنا صورة للحياة التي نحياها، فنحن لا ندرك ماذا سيحدث لنا بعد لحظات ، وفي أكثر الأماكن أمنًا قد نجد الخطر محدقًا بنا ، ورغم خبرة التلاميذ في ركوب البحر ، لكنهم عجزوا وخافوا واضطربوا . وهذا ما يحدث لنا على الدوام .

كان يسوع نائماً في السفينة، إنه كان قد تعب من كثرة العمل والوعظ والتعليم، لذلك أيقظه :

ياسيد نجنا.

لقد استهوت هذه المعجزة خيال الوعاظ والكتّاب والأدباء في كل العصور ، فقالوا إن يسوع كان نائماً نوم الاطمئنان، وقارنوا نومه بنوم يونان، الذى كان نائماً بضميره المثقل المخدر. وقالوا إنه كان نائماً ليمتحن تلاميذه ، وقالوا إنه كان نائماً وقلبه مستيقظ.

وكتب القديس أوغسطينوس تعليقاً على هذه المعجزة قائلاً : «إن رحلتنا في هذه الحياة في بحر أمواجه آلام، ورياحه تجارب لا حد لها، ولماذا هذ الخوف والاضطراب الشديد ؟ — لأن يسوع نائم فيك، ومعنى ذلك أن الإيمان بيسوع ليس مستيقظاً فيك — ماذا تفعل لكي تخلص ؟ أيقظه وقل يا معلم إننا نهلك. عندئذ سيستيقظ فيك ويرجع إليك إيمانك ويسكن فيك دواماً، وعندما يستيقظ يسوع، فإنه رغم هبوب العاصفة، سوف لا تملأ السفينة. سوف يتحكم إيمانك في الرياح والأمواج، وتكون في مأمن من الخطر».

ويقول البعض إن يسوع وبخ تلاميذه ، لأنهم انزعجوا وخافوا الغرق ويسوع معهم، وكان يجب ألا يتبادر هذا الخاطر إلى نفوسهم، لكن آخرين يقولون إن توبيخ يسوع للتلاميذ ، إنما كان لأن إيمانهم ضعيف أمام خطر الموت، وكان ينبغي ألا يخافوا من موت الجسد.

على أي حال ، انتهر يسوع البحر والرياح، فصار هدوء عظيم. ويقارن الكثيرون بين هذه المعجزة، وبين ما فعله موسى ويشوع، فيقولون إن موسى كان محتاجاً إلى عصا ليضرب بها البحر، ويشوع كان محتاجاً إلى تابوت عهد الرب .. أما يسوع، فلم يكن محتاجاً لشيء، لأنه خلق العالمين بكلمة قدرته، ويستطيع أن يأمر كل شيء فيطيعه.

على أننا ينبغي أن لا نقف بالمعجزة عند حد إسكات العاصفة على بحر الجليل سنة ٢٨ م فقط. فلو أننا اكتفينا بالمعجزة عند هذا الحد، لكانت بالنسبة لنا تاريخاً ليس إلا، ويتساءل الناس : لماذا لم يوقف المسيح قوة العاصفة والأمواج في الحوادث الأليمة التي يغرق فيها كثيرون في المياه؟

إن حكمة هذه المعجزة باقية إلى اليوم، إن معناها هو أنه حيثما يوجد يسوع، تتحول عواصف الحياة إلى هدوء وسلام. وعندما تثور فينا الإنفعالات ، نجد الأمان والسكينة عند المسيح، وعندما تضطرم في قلوبنا نيران الشكوك، نجد فيه أساساً للإيمان.

إن المسيح قادر على أن يسكت العواصف في قلب كل إنسان يدعوه ليحيا في حياته.

هذا هو المعنى الدائم لهذه المعجزة التاريخية الرائعة.

عودة العقل للمجنونين

(متى ٨:٢٨ ــ ٣٤)

* تجيء هذه المعجزة في الترتيب التاريخي حالاً بعد معجزة إسكات العاصفة وإعادة الهدوء إلى البحر الهائج وأمواجه الغاضبة. وهنا نجد دلالة ذات معنى عميق، فهناك من هو أقوى من العاصفة، وأكثر هياجاً من الموج .. ذلك هو روح الإنسان عندما تكسر كل الحدود، وتتجاوز كل التقاليد وتسلم نفسها لإبليس الذي هو سلطان الهواء.

هنا يظهر لنا سلطان يسوع على قوات الشر ، فبكلمة منه يعود إلى النفوس إطمئنانها، ويصير هدوء عظيم...

وعندما ندرس هذه الفقرة تطالعنا بعض الصعوبات التي يجدر بنا أن نلتفت إليها :

١ ــ الجدريون أو الجرجسيون :

يذكر متى أن اسم الكورة «كورة الجرجسيين» بينما يذكر مرقس (١:٥) ولوقا (٢٦:٨) إسم كورة الجدريين. وبلدة (جدرة) معروفة الآن بإسم (أم قيس) . وهي تقع جنوب شرق بحر طبرية ، ويصفها يوسابيوس بأنها واقعة شرق الأردن مقابل طبرية، وتقع على بعد ثلاث ساعات غربي (أربد) على رأس الجبل المشرف على وادي نهر اليرموك، وعلى بعد خمسة أميال من الشاطيء الجنوبي .. ويستبعد أن تكون هي المكان الذي جرت فيه المعجزة.

أما (جرجسة) فهي بلدة على بحر الجليل، ويحتمل أن تكون هي التي جرت فيها المعجزة، ولا تزال خرائب على بحر الجليل تعرف اليوم باسم (كرسة) على الشاطيء الشرقي من بحر الجليل مقابل مجدلة، على مسافة خمسة أميال من دخول الأردن إلى البحيرة، وهناك موقع بين وادي سمك ووادي فيق، حيث تقترب الهضاب إلى البحر، مما يسهل لقطيع من الخنازير أن يندفع مهرولاً إلى البحر...

وقد عزا بعض الشراح هذا التباين في الأسماء إلى اختلاف النسخ القديمة والمخطوطات في ذكر كلمة جرسة ، وجرجسة .. كما قال آخرون إن متى لما كتب بشارته ، كان يكتب لليهود الذين عرفوا تلك الأرض جيداً ، لذلك ذكر موضع المعجزة بالضبط ، بينما مرقس ولوقا اللذان كتبا للأمم لم يذكرا القرية التي حدثت بقربها المعجزة ، بل ذكروا كورة الجدريين التي هي اسم للمقاطعة كلها .

٢ ــ هل هو مجنون واحد أم اثنان :

ذكر متى أن يسوع شفا مجنونين ، بينما يذكر مرقس (ص٥) ولوقا (ص٨) أنه مجنون واحد .

---

* شرح هذا الجزء بعد تعديلات وإضافات من المترجم .

ظن البعض أن هذه معجزة تختلف عن الأخرى المذكورة في مرقس ولوقا، لكن الشواهد والتسلسل التاريخي يؤكد أنها معجزة واحدة.

ويغلب على الظن أن أحد هذين الرجلين كان شخصية معروفة في البلد، وأن جنونه كان شديداً بكيفية واضحة، حتى طغت قصته في ذهن مرقس ولوقا على قصة المجنون الثاني، خاصة وأنه ابتدأ يكرز في العشر مدن عن شفاء المسيح له.

٣ ــ موضوع سكنى الشياطين في البشر :

وهذا الموضوع يفتح أمامنا مجالات كثيرة للتساؤل وللبحث. فقد اختلف الناس والباحثون في هذا الموضوع.

(أ) قال البعض إن الناس في الماضي، كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن العالم مليء بالأرواح الشريرة. وقال بعضهم إن الهواء مزدحم بهذه الأرواح حتى أنك لا تستطيع أن تدفع بإبرة في الهواء دون أن تؤذي هذه الأرواح. وقد اعتقد البعض أن حول كل إنسان عشرة آلاف روح شريرة على يمينه، وعشرة آلاف على يساره، وأنها تعمل على إيقاع الضرر بالإنسان.

وقيل إن هذه الأرواح تسكن الأماكن النجسة والقبور والبراري، وأنها خطرة على من يسافر وحده، وعلى النساء عند ولادة الأطفال، وعلى المتزوجين حديثاً، وعلى الأطفال إذا خرجوا بعد حلول الظلام...

وقد كثرت الأقوال عن أصل هذه الأرواح الشريرة. فقال البعض إنها موجودة منذ الخليقة، وقال آخرون إنها أرواح الناس الأشرار الذين ماتوا، وهي لا تزال تعمل شراً. والبعض يفسرون ما جاء في تكوين ٦: ١ــ٨ عندما رأى أبناء الله أن بنات الناس حسنات فتزوجوا منهن، بأن الملائكة عندما أخطأوا ونزلوا إلى الأرض وتزوجوا من الناس، وأن الشياطين هم نتيجة هذا الزواج.

وقد اعتبر الناس أن كل الأمراض سببها هؤلاء الشياطين، فكل الأمراض العقلية كالجنون، والعصبية كالصرع، وحتى الجسدية منها، كانوا يقولون إن سببها هؤلاء الشياطين. وقد قال المصريون القدماء إن في الإنسان ستة وثلاثين جزءاً من جسمه، يمكن لكل منها أن يسكنه شيطان.

(ب) ويعتبر البعض أن كل هذه الأمور من الخرافات التي آمن بها الناس حتى أنهم تأثروا بها، ولم يمكن شفاؤهم إلا بمسايرتهم في اعتقادهم.

(ج) إلا أن فريقاً ثالثاً آمن بوجود الشياطين، باعتبارهم جنود إبليس الملاك الساقط، وأن هؤلاء الشياطين يؤثرون في تفكير الإنسان ويغرونه لعمل الشر.

أما حلول الشياطين في أجساد البشر، فقد كانت ظاهرة خاصة محدودة في زمن وجود السيد المسيح على الأرض، عندما أطلق الشيطان كل قواه لتعطيل خدمة المسيح. وكانت هذه فرصة لإظهار سلطان المسيح على الأرواح الشريرة.

نعود بعد دراسة هذه الصعوبات إلى التأمل في القصة نفسها ، ومنها نرى عمل الشيطان في

الإنسان ، كيف ينجس الإنسان ليسكن بين القبور، ويجعله بين الأموات وهو حي، ويقويه لكن في عمل الشر، وهو يعزله عن الناس ويجعله خطراً عليهم فيؤذيهم..

كل هذه المظاهر كانت في المجنونين..

وقد خرج المجنونان للقاء المسيح، إما تحدياً للمسيح ، لأنه دخل مكان وحدتهما، أو إحساساً داخلياً بأن هناك مخلصاً يمكنه شفاؤهما .. وصرخ المجنونان ـــ أو الشياطين في داخلهما ـــ «ما لنا ولك يايسوع ابن الله، أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذبنا؟». قال البعض إن خروج الشيطان من الإنسان عذاب له، فلذة الشيطان في عذاب الإنسان ، وعذاب الشيطان في راحة الإنسان .. وقيل إن الشياطين كانت تعرف أنها في الصليب ستقهر، وفي يوم ما ستسحق، لذلك قالت للمسيح إنه جاء قبل الوقت.

هنا شفى المسيح المجنونين، وبغرق قطيع الخنازير شعروا بأن الشياطين التي كانت فيهم ذهبت إلى أعماق البحر بغير رجعة .. وهكذا عاد العقل إليهما...

تساءل الناس : هل قصد السيد المسيح أن تغرق الخنازير .. ولماذا يرضى بشفاء المجنونين على حساب خسارة أصحاب القطيع؟

وحتى على افتراض أن السيد المسيح أراد إغراق الخنازير، فليس لنا أن نسأل لماذا، لأن الله قد يعطي بركاته أحياناً في ثوب خسارة .. وإلا فلماذا يسمح الله بالأوبئة في الحيوانات، وبالحشرات في المحاصيل؟

ثم علينا أن نرجع إلى قول المسيح: «والإنسان كم هو أفضل من الخروف». إن قيمة النفس الإنسانية في نظر المسيح أعظم بكثير من كل الثروات.

وقد قال البعض إن هذه الخنازير كان يملكها بعض اليهود، وأراد الله أن يعاقبهم على استهتارهم بشريعة موسى السائدة في ذلك الوقت، والتي كانت تعتبر الخنازير نجسة.

تختتم هذه القصة بمأساة، وهي أن أهل الكورة طلبوا من يسوع أن يتصرف من تخومهم. هذه هي الأنانية مجسمة. إنهم لم يهتموا بأن عاد العقل إلى اثنين من مواطنيهم. كان كل تفكيرهم في الثروة التي خسروها.

وما أكثر ما نكون مثل هؤلاء الناس، عندما نرفض أن نساعد الآخرين، حرصاً على ما نملك وما نقتني...

كما أن يسوع لبى طلبهم، لأنه لا يقتحم على الناس إراداتهم.

لكن كم من الخسائر أصابتهم، لأن يسوع لم يدخل إلى بلادهم...

الأصحاح التاسع

تزايد المعارضة لعمل يسوع

(مقدمة للأصحاح التاسع)

رأينا في دراستنا لبشارة متى، كيف أن متى لم يكن يكتب اعتباطاً، ولكن بشارته في غاية النظام والترتيب، وفي الأصحاح التاسع نرى مثالاً لهذا النظام، فإن متى فيه يبين كيف أن ظلال المعارضة والمقاومة ابتدأت تتجمع حول المسيح، ونحن نرى في هذا الأصحاح البدايات الأولى للتهم التي ابتدأ الناس يوجهونها إلى يسوع، لتصير في النهاية في أسباب حكم اليهود عليه وتقديمه للصليب — وفي هذا الأصحاح نرى أربعة اتهامات وجهت إليه.

١ — فقد اتهم بالتجديف. وفي متى ٩: ١—٨ نرى يسوع يشفي المفلوج غافراً خطاياه، ونسمع الكتبة يتهمونه بالتجديف، لأنه يدَّعي لنفسه سلطاناً لا يملكه غير الله. لقد اتهم يسوع بالتجديف، لأنه كان يعلن صوت الله، وكان يتصرف بسلطان الله.

٢ — وقد اتهم يسوع بعدم مراعاته قواعد الأخلاق، ففي متى ٩: ١٠—١٣ نرى يسوع جالساً يتناول الطعام مع العشارين والخطاة، وقد تساءل الفريسيون كيف يجلس يسوع ويأكل مع أمثال هؤلاء الناس، ولعلهم كانوا يضمنون تساؤلهم، الإشارة إلى أنه يشبه القوم الذين يجالسهم.

٣ — وقد اتهم يسوع بعدم مراعاة قواعد التقوى، ففي متى ٩: ١٤—١٧ نرى تلاميذ يوحنا المعمدان يسألونه لماذا لا يصوم هو وتلاميذه كما يصومون هم والفريسيون .. لقد كانت التقاليد الدينية، وقواعد التقوى تقتضي أن يصوم هو وتلاميذه، لكنه لم يحافظ على هذه التقاليد، لذلك نظروا إليه بعين الشك، وكل من يكسر التقاليد والقواعد الشائعة يتعرض للنقد والاتهام.

٤ — وقد اتهم يسوع بأنه متحالف مع الشيطان، فقد شفى المجنون الأخرس (متى٩: ٣١—٣٤) لكن أعداءه قالوا، إنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين..

هكذا بدأ الهمس والاتهام يتزايد ويتجمع ويتكاثف حول شخصية المسيح، بسبب حقد الفريسيين والكتبة عليه وحسدهم له.

غفران وشفاء

(متى ٩: ١ — ٨)

من رواية مرقس لهذه القصة (مرقس٢: ١) نعلم أنها حدثت في كفرناحوم، ولأن يسوع كان يتخذ من هذه المدينة مركزاً لخدماته وتنقلاته في هذه المرحلة من خدمته، لذلك دعيت بأنها مدينته.

وقد أتوا إليه برجل مفلوج يحمله أصدقاؤه على فراشه، وهنا نرى صورة رائعة لإنسان ينال شفاء عن طريق إيمان أصدقائه، فلولا أن هؤلاء الأصدقاء حملوه، لما استطاع أن يجد نفسه أمام يسوع الذي شفاه، ولعله فقد الأمل في الشفاء وأصبح مهزوماً في نفسه، لكن أصدقاءه حملوه — ربما رغماً عنه — ليأتوا به إلى محضر يسوع ... أليس هذا واجب الأصدقاء نحو صديقهم ؟ ألا يبين أن هذا واجبنا نحو الخطاة والبعيدين، أن نحاول أن نحضرهم إلى يسوع. إننا لا نستطيع أن نعطي الإيمان والخلاص لأحد، فهو هبة من الله، لكننا نستطيع أن نبين للناس الطريق.

ولقد كان موقف السيد المسيح مذهلاً .. فإنه ابتدأ بقوله للمفلوج « ثق يابني مغفورة لك خطاياك » ، ولقد كان هناك أكثر من سبب لهذا القول. فقد كان الناس في فلسطين يعتقدون أن الخطية هي سبب كل الأمراض، وقد شاعت بين أقوال الربيين فقالوا مثلا : « لا موت بدون خطية، » ولا ألم بدون إثم » و« لا يشفى مريض من مرضه ما لم تغفر خطاياه » ولعل هذا الرجل بالذات كان قد ارتكب بعض الخطايا، وكان مقتنعاً أنه لا يمكن شفاؤه ما لم تغفر خطاياه.

والعلم الحديث يؤيد الحقيقة القائلة بأن أثر العقل على الجسد عظيم، حتى أن الإنسان لا يمكن أن يكون سليماً في جسده، ما لم يكن سليماً مطمئناً في نفسه، ويذكر البروفيسور بول تورنيير في كتابه «مذكرات طبيب» أن فتاة كان يعالجها بعض أصدقائه الأطباء من فقر الدم مدة طويلة دون أن يظهر عليها أي أثر للتحسن، وكان الطبيب يجري لها تحليلات للدم بصفة دورية، ولا يرى أن هناك تقدماً على الإطلاق ، وأخيراً قرر الطبيب أن يرسلها إلى أحد الأطباء المختصين ليقدم لها توصية بدخول إحدى المصحات، وبعد أسبوع عادت الفتاة ومعها التوصية، وكان معها تقرير طبي عن حالة دمها وفيها يظهر تحسن غريب غير متوقع، وراجع الطبيب سجلاته فرأى أن تغيراً ملحوظاً ظهر على الحالة، ولما سأل الفتاة عما حدث لها خلال الأسبوع من أمور غير عادية، قالت له : « لقد كان هناك حقد كامن في نفسي ضد شخص آخر، ولكني في هذا الأسبوع صفحت عنه وسامحته — ولقد تأثرت حالتها الجسدية بحالتها العقلية والنفسية.

كان المفلوج يعلم أنه خاطيء ويحتاج إلى الغفران، وكان يعتقد أن الله عدو له، لذلك كان ظامئاً إلى كلمة التأكيد بالغفران التي سمعها من يسوع، ليؤكد له أن الله أصبح صديقاً وليس عدواً، ومن ثم نال الشفاء...

وقد أثار هذا جماعة الكتبة، فقالوا في أنفسهم : «من هذا الذي يتخذ لنفسه سلطان الله، ليغفر الخطايا». لكن يسوع علم أفكارهم وأكد بذلك سلطانه الإلهي وقدرته الفائقة، وقال لهم «أيما أيسر أن يقال مغفورة لك خطاياك أو يقال قم احمل فراشك وأمش ....» — لا شك أن الكتبة اعتقدوا أنه لا يمكن الشفاء بدون غفران، ولو استطاع السيد المسيح أن يجعل هذا الرجل يقوم ويمشي، لكان هذا دليلاً على أنه غفر الخطايا فعلاً .. لذلك قال للرجل «قم وامش» — فقام

وهكذا أثبت السيد المسيح هذه الحقيقة، أن علاج ما فينا من مرض، يحتاج إلى غفران ما في قلوبنا من خطية .. وقد يعطينا الطبيب الدواء .. لكن الله بغفرانه يستطيع أن يعطينا الشفاء.

الرجل الذي كرهه الجميع

(متى ٩:٩)

لم يكن هناك شخص لا تؤهله حياته ليكون رسولاً مثل متى، فإنه كان عشاراً. وكان العشارون هم جامعو الضرائب أو العشور التي كانت تتطلبها الدولة الرومانية من المواطنين.

كان كل هم الحكومة الرومانية أن تجد سبيلاً يضمن لها تحصيل الضرائب بكيفية سهلة ومضبوطة ورخيصة في الوقت عينه. لذلك كانوا يعرضون الفرصة على بعض الناس أن يكونوا مسئولين عن جمع الضرائب في منطقة معينة، ويؤيدونهم بمختلف الوسائل بشرط أن يكونوا مسئولين عن توريد مبلغ معين للحكومة كل سنة .. ولم يكن الناس يعرفون ماذا كان يستحق عليهم، لذلك كانت الفرصة للعشارين أن يطالبوهم بأكثر جداً من المطلوب منهم ، وهكذا كان جامع الضرائب يجمع لنفسه ثروة هائلة بقوة الرومان، في وقت وجيز، من ظلم الناس والاستبداد بهم بمختلف الوسائل.

وقد كانت هناك ثلاثة أنواع من الضرائب : ضريبة الأرض التي كان على الفرد بمقتضاها أن يدفع عشر محصوله من الغلال، وخمس محصوله من الفواكه إلى الدولة، سواء نقداً أو عيناً. وكانت هناك ضريبة الدخل التي كانت عبارة عن واحد في المائة من دخل الإنسان، كما كانت هناك ضريبة الرأس ويدفعها كل رجل يزيد عمره على ١٤ سنة وكل إمرأة يزيد عمرها على ١٢ سنة ... ولم يكن من السهل المغالطة في هذه الضرائب، لكن كانت هناك أنواع أخرى من الضرائب فيها مجال كبير للقسوة والنهب. فكانت هناك ضرائب على البضائع المصدرة والمستوردة تتراوح بين ٥ر٢ في المائة إلى ٥ر١٢ في المائة. وكان الناس يدفعون ضرائب عندما يعبرون الطرق أو القناطر أو في الأسواق والموانى. وكانت هناك ضرائب على الماشية، والعربات .. وكان جامعو الضرائب يستخدمون القوة والقسوة لجمع الضرائب، ليعطوا الدولة المبلغ المقرر والباقي إلى جيوبهم.

لذلك كان جامعو الضرائب موضع سخط الجميع وكراهيتهم، فهم الذين تحالفوا مع السلطة الحاكمة المستعمرة، وهم الذين ظلموا الناس، وخربوا البيوت ووضعوا الناس في السجن أو قادوهم إلى الإفلاس.. وكان اليهود بالإضافة إلى هذا، يعتقدون أن الله وحده هو ملكهم، وأنه له وحده حق العشور، لذلك كانوا يكرهون العشارين، ويطردونهم من المجامع، ويعتبرونهم مثل الأشياء والحيوانات النجسة، وكانوا لا يقبلون شهادتهم في أية قضية مثل اللصوص والقتلة.

كانت هذه نظرة اليهود إلى العشارين . وعندما دعا يسوع متى، دعا الرجل الذي كان الجميع يكرهونه .. هنا نرى صورة رائعة لقدرة المسيح على أن يرى في الإنسان شيئاً فوق ما هو عليه ... إنه يرى في الإنسان ما يمكن أن يكونه هذا الإنسان. لقد كانت للسيد المسيح ثقة عظيمة في إمكانات الطبيعة البشرية، فمع أنها ساقطة وخاطئة، فإنه كان ينظر إليها فيرى ما يمكن أن تكون عليه عندما تنال الفداء والتبرير.

ولا نستطيع أن نجزم فيما إذا كانت هذه أول مرة يرى فيها متى شخص المسيح أم لا .. لكنه

على الأقل لا بد وسمع عنه من الناس الذين شاهدوا أعماله الفذة، وسمعوا تعاليمه الرائعة .. ولا بد أن قلب متى تحرك في داخله، وكان يتساءل هل يمكن أن يبدأ حياة جديدة، أم أنه تأخر ولا أمل له في ترك عاره وخطاياه.

ثم وجد متى نفسه وجهاً لوجه أمام يسوع، وسمعه يقول له «اتبعني». وقبل متى الدعوة بلا تردد وقام وتبعه.

ماذا خسر متى، وماذا ربح؟ لقد خسر عملاً مربحاً، لكنه ربح مستقبلاً. لقد خسر إيراداً ضخماً لكنه ربح الكرامة. لقد خسر إطمئناناً مادياً لكنه ربح وجوده في رفقة المسيح .. وربما نجد أنفسنا ونحن نسير في طريق المسيح أفقر مادياً، وربما لا نجد المجال الذي كنا نرجوه في الطموح العالمي، لكننا سنجد بلا شك فرحاً وسلاماً لم تعرفه حياتنا من قبل.. ففي المسيح نفسه يجد الإنسان ثروة تفوق كل ثروة مادية يتركها لأجله.

ماذا ترك متى وماذا وجد ؟

لقد ترك مائدة العشارين، لكنه أخذ معه القلم، واستطاع أن يكتب هذه البشارة الخالدة التي ندرسها بذلك القلم الذي كان يحصي على الناس الضرائب والديون.

هذه صورة مضيئة لكيفية استخدام المسيح لمواهبنا عندما نأتي إليه. لقد كان يسوع محتاجاً إلى قلم متى، فلم يكن الصيادون من تلاميذه يجيدون استخدام القلم، لكن كانت عند متى موهبة، واستخدمها في خدمة يسوع.

عندما ترك متى مائدة العشارين في ذلك اليوم، ترك الكثير من وجهة النظر المادية ، لكنه صار وارثاً لثروة روحية لا يمكن التعبير عنها.

حيثما تكون الحاجة أكثر

(متى ٩:١٠ ــ ١٣)

لم يكتف يسوع بأن يدعو متى ليكون تابعاً له، ولكنه جلس على المائدة مع أناس نظيره من العشارين والخطاة.

ويسأل البعض : أين كانت هذه الجلسة على المائدة؟ هل في بيت زكا أو في البيت الذي كان يسوع يقيم فيه؟ يذكر لنا لوقا وحده أن يسوع كان في بيت متى أو لاوي (لوقا ٥: ٢٧ــ٣٢) ولكن متى ومرقس لا يذكران ذلك (متى٩:١٠ــ١٣ ومرقس٢:١٤ــ١٧).

وحسب روايتهما يمكن أن يكون المكان بيت يسوع أو البيت الذي يسوع يقيم فيه .. وقد يستقيم هذا مع قول المسيح «لأني لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة» . فكأن الدعوة صادرة من يسوع نفسه .. والكلمة المترجمة «أدعو» في اللغة اليونانية تشير إلى دعوة ضيف إلى البيت أو الطعام —

وفي مثل العشاء العظيم (متى٢٢: ١-١٠، ولوقا١٤: ١٥-٢٤) يذكر كيف أن الضيوف المدعوين رفضوا الدعوة المقدمة إليهم، وكيف أن الفقراء والمساكين والجدع والعرج والعمي نالوا نصيباً في مائدة الملك. وكأنما يريد السيد المسيح أن يقول «إنكم عندما تقيمون وليمة تدعون إليها الذين يشعرون ببرهم ويظنون أنهم أتقياء، ولكني عندما أقيم وليمة أدعو إليها أولئك الشاعرين بخطيتهم لأنهم يشعرون أكثر بحاجتهم إلى الله».

وسواء أكانت هذه الوليمة في بيت متى أم في البيت الذي كان يقيم فيه يسوع، فإن مجرد دعوة العشارين والخطاة إليها كان أمراً مفزعاً في نظر الفريسيين فقد كان الناس في نظرهم ينقسمون إلى نوعين : المتدينون الذين يحفظون دقائق الناموس وتفاصيله الصغيرة، وشعب الأرض، وكانوا يسمونهم الخطاة، وهم الذين لا يحفظون الناموس بدقة. وقد كان العرف عندهم يقضي بأن لا يشترك المتدينون مع عامة الناس في أي أمر من الأمور، فلا يسافرون معهم أو يقبلون منهم شيئاً أو يتعاملون معهم.

لذلك فعندما كان يسوع يصادق هؤلاء الناس كان يكسر التقاليد المتفق عليها عند المتدينين.

وكان دفاع يسوع عن أسلوبه بسيطاً قوياً. فقد قال إنه يذهب إلى حيثما تكون الحاجة إليه أعظم وألزم. إن الطبيب الذي يزور الأشخاص المتمتعين بالصحة الجيدة لا يعرف واجبه، فإن مكان الطبيب هو في بيوت المرضى، ومجد خدمة الطبيب أن يذهب حيثما يحتاجون إليه.

كان «ديوجين» الفيلسوف اليوناني يحب الفضيلة. وكان كثير الأسف على تدهور حالة أثينا، فكان يقارن بينها وبين أسبرطة دائماً، فتقدم إليه أحدهم قائلاً : « ما دمت معجباً بأسبرطة إلى هذا القدر، فلماذا لا تترك أثينا وتحيا في أسبرطة؟» فرد عليه بالقول «مهما كانت رغبتي، فإني أعيش حيث يحتاجون إليّ أكثر».

لقد كان هؤلاء الناس، العشارون والخطاة، في حاجة أكثر إلى يسوع لذلك عاش بينهم ومعهم.

وعندما قال يسوع «لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة» لم يكن يقصد أنه يوجد بعض الناس الذين لا يحتاجون إليه لأنهم أبرار. أو أن الأبرار لا ينالون اهتماماً خاصاً منه.

ولكنه كان يقصد أن هناك أناساً يشعرون ببرهم بكيفية تجعلهم لا يحسون بحاجتهم إلى المسيح، فهم في نظر أنفسهم لا يحتاجون إلى أحد. أما جماعة الخطاة الذين يشعرون بخطئهم وبحاجتهم إلى يسوع، فإنهم أقرب إلى الاستفادة من عمله ورسالته وأقرب إلى قبول دعوته لهم.

ولقد كان جماعة الفريسيين والكتبة يعيشون حياة قبول دينية خاصة، لعل بعض مظاهرها موجود عند كثيرين الآن :

١ ــ فقد كانوا يهتمون بالمحافظة على قداستهم الشخصية أكثر من اهتمامهم بمعاونة الآخرين روحياً. فكانوا كالأطباء الذين يرفضون زيارة المرضى خوفاً من العدوى. كانوا يتقززون من الخطاة ولا يريدون أن يتعاملوا معهم ــ وهذه ديانة أنانية لأنها تهتم بخلاص الذات أكثر من الإهتمام بخلاص الآخرين، ولو يكونوا يعرفون أن هذا الطريق سيؤدي بهم إلى الهلاك.

٢ ـــ وقد كانوا يميلون إلى النقد أكثر من التشجيع. فهم دائماً يبحثون عن أخطاء غيرهم بدلاً من مساعدتهم للتغلب عليها. والطبيب الصالح لا يتقزز عند رؤية مرض شنيع، ولكنه يمتلىء بالشفقة والرغبة في المعاونة . إن دوافعنا ينبغي أن تتجه إلى مساعدة الخاطيء لا إلى دينونته.

٣ ـــ وقد كان صلاحهم مرتبطاً بدينونة الناس لا الشفقة عليهم ومسامحتهم فهم يتركون الإنسان في الحمأة وينظرون إليه ولا يمدون له يد المعونة، فهم في هذا كالأطباء الذين يشخصون المرض ، لكنهم لا يبالون بوصف الدواء أو تقديمه. كانت حياتهم احتقاراً للآخرين بدلاً من الإشفاق عليهم.

٤ ـــ كانت ديانة الكتبة والفريسيين تتجه نحو إتمام الشرائع والطقوس دون مبالاة بتطبيق روح الديانة الصحيح. وقد اقتبس السيد المسيح القول الوارد في (هوشع٦:٦) «إني أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات» . ليبين لهم أن الله لا يسر بإتمام شكليات الدين، بل يريد جوهره وروحه. وقد كرر يسوع اقتباس هذا المعنى في (متى١٢:٧) في موضوع حفظ السبت.

وقد يحاول الإنسان في تقوى طقسية أن يتمم جميع مظاهر الدين، لكن إذا لم تمتد يده لعون الخاطيء والمحتاج فهو ليس متديناً في نظر الله.

بهجة الحاضر وأحزان المستقبل

(متى ٩:١٤ ، ١٥)

كانت الصلاة والصدقة والصوم أهم مظاهر الحياة الدينية عند اليهود، وقد سبق وشرحنا ذلك عند دراسة (متى٦:١٦ـــ١٨) ويظن البعض أن الظروف التي سئل فيها يسوع هذا السؤال كانت وجود جفاف وعدم نزول المطر في الخريف، مما دعا الناس أن يصوموا طالبين المطر.

وقد أراد السيد المسيح أن يجيب عن هذا السؤال بصورة تمثيلية واضحة عند اليهود. وكان من عادة اليهود عند الأفراح أن يحتفل أهل العرس مدة أسبوع في بيت العريس، ويحضر أصدقاء العريس المقربون ليأكلوا من أطايب العرس طيلة هذا الأسبوع، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم لقب «بنو العرس» ولقد كانت هذه فرصة نادرة لهؤلاء الأصدقاء أن ينعموا بهذه الظروف التي قد لا تتكرر كثيراً في حياتهم. ولقد شبه يسوع نفسه هنا بالعريس، وتلاميذه ببني العرس، وتساءل كيف يمكن أن يكون هناك صوم وحزن واكتئاب في وجود العريس. ولعلنا نجد دروساً رائعة في هذه الفقرة :

١ ـــ إنه يظهر لنا أن وجودنا مع المسيح مدعاة للفرح والبهجة، والحياة في محضر المسيح يشع منها السرور وتفيض منها السعادة. ومن يعيش مع المسيح ينبغي أن يلمع وجهه بالسرور لا بالكآبة والحزن .

٢ ـــ كما يظهر لنا أن الحياة لا تخلو من أحزان، وأن الفرح في العالم لا يبقى على الدوام. فبالنسبة لتلاميذ يوحنا المعمدان الذي كان في السجن ـــ كان طبيعياً أن يحزنوا، وبالنسبة لتلاميذ المسيح

ستأتي عليهم ظروف صعبة قاسية فيها يحزنون. فالحياة كثيرة التغير ولا يوجد ملجأ أمين يلتجيء إليه الإنسان إلا الله لأنه وحده الذي لا يتغير. فإذا كانت قلوبنا ثابتة في الله، فإن فرح السماء لن ينتزع منها.

٣ ـــ ولعل السيد المسيح كان يتحدث إلى التلاميذ عن مستقبل خدمتهم. فإنهم وقد ذاقوا بهجة العشرة معه، ينبغي أن يكونوا على استعداد أن يحملوا الصليب أيضاً ـــ فالطريق المسيحي يغمره السرور والبهجة، لكنه تظلله أيضاً الدموع والصليب.

٤ ـــ ولعلنا نلاحظ شجاعة السيد المسيح، لأنه وهو في قمة خدمته وشعبيته كان يفكر في الصليب الذي كان ينتظره . لقد عرف أن نهاية الطريق ستكون الصليب.

وكان يعرف الثمن الباهظ الذي عليه أن يدفعه ليكون في طريق مشيئة الله، ومع ذلك فقد صار في الطريق إلى نهايته.

مشكلة كل فكرة جديدة

(متى ٩:١٦ ، ١٧)

كان يسوع يعلم أنه جاء إلى البشر بأفكار جديدة، ومعان جديدة للحق. وكان يعلم كيف يصعب إدخال فكرة جديدة إلى عقول البشر . لذلك استخدم صورتين ليعبر بهما عن هذه الحقيقة ، ويوضحها للناس :

١ ـــ فقد قال إنه لا يجعل أحد رقعة من قطعة قماش جديدة (لم تنكمش بعد) ليضعها على ثوب عتيق قد سبق غسله وانكمش، لأنه عندما يبتل الثوب، تنكمش القطعة الجديدة فيتمزق الثوب...

وكان هذا هو التصوير الذي أراد أن يصور به دخول فكرة جديدة على عقول ليست مهيأة لتقبلها. فبالنسبة لليهود كان الكتبة والفريسيون قد بنوا سوراً حول الناموس حتى صار إدخال تفسير جديد أو أية فكرة كأنه خطية وليس خطأ فحسب. وفي عصرنا الحاضر نجد هذا الإتجاه، فما أكثر المرات التي يقاوم فيها الناس الفكرة الجديدة ويقولون : «إننا لم نتعود على هذا من قبل». لقد كانت الكنيسة دائماً خلال العصور تتمسك بالقديم، لكن الزمن يتطور، فما كان من الكنيسة إلا أن تأخذ قطعة من الجديد لكي تلصقه بالقديم. لكن هذا لم ينفع الكنيسة...

إن المسيح يقصد أنه قد تأتي بعض الأوقات التي لا ينفع فيها «الترقيع» بل يجب أن تتغير بعض النظم في إدارة الكنيسة أو نظام عبادتها تغييراً كاملاً.

وقد يصل التمسك بالقديم في حياة الكنيسة حداً يجعلها تتخلف عن مواجهة حاجات العصر الحاضر، وتحيا كأنها لا تعبد الله، بل تعبد الماضي فحسب.

٢ — والصورة الثانية التي يرسمها السيد المسيح لهذه الفكرة هي أنه لا يضع الناس خمراً جديدة في زقاق عتيقة .. كان الناس يضعون الخمر في زق جلدي، من جلود الحيوانات .. ومن عادة الخمر الجديدة أنها تتخمر وتخرج منها غازات، فإذا كانت الخمر الجديدة في زقاق جديدة فإن الجلد الجديد لديه المرونة الكافية ليتمدد مع تبخر الغازات عند تخمير الخمر، أما الزقاق العتيقة فإنها تكون قد فقدت مرونتها، فعندما تصعد الغازات من الخمر الجديدة تنشق الزقاق وتتلف وتنسكب الخمر..

إذا أردنا أن نضع هذه الصورة في تعبيرات عصرية نقول إن عقولنا ينبغي أن تكون لها المرونة الكافية لكي تتقبل الأفكار الجديدة. وتاريخ التقدم في كل العصور إنما هو تاريخ التغلب على العقول المغلقة المتعصبة للقديم.

وكل فكرة حديثة اجتازت في ظروف كان عليها فيها أن تصارع ضد العقول المغلقة ليكون لها مكان في الوجود والمخترعات الحديثة التي ينعم بها عالمنا الآن كالقطار والسيارة والطائرة والراديو كانت في البداية هدفاً لمقاومة شديدة، وكان الناس ينظرون إليها بشك كثير. وقد عاني سمبسون كثيراً لكي يقدم للأطباء فكرة التخدير بالكلوروفورم، وقاسى كوبرنيكس كثيراً عندما قال إن الأرض هي التي تدور حول الشمس .. وهكذا كل فكرة جديدة تجد من يقاومها ويحاول تسخيفها، بينما لو كانت عقول الناس متفتحة للعمل بها لعادت عليهم بأعظم النتائج...

وفي الكنيسة تعتبر مقاومة كل فكرة جديدة مرضاً مزمناً، فالناس يحاولون وضع وجوه النشاط الجديدة في أسلوب قديم أو مبانٍ قديمة .. ويحاولون أن يتمسكوا بأسلوب الخدمة والوعظ القديم، وهم يواجهون جيلاً متطوراً جديداً .. لذلك لا غرابة أن ينشق الزقاق وتنسكب الخمر..

إن أي كائن حي، يتوقف عن النمو لحظة، يبدأ الموت يدب في أوصاله. لذلك فلنتصلّ إلى الله لينقذنا من خطر العقول المغلقة ويعطينا عقولاً متفتحة.. والذي ينظر إلى العالم اليوم ويقارنه بالعالم منذ خمسين عاماً فقط، يرى التطور المذهل في كل شيء .. إن يسوع يحذر الكنيسة من أن تكون المؤسسة الوحيدة في العالم التي تعيش في الماضي، ولا تتطور لمواجهة الحاضر والمستقبل.

اللمسة المقيمة

(متى ٩:١٨ — ١٩ ، ٢٣ — ٢٦)

يذكر متى هذه القصة باختصار كثير عن غيره من البشيرين. وإذا أردنا دراستها بتفصيل أكثر علينا الرجوع إلى مرقس ٥:٢١—٤٣ ولوقا٨: ٤٠—٥٦ ومن هذه النصوص نعرف أن اسم ذلك الرئيس هو يايرس وأنه كان من رؤساء مجمع اليهود.

وقد كان منصب رئيس المجمع في غاية من الأهمية إذ أنه كان ينتخب من شيوخ الشعب .. لم تكن مهمة الرئيس الوعظ أو التعليم، بل كانت وظيفته إدارية، فقد كان يشرف على النظام العام للعبادة في المجمع، ويعين من يقرأون ويصلون في المجمع ويدعو الوعاظ، ويراقب سير الأمور حتى لا يحدث في المجمع أمر غير مناسب، كما كان من مهمته الاهتمام بمباني المجمع.

ومن الواضح أن هذا الرئيس لم يأت إلى يسوع إلا بعد أن استنفذ جميع الوسائل الأخرى في علاج ابنته ، فقد كان رؤساء اليهود يعتقدون أن يسوع خطر عليهم ولا يلجأون إليه، لذلك فلم يكن دافع إتيان يايرس إلى المسيح حبه للمسيح، بل إن يايرس لجأ إليه بعد فشل كل السبل الأخرى .. وكان يمكن ليسوع أن يرفض رجاءه لأن دوافعه غير سليمة، لكن يسوع يرحب ولو بحبة خردل من إيمان، ولا يفكر في كرامته أو كبريائه الشخصي..

وقد اختلفت أقوال البشيرين في حالة الصبية، فيقول لوقا إنها «في حال الموت» ويقول مرقس إنها «على آخر نسمة» ، أما متى فيقول إنها «ماتت» — وقد اتخذ النقاد من هذا الإختلاف الظاهر في الرواية مجالاً للنقد، لكن الحقيقة أنه لا يوجد اختلاف، فمتى يذكر الرسل الذين جاءوا قائلين إنها ماتت، واختصر القصة، أما مرقس ولوقا فقد وصفا القصة بالتفصيل...

ودخل يسوع بيت الرئيس، ووجد المنظر المألوف حينئذ عند الموت والحزن. فقد كان اليهود يفرضون على الناس النواح والبكاء عند موت أعزائهم ومن أقوالهم : إن من لا ينوح عند وفاة رجل حكيم يستحق أن يحرق حياً. وقد ارتبط هذا الحزن بثلاث عادات : وهي تمزيق الثياب والنوح والمزمرين.

ويقول الباحثون إنه كانت هناك عند اليهود تسع وثلاثون قاعدة لتمزيق الثياب. فمثلاً يجب أن يقف الشخص ويمزق ثيابه وهو واقف، ويكون التمزيق لكل الملابس حتى يتكشف الجلد. وبالنسبة للأب أو الأم يكون التمزيق فوق مكان القلب، أما الآخرون فيكون من الجانب الأيمن، ويجب أن يكون التمزيق كافياً لإدخال قبضة يد في الثياب الممزقة، وتبقى الحال هكذا سبعة أيام، ثم يمكن خياطتها بصورة مؤقتة يظهر فيه التمزيق لمدة ثلاثين يوماً، وبعد ذلك يمكن رتق التمزيق بكيفية صحيحة.

أما بالنسبة للنساء، فقد كانت التقاليد تقضي بتمزيق الثياب الداخلية فقط، ولبس الملابس مقلوبة دلالة على الحزن.

أما النوح على الموتى، فقد كانت هناك نساء متخصصات في هذا العمل، وكلما جاءت جماعة جديدة من المعزين، تبدأ النساء النادبات في ترديد كلمات النوح والرثاء بكيفية تثير أشجان الجميع ليشتركن في البكاء، لأن هذه الكلمات تلمس أحزان كل الحاضرين فتثير الدموع. وما زالت هذه العادات موجودة إلى الآن في الشرق.

أما المزمرون، فقد كانت عادة اليهود أن يستخدموا المزمار في حالات الحزن، وقد كان الرومان أيضاً يستخدمونه...

ويمكننا أن نتخيل منظر البيت الذي دخل إليه يسوع، ثياب ممزقة، ونواح وضجة، وأصوات المزمار.

يقول متى فقال لهم «تنحوا» .. إن يسوع لا يدخل البيت وهو بهذه الكيفية، فهم مثل راحيل التي يقول الكتاب عنها : «تبكي على أولادها ولا تريد أن تتعزى لأنهم ليسوا بموجودين» . كان ينبغي أن يقولوا كما قال داود عندما مات ابنه «عندما مرض كنت أبكي بصوم وصلاة. لكن الآن

نحن نذهب إليه وهو لا يرجع إلينا».

إن المسيح لا يسر عندما تكون الجنازات بها ضجيج .. هو يبكي لأنه يقدس الحزن، لكن أقوى حزن هو الحزن الصامت العميق...

ثم قال السيد المسيح عبارته المشهورة : «إن الصبية لم تمت لكنها نائمة». لكن هذه العبارة أثارت هزء الناس وضحكهم. أغلب الظن أن يسوع قال هذا ليهديء من روعهم، أو ليؤكد لهم أن الموت أمام السيد المسيح ليس إلا نوماً يسهل إيقاظ الإنسان منه.. لكن بعض الكتّاب ومن بينهم وليم باركلي كاتب هذا الشرح أخذوا هذه العبارة حرفياً وحذفوا هذه المعجزة من معجزات إقامة الأموات، وقالوا ما دام الميسح قال «إنها نائمة» ، فينبغي أن نصدق كلام المسيح، واستندوا في ذلك إلى أن عادة اليهود كانت سرعة دفن الموتى، وبعض الناس كانوا يدفنون أحياء وهم في حالة غيبوبة أو إغماء شديد. وقد كشفت بعض الآثار في القبور القديمة أن بعض الناس الذين دفنوا لم يكونوا أمواتاً وقت دفنهم ولكنهم واجهوا الموت الرهيب داخل القبر بعدما أفاقوا من غيبوبتهم.

وإن كان هذا لا يقلل من قدر السيد المسيح ولا من قدرته، ولا يضعف من إيماننا بقدرة المسيح على إقامة الأموات، فقد أقام لعازر بعد أن قضى أربعة أيام في القبر، ومانح الحياة من العدم يستطيع ولا شك أن يعيد الحياة بعد الموت.. لكننا نعتقد أن الصبية كانت قد ماتت فعلاً.. فلو أنها كانت لم تمت فعلاً، لعلم المسيح ذلك وقال ليايرس في الطريق إنها لم تمت، لكنه قال له ليشجعه «لا تخف .. آمن فقط» ــ وقد كان يسوع يهتم بإيمان يايرس، لأنه عن طريق إيمانه أجرى المعجزة، كما قال لمرثا «إن آمنت ترين مجد الله».

كما أن المسيح يتكلم عن الموت بأنه نوم، وقد قال عن لعازر إنه قد نام ويقصد أنه مات، وفي عدة لغات نستخدم لفظ «النوم» للدلالة على الموت.

قبل إجراء المعجزة، أخرج يسوع الجمع، وقد تساءل لماذا يطرد يسوع الناس، وغالباً كان طردهم لأحد الأسباب الآتية :

(١) كان مظهرهم وبكاؤهم وصراخهم لا يرضي يسوع.

(٢) كانوا يبكون لأنها ماتت .. لكنها ستقوم فلا داعي إذاً للبكاء.

(٣) لم يرد يسوع أن يزعج الصبية عندما يقيمها من الموت فترى صراخاً وعويلاً يؤثر على نفسيتها.

طرد يسوع الناس لأنهم ضحكوا عليه واستهزأوا به ولم يؤمنوا بقدرته. ومن يضحك على نعمة الله لا يتمتع بامتياز رؤية عملها العظيم. فهو لا يعطي القدس للكلاب ولا يطرح الدرر قدام الخنازير.

أخذ السيد تلاميذه الثلاثة وأبا الصبية وأمها ودخل إلى حيث كانت. وهنا نرى قوة يسوع وسلطانه .. أمسك بيدها وقال لها ياصبية قومي فقامت. هنا نرى كلمة الأمر، وبكلمته يحيي الموتى، ونرى امتيازه وفضله عن إيليا وأليشع اللذين أقاما أمواتاً بعد صلاة وجهود. أما يسوع فبكلمة واحدة

يعيد الحياة.

كل قوى السماء في خدمة امرأة

(متى ٩: ٢٠ ــ ٢٢)

ولو نظرنا إلى مرض هذه المرأة من وجهة النظر اليهودية، لكان مرضها من أشنع الأمراض وأكثرها مهانة ومذلة .. لذلك كان التلمود يصف أنواعاً متعددة من العلاج لنزف الدم .. ومن رواية مرقس لهذه القصة نستطيع أن نعلم أن هذه المرأة استخدمت جميع الوسائل بلا جدوى، فقد أنفقت كل مالها مدة اثنتي عشرة سنة على الأطباء ولم تستفد شيئاً بل كانت تصير إلى حالة أردأ (مرقس٢:٢٦).

وتظهر فظاعة هذا المرض في أنه يجعل الشخص المريض به نجساً من وجهة نظر الشريعة اليهودية. فشريعة موسى تذكر في (لاويين ١٥:٢٥ــ٢٧) أن المرأة نازفة الدم تعتبر نجسة، وكل شيء أو شخص تلمسه يصير نجساً ، وهي معزولة عن عبادة الله، وعن الإتصال بالناس، «وإذا كانت امرأة يسيل دمها أياما كثيرة في غير وقت طمثها أو إذا سال بعد طمثها فتكون كل أيام سيلان نجاستها كما في أيام طمثها. إنها نجسة كل فراش تضطجع عليه كل أيام سيلها يكون لها كفراش طمثها . وكل الأمتعة التي تجلس عليها تكون نجسة كنجاسة طمثها. وكل من مسهن يكون نجساً فيغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء» (لاويين١٥:٢٥ــ٢٧).

ولو أن الناس عرفوا مرض هذه المرأة لمنعوها أن تدخل وسط الجماهير المحيطة بالسيد المسيح، لأنها كانت تنجس كل من تلمسه .. لذلك لا غرابة أن نجد هذه المرأة تسعى بكل ما أوتيت من جهد لتنال الشفاء بأية وسيلة.

جاءت هذه المرأة حسب بساطة إيمانها لتلمس هدب ثوب المسيح .. وقد كان اليهود يلبسون الثياب وبها هذه الأهداب تنفيذاً للشريعة التي أوصت بارتدائها في سفر العدد ١٥:٢٧ــ٤١، وتثنية٢٢:١٢.

«وكلم الرب موسى قائلاً. كلم بني إسرائيل وقل لهم أن يصنعوا لهم أهداباً في أذيال ثيابهم في أجيالهم، ويجعلوا على هدب الذيل عصابة من أسمانجوني، فتكون لهم هدباً فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتعملونها ولا تطوفون وراء قلوبكم وأعينكم التي أنتم فاسقون وراءها لكي تذكروا وتعملوا كل وصاياي وتكونوا مقدسين لإلهكم» (عدد١٥:٣٧ــ٤٠).

«إعمل لنفسك جدائل على أربعة أطراف ثوبك الذي تتغطى به» (تثنية٢٢:١٢).

كانت الأهداب دلالة لليهود على أنهم مقدسون للرب، وصارت علامة للتقوى، وصار الفريسيون «يعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم» (متى٢٣:٥) لكي يظهروا للناس تقواهم.

وكانت المرأة تعتقد أن يسوع إنسان تقي قريب من الله، ومجرد لمسة لهدب ثوبه ستشفيها ..

كان إيمانها أيماناً ناقصاً، فنحن لا نؤمن بالتمائم والأشياء التي يتبرك بها الناس .. لكن يسوع لم يطفيء فتيلة إيمانها المدخنة أو قصبة أملها المرضوضة، بل كافأ هذا الإيمان الساذج، ليقويه فيصير إيماناً صحيحاً.

وعندما لمست المرأة هدب ثوب المسيح، كأن الزمن توقف، وتفجرت ينابيع الطاقة الإلهية كلها لتصل إلى هذه المرأة بقوة الشفاء .. لقد وقف يسوع ووقف الموكب كله، وكأنه لم يكن في الوجود سوى هذه المرأة المتطلعة إلى الشفاء...

لم تكن هذه المرأة في نظر المسيح فرداً ضائعاً وسط الزحام البشري، بل صارت الفرد الذي استحوذ على كل القوى السماوية في لحظة من الزمان، وكما قال أحد الأدباء المسيحيين :

«إن محبة الله لانهائية بالنسبة لكل فرد، لأن كل فرد له مكان فريد في قلب الله»...

لكن العالم ليس هكذا، فالناس يقسمون الناس إلى طوائف وطبقات يميزون إنساناً عن آخر. وعندما غرقت السفينة العظيمة تيتانيك سنة ١٩١٣ في المحيط الأطلنطي غرق فيها نحو ١٨٠٠ شخص، لكن إحدى الصحف الأمريكية، خصصت عموداً في صفحاتها، لتنشر فيه أن المليونير «جون جاكوب أستور» غرق في هذه الكارثة. وقالت إن ١٨٠٠ شخصاً آخر ماتوا معه...

إن الناس قد تنسى في الزحام البسطاء والضعفاء، لكن الله لا ينسى أحداً، ففي ساعة الحاجة كانت هذه المرأة المحتاجة مركزاً لاهتمام قوى السماء كلها .. ونالت الشفاء .. فسرعان ما لمست يسوع، وسمعت بشارة الشفاء جف ينبوع دمها في الحال.

ويرى بعض الشراح أن هذه المعجزة تعطى لنا صورة تمثيلية لقصة خلاص الخاطيء.. فشكوى هذه المرأة من نزف الدم إشارة إلى شكوى البشرية من ينبوع الخطية المتجدد في نفس الإنسان، والصادر من طبيعة الإنسان الفاسدة . أما الأطباء الذين أنفقت كل مالها عليهم ولم تستفد شيئاً فهم يشيرون إلى حكماء العالم ونظرياته . فحكمة العالم لا تفيد الخاطيء شيئاً بل قد توصله إلى حال أردأ. ولمسة هذه المرأة لثوب المسيح هي الإيمان بتجسد المسيح، الذي فيه اقترب منا هو أولاً فلمسناه ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب .. والإيمان يجدد الإنسان في لحظة واحدة كما جف ينبوع دم المرأة في الحال. وفي صورة اقتراب المرأة خلسة من المسيح لأنها كانت معتبرة نجسة عند الناس، نرى صورة الخاطيء الذي يقترب من عرش النعمة خجلاً خائفاً متردداً، لكن الله يرحب به، ويخرجه ببركات موفورة رائعة.

إمتحان الإيمان ومكافأته

(متى ٩:٢٧ ــ ٣١)

كان العمى وأمراض العيون أمراً شائعاً في بلاد فلسطين، وربما كان من بين أسباب ذلك قلة الغيوم والشمس الحارقة وأثرها في العيون، هذا بالإضافة إلى انتشار الذباب الذي ينشر أمراض العيون،

مع عدم اتباع قواعد النظافة والرعاية الصحية.

كان يسوع مجتازاً فتبعه الأعميان وخاطباه بالقول «يا ابن داود» — وإذا درسنا ورود هذا التعبير «ابن داود» في الإنجيل، نجد أنه في أغلب الأحيان كان يستخدمه من عرفوا يسوع عن بعد لا عن قرب (متى١٥: ٢٢و٢٠: ٣٠، ٣١ ومرقس ١٠: ٤٧و١٢: ٣٥، ٣٦، ٣٧) فهو تعبير يصف السيد المسيح باعتباره المسيا حسب الفكرة التي كانت شائعة عند اليهود عن المسيا وعمله. فقد كان اليهود ينتظرون المسيا من نسل داود ليكون قائداً سياسياً وزعيماً مدنياً لهم يحررهم من العبودية ويقودهم نحو المجد والنصرة على بلاد العالم. ولم يكن هذا هو قصد الله من جهة المسيا ورسالته، لكن اليهود فهموا الحقيقة خطأ، وكانت هذه هي نظرة الأعميين إلى يسوع.. صانع معجزات فحسب.

ونحن نرى أنه رغم تقدم هذين الرجلين إلى يسوع بفكرة غير صحيحة عنه لكن يسوع اهتم بهما وأعاد إليهما البصر. ونجد في أسلوب السيد الذي اتبعه معهما دروساً نافعة :

١ — فهو لم يستجب لهما سريعاً ليتأكد من إيمانهما .. هل هما حقاً يطلبان ذلك ويريدانه أم هما مندفعان بحماسة الجماهير فحسب .. إن الإنسان قد يسير في تيار الجماهير ويطلب شيئاً لا يكون مهتماً به إهتماماً كافياً، بمجرد تأثره بعقلية الجماهير...

بعض الناس يطلبون شيئاً مع الجماهير لكنهم في أعماق نفوسهم لا يريدونه وعلم النفس يوضح لنا أن بعض المرضى لا يريدون الشفاء في عقولهم الباطنة، لأن المرض بالنسبة لهم استدرار لشفقة وعطف الآخرين . وبالنسبة لهذين الأعميين كان الإبصار معناه تحمل مسئولية العمل والكفاح لأجل لقمة العيش. وقد أطال السيد انتظاره على الأعميين ليحكم إذا ما كانا يريدان حقاً أن ينالا البصر ومتطلباته، أم يفضلان الإستجداء وهو وسيلة رخيصة بلا مجهود.

٢ — كما أن يسوع اضطرهما إلى مقابلته في البيت، ليرياه على انفراد. وهذا هو قانون الحياة الروحية، أن يلتقي الإنسان وحده مع يسوع .. إن حماسة الإندفاع مع الجماهير لا تدوم، لكن الانفراد بيسوع هو طريق بدء الحياة الروحية الصحيحة.

٣ — ثم سألهما يسوع عن إيمانهما بقدرته على إعادة البصر إليهما .. وهنا نرى أنه حتى الله نفسه لا يقدر أن يعمل إلا إذا كان لدينا الإيمان والاستعداد لقبول عمله .. والدواء الذي يتناوله المريض بدون إيمان لا فائدة منه.

لا حياد إزاء المسيح

(متى ٩: ٣٢ — ٣٤)

هذه الفقرة تبين لنا بكيفية واضحة استحالة إتخاذ موقف حيادي إزاء المسيح، فلا بد من مواجهة المسيح واتخاذ موقف معين إزاءه.

هنا نرى موقفين متباينين : موقف عامة الشعب الذين تعجبوا وانبهروا من معجزات المسيح

الرائعة، وموقف جماعة الفريسيين الذين انتقدوا يسوع وكرهوه. وكان كل من هذين الموقفين يتلون بحسب العين التي يتطلع بها الأفراد نحو شخصية المسيح. ذلك لأن إحساس الإنسان يلون تفكيره وموقفه إزاء العمل الواحد.

هنا نرى الجماهير تتطلع إلى يسوع بإعجاب، لأن الجماهير كانت تتألف من قوم بسطاء يشعرون شعوراً عميقاً بحاجتهم، وقد رأوا حاجاتهم مكفولة عند المسيح بكيفية رائعة. وهكذا يكون المسيح عظيماً ورائعاً عند كل إنسان يشعر بحاجته إليه ... وكلما زادت الحاجة إلى المسيح، زاد إحساس الفرد بعظمة المسيح.

أما جماعة الفريسيين فقد قالوا إن يسوع متحد ومتفاهم مع قوى الشياطين لم ينكروا قدرته العجيبة، لكنهم نسبوها إلى الشيطان فقالوا إنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين.

ما سر انتقاد الفريسيين ليسوع :

١ ــ الجمود : فقد كان تفكيرهم جامداً لا يقبل التغيير أبداً، وفي نظرهم لا يمكن إضافة كلمة واحدة أو حذف كلمة واحدة من الناموس، وكل شيء أو تفسير جديد خطأ في نظرهم. وقد جاء يسوع بتفسير جديد للديانة. لذلك كرهوه كما كرهوا الأنبياء قديماً.

٢ ــ الكبرياء : لقد كانوا متكبرين وراضين عن أحوالهم بكيفية يتعذر عليهم فيها اعترافهم بالخطأ، لذلك لم يقبلوا رأي المسيح، فإذا كان يسوع على حق فلا بد أن يكونوا هم مخطئين، لأن يسوع كان يختلف معهم في الرأي، وكيف يقبلون الإقرار بالخطأ؟

إن طريق الملكوت هو التوبة، والتوبة تشتمل على الاعتراف بالخطأ والإلتجاء إلى الله، والتسليم بأن في المسيح وحده توجد الحياة، وفي الخضوع له ينبوع القوة والبركة والتغيير.

٣ ــ التعصب : لقد أعمى التعصب عيونهم فقالوا إنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين .. لم يروا قوة الله في يسوع ونسبوها إلى الشياطين. وقد أجاب يسوع على قولهم هذا في مكان آخر : إنه لا يمكن أن ينقسم الشيطان على ذاته لأن كل مملكة تنقسم على ذاتها تخرب.

إن طريق المسيحية هو طريق المرونة وتقبل حقائق المسيح دون تعصب..

وهكذا نرى من هذه الآيات أن من يشعر بحاجته ، يرى في المسيح شخصية عظيمة باهرة، أما صاحب الفكر الجامد، والمتكبر الذي لا يعترف بالخطأ، والمتعصب الذي لا يرى الحقائق ، فسوف يظل كارهاً للمسيح مبتعداً عنه.

عمل يسوع الثلاثي

(متى ٩:٣٥)

في عبارة واحدة وصف متى البشير العمل الثلاثي الذي كان أساساً لحياة المسيح وخدمته.

١ ــ فقد كان يسوع «كارزاً» . والكارز هو من يحمل رسالة من الملك، وقد كان يسوع يحمل رسالة من الله. ومن واجب الكارز أن يعلن الحقائق المؤكدة، وهكذا ينبغي أن تكون كرازتنا إعلان حقائق مؤكدة تؤمن بها وتقنع بها الناس ليتأكدوها هم أيضاً. وأن هذه الأيام التي نحيا فيها لفي حاجة قصوى إلى الحقائق في الوقت الذي ضل فيه كثيرون عن الحق، وعاشوا في الحيرة والشكوك كمسافر وقف على مفترق الطرق، ولم يجد إشارة في الطريق تدله إلى أين يسير.

إننا نحيا في عصر فقد فيه الناس الإيمان بأي شيء، لذلك فهم في حاجة إلى كارز يعلن لهم الحقائق التي يجب أن يحيا بها الناس، ونحن أيضاً ينبغي أن نقدر أن نقول «لأني عالم بمن آمنت».

٢ ــ وقد كان يسوع معلماً فلا يكفي إعلان البشارة ثم تركها، بل ينبغي أن نعلم الناس دلالة هذه الحقائق في حياتهم كل يوم ــ هذا هو التعليم. ونحن نعلم الناس المسيحية لا بالكلام عنها بل بأن نحياها ــ إن واجبنا لا أن نكتفي بالحديث عن يسوع مع الناس، بل أن نريهم يسوع. وقد أراد بعضهم أن يعرفوا ما هو القديس، فقالوا أن القديس هو الإنسان الذي تتكرر في حياته حياة المسيح.

وعلى كل مسيحي أن يكون معلماً للمسيحية، لا بكلامه فحسب، بل بحياته.

٣ ــ وقد كان يسوع شافياً للناس، فلم يقف إنجيله عند الكلام والتعليم بل تعدى ذلك إلى العمل. وعندما نقرأ خلال بشائر الإنجيل، نستطيع أن نتبين كيف أن يسوع صرف أغلب وقته في شفاء المرضى، وإطعام الجياع، وتعزية الحزانى والمتألمين، أكثر من حديثه عن الله . لقد ترجم كلمات الحق المسيحي إلى أعمال الحب المسيحي. ونحن لن نكون مسيحيين فعلاً ما لم نترجم إيماننا المسيحي إلى أعمال مسيحية. وإن كان الكهنة يعتقدون أن الديانة هي تقديم الذبائح وإن كان الكتبة يقولون إن الديانة هي الناموس، لكن يسوع المسيح قال إن الديانة هي المحبة.

الحنان الإلهي

(متى ٩:٣٦)

عندما رأى يسوع الجموع، الرجال والنساء العاديين فاض قلبه بالحنان عليهم .. والكلمة اليونانية المترجمة «تحنن» تصف أقوى عواطف الشفقة وأعمقها، ويمكن أن تترجم «فاضت أحشاؤه بالحنان» وفي بشائر الإنجيل لا نرى استخداماً لهذه الكلمة إلا في بعض الأمثال، ثم في وصف عواطف السيد فقط (أنظر متى٩:٣٦، ١٤:١٤، ١٥:٣٢، ٢٠:٣٤ ومرقس١:٤١، ولوقا٧:١٣).

وإذا درسنا هذه الشواهد الكتابية استطعنا أن نعرف الدواعي التي أثارت حنان يسوع وعطفه وشفقته، ومنها نرى ما يلي :

١ ــ إن آلام الدنيا التي يجوز فيها البشر، أثارت حنان يسوع. فقد تحنن على المرضى كما في متى ١٤:١٤ « فلما خرج يسوع أبصر جمعاً فتحنن عليهم وشفى مرضاهم» ، وعلى العميات كما

في متى ٢٠: ٣٤ «فتحنن يسوع ولمس أعينهما فللوقت أبصرت أعينهما» ، وعلى الذين في قبضة الشيطان كما في مرقس ٩: ٢٢ «إن كنت تستطيع شيئاً فتحنن علينا وأعنا».

إن يسوع في كل ضيقنا تضايق، ولم يكن يرى متألماً إلا ويشتاق أن يخفف عنه الألم.

٢ ـــ وقد أثارت أحزان العالم شفقة المسيح وحنانه. ففي لوقا ٧: ١٢ــ ١٤ نراه يرى ابن أرملة نايين الوحيد محمولاً على نعش، فامتلأ قلبه بالحنان «ولما رآها الرب تحنن عليها وقال لها لا تبكي» واستطاع أن يمسح دموعها، لأن هذه هي رغبته أن يخفف أحزان الناس.

٣ ـــ وقد أثار جوع العالم حنان السيد، فعندما رأى الجموع جياعاً قال لتلاميذه «إني أشفق على الجمع لأن لهم الآن ثلاثة أيام يمكثون معي وليس لهم ما يأكلون، ولست أريد أن أصرفهم صائمين لئلا يخوروا في الطريق» متى ١٥: ٣٢ ـــ والمسيحي الحقيقي لا يشعر بالسعادة إذا كان لديه أكثر مما ينبغي، بينما الآخرون لديهم أقل مما ينبغي.

٤ ـــ ومما أثار حنان يسوع، ما يعانيه بعض الناس من عزلة وانفراد في المجتمع. فقد رأى الأبرص معزولاً عن المجتمع، يحيا وحده كأنه ميت بالنسبة للآخرين «فتحنن يسوع ومد يده ولمسه وقال له أريد فأطهر» (مرقس١: ٤١).

٥ ـــ وقد تحنن يسوع على الناس المنزعجين المنطرحين كغنم لا راعي لها، كما يبدو من النص الذي نحن بصدده .. لقد كان الناس العاديون يشتاقون لمعرفة الله، لكن قادة الدين في تلك الأيام من كتبة وفريسيين وصدوقيين، لم تكن عندهم رسالة يقدمونها لهم .. لم يكن لديهم إرشاد أو عزاء أو قوة يقدمونها لهم.. لذلك تصورهم يسوع منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعي لها . أو كمسافرين لا يعرفون الطريق أين نهاية الطريق .. فأشفق عليهم وتحنن.

لقد كان قادة اليهود يزعجون الناس العاديين بمناقشات عديدة عن الناموس، لم يكن فيها للناس عزاء ولا راحة ... وفي الوقت الذي كان ينبغي عليهم أن يساعدوا الناس على الوقوف على أقدامهم، كانوا يضعون أحمالاً ثقيلة على كواهلهم .. أحمال ناموس الكتبة الثقيلة .. كانت الديانة التي قدموها للناس عبئاً لا عضداً.

لذلك علينا أن نذكر على الدوام أن المسيحية لم توجد لتثبيط همم الناس، بل لتشجيعهم .. ولم توجد لإحناء ظهور الناس بالأثقال، بل لتكون للناس أجنحة ترفعهم وتسمو بحياتهم.

الحصاد المنتظر

(متى ٩: ٣٧ و٣٨)

وهنا نرى أحد الأقوال الرائعة التي ذكرها السيد ... فقد كان يتطلع إلى جماهير الشعب العادي، وكان قادة الدين في عصره ينظرون إليهم أيضاً ... لكن شتان بين النظرتين .. لقد رأى الفريسيون في الناس العاديين تبناً معداً للحريق، أما يسوع فرأى فيهم محصولاً معداً للحصاد والخلاص ...

لقد كان الفريسيون في كبرئاهم الروحية يتوقعون هلاك من أسموهم بالخطاة ، أما يسوع ففي محبته مات ليخلص هؤلاء الخطاة.

وفي هذا القول نرى حقيقة تطالعنا بالنداء والتحدي، فالمحصول لا يمكن أن يجمع ويحصد ما لم تمتد إليه أيدى الحصادين فتجمعه .. إنها حقيقة أساسية في الإيمان المسيحي والحياة المسيحية أن المسيح يحتاج إلى البشر .. فعندما كان هنا على الأرض وصل صوته إلى قليلين، فلم تطأ أقدامه خارج بلاد فلسطين .. لكن هناك عالماً متسعاً ينتظر أن يسمع أخبار الإنجيل .. من ينقل البشارة إلى هؤلاء إلا إذا وجد من يحملها إليهم.

إن يسوع يريد الطفل أن يتعلم .. لكن هل يتعلم الطفل بلا معلم .. إن الناس لن يسمعوا البشارة، ما لم يوجد من يعبرون الجبال والمحيطات لينقلوا إليهم رسالة المسيح.

حتى الصلاة وحدها ليست كافية، فقد يقول إنسان إنه يصلي ليلاً ونهاراً لمجيء ملكوت المسيح. لكن الصلاة هنا دون عمل صلاة ميتة.

كان لمارتن لوثر راهب صديق، شعر مثله من جهه الخلاص بالإيمان .. وتحدثا معاً في الأمر، واتفقا على أن يخرج مارتن لوثر إلى الميدان ليحارب ويجاهد في معركة الإصلاح الديني، بينما يبقى صديقه في الدير مصلياً على ركبتيه لأجله .. واستمر الحال هكذا إلى أن حلم الراهب الصديق ذات ليلة حلماً وإذا هو في حقل كبير متسع مليء بالقمح، ورأى رجلاً واحداً وحيداً يقوم بعملية الحصاد .. فأشفق عليه ، وقال في نفسه إن هذا العمل أكبر من جهد إنسان واحد أياً كان .. وتطلع إلى وجه الحاصد الوحيد فرأى فيه صديقه مارتن لوثر .. وأدرك الراهب رسالة الحلم، وترك وحدته وصلواته وخرج إلى ميدان الجهاد يشارك رفيقه وصديقه.

إن حلم المسيح أن يصير كل إنسان حاصداً ومبشراً .. بعض الناس مرضى وعاجزون ولا يستطيعون إلا أن يصلوا، وهؤلاء صلواتهم لازمة وضرورية. لكن أكثر الناس لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً أكثر من مجرد الصلاة .. وشيئاً أكثر من مجرد العطاء .. ولن يتم الحصاد إلا إذا قام هؤلاء الأكثرون بواجبهم على الوجه الأكمل.

الأصحاح العاشر

رسل الملك

(متى ١٠ : ١ ــ ٤)

يتخذ متى أسلوباً منظماً يروى به قصة حياة يسوع، ولكنه لا يجعل النظام يحرم روايته من الحياة والحركة. ففي قصة المعمودية يظهر لنا كيف قبل يسوع العمل الموكول إليه، وفي قصة التجربة يبين لنا الأسلوب الذي قرر يسوع أن يتخذه لإنجاز هذا العمل، أسلوب التضحية والصليب لا القوة والآيات، وفي العظة على الجبل نستمع إلى كلمات حكمة يسوع، كما نرى في الأصحاح الثامن أعمال قدرته، وفي الأصحاح التاسع نرى تضافر القوى اليهودية لمقاومة يسوع. والآن في الأصحاح العاشر، نرى يسوع يختار رجاله، وهذا هو شأن كل قائد يريد أن يقوم بعمل عظيم، فإنه يختار الجماعة التي تعاونه في هذا العمل. فإن على مثل هذه الجماعة يتوقف الأثر في الحاضر والنجاح في المستقبل. ونحن في هذا الأصحاح نرى يسوع يختار الرسل الذين يعملون معه أثناء حياته في الجسد، والذين سيترك لهم مهمة بث دعوته عندما يصعد عائداً إلى المجد.

وأول ما نلاحظه في عملية الإختيار هذه حقيقتين بارزتين :

الأولى : إن هؤلاء الرسل الذين اختارهم كانوا من طراز عادي من البشر، فلم تكن لديهم ثروة من المال، ولا قدر وافر من الثقافة والتعليم، ولم يكن لهم مركز اجتماعي بارز. لقد اختارهم من الناس العاديين. وقد قيل في هذا الصدد أن يسوع يبحث عن الإنسان العادي الذي يمكنه القيام بالأعمال العادية أكثر مما يبحث عن الأفذاذ. إن يسوع يرى في كل إنسان إمكانيات كامنة يمكن أن تنطلق، فهو لا يرى الإنسان كما هو فحسب، بل يراه في الصورة التي يمكن أن يصير عليها بمعونة الله ونعمته. لقد اختار الرسل، لا بحسب ما كانوا عليه فقط، بل بحسب الإمكانات التي رآهم قادرين عليها عندما تمتلكهم قوته، ويدخلون تحت تأثيراته المباركة. ولا يستطيع أي إنسان أن يقول إنه لا يملك ما يمكن تقديمه للمسيح، فيسوع قادر أن يأخذ الأشياء العادية ويستخدمها لتصير قوة رائعة عظيمة.

الحقيقة الثانية : كان هؤلاء الرسل خليطاً عجيباً من الشخصيات فمنهم كان متى العشار، الذي يعتبره الكثيرون رجلاً باع نفسه للرومان الغاصبين في سبيل الربح، ومع متى كان هناك سمعان القانوني الذي يسميه لوقا سمعان «الغيور» (لوقا٦:١٦). ويصف يوسيفوس المؤرخ المشهور جماعة الغيورين هذه بأنهم كانوا الجماعة الرابعة من جماعات اليهود مع الفريسيين والصدوقيين والأسينيين . وكان أفراد هذه الجماعة متعصبين لقوميتهم إلى أبعد الحدود، ويطلبون التحرر من نير حكم الرومان بأي ثمن، قائلين إن الله وحده هو ربهم وحاكمهم. كانوا على استعداد أن يموتوا في سبيل وطنهم، ولا يفزعون من رؤية أغلى أحبائهم يموتون في سبيل الحرية، وكانوا يرفضون أن يطلقوا لقب «ملك» على أي شخص أرضي، كما كانوا لا يتورعون أن يقوموا بجميع الأعمال التخريبية في الخفاء بما فيها

الاغتيال ليحرروا وطنهم.

هذه هي الجماعة التي كان منها «سمعان الغيور» ، ومن الطبيعي أن نفترض أنه لو لاقى سمعان الغيور متى العشار في أي مكان، لما تردد أن يغمد خنجراً في صدره. ولكننا نرى الاثنين معاً في جماعة تلاميذ المسيح، نموذجاً عملياً رائعاً لقدرة محبة المسيح على جمع النقيضين معاً...

إن التدين الحقيقي لا يفرق بين الناس، بل يوحد القلوب معاً.

ومن ثم نرى بين تلاميذ المسيح الجسور المقدام كبطرس، والهادىء الصامت كاندراوس، وقوى العاطفة كيوحنا، وكثير الشك كتوما .. إنها مجموعة متباينة من الشخصيات، شعر المسيح أنه في حاجة إلى كل نوع منها في خدمته.

وقد تساءل البعض لماذا اختار يسوع هذا العدد «اثنى عشر» ، ولعل السبب هو أنه في العهد القديم كان هناك اثنا عشر سبطاً في إسرائيل، وهكذا في العهد الجديد اختار اثني عشر رسولاً إسرائيل الروحي الجديد. والعهد الجديد لا يحدثنا كثيراً عن هؤلاء الأشخاص، لأن العمل أكثر من العاملين. ومع أننا لا نعرف كثيراً عنهم، إلا أن العهد الجديد يظهر لنا أهميتهم في الكنيسة، لأن سفر الرؤيا يصف لنا سور المدينة المقدسة بأنه «كان له اثنا عشر أساساً وعليها أسماء رسل الحمل الاثني عشر» (رؤيا ٢١:١٤).

هؤلاء الرجال العاديون بثقافتهم المحدودة، وشخصياتهم المتباينة، كانوا حجارة الأساس التي بنيت عليها الكنيسة. إن الكنيسة تعتمد في كيانها وأساسها على أشخاص عاديين من رجال ونساء.

تعيين الرسل :

عندما نقرأ رواية البشيرين الثلاثة عن دعوة الاثنى عشر في متى (١٠:١ــ٤ ومرقس٣: ١٣ــ١٩ ولوقا٦: ١٣ــ١٦). ونربط هذه الروايات معاً، تتضح لنا الحقائق التالية :

(١) يسوع اختارهم : فإن لوقا يذكر (لو٦:١٣) أن يسوع بعد أن قضى الليل كله في الصلاة، دعا تلاميذه واختار منهم اثني عشر الذين سماهم أيضاً رسلاً. ونحن نستطيع أن نتصور يسوع يمر بعينيه على الجموع المحتشدة من تابعيه، وعلى الجماعة القليلة التي بقيت بعد أن تفرقت الجموع، باحثاً عن الأفراد الذين سيعهد إليهم بمسئولية العمل العظيم. وكما قيل إن الله يبحث دائماً عن أياد يستخدمها، فإن الله دائماً يقول «من أرسل ومن يذهب من أجلنا» (إشعياء ٦:٨) ــ توجد أعمال كثيرة في الملكوت، أعمال لمن يخرجون إلى خارج، وأعمال لمن يبقون في البيت، أعمال لمن يستخدم يديه، وأعمال لمن يستخدم عقله، أعمال تجتذب أنظار الناس نحو من يعملونها، وأعمال لا يراها أحد.. ويسوع يتطلع نحو الجماهير باحثاً عمن يستخدمهم لهذه الأعمال..

(٢) يسوع دعاهم : إن يسوع لا يرغم إنساناً أن يعمل عمله، إنه يعرض العمل عليه فحسب.. إنه لا يلزم إنساناً ، لكنه يدعو الناس .. إنه لا يريد أن يسخر الناس، لكنه يبحث عن متطوعين،

والإنسان حر أن يقبل الدعوة أو يرفضها، والإنسان حر أن يكون أميناً، وحر أيضاً أن لا يكون أميناً، ويسوع يدعو .. والإنسان له أن يقبل الدعوة أو لا يقبلها.

(٣) يسوع عينهم : كان يسوع كالملك الذي يعين رجالاً ليكونوا وزراء له، أو كقائد يعين قادة لألوية جيشه .. إن جيش المسيح لا يضم الناس إليه بلا وعي، لكنه يعين الناس بعد تفكير وتأمل وروية، والإنسان الذي يفتخر إذا عينه الملك أو الرئيس في منصب ما، فهو أحق بالإفتخار عندما يعينه ملك الملوك .

(٤) والمسيح عينهم من بين التلاميذ : وكلمة تلميذ معناها متعلم أو شخص يتعلم. إن من يعينهم المسيح لا بد أن تكون لهم قابلية للتعلم. إذا أغلقنا عقولنا أو تصورنا أننا قد وصلنا إلى كل العلم، فإننا لن نستطيع أن نخدم يسوع. وخادم المسيح لا بد أن يكون له الاستعداد أن يتعلم يوماً بعد يوم، وكل يوم يمضي يقربه خطوة إلى المسيح، وإلى الله.

(٥) والأسباب التي اختارهم لأجلها لها دلالتها : لقد اختارهم «ليكونوا معه» (مرقس٣:١٤). فإذا كان عليهم أن يعملوا عمله في العالم، فيجب أن يعيشوا في محضره قبل أن يخرجوا إلى العالم... يجب أن يخرجوا إلى حضرة الناس بعد أن يكونوا قد عاشوا في حضرة المسيح.

قيل إن أحد الوعاظ قدم ذات يوم عظة كانت ذات تأثير بالغ في نفوس الناس، وبعد الخدمة قال له أحد أصدقائه «لقد وعظت اليوم كأنك جئت للتو من محضر يسوع المسيح» ، فرد عليه بالقول «ربما كنت كذلك».

لا يمكن لإنسان أن يعمل عمل المسيح، دون أن يتزود من الشركة معه. ونحن في ارتباكات الحياة ومشغولياتها، حتى في الكنيسة قد ننشغل بأعمال الكنيسة الإدارية ولجانها ومجامعها، وننسى أن كل هذه البرامج الكبيرة لا يمكن أن تسير سيراً ناجحاً، إلا إذا كان الناس الذين يقومون بها قد كانوا مع المسيح، قبل أن يخرجوا ليكونوا مع البشر.

(٦) وقد دعاهم ليكونوا رسلاً (مرقس٣:١٤، لوقا٦:١٣) والرسول هو الشخص الذي يرسل لرسالة معينة. إنه مبعوث أو سفير. والمسيحي سفير ليسوع المسيح أمام الناس، إنه يأتي من عند يسوع حاملاً كلامه وجماله ومحبته إلى البشر.

(٧) ولقد دعاهم ليكونوا منادين كارزين : فالمسيحي كارز ليسوع المسيح يأتي برسالة أو إعلان منه إلى الناس. فالمسيحي لا يحمل إلى البشر أفكاره أو آراءه الخاصة ، بل أفكار يسوع المسيح .. لذلك يجب عليه أن يكون قد تلقى الرسالة أولاً من يسوع ليستطيع أن يبلغها إلى الغير.

مهمة رسول الملك

(متى ١٠ : ٥ ــ ٨)

هنا نرى يسوع يرسل رسله، ويوصيهم ويأمرهم بما تقتضيه مهتمهم العظيمة . والكلمة اليونانية

المترجمة هنا «أوصاهم» هي كلمة «Paraggellein» وهي تشير إلى مجموعة من المعاني، تنير لنا السبيل إلى فهم موجز هؤلاء الرسل ومقامهم.

(١) فهي تستخدم في القيادات العسكرية والأوامر في الجيوش، وكأنما يسوع هنا قائد جيش يرسل جنوده إلى ميدان القتال ويوصيهم بمقتضيات الحملة التي يرسلهم فيها.

(٢) وهي تستخدم من الصديق حينما يدعو أصدقاءه لمعونته، وهنا نرى يسوع وقد امتلكه المثل الأعلى الذي ينشده، يدعو أصدقاءه ليحققوا هذا المثل الأعلى الذي يسعى إليه.

(٣) وهي تستخدم لوصف التعاليم والإرشادات التي يقدمها معلم عظيم أو فيلسوف لتلاميذه ومريديه، وهكذا يوصي يسوع تلاميذه قبل أن يرسلهم إلى العالم.

(٤) وهي تستخدم لوصف الأوامر الإمبراطورية، فكأنما يسوع ملك يرسل سفراءه ، ويقدم لهم الوصايا اللازمة لنجاح مهمتهم التي أرسلهم إليها.

مشكلة الأمم والسامريين :

وقارىء هذه الفقرة تعترضه في مستهل هذه الوصايا هذه الوصية الغريبة التي يقول فيها يسوع لتلاميذه «إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا». فإن الروح البادي في هذه العبارة يختلف إختلافاً بيناً عن تعاليم المسيح، مما جعل بعض الشراح أن يعتقدوا أن السيد المسيح لم ينطق بهذه العبارة، ولكنها مدسوسة إلى أقواله في وقت متأخر بواسطة بعض قادة الكنيسة ممن كانوا ينادون أن تقتصر رسالة الإنجيل على اليهود فقط، وكانوا يقاومون بولس الرسول في دعوته لتقديم الإنجيل إلى الأمم...

لكننا نرى أن هذه العبارة ما كان يمكن أن يتضمنها الإنجيل لو لم يكن يسوع قد نطق بها فعلاً، وأنه لا بد من تفسير لهذه العبارة.

وأول ما ينبغي أن نفكر فيه هو أن هذا الأمر لم يكن مقصوداً به أن يكون أمراً دائماً، أو سياسة مرسومة على الدوام، لأننا في رواية الإنجيل نفسه نرى من الأدلة ما يؤكد لنا أن يسوع كان يفتح قلبه وحياته ورسالته لجميع الناس على اختلاف جنسياتهم. فهو يتحدث في عطف ومودة، ويكشف ذاته لإمرأة من السامرة عند بئر يعقوب (يو ٤:٤ — ٤٢) ونستمع إليه يذكر قصة خالدة بطلها سامري في مثل السامرى الصالح (لو ١٠ : ٣٠) ، ونراه يشفي ابنه لإمرأة فينيقية (متى ٢٨:١٥) . وأن متى نفسه يروى في خاتمة بشارته أن يسوع أمر تلاميذه أن يذهبوا إلى العالم ويكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها (متى٢٧:١٩و٢٠).

ما تفسير هذه العبارة إذاً ؟

لقد أوصى تلاميذه أن لا يمضوا إلى طريق أمم، بمعنى أن لا يذهبوا شمالاً إلى سورية، ولا شرقاً إلى ما بين النهرين، وأن لا يدخلوا إلى مدينة للسامريين بمعنى أن لا يتجهوا جنوباً إلى السامرة .. وكأنما أراد يسوع أن تصير خدمتهم قاصرة على إقليم الجليل فقط. وعندما نتأمل في الأمر ملياً،

نرى أسباباً معقولة تدعو إلى هذا التحديد:

(١) فقد كان لليهود مكان خاص في خطة الله، لذلك كانت عدالة الله تقتضي أن تكون لهم الفرصة الأولى في سماع رسالة الإنجيل، حقيقة إنهم رفضوا الإنجيل، لكن سير الأحداث التاريخية كان يحتم أن تكون لهم الفرصة الأولى.

(٢) كما أن التلاميذ لم يكن لهم الإعداد الكافي ليقدموا رسالة الإنجيل إلى الأمم، فلم تكن لهم المعرفة الكافية، ولا الأسلوب المناسب .. كان الحال يتطلب ظهور شخصية مثل بولس الرسول ليقدم هذه الرسالة بالطريقة المناسبة الفعالة، ولو أنهم قدموا الرسالة إلى الأمم لما صادفت النجاح المطلوب ... وفي هذا نجد درساً صالحاً لكل الأجيال، فعلى كل من يحمل رسالة الإنجيل أن يعرف حدوده وإمكانياته ، لكي لا يقدم رسالة الإنجيل لمن لا يستطيع أن يوصلها لهم بالكيفية المؤثرة .

(٣) ولعل السبب القوي والأخير هو أن كل قائد ناجح لا بد أن يحدد أغراضه، ويختار أهدافاً محددة يوجه إليها قواه، أما إذا شتت جنوده هنا وهناك، ووزع قوته دون هدف محدد، فإنه يتعرض للفشل. وكلما كانت قواه محدودة، لزم الأمر تحديد الأهداف التي يتجه إليها.

لقد عرف يسوع هذه الحقيقة، لذلك أراد أن تتركز خدمة التلاميذ الأولى في الجليل، ذلك لأن إقليم الجليل كما ذكرنا من قبل (أنظر شرح متى٤:١٢ــ١٧). كان يعتبر أكثر أقاليم فلسطين تفتحاً لقبول الرسالة الجديدة.

لقد كانت تلك الوصية أمراً مؤقتاً، لكي لا تتوزع جهود التلاميذ وتتفرق مجهوداتهم، فلم يكن هذا تعصباً من المسيح لليهود، بل كان ذلك حكمة منه وسياسة ضرورية لنجاح الرسالة.

كلمات الرسول وأعماله :

١ ــ كان على رسل الملك أن يعلنوا إقتراب ملكوت الله، وكما رأينا (في شرح متى٦:١٠و١١) أن ملكوت الله هو مجتمع على الأرض فيه تسود مشيئة الله كما في السماء، كذلك على الأرض. ولا نجد فرصة في تاريخ البشرية عاش فيها إنسان على الأرض محققاً مشيئة الله كما هي في السماء مثل هذه الفرصة التي عاش فيها يسوع على الأرض .. لأن يسوع هو الشخصية الوحيدة التي حققت مشيئة الله في الأرض كما هي في السماء. لذلك فإن ملكوت الله قد جاء إلى الأرض في يسوع المسيح .. وكأنما على رسل المسيح أن ينادوا الناس قائلين «أنظروا .. لقد كنتم تحلمون بملكوت الله .. أنظروا إلى حياة يسوع ، فإن ملكوت الله قد تحقق فيها .. انظروا إلى حياة يسوع — لتعرفوا فيها ومنها معنى الملكوت» . ففي يسوع المسيح جاء ملكوت الله إلى الأرض.

٢ ــ ولم يكن من واجب الرسل مقتصراً على الكلام فحسب ، بل عليهم أن يعملوا .. أن يشفوا المرضى ، ويقيموا الموتى ، ويطهروا البرص ، ويخرجوا الشياطين .. هذه الأعمال يمكن أن نفسرها تفسيراً مزدوجاً .. فنفهمها حرفياً ومادياً ، فقد جاء يسوع شافياً للمرضى ومقيماً للموتى ومعالجاً لأجساد البشر ، ومن الطبيعي أن يحمل رسله رسالته معالجين أجساد البشر .. كما نستطيع أن نفهم هذه المهمة روحياً فتراها تصف لنا التغير الذي يحدثه المسيح في نفوس الناس .

(أ) فشفاء المرضى ، يمكن أن يشير إلى تقوية نواحي الضعف في الإنسان ، والكلمة المترجمة (مرضى) معناها الأصلي (ضعفاء) .. عندما يأتي يسوع إلى إنسان يقوي إرادته الضعيفة ، ويسند قدرته على مقاومة الشر ، ويملأ ضعفه بقوة إلهية .

(ب) وإقامة الموتى يمكن أن نفهمها روحياً ، والموت بالخطايا والذنوب أخطر من الموت الجسدي وأدهى .

وحالة الضعف الروحي يمكن أن تتطور حتى تصل إلى حالة موت ، فيصير الإنسان غير قادر على رؤية الخير ، أو سماع صوت الله ، ويبقى في قبر الخطية ميتاً بلا رجاء .. لكن يسوع ينادي للأموات فتعود إليهم الحياة .. تنفتح عيونهم وآذانهم وتتجدد قواهم بشكل معجزي رائع .

(جـ) وتطهير البرص ، هو تطهير الإنسان من الفساد ، فإن شريعة اللاويين كانت تنظر إلى البرص على أنه نجاسة وفساد . وتقول الشريعة عن الأبرص : «كل الأيام التي تكون الضربة فيه يكون نجساً . إنه نجس . يقيم وحده . خارج المحلة يكون مقامه » (لاويين ١٣:٤٦) — وفي ٢ ملوك ٧:٣، ٤ نقرأ عن المصابين بالبرص وكيف أنهم لم يجرؤوا أن يدخلوا المدينة إلا في حالة المجاعة القاتلة . وفي ٢ ملوك ١٥:٥ نقرأ عن عزريا الملك الذي أصيب بالبرص وبقي في بيت المرض إلى يوم وفاته ..

كان على التلاميذ أن يعيدوا الطهارة إلى الأجساد النجسة ، وأن يعيدوا النقاوة إلى الأفكار التي أفسدتها الخطية والآثام . فالشرير يفسد غيره الذين يقعون تحت تأثيره ، لكن يسوع المسيح يطهر النفس التي أفسدت ذاتها بالخطية ..

(د) وقد كان على التلاميذ أن يخرجوا الشياطين . فالإنسان الذي يمتلكه الشيطان إنسان تمتلكه قوى الشر ، ولا يستطيع أن يسيطر على أفكاره وأفعاله .. وعندما يسود الشر على إنسان ، تصير حياته مجموعة من العادات الشريرة ، ويستعبده الشر ، إذ يصير مقيداً من إبليس .. وقد جاء يسوع لينادي للمأسورين بالإطلاق ، فهو يعتق الناس من عبودية إبليس .

وهذه هي رسالة رسل الملك ، أن يتمموا قصد الملك في إعلان حلول ملكوت الله ، وإسعاد البشر بنصرتهم على عوامل المرض والضعف والموت والنجاسة والشر .

معدات رسول الملك

(متى ١٠ : ٨ ب — ١٠)

كل عبارة في هذه الفقرة ، كانت ، ولا شك ، تجد لها صدى في عقول اليهود الذين سمعوها . فقد أعطى السيد المسيح لتلاميذه التعليمات التي كان يقدمها أعظم المعلمين والربيين لتلاميذهم .

« مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا » . كان المعلمون يقدمون تعليمهم الديني السامي بلا مقابل ، ولذلك كانوا يطلبون من تلاميذهم أن لا يتقاضوا أجراً عن التعليم الديني الذي يقدمونه للناس . لقد نال

موسى الناموس من الله مجاناً ، لذلك فعلى معلمي الناموس أن يقدموا تعليمهم مجاناً . ولم يكن يجوز للربيين أن يتقاضوا أية أجرة عن تعليمهم إلا في حالة تعليم الأطفال ، لأن تعليم الأطفال كان من واجب الوالدين ، وعندما يقوم أحد الربيين بتعليم طفل ، إنما يقوم بذلك نيابة عن الوالد . ولذلك يحق له أن يتقاضى أجراً ، لكن تعليم الناموس للكبار كان دائماً بلا مقابل . وفي «المشنا» تنص الشريعة على أن أحكام القاضي تكون باطلة إذا تقاضى عنها أجراً ، وشهادة الشاهد تصير باطلة إذا تقاضى عنها أجراً . وقد قال صادوق الربي « لا تجعل الناموس تاجاً ترفع نفسك به ، ولا جاروفاً تحفر به » وقال هليل « من يستخدم تاج الناموس لنفع عالمي فإنه يفنى ». لذلك فإن من يطلب نفعاً لنفسه باستخدام كلمات الناموس ، فإنه يقود نفسه إلى الدمار » .

وقد حكي عن أحد الربيين وهو « تارفون » أنه دخل مرة في حديقة ، وكان يأكل من التين الذي تبقى في الأشجار بعد جني المحصول ، فالتقى به الحارس وضربه ، فكشف له الربي عن شخصيته فأطلقه لأنه كان معلماً مشهوراً .. لكن الربي المذكور ظل طيلة حياته حزيناً نادماً ، لأنه استخدم صفته كمعلم للناموس لمنفعته الشخصية .

لذلك علم المسيح تلاميذه أن يقدموا مجاناً ما أخذوه مجاناً ، فإن نعمة الله مجانية ، وإذا كان لدى الإنسان خبر مفرح ، فمن واجبه أن لا يخفيه لنفسه حتى ينال أجرة إذاعته . إنه امتياز عظيم أن نشارك الآخرين معنا في الأخبار السعيدة والبركات الغنية التي أغدقها الله علينا ..

ثم قال السيد لتلاميذه أن لا يقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقهم . وقد كان اليهود يستخدمون جزءاً من المنطقة التي يحزمون بها ملابسهم كحافظة للنقود ، كما أوصاهم أن لا يحملوا كيساً أو مزوداً للرحلة التي سيقومون بها ، وقد استخدم الناس الكيس ليحملوا فيه بعض الضروريات ، كما استخدمه الفلاسفة المتنقلون ليجمعوا فيه ما يقدمه الناس لهم من مال بعد أن يعلموهم .

ولم يكن السيد المسيح يريد أن يضاعف من عناء التلاميذ أو يزيد من تعبهم. لقد كان يكلمهم كلاماً مألوفاً عند اليهود . فالتلمود يذكر لنا أنه « لا ينبغي أن يدخل إنسان إلى جبل الهيكل بعصا أو منطقة فيها نقود أو بأحذية ». والفكرة في ذلك أن الإنسان وهو يدخل الهيكل ، يترك وراءه كل ما يختص بتجارته وأعماله وحياته الدنيوية . وكأنما يريد السيد المسيح أن ينظر تلاميذه إلى العالم كله كأنه هيكل الله . فرجل الله لا ينبغي أن يكون منشغلاً بأعمال الدنيا ، ويجب أن يظهر من حياته أنه لا يبحث عما يأخذه من هذه الحياة . إن رجل الله يعطي الإهتمام الأول لله وليس للماديات .

وفي الوقت عينه يذكر السيد أن الفاعل مستحق أجرته .. فإذا كان رجل الله لا ينبغي أن يهتم بحاجاته المادية ، فيجب على الآخرين أن يهتموا بحاجاته .

كان على المعلمين اليهود أن لا يتقاضوا أجراً عن تعليمهم الناموس ، ولكن في الوقت عينه كان الناس يعتبرونه شرفاً وامتيازاً وواجباً أن يعولوا معلمي الناموس . وقد قال اليعازر بن يعقوب الربي

« كل من يقبل معلماً في بيته ، ضيفاً عليه ، ويجعله يتمتع من ممتلكاته ، يكون كمن قدم ذبائح مستديمة ». فقد كان من واجب الشعب أن يعاون المعلم أن يتفرغ لعمله .

هنا نرى حقيقة مزدوجة : فمن واجب رجل الله ألا يشغل نفسه بالأمور المادية ، لكن على شعب الله ألا يهمل في واجبه نحو رجل الله لإعالته بكيفية معقولة .

إن هذه الكلمات تضع مسئولية على المعلم وعلى الشعب على السواء .

تصرف رسول الملك

(متى ١٠ : ١١ ــ ١٥)

وهنا يقدم السيد نصائح عمليه إلى رسله . فعندما يدخلون مدينة أو قرية ، عليهم أن يبحثوا عن بيت فيها يكون مستحقاً . والمقصود بكلمة « مستحق » هنا ، هو السمعة الطيبة التي تستحق أن ترتبط في الأذهان بالبيت الذي ينزل فيه رسل المسيح . فلو أنهم نزلوا ضيوفاً في بيت لا يتمتع بهذه السمعة الطيبة ، أو في مكان تشوب أخلاق أصحابه أو سلوكهم شائبة ، فإن هذا سيلقي ظلالاً على خدمتهم ، ويعطل رسالتهم . لذلك ينبغي ألا يربطوا نفوسهم بأي شيء يصير عثرة في طريقهم . هذا لا يعني أبداً أن لا يتصلوا بمثل هؤلاء الناس ليربحوهم للمسيح ، ولكن معناه أن يدقق رسول المسيح في اختيار أصدقائه المقربين إليه .

وعندما يدخلون بيتاً عليهم أن يمكثوا هناك حتى يخرجوا إلى مكان آخر . والحكمة في ذلك هي أنهم بعد إقامتهم ردحاً من الزمن في مدينة ما ، قد يصير لهم أتباع ومريدون ، وقد يدخلون في تجربة الانتقال من بيت إلى بيت لزيادة الاستمتاع بالحياة والراحة والطعام . إن رسول المسيح لا يصادق الناس لأجل الماديات وإن العامل الذي يتحكم في حركاته وانفعالاته ليس هو راحته ومتعته الشخصية ، بل تحقيق رسالته الروحية .

ثم يتحدث السيد عن السلام على البيت ، ورجوع السلام إلى التلاميذ إذا لم يكن مستحقاً . ونحن لا نستطيع أن نفهم هذه الآية فهماً جيداً إلا إذا رجعنا إلى عادات الناس في ذلك الوقت ــ فعند الشرقيين في ذلك الزامن ، كان الناس يعتقدون إن للكلمة نوعاً من الوجود المستقل الفعال ، فهي تخرج من الفم لتفعل فعلاً معيناً مستقلاً ، كما تخرج الرصاصة من البندقية . وهذه الفكرة تظهر بوضوح في العهد القديم وترتبط على الأخص بالكلام الذي يخرج من فم الله . وفي إشعياء ٢٣:٤٥ يسمع إشعياء الله يقول « بذاتي أقسمت خرج من فمي الصدق . كلمة لا ترجع . إنه لي تجثو كل ركبة ، يحلف كل لسان ». وفي إشعياء ١١:٥٥ نقرأ : « هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي . لا ترجع إليّ فارغة بل تعمل ما سررت به وتنجح في ما أرسلتها له ». وزكريا يرى الدرج الطائر ويسمع الصوت « هذه هي اللعنة الخارجة على وجه كل الأرض » (زكريا ٥:٣).

وهكذا نرى المعنى المتضمن في هذا الكلام ، أن التلاميذ يقدمون كلمة السلام لأهل البيت ،

فإذا لم يكن البيت مستحقاً لهذه الكلمة ، فإنهم يستردونها ثانية ، أي أن أصحاب البيت لا ينالون البركة المنطوقة بهذه الكلمة .

وقال السيد إنه إذا كان الناس في أي مكان يرفضون رسالة هؤلاء الرسل ، فإن رسل الملك عليهم أن يخرجوا خارجاً وينفضوا غبار أرجلهم ، ويتركوا المكان . وبالنسبة لليهود كان غبار الطريق أو غبار أي مكان أممي أو غير يهودي يعتبر نجساً ، وكان اليهودي عند سفره في مكان أممي عندما يصل إلى حدود بلاده ، ينفض غبار طريق الأمم عن رجله حتى لا يدخل إلى بلاده ، بنجاسة الأمم . وكأنما يريد السيد أن يقول لتلاميذه إن من يرفض رسالتهم ، ولا يقبلهم ، عليهم أن يعاملوه معاملتهم للأمم .

وينبغي أن نوضح أن في هذه الفقرة حقيقتين ، حقيقة وقتية رهينة بالظروف وقتئذ ، وحقيقة دائمة .

١ ـــ فالحقيقة الوقتية تشبه إلى حد كبير قول المسيح لتلاميذه أن لا يمضوا فى طريق أمم ، أو لا يدخلوا إلى مدينة للسامريين .

وقد ذكرنا أن هذه الإشارة كانت تختص بهذه الرحلة فقط، حتى تصل رسالة الإنجيل إلى إقليم الجليل ولا تتوزع جهود التلاميذ وتتبعثر . وهكذا في هذه الحالة أيضاً ، فالمسيح لا يقصد أن نترك الناس دون رسالة ما داموا يرفضون قبولها لأول وهلة ، أو أن هناك نوعاً من الناس أبعد من أن تصل إليهم النعمة . كلا .. بل إن الموقف المؤقت في تلك الحالة بالذات كان يقتضي السرعة لأن الوقت كان محدوداً ، وينبغي أن يستمع إلى الرسالة أكبر عدد ممكن ، مما لا يحتمل إضاعة الوقت في جدل ومناقشة مع الذين يعاندون ولا يقبلون الرسالة .

٢ ـــ أما الحقيقة الدائمة فهي أن الفرصة إذا جاءت إلى إنسان ما ، فقد لا تأتيه مرة أخرى . لقد كانت الفرصة لسكان فلسطين أن يستمعوا إلى رسالة الإنجيل في ذلك الوقت . فإذا ضاعت الفرصة منهم ، فربما لن تأتيهم . ويقول المثل إن ثلاثة أشياء لا تعود : الكلمة بعد أن ننطقها ، والسهم بعد أن نطلقه ، والفرصة بعد أن نضيعها . إن مأساة الحياة كثيراً ما تكون مأساة الفرصة الضائعة ...

وفي ختام هذه الفقرة يذكر السيد أنه ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة أكثر احتمالاً مما للمدينة التي ترفض رسالة الإنجيل والملكوت . والعهد الجديد يستخدم اسم سدوم وعمورة نموذجاً للشر والفساد (انظر متى ١١:٢٣و ٢٤ ولوقا ١٠:١٢ و١٣ و١٧:٢٩ ورومية ٩:٢٩ و٢ بطرس ٢:٦ ويهوذا ٧). ولعلنا نلاحظ أنه قبل هلاك سدوم وعمورة ، فإن هاتين المدينتين قد انتهكتا واجبات الضيافة بطريقة شريرة (تكوين ١٩:١ ـــ ١١). فقد رفضتا رسل الله أيضاً ... لكن هاتين المدينتين ، مهما بلغتا من الشر ، فلم تكن لهما الفرصة أن ترفضا رسالة المسيح وملكوته ، وهذا هو السبب في أنه ستكون لهما في يوم الدين حالة أكثر احتمالاً مما لمدن الجليل التي سترفض رسالة الإنجيل ، لأن الحقيقة الأكيدة الصادقة هي أنه كلما زادت الإمتيازات زادت

المسئوليات .

التحدي الذي يقدمه الملك لرسله

(متى ١٠ : ١٦ — ٢٢)

قبل دراسة هذه الفقرة بالتفصيل ،نستطيع أن نقدم ملاحظتين على ما جاء فيه : أولاهما أننا ، كما ذكرنا في دراستنا للعظة على الجبل ، نلاحظ هنا الأسلوب المميز لمتى ، وهو حبه للنظام . فقد اعتاد أن يجمع في مكان واحد مجموعة أحاديث السيد المسيح في موضوع معين ، حتى ولو كان زمان الحديث مختلفاً . ففي العظة على الجبل جمع متى ما ذكره يسوع عن الملكوت ، وهنا نرى متى يجمع بعض أحاديث يسوع عند إرساله تلاميذه في مرات متعاقبة . ولسنا نعتقد أن هذا الحديث كان كله موجهاً للتلاميذ عند إرساليتهم الأولى ، فقد رأينا في بداية الأصحاح أن يسوع عند الإرسالية الأولى أوصى تلاميذه أن لا يمضوا إلى طريق أمم ، ألا يدخلوا إلى مدينة للسامريين ، لكننا هنا نسمعه يحدثهم أنهم سيقفون أمام ملوك وولاة شهادة للأمم . فيقيناً أن بعض كلمات السيد هنا قالها في ظروف أخرى غير الإرسالية الأولى للتلاميذ ، وربما قال بعضها بعد القيامة .

الملاحظة الثانية أن يسوع في حديثه كان يستخدم أفكاراً مألوفة عند السامعين من اليهود ، فقد كان اليهود يقسمون الزمن إلى دهرين . « هذا الدهر » أو « العالم الحاضر ». ثم « الدهر الآتي » أو العالم الآتي ، ويشيرون بذلك إلى العصر الذهبي الذي يحكم فيها الله . وبين هذين الدهرين « يوم الرب » ، الذي فيه تحدث أحداث خطيرة واضطرابات عنيفة ودينونة وقضاء لكثيرين . ومن كتابات اليهود الأدبية في فترة ما بين العهدين ، نستطيع أن نعرف شيئاً عن انتظارات اليهود في « يوم الرب » الذي يتدخل الله فيه في شئون العالم ويأتي المسيا ، ونقرأ في كتاباتهم أن الناس سيقومون بعضهم على بعض ، وتتفكك الروابط العائلية ، ويقوم الكبار على الصغار ، والصغار على الكبار ، ويكرهون بعضهم بعضاً ، ويهجر الناس أولادهم ، ويهلك كثيرون ، وتجري أنهار الدم في الأرض . (اقرأ سفر عزرا الثاني ٥:٩ و٦:٢٤ — اليوبيل ١٣:١٩ — رؤيا باروخ ٧٠:٣ — أخنوخ ٥٦:٧ و٩٩:٥ و١٠: ١،٢).

كان يسوع يعرف هذه الكتابات اليهودية ، ويفهم ما توقعه اليهود في « يوم الرب » . فعندما تحدث إلى الناس ، وربط بين مجيئه ورسالته ، وبين هذه الأحداث ، كان كأنه يقول للناس إن « يوم الرب » الذي تنتظرونه ، قد جاء فعلاً ، وإنكم تعيشون في أعظم أيام التاريخ ، فقد جاء يوم الرب ، وجاء المسيا .. ونحن على أبواب « الدهر الآتي » الذي يسوع فيه ملك الله على العالم .

١ — أمانة الملك لرسله :

عندما نقرأ هذا الفصل ، نتأثر كثيراً من أمانة السيد لتلاميذه ، لأن يبصرهم بما سوف يتعرضون له . إنه يقدم لهم التحدي ، معدداً الصعاب التي سيلاقونها ، وكأنه يناديهم « هذا هو طريقي »، فهل تقبلونه ؟».

إن بعض قادة العالم يضعون وعوداً براقة أمام تابعيهم ، ويفرشون لهم الورود والأزاهير ، لكن يسوع وضع أمام تلاميذه الصعاب والمخاطر والموت .

وقد أثبت التاريخ أن في قلب كل إنسان حباً للمخاطرة وارتياد المصاعب ، وأن كثيرين من القادة الأمناء عندما وضعوا الحقيقة أمام الناس ، وجدوا من الشجعان المجاهدين من أصغى إلى ندائهم ، وسار في طريقهم .. طريق البطولة .

فبعد حصار روما سنة ١٨٤٩ أعلن « غاريبلدي » لأتباعه أنه لن يقدم لهم سوى الجوع والعطش والمشقة والموت ، ولكنه يدعو من يحب وطنه أن يتبعه . وجاءوا إليه بالمئات .

وبعد حادثة دنكرك قال « تشرشل » إنه يقدم لبلاده « الدم والعرق والدموع »...

إن الكنيسة لن تجتذب الناس بالدعوة إلى الراحة والرخاوة ، بل إن الدعوة إلى البطولة هي التي تأخذ بمجامع قلوب البشر .

وقد قدم يسوع ثلاثة أنواع من الاضطهادات لرسله :

(أ) فالدولة ستضطهدهم ، وسيحضرون أمام مجالس وملوك وولاة ، وعند محاكمتهم عليهم أن لا يهتموا بماذا يتكلمون ، فإن الله سيعطى لهم ما يتكلمون به . فقد وعد الله موسى قائلاً « فالآن إذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به » (خروج ٤:١٢).

والمسيحيون في العصر المسيحي الأول لم يكونوا يخافون المهانة أو الألم والقسوة ، ولكن كثيرين كانوا يخشون عدم قدرتهم على التعبير عن نفوسهم في الكلام مما يسيء إلى إيمانهم ولا يفيده ، لذلك وعد الله أنه سيضع رسالة فى أفواهم عند محاكمتهم بسبب إيمانهم .

(ب) والسلطة الدينية ستضطهدهم ، فسيجلدون في المجامع . ولم تكن الكنيسة اليهودية راغبة في أن يزعجها أحد ، وكان لها أسلوب خاص تتبعه مع من يهددون سلامها . وفي الوقت عينه كان المسيحيون هم الذين فتنوا المسكونة (أعمال ١٧:٦). وليس غريباً أن تجد المسيحية اضطهاداً من الكنيسة اليهودية فإن من يحمل رسالة الله سيثير عداوة المبادىء المتجمدة المتحجرة .

(جـ) والأسرة ستضطهدهم ، إن أعز الناس لهم وأقربهم إليهم سيتهمونهم بالجنون ، ويغلقون الأبواب في وجوههم . فقد يواجه المسيحي أحياناً أشق نوع من الإختيار : وهو أن يختار بين طاعته للمسيح ، وطاعته لأصدقائه وأهله .

٢ ـــ لماذا يضطهدون رسول الملك :

لو نظرنا إلى الأمر من وجهة نظرنا الحاضرة ، يصعب علينا أن نفهم لماذا تضطهد أية حكومة كنيسة المسيح ، مع أن رسالة الكنيسة تهدف نحو حياة النقاوة والتعاطف والمحبة والاحترام . لكننا مع دراستنا للتاريخ نعرف أنه كانت لدى الحكومة الرومانية بعض الأسباب التي قادتها إلى اضطهاد المسيحيين (راجع شرح متى ١٠:٥ ـــ ١٢).

١ ــ فقد كانت هناك اتهامات شنيعة وافتراءات كاذبة توجه إلى المسيحيين . فالبعض نسب إليهم أنهم من أكلة اللحوم البشرية ، وذلك بسبب الكلمات التي كانوا يرددونها عند فريضة العشاء الرباني من أنهم يأكلون من الجسد ويشربون من الدم . وقد نسب إليهم أعداؤهم الإباحية بسبب وليمة المحبة الأسبوعية (Agape) التي كانوا يقيمونها . وقد اتهمهم البعض بأنهم من هواة تعمد الحريق لأنهم كانوا يصورون أن نهاية العالم ستكون على شكل حريق ، كما اتهمهم البضع بالخيانة وعدم الوطنية لأنهم لم يكونوا يحلفون بالإمبراطور ويعبدونه .

٢ ــ ومن المشكوك فيه أن الناس كانوا يصدقون هذه الإفتراءات أو أن مروجيها أنفسهم كانوا يعتقدون بها، لكنهم وجهوا إلى المسيحيين اتهامات أخرى مثل تفكيك الروابط العائلية. وقد كان هذا صحيحاً لأن بعض أفراد الأسرة كانوا ينقسمون على البعض الآخر بسبب اعتناقهم الديانة لمسيحية وكان هذا في نظر الناس شيئاً مكروهاً، لأنه يفرق بين الأب وأولاده، والأزواج وزوجاتهم.

٣ ــ ومن بين الأسباب الجوهرية لاضطهاد المسيحيين، مركز العبيد في الكنيسة المسيحية. كان في الدولة الرومانية ستة ملايين من العبيد، وأشد ما كان يفزع الإمبراطورية خوفها من ثورة هؤلاء العبيد وعصيانهم. وقد كان تنظيم الدولة الرومانية يقضي بضرورة بقاء هؤلاء العبيد في حالة العبودية ، وعدم تشجيعهم على الإحساس بذواتهم أو التذمر، وإلا كانت العاقبة فظيعة تفوق حد التصور.

و لم تحاول الكنيسة المسيحية أن تقوم بحركة تحرير لهؤلاء لعبيد. ولكنها عاملتهم في دائرتها الخاصة على قدم المساواة مع الأحرار.

وقد كتب أكليمندس الإسكندري يقول إن العبيد مثلنا تماماً ويجب أن نطبق عليهم القانون الذهبي . وكتب لاكتانيوس يقول إن العبيد ليسوا عبيدا بالنسبة لنا، ولكنهم إخوة في الروح وفي شركة الديانة ــ ومما يستحق الذكر أنه على الرغم من وجود آلاف من العبيد في الكنيسة ، فإنه لم يوجد قبر واحد من قبور المسيحيين فى الدولة الرومانية مبين عليه أن صاحبه عبد ، كما كانت العادة . هذا بالإضافة إلى أنه كان من الممكن أن يتقلد العبد وظائف عالية كبيرة فى الكنيسة المسيحية ، وفى القرن الثانى الميلادى كان بعض الأساقفة من العبيد فى روما مثل كاليستوس ، وبيوس . ولم يكن شيئا غريبا ان يكون بين الشمامسة والشيوخ عبيد . وفى عام ٢٢٠ م أعلن الأسقف كاليستوس (وقد كان عبداً) أنه يجوز للكنيسة المسيحية أن تبارك زواج فتاة من أسرة سامية المولد ، إلى رجل كان عبداً وتحرر ، مع أن هذا كان زواجا غير مشروع فى نظر القانون الرومانى .

لذلك نظرت الدولة الرومانية إلى الكنيسة المسيحية على أنها قوة تهدد أساس مدنيتها ونظامها ، وتهدد كيان الإمبراطورية لأنها تعطى للعبيد مكانا لا يجب أن ينالوه بحسب القانون الرومانى .

٤ ــ ولاشك أن المسيحية كان لها أثر بالغ على بعض المصالح المادية المرتبطة بالديانات الوثنية . معندما دخلت المسيحية إلى أفسس ، أضرت كثيرا بتجار وصناع الفضة والذهب ، لأن اعتناق

المسيحية جعل كثيرين لا يرغبون في شراء صور وتماثيل الآلهة الوثنية (أعمال١٩: ٢٤–٢٧). وفي رسائل بليني حاكم بيثينية إلى الإمبراطور تراجان (رسائل بليني ١٠: ٦٩) يذكر كيف أنه إتخذ إجراءات ليوقف نمو المسيحية ليعيد إلى الهياكل روادها بعد أن هجرها الناس، وليعيد للديانة الوثنية احتفالاتها وولائمها. كان انتشار المسيحية يؤثر في حياة بعض الناس الإقتصادية، ولا بد أنهم كانوا ينقمون على المسيحية لهذا السبب.

إن فكرة المسيحية عن الإنسان وحريته وكرامته، تجد ما يعارضها في كل حكم استبدادي، لذلك يتعرض المسيحي للإضطهاد من أجل إيمانه.

فطنة رسول الملك

(متى ١٠ : ٢٣أ)

هذه العبارة تقدم لنا مشورة حكيمة وتوجهنا نحو الفطنة المسيحية، والحذر والاحتياط. ففي أوقات الاضطهاد يجد الشاهد المسيحي نفسه مهدداً بأخطار مختلفة، وهناك كثيرون ممن ماتوا شهداء نتيجة إيمانهم، لكن هذا لا يعني أن نسعى بأقدامنا إلى الموت، إذا استطعنا أن نحيا شاهدين دون إنكار لإيماننا. فبعض الناس كانوا في حماسهم وغيرتهم الجارفة، يدفعون بأنفسهم إلى الإستشهاد دون ضوروة ملحة... والمسيح هنا يوضح لنا أن حياة المؤمن غالية ويجب ألا يضيع المؤمن فرصة بقائه على قيد الحياة دون مبرر. فالشجاعة ليست دائماً في الاستشهاد . وفي كل حالة ينبغي أن لا ينكر المؤمن إيمانه أو يهينه.

ولعلنا نجد ضوءاً في تعاليم اليهود الشائعة في هذا الشأن. فقد كان الربيون اليهود يعلمون الناس أنه إذا كان اليهودي يتعرض لموقف فيه يهددونه بالموت إذا لم يعمل عملاً فيه إنكار وإهانة لديانته، فعليه أن يقبل الموت، أما إذا كان في الأمر مهانة شخصية له فيجوز له أن يعمله تحت التهديد، حتى وإن كان مخالفاً للناموس، في سبيل إنقاذ حياته.

وكان الربيون اليهود يتخذون من هذه الحالة مثالاً شائعاً. فلو أن جندياً رومانياً أمسك يهودياً وأراد أن يهزأ به، وقال له «كل من لحم الخنزير هذا» فيجوز لليهودي أن يأكل تحت الضغط من لحم الخنزير، لأن «نواميس الله هدفها الحياة وليس الموت». أما إذا قال له الجندي الروماني «كل من لحم الخنزير هذا دليلاً على تنصلك من الديانة اليهودية، أو علامة على عبادتك للإله زفس أو للإمبراطور» — ففي هذه الحالة ينبغي ألا يأكل حتى ولو أدى هذا إلى موته بسبب دينه.

والمبدأ الذي يضعه المسيح هو أنه إذا جاءتنا الآلام في طريق تأديتنا للواجب علينا أن نقبلها، لكن ينبغي ألا نجرى نحن وراء الآلام، أو نسعى إليها..

مجيء الملك

(متى ١٠ : ٢٣ ب)

تثير هذه العبارة مجالاً كبيراً للمناقشة، فالكيفية التي يروى بها متى حديث السيد المسيح تبدو كأن السيد المسيح يقول لتلاميذه وهو يرسلهم، إنه قبل أن يكملوا دورتهم في مدن إسرائيل، يكون يومه العظيم قد جاء ويتحقق مجده وسلطانه المنتظر على العالم بمجيئه الثاني — وهذا لم يحدث فعلاً في الواقع. لذلك ثار الجدل حول تفسير العبارة.

والحقيقة أن المسيحيين في الكنيسة الأولى كانوا يؤمنون بسرعة مجيء المسيح ثانية، ويتوقعون حدوثه في أيام حياتهم على الأرض، كان هذا الشعور أمراً طبيعياً بالنسبة لهم لأنهم كانوا يعيشون في إضطهادات وآلام، ويشتاقون إلى يوم تحريرهم وتمجيدهم. ولعل هذا الشعور وهذا الانتظار جعلهم، في رواياتهم عن أحاديث المسيح، يضعونها بالشكل الذي يمكن تفسيره أن المسيح سيأتي سريعاً. ويمكننا أن نلاحظ ذلك بمقارنة رواية البشيرين عن قول واحد من أقوال السيد المسيح، في النصوص التالية : — الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا إبن الإنسان آتياً في ملكوته» (متى١٦:٢٨).

وقال لهم « الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله» (لوقا٩:٢٧).

« حقا أقول لكم إن من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة » (مرقس٩:١).

فهذه الأقوال الثلاثة إنما هي روايات مختلفة لحديث واحد. ومعلوم أن بشارة مرقس هي أقدم البشائر، لذلك يمكننا القول إن روايته أقرب إلى النص الذي ذكره المسيح من أي رواية أخرى. يقول مرقس إنه من بين الأشخاص الذين كانوا يسمعون كلام المسيح، قوم لن يموتوا حتى يروا ملكوت الله آتياً بقوة. وقد تم هذا بصورة مجيدة، إذ أنه بعد نحو ثلاثين عاماً من حادثة الصلب انتشرت رسالة الإنجيل ووصلت إلى روما التي كانت قلب العالم في ذلك الزمن . لقد أتى ملكوت الله بقوة واكتسح البلدان ، وغمر قلوب البشر، وشهد ذلك قوم ممن عاشوا مع يسوع.

ولوقا يروي الحديث كما رواه مرقس تقريباً.

أما متى فإنه يروي الحديث بكيفية تختلف قليلاً، فهو يذكر أن قوماً منهم لن يذوقوا الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته — ولعل تفسير ذلك إن بشارة متى كتبت نحو عام ٨٠ أو ٩٠ (ميلادي) في أيام الإضطهاد العنيف الذي كان المسيحيون يعانونه، وكان الناس يبحثون عن وعد يتعلقون به لتخليصهم من آلام الاضطهاد المروعة، لذلك تناولوا العبارة التي تصف إتيان ملكوت الله بقوة، أي إنتشار الانجيل، وفهموها بمعنى مجيء المسيح ثانية على مدى حياتهم — وهم معذورون في ذلك.

ولعل هذا ما فعله متى فى هذه العبارة أيضاً . فلو كتبناها بالأسلوب الذى يتفق مع مرقس ولوقا لكانت هكذا :

«فإني الحق أقول لكم لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ملكوت الله » ــ وقد حدث هذا فعلاً، فإن الكرازة بالإنجيل استمرت، وتفتحت القلوب لقبول المسيح، وأتى ملكوت الله.

إننا لا نستطيع أن نقول إن السيد المسيح كان مخطئاً في توقعه. حاشا أن يكون الأمر كذلك. لكن متى استطاع أن يفهم من كلمات المسيح ما ظنه وعداً بسرعة مجيء المسيح ثانية في وقت حياة كثيرين من الأحياء حينئذ. وقد فعل ذلك لأنه في وقت الألم والفزع والاضطهاد، كان الناس يتعلقون بالأمل وبوعد مجيء المسيح.

وقد جاء المسيح ثانية إليهم، جاء بالروح يشجعهم وهم يتألمون لأجله، لأننا نعلم يقيناً أنه لا يتألم شخص من أجل المسيح، دون أن يكون يسوع بجواره، مسنداً إياه ومقوياً.

رسول الملك وآلام الملك

(متى ١٠ : ٢٤ ــ ٢٥)

يوجه السيد المسيح نظر تلاميذه إلى أن يتوقعوا أن يحدث لهم ما حدث له هو . فمن بين أقوال اليهود المأثورة «يكفي العبد أن يكون كسيده» . وقد استخدموا هذا المعنى فيما بعد بكيفية خاصة. فعندما خربت أورشليم في عام ٧٠م، وديست بالأقدام حتى صار الهيكل والمدينة المقدسة خرائب وأنقاضاً، تشتت اليهود في أنحاء العالم، وناح كثيرون منهم على بيوتهم وممتلكاتهم الشخصية. وهنا كان معلموهم يقولون لهم : «إذا كان الهيكل قد صار أنقاضاً، فكيف يشكو أي يهودي إذا فقد شيئاً خاصاً له ؟»

وفي قول السيد المسيح هنا نرى أمرين :

١ ــ هنا تحذير ــ فكما كان على المسيح أن يحمل صليباً، هكذا ينتظر المسيحي صليباً. وإذا كان أعداء المسيحية قد اجترأوا أن يلقبوا السيد نفسه وهو رب البيت وصاحب السلطان بعلزبول، فماذا ينتظر أن يقولوا عن أهل بيته. إن يسوع يدعونا، لا لنشاركه مجده فقط، بل لنشاركه في جهاده وآلامه، ولا يستحق إنسان أن يذوق ثمار النصر إذا كان يرفض أن يشترك في الصراع الذي يقود إلى ذلك النصر.

٢ ــ وهنا نرى امتيازاً، فالألم لأجل المسيح هو مشاركة في عمل المسيح، والتضحية لأجل الإيمان مشاركة في تضحية المسيح . في اللغة الإنكليزية ترنيمة تصف الحرب الروحية وتقول :

«أيها الأخوة : نحن نضع أقدامنا حيث وضع القديسون أقدامهم» . ونستطيع أن نقول ونحن نتألم لأجل المسيح، إننا نشترك في امتياز وضع أقدامنا حيث وضع المسيح نفسه أقدامه. إنه لمن أمجد الأمور أن نشعر أننا في موكب المجاهدين الخالدين. وعندما نضحي بشيء لأجل مسيحيتنا نكون

أقرب إلى الشركة مع المسيح، وعندما نعرف بشركة آلامه ، سنعرف أيضاً قوة قيامته.

تجرد رسول الملك من الخوف

(متى ١٠ : ٢٦ و٢٧)

يبدأ السيد بهذه الفقرة وصية لتلاميذه أن لا يخافوا، ويكرر هذه الوصية مرتين أخريين في الأعداد اللاحقة. وهو يريد بذلك أن تكون شخصية رسول الملك متحررة من الخوف، متصفة بالشجاعة التي تميزه عن غيره من الناس.

وفي هذه الفقرة نرى أمرين :

١ ـــ ينبغي ألا يخاف التلاميذ لأنه لا يوجد شيء مكتوم إلا وسيظهر واضحاً. ومعنى ذلك أن الحق سينتصر في النهاية. وفي الحكم اللاتينية «الحق عظيم، والحق سينتصر».

عندما أراد جيمس السادس أن يشنق «أندرو ملفيل» أو ينفيه، كان رد ملفيل عليه : «إنك لن تقدر أن تشنق الحق أو تنفيه».

والمسيحي مهما لاقى من اضطهادات تؤدي به إلى الاستشهاد من أجل إيمانه، عليه أن يذكر على الدوام أن اليوم الذي ستظهر فيه الأمور على حقيقتها قادم لا ريب فيه، وأن طغيان الظالمين، وبطولة المؤمنين وشهادتهم ستظهر في قيمتها الحقيقية، وكلّ سينال جزاءه.

٢ ـــ وينبغي ألا يخاف التلاميذ من إعلان الرسالة التي تلقوها في شجاعة. وما قاله لهم المسيح، عليهم أن يعلنوه للناس. هنا في (عدد٢٧) نرى وظيفة الواعظ الحقيقية، فهو ينبغي أن ينصت أولاً إلى يسوع في مخدعه وتأملاته، ويستمع إلى صوت المسيح يهمس في أذنه برسالة خاصة، ومن ثم يعلنها للناس. فلن يستطيع إنسان أن يعلن الحق إلا إذا كان يتلقاه أولاً.

كان الواعظ المشهور «لاتيمر Latoimer» يعظ في حضور الملك هنري وشعر أن ما سيقوله قد يمس الملك، فتوقف وهو على المنبر وخاطب نفسه بصوت عال قائلاً : «يالاتيمر .. يالاتيمر .. إحذر ودقق فيما تقول، فإن الملك هنرى موجود هنا». ثم سكت قليلاً، وخاطب نفسه مرة أخرى قائلاً بصوت عال.

«يالاتيمر .. يالاتيمر .. إحذر ودقق فيما تقول، فإن ملك الملوك موجود هنا».

إن صاحب الرسالة يتحدث إلى الناس، ولكنه يتحدث في حضور الله. وقد قيل عن «جون نوكس» عندما دفنوه: «هنا يرقد رجل كان يخاف الله حتى أنه لم يخف على الإطلاق من وجه إنسان».

إن الشاهد المسيحي، هو الرجل الذي لا يعرف الخوف، لأنه يعلم أن أحكام الأبدية سوف تصحح الكثير من أحكام الزمن الحالي، والواعظ المسيحي والمعلم المسيحي هو الرجل الذي يصغي بوقار، ويتكلم بشجاعة، لأنه يعلم أنه سواء كان مستمعاً أو متكلماً فهو في حضرة الله.

تحرر رسول الملك من الخوف
(شجاعة الصالحين)

(متى ١٠ : ٢٨)

١ ــ وهذه هي المرة الثانية في هذا المقام التي يوصي بها السيد تلاميذه بألا يخافوا. ومعنى قوله هذا أن أي عقاب يمكن أن يوقعه إنسان بآخر لا يمكن مقارنته بالمصير الأبدي الذي يلقاه من يخون الله ويخالف مبادئه. فالإنسان يستطيع أن يقتل جسد الإنسان، لكن الله يستطيع أن يهلك روح الإنسان.

٢ ــ وهذا القول يرينا أن هناك مكاناً لنوع من الخوف في الحياة المسيحية يمكن أن نسميه الخوف المقدس، وهو خوف الله. وقد كان اليهود يعلمون الناس أن يخافوا الله، وليس معنى ذلك أنهم تجاهلوا المحبة. فقد علموا ونادوا بالمحبة وطلبوا من الناس أن يتصرفوا بدافع المحبة قائلين «إن التصرف المدفوع بالمحبة له جزاء مضاعف». وقالوا إنه لا توجد المحبة حيث يوجد الخوف. ولا يوجد الخوف حيث توجد المحبة. إلا فيما يتعلق بالله. ولذلك نصحوا الناس بأن يخافوا الله، وأن يحبوه.

والفرق بين التفكير المسيحي واليهودي في موضوع خوف الله، إننا لا نخاف الله خوفاً من عقابه، بل نخاف أن نحزن محبته ونجرح قلبه. وهذا سبب أقوى لخوف الله.

٣ ــ وهذه الآية تبين لنا أن هناك ما هو أسوأ من الموت ، فإن الخيانة وعدم الوفاء للمبادىء أسوأ من الموت. فإذا كان الإنسان يبيع مبادئه في سبيل الأمان والاستقرار، فإن حياته تصير غير محتملة، وهو لا يستطيع أن يواجه الناس .. ولا يستطيع أن يواجه نفسه وفي النهاية لن يستطيع أن يواجه الله ... ونحن في بعض الأحيان ندفع في سبيل الراحة والسلامة والمتعة، بل وفي سبيل الحياة الجسدية نفسها، ثمناً أكثر كثيراً مما تساويه هذه الأشياء.

تحرر رسول الملك من الخوف
(الله يعتني بكم)

(متى ١٠ : ٢٩ ــ ٣١)

ووصية السيد لتلاميذه بعدم الخوف مؤسسة هنا على اليقين بعناية الله بأدق أمور حياتهم. فإذا كان الله يعتني بالعصافير ، فلا بد أنه يعتني بالبشر.

ويذكر لنا متى أن عصفورين يباعان بفلس، وواحد منهما لا يسقط بدون معرفة الله. ويذكر لوقا هذا القول بأسلوب آخر : «أليست خمسة عصافير تباع بفلسين. وواحد منها ليس منسياً أمام الله» (لوقا١٢:٦) والفكرة المستفادة من المقارنة هي أن عصفورين يباعان بفلس، وخمسة بفلسين

أي أن البائع يعطي للمشتري عصفوراً خامساً بلا مقابل. هذا العصفور الذي لا قيمة له حتى في نظر بائعه، له قيمة في نظر الله.

والكلمة المترجمة «يسقط» في اللغة اليونانية لا تعني الموت، بل إن معناها أقرب إلى الهبوط على الأرض منه إلى الموت. فإذا كانت عناية الله هكذا بالعصافير، فكم تكون بيني البشر.

وقد كان سهلاً على اليهود الذين استمعوا لحديث المسيح أن يفهموا المعاني التي قصدها، فلم تكن هناك أمة على الأرض تؤمن بمثل ما يؤمن به اليهود عن عناية الله الكاملة الشاملة لأدق الأمور في حياة العالم والبشر، وقد قال أحد اليهود: «لا تجرح أصبع هنا على الأرض، ما لم يكن ذلك بسماح من الله».

وقد كان للمعلم اليهودي المشهور «هليل» تفسير رائع لمزمور ١٣٦. فالمزمور يبدأ بذكر الله إله الخليقة وتسبيحه، الله الذي صنع السموات والأرض، والشمس والقمر والنجوم (عدد١-٩). ثم يستمر المزمور في تسبيح الله بإعتباره إله التاريخ، الذي خلص إسرائيل من مصر، وحارب حروبهم (عدد١١-٢٤). ثم يتحدث المزمور عن الله الذي يعطي خبزاً لكل بشر (عدد٢٥). فالله الذي صنع السموات والأرض، والمسيطر على التاريخ، هو الذي يعطي الناس طعامهم. إن حصولنا على الخبز اليومي هو عمل من أعمال الله، مثل خلق السماء والأرض تماماً، ومثل إخراج بني إسرائيل من مصر، ومحبة الله لا تظهر في قدرته الفائقة في أحداث التاريخ فحسب، بل في عنايته اليومية بأجساد الناس.

إن شجاعة رسول الملك مبنية على اليقين أنه مهما حدث، لا يمكن أن تفصله الأحداث عن محبة الله وعن عنايته. إنه يعلم أن الأزمنة كلها في يدي الله، وأن الله لن يتركه أو ينساه، بل هو محاط على الدوام بعناية الله .. فإذا كان الأمر كذلك، فممن يخاف؟

ولاء رسول الملك ومكافأته

(متى ١٠ : ٣٢ و٣٣)

هنا نرى كيف يتوقف موقف المسيح منا في الحياة الأخرى، على موقفنا منه في هذه الحياة. فإذا كان الإنسان يعلن ولاءه للمسيح أمام الناس، فإن السيد سيعترف به أمام الآب السماوي، أما إذا منعه الخوف أو الأنانية أو الكبرياء من هذا الولاء، فإن المسيح أيضاً سينكره كخادم له .. وهو فعلاً لا يكون مسيحياً بالحق. والتاريخ يشهد أنه لولا المؤمنين في الكنيسة الأولى الذين واجهوا الموت بشجاعة وقبول دون أن ينكروا المسيح، لما بقيت المسيحية إلى هذا اليوم.

فإن أساس الكنيسة المسيحية هو الولاء التام للمسيح حتى الموت.

ويروى لنا التاريخ أن بليني حاكم بيثينية كتب إلى الإمبراطور تراجان عن معاملته للمسيحيين. فقد جاءته أخبار عن جماعة من المسيحيين وحاول بليني أن يعطي هؤلاء الناس فرصة لعبادة آلهة

روما ، وأن يقدموا البخور والخمر لصورة الإمبراطور ، هددهم لكي يلعنوا اسم المسيح ، ويكتب بليني قائلاً «ولكن كان من المستحيل أنِ واحداً منهم يفعل هذه الأمور» . واعترف الحاكم الروماني بعجزه عن أن يزعزع ولاء المسيحينَ لفاديهم.

ونحن اليوم يمكن أن ننكر المسيح.

١ ـــ يمكن أن ننكره بكلماتنا. فبعض الناس يعلنون أنهم مسيحيون ولكنهم يضيفون على ذلك أن هذا لا يغير من تصرفاتهم ومشاركتهم للناس فيما يفعلون .. إن المسيحية في نظرهم مجرد لقب أو دين، لا يميزهم عن غيرهم.

٢ ـــ ويمكن أن ننكره بسكوتنا. قيل إن شاباً تزوج من فتاة لم تكن تقبلها أسرته، ولكنه لما جاء بها إلى البيت، لم يشأ أفراد الأسرة أن يؤذوا كرامة الزوجة الجديدة بأي كلمة جارحة تأدباً منهم .. ولكن سكوتهم العجيب وتجاهلهم للفتاة، جعل حياتها جحيماً.

٣ ـــ ونحن عندما نسكت عن إعلان مسيحيتنا للعالم، وعندما نرضى بالشر والظلم .. فإن سكوتنا هذا إنكار لمسيحنا وكثيرون من المسيحيين ينكرون فاديهم بهذا الأسلوب .

٤ ـــ ويمكن أن ننكره بأفعالنا. فيمكن أن نحيا بكيفية تخالف تماماً ما نعلنه بكلماتنا. فإنجيل المسيح إنجيل الطهارة والنقاوة والأمانة. وإذا ابتعدنا عن هذه الحياة أنكرنا المسيح ... والمسيح إذ ينادينا أن نحمل الصليب، يجب علينا أن لا نفكر في راحتنا ومتعتنا .. وإذ يوصينا بالغفران والتسامح .. يجب أن نكون فعلاً متسامحين. والبعد عن حياة المحبة التي أوصانا بها المسيح، هو إنكار عملي للمسيح.

في مؤتمر لامبيث عام ١٩٤٨ وضعت هذه الصلاة :

أيها الإله القدير.

أعطنا النعمة لنكون، لا سامعين فقط، بل عاملين بكلمتك المقدسة.

وأن لا نكون معجبين بتعاليمك فحسب، بل منفذين لها.

وأن لا نكتفي بإعلان ديانتك، بل أن نمارسها.

وأن لا نقف عند حبنا للإنجيل، بل أن نحيا وفقاً له.

أعطنا أن ما نتعلمه عن مجدك، نقبله في قلوبنا، ونظهره في حياتنا، لأجل المسيح يسوع ربنا. آمين.

هذه صلاة ينبغي أن نذكرها ونستخدمها على الدوام.

التكاليف التي يضعها الملك أمام رسوله

(متى ١٠ : ٣٤ — ٣٩)

لا نجد في أحاديث المسيح، حديثاً يدل بوضوح على أمانة السيد وصراحته مثلما نجده في هذه الفقرة. فهو هنا يتحدث بصراحة ووضوح عما ينبغي أن يتوقعه رسول له هنا على الأرض، إذا قبل أن يحمل رسالته، وكيف أن هذا الرسول يتحتم عليه أن يدفع ثمن قبوله هذه الرسالة السامية. ماذا يقدم السيد للذين يحملون رسالته؟

١ — إنه يقدم لهم صراعاً وحرباً. وفي هذا الصراع، يكون أعداء الإنسان هم أهل بيته. والسيد وهو يضع هذه الصورة أمام سامعيه، إنما يردد كلاماً معروفاً عندهم، فقد كان اليهود يعتقدون أنه عندما يأتي «يوم الرب» اليوم الذي يخترق فيه الله التاريخ ويحضر المسيا إلى العالم، ستحدث انقسامات خطيرة في العائلات. ومن بين أقوال المعلمين اليهود (الربيين) المشهورة : «عندما يأتي ابن داود، ستقوم الابنة على أمها، والكنة على حماتها، ويحتقر الإبن أباه ويصير أعداء الإنسان هم أهل بيته» وكأنما أراد يسوع أن يقول لجماعة اليهود : «إن يوم الرب الذي ينتظرونه قد أتي، وقد تدخل الله في التاريخ. وهكذا تنقسم العائلات والجماعات إلى قسمين» . وليس هذا بغريب، فعندما يظهر مبدأ عظيم، فمن الطبيعي أن يحدث خلاف بين الناس، فالبعض يقبلونه ويتحمسون له، والبعض الآخر يرفضونه ويتحمسون ضده، وعندما يواجهنا يسوع، نجد أنفسنا أمام أحد أمرين لا ثالث لهما : أن نقبله، ملكاً على حياتنا، أو نرفضه. والعالم دائماً ينقسم إلى قوم يقبلون المسيح، وآخرين يرفضونه.

٢ — وهو يقدم لهم إمتحاناً عسيراً في الإختيار، ذلك لأنه اختيار بين أقوى الروابط على الأرض، وبين الولاء ليسوع المسيح. لقد عرف «يوحنا بنيان» هذا الإمتحان وجاز فيه، فإن أشد ما أقلقه عندما كان يفكر في السجن الذي كان يهدده، هو تأثير ذلك على زوجته وأولاده وما قد يتعرضون له، وماذا سيحدث لهم عندما لا يستطيع أن يعولهم ويهتم بهم. لقد كتب يقول : «إن افتراقي عن زوجتي وأولادي، كان بالنسبة لي مثل انتزاع اللحم من العظم» ، وليس هذا بسبب عاطفتي نحوهم فحسب، ولكنني كثيراً ما فكرت في الصعوبات والبؤس والحاجة التي قد تتعرض لها أسرتي المسكينة عندما افترق عنهم ، خاصة طفلي الأعمى المسكين الذي هو أقرب الناس إلى قلبي .. قلبي يتمزق ويتحطم كلما فكرت فيما قد يجتازه هذا الطفل الأعمى من صعوبات .. ولكني أعود إلى نفسي وأقول، ينبغي أن أخاطر من أجل الله .. ورغم أن هذا كان شاقاً عليّ، حتى كأنني أهدم بيتي بيدي على رأس زوجتي وأولادي، لكن كنت أفكر أنه ينبغي أن أفعل هذا أيضاً».

إنه لمن أصعب المواقف أن يختار الإنسان بين عواطفه نحو أعز الناس لديه، وبين ولائه للمسيح .. ومن رحمة الله أننا قد لا نواجه مثل هذا الموقف إلا نادراً، وكثيرون منا لا يواجهونه أبداً

.. لكن الحقيقة لا تزال باقية وساطعة، وهي أنه إذا تعقدت الأمور، فيجب أن يكون ولاؤنا للمسيح في المقدمة وفوق كل عاطفة أخرى.

٣ ــ وهو يقدم لهم حمل الصليب. لقد كان أهل الجليل يعرفون معنى الصليب جيداً. فعندما أخمد فارس varus القائد الرومانى . ثورة يهوذا الجليلي صلب ألفين من اليهود، وجعل صلبانهم على جانبي الطريق فى الجليل. وفي تلك الأيام كان على المجرم أن يحمل خشبة الصليب بنفسه إلى مكان الصلب. ولا شك أن الذين استمعوا إلى حديث المسيح، قد رأوا بعيونهم كثيرين يحملون على كواهلهم الصلبان الثقيلة ، ويسيرون بها إلى المكان الذي يتجرعون فيه كأس الألم والموت عليها.

إن عظماء الرجال الذين دون التاريخ أسماءهم في قائمة الشرف بسبب إيمانهم ساروا في طريق التضحية بالنفس حتى الموت، وهم يعلمون طريقهم جيد المعرفة. وكثيرون أمثال جورج فوكس ويوحنا بنيان علموا أن الطاعة للسيد قد تقتضى منهم أن يحملوا الصليب ويسيروا فى طريق الموت .

وقد يتطلب الأمر من المسيحي أن يضحي بطموحه الشخصي، وبراحته، وبمستقبله الذي يتطلع إليه، وأحلامه التي يتمناها، في سبيل طاعته لمباديء المسيح، بل أن يضحي بإرادته الشخصية، لأن المسيحي لا يحيا ليحقق ما يريده هو ويحبه، بل ما يحبه المسيح .. ففي المسيحية نجد الصليب دائماً، لأنها ديانة الصليب.

٤ ــ وهو يقدم لهم المخاطرة. فقد ذكر أن من وجد حياته يضيعها ومن يضيع حياته يجدها. هذه هي الحقيقة التي تتم حرفياً في بعض الأحيان، فالذين بذلوا حياتهم في سبيل المباديء السامية صاروا من الخالدين، ولو أنهم تخلوا عن مبادئهم في سبيل الإحتفاظ بالحياة، لما سمع أحد في التاريخ عنهم.

وقد قيل عن سقراط الفيلسوف المشهور، عندما رفض أن يهرب من السجن في سبيل تمسكه بمبادئه «إنه وهو يموت قد أحيا نفسه لأنه لم يهرب» . فلو أنه هرب، لمات سقراط الحقيقي، وظل نسياً منسياً لم يسمع عنه أحد.

فليس في المسيحية مكان لفلسفة «الأمان أولاً» ــ فالإنسان الذي يبحث عن الأمان والراحة والسلامة أولاً، قد يجد هذه الأشياء، لكنه لن يجد السعادة الحقيقية. لأن رسالة الإنسان في الحياة هي أن يخدم إلهه، وبني جنسه .. والطريق إلى ذلك هو بذل الإنسان كل ما في استطاعته .. فعندما نبذل حياتنا نجدها في هذه الحياة الأخرى.

مكافأة من يرحبون برسول الملك

(متى ١٠ : ٤ ــ ٤٢)

كان هذا الأسلوب في الكلام واضحاً عند اليهود. فقد كان في تقديرهم أن من يقبل رسولاً، كأنه قبل الذي أرسله. فإذا قدمنا احتراماً لسفير، فنحن نحترم الملك الذي أرسله، والرسول الذي

يأتينا من عند صديق عزيز، ينبغي أن يتلقى الحب والإعزاز الذي نكنه لهذا الصديق. وقد حرص الربيون (المعلمون اليهود) أن يعلموا الناس أن من يستضيف حكيماً أو معلماً للناموس، فكأنه يقدم باكورات غلته لله. وعندما نكرم رجل الله، ونعلن كلمته فنحن نكرم الله نفسه.

وفي هذه الآيات نرى حلقات سلسلة الخلاص موضحة ومبينة وفي هذه السلسلة أربع حلقات: (١) الله الذي ينبع الخلاص من محبته (٢) يسوع الذي حمل رسالة الخلاص إلى الناس (٣) الرسول الإنساني، النبي الذي يتكلم، والبار الذي تكون حياته مثلاً لعمل النعمة، والتلميذ الذي يتعلم، وبالتالي ينقل هذه البشارة إلى الآخرين (٤) والمؤمن الذي يرحب برجال الله ورسالة الله ويجد حياة نفسه.

ومن حديث المسيح نرى حقائق رائعة لكل نفس بسيطة متواضعة:

١ ــ فنحن لا نستطيع أن نكون جميعاً أنبياء نكرز ونعلن كلمة الله.

ولكن من يقدم لهؤلاء الأنبياء واجب الضيافة البسيط، سيتلقى أجراً لا يقل عن أجر النبي نفسه.

وهناك شخصيات فذة معروفة في المجتمعات، هناك أصوات هزت القلوب وحركت المشاعر عند آلاف الناس، هناك أناس قدموا خدمات رائعة لجماهير البشر، وحملوا مسئوليات ضخمة على كواهلهم، هؤلاء جميعاً قدموا أجل الخدمات للإنسانية وللجماهير. لكن هؤلاء جميعاً ما كان ممكناً لهم أن يقوموا بهذه الخدمات لولا المحبة والعطف والعناية التي قدمها لهم أصدقاء وأحباء في-البيوت لم تسمع الجماهير بأسمائهم، ولم ترهم الناس.

وعندما تقاس العظمة الحقيقية في نظر الله، سيتبين أن أولئك الذين قاموا بأعظم الأعمال، كانوا يعتمدون على أشخاص بقيت أسماؤهم مجهولة من الناس.

فالنبي، يحتاج إلى تناول الطعام، وإعداد ملابسه ... حتى النبي يحتاج إلى بيت يأوى إليه. فليت الذين يقومون بأعمال غير ظاهرة، كطهى الطعام وإعداد الملابس، وشراء ضروريات البيت، والعناية بالأطفال ــ هذه الأعمال التي يندر أن يتلقوا من أجلها شكراً ــ ليتهم لا ينظرون إلى أعمالهم كأنها حلقة لا تنتهي من التعب والملل. إن هذه الأعمال هي من أعظم الأعمال في نظر الله. إنهم سيتلقون عنها أجراً لا يقل عن أجر الأنبياء الذين هزوا المشاعر والقلوب، وملأوا المجتمعات والكنائس بالحركة والخدمة والنشاط.

٢ ــ وقد لا يستطيع الجميع أن يكوأمثلة لامعة للبر والصلاح ، ولكن من يعاون إنساناً صالحاً أن يكون صالحاً ، يتلقى أجر بار . يذكر أحد الكتاب قصة جميلة عن شاب في قرية في الريف جاهد وكافح ، إلى أن صار خادماً للإنجيل .. وكان يعاونه في سنوات دراسته إسكافي القرية ــ ومرت الأيام، ونال الشاب شهادة التصريح بممارسة خدمة الوعظ، وفي ذلك جاءه الإسكافي وقال له «لقد كانت أمنية قلبي الأولى أن أصير خادماً للإنجيل ، ولكن ظروف حياتي لم تساعدني على تحقيق هذه الأمنية. ولكنك الآن يابني وصلت إلى أقرب الأعمال إلى قلبي. لذلك أرجوك أن تحقق لي رغبة واحدة، وهي أن تدعني أصنع لك حذاء وأقدمه لك بلا مقابل، وأريدك أن تلبس هذا

الحذاء وأنت تعظ على المنبر، وعندئذ أشعر أنك تقوم بخدمة الوعظ التي تمنيتها لنفسي، وتضع أقدامك في حذاء من صناعتي وهدية مني».

لقد كان ذلك الإسكاف يؤدي خدمة لله، كما كان يؤديها الواعظ تماماً، وسيكون أجره يوماً ما ، أجر واعظ...

٣ ــ ونحن جميعنا لا نستطيع أن نعلم الصغار، ولكن هناك أساليب أخرى يمكننا بها جميعاً أن نخدم الصغار. قد لا تكون لنا المعرفة ولا الأسلوب الذي به نعلم، ولكن هناك واجبات بسيطة أخرى، بدونها لا يمكن للصغير أن يحيا . وغالباً لا يقصد المسيح هنا الأطفال في العمر، بل الصغار في الإيمان قد لا نستطيع أن نعلمهم، لكننا بحياتنا وقدوتنا ومحبتنا ومعاونتهم في حياتهم العملية نستطيع أن نقدم لهم ولو كأس ماء بارد فقط ــ هذا العمل يمكن لأبسط الناس أن يعمله.

إن جمال هذه الآيات يظهر في تسليطها الأضواء على الأمور البسيطة .. إن كنيسة المسيح تحتاج دائماً إلى خطبائها، وقديسيها ، ومعلميها ، ومدبريها .. لكنها تحتاج أيضاً إلى البيوت المضيفة، والأيدي التي تعمل في صمت وفي خفاء، والقلوب التي تحب وتخدم في هدوء ... فلكل خدمة كرامتها في نظر الله إذا صدرت من قلب يحبه ويرجو رضاه .

الأصحاح الحادي عشر

النبرات الست في صوت يسوع
(متى أصحاح ١١)

إن الأصحاح الحادي عشر من إنجيل متى ، كله حديث متصل للسيد المسيح ، وإذ نسمعه يتحدث عن أشخاص مختلفين وعن أمور متنوعة ، نستمع إلى نبرات صوته تتغير وتختلف وفقاً لنوع الأشخاص الذين يتحدث إليهم ، وموضوع الحديث نفسه . ولا شك أننا ستجد مزيداً من الفائدة ونحن نتتبع هذه النبرات الست في صوت المسيح ، واحدة بعد الأخرى .

نبرة الثقة

(متى ١١ : ١ — ٦)

لقد انتهت حياة يوحنا المعمدان بكارثة ومأساة . فلم تكن عادة يوحنا أن يكون ليناً في قول الحق لأى إنسان . ولم يكن يستطيع أن يرى الشر دون أن يوبخه . كان كلامه جريئاً ومحدداً ومهدفاً حتى تعرضت سلامته للخطر . ويظهر ذلك من كلامه لهيرودس وأنتيباس .

فقد سافر هيرودس أنتيباس حاكم الجليل ليزور أخاه في روما . وهناك استطاع أن يغوي إمرأة أخيه ، وعاد إلى الجليل ، وطرد إمرأته وتزوج إمرأة أخيه بعد أن أبعدها عن زوجها .

وقد وبخ يوحنا هيرودس على فعلته هذه بشدة وجهاراً . ولم يكن توبيخ الحكام في ذلك الزمان مأمون العواقب ، لذلك صمم هيرودس على أن ينتقم ، وأمسك يوحنا ووضعه في سجن مظلم في قلعة ماخيرس ، هناك في الجبال بالقرب من البحر الميت .

ولقد كان هذا المصير فظيعاً لأي إنسان ، ولكنه ليوحنا المعمدان كان أشد فظاعة مما هو لأى إنسان آخر . ذلك لأن يوحنا نشأ في البرية ، وألف الحياة في البراري المتسعة بهوائها النقي ، وآفاقها التي لا حدود لها ، وتعود أن يرى السماء سقفاً له . لذلك كان سجنه بين أربعة جدران في زنزانة تحت الأرض ، من أفظع الأمور ، وأشدها إيلاماً لرجل لم يتعود أن يحيا حتى في بيت عادي .

إن الآلام التي يعانيها في السجن ، من تعود الحرية والإنطلاق ، لا يمكن وصفها . فالتاريخ يروى لنا أن أحد الفرسان سجن عدة سنين في زنزانة في قلعة ، ولم يكن في زنزانته سوى نافذة صغيرة أعلى من أنتسمح له أن ينظر منها إلى الخارج . لكن الناس لاحظوا أن أصابع الرجل قد تركت آثاراً في الحجارة ، وهو يحاول كل يوم أن يرفع نفسه متكئاً على أصابع يديه على حافة النافذة لكى يرى الحقول الخضراء التي حرم من أن يسير فيها على جواده كما تعود .

فلا بد أن يوحنا شعر بمثل هذه الآلام ، وابتدأت الأسئلة تجول في خاطره . لقد كان واثقاً

أن يسوع هو « الآتي ».

وكان هذا التعبير « الآتي » هو التعبير المعروف عن المسيا الذي كان اليهود ينتظرونه (مرقس ٩:١١ ، لوقا ٣٥:١٣ ، ٣٨:١٩ ، عبرانيين ٣٧:١٠ ، مزمور ٢٦:١١٨).

والإنسان الذي على حافة الموت لا يستطيع أن يحتمل الحياة في شكوك ، لذلك أرسل يوحنا تلاميذه إلى يسوع يسألونه : هل هو الآتي أم ننتظر آخر . ويمكن أن تكون وراء هذا السؤال معان وتأويلات مختلفة .

٢ ــ فالبعض يعتقد أن يوحنا أرسل تلاميذه بهذا السؤال ، لا شكاً منه ، ولكن رغبة في تثبيت إيمان تلاميذه بالمسيح . فربما دار الحديث بين يوحنا وتلاميذه في السجن ، وتساءل التلاميذ هل حقاً يسوع هو المسيا الآتي ، وربما كان جواب يوحنا أن من يشك في ذلك عليه أن يذهب ويسأل يسوع ، ويرى ما يعمل ، ويسمع ما يقول ، وهكذا تزول شكوكه .

وإذا كان هذا هو التفسير ، فإن الجواب يبدو معقولاً فإذا كان أي إنسان يشك في رسالة المسيح ، فأفضل جواب هو أن نقول له « قدم حياتك للمسيح ، لترى ماذا يمكن أن يفعل بك ». فإن أقوى حجة من جانب المسيح ليست الجدل العقلي ، ولكنها اختبار قوته المغيرة المجددة .

وربما كان سؤال يوحنا هو سؤال من نفد صبره . فقد كانت رسالة يوحنا المعمدان هي رسالة التحذير بالعقاب والخراب (متى ٧:٣ ــ ١٢) . فالفأس قد وضعت على أصل الشجرة ، ونار دينونة الله قد ابتدأت تشتعل ولعل يوحنا أخذ يفكر متى سيبدأ يسوع عمله ، ومتى سيسحق أعداءه ، ومتى سيبدأ عقاب الأشرار ، ومتى سيبدأ يوم الخراب العظيم الذي يعلن فيه الله قداسته .

ولعل يوحنا شعر بشيء من خيبة الأمل ، لأنه لم يجد في يسوع الشخصية الغاضبة المنتقمة التي كان ينتظرها . إن من ينتظر أن يرى في يسوع شخصية غاضبة سيخيب أمله ، أما من ينتظر فيه المحبة ، فلن يخيب رجاؤه على الإطلاق .

٣ ــ ويرى البعض الآخر في سؤال يوحنا فجر أيمان ورجاء في شخص المسيح . فقد رأى يوحنا يسوع عند المعمودية ، والآن وهو في السجن عاود التفكير فيه كثيراً ، وزاد يقينه أنه هو الآتي ، لذلك أراد أن يختبر رجاءه بهذا السؤال ، فلم يكن السؤال دليل اليأس أو نفاد الصبر ، بل كان سؤال من أبتدأ نور الرجاء يسطع في عينيه ، وما هذا السؤال إلا لتوكيد هذا الرجاء .

ثم يأتي جواب يسوع ، وفي جوابه نستمع إلى نبرة الثقة . فقد كان جواب يسوع لتلاميذ يوحنا : « إذهبوا .. لا تخبروا يوحنا ما أقوله ، بل خبروه عما أفعله .. لا تقولوا له ما أقرره عن نفسي ، بل خبروه عما يحدث فعلاً » .

لقد أراد يسوع أن يجتاز أعسر اختبار ، هو اختبار الأعمال والنتائج ، فيسوع هو الشخص الوحيد الذي يطلب أن يحكم الناس عليه بلا قيد أو شرط ، لا من أقواله بل من أعماله .. وما يزال صوت يسوع ينادي الناس يكتفوا بسماع ما يقوله .. بل أن يروا ماذا فعل بالناس ، وماذا

يمكنه أن يفعل بهم .

والأعمال التى كان يسوع يعملها في الجليل ، لا يزال يعملها ، فالذين عميت أبصارهم عن رؤية الحق عن نفوسهم وعن غيرهم وعن إلههم ، ها هو يفتح عيونهم ليبصروا ، والذين لم تكن لأقدامهم قدرة أن يثبتوا في طريق الصلاح ، ها هوذا يقيمهم ، والذين نجسهم مرض الخطية نراه ، يطهرهم ، والذين صُمت آذانهم عن سماع صوت الله وصوت الضمير ابتدأوا يسمعون ، والذين ماتوا في الإثم والخطية قاموا في حياة جديدة رائعة ، وفي شخص المسيح نال المساكين أغنى ميراث لمحبة الله .

وأخيراً يأتي التحذير « طوبى لمن لا يعثر فيَّ » . وقد كان موجهاً إلى يوحنا، ذلك لأنه استطاع أن يلم بنصف الحقيقة فقط، فقد نادى يوحنا بإنجيل قداسة الله ودينونته الرهيبة التي تظهر في الخراب والعقاب. لكن يسوع كان يكرز بإنجيل قداسة الله ومحبة الله معاً. وكأنما كان يسوع يقول ليوحنا المعمدان :

«ربما لا أقوم بعمل ما تنتظر مني أنت أن أعمله، لكن رغم ذلك فإنني أنتصر على قوات الشر .. وأسلوبي في هزيمة الشر، ليس في القوة والبطش الذي لا يمكن مقاومته، ولكنه بالمحبة التي لا يمكن التغلب عليها .. المحبة التي لا حدود لها».

إن بعض الناس قد يعثرون في المسيح لأنهم يرون المسيح يقطع عليهم اتجاههم الديني والفكري. وسوف نجد أنفسنا في هذه الحال إذا كنا نظن أن لنا كامل المعرفة. أما إذا اعترفنا بقصور تفكيرنا، فسيكون المسيح هادياً لنا إلى الأسلوب الصحيح .. أسلوبه هو.

نبرة الإعجاب

(متى ١١ : ٧ — ١٠)

وفي هذه الآيات نرى مدحاً وإعجاباً من فم السيد، يصف به يوحنا المعمدان. وقد ابتدأ المسيح حديثه بسؤال الجماهير عن سبب خروجهم إلى البرية لينظروا يوحنا المعمدان.

١ — هل خرجوا ليروا «قصبة تحركها الريح»؟ وهذا التعبير قد يعني أحد أمرين :

(أ) فهناك على شواطيء نهر الأردن كان ينمو نوع من النبات الطويل الأسطواني المجوف يسمى «القصب» وكان جميع المارين يرون هذا النبات المألوف على شاطيء الأردن، وقد صار التعبير «قصبة تحركها الريح» يشير إلى الشيء المألوف العادي في حياة الإنسان. وكأنما السيد يسأل الناس : هل خرجتم إلى البرية لتنظروا إنساناً عادياً. ومنظراً مألوفاً لكم؟

(ب) وقد يشير التعبير «قصبة تحركها الريح» إلى ضعف هذه النباتات وعدم استطاعة النبات الثبات أمام الريح، لذلك فهي تتمايل على الدوام، إذ تحركها الريح، وكأنه يقول للجموع «هل خرجتم إلى البرية لتروا شخصية مهتزة لا تقاوم الصعوبات والمخاطر بأكثر مما تقاوم القصبة قوة الرياح ؟».

وسواء كان المعنى هذا أم ذاك، فإن الذي لا شك فيه أن الناس لم يخرجوا ليعبروا شوارع مدنهم وقراهم ويسيرون في البرية، ليروا منظراً مألوفاً عادياً، أو شخصية عادية أو ضعيفة يمكنهم أن يلتقوا بها في كل مكان . فلم يكن يوحنا شخصية عادية على الإطلاق.

٢ — وهل خرجوا إلى البرية لينظروا إنساناً لابساً ثياباً ناعمة، وعادة كان نديم الملك، وجليس الأمراء يلبس هذه الثياب الناعمة. فهل كانت شخصية يوحنا كشخصية نديم يتملق الملك. كلا.. كان يوحنا أبعد ما يكون عن هذه الشخصية، فإن النديم يتملق الملك ويستعطفه، لكن يوحنا اتخذ وظيفة قول الحق للملوك .. كان سفيراً لله وليس نديماً للملوك.

٣ — وهل خرجوا ليروا نبياً؟ إن النبي هو الذي يعلن حق الله، هو الذي استودعه الله أسراره. «إن السيد الرب لا يصنع أمراً إلا وهو يعلن سره لعبيده الأنبياء» (عاموس٣:٧). فالنبي هو الذي يحمل رسالة الله، وله الشجاعة أن يوصل هذه الرسالة. وهو الذي يحمل حكمة الله في عقله، وحق الله على شفتيه، وشجاعة الله في قلبه، وهكذا كان يوحنا.

٤ — لكن يوحنا كان أعظم من نبي، لقد اعتقد اليهود وما زالوا يعتقدون أن إيليا سيأتي قبل قدوم المسيا ليعلن عن مجيئه. وحتى هذا اليوم، يترك اليهود وهم يعيدون عيد الفصح مقعداً خالياً ليحتله إيليا. وتقول النبوة «هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب العظيم والمخوف» (ملاخي٤:٥) لذلك أعلن يسوع أن يوحنا أعظم من نبي، لأنه هو البشير الذي جاء ليعلن قدوم المسيا ويهيء طريقه — ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى مقام أعظم من هذا.

٥ — ويصف السيد يوحنا، بنبرة الإعجاب، قائلاً إنه لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان.

يعقب هذا الكلام، هذه العبارة العجيبة وهي أن «الأصغر في ملكوت السموات أعظم منه» — وفيها ترى حقيقة عامة ظاهرة، وهي أنه بقدوم المسيح إلى العالم دخل إلى العالم شيء جديد تماماً . لقد كان الأنبياء عظماء وكانت رسالتهم ثمينة، لكن بمجيء المسيح دخل العالم شيء أعظم، ورسالة أكثر روعة.

يقول س.ج. مونتيفيور ، وهو يهودي وليس مسيحياً :

«إن المسيحية نقطة انطلاق عصر جديد في التاريخ الديني، والمدنية البشرية، والعالم مدين بالكثير ليسوع وبولس، فقد غير هذان تفكير الناس، وحياتهم، وصارت الأمور مختلفة عما كانت عليه قبل حياتهما» — هذه شهادة رجل غير مسيحي.

فما الذي كان يفتقر إليه يوحنا المعمدان، حتى إن الأصغر في ملكوت السموات يصير أعظم منه؟ إن الجواب الصحيح والبسيط هو أن يوحنا لم يشهد الصليب، وهكذا لم يستطع يوحنا أن يدرك الإعلان الكامل لمحبة الله. لقد عرف قداسة الله، وأعلن عدالة الله، ولكنه لم يعرف محبة الله في كمالها.

ونستطيع أن نتبين ذلك عندما نصغي إلى رسالة يوحنا المعمدان، ورسالة يسوع .. إننا لا نستطيع أن نطلق على رسالة يوحنا المعمدان لفظ «إنجيل». إنها ليست بشار مفرحة ، بل كانت رسالة توبيخ وإنذار بالدمار والغضب . كان العالم في حاجة إلى صليب المسيح ليدرك البشر الطول والعرض والعمق والعلو لمحبة الله . إنها حقيقة مذهلة أن اصغر مسيحي يعرف عن محبة الله أكثر مما عرف أعظم أنبياء العهد القديم ، إننا نستطيع أن نعرف عن قلب الله أكثر مما عرف إشعياء وإرميا أو أي نبي آخر من جماعة الأنبياء الصالحين .

إن الإنسان الذي رأى الصليب، يكون قد رأى قلب الله بكيفية لم يكن ممكناً لأى إنسان أن يراه بها قبل الصليب، ففي الصليب وحده نرى أكمل إعلان لقلب الله...

وهكذا كان على يوحنا المعمدان أن يجتاز اختباراً قد يجتاز فيه بعض الناس أحياناً... فقد وجه الناس إلى أمجاد لم يدخل فيها هو بنفسه . وتشاء إرادة الله أن يكون بعض الناس علامات على الطريق ، ترشد الناس إلى أمجاد واختبارات، ولا يصلون هم إليها .. وما أكثر المصلحين الذين سطر التاريخ أسماءهم في سجل الخلود ولكنهم بنوا أمجادهم وعملهم العظيم على أساس كفاح كثيرين قبلهم، جاهدوا وأشاروا إلى طريق الإصلاح، ولكنهم لم يعيشوا فيه، بل وجهوا الناس نحوه فقط .. وحسبهم هذا فخراً.

فلا يدخلن الفشل واليأس إلى قلب أي إنسان يجاهد في الكنيسة أو في أي مجال من مجالات الحياة ... فحتى إذا لم يتحقق حلمه في حياته، لكن يكفيه سروراً أنه جاهد في سبيل تحقيق هذا الحلم. لقد كان الله في حاجة إلى يوحنا المعمدان، وهو يحتاج إلى كثيرين ليكونوا علامات على الطريق، وليس هذا بالعمل الهين، اليسير...

الملكوت والعنف

(متى ١١ : ١٢ — ١٥)

في العدد ١٢ قول يصعب فهمه «ملكوت السموات يغصب والغاصبون يختطفونه» — يضعه لوقا في شكل آخر وهو «كان الناموس والأنبياء إلى يوحنا. ومن ذلك الوقت يبشر بملكوت الله وكل واحد يغتصب نفسه إليه» (لوقا١٦:١٦).

ومن الواضح أن السيد المسيح في وقت ما قال شيئاً عن العلاقة بين الملكوت والعنف، شيئاً لم يكن واضحاً تمام الوضوح حتى أن السامعين لم يفهموه فهما، كاملاً. لذلك فهمه كل من لوقا ومتى بكيفية مختلفة. يقول لوقا إن الإنسان يغتصب نفسه إلى ملكوت الله، بمعنى أن الملكوت ليس للإنسان المتواكل المتساهل، ولكن للإنسان الذي يطلبه بشدة وإلحاح وعنف، ويسعى إليه باجتهاد أي أنه لا يوجد إنسان يدخل ملكوت السموات مع التيار، لكن الملكوت يفتح أبوابه للذين هم على استعداد أن يبذلوا أقصى جهد ليدخلوه كالجهد الذي يبذله أناس لاغتصاب مدينة والإستيلاء عليها.

ويقول متى إنه من وقت يوحنا المعمدان إلى الآن وملكوت السموات يقاسي العنف ــ والصورة التي تظهر من هذا التعبير تبدو كأنها تعليق من متى أكثر مما تكون من أقوال المسيح، كأنما يقول متى «من أيام يوحنا المعمدان الذي أُلقى في السجن إلى الآن يعاني ملكوت السموات من العنف والإضطهاد على أيدي أناس قساة». والحقيقة أننا نستطيع أن نفهم المعنى الكامل لهذا القول العسير إذا وضعنا قول لوقا مع قول متى. كأنما كان يسوع يقول إن ملكوته دائماً سيواجه العنف ، وفي كل زمن سوف يحاول أناس قساة أن يحطموا هذا الملكوت بالقوة، لذلك فالإنسان الذي يطلب هذا الملكوت بشدة، هو الإنسان الذي تتغلب عليه قوة التكريس، وتهزم عنف الإضطهاد. هذا هو الإنسان الذي يدخل إلى ملكوت السموات.

وقد يبدو غريباً أن نقرأ في عدد ١٣ أن الناموس كان يتحدث بصوت النبوة، ولكن هذا ليس غريباً، فإن الناموس تحدث بتأكيد وثقة وأعلن أن صوت النبوة لن يموت.

«يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من أخوتك مثلي . له تسمعون. أقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم. بكل ما أوصيه به» (تثنية١٨: ١٥و١٨).

ويسوع نفسه، اعتبره اليهود أنه يكسر الناموس حسب فهمهم له، لذلك كرهه اليهود، ولو أن عيونهم فتحت ليروا الحقيقة، لوجدوا أن الناموس والأنبياء جميعهم يشيرون إليه.

ومرة أخرى يذكر المسيح أن يوحنا هو البشير الذى كانوا ينتظرونه ليعد الطريق للمسيا إذا كانوا هم مستعدين أن يقبلوا هذه الحقيقة. وهذه مأساة المواقف الإنسانية دائما، تبدو فى هذه العبارة الأخيرة: «إن أردتم ان تقبلوا».

يقول مثل قديم: إنك تستطيع أن تأخذ حصاناً إلى الماء ولكنك لا تستطيع أن ترغمه على الشرب.

ان الله يقدر أن يرسل رسولاً، لكن الناس فى استطاعتهم أن يرفضوا الإعتراف به. الله يمكنه إعلان حقه، ولكن الناس يمكنهم أن يرفضوا هذا الحق. إن معلنات الله لا قوه لها إلا اذا تجاوب الإنسان معها. هذا هو السبب الذى لأجله يختم المسيح هذه الفقرة بقوله «من له أذنان للسمع فليسمع». من له أذنان فيجب أن يستخدمهما للسمع.

نبرة التوبيخ الحزين

(متى ١١ : ١٦ ــ ١٩)

امتلأ قلب يسوع بالحزن بسبب انحراف وعناد الطبيعة الإنسانية، فبالنسبة له كان الناس كأطفال يلعبون في ساحة القرية، يقول فريق منهم للآخر «تعالوا لنزمر ونرقص في الأفراح والأعراس» فيجيبه الفريق الآخر «نحن لا نحس برغبة في الفرح والسعادة اليوم» ، فيأتي الفريق الأول ويقول «حسناً إذا لم تكونوا في حال تشجعكم على الفرح، فتعالوا لكي ننوح في الجنازات» ولكن الفريق الآخر يقول «لسنا نحس برغبة في الحزن والبكاء اليوم».

ومعنى ذلك أنهم يعارضون أي رأي. ومهما كان الإقتراح فلا يريدون أن ينفذوه، ومهما قدم لهم فهم لا يقبلون.

جاء يوحنا يعيش في الصحراء زاهداً في الطعام كثير الصوم يرفض الإندماج في مجتمعات البشر، فقالوا عنه ، إنه مجنون ، لأنه يعزل نفسه عن المسرات العادية للبشر بهذا الأسلوب. ثم جاء يسوع يندمج مع جميع أنواع الناس، يشاركهم أحزانهم وأفراحهم، يرافقهم في أوقات السرور، فقالوا عنه إنه إنسان محب للعشارين والخطاة، أكول، شريب خمر، يميل إلى الذهاب إلى كل الحفلات ويندمج مع أنواع من الناس لا يرضى إنسان أن يرافقهم . لقدفسروا زهد يوحنا بالجنون أو أن به شيطاناً، وفسروا اختلاط المسيح بأنه طراوة في الأخلاق.

ففي كل حالة كانوا يجدون مجالاً للنقد . والحقيقة أن الناس إذا لم يريدوا أن يستمعوا إلى الحق ، فإنهم سيجدون حالاً عذراً لعدم سماعهم له . وهم لا يسيرون على نظام ثابت حتى فى انتقادهم إنهم ينتقدون الشخص أو الهيئة لأسباب تكاد تكون متناقضة. إذا كان الناس يصرون على أن لا يتجاوبوا فإنهم يرفضون التجاوب بشدة وبعناد أياً كان نوع الدعوة التي توجه إليهم.

إن الناس الكبار يمكنهم أن يتصرفوا أحياناً كالأطفال المدللين الذين يرفضون اللعب أياً كان نوع اللعبة.

ويختم المسيح هذه الفقرة بقوله «والحكمة تبررت من بنيها » ــ بمعنى أن الحكم النهائي لا تبرره أقوال النقاد، ولكن تبرره الأحداث. فقد ينتقد اليهود يوحنا المعمدان لانعزاله بعيداً عن المجتمع، لكن يوحنا استطاع أن يحرك قلوب الناس ويوجهها إلى الله ، كما لم يحركها أحد منذ مئات السنين. وقد ينتقد اليهود يسوع لأنه كان يختلط كثيراً فى الحياة العادية للناس ومع الناس العاديين، لكن الحقيقة الساطعة هي أن الناس وجدوا في شخص المسيح حياة جديدة، وصلاحاً جديداً وقوة جديدة، ليعيشوا كما ينبغي، وطريقاً جديداً إلى الله.

إذاً فالأفضل أن نكف عن انتقاد ودينونة الناس أو الكنائس بتعصبنا وعنادنا، ولنبدأ في تغيير اتجاهنا لنشكر الله من أجل أي شخص أو أية كنيسة تستطيع أن تقرب الناس إلى الله، حتى إذا كان أسلوبها يختلف عن الأساليب المقبولة لدينا نحن.

نبرة الدينونة مع القلب المنفطر

(متى ١١ : ٢٠ ــ ٢٤)

في ختام إنجيل يوحنا، ذكر الكاتب عبارة تفيد أنه ليس من الممكن على الإطلاق حصر وسرد كل أحداث حياة المسيح، فقد قال «وأشياء أخر كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة» (يوحنا٢١:٢٥). وهذه الفقرة من بشارة متى، تؤيد ما قاله يوحنا في ختام بشارته، إذ أننا لا نجد في بشائر الإنجيل ما يروي القوات التي صنعت في كورزين. وبيت صيدا ــ وغالباً كانت كورزين تقع على مسيرة ساعة شمال كفرناحوم، وكانت بيت صيدا

قرية صيد على الشاطيء الغربي لنهر الأردن. ولا بد أن آيات رائعة حدثت في هاتين البلدتين، ومع ذلك فليس لدينا شيء في الإنجيل عن هذه الآيات، رغم أنها بلا شك كانت من روائع أعمال المسيح. إن هذه الفقرة تبين لنا أن معلوماتنا عن حياة المسيح قليلة، وأن البشائر تروى شطراً قليلاً من أعماله، وما نجهله من أعمال المسيح أكثر مما نعرفه.

واللهجة التي يتحدث بها المسيح ليست لهجة الغضب بقدر ما هي لهجة القلب المنفطر على هلاك هذه المدن لعدم توبة سكانها. فالكلمة المترجمة «ويل لك» هنا تعبر عن الحزن أكثر مما تعبر عن الغضب — إنها لا تشير إلى غضب لأجل الكرامة الجريحة، ولا إلى الحقد والكراهية بسبب مقاومة الناس للمسيح وعدم تقديرهم لشخصه ورسالته ... إنها تعبر عن الحزن .. حزن من قدم للناس أثمن شيء في الوجود، ومع ذلك فلم يبالوا به على الإطلاق .. إنها نبرة من يرى بعينيه مأساة على وشك الوقوع، ويقف عاجزاً عن منع الناس من التردي فيها.

إن دينونة المسيح للخطية وعقابه لها هو الغضب المقدس، الذي لا يصدر عن الكبرياء الثائرة بل من القلب المنفطر.

ماذا كانت خطية كورزين وبيت صيدا وكفرناحوم؟ ما هي الخطية التي فاقت خطية صور وصيدا وسدوم وعمورة؟ لا بد أنها كانت خطية فظيعة، لأننا نقرأ خلال أسفار الكتاب المقدس أن هذه المدن صارت رمزاً للشر والفساد (إشعياء ٢٣ وإرميا ٢٥:٢٢ و٤٧:٤ وحزقيال ٢٦: ٣—٧، ٢٨: ١٢—٢٢).

١ — كانت خطيتهم هي خطية الشعب الذي نسى مسئوليات ماله من امتيازات. لقد تمتعت مدن الجليل هذه بامتياز لم تتمتع به صور وصيدا وسدوم وعمورة، لأن هذه المدن قد رأت فعلاً شخص المسيح، وسمعت حديثه شخصياً. فنحن لا ندين إنساناً ارتكب حماقة بسبب جهله، و لم تكن له فرصة ليعرف سبيلاً أفضل إلى سلوك أفضل، ولكن إذا اتيحت لإنسان الفرصة ليعرف الخير ثم فعل الشر، فلا يمكن أن يهرب من الدينونة.

ونحن لا نحكم على الطفل بنفس المعايير التي نحكم بها على الإنسان البالغ، ولا على الإنسان البدائي بمعايير الحكم على الإنسان المتحضر. إن حكمنا على الإنسان يتوقف على مقدار الفرصة التي كانت له، فكلما زادت الإمتيازات، ازدادت المسئولية واشتد حكمنا على من ينسى المسئوليات المترتبة على هذه الإمتيازات.

٢ — وقد كانت خطيتهم هي اللامبالاة، فهذه المدن لم تقاوم يسوع، و لم تطرده من بين أسوارها وأبوابها، و لم تفكر في صلبه. ولكن ساكنيها اكتفوا بأن أهملوها ، و لم يبالوا به. والإهمال يقتل بنفس الضراوة التي يقتل بها الاضطهاد.

وقد يكتب أحد المؤلفين كتاباً، ويرسله إلى النقاد والمعلقين، وبعضهم يمدح الكتاب ويثني عليه، والبعض الآخر ينتقد الكتاب ويشن عليه حملة شعواء .. ومع ذلك فهذا لا يؤثر أبداً على الكتاب،

ما دام قد نال اهتماماً وملاحظة.. ولكن الذي يقتل الكتاب هو عدم المبالاة بالكتاب سواء بمدحه أو معارضته.

رسم أحد الفنانين صورة تعبر عن روح هذا العصر إزاء المسيح، فصور السيد المسيح واقفاً على قنطرة من قناطر لندن فاتحاً ذراعيه للجماهير، لكن الناس يسيرون في طريقهم العادي دون التفات له، فيما عدا فتاة تعمل بالتمريض هي التي وجهت نظرها إليه.. هذا هو الموقف في كثير من البلدان ـــ اللامبالاة بالمسيحية .. هذه هي أردأ الخطايا .. فهي من الخطايا القاتلة للمسيحية، فإن كان الإضطهاد يحرق المسيحية فيقتلها ، فاللامبالاة تجمدها إلى درجة الموت.

٣ ـــ وهكذا نواجه حقيقة هامة وهي أن عدم العمل في حد ذاته خطية. فهناك خطايا الفعل، وهناك خطايا عدم الفعل. وقد كانت خطية كورزين وبيت صيدا وكفرناحوم أن هذه المدن لم تعمل شيئاً.

وقد يقف إنسان يوماً ليدافع عن نفسه ويقول « ولكنى لم أفعل شيئاً » ويكون دفاعه هذا هو فى الواقع دينونته .

نبرة السلطان

(متى ١١ : ٢٥ ـــ ٢٧)

هنا يتكلم يسوع عن الإختبار، فقد اختبر أن الربيين (معلمي اليهود) والحكماء رفضوه، أما الناس البسطاء فقد قبلوه : لم يشعر الأذكياء بحاجتهم إليه، لكن المتواضعين رحبوا به.

ومن الضروري أن نتفهم المعنى الذي قصده المسيح، فلم يقصد يسوع أن يقلل من أهمية القدرة العقلية أو يدينها، ولكنه يدين الكبرياء العقلية. وكما قال أحد الكتاب : «إن القلب وليس الرأس هو بيت الإنجيل» فليس الذكاء هو الذي يمنع عنا بركات الإنجيل، ولكنها الكبرياء. وليس الغباء هو الذي يفتح أمامنا باب قبول المسيح، ولكنه التواضع. فالمسيح هنا لا يربط بين الجهل والإيمان، ولكنه يربط بين التواضع والإيمان. فقد تكون للإنسان حكمة سليمان، ولكن إذا لم تكن له البساطة والثقة والبراءة كقلوب الأطفال، فإنه يمنع نفسه من قبول مطالب الإنجيل.

ولم تكن هذه الحقائق بعيدة عن أفهام معلمي اليهود، فقد كانوا يعرفون أخطار الكبرياء العقلية، ويقرون أنه في بعض الأحيان يكون الناس البسطاء أقرب إلى الله من أحكم المعلمين.

ومن قصصهم الشائعة أن إيليا ظهر لأحد المعلمين، وسأله المعلم عما إذا كان يوجد أحد من الموجودين في السوق، سيكون له نصيب في حياة الدهر الآتي، فأشار إيليا إلى سجان بسيط يقوم بواجبه، وإلى رجلين وظيفتهما إدخال السرور إلى نفوس الحزانى.

ومن أحاديثهم الشائعة أيضاً أن وباء انتشر في بلدة ما ولكنه لم يشمل الحي الذي كان أحد الربيين يسكن فيه، فظن الناس أن ذلك يرجع إلى وجود هذا المعلم العظيم للناموس، ولكن الله

كشف للناس في حلم أن السبب يرجع إلى وجود رجل عادي أعار فأساً ومجرفة لرجل كان يريد أن يحفر قبراً...

وإن ناراً شبت في مدينة لكنها لم تحرق الجزء الذي كان يعيش فيه أحد معلمي الناموس، وكشف الله للناس السر في أن هذا كان بسبب إمرأة فقيرة كانت تسمح أن يستخدموا موقدها...

وهكذا كان معلموا الناس يعرفون أن الإنسان الذي يقدم خدمة بسيطة بدافع المحبة أكثر قرباً من الله من أصحاب القدرة العقلية الفائقة، فالاقتراب إلى الله لا يكون بالذكاء، بقدر ما يكون بالبساطة والقلب المتواضع.

وتختم هذه الفقرة بإعلان مجيد عن سلطان المسيح، هو مركز الإعتقاد المسيحي، وهو أن يسوع وحده هو الذي له السلطان أن يعلن الله للبشر. قد يكون الناس أبناء الله، لكنه هو الإبن .

ويضع يوحنا هذه الحقيقة في أسلوب آخر عندما يقول : «من رآني فقد رأى الآب» (يوحنا١٤: ٩). والمسيح هنا يريد أن يقول للبشر : «إذا أردتم أن تعرفوا من هو الله ، وكيف يكون ، إذا أردتم أن تعرفوا شيئاً عن فكر الله، وقلب الله وطبيعة الله، واتجاه الله نحو البشر ــ أنظروا إليَّ». هذا هو الإعتقاد المسيحي أننا في يسوع المسيح وحده نستطيع أن نرى الله، وأن يسوع يمكنه أن يعطي هذه المعرفة لأى إنسان يقبل هذه المعرفة بثقة وبتواضع وإيمان وتصديق.

نبرة الحنان

(متى ١١ : ٢٨ ــ ٣٠)

كان يسوع يتحدث إلى جماعة من الناس يحاولون محاولة المستميت أن يجدوا الله ويجاهدون جهاد اليائسين أن يكونوا صالحين ولكنهم لا يقدرون. فقد كان ذلك يبدو مستحيلاً أمامهم، وقد أخذ منهم اليأس والتعب والضنى كل مأخذ.

لذلك يدعوهم يسوع قائلاً «تعالوا إلى ياجميع المتعبين»، فهو يدعو الذين أرهقهم البحث عن الله وعن الحق. ومن أقوال اليونان «إنه من الصعب أن تجد الله ومتى وجدته فمن العسير أن تتحدث عنه إلى شخص آخر» وقال صوفر النعماني لأيوب «أإلى عمق الله تتصل أم إلى نهاية القدير تنتهي؟ - هو أعلى من السموات فماذا عساك أن تفعل. أعمق من الهاوية فماذا تدري» (أيوب١١:٧و٨).

إن يسوع يعلن أن البحث المضنى عن الله ينتهي في شخصه المبارك. يقول و.ب.بيتس الشاعر والمتصوف الأيرلندي :

«هل يصل إنسان إلى الله بجهده ..؟»

«إنه يعطى نفسه للأنقياء القلب .. ولا يطلب شيئاً سوى انتباهنا..».

إن البحث عن الله ينتهي بالتأمل في شخص يسوع المسيح لأن فيه نرى صورة الله.

ثم يدعو يسوع قائلاً «تعالوا إلى ياجميع التقيلي الأحمال..» الذين يرزحون تحت أثقال فرائض الديانة اليهودية. لقد قال المسيح عن الكتبة والفريسيين بأنهم «يحزمون أحمالاً ثقيلة عسيرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس» (متى٢٣: ٤) — وكانت الديانة لليهودي مجموعة لا تنتهي من القوانين والتعليمات والشرائع والأوامر والنواهي التي عليه أن يلاحظها كلها، وكانت هذه الشرائع تملي عليه كل حركاته وأعماله، ويحيا والصوت يرن في أذنيه على الدوام.

«لا تفعل هذا .. لا تفعل ذاك».

وحتى بعض المعلمين اليهود تبينوا هذه الحقيقة — وفي أمثال اليهود وتشبيهاتهم مثل محزن يبين الصعوبات التي يتجشمها الفرد في سبيل تنفيذ شرائه اليهودية، قيل إن قورح كان يرويه قائلاً :

«عاشت إلى جواري أرملة لم يكن لها إلا ابنتان وحقل. وعندما أبتدأت تحرث الحقل، إذا بموسى (ناموس موسى) يقول لها «لا تحرث على ثور وحمار معاً» (تثنية٢٢: ١٠). وعندما أرادت أن تزرع قال لها «لا تزرع حقلك صنفين» (تثنية٢٢: ٩).

وعندما جاء وقت حصاد القمح ، قال لها «إذا حصدت حصيدك في حقلك ونسيت حزمة فلا ترجع لتأخذها» (تثنية٢٤: ١٩) «وعندما تحصدون حصيد أرضكم لا تكمل زوايا حقلك في الحصاد» (لاويين١٩: ٩) — وعندما ابتدأت تجمع الحصاد قال لها «لا يحل لك أن تأكل في أبوابك عشر حنطتك» (تثنية١٢: ١٧)، ودفعت المرأة العشر الأول والثاني وتممت الفرائض كلها.. فماذا عملت؟ لقد باعت الأرملة المسكينة الحقل، واشترت خروفاً ونعجة لتكسو نفسها من صوفها، وتكسب من صغارها .. لكن عندما ولدت النعجة، جاء هرون (شريعة الكهنة) وقال لها «أعطني البكر». ففعلت ذلك، ولما جاء وقت الجز، وجزت الصوف قال لها : أعطني من «أول جزاز غنمك» (تثنية ١٨: ٤).

وعندئذ قالت في نفسها : لن أستطيع أن أصمد أمام مطاليب هذا الرجل. لذلك سأذبح الغنم وآكل لحمها، وعندما ذبحت جاء هرون وقال لها : أعطني حقي وهو «الساعد والفكين والكرش» (تثنية ١٨: ٣). فقالت المرأة «حتى بعد أن ذبحتها لن أفلت منك — لتكن محرمة» . فقال لها هرون «في هذه الحالة تكون كلها لي لأن الشريعة تقول « كل محرم في إسرائيل يكون لك» (عدد١٨: ١٤). وهكذا أخذ هرون كل شيء وتركها تبكي مع بناتها».

إن هذه القصة ما هي إلا تمثيل لثقل فرائض الشريعة على أكتاف الناس. لقد أصبح الناموس حملاً ثقيلاً.

لذلك يدعوهم يسوع أن يحملوا نيره عليهم. وكلمة «حمل النير» في استخدام اليهود كانت تشير إلى الخضوع والتسليم والقبول. وكانوا يستخدمون تعبيرات مثل نير الناموس، ونير الوصايا، ونير الملكوت، ونير الله.

وربما أخذ المسيح هذا التعبير من اختيار أقرب إلى هذا المعنى، فإن قوله «نيري هين» معناه في اللغة اليونانية «نيري مناسب» فقد كانت أنيار الثيران تصنع من الخشب، وعادة كانوا يحضرون الثور

إلى النجار ليقيس النير، ثم يصنع النير، ويحضرون الثور ليجرب وضع النير عليه، فإذا لم يكن مناسباً يصلحه حتى يصير هيناً أو مناسباً فلا يجرح رقبة الثور.

وتقول الروايات القديمة إن يسوع في السنوات الصامتة قبل بدء خدمته الجهارية، كان يعمل بالنجارة، واشتهر بأنه كان يصنع أفضل الأنيار في كل بلادِ فلسطين. وأن الناس كانوا يأتون إليه من كل مكان ليصنع أنياراً مناسبة لثيرانهم. وتقول الروايات إن المحلات كانت تضع لوحات فوق أبوابها إعلاناً عن نوع العمل فيها، وغالباً كان يسوع يضع فوق دكان النجارة لوحة تقول « نيري مناسب » أو «نيري هين» — وربما استخدم يسوع التعبير عينه الذي كان يضعه على دكان النجارة في الناصرة ، ليعبر به عن حقيقة جديدة رائعة... فهو يقول «نيري هين أو مناسب» إنه ينادي الناس أن الحياة التي يعطيها لهم لن تكون ثقلاً عليهم، إنها ستكون مناسبة لهم. وعندما يكلفنا الله بأعمال، فإنه يكلفنا بما يناسبنا تماماً، فعند الله عمل لكل منا حسب طاقته وقدراته.

ثم يقول المسيح «حملي خفيف» :و قد قال أحد معلمي اليهود مرة «إن حملي قد صار أنشودتي». وليس معنى هذا أن الحمل قد صار سهلاً أو خفيفاً في وزنه، ولكن معنى ذلك أننا نحمله بدافع المحبة .. فالمحبة تجعل أثقل حمل خفيفاً .. وحين نرى في يسوع محبة الله الفائقة، نشعر بواجبنا أن نحب الله، ونحب إخوتنا، فيصير حملنا أنشودتنا.

كان صبي صغير يحمل على كتفيه صبياً أعرج أصغر منه. فقال له أحد المارة : «إن حملك ثقيل أيها الصبي» فرد كلا .. «إني لا أحمل حملاً، إنه أخي» .. إن المحبة تهون علينا كل الأحمال.. وهذا ما فعله يسوع معنا.

الأصحاح الثاني عشر

مواقـف متأزمـة
مقدمة للأصحاح الثاني عشر

في الأصحاح الثاني عشر من إنجيل متى، نقرأ رواية عن مجموعة من الحوادث الحاسمة في حياة يسوع. ففي حياة كل إنسان لحظات حاسمة وأوقات وأحداث تؤثر تأثيراً دائماً في حياته . إن هذا الأصحاح يروي لنا مثل هذه الأحداث واللحظات في حياة يسوع. ففيه نرى قادة الديانة اليهودية يقررون رأياً واتجاهاً قاطعاً نحوه، وكان هذا الإتجاه هو المعارضة والمقاومة. ولم يكن موقفهم مجرد مقاومة، بل إنهم اقتنعوا أن إبعاده التام عن مسرح الحياة هو الحل الضروري. وفي هذا الأصحاح نرى الخطوات الأولى التي قادت فيما بعد إلى الصليب، ونرى الشخصيات تتبلور وتتضح أمامنا، ونرى جماعة الكتبة والفريسيين، تزداد مقاومتهم تدريجياً، ويتطور عداؤهم للمسيح متدرجاً في أربع مراحل :

١ ــ ففي الأعداد ١ ــ ٨ نرى كيف أن التلاميذ كانوا يقطفون السنابل في السبت، هنا نرى بداية ازدياد الشكوك ــ فقد ابتدأ الكتبة والفريسيون ينظرون بعين الريبة والشك إلى ذلك المعلم الذي يسمح لتلاميذه أن يتهاونوا في حفظ دقائق شريعة السبت .. فإن مثل هذا العمل لا يجوز أن يستمر دون عمل يوقفه.

٢ ــ وفي الأعداد ٩ــ١٤ نقرأ قصة شفاء الرجل ذي اليد اليابسة، في يوم السبت أيضاً .. هنا نرى مرحلة البحث والاستقصاء، فإن الكتبة والفريسيين كانوا يراقبونه في المجمع كما يروى لوقا (لوقا٦:٧) . ومن ذلك الوقت كانوا يرسلون جواسيسهم ليراقبوا أعماله ليجدوا تهمة يشتكون عليه بها.

٣ ــ وفي الأعداد ٢٢ــ٢٣ نرى قادة الدين اليهودي ينسبون إلى يسوع أنه يستخدم قوة شيطانية في معجزاته، وكيف أن يسوع حدثهم عن الخطية التي لا غفران لها، لأننا هنا نرى قصة التعصب الأعمى ضد المسيح. فمنذ ذلك الوقت، لم يكن يسوع يعمل شيئاً إلا وينتقدونه ، ويجدون فيه عيباً وخطأً، لأنهم في تعصبهم، أعميت عيونهم عن رؤية جوانب الجمال والحق في أعمال المسيح، ولم يستطيعوا أن يتراجعوا.

٤ ــ وفي العدد ٢٤ نرى شر التصميم .. فهم لم يكتفوا بالمراقبة والانتقاد لكنهم تشاوروا عليه ليهلكوه .. واستعدوا للعمل. كان الشك والبحث والتعصب من الخطوات التي قادتهم إلى العمل العدائي.

ماذا كان موقف يسوع في مواجهة هذه المقاومة المتزايدة؟ لقد كان اتجاه يسوع واضحاً ومحدداً في خمسة أساليب :

١ ــ لقد واجهها بتحدٍ شجاع، ففي قصة شفاء الرجل ذي اليد اليابسة (٩ــ١٤) نراه يتحدى الكتبة والفريسيين علناً وبشجاعة. فإن ما عمله يسوع لم يفعله في زاوية، بل في مجمع مزدحم. ولم يكن في غيبتهم، بل كان في حضورهم وهم يراقبونه ليجدوا شيئاً يشتكون به عليه ... فلم يكن يسوع يحاول أن يتجنب التحدي، بل وقف ليواجهه علناً.

٢ ــ لقد واجهها بتحذير : ففي الأعداد ٢٢ــ٣٢ نرى يسوع يوجه أشد أساليب التحذير، فهو يحذر هؤلاء الناس أنهم إذا استمروا في إغلاق عيونهم أمام الحق، وأمام إعلانات الله، فإنهم يقودون أنفسهم إلى موقف فيه يحرمون أنفسهم من نعمة الله نتيجة لتصرفهم، ونحن نرى يسوع هنا لا في موقف الدفاع، بل في موقف الهجوم .. إنه يعرف موقفه جيداً وبوضوح.

٣ ــ لقد واجهها بمجموعة من المعلنات المذهلة عن نفسه. فهو أعظم من الهيكل (عدد٦). والهيكل في نظر اليهود أقدس مكان في العالم. وهو أعظم من يونان (عدد٤١) مع أن يونان هو أعظم نبي قدم رسالة التوبة بكيفية فعالة. وهو أعظم من سليمان (عدد٤٢) مع أن سليمان هو رمز الحكمة المتجسدة عند اليهود. فكأن يسوع يعلن أنه لم يوجد في التاريخ الروحي من هو أعظم منه.

٤ ــ وقد واجهها بتقرير عن ضرورة تعليمه. فالمثل الذي ذكره في الأعداد ٤٣ــ٤٥ عن البيت الذي يخرج منه الشيطان، ويرجع ويجده خالياً ونظيفاً، فيدعو شياطين أخرى أشر منه لتسكن فيه، هذا المثل يبين أنه إذا كان الناموس باتجاهه السلبي يخلي حياة الإنسان من الشر. فإن الإنجيل وحده هو الذي يملأ حياة الإنسان بالخير. وكأنما الناموس يترك الإنسان عرضة لأن تأتي كل الشرور وتمتلكه، بينما الإنجيل هو الخير الإيجابي الذي يمنع دخول الشر إلى قلب الإنسان. وهنا نرى إعلاناً من يسوع أن الإنجيل يعمل في حياة الإنسان ما لا يستطيع الناموس عمله.

٥ ــ وأخيراً واجه يسوع هذه المقاومة بدعوة، ففي الأعداد ٤٦ــ٥٠ نرى دعوة إلى كل إنسان أن يكون قريباً للمسيح، عن طريق طاعة مشيئة الله. في هذه الأعداد لا يرفض المسيح أقرباءه بالجسد، ولكنه يدعو الناس أن يهجروا تعصبهم وإرادتهم الذاتية، ليعملوا مشيئة الله ويكون يسوع لهم رباً وسيداً، ليدخلوا ضمن أسرة الله.

الإنسان والسبت

(متى ١٢ : ١ ــ ٨)

كسر شريعة السبت :

في أيام المسيح، كان الناس يزرعون القمح في فلسطين في خطوط ضيقة طويلة، بينها ممرات يسير فيها الناس وفي مثل هذه الممرات كان يسوع وتلاميذه يسيرون بين الزروع، حين حدثت حوادث هذه الرواية.

لم يكن شيئاً غريباً أو منافياً للعرف أن يقطف المسافر من سنابل القمح، ويفركها بيديه، ويأكلها، وهو في الطريق، مع أنه لا يملك الحقل ولا الزرع، ولم يعتبر هذا نوعاً من التعدي على ملكية الغير، ما دام الإنسان لم يستخدم منجلاً. فالشريعة تقول:

« إذا دخلت زرع صاحبك فاقطف سنابل بيدك ، ولكن منجلا لا ترفع على زرع صاحبك » (تثنية ٢٣ : ٢٥).

ولم يكن انتقاد الكتبة والفريسيين للتلاميذ لأنهم قطفوا سنابل القمح، بل لأنهم فعلوا ذلك في السبت. فلقد كانت شريعة السبت غاية في التعقيد والتفصيل. فالوصية تنهي عن العمل يوم السبت، لكن مفسري الناموس لم يكتفوا بهذا النهي البسيط، لذلك أرادوا أن يحددوا معنى «العمل» ، فوضعوا بياناً بتسعة وثلاثين نوعاً من أنواع الأفعال، ممنوعة يوم السبت، منها الحصد والتنقية أو التذرية، ودق الحنطة أو درسها، وإعداد الطعام. ولم يكتف المفسرون بهذا، بل كان عليهم أن يحللوا كل نوع من الأعمال ويحددوه ويعرفوه. فمثلاً كان حمل الأحمال ممنوعاً يوم السبت، ولكن ما هو «الحمل» لذلك قالوا إن الحمل هو ما زاد وزنه على وزن تينتين يابستين، وإن اقتراح العمل أو التفكير فيه ممنوع. ثم قال أحد كبار معلمي اليهود (ابن ميمون) إن قطف سنابل القمح يعتبر نوعاً من الحصاد.

لذلك كان التلاميذ في نظر شراح الناموس، قد كسروا وخالفوا أكثر من جانب واحد من شريعة الناموس .. فعندما قطفوا السنابل فهم قاموا بعملية حصاد، وعندما «فركوها بأيديهم» قاموا بعملية تذرية أو تنقية، وعندما فصلوا القمح من القش فإنهم قاموا بعملية درس .. وفي كل هذه الأفعال قد أذنبوا في نظرهم لأنهم كانوا يعدون طعاماً يوم السبت .. لأن كل ما يؤكل يوم السبت، كان ينبغي إعداده في اليوم السابق.

لقد كان اليهود المدققون ينظرون إلى تقديس السبت نظرة جدية، وفي كتاب اليوبيل (أصحاح ٥٠) نقرأ صورة عن التعاليم الخاصة بحفظ السبت، ومنها أن مجرد التفكير في العمل، أو الإعداد لسفر، أو التفكير في البيع والشراء، أو سحب ماء من بئر أو حمل أي ثقل. ممنوع يوم السبت ومن يعمل يوم السبت، أو يفلح أرضاً، أو يوقد ناراً، أو يركب دابة، أو يصطاد طائراً، أو سمكة، أو يصوم السبت، يجب أن يموت .. كان حفظ هذه التشريعات في نظرهم حفظاً لناموس الله ، وكان كسرها مخالفة لناموس الله ...

لقد كان للكتبة والفريسيين سبب قوى يدعوهم إلى انتقاد التلاميذ، وانتقاد يسوع، لأنه سمح لهم أو شجعهم على عمل كان في شريعتهم وتفكيرهم كسراً لشريعة السبت.

مطاليب الحاجة الإنسانية :

وفي الرد على انتقاد الكتبة والفريسيين، قدم السيد المسيح ثلاث حجج :

١ ــ فقد أشار إلى ما فعله داود والغلمان الذين معه، عندما دخلوا إلى خيمة الاجتماع، وأكلوا من خبز الوجوه الذي لا يحل أكله إلا للكهنة (١صموئيل ٢١: ١ــ٦) ويصف لنا سفر اللاويين

(٢٤ـ٥:٢٤ـ٩) هذا الخبز بالقول «وتأخذ دقيقاً وتخبزه إثني عشر قرصاً .. وتجعلها صفين كل صف ستة على المائدة الظاهرة أمام الرب. وتجعل على كل صف لباناً نقياً فيكون الخبز تذكاراً للرب. في كل يوم سبت يرتبه أمام الرب دائماً .. فيكون لهرورن وبنيه فيأكلونه في مكان مقدس، لأنه قدس أقداس له من وقائد الرب...».

كان هذا الخبز تقدمة رمزية إلى الله تعبيراً عن شكر الله على تقديمه الطعام لحفظ حياة الناس، وكان الخبز يتغير كل أسبوع، ولا يأكله إلا الكهنة .. ولكن بسبب الجوع أخذ داود ورجاله من هذه الأرغفة المقدسة، دون أن يوجه إليه لوم، لأن مطاليب الحاجة الإنسانية تأتي في المكان الأول قبل العادات والممارسات الطقسية.

٢ ــ وأشار يسوع أيضاً إلى العمل الذي يقوم به الكهنة في الهيكل يوم السبت .. فقد كان نظام الخدمة في الهيكل يقتضي عدة أعمال يقوم بها الكهنة مثل إيقاد النار، وذبح الحيوانات وتجهيزها، وتقديمها ورفعها على المذبح، وغير ذلك من الأعمال. وكان العمل يزداد يوم السبت لأن عدد الذبائح يتضاعف يوم السبت (عدد٢٨:٩) ... وكل هذه الأعمال تعتبر من الأفعال المحرمة يوم السبت، لأن فيها إشعال النار، وذبح ذبائح، ورفع أثقال. وكل هذه تدنس السبت .. لكنها بالنسبة للكهنة لا تكون ممنوعة لأن عبادة الله في الهيكل يجب أن تستمر، وعبادة الله ينبغي أن يكون لها المقام الأول قبل أية طقوس وشرائع خاصة بالسبت.

٣ ــ ثم اقتباس يسوع القول الوارد في سفر هوشع حيث يقول الله :

«إني أريد رحمة لا ذبيحة، ومعرفة الله أكثر من محرقات» (هوشع٦:٦).

إن الله يطلب الشفقة والرحمة أكثر مما يطلب الطقوس والذبائح .. إنه يطلب السلوك الروحي الذي لا يعرف ناموساً سوى الناموس الروحي، لكي يستجيب لنداء الحاجة الإنسانية.

ونحن نرى في هذه القصة أن يسوع يضع الحاجة الإنسانية قبل كل الحاجات الأخرى ... إن العبادة، والطقوس، والممارسات الدينية لها مكانها، لكن مطاليب الحاجة البشرية تأتى أولاً ...

إن أعظم خدمة يقوم بها الإنسان هي خدمة حاجات الناس وأعمال الرحمة بهم .. ولعله من الجدير بالملاحظة أننا لا نرى يسوع المسيح يقود خدمة دينية في المجمع إلا في مجمع الناصرة، بينما نرى روايات كثيرة عن خدمته لحاجات الناس، مطعماً الجياع، وشافياً المرضى، ومقدماً راحة للحزانى والمتعبين .. إن الخدمة المسيحية ليست خدمة طقوس، وليست إعتزالاً رهبانياً.. لكنها خدمة الإحتياجات الإنسانية، والمشاركة في المآسي والمشكلات التي تتطلبها المواقف الإنسانية، فالديانة الطاهرة النقية عند الله الأب هي افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم .. هذا هو الإحساس الذي ينبغي أن يملأ جوانحنا عندما نقول «هيا بنا نعبد الله».

رب السبت :

تبقى لنا من هذه الفقرة عبارة ليس من السهل الوصول إلى تفسير جازم لمعناها والمقصود منها.

هذه العبارة هي قول المسيح «فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً».

ويمكن أن يكون المقصود بهذا التعبير أحد أمرين :

١ ـ التفسير التقليدي لهذا التعبير هو أن يسوع ، ابن الإنسان، هو سيد السبت، بمعنى أن له الحق أن يستخدم السبت كما يرى ذلك ضرورياً . ولقد رأينا كيف أشار إلى أن تقديس عمل الهيكل يوم السبت كان له المكان الأول على شرائع السبت المعروفة عند اليهود. لقد أشار يسوع أنه هو أعظم من الهيكل لذلك فله حق أكبر أن يستغني عن شرائع السبت اليهودية، ليعمل ما يراه أفضل في يوم السبت .

٢ ـ والتفسير الثاني يشير إلى أن يسوع، في هذه الحالة، لم يكن يدافع عن نفسه، بل كان يدافع عن تلاميذه .. وأنه عندما تحدث، لم يكن يقرر سلطانه هو، بل سلطان الحاجة الإنسانية. وعندما أراد مرقس أن يروي هذه الحادثة ذكر أن يسوع قال في ختام حديثه وفي قمته : «السبت إنما جُعل لأجل الإنسان ، لا الإنسان لأجل السبت. إذاً ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً» (مرقس٢: ٢٧و٢٨).

فهل كان يسوع يشير إلى نفسه عندما قال «ابن الإنسان» أم كان يشير إلى أي إنسان ابن إنسان؟

يقول علماء اللغة العبرية والأرامية إن عبارة «ابن الإنسان» تشير عادة إلى الحديث عن أي إنسان. وكان المعلمون اليهود عندما يبدأون رواية ما عن إنسان يقولون «يحكى أن ابن إنسان...» وهم يقصدون القول «يحكى أن إنساناً ..» ـ وفي المزمور الثامن يقول المرنم :

« فمن هو الإنسان حتى تذكره وإبن آدم حتى تفتقده » (مزمور ٨:٤) والتعبير «ابن آدم» في العبرية هو نفسه «ابن الإنسان» . وفي سفر حزقيال يتحدث الله إلى النبي قائلاً «ياابن آدم قم على قدميك فأتكلم معك» (حزقيال ٢:١). والتعبير عينه يتكرر كثيراً (٢:٦ و٢:٨ و٣:١،٤،١٧،٢٥). وترجمتها في اللغة اليونانية «ابن الإنسان» ولكن اللغة اليونانية تكتب الكلمة بحروف عادية للإشارة إلى الإنسان العادي ، أما عند استخدامها للدلالة على شخص المسيح، فإن المعتاد هو استخدام حروف التاج أو الحروف الكبيرة.

فهل المقصود في هذه العبارة أن يسوع ابن الإنسان أم أي إنسان عادي هو رب السبت أيضاً.

يقول بعض الباحثين أن النسخ القديمة جداً من العهد الجديد كانت كلها مكتوبة بالحروف الكبيرة، لذلك ليس من السهل معرفة هل المقصود تمييز التعبير «ابن الإنسان» عن سائر الكلام أم لا... ومن المحتمل أن تكون الإشارة هنا إلى ابن الإنسان العادي، وهذا في نظر بعض المفسرين يتفق مع ظروف الحال، لأن يسوع لم يكن يدافع عن نفسه، بل عن تلاميذه، ولأنه قال حسب رواية مرقس إن السبت جعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت، أي أن الإنسان لا ينبغي أن يكون عبداً للسبت، بل هو رب السبت، أي أنه يستخدمه لما فيه الصالح والخير، وبذلك يكون حديث المسيح توبيخاً لجماعة الكتبة والفريسيين ، لأنهم استعبدوا ذواتهم لسلسلة طويلة من القواعد والشرائع الجامدة لحفظ السبت. وسواء كان يسوع يقصد أنه هو رب السبت، أو أن الإنسان هو رب السبت .. فإنه يضع

بذلك مبدأ الحرية المسيحية العظيم، الذي ينطبق على جوانب كثيرة من الحياة أيضاً.

بين الحب والناموس

(متى ١٢ : ٩ ــ ١٤)

هذه الرواية تصف لنا لحظة حاسمة في حياة السيد المسيح ، إذ نرى يسوع فيها يكسر ناموس السبت باختياره وأمام الجماهير، وكان نتيجة لذلك أن قادة الديانة اليهودية ابتدأوا يفكرون في وسيلة لإبعاده نهائياً عن مسرح الحوادث. ولن نستطيع أن نفهم اتجاه الفريسيين ورؤساء الدين فهماً كاملاً ما لم نفهم مقدار الجدية التي كانوا ينظرون بها إلى ناموس السبت. فإن هذا الناموس كان يحرم القيام بأي عمل في السبت ، وقد كان هؤلاء حريصين على تنفيذ هذه الوصية حتى أنهم كانوا على استعداد أن يموتوا فعلاً، ولا يكسروا هذه الوصية.

وفي فترة ما بين العهدين، حدثت ثورة بقيادة يهوذا المكابي، واحتمى بعض اليهود في كهوف في الصحراء. وقد أرسل إنتيخوس فرقة من الجنود للهجوم عليهم، واختار يوم السبت ليكون يوم الهجوم، وما كان من هؤلاء اليهود إلا أن رفضوا أن يرفعوا يداً أو سلاحاً للدفاع عن أنفسهم، لأنهم اعتبروا أن أي عمل من أعمال الدفاع يعتبر كسراً للسبت، وهكذا فقدوا حياتهم في سبيل عدم كسر السبت. ويصف لنا سفر المكابيين الأول هذه القصة بقوله.

«فأخبر رجال الملك والجند الذين كانوا في أورشليم في مدينة داود بأن رجالاً من المناقضين لأمر الملك قد نزلوا واختبأوا في البرية . فجرى كثيرون في أعقابهم . فأدركوهم وجيشوا حولهم وناصبوهم القتال في يوم السبت . وقالو لهم حسبكم ما فعلتم ، فأخرجوا وافعلوا كما أمر الملك فتحيوا . فقالوا لا نخرج ولا نفعل كما أمر الملك لئلا ندنس يوم السبت . فأثاروا عليهم القتال ، فلم يردوا عليهم ، ولا رموهم بحجر ولا سدوا مختبآتهم قائلين لنمت جميعاً في استقامتنا والسماء والأرض شاهدتان لنا بأنكم تهلكوننا ظلماً ، فهجموا عليهم وقاتلوهم في السبت ، فهلكوا ونساؤهم ومواشيهم وكانوا ألف نفس من الناس » (مكابيين الأول ٢: ٣١ ــ ٣٨).

وهكذا نرى اليهودي يرفض أن يحارب يوم السبت حتى في وسط المحنة القومية ، حتى لإنقاذ نفسه وأحبائه . ولهذا السبب استطاع « بومبي » أن يستلي على أورشليم . ويروي لنا يوسيفوس المؤرخ المشهور حوادث متكررة من هذا النوع ، حين كان أعداء اليهوديهاجمونهم يوم السبت منتهزين فرصة عدم مقاومتهم ، فينتصرون عليهم ويهزأون من ناموسهم ، ويعتبرون مثل هذا الناموس ضرباً من الجنون .

ولقد وقف يسوع معارضاً لهذا النوع من الإطار العقلي الجامد في تفكير الناس . كانت شريعة الكتبة وتفسيرهم لوصية السبت تمنع الإبراء في السبت ، ولم تسمح الشريعة إلا بوقف الخطر الذي يتهدد الحياة . فإذا اصيب إنسان بجرح في عينه أو أذنه أو أنفه ، فمن الجائز وضع ضمادة على الجرح لوقف الخطر ، ولكي ينبغي ألا يكون هناك دواء في الضمادة ،وإلا اعتبر هذا نوعاً من العلاج

وكسراً لوصية السبت .

وفي حالة الرجل ذي اليد اليابسة ، لم يكن هناك خطر يتهدد حياته لو بقي على هذه الحال لحين انتهاء السبت ، فلن تصير حالته أسوأ . ولقد كان يسوع يعرف ذلك ، ويعرف شريعة السبت . وكان يعلم أن الفريسيين كانوا ينتظرون ، وكانوا يراقبونه .. ومع ذلك فقد شفى الرجل .. إن يسوع لم يكن يقبل ناموساً يترك الناس يتألمون ، ولو لحظة واحدة أكثر مما ينبغي ، حتى لو لم يكن هناك خطر يتهدد الحياة .. إن حبه للإنسانية فاق بكثير اعتباره للناموس الطقسي . لقد تغلب الحب أخيراً .

من هو ذلك الرجل ذو اليد اليابسة ؟ إن الإنجيل لا يذكر لنا شيئاً عنه ، لكن كتاباً يسمى « إنجيل العبرانيين » يذكر لنا أنه جاء إلى يسوع قائلاً « لقد كنت أشتغل بنّاء أكسب عيشي ببناء البيوت من الأحجار ، بعرق جبيني ، أرجوك يايسوع أن تعيد إليَّ قوة يدي ، لكي لا أظل أستعطي بخجل ، قوت يومي » .

كان الكتبة والفريسيون حاضرين أيضاً ، لكنهم لم يهتموا أبداً بذلك الرجل ذي اليد اليابسة ، بل كان اهتمامهم بدقائق وتفاصيل الشريعة فقط . لذلك سألوا يسوع قائلين « هل يحل الإبراء في السبوت ؟ » ولقد كان يسوع يعرف جيداً جواب هذا السؤال ، وكان يعلم أنه ما لم يكن الرجل معرضاً لخطر حقيقي يهدد حياته ، فحسب الشريعة لا يحل إبراؤه ، لأن ذلك يعتبر نوعاً من أنواع العمل . لكن يسوع كان حكيماً ، فما داموا يريدون أن يتناقشوا حول الناموس ، فقد كانت ليسوع البراعة التي يستطيع بها أن يناقشهم على مستوى حديثهم ، فسألهم قائلاً : « أي إنسان منكم يكون له خروف واحد ، فإن سقط هذا في السبت في حفرة أفما يمسكه ويقيمه ؟ » — وقد كان هذا التساؤل يصف حالة تعرض لها الناموس بالفعل ، ففي حالة سقوط خروف في حفرة ، كان الناموس يبيح أن يحمل له صاحبه الطعام ، مع أن حمل الطعام في الظروف العادية يعتبر عملاً يوم السبت . وكان الناموس يبيح تقديم أية مساعدة ممكنة . وكان منطق يسوع ، أنه إذا جاز أن يعمل الناس عملاً صالحاً يوم السبت للخروف .. فبالأولى جداً يجوز عمل الخير للإنسان الذي هو أفضل من الخروف .. وكأنما يسوع يريد أن يقول إنه إذا جاز عمل الخير في السبت ، فإن عدم فعل الخير يوم السبت يعتبر شراً .. وليس ثمة وقت أقدس من الوقت الذي تؤدي فيه خدمة لإنسان محتاج .

وهنا لم يستطع الكتبة والفريسيون أن ينطقوا . وهنا ارتدت حجتهم على رؤوسهم . فتقدم يسوع وقدم للرجل الشفاء .. وفي تقديم الشفاء له ، أعاد إليه ثلاثة أشياء :

١ — أعاد إليه الصحة ، فإن يسوع يهتم بصحة الإنسان وأجساد البشر ، يقول أحدهم عن مهنة الطب إنها « خدمة يدعى إليها الذين حباهم الله قدرات طبيعية ، وقاموا بالدراسة ليصيروا مؤهلين أن يرعوا المرضى ويعالجوهم . وسواء أكانوا يشعرون بهذه الخدمة أم لا يشعرون ، وسواء أكانوا مؤمنين أم غير مؤمنين ، فإنه من وجهة النظر المسيحية يعتبر الأطباء في مهنتهم عاملين مع الله » .

ويقول آخر « إن المرض والشفاء من أعمال النعمة ».

ويقول آخر « الطبيب أداة لصبر الله ، والطب إعلان لنعمة الله الذي من جوده يترأف على الناس ويدبر لهم شفاء من نتائج الخطية » . وقد اعتبر كلفن أن الطب هبة من الله ، وأن من يعالج الناس يعاون الله ، فعلاج أجساد الناس من الأعمال التي أولكلها الله لأبنائه مثل علاج أرواحهم ، والطبيب في مهنته خادم الله ، مثل الراعي في كنيسته .

٢ ـــ وقد أعاد إليه عمله إذا أعاد إليه صحته ، فبدون عمل يصير الرجل نصف إنسان .. وكل إنسان يجد إشباع نفسه فى القيام بعمله ، والتعطل عن العمل أقسى من أى نوع من أنواع الألم .. والإنسان قد ينسى أحزانه ومتاعبه في العمل . وأثمن شيء نعطيه للإنسان هو إعطاؤه فرصة للعمل .

٣ ـــ وقد أعاد إليه احترامه لنفسه عندما أعاد صحته وعمله .ويمكن أن نضيف إلى التطوبيات واحدة جديدة « طوبى لمن يعيدون إلينا احترامنا لأنفسنا » . فالإنسان يصير إنساناً عندما يقف على قدميه ، ويعمل بيديه ليواجه الحياة ، ويكسب ما يملأ حاجاته وحاجات ذويه ، بنفسه .

وعلى الرغم من هذا العمل العظيم الذي قام به يسوع ، فإننا نجد جماعة الكتبة والفريسيين يخرجون ليتآمروا على قتله . لقد اعتبروه خطراً عليهم . وأعظم ثناء يمكن أن يوجه إلى شخص ما هو اضطهاده ، لأن معنى هذا تقديره كقوة مؤثرة . لذلك فإن اتجاه الكتبة والفريسيين يبين لنا مقدار قوة يسوع . فقد يكره البعض المسيحية ، لكنهم لا يستطيعون أن يتجاهلوا أنها قوة مؤثرة فعالة .

مميزات مسيح الرب

(متى ١٢ : ١٥ ـــ ٢١)

نبدأ بملاحظتين عن يسوع ، تظهر لنا أن يسوع لم يكن يعتبر الاستهتار والاستخفاف شجاعة ، أولاهما أن يسوع عندما علم بإتجاه الفريسيين نحوه ورغبتهم في إهلاكه ، انسحب وانصرف من هناك ، فلم يكن وقت الصدام قد حان بعد ، وكان أمامه عمل ليعمله قبل أن يرتفع على الصليب . والملاحظة الثانية أنه أوصى الناس الذين كانوا حوله ويتمتعون بمعجزاته أن لا يظهروه ، لقد عرف أن كثيرين من الأدعياء قد ظهروا ، وكل واحد يقول إنه المسيا ، لقد عرف طبيعة عواطف الناس الثائرة الملتهبة . ولو أن جميع الناس عرفوا بأعماله المعجزية الباهرة ، لحدثت ثورة سياسية تهلك فيها نفوس كثيرة ، وهذا ما لا يريده . لقد كان يقصد أن يعلم الناس في هدوء رسالة المسيا الحقيقي ، بأنها ليست القوة الغاشمة لكنها الخدمة المضحية .. وأن هدف المسيا الحقيقي ليس العرش ، بل الصليب .. لذلك لم يشأ أن يذيع الناس أخباره لكي لا يتعطل تعليمه للناس بهذه الحقائق .

والإقتباس الذي يذكره متى ليصف به موجزاً عمل يسوع ، مأخوذ من إشعياء (٤٢ : ١ ـــ ٤). وهو في الحقيقة اقتباس عجيب لأنه في الواقع يشير إلى كورش ملك الفرس ، وعندما نطق به إشعياء كان يشير أولاً إلى كورش باعتباره مسيح الرب . وإذا رجعنا إلى إشعياء (٤٥ :١)

نقرأ « هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً ... » والفكرة الأساسية هنا أن كورش كان يمضي في غزواته وانتصاراته ، وقد رأى النبي أن هذه الغزوات تسير نحو تحقيق قصد الله وخطته . ومع أن كورش ملك فارس لم يكن يعلم هذه الحقيقة ، لكنه كان أداة في يد الله ، وقد رأى النبي في كورش سيدًا منتصراً رقيقاً شغوفاً ، كما كان بالفعل . لكن كما يتكرر كثيراً في نبوات العهد القديم ، قد تشير النبوة إلى معنى قريب ، ولكنها تشير أيضاً إلى معنى بعيد ، وهكذا كانت النبوة تشير إلى يسوع المسيح « المسيا ».. ففي تلك الأيام ساد سلطان كورش ملك فارس على العالم الشرقي المعروف حينذاك ، لكن الملك الكامل على العالم هو ليسوع المسيح.. ففي المسيح يسوع التحقيق الكامل لنوبة إشعياء .. وهذا يظهر من الأوصاف الواردة في النبوة .

١ ــ فهو يخرج الحق إلى النصرة .. والكلمة المترجمة « الحق » تشير إلى العدالة . وفي عاموس ٥: ٢٤ نقرأ « وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم ». لقد أتى يسوع من أجل انتصار العدالة والحق . لقد عرف اليونانيون الحق بأنه « أن نعطي الله والناس ما يحق لهم » . ولقد بين يسوع للناس كيف يكون لله وللآخرين المكان الصحيح في حياتهم .. وأراهم كيف يتصرفون تجاه الله والآخرين .

٢ ــ وهو لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته . وكلمة « يصيح » تستخدم لوصف صياح الحيوانات والطيور والناس في التجمعات الكبيرة . وهذا الوصف يشير إلى أن يسوع لم يكن يتشاحن مع الناس ، ولا يزج بنفسه في في الصراع بين الأحزاب المختلفة سياسياً أو دينياً . إننا نرى في يسوع الهدوء والوقار وقوة من يريد أن ينتصر بالمحبة ، لا بكثرة الكلام والصياح .

٣ ــ وهو لا يقصف قصبة مرضوضة ولا يطفيء فتيلة مدخنة . فقد تكون شهادة الإنسان غير قادرة على الثبات كالقصبة المرضوضة ، وقد يكون نور حياته أقرب إلى الدخان منه إلى النور والإشتعال ، لكن يسوع لم يأت ليثبط الهمم ، بل جاء لتشجيعها . لم يأت ليعامل الضعفاء بالإحتقار ، بل بالتفهم الصحيح .. لم يأت ليطفيء الفتيلة المدخنة ، بل ليساعدها لتعود إلى الإشتعال والإضاءة . هذا هو سر روعة يسوع وعظمته ، إنه رسول التشجيع وإحياء الآمال في النفوس .

٤ ــ وعلى اسمه يكون رجاء الأمم . ففي المسيح قدمت الدعوة إلى العالم كله ، لا إلى أمة واحدة لقد كان يسوع يدعو جميع الناس أن يقبلوا محبة الله ، ويذوقوها . ويشاركوا فيها . لقد كان الله في المسيح مصالحاً العالم لنفسه ، ومنادياً جميع الناس من كل أمة أن يقبلوا محبة الله .

هزيمة الشيطان

(متى ١٢ : ٢٢ ــ ٢٩)

يختلف الشراح والمفسرون وهم يتناولون معجزات إخراج الشياطين، ولا يرجع اختلافهم إلى أي شك في القدرة المعجزية لربنا يسوع المسيح، فإن جميع المؤمنين به يعترفون بسلطانه.

لكن سبب الخلاف هو موقفهم من فكرة حلول الشياطين بأجساد البشر.

فهناك من يعتقدون أن الشياطين يمكن أن تحل في أجساد البشر في أي وقت وفي أي عصر، وتحتاج إلى قوة خاصة لإخراجها، ولذلك كان من الآيات التي تتبع المؤمنين أنهم «يخرجون شياطين» (مرقس ١٦:١٧).

وهناك من يعتقدون أن الشياطين لا يمكن أن تحل فى أجساد البشر على الإطلاق، فإن عملها يقتصر على غواية الإنسان، وامتلاك أفكاره ووجدانه، والشكوى عليه أمام الله كما في قصة أيوب، وإصابته بشتى أنواع الضيقات والآلام والتجارب، التي قد تكون الأمراض بعض مظاهرها. وقد كان الناس في العالم القديم، وخاصة في الشرق، يعتبرون أن الأمراض الجسدية والنفسية كلها راجعة إلى الأرواح الشريرة، وفسروا بعض مظاهر المرض على أنها مظاهر حلول الشيطان في الجسد لذلك كان لا بد لمن يريد أن يعالج هذه الأمراض أن يساير المرضى في اعتقادهم، لكي يتمكن من التأثير عليهم وشفائهم، وعندما يثق المريض بأن شخصاً ما قادر على إخراج الشيطان منه، فإنه سيشفى إذا قام هذا الشخص بما يعتقد هو أنه عملية إخراج الشيطان منه.

على أن هناك رأياً ثالثاً هو أن الشياطين في المعتاد لا تحل في أجساد البشر، وأن كثيرين من الناس الذين يعتقدون بذلك مخدوعون وواهمون، لكن في أثناء وجود السيد المسيح بالجسد على الأرض، حاول الشيطان أن يهدم الملكوت الذي أراد السيد أن يقيمه، لذلك كانت تلك فترة غير عادية بها ابتدأ الشيطان أن يحل في أجساد بعض الناس فعلاً، بسماح من الله، وكانت هذه فرصة لإظهار سلطان السيد المسيح على الأرواح الشريرة بكيفية واضحة أمام الناس، ليؤمنوا به. وقد أعطي السيد المسيح هذه القوة لإخراج الشياطين لتلاميذه فقط، الذين كان عليهم أن يؤسسوا الكنيسة، ليؤمن الناس بحق الإنجيل، مؤيداً بالآيات والعجائب، إلى أن تتم كتابة الوحي المقدس، فيصير الكتاب المقدس هو طريق الناس إلى الإيمان، ولا يبقي ما يدعو لاستمرار هذه العجائب والآيات ذات المظاهر الجسدية.

بهذه الآراء الثلاثة نتقدم إلى دراسة هذه الفقرة التي تروى لنا كيف شفى المجنون الأعمى والأخرس، فتكلم وأبصر، وكيف أن الجموع بهتت واعتبرت هذا إشارة إلى أن يسوع هو المسيا ابن داود. ويظن البعض أن العبارة القائلة «ألعل هذا هو ابن داود» تدل على الشك لا على اليقين، وقد يكون ذلك صحيحاً، لأن الصورة التي ظهر بها السيد المسيح على الأرض تختلف عن الصورة التي توقع اليهود أن يأتي فيها المسيا، فلم يكن أميراً ولا أظهر سلطاناً وعظمة أرضية، ولم يستخدم الأعلام والشعارات والسيوف، بل جاء في صورة رجل جليل بسيط .. لكن في بساطته وهدوئه كانت القوة وكان السلطان.

أما جماعة الفريسيين، فقد كان تفسيرهم المصبوغ بتعصبهم، هو أن يسوع كان على اتفاق مع بعلزبول رئيس الشياطين، وبهذا الإتفاق كان يخرج الشياطين.

وقد أجاب يسوع على هذا التفسير الكامن في أفكار الفريسيين بثلاث حجج قوية :

الحجة الأولى : أنه إذا كان يسوع يخرج الشياطين بمعاونة رئيس الشياطين فمعنى ذلك أن مملكة

الشيطان منقسمة على ذاتها، وإذا كان رئيس الشياطين يعير قوته وسلطانه لتحطيم معاونيه من الأبالسة، فكأن هناك حرباً أهلية في مملكة الشيطان تهددها بالخراب، لأنه لا يمكن لمدينة أو بيت أو مقاطعة أن تحتفظ بقوتها وهي منقسمة على ذاتها، فإن الإنقسام الداخلي هو نذير الخراب.

الحجة الثانية : قول المسيح « وإن كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين فأبناؤكم بمن يخرجون » . وقد فسر بعض الشراح هذه العبارة أنها تشير إلى تلاميذ المسيح، وهم من أبناء اليهود، وقد أعطاهم السيد سلطاناً على الأرواح الشريرة ليخرجوها.

لكن البعض الآخر من الشراح قالوا إنه تشير إلى اليهود الذين كانوا يخرجون الشياطين بتعاويذ خاصة ، واستشهدوا بأقوال يوسيفوس المؤرخ اليهودي المشهور ، الذي ذكر أن قوة إخراج الشياطين كانت موجودة عند بعض اليهود ، وأنهم اعتبروها جزءاً من حكمة سليمان . وقد ذكر يوسيفوس وهو مؤرخ موثوق به ، حادثة رآها بنفسه عن رجل اسمه اليعازر كان يخرج الشياطين في حضرة الإمبراطور فاسباسيان وجنوده ، وكان يستخدم تعاويذ خاصة لذلك .

(انظر كتاب يوسيفوس Antiquities ٨ — ٢ — ٥)

كما يروى يوسيفوس معلومات أخرى عن طاردي الأرواح الشريرة من اليهود وتعاويذهم والأشياء التي كانوا يستخدمونها في ممارساتهم (يوسيفوس في كتاب حروب اليهود ٧ — ٦ — ٣).

وتستطيع أن نقارن بين أسلوب التعاويذ والسحر الذي كان اليهود يتبعونه ، وبين كلمة السلطان التي كانت تصدر من يسوع لنرى الإختلاف الظاهر بين الحالتين .

ومما يدل على اعتقاد اليهود في الأرواح الشريرة ، بعض الكتب التي تروي لنا تاريخ وقصص فترة ما بين العهدين ، مثل سفر طوبيا وهو أحد الأسفار غير القانونية ، لكنه يعطينا فكرة عن آداب اليهود في تلك الفترة .

ففي سفر طوبيا قصة عن ملاك يلتقي بطوبيا . ويذكر له أنه لا بد من زوجاه من فتاة وحيدة أبويها ، هي سارة بنت رعوئيل ، ويطلب إليه أن يطلبها من أبيها ، فيجيب طوبيا أنه قد سمع أنه قد عقد لها على سبعة أزواج ، ولكنهم جميعاً ماتوا لأن الشيطان قتلهم ، لأن روحاً شريراً كان يحب سارة يمنع أي إنسان من الإقتراب منها . ولكن الملاك رافائيل أوصى طوبيا بأن يلقي كبد الحوت على جمر مشتعل ، فينهزم الشيطان (سفر طوبيا ص ٦، ٧ ، ٨).

ولعل كل هذه الروايات تدلنا على ما كان يعمله طاردوا الأرواح من اليهود ، تبين لنا كيف كان الناس يحاولون أن يتغلبوا على آلامهم بالتعاويذ والسحر . وربما كانت هذه الأمور تعطيهم شيئاً من الراحة ، لكن ما أبعد الفرق بينها وبين وقار المسيح وسلطانه ، فقد جاء ليعطي الخلاص الكامل الذي لم يجدوه من قبل .

ففي المسيح نرى اصبع الله ، لذلك يشد حديثه انتباهنا عندما يقول : « ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين ، فقد أقبل عليكم ملكوت الله ». وإنه لمن الجدير بالملاحظة إن علامة

إقبال ملكوت الله ليست في الكنائس الممتلئة ، ولا في النهضات السطحية ، ولكنها في قوة الله للإنتصار على الآلام .

الحجة الثالثة : قال يسوع لليهود إنه إذا كان يخرج الشياطين ـــ وهذا ما يقرون به ولا ينكرونه فمعنى ذلك أنه أستطاع أن يغزو مملكة الشيطان . فكأنه بذلك ينهب مملكة الشيطان . وكيف يستطيع أحد أن يدخل بيت القوي وينهب أمتعته إن لم يربط القوي أولاً ؟ فكأنما يريد أن يقول لهم إن غزو السيد لمملكة الشيطان معناها أنه استطاع أن يجعل الشيطان عاجزاً أمامه . ولعل يسوع استعار الصورة الواردة في أشعياء ٤٩ : ٢٤ ـــ ٢٦ « هل تسلب من الجبار يسلب وغنيمة العاتي تفلت . وأنا أخاصم مخاصمك وأخلص أولادك . وأطعم ظالميك لحم أنفسهم ويسكرون بدمهم كما من سلاف ، فيعلم كل بشر أن الرب مخلصك وفاديك عزيز يعقوب ».

هذه الحجة تدعو إلى سؤال يجول في الخواطر :

متى ربط القوى؟ أو متى غلب الشيطان على أمره حتى أن يسوع استطاع أن يغزو ملكوته؟

قيل إن الشيطان منذ سقوطه مقيد وأنه لا يعمل إلا بسماح من الله. كما في قصة أيوب، وقد قيل في يهوذا (٦:١) :

«والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم حفظهم إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام».

كما قيل إن يسوع في فترة الأربعين يوماً التي كان يجرب فيها من إبليس، استطاع أن يهزم الشيطان، ولأول مرة وجد الشيطان من يقف أمامه ولا تغريه أساليب مكره ومكايده. ومن ذلك الوقت لم تصر قوة الشيطان كما كانت عليه. لقد تحطمت قلاع العدو، ومع أنه يحاول أن يجرب كثيرين لكن يسوع الذي صمد أمامه، يستطيع أن يعين المجربين لينالوا نصراً عليه كما نال هو.

استحالة الحياد

(متى ١٢ : ٣٠)

إن التعبير «يجمع» و «يفرق» غالباً ما يكون مستعاراً من إحدي صورتين : الصورة الأولى هي صورة الحصاد، فالذي لا يشترك في جمع الحبوب، يكون مفرقاً لها فتذهب أدراج الرياح. والصورة الثانية هي صورة الرعاية، فمن لا يعاون في جمع الخراف وحمايتها، يكون متسبباً في تعريضها للخطر.. ومن لا يأتي بالحملان إلى القطيع، يكون بطريق غير مباشر سببا في بقائها في البراري والقفار والتلال معرضة للأخطار.

هذه العبارة تعبير صريح بأنه يستحيل على الإنسان أن يتخذ موقفاً حيادياً إزاء المسيح وكنيسته ورسالته، فلا يوجد طريق وسط ولا طريق ثالث..فإذا كنا لسنا معه، فنحن عليه.

وإذا جاز الحياد في ميدان السياسة، فلا يجوز في المجال الروحي، لأننا إن كنا لا نقف في جانب ملكوت الله، فنحن نكون ضده. لكن ما الذي يدعو الناس إلى إتخاذ هذا الموقف المستحيل :

(أ) إنها الطبيعة البشرية التي تميل إلى الجمود. فهناك كثيرون لا يرغبون إلا أن نتركهم وشأنهم منفردين ويبتعدون عن كل ما يزعجهم، حتى ولو كان إتخاذ أي قرار.

(٢) كذلك الجبن الكائن في طبيعة الإنسان، فهناك من يرفضون طريق المسيح لأنهم في أعماق قلوبهم يخافون أن يواجهوا مطاليب المسيحية. إنهم يفكرون كثيراً فيما يقوله الناس عنهم، وفي نظرة الناس إليهم. إن صوت الناس في آذانهم أقوى من صوت الله.

(٣) كذلك رخاوة الطبيعة البشرية، فالناس يفضلون الطريق السهل ولا يتقدمون إلى المخاطرة، وكلما كبر الإنسان سناً قلت مخاطرته.

أما دعوة المسيح لنا ونداؤه إلينا فهو يتطلب المخاطرة والتضحية بدلاً من السكوت الأناني .. هكذا يكون العمل المسيحي.

ولعلنا نلاحظ أن يسوع في هذه المناسبة قال «من ليس معي فهو عليَّ»، بينما نسمعه في مناسبة أخرى يقول عبارة عكس هذه في إنجيل مرقس ولوقا، فهو يقول «من ليس علينا فهو معنا» (مرقس ٩: ٤٠، لوقا٩: ٥٠).

ولوتأملنا ملياً في ظروف ذكر هذين القولين، لوجدنا أنهما لا يتناقضان. فالعبارة الثانية ذكرها يسوع عندما جاءه تلاميذه طالبين منه أن يوقف رجلاً كان يخرج الشياطين باسمه، لأنه لم يكن واحداً من جماعتهم. لذلك رد عليهم بالقول «من ليس علينا فهو معنا».

ويمكن أن نوفق بين هذين القولين، إذا اعتبرنا العبارة الأولى «من ليس معي فهو عليّ» إختباراً نواجه به أنفسنا، لكي نمتحن أنفسنا، هل نحن حقاً مع يسوع أم أننا نتخذ موقفاً سلبياً جامداً حيادياً. أما العبارة الثانية «من ليس علينا فهو معنا». فهي اختبار نواجه به الآخرين. فنحن كثيراً ما نتسرع ونحكم على الآخرين أنهم ليسوا معنا، ونحاول أن نجعل ملكوت الله مقتصراً على الذين يتفقون معنا في كل شيء، في الفكر وأسلوب العبادة والحياة. ولكننا عندما نطبق عليهم هذه العبارة «من ليس علينا فهو معنا» نمتلىء من روح الاحتمال والتسامح وقبول الآخرين، ما داموا ليسوا ضد إنجيل المسيح.

وفي هذا الإتجاه درس هام، فنحن يجب أن نحكم على أنفسنا بصرامة، ونحكم على الآخرين برقة واحتمال.

الخطية التي لا تغفر

(متى ١٢ : ٣١ ـــ ٣٣)

إنه لأمر مذهل أن نستمع إلى كلمات عن خطية لا تغفر تخرج من فم يسوع مخلص البشر.

وقد كان هذا مذهلاً حتى أن بعض دارسي الكتاب المقدس حاولوا أن يخففوا شيئاً من حدة وتصميم التعبير الذي ذكره يسوع، بالقول إن الأسلوب المبالغ فيه أمر عادي في حديث أهل الشرق، وأن المقصود بهذا القول هو التعبير عن مدى جسامة هذه الخطية لا غير.

وأصحاب هذا الرأى يقولون إن هناك عبارات مماثلة في الكتاب المقدس، لا يقصد بها المعنى الظاهر حرفياً مثل قول السيد المسيح «إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه أو أمه أو إمرأته وأولاده وأخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لوقا ١٤:٢٦). فالمقصود هنا هو تفضيل المسيح على جميع الأهل، وليس الكراهية بالمعنى الفظيع الذي نفهمه حرفياً.وفي العهد القديم عبارات متعددة من هذا النوع مثل:

«ولذلك أقسمت لبيت عالي أنه لا يكفر عن شر بيت عالي بذبيحة أو بتقدمة إلى الأبد» (صموئيل ٣:٤).

و « فأعلن في أذني رب الجنود لا يغفرن لكم هذا الإثم حتى تموتوا يقول السيد رب الجنود » إشعياء ٢٢ : ١٤) .

فهذه تعبيرات تشير إلى شناعة الإثم في نظر الله.

لكننا عندما نعاود قراءة ما ذكره السيد، نرى أن حديث المسيح عن الخطية التي لا تغفر، حديث قاطع ، وأنه يقارن هذه الخطايا بخطايا أخرى يذكر أنها تغفر . ولأننا نسمع هذه العبارة من فم المسيح نفسه، نجد لها دلالة خاصة، وتحتاج إلى عناية واهتمام.

ونحن نستطيع أن نرى أن هذه الخطية تشير إلى رفض رسالة الله، وفقدان الوعي والإدراك الروحي .

رفض رسالة الله :

يقول المسيح «من قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له .. ونحن نتعجب ونسأل :

هل هناك فرق بين المسيح ابن الانسان والروح القدس. ألم يذكر متى (أصحاح١٠:٣٢و٣٣) أن يسوع والاعتراف به هو أساس الحق والإيمان، ومن اعترف به قدام الناس يعترف به قدام الآب، ومن ينكره قدام الناس ينكره المسيح قدام الآب؟

أغلب الظن أن يسوع لم يقصد نفسه بكلمة «ابن الإنسان» في هذا الحديث، فقد سبق ودرسنا في تفسير (متى١٢:١ـــ٨) أن اليهود حينما كانوا يتحدثون، عن الإنسان العادي، كانوا يقولون «حكى أن ابن الإنسان» ولعل السيد المسيح يقصد أن من قال كلمة على إنسان يغفر له، أما من قال كلمة على الروح القدس فلن يغفر له، فمن الممكن أن نشك في إنسان يرسله الله إلينا فنرفضه، لكننا عندما نستمع إلى صوت الله بروحه في قلوبنا، لا نستطيع أن نرفضه إلا بإرادتنا، وبذلك نكون قد رفضنا رسالة الله باختيارنا. قد نرفض كلام نبي أو واعظ من المنبر، ولا نعتبره كلام الله، لكننا

لا نستطيع أن نرفض صوت الله في قلوبنا إلا إذا كنا مصرين أن نرفض الله نفسه، وهذا هو الفرق بين الخطيئتين.

فقدان الوعي الروحي :

ولكي نفهم تماماً ما قصده السيد المسيح بقوله «التجديف على الروح القدس». يتحتم علينا أن ندرك ماذا كان يسوع يقصد «بالروح القدس».

كان يسوع يتحدث إلى جماعة الكتبة والفريسيين، وطبيعي أنه لا يحدثهم هنا عن الروح القدس بالمفهوم المسيحي الذي نفهمه حالياً، خاصة وأن الروح القدس بصورته الخمسينية لم يكن قد حل بعد على المؤمنين المسيحيين، وطبيعي أنه كان يحدثهم عن المفهوم اليهودي للروح القدس أو لروح الله.

وحسب الفهم اليهودي، كان لروح الله عملان أساسيان، فهو الذي يقدم الله للبشر، وهو واسطة الإعلان أو الوحي، كما أنه يعاون الناس أن يتبينوا ويفهموا الحق عندما يعلن لهم.

فالروح القدس هو الذي ينير أفهام الناس، وحسب اعتقاد اليهود يحتاج الإنسان إلى الروح القدس ليقبل الحق ويميزه.

لكن بعض الناس إذا يرفضون قبول عمل هذا الروح، يفقدون قدرتهم على قبول الحق الإلهي وتمييزه. ففي كل ناحية من نواحي حياة الإنسان، تضيع القدرات عنده عندما يهمل استخدامها، فالذي لا يستخدم عضلة معينة في جسده يعرضها للضعف، والذي يهمل لغة معينة سبق وتعلمها يعرضها للنسيان، ومن لا يعود نفسه سماع الموسيقى الرفيعة ويكتفي بسماع الموسيقى الرخيصة، يفقد قدرته على التذوق الموسيقي، لذلك فالإنسان إذا أغلق عينيه وأذنيه تجاه صوت الله وطريق الله، واتخذ لنفسه طريقاً آخر، واستمر زمناً طويلاً يرفض الخضوع لإرشاد الله، فإنه بعد وقت، يفقد قدرته على تمييز صوت الله، وحق الله، وجمال الله، وخير الله، عندما يرى هذه الأشياء. وبذلك يصل إلى درجة يبدو له فيها الباطل في صورة الحق، والشر في صورة الخير، لأنه يفقد الوعي والإدراك الروحي.

وهذه هي الدرجة التي وصل إليها جماعة الكتبة والفريسيين لأنهم أغلقوا عيونهم وآذانهم أمام صوت الله ودعوة روحه، وأصروا على أسلوبهم وطريقهم زمناً طويلاً، لذلك لم يستطيعوا أن يميزوا الصلاح عندما جاء إليهم متجسداً، واعتبروا ابن الله متحالفاً مع الشيطان.

فالخطية ضد الروح القدس هي خطية رفض مشيئة الله والاستمرار في ذلك حتى أن الإنسان في النهاية يفقد قدرته على تمييز مشيئة الله، عندما يأتيه في أوضح الصور.

ولماذا تبقى هذه الخطية دون غفران؟ وما الذي يجعلها تختلف عن سائر الخطايا؟ والجواب بسيط، لأن الإنسان عندما يصل إلى هذه الدرجة تكون التوبة بالنسبة له أمراً مستحيلاً. وعندما لا يستطيع الإنسان أن يميز الخير حين يراه، فإنه لا يستطيع أن يشتهي الخير، وعندما لا يستطيع الانسان أن يميز الشر عندما يفعله، لا يندم عليه ولا يكرهه، ولا يرغب في تركه، وبذلك لا يستطيع أن يتوب،

وبالتالي لا تغفر له خطيته، لأن التوبة من شروط الغفران.

فليطمئن الذين يرتعبون خوفاً من أن يكونوا قد جدفوا على الروح القدس، لأن هذا الخوف نفسه دليل على أن إحساسهم بالخطية موجود، وهذا دليل على عدم ارتكابهم هذه الخطية، لأن الخطية ضد الروح القدس هى فقدان الوعى الروحي، وفقدان الإحساس بالخطية.

لقد كانت هذه حال الكتبة والفريسيين، فقد أغلقوا عيونهم ، وصموا آذانهم، فلم يروا إعلانات الله ولم يسمعوا صوته، حتى فقدوا الوعي الروحي، ولم يستطيعوا أن يعرفوا الله عندما واجهوه. إن الله لم يحرمهم من لغفران لكنهم حرموا أنفسهم منه بسبب استمرارهم في مقاومة عمل الله في حياتهم.

ولعل هذه الحقيقة تنادينا أن نحذر على الدوام من أن نفقد الحساسية الروحية، فتعمى عيوننا، ونصم آذاننا ، فلا نرى إلا ما نريد أن نراه، ولا نسمع إلا ما نريد أن نسمعه.

ويختم السيد هذا الجزء بدعوة صريحة بالحكم عليه من أفعاله. فقد رأى الكتبة والفريسيون أعماله العجيبة الرائعة، لكنهم نسبوها إلى التحالف مع الشيطان، فقال لهم يسوع : « اجعلوا الشجرة جيدة وثمرها جيداً ، أو اجعلوا الشجرة ردية وثمرها ردياً لأن من الثمر تعرف الشجرة..».

أو بأسلوب آخر «إن كنت قد صنعت عملاً صالحاً، فاحكموا أني رجل صالح، وإن كنت صنعت عملاً ردياً فاحكموا أني رديء .. أليس هذا هو حكمكم على الأشجار من ثمارها، فلماذا لا تحكمون على الإنسان من أفعاله»؟

لكن إذا عميت عيون البشر، فإنهم لا يستطيعون أن يميزوا الصلاح عندما يجدونه، وهذه هي المأساة التي سقط فيها الكتبة والفريسيون.

القلب والكلام

(متى ١٢ : ٣٤ ــ ٣٧)

ليس بالغريب أن يواصل السيد حديثه بالإشارة إلى الأهمية الخطيرة التي للكلمات التي تخرج من الفم، فقد نطق الكتبة والفريسيون بكلمات فظيعة ضد يسوع، قالوا عن ابن الله إنه متحالف مع رئيس الشياطين. لذلك يضع السيد هذه المبادىء :

(١) إننا نستطيع أن نعرف حالة قلب الإنسان، من الكلمات التي ينطق بها . لذلك فهو يقول لهم «كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار . فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم». فإن ما في داخل القلب يظهر على السطح عن طريق الشفتين.

الإنسان يخرج ما في قلبه على شفتيه .. هذه حقيقة هامة ومعروفة، فنحن عندما نتحدث قليلاً

مع إنسان ما، نستطيع أن نكتشف حالاً ما إذا كان تفكيره نقياً أم قذراً، ومن خلال الحديث نلمس ما إذا كان قلبه شفوقاً عطوفاً أم قاسياً صادماً ناقداً .. فإن ما نقوله يكشف عما نكنه في قلوبنا.

(٢) ثم يذكر السيد أن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين. والكلمة المترجمة «بطالة» تعني في اليونانية كما في العربية «بلا عمل» — ومعنى كلمة «بطالة» هو «لا تنتج شيئاً» . وفي حديث السيد نرى حقيقتين عظيمتين :

(أ) إن الكلمات التي ينطق بها الإنسان في أوقات راحته وعدم عمله.. التي ينطق بها دون قصد خاص، عندما لا يكون حريصاً، هي التي تعبر عما في داخل الإنسان.

وقد قال أحدهم «إن الكلمات التي نصيغها بحرص وعناية وحساب دقيق تكون رياء .. ذلك لأن الإنسان عندما يكون متنبهاً لما يقوله، وكيف يقوله، فإنه يدقق في تعبيراته وكلماته، فلا تظهر نفسه الحقيقية في هذه الكلمات المصنوعة، والإنسان في حديثه الرسمي وفي المجتمعات والخطب قد يتحدث بأنبل الكلمات وأشرفها، لكنه في حديثه العادي، قد تظهر طبيعته الحقيقية، لأنه في الأحاديث الرسمية يختار ألفاظه بعناية، أما في الأحوال الأخرى فإنه يطلق باب شفتيه دون رقيب، فيظهر ما في قلبه .. لذلك نرى أن الإنسان في أوقات غضبه يتفوه بما في قلبه، وربما منعته ضوابط الحرص من أن يتفوه به. من ثم نرى كثيرين من الناس في غاية اللطف ودماثة الخلق، ورقة الحديث في أحاديثهم وعلاقاتهم الرسمية، لكنهم في بيوتهم غاية في الخشونة والفظاعة والنقد، لأنهم دون ملاحظة من الغير .. إن هذه الكلمات التي ننطق بها عفواً، دون ملاحظة الغير لها، أو في ساعات الغضب، هي التي تظهر ما في قلوبنا، وهي التي نعطي عنها حساباً لأنها تعبير عما نكنه في نفوسنا.

(ب) إن مثل هذه الكلمات كثيراً ما تكون أكثر الكلمات ضرراً، فالإنسان قد ينطق في ساعة الغضب بما لا يمكن أن ينطق به عند ضبط نفسه، وقد يعتذر فيما بعد أنه لم يكن يعني ما يقول، لكن هذا لا يعفيه من الأمر الواقع من أنه تفوه بهذا الكلام، وقد يترك هذا الكلام جراحاً يصعب التئامها وتقيم حاجزاً بينه وبين الناس لا يمكن إزالته.

وقد يقول المرء في وقت راحته أو بطالته شيئاً خشناً أو جانبه الصواب، مما لا يمكن أن يقوله في خطاب عام، لكن قوله هذا قد يترك أثراً لا ينمحي من ذاكرة بعض من يسمعونه.

وقد قال فيثاغورس، الفيلسوف اليوناني : «ألق حجراً عفوياً أفضل من أن تلقي كلمة عفوية». ذلك لأن الكلمة متى قيلت لا يمكن إعادتها، بل تترك أسوأ الآثار حيثما تذهب.

فليمتحن الإنسان نفسه، وكلماته، ليكتشف حالة قلبه، وليعلم أن الله لا يحكم على الإنسان بالكلمات التي ينطق بها منتقاة مختارة، بل بالكلمات التي ينطق بها عندما تخف الضوابط ويظهر ما في القلب دون حاجز أو تنميق أو رياء.

الآية الوحيدة

(متى ١٢ : ٣٨ ـ ٤٢)

قال بولس الرسول «لأن اليهود يطلبون آية» (١كورنثوس ١:٢٢)، وهذه طبيعة الشعب اليهودي، إنهم يطلبون آيات وعجائب من الذين يحملون إليهم رسالة الله، وكأنهم يطلبون منهم إثباتاً لصدق رسالتهم من الله.

ومن يدرس كتب المعلمين (الربيين) اليهود يرى بوضوح أن اليهود كانوا على الدوام يطلبون آيات وعجائب من معلميهم لكي يصدقوا أقوالهم. وقد كان هذا من أخطاء اليهود الجوهرية، لأنهم كانوا يريدون أن يروا الله على الدوام في أعماله المعجزية أو غير العادية، وهم قد نسوا أننا لا نكون أقرب إلى الله عند المعجزات منا عند أعماله العادية. فالله يرينا نفسه على الدوام في أفعاله العادية كل يوم.

وقد أطلق السيد على ذلك الجيل من الشعب اليهودي إنه جيل شرير فاسق. ولم يكن يقصد بذلك نسبة خطية الفسق أو الزنا إليهم ، ولكنه كان يقصد ابتعادهم عن الله فهذه هي الصورة القديمة التي وصف الله بها شعبه في العهد القديم على لسان الأنبياء. فقد صور علاقة شعب إسرائيل بالله في العهد القديم بصورة العلاقة الزوجية. كأن الله هو الزوج، وكأن شعب إسرائيل هو العروس. فعندما كانت الأمة اليهودية تبتعد عن عبادة الله، وتسعى وراء آلهة غريبة، اعتبر كأنها زانية أو فاسقة لأنها استهانت بالرابطة التي تربطها بالله.

وإذا قرأنا الصورة الواردة في إرميا ٣:٦ــ١١ نستطيع أن نتبين هذه الحقيقة، وكيف اعتبر الله عبادة الآلهة الغريبة فوق الجبال، وتحت الأشجار ، ومع الأحجار، فسقاً روحياً شنيعاً اقترفه شعب الله.

«هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل . انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء وزنت هناك .. وكان من هوان زناها أنها نجست الأرض وزنت مع الحجر ومع الشجر (إرميا٣:٦ــ١١).

إن هذه التعبيرات تشير إلى ما هو أشنع من الزنا. إنها تشير إلى خيانة الله والتي منها تنتج كل الخطايا الجسدية والروحية.

هكذا وصف السيد ذلك الجيل، وذكر أن الآية الوحيدة التي تعطي لذلك الجيل هي آية يونان النبي. ويذكر متى أنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال. وهنا تعترضنا صعوبة، فإن السيد المسيح لم يبق في القبر ثلاثة أيام وثلاث ليال، فكيف تفسر هذا القول؟

حاول البعض أن يتغلبوا على هذه الصعوبة بالإشارة إلى أن اليوم في النظام اليهودي كان يحتسب

يوماً وليلة حتى ولو لم تمض منه سوى ساعة واحدة.

لكننا عندما نقرأ الرواية في بشارة لوقا نجد أنه لم يذكر شيئاً عن بقاء يونان في جوف الحوت، ومقارنة ذلك ببقاء المسيح في قلب الأرض، وكل ما يذكره هو «لأنه كما كان يونان آية لأهل نينوي، وكذلك يكون ابن الإنسان أيضاً لهذا الجيل» (لوقا١١:٣٥).

لذلك يرجع بعض الشراح أن يسوع لم يقارن نفسه بيونان من حيث بقائه في بطن الحوت، أما ما قاله المسيح فهو أنه كما كان يونان آية لأهل نينوي، يكون المسيح آية لهذا الجيل. أو كما حمل يونان رسالة الله لأهل نينوى، هكذا يحمل يسوع رسالة الله لذلك الجيل. فيونان نفسه كان الآية، ويسوع نفسه هو الآية الوحيدة التي يقدمها إلى ذلك الجيل.

وكأنما يريد يسوع أن يقول لهم «أنتم تطلبون آية ... أنا آية الله، لكنكم فشلتم في معرفتي والاعتراف بي. لقد تبين أهل نينوى تحذيرات الله في يونان، وتبينت ملكة سبأ حكمة الله في سليمان. وفيَّ أنا تأتيكم ياأهل هذا الجيل حكمة أعظم من حكمة سليمان، وأنا أحمل إليكم رسالة أعظم من الرسالة التي حملها يونان. لكنكم عميان لا تستطيعون أن تروا الحق، وآذانكم قد ثقلت حتى لا تسمعوا التحذير. لأجل هذا فإنه سيأتي اليوم الذي فيه يقوم هؤلاء الناس الذين عاشوا في القديم ليشهدوا ضدكم لأنكم لديكم فرصة أعظم من الفرصة التي كانت لهم، لكنكم لم تستطيعوا أن تستفيدوا منها، بل رفضتم أن تروا آية الله وصوته لكم».

هذه هي الحقيقة الرائعة الصريحة، أن يسوع هو آية الله، كما كان يونان رسالة الله لأهل نينوي، وكما كان سليمان حكمة الله لملكة سبأ. وفي شخص يسوع نستطيع أن نواجه الله، والسؤال الحيوي الجوهري هو «ما مقدار تجاوبنا عندما نرى الله في يسوع المسيح؟» هل نواجهه بالعداء كما فعل الكتبة والفريسيون؟ أو هل نقبله بتواضع كما فعل أهل نينوى وفعلت ملكة سبأ؟

إن أهم سؤال في الحياة هو «ماذا تظنون في المسيح؟»

خطر القلب الخالي

(متى ١٢ : ٤٣ — ٤٥)

إذا طالعنا هذه الفقرة، ونظرنا إليها كمثل من أمثال المسيح، تجنبنا عدة مشكلات تسببها لنا النظرة الحرفية إلى هذه الأقوال، خاصة من ناحية الأرواح النجسة وسكناها وخروجها ودخولها وغير ذلك من الأمور. (وقد سبق أن درسنا بعض وجهات النظر عن الأرواح الشريرة).

وحين ننظر إلى هذه العبارات كأنها شرح تمثيلي لحقائق روحية، نجد مجموعة رائعة من الفوائد العملية فيها.

١ ــ فنحن نلاحظ أن الروح النجس يخرج من الإنسان لكنه لا يقهر تماماً وينمحي، وكأنما يريد السيد أن يقول أن الشر في هذا العالم يمكن التغلب عليه وطرده، ولكن لا يمكن التخلص النهائي منه. والشر دائماً يحاول أن يجد فرصة ليغزو فيها حياة الإنسان مرة ثانية ويهجم مرة ثانية على القلاع البشرية التي فقدها.

٢ ــ وهذا المثل يوضح لنا بصورة قاطعة أن الديانة السلبية لا تكفي لإشباع حياة الإنسان ــ فالديانة التي تتركز في مجموعة من النواهي، تنتهي بالفشل دائماً، لأنها وإن استطاعت أن تطهر حياة الإنسان بنهيه عن العادات الشريرة، والأفعال الشريرة، لكنها لا تستطيع أن تبقيه نقياً على الدوام.

فالسكير قد يقرر أنه لن يشرب الخمر، ولن يذهب إلى مكان السكر والعربدة مرة ثانية .. لكن من الضروري أن يجد شيئاً آخر يعمله ويملأ به فراغه، وإلا فإنه سيعود إلى طريقه القديم.

والرجل الذي كان كل همه البحث عن اللذات أينما وجدت، قد يقرر أن يهجر هذا الأسلوب من الحياة، لكن من الضروري أن يجد عملاً إيجابياً يشغل به نفسه، وإلا فإنه سوف يجد نفسه مضطراً إلى العودة إلى أعماله القديمة بسبب فراغ حياته.

فلا يكفي أن تخلو حياة الإنسان من الشر، بل يجب أن تمتلىء بالخير، فالشيطان دائماً يستخدم العقول البطالة، والأيدي الخالية من العمل ...

الديانة السلبية لا تطهر حياة الإنسان.

٣ ــ فالعلاج الصحيح للشر هو العمل المسيحي. والتعليم الذي يكتفي بنهي الإنسان عن بعض الأفعال ليس تعليماً كاملاً، بل ينبغي أن يوجه التعليم الصحيح الإنسان إلى العمل الإيجابي الذي ينبغي أن يعمله.

والمرض الخطير فعلاً هو الكسل .. لأن الحياة الخالية من العمل تتعرض لكل أنواع الشرور. وأفضل كيفية للتغلب على الحشائش الضارة في حديقة ما، هو زرعها بنباتات أخرى نافعة. وأفضل أسلوب لوقاية الحياة الإنسانية من الخطية هو ملء هذه الحياة بالأعمال النافعة.

والكنيسة تستطيع أن تحتفظ بالمتجددين عندما تسند إليهم أعمالاً معينة ليقوموا بها.

وإذا كنا نجد أنفسنا معرضين لتجارب الشيطان والشر، فإن أفضل كيفية للتغلب على الشر، هي تفادي هذه التجارب بالإنشغال الدائم بالعمل المستمر المفيد في سبيل الله وفي سبيل الآخرين.

القرابة الحقيقية

(متى ١٢ : ٤٦ ــ ٥٠)

من المآسي الإنسانية أثناء حياة السيد المسيح على الأرض، أن أقرب الناس إليه وأعزهم لديه لم يفهموه. يقول يوحنا البشير «لأن أخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به» (يوحنا٧:٥).

ويقول مرقس إنه لما بدأ يسوع خدمته الجهارية ، حاول أقرباؤه أن يمنعوه « ولما سمع أقرباؤه خرجوا ليمسكوه لأنهم قالوا إنه مختل » (مرقس٣:٢١).

وهذا ما نراه على الدوام ، فعندما يتخذ إنسان ما طريق المسيح ، فإن أقرب الناس إليه وأعزهم لديه أحياناً لا يفهمونه ، وقد يعارضونه ويعاندونه . وقد قال أحد الشهداء الأقدمين «إن الأقارب الحقيقيين للمسيحي هم القديسون ». ويروي التاريخ قصصاً عديدة من هذا القبيل ، فقد روى عن أحد المؤمنين (إدوارد بورو) أنه عندما سار في طريق الإخوة المعروفين باسم « الكويكرز Quakers أن أباه طرده من البيت لأنه اتهمه بأنه متعصب . ولكنه توسل إليه أن يبقيه في البيت ولو كخادم ولكن الأب رفض .

إن الصداقة الحقيقية تبنى على أسس خاصة ، بدونها لا يمكن أن تقوم لها قائمة . وهذه الأسس هي :

(١) المثل الأعلى المشترك . فقد يختلف بعض الناس في أسلوب حياتهم واستعدادهم الشخصي وبيئاتهم ، لكنهم إذا اتخذوا مثلاً أعلى واحداً يسعون نحوه ويعملون لتحقيقه ، يكون هذا المثل الأعلى رابطة تجمعهم وتقرب بين قلوبهم .

(٢) الاختبار المشترك والذكريات الواحدة النابعة من هذه الإختبارات . فعندما يجوز اثنان في اختبار واحد عظيم ، تبدأ الصداقة الحقيقية بينهم : لذلك نرى أن الشركاء في القتال والحروب كثيراً ما تربطهم علاقات أقوى من روابط الجسد .

(٣) والمحبة الحقيقية مؤسسة على الطاعة لا غير . وقد قال يسوع « أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به » (يوحنا ١٥:١٤) . ولا توجد كيفية تعبر عن المحبة مثل روح الطاعة .

لهذه الأسباب نرى أن القرابة الحقيقية ليست على الدوام علاقة الجسد والدم . حقاً إن الروابط الجسدية لا يمكن التخلص منها . وكثيرون يجدون راحتهم وسلامهم في جو الأسرة والعلاقات العائلية ، ولكن يحدث أحياناً أن أقرباء الإنسان كثيراً ما يكونون أقل تفهماً له ، وهكذا يجد المرء أن الذين يشتركون معه في المثل والإختبار أقرب إليه من أقربائه بالجسد .

وعندما يجد المسيحي أن أقربائه حسب الجسد لا يعطفون على موقفه ، ولا يتفهمون ظروفه ، فإن الشركة التي له مع المؤمنين بالمسيح ، والذين يشتركون معه في حب المسيح وطاعته ، تكون له قرابة جديدة ، ورابطة وثيقة تملأ حياته بحرارة الحب والحنان .

الأصحاح الثالث عشر

التعليم بأمثال

يعد الأصحاح الثالث عشر من بشارة متى ذا أهمية خاصة فى دلالته وفى نموذج التعليم الذى يقدم فيه ، ونحن نلاحظ هذا عندما ندرس هذا الأصحاح :

(١) إنه يظهر تحولا واضحا فى خدمة يسوع . ففى بداية خدمته كنا نراه يعلّم فى المجامع . ولكننا نراه الآن يعلّم على شاطىء البحر . ولهذا التحول دلالته ، فقد كانت أبواب المجامع فى طريقها الى أن توصد أمام السيد . ربما بقيت له فرصة للتعليم فى المجامع ، وربما لقى ترحيبا من عامة الشعب لكنه كان يواجه مقاومة ومعارضة علنية من قادة اليهود الرسميين . وفى المجامع كان يجد الآذان المصغية فى اهتمام ، لكنه كان يجد فى الوقت عينه جماعة الكتبة والفريسيين بعيونهم المتطلعة للنقد ، وآذانهم التى تحلل كل كلمة لتبحث فيها عن فرصة للاتهام والدينونة .

إنه لمن المؤسف حقا أن يطرد يسوع من الهيئات الدينية فى عصره ، لكن هذا لم يمنعه من أن يقدم دعوته إلى الناس ، لأنه عندما أغلقت أبواب المجامع فى وجهه ، وجد فى هيكل الهواء الطلق مجالا للتعليم ، فعلّم الناس فى طرقات القرى ، وفى الطريق العام ، وعلى ضفاف البحيرة ، وفى البيوت . إن من لديه رسالة حقيقية يرغب فى تقديمها فعلا . سيجد دائما وسيلة لتقديمها إلى الناس .

(٢) ومما يثير الاهتمام فى هذا الفصل أننا نرى فيه يسوع يبدأ يستخدم أسلوب الأمثال الذى يتميز به . ونحن نرى أن يسوع كان يستخدم نوعا من التشبيهات التى تقارب الأمثال ، مثل تشبيه المؤمن بالملح والنور (٥ : ١٣ – ١٦) وصورة طيور السماء وزنابق الحقل (٦ : ٢٦ – ٣٠) وقصة الرجل الحكيم والرجل الجاهل وكيفية بناء بيتيهما (٧ : ٢٤ – ٢٧) وتشبيه الثوب العتيق ورتقه ، والخمر الجديد فى الزقاق العتيقة (٩ : ١٦ ، ١٧) وصورة الأولاد الجالسين فى السوق (١١ : ١٦ ، ١٧) .

كل هذه قريبة من الأمثال ، فهى حقائق فى صورة تشبيهات ، لكننا فى هذا الأصحاح نرى أمثالا واضحة . وقبل أن ندرس هذه الأمثال بالتفصيل ، ينبغى أن نفكر فى الأسباب التى دعت يسوع أن يستخدم هذا الأسلوب ، وما هى امتيازات استخدام هذا الأسلوب .

(أ) المثل يجعل الحق ملموسا ، فقليلون جدا هم الذين يستطيعون إدراك المعنويات وفهمها ، ومعظم الناس يفكرون وهم يتصورون الأشياء والمعانى . وقد نظل زمنا طويلا نحاول أن نعبر بالكلام عن معنى « الجمال » مثلا ، ولا نصل إلى نتيجة مقبولة ، لكننا إذا أشرنا إلى شخص جميل الصورة ، لا نحتاج بعد ذلك إلى شرح كثير . وقد نبذل جهدا فى تعريف معنى « الصلاح » دون أن نترك معنى واضحا له فى أذهان الناس ، لكن الناس يميزون بسهولة الشخص الصالح والعمل الصالح عندما يرونه . فلكى نفهم المعانى العظيمة ، ينبغى أن تتجسد هذه المعانى .. والأمثال تجسيد للحقائق العظيمة وتصوير لها حتى يمكن لجميع البشر أن يفهموها .

(ب) وقد قيل إن كل تعليم عظيم يبدأ من حيث يكون الناس ، لينقلهم إلى حيث يريد المعلم . فإذا أراد أحد أن يعلّم الناس عن أمور لا يفهمونها ، ينبغى أن يبدأ معهم بما يفهمونه . والأمثال تبدأ بحقائق فى متناول فهم الناس واختباراتهم ، ومن هذه المادة المعروفة للناس ، تقودهم الأمثال إلى الحقائق التى لا يعرفونها وتفتح عيونهم لرؤية ما لم يكونوا ينظرونه .

(ج) ومن امتيازات الأمثال أنها تثير انتباه الناس ، فإن أضمن وسيلة لاجتذاب انتباه الناس هى سرد القصص ، ومن يروى حكايات وقصصا ، يجد من الناس أذنا صاغية . والمثل هو وضع الحق فى قصة ، أو قصة أرضية لها معنى سماوى .

(د) ومن امتيازات الأمثال وخصائصها أنها تجبر الإنسان أن يكتشف الحقائق بنفسه منها ، فهى لا تقوم بدور المفكر فى الإنسان ، ولكنها تترك مع الإنسان قصة ، وتطلب منه أن يفكر فى الحقائق التى تحتويها ، والمعانى التى يستخرجها منها ..

والواقع أن هناك أمورا ينبغى أن يصل الإنسان إليها بنفسه . وقد قال أحد الحكماء ، إنك لا تستطيع أن تذكر الحق للناس ، بل عليك أن تضعهم فى موقف يمكنهم منه أن يكتشفوه بأنفسهم ، لأن الإنسان ما لم يكتشف الحق بنفسه ، لا يصير الحق راسخا فى ذهنه وقلبه ، بل يكون مجرد معلومات منقولة ، قد ننساها ، وقد نفقد ايماننا بها .

فالأمثال تجعل الإنسان يصل بنفسه إلى الحق ، وبذلك يكون راسخا فى ذهنه فلا ينساه .

(هـ) وفى الوقت عينه فإن الأمثال تخفى الحق عمن يكون كسولا غير راغب فى التفكير ، أو متعصبا غير راغب فى الرؤية الصحيحة — فالمثل يضع المسئولية على الفرد ، فهو يكشف الحق لمن يريد أن يعرفه ، ويخفيه عمن لا يرغب فى رؤيته .

(و) وأخيرا علينا أن نذكر أن أمثال المسيح كانت منطوقة وليست مكتوبة ، بمعنى أن أهميتها كانت فيما يمكن أن تحمله من معان عند سماعها مباشرة ، وليست فى المعانى التى يستخرجها الإنسان بعد بحث ودراسة فى التفاسير والقواميس . إن المثل عادة يحمل فكرة واحدة يريد المتكلم أن يشرحها . ليس المثل قصة رمزية ، فالقصة الرمزية تحتاج إلى عناء فى الدرس ، لأن كل عبارة فيها ، وكل تفصيل فيها له مغزى ، لذلك يجب دراسة الرموز بعناية ، أما المثل فقد كان القصد منه أن يفهم الناس فكرة واحدة . ولذلك ينبغى فى دراستنا للامثال ألا نحاول الباسها ثوبا رمزيا ، بل يكفى أن ندرس طبيعة الحياة وعادات الناس فى فلسطين وقت سماع هذه الأمثال ، لكى نفهم ماذا يكون أثر سماع المثل بالنسبة لهم ، وما هى الرسالة المقصودة من وراء كل مثل .

الزارع خرج ليزرع

(متى ١٣ : ١ ــ ٩ ، ١٨ ــ ٢٣)

نستطيع أن نتصور المسيح يستخدم القارب فى البحر منبرا له ، وهو يواجه الجموع وينظر من بعيد فإذا بأحد الزراع على مدى البصر يخرج ليبذر بذاره ، فابتدأ من الواقع والطبيعة يتحدث قائلا : « هوذا الزارع قد خرج ليزرع » .

وقد كانت هناك طريقتان لبذر الحبوب فى فلسطين : الطريقة الأولى هى أن يسير الزارع حاملا كيس البذار ويأخذ بيده ويبذره فى خطوط الأرض المعدة للزرع ، وفى هذه الحالة يمكن للريح إذا كانت شديدة أن تحمل البذار إلى مختلف الأماكن ، وربما خارج الحقل كله .

والطريقة الثانية كان يستخدمها بعض الكسالى ، وهى أن يضعوا كيس البذار على ظهر حمار ، ويمزقون ثقبا فى زاوية الكيس ، ويقودون الحمار وسط خطوط الزراعة ، وينزل البذار من الثقب . وفى هذه الحالة يمكن أن يتساقط البذار أثناء عبور الحيوان الطريق قبل وصوله إلى الحقل .

وقد كانت الحقول فى فلسطين تقسم إلى خطوط وشرائط ضيقة تبذر فيها البذار ، وبين هذه الخطوط كان يجوز للناس أن يسيروا ويعبروا ، لذلك كانت الممرات بين هذه الخطوط صلبه كالطريق بسبب كثرة مرور الأقدام عليها . وهذه الممرات هى التى اعتبرها يسوع طريقا سقط عليه بعض البذار . وما يسقط من البذار على مثل هذه الممرات لا يمكن أن يخترق التربة ، كأنه سقط على الطريق العام تماما .

أما الأرض المحجرة فليست أرضا مملوءة بالحجارة ، ولكنها أرض صخرية تغطيها طبقة رقيقة من التربة . وهذا النوع من الأرض شائع الوجود فى بلاد فلسطين . ويمكن للبذار أن تنمو سريعا فى مثل هذه الأماكن ، ولكن عندما تمتد الجذور إلى أسفل تصطدم بالصخور ، فتموت لعدم وجود الغذاء اللازم للنبات ، وفى الوقت عينه تحرق أشعة الشمس النبات لعدم وجود عصارة متجددة فى داخل النبات .

أما الأرض الممتلئة بالشوك ، فهى أرض خادعة ، ذلك لأن الزارع وهو يزرع ، يرى وكأنها نظيفة خالية من الشوك ، لأن أصول الشوك تكون مختفية فى الأرض عند حرثها ، ولكن عند نمو النبات ، ينمو الشوك سريعا فيخنق النبات .

والأرض الجيدة أرض لينة ونظيفة ، يمكن للنبات أن ينمو فيها ويتغذى ولا تعترضه صعوبات ، فيأتى النبات بثمر كثير . هذا المثل يحمل رسالة للسامع ورسالة للمتكلم ..

الكلمة وسامعها

ففى هذا المثل تحذير للسامعين ، بأن هناك طرقاً متنوعة لسماع كلمة الله ، وأن ثمر كلمة الله يتوقف على قلب الإنسان الذى يتقبل هذه الكلمة .

١ ــ هناك المستمعون ذوى العقل المغلق ، فليست هناك فرصة لدخول الكلمة فى عقولهم أكثر من فرصة اختراق البذرة للأرض المطروقة الصلبة . وما أكثر الأسباب التى تغلق العقول ، فالتعصب يعمى الإنسان فلا يمكنه أن يرى ، والروح التى لا تكون مستعدة للتعلم تصير حاجزا لا يمكن ازاحته ، وقد يكون سبب عدم القابلية للتعليم الكبرياء ، وفى هذه الحالة لا يدرك الإنسان أنه محتاج للمعرفة . وقد يكون السبب هو الخوف من الحق الجديد ورفض المخاطرة فى أساليب التفكير . وأحيانا تكون رداءة الأخلاق عاملا لإغلاق عقول الناس ، لأن الحق يدين بعض أنواع السلوك التى يحبها الإنسان ، وما أكثر الناس الذين أعميت عيونهم عن الحق ، لأنه يخالف رغباتهم وأشواقهم التى يحبونها ويتمسكون بها .

٢ ــ وهناك المستمع ذو العقل الخالى من العمق كالتربة الرقيقة على الأساس الصخرى . إن مثل هذا المستمع لا يدرس الأمور بعناية ، بل ينساق سريعا إلى كل جديد وينصرف سريعا عنه أيضا . وهناك أشخاص كثيرون من هذا النوع ، كثيرو الحماس ولكنهم لا يبدأون عملا ويكملونه أبدا ، بل هم سريعوا التنقل من فكرة إلى أخرى ، ومن هواية إلى أخرى . والبعض لهم هذا الاتجاه نحو كلمة الله . فعندما يسمعونها سرعان ما يأخذهم الحماس والتجاوب والانفعال الشديد ، لكن الحياة لا يمكن أن تؤسس على الانفعال فقط . فالإنسان عقل ومن واجبه أن يتعقل حقائق إيمانه ومسئوليات هذا الإيمان . والمسيحية ليست امتيازا فقط لكنها مسئولية أيضا والحماس المفاجىء يمكن أن يتحول سريعا إلى نار خامدة .

٣ ــ وهناك المستمع الذى تمتلىء حياته بمشغوليات واهتمامات متعددة ، حتى أن أهم الأمور لا تجد لها مكانا فى حياته . ولعله من مميزات الحياة العصرية أنها صارت مزدحمة بالمشغوليات والتطور السريع ، حتى أن الإنسان لا يجد وقتا للصلاة ، وينشغل بأمور كثيرة ، فينسى أن يدرس كلمة الله ، ويرتبط بعدد كبير من اللجان والأعمال الخيرية ، حتى أنه لا يترك وقتا للسيد الذى هو مصدر كل محبة وخير وخدمة . إن العمل قد يستحوذ على كل جهد الإنسان حتى ليجد مشقة وتعبا إذا فكر فى شيء آخر .

وفى حياة الإنسان قد لا تكون الأشياء الرديئة خطرا عليه بقدر الخطر الذى يهدد حياته بسبب الأشياء النافعة التى تشغله عن أهم واجباته . وقد قيل « ان الأمور التى لها الأفضلية التالية ، هى ألد أعداء الأمور التى لها الأفضلية الأولى »

فالإنسان قد يرغب فى الصلاة وقراءة الكتاب وحضور الاجتماعات ويتمنى لو وجد وقتا لهذه الأمور التى لها الأفضلية الأولى ، ولكنه يجد نفسه مشغولا بأعماله العادية والنافعة ، فلا يجد وقتا يتعبد فيه ويحقق رغباته الروحية .

إننا فى أحيان كثيرة نهمل المسيح ، بسبب أعمال نافعة وصالحة تشغلنا عنه وعن واجبنا نحوه .

٤ ــ وهناك المستمع الذى يشبه الأرض الجيدة ، وفى تقبله للكلمة نرى أربع مراحل ، فهو كالأرض الجيدة متفتح العقل . وهو على الدوام مستعد أن يتعلم ويسمع ، وهو ليس متكبرا ولا منشغلا عن الاستماع . وما أكثر الناس الذين كانوا يتجنبون عددا من المآسى لو أنهم استمعوا إلى

نصيحة صديق حكيم مخلص ، أو إلى صوت الله ، والمستمع الجيد هو الذى يفكر ويتأمل فيما يسمعه ثم يترجمه إلى أعمال ، فينتج ثمر الأعمال الصالحة .

المستمع الحقيقى هو الذى يصغى ، ويفهم ، ويطيع ..

رسالة للمتكلم

ونحن نرى فى هذا المثل رسالة للمتكلم أيضا .. فقد كان فى المثل درس لجماعة التلاميذ الخاصة أيضا .

وليس من العسير أن نتصور مشاعر التلاميذ ، وكيف كان اليأس يتسلل إلى قلوبهم . لقد كان يسوع بالنسبة لهم هو كل شيء فى حياتهم ، وكانوا يرون فى شخصه كال الحكمة والصلاح والروعة ، ولكنهم بنظرتهم البشرية كانوا يرون أن نصيبه من النجاح قليل .. فقد كانت أبواب المجامع على وشك أن توصد فى وجهه ، وكان رؤساء الدين الرسمى هم أكثر الناس نقدا له ، ورغبة فى التخلص منه . إنهم لا ينكرون أن الجموع كانت تتهافت لتسمعه ، لكن قليلين هم الذين تغيرت حياتهم ، والأغلبية الساحقة كانت تأتى لتستفيد من قدرته المعجزية على الشفاء ، وحالما ينالون ما يريدون ، يمضون ناسين أو متناسين . وهكذا تصور التلاميذ أن يسوع يخسر أكثر مما يربح ، ويثير كراهية القادة أكثر مما يجتذب حب الناس .. وهكذا يمكننا أن نتخيل الفشل واليأس يدخل إلى نفوسهم ..

لذلك كان هذا المثل درسا ضد الفشل واليأس ، لأنه يبين أن الحصاد أكيد ، وذلك لأن قمة المثل فى نهايته تحمل صورة الأرض الجيدة التى تحمل الثمار ثلاثين وستين ومائة .

حقا قد تسقط بعض البذار على الطريق ، وقد يسقط البعض الآخر فى الأماكن المحجرة فلا يكتمل نموه ، وقد يسقط البعض بين الأشواك فيختنق .. لكن على الرغم من كل ذلك فإن الحصاد مؤكد .. إن أى مزارع لا يتوقع أن كل البذور التى يزرعها سيكتمل نموها وتأتى بالثمار ، فالريح ستحمل بعض البذار بعيدا ، كما تسقط بعض البذار فى بعض الأماكن التى لا يمكنها أن تنمو فيها ، وعلى الرغم من ذلك فإن الزارع لا يتوقف عن بذر البذار لهذا السبب .

إن هذا المثل تشجيع رائع لكل الذين يزرعون كلمة الله ..

١ ــ وعندما يقوم أى شخص برمى بذار الكلمة ، لا يستطيع أن يعرف نتيجة هذا العمل ، وما هو الأثر الذى ستحدثه كلمة الله التى ينطق بها .

يقص أحدهم قصة عن رجل عجوز فى كنيسة ، كان يأتى ويتعبد دون أن يعرفه أحد من رجال الكنيسة وشبابها ، لأن جميع أصدقائه كانوا قد انتقلوا إلى الأبدية . وفى ذات يوم علم راوى القصة أن ذلك الرجل قد فارق الحياة ، فأراد أن يودعه الوداع الأخير . وقد توقع أن ذلك الرجل المجهول لن يجد من يشيعه إلى مقره الأخير .. لكنه عندما وصل إلى القبر وجد مجموعة من الناس بينهم رجل يرتدى الملابس العسكرية ، ووقف ذلك الضابط وحيا المشهد تحية عسكرية وتلفت الناس

ليتبينوا أن ذلك الضابط هو قائد عسكرى كبير مشهور .. ونظر القائد إلى راوى القصة وقال له « قد تتساءل لماذا أنا هنا .. إن هذا الشيخ كان معلمى فى مدرسة الأحد ، وقد كان تعليمه لى سببا فى تغلبى على كثير من الأزمات فى كل مراحل حياتى .. إنى مدين له بكل شيء .. وتحيتى لجثمانه أقل ما يمكن أن أقدمه ، وسأظل دائما مديونا له » .

إن أى واعظ أو معلم لا يمكنه أن يدرك أثر خدمته . لكن الحصاد أكيد . وواجبنا أن نلقى البذار ، ونترك لله أن يعمل ، ولا نفشل .

٢ ــ وعندما يبذر أحد البذار ، لا ينبغى أن يتوقع نتائج سريعة . إن بعض الأشجار تحتاج إلى زمن طويل لتنمو ، وقد تحتاج كلمة الله إلى زمن طويل لتعمل عملها فى قلب الإنسان . فقد تقع كلمة الله فى قلب صبى صغير ، وتظل ساكنة زمنا طويلا ، وفى وقت ما تحميه من تجربة شريرة وتنقذ نفسه من الموت .

إن العصر الذى نعيش فيه يتوقع دائما أسرع النتائج ، لكننا فى انتظار نمو كلمة الله ينبغى ألا نفشل ، بل نلقى البذار فى صبر ورجاء وانتظار ، وفى وقته سنحصد حصادا مؤكدا .

الحق والمستمع

(متى ١٣ : ١٠ ــ ١٧)

تحتوى هذه الفقرة على بعض المعانى لعسر الفهم ، لذلك ينبغى أن نصرف وقتا فى التأمل العميق فى معانيها لندرك معناها . وقبل أن نبدأ فى تحليل هذه العبارات ، ينبغى أن نفهم حقيقتين وردتا فى هذه الآيات ، فقد يعيننا فهمها وينير لنا السبيل لنفهم الفقرة كلها .

١ ــ الأسرار

لقد قال المسيح للتلاميذ إنه قد أعطى لهم أن يعرفوا « أسرار » ملكوت السموات . وقد نفسر « السر » على أنه أمر غامض غير مفهوم ، لكن استخدام العهد الجديد لكلمة « سر » تختلف عن المعنى الذى يتبادر إلى أذهاننا الآن . فالسر فى مفهوم العهد الجديد تعبير عن أمر غامض ومجهول للشخص الخارجى ولكنه واضح تمام الوضوح للشخص الذى قد جاز فى اختبارات معينة تؤهله لأن يفهم هذا الأمر .

وفى وقت حياة يسوع على الأرض ، كانت هناك ديانات يونانية ورومانية تعرف باسم « ديانات الأسرار » ، وهذه الديانات كلها كان لها طابع واحد ، فهى فى جملتها رواية عن ألم يجوز فيه أحد الآلهة أو إحدى الإلهات ، وبعد حياة شاقة متعبة يموت الإله ، ويقوم ثانية للمجد والبركة .

وعندما يراد تعريف أحد الأشخاص بالسر ، كان يجتاز فى فترة طويلة من التعليم والتدريب ، قد تستغرق شهورا طويلة أو سنين فى بعض الأحيان ، فيها يشرحون له مدلول القصة بتفصيل ، ويصوم ، ويتعبد مدة طويلة ، قبل أن يسمح له برؤية الرواية ممثلة ، وعند رؤيتها تكون عواطفه

مجهزة لأن يجتاز اختبارا عاطفيا قويا ، لأن كيفية عرض الرواية والإضاءة ، والقراءات ، والبخور ، والعطور ، كلها تثير فى نفس العابد إحساسا بالاتحاد مع الإله أو الآلهة التى يرى قصتها على المسرح ، فكأنه يعانى ما تعانيه الآلهة ، ويموت معها ، ويقوم معها ، وهكذا يهتف العابد فى النهاية قائلا ومخاطبا الإله « أنا أنت .. وأنت أنا » .

ونذكر هنا قصة من أعظم القصص التى كانت فى هذه الديانات القديمة وهى قصة سر ايزيس .

فإن أوزوريس كان ملكا حكيما وصالحا . وسيث أخوه كان شريرا وكان يكرهه ، ولذلك تآمر مع اثنين وسبعين متآمرا وألح عليه أن يحضر حفلة ، وفى الحفلة شجعه أن يدخل إلى تابوت قد أعده له بمكر ليناسبه تماما . وعندما دخل أوزوريس إلى التابوت غطوه بالغطاء وألقوه فى النيل .. لكن ايزيس زوجته الوفية بحثت عنه بعناء وجهد حتى وجدت التابوت أخيرا وأحضرته إلى البيت وأخذت تنوح عليه . ولكن بينما كانت ايزيس فى الخارج ، جاء الأخ الشرير سيث ، وسرق جسد أوزوريس وقطعه إلى أربع عشرة قطعة ، ووزعها فى كل أنحاء مصر . وبدأت ايزيس للمرة الثانية تبحث طويلا عنه ، حتى استطاعت أن تجد جميع القطع فى النهاية ، وبقوة عجيبة وضعت القطع فى مكانها وقام أوزوريس من الموت ، وصار بعد ذلك الملك الخالد للأموات والأحياء .

ويمكن أن نرى الجوانب المؤثرة فى هذه القصة لمن قد قضى زمنا طويلا فى التعليم والإعداد . فهناك قصة الملك الصالح ، وهجوم الخطية والشر ، وبحث المحبة وعناؤها ، وانتصار المحبة فى بحثها ، والقيام من الموت والانتصار عليه بالحياة .. وقد كان المقصود أن يجوز العابد فى هذه الاختبارات عينها ، ليرى نفسه متحدا مع الإله ومختبرا اختباره ، وهكذا يخرج من الاختبار « مولودا جديدا فى الأبدية » .

هذا هو السر ، وهو شيء بلا معنى بالنسبة للذين هم من خارج ، لكنه غال وثمين للذى يفهمه ويعرفه اختباريا . وربما كان الله بهذه الديانات البدائية كلها ، يعد الأفكار إلى الدين الحقيقى الذى نرى فيه الإله المتألم ، المنتصر على الموت ، والذى نتحد به فننال معه النصرة .

ولعل العشاء الربانى يحمل إلينا صورة مشابهة ، فهو بالنسبة للذين هم من خارج ، غير مفهوم ، فالغريب الذى يرى هذا العشاء لأول مرة ، ويرى جماعة من الناس يأكلون قطعا من الخبز ، ويشربون كؤوسا صغيرة أو فى كأس واحدة من الخمر ، قد يبدو هذا له بلا معنى . لكن هذا بالنسبة لمن يعرفه ، ويعرف دلالة الخبز والكأس ، شيء غال ثمين ، وأعظم عبادة مؤثرة فى الكنيسة .

والمسيح قال لتلاميذه ، إن الذين هم من خارج لا يفهمون ما أقول ، ولكنكم تفهمون لأنكم تعرفوننى فأنتم تلاميذى .

والحقيقة أن المسيحية لا يمكن فهمها إلا من الداخل ، فبعد أن نلتقى مع المسيح شخصيا ، حينئذ يستطيع الإنسان أن يفهم ، ولا يفهم أحد المسيحية إلا بعد أن يكون مسيحيا . ومن ينتقد المسيحية من الخارج جاهل تماما ، لأن الشخص الذى يكون على استعداد أن يكون تلميذا للمسيح ، هو الذى يستطيع الدخول إلى أثمن الأشياء فى الإيمان المسيحى .

٢ ــ قانون الحياة الصارم

والحقيقة الثانية نراها فى عدد ١٢ وفيها نرى أن من له سيعطى ويزاد ، ومن ليس له فالذى عنده يؤخذ منه . ولأول وهلة يبدو لنا أن هذا المثل يتميز بالقساوة ولكنه ليس من القساوة فى شيء ، فإنه يصف حقيقة لا مفر منها ، هى قانون الحياة البسيط الصارم .

ففى كل مجال من مجالات الحياة ، نرى من له يعطى فيزداد ، ومن ليس له ، يؤخذ منه .

ففى مجال الدراسة والعلم ، نجد أن الطالب الذى يعمل ويتعب ليحصل على المعرفة ، يصير قادرا على استيعاب معرفة أكثر ، وهو الذى تعطى له فرصة الأبحاث المستفيضة ، والدراسات العليا ، والدقيقة ، والعميقة ، وذلك لأن إخلاصه فى البحث ، وأمانته فى الدراسة وجهده جعله صالحا لما يسند إليه من أبحاث أوسع . وفى الوقت عينه نرى أن الطالب الكسول الذى يرفض أن يعمل ويدرس ، لابد سيفقد حتى المعلومات التى سبق له أن حصل عليها . ولعلنا نلاحظ أن هناك كثيرين كانوا قد درسوا شيئا من الفرنسية أو اللاتينية أثناء أعوام دراستهم ، ولكنهم فيما بعد فقدوا هذه المعلومات لأنهم لم يحاولوا أن يستخدموها أو يتوسعوا فيها . وكثيرون كانت لهم مهارة فى بعض الأعمال أو الألعاب كالعزف على البيانو أو لعبة معينة ، ولكنهم بتركهم استخدام هذه المهارة ، تضيع منهم تدريجيا .

إن الذى يدرس كثيرا ، ويتمرن ويتدرب كثيرا ، هو الذى تنفتح أمامه الآفاق الجديدة فى المعلومات التى يدرسها أو المهارات التى يتقنها ، والكسول هو الذى يفقد ما عنده .. وكل موهبة تضيع إذا لم نستخدمها .

هكذا أيضا فى الصلاح .. فكل تجربة ننتصر عليها تجعلنا أقوى فى التغلب على التجربة التالية .. وكل تجربة تغلبنا ، تجعلنا أضعف فى مواجهة التجربة التالية . وكل عمل صالح نعمله ، وكل عمل من أعمال ضبط النفس وخدمة الآخرين نعمله ، يجعلنا أقوى وأفضل .. وكلما ضيعنا فرصة ، صار من المحتمل أن تضيع منا الفرصة التالية .. فالحياة عملية ربح أكثر أو خسارة أكثر ..

وكلما عاش الإنسان قريبا من المسيح صار أقرب إلى تحقيق المثل المسيحية فى حياته ، كذلك كلما بعد الإنسان عن المسيح ، ضعف الأمل فى وصوله إلى العلاج .

٣ ــ عمى الإنسان وقصد الله

والأعداد من ١٣ ــ ١٧ من أصعب الفقرات فى رواية الإنجيل . وظهورها بنصوص مختلفة فى البشائر ، تبين لنا مدى الصعوبة التى واجهتها الكنيسة الأولى ازاءها . وحيث أن مرقس هو أقدم البشائر ، فمن الطبيعى أن نتوقع أنه يكون أقرب البشيرين إلى ذكر الكلمات الفعلية التى قالها المسيح .

وهذه هى رواية مرقس :

وأما الذين هم من خارج ، فبالأمثال يكون لهم كل شيء لكى يبصروا مبصرين ولا ينظروا

ويسمعوا سامعين ولا يفهموا لئلا يرجعوا فتغفر لهم خطاياهم » .

(مرقس ٤ : ١١ ، ١٢)

ولو أخذنا بالمعنى الظاهر لهذه الآيات يبدو كأن السيد المسيح يقول أغرب الأشياء ، فهو يتكلم بأمثال حتى لا يفهم الذين هم من خارج ، ليمنعهم من العودة إلى الله والتوبة ونوال الغفران .

لكن متى فى روايته يختلف عن مرقس إذ يقول :

« من أجل هذا أكلمهم بأمثال لأنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون »

فكأن المسيح يكلمهم ، لأنهم لا يستطيعون أن يفهموا .. ويستشهد السيد بنبوة من إشعياء النبى ، (وقد وردت فى إشعياء ٦ : ٩ ، ١٠) ، وترجمتها من العبرية :

« من أجل هذا أكلمهم بأمثال لأنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون »

« فقال أذهب وقل لهذا الشعب اسمعوا سمعاً ولا تفهموا وأبصروا إبصاراً ولا تعرفوا . غلظ قلب هذا الشعب وثقل أذنيه وأطمس عينيه لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيشفى » .

(إشعياء ٦ : ٩ ، ١٠)

وهذا النص يبدو أيضا كأن الله أراد أن يعمى عيون البشر ، ويصم آذانهم ، ويغلظ قلوبهم ، حتى لا يفهموا ..

لكن الترجمة السبعينية (وهى الترجمة اليونانية للعهد القديم) والتى كان يستعملها اليهود فى وقت حياة السيد المسيح على الأرض ، تترجم هذه الكلمات هكذا :

« إذهب وقل لهذا الشعب ، ستسمعون سمعاً ولا تفهمون ، ستبصرون إبصاراً ولا تنظرون . لأن قلب هذا الشعب قد غلظ ، وآذانهم قد ثقل سماعها ، وغمضوا عيونهم لئلاً يبصروا بعيونهم ، ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم » .

وهذه الترجمة السبعينية قريبة لما ورد فى بشارة متى وهى تضع المسئولية على الإنسان ، بدلا من وضعها على الله .

فما معنى كل هذا ؟

إننا نعرف يقينا أيا كان تفسير هذه الآيات ، إن المسيح لم يقصد أن يقدم رسالته بكيفية لا يستطيع الناس أن يفهموها .. وهو لم يأت ليخفى الحق عن الناس ، بل ليعلنه . وقد حدث فعلا مرات كثيرة أن الناس استطاعوا أن يفهموا هذا الحق ، كما نرى أن اليهود فهموا مثل الكرامين الأردياء ، وأدركوا أنه يقصدهم ، وكان نتيجة ذلك أن قالوا « حاشا » (لوقا ٢٠ : ١٦) .

وفى عددى ٣٤ ، ٣٥ يقتبس السيد المسيح من المزامير ما جاء فى مزمور ٧٨ : ١ — ٣

وفى هذا الاقتباس يظهر المرنم أن ما يعرف أن ما يقوله سيكون مفهوما ، وأنه يدعو الناس إلى الحق الذى عرفوه ، وعرفه آباؤهم .

والواقع أن كلمات إشعياء النبى ، والتى استخدمها السيد المسيح ، يجب أن تقرأ فى نور وضع أنفسنا مكان إشعياء ومكان يسوع ، وبذلك تبين لنا هذه العبارات ثلاثة أمور : —

(١) إنها تبين لنا حيرة النبى .. لقد قدم النبى للناس رسالة صافية وواضحة وتحير أنهم لم يفهموها .. وهذا هو الاختبار المتكرر للمعلم والواعظ فنحن عندما نعلم الناس أو نعظهم أو نناقش معهم أمورا جوهرية حيوية واضحة مؤثرة هامة ، ونراهم يسمعونها بعدم اهتمام ودون فهم .. عندئذ تساورنا الحيرة والدهشة ، كيف أن هذه الأمور ذات الأهمية القصوى فى نظرنا والتى تلهب دواخلنا ، تبدو عندهم بلا أهمية ويقابلونها ببرود وجمود .

هذا هو اختبار كثيرين من المعلمين والواعظين .

(٢) وهى تبين لنا يأس النبى — فقد كان شعور إشعياء أن وعظه يضر الناس أكثر مما يفيدهم بسبب قساوة قلوبهم ، وهم يزدادون قساوة كلما سمعوا منه رسالة . وهذا هو اختبار بعض الوعاظ والمعلمين أيضا عندما يجدون من يريدون أن يجذبوهم ، يزدادون بعدا عن المثل التى يريدونهم أن يقتربوا منها .

(٣) وهى تبين لنا شيئا أهم من حيرة النبى ويأسه ، إذ تبين لنا إيمان النبى فى النهاية بأنه لا يحدث شىء على الإطلاق خارج مشيئة الله .. فالناس إذا قبلوا التعليم كانت هذه مشيئة الله ، واذا رفضوه كانت هذه مشيئة الله أيضا . فإن قصد الله يشمل كل الأمور . لكن نهاية كل شىء لا بد ستكون للخير ، ويبين لنا بولس الرسول فى رومية ٩ : ١١ وفى أحاديثه الأخرى أن اليهود ، وهم شعب الله المختار ، رفضوا حق الله ، وصلبوا المسيح عندما جاء إليهم .. وكانت النتيجة أن ذهب الإنجيل للأمم ، وفى النهاية سيؤمن اليهود أيضا .. وكل هذا للخير حسب خطة الله ومقاصده .

هذا هو إحساس إشعياء ، بعد حيرته ويأسه ، إن قصد الله سيتحقق لخير البشر فى النهاية .

وهكذا أخذ يسوع كلمات اشعياء ، وكأنه يقول لتلاميذه « أنا أعرف أن الفشل قد يغالبكم حين ترون أناسا كثيرين يرفضون الحق ، وحين يرونه يرفضون تمييزه ، ولكن لهذا أيضا هدفا وقصدا ، ففى يوم من الأيام سيرونه » ...

إن هذا تشجيع كبير لنا ، فعندما نرى حصادا كثيرا نفرح ، وحينما نرى الأرض الجرداء ، وعدم الفهم وسوء التقدير وعدم التجاوب نظنه فشلا ، حسب نظرتنا البشرية ، لكن فى خطة الله العالم بكل شىء ، والقادر على كل شىء ليس هناك فشل أبدا ، والخاتمة تحقيق لقصد الله .

الحنطة والزوان

(متى ١٣ : ٢٤ ـ ٣٠ ، ٣٦ ـ ٤٣)

الصورة التى يقدمها هذا المثل ، صورة واضحة ومألوفة عند جميع الذين سمعوا المثل من سكان فلسطين . لقد كان الزوان لعنة يجاهد فى مقاومتها كل زارع . ونبات الزوان فى مراحل نموه الأولى يشبه نبات القمح (الحنطة) بحيث يتعذر التمييز بينهما . ولكن عندما ينمو النبات وينتج ينتج سنابله ، فمن السهل التمييز بينهما ، وحين يحدث ذلك تكون جذور النباتات قد اختلطت وارتبطت معا حتى لا يمكن انتزاع الزوان ، دون أن تتأثر أعواد نبات القمح .

ويقول العلامة تومسون فى كتابه « الأرض والكتاب The Land and the book » إن نوع هذه النباتات يتفق تماما مع هدف المثل . فعندما ينمو النبات وتظهر رؤوس السنابل يمكن لأصغر طفل أن يميز بين الحنطة والزوان ، ولكن فى بداية نمو السنابل ، قد تخطىء العين المدققة فى التمييز بين الحنطة والزوان . وحتى بعد التمييز بين الحنطة والزوان فإن قلع الزوان يعرض القمح أيضا للقلع ، لأن جذور النباتات تتشابك بعضها ببعض . كان المزارعون يتركون الزوان مع الحنطة إلى وقت الحصاد » .

ولكثرة تشابه الزوان مع الحنطة ، كان اليهود يطلقون على الزوان اسم « القمح الكاذب » أو « القمح النغل » ـ والكلمة العبرية المترجمة (زوان) هى كلمة (زونيم) وهى مشتقة من كلمة (زنا) بالعبرية ، وهى الكلمة العربية عينها ، ولعل هذه التسمية ترجع إلى قصة شائعة عن أصل الزوان ، تروى أن هذا النبات كان قمحا ، ولكنه فسد وتغيرت طبيعته أيام الفساد الذى عم كل الخليقة قبل الطوفان ، فزنت الناس وتغيرت طبيعة البشر والحيوانات والنباتات وهذا التفسير قد يبين أصل التسمية ، لكنه قد لا يصف الواقع .

وعلى وجه العموم ، فإن الناس فى فلسطين كانوا يستأجرون النساء لتنقية القمح بعد حصاده من الزوان ، وذلك بفرش القمح على منضدة أو صينية متسعة وفرز الزوان باليد . ذلك لأن الزوان كان يغير طعم الخبز ويضيف إليه قليلا من المرارة ويسبب بعض الدوار . ولذلك كان يجب تنقية القمح من الزوان قبل إرساله ليطحن .

ولم تكن صورة العدو الذى يزرع زوانا وسط الحنطة أمرا غريبا على الناس فى ذلك الوقت ، فقد كان هذا يحدث فعلا . وفى الهند إلى هذا اليوم قانون يعاقب على هذا الفعل .

وهذا المثل يحمل إلينا كثيرا من الدروس والفوائد التى أراد المسيح أن يقدمها للتلاميذ :

(١) فهو يعلمنا أنه توجد دائما قوة معادية فى العالم ، تحاول أن تفسد الزرع الجيد وتهلكه . واختبارنا فى الحياة يؤكد لنا إننا نواجه تأثيرات طيبة وتأثيرات ضارة فى حياتنا ، فنحن نواجه تأثيرات تفيد الكلمة لكى تثمر فينا وفى الوقت عينه نواجه مؤثرات تحاول أن تهلك الكلمة لكى لا تثمر فينا . لذلك يجب أن نكون على حذر كل أيام حياتنا .

(٢) والمثل يعلمنا أنه من الصعب التمييز بين الذين هم فى داخل الملكوت والذين ليسوا فى داخل الملكوت ، أى بين بنى الملكوت وبنى الشرير . فقد يبدو إنسان ما أنه صالح ، ولا يكون كذلك . وقد يبدو إنسان آخر أنه شرير ولا يكون كذلك . وإنه لمن الخطأ أن نقسم الناس إلى أشرار وصالحين دون أن نعرف كل الحقائق والمعلومات عنهم .

(٣) والمثل يعلمنا أن لا نتسرع فى أحكامنا على الناس ، فلو أن العبيد فعلوا ما أرادوا ، لقلعوا الزوان ، وفى أثناء هذه العملية لابد أن يقلعوا بعض الحنطة أيضا مع الزوان .

لذلك لابد للدينونة أن تنتظر حتى وقت الحصاد ، وعلى ذلك فإن الإنسان يحكم عليه فى النهاية ، ليس على أساس فعل واحد أو مرحلة واحدة من حياته ، بل على أساس حياته بجملتها . ولا يمكن أن يكون الحكم صحيحا إلا فى النهاية . فقد يرتكب إنسان ما خطأ فظيعا ، ولكنه بنعمة الله يحيا حياته الباقية فى ايمان وطاعة . وقد يحيا إنسان معظم حياته شريفا مكرما ، ولكنه فى نهاية حياته يحطم نفسه بالانغماس فى الخطية . إن من يرى جزءا واحدا من الأمر لا يمكن أن يحكم على الموضوع بجملته ، ولا يمكن لإنسان أن يدين إنسانا إذا كان يعرف بعضا من حياته فقط .

(٤) والمثل يعلمنا أن الدينونة ستكون فى النهاية بلا شك . إنها ليست عاجلة ، لكنها مؤكدة ، ففى النهاية سيكون هناك الفصل بين الحنطة والزوان . وقد يبدو للإنسان أن الخاطىء فى هذه الحياة لا يعانى نتائج خطاياه . لكن هناك حياة أخرى . وقد لا يرى البشر أن الصالح ينال جزاءه فى هذه الحياة ، لكن فى الحياة الأخرى ستتوازن الأمور ، وينال كل واحد جزاءه .

(٥) والمثل يعلمنا أن الذى له حق الحكم على الناس ودينونتهم هو الله وحده . إن الله وحده هو القادر أن يميز بين الصالح والشرير ، لأن الله وحده هو الذى يعرف الإنسان بجملته ، لأنه وحده عالم الخفايا وكاشف الأسرار .

فالمثل إذاً فيه تحذير لمن يدينون الآخرين ، وتحذير لنا بأن دينونة الله آتية فى النهاية لا ريب فى ذلك .

بداية صغيرة

(متى ١٣ : ٣١ و ٣٢)

قد لا تكون حبة الخردل هى أصغر جميع البذور فى كل النباتات ، لكنها كانت تستخدم فى التعبيرات الشرقية كنموذج للصغر . وقد كان اليهود يستخدمون التعبير « حبة خردل » عندما يصفون شيئا دقيقا صغيرا فكانوا يقولون « نقطة دم صغيرة كحبة خردل » — أو « كسر للشريعة فى نقطة دقيقة صغيرة كحبة الخردل » . وقد استخدم يسوع هذا التعبير حين تحدث عن الإيمان الصغير ولو كحبة خردل (متى ١٧ : ٢٠) .

وفى بلاد فلسطين كانت هذه الحبة الصغيرة تنمو حتى تصير شجرة ، يقول بعض من زاروا تلك البلاد ، إنها قد تصل إلى ارتفاع اثنى عشر قدما فى بعض الأحيان ، كما يذكر العلامة تومسون

فى كتابه « الأرض والكتاب » أن ليس فى المثل شيء من المبالغة على الإطلاق . ومن المعتاد أن يرى الناس هذه الشجرة محاطة بمجموعة كبيرة من الطيور لأن الطيور تحب الحبوب السمراء التى تنتجها الشجرة ، لذلك فهى تأتى لتتآوى فى أغصانها .

والنقطة البارزة فى هذا المثل هى أن ملكوت السموات يبدأ بداية صغيرة جداً ، ولكن لا يستطيع أحد أن يعرف كيف سينتهى .

وفى لغة الشرقيين ، كما فى العهد القديم أيضا ، كان يعبر عن الإمبراطورية العظيمة بصورة شجرة عظيمة ، وأن الأمم الخاضعة لها كالطيور التى تجد راحتها وحماها فى أغصانها . وفى نبوة حزقيال ، يتحدث عن فرعون مصر ويشبه عظمته بالأشجار العظيمة إذ يقول : « فلذلك ارتفعت قامته على جميع أشجار الحقل . وكثرت أغصانه ، وطالت فروعه لكثرة المياه إذ نبت وعششت فى أغصانه كل طيور السماء وتحت فروعه ولدت كل حيوان البر ، وسكن تحت ظله كل الأمم العظيمة » (حزقيال ٣١ : ٥ و ٦)

لذلك يبين لنا هذا المثل أن ملكوت السموات يبدأ فى أصغر صورة ، لكنه سينمو وفى النهاية ستجتمع فيه أمم كثيرة . وهذه هى حقيقة من حقائق التاريخ . إن أعظم الأشياء تبدأ أصغر البدايات .

(١) فالفكرة التى قد تحدث أكبر الأثر فى المدينة وتغير التاريخ قد تبدأ بفرد واحد . ففى الإمبراطورية البريطانية نادى وليم ولبرفورس بحركة تحرير العبيد ، وقد ولدت الفكرة فى ذهنه عندما كان يقرأ كتابا عن تجارة الرقيق كتبه توماس كلاركسون . وقد كانت هذه الفكرة التى نبتت فى ذهنه سببا فى تغيير مصير مئات الألوف من البشر . فالفكرة تحتاج إلى انسان تمتلك كيانه ، وعندئذ تصير نبعا يفيض على العالم كله بالخير .

(٢) والشهادة ينبغى أن تبدأ بفرد واحد . ذكر أحد الكتاب أن جماعة من المسيحيين من مختلف الدول جلسوا يتحدثون عن وسائل نشر الإنجيل فتحدثوا عن طرق الدعوة والكتب الدينية والنشرات وغير ذلك من وسائل نشر الرسالة المسيحية فى القرن العشرين .

ثم تحدثت فتاة من دولة أفريقية فقالت : « عندما نريد أن ندعو للإنجيل فى إحدى قرانا ، لا نرسل لهم كتبا أو نشرات ، لكننا نرسل لهم أسرة مسيحية لتعيش بينهم ، فتبين للناس معنى الحياة المسيحية » .

وهذا يصدق فى كل مجال ، سواء أكان فى مجتمع صغير كالمدرسة والمصنع والمحل التجارى والمكتب ، أم فى مجتمعات أكبر ، فإن الفرد المسيحى الذى يلتهب قلبه حبا للمسيح هو الذى يستطيع أن يلهب الآخرين .

(٣) والإصلاح يبدأ بفرد واحد . من بين الروايات الرائعة فى تاريخ الكنيسة ، قصة (تيلماخوس) الذى كان راهبا متعبدا فى الصحراء ، لكن شيئا فى داخله دعاه أن يذهب إلى روما . فذهب إلى روما ، وكانت مدينة مسيحية بالاسم . وفيها كان المصارعون يقتلون بعضهم بعضا فى حلبات المصارعة ، بينما الجمهور يهلل ويتهيج وهو يشاهد منظر الدماء . فذهب تيلماخوس إلى الحلبة

التي تدور فيها ألعاب المصارعة ، ورأى نحو ثمانين ألفا من الناس يشاهدون تلك المناظر المفزعة ، فدخل الفزع إلى نفسه من هول ما رأى ، وقال « أليس هؤلاء أبناء الله ، وهم يقتلون بعضهم بعضا » . ودفعته الغيرة أن ينزل إلى حلبة المصارعة ويقف بين المتصارعين ليمنع القتال ، ولكنهم دفعوه بعيدا فعاد ثانية . وعندئذ ثارت الجماهير وابتدأوا يرجمونه بالحجارة ، لكنه كان يجاهد بين المتصارعين ليمنع القتال . فصدر الأمر بقتله ، وفى لحظة أخرج أحد المشرفين على المصارعة سيفه وأرداه قتيلا . وإذ ذاك حدث صمت قاتل بين الجماهير ، التى بعد أن أفاقت رأت إنسانا صالحا وقد مات وهو يحمى الناس من القتال والموت . وكانت هذه آخر مرة تقام فيها حلبات المصارعة والقتال فى روما . إن تضحية ذلك الرجل ، أنقذت أمة كاملة من هذه الخطية .

فالإصلاح يبدأ بفرد واحد ، وقد يبدأه فى البيت أو فى عمله العادى اليومى ، لكننا لا نستطيع أن نعرف مدى تأثيره .

(٤) ولهذا المثل رسالة شخصية إلى التلاميذ ، الذين ربما يكون القلق قد عرف طريقه إلى نفوسهم ، إذ رأوا أنهم جماعة صغيرة والعالم متسع ، فكيف يمكن أن يغيروا العالم . لكن يسوع بهذا المثل كان يشجعهم ، فقد وضعت فى العالم بذرة الإصلاح بمجىء المسيح ، وعليهم أن يشهدوا ويخدموا كل واحد فى مجاله حتى تصير ممالك الأرض كلها للرب ولمسيحه .

قوة المسيح المغيرة

(متى ١٣ : ٣٣)

هذا الأصحاح يكشف لنا أن المصادر التى استقى منها يسوع أمثاله كانت مما يراه الناس ويعملونه فى الحياة اليومية ، لقد بدأ بالأمور المألوفة للناس لكى يقود أفكارهم إلى الحقائق التى لم تخطر على بالهم . فقد أخذ مثل الزارع من الحقول ، ومثل حبة الخردل من البستان ، ومثل الحنطة والزوان من المشكلة التى يواجهها كل مزارع من الحشائش الضارة فى زراعته ، ومثل الشبكة المطروحة فى البحر أخذه من عمل الصيادين فى البحيرة ، ومثل الكنز المخفى من أعمال الحفر التى كان يقوم بها الناس فى الحقول ، ومثل اللؤلؤة الغالية الثمن أخذه من عالم التجارة . وهنا فى مثل الخميرة ، نراه يقترب إلى البيت ويأخذ من أعمال النساء اليومية والأسبوعية هذا المثل .

فقد كان الناس فى فلسطين يصنعون الخبز فى البيوت . ولعل يسوع استقى هذا المثل مما كان يراه فى الناصرة ، عندما كانت مريم أمه تضع الخميرة فى ثلاثة أكيال دقيق ، استعدادا لعملية صناعة الخبز .

وقد كانت الخميرة فى تفكير اليهود تشير إلى التأثير السيىء ، لأن اليهود كانوا ينظرون إلى التخمر بحسبانه مرتبطا بالتعفن والفساد ، ولذلك كانت الخميرة تشير إلى الشر وقد قال يسوع « تحرزوا من خمير الفريسيين والصدوقيين » (متى ١٦ : ٦) وقال بولس « نقوا منكم الخميرة » (١ كورنثوس ٥ : ٧) — وكان من بين مراسيم إعداد وليمة الفصح تنقية البيت من أى أثر للخميرة .

وربما اختار يسوع الخميرة ليشبه بها الملكوت عن قصد ، لكي يثير انتباه الناس عندما يسمعونه يشبه الملكوت بشيء لم يتوقعوه . والفكرة الجوهرية فى المثل كامنة فى قوة الخميرة المغيرة للعجين والمؤثرة فيه . فإن الخميرة الصغيرة تؤثر فى كل الدقيق ، والخبز المصنوع دون خمير يصير جافا وغير سائغ المذاق .

وكما تغير الخميرة العجين وتؤثر فيه ، هكذا ملكوت السموات له قوة مغيرة فى الحياة . وعندما ندرس العهد الجديد نستطيع أن نرى بوضوح آثار ملكوت السموات فى حياة الناس :

(١) فالمسيحية تغير حياة الفرد . وفى رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (٦ : ٩ ، ١٠) يذكر بولس قائمة أعمال شريرة تقشعر منها النفوس حين يقول « لا زنا ، ولا عبدة أوثان ، ولا فاسقون ، ولا مأبونون ، ولا مضاجعو ذكور ، ولا سارقون ، ولا طماعون ، ولا سكيرون ، ولا شتامون ، ولا خاطفون يرثون ملكوت السموات .. ثم يضيف القول « هكذا كان أناس منكم . لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا » .

هذه هى قوة المسيحية المغيرة ، التى تجعل الإنسان منتصرا على التجربة لا فريسة لها .

(٢) والمسيحية تغير حياة المجتمع . وقد غيرت المسيحية المجتمع اليهودى والرومانى واليونانى من أربعة جوانب : —

(أ) لقد غيرت **النظرة إلى المرأة** ، فقد كان اليهودى يصلى كل صباح شاكرا الله أنه ليس أمميا أو عبدا أو امرأة . وكانت المرأة فى الحضارة اليونانية القديمة مجرد دمية للمتعة وأعمال البيت . وفى الشرق كان المسافرون يشهدون منظر الأسرة المسافرة ، والرجل يركب على دابته والمرأة على قدميها ، وربما تحمل حملا ثقيلا أيضا ، لكن المرأة فى المسيحية نالت كرامتها وشرفها وتقديرها .

(ب) والمسيحية غيرت **كيفية معاملة الضعفاء والمرضى** — ففى حياة الوثنيين كان المرضى والضعفاء يعتبرون من أسباب الضيق والنكد . وفى اسبرطة قديما كانوا يسلمون الطفل عند مولده لمن يكشف عليه ، فإذا كان صحيحا عاش ، وإذا كان ضعيفا أو مشوها أو ذا عاهة يقتلونه . والمسيحية غيرت كل هذه القيم ، فأول ملجأ للعجزة أنشأه راهب مسيحى اسمه ثالاسيوس ، وأول مستوصف مجانى أنشأه تاجر مسيحى هو أبولونيوس ، وأول مستشفى فى التاريخ أنشأتها امرأة مسيحية هى فابيولا . لقد كانت المسيحية أول ديانة تهتم بالأوانى الضعيفة المتكسرة فى حياة البشر .

(ج) والمسيحية غيرت النظر إلى **العجائز** — وقد ذكر كاتو الكتاب الرومانى ناصحا من يشترى مزرعة أن يبيع من مزرعته الزيت الزائد والخمر والحبوب الفائضة والعجائز من الحيوانات والعبيد . لقد كان الناس لا يقدرون الخدمة السابقة للعجائز ، أما المسيحية فقد رفعت شأن الفرد مهما كان عمره .

(د) والمسيحية **غيرت الاتجاه نحو الطفل** . ففى الوقت الذى جاءت فيه المسيحية ، كان الطلاق وتشريد الإطفال شائعا مألوفا . لكن المسيحية قيدت الطلاق ، وجعلت للطفل مكانة فى الأسرة .

إنه لمن أوضح الأمور أن المسيحية غيرت معالم المعاملات فى العالم ، وهذا أمر لا يقبل الجدل ، ولا ينكره أحد .

عمل الخميرة :

والفكرة الأخيرة فى هذا المثل تدور حول عمل الخميرة . ونحن نلاحظ فى عمل الخميرة أمرين يظهران كأنهما متناقضان :

(١) إن عمل الخميرة يتم فى هدوء دون أن نراه ، فنحن لا نستطيع أن نرى كيف تعمل الخميرة فى الدقيق ، كذلك لا نرى كيف يعمل الملكوت . وهذه رسالة تشجيع ، وتوصية بأن ننظر النظرة البعيدة ، لأننا وإن كنا لا نرى حسب الظاهر كيف يعمل الملكوت ، لكنه يعمل فى الداخل كالخميرة ، والملكوت يتقدم ولا شك . لقد أطلق يسوع المسيح وإنجيله قوة جديدة تعمل فى العالم ، بهدوء ولكن بثقة وبتأكيد ، والله يحقق مقاصده كل يوم .

(٢) وفى الوقت عينه يرى البعض أن عمل الخميرة ظاهر فى أثاره فى العجين . إن عمل الخميرة يراه كل الناس من تأثيره ، هكذا عمل الملكوت له أثاره العنيفة الظاهرة . ويوم دخلت المسيحية إلى تسالونيكى قيل عن المسيحيين إنهم فتنوا المسكونة (أعمال ١٧ : ٦) . فعمل المسيحية عنيف مزعج للخطية والشر ، ولقد صلب اليهود المسيح ، لأن تعاليمه أزعجتهم ، وهكذا يضطهد البعض المسيحيين للأسباب عينها . ذلك لأنه لا يوجد فى العالم أقوى تأثيرا وأكثر إزعاجا لخطايا البشر من المسيحية .

والواقع أن الأمرين لا يتعارضان أو يتناقضان ، فعمل الروح القدس خفى فى قلوب البشر ، والله يعمل دائما ، وإن كنا لا نرى أو ندرك كيفية عمله . ومرات يظهر أثر عمل الروح قويا كفيضان غامر ، ومرات يظهر فى هدوء كنهر عميق ينساب فى سكون وقوة ..

إن هذا المثل يعلمنا أن ملكوت الله يعمل غير منظور ، ولكن أثاره قد تظهر أحيانا فى بعض الأفراد وفى التاريخ بقوة بحيث يرى جميع الناس هذه الآثار .

كنز أثناء عملنا اليومى

(متى ١٣ : ٤٤)

قد يبدو هذا المثل غريبا أمام قراء العصر الحاضر ، الذين لا يجدون كنوزا مخفاة فى الأرض ، ولكن بالنسبة لعادات الناس فى ذلك الوقت ، وفى بلاد الشرق خاصة ، كان أمرا عاديا أن يكتنز الناس كنوزهم ويخبئوها فى باطن الأرض . فلم يكن هناك نظام المصارف التى يضع فيها الناس العاديون أموالهم ومقتنياتهم الثمينة وجواهرهم ، لذلك كانت الأرض هى أكثر الأماكن أمنا ، ليخبئوا فيها نفائسهم . وفى مثل الوزنات وضع العبد الكسلان وزنة سيده فى الأرض لئلا تضيع ، حتى يجىء سيده (متى ٢٥ : ٢٥) ، ومن أقوال الربيين اليهود « هناك مكان وحيد أمين لحفظ المال وهو الأرض » .

هذا فضلا عن أنه لكثرة الحروب والاضطرابات فى بلاد فلسطين ، كان يمكن أن تحدث معركة فى حقل أو حديقة أى إنسان من السكان . لذلك كان الناس يحرصون أن يضعوا الأشياء الثمينة فى باطن الأرض ، حتى يعودوا فى الوقت المناسب لأخذها ، ولا تقع فى يد أعدائهم . وقد ذكر المؤرخ اليهودى يوسيفوس هذه الحقيقة ، كما وصف الكاتب تومسون فى كتابه « الكتاب المقدس وأرض فلسطين » كيف أن بعض العمال وجدوا فى صيدا بعض الأوانى النحاسية مملوءة بالعملة الذهبية ومخبأة فى باطن الأرض .

وقد يتعجب الناس كيف أن يسوع أثنى على الرجل الذى أخفى الكنز ثم ذهب واشترى هذا الحقل ، مع أن هذا العمل فى مفاهيم العصر الحاضر يعتبر أمرا غير مشروع .

ولكن ينبغى أن نلاحظ ما سبق ذكره من أن المقصود من المثل ليس الإسهاب فى كل التفاصيل ، ولكنه يضع أمام السامعين فكرة واحدة لإظهارها بقوة ووضوح . وهذا المثل يبين الرجل عند اكتشاف الكنز ، واستعداده أن يضحى بكل ما عنده فى سبيل الحصول عليه . وكل باقى التفاصيل فى القصة ليست فى الموضوع ، ولا هدف لها إلا إكمال صورة القصة أو المثل .

هذا فضلا عن أنه على الرغم من وجود فلسطين تحت حكم الرومان فى ذلك الوقت ، فإن حياة الناس العادية وتقاليدهم والعرف الجارى كان يتبع التقاليد اليهودية . وفى شريعة الربيين اليهود كان من حق الرجل أن يحصل على الكنز مادام هو الذى وجده . فهى تذكر « أن ما يجده الإنسان من فاكهة أو نقود مبعثرة تكون من حق من يجدها » .

ونحن نجد فى المثل بعض الدروس النافعة :

١ ــ فالصورة التى يحملها إلينا المثل عن الرجل الذى وجد الكنز ، توحى إلينا أنه وجد أثناء العمل اليومى ، وليس فى مصادفة عابرة . حقا إنه لم يكن ينتظر وجود هذا الكنز ، ولكنه على أى حال وجده وهو يعمل عمله العادى ولابد أنه كان يعمل باجتهاد وبهمة حتى أنه حفر فى الأرض عميقا ، واصطدم بوجود هذا الكنز .

ولعله يكون من المؤسف أن نجد الله فقط فى الأماكن المقدسة والكنائس فقط ، ونشعر بقربه فى هذه الأماكن دون غيرها . إن الانسان يستطيع أن يجد الله ويشعر بقربه فى أماكن عمله اليومى . ولقد تواتر حديث عن المسيح ، لم يذكره الإنجيل فى أنه قال « ارفع الحجر وأنت تجدنى ، وشق الخشب ، وهناك تجدنى » . والمعنى فى هذا أن البنّاء وهو يشتغل بالحجارة ، والنجار وهو يشق الخشب ، يستطيع أن يجد يسوع المسيح فى عمله . والسعادة الحقيقية ، والرضى التام ، والإحساس بوجود الله يمكن أن تتوافر لنا حين نؤدى عملنا اليومى بأمانة وبضمير صالح . والمتصوف المسيحى الزاهد المعروف باسم الأخ لورانس أو القديس لورانس ، قضى أغلب وقته يعمل فى مطبخ الدير بين الأطباق غير النظيفة ، واستطاع أن يقول : « لقد شعرت بوجود المسيح قريبا منى وأنا فى المطبخ ، كما كنت أشعر بوجوده تماما وأنا أقدس الفريضة » .

٢ ــ والدرس الثانى هو أن دخول الملكوت يستحق كل تضحية ممكنة . وماذا يعنى دخول

الملكوت . ونحن نذكر أننا فى دراستنا للصلاة الربانية (متى ٦ : ١٠) وجدنا أن ملكوت الله هو حالة من المجتمع الإنسانى على الأرض تجرى فيها مشيئة الله فى الأرض كما فى السماء — كذلك يكون معنى دخول الملكوت أن نقبل وأن نعمل مشيئة الله . وبهذا المعنى يعلمنا المثل أن فعلنا مشيئة الله يساوى أكبر التضحيات فى حياتنا .

وقد يحدث فجأة فى حياتنا أن ينير الله عقولنا ونكتشف فى لحظة مشيئة الله من جهتنا ، كما اكتشف ذلك الرجل الكنز فى لحظة . ولكى نقبل مشيئة الله ونسير فى طريقها قد يقتضى الأمر بعض التضحيات ، كالتخلى عن بعض الأهداف والمطامع الغالية علينا ، وهجران وإبطال العادات وأساليب الحياة التى يصعب علينا أن نتركها ، وأن نقبل نوعا من النظام وإنكار النفس وضبطها ، أو بتعبير آخر ، قد يقتضى الأمر أن نحمل الصليب ونتبع المسيح .

والحق ليس طريق آخر لسلام الفكر وراحة القلب ، فى الحياة الأخرى . إن صنع مشيئة الله وقبولها ، يستحق فعلا أن نترك كل شىء ، لكى نسلك فى هذه المشيئة ، كذلك الرجل الذى باع كل ما كان له ، ليحصل على ذلك الكنز .

اللؤلؤة الثمينة

(متى ١٣ : ٤٥ و ٤٦)

كانت للآلى فى العصور القديمة مكانة خاصة فى قلوب الناس ، فقد كان الناس يشتاقون أن يقتنوا لؤلؤة بديعة ، لا لقيمتها المادية فحسب ، ولكن لجمالها وروعتها ، وقد كانوا يجدون سرورا فى النظر إليها والتأمل فى محاسنها ، إنهم اعتبروا ذلك تقديرا للجمال الرائع . وقد كان مصدر الحصول على اللآلى فى ذلك الوقت هو شواطىء البحر الأحمر ، وشواطىء الجزر البريطانية ، لكن كان على التاجر الذى يطلب لؤلؤة فائقة الجمال أن يجوب مختلف الأسواق ليجد ضالته المنشودة .

وإننا لنجد مجموعة من الحقائق الرائعة فى هذا المثل :

(١) فملكوت السموات مشبه هنا بلؤلؤة ، وقد كانت اللؤلؤة عند القدماء أجمل الأشياء وأثمنها وأكثرها إثارة للتأمل والإعجاب ، ومعنى هذا أن الملكوت هو أعظم شىء فى الوجود . والملكوت هو قبول مشيئة الله وفعلها . فليس عمل مشيئة الله أمرا يقبض النفس ، ويسبب الألم للإنسان ، بل إنه أمر جميل ومقبول ، فإن وراء النظام والتدقيق ، وراء التضحية وإنكار الذات ، ووراء الصليب نجد الجمال والسعادة التى لا نجدها فى مكان آخر . فهناك طريق واحد لسلام القلب ، وابتهاج الفكر ، وجمال الحياة ، وهو أن نقبل مشيئة الله ونفعلها .

(٢) ولعلنا نلاحظ من المثل أنه توجد لآلىء أخرى كثيرة ، ولكن توجد لؤلؤة واحدة غالية الثمن . فهناك أشياء جميلة وحسنة فى العالم ، يمكن أن يقدرها الإنسان ويقتنيها . فقد يجد اللذة والسرور فى المعرفة ، والمدركات ، كخدمة الآخرين ، والعلاقات الإنسانية — كل هذه أشياء جميلة ، لكن قيمتها وجمالها أقل من اللؤلؤة الواحدة الكثيرة الثمن ، فأعظم الكل هو قبول مشيئة

الله وطاعتها . وهذا لا يقلل من قدر باقى القيم ، فإنها أيضا لآلىء ، لكن اللؤلؤة الكبرى هى التى تجعلنا أحباء الله .

(٣) وفى المثل السابق كان الرجل يعمل فى حقله فوجد الكنز ، ولكننا هنا نرى التاجر يفتش عن اللآلىء . ولكن أيا كان الأمر سواء كان الاكتشاف قد تم بكيفية عارضة ، أو بعد بحث وتنقيب ، ففى كلتا الحالتين نجد النتيجة واحدة ، وهى أن الإنسان باع كل ما كان له ، ليشترى الشىء النفيس .

وهذا يصدق على التجاوب الذى ينتظره ربنا عند اكتشاف مشيئة الله ، سواء كان هذا الاكتشاف يتم عند لحظة استنارة ، أو بعد بحث واع طويل ، فإن الملكوت يستحق أن نضحى بكل شىء فى سبيل اقتنائه ، وقبول مشيئة الله دون تردد .

صيد السمك وفرزه

(متى ١٣ : ٤٧ — ٥٠)

من الطبيعى أن يستخدم المسيح فى أحاديثه بعض الأمثال من حياة الصيادين . فقد كانت هذه هى مهنة عدد كبير من تلاميذه ، وكأنه يقول لهم « انظروا فإن عملكم اليومى فى الصيد يحدثكم عن أمور السماء » .

وقد كان الصيد عن طريق الشبكة واحدا من أساليب الصيد ، وكان الصيادون بعدما يصعدون الشبكة يفرزون السمك الجيد ، وأحيانا يضعونه فى أوعية بها مياه ليبقى حيا طازجا ، ويطرحون السمك الردىء بعيدا . ومن هذا المثل نتعلم درسين :

(١) أن من طبيعة هذا النوع من الشباك أنها لا تختار ولا تميز بين أنواع السمك ، إنها تجذب أنواعا كثيرة من الحيوانات المائية . وربما انطبق هذا الوصف على الكنيسة وهى أداة الملكوت فى هذا العالم . فالكنيسة المنظورة لا تستطيع أن تميز وتكشف أعماق الناس ، ولذلك قد يكون فى الكنيسة خليط من الناس منهم الأبرار ومنهم الأشرار ، ومنهم المفيد ومنهم غير المفيد . وليس لنا أن نحكم أو ندين .

وهناك رأيان عن الكنيسة :

رأى يقول إن الكنيسة يجب أن تضم المكرسين تماما لربهم ، والذين يختلفون تماما عن أهل العالم . وهذا الرأى جذاب لأنه يصور الكنيسة فى صورة النقاوة والتكريس ... ولكننا نتساءل : من هم الذين يحكمون على الناس ، والمسيح يوصينا أن لا ندين أحدا ولا نحكم على أحد .

إن الإنسان ليس فى المقام الذى يجعله صالحا للحكم على الآخرين ، لأنه لا يعرف القلوب ، ولا يستطيع أن يقول إن هذا مكرس للمسيح وذاك ليس مكرسا .

والرأى الثانى يقول إن الكنيسة يجب أن تكون مفتوحة لتضم من يقبل دعوة الله ، وهى كالشبكة

لا ترفض من يأتى إليها . وما دامت الكنيسة فى الأرض وتحت ضعفاتها ، فلابد أن يكون فيها خليط من البشر . وهذا ما يعلمه لنا هذا المثل .

(٢) لكن المثل يعلمنا أن وقت الفرز سيأتى حتما ، وهو الوقت الذى سيذهب فيه كل من الأبرار والأشرار إلى نهايته المحتومة . هذا الفرز ، مع أنه مؤكد ليس من عمل الإنسان ، بل هو من عمل الله .

فواجبنا أن نجمع كل من يأتى ، ولا ندين أحدا ، ولا نفرز أحدا ، بل نترك الدينونة لله وحده ، فإن الله وحده هو القادر على الحكم والدينونة .

كنوز قديمة فى أسلوب جديد

(متى ١٣ : ٥١ و ٥٢)

عندما أتم السيد حديثه عن الملكوت سأل تلاميذه إذا كانوا قد فهموا . ولا شك أنهم فهموا ولو جزئيا ، وإذ ذاك تحدث يسوع إليهم عن الكاتب المتعلم فى ملكوت السموات ، الذى يخرج من كنزه جددا وعتقاء . ولعل ما كان يقصد يسوع أن يقوله لهم « لقد استطعتم أن تفهموا لأنكم أتيتم إلى ومعكم تراث خالد من تعاليم الناموس والأنبياء . وكل كاتب يأتى إلى ومعه حصيلة حياة من الدراسة للناموس والوصايا ، فان هذه الحصيلة تساعده على الفهم والمعرفة ، ولكن بعد أن تعلمتم منى ، حصلتم على معرفة جديدة لم تكونوا تعرفونها من قبل ، وحتى المعرفة القديمة التى كانت لكم للناموس والأنبياء قد استنارت واتخذت معانى جديدة » .

فالمسيح هنا لا يطلب من الإنسان الذى يأتى إليه أن ينسى ما كان يعرفه ، بل يريده أن يرى هذه المعرفة بنور جديد ، وهو نور تعليم المسيح ، وفى هذا النور يستخدم معرفته فى خدمة جديدة ، وعندما يفعل ذلك تصير معرفته السابقة كنزا أنفس وأبقى .

وكل إنسان يأتى إلى يسوع المسيح بمواهبه وقدراته ، لا يطلب منه يسوع أن يتخلى عن هذه القدرات . وبعض الناس يتصورون أن الذى يؤمن بالمسيح يجب أن يتخلى عن مواهبه وإمكانياته وخبراته ليركز جهده فيما يسمونه الأمور الدينية . وهذه غير صحيحة . فالعالم عندما يؤمن بالمسيح يستخدم علمه للمسيح ، ورجل الأعمال لا يترك أعماله بل يدير أعماله كما يليق بمسيحى . إن من يستطيع أن يغنى أو يمثل أو يرسم ، لا يترك فنه ، ولكنه يستخدم الفن فى سبيل نشر المبادىء السامية . والرياضى لا يترك الرياضة لأنه آمن بالمسيح ، بل يلعب كما يليق بمسيحى .

فالمسيح لم يأت ليجعل حياتنا خالية فقيرة ، بل جاء ليغنى حياتنا ويخصبها .

وهو هنا يوصى بألا يهجر الناس خبراتهم ، وقدراتهم ، وإمكانياتهم ، بل أن يستخدموها باهتمام أكثر وبقوة أوفر ، لأنهم يستخدمونها فى نور المعرفة الجديدة التى أعطاها لهم يسوع .

« إصغ يا شعبى إلى شريعتى . أميلوا آذانكم إلى كلام فمى ، أفتح بمثل فمى . أذيع ألغازاً منذ

القدم ، التى سمعناها وعرفناها وآباؤنا أخبرونا » (مزمور ٧٨ : ١ ــ ٣)

حاجز التعصب وعدم الإيمان

(متى ١٣ : ٥٣ ــ ٥٨)

كان من الطبيعى أن يزور يسوع الناصرة بعض الوقت ، فهناك نشأ ، وقد كان هذا عملا من أعمال الشجاعة ، لأن أصعب مكان يمكن أن يعظ فيه الواعظ هو الكنيسة التى كان فيها صبيا ، وأصعب مكان يمكن للطبيب أن يمارس فيه مهنته ، وهو المكان الذى رآه فيه الناس وهو صغير .

لكن يسوع ذهب إلى الناصرة . ولم يكن هناك شخص معين يمكن أن يعظ فى المجمع ، فكل زائر ممتاز كان يطلب منه رئيس المجمع أن يتكلم ، وكل من لديه رسالة كان يمكنه أن يقدمها . فلم يكن هناك داع أن يمنع يسوع من الكلام فى المجمع ، ولكنه عندما تكلم هناك ، واجه العداء والانتقاد ، فهم لا يريدون أن يسمعوا منه لأنهم يعرفون أباه وأمه وإخوته وأخواته . ولم يتصوروا أن واحدا ممن كانوا يعيشون بينهم يقدر أن يتكلم بالسلطان الذى كان يتكلم به يسوع . فليس للنبى كرامة فى وطنه ، وقد وقفت هذه الحقيقة حاجزا بين المسيح وبينهم ، حتى صار من المستحيل أن يؤثر المسيح فيهم .

وهنا نرى حقيقة هامة ، ففى أى خدمة من الخدمات ، يتوقف نجاح الخدمة ، لا على الخادم فقط ، بل أيضا على مقدار قلوب السامعين . فيمكن أن يكون الجو فى الاجتماع حائلا دون تأثير كلمة المتكلم مهما كانت قوتها ويمكن لأضعف كلمة أن تصير شعلة ملتهبة مؤثرة ، إذا كان هناك تجاوب من السامعين .

ويمكن أن نرى حقيقة ثانية ، وهى خطأ الحكم على شخص ما بأسرته أو علاقاته العائلية ، بل ليكن حكمنا على الإنسان الذى نراه كما هو .

لا تسل عن أصلى وفصلى أبدا

إنما أصل الفتى ما قد حصل

فما أكثر الرسائل التى قتلت وانعدم تأثيرها ، ولم يكن السبب فى الرسالة نفسها ، بل لأن السامعين كانوا متعصبين ضد صاحب الرسالة ، فلم تكن له فرصة أن يؤثر فيهم .

فعندما نجتمع لعبادة الله ، ولنسمع كلمة الله ، لنأت ونحن ننتظر بشغف أن نصغى . ولا نفكر فيمن يتكلم ، بل فى الروح القدس الذى يتكلم فيه .

الإصحاح الرابع عشر

مأساة قتل يوحنا المعمدان

(متى ١٤ : ١ — ١٢)

١ — يوحنا المعمدان :

نرى فى هذه الأعداد مأساة موت يوحنا المعمدان . وإذ يرويها لنا متى ، نرى شخصيات هذه المأساة واضحة محددة المعالم . ومن المناسب أن تتأمل فى هذه الشخصيات :

قد سبق ودرسنا شيئا (فى شرح متى ٣) — وبالنسبة لهيرودس فقد كان يكره يوحنا لسببين :

(١) أولهما أن يوحنا المعمدان كان محبوبا من الشعب حبا جما وكان له تأثير كبير على الناس . وفى كتابات يوسيفوس المؤرخ اليهودى المشهور نستطيع أن نرى وجهة نظر يوسيفوس فى قتل يوحنا المعمدان ويرويها فى كتابه (آثار اليهود Antiquition of the jews) (١٨ — ٥ — ٢) ويقول :

« كان الناس يأتون جماعات إليه ويتأثرون تأثرا بالغا بكلماته ، لذلك خشى هيرودس من التأثير الكبير الذى كان له على الناس ، كان يخاف لئلا يبسط سلطانه على الناس ، ويؤدى الأمر إلى ثورة ، لأنه كان يبدو أن الناس على استعداد أن يعملوا أى شيء ينصحهم به يوحنا ، لذلك فكر أن يقتله ، ليتقى أى خطر منه ، قبل أن يفوت الأوان ويفلت الزمام من يده . وعلى هذا الأساس وضعه فى سجن » .

هنا شكوك هيرودس وغيرته وخوفه ، جعلته يضع يوحنا فى السجن تمهيدا لقتله ، وشأنه فى ذلك كأى طاغية مذعور لا يجد كيفية للتخلص من غريمه سوى السجن والقتل .

(٢) السبب الثانى ، وهو الذى يورده لنا الإنجيل ، لا يختلف عن رأى يوسيفوس ، ولكن ينظر إلى الموضوع من زاوية أخرى . فإن هيرودس كره يوحنا وحقد عليه لأنه كان يوبخه ويصدمه بالحق فى غير خوف ولا وجل ..

فقد كان هيرودس متزوجا من أميرة ابنة ملك من ملوك العرب اسمه (أريتاس Aretas) — لكنه فى زيارة له لروما رأى امرأة أخيه غير الشقيق هيرودس فيلبس ، واسمها هيروديا وهى أخت الملك أغريباس ، واستطاع هيرودس هذا (واسمه هيرودس انتيباس) أن يغوى هيروديا أرملة أخيه ويخطفها من أخيه ويتزوجها ويأخذها معه هى وابنتها سالومى ، وطرد زوجته .

كان هذا العمل نذيرا بالدمار والخراب لهيرودس . فقد كسر القانون مرتين ، بطلاقه زوجته دون سبب ، وبزواجه من امرأة أخيه ، وهذا غير جائز فى شريعة اليهود .

وقد وبخه يوحنا وقال له إنه لا يحل له أن يأخذ امرأة أخيه ، ومن الخطر قول الحق للطغاة ، فقد كان فى تلك بداية لنهاية يوحنا المعمدان ، ومع ذلك فقد كان يوحنا شجاعا فى قول الحق مهما كانت النتيجة . والعالم مدين لمثل هؤلاء الشجعان الذين يوبخون الخطية مهما أصابهم بسبب

ذلك .

حينما كان « جون نوكس » يقف ضد الملكة مارى ، ملكة انكلترا ، سألته الملكة عما إذا كان يصح مقاومة سلطان الحكام فكان جوابه « ياسيدتى ، إذا كان الحكام والأمراء يتجاوزون حدودهم فيمكن مقاومتهم ، بل خلعهم أيضا » .

٢ ــ هيروديا :

وهى أصلا امرأة هيرودس فيلبس الأخ غير الشقيق لهيرودس انتيباس (وهو غير فيلبس الحاكم) . وقد كان زواجها من هيرودس مصدرا لخرابه ونهايته . ونحن نرى لهيروديا ذنبا مثلثا . فقد كانت امرأة ذات أخلاق منحلة وتفتقر إلى الإخلاص . وقد كانت امرأة حقود يملأ قلبها حب الانتقام ، وتربى الحقد فى قلبها ليزداد مع حب الانتقام حتى وهى تعلم أنها مخطئة . وربما كان أشر كل ذنوبها أنها لم تتورع أن تستخدم ابنتها لتحقيق نزعاتها الانتقامية . إنه لشر أن تبحث عن وسائل للانتقام من رجل الله الذى واجهها بعارها وذنبها ، لكنه أشر أن تستخدم ابنتها لهذه الأغراض الدنيئة ، فتوقع ابنتها فى الشر . إنه لمن الصعب أن نجد تعبيرا يكفى لوصف الآباء الذين يلطخون أبنائهم بالشر فى سبيل تحقيق أغراض ذاتية شريرة لأنفسهم .

٣ ــ ابنة هيروديا : سالومى :

وغالباً كانت سالومى حديثة السن لا تتعدى السابعة عشرة من عمرها فى ذلك الوقت . ومهما يكن من أمرها وما آلت إليه شخصيتها فيما بعد ، فقد كانت ضحية أمها وشرها . على أنه لابد أنه كان ينقصها الحياء لأنها ، وهى فى حكم الأميرة ، رضيت أن ترقص أمام الحاضرين فى الاحتفال بمولد هيرودس . ولم يكن هذا أمرا مقبولا بالنسبة للأميرات . ولم تفكر هيروديا أن توقف ابنتها عن هذا العمل ، مادامت تستطيع أن تحقق رغبتها فى الانتقام من الرجل الذى وبخ شرها وفسادها .

٤ ــ هيرودس :

وقد سمى « رئيس الربع » وهو تعبير شائع عن الحكام الذين كانوا يحكمون جزءا من بلد . وهو ابن هيرودس الكبير . وقد كان لأبيه أولاد كثيرون من زوجات كثيرات . وعندما مات قسم مملكته إلى ثلاثة أجزاء أسند كل جزء منها إلى واحد من أولاده بموافقة روما . فأعطى لأرخيلاوس اليهودية والسامرة ، وأعطى لفيلبس الجزء الشمالى (تراكونيتس وانوريه) ، وترك لهيرودس انتيباس ، وموضوع حديثنا ــ الجليل وبيرية . ولم يكن هيرودس فى البداية ملكا شريرا ، ولكنه سار شيئا فشيئاً فى الطريق إلى الإنهيار .

(١) لقد كان لهيرودس ضمير يشعر بالذنب ، فحينما صار يسوع معروفا وذاعت أخباره ، تبادر إلى ذهن هيرودس أن يوحنا المعمدان قام من الموت وعاد إلى الحياة مرة ثانية ، وهذا وخز من ضميره الذى يشعر بالذنب .

وقد فسر أوريجانوس ، وهو أحد آباء الكنيسة ، هذه الحقيقة بتفسير يستحق التأمل . فهو يذكر

أن مريم أم يسوع ، كانت على صلة القرابة باليصابات أم يوحنا المعمدان ، ولذلك كانت بين يوحنا المعمدان ويسوع صلة قرابة بالدم ، ويحتمل أن تكون ملامح يوحنا المعمدان قريبة جدا من ملامح يسوع ، وهذا جعل ضمير هيرودس يصور له أن يسوع هو يوحنا المعمدان وقد عاد إلى الحياة .

ولعل هذا كان دليلا على أن الإنسان لا يستطيع أن يتخلص من خطيته بابعاد من يذكره بها ويوبخه عليها ويواجهه بها . فهناك شيء اسمه الضمير ، وهو يواجهنا بخطيتنا ويضع أمامنا عريضة الاتهام ، حتى لو أبعدنا كل صوت بشرى يواجهنا بخطايانا .

(ب) وهيرودس فى تصرفاته نموذج للشخص الضعيف ، فإنه اهتم بأن يحافظ على قسم سخيف نطق به ، ولم يحافظ على شريعة الحياة المقدسة . لقد وعد سالومى أنه يعطيها ما تطلبه مهما كان ، غير متصور ماذا كان فى نيتها . ولقد عرف أنه لكى يبر بوعده ، فإنه سيتحتم عليه أن يكسر ناموسا أعظم من مجرد القسم ، ومع ذلك أصر أن يفى بقسمه لأنه كان أضعف من أن يعترف بخطئه . لقد خاف من ثورة غضب امرأة أكثر من خوفه من كسر الناموس الخلقى . لقد فزع من انتقاد ضيوفه له أكثر من خوفه من صوت ضميره . لقد وقف موقف الحزم فى الإصرار على الخطأ ، بينما كان يعلم ما هو الصواب ، وهذا الموقف دليل على الضعف الشديد ، وليس دليلا على القوة .

(ج) لقد ذكرنا أن ما عمله هيرودس فى هذه الحادثة كان بداية انهياره ، وهكذا كان .

فإن زواجه من هيروديا ، وطلاقه لزوجته الأولى جعل أريتاس والد زوجته الأولى ، يشعر بالمرارة ضده ، ويعتبر هذا العمل إهانة له ، ولابنته ، فقام بحرب ضد هيرودس وهزمه ، لولا ، أنه استنجد بقوات الرومان . ويقول يوسيفوس فى تاريخه « إن بعض اليهود اعتقدوا أن هزيمة جيش هيرودس كان عقابا له من الله لما فعله بيوحنا الملقب بالمعمدان » . وقد كان هذا صحيحا .

ولقد كان ارتباط هيرودس بهيروديا من البداية مصدرا لمتاعبه . وبعد مضى سنوات جلس الإمبراطور كاليغولا على عرش الدولة الرومانية ، وكان فيلبس حاكم المنطقة الشمالية قد مات ، فأعطى كاليغولا منطقته لأحد أفراد أسرة هيرودس وهو أغريباس ، ثم أعطاه لقب « ملك » . وقد أثار هذا حسد هيروديا وغيرتها ، وظلت تدفع زوجها هيرودس أن يذهب إلى روما ويطلب من الإمبراطور كاليغولا أن يعطيه لقب « ملك » ، لأنها كانت تطمع أن تكون ملكة . وظلت تلح عليه أن يبذل كل ما فى وسعه ، وأن يدفع ما يمكنه دفعه من النقود ، ليطلب الملك . لكن هيرودس كان كسولا ، ولا يرغب فى الذهاب لروما ، وربما خشى من نتائج ذهابه إلى هناك . لكن الحاح المرأة أرغمه فى النهاية على السفر . ولما علم أغريباس الملك أنه سيسافر أرسل رسلا ليسبقوه ويشتكوه للإمبراطور ، ويتهموه بأنه يفكر فى الثورة والعصيان ضد روما ، وصدق الإمبراطور اتهامات أغريباس لهيرودس ، فأخذ المنطقة التى كان يحكمها هيرودس ، وجميع نقوده ، وأعطاها لأغريباس ، وعزل هيرودس ونفاه بعيدا حتى مات . وهكذا فقد هيرودس مركزه وثروته وحريته . وعاش بقية أيام حياته منفيا .

وهنا فقط أظهرت هيروديا لمحة من عظمتها ، فقد عرض عليها الإمبراطور كاليغولا أن يرد إليها

ثروتها إكراما لأغريباس أخيها ، ولا يشترط عليها الذهاب إلى المنفى مع زوجها ، لكنها شكرته ، وقالت له إنها تفضل أن تكون بجوار الرجل الذى أحبته فى محنته .

ولعل قصة هيرودس أصدق دليل وأسطع برهان على أن الخطية تحمل عقابها معها ... لقد كان اليوم الذى أغوى فيه هيرودس يوم شؤم عليه .. فقد جره هذا إلى قتل يوحنا المعمدان ، وقاده إلى الخراب والدمار ، ففقد كل شىء ، ما عدا المرأة التى أحبته ، وكانت سببا فى مصائبه .

الشفقة والقدرة فى إشباع الآلاف

(متى ١٤ : ١٣ — ٢١)

كان الجليل مكانا يصعب فيه على المرء أن يجد فرصة للاختلاء والعزلة . فالجليل نفسه مساحة صغيرة تبلغ نحو خمسين ميلا من الشمال إلى الجنوب ، وخمسة وعشرين ميلا من الشرق الى الغرب ، ويذكر يوسيفوس انه فى هذه المساحة الصغيرة كانت توجد نحو ٢٠٤ مدينة وقرية يسكنها أكثر من خمسة عشر ألفا من السكان . فمن كثرة ازدحام البلاد كان يصعب الابتعاد عن الناس فترة من الوقت . ولكن فى الجانب الثانى من البحيرة ، كانت هناك فرصة للهدوء ، وقد كانت البحيرة فى أكثر المناطق اتساعا لا يزيد عرضها على ثمانية أميال ، وبما أن أغلب تلاميذ يسوع كانوا من الصيادين لذلك لم يصعب أن يجد يسوع سفينة تنقله إلى الجانب الآخر من البحيرة .

وهذا ما فعله يسوع عندما سمع خبر موت يوحنا المعمدان . وقد كانت هناك أسباب طبيعية ومعقولة تدفع يسوع إلى طلب الاختلاء وحده . ففى طبيعته البشرية كان يحتاج إلى الراحة ، وكان يحرص على أن يختلى بعيدا لكى لا يكون نصيبه مثل نصيب يوحنا المعمدان ، فلم يدفع بنفسه إلى الخطر ، لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد ، وفوق الكل ، فقد كان الصليب قريبا ، وكان يسوع يفضل أن يقضى ساعات فى الاختلاء مع الآب . كان الاختلاء بالنسبة ليسوع راحة لجسده وقوة لروحه .

لكن الجموع ، وقد رأت السفينة فى البحيرة ، سارت لتلاقى يسوع ، ففاض قلبه بالحنان وشفاهم ، ثم أطعمهم حين حل المساء ، قبل أن يأخذوا طريق العودة الطويل إلى بيوتهم .

وهذه المعجزة بالذات تكشف لنا بعض الحقائق الرائعة : —

(أ) فهى تبين لنا حنان يسوع وشفقته . وعندما رأى يسوع الجموع فاض الحنان من أعماقه . ومع أن يسوع كان قد جاء يطلب الاختلاء والهدوء ، لكنه أمام ازدحام الجماهير التى تطلبه ، لم يتضايق وينظر إليهم كمصدر للأزعاج ، ولم يتضرر لأنهم اقتحموا عليه خلوته ... لكنه امتلأ بالحنان ، وهذا أمر رائع حقا .

إن رسالة المسيحية الخالدة للعالم غير المسيحى هى أن « الله يهتم » .. وعلى المسيحيين أن يعلنوا هذه الحقيقة ، لا بكلامهم فقط ، ولكن بسلوكهم وقلبهم المتسع ، وصدرهم المفتوح للآخرين على الدوام .

(٢) وفى هذه المعجزة نرى يسوع يشهد أن كل العطايا هى من الله . لقد أخذ الطعام وشكر .

وقد كانت صلاة اليهود على الطعام صلاة بسيطة لكنها معبرة ، اذ كانوا يقولون :

« مبارك أنت أيها الرب الاله ، ملك الكون ، يا من تخرج لنا الخبز من الأرض » — ولعل هذه هي الصلاة التي تشكر بها المسيح ، وفيها شهادة أن كل العطايا من الله . وما أحوجنا دائما إلى هذه الشهادة ، وهذا الشكر .

(٣) وهذه المعجزة توضح لنا في جلاء دور التلميذ في عمل المسيح . ففي المعجزة أعطى المسيح لتلاميذه ، وقدموا هم بدورهم الى الجموع . لقد كان يسوع يعمل عن طريق أيدي التلاميذ ، ولا يزال يفعل هكذا . وهذه هي الحقيقة الهامة في قلب الكنيسة . إن التلميذ عاجز بدون سيده ، ولكن في الوقت عينه يحتاج السيد الى التلميذ ليجرى معجزاته . فاذا كان يسوع يطلب عملا ما أن يجرى كأن يريد تعليم طفل ، أو اغاثة مكروب ، فانه يحتاج الى شخص ليعمل هذه الأعمال ، ويحتاج الى أشخاص يمكنه عن طريقهم أن يعلن محبته وحقه الى الآخرين ... وبهؤلاء الأشخاص يستطيع يسوع أن يعمل ... فمن واجبنا نحن أن نكون كذلك .

وحتى لا نفشل بسبب ضعفنا وعجزنا ، لنستمع الى يسوع يطلب من التلاميذ أن يعطوا الجموع ليأكلوا ، وترى جواب التلاميذ أنه ليس لديهم الا خمسة أرغفة وسمكتان .. لكنه طلب منهم أن يحضروا ما معهم . وبهذا القليل أجرى معجزته ، انه لا يريد منا أكثر مما لنا وما في قدرتنا ، لكنه يستطيع أن يعمل العجائب — فالقليل في يد يسوع كثير .

(٤) وفي نهاية اجراء المعجزة نرى ملاحظة عابرة ، لكن دلالتها عميقة . فقد جمعوا الكسر أي الفضلات الباقية ، فان القدرة المعجزة لاشباع الناس ، ليس معناها تبديد ما يفضل عنا . ان الله يعطينا بركات وافرة ، وعلينا أن لا نسرف في انفاقها ، فان وجود الله لا ينبغي أن يشجعنا على الاسراف . بل ينبغي أن يرتبط عطاء الله السخي ، بحكمتنا في استخدام هذا السخاء .

ويقول ان هناك من يرون في هذه المعجزات اجراء فريضة مشابهة للعشاء الرباني ، وفيها يعبر القدر اليسير من الخبز على قوة الله التي تعين البشر في رحلتهم الطويلة ، فتشبع حياتهم . فهم قد شبعوا روحيا حتى وان كانوا قد تناولوا قطعة صغيرة من الخبز . لكن هذا التفسير يصطدم بالبقايا من الكسر التي بلغت اثنتي عشرة قفة ، مما يتعارض مع فكرة الشبع الروحي من الخمس خبزات دون زيادة كمية الخبز .

ويعتقد بعض الشراح أن الناس الذين تبعوا يسوع ، كان معهم أو مع بعضهم على الأقل كميات من الطعام ، لكنهم كانوا أنانيين ويخافون أن يكشفوا عما معهم من الخبز لئلا يضطروا أن يشاركوا الاخرين فيه بين هذا الجمع الكبير ، ولكن عندما أخذ يسوع الخبزات القليلة والسمكتين ، وصلى شاكرا ، ورضى أن يوزع هذه الكمية القليلة من الطعام على هذه الالاف ، عندئذ حدثت معجزة روحية في نفوس الناس ، إذ انتصروا على أنانيتهم ، وابتدأوا يشاركون الآخرين فيما كان معهم من الطعام ، وهكذا شبع الجميع .. من ثم تكون المعجزة قد حدثت فعلا في قلوب الناس اذ حولت أنانيتهم الى تضحيه وحب ومشاركة ، وهو ما يعمله المسيح كل يوم في قلوب البشر اذ يرسل روحه

إلى قلوبهم . (*)

نظرة الى المعجزة :

تعددت الآراء بشأن تفسير هذه المعجزة ، وأورد بعض الشراح تفاسير متنوعة لها . وقد ذكر العلامة « وليم باركلي » كاتب هذا التفسير أن هناك من يقرأ معجزات المسيح ويقبل ما فيها من الحقائق ببساطة دون محاولة إجهاد الفكر فى تفسيرها ، وينصح هؤلاء بالاستمرار فى بساطة إيمانهم الحلوة ، لكنه يورد وجهة نظر آخرين ممن يفكرون ويحاولون تفسير المعجزات ، لا على اعتبار أنها أمر قد حدث وانتهى ، لكن باعتبار أنها تمثل عملا مستمرا ممكنا ، وإعلانا لقوة الله العاملة فى يسوع المسيح .

فى ساعة الضيق

(متى ١٤ : ٢٢ ــ ٢٧)

بعد إشباع الجموع طلب يسوع من تلاميذه أن يسبقوه إلى العبر حتى يصرف الجموع . ويصف متى هذا الطلب أنه « ألزمهم » . وقد يبدو هذا التعبير غريبا ، وقد تساءل كثيرون عن سبب هذا الإلزام ، فقال البعض إن التلاميذ لم يجسروا أن يركبوا البحر بدون المسيح ، وقال آخرون انهم لم يريدوا أن يتركوا يسوع وحده .. لكن هذه الأسباب ليست قوية ، لأن التلاميذ تعودوا أن يركبوا البحر وحدهم وغالبيتهم كانوا من الصيادين ، كما أن يسوع مع الجموع لم يكن فى خطر ، بل كانت الجموع تحبه وتكرمه . لكننا إذا قرأنا رواية يوحنا بعد معجزة إشباع الآلاف ، نرى أن الجموع أرادوا أن يختطفوه ويجعلوه ملكا (يوحنا ٦ : ١٥) ... وهذه المشاعر الملتهبة من الجماهير كان يمكن أن تكون بداية ثورة فى فلسطين ، وكان من الخطر تشجيع هذه المشاعر . وربما كان وجود التلاميذ يزيد هذه المشاعر لأنهم كانوا ينتظرون هذه الفرصة ليتمجد فيها معلمهم ، وينالون هم رغبة نفوسهم من مظهر ومركز . لكن يسوع الذى رفض كل سلطان عالمى عندما جربه إبليس ، لم يقبل هذه الفكرة ، وصرف تلاميذه بالإلزام ليعالج الموقف وحده مع الجماهير .

وبعدما صرف الجموع ، ذهب إلى الجبل منفردا وكان يصلى ، ونحن لا نريد أن نقتحم على

(*) على اننا نرى أن يسوع الذى يقدر أن يغير القلوب ، يستطيع أيضا لمجده أن يبارك الخبزات القليلة ، فتزداد لتشبع الآلاف جسديا ، كما يشبعهم روحيا . ويسوع أعظم من الأنبياء ، واذا كان اليشع استطاع أن يطعم مئة رجل من عشرين رغيفا من الشعير (٢ ملوك ٤ : ٤٣ و ٤٤) فان رب اليشع قادر أن يطعم الآلاف من خمسة أرغفة وسمكتين . والذى كان قادرا ــ لو أراد ــ أن يقول كلمة للحجارة لتصير خبزا ، يقدر أن يبارك القليل ليصير كثيرا . والذى يقدر أن يحول الماء فى التربة الى عنب وعناقيد وكروم ، يستطيع أن يحول الماء الى خمر .. والذى يستطيع أن يجعل الحبة الصغيرة تصير مليئة بالقمح ، يستطيع أن يبارك الخمسة أرغفة لتشبع خمسة آلاف . وعندما نقرأ رواية يوحنا البشير لهذه المعجزة (يوحنا ٦ : ٥ ــ ١٥) ندرك أنها كانت آية فعلية فى نظر الناس ، اذ لما رأى الناس الآية التى صنعها يسوع قالوا أن هذا هو بالحقيقة النبى الآتى الى العالم ، وأرادوا أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا . وقد قال لهم يسوع « الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبوننى ليس لأنكم رأيتم آيات ، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم » (يوحنا ٦ : ٢٦) . فمجدا لله ولربنا يسوع المسيح . القادر على كل شيء . (المترجم)

يسوع خلوته لنعرف موضوع صلاته الانفرادية ، ولكننا نظن أنه كان يصلى طالبا قوة أعظم لاحتمال آلام الخدمة ... ولأجل الجموع الذين كانوا يفكرون فى الخبز الأرضى أكثر من الحاجات الروحية ... بل لأجل التلاميذ أنفسهم الذين على الرغم من قضاء وقت طويل مع سيدهم ، ما فتئوا يفكرون فى أمجاد الأرض ... ولقد صلى يسوع طويلا إلى ما بعد منتصف الليل .

أما التلاميذ فكانوا فى السفينة ، وهاج عليهم البحر فى عاصفة من العواصف المفاجئة التى كانت تحدث أحيانا فى البحيرة .

وتعذب التلاميذ ، وتمنوا لو كان يسوع معهم ليسكن البحر ... لكن يسوع انتظر إلى الهزيع الرابع . وقد كان الليل يقسم إلى أربعة أقسام : الهزيع الأول من السادسة إلى التاسعة مساء . والهزيع الثانى من التاسعة إلى الثانية عشرة . والهزيع الثالث من منتصف الليل إلى الثالثة صباحا . والهزيع الرابع من الثالثة إلى السادسة صباحا .

وقد انتظر يسوع إلى الهزيع الرابع ، ليقوى إيمانهم وصبرهم وانتظارهم لكنه فى النهاية ظهر لهم . ويصف متى ظهوره بأنه كان « ماشيا على البحر » ويكرر الوصف مرتين ... وقد حاول البعض تأويل التعبير المذكور هنا ، ليجعلوه يصف يسوع ماشيا نحو البحر ، أو نازلا من الجبل نحو البحر ، لكن القصة الواضحة هنا تؤكد أن يسوع أتى بكيفية معجزية ماشيا على الماء ، بدليل خوف التلاميذ لظنهم أنه خيال ، وبدليل طلب بطرس من المسيح أن يأمره أن يأتى إليه ماشيا على الماء .

لقد أتى يسوع بطريقة لم يتوقعها أحد ، ولا حتى التلاميذ .. إنه يسوع ، فهم يعرفون هيئته ومشيته ، لكن كيف يمشى على الماء ، وكذلك ظنوه خيالا فخافوا وصرخوا لولا صوته الذى أعاد إليهم الطمأنينة بقوله « تشجعوا أنا هو . لا تخافوا » .

لقد جاء يسوع على غير انتظار لينقذ تلاميذه فى ساعة الضيق ..

حين كانت الريح مضادة ، والخطر محدقا ، أتى ليعطى السلام والأمان ... وهذا شأن يسوع دائما .

وقد تصور البعض أن جسد يسوع كان يختلف عن أجساد البشر ، لذلك سار على الماء ، لكن الكتاب يؤكد لنا أن جسد يسوع كان كسائر أجساد البشر ، بلا خطية . وقد أكل وشرب وتألم وتعب .. لكن السير على الماء كان قدرة معجزية ... وإذا كان اليشع بقوة الله استطاع أن يجعل الحديد يطفو على الماء ، أفلا يستطيع يسوع أن يسير على الماء ؟

إن هذه القصة تؤكد لنا أن يسوع يأتى إلى أولاده فى ساعة الضيق ، والألم والخوف ... وقد يأتى فى الهزيع الأخير ...

التعثر والنجاة

(متى ١٤ : ٢٨ — ٣٣)

عندما سمع بطرس صوت يسوع يقول « أنا هو » ، قال له « إن كنت أنت هو فمرنى أن آتى

إليك على الماء » . وهذا كان أسلوب بطرس دائما أمام الأحداث ، إنه متسرع لكنه طيب القلب ... رأى يسوع ماشيا على الماء فأراد أن يمشى هو أيضا على الماء ... لكن يسوع وهو يعلم حسن نية بطرس من أنه لا يجربه ، كالفريسيين الذين كانوا يريدون آية ولم يعطهم يسوع آية ، لذلك قال له « تعال » فنزل بطرس ، وسار على الماء ، وهو ينظر إلى المسيح ، لكنه عندما نظر حواليه ليرى الأمواج ، ونظر تحته فوجد الماء ، ابتدأ يغرق ...

إن مخاوفنا وشكوكنا الداخلية هى علة الخطر علينا ، والإيمان هو طريقنا إلى القوة والنجاة . ولما صرخ ، مد يسوع يده وأمسك به .

هذه القصة تصور لنا شخصية بطرس أفضل تصوير ، فهو يتصرف بوحى الساعة الوقتى دون تفكير أو تأمل ، دون أن يحسب حساب النفقة .... وقد كان كذلك عندما أكد للمسيح ولاءة الدائم التام ، وأنه إن شك فيه الجميع فهو لا يشك ، وأنه يتبعه حتى الموت ... لكنه كان أول من أنكر يسوع ... لكن قلب بطرس كان طيبا ومحبا ، لذلك كان موضوع عطف المسيح .

ويسوع يريدنا دائما أن نفكر ونحسب حساب النفقة قبل الإقدام على أمر ، فالتهور مدعاة إلى الأسف والأسى .. والمسيح يبصرنا دائما بعواقب الأمور ، ويرينا أن طريق المسيحية ليس سهلا .

لكن عزاءنا أن بطرس لم يغرق ، فقد امتدت يد المسيح تمسكه . والقديس ليس هو الشخص الذى لا يسقط أبدا ، لكنه الشخص الذى يسقط ويقاوم . ولقد كانت نقاط الضعف التى فى بطرس ، ومعالجة المسيح له فى كل أمر ، سببا فى زيادة محبة بطرس ليسوع .

ونختم هذه الآيات بحقيقة معبرة ، وهى إنه عند دخول يسوع السفينة ، سكنت الريح ، وهذه حقيقة صادقة على الدوام . فحيثما يوجد يسوع . تصير العواصف هادئة ... لأن المحبة النابعة من صليب الجلجثة قادرة أن تجلب الهدوء والسلام .

خدمة المسيح

(متى ١٤ : ٣٤ ــ ٣٦)

هذه الآيات تحمل إلينا صورة عامة عن خدمة المسيح . ومع أنها لا تروى لنا عملا محددا لكنها مليئة بالدروس النافعة .

(١) فإن ناحية الجمال فى هذه العبارات ، أن الجماهير كانت تسعى إلى المسيح حيثما سمعت أنه موجود ، وقد كان يسوع يسرع إلى معونتهم ، ولم يرفضهم أبدا . لقد شفاهم جميعا .

ونحن لا نقرأ هنا أنه وعظهم أو حدثهم ، لكننا نقرأ أنه شفاهم . لقد كان يسوع يعلم الناس كيف يكون الله ، بكيفية عملية . إنه لم يكتف بأن يحدث الناس عن عناية الله ، لكنه بين لهم بأعماله عناية الله . ولا فائدة من حديث عن المحبة إذا لم يكن مقترنا بأعمال المحبة .

(٢) لكن فى هذه العبارات ناحية نستنتجها تدعو إلى الأسف . إن الناس كانوا يأتون إلى

المسيح بالألوف بسبب ما يمكن أن ينالوه منه ، وعندما ينالون أغراضهم ، ما كانوا يسيرون أبعد من ذلك .

وهكذا نرى الناس يريدون امتيازات المسيحية ، دون أن يتحملوا مسئولياتها ..

ونرى أننا كثيرا ما نلجأ إلى الله عندما نكون فى حاجة إليه فقط .

إن عدم العرفان بالجميل هو أسوأ خطية . ولا توجد خطية توقفنا موقف الخزى والخجل أمام الله وأمام المسيح ، مثل هذه الخطية .

الأصحاح الخامس عشر

وصايا الناس ووصايا الله

(متى ١٥ : ١ ـــ ٩)

تعتبر هذه الفقرة على الرغم من غموض بعض عباراتها من أهم الفقرات فى رواية الإنجيل ، لأنها تمثل لنا خلافا على مستوى القمة بين قادة اليهود الدينيين ، وبين السيد المسيح . والعبارة الأولى فى هذه الرواية تبين أن جماعة من الكتبة والفريسيين تحملوا مشاق السفر من أورشليم إلى الجليل خصيصا لكى يوجهوا هذه الإسئلة إلى يسوع .

وفى هذه المرة لم تكن أسئلتهم خبيثة ، لم يكن الهدف من أسئلتهم أن يجربوا يسوع ويصطادوه بكلمة ، كما كان بعضهم يفعل فى بعض الأحيان ، لقد كانوا متحيرين فعلا ، وقادتهم الحيرة إلى أن يدهشوا ويغضبوا ويصدموا .. ذلك لأنه فى هذه الفقرة لا نرى صداما بين الفريسيين ويسوع بسبب مسائل شخصية ، ولكن الصدام كان على مبادىء أساسية فى أسلوب التدين والعبادة .. كان فى أمر خلاف بين وجهتى نظر فى الديانة ، وبين رأيين فى مطالب الله . وهما النظرة الحرفية والطقسية ، والنظرة الروحية .

ولم يمكن أبدا التوفيق بين الرأيين ، ولا يمكن أن توجد فرصة للتقارب بين هاتين الوجهتين ، فلا بد أن تتغلب إحداهما على الأخرى أو تذوى وتزول .

ولكى نستطيع أن نفهم هذا الكلام فهما جيدا ، لابد لنا أن ندرس شيئا عن التفكير اليهودى والفريسى من هذه الناحية ، حسب شريعة الكتبة .

الطهارة والنجاسة :

نلتقى مع فكرة الطهارة والنجاسة فى شريعة اليهود . وقواعد الطهارة فى الشريعة لا تمت بصلة قريبة إلى النظافة أو الصحة ، فإنها قواعد طقسية . فالطاهر طقسيا يكون فى حالة تؤهله أن يعبد الله ويقترب إليه . والشخص النجس لا يستطيع حسب الشريعة أن يعبد الله أو يقترب إليه . وقد ارتبطت فكرة النجاسة بلمس بعض الأشياء أو الأشخاص ، أو بتناول أنواع خاصة من الطعام .

فمثلا كانت المرأة نازفة الدم تعتبر نجسة ، وكذلك المرأة تكون نجسة بعد أن تلد بوقت محدد . وكان كل ميت يعتبر نجسا ، وكل من يلمس ميتا يصير نجسا ، وكل أممى وثنى يعتبر نجسا .

وكانت النجاسة فى الشريعة اليهودية أمرا ينتقل من شخص لآخر . فمثلا إذا لمس فأر إناء خزفيا ، صار الإناء نجسا . وما لم يطهر الإناء ، ويغسل حسب طقوس معينة ، فكل ما يوضع فيه يصير نجسا ، والنتيجة أن كل من يلمس هذا الاناء أو يأكل مما فيه يصير نجسا ، وبالتالى فكل من يلمس الشخص المتنجس يصير هو أيضا نجسا .

ولم تكن هذه الشريعة عند اليهود فقط ، بل إن بعض الديانات الأخرى لها شرائع مماثلة . ففي الديانة الهندوسية يعتقد الهندى الذى من الطبقة العليا (البراهمة) أن كل هندى أو كل شخص آخر ليس من طبقته نجس . ويعتقد أنه إذا صار أحد أبناء طبقته مسيحيا يصير نجسا .

وقد ذكر أحد الهنود المسيحيين المشهورين ، أنه عندما اعتنق المسيحية ، اعتبره أبوه نجسا ومنعه من دخول بيته ، فكان يذهب خلسة ليرى أمه ، وكانت خالته تغسل وتطهر الأطباق التى يأكل فيها ، والمقاعد التى يجلس عليها ، وترش عليها المياه المقدسة لتطهرها ، لأن الخدم كانوا يرفضون أن يلمسوا الأشياء التى لمسها هو .

وينبغى أن نبين أن الطهارة أو النجاسة لم تكن شيئا يرتبط بحسن الأخلاق أو سوء الأخلاق ، ولكنها كانت أمرا طقسيا نابعا من عقيدة راسخة فى أذهان الناس . إن لمس بعض الأشياء يؤدى إلى النجاسة ، وهذه النجاسة تعزل الإنسان عن المجتمع وعن محضر الله ... ولعلنا نجد آثارا لمثل هذه الأفكار والمعتقدات عند بعض الناس فى عصرنا الحاضر ، عندما يظنون أن تعويذة معينة تجلب الخير ، وشيئا آخر يجلب سوء الطالع ...

الأطعمة الطاهرة والنجسة :

وإذا واصلنا البحث إلى مدى أبعد نرى أن شريعة الطهارة والنجاسة لها مجال أوسع فى تطبيقها ، فالشريعة حددت ما يجوز أن يتناوله الإنسان من الطعام وما لا يجوز . وقد وردت هذه الشريعة بالتفصيل فى (الأصحاح الحادى عشر من سفر اللاويين) . ونستطيع أن نرى منها أنه يجوز للإنسان أن يأكل من لحم الحيوانات التى لها ظلف مشقوق نصفين وتجتر . وفيما عدا ذلك لا يجوز أكله .. لذلك لا يأكل اليهود الأرنب والجمل والوبر والخنزير . كما لا يجوز لليهودى أن يأكل لحم حيوان مات موتا طبيعيا ولم يذبح (تثنية ١٤ : ٢١) . وفى كل الأحوال ينبغى أن يصفى الدم من الجثة ، ولذلك يقوم بذبح الحيوانات بالطريقة الصحيحة . وعادة يمكن أكل الدهن الموجود على اللحم ولكن الموجود على الكليتين ، وعلى البطن والأمعاء ، الذى نسميه (الشحم) ، فلا يجوز أكله .

أما بالنسبة للحيوانات البحرية ، فكل ما له زعانف وحرشف يمكن أكله ، أما غير ذلك فلا يجوز أكله .

وكل الحشرات نجسة فيما عدا الجراد فيجوز أكله .

أما فيما يتعلق بالطيور ، فلا توجد قاعدة تميز النجس من الطاهر ، ولذلك وردت قائمة بالطاهر منها والنجس ، فى لاويين (١١ : ١٣ — ٢١) .

وربما تعزى بعض هذه النواهى إلى بعض الأسباب :

(أ) فالنهى عن لمس الأجساد الميتة أو أكل الحيوانات التى ماتت موتا طبيعيا قد يكون ناتجا عن الاعتقاد بالأرواح الشريرة ، وربما ظن الناس أن الأرواح الشريرة الساكنة فى الأجساد الميتة قد تدخل إلى أجساد من يلمسونها أو يأكلونها .

(ب) وقد كانت بعض الحيوانات مقدسة فى نظر الديانات الأخرى كالقطة والتمساح عند المصريين ، ومن الطبيعى أن يعتبرها اليهود نجسة لأن الحيوان يعتبر صنما مقدسا لإله أممى وثنى ، وهكذا يكون نجسا عند اليهود .

(ج) ويذكر الدكتور رندل فى كتاب « الكتاب المقدس والطب الحديث » أن بعض الشرائع كانت حكيمة من وجهة النظر الطبية والصحية ، ومن أقواله « إننا نأكل الخنزير والأرنب . ولكن هذه الحيوانات معرضة للأمراض الطفيلية ، ولا نسلم من أخطارها إلا إذا كان طهيها جيدا . والخنزير يأكل القاذورات ، ويربى نوعين من الديدان : التريخينا والدودة الشريطية ، ويمكن انتقالها إلى الإنسان . ومتى قلّت وسائل الوقاية ، وفى الظروف التى عاش فيها الناس فى ذلك الزمان ، فإن الأخطار تكون أكثر مما هى عليه الآن » وكان من الأفضل تجنب هذه الأنواع من الأطعمة » .

والنهى عن تناول أى لحم بدمه جاء من اعتقاد اليهود أن الدم هو النفس أو هو حياة الإنسان ، وهو اعتقاد طبيعى ناتج عن أنه إذا سال دم الإنسان فإن حياته تفنى ـــ والحياة ملك لله وحده ، ولا ينبغى أن يأكلها أو يشربها الإنسان .

وعلى هذا القياس كان تحريم أكل الشحم ، وهو أكثر الأشياء دسما فى الجثة . فأكثر الأشياء دسما تقدم إلى الله .

من ثم نرى أن هناك بعض الأسباب المعقولة فى بعض هذه الشرائع .

(د) ولكن هناك حالات كثيرة ، تعتبر بعض الحيوانات أو الأشياء نجسة دون سبب ظاهر إلا أنها اعتبرت نجسة ...

ولعل كل هذه الأشياء ما كان لها أهمية كبرى فى ذاتها ، لولا أن الكتبة والفريسيين اعتبروها مسألة حياة أو موت ، وكانت هذه هى المأساة . فقد اعتبروا أن مراعاة هذه التقاليد ، تعنى أن الإنسان متدين ويخدم الله . وكسر هذه التقاليد يعتبر كسرا لشريعة الله . وكان أن احتلت هذه الأوامر والنواهى مكان شريعة الله السامية ، وبالنسبة لليهود كان النهى عن أكل الأرنب أو الخنزير على المستوى عينه مثل النهى عن الزنا مثلا ، واعتبروا مخالفة هذه الشرائع الطقسية على قدم المساواة مع مخالفة شريعة الله الأدبية ... وهكذا صارت الديانة عندهم مجموعة مطولة معقدة من هذه التشريعات .

طرق التطهير :

وعندما نفكر تفكيرا واقعيا ، نرى أنه من المستحيل تجنب كل أنواع النجاسة الطقسية التى كانت تنص عليها شريعة الكتبة ، فالمرء قد يحاول أن يبتعد عنها ، لكنه لا يستطيع أن يعرف ما إذا كان الشخص الذى قابله أو صافحه فى الشارع طاهرا أم نجسا .. وقلنا إن النجاسة الطقسية تنتقل بمجرد اللمس . والأمر يزداد تعقيدا عندما نعلم أن فلسطين كان يسكنها كثيرون من الأمميين الوثنيين ، والتراب الذى تدوسه أقدام الأممى كان يعتبر نجسا ...

ولكى يتطهر اليهود من هذه النجاسة ، كانت هناك شريعة خاصة وطقوس خاصة مفصلة للتطهير . والفكرة الأساسية فى التطهير هى الاغتسال ، ولكن الاغتسال اتخذ نظما متعددة .

فقد كان فى البداية يقتصر على غسل الأيدى عند الاستيقاظ فى الصباح ، ثم تطور إلى عدد من الغسلات كانت أولا مقتصرة على الكهنة فى الهيكل ، ثم تطورت وصارت مطلوبة من اليهود المدققين المتدينين .

ويذكر العلامة « ايد رشايم » فى كتابه « حياة يسوع المسيا » شيئا عن نظام الاغتسال . فقد كانت أوعية الماء تعد جاهزة قبل تناول الطعام . وكان ينبغى أن يصب الماء أولا على كلتا اليدين معا والأصابع متجهة إلى أعلى ، ويسيل على الذراع حتى المفصل ، وتتساقط المياه من على المفصل ولا تعود إلى الأصابع مرة أخرى ، لأن المياه تكون قد صارت نجسة . ثم يعاد الغسل والأصابع متجهة إلى أسفل ، وأخيرا تطهر كل يد بدعكها بقبضة اليد الأخرى . وكان اليهودى العادى يغسل يديه بهذه الكيفية قبل كل وجبة . أما المدقق فإنه يغسلها أكثر من مرة أثناء الأكل .

وكان سؤال قادة اليهود ليسوع متجها إلى هذا النوع من الغسل ، ولماذا لا يتبع تلاميذه تقاليد الشيوخ فى هذا الأمر . والمقصود بتقاليد الشيوخ ، الشريعة الشفوية التى تناقلها الناس جيلا بعد جيل ، وأضاف إليها الكتبة قواعد جديدة . فقد كان لليهود الشريعة المكتوبة ، والشريعة الشفوية التى وضعها الكتبة ، وكانوا يعتبرونها مساوية فى مطاليبها للشريعة المكتوبة . وكان اليهودى المدقق لا يفكر إلا فى ارضاء هذه الطقوس والقواعد الكثيرة ويعتبر أن هذا هو التدين الصحيح ، وأن من يمارسها فهو الرجل الصالح . ومن لا يمارسها فهو شرير . وهكذا صارت الديانة مجموعة مطولة من القواعد الطقسية الظاهرية ، فكان الإنسان يهتم بغسل الأيدى مثلا أكثر من اهتمامه بوصية الله « لا تشته » . لأن غسل الأيادى عمل ظاهر ، أما الشهوة فهى أمر داخلى لا يراه أحد .

كسر وصايا الله بسبب وصايا الناس :

أما يسوع فلم يجب على سؤال الفريسيين جوابا مباشرا ، بل إن ما فعله هو أنه قدم لهم مثالا يبين كيف أن اتباع الناموس الطقسى والشفوى ، قد يكون أبعد ما يكون عن تحقيق رغبة الله وطاعة ناموس الله ، بل قد يكون متناقضا مع ناموس الله .

قال يسوع إن ناموس الله ينص على أن الإنسان ملتزم بإكرام أبيه وأمه .

ولكن الناموس الشفوى يقول إنه إذا قال أحد لأبويه قربان هو الذى تنتفع به منى ، فلا يلتزم باكرام أبيه وأمه ـــ وبذلك يكسرون وصية الله أو يبطلونها ليحفظوا تقليدهم . وفى بشارة مرقس ص ٧ نرى الأمر واضحا إذ يقول يسوع :

« هذا الشعب يكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عنى بعيدا . وباطلا يعبدوننى وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس . غسل الأباريق والكؤوس وأمورا أخر كثيرة مثل هذه تفعلون . ثم قال لهم حسنا رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم . لأن موسى قال أكرم أباك وأمك . ومن يشتم أبا أو أما فليمت موتا . وأما أنتم فتقولون إن قال إنسان لأبيه

أو أمه قربان أى هدية هو الذى تنتفع به منى . فلا تدعونه فى ما بعد يفعل شيئا لأبيه أو أمه . مبطلين كلام الله بتقليدكم الذى سلمتموه » . (مرقس ٧ : ٦ — ١٣)

وكلمة « قربان » لها معنيان :

(أ) المعنى الأول يشير إلى ما نقدمه إلى الله ونخصصه له . فإذا كان أب فقير يحتاج إلى معونة ، ولكن الابن يقول له إن ما ينتفع به الآب منه سيقدمه قربانا إلى الله ، فإنه لا يلتزم بمساعدة أبيه أو أمه . وهكذا يتخذ الابن هذا التقليد لكسر وصية من الوصايا العشر .

(ب) والمعنى الثانى قد يكون نوعا من القسم والحلف — أى أن الابن إذا حلف أنه لا يعطى لأبيه أو أمه شيئا فإنه يتحتم عليه أن يتمسك بهذا الحلف ، ولا يكرم أباه وأمه ، وحتى لو ندم الابن ، وتبين له أن هذا الحلف كان فى لحظة غضب عابرة ، وأراد أن يعود لمعاونة أبيه وأمه ، فإن تقاليد الكتبة تمنعه من ذلك ، وتستند فى ذلك على القول الكتابى الوارد فى سفر العدد (٣٠ : ٢) « إذا نذر رجل نذرا للرب أو أقسم قسما أن يلزم نفسه بلازم فلا ينقض كلامه . حسب كل ما خرج من فمه يفعل » .

ولا شك أن روح الناموس والشريعة لا يقضى بذلك ، لأن الحلف بعدم مساعدة الوالدين لا يتفق مع شريعة الله ، ومن المفيد التوبة والرجوع عنه ، لكن شريعة الكتبة التى التزمت بالتفسير الحرفى لكل شىء ، جعلت من التقاليد وسيلة لإبطال ناموس الله .

هنا نرى الصدام الظاهر بين نوعين من الديانة ، ونوعين من العبادة . فبالنسبة للكتبة والفريسيين كانت الديانة حفظ طقوس وتقاليد وممارسات كغسل الأيدى قبل الأكل ، والتمسك بالنظرة الناموسية إلى الحياة . وبالنسبة ليسوع كان أمرا مركزه القلب ، وتنبع منه مشاعر العطف والشفقة ، والحب والحنان ، وهذه كلها أسمى من الناموسية .

والعبادة بالنسبة للفريسيين والكتبة طقوس وممارسات وتشريعات ، وبالنسبة للمسيح فإن العبادة هى القلب الطاهر والحياة المملوءة بالمحبة . هنا الصدام الذى كان ، والذى لا يزال إلى الآن .

ومن التعريفات الرائعة للعبادة ، التعريف الذى وضعه (وليم تمبل) « إن التعبد هو أن نحرك الضمير بالإحساس بقداسة الله ، وأن نغذى العقل بحق الله ، وأن ننقى الخيال بجمال الله ، وأن نفتح القلب لمحبة الله ، وأن نكرس الإرادة لمقاصد الله » .

واليوم نرى كثيرين من الناس فى الأديان المختلفة يتمسكون بهذه الظواهر فى أديانهم وصلواتهم ، ويهملون جوهر الدين وروحانيته .

لنحذر نحن ، حتى لا يصدمنا جمود الكتبة والفريسيين ، لئلا نكون نحن أيضا واقعين تحت هذا الحكم بعينه .

إن الديانة الحقة لا يمكن أن تؤسس على طقوس ومراسيم ، بل أساسها العلاقة الروحية بين الإنسان والله ، وعلاقة المحبة بين الإنسان والإنسان .

الصلاح الحقيقى والشر الحقيقى

(متى ١٥ : ١٠ ــ ٢٠)

لا يمكن تصوير مقدار الصدمة التى لا شك أصابت جماعة اليهود عندما سمعوا هذا الكلام من فم السيد المسيح ، ذلك لأن يسوع بهذا القول لم يهدم شريعة الكتبة والفريسيين الطقسية فحسب ، بل إنه بهذه الأقوال ضرب صفحا عن أجزاء كثيرة من سفر اللاويين . ولم يكن يسوع يناقض تقاليد الشيوخ فقط ، بل كان يناقض الكتب المقدسة اليهودية . فيسوع بهذا يلغى كل شرائع الطعام فى العهد القديم . ومن الممكن أن تبقى بعض شرائع الطعام كجزء من قواعد الصحة والحكمة ، ولكننا لا ننظر إليها الآن كجزء من قواعد الدين . فيسوع هنا يعلن بكيفية قاطعة أن ما يعنى به الله ليس الممارسات الطقسية ، بل حالة قلب الإنسان .

لا عجب إذاً أن ينفر الكتبة والفريسيون لأنهم وجدوا أن الأساس الذى تقف عليه ديانتهم قد تخلخل تحت أقدامهم . ولم يكن حديث السيد المسيح مزعجا لهم فقط ، بل كان حديثا ثوريا . فاذا كان حديثه صحيحا ، فإن كل أفكار الفريسيين عن الدين تصير غير صحيحة . كانوا يعتبرون التدين الذى يرضى الله هو مراعاة قواعد الطهارة والنجاسة وممارستها ، فكانت نظرتهم تتجه نحو غسل الأيدى وكيفيته ، ونوع الطعام الذى يأكله إلى غير ذلك . أما يسوع فاتجهت أنظاره إلى قلب الإنسان والحالة التى هو عليها ، وكأنه بذلك يقول إن كل ممارسات الكتبة والفريسيين ليس فيها شيء من الدين على الاطلاق . ثم قال انهم عميان يقودون عميانا ، وبما أنهم لا يعرفون الطريق إلى الله ، فمن يتبعهم لا شك يضل سواء السبيل ويسقط فى حفرة الهلاك .

وما أصدق قول السيد المسيح !

١ ــ فلو أن الدين ينحصر فى الطقوس والممارسات الظاهرية فإنه يكون أمرا ميسورا ، ويكون طريقا إلى الضلال .

ومن السهل جدا أن يمتنع الإنسان عن بعض أنواع من الطعام ، وأن يغسل يديه بكيفية طقسية معينة . هذا أسهل كثيرا من أن يمارس الإنسان المحبة ، والغفران لمن يسيئون إليه ، وتقديم المساعدة للمحتاجين ، مضحيا بوقته وماله وراحته ولذته .

ولعل كثيرين من الناس إلى الآن لم يتعلموا معنى التدين الحقيقى .

فإنهم يظنون أن التدين هو مجرد الذهاب إلى مكان العبادة أو اقامة الصلوات فى أوقاتها ، ودفع الأموال والعشور ، والمشاركة فى حلقات الصلاة والدرس .. والواقع أن كل هذه مجرد وسائل ظاهرية تقود الإنسان إلى التدين الصحيح . فإن التدين الحقيقى هو فى اتجاهنا نحو الله ، وتعاملنا مع الآخرين ، وكل الوسائل الظاهرية ينبغى أن تقودنا إلى التدين الصحيح وعبادتنا وصلواتنا ينبغى أن تكون واسطة لتربية نفوسنا لنكون متدينين .

ولو انحصرت الديانة فى الممارسات الطقسية ، فإن ذلك يقود إلى الضلال عن الحق . فما أكثر

الذين تكون حياتهم بلا لوم من جهة الممارسات الطقسية ، من صلاة وصوم وغير ذلك ، لكن حياتهم فى الداخل ممتلئة بالحقد والكراهية والكبرياء والأنانية . إن تعليم المسيح يؤكد لنا أن كل مظاهر العبادات الظاهرية لا يمكن أن تكسر عن القلب الذى تفسده الكبرياء والأنانية والمرارة والشهوات .

٢ — وهنا نصغى إلى تعليم يسوع حين يقول إن العضو المهم فى الإنسان هو القلب « طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله » (متى ٥ : ٨) .

إن الله لا يهتم بكيفية تصرفنا بقدر اهتمامه بدوافع سلوكنا وتصرفنا ، وهو ينظر ، لا إلى سلوكنا الظاهرى ، بل إلى رغبات أعماق قلوبنا وأشواقها . وكما قال توما الاكوينى : إن الإنسان يرى العمل ، لكن الله يرى النية والقصد .

إن يسوع يحدثنا — وياله من حديث يخجلنا جميعا — أن الإنسان لا يستطيع أن يدعو نفسه صالحا لأنه يحفظ قواعد طقسية وفرائض ظاهرية . إن الإنسان الصالح حقا هو النقى القلب . وهذه الحقيقة هى فى الواقع نهاية لكل كبرياء فى الإنسان ، ودعوة لكل فرد منا أن يأتى أمام الله بتواضع قائلا « اللهم ارحمنى أنا الخاطىء » .

وعندما نأتى لدراسة هذه الفقرة بالتفصيل نرى ما يلى : —

أولا : بداية حديث المسيح للجموع :

« ثم دعا الجمع وقال لهم اسمعوا وافهموا » (عدد ١٠) . فقد كان يسوع يهتم بالجموع ، بينما كان الفريسيون ينظرون إلى الجموع بكبرياء واحتقار ، ولكن يسوع وجد فى الفريسيين كبرياء تمنعهم من أن يكونوا قابلين للتعلم ، بينما وجد فى الجمع العادى البسيط تواضعا يؤهلهم أن يكونوا سامعين . فقال لهم اسمعوا وافهموا .. فإن ما يقوله يسوع يستحق كل الانتباه والسمع والفهم .. وليس واجب السمع والفهم على المتعلمين والعلماء فقط ، بل على عامة الناس أيضا .

ثانيا : قدم لهم السيد الحق صريحا فى عبارتين :

الأولى « ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان » ، فإن نوع الطعام وطريقة غسل الأيدى لا تؤثر فى نفس الإنسان وتفسدها ، فإن ملكوت الله ليس أكلا وشربا (رومية ١٤ : ١٧) — فإفساد الإنسان وصيرورته نجسا يأتى عندما تنقطع علاقته بالله بسبب الخطية ، والطعام لا يقطع علاقة الإنسان بالله .

ولو أن بطرس كان قد انتبه إلى هذا الحديث ، لما تردد أن يذبح ويأكل من الحيوانات والطيور التى رآها فى الرؤيا . ولم يأكل منها لأنها نجسة إلى أن جاءه الصوت « ما طهره الله لا تنجسه أنت » (أعمال ١٠ : ١١ — ١٥) .

والعبارة الثانية « بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان » . تبين أن ما ينجسنا ليس الطعام الذى نأكله أو الأيدى غير المغسولة ، بل الكلام الذى يخرج من قلب غير مقدس .

ولم يكن التلاميذ يتنجسون عندما كانوا يأكلون بأيد غير مغسولة ، ولكن الفريسيين هم الذين

كان الحقد والمكر والتآمر على الأبرياء هو الذى ينجسهم ، إذ كان يخرج من أفواههم ما يدل على أنهم يتسرعون فى ديتونة الآخرين ، ويفتقرون إلى المحبة .

ثالثا : نفور الفريسيين من هذا الكلام :

« حينئذ تقدم إليه تلاميذه وقالوا له أتعلم أن الفريسيين لما سمعوا القول نفروا » ، وهذا ليس أمرا عجيبا ، فالعيون المريضة لا تحتمل الضوء ، والنفوس السقيمة لا تحتمل الحق . ولعل التلاميذ تعجبوا أن يسوع قال هذه الأقوال التى أثارت الفريسيين ، لكن يسوع كان واضحا وصريحا فى إعلان الحق » ، دون ما خوف من غضب الفريسيين ، بل إنه أعلن بعد ذلك إعلانات خطيرة بشأن الفريسيين ، اذ قال فى عدد ١٣ « كل غرس لم يغرسه أبى السماوى يقلع » . فالتعاليم التى كانوا ينادون بها لم تكن من غرس الله ، بل كانت من وصايا الناس ، وما ليس من الله لا يمكن أن يدوم . ثم قال لهم « اتركوهم » أى لا تحاولوا أن تسترضوهم ، ما داموا لا يريدون أن يرضوا الله ، فهم مستكبرون وجهلة ، وعادة يجتمع الجهل مع الكبرياء ، لأن المتكبر يرفض أن يتعلم ، فيظل جاهلا . وهم يقودون عميانا ، فإنهم يحاولون إرشاد الشعب الجاهل ، ولابد من أن يقوده إلى الضلال .

رابعا : شرح المسيح للحق الذى ذكره :

وطلب منه التلاميذ تفسير ما قاله ، مع أنه واضح ، وذلك لأن أفهام التلاميذ كانت ضعيفة ، خاصة وهم متأثرون بتعاليم الفريسيين مدة أجيال كثيرة ، لذلك وضح لهم يسوع ما قاله ، وأظهر أن الطعام لا ينجس الإنسان ، لأنه يسير فى دورة الهضم الطبيعية والإسراف فى الطعام أو إساءة استخدام خليقة الله المادية تنتج عن شهوة الإنسان النابعة من قلبه ، فالطعام فى ذاته لا ينجس الانسان . إن الطعام قد يضر الإنسان إذا كان غير صحى ، لكنه لا يؤثر فى ضمير الإنسان .

ثم أظهر يسوع أن قلب الإنسان هو الينبوع الذى تخرج منه الشرور ، وذكر يسوع بعضها ، فأشار إلى :

١ ــ الأفكار الشريرة ، وهى بذرة الخطية ، التى بها تبدأ مخالفة جميع الوصايا .

٢ ــ والقتل ، وهو ينتج عن شعور بكراهية الآخرين والحقد عليهم .

٣ ــ والزنى والفسق ، وهما من القلب النجس الجسدى ، والشهوة المتحكمة فى الإنسان ، وهذه الخطايا تنبع من القلب أولا .

٤ ــ والسرقة ، وهى تنتج عن شهوة الإنسان أن يأخذ ما لغيره ، ويطمع فيه .

٥ ــ والشهادة الزور ، وهى القول المنافى للحقيقة .

٦ ــ والتجديف ، وهو التحدث بالشر ضد الله أو الإنسان .

هذه هى الأشياء التى تنجس نفس الإنسان . ولا علاقة بين هذه الأشياء وعدم غسل الأيدى الطقسى ...

امتحان الإيمان واستجابته

(متى ١٥ : ١٨ — ٢١)

هذه الفقرة دلالة هامة ، فهى تصف لنا الفرصة الوحيدة التى خرج المسيح فيها خارج حدود فلسطين وخارج الحدود اليهودية ، وهنا نرى بوادر خروج الإنجيل خارج دائرة اليهودية ، وبداية تحطيم الحاجز الذى يفصل بين اليهود والأمم .

كان المسيح فى فترة اختلاء بعيدا عن الجماهير ، وكانت النهاية تقترب ، ولذلك كان يحتاج إلى فترة اختلاء ، وتأهب لهذه النهاية . ولم يكن يسوع محتاجا أن يجهز نفسه لهذه النهاية ، فقد كان معدا لها منذ مجيئه ، ولكنه أراد أن يجهز التلاميذ لذلك . لقد أراد أن يهيىء التلاميذ بتعاليمه وإرشاده حتى إذا جاء الصليب كانوا على استعداد لفهم هدفه . لم يكن فى أرض فلسطين مكان يصلح لهذه الخلوة المطلوبة ، فأينما ذهب كانت الجماهير تلاحقه ، لذلك اتجه نحو الشمال ، وتخطى الجليل إلى صور وصيداء حيث كان الفينيقيون يعيشون ، فهناك يستطيع أن يكون فى مأمن من عداء الفريسيين ومكايدهم ، ولم يكن من المنتظر أن تتبعه الجماهير إلى أرض الأمم الوثنية .

ولم يكن يسوع يريد أن يهرب من الحياة ومشكلاتها ، ولكنه كان يحتاج إلى فرصة اختلاء وتأهب استعدادا للمعركة القادمة التى كان عليه أن يواجهها .

ولكن حتى فى تلك البلاد الأجنبية لم يستطيع يسوع أن يتجاهل الحاجة البشرية ، فقد جاءت إليه تلك المرأة التى كانت ابنتها مجنونة جدا ، ولا شك أنها سمعت عن أعماله العجيبة ، وتبعته هو وتلاميذه وهى تصرخ فى الحاح طالبة العون . وفى البداية بدا يسوع كأنه لا يوليها أى اهتمام ، وقد سبب هذا الأمر إحراجا للتلاميذ ، فطلبوا منه أن يعطيها ما تطلب ليستريحوا من صراخها وسيرها وراءهم . ولم يكن طلب التلاميذ شفقة على المرأة ، بل بالعكس كان محاولة للتخلص من إزعاجها لهم بأسرع فرصة ممكنة .

ولو نظرنا إلى الأمر بعمق ، لوجدنا أن تلبية طلب شخص ما ، لمجرد التخلص من إزعاجه لنا ، ليس شعورا مسيحيا ، فالإحساس المسيحى يمتلىء بالعطف والحب والشفقة .

أما بالنسبة للمسيح ، فقد كان الموقف محيراً قد امتلأ قلبه بالشفقة عليها لا شك فى ذلك لكنها كانت امرأة أممية (أى غير يهودية) ، كانت تنتمى إلى الشعب الكنعانى القديم ، وهم أعداء اليهود من الأجداد . وكتب المؤرخ اليهودى يوسيفوس أكثر من مرة يقول « إن الفينيقيين وأهل صور يكرهوننا جدا » . وقد لاحظنا من قبل أن يسوع فى خطته عندما أرسل تلاميذه لنشر دعوته ، حدد مجال خدمتهم فى دائرة الشعب اليهودى ، لكى يكون العمل مركزا مثمرا ، ... ولكن ها هى امرأة أممية تطلب منه الرحمة والعون . لذلك أراد المسيح أن يعمل شيئا واحدا قبل كل شىء ، وهو أن يوقظ الإيمان الحقيقى فى قلب هذه المرأة .

لذلك التفت يسوع إليها وقال لها « ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب » ... والتعبير الذى استخدمه يسوع عندما قال « الكلاب » يدل على الكلاب المدللة فى البيت ، وليس على الكلاب الضالة المتشردة فى الشوارع ... وقد كان اليهود يصفون الأمم بأنهم (كلاب) لتحقيرهم والإقلال من شأنهم ، لكن استخدام يسوع للفظ التصغير لكلمة « كلاب » والطريقة الهادئة الرزينة المبتسمة التى نطق بها هذا القول ، يغير كثيرا من الموقف .... ففى كل اللغات تستخدم بعض الكلمات ذات المدلول الردىء ، لوصف بعض من هم أهل للمحبة ، كقولنا لطفل إنه « شقى » .

ولعلنا نلاحظ أن المرأة ، وقد لمست القصد الصالح فى لهجة يسوع ردت عليه سريعا بقولها « نعم ياسيد ، والكلاب أيضا تأكل من الفتات الساقط من مائدة أربابها » ... وأضاء وجه يسوع بالفرح والسرور لأجل هذا الإيمان العظيم ، ومنح المرأة ما أرادت .

ونحن نلاحظ عدة أمور فى هذا الإيمان الذى ربح البركة .

١ ـــ فقد كان إيمانا مرتبطا بالمحبة .. محبة ابنتها ، إذ اعتبرت شقاء ابنتها وتعاستها جزءا من كيانها ، رغم أنها أممية .

وفى محبة الآباء لأولادهم انعكاس لمحبة الله نحو أولاده . والمحبة التى جعلتها تتحمل الصد الظاهرى البادى من يسوع فى البداية ، هى التى قربتها من يسوع . ولا يمكن أن نجد ما يقربنا لله أكثر من المحبة .

٢ ـــ وقد كان إيمان هذه المرأة يتزايد كلما اقتربت من يسوع . ابتدأت حديثها بتسميته ابن داود ، وقد كان هذا لقبا سياسيا أرضيا ، وهكذا كانت نظرتها الأولى إلى يسوع صاحب سلطان ومجد أرضى .... جاءت إلى يسوع وهى تعتبره رجلا قويا فحسب ، وهى نظرة الأمم الخرافية إلى السحرة والمشعوذين ، لكن هذا الإيمان ازداد ، فنراها تسجد له وتقول له « ياسيد » ... وهذا ما كان يطلبه يسوع ، فهو لا يريد الناس أن يقتربوا إليه طالبين ، قبل أن يقتربوا نحوه ساجدين مصلين ... وعندما تحول الطلب إلى صلاة وسجود ، نال رضى فى نفس السيد .

٣ ـــ وقد تميز هذا الإيمان بمثابرة لا تقهر .. إن بعض الناس يصلون ، ولكن عندما لا يتلقون الإجابة يفشلون ... وبعض الناس يصلون لعلهم ينالون شيئا من الصلاة ، لكن هذه المرأة جاءت وهى مصرة أن تنال طلبها .. فلم تكن صلاتها مجرد محاولة ، لكنها كانت تتسم بالإصرار .

٤ ـــ لقد تميزت هذه المرأة بطابع الابتهاج ، فمع أنها كانت فى ضيقة ، ومع أنها كانت تسعى بشغف واهتمام لتنال الشفاء لابنتها ... لكنها مع ذلك كانت تستطيع أن تبتسم ، والله يحب الإيمان المبتهج ، الإيمان الذى تضىء عيناه بنور الرجاء والأمل ، الإيمان الذى تضىء ابتسامته الظلام .

هذه هى صفات الإيمان الذى ينال البركة ... إيمان مرتبط بالحب ، ايمان يتزايد مع القرب من يسوع إلى أن يصير سجودا وعبادة ، إيمان يتصف باللجاجة والصبر الناتج عن الأمل الذى لا ينطفىء ، إيمان مبتهج بالرجاء ..

هذا هو الإيمان الذى يجد إجابة أكيدة عندما يدعو ويرجو ويصلى .

لطف يسوع

(متى ١٥ : ٢٩ — ٣١)

إن روعة هذه الآيات وما يليها من إشباع الجموع ، تظهر لنا أن هذا الشفاء والإشباع ينبعان من شفقة المسيح الفياضة بالرحمة نحو هؤلاء الناس الذين كانوا من الأمم المكروهين من اليهود .. هنا نرى أن محبة الله وعطاياه ليست تقتصر على شعب معين ، لكنها تتسع لكل العالم ...

ففى هذه الآيات نرى يسوع يواجه الحاجات الإنسانية ، فيخفف من آلام البشر .

نراه يهتم بعلاج المرضى والعاجزين والعمى ، والجميع عند قدميه يجدون الراحة والشفاء ...

وفى الأعداد التى تلى ذلك ، نسمعه يدعو تلاميذه قائلا « إنى أشفق على الجميع لأن الآن لهم ثلاثة أيام يمكثون معى وليس لهم ما يأكلون . ولست أريد أن أصرفهم صائمين لئلا يخوروا فى الطريق ... » هذا تعبير عن الدافع الأول لمعجزات المسيح وقواته ... الحنان والشفقة على البشر .

وهذه المعجزات تصور لنا قلب يسوع وحنانه بأكثر مما تصور لنا قدرته التى لا شك فيها ... لكن يسوع جعل القوة خادمة للمحبة ...

وكل محاولة فى تاريخ البشرية تسعى لأن تكون القوة ظاهرة وحدها ولا تخدم المحبة ، إنما هى محاولة تخالف مبادىء المسيح ...

خبز الحياة

(متى ١٥ : ٣٢ — ٣٩)

لقد رأينا قبلا أن يسوع عندما بدأ رحلته إلى نواحى فينيقية ، كان يريد فترة من الاختلاء ليعد نفسه وتلاميذه للأيام القادمة . وبشائر الإنجيل لا تحدد لنا التواريخ والأزمنة تحديدا دقيقا ، لأنها لا تهتم بالتاريخ قدر اهتمامها بالرسالة ذاتها . ولكننا إذا حاولنا أن ندرس التاريخ ونبحث عنه بأنفسنا من بين كلمات الإنجيل ، فغالبا ما يظهر لنا أن الزمن الذى قضاه يسوع فى فترة الاختلاء هذه كان أطول مما يبدو لنا عندما نقرأ الإنجيل .

ويوم أطعم الخمسة الآلاف (متى ١٤ : ١٥ — ٢١) (مرقس ٦ : ٣١ — ٤٤) نقرأ أن يسوع طلب أن يتكىء الناس على العشب الأخضر ، لذلك نفهم أن الوقت كان فى فصل الربيع ، لأنه هو الوقت الوحيد الذى يكون فيه العشب أخضر فى تلك البلاد — وبعد حديثه ومناقشته مع الكتبة والفريسيين ذهب إلى نواحى صور وصيداء (متى ١٥ : ٢١ ، مرقس ٧ : ٢٤) ولم تكن هذه الرحلة بالأمر الهين سيرا على الأقدام . وعندما نتقدم خطوة أخرى لنفكر فى الزمن ،

يجب أن نقرأ (مرقس ٧ : ٣١) حيث يقول « ثم خرج أيضا من تخوم صور وصيداء وجاء إلى بحر الجليل فى وسط حدود المدن العشر » . وقد يبدو هذا أمرا غريبا فى السفر لأن صيدا شمال صور ، وبحر الجليل جنوب صور والمدن العشر تقع على الساحل الشرق لبحر الجليل . وهذا يبين لنا أن يسوع أطال السفر عمدا ليقضى أطول وقت ممكن مع تلاميذه قبل رحلته إلى أورشليم .

وعندما نقارن بين جلوس الناس فى معجزة إشباع الخمسة آلاف نرى الناس اتكأوا على العشب الأخضر ، بينما فى معجزة إشباع الأربعة آلاف ، اتكأوا على الأرض ... وهذا يبين لنا أن هذه المعجزة الثانية حدثت فى نهاية الصيف أى بعد مضى نحو ستة شهور من المعجزة الأولى ... وخلال هذه المدة لا نعلم كثيرا عما فعله يسوع ، ولكن الظاهر أنه قضاها فى تعليم التلاميذ ليفتح عقولهم لقبول الحق ، قبل أن تأتى أوقات الضيق والوحدة والوحشة .

وما ذكرناه عن الزمن الذى قضاه يسوع فى هذه الرحلة ينفى مزاعم بعض الشراح الذين يظنون أن إشباع الأربعة الآلاف إنما هى رواية أخرى لمعجزة إشباع الخمسة الآلاف . فالوقت متغير كما رأينا ، والظروف متغيرة ، والناس أيضا مختلفون . فإن معجزة إشباع الأربعة الآلاف حدثت فى حدود العشر مدن ، وكان أكثر الناس من الأمم ، وهذا يفسر ما ذكره متى فى (١٥ : ٣١) من أن الناس « مجدوا إله إسرائيل » ، وهذا دليل على تقدير الأمم لإله اليهود . كما نلاحظ أن فى معجزة إشباع الخمسة الآلاف جمعت الكسر فى (قفف) ، أما فى هذه المعجزة فجمعت فى (سلال) . لأن اليهود كانوا يستعملون القفف ، والأمم كانوا يستخدمون السلال .

ويلاحظ العلامة (أدرشيم) فى وصفه لحياة المسيح أن السيد المسيح أنهى ثلاث مراحل من خدمته بوليمة . فإشباع الخمسة الآلاف كان فى نهاية خدمته فى الجليل ، وبعد ذلك لم يعلم يسوع أو يعظ فى الجليل . وإشباع الأربعة الآلاف جاء فى نهاية خدمته القصيرة فى تخوم الأمم . وفى نهاية خدمة يسوع فى أورشليم جمع تلاميذه على وليمة الفصح ، وقدم لهم العشاء الربانى .

وما أجملها من فكرة تؤكد لنا أن يسوع لا يترك جماعة من الناس دون أن يعطيهم طعاما رمزا إلى القوة التى يمنحها للبشر ... فهو خبز الحياة ، ومنه نستمد قوتنا كل أيام الحياة .

الأصحاح السادس عشر

عميان إزاء العلامات

(متى ١٦ : ١ — ٤)

إن العداوة تجمع بين الناس كما تفعل الضرورة والمصائب أحيانا . وقد قال الشاعر :

فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا
ان المصائب يجمعن المصابينا

ولعل وجود الفريسيين والصدوقيين معا فى مناسبة ما أمر يدعو إلى الدهشة ، فالخلاف بينهم كبير ، لكننا نراهم يتفقون معا ضد يسوع .

كان الفريسيون يعيشون حياة مدققة إلى أبعد الحدود ، ويهتمون بأصغر الأمور والتفاصيل فى الناموس الشفوى والمكتوب . أما الصدوقيون فكانوا يرفضون ناموس الكتبة الشفوى رفضا باتا ، ولا يقبلون إلا الناموس المكتوب .

وقد اعتقد الفريسيون بالملائكة وبقيامة الأجساد ، بينما رفض الصدوقيون هذه المعتقدات . وإذا قرأنا أعمال ٢٣ : ٦ — ١٠ نرى كيف استغل بولس هذا الخلاف ، عندما كان فى موقف الدفاع عن نفسه أمام السنهدريم .

ولم يكن الفريسيون حزبا سياسيا ، بل كانوا يقبلون أن يعيشوا تحت أى نظام من نظم الحكم يسمح لهم بممارسة حياتهم الدينية حسب مبادئهم . أما الصدوقيون فكانوا هم الطبقة الأرستقراطية (الأعيان) رغم قلة عددهم ، وكانوا أغنياء ،ولذلك كانوا يتعاونون مع الرومان ، ويخدمون أغراض الدولة الرومانية فى سبيل الحفاظ على ثروتهم وامتيازاتهم .

وقد كان الفريسيون ينتظرون مجيء المسيا ، بينما لم يكن هذا الرجاء عند الصدوقيين ...

وهكذا نرى أن وجوه الخلاف الكثيرة بين الفريقين تجعلهما على طرفى نقيض ، لكننا نراهما الآن يتفقان على استبعاد يسوع من مسرح الحياة ... تدفعهم العداوة الشديدة ليسوع .

كانت طلبة الفريسيين والصدوقيين أن يريهم يسوع آية من السماء . وكما رأينا قبلا (فى شرح متى ١٢ : ٣٨ — ٤٠) أن عادة اليهود أن يطلبوا من كل نبى أو قائد أن يؤيد صحة رسالته بأمر غير عادى أو آية خارقة للعادة . وقد كان جواب المسيح لهم أن الآية موجودة إذا كانوا يفتحون عيونهم ليبصروها . لقد كانوا حكماء فى تمييز الطقس ، فإذا كانت السماء محمرة فى المساء ، كان ذلك بشرى بيوم جميل وطقس رائق فى اليوم التالى ، وإذا كانت محمرة فى الصباح فإن ذلك ينذر بعاصفة ... لكنهم كانوا عميانا لا يقدرون أن يميزوا علامات الأزمنة .

ولقد أوضح لهم السيد أن الآية الوحيدة التى تعطى لهم هى آية يونان النبى . وقد درسنا معنى

هذه الآية فى شرح (متى ١٢ : ٣٨ ــ ٤٠) . فيونان هو النبى الذى استخدمه الله لتوبة أهل نينوى ورجوعهم عن طريقهم الرديئة إلى الله . والواقع أن الآية التى أرجعت أهل نينوى إلى الله لم تكن حادثة ابتلاع الحوت ليونان ، لأن أهل نينوى لم يعلموا شيئا عن هذه الحادثة ولا نستمع فى نداء يونان أنه أشار اليها .

وآية يونان كانت يونان نفسه ورسالته التى يحملها من الله . إن ظهور يونان فى ذلك الزمان برسالته لتحذير أهل نينوى ، كان فى حد ذاته آية غيرت قلوب الناس .

إذاً فالآية التى يقدمها الله هى يسوع نفسه والرسالة التى يحملها من الله . وكأنما كان يسوع يقول لهم « إنكم تلتقون بالله وبحقه فى شخصى ، ماذا تريدون بعد ذلك ؟ لكنكم عميان لأنكم لا ترون هذه الآية » .

ونحن نجد هنا حقيقة وإنذارا . إن يسوع المسيح هو رسالة الله الأخيرة ، فلا يمكن أن يكون هناك إعلان لله بعد يسوع . إن رسالة الله فى المسيح واضحة للجميع ، فهو آية الله للبشر . أما التحذير فهو أنه إذا كانت هناك قلوب لا تصغى لنداء يسوع ، فلا يوجد فى الوجود ما يمكن أن يجذبها . وإذا لم يقنع يسوع الناس . فلا شىء بعده يمكنه أن يقنعهم . وإذا لم يستطيع الناس أن يروا الله فى يسوع المسيح ، فلا يمكن أن يروه فى أى شىء أو أى شخص .

ونحن عندما نلتقى مع يسوع ، فإننا نلتقى مع رسالة الله الأخيرة والنهائية ، ومع دعوة الله العظمى والقاطعة .

وما دام الأمر كذلك ، فما الذى يتبقى لإنسان يضرب عرض الحائط بفرصته الأخيرة ، ويرفض أن يصغى للكلمة النهائية ، ويرفض آخر نداء يوجه إليه .

الخمير الخطير

(متى ١٦ : ٥ ــ ١٢)

انتقل يسوع وتلاميذه إلى الجانب الآخر من البحيرة ، ونسى التلاميذ أن يأخذوا معهم خبزا . وفى هذه الظروف قال لهم يسوع انظروا وتحرزوا من خمير الفريسيين والصدوقيين ...

وكلمة « خمير » لها معنيان : المعنى الأول والذى يتبادر إلى الأذهان أولا هو قطعة من الدقيق المتخمر ، توضع فى باقى الدقيق ليختمر ، ويكون صالحا ليكون خبزا . وهذا المعنى هو الذى فهمه التلاميذ أولا لأن أذهانهم كانت تفكر فى الخبز الذى نسوا أن يحضروه معهم . فقد كانوا يعبرون إلى أرض أممية ، وكان اليهود لا يحبون أن يشتروا طعاما من الأمم .

وتعجب التلاميذ من قول المسيح الذى يحذرهم من خمير الفريسيين والصدوقيين ، مع أنهم نسوا أن يأخذوا خبزا على الإطلاق .

علم يسوع بما يفكرون فيه ، وعرف اتجاههم إلى الماديات الذى جعلهم يفسرون أقواله تفسيرا ماديا ، لذلك وبخهم لأنهم يفكرون فى الخبز المادى بينما هم قد رأوا بركة المسيح للخبزات الخمس

التى أشبعت خمسة آلاف ، والخبزات السبع التى أشبعت أربعة آلاف ، وفاض من الكسر الكثير ... لقد وبخهم لأجل قلة إيمانهم واهتمامهم بالتوافه واعتبارها مشكلات بالنسبة لهم ... ووجه أفكارهم إلى المعنى الثانى لكلمة « خمير » . والمعنى الثانى لكلمة « خمير » يشير إلى التأثير الشرير . فبالنسبة لليهود كان لفظ الخمير يرتبط فى أذهانهم بالشر فهى دقيق متخمر ، وقد ربط اليهود بين التخمر والفساد ، لذلك كانت الخميرة إشارة إلى كل ما هو متعفن وفاسد . لقد كان للخمير تأثير على أى كمية من الدقيق يوضع فيها ، لذلك كان الخمير يشير إلى المؤثرات الضارة التى تفسد الحياة .

عندئذ فهم التلاميذ أنه لا يقصد الخبز ، بل قصد التأثير الفكرى والعقلى لتعاليم الفريسيين والصدوقيين .

ترى هل هذا هو التأثير الذى حذر يسوع تلاميذه منه ؟ وما هو الخطر فى تعاليم الفريسيين والصدوقيين .

١ ـــ لقد اعتبر الفريسيون الديانة مجموعة من النواميس والشرائع والوصايا والطقوس ... كان الدين فى نظرهم طقوسا وممارسات خارجية ظاهرية . لذلك فإن المسيح يحذر التلاميذ من أن تكون ديانتهم مجموعة من النواهى بالكيفية التى تعود الفريسيون أن يعتبروها . لقد حذر يسوع تلاميذه من أن يهتموا بالظواهر فى الأعمال والأقوال ، وينسوا أن القلب وما فيه هو الأهم .

إنه تحذير من الناموسية فى التفكير ، والمظهرية فى الحياة ... تحذير من النظرة الظاهرية إلى أعمال الإنسان ، دون الاهتمام بحالة قلبه الداخلية .

٢ ـــ أما جماعة الصدوقيين فكانت تتميز بأمرين يرتبط أحدهما بالآخر .لقد كانوا أغنياء وارستقراطيين ، وكانوا ينشغلون بالسياسة إلى حد كبير ولعل يسوع وهو يحذر من « خمير الصدوقيين » ، يطلب من تلاميذه أن يحذروا من اعتبار ملكوت الله مرتبطا بالثروة المادية ، أو أن يسعوا لتحقيق آمالهم بالعمل السياسى . فهو تحذير من إعطاء الغنى المادى مكانا ساميا فى ترتيب القيم . وتحذير من اعتبار السياسة وسيلة لإصلاح القلوب الإنسانية .

إن يسوع يبين أن الثروة ليست هى الخير الأسمى ، وأن السياسة ليست هى الطريق إلى أفضل النتائج . إن البركات الحقيقية هى بركات القلب ، والتغيير الصحيح ليس هو تغيير الظروف الخارجية بل تغيير قلوب البشر .

سؤال فى قيصرية فيلبس

(متى ١٦ : ١٣ ـــ ١٦)

نجد هنا قصة اختلاء آخر فى حياة يسوع . كانت النهاية تقترب ، وكان يسوع يريد وقتا يختلى فيه مع تلاميذه ، فقد كان هناك الكثير عنده ليعلمهم ، على الرغم من أنه كانت هناك أمور أخرى لا يقدرون أن يحتملوها أو يفهموها . لذلك ذهب إلى نواحى قيصرية فيلبس ، التى كانت تبعد نحو خمسة وعشرين ميلا شمال شرق بحر الجليل . وقد كانت هذه النواحى خارجة عن حكم هيرودس

انتيباس حاكم الجليل ، وتحت حكم فيلبس الوالى . وأغلب سكانها لم يكونوا من اليهود ، لذلك كانت هناك فرصة ليسوع أن ينفرد مع تلاميذه .

وفى ذلك الوقت بالذات ، واجهت يسوع مسألة هامة . فقد كان الوقت قصيرا ، وتساءل يسوع ألا يوجد من يفهمه ؟ ألا يوجد من يعرف من هو على حقيقته ؟ ألا يوجد من سيحمل رسالته ويعمل لملكوته بعد أن يفارق الجسد ؟ لا شك أن هذه كانت مسألة حيوية ، ذلك لأنها كانت تمس فى الصميم فكرة بقاء الإيمان المسيحى حيا ..

فإذا لم يكن هناك من البشر من استطاع أن يفهم الحقيقة ، ولو بصيصا من النور منها ، فإن عمله يبقى ناقصا . أما اذا وجد — ولو قليلون — ممن يتبينون الحق — فإن عمل الملكوت سيكون فى أمان . لذلك طرح يسوع السؤال أمام التلاميذ ليعرف مدى معرفة تلاميذه .

وإنه لمما يثير الانتباه أن نفكر فى المكان الذى اختاره يسوع مسرحا لهذا السؤال الخطير ، وهو قيصرية فيلبس ، ذلك لأن لهذا المكان دلالة دينية أكثر مما لأى مكان آخر .

١ — فقد كانت تلك النواحى مليئة بالهياكل القديمة التى أقامها السوريون قديما لعبادة البعل . ويقول الأستاذ تومسون فى كتابه « الكتاب والأرض المقدسة » : إنه بالقرب من هذا المكان كان مالا يقل عن أربعة عشر هيكلا . فى ذلك المكان كانت الديانات الوثنية منتشرة ومزدهرة فى الماضى .

٢ — ولم تكن عبادة آلهة السوريين فقط فى ذلك المكان ، بل كان بجوار قيصرية فيلبس جبل عظيم وفيه كهف كبير عميق ، وتقول الأساطير اليونانية إن الإله (بان) PAN إله الطبيعة ولد فى ذلك الكهف . لذلك كان اسم قيصرية فيلبس الأصلى بانياس ، وإلى الآن اسم ذلك المكان « بانياس » وهى المدينة التى يسيل عندها البترول القادم من العراق .

٣ — وفى قيصرية فيلبس كان الهيكل الرخامى الأبيض العظيم الذى بناه هيرودس الأكبر لعبادة قيصر . وقد قام فيلبس ابنه بتجميل الهيكل وغير اسم المدينة من بانياس إلى قيصرية على اسم قيصر ، ثم أضاف اسمه إليها ، فصار اسمها قيصرية فيلبس ، تمييزها عن مدينة قيصرية القائمة على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

وفى الأيام التى تلت ذلك ، أطلق هيرودس أغريباس على المكان اسم « نيرونياس » نسبة إلى نيرون . وهكذا نرى أنه لا يمكن للناظر أن يرى قيصرية فيلبس من بعيد ، دون أن يقع بصره على منظر الرخام الأبيض من على بعد ، فيتذكر قوة روما ، وسطوتها على قلوب الناس .

هذا هو الموقف العجيب ، ففى ذلك المكان الذى تحوطه من كل جانب مظاهر العبادات الوثنية التقليدية عن الناس ، نرى نجارا جليليا فقيرا معدما مع جماعة من تلاميذه ، والناس تتآمر عليه وتتهمه بالكفر والإلحاد ، يسأل تلاميذه فى هذا المكان ، عما يظنونه فيه ، متوقعا الجواب أنه ابن الله ..

إن يسوع يواجه ديانات العالم فى كل تاريخها وبهائها ، ويطلب أن يقارنوه بها ليعلنوا تفوقه عليها كلها .. فى هذا الموقف نرى إحساس يسوع بألوهيته واضحا باهرا كما يظهر فى أى وقت آخر .

وهناك فى قيصرية فيلبس ، قرر يسوع أن يسأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه ، وعما يقولونه هم عنه .

عجز الأوصاف البشرية

(متى ١٦ : ١٣ — ١٦)

قرر يسوع قبل أن يذهب إلى أورشليم للصلب ، أن يسأل تلاميذه عن رأيهم فى شخصه ليرى ما إذا كان بعضهم قد وصل إلى معرفة ، ولو باهتة بحقيقته . ولم يسأل سؤاله مباشرا ، لكنه سألهم أولا عما يقوله الناس عنه .

كان بعض الناس يقولون إنه يوحنا المعمدان ، فلم يكن هيرودس انتيباس وحده هو الذى ظن أن يوحنا المعمدان قام من الأموات .

وآخرون قالوا إنه إيليا . وبهذا القول كان الناس يقصدون أن يسوع هو أعظم جميع الأنبياء ، وأنه جاء ليمهد لمجيء المسيا . فقد كان اليهود يعتبرون إيليا قمة الأنبياء وأميرهم ، وأنه هو الذى سيأتى ليعد الطريق أمام المسيا حسب وعد الله فى ملاخى : « هأنذا أرسل إليكم إيليا النبى قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم المخوف » (ملاخى ٤ : ٥) — وإلى وقتنا الحاضر ينتظر اليهود مجيء إيليا قبل مجيء المسيا ، ويتركون مقعدا خاليا لإيليا عند ممارسة فريضة الفصح . وهكذا اعتقد البعض أن يسوع هو النبى الذى أرسله الله ليعد طريق المسيا .

وقال البعض إنه إرميا . ويحتل إرميا مكانا خاصا فى انتظارات شعب اليهود . فقد اعتقدوا أنه قبل سبى الشعب ، أخذ إرميا تابوت عهد الرب ومذبح البخور من الهيكل وأخفاهما فى كهف منعزل فى جبل نبو ، وأنه قبل مجيء المسيا سيعود إرميا ليحضرهما ، ويعود مجد الله إلى الشعب مرة ثانية .

(وقد ورد هذا فى سفر المكابيين الثانى ٢ : ١ — ١٢ ونحن نورد شاهدا من هذا السفر من الأسفار غير القانونية « الأبوكريفا » ، تدليلا على اعتقاد اليهود بذلك) .

فى الأسفار غير القانونية هذه ، نقرأ عن بعض معتقدات اليهود عن مجيء إرميا قبل مجيء المسيح ، ففى سفر المكابيين الثانى ١٥ : ١ — ١٤ قيل إنه قبل معركة يهوذا المكابى مع نكانور ، أراد يهوذا المكابى أن يشجع جماعته بكلامه الصالح . « ثم قص عليهم رؤيا يقينية تجلت له فى الحلم فشرح بها صدورهم أجمعين . وهذه هى الرؤيا : قال : رأيت الكاهن الأعظم رجل الخير والصلاح ، المهيب المنظر ، الحليم الأخلاق ، صاحب الأقوال الرائعة ، المواظب منذ صباه على جميع ضروب الفضائل باسطا يديه ومصليا لأجل جماعة اليهود . ثم تراءى لى رجل كريم الشيبة ، أغر البهاء ، عليه جلالة عجيبة سامية فأجاب أونيا وقال : هذا محب الإخوة ، المكثرة من الصلوات لأجل الشعب والمدينة المقدسة إرميا نبى الله » .

هكذا اعتقد اليهود أن إرميا سيأتى لنصرتهم فى وقت الضيق . ولم يكن هذا وعدا إلهيا بوحى مقدس ، بل كان مجرد انتظار من الشعب .

(أما الوعد فكان بمجيء إيليا لأن ذلك ورد فى الأسفار الموحى بها .

وعندما وصف الناس يسوع بأنه ايليا أو ارميا كانوا يعلنون عن تقديرهم العظيم له . وكأنهم كانوا يعلنون أن ملكوت الله ومجيء المسيا قد اقترب .

ثم سأل يسوع تلاميذه : وأنتم من تقولون إنى أنا ؟ » وربما حدث صمت فترة من الزمن ، وجالت خلالها فى عقول التلاميذ أفكار لم يجدوا الشجاعة أن يعلنوها فى كلمات ، إلى أن أعلن بطرس اعترافه العظيم ، واكتشافه الهائل . وعندئذ عرف يسوع أن عمله فى أمان ، لأن البعض على الأقل عرف من هو .

ونحن نقرأ فى البشائر الثلاث الأولى روايات متقاربة عن اعتراف بطرس .

فذكر متى قوله « أنت المسيح ابن الله الحى » (متى ١٦ : ١٦)

وذكر مرقس قوله باختصار « انت المسيح » (مرقس ٨ : ٢٩) .

وذكر لوقا قوله « مسيح الله » (لوقا ٩ : ٢٠) .

وكلها تشير إلى معنى واحد ، أن يسوع هو المسيا أو المسيح ، فالمسيح كلمة عبرية والمسيا كلمة يونانية ، ومعنى كل منهما الممسوح من الله . فقد كان الملوك يمسحون ويكرسون لوظيفتهم ، ويسوع هو الملك السماوى الممسوح من الله ملكا على البشر .

ونحن نرى حقيقتين أساسيتين فى هذا الاعتراف .

الأولى : ان اكتشاف بطرس يدل على أنه بعد ما أجهد نفسه فى الفكر ، توصل إلى أن أسمى الأوصاف البشرية عاجزة عن التعبير عن حقيقة يسوع . فعندما وصفه الناس أنه يوحنا المعمدان أو ايليا أو إرميا ، كانوا يصفونه بأعلى وأسمى صفة أمكنهم أن يجدوها فى البشر . فإيليا هو الذى يسبق مجيء المسيا ، وإرميا كما ذكرنا ، يرسله الله ليعين شعبه فى وقت الضيق . وقد كانت فترة الأربعمائة سنة الأخيرة فترة صمت بالنسبة لصوت النبوة ، ولكنهم اعتقدوا أن صوت الله الحقيقى عاد فى يسوع . كل هذه صفات رائعة لكنها لا تكفى لوصف يسوع . مرة أراد نابليون أن يصف يسوع فقال « أنا أعرف البشر ، لكن يسوع المسيح أكثر من إنسان » .. لم يكن بطرس يفكر فلسفيا أو لاهوتيا ، وهو يعلن أن يسوع هو ابن الله الحى ... لكنه وجد أن كل وصف بشرى قاصر عن أن يصف يسوع .

. والحقيقة الثانية : هى أن اكتشاف بطرس لحقيقة المسيح كان اكتشافا شخصيا . عندما سأل بيلاطس يسوع إذا كان حقا ملك اليهود ، كان جواب يسوع « أتقول هذا من نفسك أم آخرون قالوا لك عنى » (يو ١٨ : ٣٣ و ٣٤) . إن معرفتنا للمسيح يجب أن تكون معرفة مباشرة . فإن إنسانا ما يمكنه أن يعرف كل ما قيل عن يسوع ، ويمكنه أن يعرف كل ما جال بخاطر البشر

عن يسوع ، ويمكنه أن يلخص ما قاله اللاهوتيون والمفكرون عن يسوع ، ولكنه لا يكون مسيحيا . إن المسيحية هى معرفة المسيح الشخصية ، وليست معرفة حقائق عن المسيح . وإن سؤاله لتلاميذه ، يمكن أن يكون سؤالا لكل واحد منا « ماذا تظن فى ؟ » .

الوعد العظيم

(متى ١٦ : ١٧ — ٢٠)

ثارت حول تفسير هذه الآيات العواصف . وقد كان من الصعب أن يحاول أحد تفسيرها دون تحيز إلى جانب أو آخر ، لأن الكنيسة الكاثوليكية تتخذ من هذه الآيات أساسا لعقيدتها ونظامها فى مركز البابا من الكنيسة ، فقد فسرت الكنيسة الكاثوليكية هذه الآيات لتعنى أن السيد المسيح أعطى لبطرس السلطان الذى به يسمح بدخول البشر ملكوت السموات ، أو يطردهم ويحرمهم من هذا الملكوت ، والسلطان الذى به يغفر الخطايا لإنسان ما ، ويربط خطايا الآخر فلا تغفر .. وهكذا سارت الكنيسة الكاثوليكية فى تفسيرها أن هذا السلطان أعطى لبطرس الذى صار فيما بعد أسقفا لروما ، وتسلسل هذا السلطان وتسلم منه إلى أساقفة روما الذين جاءوا بعده ، واتخذوا وظيفة البابا رئيس الكنيسة وأسقف روما .

وطبيعى أن تبدو مثل هذه العقيدة مستحيلة فى نظر البروتستانتى الإنجيلى . من ثم نرى الكاثوليك والبروتستانت لا يبدأون دراسة هذه الآيات برغبة من الأعماق ليعرفوا التفسير الحقيقى ، بل يحاول كل من الطرفين أن يثبت عقيدته ، وينفى عقيدة الآخر .

لذلك كان من الضرورى أن نتناول هذه الآيات بعناية لنفهم معانيها وألفاظها :

ينبغى أن نوضح أن كلمة بطرس فى اليونانية هى (بتروس) ، وكلمة صخرة باليونانية هى (بترا) ، وهى مؤنث (بتروس) ، كما أن اسم بطرس بالأرامية معناه صخرة . ولذلك نرى تلاعبا بالألفاظ فى هذا القول ، إذ سرعان ما قدم بطرس اعترافه العظيم ، حتى قال له المسيح « أنت بطرس (بتروس) وعلى هذه الصخرة (بترا) أبنى كنيستى » .

وأيا كان القصد من هذا القول ، فإن مدحا عظيما ، وثناء وفيرا على بطرس ، فيها كناية مشهورة فى الفكر اليهودى .

فقد اعتبر اليهود إبراهيم صخرة . ولديهم قول مأثور « عندما رأى القدوس إبراهيم قال : وجدت صخرة لأبنى عليها العالم » . وهكذا كان إبراهيم الصخرة التى تأسست عليها الأمة اليهودية وقصد الله . وكلمة « صخرة » استخدمت لوصف الله ذاته : « هو الصخر الكامل صنيعه » (تثنية ٣٢ : ٤) . « لأنه ليس كصخرنا صخرهم » (تثنية ٣٢ : ٣١) . « وليس صخرة مثل إلهنا » (١ صموئيل ٢ : ٢) « الرب صخرى وحصنى ومنقذى » (صموئيل ٢٢ : ٢) (مزمور ١٨ : ٢) « ومن هو صخرة سوى إلهنا » (مزمور ١٨ : ٣١ و ٢ صموئيل ٢٢ : ٣٢) .

من هذا نرى أن إطلاق هذا اللفظ دليل المدح والتقدير ، فاليهودى الذى يعرف العهد القديم جيدا يذكر الله عند ذكر هذا اللفظ ، لأنه هو صخرته وملجاؤه الوحيد.

فماذا كان قصد يسوع عندما استخدم كلمة « صخرة » هنا فى هذا المجال ؟

١ — يقول القديس أوغسطينوس إن الصخرة تشير إلى السيد المسيح نفسه ، وكأنما يقول المسيح لبطرس :

« أنت بطرس ، وعلى أنا باعتبارى صخرة ، سأبنى كنيستى ، وسيأتى اليوم الذى فيه تكون عظيما فى هذه الكنيسة مكافأة لإيمانك » .

٢ — والتفسير الثانى هو أن الصخرة ، هى الحقيقة التى ذكرها بطرس ، وهى أن يسوع هو المسيح ابن الله الحى . لقد أعلن الله نفسه هذا الحق العظيم لبطرس ، والله نفسه هو الذى فتح ذهن بطرس ليدركه . وهذا هو حجر الأساس فى الكنيسة المسيحية .

٣ — وثمة تفسير ثالث أن الصخرة هى إيمان بطرس ، وعلى هذا الإيمان بنيت الكنيسة المسيحية ، فقد كان إيمان بطرس كالشرارة التى ألهبت إيمان الكنيسة فى العالم أجمع . لقد كان إيمان بطرس هو القوة الدافعة الأولى التى صارت فيما بعد الكنيسة الجامعة .

٤ — ولعل تفسيرا رابعا هو أن بطرس هو الصخرة . وحتى هذا التفسير — إذا صح يجب أن نفهم القصد منه جيدا . فبطرس ليس الصخرة التى تتأسس عليها الكنيسة ، فإن أساس الكنيسة هو الله نفسه ، وهو صخرة الكنيسة . ولكن المعنى المقصود هو أن بطرس أول حجر فى بناء الكنيسة الروحى ، لأن بطرس كان أول إنسان اكتشف حقيقة لاهوت المسيح ، وهو أول إنسان قفز بإيمان إلى ما فوق إدراك العقل البشرى ، ورأى فى يسوع ابن الله الحى ، وبعبارة أخرى فإن بطرس هو أول عضو فى الكنيسة المسيحية ، وعلى هذا الأساس بنيت الكنيسة أى جاءت بعده ، وكل من يصل إلى اعتراف كبطرس ، يصير هو الآخر صخرة ، وحجرا حيا فى بنيان الكنيسة الروحى .

ولكى نوضح هذه الحقيقة نذكر أمرين :

الأمر الأول :

إن الكتاب المقدس يستخدم تشابيه لتمثيل وتوضيح حقيقة معينة واحدة فى التشبيه ، وينبغى ألا نضع أهمية كبرى على التفاصيل الأخرى .

فكنيسة العهد الجديد مشبهة كثيرا بأنها (بناء) ، وفى كل مرة يكون التنبير على نقطة واحدة فى التمثيل .

وهنا نرى بطرس أساسا للكنيسة ، بمعنى أنه أول من اكتشف حقيقة المسيح .

وفى أفسس ٢ : ٢٠ نقرأ « مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية » ، وهنا التنبير على شهادة الرسل وكرازتهم باعتبار هذه الكرازة وهذا الولاء أساسا لرسوخ

الكنيسة فى الأرض ، وفى الآية عينها نرى يسوع حجر الزاوية ، أى أنه هو القوة التى تحفظ من الانهيار وتضم أجزاءه معا .

وفى رسالة بطرس الأولى ٢ : ٤ — ٨ تقرأ أن المسيحيين هم أحجار حية فى البيت الروحى الذى هو الكنيسة ، وفى الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ٣ : ١١ نرى يسوع وحده هو الأساس الذى لا يستطيع إنسان أن يضع أساسا غيره « فإنه لا يستطيع أحد أن يضع أساسا آخر غير الذى وضع هو يسوع المسيح » .

وهكذا نرى كتاب الوحى المقدس فى العهد الجديد أخذوا صورة « البناء » واستخدموها فى مختلف الأساليب ، ولكن وراء كل هذه الأساليب يتضح أن يسوع المسيح وحده هو أساس الكنيسة الحقيقى ، والقوة الوحيدة التى تربط الكنيسة وتوحدها . وعندما قال المسيح لبطرس إنه سيبنى كنيسته على هذه الصخرة — أيا كان التفسير — لم يكن يقصد أبدا أن الكنيسة ستعتمد على بطرس ، كما تعتمد على الله وعلى المسيح . بل كل القصد أن هذا الاعتراف بطبيعة المسيح هو بداية الإيمان المسيحى ... وهذا شرف كبير لبطرس لا يستطيع أحد أن ينتزعه منه .

الأمر الثانى :

أن كلمة « كنيسة » المستخدمة فى هذه الآيات ، لا تشير إلى نوع من النظام والإدارة يفهم منه أن بطرس هو رأس الكنيسة الإدارى . ونحن عندما نسمع لفظ « كنيسة » نفكر فى التنظيمات الإدارية البشرية والمبانى والوظائف وغير ذلك . لكن المسيح ، وقد كان يتكلم الأرامية ، لابد أنه استخدم التعبير (قوهال) وهو التعبير الذى كانت توصف به « جماعة إسرائيل » فى العهد القديم — أى مجموع شعب الله . وكأن يسوع يقول لبطرس « أنت بداية تكوين إسرائيل الجديد ، شعب الله الجديد ، إسرائيل الروحى ، شركة المؤمنين باسمى » .

إن يسوع لم يكن يقصد هنا الكنيسة فى نظامها ووظائفها ، لكنه كان يقصد شركة المؤمنين باسمه ، المحبين له ، الحافظين وصاياه .

إذاً تصف هذه الآيات بطرس بأنه بداية الشركة بين المؤمنين الذين يعترفون اعترافا نظيره ... لكن أساس الكنيسة الواحد هو الله وربنا يسوع المسيح .

أبواب الجحيم

(متى ١٦ : ١٧ — ١٩)

يستمر السيد المسيح فى حديثه إلى بطرس عن الكنيسة قائلا : « وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » — فماذا يقصد بذلك ؟ إن معنى قوة الأبواب ليس معنى مألوفا أو صورة عادية . ويمكن أن نجد لهذا التعبير عدة تفسيرات .

١ — فقد تكون الصورة المعبر عنها هنا هى صورة قلعة أو حصن . ومن يزور قيصرية فيلبس

اليوم يرى على الجبل المواجه لها بقايا وخرائب قلعة هائلة ، كانت قائمة فى كل مجدها عندما نطق يسوع بهذا الكلام ... ولعل يسوع نظر إلى تلك القلعة ، وفكر فى كنيسته باعتبارها قلعة تواجهها قلعة أخرى معادية ، وهو يقول إن قوات أعداء الكنيسة لن تتغلب عليها أبدا ، أو أن الشر فى قوته لن يهزم الكنيسة فى النهاية .

٢ — ويقول أحد الشراح إن « الباب » فى الاصطلاح الشرقى القديم ، خاصة باب القرية أو البلدة الصغيرة ، كان هو المكان الذى يجلس فيه شيوخ القرية وحكامها ليقدموا مشوراتهم ، وليجروا العدالة والقضاء . فمثلا ، تقول الشريعة إنه « إذا كان الرجل ابن معاند ومارد لا يسمع لقول أبيه ، ولا لقول أمه ويؤدبانه فلا يسمع لهما ، يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه ... » (تثنية ٢١ : ١٨ ، ١٩) وهناك ينال عقابه . وفى (تثنية ٢٥ : ٧) يأتى صاحب المشكلة إلى « الباب إلى الشيوخ » ليقدم حكايته . فالباب هو مكان الحكم ، وكانت حكومة تركيا فى عهد الدولة العثمانية تسمى « الباب العالى » — فأبواب الجحيم معناها أن حكم الجحيم وشكايته وسلطانه لن يتغلب أو يقوى على كنيسة المسيح .

٣ — وهناك من يقولون إن الإشارة هنا إلى قيامة المسيح . ويستندون فى ذلك إلى أن الكلمة مترجمة « الجحيم » تشير ، لا إلى جهنم النار ، ولكن إلى « الهاوية » ، وهى المكان الذى كان اليهود يعتقدون أنه مكان انتظار جميع الموتى ، وليس مكان عقاب الأشرار ، وأن اللفظ عينه مستخدم فى (أعمال ٢ : ٢٧) « لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية (هادس) ، ولا تدع قدوسك يرى فسادا » .

ويفسرون قول المسيح لبطرس إنه ، وقد اكتشف حقيقة يسوع أنه المسيح ابن الله ، فسيرى أن أبواب الهاوية لن تقوى على المسيح رب الكنيسة .

وأيا كان شرح هذه الآيات ، فإنها تعبر عن النصرة العظيمة للمسيح ولكنيسته .

مركز بطرس فى الكنيسة

(متى ١٦ : ١٩)

هنا نرى بعض الامتيازات التى أعطاها المسيح لبطرس ، وبعض المسئوليات .

أولا : قول المسيح لبطرس « وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات » وهذه عبارة ليست سهلة ، لذلك فلندرس معناها بتدقيق :

١ — تشير هذه العبارة إلى سلطة أو قوة خاصة لبطرس . قال الربيون « إن مفاتيح الولادة ، والمطر ، وقيامة الأموات ، فى يد الله » . ومعنى ذلك أن قوة خلق الحياة ، وإرسال المطر ، وإقامة الموتى تقتصر على الله فقط . فهذه العبارة تشير إلى سلطة فريدة لبطرس .

٢ — وفى مألوف القول فى العهد الجديد ، نرى هذه العبارة تصف يسوع ، ففى يده وحده ،

لا فى يد غيره ، توجد المفاتيح . ففى (رؤيا ١ : ١٧ ، ١٨) نقرأ قول المسيح المقام « أنا هو الأول والآخر ، والحى وكنت ميتا ، وها أنا حى إلى أبد الآبدين آمين ، ولى مفاتيح الهاوية والموت » — وفى (رؤيا ٣ : ٧) يقول المسيح المقام (هذا يقوله القدوس الحق الذى له مفتاح داود الذى يفتح ولا أحد يغلق ويغلق ولا أحد يفتح » .

ولا نستطيع أن نقول أبدا إن السلطان الذى أعطاه المسيح لبطرس — أيا كانت صورته — ينسخ أو يلغى أو يبطل حقا من جوهر حقوق الله وابنه الوحيد .

٣ — وهذه الصور التى نقرأها فى العهد الجديد عن مفاتيح الملكوت ، أو مفتاح الهاوية والموت أو مفتاح داود ، كلها مأخوذة من سفر إشعياء — ونحن نقرأ فيه (إشعياء ٢٢ : ٢٠ — ٢٢) « ويكون فى ذلك اليوم أنى أدعو عبدى ألياقيم بن حلقيا وألبسه ثوبك وأشده بمنطقتك وأجعل سلطانك فى يده فيكون أبا لسكان أورشليم ولبيت يهوذا . وأجعل مفتاح بيت داود على كتفه فيفتح وليس من يغلق ويغلق وليس من يفتح » .

وصورة ألياقيم هنا هى صورة « خادم البيت الأمين » ، الذى يفتح الباب فى الصباح ويغلقه فى المساء ، ويسمح للزوار أن يلتقوا مع الملك .

وإذا طبقنا التعبير عينه والصورة عينها على بطرس ، تدرك أن قصد المسيح هو أن يكون بطرس الخادم الأمين للملكوت ، الذى معه المفتاح ليفتح باب الملكوت أمام الراغبين فى الخلاص . وقد حدث هذا فعلا فى يوم الخمسين عندما قدم بطرس عظته الأولى وفتح الباب أمام ثلاثة آلاف نفس دخلوا إلى الملكوت (أعمال ٢ : ٤١) . وقد حدث ذلك أيضا عندما فتح الباب أمام الأممى كرنيليوس قائد المئة ، فدخل الأمم إلى الملكوت (أعمال ١٠) . وفى الاصحاح الخامس عشر من سفر الأعمال ، فى شرح ما حدث فى مجمع أورشليم ، نسمع كيف أن سمعان (وهو بطرس) أخبر كيف افتقد الله أولا الأمم ليأخذ منهم شعبا على اسمه (أعمال ١٥ : ١٤) .

وهكذا نرى الوعد العظيم لبطرس عن مفاتيح ملكوت السموات قد تحقق ، فصار بطرس واسطة استخدمها الله لربح الآلاف إلى ملكوت السموات ، والواضح أنه ليس لبطرس وحده هذه المفاتيح ، ولكنها لكل مؤمن يفتح الطريق أمام الناس ليدخلوا الملكوت ويدعوهم إليه .

(ثانيا) ثم قول المسيح لبطرس : إن كل ما يربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات ، وكل ما يحله على الأرض يكون محلولا فى السموات . يقول بعض الشراح إن المقصود بهذا هو سلطان بطرس فى شرح كلمة الله وإعلان مقاصد الله باعتباره بين التلاميذ الذين اختارهم الله ليوحى إليهم بالروح القدس تتمة الأسفار المقدسة ، وليس هذا الوعد مخصصا لبطرس وحده بل لكل التلاميذ . فقد قال لهم يسوع « كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء . وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء (متى ١٨ : ١٨) . وهذا نتيجة اعلان قصد الله لهم .

ويقول آخرون إن المقصود هنا أن بطرس بوعظه يجعل الخطية عبئا مربوطا على ضمير البشر ، ثم بتقديم رسالة الخلاص والغفران لهم يرفع عنهم هذا العبء بغفران الله لهم .

ويعود آخرون من الشراح إلى معنى كلمتى « يحل » و « يربط » فى الاستخدام التاريخى لهذه الكلمات فى حياة معلمى اليهود ، فقد كانوا يستخدمونها للإشارة إلى ما يسمح به المعلمون ويجيزونه ، وما يمنعونه ويحرمونه . فعندما يحل الأمر ، يعنى أنه جائز ومسموح به ، وعندما يربطه يعنى أنه ممنوع ... وقد كانت هذه التعبيرات مألوفة فى القرارات التى تتخذ فى شرح وصايا الناموس .

وهذا ما قصده المسيح فى حديثه لبطرس من حيث أنه سيكون مسئولا فى الكنيسة ، ليقود الكنيسة الناشئة إلى التعاليم الصحيحة والقرارات الهامة التى لها شأن فى مستقبل الكنيسة والنفوس .

التوبيخ العظيم

(متى ١٦ : ٢٠ ـ ٢٣)

على الرغم من أن التلاميذ أدركوا أخيرا أن يسوع هو المسيا أو مسيح الله ، لكنهم لم يدركوا المعنى الكامن وراء هذه الحقيقة . فبالنسبة لهم كانت هذه الحقيقة تعنى شيئا يختلف تماما عما كانت تعنيه بالنسبة للمسيح . فقد كانوا يفكرون فى المسيا كقائد مقاتل يحارب الرومان ويطردهم من فلسطين ، ويقود شعب إسرائيل إلى السلطان والمجد . لذلك أوصاهم يسوع أن لا يقولوا لأحد إنه المسيا ، لأنهم لو ذهبوا ونادوا بمفهومهم الخاص عن المسيا لنجحوا فى إشعال نار فتنة وعصيان ينتهى بالخراب والشقاء . ولذلك كان ينبغى أن يفهموا ما هى رسالة المسيا الحقيقية وبين فهمهم هم لهذه الرسالة . وما هو عمله الصحيح قبل أن انه سيتألم على يد أعضاء مجمع السنهدريم وقادة الدين فى البلاد .

لذلك ابتدأ يسوع يفتح عيونهم لحقيقة هامة جوهرية ، وهى أنه ليس طريق للمسيا سوى طريق الألم والصليب . فقال لهم إنه ينبغى أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيرا من « الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة » . وهذه هى الجماعات الثلاث التى كان مجمع السنهدريم يتكون منها فالشيوخ هم الجماعة ذات الكرامة بين الناس ، ورؤساء الكهنة كان أغلبهم من الصدوقيين ، والكتبة كانوا من الفريسيين . وكأن المسيح يقول بعبارة أخرى إنه سيتألم على يد أعضاء مجمع السنهدريم وقادة الدين فى البلاد .

وكان بطرس قد نشأ على الاعتقاد أن المسيا صاحب صولجان وقدرة حربية . لذلك كانت فكرة المسيا المتألم أمرا لا يصدق أبدا فى نظره ... ولم يستطع أن يستسيغ أبدا العلاقة بين المسيا وبين الألم والصليب ، لذلك أمسك بيسوع ، وعلى حد قول الإنجيل « أخذه إليه » أى أحاط به بيديه ، كأنما يريد أن يمنعه من عمل خطير ، وقال له حاشاك يارب لا يكون لك هذا ... وهنا نسمع التوبيخ الصارم الذى يذهلنا ويجعلنا نمسك بأنفاسنا إذ نسمع المسيح يقول له : « اذهب عنى ياشيطان » .

ونحن لا نعتقد أن يسوع نطق بهذه العبارة فى ثورة غضب وحقد ، ولكنه قالها بلهجة عتاب

وقلب جريح ، وبحزن عميق ، وبقشعريرة رعب وفزع ، ذلك لأنه فى تلك اللحظة عادت تلك العبارة إلى يسوع بقوة التجارب القاسية التى واجهها فى البرية قبل بدء خدمته الجهارية ــ فقد جربه إبليس باستخدام طريق القوة للوصول إلى أهدافه « قل لهذه الحجارة أن تصير خبزا ... أعطهم ماديات الحياة ، ليتبعوك ... أعطهم المباهج والمغريات ليصيروا مخلصين لك ... اجذبهم بالعجائب التى تبهر إحساساتهم ... اتفق مع العالم ، واخفض من مثاليتك لتلتقى مع العالم فى منتصف الطريق ... وهكذا يتبعونك » .

هذه كانت تجارب الشيطان له ... وهكذا عادت إليه الآن ... ولم تكن التجارب بعيدة عن يسوع ، بل إن لوقا بإحساسه المرهف أدرك ما كان يعانيه يسوع ، فكتب عند وصف تجارب البرية « ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين » (لوقا ٤ : ١٣) .

وهكذا جاءه المجرب يصارعه ، فلا أحد يريد الصليب ، وكل إنسان لا يرغب أن يموت معذبا ... وحتى فى جثسيمانى كان يصارع مع التجربة ... وهنا يقدمها له بطرس ...

ولعل حدة انتهار يسوع لبطرس تبين لنا أن بطرس كان يردد ما كان الشيطان يهمس به فى أذن يسوع .

لهذا كان بطرس شيطانا فى هذه اللحظة . و « كلمة شيطان » معناها أصلا « خصم أو عدو أو معاكس » ، ولهذا كان بطرس فى هذه اللحظة يهتم بأفكار الناس لا بأفكار الله ، لأن الشيطان كان على الدوام يحاول أن يبعده عن طريق الله .

وهكذا نرى أن أية قوة أو إغراءات تحاول أن تبعدنا عن طريق الله هى قوة من الشيطان .

وما جعل هذه التجربة قوية وقاسية أنها جاءت من شخص يحب يسوع ... فإن بطرس فكر فيما فكر فيه ، لأنه كان يحب يسوع ، وما كان يقدر أن يحتمل أن يجوز يسوع طريق الألم والموت .

وإن أقسى تجاربنا هى التى تأتينا من المحبة التى تظن أنها تريد أن تحمينا ، فتبعدنا عن أخطار الطريق الذى رسمه الله ، لكن المحبة الحقيقية ليست هى التى تجعل الجندى حبيس البيت ، بل هى التى تدفعه إلى القتال ليلبى نداء الواجب ... المحبة الحقيقية ليست تلك التى تجعل الحياة سهلة ، بل تلك التى تجعل الحياة عظيمة .

التحدى العظيم

(متى ١٦ : ٢٤ ــ ٢٦)

هنا نجد أقوالا وموضوعات اهتم يسوع أن يكررها ويواجه بها الناس مرات متعددة ، ونحن نلاحظ أن هذا الموضوع بالذات تكرر فى عدة مناسبات فى روايات الإنجيل .

(متى ١٠ : ٣٧ ــ ٣٩ ــ مرقس ٨ : ٣٤ ــ ٣٧ ــ لوقا ٩ : ٢٣ ــ ٢٧ ــ لوقا ١٤ :

٢٥ ــ ٢٧ ــ لوقا ١٧ : ٢٣ ــ يوحنا ١٢ : ٢٥) .

وفى كل هذه المناسبات نرى يسوع يواجه الناس بتحديات الحياة المسيحية . وهناك ثلاثة أمور يتعين على الإنسان أن يكون مستعدا لها إذا أراد أن يحيا الحياة المسيحية كما يقصدها المسيح .

١ ــ فعليه أولا **أن ينكر نفسه** : ونحن عادة نستخدم هذا التعبير « إنكار الذات » استخداما ضيقا محدودا ، لأننا نقصد به أن الإنسان يتخلى عن بعض الأشياء والرغبات فى حياته . وبعض الناس يقولون إنهم يقضون أسبوعا فى التذلل أو إنكار الذات ، وهم يقصدون بذلك أنهم يتخلون عن بعض المسرات والكماليات فى حياتهم مدة هذا الأسبوع ، لكى يساهموا فى مشروع نافع صالح .

والواقع أن هذا جزء صغير جدا من معنى « إنكار الذات » الذى يقصده يسوع المسيح . فإنكار النفس معناه أننا فى كل لحظة من حياتنا نقول (لا) للذات ونقول (نعم) الله . فإنكار النفس هو إنزال الذات من على العرش مرة واحدة وإلى الأبد ، وتمليك الله على هذا العرش . فمن ينكر نفسه ، يمحو فكرة اعتبار ذاته عاملا سائدا فى الحياة ، ويجعل الله المبدأ السائد فى الحياة والعواطف . فالحياة المنكرة لذاتها هى الحياة التى ترضخ على الدوام لله .

٢ ــ وعليه أن **يحمل صليبه** . وبعبارة أخرى عليه أن يحمل عبء التضحية . فالحياة المسيحية هى حياة الخدمة المضحية ، وقد يضطر المسيحى أن يهجر الطموح الشخصى ليخدم المسيح ، وقد يتبين أن المكان الذى يستطيع منه أن يقدم أعظم خدمة للمسيح هو المكان الذى ينال فيه أقل مكافأة ، ويكون فيه بلا مقام أو هيبة دنيوية . ولاشك أنه سيضحى بالوقت الذى كان يمكنه فيه أن يبحث عن السرور ، وذلك فى سبيل خدمة الله عن طريق خدمة الناس .

فالمسيحى قد يضحى بمتعة النزهة ، أو الراحة والتسلية ، لكى يخدم فى الكنيسة ، وفى اجتماعات الشباب ، ونوادى الكنيسة ، ولكى يزور مريضا أو يعزى حزينا أو يؤنس وحدة متضايق . إنه يضحى بوقته وجهده لكى يستطيع أن يقدم شيئا للآخرين .

والحياة المسيحية حياة تضحية دائمة ، وقد استطاع لوقا أن يلمح هذا النور ، فذكر قول المسيح كاملا « يحمل صليبه كل يوم » . فليست الأهمية فى لحظات من التضحية الطارئة ، ولكن الأهم هو أن نقضى حياة كاملة فى التضحية وإدراك قصد الله وتلبية حاجات الآخرين .

إن الحياة المسيحية هى حياة مهتمة على الدوام بالآخرين .

٣ ــ وعليه **أن يتبع يسوع المسيح** ، وأن يقدم له الطاعة الكاملة . وفى ألعاب الأطفال لعبة تسمى « أتبع قائدى » . وفيها يقوم الأطفال بكل حركة يعملها القائد ، ومهما كانت صعبة . إن الحياة المسيحية هى حياة اتباع القائد فى الفكر والقول والعمل ، فالمسيحى يسير فى إثر خطوات المسيح حيثما سار .

إضاعة الحياة ووجودها

(متى ١٦ : ٢٤ — ٢٦)

فى هذه الحياة التى نحياها . ما أبعد الفرق بين « الحياة » ومجرد « الوجود » فالإنسان الموجود كائن يتنفس برئتيه ، ونبضات قلبه تدق . ويأكل ويشرب ويلبس ... لكن الإنسان الحى يشعر بأنه يحيا فى عالم لكل شىء فيه دلالة وأهمية .. عالم يتمتع فيه بسلام النفس . وبهجة القلب ، ونشوة فى كل ثانية . وفى حديث السيد المسيح نراه يميز الحياة عن مجرد الوجود .

١ — فالإنسان الذى يسعى نحو السلامة مهما كان الطريق إليها ، هو الذى يفقد الحياة وحيويتها — ربما كتب متى هذه البشارة بين عامى ٨٠ ، ٩٠ ميلادى . وكان يقول للناس « قد يأتى الوقت الذى فيه تستطيعون أن تنقذوا حياتكم ، بهجران إيمانكم ، ولكن إن فعلتم فأنتم فى الواقع تضيعون حياتكم بمعناها الأصح » . والرجل الأمين قد يموت ، لكنه يموت ليحيا . والخائن الذى يهجر إيمانه فى سبيل السلامة ، قد يحيا لكنه يحيا ميتا ويموت .

وفى عصرنا الحاضر ، قد لا نجد الظروف المماثلة التى تتطلب منا الاستشهاد ، ولكن القاعدة تظل صحيحة — فإن كنا نواجه الحياة وهدفنا السلامة والأمان والراحة واليسر ، وإذا كانت مبادىء الحذر الدنيوية ومبادىء الحكمة العالمية تتحكم فى قراراتنا ، فإننا نفقد ما يجعل الحياة حياة ، وتصير الحياة مترهلة بلا طعم ، وتصير شيئا أنانيا بينما كان يمكن أن تكون زاخرة بالحركة ، متألقة بالخدمة .

تاجر اهتم بتجارته بحيث جعلته ينسى سائر القيم الإنسانية ، فلما مات كتب أحدهم على قبره « ولد إنسانا ومات بقالا كبيرا » ويمكن لأى حرفة أو مهنة أخرى أن تصير الإنسان هكذا ...

لقد صنع الإنسان على صورة الله ، فما أتعس حالة ذاك الذى يفقد إنسانيته فى سبيل الراحة واليسر .

٢ — والإنسان الذى يخاطر ويحسب أنه فقد كل شىء — من أجل المسيح ، سيجد الحياة . إن أبسط الدروس التى نتعلمها من التاريخ هو أن الذين ودعوا الراحة والأمان ، وخاطروا فى سبيل المبادىء الشريفة ، هم الذين خلد التاريخ أسماءهم وغيروا معالم التاريخ . فلولا مخاطرة العلماء فى الطب لما تقدمت وسائل العلاج ، ولولا مخاطرة المكتشفين لما تقدمت العلوم .

إن الذين صنعوا التاريخ ، وصاروا خالدين فيه ، هم الذين خاطروا وفقدوا حياتهم وأضاعوها ...

٣ — ويختتم السيد حديثه بتحذير قائلا « لنفرض أن الإنسان سعى من أجل الراحة ، وابتدأ يربح حتى ربح العالم كله ، لكنه شعر بملل الحياة وشقائها ، وأصبحت الحياة فى نظره بلا قيمة ... فماذا ينتفع ؟ وماذا يعمل ليستعيد سعادة نفسه ؟ — والجواب البديهى هو أنه لا ينتفع شيئا .

إن كل قرار فى حياتنا ، يترك أثرا على شخصيتنا ، ونحن باتجاهاتنا ومواقفنا اليومية ازاء مختلف

الأمور نبنى شخصياتنا ، ونحدد طبيعة حياتنا وعاداتنا ، بكيفية لا نستطيع أن نتراجع عنها . ومن الممكن للإنسان أن يصل إلى أشواق قلبه ، وما يتمناه فؤاده ، لكنه يستيقظ فى الصباح ليجد أنه فى سبيل الحصول على ما يريده ، قد فقد بعض القيم الأخرى التى لا يستطيع تعويضها .

فقد يفقد حب الناس واحترامهم ، وقد يفقد راحة الضمير ، وقد يفقد الله نفسه ... إن كلمة « العالم » فى قول المسيح تمثل كل الماديات التى تناوىء الله وتعترضه فى حياتنا . ونستطيع أن نصف الماديات بهذه الأوصاف : —

(أ) لا يستطيع إنسان أن يأخذها معه فى النهاية . إنه يأخذ نفسه فقط . وإذا أهان الإنسان نفسه من أجل الماديات فسوف يكون أسفه شديدا .

(ب) إن الماديات لا تستطيع أن تعين الإنسان وتسنده عندما تتقدم به الأيام . والماديات لا تجبر قلبا كسيرا ، ولا تؤنس وحيدا .

(ج) إنه اذا ربح انسان ما متاع هذه الدنيا بوسائل غير شريفة فسيأتى يوم فيه يتكلم ضميره ... وعندما يتكلم الضمير تبدأ جهنم النار قبل الموت .

وما أكثر الأصوات التى تنادى فى العالم ، لتصف ذلك الذى يبيع الحياة بالماديات ، بالغباء ...

٤ — ثم يسأل السيد فى النهاية « أو ماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه ؟ » — ويمكن أن يكون معنى السؤال أحد أمرين :

(أ) يجوز أن يكون المعنى أن الإنسان إذا فقد حياته الحقيقية ، بسبب رغبته فى متاع هذه الدنيا وراحتها ، فمهما يدفع الإنسان من الماديات لا يمكن أن يعيد إليه لذة الحياة التى فقدها ، لأن حياته تكون قد تشكلت تشكيلا خاصا يصعب إعادتها الى ما كانت عليه .

(ب) ويمكن أن يكون المعنى : إن الإنسان مدين بحياته كلها ليسوع المسيح ، وليس شىء يمكن أن يعطيه المرء للمسيح بدلاً من حياته . فالإنسان قد يحاول أن يعطى المال ، ويمنع نفسه . وقد يحاول أن يعطى للمسيح خدمة الشفتين ويمنع نفسه . وبعض الناس يدفعون تقدماتهم المالية للكنائس لكنهم لا يذهبون إليها للعبادة ... إن هذا لا يوفى مطاليب العضوية .

إن العطية الصحيحة للكنيسة هى أنفسنا وأشخاصنا ، والعطية الصحيحة الوحيدة هى حياتنا كلها . ولا بديل لذلك ، ولا ينفع أقل من الحياة كلها .

التحذير والموعد

(متى ١٦ : ٢٧ و ٢٨)

هنا نرى قولين متميزين ، أحدهما عن الآخر تماما . فالقول الأول تحذير والثانى وعد — ومن يحاول أن يربط هذين القولين معا يتعرض للخطأ فى التفسير .

١ ــ فالقول الأول تحذير وإنذار بأن الدينونة أمر لابد منه . ففى وقت ما ستنتهى الحياة وسيؤتى بها إلى الدينونة . وفى كل مجال من مجالات الحياة لابد من يوم الحساب . والمسيحية تعلم صريحا أن هناك دينونة بعد الموت . وإذا ربطنا هذه الآية بالجزء السابق لها نرى أيضا أن من يحيا فى الحياة أنانيا طالبا راحته وأمانه دون الاهتمام بالقيم الإنسانية ، تعتبره السماء فاشلا وتعسا مهما بلغ الغنى والنجاح . ومن ينفق حياته لأجل الآخرين فى مخاطرة الإيمان والتضحية والخدمة ، هو الذى يتلقى من السماء المدح وخير المكافأة .

٢ ــ أما العبارة الثانية فهى وعد . وعندما نقرأ رواية متى لهذا الوعد يخيل إلينا أن يسوع وعد بمجيئه الثانى فى أثناء حياة بعض الذين سمعوا هذا الكلام . وقد ظن بعض التلاميذ كذلك ، ونحا هذا النحو بعض المؤمنين فى الكنيسة المسيحية الأولى . لكننا إذا قارنا ما ذكره متى . بما ذكره مرقس فى هذا الصدد ، يتضح لنا المعنى المقصود من المقارنة ، فقد ذكر مرقس أن يسوع قال : « وقال لهم الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة » (مرقس ٩ : ١) . فالسيد يقصد إتيان ملكوت الله بقوة ، وما ذكره حدث فعلا وتم . فقد كان من القيام فى ذلك الوقت ، قوم رأوا يسوع آتيا عند حلول الروح القدس يوم الخمسين . وهو وعد ذكره يسوع للتلاميذ بقوله :

« لا أترككم يتامى . إنى آتى اليكم » (يو ١٤ : ١٨) .

لقد كان من بين القيام فى ذلك الوقت من رأوا الأمم واليهود يدخلون جماعات فى ملكوت الله ، ومن رأوا تيار المسيحية يمتد إلى آسيا الصغرى وينتقل إلى أوربا حتى وصل إلى روما نفسها .

من ثم نرى يسوع يحذر تلاميذه لينتبهوا للحقيقة التى ستحدث . إنه سيذهب إلى أورشليم وهناك سيتألم ويموت .

كان هذا هو العار الذى سيتحمله المسيح ، لكن العار لن يبقى إلى النهاية ، فبعد الصليب جاءت القيامة . فلم يكن الصليب نهاية ، بل كان بداية انطلاق القوة التى سوف تكتسح العالم .

إن هذا وعد للتلاميذ بأنه ليس شىء يعطل امتداد الملكوت وانتشاره .

الأصحاح السابع عشر

جبل التجلى

(متى ١٧ : ١ – ٨)

جاء اختبار التجلى المجيد مباشرة بعد اللحظات الرائعة التى كانت فى قيصرية فيلبس .

وإذا أردنا أن ندرس الظروف التى حدث فيها هذا المجد ، وشاهده التلاميذ الثلاثة المختارون نتساءل أولا عن الجبل الذى حدث عليه التجلى . ويظن البعض أنه جبل تابور ، ولكن الأرجح أنه جبل حرمون . ذلك لأنه كانت هناك قلعة على قمة جبل تابور ، ويستبعد أن يكون التجلى قد حدث هناك ، هذا فضلا عن أن جبل حرمون يبعد عن قيصرية فيلبس بنحو أربعة عشر ميلا ، وهو جبل عال حتى ليرى من عند البحر الميت على بعد أكثر من مائة ميل . وارتفاع جبل حرمون ٩٤٠٠ قدم عن سطح البحر . وربما يكون التجلى قد حدث فى إحدى مناطق هذا الجبل وليس فى القمة لأنها مرتفعة جدا .

ويعتقد بعض الشراح ومنهم (باركلى صاحب هذا التفسير) أن حادثة التجلى حدثت فى المساء أو فى الليل ، ويستشهد على ذلك بما ذكره لوقا :

« أما بطرس واللذان معه فكانوا قد تثقلوا بالنوم » (لوقا ٩ : ٣٢) .

كما يستدل على ذلك بأنهم نزلوا من الجبل فى صباح اليوم التالى (لوقا ٩ : ٣٧) .

أما موضوع المظال التى اقترح بطرس صنعها ، فيمكن تفسيرها برغبة بطرس فى الإقامة الطويلة التى كان يريدها فى ذلك المكان .

ثم نتساءل لماذا ذهب يسوع إلى الجبل ، وفى ذلك المكان المنعزل المنفرد . ولوقا يشرح لنا السبب ، حين يقول إنه كان يصلى (لوقا ٩ : ٢٩) . فلو أننا وضعنا أنفسنا فى موقف المسيح . لفهمنا أكثر .. كان المسيح فى طريقه إلى الصليب ، وكان واثقا أن الصليب اختبار أكيد بالنسبة له . وقد تحدث مع تلاميذه عدة مرات فى هذا الأمر — وقد رأيناه فى قيصرية فيلبس يهتم بأن يعرف ما إذا كان أحد التلاميذ قد استطاع أن يعرف شخصيته ورسالته ، ورأينا اعتراف بطرس الجرىء أن يسوع هو المسيح ابن الله الحى ... وهكذا نرى يسوع ، فى الأيام الأخيرة قبل الصليب ، يريد أن يتجلى مع الآب ليزداد وثوقا من هذه المشيئة الإلهية ، وكأنه كإنسان يريد ، وهو يوجه نظره نحو أورشليم ، أن يسأل الآب « هاأنذا ذاهب إلى أورشليم ، لإتمام مشيئتك ، وها أنذا فى انتظار أوامرك ، والإصغاء لصوتك » .

إن الفرق الكبير بين يسوع وبيننا ، إن يسوع كان دائما يسأل « ماذا يريدنى الله أن أعمل ؟ » . بينما نحن نسأل فى أكثر الأحيان « ماذا نريد أن نعمل ؟ » ، أو « ماذا نريد أن يعمل الله لنا ؟ » — ونحن نشير مرات إلى أن يسوع انفرد بهذه الصفة ، وهى أنه « بلا خطية » . فماذا نعنى بذلك

من بين معانى هذا التعبير أن يسوع كان بلا إرادة ذاتية سوى ارادة الله .

كان شعاره « لتكن مشيئتك . لا كما أريد بل كما تريد أنت » . وعندما كان يسوع يواجه مشكلة ما ، لم يكن يحاول أن يجد حلا لها بقوته الذاتية ، ولا بمشورات بشرية ، لكنه كان يحملها الى مكان الاختلاء مع الله .

بركة الماضى :

هناك على الجبل ، ظهرت ليسوع شخصيتان عظيمتان ، هما موسى وإيليا . ونحن بقليل من التأمل ، ندرك كيف كان اختبار هذين الرجلين قريبا من اختبار يسوع . فعندما نزل موسى من على جبل سيناء ، كان وجهه يلمع وهو لا يعلم (خروج ٣٤ : ٢٩) . وكان لكل من موسى وإيليا أعمق اختبار عن أوثق شركة مع الله على قمة جبل — فعلى قمة جبل سيناء تلقى موسى لوحى الشريعة (خروج ٣١ : ١٨) ، وفى جبل حوريب وجد إيليا الله ، ولم يكن الرب فى الريح ، ولا فى الزلزلة ، ولا فى النار ، لكن فى صوت منخفض خفيف (١ ملوك ١٩ — ١٢) .

ونحن نرى شيئا من الغرابة فى كنيسية انتقال كل من موسى وإيليا من هذا العالم . وسفر التثنية (٣٤ : ٥ و ٦) يروى لنا عن موت موسى وحيدا فى جبل نبو ، أن اللّه هو الذى دفنه ، بقوله « ودفنه فى الجواء (الوادى) فى أرض موآب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم » .

أما إيليا ، فان قصة الكتاب تروى كيف أخذته مركبة من نار وخيل من نار ، مما أذهل اليشع الذى كان يسير معه (٢ ملوك ٢ : ١١) — وهكذا نرى هاتين الشخصيتين اللتين يروى عنهما الكتاب أنهما أعظم من الموت ، تظهران ليسوع ، وهو يستعد للذهاب إلى أورشليم ليموت .

وقد رأينا اعتقاد اليهود بأن إيليا سيكون هو المنبىء بمجيء المسيا ، والذى يعبد الطريق قدامه ، وقد اعتقد بعض معلمى اليهود أن موسى سيصحب المسيا عند مجيئه أيضا ...

كل هذه ليست مبررات لظهور موسى وإيليا ليسوع . لكننا عندما نقرأ رواية لوقا عن التجلى ، نرى تعبيرا عجيبا له دلالته التى لا شك فيها . يقول لوقا « وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليا اللذان ظهرا بمجد وتكلما عن خروجه الذى كان عتيدا أن يكمله فى أورشليم » (لوقا ٩ : ٣٠ و ٣١) .

ونلفت الانظار هنا إلى التعبير « خروجه » ، الذى كان موضوع حديث رجلى التاريخ العظيمين مع يسوع ، فلهذا القول مدلول واضح لأنه يذكرنا بحادثة تاريخية ، وهى خروج الشعب الإسرائيلى من أرض مصر ، إلى الصحراء وطريقها المجهول . إن كلمة « خروج » تصف ما يصح أن نسميه أعظم رحلة مخاطرة فى التاريخ الإنسانى، فهى رحلة أظهر فيها شعب بجملته كامل الثقة فى الله ، فخرجوا إلى المجهول .. وهذا ما كان على يسوع أن يعمله تماما . ففى كامل الثقة والتسليم لله . كان يتخذ طريقه فى رحلة المخاطرة الهائلة إلى أورشليم ... وهى رحلة تحوطها أخطار وتتضمن صليبا ، فى النهاية طريق إلى المجد .

وفى الفكر اليهودى كان موسى أعظم المشرعين ، فهو الرجل الفريد الذى حمل شريعة الله إلى البشر . أما إيليا فكان أعظم الأنبياء ، ففيه تكلم صوت الله إلى البشر بطريقة فريدة محددة قوية مباشرة . فموسى وإيليا هما قمة التاريخ اليهودى الدينى ... هما الناموس والأنبياء ... وفى ظهورهما ليسوع ، وهو فى طريقه إلى أورشليم ، نرى كيف كان قصد الله أن يظهرا ليبين كيف أن التاريخ يشير إلى يسوع المسيح ، والناموس والأنبياء يقودون إليه ، وتتحقق فيه مقاصد الله العظمى التى كان الناموس والأنبياء من خطتها بالنسبة للبشر . لقد كان ظهورهم إشارة البدء فى انطلاقة العهد الجديد الذى بدأ بصليب المسيح ، وخروجه إلى أورشليم وإلى الجلجثة .

فضلا عن ذلك ، لم يكن ظهور أعظم المشرعين وأعظم الأنبياء علامة تأكيد لصحة اتجاه يسوع فحسب ، بل إن صوتا من السماء ، من الله نفسه ، يؤكد أن يسوع يسير فى الطريق الصحيح . وكان الصوت « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت له اسمعوا » . وقد جاء الصوت بعد اقتراح بطرس بصنع ثلاث مظال ليسوع وموسى وإيليا ... ليؤكد أن أعظم إعلان هو إعلان الابن ... له اسمعوا ... فهو أعظم من موسى وإيليا ، وإعلانه أعظم وأكمل من إعلان الناموس والأنبياء .

ويتحدث كل البشيرين عن السحابة النيرة التى ظللتهم . ويبدو أن السحابة جزء من التاريخ الإسرائيلى ، ففى كل التاريخ الإسرائيلى كانت السحابة النيرة تشير إلى ما يسمى « الشكينة » التى هى مجد الله القادر على كل شىء ...

ففى سفر الخروج نقرأ عن عمود السحاب « كان الرب يسير أمامهم نهاراً فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق وليلا فى عمود نار ليضيء لهم » (خروج ١٣ : ٢١) .

ونقرأ أيضا فى سفر الخروج « أنه عند بناء خيمة الاجتماع وإتمامها غطت السحابة خيمة الاجتماع وملأ بهاء الرب المسكن » (خروج ٤٠ : ٣٤) . ونحن نذكر أنه فى السحاب ، نزل الرب ليعطى لوحى الشريعة لموسى (خروج ٣٤ : ٥) .

ونعود ونلتقى مع هذه السحابة النيرة الغامضة عند تدشين هيكل سليمان « وكان لما خرج الكهنة من القدس أن السحاب ملأ بيت الرب . ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب لأن مجد الرب ملأ بيت الرب » (١ ملوك ٨ : ١٠ و ١١) . وهكذا نقرأ فى (٢ أيام ٥ : ١٣ و ١٤ ، ٧ : ٢) . ففى كل أسفار العهد القديم نرى صورة السحابة ، التى تعبر عن مجد الله العجيب .

لقد كان جبل التجلى قمة اختبار روحى عجيب فى حياة يسوع . كان « خروجه » فى بدايته ، وكان السؤال يجول فى خاطره كإنسان « هل هذا هو الطريق الصحيح ، طريق المخاطرة إلى الصليب فى أورشليم ؟ » — لذلك جاءه تأييد التاريخ القوى فى ظهور أعظم المشرعين وأعظم الأنبياء ، ثم سمع صوت الله المباشر ، ومجده الظاهر فى السحابة النيرة ، ليؤكد له أنه فى الطريق الصحيح .

درس للتلاميذ :

لكن جبل التجلى لم يكن مجرد رسالة إلى يسوع فحسب ، بل كان رسالة إلى التلاميذ أيضا :

١ — فلا شك أن عقول التلاميذ كانت حائرة ومشدوهة بسبب الحاح يسوع أن يذهب إلى أورشليم ليتألم ويعامل كمجرم ويصلب ويموت ... لقد كانت هذه الخواطر تبدو أمامهم كشبح إذلال وعار مهين .. لكننا نرى جو جبل التجلى كله فى مجد ... فوجه يسوع كان يلمع كالشمس . وثيابه صارت بيضاء كالنور .. وقد كانت هذه المظاهر من مواعيد الله للمنتصرين .. فلم يكن اليهودى يرى السحابة النيرة دون أن يفكر فيما يعرفه اليهود (بالشكينة) أى مجد الله المستقر على شعبه .

لقد كان هذا الاختبار لازما للتلاميذ ليرفع من معنوياتهم ويدركوا أن المجد يأتى عن طريق العار ... والنصر عن طريق الألم ، والتاج بعد الصليب . وربما لم يدركوا هذه الحقيقة تمام الإدراك ، لكن اختبار التجلى أعطاهم شيئا من الاطمئنان ، بأن الآلام المنتظرة فى أورشليم ، سيكون عن طريقها نوع من المجد والبهاء .

٢ — وعندما استيقظ بطرس ليرى ذلك المنظر البهى سارع حالا إلى الاقتراح بالبقاء هناك ، وأراد أن يصنع ثلاث مظال واحدة ليسوع ، وواحدة لموسى ، وواحدة لإيليا .. لقد كان بطرس هو دائما الرجل المندفع فى الكلام والعمل ... لقد أراد أن يعمل شيئا ... لكن ذلك الوقت لم يكن وقت العمل ، بل كان وقت التأمل والسكون ... وقت الاستغراق فى العبادة والوقار والهدوء فى حضور ذلك المجد الأسمى « كفوا واعلموا أنى أنا الله » (مزمور ٤٦ : ١٠) .

إننا فى بعض الأحيان ننشغل كثيرا بكثرة العمل هنا وهناك ، فى الوقت الذى يكون من الأفضل فيه أن نصمت ونتأمل ، ونصغى ونتعجب ونتعبد فى حضور الله ، وقبل أن يتقدم الإنسان إلى الجهاد والمخاطرة ، عليه أولا أن يركع على ركبتيه متعبدا ومصليا ومتأملا .

٣ — ولعل فى قصة التجلى درسا آخر يرتبط مع ما ذكرنا ، وإن كان يختلف فى الاتجاه — لقد كان بطرس يشتهى أن يبقى على الجبل ، ويتمنى لو طال ذلك البقاء ... لم يكن يريد أن ينزل إلى العمل اليومى ، والأشغال العادية ... فما أجمل أن يبقى بين لمحات المجد ، وأضواء البهاء ... ولعل هذا اختبار الكثيرين ، فهناك لحظات السعادة والنشوة والسلام والهدوء والشركة مع الله ، نتمنى لو بقينا فيها دائما ... ويقول أحد الشراح « إن الناس تستمتع بجبل التجلى أكثر من استمتاعها بخدمة المسيح العادية أو بطريق الصليب » ، لكن الهدف من جبل التجلى هو إعطاؤنا قوة لنمارس العمل العادى ولنسير فى طريق الجهاد والصليب .

لقد كانت صلاة سوسنة ويسلى « ربى أعنى لأذكر أن الديانة ليست مقتصرة على الكنيسة أو المخدع ، ولا تمارس فى الصلاة والتأمل فحسب ، لكن ذكرنى أننى فى كل مكان ، أقف أمام حضرتك » .

إن لحظة المجد ليست هدفا فى ذاتها ، إنما لتعطى للأعمال العادية غلافا من البهاء والجمال ، لم يكن فيها من قبل .

الإشارة إلى طريق الصليب

(متى ١٧ : ٩ ــ ١٣ و ٢٢ و ٢٣)

نحن هنا فى هذه الآيات نرى عودا إلى سياسة يسوع فى توصية التلاميذ أن لا يخبروا أحدا بما رأوا ، بل يطلب منهم كتمان الأمر إلى ما بعد القيامة . وقد كان هذا ضروريا ، فمن أخطر الأمور أن يعلن الناس أن يسوع هو المسيا دون أن يدركوا حقيقة المسيا وعمله ورسالته . ويجب أن يتغير تفكير الناس عن المسيا وعن النبى الذى يعد الطريق له تغيرا جذريا من الأعماق ، قبل أن يعلنوا أن يسوع هو المسيا .

لقد كانت الفكرة الشائعة والسائدة أن المسيا سيكون ملكا منتصرا غالبا ، وكان تغيير هذه الفكرة يحتاج إلى زمن طويل ، لأن الفكرة كانت عميقة الجذور فى عقلية اليهود .

اعتقد اليهود أنه قبل مجىء المسيا ينبغى أن يأتى إيليا أولا ، بناء على ما ذكره النبى ملاخى « هاأنذا أرسل إليكم إيليا النبى قبل مجىء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف . فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم لئلا آتى وأضرب الأرض بلعن » (ملاخى ٤ : ٤ و ٦) .

لكن اليهود أخذوا هذه النبوة وتوسعوا فى شرحها وتفسيرها ، وبدلا من فهمها حسب المقصود منها ، قالوا إن إيليا سيأتى وسيرد كل شىء ، بمعنى أنه سيجهز العالم ليكون ملائما لدخول المسيا إليه ، وتصوروا أنه سيجول فى بلاد العالم محطما الشر ومصلحا كل الأمور . وهكذا تصوروا المسيا ، ومن سيأتى ليعد الطريق له ، فى صورة القوة والسلطان والصولجان .

لذلك كان على يسوع أن يصحح هذا التفكير الذى ظل فى مخيلة اليهود زمانا طويلا ، لذلك قال ما معناه أن الكتبة والفريسيين يقولون إن إيليا سيأتى بسلطة وقوة محطما ومنتقما ومصلحا ... وقد جاء فعلا ، على أن طريقه لم يكن طريق السلطان بل طريق الألم والتضحية . وهكذا سيكون طريق المسيا نفسه ــ وهنا أظهر يسوع أن طريق خدمة الله لن يكون أبدا طريق تحطيم الناس وإبادتهم ، لكنه سيكون دائما طريق التغلب عليهم بالمحبة والتضحية .

وهذا ما كان يجب أن يتعلمه التلاميذ ، فى أنهم لو كرزوا بمسيا منتصر بالقوة والسلطان لحدثت مأساة دامية ــ وقد قدر المؤرخون عدد الذين هلكوا فى فتن وثورات القرن السابق للصليب بنحو مائتى ألف يهودى . وقبل أن يبشر الناس بالمسيح ، يجب أن يعلموا من هو وما هى رسالته . لذلك اهتم يسوع أن يطلب من تلاميذه أن يسكتوا وأن يتعلموا منه ــ فلا يمكن لأحد أن يعلّم الناس عن يسوع ما لم يكن قد تعلّم منه أولا .

الإيمان الضرورى

(متى ١٧ : ١٤ ــ ٢١)

سرعان ما نزل يسوع من اختبار المجد السماوى على قمة جبل التجلى حتى واجه مشكلة إنسانية ومطاليب عملية . فقد أحضر له رجل ابنه المصاب بالصرع ، وكان قد سبق وأحضره إلى التلاميذ فى غياب يسوع ولم يستطيعوا أن يشفوه ــ والكلمة اليونانية التى وصفت مرضه يمكن أن تترجم حرفيا بأنها « ضربة القمر » وكان هذا وصف المجانين فى الماضى ، والجنون فى اعتقاد الأقدمين من عمل الأرواح الشريرة . ولقد كانت حالة الولد خطيرة وضارة له وللآخرين أيضا . ويمكننا أن نحس بشعور الأب بارتياح كبير عند ظهور يسوع ، لذلك أحضر ابنه وقدمه ليسوع . وبكلمة قوية رادعة أخرج يسوع الروح الشرير وشفى الولد .

هذه القصة ممتلئة بالمعانى النافعة .

١ ــ إننا نعجب بإيمان والد الصبى . فمع أن التلاميذ كانوا قد نالوا السلطان لإخراج الأرواح الشريرة (متى ١٠ : ١) لكننا نرى حالة فيها فشل هؤلاء التلاميذ فشلا ذريعا . لكن على الرغم من فشل تلاميذ يسوع ، فإن يسوع نفسه قد أنقذ الموقف .

ولعلنا نرى صورة مماثلة لهذه الحالة فى العصر الحاضر ، عندما يشعر كثيرون بأن الكنيسة المنظورة قد فشلت فى علاج بعض المواقف ، ومع ذلك لا يفقدون إيمانهم فى رب الكنيسة وسيدها . إن مثل هذا الموقف دينونة على الكنيسة لكنه فى الوقت عينه دعوة إلى مزيد من التمسك بيسوع المسيح نفسه .

٢ ــ ونحن نرى هنا أيضا مقدار ضغط مطاليب الحاجة البشرية على يسوع ، فقد نزل من جبل التجلى ليجد آلام البشر وحاجاتهم تنتظره عند سفح الجبل . وبعد ما سمع صوت الله ، أصغى إلى صوت الإنسان .. وفى هذا صورة ومثال لكل من يريد أن يسير فى طريق المسيح ... ينبغى عليه ألا يضيق ذرعا بالناس بل يفتح قلبه لهم .. إنه من السهل أن نشعر بمسيحيتنا ونحن فى ساعات العبادة والصلاة ، ومن السهل أن نشعر بقرب الله منا عندما نكون فى خلوة بعيدا عن العالم .. لكن ليس هذا هو الدين ... فالدين الحقيقى أن نقف على أقدامنا لمواجهة حاجات البشر بعد أن نكون قد جثونا على ركبنا فى العبادة . الدين الصحيح هو أن نسحب القوة من الله لنوصلها إلى الآخرين .. أن نلتقى مع الله فى الصلاة ثم نلتقى مع إخوتنا فى السوق والعمل . فنحن نطرح حاجاتنا وظروفنا أمام الله ، لا لننعم بالسلام والهدوء ونبقى فى راحة وخمول ، إنما لننال نعمة بها نستطيع أن نواجه حاجات الآخرين بقوة وتأثير .. إن المسيحى لا ينبغى أن يطلب جناحى الحمامة ليطير ، بل عليه أن يسير إلى السفح فى طريق خدمة الآخرين مع يسوع .

٣ ــ ونحن نرى هنا حزن المسيح وصبره . فإن قول السيد المسيح لهم « إلى متى أكون معكم . إلى متى احتملكم » لا تعنى رغبته فى أن يتخلص منهم ، ولكنها تعنى رغبته فى أن يفهموا ويتعلموا حتى يستطيعوا أن يخدموا ويشهدوا باقتدار فى غيابه عنهم بالجسد كما فى حضوره ، إنه يحزن لأجل

عدم نضوجهم الكامل ، وفى الوقت عينه يظهر لنا صبر المسيح على التلاميذ .

٤ ــ ونحن نرى هنا أيضا نوع الإيمان المطلوب ، فقد بين المسيح للتلاميذ على انفراد حقيقتين :

(أ) أنه لو كان لديهم إيمان حقيقى متأصل فى نفوسهم دون شك ... فإن ذرة من هذا الإيمان تستطيع أن تصنع المعجزات .

وقد كان تعبير « نقل الجبال » تعبيرا شائعا يستخدم للدلالة على قدرة المعلمين الممتازين فى حل أعسر المشكلات . لذلك استخدم يسوع هذا التعبير ، فقال لهم « لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل » . وهو لا يعنى بذلك ، نقل جبل مادى من الحجارة والصخور ، لكنه يشير إلى الصعوبات القاسية كالجبال ، التى تقف فى سبيلهم .

(ب) والحقيقة الثانية أن هناك بعض المشكلات تحتاج إلى قوة خاصة ينالها الإنسان بطول الشركة والتذلل . هذه المشكلات لا تذلنا بل علينا أن نقهرها بالصلاة مع الصوم . فالصوم لا يكون نافعا للإنسان دون صلاة وتعبد .

ضريبة الهيكل وكيفية دفعها

(متى ١٧ : ٢٤ ــ ٢٧)

كان الهيكل فى أورشليم يقتضى نفقات كثيرة لتأدية الخدمة ، فقد كانت هناك ذبيحة صباحية وأخرى مسائية يقدم فى كل منهما خروف صحيح ابن سنة . ومع الخروف كانت تقدم تقدمات الخمر والدقيق والزيت . هذا بالإضافة إلى البخور الذى كان يحرق دائما ، وملابس الكهنة الغالية الثمن ، ورداء رئيس الكهنة الذى كان كثير الثمن جدا .. لذلك كان الهيكل يحتاج إلى مال لدفع هذه النفقات .

وفقا لما جاء فى خروج ٣٠ : ١٣ كان ينبغى على كل من تعدى العشرين من عمره أن يدفع فدية للهيكل قدرها نصف شاقل .

وفى أيام نحميا ، صارت هذه الضريبة ثلث شاقل بسبب حالة الفقر التى كانت تسود الشعب . وفى عهد الحكم اليونانى لفلسطين أصبحت الضريبة تدفع بالدرهم اليونانى ، وصارت القيمة (درهمين) . ولذلك أصبحوا يطلقون عليها « الدرهمين » ــ وهى ضريبة تعادل أجر العامل فى فلسطين يومين ، وكان الهيكل يستخدم عمليات منظمة فى جمعها . ففى اليوم الأول من شهر آذار (مارس) كان يعلن فى كل بلاد فلسطين أنه قد حان وقت دفع الدرهمين ، وفى اليوم الخامس عشر من الشهر كانت تقام مكاتب فى كل قرية ومدينة لتحصيل الضريبة ، ومن يتأخر عن اليوم الخامس والعشرين من آذار ، كان عليه أن يدفع الضريبة مباشرة للهيكل فى أورشليم ، وإلا يحجز على بعض ممتلكاته .

وفى هذه الزاوية نقرأ أن بعض محصلى الضريبة سألوا بطرس : هل يسوع يدفع الدرهمين أم

ل ، وربما كانت النية فى هذا السؤال شريرة ، لأنه لو رفض يسوع دفع الضريبة الهيكلية لوجد قادة اليهود سببا للشكوى ضده واتهامه .

فأجاب بطرس بأن يسوع يدفع الضريبة ، وعندما دخل البيت بادره يسوع بهذا المثل أو السؤال ليعلمه حقائق هامة .

١ — كان سؤال يسوع لبطرس « ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية أمن بنيهم أم من الأجانب ؟ » فأجاب بطرس « من الأجانب » . فقال له يسوع « فإذاً البنون أحرار » .

كان الملوك يطلبون الجزية ، لا من أفراد أسرتهم ، بل من الغرباء ... وكانت الجزية تدفع للملك وأسرة الملك ، وعلى هذا القياس فإن يسوع هو « ابن الملك » . وهو كما قال مرة « أعظم من الهيكل » . وأما قوله « البنون » باستخدام الجمع فهذا لكى يتمشى المعنى مع « ملوك الأرض » بالجمع أيضا . فكما أن بنى الملك أحرار من دفع الجزية للملك ، هكذا « ابن الملك » السماوى حر من دفع الجزية لله . كان يسوع يحس أنه ابن الله وفى طفولته عندما وجده أبواه فى الهيكل قال لهما « ألم تعلما أنه ينبغى أن أكون فيما لأبى » (لوقا ٢ : ٤٩)

لذلك فقد أحس يسوع أنه حر ، ولا يمكن أن يلتزم بدفع ضريبة الهيكل لأنه ابن رب الهيكل .

٢ — ومع ذلك فقد دفع يسوع الضريبة . وذكر السبب لبطرس « لئلا نعثرهم » — فلئلا يتعثر الناس عندما يجدون يسوع يرفض دفع ضريبة الهيكل ، أراد أن يدفعها .

إن يسوع لا يريدنا أن نكون مثلا سيئا للآخرين . ونحن يجب أن لا نكتفى بعمل الواجب بل يجب أن نعمل فوق الواجب لنبين للآخرين واجبهم — وفى حياتنا أمور كثيرة يمكن أن نسمح لأنفسنا بعملها ، لكن يجب أن نمنع أنفسنا عنها لكى لا يتعثر الناس منها .

٣ — ويتساءل بعض الشراح عن السبب الذى جعل متى ينفرد بهذه القصة على الرغم من أن أشياء كثيرة عملها يسوع ، ولم يذكرها كتاب الإنجيل . ويفسرون ذلك بأن إنجيل متى ، وقد كتب فى الغالب بين عام ٨٠ و ٩٠ م ، اهتم بكتابة هذه الرواية من حياة يسوع ، لأن موضوعا هاما اعترض حياة المسيحيين فى ذلك الوقت ، كانت هذه الرواية رسالة نافعة له .

فقد هدم الهيكل سنة ٧٠ ميلادية ، وبعد تدميره أمر الإمبراطور فسباسيان Vespasian ، أن يدفع النصف شاقل إلى خزينة معبد جوبتير فى روما . ووقف المسيحيون أمام موضوع محير ، هل يدفعون هذه الضريبة أم لا ، وكان كثيرون من اليهود ومن المسيحيين الذين من أصل يهودى يميلون ألا يدفعوا هذه الضريبة ، ولو حدث ذلك لحسبهم الرومان ثائرين على الدولة وصارت العواقب وخيمة . لذلك كتب متى هذه الرواية من حياة المسيح ليوضح للمسيحيين أن المسيحى الحقيقى لا تمنعه مسيحيته أن يكون مواطنا صالحا يخضع لقوانين الدولة التى تحكمه ، وأنه ليس ما يمنع أن ندفع مثل هذه الضريبة حتى إن كنا نعتقد أننا لسنا ملزمين بذلك .

بقيت أخيرا الوسيلة التى تم بها دفع هذه الضريبة . فالرأى القديم هو أن يسوع طلب من بطرس أن يذهب ويصطاد ليجد فى فم السمكة الأولى استارا يدفع به الضريبة عن يسوع وعن نفسه . ويعتقد الشراح الأقدمون أن بطرس فعل ذلك ، ووجد فى فم السمكة استارا دفع منه هذه الضريبة .

وقد جرت مناقشة جدلية بين قدماء الشراح عما إذا كان المسيح ، بعلمه السابق ، علم أن سمكة ما قد ابتعلت استارا ، وبقدرته المعجزية أمرها أن تكون فى مكان معين فى وقت معين ليصطادها بطرس ــ أم أن المسيح بقدرته المعجزية خلق الاستار فى فم السمكة .. ومال أغلب الشراح إلى الرأى الأول استنادا إلى أن المعجزة عادة هى عمل فوق الطبيعة لعلاج أمر فى الخليقة ، لكنها ليست فى ذاتها عملية خلق .

لكن رأيا حديثا يقول ان كلام المسيح كان مجازيا ، وليس مطالبة حرفيه لبطرس أن يفعل ذلك ، بدليل أن الكتاب لا يذكر لنا أن بطرس فعل ذلك وهذا الرأى يستند إلى النقاط التالية :

١ ــ إن الله عادة لا يعلمنا أن نعتمد على المعجزات فى أداء واجباتنا وسداد ديوننا ... ومهما قيل إن التلاميذ كانوا فقراء فإنهم لم يكونوا فى حاجة إلى معجزة للحصول على شاقل من الفضة .

٢ ــ إنه لو كان المسيح قصد إتمام الحديث حرفيا ، فإن ذلك يتنافى مع مبدأ قد اتخذه المسيح فى حياته وهو عدم استخدام قدرته المعجزية لمصالحه الشخصية . وهذا المبدأ هو الذى جعله يرفض أن يحول الحجارة إلى خبز ليشبع جوع جسده .

٣ ــ إنه لو فسرنا أن فى الأمر معجزة ، فإن هذا يكون تشجيعا على عدم العمل والاعتماد على قدرة معجزية فى الوفاء بالتزاماتنا ...

إذاً ماذا كان قصد المسيح من هذا الكلام ؟ يقول أصحاب هذا الرأى أن يسوع استخدم التعبيرات اليهودية المليئة بالخيال والتشبيه ليقول لبطرس أن يستخدم مهنته الأصلية ، وهى الصيد فى الحصول على ما يدفع به الضريبة وكأنه يقول له : إذهب ، استخدم مهنة الصيد لتجد فى صنارة الصيد وأفواه الأسماك ما يسدد لك ولى الضريبة .

وبهذا المعنى ندرك حكمة العمل وشرفه ، فالكاتب على الآلة الكاتبة يجد طعام يومه فى مفاتيح الآلة الكاتبة ، وسائق السيارة يجد فى عجلة القيادة ملابسه وملابس أطفاله ، والميكانيكى يجد فى آلة المصنع الذى يعمل فيه الجنيهات التى تعوله ...

وسواء كان المقصود هذا المعنى أو ذاك ، فإن بطرس قام بجهد ليسدد الضريبة ، وهذا ما يجب علينا أن نعمله ..

الأصحاح الثامن عشر

العلاقات الشخصية

مقدمة

قبل أن نتناول الأصحاح الثامن عشر بالشرح التفصيلي ، يحسن بنا أن نلقى نظرة عامة إلى الأصحاح جملة ، فهو من أهم الأصحاحات التى تشرح لنا الأخلاق المسيحية ودوافع السلوك المسيحى ، لأنه يتناول العلاقات الشخصية فى حياة المسيحى ... هذا الأصحاح يبرز لنا سبع صفات يجب أن تتميز بها العلاقات الشخصية للمسيحى .

١ ــ ففى المقام الأول نرى فضيلة التواضع (عدد ١ ــ ٤) . فإن من يتسم بتواضع الأولاد ، هو وحده المواطن الحقيقى فى ملكوت السموات . فالطموح الشخصى ، والرغبة فى المركز والدعاية للذات والنفع الذاتى ، كل هذه لا تجد لها مكانا فى حياة المسيحى ، ذلك لأن المسيحى هو الشخص الذى نسى نفسه فى تكريسه ليسوع المسيح ، وفى خدمته لإخوته من البشر ...

٢ ــ ثم نرى صفة الشعور بالمسئولية (عدد ٥ ــ ٧) فإن أعظم الخطايا على الإطلاق هى أن نعلم الآخرين أن يخطئوا ، خاصة إذا كانوا أضعف أو أصغر أو أقل خبرة منا . إن أقسى عقوبات الله ، يوجهها نحو من يضعون العثرات فى طريق الآخرين . فالمسيحى هو الإنسان الذى يشعر على الدوام أنه مسئول عن تأثير حياته وأعماله وكلماته وقدوته على الناس .

٣ ــ ثم تأتى فضيلة إنكار الذات (عدد ٨ ــ ١٠) فالمسيحى يشبه الرياضى الذى لا يستصعب تدريبا ، إذا كان من ورائه البطولة والجائزة ــ وهو يشبه الطالب الذى يقبل أن يضحى بكل مسراته وفراغه ليصل إلى النجاح والتفوق . المسيحى هو الإنسان الذى يقبل أن يبتر من حياته كل شىء يعطله عن أن يقدم الطاعة الكاملة لله .

٤ ــ ثم نقرأ عن الاهتمام الفردى (عدد ١١ ــ ١٤) . فالمسيحى هو إنسان يتبين أن الله يهتم به اهتماما خاصا فرديا ، ومن ثم ينعكس شعوره باهتمام الله به على حياته ، فيهتم هو بالآخرين . إن المسيحى لا يفكر فى الناس كمجموع يضيع فيه الفرد ، بل يفكر فى الناس كأفراد . ولكل شخص فى نظر الله أهمية خاصة ، ولا يضيع الفرد فى الجماعة . وهكذا لكل فرد فى نظر المسيحى أهمية كابن لله ... فإذا ضل أو انحرف ، ينبغى أن يعاد إلى الله . إن الاهتمام المسيحى بالفرد هو القوة الدافعة لنشر الدعوة المسيحية .

٥ ــ ثم نجد صفة التأديب والنظام (عدد ١٥ ــ ١٨) فاللطف والتسامح المسيحى لا يعنى أن تترك المخطىء يسترسل فى الخطأ ويعمل ما يشاء . فإن مثل هذا الإنسان يجب أن يوجه وينصح ، ويؤدب إذا لزم الأمر ليعود إلى الطريق الصحيح . لكن هذا التأديب ينبغى أن يطبق بروح المحبة المتواضعة ، وليس بروح دينونة البر الذاتى ، وهدف التأديب يجب أن يكون على الدوام المصالحة وليس الرغبة فى الانتقام .

٦ ــ ثم نجد صفة الشركة (عدد ١٩ و ٢٠) فالمسيحيون هم الذين يصلون معا ... هم الذين يبحثون عن مشيئة الله فى شركة معا ، ويعبدون معا ، ويصغون إلى صوت الله معا ... إن النزعة الفردية تغاير اتجاه المسيحية .

٧ ــ ثم نجد فضيلة الغفران (عدد ٢١ ــ ٣٥) وغفران المسيحى لخطايا الآخرين قائم على الحقيقة أن المسيحى قد تمتع بغفران الله فهو يغفر للآخرين ، لأن الله ــ لأجل المسيح ــ غفر له خطاياه .

مثل الأولاد

(متى ١٨ : ١ ــ ٤)

نرى هنا سؤالا كاشفا يعقبه جواب كاشف . فقد سأل التلاميذ عمن هو الأعظم فى ملكوت السموات ، فأخذ يسوع ولدا وقال لهم : إن لم يرجعوا ليصيروا مثل الأولاد فلن يدخلوا ملكوت السموات إطلاقا .

كان سؤال التلاميذ فى حد ذاته يدل على عدم إدراكهم الكلى لمعنى ملكوت السموات . لذلك قال لهم يسوع : إنهم إن لم (يرجعوا) ... فلن يدخلوا ملكوت السموات . وهذا يدل على إشارة المسيح لهم أن يغيروا اتجاههم بالكلية ، لأنهم يسيرون فى اتجاه مغاير لاتجاه ملكوت السموات .. وما لم يرجعوا ويغيروا اتجاههم ، فسوف يزدادون بعدا عن ملكوت السموات .

إن أهم سؤال فى الحياة هو : « ما هو هدف الإنسان الذى يتجه نحوه ؟ » فإذا كان الإنسان يهدف إلى تحقيق مطامعه الذاتية ، والظفر بالسلطان والامتيازات الشخصية ، وإعلاء الذات .. فإن هذه الأهداف مضادة لملكوت السموات ، لأن المواطن فى ملكوت السموات ينسى نفسه وينفقها فى حياة هدفها الخدمة لا السلطان .

وإذا كان الإنسان يعتبر ذاته أهم شىء فى الوجود ، فإنه بذلك يولى ظهره نحو ملكوت السموات ... وإذا أراد أن يتجه نحو الملكوت فعليه أن يغير اتجاهه إلى الطريق الآخر .

لذلك أخذ يسوع ولدا . تقول التقاليد القديمة إن هذا الولد صار فيما بعد أغناطيوس الأنطاكى ، الذى غدا خادما عظيما للكنيسة ، وكاتبا مسيحيا مشهورا وشهيدا لأجل المسيح . ومصدر هذه الفكرة أن أغناطيوس كان يلقب بلقب أغناطيوس « ثيوفوروس » ، ومعناها « المحمول من الله » ، لذلك قيل أنهم لقبوه بهذا اللقب لأنه هو الولد الذى حمله يسوع بيديه وأقامه وسط التلاميذ ــ وربما كان هذا صحيحا ، وربما كان ولدا آخر ــ ومن المحتمل أن يكون بطرس هو الذى سأل هذا السؤال ، وربما كان الولد الذى أقامه يسوع هو ابن بطرس ونحن نعلم أن بطرس كان متزوجا (متى ٨ : ١٤ ؛ و ١ كورنثوس ٩ : ٥) .

وما يهمنا هو المعانى التى قصدها يسوع من هذا العمل . فهناك صفات فى الأولاد الصغار ، تميزهم وتميز أبناء الملكوت . ومن هذه الصفات القدرة المستمرة على الانبهار بما فى هذا العالم ،

فالطفل ينبهر كلما رأى روائع خليقة الله ، ولكنه عندما يكبر يتعود على رؤية هذه الأشياء ، فتفتر نظرته إليها . ومن صفات الأطفال سرعة النسيان والغفران ، فهم سريعو نسيان الإساءة التى توجه إليهم حتى من والديهم أو من الكبار الذين يسيئون معاملتهم — ومن صفاتهم البراءة والرغبة فى التعلم والعمل .

لكن أهم الصفات التى تميز الأولاد ، ويتحتم وجودها فى رعايا ملكوت السموات هذه الصفات :

١ — **صفة التواضع** : فالولد ذو حياء لا يدفع بنفسه إلى الأمام ، لكنه يسر أن يكون فى الخلف ... إنه لا يرغب فى الظهور بل يفضل الاختفاء — وكلما كبر الولد ودخل ميدان المنافسة فى هذا العالم الملىء بالصراع على المراكز الأولى ، ضاع منه هذا التواضع الغريزى .

٢ — **صفة الاعتماد والاتكال** : فبالنسبة للولد يعتبر الاعتماد على غيره أمرا طبيعيا ، فهو لا يفكر أن يواجه الحياة بنفسه ولأجل نفسه . وهو يكون راضيا مسرورا أن يعتمد على من يحبونه ويهتمون به — ولو أن الناس اتخذوا هذا الموقف بالنسبة لله فإنهم ولا شك ينالون قوة وسلاما يملأ حياتهم .

٣ — **صفة الثقة** : يعتمد الطفل على والديه ، ويثق أنهما سيشبعان كل حاجاته . ولا يقدر الأولاد أن يشتروا أو يعدوا طعامهم وملابسهم أو يديروا أمور بيوتهم ، لكنهم لا يشكون أبدا فى أنهم سيجدون الطعام والكساء والمأوى ، عندما يعودون إلى بيوتهم — إن الولد يخرج مع والديه للسفر أو للارتحال دون أن يكون معه ثمن التذكرة ودون أن يعرف الطريق ، لكنه لا يفكر فى هذه الأشياء فهو يثق فى والديه .

أن تواضع الولد هو نموذج فى علاقته مع الآخرين . وإن اعتماد الولد وثقته فى والديه نموذج لعلاقة المؤمن مع أبيه السماوى .

يسوع والولد

(متى ١٨ : ١٥ — ٧ و ١٠)

قد يصادف القارىء بعض الصعوبات فى تفسير أجزاء من هذه العبارات ، لذلك من الضرورى أن نبين كما سبق وأوضحنا أن (متى) كاتب هذه البشارة كان يحاول أن يجمع تعاليم السيد المسيح تحت رؤوس معينة لموضوعات معينة — وفى الجزء الأول من هذا الأصحاح يبدو أنه يجمع بعض أحاديث السيد عن الأولاد .

وقد كان اليهود يستخدمون كلمة « ولد » للدلالة على معنى مزدوج : فالكلمة كانت تستخدم للدلالة على الولد فى العمر ، وكانت تستخدم للدلالة على المبتدىء فى المعرفة ، وقد كان المعلم اليهودى يطلق على من يتعلمون منه أنهم أولاده . لذلك فكلمة « ولد » تدل على الناشىء فى الإيمان ، على الشخص الذى لم ينضج تماما . ويمكن أن يتأثر بمختلف المؤثرات ليبتعد عن الإيمان .

وفى هذه الآيات ، تشير كلمة « ولد » إلى هذين المعنيين : الولد فى العمر أو الناشىء فى الطريق المسيحى .

قال المسيح « من قبل ولدا مثل هذا باسمى فقد قبلنى » . وكلمة « باسمى » تشير إلى أحد أمرين : —

(أ) فقد تعنى لأجلى ... أى أن عنايتنا بالأولاد وتعليمهم عمل نؤديه ، لا لأجل الأولاد فحسب ، ولكن لأجل المسيح نفسه .

(ب) وقد تعنى قبله مباركا إياه باسمى ، أى حاملا بركة المسيح إلى هذا الولد .

ماذا يقصد المسيح بقبول الولد لأجله أو بقبوله حاملين إليه بركة المسيح ؟

(أ) إنه قد يقصد قبول كل من له روح هذا الولد فى التواضع . فالعالم الذى نعيش فيه مجرب بتوجيه العناية والاهتمام إلى الأشخاص البارزين الظاهرين ، وكثيرا ما يكون نصيب الشخص المتواضع الهادىء ، الإهمال والنسيان ... والمسيح هنا يشجع المؤمنين أن يقبلوا البسطاء الهادئين الذين لا يفرضون نفوسهم وشخصياتهم على الآخرين ... الذين لهم قلب الأطفال ...

(ب) وقد تعنى ببساطة الترحيب بالأولاد ومنحهم العناية اللازمة والحب والحنان والتعليم الذى يجعلهم رجالا نافعين . فنحن إذا قمنا بهذا العمل ، ووجهنا الأولاد نحو معرفة الله نساعد يسوع فى عمله .

(ج) وقد تعنى هذه العبارة أننا نستطيع أن نرى يسوع فى ذلك الولد . إنه عمل شاق أن نعلم الأولاد الأشقياء العصاة الكثيرى الحركة وعديمى الاستقرار ... ومن المرهق الاهتمام بكل حاجات الأطفال من ملابس وطعام وغير ذلك ... لكن لا يوجد فى الوجود من يساعد يسوع المسيح أكثر ممن يعملون هذه الأمور ... الأم فى البيت ، والمعلم فى مدرسة الأحد ، والمشرفة فى روضة الأطفال ... إن هؤلاء يؤدون رسالة المستقبل كله ... لذلك فهم يكرمون يسوع ، بقبولهم مثل هذه الأعمال .

المسئولية الرهيبة

(متى ١٨ : ٥ — ٧ و ١٠)

إن النبرة السائدة فى هذه الآيات توضح لنا مسئولية رهيبة يوجهنا إليها يسوع :

١ — فهى تبين لنا فظاعة تعليم الخطية للآخرين . وعادة يجد الإنسان أول تشجيع لعمل الخطية من أحد رفقائه ، فهو الذى يدفعه إلى الخطوة الأولى فى الطريق المحرم . وقد اعتقد اليهود أن أكبر خطية لا تغفر هى تعليم الخطية للآخرين ، وذلك لأنهم قالوا إن خطايا الإنسان الشخصية محدودة فى نتائجها ، ولكنه إذا كان يعلم الآخرين أن يخطئوا ، فإن هذا امتداد وانتشار للخطية لأن هذا الذى تعلم الخطية معرض أن يعلمها للآخرين ، وهكذا تنتشر الخطية ويمتد تيارها .

وليس فى الوجود أفظع من تحطيم براءة إنسان ، ومن يعمل هذا سيبقى معذبا إذا كان قد تبقى له شيء من الضمير .

يحكى أن رجلا عجوزا كان يعانى آلاما مبرحة فى نفسه عند موته ، فسألوه عن سبب هذا العذاب الذى كان يعانيه ، وأخيرا اعترف لهم أنه وهو صبى صغير ، كان يلعب مع رفاقه ووجدوا علامة مرور على مفترق بعض الطرق الزراعية تشير للسيارات نحو الطريق الصحيح ، فحولوا اتجاهها إلى الاتجاه المضاد ، وقال لهم إننى أتعذب عندما أفكر كم من الناس قد ضلوا الطريق بسبب ما فعلت ... إن خطية الخطايا هى قيادة الآخرين إلى الخطية .

٢ ـــ وهذه الآيات تنبر على فظاعة العقاب الذى يناله من يعلمون الآخرين الخطأ . إن من يسبب العثرة للآخرين خير له أن يعلق فى عنقه حجر الرحى ويغرق فى لجة البحر .

كان الناس يطحنون الحبوب فى المنازل على الرحى ، وهو مكون من حجرين كبيرين تطحن الحبوب بينهما ، وكان حجر الرحى ثقيلا ، والنوع المكتوب عنه فى هذه الآيات يظهر من الكلمة اليونانية المستخدمة للدلالة عليه ، أنه نوع ثقيل يحتاج إلى حمار ليرفعه ، كما أن التعبير اليونانى يشير إلى أنه يغرق بعيدا فى وسط البحر المتسع .

ولقد كان اليهود يخافون البحر ، وبالنسبة لهم كانت السماء هى المكان الذى لا يوجد فيه البحر فيما بعد (رؤيا ٢١ : ١) . وكان الغرق بالنسبة لليهود أمرا فظيعا ، ومع أن الرومان كانوا يجعلون الغرق إحدى عقوبات الموت عندهم ، لكن اليهود كانوا لا يعدمون الناس بالغرق ، لأنه فى نظرهم رمز للفناء التام . وفى تعليم الربيين اليهود كانوا يشيرون إلى فظاعة عقاب الأمم والوثنيين بأنهم « يطرحون فى البحر المالح » . ويذكر المؤرخ اليهودى يوسيفوس فى كتابه « تاريخ اليهود » أن ثورة فظيعة حدثت فى الجليل ، وأخذ الجليليون أنصار هيرودس وأغرقوهم فى بحر الجليل .

من كل هذه الحقائق يتبين لنا مدى فظاعة العقاب الذى أراد أن يصوره المسيح أمام أفكار السامعين ، ويوضح أن مثل هذا العقاب الفظيع سيكون من نصيب من يقودون الآخرين إلى الخطأ ـــ فيالها من مسئولية رهيبة !

٣ ـــ ثم يمضى السيد فى حديثه ليحذر من العثرات التى يؤكد أن العالم مملوء منها قائلا « فلابد أن تأتى العثرات » ، فلا يمكن لإنسان أن يحيا فى العالم دون أن يتعرض للتجارب ـــ ومع ذلك فهذا لا يخفف من مسئولية الإنسان الذى يكون سببا فى تعريض الآخرين للتجارب ، خاصة أولئك المبتدئين فى الإيمان . فمن واجب المسيحى ألا يكون حجر عثرة فى طريق الآخرين ، بل بالحرى ينبغى عليه أن يزيل أسباب العثرات من أمام الناس . وهذا يتضمن أن من يعرف أن يعمل حسنا ولا يعمل فذلك خطية له ... ومن واجب المسيحى فى المجتمع أن يعمل جهده فى إزالة المظالم الاجتماعية وتحسين أحوال الناس المعيشية ، حتى لا يجد البشر أنفسهم مدفوعين لعمل الخطية .

٤ ـــ وفى ختام هذا الجزء نقرأ عن الأهمية العظمى للطفل . فقد قال المسيح فى عدد ١٠ « انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار لأنى أقول لكم إن ملائكتهم فى السموات كل حين ينظرون وجه

أبى الذى فى السموات » .

وقد كان اليهود فى ذلك الوقت يعتقدون فى عقيدة الملائكة بأسلوب متسع جدا ، فاعتقدوا بأن لكل أمة ملاكا خاصا بها ، وكذلك لكل قوة من قوى الطبيعة كالريح والرعد والبرق والمطر . وبعضهم قال إن لكل ورقة من أوراق الأشجار ملاكا خاصا . ثم اعتقدوا بأن لكل طفل ملاكا حارسا . لذلك يكون معنى القول بأن ملائكتهم ينظرون فى كل حين وجه الله فى السماء ، أن هؤلاء الملائكة حقا مستمرا فى المثول أمام الله . والصورة مستعارة من البلاط الملكى فى النظم الملكية القديمة ، حيث يعتبر الوزراء ورجال الحاشية محظوظين إذا كان لهم حق المثول أمام الملك فى كل حين . فكان يسوع يقول إن أهمية هؤلاء الأطفال تظهر فى إنهم ذوو حظوة أمام الله . حتى أن ملائكتهم الحافظة تظهر دائما أمام الله .

ولا عجب أن يكون للأطفال هذا المقام الكبير ، ذلك لأنهم مجموعة من امكانيات وطاقات كامنة لم تستغل بعد ، وتتوقف نتائج استغلالها على كيفية تعليم الطفل وتدريبه . فيمكن أن تظل هذه الإمكانيات مطمورة ، ويمكن أن تظهر بصورة خلاقة بناءة رائعة فى الخير ، كما يمكن أن تظهر فى صورة شريرة وكل هذا يتوقف على كيفية تربية الطفل .

حدث فى القرن الحادى عشر أن « روبرت دوق برجاندى » وقد كان فارسا ومحاربا عظيما ، أراد أن يخرج فى إحدى الحملات . وكان ولى عهده هو ابنه الطفل الرضيع . لذلك أراد أن يجمع جميع أشراف مقاطعته ونبلائها ليقسموا يمين الولاء لهذا الطفل قبل أن يخرج هو للحرب ، حتى يظلوا أوفياء له إذا حدث لأبيه مكروه فى الحرب — وجاء النبلاء والأشراف والقادة بسيوفهم وركعوا أمام الطفل ، وبينما هم يقدمون هذه التحية ، ابتسم أحد البارونات ، فسأله الدوق عن سبب ابتسامته ، فقال « إن الطفل صغير جدا » — فأجاب الدوق « نعم — إنه صغير ، لكنه سيكبر » — وقد كبر ذلك الطفل فعلا ، وصار وليم الفاتح ، الذى قام بغزو انكلترا .

إن فى كل طفل ، إمكانيات لا حد لها ، للخير والشر ، لذلك فإنها مسئولية الكنيسة ، والوالدين ، والمعلمين أن يحققوا أفضل النتائج من هذه الإمكانيات .. وإنه لمن أعظم الشرور إهمال العناية بالأطفال ، أو احتقارهم .

الاستئصال الجراحى

(متى ١٨ : ٨ و ٩)

يمكن أن نفهم هذه الآيات على أنها نصيحة شخصية ، ويمكن أن نفهمها على أنها نصيحة عامة .

فمعناها الشخصى هو أن الانسان المسيحى ينبغى أن يضحى بأى ثمين وغال من حياته أو كيانه فى سبيل تجنب عقاب الله الأبدى .

وتتحدث الآيات عن « جهنم النار » . وجهنم أصلا هى وادى هنوم ، وهو وادى جبل

أورشليم ، كان ملعونا على الدوام لأنه كان يستخدم أيام المملكة لتقديم الذبائح البشرية من الأطفال للإله مولوخ ، وهناك كانت تحرق هذه الذبائح .

وفى عهد يوشيا الملك صار ذلك المكان ملعونا . وفيما بعد أستخدم لتحرق فيه النفاية وقاذورات مدينة أورشليم . ولذلك كانت النار والدخان تغمر ذلك الوادى دائما . وقد استخدمه يسوع ليصور به عقاب الله الرهيب حيث يهلك الله من لا نفع لهم .

والعقاب موصوف بأنه أبدى ، لأنه عقاب الله ، والله أبدى . وهنا يؤكد لنا الإنجيل أن عدم النفع يؤدى إلى الكوارث . فالإنسان الذى بلا نفع والإنسان الذى له تأثير ضار على الآخرين ، والانسان الذى لا يستطيع أن يبرر وجوده ، معرض لخطر عقاب الله ، إذا لم ينتزع من حياته كل ما يعطله على أن يكون مفيدا .

على أننا نستطيع أن نفهم هذه الآيات على أنها نصيحة عامة يقدمها المسيح إلى الكنيسة . فقد ذكر متى أن هذه المعانى قدمها المسيح فى إطارها الشخصى فى متى ٥ : ٣٠ ، لكنه هنا يقدمها فى إطار آخر . فالحديث هنا عن الأولاد ، وعلى الأخص عن ابناء الإيمان . فقد تكون نظرة المسيح إلى الكنيسة باعتبارها جسد ، وإلى الأفراد باعتبارهم الأعضاء ، وكأنه يوجه إلى الكنيسة هذه الرسالة ، أنه إذا كان فى الكنيسة عضو يقدم مثلا سيئا للآخرين ، ويعطل المبتدئين فى الإيمان ، وإذا كان فى الكنيسة فرد يعتبر سلوكه وتصرفه ضارا بحياة الكنيسة عامة ، فيحسن بتر هذا العضو ، حتى لا يؤثر فى حياة الكنيسة ويفسدها .

من ثم نرى — سواء فى حياة الفرد الشخصية أو فى حياة الكنيسة عامة — أنه يجب إبعاد وانتزاع الخطية ومصادرها ، مهما كان ذلك مؤلما . وفى هذا الحديث نرى ضرورة إنكار النفس وتأديبها ، كأنها الأساليب الضرورية لتقويم الكنيسة المسيحية .

الراعى والخروف الضال

(متى ١٨ : ١١ — ١٤)

هذا المثل من أبسط أمثال المسيح ، لأنه فيه قصة الخروف الضال ، والراعى الذى يبحث عنه . وقد كان سهلا جدا أن تضل الخراف فى اليهودية ، فالمراعى على التلال المترامية ، ومن السهل أن تمضى الخراف هنا وهناك فتضل الطريق . وقد كان للرعاة فى اليهودية خبرة خاصة فى البحث عن الخراف الضالة واستقصاء آثارها .

وقد كانت القطعان فى فلسطين فى أيام المسيح ، جماعية ، لا تنتمى كلها إلى فرد واحد ، بل أحيانا إلى القرية كلها . وعادة كان يبقى مع القطيع راعيان أو ثلاثة رعاة ، وهذا هو السبب الذى يجعل من الممكن لأحد الرعاة أن يترك التسعة والتسعين فى البرية ، لأنه لو تركها دون من يرعاها ، فإنه يعود ليرى أن كثيرا منها قد ضل وفقد ، لكن الراعى يترك باقى الخراف مع زميله ليذهب ويفتش على الضال . وقد كان الرعاة يبذلون جهدا عنيفا فى سبيل البحث عن خروف ضال ، وجرت

العادة أنه إذا لم يمكن وجود الخروف حيا فمن الضرورى إحضار جزء من صوفه أو عظامه للتدليل على أن الخروف قد مات فعلا ليكف الراعى عن البحث عنه .

ويمكننا أن نتصور كيف يعود الرعاة الآخرون فى المساء إلى القرية مع القطعان ، ويقولون للناس زميلهم لا يزال على الجبال والتلال يبحث عن خروف تائه ، وكيف أن عيون الناس تظل مترقبة عودة الراعى الغائب ، ونستطيع أن نتصور مقدار فرح الناس عندما يرون الراعى عائدا حاملا الخروف التائه على كتفه ، ويلتفون حوله لكى يهنئونه ويفرحون معه ...

إن هذه الصورة — صورة الراعى الباحث عن الخروف الضال — هى أحب الصور إلى المسيح ، فقد كان يشبه الله دائما فى هذه الصورة . ويعلمنا هذا المثل الأشياء التالية عن محبة الله :

١ — إن محبة الله شخصية فردية . إن التسعة والتسعين خروفا الباقية لا تعوض الراعى عن الخروف المفقود ... ولا يستريح الراعى ما لم يرجع بالضال إلى البيت . ومهما زاد عدد أفراد الأسرة ، فإن الأب لا يستغنى عن فرد منها ، فلكل فرد أهميته الذاتية . هكذا الأفراد فى نظر الله .

٢ — إن محبة الله محبة صابرة — فالخراف حيوانات حمقاء تعرض نفسها بنفسها للخطر . والناس يفقدون صبرهم مع الأغبياء والحمقى ، وعندما يقع الأغبياء فى متاعب ، فإن الناس يقولون إنهم جروا على أنفسهم المتاعب ، ولا ينبغى أن يضيعوا وقتهم وأعصابهم فى الإشفاق عليهم . لكن شكرا لله أنه ليس كذلك . فقد تكون الخراف حمقاء ، لكن الراعى يخاطر بحياته فى سبيل إنقاذها . وقد يكون الناس أغبياء ، وقد يتصرفون بحماقة ، لكن الله فى محبته يصبر عليهم ، حتى إن جروا على أنفسهم المتاعب ، فإن الله يحبهم ويبحث عنهم .

٣ — محبة الله محبة باحثة . فالراعى لا ينتظر حتى يعود الخروف لكنه يذهب للبحث عنه . هذا ما لم يفعله اليهود ، وما لا يفهمه اليهود .. إن فكرة اليهود هى أن يأتى الخاطىء إلى البيت مستجديا مستعطفا ، لكن فكرة المسيحية عن الله فكرة أروع ، لأن الله جاء فى المسيح ليبحث ويطلب ويخلص ما قد هلك .. إنه لم ينتظر حتى يجىء الناس ، لكنه هو ذهب للبحث عنهم ، مهما كلفه ذلك من آلام ومتاعب .

٤ — ومحبة الله محبة مبتهجة .. فعندما يعود الخروف ، لا نجد تأنيبا وتعنيفا وتذمرا واحتقارا .. كل ما نجده هو الفرح .. إننا أحيانا نستقبل التائب بمحاضرة فى الأخلاق ، وبتأنيبه عما فعل ، وكأننا نريده أن يشعر أنه محتقر وذليل بسبب ما فعل .. أو كأننا لن نثق فيه بعد ذلك .. هذا هو الإنسان الذى لا ينسى الماضى — أما الله فإنه يطرح خطايانا وراء ظهره . وعندما نعود إليه ، لا نرى سوى البهجة .

٥ — ومحبة الله محبة حافظة .. إنها المحبة التى تحفظ لتخلص وتحمى . إنها محبة تحكم الخاطىء العائد ، وتقويه وتعطيه قوة للانتصار على التجربة ، والسيادة على الخطية . فما أعجبها من محبة !

محاولة المصالحة

(متى ١٨ : ١٥ ــ ١٨)

ظن بعض الشراح المحدثين أنه من الصعب قبول هذه الأقوال على أنها أقوال حرفية تفوه بها السيد المسيح ، واعتقدوا أن متى ، وقد كتب هذه الأقوال بعد زمن من حياة المسيح ، وضعها بصورة تختلف عن الكيفية التى تحدث بها المسيح . وهم يستندون فى رأيهم هذا على ما يبدو من أن هذه الأقوال تميل إلى الناموسية أكثر منها إلى روح السيد المسيح التى لا حدود لصفحها . هذا فضلا عن أن الكنيسة لم تكن موجودة كهيئة منظمة وقت حياة المسيح حتى يجعلها فى حديثه درجة من درجات التأديب والتوبيخ . وهم يقولون إن يسوع لم يكن يعتبر الوثنيين والعشارين بالذات من الناس البعيدين عن ملكوت الله ، بل إنه قال مرة إن العشارين والزوانى سيسبقون بعض أصحاب الدين الظاهرى إلى ملكوت السموات ، وتحدث عن العشارين والخطاة بشفقة وحب (متى ٩ : ١٠ وما بعده ــ ١١ : ١٩ ولوقا ١٨ : ١٠ ومتى ٢١ : ٣١ وما بعده) .

لكننا لو تأملنا مليا فى التفسير الصحيح لهذه الأقوال ، استطعنا أن ندرك إخلاص متى فى نقل رواية كلام المسيح ، فإن يسوع فى هذه الآيات ينظر بعين المستقبل إلى تأسيس الكنيسة المسيحية ، والعلاقات بين الإخوة وما ينبغى أن تكون عليه . والفكرة الأساسية فى هذه الفقرة هى أننا ينبغى ألا نسكت على موقف فيه تتصدع العلاقات بين الإخوة ، ولو حدث شىء من مثل ذلك ، فينبغى أن نعمل على علاجه . وهذه الآيات تشرح لنا خطة العمل لعلاج مثل هذا الموقف .

١ ــ إذا شعرنا أن أحدا قد أخطأ إلينا ، فينبغى أن نعبر عن شكوانا بالكلام . فإن أسوأ الأمور هو أن نكتم هذا الشعور فى دواخلنا فينمو ويتزايد ، ويصير شعورا قاتلا ، إذ يسمم كل الفكر والحياة بسموم الحقد حتى يشغل الإحساس بالإساءة كل تفكير الإنسان . لذلك فأفضل وسيلة هى بسط الأمر فى العتاب والكلام لتبدو الإساءة فى واقعها بسيطة لا تستحق الغضب الشديد .

٢ ــ كما أننا إذا شعرنا بأن أحدا أساء إلينا واجبنا أن نذهب لنقابله شخصيا . إن كتابة خطابات العتاب أو إرسال مبعوثين لمحاولة تصفية الأمر ، دون المواجهة الشخصية ، قد يزيد الأمر سوءا بسبب سوء تفسير عبارات الخطابات أو المبعوثين .

٣ ــ إذا لم يحقق هذا اللقاء الفردى والشخصى الغرض منه ، فيمكن أن نأخذ معنا أحد الأصدقاء الحكماء أو اثنين لمحاولة إعادة تصفية الجو ــ ويقول سفر التثنية : « لا يقوم شاهد واحد على إنسان فى ذنب ما أو خطية ما من جميع الخطايا التى يخطىء بها . على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر » (تثنية ١٩: ١٥) . ويقتبس متى فى حديثه هذا النص ، ولكن قصد المسيح لم يكن شهادة إثبات الخطية على الشخص ، بل المقصود هنا المساعدة فى المصالحة ، فربما نكون نحن مصدر الخطأ وليس الشخص الآخر ، وقد يسىء الإنسان إلى غيره ويظن أن غيره هو الذى أساء إليه ويكرهه . لذلك فوجود شخص أو اثنين قد يساعد على إظهار الأمور وتسويتها وإعادة السلام والمصالحة .

٤ ـــ وإذا فشلت هذه المحاولة ، فعلينا أن نطرح مشكلتنا على جماعة المؤمنين فى الكنيسة . وإذا تساءلنا عن السبب نرى أحد المشكلات تكون أسرع فى حلها إذا كانت محاولة الحل فى جو من الشركة المسيحية والمحبة الأخوية ، أكثر مما لو كانت فى جو الناموسية والقانون .. ذلك لأن المؤمنين سيضعون أساس معالجتهم للأمور شريعة المحبة المسيحية .

٥ ـــ أما إذا فشلت شركة المؤمنين فى علاج الأمر ، فإن يسوع يقول « وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثنى والعشار » ـــ وقد ظن البعض أن القصد من ذلك هو إهمال الشخص وتجاهله باعتبار فقدان الأمل فى إصلاح الأمر نهائيا ... لكن هذا لا يتفق مع روح المسيح ، فإن معاملة المسيح للوثنيين والعشارين لم تكن بهذا الروح أبدا ... وقد رأينا مقدار شفقته وعطفه عليهم ، وتقديره للقليل من محاسنهم .. لذلك نرجح أن يسوع يقصد إظهار مزيد من الحب ، لربح هذا الشخص .. وواجب المؤمن الحقيقى ألا يفقد الأمل فى إصلاح أى إنسان مهما كان عنيدا وعاصيا ..

٦ ـــ وأخيرا تأتى العبارة الأخيرة « كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء . وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء » ـــ وهذه العبارة أثارت جدلا كبيرا فى تاريخ الكنيسة المسيحية ، وحاول البعض أن يفسرها بأن للكنيسة سلطانا على الأرض لحل الإنسان من خطاياه ، ولربط الخطايا على الإنسان ـــ لكننا نرى أن هذا التفسير لا يتفق مع التعليم العام للكتاب المقدس عن الكنيسة وسلطانها ، وهو يعطى للكنيسة المنظورة ـــ وهى مجموعة من البشر المعرضين للخطأ فى الحكم والتقدير ـــ سلطانا لا يملكه إلا الله وحده ويسوع المسيح .

وقد سبق أن شرحنا هذا التعبير فى شرح قول المسيح المماثل لبطرس (انظر شرح متى ١٦ : ١٩) ، وعرفنا أن المسيح أعطى لرسله سلطانا خاصا لمعرفة مشيئة الله بإعلانات خاصة لتتمة أسفار الوحى المقدسة ، وأن هذا السلطان كان مقتصرا على الرسل وحدهم ، ونحن نقرأ عند مواجهة بطرس لسيمون الساحر ، وإعلانه له حقيقة حالته الروحية بقوله « ليس لك نصيب ، أو قرعة فى هذا الأمر . لأن قلبك ليس مستقيما أمام الله فتب عن شرك هذا وأطلب إلى الله عسى أن يغفر لك فكر قلبك . لأنى أراك فى مرارة المر ورباط الظلم » (أعمال ٨ : ٢١ ـــ ٢٣) ومثل هذا الإعلان مقتصر على الرسل ، ولا يجترىء إنسان عادى أن يقول لآخر مثل هذا الكلام .

وقد ذكرنا فى الشرح المشار إليه آنفا ، رأى البعض فى شرح هذا التعبير بأن مواعظ خدام الله ستجعل الخطية عبئا مربوطا على ضمير البشر ، وبتقديم رسالة الخلاص والغفران سيرفع عنهم هذا العبء ـــ وأشرنا إلى الاستخدام اليهودى لكلمتى « الحل » و « الربط » بمعنى إجازة بعض التصرفات أو منعها .

ونضيف هنا أن البعض يرون أن معنى هذا التعبير ، هو أن علاقاتنا هنا على الأرض ، لن تؤثر فقط على حياتنا فى الأرض ، ولكنها تمتد فى تأثيرها إلى حياتنا فى السماء ، لذلك ينبغى أن نحاول إصلاح هذه العلاقات هنا ، حتى لا تؤثر فى مستقبلنا الأبدى .

قوة حضور المسيح

(متى ١٨ : ١٩ و ٢٠)

وهنا نجد قولا من أقوال المسيح التى ينبغى أن نفكر فيها بعمق وتأمل لنفهم معناها الحقيقى ، وإلا أصابتنا خيبة الأمل وصادفنا الفشل . إن يسوع يقول إنه إذا اتفق اثنان فى الصلاة لأجل أمر من الأمور ، فإن الله سيحققه لهما . ولو أننا فكرنا فى الأمر حرفيا ، بدون شروط على الإطلاق ، فإننا قد نظن أن هذا القول غير صحيح . فهناك مرات لا حصر لها ، اتفق فيها شخصان وأكثر فى الصلاة لأجل موضوع معين ، مثل شفاء مريض أو خلاص ضال ، ولكن صلواتهم لم تتحقق حرفيا . إن كثيرين يصلون لأجل أغراض روحية تتعلق بملكوت الله ، وأحيانا لا ينالون ما يصلون لأجله — ومن الخير أن نواجه هذه الحقيقة مواجهة واقعية ثم نتأمل فى المعانى العميقة التى يحتويها هذا القول .

١ — إن أول ما نفهمه من هذا القول هو أن صلواتنا ينبغى ألا تكون أنانية ، فالصلوات الأنانية لا يجيبها الله .. إن المقصود .. بالصلاة ليس مجرد التفكير فى حاجاتنا الشخصية وحدنا دون أن نعبأ بالآخرين ، بل المقصود فى الصلاة الشعور بالشركة معا كإخوة فى حاجاتنا المشتركة ، لذلك ينبغى أن نصلى معا متفقين ، عالمين أن العالم والحياة لم تعد لنا كأفراد بل كجماعة — وأنه فى بعض الأحيان عندما تجاب صلواتنا نحن ، فمعنى ذلك أن صلوات بعض الناس الآخرين لن تجاب — وأحيانا كثيرة يتضمن نجاحنا نحن ، فشل آخرين ، أو نوالنا لوظيفة معينة حرمان آخر منها . فصلاة الاتفاق معا ، هى الصلاة التى تخلو من الجانب الذاتى الأنانى .

٢ — ثم إنه عندما تخلو صلواتنا من الأنانية ، فإنها دائما تستجاب . على أننا ينبغى أن نذكر هنا قانون الصلاة الأساسى ، وهو أننا فى الصلاة لا ننال الاستجابة التى نرغبها ، ولكننا ننال الاستجابة التى يرى الله فى حكمته ومحبته أنها أفضل بالنسبة لنا . ولأننا مخلوقات بشرية ، بقلوب ومخاوف وأشواق وآمال بشرية ، فإن معظم صلواتنا هى صلوات الرغبة فى الهروب من المواقف — فنحن نصلى لكى نتخلص من تجربة معينة ، أو حزن أو فشل ، أو موقف صعب مؤلم ، لكن استجابة الله دائما ليست طريقا للهروب ، بل هى طريق للانتصار . فالله لا يقدم لنا هروبا من موقف إنسانى ، بل يعيننا لنقبل ما لا نستطيع أن نفهمه ويساعدنا لنتحمل ما لم يكن ممكنا أن نتحمله بدون مساعدته ، ويجعلنا قادرين على أن نواجه ما لا قدرة لنا وحدنا على أن نواجهه ، ويعطينا حكمة لتصريف الأمور بكيفية ما كان يمكننا أن ندركها دون إرشاده .

إن المثل الكامل للصلاة تجده فى بستان جثسيمانى ، فقد صلى يسوع لتعبر عنه الكأس ، فلا يواجه موقفا مضنيا مرعبا كان ماثلا أمام مخيلته . لكن الاستجابة لم تكن هروبا وإنقاذا من الصليب ، بل كانت لمواجهته وتحمله والانتصار على آلامه ولعنته .

عندما نصلى دون أنانية ، سيرسل الله اجابته ، على أن هذه الاستجابة هى دائما جواب الله ، وليس هذا بالضرورة الجواب الذى ننتظره نحن .

٣ ــ ثم يواصل يسوع الحديث بأنه إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه فهناك سيكون فى وسطهم . لقد كان عند اليهود قول مأثور « عندما يجلس اثنان وينشغلان بدراسة الشريعة ، فإن مجد الله يكون فى وسطهم » ــ وهكذا نرى يسوع ، بهاء مجد الله ، حاضرا حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه .

ويمكن أن نرى هذا الوعد العظيم فى مجالين : ــ

(أ) المجال الأول هو مجال الكنيسة . فيسوع يحضر الاجتماع الصغير كما هو فى الاجتماع الكبير . إنه فى حلقة الصلاة ، كما فى درس الكتاب ، كما هو فى النهضات الكبيرة الهائلة . فليس يسوع المسيح مستعدا لاجتماعات الاعداد الهائلة من الناس . حيثما يجتمع المؤمنون المخلصون ، مهما كان عددهم قليلا فهو يعطيهم ذاته وشخصه .

(ب) والمجال الثانى هو مجال الأسرة . فمن الشروحات القديمة لهذا القول إن الاثنين أو الثلاثة هم الأب والأم والطفل . فيسوع هناك فى كل أسرة تتعبد له .

هناك من البشر من لا يقدمون أفضل ما عندهم إلا فى المناسبات الضخمة الكبيرة ، لكن بالنسبة ليسوع ، حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه فهذه مناسبة ضخمة رائعة ، يكون فيها .

كيف نغفر

(متى ١٨ : ٢١ ــ ٣٥)

إننا ندين بالكثير لسرعة بطرس واندفاعه فى الحديث ... ففى مناسبات كثيرة نرى بطرس يسرع فى الكلام ، مما يجعل المسيح يكلمه بتعاليم خالدة نافعة لكل الأجيال ــ وفى هذه المناسبة كان بطرس يظن فى نفسه أنه كريم فى تسامحه ، فقد سأل يسوع عن عدد المرات التى يغفر فيها الإنسان لأخيه ، وتطوع بأن يجيب بنفسه على السؤال واقترح الغفران سبع مرات .

ولم يكن كلام بطرس اعتباطا ، فإن تعاليم الربيين (معلمى اليهود) قضت أن يغفر الإنسان لأخيه ثلاث مرات . وقد قال الربى يوذى بن حنينة « من يطلب الغفران من أخيه فلا يطلبه أكثر من ثلاث مرات » ــ وقال الربى يوذى بن يهود « إذا أخطأ إنسان مرة ، يغفرون له ، وإذا أخطأ ثانية ، يغفرون له ، وإذا أخطأ ثالثة يغفرون ، وفى المرة الرابعة لا يغفرون له » ــ والدليل الكتابى على صحة هذه التعاليم عند اليهود مأخوذ من سفر عاموس عندما نقرأ عن ذنوب الشعوب الثلاثة والأربعة مثل : « هكذا قال الرب من أجل ذنوب دمشق الثلاثة ، والأربعة لا أرجع عنه » ــ وهكذا عن ذنوب غزة ، وصور وأدوم وبنى عمون وموآب ويهوذا واسرائيل . (عاموس ١ : ٣ ، ٦ ، ٩ ، ١١ ، ١٣ و ٢ : ١ ، ٤ ، ٦) ــ وقد استنتج اليهود من هذه الأقوال أن غفران الله يمتد إلى ثلاثة ذنوب ، ثم يعاقب الخاطىء والمذنب عند الذنب الرابع ــ وقد قال اليهود إن الإنسان لا يستطيع أن يدعى أنه أرحم من الله ، فيغفر أكثر من ثلاثة ذنوب ...

وقد اعتقد بطرس أنه إذا غفر سبع مرات يكون قد سار فى طريق الغفران شوطا طويلا جدا ، فقد ضاعف عدد مرات الغفران وزادها واحدا ــ وتوقع بطرس الثناء الكبير على هذا القدر من

التسامح ... لكن جواب يسوع له أوضح أن المسيحية تغفر بلا حدود ... فعندما يغفر الإنسان سبعين مرة سبع مرات يتعود على الغفران دائما بلا عدد وبلا حدود .

ثم ذكر يسوع مثل المديونين : العبد الذى سومح بدين كبير جدا لكنه لم يسامح رفيقه بدين صغير ، وكيف عاقبه سيده ... وفى هذا المثل أوضح يسوع حقائق لم يمل أبدا من تكرارها وتعليمها :

١ ـــ فهو يعلمنا درسا نراه فى كل العهد الجديد ، أننا ينبغى أن نغفر لننال الغفران ـــ ومن لا يغفر للناس لا يمكنه أن يرجو أن يغفر له الله « طوبى للرحماء لأنهم يرحمون » (متى ٥ : ٧) ـــ وبعد ذكر الصلاة الربانية شرح يسوع الجزء الخاص بالغفران بقوله : « فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم ، يغفر لكم أيضا أبوكم السماوى . وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضا زلاتكم » (متى ٦ : ١٤ و ١٥) ، وكما كتب يعقوب الرسول « لأن الحكم بلا رحمة ، لمن لم يعمل رحمة » (يعقوب ٢ : ١٣) .

٢ ـــ ولماذا ينبغى أن يكون الأمر كذلك ، إن الفكرة الظاهرة فى هذا المثل هى المقارنة بين الدينين . فالعبد الأول كان مديونا بعشرة آلاف وزنة . والوزنة تعادل نحو ٢٤٠ جنيها . فالعشرة آلاف وزنة تعادل ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه . وهذا دين ضخم حقا ، هو أعظم من ميزانية مقاطعة كاملة فى ذلك الوقت ـــ فإن دخل المقاطعة التى كانت تشمل أدوم واليهودية والسامرة كان ٦٠٠ وزنة) ، وايرادات مقاطعة الجليل وحدها وهى مقاطعة غنية كانت ٣٠٠ وزنة فقط ... فهذا الدين كان أكبر من فدية ملك ... ومع ذلك فقد سامحه السيد بذلك الدين .

أما الدين الثانى فكان مائة دينار أى بما يعادل خمسة جنيهات . ونسبة هذا الدين إلى الدين الكبير حوالى ١ / ٥٠٠٫٠٠٠ لذلك فالمقارنة بين الدينين كانت مذهلة .

والنقطة التى أبرزها المسيح ، أنه مهما كانت اساءات الناس إلينا ، فهى ليست شيئا بالمقارنة إلى خطايانا نحو الله ... إن ديننا الذى غفره لنا الله لا يمكن تقدير قيمته ... فإذا لم نغفر للناس أخطاءهم ، فنحن نبين أننا لم نحس بقيمة غفران الله خطايانا ، ولا ننتظر رحمة من الله .

الأصحاح التاسع عشر

مشكلة الطلاق

(متى ١٩ : ١ — ٩)

فى هذه الفقرات يعالج السيد المسيح ، موضوعا حيويا معقدا ، كان كذلك فى عصره ، كما فى عصرنا نحن الآن أيضا . ولقد كانت مشكلة الطلاق مثار خلاف فى الرأى عند اليهود ، ولم يكن هناك إجماع على رأى معين فى هذا الموضوع ، وقد أراد الفريسيين أن يدخلوا يسوع فى هذا النزاع الفكرى بسؤالهم : هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب ؟

وقد كانت النظرة اليهودية إلى الزواج نظرة سامية ، فقد كان فى نظرهم واجبا مقدسا ، وكانوا يعتبرون من يبقى دون زواج إلى ما بعد سن العشرين عاما إنه يكسر وصية ايجابية وهى « أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض » ، فيما عدا من يبقى دون زواج لكى يتفرغ لدراسة الناموس .

وقد ذكر المؤرخ اليهودى يوسيفوس فى كتاباته ، نظرة اليهود إلى الزواج ، كما هى مبنية على الشريعة الموسوية (تاريخ اليهود ٤ — ٨ — ٢٣) . فذكر أن الدخول إلى الحياة الزوجية يجب أن يكون بعد روية وتفكير ، والرجل يجب أن يتزوج عذراء من أسرة طيبة ، ولا يتزوج امرأة كانت تحت العبودية أو كانت زانية .

وينبغى ألا يفسد الإنسان امرأة رجل آخر ، وإذا اتهم رجل زوجته أنها لم تكن عذراء عندما تزوجها ، فيجب أن يقدم الأدلة على التهمة ، ويجب على أبيها أو أخيها أن يدافع عنها . فإذا ثبت أن الفتاة بريئة فيجب أن يتخذها زوجة له ولا يطلقها أبدا إلا بسبب الخطية الفظيعة . وإذا ثبت أن الاتهام كان خبيثا متسرعا دون روية ، فإن الرجل الذى وجه إليها الاتهام ينبغى أن يجلد أربعين جلدة إلا واحدة ، كما يدفع خمسين شاقلا لأبيها . ولكن إذا ثبت صحة الاتهام وأذنبت الفتاة ، وكانت الفتاة من عامة الناس ، فيجب أن ترجم بالحجارة إلى أن تموت . وإذا كانت ابنة كاهن ، فيجب أن تحرق حية .

واذا غرر رجل بفتاة على أهبة الزواج ، وكان هذا برضاها ، فيجب أن يحكم عليهما بالموت . أما إذا كان الشر قد وقع فى مكان منعزل ، أو فى مكان يتعذر على الفتاة فيه أن تطلب النجدة وأجبرها الشاب على الإثم ، فيكون حكم الموت على الرجل وحده .

وإذا غرر رجل بفتاة غير مخطوبة ، فيجب أن يتزوجها . فإذا رفض أبوها أن يزوجها له ، يدفع للإب خمسين شاقلا .

وقد كانت أهداف قوانين الزواج والطلاق والنقاوة عند اليهود سامية الهدف . وحسب قول الله أنه يكره الطلاق (ملاخى ٢ : ١٦) . كانت الفكرة المثالية هى كراهية الطلاق . وقد قيل . إن المذبح نفسه يبكى بالدموع عندما يطلق إنسان امرأة شبابه .

لكن المثالية والواقعية لم تسيرا جنبا إلى جنب ، وقد كان هناك عاملان ضاعت بسببهما المثالية وأصبح الواقع أمرا مغايرا تماما لما تنادى به المبادىء :

العامل الأول هو أن المرأة كانت فى نظر القانون اليهودى مجرد شيء .. وهى تعتبر ملكا لأبيها ، ثم تنتقل ملكيتها إلى زوجها بعد الزواج . لذلك لم تكن لها حقوق شرعية بالمعنى الصحيح . وكانت معظم حالات الزواج اليهودية تتم باتفاق الوالدين أو بوساطة أناس متخصصين فى البحث عن زوجات للشبان . وأحيانا كانت تتم خطبة البنت فى طفولتها ، وكثيرا ما كانت الفتاة تتزوج من رجل لم تره من قبل . ومع أنه كان من حق الفتاة فى سن الثانية عشرة أن ترفض الزوج الذى اختاره لها أبوها ، لكن هذا كان نادر الحدوث .

أما فى موضع الطلاق ، فالقاعدة العامة كانت أنه يتم بناء على طلب الرجل ورغبته فقط . ومن قوانين اليهود : « إن المرأة يمكن أن تطلق سواء بموافقتها أو بدون موافقتها ، لكن لا يجوز تطليق الرجل دون موافقته » .

فالمرأة لا تستطيع أن تطلب الطلاق .. والرجل يمكنه أن يطلقها ، لكنها لا تستطيع أن تطلقه .

وقد كفل القانون بعض الضمانات للمرأة . فإذا طلق لأسباب أخرى خلاف سوء الخلق . فيجب أن يعيد إليها المهر أو مؤخر الصداق ، وقد كان هذا نظاما للحد من الطلاق . وقد كانت المحاكم تحكم بطلاق المرأة من الرجل إذا لم يستطع أن يتم الزواج ، أو فى حالة العجز ، أو عدم القدرة على الإنفاق عليها . وقد كان فى قدرة المرأة أن ترغم الرجل على تطليقها إذا أصيب بمرض معد كالبرص ، أو إذا كان دباغا للجلود لأنه كان يستلزم من الرجل أن يجمع روث الكلاب ، أو إذا أراد أن يلزمها بترك الأرض المقدسة .

كانت القاعدة العامة أنه ليست للمرأة حقوق فى طلاق زوجها ، وكل السلطات فى يد الرجل .

والعامل الثانى أن اليهود كانوا يسهلون عملية الطلاق مستندين إلى النص الذى استخدموه فى سؤالهم للمسيح ، من ناموس موسى ، وقد ورد فى تثنية ٢٤ : ١ « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته ... » .

وقد كان من السهل على الرجل أن يعطى للمرأة كتاب طلاق ، وهو عبارة عن جملة واحدة مكتوبة تفيد أنه طلقها ... لذلك كان اليهود يطلقون نساءهم بكثرة ولأتفه الأسباب ، وهكذا ضاعت المثالية أمام الواقعية .

أسباب الطلاق عند اليهود :

تقول الشريعة إن الرجل يمكنه أن يطلق المرأة « إن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء » ـــ وقد اختلف اليهود فى تفسير هذا العيب ، وأراد الذين سألوا يسوع أن يوقعوه فى مشكلات تفسير هذا القول ، فقد كانت مذاهب الربيين تختلف فى تفسيره . قال مذهب شمعى

إن العيب المقصود هو الزنى فقط ، ولا يجوز طلاق المرأة لسبب آخر غيره ـــ ويقول هذا المذهب إنه ولو كانت المرأة شريرة كايزابيل لكنها مادامت لم ترتكب خطية الزنا فلا يمكن تطليقها . أما مذهب هليل فقد توسع فى تفسير هذا العيب توسعا كبيرا . فقال أصحاب هذا المذهب إنه يمكن للرجل أن يطلق المرأة إذا أفسدت طعامه ، أو إذا سارت بشعر غير مضفور ، أو إذا تحدثت مع الرجال فى الطريق ، أو إذا تكلمت بدون احترام إلى والدى الزوج فى وجوده ، أو إذا كانت نبرات صوتها عالية يمكن سماعها من البيت المجاور .

وقد قال الربى « عقبة » إن العبارة « لم تجد نعمة فى عينيه » يمكن تفسيرها أنه وجد امرأة أجمل منها وأحبها أكثر منها .

وقد كانت المأساة أن مذهب هليل هو الذى ذاع وانتشر وأصبح الطلاق شائعا عند اليهود لأتفه الأسباب .

ولكى تكمل الصورة نضيف أنه حسب شريعة الربيين كان الطلاق إجباريا فى حالتين ، وهما حالة الزنا وحالة العقم . فإذا زنت امرأة كان من الضرورى على زوجها أن يطلقها وليس له اختيار فى ذلك ، كما أنها إذا عاشت معه عشر سنوات دون إنجاب أطفال ، كان يتحتم أن يطلقها لأن هدف الزواج فى نظرهم هو إنجاب الأطفال .

ولم يكن الهجر سببا يسمح بطلاق الرجل من المرأة ، فإذا غاب رجل مدة طويلة ، لا يمكن لزوجته أن تطلقه ما لم يثبت موته بشهادة شاهد واحد . ولم يكن الجنون من أسباب الطلاق . فلو أصيبت امرأة بالجنون لا يستطيع الزوج أن يطلقها ، لأنه لو طلقها فلن تجد من يحميها ـــ وإذا أصيب الزوج بالجنون لا يسمح له بالطلاق لأنه لا يكون مدركا إدراكا يسمح له أن يكتب كتاب الطلاق بوعى .

هذه هى الصورة التى كانت فى أذهان اليهود عندما قدموا إلى يسوع سؤالهم عن الزواج والطلاق ... لذلك كان على يسوع أن يقدم جوابا يتضمن تغييرا جوهريا فى الموقف .

جواب يسوع :

كان سؤال الفريسيين ليسوع ، هو فى الواقع استفهام منهم عما إذا كان يسوع يؤيد مذهب شمعى الضيق ، أو مذهب هليل المتحرر ، وهكذا يدخلونه فى خلافاتهم ومناقشاتهم

أما جواب يسوع فكان أن أعاد الأمور إلى بدايتها الأصلية . لقد عاد بأفكار الناس إلى الحالة المثالية عند الخليقة ، فقال إن الله خلق آدم وحواء ، رجلا وامرأة . وواضح أن ظروف قصة الخليقة تبين أن آدم وحواء قد خلق الواحد منهما للآخر ، وليس لأى كائن آخر ، وقد كان اتحادهما كاملا وضروريا ولا ينفصم . ثم يقول يسوع إن هذه الصورة التى نراها فى آدم وحواء هى النموذج لما ينبغى أن يكون عليه كل زواج يأتى بعدهما . فكل زواج هو إعادة لارتباط آدم وحواء . ومن الواضح أنه فى حالة آدم وحواء لم يكن الطلاق مجرد شىء مكروه أو غير جائز ، بل كان مستحيلا ، لأنه لم يكن فى العالم من يمكن لكل منهما أن يتزوج منه .

وهنا يضع أمامنا يسوع القاعدة العامة وهي أن كل طلاق أمر غير طبيعي وخطأ — ويسوع هنا لا يضع تشريعا أو قانونا لكنه يقرر مبدأ عاما ، وهناك فرق بين التشريع والمبدأ .

وهنا أيضا وجد الفريسيون فرصة ليهاجموا يسوع ، باعتباره يناقض تشريع موسى الذى يجيز الطلاق إذا لم تجد الزوجة نعمة فى عينى زوجها أو وجد فيها عيبا (تثنية ٢٤ : ١) — ولعلهم واجهوا يسوع بهذه الحقيقة ، وكأنهم يقولون له : « هل موسى إذاً كان مخطئا فى شريعته التى قدمها لنا بوحى من الله ؟ » .

وكان جواب يسوع أن موسى لم يضع لهم قانونا للطلاق ... إنه لم يأمرهم بالطلاق ، بل سمح به فقط حتى ينظم الموقف الذى كانوا يسيئون استخدامه . فالتنظيم الذى وضعه موسى ، كان مجرد سماح منه ليوافق الطبيعة البشرية الضعيفة الساقطة ، وبتعبير المسيح « إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم » ولكننا فى سفر التكوين ٢ : ٢٣ و ٢٤ نرى الصورة المثالية التى أرادها الله :

« فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى . هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت . لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا» — هذا هو قصد الله .

ثم وضع السيد المسيح القاعدة بقوله :

« وأقول لكم إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزنى . والذى يتزوج بمطلقة يزنى »

(متى ١٩ : ٩) .

وعندما نقارن هذا القول بما ورد فى البشائر الأخرى ، نقرأ فى مرقس ١٠ : ١١ و ١٢ .

« فقال لهم من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى عليها . وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر تزنى »

وفى لوقا ١٦ : ١٨

« كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزنى . وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزنى » .

وبمقارنة هذه الروايات الثلاث ، نلاحظ أن رواية مرقس تبدو كأنه كان ممكنا للمرأة أن تطلق زوجها ، وهذا مخالف لنظام الطلاق عند اليهود ، ولكن تفسير ذلك أن إمكانية تطليق المرأة لزوجها كان شائعا عند الأمم ، وأراد المسيح أن يوسع نظرته لتشمل الأمم ، لا اليهود فقط .

كما نلاحظ أن رواية مرقس ولوقا لا تشير إلى السماح للطلاق بسبب الزنا ، ويقول بعض الشراح إن مرقس ولوقا افترضا هذا الأمر افتراضا لأنه كان أمرا طبيعيا عند اليهود . ويقول البعض الآخر إن المسيح قصد فعلا ألا يسمح بالطلاق لأى سبب ، لأن الصورة المثالية عند الله هى عدم الطلاق . (وهو الرأى الذى تأخذ به الكنائس الكاثوليكية) . أما رواية متى ، فإنها وضعت ، بطريق الاستثناء ، السماح لعلة الزنا ، باعتبار أن الكنيسة وافقت على هذا الاستثناء فيما بعد .

الصورة المثالية :

الصورة المثالية التى يضعها يسوع للزواج المسيحى قائمة على الصورة المثالية للزواج اليهودى . فالكلمة العبرية التى تستخدم للدلالة على الزواج هى كلمة (قدوشين) ومعناها التقديس أو التخصيص . والكلمة عينها تستخدم عندما تخصص شيئا وتقدسه للرب . فكل شيء يخصص تخصيصا كاملا لله يطلق عليه لفظ (قدوشين) — ودلالة ذلك أنه فى الزواج يصير الزوج ملكا للزوجة ، وتصير الزوجة ملكا للزوج ، تماما كما تصير الذبيحة ملكا لله ومقدسة له . هذا ما قصده السيد عندما اقتبس القول إنه من أجل الزواج يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا . هذا هو النموذج الذى يضعه أمامنا المسيح لنسعى نحوه ، إذا أردنا أن نسير فى طريق طاعته . ومنه تتضح النتائج الآتية : —

١ — إن هذه الوحدة الكاملة فى الزواج ، ليست وحدة فى جانب واحد من جوانب الحياة ، أيا كانت أهمية ذلك الجانب ، بل إنها وحدة فى كل نواحى الحياة — فمع أن العلاقة الجسدية فى الزواج أمر هام ، لكنها ليست كل الزواج . والعلاقة الزوجية التى تقوم على أساس الرغبة الجنسية فقط ، مهددة دائما بالخيبة والفشل .

٢ — إن الزواج هو اتحاد كامل بين شخصين . ويمكن لشخصين أن يعيشا معا على عدة أسس فى العلاقات . فقد يعيش شخصان على أساس خضوع واحد منهما للآخر خضوعا تاما وفناء شخصيته فى الآخر . لكن ليست هذه هى العلاقة السليمة . وقد يعيشان على أساس التحفظ والكلفة وعدم إثارة دواعى التوتر بين الواحد والآخر ، ولكن هذه ليست علاقة سليمة ، وقد يكون أساس العلاقة استقلال الفرد عن الآخر رغم أنهما يعيشان تحت سقف واحد ، وهذا ليس أمرا سليما أيضا .

إن الأساس السليم للعلاقة بين الزوجين هى أن يكمل أحدهما الآخر . فالزواج ينبغى ألا يكون سببا فى تضييق الحياة بل فى اكتمالها وسعادتها ليجد كل فرد من الزوجين سعادة جديدة فى الحياة . وهذا لا ينفى ضرورة التوافق والتضحيات من كل جانب فى سبيل الوحدة الكاملة .

٣ — ويمكن أن نعبر عن العلاقة الزوجية تعبيرا عمليا بأنها المشاركة فى كل ظروف الحياة . إن بعض الناس يسعدون بالبهجة التى تملأ حياتهم أيام الخطبة وأيام الزوجية الأولى . لكن هذه الأيام لا تمثل طبيعة الحياة الدائمة ، ففيها يظهر كل فرد فى أجمل وأحسن مظهر ، ولا يفكران فى المشكلات المادية والعائلية . لكن عند الزواج يجب أن يتوقع كل من الطرفين أن يرى الآخر ، لا فى أجمل مظهر ، لكن عندما يكون مكدودا مجهدا ، وعندما تملأ البيت ضجة الأطفال فتقلب نظامه ، وعندما تصير الموارد المادية موضوع اهتمام وقلق ، وعندما يفكران فى نفقات الطعام واللباس ، وعندما يتحولان من التأمل فى ضوء القمر والأزهار إلى النظر فى المطبخ والأحواض والسهر فى الليل على صوت طفل يصرخ . وما لم يكن الزوجان على استعداد لمواجهة هذه الظروف العملية فإن الزواج يتعرض للفشل .

٤ — وقد نستنتج من هذه المبادىء حقيقة نراها ضرورية ، وإن لم تكن معمولا بها فى كل

البلاد ، وهى أن السعادة فى الزواج تكون أكثر احتمالا إذا كانت هناك فرصة كافية يتعرف فيها كل من الطرفين على الآخر ، للتوفيق فى المبادىء والعادات والطباع . ومع أن هناك حالات زواج تمتعت بالسعادة رغم عدم وجود هذه الفرصة ، لكن فرص النجاح والسعادة تزداد فى الزواج كلما كانت هذه الفرصة موجودة للتوافق وتنمية روابط المودة بين الأشخاص .

٥ ــ وهذا يقود إلى النتيجة العملية الأخيرة ، وهى أن أساس الزواج هو المشاركة والارتباط ، وأساس هذه المشاركة هو اللطف والرقة والتقدير . فالأنانية هى القاتلة لكل العلاقات الشخصية ، والتضحية وإنكار الذات أساس كل ترابط ومودة .

يذكر الكاتب المشهور « سومرست موم » أن أمه كانت جميلة جذابة وموضع تقدير وحب الناس جميعا ، بينما لم يكن أبوه أنيقا ولا ظاهرا فى الهيئة الاجتماعية . وذات يوم سأل أحدهم أمه قائلا « كيف تظلين أمينة وفية لذلك الرجل الصغير القبيح الذى تزوجت به ، بينما أنت قبلة أنظار جميع الناس وموضع حبهم وتقديرهم ؟ » ــ فأجابته « إن هذا الرجل لم يجرح إحساسى مرة واحدة » .

وما أعظمه من ثناء ... إن أساس الزواج هو بساطة المحبة والتفكير فى إسعاد الشخص الآخر قبل إسعاد الذات ... والمحبة التى تفتخر بالخدمة ، وتستطيع أن تفهم لتغفر .. إنها محبة مثل محبة المسيح الذى نسى نفسه وأضاعها ، ليجدها فى الكنيسة التى أحبها وأسلم نفسه لأجلها .

هل تتحقق الصورة المثالية ؟

(متى ١٩ : ١٠ ــ ١٢)

هنا نرى إسهابا وتوسعا فيما سبق ذكره . عندما سمع التلاميذ الفكرة المثالية عن الزواج المسيحى فزعوا . فقد ذكروا عددا من أمثال الربيين التى تتحدث عن شقاء الحياة الزوجية والتى تقترح الطلاق كعلاج لهذا الشقاء . فمن أقوال معلمى اليهود ، إن زوج المرأة الشريرة لن يرى جهنم لأنه يكفر عن خطاياه فى الأرض ، ومن أقوالهم إن المرأة الشريرة كالبرص بالنسبة لزوجها ، وإن العلاج الوحيد فى هذه الحالة هو الطلاق ... لذلك كان منع الطلاق تماما فى نظر قوم تعودوا أن يسمعوا هذه الأمثال والأقوال ، أمرا مخيفا مفزعا ، فقالوا للمسيح إنه إذا كان الزواج هكذا ــ طريقا لا عودة منه ، فلتجنب مآسيه يحسن عدم الدخول فيه بالمرة .

وقدم يسوع جوابا على التلاميذ يتلخص فى فكرتين :

١ ــ إنه لن يستطيع كل إنسان أن يقبل الفكرة المسيحية المثالية عن الزواج ، فالذين يقبلونها هم « الذين أعطى لهم ... » والمسيحى وحده هو الذى يقبل مبدأ الأخلاق المسيحية . والإنسان الذى يتمتع بمعونة مستمرة من يسوع المسيح ، وإرشاد مستمر من الروح القدس هو وحده الذى يستطيع أن يحيا فى علاقة زوجية مثالية . فمعونة المسيح عامل أساسى فى بناء الشخصية المشفقة المتسامحة المتفهمة للظروف ، الممتلئة بالمحبة ، التى تحتاج إليها العلاقة المثالية فى الزواج ... وبدون هذا العون الإلهى يصير من المستحيل تكوين هذه العلاقة .

والصورة المثالية للزواج تتضمن شرطا أساسيا يسبق وجودها ، وهو أن يكون كل من الطرفين في الزواج مسيحيا حقا . هذه حقيقة لابد من التنبير عليها وفهمها جيدا . إن تطبيق تعليم السيد المسيح مستحيلة دون معونة مستمرة منه هو شخصيا .

إن بعض الناس يقولون أحيانا : « لماذا نزعج أنفسنا بالمشكلات اللاهوتية المعقدة المتصلة بلاهوت المسيح ، وصلبه وقيامته ، وعقيدة الثالوث ، وغير ذلك ؟ لماذا لا نقبل تعاليم المسيح كمثل أعلى نهدف إليه ، ونقبل المسيح كمعلم عظيم قدم للعالم تعاليم رائعة ينبغي أن نحاول تطبيقها في حياتنا ، دون الانشغال بمتاعب المعتقدات اللاهوتية العسيرة » .

والجواب على ذلك سهل وواضح . إننا لا نستطيع أن نطبق تعاليم يسوع إلا بقوة التغيير العجيب التي يعملها فينا يسوع نفسه ، وبالمعونة المستمدة منه شخصيا ... إن تعاليم يسوع ممكنة حين نؤمن أنه حي وعامل فينا ، وأن وجوده وروحه قوة متجددة في داخلنا .

إن تعاليم المسيح بدون وجود المسيح الدائم ، تصيرا أمرا مستحيلا ، بل إنها تصبح صورة مثالية تبعث على العذاب ، لأنها تصير غير ممكنة .

إن قول المسيح ينبغي أن نفهمه جيدا ، وهو أن صورة الزواج المسيحي ، غير ممكنة إلا للمسيحي الحقيقي فقط .

٢ — وينتهي هذا الجزء بحديث المسيح عن الخصيان . ويعتقد بعض المفسرين أن يسوع ذكر هذه الأقوال في مناسبة أخرى ولكن متى — حسب نظامه في جمع الحقائق المتقاربة في فصل واحد — ذكرها هنا .

ويذكر يسوع هنا ثلاثة أنواع من الخصيان : النوع الأول هم المولودون طبيعيا وليست لديهم القدرة الجنسية .

ثم النوع الثاني وهم الذين خصاهم الناس ، وكان يحدث هذا في القديم خاصة في بلاط بعض الملوك ، عندما كانوا يقومون بهذا العمل لبعض الرجال الذين يخدمون في القصر خاصة في الحريم . وكان هذا يحدث أيضا لبعض الكهنة في بعض الهياكل مثل كهنة هيكل ديانا في أفسس .

ثم يتحدث يسوع عن النوع الثالث وهم الذين خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات . ولا ينبغي أن نفهم هذا الأمر حرفيا . فمن مآسي الكنيسة المسيحية الأولى أن أوريجانوس في شبابه فهم هذه الآية حرفيا وخصى نفسه . ثم تبين له فيما بعد خطأ ما فعل . وقد كتب أكليمندس الاسكندري « إن الخصي الحقيقي ليس من لا يقدر أن يمارس اللذة الجسدية ، ولكنه الذي لا يقوم بممارستها رغم قدرته » .

وهناك أناس يجدون أنفسهم أمام دعوة إلهية أن يخدموا في مناطق يتعذر عليهم فيها أن يعيشوا مع أسرة وأطفال ، لذلك فهم يفضلون أن يلبوا هذه الدعوة على أن يستجيبوا لداعي العواطف البشرية . فبعض المرسلين في المناطق البدائية ، والذين يقتضي عملهم التعرض للسفر المتواصل

والأخطار المتنوعة ، يقومون بمثل هذه التضحية .

وشكرا لله أن هذا الموقف لا يواجه كثيرين من البشر ، لكن العالم مدين بالكثير لأمثال هؤلاء الذين اختاروا العزوبية ، والنقاوة ، والفقر ، وساروا فى طريق الحياة وحدهم لأجل ملكوت الله .

المواقف الحالية(*) :

إن بعض الشراح يذكرون أن يسوع عندما ذكر قواعد الطلاق ، كان يضع مبدأ عاما ، لكنه لم يكن يضع تشريعا مفصلا . وهناك فرق بين المبادىء والقوانين . والكتاب المقدس لا يضع لنا قوانين وتشريعات ، ولكنه يقدم لنا المبادىء ، التى علينا أن نطبقها فى الأحوال المختلفة بروح الفهم والصلاة .

فالكتاب المقدس مثلا ، يضع مبدأ تقديس السبت ، إذ نقرأ فى (خروج ٢٠ : ١٠) أنه لا ينبغى أن يصنع الإنسان أو ابنه أو ابنته أو عبده أو بهيمته أو ضيفه عملا ما ، لكن الواقع يبين لنا أنه لا يمكن فى أى مجتمع متحضر أن يتوقف دولاب العمل يوما كاملا . ففى المجتمع الزراعى لابد من حلب المواشى والعناية بها أيا كان اليوم ، وفى المجتمعات المتقدمة لابد من وجود عدد كبير من المرافق ، التى تحتاج إلى عمل كل يوم ولا يمكن أن تتوقف ، كمحطات النور والمياه ، ووسائل النقل وغير ذلك ، والعناية بالأطفال ، والعمل بالمستشفيات لا يمكن أن يتوقف .

إذا فهناك مرافق تحتاج إلى شىء من العمل ، حتى فى يوم الرب ، وهذا يبين لنا أن المبدأ لا يجب أن نفهمه على أنه قانون نهائى حرفى ، بل يجب إن تطبق المبدأ فى كل موقف منفرد ، كما يريدنا الله أن نطبقه . ويعتقد البعض أننا إذا طبقنا كلام السيد المسيح عن الطلاق على أنه ناموس حرفى ، فإن ذلك سيوقعنا فى نوع من الناموسية ، التى ستبعدنا شيئا فشيئا عن روح المسيح .

(أ) فالصورة المثالية بلا شك هى أن الزواج رباط لا ينفصم بين شخصين ، يشمل اتحاد هذين الشخصين اتحادا يزيد من سعادتهما وشركتهما هذا هو الأساس الذى يجب أن نبنى عليه .

(*) هذا الكلام للمترجم :

(وربما كان من الضرورى أن نحاول استعراض المواقف الحالية التى تتخذها جماعات المسيحيين تجاه موضوع الطلاق :

فهناك من يأخذون كلمات السيد المسيح على أنها قانون حرفى ويمنعون الطلاق لأية علة . فمتى كان الزواج صحيحا فلا يمكن أن يفرق إنسان ما جمعه الله . والبعض يحكمون بما يسمى « الانفصال الجسمانى » فى حالة استحكام الخلاف والنزاع بين الزوجين . لكن الزواج لا ينحل إلا بالموت .

وهناك من يسمحون بالطلاق لعلة الزنا ، مستندين إلى ما جاء فى رواية متى لحديث المسيح . على أن الطلاق لا يكون واجبا ـــ بسبب هذه العلة ـــ كما كان عند اليهود ، فهناك من يتملكهم روح الغفران المسيحى ، فيسامحون ، ولا يطلقون رغم وجود هذه العلة .

والذين يدعون لمنع الطلاق يستندون فى ذلك إلى أقوال المسيح باعتبارها قانون الحياة ، ويعتقدون أن إباحة الطلاق لأى سبب ، تشجع الناس على سوء التصرف للتحرر من روابط الحياة الزوجية .

على أننا نرى أن بعض كنائس الغرب والشرق ، تسمح بالطلاق فى أحوال استثنائية ، ومع أننا قد لا نتفق مع بعض هذه الأحوال ، لكن لا بأس من النظر إلى ما وراءها من أفكار ، على سبيل الدراسة) .

(ب) لكن الحياة ليست على الدوام صفاءً ونظاما ، فقد تعترضها ظروف لا يمكن التنبؤ بها .

ونفترض أن شخصين دخلا فى رباط الزواج ، وقلوبهما عامرة بالأمل والمثالية ، لكن شيئا لم يكن فى الحسبان اعترض حياتهما حتى جعل علاقة الزواج جحيما على الأرض بدل أن تكون ينبوع سعادة . إن الإنسان لا يستطيع أن يعلم ما يمكن أن يحدث قبل وقوعه . لكن لنفرض أن كل وسيلة ممكنة لعلاج الموقف فى الأسرة المحطمة ، قد استنفدت دون جدوى ... لنفرض أن الطبيب الجسمانى حاول علاج الأمور الجسدية ، أو الطبيب النفسى حاول علاج الأمور السيكلوجية ، أو القسيس حاول علاج الأمور الروحية .. وفشل الجميع — فماذا يمكن عمله بعد هذا ؟

ولنفرض أن واحدا من طرفى الزواج كان تكوينه الجسدى أو العقلى أو الروحى شاذا بكيفية تجعل من المستحيل عليه أن يتفق فى شيء مع الطرف الآخر ، وأن اكتشاف هذا الشذوذ لم يتم إلا بعد الزواج ، فهل يكون من دواعى الحب والشفقة أن يبقى رباط الزواج مقيدا للطرفين فى شقاء وتعاسة مدى الحياة ؟

إن بعض الآراء الحديثة ترى أنه من الصعوبة اعتبار مثل هذا التفكير متمشيا مع روح المسيحية . إنهم يعتقدون أن المسيح لا يرضى أن يحكم على مثل هذين الشخصين بهذا الحكم .

إن هذا لا يعنى تسهيل أمر الطلاق أبدا ، بل معنى ذلك أنه عندما تفشل جميع المساعى فى إصلاح موقف ما ، ويظل الحال خطيرا ، يجب أن تنظر الكنيسة بعين الشفقة والمحبة المسيحية إلى الذين يعانون من هذا الموقف ، وتعمل ما يمكنها لمعاونتهم على إنهاء الحال التعيس الذى يكونون فيه .

إن النظرة الحرفية الناموسية لا يمكن أن تحل مشكلات الزواج ، فقد يسقط إنسان مرة واحدة نتيجة اندفاعه أو بغواية التجربة ، ومع ذلك فإنه يكون على استعداد أن يبقى طيلة أيام حياته الباقية فى عفة ووفاء وشعور بالخجل نتيجة خطيته هذه . إن مثل هذا الشخص الذى تسمح الناموسية له بالطلاق ، أقدر على الحياة الزوجية السعيدة ، من شخص لا يرتكب عملا تعتبره الناموسية مجيزا للطلاق ، لكنه فى كل لحظة يكون بأنانيته وكبريائه وتعقيده وهزئه وقساوته ، سببا فى تعاسة الطرف الآخر تعاسة لا يمكن أن توصف .

لكن النظرة الحرفية تطلق الأول ، ولا تطلق الثانى . إن الاتجاه الحديث لا يدعو إلى تسهيل الطلاق ، بل يؤكد أن الصورة المثالية للزواج هى أنه رباط لا ينفصم ، لكنه يدعو إلى الاقتراب إلى مشكلات الزواج والطلاق والحياة العائلية ، بروح الشفقة والحب والتقدير ، لا بروح الدينونة والصرامة .

إن البيوت المنقسمة ، تعانى من فقدان المحبة ، لذلك فعلاجها لا ينبغى أن يكون بمزيد من القسوة والنقد ، بل ينبغى أن تنال شيئا من العطف والحب الذى تفتقر إليه . إن روح المحبة هى التى ينبغى أن تسود تطبيق القوانين ، خاصة فى الأمور المتعلقة بالقلب الإنسانى .

ترحيب يسوع بالأطفال

(متى ١٩ : ١٣ ـــ ١٥)

يمكن أن نقول إن هذه الحادثة من أجمل وأرق الحوادث فى قصة الإنجيل . إنها لا تحتل سوى آيات قليلة ، لكن شخصياتها واضحة ، ورسالتها قوية .

١ ـــ فنحن نرى فيها الأشخاص الذين أحضروا الأطفال إلى يسوع ، وبلا شك كانوا جماعة الأمهات ، لذلك لا غرابة إن كانت رغبتهن أن يضع يسوع يديه على الأطفال . لقد رأين ماذا تصنع هاتان اليدان ، فقد كانتا مصدر شفاء للمرضى ، وإزالة للألم ، وإبصار للعميان ، وراحة وسلام للعقول المضطربة .. لذلك تلاقت قلوب الأمهات عند هذه الرغبة ، أن يضع يسوع يديه على الأطفال . وإن هذا ليدل على رقة شخصية السيد وعذوبتها . فلم تكن الأمهات يعرفن من هو يسوع ، ولا شك أن الأنباء ترامت إلى أسماعهن عن كراهية الكتبة والفريسيين والكهنة والصدوقيين له ... وقد كان هؤلاء قادة الدين ... لكن عذوبة شخصية يسوع جذبت إليه القلوب والأبصار .

٢ ـــ وهنا نرى التلاميذ . وهم يظهرون فى القصة كأنهم على جانب من الشدة والخشونة ... ولكنهم إن كانوا كذلك ، فربما كان حبهم ليسوع دافعا لهم أن يحاولوا ـــ حسب فهمهم ـــ أن يهيئوا له بعض الراحة ... لقد كانوا يلاحظون مقدار ما يبذله من نفسه فى شفاء الأمراض ، وكان يحدثهم كثيرا عن الصليب ، ولا شك أنهم لاحظوا ما كان يعانيه فى نفسه ... لذلك أرادوا أن يبعدوا عنه الضوضاء ، وظنوا أن الأطفال سيزعجونه ... لذلك يجب أن لا ندين التلاميذ ، فقد كانوا يحبون يسوع ، ويريدون أن يخففوا بعض الشيء عنه .

٣ ـــ وهنا نرى شخصية السيد نفسه ... فالقصة تكشف لنا شيئا عنه ... كانت شخصيته تجتذب محبة الأطفال . وقد قال أحد الرجال مرة (جورج ماكدونالد) إنه لا يمكن أن يكون الإنسان من أتباع المسيح إذا كان الأطفال يخافون أن يلعبوا خارج باب بيته .

ولم يكن يسوع من الناس العابسين ، فإن الأطفال يحبون الابتسام ويكرهون العبوس .

وقد جعل يسوع قيمة للأطفال ... إن البعض لا يبالون بالأطفال ، لكن يسوع كان يهتم بهم ولم يعتبرهم سبب إزعاج له ... ولم تمنعه مشاغله ، ولا تعبه ، من أن يعطى نفسه لهم ...

إن بعض المشهورين من المبشرين أو الوعاظ يجعلون بينهم وبين الناس والأطفال سياجا يكاد يكون متعذرا اختراقه ، حرصا على راحتهم . لكن يسوع كان على عكس ذلك تماما ... فقد كان الطريق إلى يسوع مفتوحا دائما لأصغر طفل ، ولأقل الناس مقاما .

٤ ـــ ثم نرى الأطفال ـــ لقد قال عنهم يسوع إنهم أقرب إلى الله من أى شخص آخر . إن بساطة الأطفال أقرب إلى الله من أى شيء آخر ... وهذه هى مأساة الحياة . إننا كلما كبرنا ، فقدنا شيئا من البساطة التى تجعلنا قريبين من الله ، فازددنا بعدا عنه لا قربا منه فلنرجع ونصير مثل الأولاد فى البساطة وتصديق الله والوثوق به ليكون لنا ملكوت السموات .

الشاب الذى أدار ظهره للمسيح

(متى ١٩ : ١٦ — ٢٢)

هنا قصة معروفة وشائعة باسم قصة الشاب الغنى . وفى بعض البلاد يسمونها قصة « الرئيس الغنى » . وكل بشائر الإنجيل تصف هذا الرجل بأنه « غنى » ، ويصفه متى بأنه « شاب » (متى ١٩ : ٢٠) ويصفه لوقا بأنه « رئيس » (لوقا ١٨ : ١٨) .

جاء هذا الشاب إلى يسوع يسأله « أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية ؟ » . وما نلاحظه على هذا السؤال ، أنه يتطلع إلى السعادة ، ورضى الله ، والسلام معه ، والخير الأبدى ، إلا أنه ينظر إلى طريق الحصول على الحياة الأبدية نظرة ناموسية . فهو يفكر فى دائرة الأفعال والأعمال « أى صلاح أعمل ؟ » . إنه يفكر بأسلوب الفريسيين الذين يظنون أنهم بحفظهم الشرائع والقوانين يكون لهم حساب دائن لدى الله وينالون رضاه — إن مثل هذا التفكير لا يدرى شيئا عن ديانة النعمة الإلهية ، إنه يتمسك بديانة الناموس .

وقبل أن نتأمل فى تفاصيل جواب المسيح له ، تعترضنا العبارة الأولى فى هذا الجواب ، والتى كانت مثار نقاش عند كثيرين . وهى قول المسيح « لماذا تدعونى صالحا . ليس أحد صالحا إلا واحد هو الله » ....

وقد حاول بعض الشراح أن يستندوا على بعض الترجمات التى تترجم هذه العبارة فى متى بالقول « لماذا تسأل عن الصلاح ؟ » ، كأن هذا هو رد المسيح على سؤال الرجل « أى صلاح أعمل » ... لكن أقدم المخطوطات ، تتفق مع النص الحالى ، الذى يتفق أيضا مع رواية مرقس ولوقا ، وهو أن المسيح قال له « لماذا تدعونى صالحا ؟ » .

ولا نشك أبدا أن يسوع اعترض على وصف الرجل له بالصلاح ، لأن يسوع أعلن عن نفسه أنه بلا خطية ، كما شهد عنه الآخرون مرارا أنه بلا خطية (يوحنا ٦ : ٦١ ؛ ٨ : ٤٦ ؛ ١٤ : ٣٠ ؛ ١ بطرس ٢ : ٢٢ ؛ يوحنا ٣ : ٥ إلخ) .

وهناك عدة آراء لتفسير هذا القول :

١ — فهناك من يفسره بأن يسوع أراد أن يسأل الشاب عن مدى إيمانه بشخصه ، وإذا كان ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله ، فهل هذا يعنى استعداد الرجل لتصديق حقيقة لاهوت المسيح ؟

٢ — وهناك من يفسره بأن يسوع لم يوافق على هذا الوصف لأن الرجل دعاه صالحا ، كما كانت عادة اليهود أن يخاطبوا معلم الناموس العادى ، بينما صلاح يسوع يختلف ويفوق هذا الصلاح الذى ينسبه الرجل إليه ، وكأنما يريد يسوع أن يقول للرجل « ليس أحد صالحا إلا الله ، فإذا كنت تدعونى صالحا بهذا المعنى فإنى أقبل الصفة ، أما إذا كنت تدعونى صالحا بالمعنى البشرى ، فأنا أرفض ذلك لأنه أقل مما ينبغى أن أوصف به » .

٣ ـــ وهناك رأى يقول إنه على الرغم من أن يسوع المسيح فى حياته على الأرض كان « بلا خطية » إلا أنه لم يقبل أن يوصف كإنسان « بالصلاح المطلق » ، لأنه كان ينمو فى النعمة والحكمة كإنسان ، ويتعرض للتجارب (عبرانيين ٢ : ١٨ ، ٤ : ١٥) ، وكان يتعلم الطاعة كإنسان (عبرانيين ٥ : ٨) وكمل بالآلام (عبرانيين ٢ : ١٠) ، وإن يسوع أراد أن ينسب إلى الله وحده صفة الصلاح المطلق ، لأنه غير مجرب بالشرور ، ولا ينمو فى النعمة والحكمة ، وأن المسيح فى لاهوته يمكن أن تكون له هذه الصفة ، لكن الناس لم يكونوا يدركون طبيعة المسيح فى ذلك الوقت .

بعد ذلك ابتدأ يسوع يجيب على سؤال الشاب ، من النقطة التى بدأ الشاب بها .. لم يكن الشاب يفهم شيئا عن النعمة الإلهية ، لذلك قال له يسوع « إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا » ـــ ولما سأله الشاب أية الوصايا ذكر له يسوع خمسة من الوصايا العشر . ونحن نلاحظ أن يسوع ذكر له الوصايا التى تتعلق بواجب الإنسان نحو أخيه الإنسان ، ولم يذكر له النصف الأول وهى الوصايا التى تتعلق بواجب الإنسان نحو الله .. إن ما ذكره يسوع للشاب كان الوصايا المختصة بالعلاقات الإنسانية الشخصية واتجاه الإنسان نحو الإنسان . كما أننا نلاحظ أن يسوع غير فى ترتيب الوصايا ، فوضع وصية أكرم أباك وأمك فى آخر القائمة قبل خلاصة الوصايا وهى « تحب قريبك كنفسك » ...

ولعل يسوع أراد أن يشدد على وصية إكرام الوالدين ، فجعلها فى الآخر ، وغير ترتيبها . ولا شك أن هذا كان أمرا ملحوظا عند الشاب الغنى الذى حفظ الوصايا منذ حداثته ، فقد كان ترتيب الوصايا معروفا جدا عند اليهود وكل من يدرسون الناموس ـــ وربما كان هذا الشاب قد أهمل إكرام والديه والعناية بهما بعد أن اغتنى ، وربما كان لا يعطى لوالديه الاحترام والتقدير الكافى بعد أن وصل إلى منصب رفيع ـــ وربما كان هذا الشاب قد برر إهماله لوالديه فى نظر نفسه ، بشريعة القربان التى أدانها المسيح بشدة فى (متى ١٥ : ١ ـــ ٩ ؛ ومرقس ٧ : ٩ ـــ ١٣) « راجع الشرح المذكور » . فقد كانت الشريعة الشفوية للكتبة تجيز للابن أن يمتنع عن مساعدة والديه وتحرره من هذا الالتزام إذا تعهد أن يقدم ما ينتفع به الأب منه قربانا إلى الله .

ربما كان هذا حال ذلك الشاب ، ومع ذلك فهو يعتقد أنه حفظ الوصايا . لذلك يسأله يسوع فى ذكره لهذه الوصايا ، عن علاقته بالناس ، وعن علاقته بوالديه .

وقد أجاب الشاب أنه حفظ هذه الوصايا منذ حداثته ، لكنه يشعر فى أعماق نفسه بأن شيئا ما ينقصه ، بدليل سؤاله عما ينبغى أن يفعل ليرث الحياة الأبدية .. لذلك أوصاه يسوع بأن يبيع كل أملاكه ويعطى للفقراء ويتبع المسيح ... لا شك أن يسوع كان يعالج بهذه الوصية اتجاها خاطئا لهذا الشاب .. وفى الكتب غير القانونية ، رواية تفسر هذه الحالة ، فى كتاب يسمى « إنجيل العبرانيين » ، فهى تروى القصة هكذا :

« وجاء الرجل الغنى وقال له : أى صلاح أعمل لأحيا ؟ فأجابه : أتمم الناموس والأنبياء ، فقال له : لقد حفظتها فرد عليه : اذهب وبع كل أملاكك ووزعها على الفقراء وتعالى اتبعنى .... فابتدأ الرجل يفكر ولم يعجبه هذا الرأى . فقال له الرب : كيف تقول إنك حفظت الناموس والأنبياء ،

إنه مكتوب فى الناموس : تحب قريبك كنفسك ، وها هم كثيرون من أقربائك وأخوتك ، أبناء إبراهيم ، يعيشون فى الأقذار ، ويموتون من الجوع ، بينما يمتلىء بيتك من الخيرات ولا يخرج منها شىء إليهم » :

هنا نجد مفتاحا لكل القصة . لقد أدعى الشاب الغنى أنه حفظ الناموس وربما كان هذا صحيحا بالنظرة الحرفية ، لكن من الناحية الروحية لم يكن هذا صحيحا على الإطلاق ، فإن كل اتجاهه نحو الآخرين كان اتجاها خاطئا .. لقد كان أنانيا ... لذلك واجهه يسوع بهذا التحدى أن يبيع كل أمواله ويعطى للفقراء .. كان الشاب مرتبطا بما يملك حتى أنه لم يكن هناك علاج له سوى عملية بتر كل علاقة له بأملاكه . فإنه إذا حسب الإنسان أن ثروته قد أعطيت له لمجرد راحته ومتعته الشخصية ، تصير هذه الثروة قيدا يجب أن ينكسر .. أما إذا حسب الإنسان أمواله وسيلة لمعاونة الآخرين ، تصير أمواله تاجا له .

إن الحق العظيم الذى تكشفه هذه الرواية ، أنها تضىء أمامنا الطريق لفهم معنى الحياة الأبدية . إن الحياة الأبدية هى حياة نحياها كما يحيا الله . وكلمة « أبدية » فى الأصل اليونانى ، معناها « مثل الله » ، أو « مرتبط بالله » . وإن أعظم ما يميز الله أنه : « هكذا أحب ، وهكذا بذل » — لذلك فإن قوام الحياة الأبدية ليس الإحصاء الدقيق لحفظ حرفية الوصايا والشرائع والنواميس ، بل إن الحياة الأبدية مؤسسة على اتجاه المحبة والبذل والتضحية نحو الآخرين ..

فإذا أردنا أن نجد الحياة الأبدية ، إذا أردنا أن نجد السعادة والبهجة والرضى وسلام الفكر واستقرار القلب والخاطر ، فلن نجد هذه القيم بمحاولة تكديس رصيد دائن عند الله من طاعة للوصايا والتشريعات والطقوس . إننا نجد هذه القيم عندما نسير فى اتجاه الله المحب والشفوق ، فيظهر هذا الاتجاه فى حياتنا وعلاقتنا ، لأن اتباع المسيح معناه أن نخدم الذين مات المسيح لأجلهم ، فضلا وبسخاء ...

وفى خاتمة القصة نرى الشاب يمضى حزينا .. لقد رفض دعوة المسيح ، لأن أملاكه كانت كثيرة . لقد كانت مأساته أنه أحب الأشياء أكثر مما أحب الأشخاص ... وأحب نفسه أكثر مما أحب الآخرين . وأى إنسان يضع الأشياء قبل الأشخاص ، ويضع الذات قبل الآخرين ، لابد أن يدير ظهره ليسوع المسيح ...

أخطار الثروة

(متى ١٩ : ٢٣ — ٢٦)

لقد ألقت حالة الشاب الغنى ضوءا محزنا على أخطار الثروة ... فهنا رجل رفض مشورة المسيح ، لأن ثروته كانت كبيرة . لذلك تقدم يسوع ليوضح هذا الخطر ، فبين أنه من العسير دخول غنى إلى ملكوت السموات — ولكى يوضح مقدار هذه الصعوبة قال إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر

من دخول غنى إلى ملكوت السموات ... وقد ذكر الشراح عدة آراء لهذه الصورة التى رسمها يسوع بهذا القول .

فهناك من يقولون إن كلمة جمل فى اليونانية قريبة الشبه جدا بالكلمة التى يقصد بها حبل المراكب . والفرق هو حرف علة يمكن أن يختلط فى النطق .

(جمل = Kamatos : حبل المركب = Kamilos) . وفى العربية أيضا يطلق على سلب المراكب أو حبالها لفظ « جمل » (بضم الجيم وتسكين الميم) — لذلك يكون المسيح قد قصد — على قول البعض — إن مرور حبل المراكب من ثقب الإبرة أيسر من دخول غنى إلى ملكوت السموات .

وهناك من يقولون إن العادة فى الماضى كانت أن تقام أسوار حول المدن لتحصينها ، وفى السور كانوا يفتحون بوابة واسعة لدخول العربات والحيوانات وقوافل التجارة — كما كانوا يفتحون بابا صغيرا ، يستخدمه الناس فى الليل عند إغلاق البوابة العمومية وحراستها ، وكان هذا الباب الضيق لا يسمح بمرور الإنسان إلا بصعوبة شديدة وهو منحن قليلا ... وكانوا يطلقون على هذا الباب اسم « ثقب الإبرة » ... لذلك قال يسوع إن مرور جمل (وهو أضخم الحيوانات المعروفة عند اليهود) ، من ثقب إبرة ، أيسر من دخول غنى إلى الملكوت .

وهناك من يقولون إن المسيح قصد الإشارة الحرفية إلى الجمل وثقب الإبرة ليؤكد صعوبة الأمر .. وفى كل هذه الحالات ، يريد المسيح أن يوضح للناس أخطار الثروة ..

١ — فالثروة تشجع الإنسان على نوع من الاستقلال الزائف :

وإذا كان لإنسان ما كثير من متاع هذا العالم ، فقد يتصور أنه يستطيع أن يعالج كل المواقف بما يمتلكه من مال — ونحن نرى ذلك واضحا فى حالة كنيسة لاودكية ، فقد كانت مدينة لاودكية من أغنى المدن فى آسيا الصغرى ، وحدث فيها زلزال عام ٦٠ م أحدث بها تخريبا فظيعا ، وقد عرضت الحكومة الرومانية معونة مالية كبيرة لإصلاح مبانى المدينة ، لكن المدينة رفضت المعونة ، وأصرت أن تعالج الموقف بنفسها ، وقد ذكر المؤرخ الرومانى تاسيتوس أن « لاودكية نهضت من خرائبها بمواردها الذاتية دون معونة منا » .

والمسيح المقام فى سفر الرؤيا يسمع كنيسة لاودكية تقول « إنى أنا غنى وقد استغنيت ولا حاجة لى إلى شىء » (رؤيا ٣ : ١٧) .

إن الغنى قد يتصور أن لكل شىء ثمنا ، وأنه يستطيع أن يشترى أى شىء ، أو يستطيع التخلص من أى موقف بالمال . إنه يتصور أنه يستطيع أن ينال السعادة بالمال ، وأن يهرب من الشقاء بالمال أيضا ، لذلك قد يصل إلى حالة يظن فيها أنه يستطيع أن يستغنى عن الله وأن يواجه مواقف الحياة المختلفة بنفسه دون معونة ..

لكن سيأتى الوقت الذى فيه يتبين أن هذا كان وهما ، وهناك أشياء لا يمكن شراؤها بالمال ،

وهناك مواقف لا يمكن الهروب منها بالمال ...

هذا هو خطر الثروة . إنها تجعل الإنسان — فى بعض الأحيان — يشعر بعدم حاجته إلى الله ، ويكون لديه استقلال موهوم زائف .

٢ — والثروة تقيد الإنسان بهذه الأرض :

فقد قال المسيح « حيث يكون كنزك فهناك يكون قلبك أيضا » (متى ٦ : ٢١) . فإذا كان ما يشتهيه الإنسان موجودا فى هذا العالم ، وإذا كانت كل اهتماماته هنا ، فلن يفكر فى العالم الآخر ، ولا فى حياة أخرى ، وينسى أن هناك سماء .

زار أحد الأتقياء قصرا فاخرا يحتوى على كل وسائل الراحة والمتعة ، وبعد الزيارة قال : « هذه هى الأشياء التى تجعل الموت أمرا صعبا » . فمن الممكن أن ينشغل الإنسان بالأرضيات بحيث ينسى فيها السماويات .. وينشغل بالمنظور حتى لينسى غير المنظور . وهنا المأساة ، إن الأشياء التى ترى وقتية ، والتى لا ترى أبدية .

٣ — والثروة تشجع الإنسان أن يكون أنانيا :

فمهما كان الإنسان ميسور الحال ، فإن الطبيعة البشرية تحفزه أن يمتلك أكثر . وقد قال أحدهم :

« إن درجة الكفاية أو الاكتفاء دائما تكون أكثر قليلا مما يمتلك المرء » . هذا فضلا عن أن الإنسان إذا حصل على وسائل الراحة والكماليات ، فإنه سيكون دائما خائفا لئلا يفقد هذه الأشياء فى يوم ما ، فتصير الحياة صراعا متوترا للاحتفاظ بما يمتلك ، وتكون النتيجة أن الغنى بدلا من أن يمتلكه الدافع بأن يعطى للآخرين ، تملكه رغبة عارمة الى مزيد من التملك والاقتناء ، لأنه يشعر بالأمان والاطمئنان فيما يمتلكه .

لكن يسوع لم يقل إنه من المستحيل أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات فقد كان زكا من أغنى أغنياء أريحا ، وقد وجد الطريق إلى الملكوت على غير انتظار (لوقا ١٩ : ١٩) ، ويوسف الرامى كان غنيا (متى ٢٧ : ٥٧) . ولابد أن نيقوديموس كان غنيا لأنه أحضر أطيابا لتكفين جسد يسوع (يوحنا ١٩ : ٣٩) — إن الملكوت ليس مغلقا أمام الأغنياء ، وليست الثروة خطية — ولكنها خطر .

لكن كل شيء مستطاع لدى الله ، والنعمة الغنية تستطيع أن تفتح الطريق أمام الأغنياء ليكونوا أغنياء فى الإيمان ، ويتجنبوا أخطار الثروة ، فتصير الثروة إكليلا لا قيدا لهم .

جواب حكيم لسؤال خاطيء

(متى ١٩ : ٢٧ — ٣٠)

كان من السهل على يسوع أن يرفض سؤال بطرس ، ويوبخه عليه — فإن هذا السؤال فى جوهره سؤال خاطيء ، لأن بطرس كان يسأل : « ماذا نجنى من وراء اتباعك » — وكان يمكن أن يجيب

على هذا السؤال بالقول إن من يتبعه يمثل هذا الروح ، لا يفهم على الإطلاق معنى اتباع يسوع ... ومع ذلك فقد كان هذا السؤال طبيعيا ، لذلك لم يوبخ بطرس عليه ، وأجاب عليه إجابة حكيمة إذ وضع مبادىء ثلاثة هامة للحياة المسيحية . والمثل الذى ذكره يسوع فيما بعد عن السيد والفعلة الذين استأجرهم فى مختلف ساعات النهار كان يتضمن توبيخا لسؤال بطرس ...

لكنه أجاب بالمبادىء التالية :

١ — إن من يشارك فى المعركة مع يسوع ، لابد أن يشارك أيضا فى ثمرات انتصار المسيح . وفى المعارك البشرية كثيرا ما ينسى الجنود بعد انتهاء المعركة ، ويضيع نفعهم ، وفى بعض البلاد ظل الجنود الذين ساهموا فى رفعة بلادهم ، مجهولين دون تقدير . لكن المسيح يؤكد أن ملكوته ليس هكذا ، فمن يسهم فى الحرب ، ويشارك فى النصرة . ومن يحمل الصليب ، سيحمل التاج .

٢ — ومن المؤكد أن المسيحى سيأخذ أكثر جدا مما يعطى ويبذل ، لكنه لن يأخذ هذا فى صورة ممتلكات مادية ، لكنه سينال شركة جديدة ، مع الله ومع الناس .

وبعد أن يصير الانسان مسيحيا ، فانه يدخل فى شركة انسانية جديدة . وما دام توجد كنيسة مسيحية ، فينبغى أن يكون من المستحيل أن يبقى المسيحى وحيدا وبلا صديق . واذا كان اعتناقه المسيحية قد حرمه من أصدقاء أو أهل ، فمن الواجب أن تحوطه دائرة أوسع من الصداقة فى أسرة الكنيسة تجعله يشعر أنه أغنى فى الصداقة والقرابة مما كان . إن الواجب يقتضى ألا توجد قرية أو مدينة فى أى مكان يشعر فيها المسيحى أنه غريب ، ما دامت توجد فيها كنيسة مسيحية ...

واذا كان هذا الموقف المثالى لا يتحقق دائما ، بسبب خجل الغريب وتردده فى الدخول إلى شركة الكنيسة ، أو بسبب تقصير الكنيسة وسياستها الانعزالية أحيانا ، فإن هذا وضع غير طبيعى يجب أن تعمل الكنيسة جاهدة على تلافيه ...

وعندما يعتنق الإنسان المسيحية ، فإنه يدخل فى شركة إلهية جديدة ... إنه يمتلك الحياة الأبدية ... ويمكن أن يفقد المسيحى بعض الأشياء ، لكنه لا يمكن أن يفقد محبة الله التى فى المسيح يسوع .

٣ — وأخيرا فإن يسوع يعلن أن الأوضاع فى جو الملكوت ستدعو إلى الدهشة ، لأن مقاييس الله فى الحكم تختلف عن مقاييس البشر ، ذلك لأن الله ينظر إلى قلوب الناس ...

سيكون هناك عالم جديد يوازن المظالم التى تحدث فى هذا العالم ، ويعيد الأوضاع إلى حقيقتها . وقد يكون المتواضعون هنا على الأرض عظماء فى السماء ، وأولئك العظماء فى هذا العالم قد يكونون صغارا فى العالم الآتى ... كثيرون أولون يكونون آخرين ، وآخرون أولين ...

الأصحاح العشرون

العمل والأجور فى ملكوت الله

(متى ٢٠ : ١ — ١٦)

ذكر يسوع هذا ، مباشرة بعد رده على بطرس ، ليبين للسامعين كيف يكون الأولون آخرين والآخرون أولين . وقد يبدو هذا المثل حينما نقرؤه لأول وهلة أنه مثل افتراضى ، يريد يسوع أن يشرح به حقيقة معينة ... لكن المثل يمكن أن يكون واقعيا ، ويمكن أن يحدث أكثر من مرة فى تلك الظروف فى أرض فلسطين .

البحث عن عمال :

كان محصول العنب فى أرض فلسطين يجمع فى أواخر سبتمبر ، وتأتى الأمطار سريعا بعد ذلك . لذلك كان أصحاب الكروم يسابقون الزمن فى سرعة جمع المحصول قبل سقوط الأمطار ، حتى لا يفسد المحصول — وفى هذه الحالة كانوا يرحبون بالأيدى العاملة فى أى وقت من النهار .

وقد كان الأجر اليومى العادى دينارا . وكان المعتاد أن يذهب صاحب العمل إلى السوق ، ليجد العمال واقفين ومعهم أدواتهم ، فيستأجر منهم العدد الذى يريده . ولم يكن وقوف العمال فى السوق بطالين دليلا على كسلهم ، ولكنه دليل على استعدادهم للعمل إذا وجدوا من يشغلهم ، وكون بعضهم وقفوا إلى الساعة الحادية عشرة (أى قبل انتهاء اليوم بساعة) برهان على حرصهم أن يجدوا عملا ولو لساعة واحدة .

كانت حالة مثل هؤلاء العمال من أسوأ الحالات ، لأنهم كانوا يعيشون على خبز الكفاف ، وكل اعتمادهم على إمكانية وجود عمل لهم يوما بعد آخر — واذا بقى أحدهم يوما دون عمل ، كان معنى ذلك أن الأسرة لا تجد طعامها فى ذلك اليوم . لذلك كان الخدم والعبيد أسعد حالا منهم ، لأنهم ينتمون إلى أسرة يعيشون فى ظلها ، وتتوقف حالتهم فى المعيشة على حالة الأسرة التى يخدمون فيها . أما هؤلاء فكان الدينار يكاد يكفى لإعالة أفراد اسرتهم ، لذلك كان حرمان الواحد منهم من فرصة العمل يوما واحدا يعتبر كارثة على كل الأسرة .

أما الساعات المذكورة فى المثل فهى على النظام اليهودى ، الذى كان يعتبر شروق الشمس الساعة الأولى من النهار ، والظهر هو الساعة السادسة ، والمساء هو الساعة الثانية عشرة .

والصورة المذكورة فى المثل ، كان يمكن أن تحدث وقت جمع محصول الكروم فى فلسطين ، وقبل حلول الأمطار .

التطبيق المباشر للمثل :

كان المثل رسالة مباشرة إلى جماعة التلاميذ ، ومنه نستخلص الحقائق التالية : —

١ — أنه رسالة تحذير إلى التلاميذ . وكأن يسوع يخاطبهم خلال المثل قائلا : « لقد كان لكم

امتياز الدخول إلى شركة المسيحية مبكرين ، وكنتم معي من البداية . وسيأتي الوقت الذي فيه يدخل آخرون معكم إلى شركة الكنيسة المسيحية ، فلا يجب أن تعتبروا أنفسكم ممتازين عن أولئك ، لأنكم دخلتم إلى المسيحية قبلهم . إن جميع الناس ، لهم مكانهم وتقديرهم عند الله ، أيا كان وقت قبولهم الإنجيل » .

وبعض الناس يظنون أنهم لهم حق توجيه الكنيسة وإدارتها لأنهم من أقدم الناس ، وهؤلاء يرفضون ويعارضون فكرة ادخال دماء جديدة أو قيام أجيال جديدة فى الكنيسة . وهذا المثل يبين أنه لا يشترط الأقدمية لنوال الكرامة فى الكنيسة المسيحية .

٢ — وقد كان فى هذا المثل تحذير مباشر وتماثل إلى اليهود . لقد كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، ولا يتخلون عن هذه الفكرة أبدا . لذلك كانوا ينظرون إلى الأمم نظرة احتقار ، وكانوا يكرهونهم ويتمنون فناءهم . وفى اعتقادهم أنه لو دخل الأمم ملكوت الله ، فيجب أن يكون مقامهم أدنى من مقام اليهود ... لذلك أراد يسوع أن يبين أنه إذا دخل الأمم إلى الكنيسة ، فيجب أن يكون لهم المقام عينه والاعتبار عينه ، وقد يكون مقامهم أعظم ، فليس من سياسة الله تفضيل أمة على أمة . وليست الكنائس الناشئة أو الحديثة أقل قدرا عند الله من الكنائس القديمة العريقة .

التطبيق العام للمثل :

على أننا عندما نقرأ المثل ، بعد قرون من النطق به ، نستطيع أن نجد فيه مبادىء عامة رائعة :

١ — فنحن نرى الترحيب الإلهى بالإنسان . وسواء دخل الإنسان إلى الملكوت مبكرا أو متأخرا ، فى فجر الشباب ، أو فى قوة الرجولة ، أو فى خريف العمر ومسائه ، فالجميع يتمتعون بالإعزاز عينه عند الله .

وفى تصوير سفر الرؤيا للمدينة المقدسة ، نجد للمدينة اثنى عشر بابا ، فهناك أبواب فى الشرق أى تجاه إشراق الفجر ، وبها يدخل الإنسان إلى الملكوت فى مستهل حياته . وهناك أبواب فى الغرب تجاه الشمس الغاربة ، يدخل بها الإنسان وهو فى خريف العمر ... وفى كل حالة فإن الله يحتز بكل من يدخل ... وقد يموت إنسان شبعان كرامة وأياما بعد أن يكون قد أدى رسالة كاملة ، وقد يموت إنسان فى شبابه قبل أن تكون آفاق الحياة قد تفتحت أمامه لكن الله يرحب بالجميع ، ويسوع ينتظر الكل ، ففى تقدير الله لا يوجد وقت يقال عنه إنه مبكر أو متأخر أكثر مما ينبغى .

٢ — ونحن نرى هنا شفقة الله غير المتناهية — ففى هذا المثل نرى لمسة رقيقة . فليس هناك فى الحياة شيء أشد إيلاما من البطالة ... ومن رؤية إنسان تصدأ مواهبه لأنه لا يجد ما يعمله ... وهناك فى السوق ، فى فلسطين ، وقف أولئك العمال بطالين ، لأنهم لم يجدوا من يستخدمهم ... لذلك أشفق عليهم السيد وأرسلهم إلى كرمه ، لأنه لم يحتمل رؤيتهم بطالين دون عمل ، لأن قلبه تأثر من حالتهم .

هذا فضلا عن أن العدالة فى المفهوم الإنسانى أنه كلما قلّت ساعات عمل الإنسان ، قل أجره ..

لكن السيد أدرك أن الدينار فى اليوم لم يكن أجرا كبيرا ، وعرف أنه لو رجع ذلك العامل إلى بيته بأقل من دينار ، فسيكون هناك حزن وجوع لأولاده الصغار وزوجته المنتظرة المضطربة ... لذلك قدم لهم السيد أجرا يفوق ما تقضى به العدالة ، وأكثر مما يستحقون .

إن هذا المثل يوضح حقيقتين أساسيتين وهما حق كل إنسان أن يعمل ، وحق كل عامل أن ينال أجرا مناسبا .

٣ — ونحن نرى فى هذا المثل: النعمة والسخاء ... إن هؤلاء الرجال لم يقوموا جميعا بنفس القدر من العمل ، لكنهم نالوا نفس الأجر .. إن الله كثيرا ما ينظر ، لا إلى مقدار ما نعمل ، ولكن إلى الروح التى نعمل بها ... فقد يقدم غنى من فضالته مئات الجنيهات ، لكن عطية طفل من القروش القليلة يقدمها بجهد ، تفوق فى نظر الله ، العطية الكبيرة فى قيمتها .

إن الله لا ينظر إلى مقدار خدمتنا ، ما دامت الخدمة التى نقدمها هى أقصى ما نستطيع ...

لكن هنا درسا أروع ، وهو أن ما يعطيه الله ، يقدمه لنا ، ليس لأننا نستحق ، ولكن النعمة هى التى تعطينا . فنحن لا نكسب ما نناله من الله بجهدنا ، ولا نستطيع أن نداين الله ، لكنه يعطينا من جوده وصلاحه وحب قلبه وتفاضل نعمته ... إن الله لا يعطى أجرا ، لكنه يهب هبات ... إنه لا يعطى جزاء ، لكنه ينعم نعمة .

٤ — وهنا درس أخير فى هذا المثل وهو إن أهم شيء فى العمل ، هو الروح التى نعمل بها .

فالعمال فى هذا المثل ينقسمون إلى قسمين :

النوع الأول تعاقدوا مع السيد حسب اتفاق معين ، أن ينالوا دينارا إذا اشتغلوا يوما كاملا ... وقد اشتغلوا لكى ينالوا هذا الأجر .. وكان سلوكهم يوضح أنهم يشتغلون لأنهم يريدون أن ينالون أكبر أجر ممكن .

أما الذين اشتغلوا متأخرا ، فلم يكن هناك اتفاق ، لقد أرادوا أن يشتغلوا فحسب ، وتركوا أمر الأجر للسيد .

هذا هو الفرق الأساسى الجوهرى . إن المسيحى لا يكون مسيحيا إذا كان هدفه الأجر والثواب وهذا سؤال بطرس « ماذا يكون لنا وقد اتبعناك » إن المسيحى يعمل لأجل فرح العمل وفرح خدمة الله وخدمة رفقائه .

هذا هو السبب أن الآخرين يكونون أولين ، وأن الأولين يكونون آخرين ... فهناك كثيرون فى هذا العالم ، نالوا أجرا ضخما ، لكنهم سيكونون آخرين فى الملكوت ، لأن كل اهتمامهم كان الأجر والتقدير ... وهناك كثيرون لم ينالوا فى نظر العالم أجرا ، ولم يفكروا فى الأجر ، بل عملوا لأجل بهجة العمل ... لكنهم سيكونون عظماء فى الملكوت .

هذا هو لغز الحياة المسيحية — إن من يهدف إلى الأجر ، يفقده . ومن ينسى هذا الأجر يناله .

نحو الصليب

(متى ٢٠ : ١٧ ــ ١٩)

هذه هي المرة الثالثة التي وجه فيها يسوع أنظار تلاميذه إلى أنه في الطريق إلى الصليب ــ وقد شرحنا المرتين الأولى والثانية في دراستنا لنصوصها (متى ١٦ : ٢١ ، ١٧ : ٢٢ و ٢٣) . وقد ذكر مرقس ولوقا الرواية عينها ، وصوراها تصويرا يوضح الموقف وما يتضمنه من الشعور بالمأساة . فيصف مرقس المنظر بأن يسوع كان يتقدم التلاميذ ... ويبدو أنه كان صامتا يحس ويتأمل فيما سيحدث ، حتى أن التلاميذ « كانوا يتحيرون وفيما هم يتبعون كانوا يخافون » (مرقس ١٠ : ٣٢ ــ ٣٤) .

لم يكن التلاميذ يعرفون ماذا يحدث ، لكنهم لاحظوا صراعا عنيفا في نفس يسوع ، ويذكر لوقا أن يسوع أخذ التلاميذ وانفرد بهم لكي يحاول أن يوضح لهم ، ويدخل إلى أذهانهم ما يخبئه المستقبل (لوقا ١٨ : ٣١ ــ ٣٤) .

ونحن هنا نرى خطوة حاسمة في الطريق إلى المأساة التي لا مفر منها ، فإن يسوع بعيون مفتوحه ، وإرادة وعزم ، يتجه نحو أورشليم ونحو الصليب .

وفي حديث يسوع القصير عما سيصادفه ، نرى بيانا شاملا للآلام التي سيعانيها ، حتى أن صورة الآلام الجسدية والعقلية والنفسية ، تبدو صورة كاملة .

فعندما قال « ابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة » نستطيع أن نحس قلبه المنفطر الحزين بسبب خيانة تلميذه ، الذي سيسلمه ..

وفي « حكم الكهنة والكتبة عليه بالموت » نرى ألم الظلم الذي يجرح القلب ويضني العقل والفكر .. فما أشق الظلم على الإنسان .

وفي تسليمه « إلى الأمم لكي يهزأوا به » نرى ألم الإذلال والتعيير وفي تسليمه والهزء والشتم ... وما أفظعه ...

وفي الحديث عن « الجلدات » نرى أبشع صورة للآلام الجسدية ، فليس هناك عذاب أفظع من عذاب الجلدات .

وفي الصليب نرى الصورة النهائية لكل هذه الآلام مجتمعة ، تنتهي بالموت .. لقد جمع يسوع في آلامه ، كل الآلام الممكنة جسديا ونفسيا وفكريا .. ولا يمكن أن يكون في العالم آلام أكثر مما احتمل يسوع .

لكن يسوع لم يختم كلامه بالحديث عن الألم والموت ، لكنه أكمل حديثه بالأمل والانتصار وتأكيد قيامته .

فإن وراء ستار الألم ، هناك يكمن إعلان المجد .. ووراء الصليب نجد التاج ، وبعد الهزيمة الانتصار ، وبعد الموت نجد الحياة .

العظمة الحقيقية

(متى ٢٠ : ٢٠ ـــ ٢٨)

نرى هنا صورة عملية للطموح العالمي عند التلاميذ . ونحن نرى فرقا بسيطا بين رواية متى ورواية مرقس لهذه الحادثة ، فإن مرقس (١٠ : ٣٥ ـــ ٤٥) يروى أن يعقوب ويوحنا هما اللذان طلبا من يسوع أن يجلسا عن يمينه وعن يساره ، بينما يروى متى أن الأم هى التى تقدمت بالطلب[1] .

وفى الغالب ، كان يعقوب ويوحنا يرتبطان بيسوع بصلة قرابة جسدية . وحين تقارن رواية متى ومرقس ويوحنا عن النساء اللواتى كن واقفات عند صليب يسوع ، يمكننا أن نلاحظ هذه الحقية .

ففى متى ٢٧ : ٥٦ يروى أن من بين النساء « مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويوسى أم ابنى زبدى » .

وفى مرقس ١٥ : ٤٠ نقرأ أن بين النساء « مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسى وسالومة » .

وفى يوحنا ١٩ : ٢٥ نقرأ « وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه وأخت أمه ، ومريم زوجة كلوبا ، ومريم المجدلية » . ويمكن الاستدلال من هذه المقارنات أن مريم زوجة كلوبا هى أم يعقوب ويوسى ، فتكون أم ابنى زبدى ، هى سالومة وهى أخت مريم أم يسوع ...

ولعل هذه القرابة جعلت الأخوين يشعران بأن لهما الحق فى مكان خاص فى الملكوت .

هذه الرواية تلقى ضوءا على تفكير التلاميذ وعلى الحياة المسيحية ، وتلقى ضوءا على فكر يسوع ، وتبين لنا معنى العظمة الحقيقية :

تفكير التلاميذ :

هذه الرواية تبين لنا ثلاثة أشياء عن التلاميذ :

١ ـــ فهى تكشف لنا مطامعهم . لقد كانوا لا يزالون يفكرون فى الجزاء الشخصى ، علو المراتب ، والامتيازات العالمية ... كانوا يريدون النجاح السهل دون تضحية . أرادوا أن يأمر يسوع بإشارة ملكية من يده ، فينالون رتبة العظمة . وقد كان هذا فهما خاطئا ، فالعظمة الحقيقية هى فى الخدمة ، ولابد للوصول إلى المراتب السامية من دفع الثمن غاليا .

---

(١) يمكن التوفيق بين الروايتين إذا راعينا أن طلب الأم بناء على رغبة الأخوين بلا شك ، لذلك كان حديث يسوع موجها إلى يعقوب ويوحنا . (المترجم)

٢ — لكن هذه الرواية تبين لنا إيمان التلاميذ الشديد بيسوع . فلا نسرع بالقاء اللوم عليهم ، دون أن نعطيهم حقهم ... فقد جاء هذا الطلب فى الوقت الذى كانت فيه الأحوال المحيطة بهم تنذر بمأساة الصليب الحتمية ... وقد حدثهم يسوع عن ذلك أيضا . ورغم ذلك فقد كانوا يؤمنون بالملكوت . صحيح أن فكرتهم عن الملكوت كانت غير صحيحة ، لكنهم على أى حال كانوا يثقون أن يسوع لن يهزم . إن المسيحية هى ديانة التفاؤل الدائم .

٣ — وهذه الرواية تبين لنا ولاء التلاميذ ليسوع . فعندما قال لهم يسوع بصراحة عن الكأس المر الذى ينتظرهم ، لم يحاولوا أن يتراجعوا ، وعزموا أن يشربوها . وما دام النصر يقتضى الألم مع المسيح ، فقد كانوا على استعداد لمواجهة هذا الألم .

الحياة المسيحية :

وهذه الرواية تلقى ضوءا على الكأس التى نشربها فى الحياة المسيحية ... لقد قال يسوع ليعقوب ويوحنا إنهما سيشربان من الكأس ... فما هى هذه الكأس ؟

كان الحديث موجها إلى يعقوب ويوحنا ... وقد اختبر كل منهما فى حياته اختبارا مغايرا للآخر تماما . كان يعقوب هو أول الرسل الذين ماتوا شهداء (أعمال ١٢ : ٢) . فقد قتله هيرودس بالسيف ليسيء إلى الكنيسة . أما يوحنا فالروايات التارخية تذكر أنه عاش طويلا فى أفسس ، وأنه مات موتا طبيعيا وعمره حوالى المائة عام .

فالكأس بالنسبة ليعقوب كانت كأس الاستشهاد والموت فى سبيل الإنجيل والكأس بالنسبة ليوحنا كانت الجهاد والصراع والخدمة طوال سنى عمره .

إن كأس الألم لأجل المسيح ليست مجرد موقف الاستشهاد السريع المؤلم الحاسم ، لكنها أيضا الحياة المسيحية نفسها بما فيها من تضحية يومية ، وصراع يومى ، وآلام ودموع .

وجد الباحثون مرة عملة رومانية ، على أحد وجهيها صورة ثور وأمامه مذبح ومحراث ، وكتب على العملة « مستعد لأيهما » . فعلى الثور أن يكون مستعدا ، أما للذبح على مذبح ، أو للعمل اليومى على محراث ...

إن شرب كأس المسيح معناه استعداد الإنسان أن يتبع يسوع أينما يناديه ، وحيثما يناديه داعى الواجب فى أى موقف .

فكر يسوع :

وهذه الرواية ترينا :

١ — رقة يسوع ... فإننا لا نراه وقد انتهى صبره إزاء غباء التلاميذ وعدم قدرتهم على الفهم ... لم يوبخهم على جهلهم . ولم يفشل بسبب بطء فهمهم ، لكنه كان بطول أناة يعلمهم ويوضح لهم .

٢ — وهى ترينا أمانة يسوع ، فقد أوضح لهم بصراحة التكاليف التى كان عليهم أن يتحملوها ،

والكأس التى عليهم أن يشربوها .. إن يسوع لم يرسم أمام البشر صورة للأمجاد التى تنتظرهم ، دون أن يبين بوضوح وجلاء أنه قبل التمتع بهذه الأمجاد عليهم أن يجوزوا فى طريق الألم .

٣ — وهى تبين لنا ثقة يسوع فى البشر ، فلم يشك فى ولاء يعقوب ويوحنا له ، بل قال لهما إنهما فعلا سيشربان الكأس ويصطبغان بالصبغة ... لقد كان يعرف أخطاء التلاميذ ، ومطامعهم ، وأفكارهم ، ومع ذلك فقد كان يؤمن بهم وبولائهم .

الثورة المسيحية :

لا شك أن باقى التلاميذ تضايقوا بسبب تصرف يعقوب ويوحنا ... لماذا يحاول هذان الأخوان أن ينالا مركزا أعلى من الآخرين ... وقد عرف يسوع أفكارهم فحدثهم حديثا رائعا عن الفرق الثورى بين تفكير العالم وتفكير المسيحية .

ففى التفكير العالمى ، يعتبر الناس الإنسان عظيما إذا كان له سلطان على الآخرين ... والعظيم هو صاحب الكلمة المسموعة ، والسيادة على الآخرين ، والأمر والنهى عليهم ... ذاك الذى بإشارة من يده يتحرك الناس طوع أمره ، وبحركة من إصبعه يهرع الناس إلى خدمته . كانت هذه هى الصورة المألوفة للحاكم الرومانى بحاشيته وجنوده ، والسلطان الشرقى مع عبيده ... هؤلاء هم العظماء فى نظر العالم .

ولكن فى المفهوم المسيحى ، تتغير هذه النظرة ، فالخدمة هى وسام الشرف والعظمة .. ليست العظمة الحقيقية أن تأمر الآخرين ليخدموك ، بل أن تقوم أنت بخدمة الآخرين . وكلما زادت الخدمة زاد الشرف ... لذلك قال المسيح « من أراد أن يكون فيكم عظيما ، فليكن لكم خادما ... ومن أراد أن يكون فيكم أولا فليكن لكم عبدا » .

هذا هو الانقلاب الثورى فى المفاهيم ، الذى قامت به المسيحية . ومن المدهش أن العالم ابتدأ يقبل هذه القيم والمعايير ...

فالعالم اليوم يعترف أن الرجل الصالح هو الذى يقدم خدمة للآخرين — وقد يحترم الناس صاحب السلطان وقد يعجبون به أو يخافونه ... لكن الناس لن يحبوا إلا الرجل الخدوم المحب . فهناك الطبيب الذى يخرج نهارا وليلا لعيادة مرضاه ورعايتهم ، والراعى الذى يحمل الرعية على قلبه ، وصاحب العمل الذى يهتم اهتماما مخلصا بعماله ومتاعبهم ومشكلاتهم ، والرجل الذى نذهب إليه كل وقت فلا نحس أنه تضايق منا ... هؤلاء هم الأشخاص الذين يحبهم الناس ويرون فيهم شخص يسوع المسيح .

عندما اعتنق الزعيم اليابانى الشهير « تويوهيكو كاجاوا » المسيحية كان مأخوذا بروعتها إلى حد كبير ، حتى أنه صرخ من أعماق قلبه « يا إلهى ، اجعلنى كالمسيح » — ولكى يصير مثل المسيح ، خرج ليعيش فى الأكواخ الحقيرة ليشاطر البائسين حياتهم . وعاش فى كوخ طوله وعرضه ستة أقدام فى طوكيو . وفى الليلة الأولى طلب منه أن يقتسم فراشه مع رجل مريض بحكة جلدية معدية ، وكان هذا امتحانا لإيمانه ، هل يقبل أن يسير فى طريقه بلا عودة أم يتراجع ؟ لكنه سار فى الطريق

ورحب بالمريض . ثم سأله أحد الشحاذين أن يأخذ قميصه ، وفى اليوم التالى جاء الشحاذ يطلب سترته فأعطاها له ... وهكذا بقى كاجوا يلبس رداء يابانيا (كيمونو) ممزقا ... وضحك منه سكان الأكواخ أولا ، ثم ابتدأوا يحبونه ويحترمونه ... فقد كان يقف وسط الأمطار الهاطلة ، وهو يسعل سعالا متواصلا ، لأنه كان قد أصيب بالسل ، لكنه كان يعلن للناس قائلا : « الله محبه .. حيثما توجد المحبة يوجد الله » — وكثيرا ما كان يسقط من الإعياء ، فيحمله سكان الأكواخ إلى كوخه ...

وقد كتب كاجوا يقول « إن الله يسكن بين أدنى الناس . إنه يجلس على كومة تراب بين المذنبين فى السجن — ويقف بين الأطفال والغلمان المتشردين . إنه هناك بين المرضى ، ويقف بين المتعطلين — لذلك فكل من يريد أن يلتقى مع الله عليه أن يذهب ليزور زنزانة السجن قبل أن يذهب إلى المعبد — وقبل أن يذهب إلى الكنيسة عليه أن يزور المستشفى ، وقبل أن يقرأ الكتاب المقدس عليه أن يساعد الشحاذين والفقراء » .

هنا العظمة الحقيقية ، فقد يعتبر الناس من يتحكم فى الآخرين عظيما ، وقد يقيسون العظمة بالقدرة العقلية ، أو الدرجات العلمية ، أو بعضوية المجالس واللجان الهامة ، أو بحجم رصيد البنك أو المعاملات المالية ... لكن فى تقدير المسيح لا نجد مكانا لهذه الأمور ... بل مقياس العظمة فى تقديره يتلخص فى الإجابة على هذا السؤال : كم من الناس نالوا وأفادوا من خدمتك ؟ ...

سيادة الصليب :

لقد ختم يسوع حديثه بهذه العبارة المعبرة « كما أن ابن الإنسان لم يأت ليُخدَم بل ليَخدِم ، وليبذل نفسه فديه عن كثيرين » .

إن يسوع عمل بالفعل ، ما دعا الناس أن يعملوه . لقد أتى لا ليُخدَم بل ليَخدِم — لقد جاء لا ليحتل عرشا بل صليبا . وهذا ما لم يفهمه قادة الدين فى عصره . فخلال أزمنة التاريخ كان اليهود يحلمون بالمسيا ، لكن المسيا الذى كانوا يحلمون به كان قائدا مقتدرا ، وملكا فاتحا ، وسلطانا انتظروه ليسحق أعداء اسرائيل ، ويملك بقوة على ممالك الأرض — لقد انتظروا فاتحا منتصرا ، فوجدوا شخصا منكسرا منهزما على الصليب . انتظروا أسد يهوذا المرعب ، فوجدوا حمل الله الوديع ... لقد تحطمت فى صليب يسوع المسيح انتظارات اليهود فى المسيا ... وفى الصليب أعلن الله بكيفية لم يسبق لها مثيل المجد الجديد والعظمة الفريدة فى المحبة المتألمة والخدمة المضحية .... ووضع الله أساسا جديدا للسيادة والعظمة .

لقد جاء ابن الإنسان ليبذل نفسه فدية عن كثيرين . وقد تناول اللاهوتيون منذ فجر المسيحية هذه العبارة بالشرح والتفصيل ، فتباينت أقوالهم ، فقال أوريجانوس إن يسوع دفع الفدية للشيطان . وقال جريجورى النيساوى إن محاولة الشيطان أن ينال من المسيح على الصليب ظانا أنه مجرد انسان ، هزمت الشيطان وكسرت قوته . وقال جريجورى الكبير إن تجسد ابن الله كان عملا استراتجيا من الله ، ليصطاد به لوياثان ، فقد كان لاهوت المسيح هو الصنارة وكان ناسوته هو الطعم ، فعندما ابتلع لوياثان الطعم ، اصطادته الصنارة ..

لكن المعنى المقصود أبسط من هذا بكثير ، فإن الناس كانوا فى قبضة الشرير بكيفية جعلتهم غير قادرين على التحرر منها ، وجذبتهم الخطية إليها ، وفصلتهم عن الله ، وحطمت حياتهم ، والفدية هى شيء يدفع ليحرر شخصا ما من موقف لا يستطيع هو أن يحرر منه نفسه بنفسه — لذلك فهذه العبارة معناها أنه بحياة المسيح وموته ، أعاد يسوع الناس مرة ثانية إلى الله وحررهم مما كانوا مستعبدين له . فلولا يسوع المسيح ، وحياته وخدمته وموته ، ما وجدنا طريقنا ثانية إلى الله . لقد دفع يسوع كل شيء ليعيد البشر إلى الله .

لذلك فمن واجبنا نحن أيضا أن نسير فى أثر خطوات ذاك الذى أحبنا إلى المنتهى .

استجابة الحب لنداء الحاجة

(متى ٢٠ : ٢٩ — ٣٤)

هذه قصة رجلين وجدا الطريق إلى معجزة ، ولهذه الرواية دلالة هامة لأنها تصور لنا اتجاه النفس والعقل والقلب الذى يتفتح لقبول عطايا الله الثمينة .

١ — لقد كان هذان الرجلان ينتظران ، وعندما واتتهما الفرصة تمسكا بها بكل قوتهما . لقد سمعا عن يسوع وأعماله العجيبة ، وانتظرا أن يختبرا شيئا من هذه المعجزات . وكان يسوع مجتازا فى الطريق ، ولو ضاعت منهما الفرصة لفقداها إلى الأبد ، لذلك انتهزا الفرصة . كانت تلك اللحظة ، لحظة قرار حاسم لا يمكن تأجيله ، ولو ضاعت تلك اللحظة دون اتخاذ قرار ، فإن القدرة على التصميم تتضاءل وتذوى . عندما ألقى بولس عظته فى أثينا ، كان بين السامعين من قال « سنسمع منك عن هذا أيضا » (أعمال ١٧ : ٣٢) ، وكأنهم يؤجلون اتخاذ قرار إلى وقت آخر مناسب ... لكن هذا الوقت المنتظر كثيرا ما لا يجيء ، وتضيع الفرصة .

٢ — كان عند هذين الأعميين تصميم والحاح لا يقبل الفشل . لقد انتهرهما الجمع ليسكتا ، فقد كانا مصدر إزعاج للناس ، ولكنهما لم يكفا عن الصراخ بل كانا يصرخان أكثر .. لقد كان من عادة معلمى اليهود أن يعلموا الناس أثناء سيرهم فى الطريق ، وربما كان يسوع يتحدث فى ذلك الوقت ، والذين حوله أرادوا أن يصغوا إلى أقواله ، لكن صوت الرجلين كان عاليا يمنع الجمع من الإصغاء ... ولم يستطع انتهار الناس إسكاتهما .. وبهذا ضرب هذان الرجلان مثلا فى عدم اليأس فى محضر الله ... إن الإنسان الذى لا يمكن أن تثبط همته فى طلب المسيح ، هو الذى سيجده فى النهاية .

٣ — لقد كان إيمان هذين الرجلين ناقصا ، لكنهما استخدما هذا الإيمان الناقص ، فهما خاطبا يسوع بأنه « ابن داود » وهذا يعنى أنهما اعتبراه المسيا بالمعنى الشائع عند اليهود بأنه ملك أرضى ... ولم تكن هذه عقيدة صحيحة ، لكن يسوع قبل هذا الإيمان الناقص .

٤ — كانت لدى هذين الرجلين شجاعة وإقدام ليطلبا طلبا عظيما .. وعلى الرغم من أنهما كانا من الشحاذين الفقراء ، لكنهما لم يطلبا مالا .. كان طلبهما هو البصر ... وليس كثيرا أن

نطلب أعظم الأشياء من يسوع المسيح .

٥ ـــ لقد امتاز هذان الرجلان بفضيلة الشكر ، إذ أنهما عندما أبصرت أعينهما لم يسرعا بعيدا من فرط السرور ، لكنهما تبعا يسوع . إن كثيرين ينالون بركات مادية ، وبركات روحية ، وينسون أن يشكروا .

لقد نال هذان الرجلان نعمة البصر ، فقدما ليسوع الولاء والشكر . ونحن لا نستطيع أن نكافىء الله على صنيعه معنا .. لكننا نستطيع على الدوام أن نكون شاكرين ...

الأصحاح الحادى والعشرون

بداية الفصل الأخير من الرواية

(متى ٢١ : ١ — ١١)

بهذه الفقرة نبدأ الفصل الأخير من رواية حياة يسوع . ونرى فى هذه الآيات مشهدا ولحظة تاريخية رائعة . لقد كان عيد الفصح قد اقترب ومدينة أورشليم وجميع القرى تعج بالزوار الذين جاءوا إليها ليقوموا بإتمام واجباتهم الدينية . وقد أحصى أحد الحكام الرومان بعد ٣٠ سنة من هذا التاريخ عدد الحملان التى ذبحت فى عيد الفصح فى أورشليم فكان العدد يقترب من ربع المليون . فإذا افترضنا أنه حسب شريعة الفصح ، يجتمع على الأقل عشرة أفراد حول كل خروف فصح ، استطعنا أن نقدر أن عدد زوار أورشليم فى الفصح يقترب من مليونين ونصف مليون . فقد كان الناموس يلزم كل ذكر بالغ يسكن على بعد ٢٠ ميلا من أورشليم أن يحضر الفصح فى أورشليم ، هذا بالإضافة إلى آلاف اليهود الذين كانوا يحضرون من كل أطراف الأرض لحضور أعظم أعيادهم الدينية .

لذلك لم يكن هناك وقت أنسب من هذا الوقت ليختاره يسوع للتعبير عن فكرته ، فقد كانت المدينة مزدحمة بالناس الذين الهبت قلوبهم العاطفة الدينية .

و لم يكن ما عمله يسوع قرارا مفاجئا ، لكن الظاهر من الرواية أن يسوع كان قد أعد عدته بتدبير متقن ، وأرسل اثنين من تلاميذه لإحضار الأتان والجحش ، وكان بلا شك قد اتفق مع صاحبهما أن تكون كلمة السر « الرب محتاج اليهما » .

ودخل يسوع إلى مدينة أورشليم راكبا جحشا لم يركبه إنسان من قبل ، ليكون صالحا للمناسبات المقدسة . فقد كان الناموس يشترط أن تكون البقرة الحمراء التى تقدم ذبيحة الخطية للتطهير أن تكون « لم يعل عليها نير » (عدد ١٩ : ٢ ، تثنية ٢١ : ٣) ، والعجلة التى يوضع عليها التابوت كان ينبغى أن تجرها بقرتان مرضعتان لم يعلهما نير (١ صموئيل ٦ : ٧) — كانت هذه شروط استخدام الحيوانات للمناسبات المقدسة .

وقد استقبلت الجموع يسوع كذلك كملك ، وفرشوا ثيابهم أمامه . وهذا ما عمله أصدقاء « ياهو » عندما أعلن نفسه ملكا (٢ ملوك ٩ : ١٣) . وقطعوا أغصان الشجر وسعوف النخل وأخذوا يلوحون بها . وهذا ما حدث عندما دخل سمعان المكابى إلى أورشليم بعد أحد انتصاراته الرائعة (١ ملوك ١٣ : ٥١) .

وقد كان تحيتهم له تحية الزائر العظيم بقولهم « مبارك الآتى باسم الرب » . وهى اقتباس من المزامير لتحية القادمين إلى أورشليم فى العيد (مزمور ١١٨ : ٢٦) ومعناها مبارك باسم الرب هذا الذى يأتى إلى أورشليم .

ثم كانوا يهتفون « أوصنا » ومعناها « خلصنا الآن » . وقد كان هذا الهتاف صرخة شعب متضايق

إلى ملكه أو إلهه . وهى مقتبسة من (مزمور ١١٨ : ٥) « آه يارب خلص آه يارب أنقذ » — أما عبارة « أوصنا فى الأعالى » فمعناها لتصرخ الملائكة من العلاء منادية الله أيضا « خلصنا الآن » .

وربما تغير مدلول كلمة « أوصنا » بمرور الزمن ، شأنها شأن كثير من الكلمات ، حتى صارت نوعا من الهتاف ، ولكن ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا معناها الحقيقى الذى كان فى نفوس من نادوا بها ، وهى دعوة شعب متضايق طالبين من مخلصهم وملكهم أن يهرع إلى خلاصهم .

قصد يسوع :

ونحن نتساءل : ماذا كان قصد يسوع من الدخول إلى أورشليم بهذا الأسلوب ؟ الجواب أنه قصد أن يوقظ عقول الناس بهذا الأسلوب التمثيلى الذى اعتاد عليه الأنبياء . ففى تاريخ الأنبياء ، حينما كان النبى يشعر أن الكلمات أصبحت لا تجدى إزاء جمود الناس وعدم مبالاتهم ، كان يضع رسالته ويعبر عنها فى أسلوب تمثيلى حتى يفهموا ويدركوا .

ونستطيع أن نجد أمثلة لذلك فى تاريخ أنبياء العهد القديم . فبعد أن اتضح أن المملكة لا تستطيع أن تتحمل أسلوب رحبعام وإسرافه وقسوته ، وأن يربعام أصبح قوة لا يستهان بها فى المملكة ، جاء أخيا الشيلونى النبى برداء جديد ، والتقى بيربعام فى الحقل ، وقبض أخيا الشيلونى على الرداء الجديد ومزقه اثنتى عشرة قطعة ، وقال ليربعام خذ لنفسك عشر قطع . لأنه هكذا قال الرب إله اسرائيل هانذا أمزق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط (١ملوك ١١ : ٢٩ — ٣٢) .

وعندما اقتنع إرميا أن بابل ستهزم فلسطين رغم تفاؤل الناس ، صنع لنفسه ربطا وأنيارا وجعلها على عنقه وأرسل منها إلى ملك أدوم وملك موآب وملك بنى عمون وملك صور وملك صيدون وملك يهوذا (إرميا ٢٧ : ١ — ٦) فكان هذا إشارة إلى أن هذه البلاد ستخضع لنير ملك بابل . وعندما أراد حننيا النبى الكاذب أن يبين أن هذا الكلام لن يحصل أخذ النير عن عنق إرميا وكسره (إرميا ٢٨ : ١٠) . لقد كان هذا هو أسلوب الأنبياء فى التعبير التمثيلى عن حقيقة رسالتهم — ولابد أن يسوع أراد أن يعبر بدخوله هذا عن حقيقته .

١ — فالصورة الأولى التى أراد أن يعبر عنها ، هى الصورة الواردة فى (زكريا ٩ : ٩) التى رأى فيها النبى الملك داخلا إلى أورشليم وديعا راكبا على أتان . فهنا نرى يسوع يعلن أنه المسيا الذى تكلمت عنه النبوات ، فى الوقت الذى ازدحمت فيه أورشليم بالناس المتعبدين من اليهود .

٢ — والصورة الثانية التى أراد أن يعبر يسوع عنها ، ترجع إلى أحداث فى تاريخ اليهود . فمن بين الكوارث التى حدثت فى التاريخ اليهودى احتلال أورشليم بواسطة انتيخوس ابيفانوس سنة ١٧٥ ق . م . فقد أراد هذا الحاكم أن يمحو اليهودية تماما ، ويحل محلها أسلوب الحياة والعبادة اليونانية . لذلك نجس الهيكل وقدم ذبائح من الخنازير على المذبح ، وقدم ذبائح للإله زيوس اليونانى ، وحول حجرات الهيكل وأروقته إلى مواخير للدعارة . لذلك ثار عليه المكابيون ثورة عارمة ، ليحرروا أرضهم . وعند الانتصار استرجع المكابيون مدينة أورشليم ونقوا الهيكل . وكان فرح عظيم بين جميع الناس (٢ ملوك ١٠ : ٧) ، وقطعوا أغصان الأشجار وسعف النخل وأنشدوا من يهوذا

المكابى فى تاريخ اليهود .... فكأن يسوع يعلن بهذه الصورة التمثيلية أنه ليس مسيح الرب فحسب ، بل إنه أتى ليطهر بيت الله من كل ما يدنسه . ألم يقل ملاخى « ويأتى بغتة إلى هيكله السيد الذى تطلبونه وملاك العهد الذى تسرون به » (ملاخى ٣ : ١) .

وألم يعلن حزقيال فى رؤيا أن القضاء يبدأ من بيت الله ، ومن مقادسه ؟ (حزقيال ٩ : ٦) .

ولكى نختتم دراسة هذا الجزء ، نرى هذه الحقائق عن يسوع :

١ — ترينا هذه الآيات شجاعة يسوع ... فقد كان يعلم تماما أنه يدخل إلى مدينة معادية ، ومهما كان حماس الجماهير متجها نحوه ، فإنه يعلم أن الرؤساء يكرهونه ، وقد صمموا على التخلص منه .

وفى مثل هذه الظروف يعتبر أغلب الناس أن الاختفاء خير وسيلة . لكن يسوع لم يدخل إلى أورشليم فى الليل ، بل أظهر نفسه على مسرح الحياة علانية . كانت هذه الأيام الأخيرة من حياة المسيح تتميز بالتحدى الواضح فى كل عمل يعمله .

٢ — وهى ترينا اعلان يسوع الواضح أنه المسيا ... انه لم يكتف أن يعتبره الناس نبيا ، لكنه يريد أن يوضح للناس أنهم إذا أرادوا أن يقبلوه ، فليقبلوه ملكا ، وإلا فليرفضوه .

٣ — وهى ترينا نوع الرسالة التى يحملها يسوع ... فهو لم يطلب مُلكا أرضيا زمنيا ، بل إنه يريد أن يملك على القلوب . لذلك أتى ودخل إلى أورشليم وديعا وراكبا على أتان .

فقد كان ركوب الخيل علامة الحرب ، وركوب الحمير علامة السلام ... لذلك كان دخول يسوع بهذه الصورة إعلانا بأنه جاء ، لا ليهلك بل ليحب .. لا ليدين بل ليعين ، لا بقوة السلاح ، لكن بقوة المحبة .

ما حدث فى الهيكل

(متى ٢١ : ١٢ — ١٤)

كان دخول يسوع إلى أورشليم بالكيفية التى أرادها ، نوعاً من التحدى لقادة الدين فى عصره ، وهنا نجده يضيف تحدياً آخر .

ولكى نستطيع أن نتمثل صورة ما حدث ، ينبغى أن ندرس بإمعان نص الرواية . ففى العهد الجديد كلمتان يونانيتان تترجمان بكلمة « هيكل » . وهناك فرق بين هاتين الكلمتين . فهناك كلمة « ناؤس Naos » اليونانية وهى تشير إلى قدس الأقداس ، حيث يدخل رئيس الكهنة وحده فى يوم الكفارة العظيم — ولكن هذا « الهيكل » كان محاطا بأبنية وأروقة كثيرة متداخلة ومتلاحقة وصاعدة . ففى الخارج « دار الأمم » حيث يمكن لأى واحد أن يدخل ، ولا يجوز للأممى أن يتعداه وإلا تعرض للقتل . وهناك « دار النساء » وباب دخولها من باب الجميل . ويمكن لأى إسرائيلى أن يجتاز منه — وهناك « دار الإسرائيليين » والدخول إليها من باب نيكانور وهى بوابة برونزية

كبيرة تحتاج إلى عشرين رجلا لفتحها وغلقها — ثم « دار الكهنة » ولا يدخل منها سوى الكهنة حيث مذبح المحرقة ومذبح البخور والمنارة ذات السبع شعب ، ومائدة خبز الوجوه ، والمرحضة النحاسية — وخلف هذه الدار قدس الأقداس — وفى اللغة اليونانية تشير كلمة « هيرون » إلى هذه الأروقه كلها ، وتترجم أيضا الهيكل .

والأحداث التى جرت فى هذه القصة حدثت فى دار الأمم ، وهى جزء من الهيكل ، لكن الدخول إليها مسموح لكل إنسان ، لذلك فقد كان هذا الجزء كثير الازدحام ، خاصة وقت عيد الفصح حين يحضر الآلاف إلى زيارة الهيكل فى أورشليم .

فى هذه الدار — دار الأمم — كانت تقوم تجارتان : تجارة الصيارفة أو تغيير العملة ، وتجارة الحمام .

فقد كان على كل يهودى أن يدفع ضريبة للهيكل قدرها نصف شاقل ، ويجب أن يتم دفع هذه الضريبة قبل عيد الفصح . لذلك كان الصيارفة ينتشرون فى كل البلاد لجمع هذه الضريبة قبل شهر من عيد الفصح ، ثم يتركون البلاد فى وقت محدد ، وعلى كل من لم يدفع أن يقوم بدفعها فى الهيكل قرب العيد . لذلك كان هناك آلاف من الناس يريدون دفع هذه الضريبة فى الهيكل . ومع أن جميع أنواع العملة كانت متداولة فى فلسطين ، لكن ضريبة الهيكل كان ينبغى دفعها بأنواع معينة من العملة ، وكانت مهمة الصيارفة تغيير العملات للناس حتى يستطيعوا دفع عملة مقبولة للهيكل — وكان الصيارفة يستغلون هذه الفرصة ويبيعون العملات بأسعار غالية . وكان فرق أثمان هذه العملات ينفق فى أغراض متنوعة مثل تعبيد الطرق ، وطلاء بعض آنية الهيكل بالذهب ، لكن جزءا كبيرا كان يأخذه الصيارفة مكسبا لهم .

أما بيع الحمام فكان أسوأ من هذا ، فقد كانت زيارة الهيكل تتطلب تقديم ذبيحة — وكان الحمام يستخدم كذبيحة فى عدة مناسبات مثل تطهير بعد الولادة ، وتطهير الأبرص بعد شفائه تماما (لاويين ١٢ : ٨ ؛ ١٤ : ٢٢ ؛ ١٥ : ١٤ و ٢٩) — وكان يمكن شراء الحمام والحيوانات من خارج الهيكل إلا أن الشريعة كانت تشترط أن تكون الذبيحة بلا عيب . وكان هناك من يقومون بالتفتيش للتأكد من خلو الذبائح من العيوب ، وهؤلاء كانوا يرفضون قبول أية ذبيحة مشتراه من خارج الهيكل ، وكانوا يوجهون نظر الناس إلى أن يشتروا من داخل الهيكل ... وكانت أسعار الطيور والحيوانات داخل الهيكل غالية جدا ... بل كان يرتفع ثمنها أحيانا نحو عشرين ضعفا — وكان بعض الكهنة ورؤساء الكهنة ينالون ربحا من هذا الأسلوب ، والبعض كانوا يبيعون هذه الحيوانات والطيور لحسابهم — وهكذا وقع الناس ضحية لأسوأ أنواع الاستغلال ...

هذا الاستغلال هو الذى أثار غضب يسوع ...

الغضب والحب :

إن أغلب الناس يتخذون من هذه الآيات أساسا لدينونة كل نظام يهودى للعبادة ... لكننا إذا أردنا الانصاف ، علينا أن ننظر إلى جميع زوايا الموضوع .

كان فى الهيكل تجار ومستغلون ، لا شك فى ذلك ، ولكنه لم يكن يخلو من أناس جاءوا يتعبدون لله وأنظارهم متجهة إليه ، وليس من العدالة أن حكم على نظام من أسوأ مظاهره . وقد قال أرسطو إننا يجب أن ننظر إلى أجمل ما فى الإنسان ، أو ما فى النظام قبل أن نصدر عليه حكما .

كما أن جميع المنظمات الموجودة على الأرض ، لا تخلو من العيوب ، فالنظام الذى يرى أنه بلا عيب على الإطلاق هو الذى يلقى بالحجر الأول ... وربما لم يكن كل التجار مستغلين ، أو كل الصيارفة جشعين ...

وألا نرى نحن أنواعا مشابهة من هذا الاستغلال فى الكنيسة المسيحية ، وفى كنيسة القيامة فى أورشليم فى أيام الأعياد والمناسبات ؟ ... إن يسوع لو جاء اليوم ، لقلب بعض الموائد ، وطرد بعض الناس من الكنيسة المسيحية ، تماما كما فعل فى الهيكل اليهودى .

إن هذه الحادثة تظهر لنا حقائق هامة : —

١ — فهى ترينا أن أكثر ما أثار غضب يسوع كان استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ... خاصة الذين يستخدمون الدين كوسيلة لهذا الاستغلال . ولقد كان إرميا يصف سوء استخدام بيت الله بأنه قد صار مغارة لصوص (إرميا ٧ : ١١) .

إن يسوع لم يستطع أن يحتمل رؤية الناس البسطاء الذين حضروا فى براءة وإيمان إلى لهيكل يستغلون هذا الاستغلال . وما أكثر المرات التى تسكت فيها الكنيسة ازاء بعض المظالم والمواقف المشابهة ، بينما ينبغى عليها أن تثور وتحمى الذين لا يعرفون أن يحموا أنفسهم وسط الصراع والتنافس الاقتصادى الرهيب .

٢ — والقصة ترينا أن غضب يسوع موجه إلى الذين يقفون عقبة فى سبيل تعبد الناس البسطاء فى بيت الله . لقد قال إشعياء إن بيت الله هو بيت الصلاة لكل الشعوب (اشعياء ٥٦ : ٧) .

وكانت دار الأمم هى المكان الوحيد الذى يمكن للأميين أن يدخلوه من بين دور الهيكل وأروقته ... وربما جاء البعض ليتفرجوا ، لكن البعض ولا شك جاءوا ليتعبدوا ... ولكن كيف لهم أن يتعبدوا وسط ذلك الضجيج من البيع والشراء والمساومة ... إن الذين جاءوا ليبحثوا عن الله ، قد تعطلوا عن رؤية الله بواسطة شعب الله نفسه .. وهنا المأساة ... إن الله لا يبرىء أبدا من يحرمون غيرهم من عبادة الله .

وقد تتكرر المأساة بصورة أو أخرى .. فقد تشيع فى الكنيسة روح جدل أو حقد أو مرارة أو انقسام ، تجعل العبادة فيها مستحيلة .. وعندما يفكر الأعضاء أو أصحاب الوظائف فى حقوقهم ومراكزهم وامتيازتهم وتصير الكنيسة ميدانا للجدل والمنافسة تقل روح التعبد فيها ... هذا يثير غضب يسوع . إن عبادة الله ومنازعات البشر لا يمكن أن تسير معا ، فويل لمن يقف فى طريق صفاء العبادة بين الناس والله .

٣ — وأخيرا نرى عبارة تسترعى النظر فى نهاية هذا الجزء :

« وتقدم إليه عمي وعرج فى الهيكل فشفاهم » ... إذاً لم يطرد يسوع كل الناس من الهيكل ... إن أصحاب الضمائر المذنبة هم الذين هربوا أمام عينيه الغاضبتين .. لكن من كانوا فى حاجة إليه بقوا واستمروا .. فالحاجة لا يمكن أن تطرد فارغة من أمام يسوع المسيح .

و لم يكن غضب يسوع سلبيا ، بل كان إيجابيا . فلم يقف الغضب عند حد الهجوم على المخطئين ، بل تعدى ذلك إلى معاونة المحتاجين . فالغضب والحب يسيران معا عند الإنسان العظيم . فهناك غضب يتجه نحو من يستغلون البسطاء ويحرمون الناس من العبادة ، وهناك حب يتجه نحو من هم فى حاجة .

إن قوة الغضب المحطمة ينبغى أن تصحبها على الدوام قوة المحبة الشافية . هذا ما حدث مع يسوع ، وما ينبغى أن يحدث معنا نحن أيضا .

الإعلانات لبسطاء القلب

(متى ٢١ : ١٥ — ١٧)

ظن بعض الشراح أن المقصود بالأولاد هنا ، تلاميذ المسيح ومريديه ، لأن تلاميذ المعلمين اليهود كانوا ينالون هذا اللقب ، واعتقدوا أنه لم يكن مسموحا للأطفال أن يدخلوا الهيكل ، إلا أن الرأى الغالب هو أنهم كانوا أطفالا فعلا ، والدليل على ذلك هو اقتباس يسوع من (مزمور ٨ : ٢) وهو يشير إلى الأطفال فى العمر .

لقد كان ذلك اليوم يوما غير عادى ، ولذلك كان من المعقول أن يوجد أطفال ، وأنهم صرخوا مرددين ، « أوصنا لابن داود » . وقد سمعوا ذلك من قبل عند دخول يسوع إلى أورشليم .

وقد غضب رؤساء الكهنة والكتبة من هذا الهتاف ، مع أنهم كان ينبغى أن يفرحوا ... ولكن هكذا يحول التعصب كل شيء إلى عكسه .

أما يسوع فقد اقتبس لهؤلاء الرؤساء الدينيين من المزامير التى يعلمونها جيدا : « من أفواه الأطفال والرضع أسست حمدا بسبب أضدادك لتسكيت عدو ومنتقم » (مزمور ٨ : ٢) . وهو يعلن حقيقة رائعة . فهناك حقائق لا يراها ويدركها غير بسطاء القلوب ، بينما تخفى عن الحكماء والفهماء ... وهناك أوقات تكون فيها السماء أقرب إلى الطفل منها إلى أحكم الناس .

قيل أن مثالا عظيما نحت تمثالا ليسوع ليدخل إلى مسابقة ، وأراد أن يختبر ما إذا كان للتمثال الأثر المناسب فى نفس من يراه ، فأحضر طفلا صغيرا وطلب منه أن يتطلع إلى التمثال وسأله : لمن هذا التمثال ؟ فأجاب الطفل : إنه لشخص عظيم . فحزن الفنان وشعر أنه فشل فى فنه . فكسر التمثال وأعاد نحت تمثال آخر وأراه للطفل فأجاب على الفور : « إنه ليسوع الذى قال دعوا الأولاد يأتون إلىّ » ... فاطمأن الفنان بأن التمثال يصلح للدخول فى المسابقة .

لقد سر يسوع بتسبيح الأطفال وهتافهم ، فإن شهادتهم كانت قوية ، لتسكيت كل أعدائه ... وما أعظم الخدمات التى يمكن لبسطاء القلوب أن يقدموها ليسوع .

طريق شجرة التين

(متى ٢١ : ١٨ ــ ٢٢)

يقرأ كثيرون من المؤرخين المخلصين هذه الآيات وتصادفهم حيرة ، لأن قبول مثل هذه الرواية حرفيا يعطينا صورة عن يسوع لم نعهدها فيه من قبل . لذلك من الواجب أن ندرس ظروف الرواية بتدقيق لتزول هذه الحيرة ، ونرى دلالتها الحقيقية ، بشجاعة وإخلاص .

وقبل كل شيء علينا أن نقارن بين رواية متى لهذه الحادثة ، ورواية مرقس لها (مرقس ١١ : ١٢ ــ ١٤ و ٢٠ و ٢١) ، والفرق بين الروايتين يتلخص فى نقطتين :

(أ) أن مرقس يذكر أن ذلك الوقت لم يكن وقت التين .

(ب) أن مرقس لا يذكر ما يفيد أن التينة قد يبست فى الحال ، ولكنه يشير إلى أن التلاميذ فى الصباح إذ كانوا مجتازين رأوا التينة قد يبست من الأصول .

ويرى بعض الشراح أن مرقس هو أقدم البشائر ، لذلك فهم يعتقدون أن روايته أقرب إلى الحادثة الواقعية من رواية متى [١] .

ثم أنه تعترضنا مشكلة أخرى تحتاج إلى تفسير . فكيف يعاقب السيد شجرة بلعنة مع أن العقاب فى حقيقته لا يوقع إلا على الكائنات الحية التى لها عقل وإرادة ؟ إن العقاب يأتى نتيجة شعور خلقى بالشر والخير ؟ والشجرة ليس لها مثل هذا الشعور . ثم أننا إذا ذكرنا ما قاله مرقس من أنه لم يكن وقت التين ، فلماذا يلعن السيد الشجرة على شيء لم يكن فى قدرتها أو إمكانها ، وهل يكلف ربنا الشجرة شيئا فوق طاقتها ؟

ثم إننا نتساءل أيضا : هل من المعقول أن يسوع الذى رفض فى تجربة الشيطان له أن يحول الحجارة إلى خبز ليشبع جوعه الجسدى ، هو نفسه يلعن الشجرة لأنها لم تقدم له الثمر الذى يشبع جوعه ؟ ألا يكون هذا نوع من استخدام قدرته المعجزية لدوافع ذاتية ؟ ...

كل هذه الأسئلة تجعل من الضرورى أن ننظر إلى هذه الرواية نظرة جديدة ... فلندرس الرواية من زاوية أخرى .

التين والإثمار فى فلسطين :

كانت شجرة التين من أهم الأشجار فى بلاد فلسطين ، وصورة أرض الميعاد التى نقرأ عنها فى سفر التثنية هى صورة « أرض حنطة وشعير وكرم وتين » (تثنية ٨ : ٨) .

والجواسيس الذين ذهبوا ليتجسسوا الأرض ، جاءوا معهم بعنب ورمان وتين (عدد ١٣ : ٢٣) .

---

(١) الواقع أنه لا يوجد تناقض حقيقى بين الروايتين ، فيبوس التينة بدأ فى الحال منذ كلام المسيح ، وفى الصباح التالى لاحظ التلاميذ أن التينة يبست من الاصول . والتركيز فى رواية مرقس هو على كلمة (من الاصول) . (المترجم)

والصورة الشائعة للرخاء والسلام فى العهد القديم هى عندما يجلس كل واحد تحت كرمته وتحت تينته . « وسكن يهوذا وإسرائيل آمنين كل واحد تحت كرمته وتحت تينته من دان إلى بئر سبع كل أيام سليمان » (١ ملوك ٤ : ٢٥) (أنظر أيضا ميخا ٤ : ٤ ، وزكريا ٣ : ١٠) .

وصورة غضب الله فى العهد القديم تتمثل فى أنه يضرب الكروم والتين (مزمور ١٠٥ : ٣٣ ، إرميا ٨ : ١٣ ، هوشع ٢ : ١٢) .

فشجرة التين هى رمز الخصوبة والسلام والرخاء ، ومنظر الشجرة نفسه منظر جميل ، فهى تنمو عالية وتمتد أغصانها ... وكثيرا ما كان الناس يبنون أكواخهم بجوار أشجار التين ، كما أنهم فى ظلها كانوا يتأملون ويصلون ، كما كان نثنائيل يفعل (يوحنا ١ : ٤٨) .

على أن لدراسة هذا الموضوع ينبغى أن نفهم زمن الإثمار وكيفيته ، فشجرة التين تنفرد بأن لها محصولين خلال العام .

ففى أبريل تظهر براعم خضراء صغيرة فى نهاية الأغصان ، وهذه لا تؤكل . ثم تبدأ الشجرة تورق وتزهر سريعا ويكتمل نضوج الثمار فى يونيو . وفى الوقت عينه تكون الشجرة مزدهرة بالأوراق والأزهار — ولا يمكن لشجرة تين أن تثمر فى أبريل أبدا .

وتتكرر العملية فى سبتمبر من العام ذاته ..

وما يدهشنا فى هذه القصة أنها تروى لنا أن شجرة التين كانت مورقة فى أبريل ، فقد كان الفصح فى ١٥ أبريل . وهذا حدث قبل الفصح بأيام — ويذكر مرقس بوضوح أنه لم يكن وقت التين .

دلالة الحادثة :

لقد ذكر من قبل أن يسوع ، كان فى بعض الأحيان يتخذ أسلوب الأنبياء التمثيلى الذين يعبرون بالأفعال والحركة عما يريدون أن يقولوه بالكلام ، عندما يرون أن الكلام لا يصل إلى أعماق السامعين . لذلك فإذا افترضنا أن هذه الحادثة كانت رسالة عملية تمثيلية قدمها يسوع للشعب اليهودى ، فإننا نفهم معناها ومغزاها .

كان يسوع فى طريقه إلى أورشليم ، وفى الطريق وجد شجرة تين مورقة . وقد كان مسموحا له حسب تقاليد تلك البلاد أن يقطف التين منها ، فقد كانت الشريعة اليهودية تسمح بذلك (تثنية ٢٣ : ٢٤ و ٢٥) .. لكن يسوع ذهب إلى الشجرة وهو يعلم أنه ليس وقت التين ، فتعجب كيف تكون الشجرة مورقة وبدون تين فى هذا الوقت . ولابد أنه كان بالشجرة عطب جعل اختلالا ما فى نموها ، أو أنها عادت إلى حالتها البرية . ولابد أن يسوع وقد عرف حالة هذه الشجرة ، أعلن أنه — والشجرة على هذه الحال — لن تأتى بثمر أبدا بعد ذلك .. فهو يعيش مع الطبيعة ويعرفها .. وبالفعل فإن عملية الذبول بدأت فى الشجرة ، وفى اليوم التالى كانت التينة قد يبست من الأصول .

كان فى هذه الحادثة درسان رمزيان للأمة اليهودية أراد يسوع أن يعبر عنهما : ـــ

١ ـــ إن هذا العمل التمثيلى أوضح للشعب اليهودى أن عدم النفع هو الطريق إلى البوار ـــ وهذا هو قانون الحياة .. وكل عديم النفع لابد يذوى ويذبل . فكل إنسان أو شيء لا يجد مبررا لوجوده ما لم يحقق الغرض الذى خلق لأجله ... لقد كانت شجرة التين بلا نفع ، لذلك فمصيرها المحتوم هو الذبول . والأمة الإسرائيلية قد أوجدها الله لسبب واحد ، وهو أن يأتى منها ابن الله ، مسيح الله . وها هو قد جاء لكن الأمة لم تعرفه ولم تقبله ... بل ها هى فى الطريق إلى صلبه ... لقد فشلت الأمة فى رسالتها لذلك كان مصيرها الخراب .

إن عدم تحقيق قصد الله من حياتنا ، يقودنا إلى كل الأخطار .. والإنسان يقاس فى هذا العالم بمقدار نفعه .. وحتى لو كان الإنسان مريضا فى الفراش ، فيمكنه أن يكون مثالا طيبا فى الصبر وفى الصلاة .. كل إنسان يستطيع أن يكون نافعا ، لكن إذا ضاع نفعه ، فمعنى ذلك أنه فى طريقه إلى الانهيار ..

٢ ـــ وهذا العمل التمثيلى يعلمنا أن الله يدين صاحب المظهر دون الجوهر . لقد كانت الشجرة مورقة ، والورق فى شجرة التين كان مظهرا لوجود ثمر فى الشجرة ، لكن ادعاء الشجرة كان باطلا .. لذلك كان الزوال دينونتها . هكذا كانت الأمة اليهودية : فى مظهرها تبدو كثيرة التدين . أليسوا هم شعب الله المختار ؟ أليس الله إلههم ؟ ولكنهم فى الواقع كانوا يطلبون هلاك ابن الله .. كانت ديانتهم مظهرا دون جوهر ، لذلك استحقوا الدينونة .

كتب غاندى فى مذكراته أنه عندما كان فى بريتوريا فى جنوب أفريقية ، كان يدرس المسيحية . وحضر بعض العبادات فى كنيسة مسيحية . لكنه لم يؤخذ أو يتأثر أبدا من العابدين ، لأنه لم يلمس روح التكريس الحقيقى والتدين الصحيح .. كل ما رآه أنهم يذهبون جريا على عادة مألوفة . لذلك لم يؤمن غاندى بالمسيحية .

أنظروا كم من الخسائر تتكبدها الكنيسة إذا كانت عبادتها مجرد مظهر . ونحن جميعا نقع قليلا أو كثيرا فى بعض الأحيان فى هذا الخطر .. خطر الاهتمام بالمظهر ..

وهكذا نرى دلالة هذه الحادثة .. إنها دينونة الأمة اليهودية التى كانت بلا ثمر ، ولكنها كانت تبدو للناس ولسائر الأمم أنها مورقة وبها ثمر ..

قد غطت الأمة اليهودية نفسها بكبرياء وتفخيم وطقوس متعددة وفصلت نفسها عن باقى الأمم ، لكنها فى داخلها كانت مثل باقى الأمم ، بل كانت أشر منهم ، لأن باقى الأمم كانت تظهر أنها بلا ثمر ، أما اليهود فقد كانوا يظهرون أنهم مثمرون .

كان الأمم خطاة ، وكان اليهود مرائين ..

وفى هذا يقول الرسول بولس : « هوذا أنت تسمى يهوديا وتتكل على الناموس ، وتثق أنك

قائد للعميان ونور للذين فى الظلمة ومهذب للأغبياء ومعلم للأطفال ، ولك صورة العلم والحق فى الناموس . فأنت إذاً الذى تعلم غيرك ألست تعلم نفسك ؟ الذى تكرز ألا يسرق أتسرق .. لأن اسم الله يجدف عليه بسببكم بين الأمم » (رومية ص ٢) .

ديناميكية الصلاة :

يختتم هذا الجزء ببعض كلمات السيد المسيح عن قوة الصلاة . وتحتاج هذه الكلمات إلى فهم صحيح لها ، لأننا لو أسأنا فهم هذه الكلمات ، لأصابنا الفشل وانكسرت قلوبنا من الخيبة ، لكننا إذا فهمناها فهما صحيحا ، جاءتنا بالقوة والسعادة .

فى هذه الكلمات يقول يسوع إن الصلاة يمكن أن تنقل الجبال ، وأننا إن سألنا مؤمنين ننال ما نسأله . ومن الواضح أننا يجب ألا نفهم هذه المواعيد جسديا أو حرفيا ، فإن يسوع نفسه لم ينقل جبلا ماديا بالصلاة ، ولا غيره استطاع ذلك ، بل إن كثيرين من المؤمنين صلوا بلجاجة وإيمان وحرارة لأجل طلبات خاصة ينالونها ، أو لأجل اتقاء أضرار معينة ، أو إنقاذ مريض من الموت ، لكن صلواتهم لم تتحقق بالمعنى الحرفى . فماذا يقصد يسوع أن يعطينا عن طريق الصلاة ؟

١ ــ إن يسوع يعدنا أن الصلاة تعطينا القوة للعمل . فليست الصلاة وسيلة سهلة للهروب من العمل ، وليست هى ترك الأمور ليعملها الله نيابة عنا . الصلاة قوة . فالصلاة ليست أن نطلب من الله أن يعمل شيئاً بدلاً منا ، بل هى طلب القوة من الله ليعيننا أن نعمل نحن .. ليست الصلاة ملاذا للكسالى ليهربوا بها من العمل ، لكنها طريق القوة للسير فى سبيل الجهاد والصراع .. إنها طريق القوة لإزالة جبال الصعوبات والمتاعب بمعونة الله .. فلو كانت الصلاة هى اختبار الطريق السهل ، لكانت ضررا لنا لأنها تعلمنا الخمول والكسل والتواكل .. فلا يصح لإنسان ما أن يصلى ثم يسكت دون عمل ، بل يجب أن يصلى ويقوم للعمل . عندئذ يتبين أن قوة ديناميكية قد دخلت إلى حياته ، وأنه فى الحقيقة كل شىء مستطاع لدى الله ، وأنه بمعونة الله تصير المستحيلات ممكنة .

٢ ــ الصلاة تعطينا القدرة على تقبل المواقف وتغييرها .

ليست الصلاة وسيلة للتخلص من موقف معين ، لكنها طريق لتقبل هذا الموقف ، ثم تغييره ــ وفى العهد الجديد مثلان صادقان لهذه الحقيقة .

المثل الأول فى حياة بولس الرسول ، فقد صلى بولس مرارا ليزيل الله عنه شوكة الجسد ، التى كانت تسبب آلاما جسدية له .. لكن الصلاة لم تنقذه من ذلك الموقف ، على أنه استطاع أن ينال قوة ليتقبل تلك الشوكة ، ويرى فيها طريقا للقوة فى ضعفه ، ليكون بنعمة الله كاملا إذ صارت هذه الشوكة طريقا للخير والمجد والبركة له (٢ كورنثوس ١٢ : ١ ــ ١٠) .

والمثل الثانى من حياة يسوع نفسه . ففى جثسيمانى صلى يسوع لتعبر عنه تلك الكأس ، وليتجنب الموقف المضنى الذى كان عليه أن يواجهه .. ولم تتحقق تلك الطلبة ، ولكنه فى الصلاة استطاع أن يتقبل ذلك الموقف ، وتحول الموقف ، فصارت آلام الصليب طريقا إلى المجد والقيامة .

إن الصلاة لا تنقذنا من المواقف الصعبة ، لكنها تنصرنا عليها .. إنها ليست طريقا للهروب ، لكنها للمواجهة الرائعة المفيدة للمواقف الصعبة .

٣ ـــ والصلاة تعطينا القدرة على التحمل :

فمن الطبيعي أننا فى حاجتنا الإنسانية ، وبقلوبنا البشرية ، وضعفنا الإنسانى نشعر أن هناك أمورا لا نستطيع أن نتحملها . ونحن نرى الأخطار والمآسى تقترب منا ولا مفر منها ، فنفزع إذ نرى أننا لا نستطيع أن نتحملها ، والصلاة لا تزيل المأساة ، أو تحذرنا لنهرب منها ، ولا تعفينا من المواقف ، لكنها تجعلنا نتحمل ما كنا نظن أننا غير قادرين على تحمله .. وأن نعبر الأزمات فنحطمها ولا تحطمنا .

إن كثيرين يعتبرون الصلاة هروبا .. وهؤلاء يتعرضون للفشل وخيبة الأمل .. لكننا إذا فهمنا أن الصلاة طريق للغلبة والانتصار والقوة ، فإن القوة الإلهية ستعمل فينا لكى نغلب وننتصر حقا .

التذرع بالجهل

(متى ٢١ : ٢٣ ـــ ٢٧)

عندما نفكر فى الأعمال الخارقة للعادة التى كان يسوع يعملها ، لا ندهش إذا سألته السلطات اليهودية عن مدى سلطانه الذى يفعل به هذه الأمور . لقد كان سؤالهم عن السلطان الذى له ومصدره ، وفى تلك اللحظة بالذات لم يكن يسوع مستعدا أن يقدم لهم الجواب المباشر بأن سلطانه ينبع من حقيقة كونه ابن الله ، فإن قولا كهذا كان من شأنه أن يعجل بالنهاية ، وكانت هناك أعمال وأقوال عليه أن يؤديها . ولم تكن رغبة يسوع فى انتظار النهاية إلى الوقت المعين ، هروبا من موقف أو نقصا فى الشجاعة ، فقد يحتاج الانتظار إلى شجاعة تفوق شجاعة من يسرع بالقاء نفسه أمام عدوه ليعجل بالنهاية . وبالنسبة ليسوع كان دائما يريد أن تسير الأمور فى الوقت الذى عينه الله .. ولم تكن الساعة قد جاءت بعد .

لذلك واجه سؤال السلطات اليهودية بسؤال من عنده ، أوقع سائليه فى مأزق لا يعرفون الخروج منه . كان سؤاله عن معمودية يوحنا ـــ أو بمعنى آخر خدمة يوحنا المعمدان ـــ هل هى من السماء أم من الناس . هل كانت هذه الخدمة عملا بشريا أم دعوة إلهية ، والذين خرجوا إلى الأردن ليعتمدوا من يوحنا ، هل كانوا يستجيبون لدافع إنسانى ، أم كانوا يتجاوبون من دافع إلهى ..

وكانت ورطة رؤساء اليهود إنهم لو اعترفوا بأن معمودية يوحنا كانت من السماء ، فلن يكون أمامهم مفر من أن يعترفوا أن يسوع هو المسيا ، لأن يوحنا أعلن بمنتهى الوضوح ، وشهد بما لا يدع مجالا للشك ، أن يسوع هو المسيا . فإذا كان الله قد أرسل يوحنا المعمدان ، يكون يسوع هو مسيح الرب .

ومن الناحية الأخرى إذا أنكر رؤساء اليهود أن رسالة يوحنا المعمدان كانت من الناس ، فإنهم

يواجهون غضب الشعب ، لأن الشعب كان على يقين أن رسالة يوحنا كانت سماوية ... لذلك صمت رؤساء اليهود لحظة ، ثم قدموا جوابا هو أسوأ من الصمت نفسه . فقد قالوا « لا نعلم » — وقد أوقفهم هذا الجواب مذنبين أمام نفوسهم ، إذ كان ينبغى أن يعرفوا ، بل كان من صميم عملهم وواجبهم أن يعرفوا . وكان من بين واجبات السنهدريم الذى كان يضمهم أعضاء فيه أن يميز بين الأنبياء الكذبة والأنبياء الحقيقيين . وها هم يقولون إنهم لا يعرفون ولا يقدرون على التمييز . لقد قادتهم هذه الورطة إلى تحقير مخجل لنفوسهم .

وهنا نجد صوت تحذير . هنا نرى الجهل المتعمد ، بسبب الجبن والخوف . فإذا كان المرء يبحث عن السلامة أكثر مما يبحث عن المبدأ ، فإن اهتمامه الأول لن يكون فى البحث عن الحقيقة ، بل فى البحث عن الإجابة التى تكفل له السلامة ، وهكذا تقوده هذه الرغبة إلى الصمت الجبان . يقول إنه لا يعرف الجواب ، بينما هو يعرفه يقينا ، لكنه يخاف أن يذكره — إن السؤال الواجب أن نسأله لنفوسنا ليس « ما هو الجواب الذى يضمن لنا السلامة ؟ » بل « ما هو الجواب الصحيح ؟ » .

إن التذرع بالجهل خوفا شىء مخجل ، فإذا عرف الإنسان الحق فهو ملزم أن يذكره ، أيا كانت النتيجة .

الأفضل بين ابنين رديئين

(متى ٢١ : ٢٨ — ٣٢)

معنى هذا المثل واضح تماما . فقادة اليهود هم الذين أظهروا الاستعداد لطاعة الله بكلامهم ، لكنهم فعلا لم يطيعوه ، كالابن الذى قال بكل أدب وتوقير ظاهر لأبيه : ها أنا ياسيد . ولكنه لم يذهب ليعمل إرادة أبيه .

والعشارون والزوانى هم الذين أعلنوا أنهم يرفضون السير فى طريق الله ، وساروا فى طريقهم ، لكنهم أخيرا ندموا وعادوا إلى طريق الله . كالابن الذى عندما سمع دعوة أبيه قال « ما أريد » ، لكنه ندم أخيرا ومضى .

والمدخل إلى الفهم الصحيح لهذا المثل أنه لا يمدح أحدا فى الواقع . إنه يضع أمامنا صورة لنوعين رديئين من الناس ، ومع ذلك فنوع كان أفضل من الثانى . وفى القصة لا نجد واحدا من الابنين يدخل البهجة والفرح إلى قلب أبيه ، وكل منهما لم يصل إلى الإرضاء الكامل لأبيه . إن الابن المثالى هو الذى يسمع وصية أبيه باحترام وتقدير ، ويقوم بتنفيذ أمره دون تأخير أو تردد .. لم يكن أحد الابنين مثاليا ، ولكن الذى ندم وأطاع فى النهاية صار أفضل بكثير ممن لم يطع ...

على أن هذا المثل يحمل لنا عدة دروس أبعد من هذا المعنى المباشر .

فإنه يوضح لنا أن هناك نوعين من الناس فى هذا العالم . النوع الأول يظهر بأقواله أفضل مما

يقدم بأفعاله . إن أمثال هؤلاء الناس يسرعون بالتعهدات والعزائم ويظهرون صورة رائعة فى الغيرة والحماسة والتقوى والولاء .. ولكن أفعالهم تتأخر كثيرا عن مستوى كلامهم .

النوع الثانى تفوق أعماله أقواله . فهؤلاء تبدو عليهم الخشونة والغلاظة والعناد ، لكنهم يقومون بأعمال كثيرة من أعمال الخير والرحمة فى الخفاء ، كأنهم يخجلون منها .

وقد يظهر عليهم أنهم لا يهتمون بالدين ، ولكنهم فى الواقع يعيشون حياة أقرب إلى المسيحية ، عمن يعلنون أنهم مسيحيون ...

ولعلنا تقابلنا مع أفراد من هذين النوعين من الناس : من تفوق أقوالهم أعمالهم ، ومن تفوق أعمالهم أقوالهم ... والحقيقة أن كلا النوعين ردىء .. وبينما نفضل النوع الثانى على الأول ، لكن الأفضل هو أن تتفق المظاهر الطيبة مع الأفعال الطيبة .

كما أن هذا المثل يوضح لنا أن الوعود لا يمكن أن تحل محل الأفعال ... وأن الكلمات الطيبة لا يمكن أن تكون بديلا عن الأعمال الطيبة . فالابن الذى قال « ها أنا ياسيد » ولم يذهب ، كان مؤدبا فى الكلام ، فقد قال لأبيه « ياسيد » . ولكن التأدب الذى لا يتعدى الألفاظ مجرد وهم وخداع — أما التأدب الصحيح فهو الطاعة برضى وسرور . وفى الوقت عينه يعلمنا المثل أن الإنسان يمكنه أن يفسد عملا طيبا بالكيفية التى يؤديه بها ... فإن الإنسان وهو يقوم بعمل صالح ، يفسد جزءا من جمال فعله إذا كان يقبل تأدية العمل على مضض ودون رضى وسرور .

إن الطريق المسيحى هو طريق العمل لا الكلام ... وأسلوب المسيحى فى العمل هو الطاعة بسرور ورضى وسخاء .

الكرم والكرامون

(متى ٢١ : ٣٣ — ٤٦)

من المبادىء المتبعة فى تفسير الأمثال ، أن المثل يحتوى على فكرة واحدة يريد قائل المثل توضيحها ، وأنه بعد الوصول إلى هذه الفكرة لا ينبغى محاولة البحث عن مدلول لباقى التفاصيل فى المثل .

ويخطىء بعض المفسرين عندما يحاولون أن يجدوا تفسيرا ومدلولا لكل التفاصيل فى الأمثال ، لأنهم بذلك يعتبرون المثل ، قصة رمزية ... أما فى هذا المثل بالذات ، فالحال مختلف ، ففيه لكل تفصيل مدلول ومعنى ، ولقد فهم رؤساء الكهنة والفريسيون ما أراد المسيح أن يوجهه إليهم عن طريق هذا المثل .

وقد كانت قصة هذا المثل فى كل أجزائها ، مبنية على أحداث وظروف واضحة ومفهومة جدا عند الذين كانوا يسمعونه ، فإن تشبيه الأمة اليهودية بأنها كرم الرب تشبيه معروف وشائع فى النبوات « إن كرم رب الجنود هو بيت إسرائيل » (إشعياء ٥ : ٧) .

وقد كانت العادة أن يحاط الكروم بسياج كثيف من الأشواك ، ليمنع الحيوانات المتوحشة من

إفساد الكرم ، وليمنع اللصوص من سرقة العنب ، وكان لكل كرم معصرة ، وكانت تتكون من حوضين أوجرنين منحوتين فى الصخر أو بالطوب ، أحدهما أعلى من الآخر ، وبين الاثنين قناة . وكان العنب يعصر فى الحوض الأعلى ويسيل العصير إلى الحوض الثانى

وفى كل كرم برج ، يسكن فيه العاملون فى الكرم ، ويستخدم لحراسة الكرم وقت الأثمار .

وفى وقت حياة السيد المسيح على الأرض ، كانت بلاد فلسطين عديمة الاستقرار ، لا تتوفر فيها الكماليات ، لذلك كان من المألوف أن يترك أصحاب الحقول والكروم أراضيهم لمن يقومون بزراعتها والعناية بها مقابل نصيب معين من الثمار أو مبلغ من المال ...

وحتى تصرف الكرامين لم يكن شيئا شاذا . ففى ذلك الوقت كان العمال متذمرين وثائرين ، ولم يكن تفكيرهم فى قتل الابن أمرا لا يخطر على بال .

ولعل جميع الذين سمعوا ذلك المثل ، عرفوا مدلوله . فالكرم هو الأمة اليهودية ــ وصاحب الكرم هو الله ــ والكرامون هم القادة الدينيون للأمة اليهودية ، الذين كلفهم الله برعاية هذه الأمة روحيا ــ والعبيد الذين أرسلهم صاحب الكرم هم الأنبياء ، الذين رفضهم اليهود وقتلوهم . والابن الذى أرسله صاحب الكرم أخيرا هو يسوع المسيح نفسه .

فى هذا المثل نستطيع أن نرى صورة واضحة لتاريخ الأمة اليهودية ومصيرها القاتم .

امتياز ومسئولية :

١ ــ هذا المثل يحدثنا عن الله :

(أ) يحدثنا عن **ثقة الله** فى الناس ، فقد سلم صاحب الكرم إلى الكرامين هذا الكرم ، ولم يقف ليكون رقيبا عليهم بل تركهم ليباشروا عملهم . إن الله إذ يكلف الناس بأن يعملوا فى كرمه يثق فيهم . وكل الأعمال التى يدعونا إليها الله ، هى بتكليف منه .

(ب) وهو يحدثنا عن **صبر الله** . فقد أرسل لهم السيد رسولا تلو الآخر ، ولم يأت سريعا منتقما بمجرد أن أساءوا إلى عبد واحد من عبيده ، لكنه أعطاهم الفرصة تلو الفرصة ليستجيبوا لرغبته ودعوته ... هكذا نرى الله فى معاملته لشعبه الساقط فى الخطية ، إنه لا يهلكهم سريعا ، ولكنه يمنحهم فرصة بعد أخرى .

(ج) وهو يحدثنا عن **دينونة الله** . ففى النهاية أخذ السيد الكرم من الكرامين ، وأعطاه لآخرين . وأقسى دينونة ينالها الإنسان من الله ، هى عندما يأخذ الله من الإنسان العمل الذى كان عليه أن يعمله . إن أدنى درجة ينحدر إليها الإنسان هى عندما يصير بلا نفع بالنسبة لله .

٢ ــ هذا المثل يحدثنا عن الناس :

(أ) فهو يحدثنا عن **امتياز الانسان** . فقد كان الكرم معدا كامل الإعداد : بالسياج والمعصرة والبرج ، الأمر الذى يجعل مهمة الكرامين سهلة ميسورة ، لكى يقوموا بها على أكمل وجه . إن

الله لا يكتفي بأن يعطينا عملا لنعمله ، لكنه يرتب لنا الوسائل التي نعمله بها .

(ب) وهو يحدثنا عن **حرية الإنسان** . فقد ترك السيد للكرامين الحرية أن يهتموا بالكرم كيفما شاءوا ، فهو ليس ظالما قاسيا ، بل هو قائد حكيم ، يترك الفرصة والحرية للإنسان ليعمل .

(ج) وهو يحدثنا عن **محاسبة الإنسان** ، فلكل الناس سيأتي يوم الحساب ، ونحن نقدم حسابا عن الكيفية التي قمنا بها ، بالأعمال التي أسندها الله إلينا .

(د) وهو يحدثنا عن **خطية الإنسان المقصودة** ، فقد تعمد الكرامون في المثل أن يتخذوا لأنفسهم سياسة المقاومة ، والعصيان تجاه سيدهم . إن الخطية هي مقاومة الله المتعمدة ، هي اختيار طريقنا الذاتي بينما نعلم يقينا ما هو طريق الله .

٣ ــ وهذا المثل يحدثنا عن يسوع :

(أ) فهو يحدثنا عن **إعلان يسوع عن ذاته** ، فإن يسوع هنا يميز نفسه تماما عن الأنبياء ، ويرفع نفسه عن سلسلة الأنبياء . إن الذين أرسلوا أولا كانوا عبيد الله . أما هو فابن الله . وفي هذا المثل ترى يسوع يعلن بوضوح أنه يمتاز ويختلف عن أعظم الذين أتوا قبله .

(ب) وهو يحدثنا عن **تضحية يسوع** ، فمن المثل يظهر لنا أن يسوع كان يعلم تماما ما كان ينتظره ، ففي المثل قتلت أيدي الأشرار الابن .. وكان يسوع يعلم أنه سيموت . فلم يمض يسوع إلى الموت مرغما ، لكنه مضى راضيا مختارا بعيون مفتوحة نحو الصليب .

صورة الحجر :

يختم هذا المثل بصورة الحجر . وهنا نرى صورتين للحجر :

١ ــ الصورة الأولى واضحة ، فهي صورة الحجر الذي رفضه البناؤون والذي صار أهم حجر في البناء كله . وهي مأخوذة من مزمور ١١٨ : ٢٢ « الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية » ، وفي الأصل كان المرنم يقصد به صورة للأمة اليهودية . فقد كانت الأمة اليهودية محتقرة ومخذولة ، وكان جميع الناس يكرهون اليهود ، وقد كانوا عبيدا وخداما لعدد كبير من الأمم . ورغم ذلك كانت هذه الأمة المكروهة من الناس ، شعب الله المختار ..

لقد أخذ يسوع هذه الصورة ، ووصف بها نفسه :

ففي شخص المسيح تحققت كل الآمال التي توقعتها الأمة اليهودية . وقد يرفض الناس المسيح ويكرهونه ويحاولون إبعاده عن حياتهم ، لكنهم في النهاية يجدون هذا الذي رفضوه هو أهم شخصية في العالم . لقد أراد (جوليان) الإمبراطور الروماني ، أن يمحق المسيحية ويفنيها ويعيد إلى العالم عبادة الآلهة الوثنية ، لكنه فشل تماما ، وأخيرا قال إنه لم يستطع أن يهزم المسيح . إن المصلوب ، صار ديان العالم وملك العالم .

٢ ــ والصورة الثانية هي صورة الحجر الذي يحطم الإنسان . من سقط على هذا الحجر ،

يترضض ، ومن سقط الحجر عليه يسحقه . وهى صورة مركبة ، ففى العهد القديم ثلاث صور لأحجار ، نراها هنا مركبة معا ، الأولى فى (إشعياء ٨ : ١٣ ــ ١٥) .

« قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم . ويكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لبيتى إسرائيل ، وفخا وشركا لسكان أورشليم . فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون ويعلقون فيلقطون » .

والصورة الثانية فى (إشعياء ٢٨ : ١٦) « هأنذا أؤسس فى صهيون حجرا حجر امتحان ، حجر زاوية كريما أساسا مؤسسا » . والصورة الثالثة فى(دانيال ٢ : ٣٤ و ٤٤ و ٤٥)« كنت تنظر إلى أن قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما .. وفى أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبدا ، وملكها لا يترك لشعب آخر ، وتسحق وتفنى كل هذه الماللك وهى تثبت إلى الأبد . لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب » .

والفكرة الكامنة وراء هذه الصور أن العهد القديم يذكر لنا هذه الصور عن الحجر ، وكلها تتحقق فى شخص المسيح . فهو حجر الزاوية الذى عليه يبنى كل البناء والذى يربط أجزاء البناء معا ، ومن يرفضه يصدم رأسه بناموس الله ومن يتحداه يسحق تماما ...

ولئن بدت هذه الصور غريبة على أسماعنا ، لكنها كانت شيئا مألوفاء .

الأصحاح الثانى والعشرون

فرح ودينونة

(متى ٢٢ : ١ ــ ١٤)

فى الأعداد من ١ ــ ١٤ لا نجد مثلا واحدا بل مثلين . ونحن نستطيع أن ندرك المعانى بكيفية أيسر واكمل إذا درسنا كل مثل على حدة .

والحوادث التى تجرى فى هذا المثل ، وتطابق ما كان يحدث عادة فى حفلات العرس اليهودية . فالدعوة ترسل أولا لحضور العرس ، دون تحديد موعد معين ، ثم بعد تجهيز كل شيء ، يرسل صاحب العرس عبيده ومعهم إخطار للمدعوين أن موعد الدعوة قد جاء ــ فالملك ، فى هذه القصة ، كان قد سبق وأرسل دعوته إلى المدعوين منذ زمن طويل ، ولما جاء الموعد ، وتم اعداد كل شيء ، أرسل عبيده بالإخطار بالموعد ، وهنا واجه حالة الرفض والشتم . ولهذا المثل معنيان :

١ ــ المعنى الأول معنى خاص ، وهو رسالة مباشرة إلى الشعب اليهودى ، كما عبر عنها يسوع فى مثل الكرامين الأردياء . فالمدعوون الذين وجهت إليهم الدعوة ورفضوا الحضور هم اليهود ... وقد سبق الله ودعاهم منذ زمن طويل ليكونوا الشعب المختار ، لكن عندما جاء ابن الله إلى العالم ، وجاءتهم الدعوة أن كل شيء أصبح معدا للوليمة ، وعليهم أن يتبعوا يسوع ويقبلوه ، رفضوا الدعوة باحتقار ... فانتقلت دعوة الله إلى مفارق الطرق لتدعو العابرين وهم الخطاة والأمم الذين لم يتوقعوا أبدا أن تكون لهم هذه الدعوة إلى ملكوت الله .

ويعتقد البعض أن العدد السابع ــ الذى يشير إلى إرسال الملك جنوده ليحرق مدينة أولئك القائلين ــ لا ينسجم مع بقية المثل ، لأنه من غير المعقول أن الملك فى وقت الوليمة والعرس ، يرسل جنوده ليحرق مدينة المدعوين . ويظن بعض الشراح أن هذه العبارة تفسير من متى البشير ، الذى كتب بشارته بين سنة ٨٠ ، ٩٠ ميلادية ، بعد أن كان تيطس الرومانى قد جاء مع جنوده فعلا فى عام ٧٠ الميلادى وأحرق مدينة أورشليم ، والهيكل ، ولم يبق حجرا على حجر فيها [١] .

والواقع أنه لو أن اليهود كانوا قد قبلوا طريق المسيحية ، وسلكوا فى المحبة والتواضع والتضحية ، لاستطاعوا أن يتغلبوا على روح التمرد والثورة التى أثارت غضب روما ، ولاستطاعوا أن يتجنبوا الخراب الذى حل بهم .

٢ ــ أما المعنى الثانى للمثل ، فهو معنى عام .

(أ) إنه يذكرنا أن دعوة الله إنما هى دعوة إلى وليمة مفرحة كوليمة العرس . الله يدعونا للبهجة

---

(١) على أننا نرى أنه من المحتمل أن يكون المثل بنصه قد جاء على فم السيد المسيح ، الذى أشار فى وقت دخوله المنصور عن هذه الأحداث التى ستحدث فى أورشليم ، ولا يستبعد أنه يوجه هنا تحذيرا آخر إلى أورشليم وسكانها (المترجم).

والسرور . والذين يظنون أن المسيحية معناها العبوس والابتعاد عن كل أسباب الضحك والسرور وإشراق الشمس وشركة المحبة والتسلية ، يخطئون فى فهم المسيحية .. فالمسيحية دعوة إلى الفرح ، ومن يرفضها يحرم من هذا الفرح .

(ب) وهو يذكرنا أن ما يعطل الإنسان عن قبول دعوة المسيح ، ليس من الضرورى أن يكون شيئا رديئا فى ذاته . فهناك من عطله حقله ، وهناك من عطلته تجارته عن قبول الدعوة . وكل منهما لم يتعطل بسبب شيء خارج عن الأدب أو الأخلاق ، بل كانا يهتمان بأعمالهما العادية فى الحياة . ومن السهل كثيرا أن ننشغل بأمور هذا الزمان حتى ننسى أمور الأبدية ، وأن تمتلكنا الأشياء المنظورة ، حتى ننسى الأشياء غير المنظورة ، وأن تطغى أصوات هذا العالم عن أسماعنا حتى لا نسمع دعوة يسوع الرقيقة .

إن مأساة الحياة هى أن بعض الأشياء الطيبة فى هذه الحياة ، تمنعنا عن الأشياء الأفضل ، وأن بعض الأمور النافعة تمنعنا عن الأنفع . وقد ينشغل إنسان فى لقمة العيش حتى ينسى أن يعيش ، أو تشغله مشاغل الحياة عن التمتع بالحياة نفسها .

(ج) وهو يذكرنا أن أعظم خسارة نخسرها عندما نرفض دعوة المسيح ، هى حرماننا من الوليمة . فإن حرمان أولئك المدعوين من بهجة الشركة فى العرس ، كان أقسى من العقاب الذى نالوه . ونحن إذا رفضنا طريق المسيح ، فسوف نشعر فى يوم ما أن أشد ما يؤلمنا ليس ما نعانيه ، بقدر ما نحس به من حرمان من ميزات وبركات فقدناها .

(د) وهو يذكرنا أن دعوة الله لنا هى دعوة النعمة . فالذين كانوا فى الطرق والسياجات لا حقوق لهم عند الملك على الإطلاق ، و لم يكن يخطر ببالهم أبدا أن ينالوا هذا الشرف ، و لم يكونوا يستحقون ذلك أبدا . لكن كرم الملك ورضاه ونعمته هى التى فتحت أمامهم هذا الباب . فالنعمة هى صاحبة الدعوة ، والنعمة هى التى جذبت الناس إلى الملكوت .

هذا هو المثل الثانى الذى يورده السيد المسيح فى هذا الجزء ، ويعتبر امتداد وتوسعا للمثل الأول .

ولعله من المثير للاهتمام أن نعرف أن يسوع ، كان يأخذ بعض القصص الشائعة المعروفة عند اليهود ، ويستخدمها بطريقته الخاصة ليعبر بها عن الحقائق التى يريد شرحها وإظهارها . وكانت توجد عند الربيين (معلمى اليهود) قصتان قريبتا الشبه بقصة هذا المثل .

القصة الأولى تحكى عن ملك دعا ضيوفا إلى وليمة ، دون أن يخبرهم بموعدها المحدد ، ولكنه طلب من المدعوين أن يغتسلوا ويتدهنوا ويرتدوا ملابسهم ليكونوا مستعدين عند إرسال اخطار الموعد لهم . فظن الجهال منهم أن الإعداد للوليمة سيتطلب وقتا طويلا ، وأنهم سيشعرون بهذا الاستعداد فيسرعون بارتداء ملابسهم ويعدوا أنفسهم للوليمة . لذلك ذهب البناء إلى عمله ، والخزاف إلى حرفته ، والحداد إلى مطرقته .. أما الحكماء فأعدوا أنفسهم فى الحال ولبثوا فى انتظار الميعاد .

وجاء الإخطار بالموعد فجأة ، فأسرع الحكماء ليجلسوا مع الملك يأكلون ويشربون . أما الجهال

الذين لم يعدوا نفوسهم ، اضطروا أن يقفوا خارجا ، فى جوع وحزن وأسف ، يتطلعون إلى البهجة والمتعة التى فقدوها .

وكان معلمو اليهود يتخذون هذه القصة لتعليم الناس واجب الاستعداد الدائم لدعوة الله ، والملابس فى القصة تشير إلى الاستعداد الروحى المطلوب .

والمثل الثانى الذى كان يستخدمه معلمو اليهود يحكي قصة ملك ، استودع أردية ملكية عند عبيده . فأخذ كل من الحكماء رداءه ، واحتفظ به فى مكان أمين ليحتفظ برونقه وبهائه ونظافته . أما الجهال فلبسوا هذه الملابس وهم يعملون أعمالهم العادية فاتسخت .

وجاء اليوم الذى طلب فيه الملك هذه الملابس ، فقدم الحكماء ملابسهم نظيفة جديدة ، فوضعها الملك فى خزانته وصرفهم بسلام . أما الجهال فقدموا إليه الملابس متسخة بالية ، فأرسلها الملك لتنظيفها وأمر أن يوضع العبيد الجهال فى السجن .

وقد كان معلمو اليهود يستخدمون هذا المثل ليعلموا الناس أن من واجبهم أن يعيدوا إلى الله نفوسهم — عندما يطلبها — نقية طاهرة كما أعطاها الله لهم . أما صاحب النفس المتسخة الملطخة فإنه يستحق الدينونة .

وغالبا كانت هاتان القصتان فى فكر السيد المسيح عندما نطق بهذا المثل فماذا كان قصده من المثل ؟

كما رأينا المثل السابق ، هناك درس خاص وقتى ، ودرس عام دائم .

١ — أما الدرس الخاص ، فإن يسوع كان قد ذكر أن الملك يدعو الناس من مفارق الطرق ليملأ الوليمة من البشر . هذا هو الباب المفتوح ، الذى يدخل منه الأمم والخطاة إلى الملكوت . لكن هذا المثل الأول كان يحتاج إلى مثل آخر يكمله . فالباب فعلا مفتوح لجميع الناس ، لكن الناس عندما يدخلون ينبغى أن تكون لهم حياة تتناسب مع المحبة التى أظهرت لهم . إن النعمة ليست مجرد هبة ، بل هى مسئولية أيضا ، والإنسان لا يقدر أن يستمر فى حياته كما كان قبل أن يلتقى بالمسيح . بل يجب أن يلبس نقاء جديدا وقداسة جديدة وصلاحا جديدا . إن الباب مفتوح ، لكنه ليس مفتوحا ليدخل فيه الخاطىء ويظل فى خطيته ، بل ليدخل الخاطىء فيصير قديسا .

٢ — أما الدرس العام الذى يقدمه لنا هذا المثل ، فهو أن أسلوب الإنسان عندما يتقدم إلى شىء ما يعبر عن الروح التى يتقدم بها . فنحن لا نذهب لزيارة صديق بالملابس التى نلبسها فى داخل البيت أو فى الحديقة ، مع أننا نعلم أن الصديق الذى سنزوره لا يهتم بالملابس ، لكن داعى الاحترام يتطلب منا أن نزور الصديق بملابس مناسبة ، لأن ما تظهر به أمامه يدل أحيانا كثيرة على تقديرنا للصديق .

هكذا يكون موقفنا من بيت الله .. وليس المقصود بهذا المثل الملابس المادية التى نرتديها عند الذهاب إلى الكنيسة ، بل ما تكتسى به عقولنا وقلوبنا وأرواحنا ونحن ذاهبون إلى بيت الله ، فهناك

لباس الانتظار ، ولباس التوبة المتواضعة ، ولباس الإيمان ، ولباس الاحترام — كلها ضرورية لنلبسها ونحن نقترب إلى الله .

إننا كثيرا ما نذهب إلى بيت الله دون استعداد روحى ... ولو أن كل عابد ذهب إلى الكنيسة بعد صلاة وتأمل وإعداد روحى ، فإن العبادة تصير بركة عظيمة تغير حياة الكنيسة وحياة العالم .

الحق الإنسانى والحق الإلهى

(متى ٢٢: ١٥ — ٢٢)

رأينا يسوع إلى هذه اللحظة فى جانب الهجوم على قادة الدين اليهودى . فقد نطق بثلاثة أمثال تدينهم . فى مثل الابنين (متى ٢١ : ٢٨ — ٣٢) يظهر قادة اليهود فى صورة الابن الذى أظهر طاعة كلامية لا عملية . وفى مثل الكرامين الأردياء (متى ٢١ : ٣٣ — ٤٦) أشار إليهم بوضوح وذكر أن ملكوت الله سينزع منهم . وفى مثل عرس ابن الملك (متى ٢٢ : ١ — ١٤) كانوا هم المدعوين الذين رفضوا الدعوة واستحقوا العقاب .

وهنا نرى قادة اليهود يبدأون هجومهم المضاد ، بتوجيه أسئلة مدروسة بعناية ليجيب يسوع عنها علنا . فقد كانوا يقدمون أسئلتهم أمام الملأ بينما كانت الجموع ترى وتنصت لتسمع بما سيجيب . وكان الهدف من ذلك أن يتمسكوا عليه بكلمة تدينه أمام الشعب .

وهنا نرى سؤال جماعة الفريسيين ، وقد كان سؤالا ماكرا وضعوه بكيفية ذكية خبيثة . كانت فلسطين محتلة وخاضعة للدولة الرومانية ، وكان السؤال « أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ » .

كانت الحكومة تحصل على ثلاثة أنواع من الضرائب :

١ — ضريبة الأرض وهى عبارة عن عشر محصول الحبوب وخمس إنتاج الزيت والخمر . كان جزء من هذه الضريبة يقدم عينيا والبعض الآخر يقدم بمقدار ما يساويه من المال .

٢ — ضريبة الدخل وهى ما يعادل واحد فى المائة من دخل الشخص .

٣ — ضريبة الرأس وهى دينار ، يدفعه كل ذكر تجاوز سن الرابعة عشرة من عمره ، إلى سن الخامسة والستين ، وتدفعه كل أنثى من سن الثانية عشرة إلى الخامسة والستين . وقد كان هذا الدينار ، ويطلق عليه « معاملة الجزية » يساوى أجر عامل فى يوم واحد — وكانت هذه الضريبة هى موضوع سؤال الفريسيين والهيرودسيين .

وقد أوقع هذا السؤال يسوع فى موقف محير . فلو قال بجواز دفع الجزية لقيصر ، فإنه سيفقد عطف وتقدير كثيرين من الشعب ، لأن كثيرين كانوا يتضررون من دفع الجزية ، لا باعتبارها ضريبة فحسب ، بل على أساس دينى . فإن اليهود يعتبرون أن حاكمهم وملكهم الوحيد هو الله ، وأمتهم ثيوقراطية يحكمها الله ، لذلك فإن دفع الجزية لملك أرضى يعتبر اعترافا منهم بملكه ، ويكون ذلك إهانة لله . لذلك اعتقد المتعصبون من اليهود أن دفع الجزية لملك أجنبى خطأ .

ولو أن يسوع قال بعدم جواز دفع الجزية لقيصر ، فإن السلطات الرومانية تعتقله بحسبانه مثيرا فتنة فى الشعب .

كان يسوع فى موقف لا يحسد عليه . ومن العجيب أن الفريسيين والهيروديسيين اتحدوا معا فى هذا الهجوم رغم اختلاف الجماعتين اختلافا ظاهرا فى المعتقدات السياسية . فقد كان الفريسيون يعارضون فى تقديم الجزية لملك أجنبى ويعتبرون ذلك تعديا على حق الله — أما الهيرودسيون فقد كانوا فى جانب هيرودس ملك الجليل ، الذين يدينون بالولاء والسلطة لقيصر ، وكانوا يتعاونون معه .. لذلك فإن اتفاق الفريسيين مع الهيرودسيين كان أمرا غريبا ، ولم يجمعهم إلا كراهيتهم الشديدة ليسوع ، ورغبتهم المشتركة فى التخلص منه .

وقد صار موضوع دفع الجزية فيما بعد مثار جدل تاريخى . فقد كتب متى بشارته بين عام ٨٠ و ٩٠ الميلادى ، وفى ذلك الوقت كان الهيكل قد هدم عند خراب أورشليم سنة ٧٠ م ، وكان من واجب اليهودى أن يدفع ضريبة النصف شاقل للهيكل ما دام الهيكل موجودا . ولكن بعد هدم الهيكل ، قررت الحكومة الرومانية أن يدفع اليهود ضريبة الهيكل إلى هيكل الإله جوبيتر فى روما ، وقد كان هذا القرار غصة فى حلق اليهود ، لذلك كان موضوع الجزية مثار جدل فى زمن المسيح ، وكذلك فى تاريخ الكنيسة المسيحية الأولى .

فى معالجة هذا الموضوع ، نرى حكمة يسوع الفذة ، فقد طلب أن يرى دينارا ، وعلى كل دينار كانت صورة رأس الإمبراطور .

وكان الملوك فى القديم يعتبرون صك النقود علامة ملكهم ، وسرعان ما يعتلى أحدهم العرش حتى يصك نقودا عليها صورته واسمه . وحتى أدعياء الملك كانوا يسرعون بصك النقود بأسمائهم ، إذ كانت العملة تعتبر ملكا لمن عليها صورته .

وقد سأل يسوع : لمن هذه الصورة والكتابة ، فكان الجواب الطبيعى أنها لقيصر . ثم جاء بعد ذلك جوابه المشهور « أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » .

إن حكمة يسوع الفريدة جعلته لا يضع تشريعات وقوانين محددة ، لذلك تعتبر تعاليمه صالحة لكل زمان ، ولا تبلى أو تتقادم مع مرور الزمان ، ذلك لأنه كان يضع مبادىء عامة ، يمكن لكل عصر أن يفهمها ويضع القواعد والقوانين التى تتفق مع هذه المبادىء .

وفى هذا الجواب يضع يسوع أحد المبادىء الهامة ، عن حق الله وحق الإنسان فى حياة البشر ، فالمسيحى يحمل فى قلبه الولاء لوطنه الأرضى ، ووطنه السماوى . فهو مواطن فى دولة على الأرض ، وهو مدين لهذا الوطن بالكثير . فسلامته وأمنه ترعاهما الدولة من العابثين ، والدولة تقدم له الخدمات العامة مثل توفير المياه ، والإضاءة . والرعاية الصحية ، والتعليم ، وفتح باب العمل أمامه ، وتأمين مستقبله وشيخوخته .

إن كل هذه الخدمات تجعل المسيحى مدينا بالكثير للدولة ، وبحسبان المسيحى رجلا شريفا ، ينبغى عليه أن يكون مواطنا صالحا مسئولا ، وفشله فى أن يكون مواطنا صالحا يعتبر فشلا فى واجبه المسيحى ... ولو أن المواطنين المسيحيين المشهود لهم بالأمانة والاستقامة رفضوا أن يقوموا بواجبهم نحو وطنهم ، فإن الوطن يصاب بضرر كبير — لذلك فمن واجب المسيحى أن يؤدى واجبه نحو

قيصر ، مقابل الامتيازات التى يقدمها له قيصر .

وفى الوقت عينه ، للمسيحى وطن سماوى ، فهناك أمور تتعلق بضميره ، ودينه ، ومبادئه ، وهو مسئول عنها أمام الله . ويمكن أن ولاء المسيحى للوطن ، لا يتعارض مع ولائه لله . ولكن إذا حدث واقتنع المسيحى أن أمرا ما يخالف ما يستريح إليه ضميره ، فمن واجبه أن يرفض عمله . إلا أن المسيح لم يضع حدودا معينة تبين لنا الحد الذى يفصل بين الولاء للوطن ، وهو أمر متروك للضمير المسيحى — على أن المسيحى ينبغى أن يكون دائما محكوما بوازعه المسيحى أن يكون مواطنا صالحا وأن يرجو خير الوطن ، وفى الوقت عينه يطلب تقدم ملكوت الله ، واثقا أن روح الله سيرشده حتما فى كل موقف إلى الاتجاه الذى يتخذه فى هذا السبيل ، ليرضى الناحيتين ، كما قال بطرس الرسول :

« خافوا الله — أكرموا الملك » (١ بطرس ٢ : ١٧)

إله حى لأناس أحياء

(متى ٢٢ : ٢٣ — ٣٣)

عندما قام الفريسيون بهجومهم المضاد وأسكتهم يسوع ، استأنف جماعة الصدوقيين المعركة . ولاشك أن الصدوقيين أبهجتهم هزيمة الفريسيين ، لأن الجماعتين كانتا متعارضتين فى المبادىء والآراء .

لم يكن عدد الصدوقيين كثيرا ، لكنهم كانوا أغنياء ، وكانوا يمثلون الطبقة الأرستقراطية (طبقة الأعيان) الحاكمة .

وكان رؤساء الكهنة من الصدوقيين . أما فى السياسة فكانوا على استعداد للتعاون مع الحكومة الرومانية ، إذا كان الثمن هو الاحتفاظ بامتيازاتهم — وفى الفكر كان ذهنهم متفتحا للثقافة اليونانية ، ولكنهم من ناحية المعتقد اليهودى كانوا يرفضون شريعة الكتبة الشفوية التى كان الفريسيون يعتبرونها من أهم الأمور ، كما وأنهم لم يؤمنوا إلا بأسفار موسى الخمسة ، أما سائر الكتب والأنبياء فلم يعتبرونها وحيا . وكان ابرز خلاف لهم مع الفريسيين أنهم لم يكونوا يؤمنون بالحياة بعد الموت ، ولا بالملائكة ، لذلك اعتبرهم الفريسيون بعيدين عن الله تماما لأنهم لم يؤمنوا بالقيامة .

وقد طالب الصدوقيون أن يبرهن لهم الفريسيون على الحياة بعد الموت ، من أسفار موسى الخمسة ، وحاول الفريسيون أن يجدوا هذا البرهان . ومن المناسب أن ندرس البراهين التى أوردها الفريسيون فى هذا السبيل :

(أ) ذكر الفريسيون ما جاء فى (عدد ١٨ : ٢٨) « تعطون منها رفيعة الرب لهرون الكاهن » — وفسروا ذلك بالقول إن هذه وصية دائمة ، والفعل « تعطون » فى صيغة المضارع ، لذلك فهرون لا يزال حيا ؛

(ب) كما أشاروا إلى ما جاء فى (تثنية ٣١ : ١٦) « فيقوم هذا الشعب » — ولكن هذا

البرهان غير مقنع لأن الآية الكاملة هكذا « ها أنت ترقد مع آبائك فيقوم هذا الشعب ويفجر وراء آلهة الأجنبيين فى الأرض التى هو داخل إليها » .

(ج) كما أشاروا إلى ما جاء فى (تثنية ٣٢ : ٣٩) « أنا أميت وأحيى » .

(د) ومن خارج الأسفار ذكروا ما ورد فى (اشعياء ٢٦ : ١٩) « تحيا أمواتك . تقوم الجثث » .

ونحن نلاحظ أن الأدلة التى أوردوها خاصة من الأسفار الخمسة ، ليست براهين قوية .

لكن الفريسيين كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا بالقيامة ، وكانوا يناقشون أدق التفاصيل وأكثرها غموضا مثل : هل يقوم الإنسان مرتديا ملابس أم لا ؟ وإن كان مرتديا ملابس ، فهل هى الملابس التى مات فيها أم غيرها — ويستخدمون من قصة عرافة عين دور الواردة فى (صموئيل الأول ٢٨ : ١٤) والتى فيها طلب شاول إخراج روح صموئيل النبى من العرافة ، ويبرهنون من هذه القصة على أن الناس بعد الموت يحتفظون بملامحهم التى كانت لهم فى هذا العالم . ومن نقاط جدلهم قولهم إن الإنسان بعد القيامة يحتفظ بالعلامات المميزة والعاهات التى كانت له قبل الموت ، وإلا فلا يكون الشخص هو نفسه الذى قام .

وقد اعتقد الفريسيون أن جميع اليهود سيقومون فى أرض فلسطين ، الأرض المقدسة ، وقد فسروا ذلك بأنه توجد فجوات تحت الأرض ، وإذا مات يهودى خارج بلاد فلسطين ودفن هناك ، فإن جسده سينتقل عن طريق هذه الفجوات إلى أن يصل إلى أرض فلسطين .

وخلاصة القول إن الفريسيين اعتقدوا اعتقاداً راسخا فى القيامة بعد الموت ، بينما أنكرها الصدوقيون تماما .

وقد قدم الصدوقيون سؤالهم ظانين أنه يحول مسألة قيامة الأجساد إلى مجرد افتراض غامض غير مفهوم . فقد كانت هناك عادة عند اليهود أنه إذا مات رجل دون أن ينجب أطفالا ، يلتزم أخوه أن يتزوج امرأته ليقيم نسلا لأخيه . وقد وردت هذه الشريعة فى سفر التثنية ولكن لا يعلم أحد مقدار شيوع هذه العادة فى زمن المسيح . تقول الشريعة « إذا سكن إخوة معا ومات احد منهم وليس له ابن فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبى . أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب أخى الزوج . والبكر الذى تلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من إسرائيل — وإن لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ وتقول قد أبى اخو زوجى ان يقيم لأخيه اسما فى إسرائيل . لم يشأ أن يقوم لى بواجب أخى الزوج . فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه ، فإن أصر وقال لا أرضى أن اتخذها ، تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق فى وجهه ، وتصرخ وتقول هكذا يُفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه . فيدعى اسمه فى إسرائيل بيت مخلوع النعل » (تثنية ١٥ : ٥ — ١٠) .

والسؤال الذى قدمه الصدوقيون سؤال افتراضى عن زوجة تزوجها سبعة اخوة وماتوا دون أن ينجبوا ، ثم ماتت المرأة ، وهم يتساءلون : لمن تكون هذه الزوجة فى القيامة ؟

وأجاب المسيح بأن وضع مبدأ أساسيا ، وهو أن الأساس الذى بنى عليه الصدوقيون هذا السؤال خطأ ، لأنهم يفكرون أن السماء مثل الأرض ، ويفكرون فى الأبدية ويقيسونها بمقاييس عالم الزمان — وكان الجواب يتضمن أن من يقرأ الكتاب المقدس يرى تفاهة سؤال الصدوقيين لأن السماء ليست استمرارا للحياة الأرضية ، بل هناك علاقات جديدة تسمو على كل العلاقات الجسدية فى الأرض . وهذا راجع إلى قوة الله فى التغيير والإبداع ... فالجميع فى السماء يكونون كملائكة الله ، والله الذى خلق الإنسان جسدا ماديا ، يستطيع أن يقيمه جسدا روحانيا ، لا يتزوج ولا يأكل ولا يشرب ...

ثم ابتدأ يسوع يرد على اعتراض الصدوقيين وادعائهم أنه لا توجد أدلة على قيامة الأجساد فى أسفار موسى الخمسة . فأشار إلى اللقب الشائع عن الله فى أسفار موسى وهو أنه « إله إبراهيم ، وإله إسحق ، وإله يعقوب » — إن الله لا يمكن أن يكون إله أموات ، وأجساد بالية متحللة ، فالإله الحى ، لابد أن يكون إلها لأناس أحياء .. كان الصدوقيون يؤمنون أن الله حى ، فلابد أن يكون إلها لأحياء ... فإبراهيم وإسحق ويعقوب أحياء ...

هكذا أفحم يسوع الصدوقيين ، وفعل ما عجز عنه أحكم الربيين (المعلمين اليهود) وأظهر أنه توجد حياة بعد الموت لكنها حياة لا تقارن بحياة الأرض ، وليست استمرارا لها ، لكنها حياة من نوع آخر .. وقد بهت الجموع من قوة هذه الحجة ، ولعل الفريسيين لم يتمالكوا أنفسهم من التقدير والإعجاب .

الوصية العظمى

(متى ٢٢ : ٣٤ — ٤٠)

يبدو هذا السؤال فى رواية (متى) البشير كأنه عودة إلى الهجوم من جانب الفريسيين ، ولكنه يبدو فى رواية (مرقس) البشير كأنما كان هذا السؤال وسيلة ، لا للإيقاع بيسوع ، ولكن لإظهار قدرته على الإجابة ، بعدما أفحم الصدوقيين . وينتهى الحوار بتقارب بين الناموسى الذى قدم السؤال وبين المسيح .

لكن جوهر السؤال والجواب واحد فى الروايتين ، ونرى يسوع فى إجابته يضع التعريف الكامل للتدين الصحيح .

١ — فالدين هو محبة الله . والعبارة التى اقتبسها يسوع ، جاءت فى (تثنية ٦ : ٥) « فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك » — وهذه الآية جزء من « الشمعة » Chema (نسبة إلى العبارة الأولى فى الآية وهى : (اسمع يا إسرائيل) ، وهى قانون الإيمان الأساسى اليهودى ، والعبارة التى تبدأ بها كل خدمة يهودية إلى الآن ، كما أنها أول آية يحفظها الطفل اليهودى .

هذه العبارة تشير إلى واجب محبة الله ، محبة تسيطر على كل عواطفنا ، وتقود أفكارنا ، وتحرك إرادتنا وأفعالنا — فالدين الصحيح يبدأ بمثل هذه المحبة ، التى هى تسليم كامل للحياة إلى الله .

٢ ـــ والوصية الثانية التى يقتبسها يسوع جاءت فى (سفر اللاويين ١٩ : ١٨) « بل تحب قريبك كنفسك » ، فمحبتنا لله ينبغى أن تنتج محبة للناس . فالطريق الوحيد الذى يمكن الانسان به أن يعبر ويبرهن على محبته لله هو محبة الناس . إلا أنه ينبغى ملاحظة الترتيب الذى ترد فيه الوصايا : فمحبة الله تأتى أولا ، ثم تأتى محبة الناس ثانيا ، ذلك لأن الإنسان يصير ذا قيمة فى نظرنا ، عندما نحب الله .

والتعليم الكتابى عن الإنسان هو أن الإنسان مخلوق على صورة الله ، وليس مجرد مجموعة من العناصر الكميائية ، أو جزءا من الخليقة الحيوانية (تكوين ١ : ٢٦ و ٢٧) .

لهذا فالإنسان يستحق أن ينال المحبة ـــ إن الأساس الحقيقى لكل نظام ديموقراطى يمنح للناس الكرامة والحقوق ، هو فى الواقع محبة الله . ولو أننا طرحنا جانبا محبة الله ، عندئذ يصيبنا الضجر من الإنسان غير القابل للتعلم ، ويصيبنا التشاؤم بسبب الإنسان غير القابل للإصلاح ، ونشعر بالقسوة نحو الإنسان . فالأساس الراسخ لمحبة الإنسان هو فى محبة الله .

والمتدين الصحيح هو من يحب الله ويحب الانسان المخلوق على صورة الله ـــ محبة ليست فورانا عاطفيا بل تكريس الحياة لله ، وتفانيها فى خدمة الناس العملية .

آفاق جديدة

(متى ٢٢ : ٤١ ـــ ٤٦)

تعتبر هذه الأقوال من أهم ما نطق به السيد المسيح له المجد . ورغم أننا قد لا نصل إلى عمق المعانى الواردة فيها ، لكننا نرى فيها روح الرهبة والدهشة والعمق .

لقد رأينا كيف أن يسوع رفض مرارا وتكرارا أن يسمح لأتباعه أن يعلنوا أنه المسيا ، إلى أن يعلمهم حقيقة المسيا ورسالته ، فقد كانت فكرتهم عن المسيا تحتاج إلى تصحيح وتغيير جذرى .

وقد كان اللقب الشائع للمسيا هو « ابن داود » ، وفى مفهوم هذا اللقب كان ينتظر اليهود أن يأتى يوما ما ، أمير عظيم من نسل داود ، يسحق أعداء إسرائيل ، ويقود شعبه فى غزوات منتصرة على كل الشعوب ، وقد كان التفكير فى المسيا دائما يتخذ طابع القومية والسياسة والقوة الحربية والمجد الدنيوى . وهنا نرى محاولة أخرى من يسوع ليغير هذا الاعتقاد .

فقد سأل يسوع الفريسيين عن المسيا ، ابن من هو ؟ وقد أجابوا كما توقع أن يجيبوا أنه « ابن داود » . ومن ثم اقتبس يسوع ما ورد فى (مزمور ١١٠ : ١) « قال الرب لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك » ـــ وكان الجميع متفقين على أن هذه الآية من الآيات التى تشير إلى المسيا .

وكلمة « الرب » الأولى تشير إلى الله ، و « الرب » الثانية تشير إلى المسيا ... فكأنما داود بوحى من الروح القدس يلقب المسيا بأنه رب ... فإن كان « ابنه » ، فكيف يدعوه « ربه » ؟

والواقع أن النتيجة الحتمية لهذه الحجة هى أن لقب « ابن داود » ليس لقبا كافيا أو مناسبا للمسيا ... إنه ليس « ابن داود » بل « رب داود » ...

عندما شفى يسوع الأعميين ، ناديا بأنه « ابن داود » (متى ٢٠ : ٣٠) وعندما دخل يسوع إلى أورشليم هتفت له الجموع باعتبار أنه « ابن داود » (متى ٢١ : ٩) ... لكن يسوع يقول هنا ما معناه أنه ليس كافيا أن ندعو المسيا ابن داود ... وليس كافيا أن نعتبره أميرا من سلالة داود ، وملكا وقائدا أرضيا يعيد إلى الأمة عصر داود الذهبى من الوجهة السياسية والحربية ... يجب أن نتقدم خطوة أخرى ، لأن المسيا هو « رب داود » .

وكأنما يسوع يوضح أن الوصف الحقيقى الصحيح له أنه « ابن داود » ... فهذا هو اللقب اللائق به ... وما دام الأمر كذلك ، فإن مفهوم فكرة المسيا تتغير من فكرة السلطة الزمنية ، والغزوات والانتصارات السياسية ، إلى فكرة المحبة الإلهية المضحية ... ونحن نرى يسوع يقدم نداءه الأعظم : إنه لم يأت ليعيد انتصارات داود الحربية ، لكنه ابن الله الذى جاء ليعلن محبة الله عمليا على الصليب .

ولعل القلائل هم الذين استطاعوا أن يدركوا بصيصا من الضوء من المعنى الذى قصده يسوع فى ذلك الوقت ، إلا أننا نستطيع أن نتصور أن أبلد الحاضرين فى ذلك الوقت أحس برهبة هذا السر الأبدى .. لقد أحسوا بلاشك أنهم سمعوا صوتا غريبا ، يحدثهم بمعان غريبة غامضة ، ولعلهم أدركوا ولو جزئيا أنهم يسمعون صوت الله ، وأن الذى كان يكلمهم كان يشرق عليهم بوجه الله .

الأصحاح الثالث والعشرون

الكتبة والفريسيون

فى هذا الفصل ترى السيد له المجد يثور فى حماس مقدس ، وغضب موبخا جماعة الكتبة والفريسيين — ولهذا الغضب دلالة خاصة تستدعى الاهتمام . ذلك لأنه إذا اشتهر إنسان بأنه غضوب كثير الانفعال ، سريع الثورة ، حاد الطباع ، فإن غضبه يكون بلا أثر أو نتيجة ، ولا يولى الناس اهتماما به إذا غضب ، لأن تلك هى طبيعته المتوترة الحادة .

أما إذا اشتهر إنسان بالوداعة واللطف والمحبة وطول الأناة ولكننا نراه فجأة يثور كاللهيب المشتعل ، فإن أى شخص يتعامل معه سيقف مشدوها إزاء هذه الثورة ، ويحاول أن يفكر فى أسبابها . وهذا هو السبب الذى يجعلنا نقف متأملين فى علة الحدة الظاهرة فى حديث السيد له المجد ، فى هذا الفصل ، الموجه نحو جماعة الكتبة والفريسيين .

وقبل أن نتناول آيات هذا الفصل بالشرح ، من المناسب أن ندرس شيئاً عن الكتبة والفريسيين .

كان لليهود شعور عميق باستمرار ديانتهم ، ونستطيع أن ندرك شيئا من مقام الكتبة والفريسيين إذا عرفنا شيئا عن تاريخهم ونشأتهم ، فى تاريخ الأمة اليهودية . وكان لليهود قول مأثور وهو « أن موسى تسلم الناموس وسلمه إلى يشوع ، ويشوع سلمه للشيوخ ، والشيوخ للأنبياء ، والأنبياء سلموه لأعضاء المجمع العظيم » .

والديانة اليهودية مؤسسة أصلا على الوصايا العشر ، ثم على الأسفار الخمسة ، وهى أسفار الناموس أو الخمسة الأسفار الأولى فى العهد القديم . وتاريخ اليهود يتجه نحو صيرورة اليهود شعب الناموس . ولكل أمة أحلام للتفوق ، وقد قادت أحداث التاريخ الأمة اليهودية نحو اتجاه خاص ، ووجهت حلم الأمة اليهودية نحو الناموس . ذلك لأن اليهود خلال تاريخهم عانوا عدة هزائم ، وخضعوا لعدة شعوب ، فساد عليهم الأشوريون ، ثم البابليون ، ثم الفرس ، وهكذا تركت مدينة أورشليم خربة مقفرة . لذلك ماتت فى المهد كل أحلام اليهود فى السيادة السياسية والحربية ، فاتجهت أنظارهم إلى التفوق الدينى ، وقد كانوا يتكلون « الناموس » وبالنسبة لهم كان الناموس هو كلمة الله شخصيا ، ولذلك هو أثمن شيء وأعظم شيء فى العالم .

وفى عهد عزرا ونحميا ، سمحت السلطات الحاكمة بعودة الشعب إلى أورشليم ، وبنيت المدينة الخربة ، وعادت إليهم الحياة القومية ثانية ، وعندما حدث هذا ، أخذ عزرا الكاتب كتاب الشريعة وقرأه للشعب ، وفى جو من المهابة والخشوع كرس الشعب نفسه للشريعة . « وفتح عزرا السفر أمام كل الشعب لأنه كان فوق كل الشعب ، وعندما فتحه وقف كل الشعب ، وبارك عزرا الرب الإله العظيم ، وأجاب جميع الشعب آمين آمين رافعين أيديهم وخروا وسجدوا للرب على وجوههم إلى الأرض » (نحميا ٨ : ٥ و ٦) .

ومن ذلك الوقت ، أصبحت دراسة الناموس أرق وأعظم وظيفة ، واستودعت دراسة الناموس

لأعضاء المجمع العظيم ، والذين كانت وظيفتهم دراسة الناموس أطلق عليهم اسم (الكتبة) .

عكف الكتبة على دراسة الناموس وشرحه والتوسع فيه إلى درجة مذهلة . وقد رأينا فى دراستنا من قبل (انظر شرح متى ٥ : ١٧ — ٢٠) أن شريعة الكتبة تضمنت آلاف القواعد والقوانين والتشريعات الصغيرة . فإذا كان الناموس لا يسمح للإنسان بالعمل يوم السبت ، كان على الكتبة أن يعرفوا ويحددوا مفهوم (العمل) ويحددوا عدد الخطوات التى يمكن أن يخطوها الإنسان يوم السبت ولا تعتبر عملا ، وما هو وزن أى حمل يمكن أن يحمله الإنسان يوم السبت دون كسر الوصية ... وهكذا توسعوا فى التفسير والاجتهاد ، حتى أنه عندما أكمل الكتبة شرح الناموس ، اشتمل على عدد لا يحصى من القواعد والقوانين تضمنتها خمسة كمجلدات ضخمة .

أما جماعة الفريسيين فإنها نشأت متأخرة عن جماعة الكتبة ، كانت عودة اليهود إلى أورشليم وإعادة تكريس الشعب للناموس قد تمت عام ٤٥٠ ق . م . تقريبا .. هنا ظهرت جماعة الكتبة .

وفى نحو عام ١٧٥ ق . م أراد انتيخوس ابيفانوس حاكم سورية أن يفنى الديانة اليهودية ويمحوها تماما ، ويستبدلها بالديانة اليونانية والتقاليد اليونانية . وهنا قام جماعة من المتدينين اليهود لمقاومته ، وعزلوا أنفسهم عن غيرهم من اليهود ، وصمموا أن يطبقوا حرفيا كل مبادىء الديانة اليهودية بما فيها التفاصيل الدقيقة التى وضعها الكتبة . هذه الجماعة هى جماعة الفريسيين ومعنى اسمهم « المنفصلين » ، ذلك لأنهم أرادوا أن يقاوموا محاولة محو الديانة اليهودية ، بتكريس أنفسهم تماما لحفظ مبادئها عمليا فى حياتهم وقبلوا على أنفسهم أن ينفذوا الآلاف الكثيرة من الشرائع التى فسر بها الكتبة الناموس .

ولم يكن عدد الفريسيين كبيرا ، إذ لم يزد عن ستة آلاف ، ولم يكن لهم عمل آخر سوى محاولتهم تطبيق قواعد الناموس ، ذلك لأن مجرد حفظ هذه القواعد ومراعاتها ، كان يحتاج إلى كل وقت الفريسى ، ولا يمكنه أن يزاول أى عمل آخر فى الحياة . ولم يكن ممكنا لكثيرين أن يقبلوا هذا الوضع .

من هذا يتضح لنا أن الفريسيين كانوا ناموسيين مدققين كرسوا أنفسهم لحفظ دقائق الناموس بكيفية حرفية متزمتة ، وكانوا فى الوقت عينه جماعة غيورين على دينهم ، لأنه لولا هذه الغيرة لما استطاعوا أن يقبلوا نوع الحياة التى فرضوها على أنفسهم . لذلك فإنهم جمعوا فى شخصياتهم بين الرذائل والعيوب التى تتكون حتما عند الناموسيين المتزمتين ، وبين الفضائل التى تتكون عند المكرسين لله .

ليس هذا دينونة من المسيحية على الفريسيين ، ولكن اليهود أنفسهم أصدروا عليهم هذا الحكم ، فالتلمود يذكر سبعة أنواع مختلفة من الفريسيين :

١ — فهناك « **فريسى الكتف** » وهو شديد التدقيق ، « حفلاط » فى محافظته على الناموس ، لكنه يضع أعماله الصالحة على كتفه . وقد اشتهر بالنقاوة والصلاح ، فإنه أطاع الناموس حقا ، وإنما فعل ذلك ليظهر للناس .

٢ ــ وهناك « **فريسي الانتظار** » وهو الذى يستطيع دائما أن يقدم سببا وجيها مقنعا لتأجيل عمل الصلاح . وهو يؤمن تماما بالناموس وتفاصيله وتدقيقه ، لكنه كان دائما يجد عذرا ليعمل شيئا بخلاف هذا الناموس . إنه يتكلم كثيرا ، لكنه لا يعمل .

٣ ــ هناك « **الفريسي المرضوض أو الدامي** » ويقول التلمود عنه إنه « الفريسي الذى يؤذى نفسه » ، فقد كان هذا الفريسي يسير فى الشارع مغلق العينين ، حتى لا ينظر إلى النساء . وكان مركز المرأة وضيعا فى فلسطين فى ذلك الوقت ، وكان اليهودى المتدين لا يتكلم مع امرأة علنا أمام الناس . حتى لو كانت هذه المرأة زوجته أو أخته .

أما الفريسيون الذين من هذا النوع فقد صمموا على أن لا يتطلعوا إلى امرأة ، لذلك كانوا يسيرون بعيون مغمضة ليتجنبوا رؤية النساء ، فكانت النتيجة أنهم يصطدمون بالحوائط وغير ذلك مما يعترض السائر فى الطريق فيترضضون وتدمى أجسادهم ، وكانوا يرون فى هذه الجروح والرضوض امتيازا ومظهرا لزيادة تقواهم .

٤ ــ وهناك « **الفريسي المنحنى أو ذو السنم** » ، فإن هذا النوع كان يريد اظهار تواضعه الكثير ، لذلك كان يمشى منحنيا ، ومن فرط تواضعه لا يستطيع أن يرفع وجهه عن الأرض ، وكثيرا ما كان يصطدم بالعوائق فى الطريق ، وقد كان هذا التواضع المفرط إنما وسيلة لمزيد من إظهار الفضائل ، وهو نوع من الكبرياء والتباهى فى الواقع .

٥ ــ وهناك « **الفريسي كثير الحساب** » ، وهو الذى يداوم على إحصاء أعماله الصالحة ، كأنه يقدم كشف حساب دائن لله بأعماله الصالحة ، والديانة فى نظره هى كشف حساب أرباح وخسائر ، أو أعمال صالحة وأعمال شريرة .

٦ ــ وهناك « **الفريسي الخائف المذعور** » ، وهو دائم الخوف من عقاب الله لذلك ، كان ينقى خارج الكأس والصحفة ، ليبدو صالحا .. فقد كان يرى أن الدين هو تجنب العقاب ، لذلك كانت حياته دائما خوفا من هذا العقاب .

٧ ــ وهناك « **الفريسي خائف الله** » ، وهو الفريسي الذى يحب الله حقا ، ويجد لذته فى حفظ ناموس الله مهما كان هذا صعبا .

هذا هو تقسيم اليهود أنفسهم للفريسيين ، ومنه يتضح لنا أن نوعا واحدا منهم كان صالحا مقابل ستة أنواع رديئة .. لذلك يغلب على الظن أن كثيرين ممن سمعوا دينونة يسوع للفريسيين ، اتفقوا معه فى كل كلمة قالها .

صار الدين عبئا ثقيلا

(متى ٢٣ : ١ ــ ٤)

هنا تظهر لنا ملامح الفريسيين ، فنحن نرى هنا اعتقاد اليهود باستمرار الإيمان . لقد أعطى الله

الناموس إلى موسى ، وموسى سلمه ليشوع ، ويشوع سلمه للشيوخ ، والشيوخ سلموه للأنبياء ، والأنبياء سلموه للكتبة والفريسيين ... لذلك فإن الكتبة والفريسيين يجلسون على كرسى موسى .

والمسيح هنا يوصى الناس أن يعملوا بأقوالهم ، ولا يتمثلوا بأفعالهم . ولا يقصد السيد هنا أن الناس ملتزمون بأن يعملوا بشريعة الكتبة التى فسروا بها الناموس ، والمكونة من آلاف التفاصيل ، ولكنه يقصد بلا شك ، ما يتكلم به هؤلاء من أقوال الناموس المسلم إلى موسى والمبادىء المنطوية عليه . وقد رأينا فى شرح (متى ٥ : ١٧ — ٢٠) أن مبادىء الناموس ، وخلاصة الوصايا العشر ، مؤسسة على مبادىء التوقير والاحترام : توقير الله ، واسم الله ، ويوم الله ، والوالدين الذين سمح الله أن نكون أبناء لهما ، واحترام حياة الإنسان ، وممتلكاته ، وشخصيته ، واسمه ، وشرفه ، ونفسه .. هذه المبادىء أبدية ، ومادام الكتبة والفريسيون يسيرون فى هذا الاتجاه فإن تعاليمهم تستحق الطاعة ...

لكن العيب فى شريعة الكتبة والفريسيين أن نظرتهم إلى الدين ، جعلتهم يصيرون الدين عبئا ثقيلا لا يحتمل ، بإضافتهم آلاف الوصايا والقواعد ... وهذا هو الاتجاه الخاطىء . إن أسلوبهم فى تقديم الدين أسلوب خاطىء . إن الدين أجنحة يرتفع بها الإنسان ، وليس حملا يرزح تحته ويجذبه إلى أسفل .. إن الدين معين للإنسان وليس شبحا يخيفه ، والدين طريق لبهجة الإنسان لا لتعاسته .. إن الدين يحمل الإنسان ولكن الفريسيين جعلوا الإنسان يحمل الدين .. وعندما يصير الدين هكذا ، فإنه لا يكون دينا حقيقيا .

لذلك وبخ يسوع الكتبة والفريسيين لأنهم يحزمون أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس .

إن الدين فى نظر يسوع هو الالتجاء إلى القوة الإلهية التى ترفع الأحمال عن الناس .. وقد قال يسوع « تعالوا إلى ياجميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم .. » ، لكن الفريسيين كانوا يريدون أن يضعوا سياجا حول الناموس . فصار الدين حملا وعبئا ثقيلا ..

ديانة المباهاة

(متى ٢٣ : ٥ — ١٣)

كان لابد أن تصير ديانة الفريسيين ديانة مباهاة ومظاهر . لأنه عندما يكون الدين مجرد طاعة قواعد وتشريعات لا تعد ، عندئذ يكون من السهل على المرء أن يهتم بأن يظهر للناس كيف يحافظ على هذه القواعد ، وكيف هو كامل فى تقواه .

ويختار يسوع بعض التصرفات والعادات التى تظهر فيها مباهاة جماعة الفريسيين .

فقد كانوا يعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم . ما المقصود بذلك ؟

لقد قيل عن وصايا الله فى (خروج ١٣ : ٩) « ويكون لك علامة على يدك وتذكارا بين

عينيك لكى تكون شريعة الرب فى فمك » . وقد تكرر القول تقريبا فى (خروج ١٣ : ١٦) « فيكون علامة على يدك وعصابة بين عينيك » (أنظر تثنية ٦ : ٨ و ١١ : ١٨) . ولكى يتمم اليهود هذه الوصايا كانوا يلبسون عند الصلاة ما يسمى (بالعصائب) ، وكانوا يلبسونها دائما فيما عدا السبوت والأيام المقدسة . هذه العصائب كانت عبارة عن أكياس صغيرة من الجلد . يلبسون واحدة منها على معصم اليد ، وواحدة على الجبهة — وكانت العصابة التى على المعصم تحتوى على درج أو لفافة من الجلد الرقيق مكتوب عليها أجزاء من الأسفار الخمسة وهى : خروج ١٣ : ١ — ١٠ ، خروج ١٣ : ١١ — ١٦ وتثنية ٦ : ٤ — ٩ وتثنية ١١ : ١٣ — ٢١ . وكل هذه الأجزاء تشير إلى ضرورة الاهتمام بوصايا الرب ووضعها على القلوب والأيدى وبين العيون . أما العصابة التى على الجبهة فكانت تحتوى على أربعة أكياس من الجلد فى كل كيس جزء واحد من هذه الأجزاء الأربعة المشار إليها .

ولكى يجذب الفريسيون الأنظار إلى نفوسهم وتقواهم لم يكتفوا بالعصائب العادية ، بل كانوا يستخدمون عصائب كبيرة عريضة ليظهروا تقواهم وتدقيقهم فى المحافظة على الناموس .

كما كانوا يلبسون أهداباً فى الثياب ، ونحن نقرأ فى سفر العدد ١٥ : ٣٧ — ٣٩ « وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى إسرائيل وقل لهم أن يصنعوا لهم أهدابا فى أذيال ثيابهم فى أجيالهم ويجعلوا على هدب الثوب عصابة من أسمانجونى ، فتكون لكم هدبا فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتعملونها » (أنظر أيضا تثنية ٢٢ : ١٢) .

وكانوا يلبسون هذه الأهداب فى أطراف أربعة من الملابس الخارجية ، وفيما بعد كانوا يعملونها فى الملابس الداخلية ، واليوم يستخدمونها فى الملابس التى يلبسونها أثناء الصلاة — وقد كان الفريسيون يعظمون هذه الأهداب ويكبرونها لكى تظهر للناس تقواهم ومحافظتهم على الناموس ، بينما كانت فى الأصل لتذكر الإنسان نفسه بوصايا الرب ، لا لجذب الأنظار إليه .

هذا فضلا عن أنهم كانوا يحبون أن تكون لهم الأماكن الأولى فى الولائم ، عن يمين وعلى يسار الداعى ، وكانوا يحبون المجالس الأولى فى المجامع وقد كانت العادة أن المقاعد الخلفية يجلس فيها الأطفال والذين ليسوا ذوى شأن . وكلما تقدم مكان المقعد دل على أهمية الجالس فيه .

وكان الجلوس فى مواجهة الجماهير هو أكرم مكان ، ولذلك كان الشيوخ يجلسون فيه ، وإذا جلس فيه شخص ، فإن الناس يرون أنه حاضر ، ويلاحظون انفعالات التقوى والتدين التى تظهر على وجهه أثناء العبادة .

وكان الفريسى يحب أن يدعوه الناس بلقب « يا معلم » ويعامل بكل احترام — وقد اعتبر الفريسيون أنفسهم جديرين باحترام وإكرام أكثر من إكرام الوالدين ، لأن الوالدين يعطون للأبناء الحياة العادية الجسدية ، أما المعلمون فيعطون لهم الحياة الأبدية . لذلك كانوا يحبون أن يدعوهم الناس « يا أبى » كما كان أليشع يدعوا إيليا (٢ ملوك ٢ : ١٢) ، إذ كانوا يقولون إنهم آباء فى الإيمان .

وقد أصر يسوع على المسيحى أن يذكر دائما أن له معلما واحدا وهو المسيح ، وأن له أبا واحدا فى الإيمان وهو الله .

لقد كان الفريسيون فى ملبسهم وسلوكهم يهدفون أن يجذبوا الأنظار إلى نفوسهم ، أما خطة المسيحى فهى أن ينكر نفسه ، حتى أن الناس عندما يرون أعماله الصالحة ، لا يمجدونه هو ، بل يمجدون أباه الذى فى السموات .

وكل ديانة أساسها المباهاة فى الأعمال والكبرياء فى القلب ، ديانة باطلة .

إغلاق الباب

(متى ٢٣ : ١٣)

تحتوى الأعداد من ١٣ ــ ٢٦ على أفظع صورة من التعنيف والتشهير فى كل العهد الجديد ، وقد لقبها أحد الشراح بأنها « الرعد القاصف لغضب المسيح » ، وقال آخر « إن هذه الويلات كالرعد فى شدته ، وكالبرق فى سرعة وميضه ، فهى تضرب وتكشف وتفضح » .

ويسوع هنا يوجه سلسلة من ويلات ثمان موجهة إلى الكتبة والفريسيين .

والكلمة المترجمة « ويل لكم » فى الأصل اليونانى هى كلمة Oual ومن الصعب ترجمتها ، فإنها لا تدل على الغضب فحسب ، بل على الحزن أيضا ، فهنا غضب مصحوب بالبر ، لكنه غضب من قلب امتلأ بالحب ، وانفطر بسبب صلابة قلوب الناس وقساوتهم والعمى الذى أظلمها . فنحن لا نرى هنا تشهير بربريا همجيا ، لكننا نرى جوا يسوده الشعور بمأساة أليمة .

وصف السيد جماعة الكتبة والفريسيين بأنهم « مراؤون » ــ والكلمة اليونانية المترجمة « مرائى » معناها أصلا « الشخص الذى يجيد » ، و تصف الشخص المشترك فى مسرحية تمثيلية ، لذلك صار معنى الكلمة « ممثل » ثم تطور معنى الكلمة وصار يوصف به أسوأ مظهر من مظاهر التمثيل وهو الخداع والادعاء ، إذ أصبحت تصف من يضع قناعا ليخفى مشاعره الحقيقية وليبدو فى مظهر يختلف عن واقع أفكاره ومشاعره .

ولقد كان الكتبة والفريسيون فى تقدير يسوع مجرد ممثلين ، فكل فكرتهم عن الدين كانت تنحصر فى المظاهر والممارسات الخارجية ولبس العصائب العريضة ، والأهداب العظيمة فى الثياب ، وحفظ دقائق وصايا الناموس ، ولكن قلوبهم كانت ممتلئة بالكبرياء والحسد والعجرفة . كان يسوع يراهم يلبسون قناع التقوى والتدقيق ، ليخفوا ما فى قلوبهم من المشاعر الخالية من كل تقوى حقيقية . وهذا الاتهام يوجه إلى كل إنسان يظن أن الدين هو المحافظة على مظاهر خارجية .

وقد دان يسوع الكتبة والفريسيين لأنهم لم يدخلوا إلى ملكوت السموات ، وأغلقوا الباب فى وجه الراغبين فى الدخول ، وقد قيل فى رواية ما إنه قال إنهم « أخفوا مفتاح الملكوت » ، فماذا يقصد يسوع بذلك ؟

فى شرحنا لما ورد فى (متى ٦ : ١٠) رأينا معنى الملكوت . وأفضل تصور للملكوت هو أنه مجتمع على الأرض تطبق فيه إرادة الله كما هى فى السماء — وهكذا يتبين لنا أن رعايا الملكوت هم الذين يفعلون مشيئة الله .

وقد أساء الفريسيون فهم مشيئة الله ، فظنوها اتباع آلاف التشريعات والقواعد والأوامر والنواهى ، وهذا أبعد شىء عن الملكوت ، الذى أساسه المحبة . وعندما كان الناس يحاولون أن يجدوا طريقهم إلى ملكوت السموات ، كان الفريسيون يواجهونهم بتشريعاتهم المتعددة ، وكأنهم بذلك يغلقون باب الملكوت فى وجوههم ، كان الفريسيون يفضلون رأيهم فى الديانة على رأى الله ، ولقد غابت عن فكرهم حقيقة هامة ، وهى أنه لكى تكون معلما نافعا للآخرين ، يجب أن تصغى أولا إلى الله لتتعلم منه . إن الخطر الفظيع الذى يواجهه كل معلم أو واعظ هو أنه يستبدل حق الله بآرائه الخاصة وميوله الشخصية .

وهو عندما يسير فى هذا الطريق ، لا يصير مرشدا للآخرين ، بل عائقا فى طريق الملكوت ، لأنه يضل ويضل الآخرين أيضا .

عندما تصير الصلاة دينونة

(متى ٢٣ : ١٤)

فى هذه الآية يوجه السيد اتهاما آخر إلى الكتبة والفريسيين ، وهو اتهام مزدوج : إنهم يأكلون بيوت الأرامل ، وإنهم يطيلون الصلاة لعلة .

والاتهام الأول فسره البعض بأن الفريسيين والكتبة ، باعتبارهم قادة الدين ، كانوا الملجأ الأمين الذى يودع فيه الأرامل الأموال ويجعلونهم أوصياء على الثروة ، وكان هؤلاء القادة يتخذون هذا وسيلة لظلم هؤلاء الأرامل ، وقد اتهمهم المسيح أنهم تركوا أثقل الناموس « الحق والرحمة » .

ويرى بعض الشراح أن الفريسيين والكتبة كانوا يشجعون الناس على أن يدفعوا لهم مبالغ من المال نظير تعليمهم الناموس ، ومن بين هؤلاء الناس الأرامل ، مع المفروض أن هؤلاء أحق بالمساعدة ، خاصة وأن النظام كان يقتضى أن يكون لهؤلاء الكتبة والفريسيين أعمال ومهن يكسبون منها حتى لا يطالبون بالمال . وطبيعى أن ما كان يدفعه الناس لهم كان بخلاف العشور التى كان يجب أن تقدم إلى الكهنة واللاويين .

وقد برهن الكتبة والفريسيون على أنهم بعيدون عن الديانة الطاهرة النقية ، التى هى « افتقاد اليتامى والأرامل فى ضيقتهم » (يعقوب ١ : ٢٧) .

أما الاتهام الثانى فهو إطالتهم الصلاة لعلة . ويظهر لنا من (متى ٦ : ٥ — ٧) أن هذه العلة هى الظهور بمظهر التقوى أمام الناس . وفى هذه الحالة لا تكون الصلاة رفع أشواق القلب المتضع أمام الله ، بل تصير استعراضا للتقوى أمام الناس ، وهذا أسوأ انحراف يمكن أن تتحول إليه أسمى وسائط النعمة والعبادة ، فإن المصلى يكون تفكيره أبعد ما يكون عن الله .

لذلك فإن دينونة هؤلاء تكون أعظم ، فقد قال الله فى (إشعياء ١ : ١٣ و ١٥) « لست أطيق الإثم والاعتكاف ... فحين تبسطون أيديكم أستر عينى عنكم . وإن كثرتم الصلاة لا أسمع . أيديكم ملآنة دما » .

وتزداد هذه الدينونة ، بزيادة المعرفة التى لدى الكتبة والفريسيين ، فقد كانت لديهم معرفة أكثر جدا مما كانت لعامة الناس . ومن يعرف أكثر يطالب بأكثر . وقد كتب يعقوب الرسول بمثل هذا المعنى قائلا :

« لا تكونوا معلمين كثيرين يا إخوتى عالمين أننا نأخذ دينونة أعظم » (يعقوب ٣ : ١) .

مبعوثون للشر

(متى ٢٣ : ١٥)

من بين المظاهر الغريبة فى العالم القديم ، المواقف المتناقضة التى كان الناس يتخذونها تجاه اليهود ، من كراهية وصدود ، واهتمام وانجذاب فى الوقت عينه .

لم يكن هناك بين الشعوب من نال كراهية الناس مثل اليهود ، فقد كانت ميولهم الانفصالية والانعزالية ، واحتقارهم للأمم الأخرى ، سببا فى صدود الناس عنهم . وقد اعتقد البعض أن اليهودى كان يدخل تحت التزام بقسم أن لا يقدم أية معونة لأممى (أى غير يهودى) إلى حد عدم إرشاده اياه إلى الطريق الصحيح إذا سأله — وقد اتهمهم بعض الناس بالكسل لحفظهم السبت ، واستهزأ البعض لعدم أكلهم لحم الخنزير ، وكانوا يتندرون عليهم بالقول إنهم يعبدون الخنزير ، لذلك لا يأكلونه ... وهكذا كان الناس يكرهونهم .

وفى الوقت عينه كانت للديانة اليهودية جاذبية خاصة ، فإن فكرة الإله الواحد كانت شيئا رائعا فى عالم كان يؤمن بتعدد الآلهة . كما أن المقاييس الأدبية والأخلاقية كانت تخلب ألباب الناس فى عالم غرق فى الفساد ، خاصة النساء .

لذلك كانت النتيجة أن اقترب إلى الديانة اليهودية كثيرون ، كان هذا الاقتراب على مستويين :

فهناك من كان يطلق عليهم اسم « خائفى الله » . وهؤلاء آمنوا بوحدانية الله ، وقبلوا الشريعة الأدبية اليهودية ، لكنهم لم يختتنوا ولم يلتزموا بالشريعة الطقسية . وكانت هناك أعداد كبيرة من هؤلاء الناس ، وكنت تجدهم يتعبدون ويسمعون فى كل مجمع ، وقد وجد بينهم بولس الرسول حقلا خصبا للكرازة بالإنجيل ، فكان منهم على سبيل المثال « اليونانيون المتعبدون » فى تسالونيكى (أعمال ١٧ : ٤) .

وقد كان من أهداف الفريسيين أن يحولوا « خائفى الله » إلى « دخلاء » . والدخلاء هم الذين يدخلون إلى اليهودية من الأمم دخولا تاما ، بمعنى أنهم يقبلون ويلتزمون بالشريعة الأدبية والطقسية ويختتنون — وكثيرا ما يكون هؤلاء أشد تعصبا لليهودية من اليهود أنفسهم .

وقد اتهم يسوع الفريسيين أنهم مبعوثون للشر ، يحالون بكل جهدهم أن يكسبوا دخيلا واحداً ليحولوه إلى متعصب أكثر منهم . ومع أن عدد الدخلاء كان قليلا ، لكنهم كانوا غاية فى التعصب . لأن الفريسيين فى الواقع لم يكونوا يريدون أن يكسبوا نفسا لله ، إلا لمذهب الفريسيين .

وهذا خطر يهدد جميع المبعوثين والمرسلين أن يهتموا بكسب الناس إلى مذهب معين وطائفة معينة ، أكثر من اهتمامهم بربح الناس إلى الله وإلى المسيحية .

لقد كانت هذه هى خطية الفريسيين ... هى خطية لا تزال فاشية فى العالم ، ونراها فى بعض الكنائس التى تصر على أن يتحول الفرد من مذهب إلى آخر قبل أن يتقدم إلى مائدة الرب .

إن أشر هرطقة هى الاعتقاد الخاطىء أن الله أو حق الله تحتكره كنيسة معينة ... أو أن كنيسة بالذات تمسك بمفاتيح ملكوت الله ، وهى وحدها الطريق إلى محضر الله .

علم التملص

(متى ٢٣ : ١٦ ـــ ٢٢)

سبق ورأينا فى شرحنا (متى ٥ : ٣٣ ـــ ٣٧) كيف كان الناموسيون اليهود أفذاذا فى فن التملص من الأقسام والحلف . وقد كان المبدأ الأساسى الذى يطبقونه فى تحايلهم هو أن الإنسان يلتزم بحلفه إذا كان الحلف نفسه مما يجب الالتزام به . والحلف الذى يلتزم به الإنسان عادة هو الحلف الذى يستخدم فيه الإنسان اسم الله دون غموض أو تورية . إن مثل هذا القسم يلتزم به الإنسان مهما كلفه ذلك ـــ وأى نوع آخر من الحلف فيمكن الحنث به ، والفكرة فى ذلك أنه إذا كان اسم الله قد أستخدم فعلاً فى الحلف ، فإن الله يعتبر شريكا فى المعاملة ، لذلك فالحنث بالقسم وعدم الوفاء به لا يكون نقضا للثقة بين الناس فحسب ، بل يكون إهانة لله أيضا .

ويبدو أن يسوع أراد بالأمثلة التى ذكرها فى هذا النص ، أن يقدم نموذجا لأسلوب الفريسيين فى المراوغة والتحايل على الشريعة . وكأنه يقول لهم إنهم برعوا فى طرق التملص من الشريعة حتى أنهم ذكروا أن من حلف بالهيكل لا يلتزم الوفاء بحلفه ، بينما من حلف بذهب الهيكل يكون ملتزما بالوفاء ، بينما أن الهيكل أعظم من ذهب الهيكل ، لأن الهيكل هو الذى يقدس الذهب ـــ كذلك قالوا إن من حلف بالمذبح لا يلتزم بالوفاء بحلفه ، بينما من حلف بالقربان الذى على المذبح يكون ملتزما بالوفاء ، وقد أوضح يسوع أن المذبح هو الذى يقدس القربان .

ثم بين لهم يسوع أن الحلف لا يتجزأ ... وأن أسلوب الفريسيين فى النظر إلى بعض أنواع الحلف أنها غير ملزمة أسلوب فيه كثير من الخداع ، فالإنسان المتدين حقا لا ينطق بكلام ، ويكون فى نواياه راغبا فى التملص منه ، وعندما يقول شيئا فإنه لا يبحث عن طريق للتحايل ليتجنب تحقيق وعده .

على أنه ينبغى ألا ننظر إلى الفريسيين نظرة الدينونة كأننا أفضل منهم ، فإن الإنسان فى كل زمان يحاول أحيانا أن يتجنب بعض الواجبات المفروضة عليه ، ويبرر تصرفاته بحجة ما ، وأحيانا يتمسك الناس بحرفية الشريعة ليتجنبوا ما تدعو إليه روح الشريعة .

وفى تقدير يسوع ، يتركز عامل التزام الإنسان فى حقيقتين : إن الله يصغى لكل كلمة تنطق بها ، والله يرى كل فكر خفى فى قلوبنا .. وفى ضوء هاتين الحقيقتين لا مكان لمحاولات التملص ، وإذا كانت أساليب التحايل والمراوغة تجد لها مكانا فى حياة الناس ومعاملاتهم فى العالم ، لكنها لا تتفق أبدا مع إخلاص الفكر المسيحى وأمانته .

فقدان الإحساس بالتناسب

(متى ٢٣ : ٢٣ و ٢٤)

كان نظام العشور جزءا جوهريا من الشريعة اليهودية الدينية ، فقد جاء فى (تثنية ١٤ : ٢٢) « تعشيرا تعشرون كل محصول زرعك الذى يخرج من الحقل سنة بسنة » . وفى (لاويين ٢٧ : ٣٠) « وكل عشر الأرض من حبوب الأرض وأثمار الشجر فهو للرب . قدس للرب » .

كانت العشور تدفع للاويين الذين كانوا يقومون بالخدمة فى الهيكل وقد حددت الشريعة الأشياء التى يجب تعشيرها بأنها « كل ما يؤكل ، وما يحفظ ، وكل ما يغتذى من الأرض » . وقالت شريعتهم إنه من الشبث يجب تعشير الحبوب والأوراق والأعواد .. وهكذا كان على كل إنسان أن يعطى عشر إنتاجه للرب .

كان مبدأ العشور إذاً يحتم على الإنسان اليهودى أن يعشر محاصيل أرضه ، لكن النعنع والشبث والكمون كانت من النباتات التى تزرع فى حديقة البيت لاستخدامها فى المطبخ ، ولم يكن الفرد يزرع منها سوى القليل جدا ، وكانت تستخدم جميعها فى إعداد الطعام ، كما أن الشبث والكمون كانت لهما فوائد طبية . وإذا أراد الإنسان أن يعشر هذه النباتات ، فمعنى ذلك أنه يقدم شيئا ضئيلا جدا ، وربما لا يزيد عن محصول نبتة واحدة ، لذلك لم يكن أحد يهتم بتعشير هذه الأصناف إلا المدققون جدا . وهكذا كان الفريسيون . فقد كانوا شديدى التدقيق حتى أنهم يعشرون ولو حزمة واحدة من النعنع ، ومع ذلك فقد كانوا أحيانا يتصفون بالظلم والقسوة والفظاظة ، وقد تركوا كل معانى الرحمة من حياتهم . كانوا يحلفون ، وفى نيتهم أن يتخلصوا من حلفهم بكيفية قانونية ، وبذلك فقدوا الأمانة والإخلاص ... وفى ذلك هم يتركون جوهر الناموس ، بينما يهتمون بمراعاة التوافه ...

وما أكثر الذين يحاكونهم ، يتمسكون بقواعد الدين الظاهرة ، وهم فى الواقع غير متدينين فعلا وحقا ... يهتمون بالأمور الشكلية الظاهرة ويتركون الجوهرية ..

إن الإنسان فى حاجة ماسة إلى الإحساس بالتناسب بين مختلف القيم ليستطيع أن يتخلص من الاكتفاء بالممارسات الدينية بدلا من التكريس الحقيقى .

ويستخدم يسوع تمثيلا واضحا ، فيصف الفريسيين بأنهم يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل . فقد كان اليهود يعتبرون البعوضة حشرة نجسة ، لذلك كانوا يصفونها عند صنع الخمر ، حتى لا تكون فيها هذه الحشرة النجسة ، ويستخدم يسوع هذه العبارة ليقدم صورة تثير الضحك . لأنها صورة الرجل الذى يصفى الخمر بتدقيق ليتجنب هذه الحشرة الصغيرة النجسة ، لكنه فى الوقت عينه يبتلع الجمل ، وكان الجمل حيوانا نجسا أيضا ... إن هذه الصورة تبين فقدان الإحساس بالتناسب بين الأشياء ... وهذا ما وقع فيه جماعة الفريسيين .

النقاوة الحقيقية

(متى ٢٣ : ٢٥ و ٢٦)

تظهر فكرة الطهارة والنقاوة على الدوام فى شريعة اليهود . وليس المقصود بالنجاسة عندهم قذارة الجسد ... فالآنية النجسة ليس معناها أنها غير نظيفة . فالنقاوة عندهم طقسية ، والشخص النجس هو الشخص الذى لا يستطيع أن يدخل الهيكل أو المجمع ... هو الممنوع من عبادة الله .

ويتنجس الشخص لأسباب كثيرة ، مثل لمس جسد ميت ، أو الاتصال بشخص أممى . والمرأة تكون نجسة إذا كانت تنزف دما حتى إن كان هذا أمرا طبيعيا وصحيا .

والشخص النجس اذا لمس آنية ما فإنه ينجسها ، فإذا لمسها شخص آخر يتنجس وهكذا . لذلك كانت شريعة التطهير هامة جدا عند اليهود ، وهى شريعة معقدة للغاية .

وندرس هنا مثالا واحدا :

فالآنية الخزفية المجوفة تصير نجسة فى داخلها فقط ، وليس فى خارجها ، ولا يمكن تطهيرها إلا بكسرها ــ وبعض الآنية لا تتنجس أبدا مثل الطبق المسطح إذا كان بدون حافة أو حاشية ، وجاروف الفحم ، وشبكة الحديد التى تستخدم فى تحميص الحبوب أو تجفيفها ، بينما يمكن أن تتنجس آنية أخرى مثل صندوق التوابل والأطياب .

ومن الآنية المصنوعة من الجلد أو العظام أو الخشب أو الزجاج لا تتعرض المسطحة منها للنجاسة ، بينما العميقة تتعرض للنجاسة ، أما إذا كسرت هذه فإنها تطهر .

والأوانى المعدنية الناعمة والمجوفة معرضة للنجاسة ، بينما الباب ومطرقة الباب والقفل والترباس (المزلاج) لا تتعرض للنجاسة . وإذا كان شيء ما مصنوعا من الخشب والمعدن فإن المعدن يتنجس ، والخشب لا يتنجس .

وقد تبدو هذه القواعد لنا غاية فى الغرابة ، ولكنها كانت هى التى تتحكم فى حياة الفريسيين ، إليها كان معظم اهتمامهم .

وقد يحصل الواحد منهم على الطعام الذى فى داخل الآنية عن طريق الغش أو الخداع أو السرقة والخطف ... وقد يكون الطعام نفسه تعبيرا عن البذخ والإسراف والشراهة ، لكن كل هذا ليس

بذى بال فى نظرهم ما دامت الآنية التى فيها الطعام طاهرة طقسيا . هنا نجد مثالا آخر للتبير على التوافه وإهمال الأشياء الجوهرية .

وقد يبدو الأمر مضحكا وسخيفا ، لكنه يمكن أن يحدث حتى الآن . فقد تنقسم كنيسة على نفسها بسبب أمور تافهة ، كالخلاف على شكل الأوانى التى تستخدم فى العشاء الربانى ، أو شكل المنبر أو لون بساط ، إلى غير ذلك من التوافه . ويبدو أن آخر شيء يتعلمه الناس فى أمور الدين هو تقدير القيم حسب أهميتها ، ومن المؤسف حقا أن معظم الشجار يدور حول أمور قليلة الأهمية .

البوار المقنع

(متى ٢٣ : ٢٧ و ٢٨)

كل يهودى يستطيع أن يفهم هذه الصورة جيدا ، فقد كان من المالوف ان تكون على جوانب الطرق العامة قبور ، وحسب الشريعة كل من لمس ميتا يصير نجسا (عدد ١٩ : ١٦) . كذلك كل من لمس قبرا يصير نجسا أيضا .

وفى الأعياد ، خاصة عيد الفصح ، كانت فلسطين تزدحم بالزوار من اليهود من كل مكان ، وكان من المحتمل أن المارين فى الطريق ، يلمسون هذه القبور عن غير قصد بسبب الازدحام أو الخطأ ، وكانت هذه تعتبر بالنسبة لمن تحدث له نجاسه ، لأن نجاسته تمنعه من الاشتراك فى فريضة الفصح ـــ لذلك كان من عادة اليهود أنهم فى شهر أذار قبل عيد الفصح يبيضون جميع القبور التى تقع على جوانب الطرق العامة ، حتى يراها الناس جيدا ولا يلمسوها فيتنجسوا . لذلك كان كل مسافر فى ذلك الوقت يرى منظر القبور المبيضة تحت أشعة الشمس ، فيرى منظرها الخارجى غاية فى الجمال ، لكنها من الداخل تحتوى على العظام النجسة التى يريد الجميع أن يتجنبوها .

أخذ يسوع هذه الصورة ووصف بها جماعة الفريسيين . فحسب الظاهر هم غاية فى التدين والتدقيق ، لكن قلوبهم كانت مملوءة من الرياء والشر والإثم .

ويمكن أن يكون الأمر هكذا حتى اليوم . قد نرى الإنسان يبتسم ابتسامة عذبة ، لكنه يكون خبيثا وشريرا . وقد يسير فى خطوات متزنة ، يحنى رأسه ، ويتخذ مظهر التواضع ، لكن قلبه يكون مليئا باحتقار الآخرين . إن مظهر التواضع قد يكون مغالاة فى الكبرياء . فليس أصعب على الرجل الصالح من إدراك أنه صالح ، لأنه متى عرف ذلك ذهب عنه الصلاح .

وصمة القتل

(متى ٢٣ : ٢٩ ـــ ٣٦)

فى هذه الآيات نسمع يسوع يوجه إلى اليهود الاتهام بأن وصمة القتل تلصق بهم فى تاريخهم ، وأنه على مر العصور لم تمح هذه الوصمة . كان الكتبة والفريسيون يعتنون بقبور الشهداء من الأنبياء

والصديقين ، ويزينونها ، ويقولون إنهم لو كانوا قد عاشوا فى الأزمنة الماضية ، لما شاركوا فى قتل الأنبياء ورجال الله ... ولكن الواقع يشهد بغير ذلك ، فلو كانوا فى ذلك الموقف لفعلوا كما فعل آباؤهم تماما ، وهذا ما سيفعلونه تماما .

إن التهمة التى يوجهها يسوع هى أن تاريخ إسرائيل هو تاريخ قتل رجال الله فإن رجالا من هابيل إلى زكريا قتلوا بأيديهم . على أننا نتساءل : لماذا اختار يسوع هذين الاسمين ؟ إن قتل هابيل بيد قايين أمر معروف للجميع ، لكن قتل زكريا ليس شائعا ، ومعروفا لدى الكثيرين . إن قصته واردة باقتضاب فى الأصحاح ٢٤ من سفر الأخبار الثانى « ولبس روح الله زكريا بن يهوياداع الكاهن ، فوقف فوق الشعب وقال لهم هكذا يقول الله لماذا تتعدون وصايا الرب فلا تفلحون . لأنكم تركتم الرب قد ترككم . ففتنوا عليه ورجموه بحجارة بأمر الملك فى دار بيت الرب . ولم يذكر يوآش الملك المعروف الذى عمله يهوياداع أبوه معه بل قتل ابنه . وعند موته قال : الرب ينظر ويطالب » (٢ أيام ٢٤ : ٢٠ – ٢٢) . لماذا اختار يسوع زكريا بالذات ؟ الجواب هو أن ترتيب الأسفار المقدسة فى التوراة اليهودية يختلف عن ترتيبها عندنا ، فهى تبدأ بسفر التكوين ، وتنتهى بسفرى الأخبار وباقى الأسفار فى الوسط ، لذلك اختار يسوع أول حادثة قتل فى أول سفر فى الكتاب ، وآخر حادثة قتل فى آخر سفر فى الكتاب حسب الترتيب اليهودى ، ليبين لهم أنه من البداية إلى النهاية ، يسود القتل ورفض أنبياء الله فى تاريخ شعب إسرائيل .

ويؤكد يسوع أن وصمة القتل ما تزال باقية عندهم ، فهو يعرف أنه سيموت ، وأنه فى الأيام القادمة سوف يضطهد اليهود رسله ، ويرفضونهم ويقتلونهم ...

وهنا نرى المأساة الحقيقية ، عندما تتحول الأمة التى اختارها الله وأحبها ، لتصير ضد الله وترفع ضده يدها ... لذلك يوم الحساب قادم ، لأن الرب ينظر ويطالب .

فلنسأل أنفسنا هذا السؤال ، سواء كنا أفرادا أم أمما : عندما نقف أمام حكم التاريخ ، هل سيشهد التاريخ علينا أننا كنا فى جانب الله ، أم سيشهد علينا أننا وقفنا فى طريق عمل الله ؟ ولنحاول أن نجيب مخلصين على هذا السؤال .

الإعراض عن نداء الحب

(متى ٢٣ : ٣٧ – ٣٩)

هنا نجد المأساة الأليمة للحب المرفوض . فيسوع هنا يتحدث ، لا حديث القاضى الصارم الذى يدين الأرض كلها ، ولكنه يتحدث حديث من يحب نفوس البشر .

وإن هذا الفصل يلقى ضوءا على حياة يسوع ، ينبغى أن نتبينه . فحسب رواية البشائر الثلاث الأولى ، يبدو كأن يسوع لم يذهب إلى أورشليم بعد بدء خدمته الجهارية إلا عندما ذهب إليها فى عيد الفصح الأخير الذى فيه صلب . لكننا عندما نفكر فى حديث يسوع فى هذا الفصل ، نكاد ندرك يقينا أن يسوع لاشك قد زار مدينة أورشليم عدة مرات ، لأنه ما كان يقول مثل هذا

الكلام إلا إذا كان قد زار أورشليم زيارات متكررة ، ونادى أهلها مرات كثيرة . لذلك تبين لنا هذه الآيات أن رواية البشائر تذكر لنا الخطوط الرئيسية فى حياة يسوع ، لكن حياة يسوع وأعماله كانت أكبر بكثير من كل روايات الإنجيل .

هذا فضلا عن أن هذه الآيات تحمل إلينا حقائق روحية هامة :

١ ــ **فهى ترينا صبر الله** ــ لقد قتلت أورشليم الأنبياء ، ورجمت المرسلين إليها ، لكن الله لم يطرحها من أمام وجهه ، بل أرسل لها ابنه يناديها ويدعوها للتوبة . إن محبة الله تحتوى على صبر لا حد له ، يحتمل خطية الناس ، ولا يرفضهم بل يناديهم إلى التوبة .

٢ ــ **وهى ترينا نداء يسوع** ــ فهو يتحدث هنا محبا . إنه لا يفرض نفسه على حياة الإنسان ، فسلاحه الوحيد الذى يستخدمه هو نداء الحب ... إنه يقف باسطا يديه بالرجاء ، وعلى البشر أن يتحملوا المسئولية الرهيبة لقبول هذا الرجاء أو رفضه .

٣ ــ **وهى ترينا الجانب المتعمد فى خطية الإنسان** ــ فقد تطلع الناس إلى المسيح فى كل مجد ندائه ، لكنهم رفضوه . ولا يوجد مقبض خارج باب القلب الإنسانى ، فإنه يجب أن يفتح من الداخل ، والخطية هى رفض الإنسان المتعمد الواعى لنداء يسوع المسيح .

٤ ــ **وهى ترينا نتائج رفض المسيح** ــ فبعد أربعين عاما فقط ، فى سنة ٧٠ ميلادية صارت أورشليم كومة من الخرائب . لقد كانت تلك الكارثة نتيجة مباشرة لرفض المسيح . فلو أن اليهود قبلوا الطريق المسيحى ــ طريق الحب ، وهجروا أسلوب السياسة والقوة ، لما أنزلت عليهم روما ويلات انتقامها ــ إنها حقيقة تاريخية يؤكدها الزمن ، إن الأمة التى ترفض الله مصيرها الخراب .

الأصحاح الرابع والعشرون

رؤيا الأمور الآتية

لقد لاحظنا أنه من مميزات متى أنه يجمع معا فى مكان واحد تعاليم يسوع عن كل موضوع بعينه ، ويعتبر متى من الذين تسقوا أحاديث المسيح عندما كتبوها بشكل ملحوظ . وفى الأصحاح الرابع والعشرين يجمع متى ما ذكره يسوع عن المستقبل ، ويرينا فى هذا الأصحاح رؤيا الأمور الآتية . إلا أنه فى هذا الفصل ينسج متى أقوال يسوع عن جوانب متعددة من المستقبل فى نسيج واحد ، فلكى نستطيع أن نفهم هذا الفصل الغامض ، علينا أن نحاول فصل خيوطه المتشابكة لننظر إليها واحدا واحدا ، وبما أن هذه الخيوط المنسوجة المتشابكة تمتد إلى نهاية العدد ٣١ ، قد يكون من المفيد أن نضع أمامنا هذه الأعداد دفعة واحدة ، ثم نحاول أن نوضح الجوانب المتعددة عن المستقبل الذى تشير إليه ، ثم نحاول أن نضم كل جزء من هذه الأعداد الواحد والثلاثين إلى الجزء الملائم له فى الصورة — ومع أننا قد لا نصل إلى صورة كاملة أو مؤكدة — فقد تبقى بعض التفاصيل غير مؤكدة — إلا أن الصورة ستكون أوضح بلا شك .

فلنضع هذه الأعداد ونرقمها لنرى :

نسيج من الخيوط

هنا نرى الصورة المركبة ورؤيا المستقبل ، كما جمعها متى من أقوال المسيح ، فلنحاول أن نفصل خيوطها ، ونعين كل جزء إلى الخيط الذى يشير إليه ، ونترك الشرح التفصيلى إلى الخطوة التالية .

١ — فنحن هنا نجد أجزاء تنبىء عن الأيام الرهيبة لحصار أورشليم بواسطة تيطس القائد الرومانى — وقد كان هذا الحصار من أفظع ما عرف التاريخ . إلى هذا الخيط تشير الأعداد ١٥ — ٢٢ .

٢ — توجد أجزاء تتحدث عن الخراب النهائى الشامل لمدينة أورشليم وصيرورتها كومة من الخرائب . إلى هذا الخيط تشير الأعداد ١ و ٢ .

٣ — وتوجد فى هذا الفصل صور مأخوذة من الفكرة اليهودية عن « يوم الرب » — ونجد هذه الصور فى الأعداد ٦ — ٨ ، ٢٩ — ٣١ . وقد سبق أن تحدثنا عن هذا الاعتقاد من قبل ، ولكننا نرى من الضرورى توضيحه هنا باختصار .

فقد قسم اليهود كل الزمان إلى دهرين — الدهر الحاضر ، والدهر الآتى ، وكان تقديرهم أن الدهر الحاضر ، أو العالم الحاضر ، يتصف بالشر ، ولا رجاء فى إصلاحه .

لكن الله سيتدخل لتغيير الأوضاع وإصلاحها ، وبذلك يتحقق ما يسمونه بالدهر الآتى . إلا أنه بين هذين الدهرين سيأتى « يوم الرب » الذى سيكون وقت تغيير مخيف رهيب فى الأوضاع ، لأنه سيكون إيذانا بمولد عصر جديد . وفى العهد القديم نقرأ عن صور عديدة ليوم الرب ، كما

أنه فى كتابات اليهود فيما بين العهدين ، نلاحظ أن هذه الصور تزداد وتصير أكثر وضوحا ورهبة . فيوم الرب سيكون يوم رهبة وخوف . « قريب يوم الرب العظيم قريب وسريع جدا . صوت يوم الرب . يصرخ حينئذ الجبار مرا . وذلك اليوم يوم سخط ، يوم ضيق وشدة ، يوم خراب ودمار ، يوم ظلام وقتام ، يوم سحاب وضباب ، يوم بوق وهتاف على المدن المحصنة وعلى الشرف الرفيعة » (صفنيا ١ : ١٤ — ١٦) . إن الصورة عن هذا اليوم فظيعة ومكفهرة . هذا اليوم سيأتى فجأة « لأن يوم الرب كلص فى الليل هكذا يجيء » (١ تسالونيكى ٥ : ٢) . وقد قال معلمو اليهود « ثلاثة أشياء تأتى فجأة ، مجيء المسيا ، واكتشاف شيء ما ، والعقرب » — وفى يوم الرب سيحدث دمار فى الكون ، وستتحول الشمس إلى ظلام ، والقمر إلى دم (يوئيل ٢ : ٣٠ و ٣١ وإشعياء ١٣ : ١٠ و ١٣). وسيكون الوقت اضطراب فى القيم الخلقية ، إذ تنقلب المعايير الخلقية ، وتبدو الطبيعة نفسها متناقضة ، وتعم الحياة اضطرابا وحروب وبغضاء وعنف . وقد ذكر الاستاذ « شورر » فى كتابه « اليهود وقت المسيح » صفحة ١٥٤ خلاصة للفكرة اليهودية عن يوم الرب ، والتى كانت معروفة وقت حياة السيد المسيح ، وهى كما يلى : —

« تظلم الشمس والقمر ، وتظهر سيوف فى السماء ، وجيوش من الخيول تسير فى السحب . وكل شيء فى الطبيعة يصيبه الهرج والاضطراب ، فتظهر الشمس ليلا ، والقمر نهارا ، ويتدفق الدم من الخشب ، وتعطى الحجارة أصواتا ، ويصير الماء الصافى مالحا ، وتبدو الأراضى المزروعة كأنها غير مزروعة ، وتصير المخازن الممتلئة فارغة ، وتجف الينابيع . وبين البشر تزول كل الضوابط فيسود الشر والفساد على الأرض ، ويقاتل الناس بعضهم بعضا ، كأنه أصابهم مس من الجنون ، فيقوم الصديق ضد صديقه ، والابن على أبيه ، والابنة على أمها . وتقوم أمة على أمة فى الحرب ، وبالاضافة إلى الحرب تعم الزلازل والنيران والمجاعات تحصد الناس حصدا .

هذه هى الصورة الفظيعة ليوم الرب ونجد جزءا منها فى الأعداد ٦ — ٨ ، ٢٩ — ٣١ من هذا الفصل .

٤ — وتوجد بعض الأعداد تصف الاضطهاد الذى سيقع على أتباع المسيح . وإلى هذا الخيط تنتمى الأعداد ٩ و ١٠ .

٥ — وتوجد بعض الأعداد تصف الأخطار التى تهدد حياة الكنيسة ونقاوتها — وإلى هذا الخيط تنتمى الأعداد ٤ و ٥ و ١١ — ١٣ و ٢٣ — ٢٦ .

٦ — وأخيرا نجد بعض الأعداد تتحدث مباشرة عن المجيء الثانى للمسيح — وإلى هذا الخيط تنتمى الأعداد ٣ و ١٤ و ٢٧ و ٢٨ .

وهكذا نرى أنه فى الأعداد الواحد والثلاثين الأولى من هذا الأصحاح الصعب من إنجيل متى ، تتجمع لنا ستة خيوط منسوجة معا فى صورة رؤيا أحداث المستقبل . وسنحاول أن ندرس هذه الخيوط ، لا بحسب ترتيب الآيات فى النص ، بل نجمع كل الآيات التى تتحدث عن خيط معين ، وندرسها معا لتكون أمامنا صورة واضحة عما تحدث به المسيح .

القضاء على المدينة المقدسة

(متى ٢٤ : ١ و ٢)

لابد أن بعض التلاميذ لم يكونوا قد زاروا مدينة أورشليم مرارا كثيرة . فقد كانوا جليليين ، من أهل الريف ، وصيادين ممن عرفوا البحيرة وشواطئها أكثر من المدينة . ولاشك أن موقف بعضهم كان يشبه إلى حد كبير موقف القرويين فى بلادنا عندما يزورون عاصمة بلادهم ، فتبهرهم المناظر التى يرونها .

هذا فضلا عن أن الهيكل كان من أروع التحف الفنية فى البناء فى العالم القديم . فقد أعدت له هضبة تبلغ مساحتها نحو ألف متر مربع على قمة جبل صهيون . وفى الجانب البعيد منها بنى الهيكل الداخلى نفسه (القدس وقدس الأقداس) من الرخام الأبيض المغشى بالذهب ، وكان يلمع فى أشعة الشمس حتى أن العين لا تكاد تقوى على النظر إليه — وكان يفصل بين المدينة السفلى والجبل الذى عليه الهيكل واد اسمه « وادى صوروبيون » ، وفوق هذا الوادى قنطرة هائلة يبلغ مدى قوسها ١/ ٢ ٤١ قدما ومقامة على أعمدة من الحجارة طولها ٢٤ قدما وعرض الحجر ٦ بوصات .

وكانت منطقة الهيكل محاطة بأروقة ضخمة ، مثل رواق سليمان ، والرواق الملكى . وكانت هذه الأروقة تستند على أعمدة منحوتة ، وكل عمود من كتلة واحدة من الرخام ، وارتفاع العمود ١ / ٢ ٣٧ قدما وسمكه يحتاج إلى ثلاثة رجال حتى يمكن أن يحيطوه بأيديهم — وفى زوايا الهيكل وجدت أحجار زوايا طولها يبلغ من عشرين إلى أربعين قدما ، ووزن الواحد أكثر من مائة طن ... ولعل الكيفية التى قطعت بها هذه الأحجار ووضعت فى مكانها تعتبر سرا من أسرار فن العمارة القديم ... لذلك لا عجب إذا كان هؤلاء الجليليون الصيادون ينظرون فى دهشة وانبهار إلى هذه الأحجار الهائلة ، وتلك الأبنية الرائعة ، ويوجهون نظر يسوع إليها .

وقد كان جواب يسوع أنه سيأتى يوم لا يبقى من هذه الحجارة حجر لا ينقض — وقد كان كلامه صحيحا ، ففى عام ٧٠ م طفح كيل غضب الرومان ضد عناد اليهود وثوراتهم ، وتركوا الوسائل السلمية التى استخدموها طويلا ، ولجأوا إلى القوة والتحطيم ، فدمروا أورشليم وخربوا الهيكل ، وتحققت نبوة يسوع حرفيا .

إننا نسمع هنا يسوع النبى ، فقد عرف يسوع يقينا أن سياسة العنف تنتهى حتما بالخراب ، والإنسان والأمة التى لا تقبل طريق الله ، تسير فى طريق الكوارث ، حتى فى الأمور المادية ... إن الإنسان والأمة التى ترفض أن تحقق آمال الله فيها ، سوف تنهار أحلامها وتخيب .

فزع الحصار المخيف

(متى ٢٤ : ١٥ ــ ٢٢)

يعتبر حصار أورشليم من أفظع أنواع الحصار التى عرفها التاريخ ، فقد كانت أورشليم من المدن التى يصعب الإستيلاء عليها ، إذ كانت مقامة على جبل ، وكان يحميها جماعة من المتعصبين الدينيين ، لذلك قرر تيطس أن يحاصرها حتى يهلك سكانها من الجوع .

ولا يستطيع أحد أن يجزم بمعنى « رجسة الخراب » ، إلا أن العبارة نفسها مأخوذة من دانيال ١٢ : ١١ وقد وردت هناك بالتعبير « رجس المخرب » وأن هذا الرجس سيقام فى الهيكل . ودراسة التاريخ تبين لنا أن ما ورد فى سفر دانيال يشير إلى ما حدث نحو عام ١٧٠ ق . م عندما قرر انتيخوس ابيفانوس ملك سورية أن يمحق الديانة اليهودية وينشر فى بلاد اليهودية الديانات والممارسات اليونانية ، فاحتل أورشليم ، ونجس الهيكل إذ أقام مذبحا للإله الأوليمبى زيوس فى رواق الهيكل ، وقدم عليه ذبائح من الخنازير ، كما حول حجرات الكهنة وأروقة الهيكل إلى مواخير للفساد . لقد كانت هذه محاولة متعمدة لمحو الديانة اليهودية ــ ولقد تنبأ يسوع أن مثل هذا العمل سيتكرر مرة ثانية ، ويتنجس الهيكل ، كما تنجس فى الماضى . فقد رأى يسوع أن الأحداث الفظيعة التى جازت فيها مدينة أورشليم منذ مائتى عام ستتكرر ، إلا أنه فى هذه الجولة لن يقوم زعيم يخلصها كما قام يهوذا المكابى فى المرة السابقة ...

هذه المرة لن يكون خلاص ، ولا إعادة لتطهير الهيكل ، بل خراب شامل نهائى ...

وتنبأ يسوع عن ذلك الحصار أنه سيكون قاسيا ، حتى أنه لو لم تقصر أيامه ، فلن يبقى إنسان على قيد الحياة . ويمكننا أن نلاحظ كيف قدم يسوع نصيحة عملية للناس ، أنه عندما تحدث هذه الأمور ، عليهم أن يهربوا إلى الجبال . لكن الناس لم يسمعوا بهذه النصيحة عندما جاء وقت تحقيق النبوة ، بل حشروا أنفسهم فى داخل المدينة ووراء أسوارها ، بل إن كثيرين جاءوا من خارج المدينة إلى داخلها ، وهذا التصرف الأحمق ضاعف من المأساة لأنه جعل المجاعة قاسية مئات الأضعاف .

وإذا رجعنا إلى التاريخ الذى سجله يوسيفوس ، نتحقق من صدق نبوءة يسوع عن مستقبل أورشليم ، فهو يكتب عن الحصار والمجاعة قائلاً :

« اتسعت المجاعة وشملت عددا هائلا من البيوت ، وكنت ترى حجرات كثيرة تمتلىء بالنساء والأطفال يموتون جوعا ، وحوارى وأزقة المدينة تمتلىء بالعجائز والصبية يتضورون فى الأسواق كالأشباح باحثين عن كسرة خبز ، وعبثا يحاولون ، فيسقطون على الأرض من الإعياء ، ويبقون هكذا حتى النفس الأخير . ولم تكن هناك قدرة عند الأحياء أن يدفنوا الأموات ، إذ كانوا قد أصابهم الاعياء ، وأدركوا أنهم هم أيضا سيموتون بدورهم .... وقد كان البعض يموتون أثناء عملية دفن الموتى ، والبعض ساروا إلى توابيتهم قبل أن تدركهم المنية . وكنت تسير فلا تسمع نواحا كما جرت العادة أن ينوح الناس على موتاهم ، لأن المجاعة طغت على جميع مشاعر الناس ، فكان الذين على وشك الموت ينظرون بعيون جامدة وأفواه مفتوحة إلى الذين ماتوا ، والصمت يسود الجميع

فى المدينة ... وكان الجميع يموتون وعيونهم متجهة نحو الهيكل » . (من كتاب حروب اليهود ليوسيفوس ٥ — ١٢ — ٣) .

ويذكر يوسيفوس قصة فظيعة عن امرأة ذبحت رضيعها وأكلته — كما يذكر أن الرومان بعد أن استولوا على المدينة راعهم هول ما رأوه ، إذ أنهم شاهدوا عائلات بأسرها ميتة ، وحجرات تغص بأجساد الموتى ... وقد زاد الحالة سوءا تقاطر الناس داخل المدينة عند بدء الحرب ، بدلا من هروبهم إلى الجبال — ويذكر يوسيفوس أن الرومان استطاعوا أن يأسروا نحو ٩٧ ألفا بينما مات نحو مليون ومائة ألف شخص .

هذا ما رآه يسوع بعين النبوة . ويجب ألا ننسى أن الجماعات والأمم والأفراد تحتاج إلى نصيحة المسيح وحكمته ، وما لم يسترشد قادة الأمم بالمسيح فلن يستطيعوا أن يقودوا الآخرين إلا إلى المصائب الروحية والمادية أيضا .

ولم يكن يسوع حالماً بالخيال ، بل وضع قواعد عملية لرخاء الشعوب ، وإذا تجاهلتها الأمم فإنها ستعانى البؤس والهلاك .

يوم الرب

(متى ٢٤ : ٦ — ٨ و ٢٩ — ٣١)

لقد رأينا قبلا أن جزءا هاما من الفكرة اليهودية عن المستقبل كانت فكرة « يوم الرب » ، وهو اليوم الذى يتدخل فيه الله مباشرة فى التاريخ البشرى ، وعندما يبدأ الدهر الحالى بكل شروره ، التى لا علاج لها ، فى التحول ليخلق خلقا جديدا فى الدهر الآتى .

ومن الطبيعى أن كتبة العهد الجديد ، إلى حد كبير ، اعتبروا « يوم الرب » ومجىء المسيح ثانية شيئا واحدا ، لذلك أخذوا جميع الصور التمثيلية التى كانت عند اليهود ليوم الرب ، ووصفوا بها مجىء المسيح ثانية .

وعندما نضع هذا فى اعتبارنا دائما ، ينبغى أن نذكر حقيقة جوهرية هامة وهى أنه لا ينبغى أن نعتبر هذه الأوصاف بالمعنى الحرفى ، فهى مجرد صور ورؤى ، هى محاولات للتعبير بلغة الإنسان عما لا يمكن وصفه أو التعبير عنه ، ولتصوير ما لا يمكن تصويره باللغة الإنسانية .

على أننا نستطيع أن نرى حقائق عظيمة تطل علينا من خلال هذه الصور :

١ — فهى تؤكد لنا أن الله لم يهجر هذا العالم بسبب شروره . فالعالم لا يزال هو الميدان الذى يتحقق فيه قصد الله ، والله لا يفكر فى هجران العالم بل فى التدخل المباشر فى أحداثه .

٢ — وهى تؤكد لنا أنه حتى لو وصل الشر فى العالم إلى ذروته وقمته ، فإننا لا ينبغى أن نفشل . فالصورة اليهودية ليوم الرب تظهر أنه يسبقه انهيار تام للمبادىء الخلقية ، وتفكك ظاهرى

لهذا العالم .... لكن هذا ليس إنذارا بالخراب ، بل هو مقدمة لإعادة خلق العالم من جديد .

٣ ـــ والصورة تبين لنا أن الدينونة والخليقة الجديدة كلاهما أكيد .. فالله يتجه إلى العالم بالعدل والرحمة معا ، وليست خطة الله هى إزالة العالم بل خلق عالم يكون قريبا إلى رغبة قلب الله .

وعلينا أن نذكر دائما أن قيمة هذه الصور ليست فى تفاصيلها ودقائقها ، وهى مجرد صور رمزية لتقريب الفكرة إلى عقول الناس ، بل إن قيمة هذه الصور كامنة فى الحقائق الخالدة التى تحفظها لنا ـــ والحقيقة الأساسية فيها هى أنه أيا كانت حالة هذا العالم ، فإن الله لم ينبذه .

الاضطهاد الآتى

(متى ٢٤ : ٩ و ١٠)

هنا نجد فقرة تبين لنا إخلاص يسوع التام وصراحته الصارخة . فإنه لم يعد تلاميذه أبدا بطريق سهل ميسور ، بل وعدهم بالألم والاضطهاد والموت وكأنما الكنيسة الحقيقية ستكون دائما كنيسة مضطهدة ، مادامت تحيا فى عالم ليس مسيحيا بالحق . فمن أين يأتى هذا الاضطهاد ؟

١ ـــ ان المسيح يقدم **ولاء جديدا** ... فمرارا وتكرارا أعلن يسوع أن ولاءنا الجديد يجب أن يفوق كل الروابط الأرضية . ولقد كانت الكنيسة فى عصرها الأول تقسم العائلات والبيوت عندما يقبل بعض أفراد الأسرة الإيمان بالمسيح ويرفض البعض الآخر هذا الإيمان ... وهكذا يحدث الخلاف والانقسام لأن ولاء المسيحى الأول هو لمسيحه بلا شك .

٢ ـــ والمسيح يقدم لنا **مقياسا جديدا** ... فهناك عادات وأساليب فى الحياة قد يقبلها العالم ، ولكن المقاييس المسيحية لا تقبلها . وما يثير الناس ضد المسيحية أحيانا أنها دينونة عليهم وعلى أسلوب حياتهم ، سواء فى العمل أو فى العلاقات الشخصية ... لذلك فكل من لا يرغب فى تغيير أسلوب حياته لابد أن يكره المسيحية ويقاومها .

٣ ـــ والمسيحى إذا كان مسيحيا حقيقيا لا بالإسم فقط ، يقدم للعالم **نموذجا جديدا للحياة** ، فيكون فى حياته اليومية جمال يجعل حياة الآخرين تظهر قبيحة بالنسبة لجمال حياته ، فالمسيحى يكون نورا للعالم ، لا بمعنى دينونة الآخرين وانتقادهم ، ولكنه يعلن فى حياته الشخصية جمال الحياة الممتلئة بالمسيح ، وقبح الحياة الخالية من المسيح .

٤ ـــ وكأنما فى كل هذه الأمور تقدم المسيحية **ضميرا جديدا** . فالفرد المسيحى والكنيسة المسيحية فى العالم تعلن الحق الإلهى ولا تسكت عن المظالم خوفا وجبنا ... وهذا يعرضها للاضطهاد إزاء قوى الظلم والطغيان التى تريد أن تسكت الضمير أحيانا كثيرة .

أخطار تواجه الإيمان

(متى ٢٤ : ٤ و ٥ و ١١ ــ ١٣ و ٢٣ ــ ٢٦)

رأى يسوع أن المستقبل يحمل خطرين كبيرين يهددان الكنيسة المسيحية .

١ ــ الخطر الأول هو **القادة الكذبة** ... والقائد الكاذب أو النبي الكاذب هو من يسعى لينشر فكرته الشخصية عن الحق بدلا من نشر الحق المعلن فى يسوع المسيح . إنه من يسعى لينشر أفكاره الذاتية بدلا من حق الله ، فضلا عن محاولاته لجذب الأنظار والناس إلى شخصه هو بدلا من دعوتهم إلى يسوع المسيح ــ والنتيجة الحتمية هى أن مثل هذا القائد ينشر الانقسام والخلاف بدلا من الوحدة والبنيان .

إن الأسلوب الوحيد للحكم على أى قائد أو نبى هو مشابهته ليسوع المسيح .

٢ ــ والخطر الثانى هو **الفشل وفقدان الأمل** . فهناك من تبرد محبتهم بسبب كثرة الإثم والشر فى العالم .

إن المسيحى الحقيقى هو من يتمسك بإيمانه عندما يكون التمسك بالإيمان من أشق الأمور .. هو من يقف وسط جميع العوامل المثبطة للهمم ثابتا عالما أن يد الرب لم تقصر ، وأن قوته لم تقل أو تضعف .

المجىء الثانى

(متى ٢٤ : ٣ و ١٤ و ٢٧ و ٢٨)

هنا يتحدث يسوع عن المجىء الثانى . والتعبير « المجىء الثانى » لم يرد على الإطلاق فى العهد الجديد ، ولكنه يستخدم كلمة يونانية للدلالة على مجىء المسيح فى مجده ، وهى كلمة « باروسيا Parousia » اليونانية وهى تدل على وصول الملك إلى محل سلطانه ، أو وصول الوالى إلى منطقة حكمه وشعبه ، فمعناه المجىء بسلطان وقوة .

وقد وردت هذه الكلمة مرارا فى باق كتب العهد الجديد ، لكنها لم ترد فى البشائر إلا فى متى ٢٤ : ٣ ، ٢٧ ، ٣٧ ، ٣٩ .

وباق الأصحاح الرابع والعشرين ، يتحدث عن هذا المجىء الثانى ، وسندرسه بالتفصيل ، إلا أننا نريد أن نذكر هنا أن عقيدة المجىء الثانى للمسيح تعبر عن حقيقتين جوهريتين :

١ ــ فهى تؤكد النصرة النهائية للمسيح . فهذا الذى علقوه على صليب سيصير يوما سيد الجميع . إن النهاية المجيدة مؤكدة بالنسبة للمسيح ، وهى ملكه الشامل على كل العالم .

٢ — وهى تبين لنا أن التاريخ يسير نحو خطة وهدف معين . ففى بعض الظروف يشعر الناس أحيانا أن التاريخ يتجه إلى الفوضى وعدم النظام ويمتلىء سجله بمخازى الناس وشرورهم ، وتدور عجلته متكررة إذ يعيد التاريخ نفسه بين حين وآخر . وقد اعتقد الرواقيون أن هناك دورات تاريخية معينة ، فى نهاية كل دورة ينهار العالم ، ثم يبدأ التاريخ من جديد . وقد كتب كريسبس قائلا « وهكذا يعود العالم من جديد كما كان ، فتسير النجوم فى مداراتها ، كما كانت فى الماضى ، ويعود سقراط وأفلاطون وكل إنسان إلى الحياة ثانية مع الرفاق والأصدقاء ، وتعود كل مدينة وقرية وحقل كما كانت وهكذا تتكرر الدورة ، إلى الأبد » .

وإن هذه لفكرة مقبضة قاتمة ، أن طاحونة الحياة تسير بلا تقدم ، وفى تكرار ممل ، ولا مفر منها .

أما عقيدة المجىء الثانى فتوضح لنا أن العالم يسير ، لا فى دورات مملة متكررة ، إنما يتحرك نحو هدف معين ... وهذا ليس التفكك والخراب ، وإنما هو الملكوت الشامل الأبدى لله .

مجىء الملك

(متى ٢٤ : ٣٢ — ٤١)

هذا الجزء من رواية الانجيل من أصعب الأجزاء فى تفسيرها . فهو مكون من قسمين ، ويبدو كأنما يناقض أحدهما الآخر . فالقسم الأول (أعداد ٣٢ — ٣٥) يبدو كأنه يبين أنه كما يستطيع المرء أن يعرف قرب حلول الصيف من العلامات والظواهر الطبيعية ، هكذا يمكن للإنسان أن يعرف قرب المجىء الثانى للمسيح من علامات فى أحداث العالم . ثم يذكر لنا هذا الجزء ما يفهم منه أن المجىء الثانى سيحدث فى زمن حياة ذلك الجيل من الناس ... الجيل الذى كان يسمع كلمات يسوع فى ذلك الوقت .

والقسم الثانى (اعداد ٣٦ — ٤١) يتحدث بتأكيد أنه لا يستطيع أحد أن يعرف موعد المجىء الثانى ، لا الملائكة ، ولا يسوع نفسه ، بل الله وحده هو الذى يعرف ، لأنه سيأتى فجأة كما يحدث المطر المفاجىء بعد سماء صافية .

هنا نجد صعوبة حقيقية فى التوفيق بين الرأيين ، وهى صعوبة إن كنا لا نستطيع أن نجد لها حلا كاملا ، فلا بأس من مواجهتها .

ولنبدأ بما جاء فى عدد ٣٤ « الحق أقول لكم لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله » ... وعندما ندرس هذا القول نجد أمامنا ثلاثة احتمالات للتفسير :

١ — إذا كان يسوع يشير بذلك إلى مجيئه الثانى ، فهل أخطأ فى تقدير وقت هذا المجىء الثانى ؟ وظن البعض أن يسوع فى بشريته كان يتوقع سرعة مجيئه الثانى قبل أن يمضى ذلك الجيل من سامعيه ... على أننا وإن كنا نعتقد أن بشرية يسوع كانت تشتمل على بعض قيود الجسد كالجوع والعطش والتعب كإنسان ، لكننا لا نتفق قط مع أصحاب الرأى القائل بان يسوع قد أخطأ فى

تقدير حقيقة روحية هامة كالمجيء الثاني .

٢ ــ الرأى الثانى يقول إن ما ذكره يسوع قد يكون مختلفا بعض الشيء عما جاء فى رواية متى ، وأن يسوع ربما كان يتحدث عن مجيء ملكوت السموات بمجد وقوة ، لكن البشيرين اعتقدوا أنه كان يتحدث عن مجيئه الثانى مع أن هذا يختلف عن ذلك ــ ويرجح أصحاب هذا الرأى أن يسوع كان يتحدث عن مجيء ملكوت الله بقوة كما ذكر فى (مرقس ٩ : ١) « وقال لهم الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة » . وقد تحقق هذا فعلا بانتشار المسيحية فى جهات كثيرة فى العالم أثناء حياة بعض الناس من ذلك الجيل .

إلا أن المسيحيين الأولين وهم فى موقف مواجهة الألم والاضطهاد ، كانوا يتوقون إلى المجيء الثانى للمسيح لينتهى جهادهم ، لذلك أخذوا بعض التعبيرات التى ذكرها يسوع عن ملكوت السموات ، وفسروها أنها عن المجيء الثانى .

٣ ــ والرأى الثالث يقول : لماذا لا يكون المقصود هنا هو الأحداث المشار إليها فى بداية الأصحاح . وبذلك تشير العبارة « حتى يكون هذا كله » إلى خراب أورشليم . ولا يكون حديث هذه الآيات عن المجيء الثانى ، بل عما سيحدث لأورشليم من خراب ودمار . وهذا قد تحقق فعلا بعد نحو أربعين سنة .

واذا اعتبرنا أن الآيات ٣٢ ــ ٣٥ لا تشير إلى المجيء الثانى ، بل إلى خراب أورشليم تزول كل صعوبة .

أما القسم الثانى (أعداد ٣٦ ــ ٤١) فإنها تشير فعلا إلى المجيء الثانى ، وهى توضح لنا الحقائق الهامة التالية : ــ

١ ــ فهى تؤكد أن ساعة المجيء الثانى معلومة لله وحده . وكل تخمين ومحاولة لتحديد وقت المجيء تعتبر تجديفا على الله ، لأن من يقوم بهذا العمل ، يريد أن يصل إلى أعماق الله لينتزع أسرارا لا يعلمها إلا الله وحده . إن واجب الإنسان أن يستعد ، ويسهر ، لا أن يتكهن ويخمن .

٢ ــ وهذه الآيات توضح لنا أن وقت المجيء سيكون مفاجأة مذهلة لكل المنغمسين فى الماديات . ففى قصة نوح نرى أنه كان يستعد للطوفان ، بينما كان باقى الناس منشغلين فى الطعام والشراب والزواج ، لذلك فقد جرفهم الطوفان على غرة .

إن هذه الآيات تحذير لنا أن لا نتغمس فى الدنيويات بحيث تنسينا الأبدية ، وألا تجعل أمور هذا العالم تجتذب انتباهنا بحيث تمنعنا أن نذكر أن هناك إلها بين يديه حياتنا وموتنا ، وأنه عندما يدعونا فى أى وقت ، صباحا أو ظهرا أو مساء ، ينبغى أن نكون على استعداد .

٣ ــ وهى توضح لنا أن وقت المجيء الثانى سيكون وقت فرز ودينونة ، عندما يجمع يسوع المسيح من له .

وما عدا هذه الحقائق ، فليس من شأننا ، لأنها أشياء جعلها الله فى سلطانه ومعرفته وحكمته .

الاستعداد لمجيء الملك

(متى ٢٤ : ٤٢ — ٥١)

هنا نجد نتيجة ضرورية وعملية لما سبق . فإذا كان يوم المجيء الثانى للسيد المسيح ، وساعة مجيئه لا يعرفهما إلا الله وحده ، فينبغي أن تكون الحياة كلها استعدادا دائما لهذا المجيء . ومما ذكر نستطيع أن ندرك خطية عدم الاستعداد :

١ — فالحياة دون سهر واستعداد تكون عرضة للكوارث .

فاللص لا يرسل رسالة يذكر فيها متى سيقتحم البيت ليسرقه ، لأن سلاحه الأساسى هو المباغتة والمفاجأة ، لذلك فصاحب البيت الذى يحتوى على الكنوز والنفائس ، عليه أن يحرس بيته بيقظة دائمة . وقد ذكر السيد هذا التشبيه لبيان ضرورة الاستعداد لما لا نعرف وقت حدوثه ، إلاّ أن سهر المؤمن واستعداده للمجيء الثانى ليس سهر الخائف المذعور ، بل سهر المنتظر المشتاق لمجيء المجد والسرور .

٢ — ومن المخاطر التى يتعرض لها الإنسان ، إحساسه بأن هناك متسعا من الوقت دائما ، لأن الواقع ليس كذلك ، وهكذا يجلب الإنسان على نفسه المتاعب .

فقد كان العبد — فى المثل — يمنى نفسه بارتياح وهمى أنه سيجد الوقت الكافى ليعيد كل شيء إلى نصابه قبل أن يعود سيده . وقد اعتقد أنه لا يحتاج أن يفكر فى عودة سيده مدة من الزمن ، لكن الأمر لم يكن كذلك .

هناك أسطورة عن ثلاثة شياطين تحت التمرين ، كان عليهم أن يحضروا إلى أرضنا لاستكمال تدريبهم . لذلك أخذوا يحدثون إبليس رئيس الشياطين بخطتهم لغواية البشر . فقال الأول « سأقول للناس إنه لا إله » ، فرد عليه ابليس : إن كثيرين سوف لا ينخدعون بهذا فهم يعلمون أنه يوجد إله . وقال الثانى : « سأقول للناس إنه لا جهنم » ، فرد عليه ابليس أنه لن يغرر بأحد بهذه الوسيلة لأن الناس يعلمون ، حتى فى حياتهم على الأرض ، أن هناك جحيما للخطية . وقال الثالث « سأقول للناس لا داعى للعجلة » ، فقال له ابليس : « اذهب فإنك ستغرر بالناس ألوفا ألوفا » .

إن أخطر وهم يمر فيه الإنسان هو الإحساس بأنه يوجد متسع من الوقت وأخطر يوم فى حياة الإنسان هو اليوم الذى يتعلم فيه كلمة « غدا » . فهناك أمور لا تحتمل التأجيل ، لأنه لا يستطيع إنسان أن يعرف ما إذا كان سيحيا إلى الغد .

٣ — وأساس الرفض الذى يلاقيه الإنسان هو فشله فى أداء الواجب ، والمكافأة أساسها الإخلاص فى العمل .

فالعبد الذى قام بواجبه بأمانة ، سينال مكانا أعظم ، والعبد الذى فشل فى أداء واجبه عومل بشدة وقسوة .

والنتيجة الحتمية لذلك هي أن أفضل مظهر يرانا فيه المسيح عندما يجيء هو انشغالنا بعملنا وواجبنا بأمانة وإخلاص .

وأيا كان هذا العمل ، فإن يسوع سيفرح بمن يجدهم يؤدون واجبهم ، وسيشترك العامل المخلص في هذه الأفراح .

الأصحاح الخامس والعشرون

مصير غير المستعدين

(متى ٢٥ : ١ ــ ١٣)

إذا نظرنا إلى هذا المثل فى ضوء ما نشاهده فى حفلات العرس فى العصر الحديث ، فإنه يبدو لنا بعيدا عن الواقع ، لكننا إذا عرفنا ما كان يحدث فى ذلك الزمان فى حفلات العرس فى فلسطين ، فإننا ندرك أن جميع ما ذكر فى هذا المثل كان يمكن أن يحدث فى عرس بقرية فى فلسطين .

كان العرس حدثا عظيما فى القرية ، وكان جميع سكان القرية يتطلعون لرفقة العريس والعروس إلى بيتهما الجديد ، متخذين أطول طريق ممكن لينالوا التحيات والتمنيات من أكبر عدد من الناس على طول الطريق . وقد كانت التقاليد اليهودية توصى الجميع من سن السادسة إلى الستين أن يرافقوا موكب العرس ، بل أنه كان من المسموح أن يترك دارس الشريعة دراسته لها مؤقتا ليشترك فى مباهج العرس .

كان العروسان فى فلسطين لا يتركان القرية لقضاء « شهر العسل » ، كما يحدث الآن فى بعض البلدان ، بل كانا يمكثان فى البيت مدة أسبوع تقام خلاله الولائم كل يوم ، وكان الناس يعاملون العروسين كأمير وأميرة ، خلال ذلك الأسبوع الممتاز فى حياتهما ، وكان الأصدقاء المقربون يدعون إلى ولائم ذلك الأسبوع .

لقد كانت مأساة العذارى الجاهلات فى القصة أنهن فقدن فرصة المشاركة فى ولائم ذلك الأسبوع .

ويذكر بعض الدارسين للتاريخ أن موكب العريس لم يكن محدد الوقت ، بل كان يأتى فجأة فى أى وقت ، ولو فى منتصف الليل ، ولم تكن هناك وسيلة لمعرفته إلا سماع صوت المنادى الذى يسير فى شوارع القرية قبيل الموكب قائلا « هوذا العريس قادم » !

فهذا المثل الذى ذكره يسوع ، لا يخرج عن كونه وصفا لما يمكن حدوثه بالفعل فى ذلك الوقت .

ولهذا المثل ــ شأن كل أمثال السيد المسيح تقريبا ــ رسالة مباشرة خاصة ، وأخرى واسعة المدى عامة .

أما الرسالة المباشرة ، فهى تتجه إلى اليهودية . لقد كانوا هم الشعب المختار ، وكان تاريخهم يؤدى إلى مجىء ابن الله ، وكان ينبغى أن يكونوا فى انتظاره عندما يجىء . لكنهم بدلا من أن يستعدوا لهذا المجىء ، ظلوا بلا استعداد ، لذلك أغلق الباب دونهم ... فهذا المثل إذاً يصف المأساة التى حلت باليهود بسبب عدم استعدادهم وعدم انتظارهم للمسيا المنتظر ــ المسيح .

أما الرسالة العامة البعيدة المدى ، فهى تحمل تحذيرين :

١ ـــ فالمثل ينبهنا أنه توجد أمور لا يمكن الحصول عليها فى آخر فرصة فالتلميذ الذى يؤجل استعداده للامتحان إلى آخر أسبوع فى الدراسة مثلا ، لا يستطيع أن يحصل على النتيجة التى يرجوها .

والإنسان الذى يهمل فرصة تنمية شخصيته أو فرصة الحصول على مهارة معينة ، لا يستطيع أن يحصل عليها فى آخر فرصة عندما يتطلب الموقف منه ذلك ليصل إلى مركز معين . هكذا الحال بيننا وبين الله . فمن السهل أن نهمل فى الاهتمام بحياتنا الروحية ، حتى أننا لا نكون مستعدين لمواجهة الله ، إنها لمأساة حقا أن يظل المرء ساهيا حتى تضيع الفرصة منه ولا يمكنه اقتناصها .

٢ ـــ والمثل ينبهنا أنه توجد أشياء لا يمكن اقتراضها أو استعارتها من الآخرين ، فلم يكن ممكنا للعذارى الجاهلات أن يقترضن زيتا من الحكيمات عندما اكتشفن حاجتهن إلى الزيت ، هكذا فى العلاقة مع الله ، فالمرء لا يستطيع أن يستعير هذه العلاقة من غيره ، بل ينبغى أن يمتلكها هو شخصيا ، والإنسان لا يستطيع أن يستعير شخصية آخر أو أخلاقه ، بل ينبغى أن تكون الأخلاق نابعة من حياته هو ، فالمرء لا يستطيع أن يحيا معتمدا على رأس مال غيره فى الأمور الروحية ... فهناك أشياء ينبغى أن يكتسبها الإنسان ويمتلكها لنفسه ، ولا يمكنه استعارتها من الغير .

لقد كان هذا المثل الذى ذكره السيد المسيح ، نبعا فياضا لكثير من القصص والقصائد الأدبية التى وضعها الناس ، ليشرحوا بها مأساة الفرصة الضائعة ، وياله من مأساة تثير الدموع !! ...

دينونة الموهبة المدفونة

(متى ٢٥ : ١٤ ـــ ٣٠)

هذا المثل ، نظير المثل السابق ، يحمل رسالة مباشرة لمن سمعوه لأول مرة ، كما يحمل مجموعة من الدروس الدائمة لنا اليوم . وقد أطلق على هذا المثل أنه « مثل الوزنات » . والوزنة لم تكن فى فلسطين نوعا من العملة ، بل كانت مقدارا معينا من الوزن ، لذلك تتوقف الوزنة على نوع المعدن المأخوذة منه ، سواء أكان نحاسا أم ذهبا أم فضة .

وقد كان المعدن الشائع فى ذلك الوقت هو الفضة ، لذلك فوزنة الفضة تعادل نحو ٢٥٠ جنيها .

وليس من شك أن المثل يوجه الاهتمام نحو العبد الكسلان البطال الذى تلقى وزنة واحدة . فإلى من يشير هذا العبد ؟ ومن كان هدف توبيخ يسوع فى هذا المثل ؟

الواضح أن الإشارة هنا هى إلى جماعة الكتبة والفريسيين ، واتجاههم نحو الناموس وشريعة الله . فإن العبد الكسلان دفن وزنته فى الأرض ، حتى يستطيع أن يسلمها إلى سيده تماما كما تلقاها ... وقد كان هذا هدف الكتبة والفريسيين أن يحتفظوا بالناموس كما هو . وحسب تعبيرهم الخاص أرادوا أن « يقيموا سياجا حول الناموس » ، لذلك فأى تطوير أو تغيير ، وأى جديد كان فى نظرهم أناثيما ، أى ملعون .

لقد كان أسلوبهم هو تجميد الحق الديني ، وكراهة كل ما هو جديد . وهو تماما موقف صاحب الوزنة الواحدة الذى رغب أن يحتفظ بالأمور كما هى تماما ؛ ولأجل هذا كانوا يستحقون الدينونة — ففى هذا المثل يقصد المسيح أن يبين لنا أنه لا دين دون مخاطرة ، وأن صاحب العقل المغلق لا نفع له عند الله .

على أن هناك دروسا أخرى فى هذا المثل :

١ — فهو يبين لنا أن الله يعطى الناس عطايا مختلفة . فواحد نال خمس وزنات ، وآخر اثنتين ، وآخر وزنة .

فليس المهم هو عدد الوزنات أو العطايا التى يتلقاها الإنسان ، بل الأهم كيف يستخدمها . والله لا يتطلب من الإنسان قدرات أو امكانات ليست لديه ، لكنه يطلب من الإنسان أن يستخدم ما ناله من قدرات إلى أقصى الحدود . فالناس لا يتساوون فى القدرات ، لكنهم يمكن أن يتساووا فى الجهد . هذا المثل يبين لنا أنه أيا كان قدر ما لنا من مواهب — قليلا أو كثيرا — فعلينا أن نستخدمها فى خدمة الله .

٢ — وهو يبين لنا أن مكافأة العمل الطيب هى مزيد من فرصة العمل . فالعبدان الصالحان اللذان قاما بعمل طيب نافع ، لم يأمرهما السيد بالراحة والكسل والسكوت ، لأنهما كانا أمينين ، بل أعطاهما أعمالا أعظم ، ومسئوليات أكبر فى خدمة السيد . إن مزيدا من العمل ، وليس الراحة ، هو مكافأة الجهاد .

٣ — ويبين لنا أن من يستحق العقاب ، هو من لا يحاول أن يعمل . فصاحب الوزنة الواحدة لم يفقد وزنته ، لكنه لم يعمل بها شيئا ... إنه لم يحاول أن يتاجر .. فإنه لو خاطر وتاجر بها ، فإنه حتى لو خسر الوزنة ، لكنه كان يكون فى موقف أفضل مما بقى عليه دون عمل على الإطلاق .

إن تجربة أصحاب الوزنة الواحدة إنهم يستصغرون ما لديهم من مواهب وامكانات ، فيكفون عن استخدامها .. لكن هذا هو الخطأ . والخطر الذى يستوجب العقاب .. إنهم لا يحاولون أن يستخدموا ما لديهم .

٤ — وهذا المثل يضع أمامنا قانونا للحياة ، نتبين أنه صحيح رغم قساوته الظاهرة ، فكل من له يعطى فيزداد ، ومن ليس له فالذى عنده يؤخذ منه . فإذا استخدم الفرد ما لديه من مواهب وإمكانات فإنها تنمو وتزداد . لكنه إذا لم يستخدم ما لديه من إمكانات ، فإنه سيفقدها حتما . إذا كانت لديه مهارة أو قدرة خاصة فى الأدب أو الفن أو اللعب ، فينبغى أن يستخدم هذه القدرة . وكلما جاهدنا زادت قدرتنا على استخدامها .. أما إذا أهملناها ، فقدناها .

إن هذا ينطبق على العزف على البيانو ، والترنيم ، والكتابة ، والتفكير ، وكل شيء .

إن درس الحياة الصادق ، هو أن الطريق الوحيد للاحتفاظ بمواهبنا ، هو أن نستخدمها فى خدمة الله ، وخدمة اخوتنا فى الإنسانية .

مقياس الله فى الدينونة

(متى ٢٥ : ٣١ ـــ ٤٩)

هنا نجد مثلا من أوضح الأمثال التى نطق بها السيد المسيح ، ورسالته واضحة بللورية فى نقاوتها وبساطتها . هذه الرسالة هى أن الله سيحكم علينا حسب تجاوبنا مع الحاجة البشرية . فدينونة الله لن تضع فى اعتبارها المعرفة التى اكتسبناها ، أو الشهرة التى نتمتع بها ، أو الثروة التى نقتنيها ، لكنها تضع فى اعتبارنا مقدار المعاونة التى نقدمها للآخرين (وهذه ولا شك نتيجة حتمية لحلول المسيح فى القلب بالإيمان ، واكتساب الإنسان طبيعة المسيح الجديدة ، لأنه لم يأت ليُخدم بل ليَخدم) .

على أن المثل يلقى ضوءا على شكل الخدمة التى نقدمها للآخرين :

١ ـــ فهى معونة فى أمور بسيطة . فأمثلة الخدمات التى ذكرها المسيح ، هى خدمات بسيطة يمكن لأى إنسان أن يؤديها ، مثل تقديم وجبة طعام لجائع ، أو كأس ماء بارد لعطشان ، أو استقبال غريب والترحيب به ، أو عيادة المريض ، أو زيارة السجين .

إنها ليست مسألة دفع آلاف الجنيهات ، أو كتابة اسم الشخص فى سجلات التاريخ ... لكنها مجرد خدمة بسيطة لمواجهة ما يحتاج إليه الناس يوما فيوما . إن هذا المثل يفتح باب المجد لأبسط الناس .

٢ ـــ وهى معونة لا نحسب لها حسابا فى سجل أعمالنا . فالذين قاموا بهذه الأعمال لم يخطر على بالهم أنهم يساعدون المسيح ، ويختزنون رصيدا من الفضائل الخالدة ، بل كانوا يقومون بهذه الخدمات لأن هذه طبيعتهم التى لا يستطيعون أن يتخلوا عنها . كانت خدماتهم طبيعية ، نابعة من قلب محب (وهذا هو الفرق بين الأعمال الصالحة النابعة من حياة الإيمان ، والأعمال الصالحة التى أطلق عليها الكتاب أنها أعمال ميتة ، لأنها تأتى متكلفة من أصحابها ، ظانين أنهم ينالون بها بركات سماوية وهم فى هذا مخطئون) .

لذلك نرى الذين لم يقوموا بهذه الخدمات اندهشوا ولسان حالهم يقول : «لو أننا عرفنا أن هذه الخدمات تتجه إليك ، لقمنا بها مسرورين ، لكننا ظننا بأنها خدمات لا داعى لها ، لأنها نحو أناس لا يستحقونها » . ونحن نرى فى كل وقت بعض الناس على استعداد للقيام بأعمال صالحة إذا كانت تجتذب إليهم المديح والثناء والأنظار . إن الخدمة التى يرضى عنها الله هى تلك التى يؤديها الإنسان بلا دافع غير الخدمة ذاتها .

٣ ـــ ويسوع فى هذا المثل يقدم لنا الحق الرائع أن كل خدمة من هذا القبيل خدمة له شخصيا ، وكل امتناع عن تقديم مثل هذه الخدمة ، امتناع عن خدمته شخصيا . كيف يكون ذلك ؟ الواقع إننا إذا أردنا أن نبهج قلب أب ، وأن نثير مشاعر شكره ، فإن أفضل طريق لذلك هو تقديم لفتة طيبة أو خدمة لطفله . والله هو الآب العظيم ، لذلك فإن أى خدمة تقدم لأولاده ـــ وهم أخوتنا فى

الإنسانية — تبهج قلبه .

ولقد اختبر رجلان من المؤمنين صدق هذا المثل بكيفية رائعة جميلة — أولهما فرنسيس الاسيسى الذى كان غنيا ، نبيل المولد والأصل ، رفيع الثقافة ، ولكنه لم يكن سعيدا ، فقد شعر أنه ينقصه شيء ، وذات يوم كان يمتطى صهوة جواده ، فرأى رجلا أبرص ، فى قذارة تشمئز منها النفوس ، لكن دافعا داخليا غامضا دفعه أن ينزل من على ظهر جواده ، ويحتضن ذلك الرجل الأبرص بيديه ... وإذا به يرى وجه ذلك الرجل يتغير ، ليصير وجه يسوع المسيح !!

وثانيهما هو « مارتن أوف تورز » ، الذى كان جنديا رومانيا مسيحيا . وفى أحد أيام الشتاء قارسة البرد ، وعند مدخل مدينة ما ، استوقفه شحاذ وسأله إحسانا . لكن مارتن لم يكن معه شيء من النقود .. وتأمل فى الشحاذ فوجد جلده يرتعش من البرد وقد علاه اللون الأزرق ، فما كان منه إلا أن خلع معطف الجندى الذى يلبسه وشطره نصفين ، وأعطاه نصفا وارتدى هو النصف الآخر ... لقد أعطاه مما يملكه ... وفى تلك الليلة رأى مارتن حلما ، واذا بالديار السماوية تذخر بالملائكة ، ويسوع فى وسطهم ، وهو يلبس نصف معطف لجندى رومانى . وسأل أحد الملائكة يسوع « لماذا تلبس ياسيد هذا المعطف البالى الممزق القديم ؟ » فأجاب يسوع فى رقة ورضى : « لقد أعطانى اياه خادمى مارتن » .

عندما نتعلم الكرم دون حساب فى خدمة الناس فى أبسط الأمور ، سنختبر أيضا بهجة مساعدة ربنا يسوع المسيح .

الأصحاح السادس والعشرون

بداية الفصل الأخير من المأساة

(متى ٢٦ : ١ ــ ٥)

هنا نجد بداية للفصل الأخير من المأساة الإلهية ، ونجد يسوع مرة أخرى ينبه تلاميذه بما سيحدث له . لقد كان يسوع فى الأيام الأخيرة يتسم فى تصرفاته بتحد عجيب لرؤساء الدين اليهودى ، وربما تبادر إلى ذهن التلاميذ أن هدف يسوع هو استمرار هذا التحدى ، لكنه أظهر لهم مرة أخرى بوضوح أن هدفه هو الصليب .

وفى الوقت عينه كانت السلطات اليهودية ترسم مؤامراتها وخططها . وكان رئيس الكهنة فى ذلك الوقت هو يوسف قيافا . ونحن لا نعلم الكثير عن قيافا ، لكن ما نعلمه عنه هو أنه بقى مدة طويلة فى هذه الوظيفة ، وهذا يكشف جانبا من شخصية الرجل ، وتعاونه مع السلطات الرومانية . فقد كان منصب رئيس الكهنة فى الأيام القديمة منصبا وراثيا يستمر مدى الحياة ، لكن عندما استولى الرومان على السلطة فى فلسطين ، كان من يحتلون هذا المنصب يتغيرون سريعا ، فقد كان الرومان يقيمون رؤساء الكهنة الذين يسايرون مصالحهم ، ويخلعون من لا ينجح فى مسايرتهم من رؤساء الكهنة ، حتى أنه خلال الفترة ما بين عام ٣٧ قبل الميلاد ، وهو العام الذى تعين فيه آخر رئيس كهنة قبل خراب أورشليم ، تعين خلال هذه الفترة نحو ٢٨ رئيسا للكهنة . ولعل الفترة التى قضاها قيافا رئيسا للكهنة وهى عام (١٨ ــ ٣٦) الميلادى ، وهى فترة طويلة نسبيا ، تبين لنا أن قيافا كان قد برع فى فن التعاون مع الرومان ، وقد كانت هذه مشكلته . لقد كان الرومان يكرهون الشغب والاضطراب بين المدنيين . فعند أى بادرة لاضطراب داخلى أو فتنة ، كان الرومان يخلعون رئيس الكهنة ، وهذا هو السبب الذى جعل قيافا ورؤساء الشعب اليهودى وهم يدبرون خططهم للقبض على يسوع ، كانوا يخافون من الشغب ، خاصة فى العيد .

فقد كانت مدينة أورشليم فى عيد الفصح تزدحم بالناس بحالة مذهلة . ويروى يوسيفوس فى كتابه (حروب اليهود ٦ ــ ٩ ــ ٣) أن إحصاء فعليا تم فى أثناء حكم الوالى كستوس ، وكان الوالى قد أحس أن نيرون الإمبراطور لم يكن يعرف عدد الشعب اليهودى ، والصعوبات التى يواجهها الوالى بحكم اليهود ، لذلك أمر رؤساء الكهنة أن يجروا إحصاء لعدد اليهود فى أورشليم أثناء العيد . وقد تم ذلك بإحصاء عدد الحملان التى ذبحت فى الفصح ، ثم اعتبروا أن كل ذبيحة تمثل عشرة أشخاص فى المتوسط ، لأن من شريعة ذبيحة الفصح أن لا يقدمها شخص بمفرده ، وأحيانا كان يصل عدد من يقدمون ذبيحة واحدة إلى عشرين شخصا . وقد تبين أن عدد الذبائح التى ذبحت فى ذلك الفصح بلغ ٢٥٦٥٠٠ خروف ، لذلك كان تقدير يوسيفوس أنه كان فى المدينة وقت الفصح نحو مليونين وثلاثة أرباع مليون شخص .

فلا غرابة إن كانت خطة قيافا أن يمسك يسوع سرا فى هدوء خشية حدوث اضطراب بين

الناس فى المدينة ، وقد كانت الخطة أن يتم ذلك بعد العيد ، لأن كثيرين من زوار المدينة فى العيد كانوا جليليين ، وكانوا يعتبرون يسوع نبيا .. على أن يهوذا قدم إلى قيافا حلاً لهذه المشكلة ، يجعل من الميسور القبض على يسوع سرا ، وقد كان قيافا على استعداد أن يقبل أية خطة تساعده أن يتخلص من يسوع .

إسراف المحبة

(متى ٢٦ : ٦ — ١٣)

فى رواية بشائر الإنجيل لحادثة الدهن بالطيب فى بيت عنيا ، تتشابه رواية القصة فى متى ومرقس ، بينما يضيف يوحنا فى روايته أن المرأة التى سكبت الطيب على يسوع لم تكن غير مريم ، أخت مرثا ولعازر ، أما لوقا فإنه لا يروى لنا هذه القصة ، لكنه يذكر قصة مماثلة حدثت فى بيت سمعان الفريسى (لوقا ٧ : ٣٦ — ٥٠) ، والمرأة التى سكبت الطيب على قدمى يسوع فى رواية لوقا ومسحتهما بشعر رأسها ، كانت خاطئة معروفة .. وترى هل تشير رواية لوقا إلى الحادثة عينها التى يتحدث عنها كتاب البشائر الأخرى ، أم أنها حادثة أخرى ؟

فالطيب عامل مشترك فى كل الروايات ، واسم صاحب البيت أيضا هو (سمعان) . وهو فى (لوقا) سمعان الفريسى ، لكنه فى (متى ومرقس) سمعان الأبرص ، أما يوحنا فلا يذكر اسم صاحب البيت ويكتفى بأن يذكر أنه بيت مرثا ومريم ولعازر ، على أن اسم (سمعان) كان شائعا ، وفى العهد الجديد نجد على الأقل عشرة أشخاص يحملون هذا الاسم ، وفى تاريخ يوسيفوس يذكر أكثر من عشرين شخصا بهذا الاسم . على أن الصعوبة الكبرى التى تعترض من يعتبرون رواية لوقا تشير إلى الحادثة عينها التى يرويها باقى كتّاب البشائر ، أن لوقا يذكر أن المرأة كانت خاطئة معروفة ، بينما لا ينطبق هذا الوصف على مريم أخت مرثا ولعازر . ويقول البعض إن شدة محبة مريم ليسوع قد تكون نتيجة انقاذه إياها من أعماق الخطية . على أن الدلائل ترجح أن قصة لوقا تروى حادثة أخرى غير التى ذكرها الكتّاب الآخرون .

إن هذه القصة ، التى يمكن أن نطلق عليها قصة العمل الحسن ، على حد تعبير السيد المسيح ، غنية بالحقائق الأثيرة :

١ — فهى تظهر لنا **اسراف المحبة** . لقد أخذت المرأة أغلى ما لديها وسكبته على يسوع . كانت النساء اليهوديات شغوفات بالأطياب والعطور . وكثيرا ما كن يحملن قارورة صغيرة من الطيب حول اعناقهن ، وكان هذا الطيب غالى الثمن جدا . وقد ذكر مرقس ويوحنا أن هذا الطيب كان يمكن أن يباع بثلاثمائة دينار (مرقس ١٤ : ٥) (يوحنا ١٢ : ٥) وقد كان الدينار يساوى أجر عامل فى اليوم ، فكأنما كانت قارورة الطيب تساوى أجر عامل مدة عام كامل تقريبا .

ولعلنا نذكر أنه عندما كان أمام التلاميذ خمسة آلاف شخص ليفكروا فى إطعامهم ، استطاع

فيلبس أن يحسب تكاليف إطعامهم خبزا فكانوا يحتاجون إلى خبز بمائتى دينار — فكأنما كانت قارورة الطيب تساوى ما يمكن أن يطعم أكثر من خمسة آلاف شخص .

لقد كانت قارورة الطيب غالية جدا ، ولهذا قدمتها المرأة ، بل سكبتها على رأس يسوع ... لأن المحبة لا تفكر فى حساب التكاليف والنفقات ..

المحبة لا تفكر فى تضييق حدود البذل ، بل إنها تفكر بلا حدود ، ومهما أعطت ، فإنها تشعر أنها أعطت قليلا .

إننا إذا فكرنا أن نقدم للمسيح أو لكنيسته أقل ما يمكن أن نقدمه دون حرج ، نكون لم نتعلم بعد مبادىء المسيحية .

٢ — وهذه القصة تظهر لنا أن بعض الأفكار المعقولة قد تفشل أحيانا فى التعبير عن أعماق المشاعر . ففى هذه المناسبة كان صوت العقل والمنطق يقول « لماذا هذا الإتلاف ؟ » ، وكان صوته صحيحا معقولا . لكن شتان بين منطق العقل ، ومنطق العاطفة ، فصوت العقل يدعو إلى الاحتياط والحذر ، وصوت العاطفة يلبى نداء القلب . وفى الحياة مكان لمنطق العقل ، ولكن فى بعض أحايين لا يسع المحبة إلا أن تلبى مطلبها . إن العطية لا تكون عطية بالحق ما دام من السهل علينا تقديمها ، لكن العطية تصير عطية حينما تكون مرتبطة بالتضحية ، وحينما تكون أغلى مما نستطيع أن نقدم .

٣ — وهذه القصة تظهر لنا أن هناك أمورا معينة ينبغى أن نعملها عندما تسنح الفرصة ، وإلا فلن نستطيع أن نقوم بها على الإطلاق . لقد كان التلاميذ يهتمون بمعاونة الفقراء ، لكن الربيون اليهود أنفسهم قالوا : « إن الله يسمح للفقراء أن يكونوا معنا دائما ، لكى لا تضيع منا أبدا فرصة عمل الخير » .

توجد أشياء يمكننا القيام بها فى أى وقت ، وتوجد أشياء يجب علينا القيام بها حالا ، ولو ضاعت الفرصة فإنها تضيع إلى الأبد .

فقد تتحرك دوافعنا نحو عمل نبيل كريم مرة ، لكننا نتوانى فى تلبية هذا الدافع ، مؤجلين العمل لفرصة أخرى ، لكن الفرصة قد لا تعود أبدا ، فقد تتغير الظروف أو الأشخاص أو الدوافع ، وبذلك تضيع فرصة القيام بذلك العمل . إن مأساة الحياة بالنسبة لكثيرين ، هى أن حياتهم مجموعة من الفرص الضائعة للقيام بعمل جميل حسن .

٤ — وهذه القصة تؤكد لنا أن أريج العمل الحسن يبقى إلى الأبد . إن الأعمال الجميلة قليلة ، حتى أن عملا منها يتألق بلون أبيض كنور وسط عالم مظلم . وفى ختام حياة السيد المسيح ، ندرس عن كثير من الدسائس والمؤامرات ، عن المرارة والخيانة ، وفى وسط هذا الجو تظهر هذه القصة متألقة كواحدة من نور وسط ظلام تلك الأيام . وليس فى الحياة أجمل من أن يترك الإنسان وراءه ذكرى عمل جميل .

الساعات الأخيرة فى حياة الخائن

سندرس قصة يهوذا الاسخريوطى وحدة واحدة ، بدلا من دراستها على أجزاء متفرقة متباعدة ، كما يرويها إنجيل متى ، لتكون الصورة متتابعة وقريبة من الفكر والذهن .

الخائن يساوم

(متى ٢٦ : ١٤ ــ ١٦)

لقد رأينا أن السلطات اليهودية أرادت أن تجد سبيلا للقبض على يسوع دون إثارة اضطراب بين الجماهير ، والآن نجد أنهم وجدوا هذا السبيل عن طريق ما تقدم به يهوذا . ويتساءل الناس عن الدافع الذى من أجله خان يهوذا سيده ، وقد تعددت الآراء فى هذا الشأن ، ولكنها لا تخرج جميعها عن واحد من ثلاثة احتمالات .

١ ــ فقد يكون الدافع حب المال والطمع . لقد تمت هذه الخيانة حالا بعد حادثة سكب الطيب على يسوع فى بيت عنيا ، حسب رواية متى ومرقس . وعندما يروى يوحنا هذه الحادثة يضيف شارحا أن يهوذا اعترض على سكب الطيب ، لأنه كان سارقا . وكان يختلس من الصندوق الذى كان مودعا لديه (يوحنا ١٢ : ٦) .

فإذا صدق التفسير ، يكون يهوذا قد قام بأكثر المساومات دناءة فى التاريخ . والثمن الذى تقاضاه نحو خمسة عشر قرشا أو ليرة واحدة تقريبا .. لقد باع يهوذا سيده بأبخس ثمن ، فإذا كان الطمع هو الدافع إلى هذه الخيانة ، فإن ذلك يبين لنا أعماق الدركات التى يمكن أن تقود محبة المال الناس إليها .

٢ ــ وقد يكون الدافع هو الحقد المرير الناتج عن زوال الوهم والأمل الكاذب .. كان اليهود يحلمون بالقوة ، لذلك كان بينهم عدد من الوطنيين المتعصبين الذين كانوا على استعداد لاستخدام جميع الوسائل بما فيها الاغتيال للوصول إلى هدفهم ، وهو طرد الرومانيين من فلسطين ، وكان يطلق عليهم لقب « حملة الخناجر » ، لأنهم كانوا يستخدمون أسلوب القتل لتحقيق أهدافهم السياسية . وقد قيل إن يهوذا ربما كان واحدا من هؤلاء ، وقد رأى فى يسوع قائدا وزعيما أرسلته السماء ، ليقود ثورة شعبية سياسية ، مستخدما قدراته المعجزية ... لكنه بعد قليل تبين أن يسوع اختار طريقا آخر ، يقود إلى الصليب ، وفى قمة خيبة أمله ، تحول حماسه ليسوع إلى حالة من زوال الوهم ، انقلبت إلى كراهية مريرة دفعته أن يسعى لموت الرجل الذى كان يعلق عليه انتظاراته الخائبة وآماله الضائعة ، لقد كره يهوذا يسوع لأنه لم يكن المسيح الذى أراده هو أن يكونه .

٣ ــ وهناك رأى يقول إن يهوذا لم يكن يقصد موت يسوع ، فربما رأى يهوذا فى يسوع الموفد من السماء ، لكنه لاحظ أنه يتقدم ببطء نحو أهدافه ، لذلك فكر يهوذا أن يسلم يسوع ليد أعدائه ليضطر ازاء الأمر الواقع أن يظهر سلطانه ، ويبطش بأعدائه . لقد أراد يهوذا أن يتعجل يسوع فيما كان يظن أنه يسعى إليه ، أراد أن يجبره على العمل .

ويبدو هذا الرأى مناسبا للأحداث والوقائع ، وهو يفسر سبب انتحار يهوذا عندما رأى أن خطته لم تتحقق .

ومهما يكن من أمر ، فإن مأساة يهوذا كامنة فى أنه رفض أن يقبل يسوع كما هو وأراد أن يصنع من يسوع الشخصية التى يريدها هو ، هذه هى المأساة .

إن يسوع هو الذى يغيرنا ، وليس من عملنا أن نحاول نحن أن نغير يسوع أو نحاول استخدام يسوع لتحقيق أهدافنا الشخصية ، بل ينبغى أن نسلم إرادتنا له ليستخدمنا هو .

إن مأساة يهوذا هى مأساة الرجل الذى ظن أنه يعرف أفضل من الله .

نداء الحب الأخير

(متى ٢٦ : ٢٠ — ٢٥)

توجد مواقف فى هذه الفصول الأخيرة من رواية الإنجيل ، يبدو فيها يسوع ويهوذا كأنهما فى عالم وحدهما ، دون أن يشترك فى هذا العالم أحد غيرهما . فمن المؤكد أن يهوذا قام بعملية المساومة على خيانة سيده ، فى سرية تامة . لقد أخفى تحركاته وخروجه ودخوله عن سائر التلاميذ ، لأنه لو علم التلاميذ بما كان يعمله لما أبقوه على قيد الحياة . وقد استطاع يهوذا أن يخفى خطته عن التلاميذ ، لكنه لم يستطع أن يخفيها عن يسوع المسيح . هذه هى الحقيقة على الدوام . إن الإنسان يستطيع أن يخفى خطاياه عن عيون البشر ، لكنه لا يستطيع أن يخفيها عن عين يسوع المسيح الذى يعلم خفايا القلب ...

لقد عرف يسوع ، بينما لم يعرف آخر ، ما كان يهوذا ينوى أن يعمله .

وهنا تستطيع أن ترى أيضا أسلوب يسوع فى التعامل مع الخاطىء . لقد كان فى استطاعة يسوع أن يسحق يهوذا ، ويشل حركته ، أن يفنيه من الوجود تماما ، لكن السلاح الوحيد الذى يستخدمه يسوع هو نداء الحب . إنه لمن أعظم أسرار الحياة ، احترام الله لإرادة الإنسان الحرة . فالله لا يجبر الإنسان ، ولا يفرض عليه الأمور قسرا ، لكنه ينادى الإنسان .

وعندما يريد يسوع أن يدعو إنسانا لترك الخطية ، فهو يعمل أمرين : فهو أولا يواجه الإنسان بخطاياه . إنه يحاول أن يجعل الإنسان يتوقف قليلا ويفكر فيما يعمل ، كأنه يقول له « تمهل وانظر إلى ما تفكر فيه أو تفعله ...هل تستطيع حقا أن تفعل شيئا كهذا ؟ » . ولقد قيل إن أعظم حماية لنا من الخطية ، تكمن فى شعورنا بفظاعتها . ويسوع يدعو الإنسان مرارا وتكرارا أن يتوقف ليفكر ويتعقل ، لكى تصدمه فظاعة الخطية فيعود إلى صوابه .

ويسوع — ثانيا — يواجه الإنسان بشخصه . إنه يدعو الإنسان أن ينظر اليه كأنه يقول له « هل تستطيع أن تنظر إلىّ ، هل يمكنك أن تلاقى عينى ثم تذهب لتعمل ما تريد أن تعمله ؟ » .

إن نداء يسوع يهدف إلى إظهار فظاعة الخطية ، وإلى تبيان عظمة الحب الذى يشتاق إلى منع

الوقوع في الخطية .

وهنا نستطيع أن نرى فعلا شناعة تدبير عمل الخطية . إن هذه الشناعة هي فظاعة التفكير والتدبير .... فبالرغم من نداء الحب ، استمر يهوذا في تفكيره وتدبيره ، حتى بعد أن واجهه يسوع بخطيته ، وبشخصه ، لكنه لم يتراجع .

إن هناك خطية تصدر عن اندفاع وعاطفة ، وإليها ينزلق الإنسان في ثورة انفعالاته قبل أن يدرى ماذا يفعل . هذه الخطية قد تكون لها نتائج وخيمة وينبغي ألا تهون من شناعتها . لكن الأفظع منها والأشنع بما لا يقاس هي الخطية التي يدبرها الإنسان في هدوء وبرود وبعد تفكير ، ويعملها وهو يدرك تماما ماذا يفعل ... إنه يواجه شناعة عمله ، ويواجه وجه يسوع الذي يفيض حبا وعطفا ، ومع ذلك يواصل الإنسان سيره في طريق عمل الخطية .

إن قلوبنا تنحى باللائمة على الابن أو الابنة ، عندما يكسر قلب أبيه عن قصد وتدبير وهذا ما فعله يهوذا بالمسيح ... وإنها لمأساة أننا نحن أيضا كثيرا ما نفعل هذا العمل عينه المؤسف الفظيع .

قبلة الخائن

(متى ٢٦ : ٤٧ — ٥٠)

سبق أن أوضحنا أن أفعال يهوذا قد تكون ناتجة عن أحد هذه الدوافع : حب المال ، أو زوال الوهم ، أو أن يهوذا أراد أن يرغم يسوع على أن يظهر قدرته وسلطانه ، ويتعجل تسلمه زمام الثورة والسلطان . وفي الحالتين الأولتين يكون يهوذا قد أراد أن يقتل يسوع ، أما في الحالة الأخيرة فإن يهوذا يكون غير راغب في قتله ، بل على العكس يريد إرغامه على العمل .

وتفسير قبلة يهوذا للسيد ، يتوقف على أي الآراء التي نعتنقها في هذا الموضوع . فإذا كان دافع يهوذا هو حب المال أو الكراهية ليسوع تكون هذه القبلة هي أسوأ وأفظع قبلة في التاريخ ، لأنها قبلة الخيانة والغدر .

لكن دراستنا للأصل اليوناني لبعض الكلمات تكشف لنا حقائق أكثر من ذلك — فعندما أعطى يهوذا علامة لجماعة الراغبين في القبض على يسوع ، وقال لهم الذي « أقبله » هو هو امسكوه ، استخدم في كلمة « أقبله Philien » تعبيرا يدل على التقبيل العادي . لكن عندما تقدم يهوذا وقبل المسيح فعلا ، فإن الكلمة المستخدمة « وقبله Ketaphilen » تدل على قبلة حبيب ، وتشير إلى التقبيل المتكرر الحار المصحوب بالعاطفة . فلماذا فعل يهوذا هكذا ؟

ثم أننا نسأل سؤالا آخر : هل كانت هناك ضرورة لتكون هذه القبلة تمييز يسوع ؟ إن السلطات اليهودية لم تكن تطلب وسيلة للتعرف على يسوع ، بل كانت تطلب فرصة هادئة مواتية للقبض عليه . والجماعة التي جاءت لتلقى عليه الأيادي كانت من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ، ولابد أن هؤلاء الأشخاص كانوا من حراس الهيكل ، لأن هذه هي القوة الوحيدة التي كانت تحت تصرف رئيس الكهنة . وليس من المقبول عقلا أن تجهل هذه الجماعة شخصية يسوع ، وقد كان

يعلم كل يوم فى أروقة الهيكل ، وقبل أيام قليلة طهر الهيكل وطرد الصيارفة وباعة الحمام منه . لم يكن هؤلاء الناس فى حاجة إلى التعرف على شخصية يسوع ، فقد كانوا يعرفونه جيد المعرفة ولا شك ، وما دام يهوذا قد قادهم إلى مكان اختلائه فى البستان ، فلابد أنهم كانوا يعرفون الشخص الذى جاءوا ليلقوا القبض عليه .

فالرأى الأرجح إذاً هو أن يهوذا ، وقد أراد أن يوقف يسوع أمام الأمر الواقع ، ليظهر سلطانه العظيم ، تقدم وقبل يسوع قبلة التلميذ لمعلمه ، وكان يقصد ذلك ، ثم تراجع فى كبرياء وفخر منتظرا أن يسحق يسوع أعداءه ويظهر مجده والعجيب أنه منذ هذه اللحظة التى قبل فيها يهوذا سيده ، نراه يختفى من الصورة ولا نسمع عنه إلا عندما مضى وشنق نفسه .. فلم يظهر كشاهد فى محاكمة يسوع . والأرجح أن يهوذا تبين فى لحظة واحدة أنه أخطأ فى التدبير والحساب . وهكذا انزوى كسير القلب خائفا مرتعباً . ومن تلك اللحظة دخل يهوذا إلى جهنم صنعها لنفسه ... لأن أشد أنواع الجحيم ، هى عندما يتبين الإنسان فظاعة خطيته ..

فى عبوس قاتل نرى الفصل الأخير من مأساة يهوذا . ومهما فسرنا ما كان يدور فى عقل يهوذا فالحقيقة التى لا يختلف فيها اثنان أن يهوذا رأى الآن بوضوح بشاعة ما عمل . ويذكر متى أن يهوذا أخذ الفضة وطرحها فى الهيكل .

ومما يثير الالتفات أن الكلمة المترجمة « الهيكل » هذه المرة تشير إلى دار الكهنة ، أى القدس الداخلى الذى لم يمكن ليهوذا أن يدخل إليه . فقد كان الهيكل يتكون من أروقة بعضها داخل بعض . وقد جاء يهوذا فى يأس قاتل ودخل رواق الأمم ، ثم عبره إلى رواق النساء ، ثم دخل رواق الاسرائيليين و لم يستطيع أن يدخل أبعد من ذلك ، إلى رواق الكهنة الذى يقع قدس الأقداس فى نهايته . لكنه نادى على الكهنة ليتسلموا فضتهم ، وعندما رفضوا طلبه ، ألقى بالفضة إليهم داخل دار الكهنة ، ومضى وخنق نفسه .

نهاية الخائن

(متى ٢٧ : ٣ — ١٠)

وأخذ الكهنة الفضة ، ملطخة بالدماء ، حتى أنهم لم يستطيعوا أن يضعوها فى خزانة الهيكل ، لذلك اشتروا بها حقلا ليكون مقبرة للغرباء — المعتبرين نجسين فى نظر اليهود — الذين يموتون داخل مدينة أورشليم .

إن انتحار يهوذا جاء نتيجة يقينه النهائى بأن خطته قد فشلت . لقد أراد أن يثير يسوع ليكون القائد المنتصر ، لكنه قاده فعلا إلى الصليب .. ولهذا اهتزت حياة يهوذا من أعماقها . وهنا نلاحظ حقيقتين عن الخطية :

١ — إن أفظع ما فى الخطية ، أننا لا نستطيع أن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء . لا نستطيع أن نعيد التاريخ مرة ثانية لنعالج ما أفسدنا ، والاختبار يرينا كثيرين من الناس الذين تمنوا لو استطاعوا

أن يعيشوا من جديد ، ليعالجوا أخطاء ماضيهم ، ولكن هيهات . فما دام الإنسان قد قام بعمل ما ، فلا يمكن أن نسترجع الماضي لنوقف هذا العمل ، لذلك من واجبنا التروى قبل إتيان أى عمل .

٢ ــ ومن الغريب أن الإنسان بعد أن يخطىء ، يبدأ فى كراهية ما اقتناه من الخطية . إن ما يجنيه الإنسان من الخطية ، يصير مكروها للغاية بعد أن كان أولا جذابا ومغريا ، حتى أن الإنسان يحاول بكل جهده أن يتخلص منه .

إن كثيرين يخطئون ظانين أنهم يسعدون بالمحرمات ، ولكنهم سرعان ما يجدون أن ما رغبوا فيه ، صار أمرا تمجه نفوسهم وتكرهه ، ويحاولون التخلص منه دون جدوى .

وكعادة متى ، يريد دائما أن يربط بين حياة يسوع ، ونبوات العهد القديم وأحداثه ، لذلك فهو يقتبس من (زكريا ١١ : ١٠ ــ ١٤) حيث يذكر النبى قصة حصوله على أجرة معينة قدرها ثلاثون من الفضة ، فألقاها إلى الفخارى فى بيت الرب . فوجد فيها متى تشابها مع قصة الثلاثين من الفضة ثمن تسليم يسوع ، وشراء حقل الفخارى بها .

العشاء الأخير

كما درسنا الأجزاء التى تختص بيهوذا بعضها مع بعض ، هكذا ندرس الأجزاء التى تذكر قصة العشاء الأخير .

عيد الأجداد

(متى ٢٦ : ١٧ ــ ١٩)

جاء يسوع إلى أورشليم ليعيد عيد الفصح ، ولقد رأينا من قبل كيف كانت المدينة تزدحم بالناس فى مثل ذلك الوقت . وخلال عيد الفصح كان من المفروض أن يمكث اليهود المعيدين داخل المدينة ، ولكن كثرة العدد وتزايده جعل هذا الشرط مستحيلا ، لذلك أعتبرت القرى المحيطة بالمدينة جزءا منها ، لتفى بالغرض ، وقد مكث يسوع فى بيت عنيا على هذا الأساس . لكن طقوس العيد وأكل الفصح نفسه كان يجب أن يتم داخل المدينة .

أراد التلاميذ أن يعرفوا ما ينبغى أن يعدوه لهذا العيد ، ومن الواضح أن يسوع لم يترك هذا الأمر دون ترتيب ، إذ كان قد سبق فاتفق مع صديق فى أورشليم ، وكانت العلامة المتفق عليها للدلالة على صدق الرسول الذى يرسله هى كلمة « إن وقتى قريب » ... لذلك أرسل يسوع بعض تلاميذه ليخبروا الرجل بعمل الاستعدادات اللازمة .

كان الأسبوع الذى يقع عيد الفصح فى مساء أول أيامه يدعى « عيد الفطير » . وإذ نحاول أن نتتبع الأحداث يجب أن نذكر أن اليوم يبدأ فى النظام اليهودى فى الساعة السادسة من مساء اليوم السابق له . وعلى هذا الأساس كان عيد الفطير يبدأ صباح الخميس ، حين يقوم اليهود طبقا لمراسيم طقسية بالبحث فى أرجاء البيوت عن كل أثر للخمير لإبادته . وقد كان هناك سببان لهذا الأمر :

الأول : أن عيد الفطير كان تذكارا لأعظم حدث فى تاريخ الشعب اليهودى ، وهو انقاذهم من العبودية فى أرض مصر ، وعند خروجهم من هناك كان عليهم أن يسرعوا ويهربوا على عجل ، حتى أنه لم يكن لديهم وقت ليخبزوا الخبز مستخدمين الخمير (خروج ١٢ : ٣٤) . فالخميرة هى دقيق متخمر توضع فى الدقيق والعجين ، لكى يكون الخبز طبيعيا . لكن الخبز الطبيعى يحتاج إلى وقت لينضج ، أما الدقيق دون خمير فإنه يكون نوعا من الفطير السريع فى نضجه . وكان اليهود يبيدون الخمير من البيت قبل عيد الفطير حتى يكرروا ما سبق وحدث فى الليلة التى خرجوا فيها من أرض مصر ، تاركين وراءهم العبودية .

والثانى : أن الخميرة فى التفكير اليهودى تشير إلى الفساد . فقد كان اليهود يربطون بين التخمر والتعفن ، لذلك كان عليهم أن يبيدوا الخمير ، علامة للتطهير .

وإننا لنتساءل ما هى الاستعدادات التى أراد التلاميذ أن يقوموا بها ؟

فى صباح الخميس عليهم أن يجهزوا الفطير ويبيدوا الخمير من أنحاء البيت . ثم تأتى الخطوة الهامة والعنصر الضرورى للعيد وهو « خروف الفصح » . فمن اسم هذا الخروف اتخذ الناس اسم العيد . فالضربة الأخيرة الرهيبة التى أوقعها الله على المصريين ، والتى أرغمتهم على أن يتركوا الشعب اليهودى يخرج من البلاد ، وكانت أن الملاك المهلك جاز فى أرض مصر ليقتل الأبكار فى كل بيت . ولكى تتميز بيوت الشعب العبرانى كان عليهم أن يذبحوا خروفا ويأخذوا باقة زوفا ويغمسوها فى الدم الذى فى الطست ، ويمسوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذى فى الطست ، فعندما يمر الملاك المهلك ، يرى الدم فيعبر « يفسح » عن البيت ولا يهلك أبكاره (خروج ١٢ : ٢١ — ٢٣) . وكان الواجب أن يؤخذ الخروف عصر الخميس إلى الهيكل ويذبح هناك ، ويقدم دمه — أى حياته ذبيحة لله .

وبعد الفطير ، والخروف ، تتبقى عناصر أربعة أخرى ضرورية للعيد :

١ — إناء من الماء المالح يوضع على المائدة ، ليذكر الشعب بالدموع التى سكبها وقت العبودية فى مصر ، وبمياه البحر الأحمر المالحة التى عبروها بيد الله القوية .

٢ — مجموعة من الأعشاب المرة تجهز تتكون من الفجل البرى ، والشكوريا (السريس) ، ونبات الهندباء (النقبلة المباركة) ، والخس ونحو ذلك من الأعشاب . وقد كان الهدف منها أيضا تذكيرهم بمرارة العبودية ، وبالباقة من الزوفا التى كانت تستخدم لوضع الدم على العتبة العليا والقائمتين ، على أبواب البيوت .

٣ — وكانوا أيضا يعدون نوعا من الحلوى يسمى « كاروشيت Charosheth » ، وهو خليط من التفاح ، والبلح ، والرمان ، والبندق .

وقد كانت توضع فى هذا الطبق من الحلوى أعواد القرفة ، وهذا كان لتذكيرهم بالطين الذى كانوا يجبرون ويسخرون على صنع قوالب اللبن (الطوب) منه ، وتذكيرهم بالقش الذى كانوا

يستخدمونه فى صنعها .

٤ ــ وكانوا يعدون أربع كؤوس من الخمر ، وهذه الكؤوس كانت تذكرهم بالمواعيد الأربعة الواردة فى خروج ٦ : ٦ و ٧ « أنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم ، وأخلصكم بذراع ممدودة وأحكام عظيمة ، وأتخذكم شعبا ، وأكون إلها لكم » .

هذا ما كان على التلاميذ أن يعدوه فى صباح الخميس وبعد الظهر . وهذا ما فعلوه بلا شك ، حتى أنه عندما تمضى الساعة السادسة ، يبدأ يوم الجمعة ، الخامس عشر من نيسان ، تجتمع الجماعة على المائدة .

جسده ودمه

(متى ٢٦ : ٢٦ ــ ٣٠)

رأينا من قبل كيف أن الأنبياء عندما أرادوا أن يوصلوا حقيقة ما إلى أذهان الشعب بكيفية تؤكد فهم الشعب لها ، كانوا يقومون ببعض الأعمال الرمزية للوصول إلى أهدافهم . وقد سبق أن استخدم يسوع هذا الأسلوب عند الدخول الانتصارى ، وعند حادثة شجرة التين ــ هذا ما يفعله يسوع هنا أيضا .

لقد أراد أن يبين أن كل الرمزية وكل أعمال الفصح الطقسية ، إنما هى إشارة لما عمله لأجل البشر . فما هى الصورة التى استخدمها يسوع ، وما هو الحق الإلهى الكامل وراءها ؟

١ ــ لقد كان عيد الفصح كله **تذكارا للخلاص** ، فالقصد الأساسى منه كان لتذكير الشعب كيف خلصهم الله من العبودية فى مصر . وكان يسوع أولا وقبل كل شىء هو **المنقذ الأعظم** . لقد جاء ليخلص الناس من الخوف ومن الخطايا التى تأخذ بتلابيبهم .

٢ ــ وقد كان خروف الفصح ، بشكل خاص ، **رمزا للامان** . ففى ليلة الموت والهلاك ، استطاع دم خروف الفصح أن يحفظ الشعب العبرانى آمنا . هكذا يعتبر يسوع نفسه **المخلص من الهلاك** . لقد جاء ليخلص الناس من خطاياهم ونتائجها . وجاء ليعطى للناس الأمان فى الأرض وفى السماء ... فى حدود الزمان ، وفى الأبدية التى لا حدود لها .

وينبغى أن نلاحظ أن يسوع استخدم كلمة « **عهد** » وهى كلمة بمعانيها إذ تكتنز فيها معانى عمل يسوع وقصده . لقد تحدث يسوع عن دمه أنه دم العهد ، فماذا كان يقصد ؟

إن العهد هو علاقة بين طرفين ، فعندما يدخل اثنان فى عهد ، فهما يدخلان فى علاقة أحدهما مع الآخر . لكن العهد الذى تحدث عنه يسوع لم يكن بين إنسان وإنسان ... كان عهدا بين الله والإنسان ... كان علاقة جديدة بين الله والإنسان . ففى العشاء الأخير أراد يسوع أن يقول إنه « بسبب حياتى ، وبالأكثر جدا بسبب موتى ، قد صار فى الإمكان إنشاء علاقة جديدة بينكم وبين الله » . وكأنه يقول لهم « لقد رأيتمونى ، وقد رأيتم الله فى . ولقد ذكرت لكم كم يحبكم الله ، فهو يحبكم حتى أنى سأجوز فى الآلام المقبلة لأجلكم ... هذه هى محبة الله » .

وبسبب ما فعله يسوع لأجل البشر ، فتح الباب على مصراعيه إلى جمال العلاقة الجديدة مع الله وروعتها .

يختم هذا الفصل بالإشارة إلى أن الجماعة رنمت ثم خرجوا إلى جبل الزيتون . فقد كان التهليل جزءا جوهريا من طقوس الفصح ، وكان هذا التسبيح يشمل ترنيم المزامير من ١١٣ ـــ ١١٨ ، وهي مزامير الحمد والتسبيح . وفى أثناء فريضة الفصح ، كانت ترنم فقرات من هذه المزامير وفى نهاية الفريضة كانوا ينشدون « التهليل الأعظم » وهو مزمور ١٣٦ ، وهذا هو المزمور الذى أنشدوه قبل خروجهم إلى جبل الزيتون .

يتبقى شيء آخر نشير إليه ، وهو أن هناك فرقا أساسيا بين العشاء الأخير والفريضة . فالعشاء الأخير كان وجبة طعام حقيقية ، فقد كانت الشريعة تفرض أن يؤكل خروف الفصح كله ، ولا يترك منه شيء . فلم يكن العشاء الأخير مجرد تناول قطعة من الخبز ورشفة من الخمر ، بل كان وجبة حقيقية لإشباع جوع الآكلين ـــ ونستطيع أن نقول إن يسوع كان يعلم الناس ألا يكتفوا بمجرد الاجتماع فى الكنيسة لوليمة رمزية طقسية ، بل إنهم كلما اجتمعوا وجلسوا على مائدة لإشباع جوعهم فإنهم يذكرونه ، فالمسيح يسوع ليس رب مائدة العشاء الربانى فحسب ، بل ينبغى أن يكون رب مائدة الطعام العادى أيضا .

وأخيرا نشير إلى قول يسوع إنه لا يجلس معهم لمثل هذه الوليمة حتى يفعل ذلك فى ملكوت أبيه .

هنا نرى الإيمان والتفاؤل الإلهى . كان يسوع فى طريقه إلى جثسيمانى ، وإلى المحاكمة أمام السنهدريم ، ثم إلى الصليب ـــ **لكنه لم يزل يفكر فى ملكوت الله** . فلم يكن الصليب فى تقدير يسوع معناه الهزيمة . بل كان الطريق إلى المجد . كان يسوع فى طريقه إلى الجلجثة ، لكنه كان أيضا فى طريقه إلى عرش ملكوت الله .

انهيار بطرس

كما جمعنا الأجزاء الخاصة بيهوذا فى الأيام الأخيرة لحياة يسوع ، هكذا نجمع الفقرات التى تروى قصة بطرس :

تحذير السيد

(متى ٢٦ : ٣١ ـــ ٣٥)

فى هذه الآيات نرى بعض مميزات يسوع واضحة :

١ ـــ فإننا نرى هنا **واقعية يسوع** ـــ لقد عرف يسوع ما ينتظره . وقد أشار إلى ما جاء فى زكريا (١٣ : ٧) « أضرب الراعى فتتشتت الغنم » ، واعتبرها نبوة عن هروب التلاميذ . لم يكن يسوع فى تفاؤله مغمض العينين عن رؤية الحقائق ، بل رأى الأحداث المتوقعة ، ومع ذلك سار فى طريقه .

٢ ــ ونرى هنا أيضا **يقين يسوع** . فهو يقول « بعد قيامى أسبقكم إلى الجليل » ، فقد كان يسوع يرى دائما ما بعد الصليب ، وكان على الدوام متيقنا من المجد الذى ينتظره ، قدر يقينه من معاناة الصليب .

٣ ــ ونرى هنا **شفقة يسوع** ــ فقد عرف أن رجاله سيهربون لحياتهم ويتركونه فى اللحظات التى يحتاج فيها إلى مشاركتهم ، لكنه لا يدينهم ، أو يوبخهم أو ينهال عليهم بالتأنيب ، أو يصفهم بالتفاهة والجبن والخيانة . بل إنه يؤكد لهم انه عندما يمر ذلك الوقت العصيب ، فإنه سيلاقيهم ثانية . إن عظمة يسوع الحقيقية تظهر فى إدراكه لضعف التلاميذ ومعرفته لهم على حقيقتهم المؤسفة ، ومع ذلك فهو لا يزال يحتفظ لهم بالحب . إنه يعرف ضعفاتنا البشرية وأخطاءنا واستعدادنا للخيانة ، لكن هذه المعرفة لا تقلب محبته مرارة أو احتقارا . إن يسوع لا يحمل للإنسان الذى يسقط فى الخطية نتيجة ضعفه ، سوى الشفقة .

إلا أن هذه الآيات تكشف لنا شيئا عن بطرس . إن خطأ بطرس الظاهر **هو الافراط فى الثقة فى نفسه** ، لقد عرف أنه يحب يسوع ، وهذا ما لا شك فيه . لكنه ظن أنه بنفسه وشخصيته يستطيع أن يواجه أى موقف . لقد ظن بطرس أنه أقوى من واقعه الذى عرفه يسوع . وهنا نقطة الضعف . إننا لا نشعر بالأمان فعلا إلا عندما نستبدل الثقة المتفاخرة بالتواضع والاعتراف بالضعف ، وبذلك لا نعتمد على نفوسنا ، بل نطلب معونة المسيح .

لقد قسم الرومان واليهود الليل إلى أربعة أقسام : من ٦ ــ ٩ مساء ومن ٩ إلى منتصف الليل ، ومن منتصف الليل إلى ٣ ، ومن ٣ ــ ٦ . وكان صياح الديك يحدث بين الهزيع الثالث والرابع . وقد قال يسوع لبطرس إنه قبل حلول الفجر سينكره بطرس ثلاث مرات .

خانته الشجاعة

(متى ٢٦ : ٥٧ و ٥٨ و ٦٩ ــ ٧٥)

لا يستطيع أحد أن يقرأ هذه الآيات دون أن يؤخذ بالصراحة الساطعة والصدق الناصع للعهد الجديد . فلو كانت هناك حادثة تستحق أن توارى عن مسامع الناس فإن هذه الحادثة أولى بالإخفاء والحذف ، ولكن صدق الإنجيل يظهر من رواية هذه الحادثة فى بشاعتها وخزيها . ونحن نعلم أن (متى) فى كتابة إنجيله كان يتتبع رواية مرقس . وفى إنجيل مرقس نقرأ هذه الحادثة بكل تفاصيلها الدقيقة (مرقس ١٤ : ٦٦ ــ ٧٢) . وحسب أقوال أصدق المؤرخين ، نعلم أن إنجيل مرقس ما هو إلا خلاصة مكتوبة لما كان بطرس يقدمه من مواعظ ... وهكذا نصل إلى النتيجة المذهلة ، إننا نقرأ هنا قصة إنكار بطرس للمسيح ، لأنه نفسه هو الذى رواها للآخرين . فبدل أن يحذف بطرس القصة جعلها جزءا أساسيا فى إنجيله ، وله فى ذلك مبررات وأسباب ، فلعل بطرس وهو يروى هذه القصة كل مرة كان يقول للناس : « إن يسوع يستطيع أن يغفر بهذا الأسلوب . لقد غفر لى عندما أنكرته وتخليت عنه فى أحرج اللحظات .. هذا ما يستطيع يسوع أن يفعله ــ لقد

أخذنى أنا ـــ بطرس الجبان ـــ واستخدمنى ... أنا الذى أنكرته » .

لذلك ينبغى ألا نقرأ هذه الرواية دون أن نذكر أن بطرس نفسه هو الذى يروى خزى خطيته ، حتى يعرف جميع الناس روعة غفران محبة المسيح ، وقوته المطهرة .

على أنه من الخطأ أن ننظر إلى بطرس نظرة الدينونة بلا شفقة . فالواقع أن الكارثة التى حدثت لبطرس ، يمكن أن تحدث فقط لرجل على جانب كبير من الشجاعة ـــ فقد هرب جميع التلاميذ ، ولم يهرب بطرس . وكانت بيوت الأغنياء فى فلسطين تبنى حول فناء مربع تطل عليه حجرات المنزل ـــ ولكى يدخل بطرس إلى هذا الفناء فى وسط بيت رئيس الكهنة ، كان ذلك بمثابة الدخول إلى عرين الأسد ... ومع ذلك فقد خاطر بطرس ودخل . أيا كانت نهاية القصة ، فإنها تبدأ ببطرس ، الشجاع الوحيد .

وقد حدث الإنكار الأول فى الفناء الذى يتوسط البيت ، وقد لاحظت الجارية أن بطرس هو أحد أتباع يسوع البارزين وعرفته . وكنا ننتظر أن بطرس يسارع بالهرب بعد أن تعرفت عليه الجارية ، وهذا هو التصرف الطبيعى للشخص الجبان ، أن يلوذ بالفرار فى جنح الظلام ، لكن بطرس لم يكن هكذا ، بل ذهب إلى الدهليز . كان عاملان يتنازعانه وهو يصارع بينهما : ففى قلبه خوف يدفعه للهرب ، لكن قلبه كان مليئا بحب لسيده يمنعه من الهروب . وفى الدهليز تعرفت عليه جارية أخرى ، وفى هذه المرة حلف بطرس أنه لا يعرف يسوع . ومع ذلك لم يترك المكان ، وكانت هذه شجاعة فائقة ، لكنه وهو يحلف ، ظهرت لغته الجليلية ، فقد كانت لهجة الجليليين معروفة تماما للجميع . وكان أهل اليهودية يكرهونها حتى أنهم منعوا أى جليلى من النطق بالبركة فى خدمة المجتمع بسبب لهجة الكلام الجليلية . وعندما ووجه بطرس بهذا الدليل أنه جليلى ، انساق فى الحلف ، بل لعن أيضا ... لعن اسم يسوع [1] .

ولم تكن نية بطرس أن يخرج بعد كل هذا ـــ وللوقت صاح الديك .. فتذكر بطرس كلام يسوع ..

وقد اعتقد البعض أن الصياح لم يكن صياح ديك فعلا ، وإنما كان بوق نوبات الحراسة فى قلعة انطونيا ، التى تتغير فى الساعة الثالثة صباحا ، واسم صوت البوق باللاتينية هو (جاليسينيام Gallicinium) ها « صياح الديك » . فقد قيل إنه كان من المحظور الاحتفاظ بالدجاج والديوك فى المدينة المقدسة ، لأنها كانت تنجس الأشياء المقدسة .

(غير أن هذا لا يؤثر فى الموضوع على الإطلاق ، سواء أكان صياح ديك حقيقى كما هو شائع ، أم صوت بوق تغيير نوبات الحراسة ، المعروف باسم صياح الديك) .

وعندما سمع بطرس هذا الصوت ، تذكر كلام يسوع ، وخرج إلى خارج وبكى بكاء مرا .

---

(١) ربما لعن نفسه اذا كان يعرف يسوع ، كعادة الشرقيين فى مثل الظرف ، وهو نوع من الحلف لتأكيد الحقيقة . (المترجم)

ونحن لا نعلم ماذا حدث لبطرس بعد ذلك ، فقد أسدلت رواية الإنجيل ستارا على عذاب عاره وخجله ، ولكن علينا قبل أن ندين بطرس أن نذكر موقفه الجرىء الذى لم يجرؤ على الإقدام عليه كثيرون فى دخوله إلى فناء بيت رئيس الكهنة . إن المحبة هى التى أعطت لبطرس مثل هذا الإقدام ، والمحبة هى التى جعلته يتذكر كلام يسوع ، والمحبة هى التى أخرجته إلى خارج لتفيض دموعه غزيرة — والمحبة هى التى تستر كثرة من الخطايا .

إن الأثر الباقى الذى ينبغى أن تتركه فينا هذه القصة ، ليس جبن بطرس ، بل محبته حتى وإن كانت شجاعته قد خانته .

صراع فى البستان

(متى ٢٦ : ٣٦ — ٤٦)

من اللائق أن نقترب إلى هذه الآيات راكعين ، فإن مثل هذا الفصل تقودنا دراسته إلى روح العبادة والخشوع .

لم تكن فى مدينة أورشليم بساتين ، لأن المدينة الموضوعة على جبل لا تسمح بفراغ فيها لبستان . كان كل شبر منها يستخدم فى بناء البيوت . لذلك غرس الأغنياء لأنفسهم بساتين خارج المدينة على منحدرات جبل الزيتون . بل إن كلمة « جثسيمانى » قد تعنى « معصرة الزيتون » . ومما لا شك فيه أن البستان الذى دخل إليه يسوع كان بستان زيتون . ولم يكن الدخول إلى البساتين الخاصة مباحا لكل إنسان . لذلك فمن المرجح أن صاحب البستان كانت له صداقة بيسوع ، فأعطاه حق الدخول إلى البستان الذى يملكه . ومن الجميل والعجيب أن نفكر فى أن عددا من الأصدقاء ، نجهل أسماءهم ، التفوا حول يسوع فى أيامه الأخيرة . فهناك الرجل الذى أعاره الحمار عند الدخول الانتصارى ، والرجل الذى سمح له باستخدام العلية لممارسة الفصح ، وهنا نجد ثالثا سمح له باستخدام بستانه الخاص على منحدرات جبل الزيتون . إننا نجد هنا واحات المحبة ، فى صحراء الكراهية .

أخذ يسوع معه التلاميذ الثلاثة الذين كانوا معه على جبل التجلى وهناك صلى بل صارع وجاهد فى الصلاة . وإذ نلقى نظرة خشوع وتوقير على هذه الأمور : —

١ — نرى **آلام يسوع المضنية** . لقد تأكد أن الموت ينتظره ، وكانت أجنحة الموت ترفرف عليه الآن . إن أحدا لا يبغى أن يموت فى الثالثة والثلاثين ، وبالأكثر لا يبغى أن يموت متذوقا مرارة الصليب وعذابه . لذلك فإننا هنا نرى صراع يسوع فى تسليم مشيئته لمشيئة الله . ولا يقرأ أحد هذه القصة دون أن يرى حقيقة هذا الصراع وواقعيته ، فلم يكن تمثيلا أو تصويرا ، بل كان صراعا حقيقيا ، كانت نتيجته فى غاية الأهمية . لقد كان خلاص العالم يتأرجح فى الميزان فى بستان جثسيمانى ، فلو أن يسوع أدار ظهره للصليب ، فإن الخيبة كانت تصيب قصد الله لأجل العالم . لكن يسوع عرف أن واجبه أن يسير فى الطريق إلى نهايته إلى الصليب ... وبكل توقير نقول إن

يسوع هنا وجد الدرس الذى ينبغى على كل إنسان أن يتعلمه ، وهو قبول ما لا يستطيع الإنسان أن يفهمه . لقد عرف أن مشيئة الله تدعوه وتناديه ، وهكذا يحدث لكل إنسان أن يجتاز فى ظروف لا يستطيع أن يفهمها ، وهنا يجد امتحانا عسيرا للإيمان ...ويا لسعادته عندما يجتاز هذا الامتحان ويسلم لمشيئة الله . يذكر ترتليانوس (أحد آباء الكنيسة الأقدمين) قولا منسوبا إلى يسوع لم يذكره الإنجيل وهو : « لا يدخل إنسان ملكوت السموات دون أن يجرب » — ومعنى ذلك أن لكل إنسان اختبار جتسيمانى الخاص به ، وعلى كل إنسان أن يتعلم القول « لتكن مشيئتك » [(١)] .

٢ — ونحن نرى **يسوع وحيدا** . لقد صحب معه ثلاثة من تلاميذه المختارين ، لكن ارهاقهم بسبب الأحداث التى جرت فى تلك الساعات الأخيرة ، لم يساعدهم على البقاء متيقظين . وكان على يسوع أن يجوز الصراع منفردا . وهذا يجرى على كل إنسان ، فهناك أشياء على الإنسان أن يواجهها وحده ، وهناك قرارات على الإنسان أن يتخذها وحده ... وهناك أوقات ينفض من حول الإنسان كل الأعوان والأصدقاء . فى هذه الساعات والأوقات نشعر بوجود الواحد الذى اجتاز مثل هذا الاختبار فى جتسيمانى وانتصر .

٣ — وهنا نرى **ثقة يسوع** . ونستطيع أن نتبين هذه الثقة بكيفية أوضح فى رواية مرقس البشير لهذه الحادثة . فإن مرقس يذكر أن يسوع بدأ صلاته بالقول : « يا أبا الآب » (مرقس ١٤ : ٣٦) . والترجمة الأصح لهذا التعبير « يا أبا ... أيها الآب » . ونحن لا نستطيع أن ندرك جمال هذا التعبير دون الإلمام باللغة التى كان يسوع ينطق بها .. قول « يواقيم إرميا » اليهودى فى كتابه « أمثال يسوع » إن يسوع استخدم هنا تعبيرا لم يرد أبدا فى الأدب اليهودى . فإنه استخدام دراج لكلمة « أب » — ويؤكد يوحنا فم الذهب وتيودورو وغيرهما من الشراح الأقدمين أن كلمة (آبا) هى التعبير الذى يستخدمه الطفل فى نداء أبيه ، كما يستخدم الطفل الريفى كلمة (يابا) والمتحضر كلمة (بابا) فى نداء أبيه . أما يسوع فقد استخدم هذا التعبير الدارج الذى يدل على الألفة والقرب الشديد فى نداء يوجهه إلى الله . لقد تحدث إلى أبيه السماوى بأسلوب الطفل الواثق من أبيه .

وهنا نرى جمال الثقة وقوتها ، فإن يسوع وهو على أبواب الصليب ، يدرك أن أباه يدفعه ويدعوه إلى الصليب ، ومع ذلك فهو يخاطبه بلهجة ثقة الأطفال فى أبيهم — هنا نرى ثقة عظيمة فى الله ، يريد يسوع أن يعلمنا إياها فى كل الظروف ... أن تكون علاقتنا بالله ، كعلاقته هو بالله ، كعلاقة الطفل بأبيه .

٤ — وأخيرا نرى **شجاعة يسوع** . قال يسوع « قوموا ننطلق . هوذا الذى يسلمنى قد اقترب » — وقد ظن بعض النقاد أن يسوع قال هذا القول ليطلب الهروب ممن سيسلمه . لكن الواقع عكس ذلك . لقد قال يسوع قوموا ، لأن وقت الصلاة فى البستان قد انتهى ، وجاء وقت العمل ومواجهة الحياة فى أظلم معانيها ، ومواجهة البشر فى أشر صورة لهم . لقد قام يسوع من

---

(١) فى بستان جتسيمانى نرى الصراع الذى يؤكد لنا إنسانية يسوع الكاملة ، كما نرى فى بعض المواقف الأخرى ألوهيته الكاملة . والصراع حقيقى . لم يكن يسوع يريد أن يهرب من الكأس ، لكنه وقف أمام مرارتها طالبا مشيئة الله . وكانت صلاته فى جوهرها « لتكن مشيئتك » . لذلك قال رسول العبرانيين « وسمع له من أجل تقواه » (عبرانيين ٥ : ٧) .

ركوعه وصلاته ليواجه معركة الحياة . وهذا هو هدف الصلاة ، ففى الصلاة يركع الإنسان أمام الله ، ليستطيع بعد ذلك أن يقوم ويقف مرفوع الرأس أمام الناس . فى الصلاة يدخل الإنسان السماء ، حتى يستطيع أن يجابه معركة الأرض .

القبض على يسوع

(متى ٢٦ : ٥٠ ــ ٥٦)

كان يهوذا هو الذى أعطى للسلطات المعلومات التى مكنتهم من أن يجدوا يسوع فى خلوته فى بستان جثسيمانى . وقد كان من حق السلطات اليهودية أن تستخدم قوة حرس الهيكل . لكن الجمهور الذى كان يتبع يهوذا كان أشبه بجماعة من الدهماء تتجه نحو عمل عقابى اعتباطى دون قانون أكثر منه فصيلة عسكرية تخرج لعملية قبض نظامية .

ولم يسمح يسوع بأية مقاومة . ويشير متى إشارة عابرة إلى أن واحدا من التلاميذ استل سيفه وأراد أن يقاوم مسترخصا حياته إلى الموت ، وجرح عبد رئيس الكهنة ــ وعندما يروى يوحنا هذه الحادثة (يوحنا ١٨ : ١٠) يذكر أن ذلك التلميذ لم يكن غير بطرس ، وأن اسم العبد ملخس ــ ولعل السبب الذى حدا بيوحنا أن يذكر هذا التلميذ ، بينما لم يذكره متى ، هو أن إنجيل يوحنا كتب متأخرا فى الزمن ، بينما كتب متى إنجيله مبكرا حين لم يكن من الحكمة أو الأمان أن يذكر اسم التلميذ الذى دافع بهذه الصورة عن سيده .

وهنا نرى صورة أخرى من الشجاعة الفائقة التى كانت لبطرس . لقد كان على استعداد أن يواجه جمهور الشعب وحده ، ولنذكر دائما أنه بعد ذلك ، وبعد أن صار معروفا للناس ، دخل إلى فناء بيت رئيس الكهنة .

على أننا ونحن ندرس الساعات الأخيرة من حياة يسوع ، يحسن أن نتجه بأنظارنا إلى شخص يسوع لنتعلم ما يلى :

١ ــ **لقد كان موت يسوع باختياره هو** . فلم يكن هناك ما يلزمه أن يأتى إلى أورشليم فى هذا العيد . أما وقد جاء فلم يكن هناك ما يدعوه إلى التزام سياسة التحدى العلنى الرائع التى اتخذها ضد قادة اليهود ، وحتى فى البستان كان يمكنه أن يختفى عن أبصار الناس ، ويخلص نفسه إذ كان الوقت ليلا . وكان من السهل أن يخفيه بعض الناس عن عيون طالبى القبض عليه .

وحتى بعد القبض عليه ، كان يمكنه أن يستدعى قوة من الله يسحق بها أعداءه .... لكن كل خطوة فى هذه الأيام الأخيرة تجعل من الواضح جدا أن يسوع بذل حياته باختياره ، ولم يأخذها أحد منه ، بل وضعها هو من ذاته .

لقد مات يسوع ، ليس لأنهم قتلوه ، بل لأنه اختار أن يموت .

٢ ــ ولقد اختار يسوع أن يموت لأنه **عرف أن موته تحقيق لقصد الله** . لقد سار فى ذلك

الطريق لأنه هو الطريق الذى تنبأ عنه الأنبياء . لقد سار فى ذلك الطريق لأن المحبة هى الطريق الوحيد « فالذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون » — فالعنف لا يولد سوى العنف . والسيف المسلول لا ينتج سوى سيفا آخر مسلولا ليواجهه . لقد عرف يسوع أن السلطة والحرب والقوة لا تنهى شيئا من المشكلات ، بل ينتج عنها تيار متصل من الشر ، وهكذا تنجب وراءها ما هو أسوأ منها — وعرف أن قصد الله لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق المحبة المضحية .

وقد أثبت التاريخ أن هذا هو الرأى الصحيح ، فاليهود الذين استخدموا معه العنف ، وفاخروا بذلك ، هم الذين بعد أربعين سنة من ذلك التاريخ ذاقوا أسوأ أنواع العذاب ، ورأوا مدينتهم تخرب تماما ، بينما الرجل الذى لم يستخدم العنف — يسوع — يجلس إلى الأبد ملكا متوجا على قلوب البشر .

المحاكمة أمام اليهود

(متى ٢٦ : ٥٧ و ٥٩ — ٦٨)

ليس من السهل أن نتتبع عملية محاكمة يسوع تماما . ويبدو أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول من المحاكمة حدث بعد القبض على يسوع فى البستان ليلا ، وهذا تم فى بيت رئيس الكهنة فى الليلة ذاتها ، وهو الوارد فى هذا الجزء — والقسم الثانى من المحاكمة فى الصباح الباكر وقد ذكره متى باختصار فى إنجيله (متى ٢٧ : ١ و ٢) . والقسم الثالث من المحاكمة تم أمام بيلاطس وقد ذكر فى (متى ٢٧ : ٣ — ٢٦) .

والسؤال الذى يبرز أمامنا هو هذا :

« هل كان اجتماع السنهدريم ليلا اجتماعا قانونيا دعى على عجل ، أم إنه كان مجرد فحص ابتدائى لإعداد التهمة ، وتمهيدا لاجتماع السنهدريم الرسمى فى الصباح ؟ » .

وأيا كان جواب هذا السؤال ، فإنه من الواضح أن اليهود خالفوا شريعتهم الخاصة فى محاكمة يسوع . وإذا كان الاجتماع الذى حدث ليلا هو الاجتماع الرسمى للسنهدريم . فإن المخالفة تكون أكثر فظاعة .

ورواية متى للمحاكمة الليلية توحى بأنه اعتبرها المحاكمة الرسمية ليسوع ، لأنه يذكر فى عدد ٥٩ أن رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله كانوا يطلبون شهادة زور على يسوع ليقتلوه .

ولنبدأ بدراسة عملية المحاكمة من وجهة النظر اليهودية القانونية — كان السنهدريم هو المحكمة العليا لليهود ، وكان يتكون من كتبة وفريسيين وصدوقيين وشيوخ الشعب .

وقد بلغ عدد أعضائه ٧١ عضوا ، وكان يرأسه رئيس الكهنة ، ولكى يجرى السنهدريم محاكمة قانونية كان ينبغى أن يحضر جلسته ٢٣ عضوا من أعضائه على الأقل . وكانت هناك لائحة تحدد قانونية المحاكمات نذكر منها ما يلى :

(أ) يجب أن تنظر جميع تهم الجرائم خلال النهار ، ويجب إنهاؤها خلال النهار ، أى لا تستكمل فى الليل .

(ب) لا يجوز إتمام النظر فى تهم الجرائم خلال أيام عيد الفصح .

(ج) إذا كان الحكم بالبراءة ، يجوز إصدار الحكم فى اليوم ذاته الذى نظرت فيه القضية .

أما إذا كان الحكم بالإدانة فيجب أن تنقضى ليلة كاملة قبل إعلان الحكم حتى تكون هناك فرصة كافية لظهور مشاعر الرحمة .

(د) لا يكون قرار مجمع السنهدريم صحيحا ، ما لم يكن المجمع قد عقد اجتماعه فى مكانه الرسمى ، وهو إحدى صالات الهيكل وتعرف باسم « قاعة الحجر المنحوت » .

(هـ) وبالنسبة للشهود يجب تأييد كل دليل بشهادة شاهدين يفحصان كل على انفراد ، دون أن تكون لأحدهما فرصة الاتصال بالآخر .

وعقاب الشهادة الزور هو الموت . وتظهر خطورة هذه الشهادة فى الجرائم التى كانت عقوبتها الموت بمخاطبة الشاهد بالقول :

« لا تنس أيها الشاهد أن هناك فرقا بين الشهادة فى الأمور المدنية والشهادة فى الجنايات التى يعاقب عليها القانون بالموت . ففى قضايا المال ، إذا كانت الشهادة خاطئة أمكن تعويض الخطأ بالمال ، أما فى هذه المحاكمة لأجل الحياة أو الموت ، فإنك إن أخطأت فى شهادتك ، فستحمل وزر المتهم ودمه ودم نسله عليك إلى انقضاء الدهر » .

(و) كما أنه كان من الضرورى فى كل محاكمة أن ترد على المحكمة أدلة البراءة أولا ، وقبل أن تسرد أدلة الإدانة .

هذه هى شريعة السنهدريم ، ومن الواضح أنه فى سبيل رغبة اليهود أن يتخلصوا سريعا من يسوع ، كسر اليهود كل هذه التشريعات وخالفوها ــ لقد وصلوا إلى قمة الكراهية ، حتى برروا لأنفسهم كل وسيلة استخدموها لينهوا حياة يسوع .

جريمة المسيح

(متى ٢٦ : ٥٧ و ٥٩ ــ ٦٨)

كان كل هم سلطات اليهود المجتمعين ليلا هو إعداد تهمة ضد يسوع وكما ذكرنا كانوا يطلبون شاهدين ، يفحصان كل على حدة . لكنهم قضوا وقتا طويلا دون أن يجدوا شاهدين يتفقان فى أقوالهما . وأخيرا وجدوا تهمة ، وهى أن يسوع ذكر أنه سيهدم الهيكل ويبنيه فى ثلاثة أيام . ومن الواضح أن هذه التهمة تحريف لبعض أقوال المسيح .

لقد رأينا كيف تنبأ يسوع ــ نبوة صدقت فعلا فيما بعد ــ عن خراب الهيكل ضمن خراب

أورشليم . وقد حرفوا هذا القول إلى اتهام يسوع بقوله إنه هو الذى سيهدم الهيكل . وكان يسوع قد تنبأ أنه هو نفسه سيموت لكنه سيقوم بعد ثلاثة أيام . وقد حرفوا هذا القول بأنه ادعى أنه سيعيد بناء الهيكل فى ثلاثة أيام [1] .

وقد لفقوا هذه التهمة متعمدين ماكرين بتكرار شرير وإساءة تفسير بعض أقوال يسوع . ولم يجب يسوع على هذه التهمة ، وكان القانون فى جانبه ، فلا يستطيع أحد أن يرغمه أن يجيب على سؤال يستذنبه .

وهنا وجه رئيس الكهنة سؤاله الأساسى ، سائلا بل مستحلفا يسوع أن يجيب ما إذا كان هو المسيح ابن الله . وقد لاحظنا أن يسوع حذر تلاميذه ، بل أمرهم ألا يقولوا لأحد إنه المسيا . فكيف استطاع رئيس الكهنة أن يعرف كيف يوجه هذا السؤال الذى لم يستطع يسوع أن يهرب من الإجابة عنه ؟ نقول ربما قدم يهوذا هذه المعلومات إلى السلطات اليهودية ، وذكر لهم إعلانات يسوع عن نفسه أنه المسيا . وبذلك يكون قد نقض عهد صيانة هذا السر الذى أرادهم يسوع أن يحفظوه .

على أية حال ، وجه رئيس الكهنة هذا السؤال إلى يسوع ، واستحلفه إذا كان هو المسيح ابن الله .

وهنا نرى اللحظة الحرجة فى محاكمة يسوع . إننا نستطيع أن نقول إن الكون كله أرهف الآذان منتظرا إجابة يسوع على هذا السؤال . لو أن يسوع قال « لا » لانهارت القضية من أساسها ، ولما أصبح لليهود علة عليه ، ولما كان ممكنا أن يوجهوا إليه تهمة ما . كان عليه أن يقول « لا » ليخرج رجلا حرا طليقا قبل أن يفكر أحد من السنهدريم أن يدبر له تهمة أخرى .

ومن الجانب الآخر ، إذا قال « نعم » يكون بذلك قد وقع وثيقة موته بنفسه .. فليس أكثر من كلمة « نعم » تستطيع أن تجعل الصليب حقيقة مؤكدة لا مهرب منها .

ولعل يسوع سكت لحظة ليحسب حساب النفقة ، ثم قال كلمته النهائية « نعم » . إنه المسيح ابن الله . إنه أضاف إليها قولا مقتبسا من (دانيال ٧ : ١٣) . فدانيال فى رؤى الليل مع سحب السماء مثل ابن إنسان أعطى مجدا وملكوتا لتتعبد له كل الشعوب . سلطانه أبدى . وقد أخذ يسوع هذه الصورة ووصف نفسه بها وهى صورة عن نصرته النهائية وملكوت مختار الله . وسرعان ما ظهرت صرخة التجديف ومزقت الثياب فى نوع من الفزع المستيرى المصطنع ، ثم حكم على يسوع بالموت .

ثم أعقب ذلك البصق على يسوع ، ولكمه ، ولطمه على وجهه ، والهزء به . وانفجرت كراهية اليهود وحقدهم ، وضاعت حتى المظاهر الخارجية للعدالة . لقد بدأ ذلك الاجتماع فى تلك الليلة

---

(١) لقد تحدث يسوع مرة عن جسده باعتباره هيكلا ، وذكر أنه عندما ينقض (أى يقتل) سيقيمه فى ثلاثة أيام . ولم يفهم اليهود كلامه . « انقضوا هذا الهيكل وفى ثلاثة أيام أقيمه . فقال اليهود فى ست وأربعين سنة بنى هذا الهيكل أفأنت فى ثلاثة أيام تقيمه . وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده » (يو ٢ : ١٩ — ٢١) (المترجم)

على أنه ساحة قضاء وعدالة ، وانتهى استعراضا مشينا مجبولا للكراهية والضغينة ، إذ لم يحاول أحد أن يحتفظ ولو بالمظاهر السطحية للعدالة والنزاهة وعدم التحيز .

وإلى هذا اليوم تطل علينا هذه الحقيقة صحيحة وصريحة ، وهى أنه عندما يواجه إنسان ما يسوع المسيح وجها لوجه ، فهو إما أن يكرهه أو يحبه . إما أن يخضع له ، أو يرغب فى تحطيمه . إن من يتبين مطاليب يسوع لا يستطيع أن يبقى على الحياد ، فهو إما أن يكون حبيبه أو عدوه .

الأصحاح السابع والعشرون

الرجل الذى حكم على يسوع بالموت

(متى ٢٧ : ١ و ٢ و ١١ — ٢٦)

من الواضح أن العددين الأولين من هذا الأصحاح يرويان باقتضاب اجتماعا ثانيا قصيرا للسنهدريم ، انعقد مبكرا فى صباح اليوم التالى للقبض على يسوع ، لإعداد وصياغة التهمة الرسمية التى قدمها اليهود ضد يسوع . وقد كانت هذه خطوة ضرورية لأن اليهود كان لهم حق الحكم فى القضايا العادية ، لكنهم لم يكن من سلطتهم توقيع حكم الموت ، إذ كان النطق بحكم الموت على إنسان ما ، من اختصاص الوالى الرومانى ، وكان التنفيذ يتم بمعرفة السلطات الرومانية أيضا .

كان لابد إذاً أن يعد مجمع السنهدريم التهمة ، ثم يقدمها إلى بيلاطس الوالى مع طلب الحكم بموت يسوع . ولا يذكر متى التهمة ، ولكن لوقا يذكرها . لقد كانت التهمة التى ألصقت بيسوع فى السنهدريم هى التجديف (متى ٢٦ : ٦٥ و ٦٦) ، لكن السلطات اليهودية كانت تعلم تماما أنها تهمة لا يستطيع بيلاطس أن يصغى إليها ويضعها فى اعتباره . وكل ما كان يفعله هو أن يطردهم من أمامه طالبا منهم أن يحاولوا الاتفاق على منازعاتهم الدينية فحسب . لذلك يذكر لنا لوقا أنهم عند ظهورهم أمام بيلاطس اتهموا يسوع تهمة مثلثة الجوانب ، وكل جانب منها كان كذبة كبرى متعمدة . فلقد اتهموا يسوع بأنه مثير للفتنة ، وأنه يحرض الناس ألا يعطوا جزية لقيصر ، وأنه يدعى أنه ملك (لوقا ٢٣ : ٢) . وبذلك لفقوا له ثلاث تهم سياسية ، كلها أكاذيب مدبرة لأنهم كانوا يعلمون أن مثل هذه التهم هى التى تدفع بيلاطس إلى اتخاذ القرار الذى يريدونه . وهكذا كان كل شىء فى يد بيلاطس ، وترى أى نوع من الناس كان هذا الوالى الرومانى ؟

كان بيلاطس رسميا هو والى المقاطعة ، وكان مسئولا مباشرة أمام شخص الإمبراطور الرومانى ، وليس أمام مجلس الشيوخ الرومانى . ولابد أنه كان قد تعدى السابعة والعشرين من عمره ، لأن هذا هو الحد الأدنى لسن الشخص الذى يمكن تعيينه واليا . ولابد أنه كان شخصا مختبرا إذ كانت هناك درجات للترقى فى سلم الوظائف ، كان من المفروض أن من يعين واليا يكون قد تعين فى وظائف أخرى سابقة ومنها الوظائف الحربية . ولابد أن بيلاطس كان جنديا محنكا . وقد صار واليا على لليهود عام ٢٦ م واستمر فى وظيفته مدة عشر سنوات إلى أن أعفى من منصبه ..

وعندما جاء بيلاطس إلى اليهودية ، وجد كثيرا من الاضطراب ، كان بعضه من صنعه هو شخصيا إذ كان لا يعطف على اليهود ، بل كان يحتقرهم لتعصبهم الأعمى ، وشدة تمسكهم بمبادئهم . ولقد كان الرومان يعرفون مقدار تغلغل الديانة اليهودية فى نفوس اليهود ، وكانوا يدركون صلابة اليهود فى التمسك بعقيدتهم ، لذلك كانوا ، من قبيل الحكمة والسياسة ، يعاملونهم بالرقة والنعومة ، أما بيلاطس فإنه بكبريائه أراد أن يستخدم معهم العنف والقسوة .

ولقد كان بيلاطس هو البادىء بإثارة الاضطراب . كان المقر الرسمى للرومان فى قيصرية . ولم

يكن شعار الرومان علما أو راية ، بل كانوا يتخذون أعمدة على قمتها صورة النسر الرومانى ، أو صورة الإمبراطور لتكون شعارا لهم . وتجنبا للاضطراب ، كان كل ولاة الرومان السابقين ينزعون تماثيل النسور أو صور الإمبراطور من قمة الأعمدة وهم يدخلون أورشليم فى زياراتهم الرسمية لأنهم كانوا يعلمون كراهية اليهود للصور والتماثيل المنحوتة — أما بيلاطس فقد رفض أن يفعل كذلك ، وكانت النتيجة أنه واجه مقاومة مريرة وعنادا وإصرارا جعله فى النهاية يتراجع عن قراره ، لأنه لم يكن ممكنا أن يقبض على أمة بأسرها أو يقتل شعبا بأسره .

فضلا عن ذلك ، شعر بيلاطس أن مدينة أورشليم تحتاج الى خزان أفضل للمياه ، فأخذ نقودا من خزانة الهيكل وأقام بها الخزان . فزاد هذا من كراهية اليهود له ، وفقد سمعته بينهم .

وقد قام العالم الإسكندرى اليهودى (فيلو) بدراسة عن شخصية بيلاطس ، وباعتباره يهوديا ، كان يتحدث من وجهة نظر اليهود لا المسيحيين . وفى هذه الدراسة يذكر (فيلو) أن اليهود كانوا يهددون بيلاطس باستعمال حقهم فى شكواه إلى الإمبراطور . وقد كان التهديد يزعج بيلاطس إزعاجا كبيرا لأنه كان يخشى أن يرسل اليهود سفارة أو بعثة إلى الإمبراطور ، ويطلبون مناقشته الحساب عن بعض تصرفاته الأخرى فى حكمه ، مثل الفساد ، وأعمال السفاهة ، وعمليات النهب والسلب التى كان يقوم بها ، وعادة شتم الناس ، والقسوة ، وقتل كثيرين من الناس دون محاكمة . لقد ضاعت سمعة بيلاطس بين اليهود ، وكان مركزه قلقا دائما بسبب حق اليهود فى شكواه للإمبراطور .

وإذ نتتبع مستقبل بيلاطس إلى نهايته ، نعرف أنه أعفى من منصبه وسافر إلى روما ، وكان ذلك على أثر حادثة وحشية حدثت فى السامرة . فقد دعا أحد المحتالين الناس ليصعدوا إلى جبل جرزيم بدعوى أنه سيريهم الآنية المقدسة التى خبأها موسى . ومن سوء الحظ أن كثيرين من الناس ذهبوا مسلحين واجتمعوا فى قرية تدعى « طيرابات » ، فهاجمهم بيلاطس وقتل غالبيتهم فى وحشية لا نظير لها ، رغم أن ذهابهم هناك لم يكن بدافع الثورة أو الإيذاء . وقد رفع السامريون شكواهم بواسطة حاكم سورية ، الذى كان يفوق بيلاطس فى الرتبة ، وعند ذاك أمره فيتيليوس حاكم سورية أن يعود إلى روما ليجيب عن سر هذا السلوك .

وبينما كان بيلاطس فى طريقه إلى روما ، مات الإمبراطور طيباريوس ، ويبدو أن بيلاطس لم يحاكم بالمرة . ولكن الروايات تقول إنه انتحر ، والقى جسده فى نهر التيبر . وهناك رواية تقول إن قبره فى فينا .

على أن بعض الروايات الأخرى كانت أكثر إشفاقا على بيلاطس ، وأخذت تلقى باللوم على اليهود باعتبارهم هم السبب الرئيسى فى صلب المسيح ، وقد قالت هذه الروايات إن زوجته كانت دخيلة يهودية اسمها كلوديا بروكيولا ، وإنها اعتنقت المسيحية ... وتقول بعض الروايات إن بيلاطس نفسه صار مسيحيا فيما بعد .

ونختتم هذا الجزء بوثيقة تستحق الاهتمام . فمن المؤكد أن بيلاطس أرسل تقريرا إلى روما عن محاكمة يسوع وموته ، فإن هذا هو المتوقع فى نظام الإدارة العادى . ونحن لا نعلم صيغة هذا

التقرير ، لكن أحد الكتب غير القانونية ويدعى « أعمال بطرس وبولس » ، يذكر لنا صيغة يدعى الكاتب أنها هي التقرير الذى كتبه بيلاطس إلى كلوديوس . ونحن لا نجزم بصحة هذا التقرير ، الا أن بعض الآباء مثل ترتليانوس وجستنيان ويوسابيوس أشاروا إليه وهو كالآتى :

« من بيلاطس البنطى إلى كلوديوس — تحية
« لقد حدث أخيرا أمر قمت بتحقيقه شخصيا ، لأن
« اليهود بسبب حسدهم قد عاقبوا أنفسهم ونسلهم عقابا
« مخيفا نتيجة لخطئهم . إذ أن آباءهم كانت لهم مواعيد
« بأن الله سيرسل لهم من السماء القدوس الذى يحق له
« أن يدعى ملكا ، وقد وعدهم أنه سيرسل إلى الأرض
« مولودا من عذراء . وقد جاء عندما كنت أنا واليا على
« اليهودية ، وقد رأوه يفتح عيون العميان ، ويطهر البرص
« ويشفى المفلوجين ، ويطرد الشياطين من البشر ، ويقيم
« الموتى ، وينتهر الرياح ، ويسير على أمواج البحر ، ويصنع
« عجائب كثيرة ، وكل شعب اليهود كانوا يدعونه
« (ابن الله) — وقد أخذه رؤساء الكهنة حسدا ،
« وقدموه لى متهمين إياه بمختلف التهم الكاذبة ، واحدة
« تلو الأخرى قائلين إنه محتال وإنه يجدف على
« الناس ....
« ولكنى ، وقد اعتقدت كذلك ، جلدته ، وسلمته
« لمشيئتهم ، وقد صلبوه ، وعندما دفنوه ، وضعوا
« حراسا على قبره . وبينما كان الجنود يحرسونه ،
« قام ثانية من الموت ، ولكن شر اليهود جعلهم
« يقدمون نقودا إلى الجنود وأوصوهم أن يقولوا
« إن تلاميذه سرقوا جسده . ولكن الجنود رغم أنهم
« أخذوا النقود ، لم يستطيعوا أن يبقوا صامتين
« عما حدث ، لكنهم شهدوا أيضا أنهم رأوا أنه قام ، وأنهم
« أخذوا نقودا من اليهود . وقد رأيت من واجبى أن أقدم
« هذا التقرير لجلالتكم ، خشية أن تضلكم أكاذيب اليهود
« وتصدقونها .... »

ومهما يكن من أمر هذا التقرير ، فإن شيئا واحدا كان مؤكدا ، وهو أن بيلاطس علم أن يسوع برىء ، ولكن أعماله السيئة كانت نقطة الضعف التى جعلت اليهود يرغمونه أن يخضع لمشيئتهم ، ولا يتبع إحساسه بالعدالة .

بيلاطس يخسر المعركة

(متى ٢٧ : ١ و ٢ و ١١ ــ ٢٦)

إن قراءة النصوص فى هذه القصة تترك فى نفوسنا إحساسا بأن بيلاطس كان كمن يحارب فى معركة . وقد كانت النهاية أنه خسر هذه المعركة . فمن الواضح أن بيلاطس لم يرغب فى الحكم على يسوع ، ولكن بعض الأمور تدخلت فى سير الأحداث .

١ ــ لقد تأثر بيلاطس بشخصية يسوع . ومن الواضح أن بيلاطس لم يأخذ تهمة ادعائه بأنه ملك اليهود ، على محمل الجد . فإن بيلاطس كان مدربا على معرفة شخصيات الثوريين السياسيين ومدبرى الانقلابات . ولم يكن يسوع ثائرا سياسيا ، بل إن صمت يسوع الوقور جعل بيلاطس يحس أن من يقف للمحاكمة ليس هو يسوع ، بل بيلاطس نفسه .... لقد أحس بيلاطس بقوة يسوع ، ولكنه خاف أن يسلم لها . وهناك كثيرون يخافون أن يكونوا مسيحيين إلى الحد الذى يجب الوصول إليها .

٢ ــ ولقد بحث بيلاطس عن بعض أساليب الهروب . فقد كانت العادة أن يطلق لهم فى كل عيد أسيرا . وقد كان فى السجن لصا اسمه باراباس ، ولم يكن لصا عاديا ، بل غالبا كان ثائرا سياسيا وقاتلا ، واسمه باراباس ، ومعناه « ابن الأب » ــ ولقب (الآب) كان يستخدم لوصف أعظم المعلمين الدينيين المعروفين ــ وربما كان باراباس ينتمى إلى أسرة عريقة معروفة ، لكنه احترف الفتنة السياسية والاغتيال ، وفى الغالب كان اسمه الكامل « يسوع باراباس » فإن بعض الترجمات القديمة ، كالترجمة السريانية والترجمة الأرمنية تطلق عليه هذا الاسم ، وقد أيد كل من ايرونيموس وأوريجانوس هذا الرأى ــ ولعل هذا يفسر لنا لماذا كان بيلاطس عندما كان يشير إلى يسوع المسيح ، كان يقول « يسوع الذى يدعى المسيح » (متى ٢٧ : ١٧ و ٢٢) ، وذلك ليميزه عن يسوع الآخر ــ وقد كان اسم « يسوع » اسما شائعا ، وهو نفس اسم « يشوع » ــ ولعل الهتافات كانت « اطلق لنا يسوع باراباس ، اصلب يسوع المسيح » .

لقد بحث بيلاطس عن وسيلة للهروب ، فترك الاختيار للجمهور ظانا أنهم يختارون إطلاق يسوع المسيح ، لكن الجمهور اختار الحرية للمجرم الثائر ، ورفض المسيح الهادى الوديع ... لقد فضل رجل الفتنة على رجل المحبة .

٣ ــ ولقد أراد بيلاطس أن يزيح مسئولية الحكم على يسوع عن كاهله ، فغسل يديه قدام الجميع . ولقد كانت هذه عادة يهودية . ففى سفر التثنية (٢١ : ١ ــ ٩) نقرأ عن نظام غريب لتبرئة الناس عن الدم . فإذا وجد قتيل فى الأرض ، ولم يعرف القاتل ، يخرج شيوخ أقرب مدينة إلى المكان الذى وجد فيه القتيل ، ويذبحون عجلة ويغسلون أيديهم على العجلة المكسورة العنق ، ويصرخون ويقولون « أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر » .

ولقد جاءت إلى بيلاطس تحذيرات عدة . حذره احساسه بالعدالة ، وحذره ضميره ، وحذرته زوجته التى اضطربت بسبب حلمها ... لكنه لم يستطع أن يصمد أمام الجماهير ، وهكذا غسل

يديه أمام الجميع محاولا أن يبرىء نفسه . وتقول الأساطير إن ظل بيلاطس ما يزال يخرج من قبره ويغسل يديه مرة بعد الأخرى .

إن الإنسان لا يستطيع أبدا أن يتنصل من المسئولية — فإنه من المستحيل على بيلاطس أو على أى إنسان أن يقول « لقد غسلت يدى من كل مسئولية » ، ذلك لأن المسئولية شيء لا يمكن أن يغسلها الماء ، ولا يضيعها أى شخص أو شيء فى الوجود .

إن صورة بيلاطس تثير فى نفوسنا الشفقة أكثر من الاشمئزاز — فهنا أكثر مما هو رمز للشر . رجل غرق فى ماضيه السيىء حتى صار حاضره عاجزا ، ووقف ماضيه فى طريقه ، فلم يستطع أن يقف كما يريد وكما يجب . إن بيلاطس رمز للمأساة .

هزم الجنود

(متى ٢٧ : ٢٧ — ٣١)

تبدأ الآن عملية الصلب المفزعة . لقد انتهى النص السابق بهذه العبارة « أما يسوع فجلده ، وأسلمه ليصلب » . وقد كانت عملية الجلد الرومانية غاية فى الفظاعة . كان الشخص المحكوم عليه يعرى ، ثم تربط يداه خلفه ، ثم يربط فى عمود بكيفية تجعل ظهره معرضا للمجلدة . وكانت المجلدة نفسها تتكون من سير طويل من الجلد ، وقد تثبتت فيه على مسافات قطع من العظام المسنونة ، وقطع صغيرة من الرصاص . وقد كان من المعتاد جلد المذنب قبل صلبه . وقد وصفت عملية الجلد بأنها كانت « تترك الجسد العارى وقد أصبح كشرائح من اللحم الممزق ، ممتلئا من الجروح الملتهبة الدامية » . وكان كثيرون من المذنبين يفقدون حياتهم أثناء هذه العملية الفظيعة ، والبعض يفقدون عقولهم ، وقليلون هم الذين يظلون فى وعيهم .

بعد ذلك أسلم يسوع إلى الجنود ، حتى ترتب باقى تفاصيل عملية الصلب ، وتجهيز الصليب نفسه . لذلك أخذوه إلى ثكناتهم فى دار الولاية ، ونادوا باقى الكتيبة . وكان عدد أفراد الكتيبة فى المعتاد نحو ٦٠٠ جندى ، لكن ليس من المحتمل أن مثل هذا العدد كان موجودا فى أورشليم ، فقد كان هؤلاء الجنود هم حرس بيلاطس الوالى الذين جاءوا معه من قيصرية حيث مقره الرسمى .

ونحن نقشعر مما فعله الجنود ، لكننا لو تأملنا فى الأمر مليا ، لوجدنا أن الجنود هم أقل الأطراف استحقاقا للوم ، من بين الذين اشتركوا فى عملية الصلب — فلم يكن مقرهم الأساسى فى أورشليم ، ولم تكن لديهم أية فكرة عمن يكون يسوع هذا . وطبيعى أنهم لم يكونوا من اليهود ، لأن الأمة اليهودية كانت هى الأمة الوحيدة بين شعوب الدولة الرومانية التى أعفيت من الخدمة العسكرية . لقد كان الجنود أنفارا مقترعين للجيش من مختلف أطراف الأرض ، وكانوا يتصرفون وهم يجهلون كل شيء ، بعكس اليهود ، وبعكس بيلاطس .

وعلى الرغم من هزئهم بيسوع واعتباره أضحوكة بينهم ، فإن عملهم هذا ربما كان أخف وقعا على يسوع من أعمال غيرهم ، لأنهم لم يحملوا له حقدا فى قلوبهم . فبالنسبة لهم لم يكن يسوع

سوى جليلى يسير فى طريقه إلى الصليب . ويحكى لنا فيلو الإسكندرى أن جماعة من رعاع اليهـود فى الإسكندرية قاموا بالعمل عينه لصبى معتوه فى الطريق ، فقد وضعوا قطعة قماش على رأسه بدل التاج ، وأعطوه قطعة من نبات البردى بدلا من قضيب الملك ، وأخذوا يهزأون به كأنه ملك ، ويقدمون إليه التماساتهم . وهكذا فعل الجنود بيسوع ، ما فعلته جموع الرعاع بصبى معتوه .

ثم استعدوا لقيادته إلى الصلب . وكثيرون ينصحون بعدم اطالة التفكير فى الجانب الجسدى من عملية الصلب ، لكننا بدون مثل هذا التفكير ، لا نستطيع أن نتصور مقدار ما تحمله يسوع لأجلنا . ويقول أحد كتاب اليهود « إن عملية الصلب هى أقسى وأفظع أسلوب للموت يمكن أن يتخذه إنسان لينتقم من أخيه الإنسان » . ويقول شيشرون إنه « اقسى وأفظع عذاب » . ويذكر تاسيتوس إنه « عذاب يناسب العبيد فقط » . نبعت فكرة الصلب فى بلاد الفرس ، وأصل الفكرة عندهم أن الأرض مقدسة للإله « أرموزدا » ، لذلك كان من الضرورى رفع المذنب من على الأرض ، لكى لا ينجس الأرض التى هى ملك للإله — ومن بلاد الفرس انتقلت الفكرة إلى قرطاجنة فى شمال أفريقية ، ومنها تعلمها الرومان . وقد جعل الرومان عقوبة الصلب مقتصرة على الثوار ، والعبيد الهاربين ، وأحط أنواع المجرمين . فلم يكن قانونيا أن يعاقب بها مواطن رومانى . ويصف الكاتب اليهودى « كلوزنر » العملية بأن المجرم كان يربط فى الصليب ، وهو كتلة دامية من اللحم الممزق بسبب الجلد ، وهناك على الصليب يظل معلقا ليموت من الجوع والعطش والتعرض لمختلف الظروف ، وهو لا يقدر أن يحمى نفسه حتى من عذاب لدغات البعوض والحشرات والذباب الذى يحط على جسده العارى الممزق ، وجروحه الدامية .

إن هذه ليست صورة مستحبة على الإطلاق .. لكن هذا هو ما تحمله يسوع راضيا من أجلنا .

الصليب والعار

(متى ٢٧ : ٣٢ — ٤٤)

إن قصة الصليب لا تحتاج إلى شرح وتعليق ، فلها من ذاتها القوة أن تتحدث عن نفسها ، وكل ما يمكن أن نعمله هو أن نوضح الإطار الذى جرت فيه الأحداث ، لكى تظهر الصورة بأوضح ما يمكن .

كانت العادة أنه عند الحكم على مذنب بالصلب ، أن يحاط بمربع من الجنود الرومان ليقوده إلى مكان الصلب . وكان من المعتاد أن يحمل المذنب صليبه — أن يحمل الجزء الأفقى من الصليب ، إذ أن الجزء الرأسى يكون مثبتا فى الأرض فى مكان الصلب . وكانت التهمة التى من أجلها حكم عليه بالموت ، تكتب على لوحة ، وتعلق حول رقبته ، أو يحملها ضابط يسير قدام الموكب ، ثم تثبت فيما بعد على الصليب نفسه . وكان الجنود يختارون أطول الطرق الممكنة إلى مكان الصلب ، حتى يمكن لأكبر عدد من الناس أن يشاهدوا الموكب ، ليأخذوا عبرة ، ويتخذوا حذرهم من هول ما يرون .

ولقد تحمل يسوع عذاب الجلد ، ثم آلام هزء الجنود ، وقبل ذلك كان يحاكم طيلة الليل ، وكان من الطبيعى أن ينال الإجهاد منه كل مأخذ ، وها هو يحمل الصليب ويئن تحت ثقله .

ولقد عرف الجنود الرومان هذه الحقائق ، لذلك أرادوا أن يسخروا من يحمل الصليب بدلا منه .

كانت فلسطين محتلة ولا يحتاج الأمر إلا أن يلمس أحد الضباط الرومان كتف أحد اليهود بنصل حربته ، لكى يتحتم على الرجل أن يطيع أمره ويؤدى ما يطلبه منه مهما كان . وحدث أنه فى ذلك الوقت كان رجل قادم من بلدة قيروان البعيدة فى شمال أفريقية يدعى سمعان ، وكان يسير فى مدينة أورشليم . وربما كان سمعان يدخر نقوده منذ سنوات طويلة لكى يحظى برحلة إلى أورشليم يحضر فيها عيد الفصح . وتشاء الظروف أن يقع عليه اختيار الجنود ليقوم بذلك العمل المهين ، فقد سخروه ليحمل صليب يسوع .

وعندما يروى مرقس البشير هذه القصة ، يذكر أن سمعان هذا هو « أبو الكسندرس وروفس » (مرقس ١٥ : ٢١) ، وهذا يعنى أن ابنى سمعان صارا فيما بعد معروفين للكنيسة . ونستطيع أن نستنتج من ذلك أنه فى ذلك اليوم الرهيب استطاع يسوع أن يملك قلب سمعان القيروانى ، وبذلك تحول اليوم الذى كان ظاهريا يوم عار لسمعان ، إلى يوم مجد بالنسبة له .

كان مكان الصليب جبلا يدعى « جلجثة » ومعناها « جمجمة » ، ربما لأن الجبل كان يشبه الجمجمة فى شكله . وهناك كان المعتاد أن يسمر المجرم على الصليب ، بمسامير غليظة تخترق يديه ، أما الرجلان فكانتا تربطان ربطا فى الخشبة ، ولتخفيف الآلام كانوا يقدمون للمجرم جرعة من الخمر الممزوج بمادة مخدرة ، وكانت بعض النساء الثريات فى أورشليم تجهزن هذه الخمر كعمل من أعمال الرحمة ، هكذا تقول كتابات يهودية — ولكنهم عندما قدموا مثل هذه الكأس المخدرة إلى يسوع ، رفض أن يشربها ، إذ أنه عزم أن يذوق الموت فى كامل مرارته وعذابه .

وكما سبق أن ذكرنا ، كان المذنب يقاد إلى الصلب وسط مربع من أربعة جنود . ونظرا لأن المذنب كان يصلب عاريا إلا من قطعة قماش على حقويه ، لذلك كانت ملابس المذنبين من نصيب هؤلاء الجنود . كان اليهودى يلبس خمس قطع من الملابس : الحذاء ، والعمامة ، والحزام أو المنطقة ، والرداء الداخلى والثوب الخارجى . كانت قطع الملابس خمسة ، وعدد الجنود أربعة ، وكانت الأربع قطع الأولى متقاربة فى قيمتها ، وغالبا أخذ كل جندى قطعة ، أما الرداء الخارجى فكان أغلاها جميعا ، وعلى هذا اللباس الخارجى « ألقى الجنود قرعة » كما يخبرنا يوحنا (يوحنا ١٩ : ٢٣ ، ٢٤) . وبعد أن اقتسم الجنود الثياب جلسوا يحرسون الصليب حتى تأتى النهاية .

وهكذا كان فى الجلجثة فى ذلك الوقت ثلاثة صلبان ، ابن الله فى الوسط ولص على كل جانب . حقا لقد كان موته مع الخطاة .

والأعداد الأخيرة من هذا الجزء تروى عبارات الهزء والسخرية التى كان الناس ، والمارون ، واللصان ، والسلطات اليهودية يلقونها على يسوع — وكانت كل العبارات تتركز فى شىء واحد ، وهو ما كان يدعيه يسوع من أنه المسيح ابن الله ، ومقارنة ذلك بموقفه العاجز على الصليب .

وهنا كان اليهود على خطأ مبين . فقد استخدموا مجد المسيح وسيلة للهزء به . كانوا يقولون « انزل عن الصليب فنؤمن بك » ، ولكن الواقع ، كما قال الجنرال بوث مرة « إننا نؤمن به لأنه لم ينزل عن الصليب » .

لقد كان اليهود لا يرون الله إلا في القوة فحسب ، لكن يسوع استطاع أن يظهر للناس أن الله يمكن أن يرى في المحبة المضحية .

انتصار النهاية

(متى ٢٧ : ٤٥ ــ ٥٠)

ونحن نقرأ قصة الصليب ، تبدو الأحداث كأنها تمر سريعا ، لكن الواقع لم يكن كذلك . فقد استغرق الأمر ساعات وساعات . وقد كان مرقس حريصا أن يدون الزمن ، فهو يذكر لنا أن وقت الصلب كان الساعة الثالثة (بالتوقيت اليهودى) أى نحو التاسعة صباحا (مرقس ١٥ : ٢٥) ، وأن يسوع أسلم الروح فى الساعة التاسعة أى الثالثة بعد الظهر حسب توقيتنا (مرقس ١٥ : ٣٤) . ومعنى هذا أن يسوع علق على الصليب مدة ست ساعات ، وقد كانت هذه المدة من أكثر الساعات ألما وعذابا ، لكنها كانت وقتا قصيرا بالنسبة لما كان يقضيه بعض المجرمين ، فقد كان البعض يظلون أياما إلى أن يجيء الموت ، فيرحمهم من عذابهم .

ويعتبر العدد ٤٦ عبارة تصدم قارىء الإنجيل ، ففيها صرخ يسوع قائلا : « إلهى إلهى لماذا تركتنى » . وهذه عبارة من نطق يسوع يجب أن ننحنى أمامها فى وقار ، لكننا فى الوقت نفسه يجب أن نحاول فهمها . وقد حاول كثيرون من الشراح الدخول إلى أعماق أسرار معانيها ، وسنحاول أن ندرس ثلاثة من هذه الشروح : ــ

١ ــ نستطيع أن نلاحظ كيف أن المزمور الثانى والعشرين يتحقق بكيفية عجيبة فى حادثة الصليب . والواقع أن هذا القول ، « إلهى إلهى لماذا تركتنى » هو العدد الأول من ذلك المزمور . وإذ نتابع هذا المزمور نرى المرنم يقول : « كل الذين يروننى يستهزئون بى يفغرون الشفاه وينغضون الرأس قائلين اتكل على الرب فلينجه لينقذه لأنه سر به » . (مزمور ٢٢ : ٧ و ٨) . ثم نقرأ « يقسمون ثيابى بينهم وعلى لباسى يقترعون » (مزمور ٢٢ : ١٨) . وهكذا نرى هذا المزمور منسوجا ضمن قصة الصليب . وقد قال البعض إن يسوع كان يردد كلمات ذلك المزمور لنفسه ، لأن المزمور وإن كان يبدأ بكلمات الخضوع والمذلة ، لكنه ينتهى بالنصر الصارخ كما نرى فى القول : « من قبلك تسبيحى فى الجماعة العظيمة .. لأن الرب الملك ، وهو المتسلط على الأمم » (مزمور ٢٢ : ٢٥ ــ ٣١) .

وقد قيل إن يسوع يردد كلمات المزمور الثانى والعشرين تصويرا لحالته ، وإعلانا لثقته الكاملة بالله ، لأنه يعلم أن الآلام التى يجتازها ستنتهى بالنصر . على أنه وإن كانت الفكرة جميلة ، لكنها غير متوقعة ، لأن الإنسان على الصليب لا يكرر شعرا أو ينشد مزمورا ، لأن ظلام الصليب ورهبته

وآلامه تضفى على الصورة ظلال المأساة الفظيعة .

٢ ــ وهناك رأى آخر يقول إنه فى تلك اللحظة حل الثقل الفظيع لخطايا العالم على قلب يسوع ، وعلى كيانه كله . وإنه فى تلك اللحظة صار من لم يعرف خطية ، خطية لأجلنا (٢ كورنثوس ٥ : ٢١) ، وإن العقاب الذى حمله عنا ، نتج عنه بالضرورة الانفصال عن الله بسبب الخطية . ولا يستطيع أحد أن يعترض على هذا التفسير ، إلا أننا نقف أمام هذا السر العميق مشدوهين متعجبين .

٣ ــ وربما كان هناك تفسير آخر ، أكثر ميلا للناحية البشرية . فإنه يبدو أن يسوع لا يكون يسوع حقا ، ما لم يدخل إلى أعماق الاختبار الإنسانى . وقد اختبر البشر أنه فى أثناء سير الحياة الطبيعى ، عندما تدخل المآسى إلى الحياة تأتى أوقات ، وربما مرة واحدة فى الحياة ، عندما يشعر الإنسان إن الله قد نسيه . وحين نجوز فى حالة فوق إدراكنا ، نشعر إننا قد صرنا متروكين من الله نفسه . ولعل هذا ما جاز فيه يسوع ، كإنسان ، لكى يختبر أعمق اختبارات البشر .

ومن الواضح أن الذين سمعوا صرخة يسوع لم يفهموا . فقد ظن البعض أنه ينادى إيليا ، وهؤلاء كانوا يهودا . وربما ظن الوثنيون أنه ينادى أحد الآلهة .

ولو أن يسوع مات وعلى لسانه صرخة كهذه ، فإن الأمر يبدو فظيعا ــ لكن الأمر لم يكن كذلك . إن القصة تروى لنا أنه صرخ بصوت عظيم ، ثم أسلم الروح . هذه الصرخة تركت آثارها فى عقول الناس . وقد وردت فى كل من البشائر الثلاث (متى ٢٧ : ٥٠ ، مرقس ١٥ : ٣٧ ، لوقا ٢٣ : ٤٦) ، لكن بشارة واحدة تذكر لنا كلمات هذه الصرخة . فإن يوحنا يقول لنا إن يسوع صرخ قائلا « قد أكمل » (يوحنا ١٩ : ٣٠) . وهى فى العربية تتكون من كلمتين ، لكنها فى اليونانية كلمة واحدة كما هى كلمة واحدة فى الآرامية .

والكلمة فى اليونانية هى صرخة المنتصر ، هى هتاف من أتم عمله ، ومن فاز فى المعركة ــ صرخة رجل خرج من الظلام إلى مجد الضياء ، وأمسك بالتاج . وهكذا مات يسوع منتصرا وصيحة الفائز على شفتيه .

ولنا فى هذا درس رائع . لقد دخل يسوع إلى أعماق الهاوية . وهنا أشرق النور . وهكذا نحن أيضا كنا نتعلق بالله ، حتى عندما يبدو أنه لا عون لنا ، وإذا كنا نتمسك ببقايا إيماننا ، فإن الفجر سيشرق علينا ونفوز فى صراعنا . إن المنتصر هو الإنسان الذى يؤمن إن الله لم ينسه ، حتى وإن كان يشعر أن الله تركه ، هو من لا يترك إيمانه حتى عندما تضيع كل وسائل الإيمان ــ إنه هو الذى يصل إلى الأعماق يبقى متمسكا بالله ، كما فعل يسوع .

الإعلان المتألق

(متى ٢٧ : ٥١ ــ ٥٦)

ينقسم هذا النص إلى ثلاثة أجزاء :

١ ــ فهنا رواية للأمور المدهشة التى حدثت عندما مات يسوع . وسواء كان المقصود أن نفسر هذه الأحداث حرفيا أم رمزيا ، فإنها تعلمنا حقيقتين هامتين :

(أ) حجاب الهيكل شق من أعلى إلى أسفل ، وهذا الحجاب هو الذى كان يحجب قدس الأقداس ، والذى كان لا يجوز لأى إنسان أن يتعداه ما عدا رئيس الكهنة فى يوم الكفارة العظيم ، ذلك كان الحجاب الذى يسكن وراءه روح الله . وهنا نرى صورة رمزية . فإلى ذلك الوقت كان الله بعيدا ومحتجبا ، ولم يكن أحد يعرف كيف يكون الله . لكننا فى موت يسوع نرى محبة الله المستترة ، وما كان ممنوعا على الناس من قبل ، أصبح مفتوحا أمام جميع الناس أن يتقدموا إلى حضرة الله . إن حياة يسوع وموته يظهران الله للبشر ، ويزيلان الحجاب بين الله والناس .

(ب) والقبور تفتحت ــ الرمزية هنا تشير إلى أن يسوع هزم الموت وبسبب حياته وموته فقد الموت سطوته ومأساته ، لأننا نعلم الآن أنه حى ، وأننا سنحيا أيضا .

٢ ــ وهنا قصة قائد المئة وتكريمه ليسوع . لقد قال يسوع « وأنا أن ارتفعت أجذب إلىّ الجميع » (يو ١٢ : ٣٢) هكذا تنبأ يسوع بقوة الصليب الجاذبة ، وكان قائد المئة باكورة الذين اجتذبهم صليب يسوع المسيح . لقد استطاع الصليب أن يظهر له جلال يسوع ، كما لم يستطع شىء آخر .

٣ ــ وهنا نجد ذكر النساء اللواتى بقين مع يسوع إلى أن رأين النهاية . لقد تركه التلاميذ وهربوا ، أما النساء فقد بقين . وقد قيل إنهن بقين ، بعكس الرجال ، لأن مقام المرأة كان منحطا ، حتى أن أحدا لم يكن يهتم بأن يعيرهن التفاتا ، فلم يكن هناك خطر عليهن . لكن هناك شيئا أكثر من ذلك فى الأمر . لقد بقين هناك لأنهن أحببن يسوع ، وبالنسبة لهن ، كما بالنسبة لكثيرين ، المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى الخارج .

القبر الهدية

(متى ٢٧ : ٥٧ ــ ٦١)

كان الناموس اليهودى يقضى بألا يبقى الجسد الميت معلقا طيلة الليل ، بل حتى جسد المذنبين كان ينبغى أن يدفن فى نفس اليوم . « وإذا كان على إنسان خطية حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة ، فلا تبت جثته على الخشبة بل تدفنه فى ذلك اليوم » (تثنية ٢١ : ٢٢ و ٢٣) .

وفى حالة يسوع بالذات ، كانت الضرورة مشددة على ذلك ، لأن اليوم التالى كان سبتا ، وحسب القانون الرومانى ، كان يمكن لأقرباء المذنب أن يطلبوا جسده ليدفنوه ، وإذا لم يطلب أحد الجسد ، كان يترك ليتعفن ، أو تنهشه الكلاب . وفى حالة يسوع لم يكن فى قدرة أحد من

أقاربه أن يطالب بالجسد ، فقد كانوا جميعا من الجليليين ، ولم يكن أحد منهم يمتلك قبرا فى أورشليم . وهكذا تقدم يوسف الرامى إلى بيلاطس ليأخذ جسد يسوع . فأخذه واعتنى به ، ووضعه فى قبره الجديد المنحوت فى الصخرة ... وهكذا دخل يوسف الرامى التاريخ بهذه الهدية التى قدمها إلى يسوع .

وقد تعددت الروايات عن يوسف الرامى ، ومنها ما قال إن فيلبس أرسل يوسف الرامى ليكرز بالإنجيل فى انكلترا ، وأنه أحضر معه إلى انكلترا الكأس التى استخدمها يسوع فى العشاء الربانى وبها قطرات من دم المسيح المراق على الصليب . وهناك رواية تقول إن يوسف الرامى كان قريبا لمريم أم يسوع ، وأنه مارس حق الأقرباء فى طلب جسد يسوع . على أى حال كل هذه الروايات تفتقر إلى الدليل .

وقد قال كثيرون إن يوسف الرامى أعطى يسوع قبرا بعد موته ، لكنه لم يؤيده فى حياته . كان يوسف الرامى عضوا فى مجمع السنهدريم (لوقا ٢٣ : ٥٠) . لكن لوقا يذكر أيضا أنه لم يكن « موافقا على رأيهم وعملهم » (لوقا ٢٣ : ٥١) ومن المحتمل أن اجتماع السنهدريم فى منزل قيافا فى منتصف الليل ، لم يكن يضم كل أعضاء السنهدريم ، بل بعض الأعضاء المنتقين فقط . وربما دعا قيافا من أرادهم من مؤيدى رأيه ، وأن يوسف لم تكن له فرصة أن يكون هناك .

ومن المؤكد أن يوسف فى النهاية قام بعمل ينطوى على شجاعة فائقة ، فقد وقف إلى جانب المذنب المصلوب ، وواجه احتمال معارضة بيلاطس ، وأكثر من هذا واجه كراهية اليهود وهزءهم . ولعل يوسف الرامى قام بكل ما كان يمكنه أن يعمله .

تبقى بعد ذلك نقطة غامضة ، وهى شخصية مريم الأخرى . لقد عرفها مرقس بأنها مريم أم يوسى (مرقس ١٥ : ٤٧) . لقد رأينا هؤلاء النساء ، عند الصليب ، وها هن يتبعن يسوع فى الحياة وفى الموت .

مهمة مستحيلة

(متى ٢٧ : ٦٢ ــ ٦٦)

ذهبوا إلى بيلاطس فى الغد ، الذى بعد الاستعداد . لقد صلب يسوع يوم الجمعة ، ويوم السبت هو الراحة اليهودية . وقد كانت الساعات من الثالثة إلى السادسة مساء الجمعة تسمى مساء الاستعداد ، وقد عرفنا حسب فهم اليهود أن اليوم التالى يبدأ بعد السادسة مساء ، وعلى هذا يكون السبت قد بدأ فى الساعة السادسة مساء الجمعة ... ولعل هذا يعنى أن رؤساء الكهنة والفريسيين ذهبوا إلى بيلاطس بهذا الطلب يوم السبت ، وبذلك يكونون قد كسروا ناموس السبت كسرا صريحا . وهذه الحقيقة تظهر لنا بأجلى وضوح ، وأكثر من أى حادثة أخرى فى رواية الإنجيل ، كيف كانوا راغبين فى أى وسيلة للتخلص من يسوع ، ولأجل تحقيق هذه الرغبة قبلوا أن يكسروا قانونا من أقدس شرائعهم .

جاء هؤلاء اليهود إلى بيلاطس يقولون إن يسوع قد سبق وذكر أنه سيقوم بعد ثلاثة أيام ، وهم لم يصدقوا هذا القول لكنهم خافوا لئلا يأتى تلاميذه ليسرقوا جسده ويقولوا إنه قام . لذلك أرادوا أن يتخذوا كافة الاحتياطات لحراسة القبر ، وقال لهم بيلاطس وأن يعملوا كما يشاءون . وكأنه يقول لهم : « اذهبوا واضبطوه إن استطعتم » ، فذهبوا وفعلوا كما أرادوا ، وكانت أبواب القبور التى من هذا النوع تغلق بحجر كبير مستدير مثل العجلة أو حجر الطاحونة . ثم ختموا الباب ووضعوا حراسا ، لتكون الاحتياطات كاملة ...

لكنهم لم يتبينوا شيئا واحدا ، وهو أنه لا يمكن لأى قبر فى الوجود أن يحتجز يسوع المسيح المقام ، ولا تستطيع كل خطط البشر أن تقيد الرب المقام . إن مهمة وضع قيود تمنع انطلاق يسوع المسيح هى مهمة مستحيلة ولا أمل فى نجاحها على الاطلاق .

الاكتشاف العظيم

(متى ٢٨ : ١ ــ ١٠)

هنا نجد رواية متى عن القبر الفارغ ، ويمكننا أن نلاحظ أن مريم المجدلية ومريم الأخرى كانتا أول من سمع بأخبار قيامة السيد ، وأول من نال شرف لقائه بعد القيامة . لقد كانتا هناك عند الصليب ، وعند دفنه فى القبر ، وها هما تحظيان بمكافأة المحبة ، لأنهما أول من نال بهجة القيامة وأفراحها .

وإذ نقرأ قصة القبر الفارغ والأشخاص الذين واجهوا قيامة المسيح ، نرى ثلاثة أوامر وجهت إليهم :

١ ــ فقد طلب اليهم أن يؤمنوا ، كان الأمر غاية فى الغرابة حتى يبدو غير مصدق ، وأعظم من أن يكون حقيقيا . لكن الملاك ذكرهم بأقواله ، وواجههم بالقبر الفارغ ، وكل كلمة من كلماته كانت دعوة إلى الإيمان .

إن كثيرين إلى الآن يظنون أن مواعيد المسيح أعظم من أن تكون حقيقة . هذا التردد لا يطرده سوى تصديق كلام يسوع ــ الإيمان .

٢ ــ وقد طلب إليهم مشاركة الآخرين فيما اكتشفوا . إن أول واجب هو أن يذهبوا ويخبروا . إن من يكتشف روعة يسوع المسيح ، يجب أن يشارك الغير فيما يكتشفه .

٣ ــ وقد طلب إليهم أن يفرحوا . إن الكلمة التى لاقاهم يسوع بها هى كلمة التحية العادية باليونانية (شايريت Chairete) ، لكن معناها الحرفى (افرحوا) . إن من يلتقى مع المسيح المقام يجب أن يحيا على الدوام فى فرح حضور يسوع ، الذى لا يمكن أن ينتزع من الإنسان أبدا .

التعليل الأخير

(متى ٢٨ : ١١ ــ ١٥)

عندما جاء بعض الحراس إلى رؤساء الكهنة وحدثوهم بما جرى ، أصاب هؤلاء غم وقلق شديد ، لقد أدركوا أن كل خططهم وصلت فى النهاية إلى لا شيء . لذلك أرادوا أن يواجهوا الموقف بخطة بسيطة ، وهى أنهم قدموا رشوة إلى الحراس ليقولوا إن تلاميذ يسوع جاءوا ليلا وهم نيام وسرقوا الجسد .

ونحن ندهش عندما نرى الوسائل التى استخدمها قادة اليهود لإبعاد يسوع والتخلص منه . فقد استخدموا الخيانة ، ليلقوا عليه الأيادى ويمسكوه . لقد استخدموا الظلم ومجافاة القانون فى محاكمته ،

وها هم يستخدمون الرشوة لإسكات صوت الحق الذى يتحدث عنه ، ورغم ذلك فقد فشلوا .

هناك مثل يقول « الحق يعلو ولا يعلى عليه » . فإن التاريخ يشهد أن شر الناس وخيانتهم لا يمكن أن يغلبا الحق . إن إنجيل الصلاح أعظم من كل مؤامرات الأشرار .

مجد الوعد الأخير

(متى ٢٨ : ١٦ — ٢٠)

نأتى هنا إلى نهاية قصة الإنجيل ، ونصغى إلى كلمات يسوع الأخيرة لتلاميذه . ففى هذا اللقاء الأخير عمل يسوع ثلاثة أمور :

١ — لقد أكد لهم قوته . فمن الطبيعى أنه لا يوجد شىء ليس فى متناول ذاك الذى مات وانتصر على الموت . إنهم الآن يخدمون سيدا له سلطان فى السماء وعلى الأرض ، بلا منازع .

٢ — وهو بعثهم فى مهمة خاصة ، إذ أرسلهم ليجعلوا العالم كله تلاميذ له . وقد ظن البعض أن الأمر بالمعمودية لم يخرج من فم المسيح ، ولكنه نظام اتخذه التلاميذ فيما بعد ، على أن المؤكد هو أن يسوع أراد أن يربح جميع الناس لشخصه .

٣ — وقد وعدهم أن يكون دائما معهم . لقد كان من المذهل أن يخرج أحد عشر جليليا ليربحوا العالم . ولا شك أنهم عندما سمعوا الأمر بهتوا وتعجبوا ، لكنه سرعان ما أعقب أمره بوعده ، إنهم إذ يخرجون إلى العالم لن يكونوا وحدهم ، بل سيكون معهم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر .

وياله من حضور مجيد مبارك !

إنجيل مرقس

مقدمة إنجيل مرقس

الأناجيل الثلاثة الأول :

تعتبر الأناجيل الثلاثة الأول ، متى ومرقس ولوقا ، وحدة واحدة ، وقد أطلق عليها العلماء الكلمة الإنجليزية Synoptics وهى كلمة مشتقة من فعل يونانى مركب يعنى « يمكن الإحاطة به » . ولقد سميت بهذا الاسم لما فيها من تشابه كبير يجعل من السهل دراستها معا . ومن هذه المجموعة يعتبر إنجيل مرقس أكثرها أهمية ، بل يذهب البعض إلى حد القول بأنه أهم كتاب فى العالم طراً ، إذ ، أنه ـــ بشهادة الجميع ــ أول إنجيل كتب ، ولهذا فهو أول كتاب عن حياة يسوع وصل إلينا . قد لا يعنى هذا أن مرقس كان أول شخص يكتب عن حياة يسوع فلابد أنه كانت هناك محاولات أولية سابقة ، ولكنه أصبح من المؤكد أن هذا الإنجيل هو أقدم إنجيل وصل إلينا .

أصل الأناجيل :

عندما نبحث عن أصل الأناجيل وكتابتها يجب أن نرجع قرونا طويلة إلى الوراء حيث لم تكن هناك مطابع ولا كتب مطبوعة . حينها كانت كتابة الكتب عملية شاقة مكلفة ، إذ كانت تكتب بخط اليد ؛ فى ذلك العصر كتبت الأناجيل ، ولهذا فلم تكن هناك سوى نسخ محدودة مكتوبة بخط اليد . فكيف يمكن إذاً أن نقول إن إنجيل مرقس كان أول ما كتب من هذه المجموعة المثلثة ؟

إن أول ما يقابل الدارس لهذه الأناجيل الثلاثة هو المشابهات الواضحة بينها ، فقد يقرأ الحادثة الواحدة فى الأناجيل الثلاثة بنفس الكلمات تقريباً ويجد تعاليم المسيح بنفس الصيغة ، فحادثة إشباع الخمسة آلاف مثلاً جاءت فى صيغة واحدة فى كل من مرقس ٦ : ٣٠ ـــ ٤٤ ، متى ١٤ : ١٣ ـــ ٢١ ، لوقا ٩ : ١٠ ـــ ١٧ ؛ ولعل خير مثل على هذا التشابه هو قصة شفاء المفلوج المذكورة فى مرقس ٢ : ١ ـــ ١٢ ، متى ٩ : ١ ـــ ٨ ، لوقا ٥ : ١٧ ـــ ٢٦ . فقد جاءت متطابقة تقريباً فى مواضعها الثلاثة ، حتى إن الجملة الإخبارية « حينئذ قال للمفلوج » تأتى فى نفس الموضع فى القصص الثلاث . هذا التشابه الواضح يقودنا إلى أحد إفتراضين : إما أن ثلاثتهم استقلوا معلوماتهم من مصدر واحد وإما أن اثنين منهم اتخذا الإنجيل الثالث مصدراً أساسياً لهما . فأيهما أصح [1]؟ .

لدى التعمق فى الدراسة نجد أن إنجيل مرقس ينقسم إلى ١٠٥ قسما منها ٨٣ قسما جاءت فى إنجيل متى و ٨١ قسما جاءت فى إنجيل لوقا ولم تبق غير أربعة أقسام فقط موجودة فى إنجيل مرقس وحده .

بل لعل الفكرة تتضح أكثر لو اتخذت الأعداد أساساً للمقارنة : فإنجيل مرقس يحتوى

---

(١) هذه المقارنة من الناحية العلمية فقط ولكن هذا لا يعنى إنكار الحقيقة الأساسية أن الوحى هو أساس وحدة الأفكار . (الناشر) .

على ٦٦١ عدداً وإنجيل متى يحتوى على ١٠٦٨ عدداً بينما يتكون إنجيل لوقا من ١١٤٩ عدداً . لكن عندما يكتب متى إنجيله يستعير بما لا يقل عن ٦٠٦ عدداً من إنجيل مرقس مستخدماً ٥١ ٪ من نفس الفاظه ، أما لوقا فإنه يستعير حوالى ٣٢٠ عدداً مستخدماً كذلك ٥٣ ٪ من نفس الفاظ مرقس بل وأكثر من ذلك فالخمسة والخمسون عدداً الباقية من مرقس التى لا يستعيرها متى نجد منها واحداً وثلاثين عدداً فى إنجيل لوقا .. ومن هذا يتضح أن أربعة وعشرين عدداً فقط هى التى نجدها فى مرقس لم يستعرها متى أو لوقا .

هذه الدراسة المقارنة جعلت الباحثين يتمسكون بالنظرية القائلة : إن متى ولوقا كانا يستخدمان إنجيل مرقس مصدراً أساسياً لهما عند كتابة إنجيليهما .

لكن الذى يحول النظرية إلى حقيقة واقعة هو مقارنة ترتيب الحوادث . فإنجيل متى وإنجيل لوقا يتبعان فى غالبية الأحوال ترتيب مرقس للحوادث . نعم : قد يدخل أحدهما بعض التغيير ، ولكن لم يحدث قط أن اتفقا على ترتيب خلافه ، ففى الأمكنة التى يغير متى فيها الترتيب المذكور نجد لوقا يخالفه ويتبع نفس ترتيب مرقس ، وبالعكس .

من هذه الدراسة نستخلص أن متى ولوقا كان أمامهما إنجيل مرقس عند كتابة إنجيليهما ، ولقد زادا عليه كثيراً من المعلومات التى اختص بها كلاهما أو أحدهما ، لكنهما ، فى هذه الزيادة ، لم يغيرا كثيراً من ألفاظ مرقس أو طريقة ترتيبه للحوادث بل وضعا المعلومات بين ثنايا الإنجيل .

أليس من المثير حقاً أننا عندما نقرأ إنجيل مرقس نعرف أنه أول قصة وصلت إلينا عن حياة يسوع ؟ وأن كل ما كتب بعد ذلك كان مبنيا أساساً على هذه القصة ؟؟

مرقس كاتب الإنجيل :

إن من هو مرقس كاتب الإنجيل هذا ؟ إن العهد الجديد يعطينا معلومات كثيرة عنه . فهو ابن امرأة غنية من أورشليم اسمها مريم ، ويظهر أنها قبلت المسيحية مبكراً وفتحت بيتها ليكون مقراً للكنيسة (أعمال ١٢ : ١٢) ، وساعد هذا مرقس على الاندماج مع التلاميذ فى سن مبكرة ، وعندما بدأ بولس رحلته التبشيرية الأولى مع برنابا (خال مرقس) أخذاه معهما ليكون مرافقاً ومساعداً لهما (أعمال ١٢ : ٢٥) ، ولكن هذه الرحلة لم تشجع مرقس على إتمامها فرجع من منتصف الرحلة عندما وصلوا برجة بمفيلية ، ولكن سفر الأعمال لم يذكر السبب المباشر لرجوعه هذا : هل لأنه خاف السير فى طريق يعتبر من أصعب وأخطر طرق العالم ؟ أم لأنه شعر بأن زمام الرحلة بدأ يتحول إلى يدى بولس فيصبح الرجل الأول والقائد بينما أصبح خاله فى المرتبة الثانية ؟ أم لأنه لم يكن راضياً تماماً عن أعمال وتصرفات بولس الرسول ؟ أم لأنه — كما قال كريسستوم — لم يستطع فراق أمه ؟ .. ولقد تأثر بولس من رجوع مرقس حتى أنه رفض رفضاً باتا أن يصطحبه معه فى رحلته التبشيرية الثانية مع برنابا خاله ، ولكن برنابا لم يقبل من بولس هذا الإصرار فافترق عنه ولم يعد — على قدر ما نعلم — يرافقه مرة أخرى (أعمال ١٥ : ٢٧ — ٤٠) . وبعد هذا التاريخ ينزوى مرقس من على مسرح الحوادث لفترة طويلة ولا يعرف أحد عن مصيره شيئاً ، وتقول

بعض التقاليد إنه ذهب إلى مصر وأسس هناك كنيسة الإسكندرية . ولكن الأمر العجيب هو أن مرقس يعود إلى الظهور مرة أخرى وفى حالة تختلف كل الاختلاف عن ذى قبل ، فهو مع بولس فى سجنه فى روما كما يذكر الرسول نفسه ذلك فى رسالته لكولوسى (كولوسى ٤ : ١٠) . وفى رسالة فليمون يؤكد مرة أخرى حقيقة وجوده معه (فليمون ٢٤) ، وعندما كان يواجه خطر الموت يكتب لتلميذه تيموثاوس قائلا « خذ مرقس واحضره معك لأنه نافع لى للخدمة » (٢ تيموثاوس ٤ : ١١) . ما أبعد هذه النغمة عن تلك التى صدرت عنه يوم أن رفض قبوله معه فى رحلته التبشيرية الثانية ، فما الذى حدث لمرقس ؟ وما الذى غيره حتى جعل بولس يطلبه وبالحاح ليكون معه ؟ ألا يجدر بنا أن تسميه « الرجل الذى فدى نفسه ؟ » .

المصادر التى استقى منها مرقس معلوماته :

لما كانت قيمة القصة تتوقف على قيمة المصادر التى استقيت منها كان لنا الحق فى التساؤل عن المصادر التى استقى منها مرقس معلوماته عن حياة يسوع وعمله .

مما لا شك فيه أن المصدر الأول له هو اختبارات أعضاء الكنيسة الأوائل الذين اتخذوا من بيت أمه كنيسة لهم . ولكن هذا المصدر لا يمكن أن يكون كافياً ليفسر المعلومات التى نجدها فى هذا الإنجيل إذ تعتبر من أدق المعلومات وأكثرها صحة ، فلابد من وجود مصدر آخر فى غاية الأهمية والثقة .. وهذا صحيح ففى كتابات بابياس papias الذى كان يعيش فى نهاية القرن الثانى المسيحى (وكان يهودى جمع المعلومات الخاصة بالكنيسة الأولى) نجد مفتاح السر عندما يقول إن إنجيل مرقس ما هو إلا خلاصة شهادة ومواعظ بطرس أعظم الرسل . فلقد كان مرقس قريباً من بطرس حتى أنه يصفه بأنه ابنه (١ بط ٥ : ١٣) .

وهذه هى شهادة بابياس نفسه :

« مرقس الذى كان شارحاً لآراء بطرس interpreter كتب » .

بكل دقة — ولكن بغير ترتيب زمنى — كل ما سمعه منه عما »

« فعله يسوع وتكلم به . لأنه لم يكن تلميذا للرب ولم يستمع »

« إليه شخصياً ، ولكنه كان تلميذا لبطرس — كما قلت — فى »

« أواخر حياته ، ولقد حاول بطرس أن يذكر تعاليم يسوع »

« بحسب الحاجة الماسة فى حياة الناس اليومية دون أن يضعها فى ترتيب منطقى خاص » .

هذه هى شهادة بابياس التى تعلن بدون لبس أو إبهام أن إنجيل مرقس ما هو إلا ذكريات بطرس ومواعظه .

فلدينا إذن سببان رئيسيان يعطيان إنجيل مرقس أهمية لا تفوقها أهمية : أولهما أنه أول كتاب كتب عن حياة يسوع إذ كتب بعد موت بطرس مباشرة حوالى ٦٥ م . وثانيهما هو أن هذا الإنجيل

كان خلاصة تعاليم بطرس ومواعظه ، وبعبارة أخرى فإنجيل مرقس هو أدق سجل تمتلكه المسيحية جاء من شاهد عيان عن حياة يسوع وقصته .

نهاية الإنجيل المفقودة :

هناك حقيقة مثيرة فى إنجيل مرقس وهى أنه يتوقف فى نسخه الأصلية إلى حد (١٦ : ٨) ، أما الأعداد الباقية (١٦ : ٩ ــ ٢٠) فليست موجودة فى أقدم النسخ وأصحها ، كل ما هناك هو أنها وجدت مؤخراً فى نسخ أقل قيمة ومتأخرة فى ترتيبها الزمنى . كما أن أسلوبها اللغوى يختلف عن بقية الإنجيل حتى أنه يستحيل أن يكون كاتبها هو نفس كاتب الإنجيل . ومن الناحية الأخرى نجد أنه من غير المعقول أن يتوقف مرقس عند ١٦ : ٨ فهى نهاية فجائية تعسفية . ولهذا فأمامنا أحد احتمالين : الأول ، إما أن يكون مرقس قد استشهد قبل أن يتم كتابة إنجيله وهذا بعيد الوقوع ، وإما ــ وهذا أقرب الاحتمالين ــ أن تكون النسخة الأصلية للإنجيل قد بلى جزؤها الأخير ؛ فلقد جاء وقت فيه أهملت الكنيسة إنجيل مرقس وفضلت عليه إنجيل متى ولوقا ، ومن الجائز جدا أن تكون جميع نسخ هذا الإنجيل قد ضاعت و لم تبقى منها سوى نسخة واحدة بلى جزؤها الأخير . فإذا كان الأمر كذلك فلقد كانت الكنيسة إذن فى خطر فقد أهم إنجيل كتب عن حياة ابن الله .

مميزات إنجيل مرقس :

لندرس الآن الخصائص المميزة لهذا الإنجيل لنتعرف عليها حين نقابلها .

١ ــ أنه يعتبر أدق محاولة لكتابة كتاب عن حياة يسوع إذ أنه يعطى صورة حقيقية عنه قولا وفعلا . ولهذا يقول عنه وستكوت Westecott « إنه مقتطفات من الحياة » ويصفه ا . ب . بروس A . B . Bruce « إنه مجموعة ذكريات كتبها شخص محب غيور » ولهذا فقد اتسم هذا الإنجيل بالواقعية وأصبح مرجعاً أساسياً لكل من يحاول كتابة كتاب عن حياة يسوع . إن أهم صفة فيه هو أنه يقدم الحقائق فى أبسط الأساليب وأكثرها حيوية .

٢ ــ يؤكد مرقس تأكيداً جازما لاهوت المسيح . فيبدأ إنجيله بقانون الإيمان « بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله » ، ثم يتطرق فى قصته عنه بحيث لا تغيب عن ناظريه هذه الحقيقة ، فهو يذكر أثر يسوع على عقول سامعيه وقلوبهم والرهبة والدهشة اللتين كثيراً ما عقدتا ألسنتهم فى حضرته . اسمعه يقول « فبهتوا من تعاليمه » (١ : ٢٢) ، « فتحيروا كلهم ... » (١ : ٢٧) . و لم يقتصر تأثيره على الجموع الغريبة فقط بل تعداهم إلى تلاميذه المقربين إليه ، وما أكثر العبارات التى يرددها مرقس فى ذلك مثل « فخافوا خوفاً عظيماً وقالوا بعضهم لبعض من هو هذا ... » (٤ : ٤١) .. فبهتوا وتعجبوا فى أنفسهم جدا إلى الغاية .. » (٦ : ٥١) ، « .. فتحير التلاميذ من كلامه .. فبهتوا إلى الغاية . » (١٠ : ٢٤ و ٢٦) . فالمسيح بالنسبة لمرقس لم يكن واحدا من الناس بل كأن الله نفسه سار فى وسط الجموع بتأثيره البالغ على عقولهم وقلوبهم .

٣ ــ ولكن فى غمرة الدهشة لم ينس مرقس ناسوت المسيح ، بل لقد كان يؤكد الجانب البشرى

من حياة يسوع حتى أن الكتاب الذين تبعوه اضطروا إلى إدخال بعض التعديلات فى كثير من عباراته . فبينما يذكر هو أن يسوع كان نجاراً (٦ : ٣) يتحرج متى فيذكر عنه أنه ابن النجار (متى ١٣ : ٢٥). وبينما لا يتردد فى قصة التجربة فى أن يقول إن الروح أخرج يسوع إلى البرية (١ : ١٢) يمتنع متى ولوقا عن استعمال هذا التعبير فيقولان إما أصعد متى (٤ : ١) . أو يقتاد وأكثر من ذلك فقد كان إنجيل مرقس أكثر من أى إنجيل آخر يظهر بطريقة جريئة عواطف يسوع وإحساساته فيذكر أنه « أن » (٧ : ٣٤ ، ٨ : ١٢) ، وأنه « تحنن على الجموع (٦ : ٢٤) ، وأنه « تعجب لعدم ايمانهم » (٦ : ٦) ، وأنه « غضب حزينا » (٣ : ٥ ، ٨ : ٣٣ ، ١٠ : ١٤). وأنه نظر إلى الشاب الغنى « وأحبه » (١٠ : ١٢) . وأوضح إلى جانب ذلك احتياجاته الجسدية : فقد كان يجوع (١١ : ١٢) . ويتعب فيحتاج إلى الراحة (٦ : ٣١) . ففى هذا الإنجيل نجد يسوع الذى يشاركنا عواطفنا وإحساساتنا ويظهر بصورة تجعله قريباً جداً منا .

٤ ــ ولعل من أبرز خصائصه أنه يضع هنا وهناك فى قلب القصة تعبيرات حية تشهد أن قائلها كان شاهد عيان لحوادثها . فمثلاً : حين يذكر (مع متى) أن يسوع أخذ ولداً وأقامه فى الوسط : يقول متى « فدعا يسوع إليه ولداً وأقامه فى وسطهم » (متى ١٨ : ٢) بينما يقول هو « فأخذ ولداً وأقامه فى وسطهم ثم احتضنه وقال لهم » (مر ٩ : ٣٦) هذه الكلمة احتضنه تعطى صورة حية متحركة للمشهد . وهكذا يفعل فى قصة مجيء الأطفال إليه وتوبيخه لتلاميذه على منعهم إياهم من الاقتراب منه ، إذ يقول « ... واحتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم » (مر ١٠ : ١٣ ــ ١٦) قابل متى ١٩ : ١٣ ــ ١٥ ، لوقا ١٨ : ١٥ ــ ١٧) وفى قصة إشباع الخمسة الآلاف يرسم صورة الحادثة فى قوله « .. واتكأوا صفوفا صفوفا مئة مئة وخمسين خمسين » (مر ٦ : ٤٠) . وما أقوى الصورة التى يرسمها لوحده يسوع حين سار إلى أورشليم فى قوله « وكانوا فى الطريق صاعدين إلى أورشليم ويتقدمهم يسوع ... » (مرقس ١٠ : ٣٢) قابل متى (٢٠ : ١٧ ، لو ١٨ : ٣١) . بل هناك عبارة واحدة يضيفها مرقس فى قصة إسكات البحر فتجعلها حية شاهدة على أن قائلها كان شاهد عيان .. هذه العبارة هى « وكان هو ... على وسادة نائما » .

ألا تشهد هذه كلها على أن أحد شهود العيان هو الذى يذكر هذه التفاصيل ؟ أو لا تثبت هذه الشهادة أن أصل هذه القصص من بطرس ؟

٥ ــ ويمتاز مرقس كذلك بواقعيته وبساطته . وتظهر هذه البساطة فى الأمور التالية :

(ا) لا يهتم كثيراً بالأساليب البليغة بل يذكر قصته فى بساطة الطفل وحماسته ، ولهذا فهو يرص عباراته الواحدة تلو الأخرى ولا يربط بينها إلا بحرف العطف « و » كما يفعل فى الأصحاح الثالث إذ ذكر (٣٤) عبارة وجملة بعد فعل رئيسى واحد ولم يربطها إلا بحرف العطف « و » .

(ب) وهو مغرم كثيراً باستعمال الكلمتين « للوقت » و « فى الحال » فاستخدمهما حوالى ٣٠ مرة فى إنجيله وهو يفعل ذلك فى حماس واندفاع فى سرد قصته وهو يستطيع بذلك أن يضع فى نفوس القراء نفس الأثر الذى يشعر هو به .

(ج) وكثيراً ما يستخدم الفعل المضارع فى سرد حوادث قد مضت(٢ : ١٧ ، ١١ : ١ و ٢ ، ١٤ : ٤٣) هذا بالضبط ما يفعله الرجل البسيط فى سرد قصته حتى يجعل منها حركة مستمرة .

(د) ومن امتيازاته أيضاً أنه كثيراً ما يذكر نفس الكلمة الأرامية التى خرجت من فم يسوع فى بعض المواقف الخطيرة ، مثل : « طليثا قومى » (٥ : ٤١) ، إفثا (٧ : ٣٤) ، « قربان » (٧ : ١١) ، « أبا الآب » (١٤ : ٣٦) « إلوى إلوى لما شبقتنى » (١٥ : ٣٤) . ويلوح لنا أن هذه الكمات كانت ترن فى أذن بطرس حين كان يذكر قصة سيده ، فلم يكن يغالب نفسه فى ذكرها دون ترجمة لها .

الإنجيل الجوهرى :

إننا لا نجانب الصواب إذا ما وصفنا إنجيل مرقس بأنه الإنجيل الجوهرى . وحسنا نفعل إذا درسنا هذا الإنجيل الأول فى ترتيبه الزمنى فى حين أنه الإنجيل الذى نسمع فى ثناياه صوت وإعزاز وتدقيق .. بطرس الرسول واعظاً .

التفسير

الأصحاح الأول

(مرقس ١ : ١ — ٤)

يبدأ مرقس قصته من أعماق القدم ، فقصة يسوع لم تبدأ حين ظهر يوحنا المعمدان فى البرية ، ولا حتى عندما ولد وجاء فى أرضنا ، إنها تبدأ فى أحلام الأنبياء الأقدمين ، بل إنها بدأت فى علم الله وتدبيره قبل ذلك بكثير . فأعمال الله معروفة لديه . ولقد صدق مرقس أوريليوس الرواق فى قوله « إن أعمال الله مملوءة حكمة ، إن كل الأشياء تنبع من السماء » .

ومن هذه الأعداد نتعلم بعض الأشياء :

١ — حسناً قيل عن تفكير الشباب إنه تفكير طويل ، وهكذا تدبيرات الله . فهو عندما يجرى قصده يجريه فى تأن وإتقان ، والتاريخ لا يعتبر مجموعة من الحوادث المخلخلة لا رابط لها ، بل هو عمل متصل متواصل يوجهه الله — الذى يعرف النهاية وقت البداية — إلى هدف سام عظيم .

٢ — ولكن هذا التدبير الإلهى يضع علينا نحن مسئولية عظمى لأننا لسنا منعزلين عن دائرته بل إننا فى الحقيقة هدفه ، ولهذا فقد نساعد بمجهودنا على تحقيقه ، وقد نكون السبب فى تعطيله أو تأخيره ، وكم تصبح حياتنا غنية ممتلئة إذا عملنا بكل ما نستطيع من جهد أن نقرب ذلك اليوم الذى فيه يتحقق هدف الله السامى وتدبيره الأفضل . وحسنا قال الشاعر :

« فى شبابى حين كنت عاجزا عن الغناء
امتنعت حتى عن كتابة الأغنية
ولم أزرع شجرة صغيرة على جانب الطريق
لأننى عرفت أن نموها ستطول أيامه
ولكن الستون أعطتنى الحكمة والعلم
علمتنى أن البركة فى أن أزرع ، وشخص آخر يسقى
وأن أكتب أغنيتى . وشخص آخر يغنيها » .

فالهدف لن يتحقق ما لم يكن هناك من يعمل ويساعد على تحقيقه .

والنبوة التى يقتبسها مرقس مملوءة بالمعانى :

ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكى الذى يهيىء الطريق قدامك » .

وردت هذه النبوة فى سفر ملاخى (٣ : ١) ولقد نطق بها النبى تهديداً للشعب فى العهد القديم فكهنته لم يكونوا فوق مستوى الشبهات ، وذبائحه لم تكن سليمة لائقة بمذبح الرب ، وعبادة الهيكل أصبحت ثقلا على الشعب والكهنة ، ولهذا هددهم الرب بإرسال ملاكه حتى يطهر الهيكل من العبادة الفاسدة ويهيىء الطريق قدام المسيح . فمجيء المسيح كان لهدف أسمى هو تطهير الحياة

فى عالم كان فى مسيس الحاجة لهذا العمل الجبار . وما أشر العالم أيام مجىء المسيح : فروما سيدة العالم فى ذلك الوقت وصفها سينكا بأنها بؤرة فساد ، وقال عنها جوفينال « إنها بركة قذرة كانت أوحال الشرق والغرب تصب فيها » . ولم يكن غير المسيحية العلاج الناجع لها . وليست هذه باسطورة خرافية بل هى حقيقة واقعية تشهد على صحتها أمجاد تأثير المسيحية فى عصرنا الحاضر . ومما يذكره بروس بارثون الصحفى المعروف أنه فى بدء حياته الصحفية طلب إليه أن يكتب سلسلة مقالات منددا بعمل بلى صنداى المبشر الشهير . فاختار لذلك ثلاثة مدن عمل فيها هذا المبشر ، وبدأ يتحرى تأثيره فيها . ولما سأل جماعة من التجار عنه ذكروا له أن كثيرين منهم بعد أن تركوا الاجتماعات التى كان يعظ فيها صنداى ذهبوا تواً ليدفعوا ما عليهم من ديون كانوا يماطلون فى دفعها . ثم سأل رئيس الغرفة التجارية فى المدينة الثانية فأجابه هذا بالحرف الواحد « أنا لست عضوا فى كنيسة ما ولم احضر اجتماعا دينيا فى حياتى . ولكن دعنى أقول لك إنه لو أتى بلى صنداى إلى المدينة وعرفت أن نتيجة عمله ستكون مماثلة لما فعله فى مدينتنا من قبل لجمعت له كل تكاليف رحلته فى الحال . لقد كلف المدينة ١١ ألف دولار طيلة مدة خدمته هنا ولكنه ترك أثراً لن ننساه ، بينما يكلفنا سيرك يعمل هنا ثلاثة أضعاف هذا المبلغ فى اليوم الواحد ولكن لا نستفيد منه شيئاً » . وبهذه الكيفية أضحى التعريض الذى أراده هذا الصحفى بهذا المبشر العظيم أكبر شاهد على قوة المسيحية المطهرة . وما لنا نذهب بعيداً ، فعندما وعظ بلى جراهام فى مدينة شريفيبورت بولاية لويزيانا انخفضت فيها تجارة الخمور بمعدل ٤٠ ٪ وارتفع توزيع الكتاب المقدس بمعدل ٣٠٠ ٪ ، وعندما خدم فى سيتل انخفضت نسبة الطلاق بشكل ملحوظ ، وفى مدينة جرينبور بولاية كارولينا الشمالية تأثر النظام الاجتماعى كله من تأثير خدمته .

بل لعل من أروع القصص عن عظمة تأثير المسيحية هو ما ذكر فى تاريخ ثورة سفينة بونتى : فعندما قامت الثورة بين بحارة السفينة تغلب القائد ثم ألقى بالثوار على شاطىء جزر بنكارين ، وكانوا جماعة مكونة من تسعة بحارة وتسعة رجال وعشر نساء من الوطنيين وفتاة فى الخامسة عشرة من عمرها . ولقد نجح واحد من هذه الجماعة فى استخلاص مادة مخدرة من الأعشاب فكان هذا العمل سبباً فى هلاكهم جميعاً ما عدا رجلاً اسمه الكساندر سميث كان يمتلك كتاباً مقدساً يقرأه باستمرار . وقد فكر سميث هذا فى بناء مستعمرة مسيحية تبنى حياتها على تعاليم الكتاب المقدس ، وقد نجح فعلا . وبعد عشرين سنة من هذه الحوادث زارتهم أول سفينة أمريكية صغيرة فوجدت هناك العجب : إنها لم تجد سجنا واحدا لأنه لم تكن هناك جرائم ، لم تجد مستشفى لأنه لم يكن هناك مرض ، لم تجد مصحات عقلية لأن الجميع كانوا أصحاء نفسياً وعقليا ، لم يكن هناك أميون ، ولم تكن هناك سرقات بل كان المكان الوحيد على وجه الأرض الذى تبقى فيه الممتلكات فى أمان أينما وجدت . هذا كله من عمل المسيحية ، فأينما فتح الباب للمسيح طهر الإيمان المسيحى المجتمع من آفة الأخلاق الضائعة وتركه نظيفاً مقدساً .

يوحنا يكرز بمعمودية التوبة : (عدد ٤)

لقد كانت الحياة اليهودية حياة تطهير خارجى بواسطة غسلات طقسية مذكورة فى (لاويين

١١ ــ ١٥) . ويقول ترتليان عن اليهودى إنه كان يطهر نفسه يومياً لأنه كان يتنجس كل يوم . فالتطهير بالغسلات كان عنصراً أساسياً فى الديانة اليهودية ، ولهذا السبب اعتبروا الأمم جماعة نجسة لأنهم لا يؤمنون بالشريعة الموسوية ، وحتموا على كل دخيل أممى إلى اليهودية أن يقوم بثلاثة طقوس : الأول أن يختتن لكى يدخل فى جماعة العهد ، والثانى أن يقدم ذبيحة خطية لتغفر له خطاياه ، والثالث أن يتعمد لكى يتطهر من حياته السابقة النجسة . فالمعمودية فى نظرهم ليست رش الجسم بالماء بل غسله وتطهيره بالمياه المقدسة ، وبهذا العمل يصبح الأممى يهوديا .

ولكن الأمر الغريب فى كرازة يوحنا أنه كان يطلب من اليهود أنفسهم أن يتعمدوا لا فرق بينهم وبين الأممى فى ذلك ، وبهذا العمل أعلن يوحنا المعمدان حقيقة رائعة ــ كان أول من اكتشفها ــ وهى أنه لكى يكون الفرد من شعب الله لا يكفى أن يكون يهوديا لأن اليهودى والأممى سواء فى نظر الله جميعاً يحتاجون إلى غفران الخطايا فليست الحياة اليهودية هى التى يطلبها الله بل الحياة المطهرة .

ويصاحب هذه المعمودية الاعتراف ، وفى رجوعه إلى الله يجب أن يعترف الإنسان لثلاثة شخصيات مختلفة :

١ ــ يجب أن يعترف لنفسه : إن الإنسان ــ لطبيعته البشرية ــ يغمض عينيه عن كل شىء لا يريد أن يراه ، فبالأولى جدا يغمضها عن خطيته هو ويحاول أن ينساها . فالخطوة الأولى إذن هى أن يعترف لنفسه على نفسه ، ويذكر أحدهم اختباره ويقول إنه خطا الخطوة الأولى فى طريق النعمة عندما نظر إلى نفسه فى المرآة ذات صباح فلم ير سوى مخلوقاً قذراً دنساً . كان هذا نفس اختبار الابن الضال ، فقد كان يظن فى نفسه عندما ترك بيت أبيه أنه شاب مغامر جرىء ، ولكنه عندما بدأ يرجع إلى نفسه قال أقوم وأرجع إلى بيت أبى وأقول له إننى مخلوق دنس تعس . هذه هى الخطوة الأولى وهى أشق خطوة ، فمواجهة نفسك على حقيقتها البداية الحقيقية فى مواجهتك لله .

٢ ــ أن يعترف إلى كل من أساء إليهم ، فلن ينفع الإنسان شيئا أن يذهب ليعترف لله إن لم يذهب أولا ويعترف لإخوته بإساءته لهم . فالحواجز التى تحجب الإنسان عن أخيه يجب أن تزال أولاً ثم بعد ذلك الحواجز التى تحجب الإنسان عن الله . يقولون إن الطابع الأساسى للنهضة التى حدثت فى كنيسة أفريقيا الشرقية كان الاعتراف ، وحدث أن زوجين جاءا إلى الخادم الوطنى ليعترفا له أنهما تشاجرا فى المنزل فكان رد الخادم عليهما « كان يجب عليكما أن تتصافحا قبلا ثم تأتيا لتعترفا بذلك » ؛ نعم إن الاعتراف لله أسهل بكثير من الاعتراف للإخوة ، ولكن الغفران يتطلب التواضع .

٣ ــ أن يعترف الانسان لله . إن نهاية الكبرياء هى بداية الغفران ، وعندما يقرع الإنسان على صدره قائلا « أخطأت » يجيبه الله « لقد غفرت » فالإنسان الذى ينال المغفرة هو الشخص الذى يأتى إلى الله لا كند له بل فى توبة وخضوع وحزن قائلا « اللهم ارحمنى أنا الخاطىء » .

بشير الملك

(مرقس ١ : ٥ ـــ ٨)

من الواضح أن إرسالية يوحنا كان لها التأثير الفذ على الجماهير فقد سعت إليه فى جماعات كبيرة لتسمع كلماته وتعتمد منه ، فما هو السر الذى جعل ليوحنا هذا التأثير الكبير ؟ هناك عدة أسباب :

١ ـــ السبب الأول هو أن يوحنا لم يقتصر على الوعظ فقط بل كانت حياته رسالة حية حقيقية ، فإن كانت عظاته إحتجاجاً صارخاً ضد عصره فإن حياته أعلنت هذا الاحتجاج فى صورة حية متحركة . وظهر هذا الاحتجاج الحى فى صور ثلاث :

(أ) فى المكان الذى اختاره سكناً له : فقد سكن فى برية اليهودية التى تقع بين أورشليم مركز اليهودية والبحر الميت . وهى صحراء مروعة إذ تعتبر من أقسى صحارى العالم . فالأحجار الجيرية التى تتوهج فى حرارة الشمس فتؤذى الأرجل والأعين تملؤها ، وسطحها الغير مستو الذى يرتفع فيصل إلى ارتفاع مرتفعات البحر الميت ثم ينخفض فجأة إلى مستوى البحر الميت الذى يعد من أكثر أمكنة العالم انخفاضاً ، يجعل منها مكاناً غير مريح بل يجعله من أقسى الأمكنة وأشدها شظفاً . ولهذا سمى فى العهد القديم « جشمون » أى الخراب والدمار ... فى هذا المكان الموحش سكن يوحنا المعمدان بعيداً عن قصور الملوك .. وفيه أيضاً كان يسمع صوت الله .

(ب) ثم فى الثياب التى كان يلبسها : فقد كان لباسه من وبر الجمل وكان يضع منطقة من الجلد على حقويه تماماً كما كان يفعل إيليا (٢ مل ١ : ٨) وبهذا أظهر للعالم أنه اختار طريق الأنبياء فى العهد القديم فى بساطتهم وخشونة عيشهم وتركهم للذات عصرهم وبهرجته .

(ج) وأخيراً فى طعامه : فقد كان جراداً وعسلا برياً . وتحمل هذه الكلمات معنيين : فالجراد إما أن يكون الحشرة المعروفة للجميع ولقد أباحت الشريعة أكلها (لاويين ١١ : ٢٢ و ٢٣) وإما أن يكون نوعاً من البقول اسمه « كاروب » وكان طعام الفقراء المعدمين . وكذلك العسل البرى : فإما أن يكون شهد النحل وإما أن يكون عصارة الأشجار التى تتساقط من خدوش فى جذعها ؛ وسواء أكان هذا أم ذاك فإنما المهم هو أن طعام يوحنا كان فى غاية البساطة ..

لهذا الإنسان أصغى الناس لأنه كان إنساناً يعيش رسالته التى يقدمها للناس فى كرازته ، وكم من رسائل ضاعت لأن حامليها كانوا يحيون على خلاف ما يبشرون به . كأن يبشر ساكن القصر بالتقشف وينادى صاحب الملايين بأن يكتنز الناس كنوزهم فى السماء . وحديثاً أراد كارليل أن يعلِّم الناس الصمت فكتب تعاليمه فى عشرين مجلداً !!

٢ ـــ وكانت رسالته مؤثرة لأنه عبر للناس عما يعتمل فى نفوسهم وكشف لهم عن رجائهم وانتظاراتهم وظهر ذلك فى ناحيتين :

(أ) قديماً قال علماء اليهود : « إنه لو حفظ كل اليهود كل الناموس حفظاً تاماً لمدة يوم واحد

لظهر ملكوت الله فى الحال . ولطالما تمنى الناس إتمام هذا القول ، وعندما جاء يوحنا كان يكرز لهم بالتوبة وهى عين ما كانوا يتمنون عمله والقيام به ، ولهذا أصغوا إليه لأنه عبر عن أعماق أمنياتهم ، ولقد ذكر أفلاطون فى حديثه شيئاً مثل ذلك إذ قال : « إن التعليم الحقيقى ليس أن تعطى الناس شيئاً جديداً بل أن تبصرهم بما فى نفوسهم » . فلا توجد هناك رسالة أبلغ من الرسالة التى تخاطب الضمير إذ نادى بها الشخص الصحيح .

(ب) وكان اليهود فى عصر يوحنا متلهفين على سماع صوت الله من نبى كما سمع أجدادهم ، ولكن صوت النبوة كان قد انقطع لمدة ثلاثمائة عام وفجأة ظهر يوحنا وعرف فيه الشعب النبى الذى يحمل كلمة الله ، ولا غرابة فى ذلك فالعين لا تستطيع أن تخطىء الرجل الصحيح والأذن لابد وأن تعرف صوت النبى الحقيقى ، ولقد ذكر أحد عازفى الكمان المشهورين عن توسكانينى أنه حالما صعد على منصة القيادة عرف فيه كل أفراد الأوركسترا القائد الحقيقى ، وكان سلطانه عليهم كبيراً ، وما أسهل أن يعرف الطبيب الماهر والخطيب المفوه ، وبهذه الكيفية جاء يوحنا المعمدان ينادى بكلمة الله :

٣ — وكان تواضعه عاملا أصيلا فى صبغ رسالته بالقوة والتأثير . ألم يعتبر نفسه أقل من عبد ينحنى ليحل سيور حذاء سيده ؟ ويستطيع المرء أن يدرك عمق هذا القول عندما يعرف أن الحذاء فى ذلك العصر لم يكن سوى قطعة من الجلد تغطى باطن القدم تربطها بالقدم سيور جلدية ، ولهذا فقد كان يمتلىء بالتراب والوحل فى طرق فلسطين الخشنة . إن يوحنا ينسى نفسه ، إنه يعرف رسالته فقط .. إن المسيح فى عقيدته هو كل شىء أما هو .. فلا شىء . هذا التواضع كان من أكبر الدوافع للناس أن يسمعوه .

٤ — وبمعنى آخر كان يوحنا يشير إلى شخص وإلى شىء بعيدين عن نفسه . فمعموديته كانت معمودية الماء التى لا تؤدى إلا إلى إزالة وسخ الجسد ، أما المسيح الآتى فسيعمدهم بالروح القدس الذى يطهر قلوبهم . ولقد عبر ج.ج جفرى عن هذا الموقف الجليل بتشبيه جميل إذ قال إنه عندما يطلب صديقاً ما بالتليفون قد يتأخر وصول الخط التليفونى إليه ، ويسمع صوت عامل التليفون يقول : « إننى أحاول أن أوصلك بالخط حالا » وحالما يتصل الخطان معاً ويسمع صوت صديقه يختفى عامل التليفون منكراً لذاته ولنفسه . هذا ما فعله يوحنا المعمدان إنه لم يحاول أن يكون مركز الاهتمام بل كان يعمل جاهداً أن يتصل الناس بمن هو أعظم وأقوى منه ، ولقد سمع الناس له لأنه لم يشر إلى نفسه بل كان يشير إلى الشخص الذى يحتاج إليه الجميع .

اليوم الفاصل

(مرقس ١ : ٩ — ١١)

يقف المتأمل حائراً أمام مجىء يسوع للمعمودية على يدى يوحنا المعمدان ، فقد كان يوحنا يقصد بمعموديته أن تكون للتوبة والندم على الخطايا السالفة والعزم على تركها ، فما ليسوع وهذه المعمودية

وهو المعصوم من الخطية ؟ ألا يعد هذا العمل بالنسبة له غير ضرورى بل غير لائق ؟ كلا ، لقد كانت المعمودية ليسوع تعنى أموراً أربعة :

١ — **لقد كانت بالنسبة له اليوم الفاصل** .. يوم التقرير الحاسم ، لقد مكث ثلاثين سنة فى الناصرة أميناً فى عمله اليومى وواجباته المنزلية ، ولكنه كان يترقب الساعة التى تأتيه فيها الدعوة للعمل ، كان ينتظر العلامة ولقد رآها فى ظهور يوحنا المعمدان ، فقد رأى فى ظهوره إشارة من السماء له لكى يبدأ عمله الإلهى . وهكذا فى حياة كل إنسان تأتى لحظات فاصلة يقف فيها الإنسان أمام تحد خطير : فإما أن يقبلها فينجح فى حياته وإما أن يرفضها أو يؤجل عملها فيكون مصيره الفشل المرير ، كما قال لويل :

« لكل أمة ولكل رجل لحظة فاصلة .

لكى يقف للشر أو للخير فى نضالهما الأبدى

إنها قضية الله ، بل مسيحه الذى يهبنا الازدهار أو الجفاف .

وتذهب الفرصة إلى الأبد (وهو يعرج بين النور والظلام) .

نعم لكل إنسان تأتى لحظة العزم الذى كما يقول شكسبير :

(فى حياة الناس توجد حركة مد وجزر

فمن ينتهز فرصة المد فلسوف يحمله حيث الراحة والغنى

ولكن إذا رفضه فسوف تكون رحلة الحياة

متعثرة فى الوحل والتعاسة) .

فالحياة الضائعة .. الحياة المضطربة المشوشة .. الحياة القلقة الجائعة .. الحياة التى تنحدر إلى الهاوية هى الحياة التى لا عزيمة فيها كما يقول أوكسنهام :

« لكل إنسان يتفتح طريق وطرق .

والنفس ذات الهمة العالية تجرى فوق السكك الممتدة ،

والنفس ذات الهمة القعيسة تتردى فى المنخفضات .

وبين الاثنين فى طريق الضباب

يتعثر كثيرون بين هذا وذاك » .

فالحياة المنجرفة مع التيار لا يمكن أن تكون حياة سعيدة ، ولهذا فعندما رأى يسوع أن ظهور يوحنا هو إشارة السماء إليه للبدء خرج إلى العمل بكل همة ولم تجذبه الحياة الهادئة وسط أسرة كريمة فى قرية مسالمة ، لقد ترك الجميع ولبى نداء الآب .

٢ ــ لقد كانت فرصة لتحقيق ذاتيته :

لم يكن يسوع فى حاجة إلى التوبة لأنه كان بلا خطية ، ولكنه مع ذلك شارك الناس فى هذه الحركة .. حركة الاتجاه إلى الله ، مثله فى ذلك مثل الثرى الذى لا حاجة له إلى مال أو رفاهية ولكنه يشارك فى حركة شعبية تقصد خلق مجتمع عظيم يجد فيه الفقراء المعوزون حاجاتهم الجسدية والنفسية . فتحقيق الذاتية لا يتأتى إلا إذا شارك المرء فى حركة لا لأجل منفعته الشخصية بل لأجل الآخرين . يقول يوحنا بنيان فى كتابه سياحة المسيحى إن المسيحى فى سيره مع المفسر جاء إلى قصر منيف يحيط به حراس أشداء يمنعون الناس من دخوله ، وكان على الباب رجل يمسك بقلمه ليكتب اسم أى رجل يريد أن يهجم ليدخل ، ولكن الناس كانوا متراجعين إلى الوراء من الخوف ، وعلى حين فجأة رأى المسيحى رجلا ضخما تقدم بكل شجاعة وقال « سيدى أكتب اسمى عندك » . هذا ما يجب أن يفعله المسيحى ، وهذا ما فعله يسوع عندما جاء ليتعمد من يوحنا .

٣ ــ لقد كانت فرصة موافقة الآب على عمله :

لا يستطيع أى إنسان أن يترك أهله وعشيرته إلى بلاد بعيدة إلا إذا تأكد أنه يسير فى الطريق الصحيح ، وهكذا فعل يسوع ، فقد عرف أنه يدعى للعمل فخرج وذهب لينال استحسان الآب وموافقته . كان اليهود فى ذلك الوقت يعتقدون بما يسمى « باث قول » أى « ابنة الصوت » ومعنى هذا أن الله موجود فى السماء السابعة ساكن فى نور لا يدنى منه ولا يستطيع إنسان أن يسمع صوته ، أما ما يسمعونه الآن فما هو إلا صدى بعيد منه ، لكن يسوع اختبر غير ذلك لقد جاءه الصوت مباشرة وكما يقول مرقس خاطبه الصوت الإلهى « أنت ابنى الحبيب » فكان الصوت له لا للجماهير كما يصرح بذلك متى عندما يعلن أن الصوت قال « هذا هو ابنى الحبيب » .

ففى المعمودية أعلن يسوع خطته للآب ونال استحسانه وموافقته .

٤ ــ فرصة الإعداد

فى تلك الفرصة نزل الروح القدس على يسوع وكان فى هذا العمل رمزية واضحة ، فنزول الروح القدس عليه فى شكل حمامة كان يعبر عن مغزى رسالته وجوهرها .. إنها رسالة اللطف والمحبة ، فما أبعد الشقة بينها وبين رسالة يوحنا المعمدان التى كان شعارها فأسا موضوعا على أصل الشجرة (متى ٣ : ٧ ــ ١٠ ، لو ٣ : ٩) . لقد جاء يسوع معلنا قلب الحب والحنان .. جاء فاتحا ، ولكن سلاحه القوى المحبة .

وقت الاختبار

(مرقس ١ : ١٢ و ١٣)

حالما انتهت ساعة التمجيد عند المعمودية بدأت ساعة التجربة فى البرية . ولكن هناك أمراً على جانب عظيم من الأهمية وهو أن الروح الذى نزل على يسوع وقت المعمودية للتمجيد كان هو

نفسه الذى حمله إلى البرية لمواجهة التجربة . هذا يعلن أن التجارب أمر ضرورى ولازم فى هذه الحياة ، وهى لا تقابلنا لكى نسقط ونفشل بل لكى تثبت أقدامنا وتتجدد قوى عقولنا ونفوسنا ، إنها ليست لضياعنا بل لخيرنا .. إنها لتخلق منا جنودا أقوياء أشداء لله . لنفرض أن مدربا رأى لاعبا صغيرا فى فريق الدرجة الثانية يلعب بمهارة وكفاءة فماذا يعمل له ؟ هل يرسله إلى فريق الدرجة الثالثة ، أم إلى فريق الدرجة الأولى ؟ بلا شك يرسله إلى الفريق الأكبر لأنه لو أرسله إلى الفريق الثالث لعوده الكسل والخمول ولكن فى فريق الدرجة الأولى يجد نفسه مضطراً إلى التمرين المتواصل وبذل الجهد العظيم حتى يساير هذا الفريق الكبير . هذا بالضبط هو الهدف الأول للتجربة ، إنها اختبار لإثبات رجولتنا ولتقوية عضلاتنا .

أربعين يوماً : هو عدد رمزى يجب ألا يؤخذ حرفيا ، فهو رقم يهودى يعبر عن مدة معينة من الزمن ؛ فقد قيل عن موسى إنه بقى أربعين يوما فى الجبل مع الله (خروج ٢٤ : ١٨) وعن ايليا إنه سار أربعين يوما بقوة الأكلة التى أعطاها له الملاك (١ ملوك ١٩ : ٨) إنها عادة تشابه عادتنا عندما نقول عشرة أيام ونقصد بها مدة من الزمن ، فأربعين ليست مدة حرفية ولكنها تعبر عن مدة طويلة نوعا ما .

الشيطان

لقد كان الشيطان هو الذى واجه يسوع فى البرية ، ويجدر بنا أن ندرس شيئاً عن تطور فكرة الشيطان . فالكلمة العبرية التى تترجم شيطان كانت تترجم « مقاوم » ولقد أطلقت هذه الكلمة على بعض الأفراد من المقاومين أو الأعداء فملاك الرب هو المقاوم الذى يقف ضد بلعام (عدد ٢٢ : ٢٢) ، والفلسطينيون يخافون لئلا ينقلب داود مقاوما لهم (١ صموئيل ٢٩ : ٤) ، وداود يعتبر أبيشاى ابن صروية مقاوما له (٢ صموئيل ١٩ : ٢٢) ، ويفرح سليمان لأن الرب منحه السلام الكامل حتى أنه لم يجد مقاوما ضده (١ مل ٥ : ٤) . ولهذا بدأت الكلمة بمعنى المقاوم .

ولكن مع مرور الزمن يحدث تطور لهذه الكلمة فتستخدم بمعنى المشتكى وبهذا المعنى استخدمت فى الأصحاح الأول من سفر أيوب ، حيث يظهر أن الشيطان يعتبر واحداً من أبناء الله (أيوب ١ : ٦) . ولكنه اختار لنفسه عملا قاسياً وهو أن يفتش فى حياة الناس حتى يجد ما يشتكى به ضدهم أمام الله (أيوب ٢ : ٢ وزكر ٣ : ٢) . فعمله هنا هو أن يقول ما يمكن أن يقال ضد أى فرد . أما اللقب الثانى للشيطان فى تلك الفترة فهو الشرير وهى ترجمة للكلمة اليونانية «diabolos» ومعناها الحرفى : « المفترى » وهذا ما يبعد كثيراً عن المعنى السابق ، أى أنه الشخص الذى يغتاب شخصاً آخر مفتريا عليه فى محضر الرب . ومع ذلك ففى العهد القديم يستمر الشيطان رسولاً للرب . فالمعنى لم يكن قد تطور بعد حتى يظهره عدوا لله ، إنه العدو المقاوم للأنسان .

ولكن معنى الكلمة لا يبقى كما هو بل يتطور . وقد ساعد على هذا التطور بقاء اليهود مدة طويلة فى بلاد فارس أثناء السبى ، فالفرس يعتقدون أن فى الكون قوتين تتطاحنان : قوة النور وتتمثل

فى الإله أورمود وقوة الظلام وتتمثل فى الإله أهريمان وعلى الإنسان أن يختار لنفسه أحد الطرفين . وهذا تفسير للحياة تؤيده وقائع الحياة نفسها . وأخذ اليهود هذه الفكرة وعرفوا أن المقاوم لا يقف ضد الإنسان فقط بل ضد الله أيضاً ، وهذا المقام هو الشيطان نفسه فلا يوجد إلا مقاوم واحد .

وعندما نأتى إلى العهد الجديد يتضح لنا أن الشيطان هو الذى يقف وراء أمراض وآلام البشر (لوقا ١٣ : ١٦) ، وهو الذى ملأ قلب يهوذا ليخون سيده (لو ٢٢ : ٣) ، وهو العدو الذى يجب أن نحاربه (١ بط ٥ : ٨ و ٩ ويعقوب ٤ : ٧) ، ولكنه مع ذلك انكسر أمام عمل المسيح (لوقا ١٠ : ١ — ١٩) . وهو الآن محفوظ للهلاك الأبدى (متى ٢٥ : ٤١) . إنه القوة التى تقف ضد الله .

هنا فقط يتضح لنا المعنى العميق لتجربة المسيح فى البرية ، فقد كان يعرف أنه جاء ليعمل عملا جباراً ، ويشعر أنه قد زود بقوة هائلة ليقوم بهذا العمل ، وجاء إلى البرية وحيداً لكى يقرر الطريقة التى بها يتمم عمله هذا . لقد كانت رسالة الآب له « خذ محبتى للناس .. أحببهم حتى تموت لأجلهم ، اجذبهم إليك حتى وإن أدى ذلك إلى رفعك على الصليب » . وهنا يدخل الشيطان المفترى ليقول له « آه إن لك قوة جبارة .. استخدمها فى سحق الإنسان الخاطىء .. حطمه ..أقم ملكوتك بقوة السيف » . الآب يطلب منه أن يقيم ملكوت المحبة والشيطان يجربه بأن يقيم ملكوت القوة والدكتاتورية — وكان على يسوع أن يختار بين الاثنين .

وهنا ينهى مرقس قصته القصيرة عن تجربة بلمستين إنسانيتين :

١ — إن الوحوش كانت رفيقة المسيح . عندما تسمع فى البرية زئير الفهد والدب ، وترى الخنزير البرى وابن آوى تحس بانقباض ورعب فى الصورة المعطاة لنا ، ولكن هذا لم يكن شعور يسوع فقد كانت الوحوش أصدقاء له ، ولقد كان حلم الأنبياء الأقدمين أنه فى أيام المسيا سوف تزول العداوة بين الإنسان والوحوش ، ويقول هوشع « وقطع لهم عهداً فى ذلك اليوم مع حيوان البرية وطيور السماء ودبابات السماء .. » (هوشع ٢ : ١٨) ويقول إشعياء « فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدى .. ويلعب الرضيع على سرب الصل ويمد الفطيم يده على جحر الإفعوان لا يسؤون ولا يفسدون فى كل جبل قدسى » (إش ١١ : ٦ — ٩) . ولعل فرنسيس الأسيسى وهو يعظ للحيوانات يتنبأ بالحالة الجميلة التى يملك فيها البر والسلام بل لعل الوحوش أثناء التجربة عرفت قبل أن يعرف الإنسان نفسه أن هذا هو ملكها .

٢ — وكانت ملائكة تخدمه : عندما تواجهنا التجربة نجد هناك المعونة الإلهية فعندما حوصر إليشع وغلامه فى دوثان ورأى الغلام أنه لا مفر من الهلاك ، فتح النبى عينى الغلام فرأى جند الرب ومركباته تملأ الجبل (٢ ملوك ٦ : ١٧) . إن الآب لم يترك يسوع يحارب حروبه وحيداً .. وهكذا يفعل معنا أيضاً .

البشارة المفرحة

(مرقس ١ : ١٤ ــ ١٥)

هذه الرسالة المختصرة التي نادى بها المسيح تحتوى على ثلاث كلمات لها أهمية قصوى للإيمان المسيحى وهى : ــ

١ ــ الإنجيل :

ورسالة يسوع كانت إنجيل أو بشارة والكلمة اليونانية **euaggelion** التى ترجمت بشارة أو إنجيل لها مضمون عميق فى العهد الجديد .

(أ) **إنجيل الحق** : (غلاطية ٢ : ٥ ، كو ١ : ٥) حاول الناس قبل مجيء المسيح أن يبحثوا عن الله فلم يزيدوا عن التخمين ، ولهذا يصرخ أيوب : « من يعطينى فأجده » (أيو ٢٣ : ٣) . ويصرح مرقس أوريليوس « إن النفس لا تستطيع أن ترى بوضوح ــ وهو يستعمل كلمة تضيء ثرى فى الماء » . ولكن عندما جاء يسوع بدأ الناس يعرفون الله ويلمسونه ولم يعد لهم حاجة بعد إلى التخمين .

(ب) **إنه إنجيل الرجاء** : (كولوسى ١ : ٢٣) ولكم عم اليأس والتشاؤم قلوب الناس قبل مجيء المسيح ، فيتحدث سينكا عن عجز الإنسان عن نوال الأشياء الضرورية لأنه انهزم فى نضاله ليكون صالحاً ، ولكن عندما جاء يسوع جاء بالرجاء للبشرية .

(ج) **إنه إنجيل السلام** : (أفسس ٦ : ١٥) إن مأساة الإنسان الكبرى هى انقسام شخصيته ، فهو ملاك متحد مع شيطان فى رباط غريب . ولقد قيل عن شـوبنهور الفيلسوف المتشائم إنه كان يتجول مرة على غير هدى فسأله أحدهم « من أنت ؟ » فأجابه شوبنهور « ليتك تخبرنى أنت من أنا » . ويقول روبرت برنز « إن حياتى تذكرنى بمعبد متهدم يختلط فيه المجد والعظمة بالضياع والخراب » . فالمشكلة البشرية تكمن فى أن الإنسان موزع بين البر والشر ، ولكن يسوع يستطيع أن يوحد تلك الشخصية المنفصمة فى وحدة متكاملة ، ونصرته معناها رد السلام إلى الإنسان .

(د) **إنجيل مواعيد الله** : (أفسس ٣ : ٦) فى كل زمان ومكان ودين كان الناس يظنون أن الله إله الوعيد لا إله الوعد يطالب ولكنه لا يعطى ، ولكن المسيحية وحدها هى التى أعلنت أن سرور الله الكامل هو فى أن يعطى لا أن يأخذ .

(هـ) **إنجيل الخلود** : (٢ تيمو ١ : ١٠) إن فكرة الوثنى عن الحياة هى أنها طريق إلى الموت ، فالإنسان مخلوق مائت ، ولكن يسوع أعلن أن الإنسان خلق للحياة وليس للموت .

(و) **إنجيل الخلاص** : (أفسس ١ : ١٣) والخلاص هنا لا يعنى حالة سلبية ولكنه عمل إيجابى فهو ليس فقط فى التحرر من الخطية الماضية وعقابها ولكنه القوة للحياة المنتصرة على قوة الشر . فرسالة يسوع حقاً هى رسالة مطمئنة .

٢ ــ التوبة :

يعتقد بعض الناس خطأ أن التوبة شيء سهل ، ولكنها ليست كذلك ، فالكلمة اليونانية Metanola معناها تغيير التفكير ، وكثيراً ما يخلط البعض فى حالة الندم والحزن : بين الحزن على الخطيئة نفسها والحزن على نتائجها فكم من شخص يحزن ويكتئب ولكن على الحالة التى أوصلته إليها الخطية ، ولو عرف أنه يستطيع أن يخطىء دون أن يصيبه من أذاها شيئا لما تأخر عن ارتكابها فهو لا يكره الخطية نفسها بل يكره نتائجها الوخيمة ؛ ولكن التوبة الحقيقية هى الحزن والندم على الخطية نفسها ولقد عبر عن ذلك القديس الحكيم فونتانى « يجب أن يتعلم الأطفال أن يكرهوا الرذيلة لأنها رذيلة حتى يستطيعوا لا أن يتجنبوها فقط بل أن يكرهوها فى قلوبهم حتى يشمئزوا منها فى أية صورة تراءت لهم » . فالتوبة تعنى أن الإنسان الذى كان يحب الخطية تنفتح عيناه فيعرف حقيقتها الشريرة فيكرهها .

٣ ــ يؤمن :

كما يقول يسوع « آمنوا بالإنجيل » ومعنى ذلك أن يؤمن الناس بما أعلنه يسوع عن الله ، يؤمنوا بأنه قد أحب العالم حتى أنه بذل ابنه ليردنا إليه .. يؤمنوا أن الأمور التى كانت بعيدة التصديق أصبحت حقيقة واقعة .

يسوع يختار رفقاءه

(مرقس ١ : ١٦ ــ ٢٠)

حالما انتهى يسوع من تقرير مصيره ووضع قدمه على الطريق للقيام بالرسالة التى أخذها من الآب بدأ يدعو إليه رفقاء العمل ، فلا بد للقائد من نقطة يبدأ عمله منها ، ونقطة البدء الطبيعية هى أن يختار لنفسه جماعة صغيرة يكشف لهم عما فى نفسه ، ويكتب رسالته على قلوبهم ، وفى هذا الفصل يحكى مرقس عن الخطوة الأولى التى اتخذها يسوع فى بناء ملكوت الله .

وكان صيد الأسماك مهنة رائجة فى الجليل ، وامتلأت تلك المقاطعة بصيادى السمك ، ويذكر يوسيفوس المؤرخ اليهودى الشهير ــ وكان يوما حاكما على الجليل ــ أن ما لا يقل عن ٣٣٠ قارباً للصيد كانت تتجول فى بحيرة الجليل للصيد . وقد كان لفقر الناس وعدم قدرتهم على شراء اللحوم وأكلها أكثر من مرة واحدة أسبوعياً دافعاً لهم على استبداله بالسمك (لو ١١ : ١١ ، ٢٤ : ٤٢ ، فى ٧ : ١٠ ، مر ٦ : ٣٠ ــ ٤٤) وزاد على ذلك ما كانوا يصدرونه إلى روما حيث وجدت هناك سوقاً رائجةً له . وبالطبع كان السمك مملحاً حتى لا يفسد بطول مدة نقله وبطء وسائل النقل فى ذلك الوقت . ولقد اشتهرت بلاد كثيرة بصيد السمك مثل « بيت صيدا » أى بيت السمك ، وبتمليحه مثل « تراخيا » أى « مكان تمليح السمك » . وتذكر الأناجيل ــ تلميحاً أو تصريحاً ــ أن الصيادين كانوا يستخدمون نوعين من الشباك : النوع الأول اسمه « ساجينا » Sagène وهى شبكة ضخمة فى نهايتها أثقال وتطرح من القارب فتنزل مستقيمة فى الماء ، وعندما

يتحرك القارب تنجذب الأطراف الأربعة بعضها إلى بعض فيصبح كأنها حقيبة كبيرة تحفظ داخلها السمك . أما النوع الثانى ، وهو ما كان يستعمله بطرس ويوحنا . فقد كان اسمه أمفيبلسترون Amphiblestron وهو نوع أصغر كثيراً من النوع الأول ويشبه المظلة ويستخدمها الإنسان بنفسه ويجرها بيديه فتجمع السمك داخلها .

وإنه لفى غاية الأهمية أن ندرس نوع الرجال الذين اختارهم يسوع لخدمته :

١ ـــ يجب أن نلاحظ من هم : كانوا قوماً بسطاء لم يتخرجوا من كليات ولم ينشأوا فى أوساط أرستقراطية مدنية كانت أم كهنوتية .. لا علم ولا مال كانوا صيادين بمعنى آخر كانوا أناساً عاديين ؛ ولم يظهر إنسان فى التاريخ وثق بالرجل العادى مثلما وثق به يسوع . فيقول برناردشو « إننى لا أحس تجاه هذه الطبقة إلا بشعور واحد وهو رغبتى فى إزالتهم من الوجود حتى يأتى مكانهم أناس معتدلون » وفى باتريشيان يقول جون جالسورثى على لسان أحد شخصيات روايته واسمه ملتون « الرعاع .. كم أكرههم .. أكره غباوتهم المتناهية .. أكره نبرة صوتهم .. أكره منظر وجههم .. إنه قبيح تافه » . وفى لحظة غضب قال كارليل : « فى إنجلترا ٢٧ مليوناً من الناس فى غاية الغباوة » . ما أبعد الشقة بين شعور هؤلاء وشعور يسوع تجاه الإنسان العادى . قال لنكولن « لابد أن الله يحب الرجال لأنه خلق الكثير منهم » . وفى عمله هذا كأنما كان يسوع يقول « أعطنى اثنى عشر رجلا عادياً وأنا أفتن بهم المسكونة » وهكذا دعنا لا نهتم بأى نوع من الناس نحن بقدر ما نهتم بما يخلقه يسوع منا ، وألا نظن فى شخص غير ما يظنه يسوع فيه .

٢ ـــ ماذا كانوا يعملون : عندما دعاهم السيد كانوا يقومون بعملهم اليومى : صيد الأسماك وإصلاح الشباك . وهكذا جاءت دعوة الله إلى كثيرين من الأنبياء .

لقد جاءتهم ليس فقط وهم فى بيت الله بل وفى أثناء عملهم أيضاً . يقول عاموس « لست أنا نبياً ولا أنا بن نبى بل أنا راعى وجانى جميز فأخذنى الرب من وراء الضأن وقال لى الرب اذهب تنبأ لشعبى اسرائيل » (عاموس ٧ : ١٤ و ١٥) وفى نفس المعنى يقول ماكندرو وهو أحد شخصيات روايات كبلنج .

« وفى كل شيء أرى يدك ياالله وأنت الذى تدبر كل شيء » .

فالإنسان الذى يعيش فى عالم يملأه الله لا يستطيع أن يتهرب من الدعوة الإلهية .

٣ ـــ كيف دعاهم : كانت دعوة يسوع لهم « إتبعنى » لم تكن هذه أول مرة يقابلون فيها يسوع ، فلابد وأنهم كانوا يقفون بين الجموع يصغون إليه ولابد أنهم كانوا يبقون معه بعد انفضاض الجماهير ويتحدثون إليه حديثاً ودياً ، ولابد أنهم وقعوا تحت تأثير شخصيته الجذابة وكلامه الجميل ، ولكنه عندما دعاهم لم يقل لهم « تعالوا لنبحث معاً بعض العقائد اللاهوتية أو هاكم هى نظرياتى أرجوكم أن تدلوا برأيكم فيها ، أو هذه مجموعة من القواعد الأخلاقية أود أن أستشيركم فيها .. » كلا إنه لم يقل ذلك ، فقد قال « اتبعنى » إنها دعوة شخصية لارتباط شخصى ، دعوة توجه إلى القلب قبل العقل ؛ هذا لا يعنى أن الذين يتبعون المسيح يجب أن يتركوا تفكيرهم ، ولكننا نقصد

أن الذى يتبع يسوع كمن يحب إنساناً ما ، فقد قيل « نعجب بالناس لأسباب معلومة . ولكننا نحبهم بدون سبب معروف » . وهكذا يقول السيد « وأنا إن ارتفعت أجذب إلىّ الجميع (يوحنا ١٢ : ٣٢) وأننا نعتقد أن الجمع الغفير الذى آمن بيسوع لم يفعل ذلك بسبب ما قاله ولكن بسبب شخصيته فقط .

٤ ــ ماذا منحهم يسوع :

لقد منحهم عملا يقومون به ، دعاهم للخدمة لا للنوم ، وكما قال أحدهم « إن أعظم مهمة للإنسان هى أن يجد عملا يجد فيه نفسه » هكذا فعل يسوع .. دعاهم ليبذلوا أنفسهم فى عمل وخدمة مضحية .. ليحرقوا أنفسهم لكى يضيئوا للآخرين .. دعاهم لعمل يستفيدون منه فقط لأنهم يعطونه كل أنفسهم .

يسوع يبدأ معسكر عمله

(مرقس ١ : ٢١ و ٢٢)

تسير قصة مرقس فى تتابع منطقى ، فيذكر عندما عرف فى ظهور يوحنا المعمدان بشارة السماء له لبدء العمل ، ذهب لتوه ليعتمد منه ، وينال موافقة الآب على هذا البدء ، وبعد ذلك واجه الشيطان حتى يختار طريقة العمل ووسائله ، ثم اختار أتباعه الذين أراد أن يجهزهم ليحملوا رسالته والآن يبدأ عمله الذى جاء من أجله ، وكان من الطبيعى أن يبدأ هذا العمل فى المكان الطبيعى له وهو المجمع ، تماماً كما يفعل أى واحد منا عندما يبدأ خدمته إذ يتخذ الكنيسة مكان الابتداء .

ولكن ما هو المجمع ؟ وما هو الفرق بينه وبين كنيسة اليوم ؟ هناك بعض الفروق الأساسية بينهما :

(أ) كان المجمع عبارة عن معهد تعليمى ، وكانت العبادة فيه تقتصر على الصلاة وقراءة الكلمة وتفسيرها . فلم تكن هناك موسيقى ولا ترانيم ولا ذبيحة ، هذه كلها كان الهيكل مكانها الطبيعى وكان المجمع أعمق تأثيراً من الهيكل فى حياة اليهود ، ومهما قيل فلم يكن هناك غير هيكل واحد بينما صرحت الشريعة لكل عشرة أفراد أن يقيموا لأنفسهم مجمعاً ، ولهذا كان المجمع فى كل مكان فى العالم يعيش فيه جماعة من اليهود . فمن الطبيعى إذاً ، لكل حامل رسالة ، أن يبدأ عمله من المجمع .

(ب) وأكثر من ذلك فقد كان المجمع معداً ليقوم برسالته ، ففيه مجموعة من الأفراد مخصصين للقيام بالخدمة : كان هناك رئيس المجمع وهو الشخص المسئول عن رعاية شئونه وتدبير الخدمات فيه ؛ وإلى جانبه كان موزعو الصدقات وهم الذين كانوا يجمعون العطايا والهبات التى يقدمها الموسرون فى المجمع ، ثم يوزعونها على الفقراء من الناس ، (وكانت العادة أن يتناول ــ أفقر الفقراء ، ١٤ وجبة طعام فى الأسبوع الواحد) ؛ وكان هناك ثالثاً الخزان أى الخادم وهو المسئول عن حفظ الرقوق والأدراج التى كتبت عليها الأسفار المقدسة ، وعن نظافة المجمع وضرب الأبواق لإعلان

إبتداء يوم السبت ، وتعليم الأطفال . ومع كل ذلك فقد كانت فى المجمع وظيفة شاغرة دائماً وهى وظيفة الواعظ ، فلم يكن هناك واعظ متفرغ له ، ولهذا فقد كان رئيس المجمع يدعو أى إنسان عنده رسالة ليقوم بشرح كلمة الله ، وكان هذا الأمر هو العامل الأول الذى جعل يسوع يتخذ من المجمع المكان الطبيعى لشرح رسالته ، فقبلما اتخذت السلطات موقف العداوة منه كان كلما ذهب إلى مجمع دعوه ليقول كلمة الوعظ للناس .

وحالما كان يسوع يدخل المجمع ويبدأ فى تقويم رسالته كان الناس يشعرون أن هذا رجل جديد برسالة جديدة تختلف عن رسالة الكتبة ، فهو إذ يتكلم فإنما يتكلم كمن له سلطان وليس كالكتبة . ولكن من هم هؤلاء الكتبة ؟ كانت التوراة أو الناموس هى أقدس المقدسات عند اليهود ، ومع أن الوصايا العشر كانت أساس الناموس إلا أن « التوراة » كانت تعنى أسفار موسى الخمسة . وكان اليهود يعتقدون أنها كلمات الله أنزلها مباشرة إلى موسى وكل من ينكر أصلها الإلهى فلن يرى الحياة الأبدية ؛ فموسى لم يكتب حرفاً من عند ياته بل أملاها عليه الله ؛ وعلى هذا فقد كانت هذه الكتب لهم (١) القانون المعصوم للايمان والأعمال (٢) إنه يحتوى على الإرشادات لكل مواقف الحياة المختلفة . ويبنى على هذا الاعتقاد شيئان : الأول هو أن يدرس دراسة دقيقة مفصلة ؛ والثانى أن يوضع فى مبادىء عامة عظيمة وأن يستخرج منه المبادىء المتضمنة فيه حتى وإن لم تكن قد ذكرت صريحاً ، وتكون بذلك مرشداً للناس . ولهذا كله نشأت طبقة من الناس — اسمها الكتبة — تخصصت فى هذا العمل ، وأطلق على رؤسائهم اسم « رباى » أى المعلم وكان يتحتم على الكتبة أن يقوموا بثلاثة أعمال :

١ — كان عليهم أن يحولوا المبادىء العامة فى التوراة إلى قوانين وأحكام تصلح لكل موقف من مواقف الحياة ، وكان هذا عملا لا نهاية له ، وبهذا بدأت الديانة اليهودية بمبادىء وانتهت بمجموعة من الأحكام والقوانين .. بدأت كديانة وانتهت كتشريع .

٢ — كان عليهم أن ينقلوا هذا التراث الضخم للأجيال التالية وأن يعلموه للشعب ، فقد كانت هذه التقاليد والأحكام شفوية ، ولم توضع فى كتاب وكان على الكاتب أن يحفظها كلها فى ذاكرته التى كانت تشبه الحافظة التى لا تفقد حرفاً واحداً .

٣ — كان عليهم أن يصدروا الفتاوى فى الحالات الفردية ، ومن الطبيعى أن تتحول هذه الفتاوى إلى قانون تضاف إلى ما سبقها من قوانين كثيرة .

فما هو الفرق إذن بين تعاليم يسوع وتعاليم الكتبة ؟ لقد كانت تعاليم يسوع ترتكز على سلطانه الشخصى ، ولم يكن يعلم ما كان يفعل الكاتب الذى يبدأ درسه بالقول « يوجد تعليم يقول ... » ثم يقتبس عن بعض العلماء . وكان رأيه الشخصى هو آخر ما يقوله ويقدمه للناس . وما أبعد الشقة بين هؤلاء وبين يسوع الذى لم يحتج إلى معلم سابق ينقل عنه .. لقد تكلم بكلمة الله من اختياره هو ... كان هو بنفسه صوت الله الآتى إلى الناس ، فأنصت الناس إلى صوت السماء مباشرة . وكانت نبرته الإيجابية الفعالة أكبر عامل على جذب الناس إليه وإصغائهم بفرح إلى صوته

وتعليمه .

إنتصار المسيح الأول على قوات الشر

(مرقس ١ : ٢٣ ــ ٢٨)

لم تكن أعمال المسيح أقل تأثيراً عن تعليمه ، فقد جعلت الناس يقفون مبهورين منها ، وكان العمل الأول فى هذا الإنجيل هو شفاء رجل كان به روح نجس سبب بعض الفوضى والذعر فى المجمع ، ولم يكن هذا الرجل هو الوحيد من هذا الصنف فى رسالة يسوع ، فقد كان هناك كثير منهم . وستقابل معهم فى حوادث كثيرة ، فما هو السر الذى يكمن وراء هذه الجماعة المسكينة من الناس ؟

كان اليهود ــ مع غالبية الشعوب القديمة ــ يعتقدون فى الشياطين والأرواح النجسة وفى ذلك يقول هارنيك « كان العالم كله مملوءا بالأرواح الشريرة فهى لم تسكن الأصنام فقط بل كانت تملأ أجواء الأرض نفسها ، وتتحكم فى كل أوجه حياة الناس ، لقد جلسوا على العروش وأحاطوا بكل مهد ، فأضحى العالم جحيما ضخما » . أما د . رندل شورت ، فلكى يظهر عمق هذا الاعتقاد وسيطرته على عقول الجميع فى تلك الأيام فإنه يقص الحقيقة التالية فيقول إن الكثير من الجماجم الباقية من ذلك العصر بها ثقوب صغيرة ، ونسبة هذه الجماجم المثقوبة لم تكن صغيرة فقد وجدت ستة جماجم مثقوبة من بين ١٢٠ جمجمة وجدت فى مقبرة ، وبعد الفحص وجد أن هذه الثقوب حدثت فى الرأس أثناء الحياة . ولم تكن هذه العملية سهلة هينة لأطباء ذلك العصر نظراً لضعف إستعدادهم الطبى . ومن المعتقد أن هذه الثقوب عملت فى الرأس حتى تخرج منها الأرواح النجسة التى سكنت فى ذلك الجسد . ثم يضيف شورت « إنه إذا كان جراحو ذلك العصر وهم طبقة المثقفين يجرون هذه العمليات لهذا الغرض فلابد أن الاعتقاد فى الشياطين كان عميقاً » .

ولكن من أين جاءت هذه الأرواح النجسة ؟ هناك ثلاثة أجوبة على ذلك :

١ ــ بعضهم يظن أنها من القدم منذ أن كانت الخليقة .

٢ ــ وبعضهم يظن أنهم عبارة عن أرواح الناس الأشرار الذين ماتوا باقية ولا زالت تقوم بأعمالهم الشريرة .

٣ ــ ولكن معظم الناس يربطون بين الشياطين وبين القصة الواردة فى تك (٦ : ١ ــ ٨ ، ٢ بط ٢ : ٤ و ٥) . وتروى تقاليد اليهود عن ملاكين أحدهما اسمه عزرائيل والثانى سماقشساى جذبتهما شهوة شريرة نحو بنات الناس الجميلات فتركا خدمة الله ونزلا إلى الأرض ، ولكن أحدهما ندم ورجع إلى الله ، أما الثانى فبقى فى غوايته وأنجب نسلا ، وكان نسله هو الشياطين . ويدل اسم الجمع لهذه الفئة على عملها فهم يدعون مزيكين **Mazzikin** أى الذين يتسببون فى الضرر فالشياطين هم جماعة شريرة فى مكانة متوسطة بين الله والناس وهدفها هو ضرر الناس وأذيتها .

ولليهود عقائد غريبة عنهم . فهو يقولون إنهم يأكلون ويشربون وينجبون أطفالا ولا يقل عددهم عن سبعة ملايين ونصف ، يقف عشرة آلاف منهم على يمين كل إنسان وعشرة آلاف على يساره ، وهم يعيشون فى الأمكنة القذرة كالمقابر والأماكن المحرومة من ماء التطهير ، ويسمع عواءهم دائماً فى الصحارى ، وتشتد خطورتهم على الرجل الذى يسافر وحيداً وخصوصاً أثناء الليل ، وعلى المرأة التى قاربت أن تلد والعرايس والأطفال الذين يخرجون ليلاً ، ويظهر نشاطهم بالخصوص وقت الظهيرة وأثناء الليل . وهناك أنواع منهم ، فهناك شياطين العمى وشياطين البرص وشياطين مرض القلب ، ويمكنهم أن يحولوا طاقتهم إلى أى إنسان فعين الحسود مثلا هى عطية شيطانية إلى إنسان شرير ، ويستطيعون أن يعملوا بواسطة الحيوانات مثل الحية والثور والحمار والبعوض ؛ اسم الذكر فيهم شيديم واسم الأنثى ليلين وهى تتزين بشعر طويل وتكره الأطفال ، ولذا كان للأطفال ملائكتهم الحارسة (متى ١٨ : ١٠) .

والمهم فى هذه المسائل ليس أننا نعتقد فى الشياطين أم لا ، الأمر المهم هو أن الشعوب القديمة وخاصة اليهود كانوا متمسكين جداً بهذه العقائد ، وكان الرجل الذى يعتقد أن به روح نجس يصرخ خائفاً عندما يرى يسوع لأنه يتكلم باسم الروح الذى فيه ، وهو يعرف أن مجيء المسيا معناه زوال ملكوت الشيطان . ولم يكن يسوع وحده هو الذى يخرج الشياطين بل كانت جماعة من المحترفين فى هذا العمل ، لكن الفرق الأكبر بينهم وبين يسوع هو أن يسوع كان يخرج الشيطان بكلمة واحدة بينما كانوا يستخدمون التعاويذ والرقى والشعوذة فقوة يسوع كانت فى كلمته بينما كانت قوتهم فى شعوذتهم .

فما هو موقفنا إزاء هذه المشكلة ؟ يقول بول ثورنر فى كتابه « مذكرة طبيب » « إنه من المؤكد أن كثيرين من الأطباء ، وأنا واحد منهم ، يواجهون أنواعاً من الأمراض تعمل لا فى سلبية بل فى إيجابية واضحة فهى فى عداوتها مصدر كبير للشر والأذى » . ويقول دكتور راندل شورت بعد تجاربه الطويلة « إن حوادث هذا العالم المروعة من كوارث أدبية كالحروب والانحلال الخلقى وكوارث طبيعية كالأمراض والبراكين هى عنوان على حرب ضروس تدور رحاها بين قوات الشر وعلى رأسها الشيطان وبين قوة الخير يقودها الله نفسه تماماً كما يظهر فى سفر أيوب » .

هذا موضوع لا يستطيع الواحد أن يقطع فيه برأى وإنما يستطيع أن يتخذ أحد مواقف ثلاثة فإما :

١ — إنها عقيدة بدائية حينما كان الناس يجهلون الكثير جداً عن الجسد والنفس فظنوا أن لكل مرض شيطاناً خاصاً .

٢ — أو أن يصدق العهد الجديد ويعتقد أنها ظاهرة باقية على صحتها إلى يومنا هذا .

٣ — إن قبل الرأى الأول فعليه أن يجد شرحاً لتفكير يسوع ، فهو — أى يسوع ، لم يكن يعرف عن هذا الموضوع أكثر من معاصريه ، لأنه موضوع علمى ويسوع لم يأت ليبشر بالعلم ، أو أن يسوع جارى مرضى ذلك العصر فى عقيدتهم حتى يستطيع أن يشفيهم .

ولكن القول النهائى فى ذلك هو أنه لابد أن هناك جواباً لم نستطع نحن أن نصل إليه .

المعجزة الخاصة

(مرقس ١ : ٢٩ — ٣١)

كان يسوع فى المجمع مذهلا سواء فى تعليمه أو فى عمله ، وخرج وذهب إلى حيث أحد أصدقائه المقربين : سمعان بطرس ، وكان من عادة اليهود أن يتناولوا الوجبة الرئيسية ليوم السبت بعد الانتهاء من خدمة السبت مباشرة أى فى الساعة السادسة ، وهى الساعة الثانية عشر بحسب توقيتنا نحن (فاليوم اليهودى كان يبدأ من الساعة السادسة صباحاً ثم يحسبون من ذلك الوقت ساعات النهار) وكان يسوع فى حاجة إلى قليل من الراحة بعد العمل المضنى الذى قام به فى المجمع ولكنه لم يستطع لأنه وجد من يحتاج إليه وكان عليه أن ينفق قوته على المحتاجين . وفى هذه القصة تبرز ثلاث شخصيات مهمة :

١ — الشخصية الأولى كانت شخصية يسوع نفسه . من العجيب أن يقوم بخدمته فى بيت وسط جماعة صغيرة تماماً كما فعل فى المجمع وسط جمع مزدحم ، إنه لم يحتج إلى جماهير تصفق له عندما يقدم خدمته إلى الغير ؛ هذا إلى جانب تفضيله راحة الناس على راحته هو ، فلم يمنع نفسه وهو المتعب المجهد من أن يبذل جزءاً آخر من قوته لشفاء إنسان مريض . لكن الشيء الغريب حقاً هو أنه يستخدم فى البيت نفس الطريقة التى يستخدمها فى المجمع ، وهى شفاء المريض بكلمة واحدة لها سلطانها المطلق ؛ ولقد مر بنا أن كثيرين من اليهود كانوا يخرجون الشياطين بما يقومون به من أسحار وتعاويذه وشعوذه ، وهذا ما كانوا يفعلونه فى مرض كهذا الذى أصيبت به حماة بطرس ، فقد كانوا يسمونه — حسب ما يقوله التقليد — « الحمى المحرقة » ، وكانوا يعالجونه بواسطة سكين مصنوعة من الحديد مربوطة إلى شجرة شوك ، ثم يقرأون فى أول يوم (خروج ٣ : ٢ و ٣) وثانى يوم (خروج ٣ : ٤) ، والثالث (خروج ٣ : ٥) وأخيراً يقرأون نوعاً من الشعوذة المخصوصة وهكذا يقولون إن المريض قد نال الشفاء . أما يسوع فلم يفارق السلطان المطلق كلمته ولم يلتجيء إلى شعوذة اليهود ورقيهم . ولقد استخدم الكاتب كلمة أكروسيا **Exosia** ليعبر بها عن سلطان المسيح وهى تعنى الجمع بين المعرفة الكاملة والقوة المطلقة ، وهذا ما ظهر فى عمل يسوع وتعاليمه سواء أكان فى البيت أم فى المجمع . يقول الدكتور ثورنر « إن أحد المرضى قال له : إنى أعجب من مقدرتك على الإصغاء لكل ما يقوله المريض » ، فيجيبه ثورنر بالقول « إنها ليست مقدرة ولكنه اهتمام بالناس » هكذا كان موقف يسوع إنه لم يستخدم معجزاته لينال مركزاً مشرفاً أو شهرة واسعة ، ولكنه استخدمها لأنه كان يهتم بالناس .

٢ — الشخصية الثانية هى التلاميذ : للآن لم يكن التلاميذ قد قضوا وقتاً طويلاً فى صحبة يسوع ومع ذلك فقد تعلموا كيف يخبرونه عن كل متاعبهم ، فعندما شعر بطرس بمرض حماته واضطراب منزله البسيط لم يسعه إلا أن يخبر يسوع بمتاعبة المنزلية ، وكذلك كان يفعل كل رفقائه التلاميذ حتى أضحى هذا العمل أسلوب حياتهم معه . يخبرنا الدكتور ثوررنر عن زياراته المتكررة لأحد الرعاة وكان متقدماً فى السن ، ولم يكن هذا الراعى يتركه قبل أن يصليا معاً ، وكان الشيء

الذى أدهش ثورنر هو البساطة المتناهية فى صلاة هذا الراعى ، كان يتكلم مع الله كما يتكلم مع أى فرد عادى يذكر له أتعابه . ويضيف ثورنر إنه أخبر زوجته بأمر صلاة ذلك الراعى فما كان منها إلا أنها ركعت مع زوجها وطلبا من الله أن يعطيهما أن تكون لهما هذه الصداقة البسيطة معه ، وقد كان فقد صار يسوع صديقاً لهما يبثانه كل أتعابهما ويستشيرانه فى كل شئونهما الخاصة . ويقول ثورنر إنه تأكد أن يسوع بنفسه كان ينصت إلى كل مريض يأتى إلى عيادته ويشكو له آلامه . نعم لقد أضحى يسوع صديق العمر . هذه هى الحياة المسيحية التى يصبح شعارها فى كل الظروف كلمات الترنيمة القائلة « خذ أتعابك إلى يسوع » . وهكذا تعلم التلاميذ هذا الدرس الأول أن يأخذوا كل همومهم إلى يسوع ويسألونه المعونة .

٣ — والشخصية الأخيرة هى حماة بطرس : يقول عنها البشير إنها حالما شفيت قامت لتخدمهم ، فاستخدمت هذه الصحة التى نالتها من يسوع فى الخدمة المضحية . هذا كان شعار أسرة اسكتلندية عظيمة إذ رفعت شعارها « أنا مخلص لكى أخدم » .

ابتداء التجمهر حول يسوع

(مرقس ١ : ٣٢ — ٣٤)

إن أعمالا كهذه التى يقوم بها يسوع لا يمكن أن يبقى خبرها محصورا فى مكان واحد فلم تكد تمضى بضع ساعات حتى انتشر خبر سلطانه القوى وتعاليمه الجديدة ، ولم يقبل المساء حتى حاصرت الجماهير منزل بطرس آتين إلى يسوع طالبين لمسته الشافية وكان من الممكن أن يتوافدوا عليه قبل المساء لولا أن شريعة السبت كانت تعنى ألا يحمل الإنسان حملا ما فى يوم السبت (إرميا ١٧ : ٢٤) فقد حرم التقليد حمل حتى المريض لأنه يعتبر عملا وكل عمل محظور يوم السبت ، وكان اليوم يبدأ فى الساعة السادسة صباحاً وينتهى فى السادسة مساء ولكنهم لم يعرفوا شيئاً عن الساعة فكانوا يحددون السبت بظهور ثلاثة نجوم فى السماء . فكان لما غربت الشمس وظهرت النجوم الثلاثة انطلق أهل كفر ناحوم حاملين مرضاهم إلى يسوع ليشفيهم واستجاب لهم وشفاهم .

إلى الآن قام يسوع بثلاث عمليات شفاء : مرة فى المجمع والثانية فى البيت والثالثة فى الشارع ، فلكل إنسان فى أى مكان استجاب يسوع لنداء الحاجة البشرية ، ولقد قيل عن دكتور جونسون إنه صديق الحاجة . هكذا كان يسوع .

اندفعت الجماهير إلى يسوع لأنها عرفت فيه إنساناً يستطيع أن يفعل شيئاً ولكم سئموا الذين يتكلمون ويطيلون الكلام ولكنهم يعجزون عن أن يعملوا شيئاً ، وقديما قيل « إن الناس يذهبون إلى من يعرف أن يعمل مصيدة فيران حتى ولو سكن فى قلب الغابة » فالناس يطلبون دائماً الشخص الذى يصل معهم إلى نتيجة فعالة ، ولهذا طلبوا يسوع بالحاح .

ولكننا رغم ذلك نلمح هنا بداية مأساة بشرية ، فاندفاع الناس إلى يسوع لم يكن بجاذب الحب ولكن طلبا للنفع ، إنهم لم يطلبوه هو بل طلبوا عطاياه ، لم يروا فيه رؤى جديدة ولكن رأوا فيه

مخزناً كبيراً ، وهل زادت هذه عن كونها مشكلة إنسانية عامة ؟ هكذا كل الناس فى موقفهم من الله وابن الله ، فلو أحصيت الصلاة التى ترتفع إلى السماء وقت الرخاء ، وكم من إنسان صلى وقت غروب الشمس ثم نسى صلاته عند شروقها ، فالديانة فى عرفهم هى مسألة أزمات ، والله لا يعرفونه إلا عندما تهتز حياتهم . نعم إننا نذهب إلى يسوع لأنه وحده يستطيع أن يشبع احتياجاتنا . ولكن لو استمر الحال هكذا و لم تتطور علاقة الحاجة هذه إلى علاقة محبة شخصية لانقلب الأمر إلى مأساة ، فالله ليس شخصا نستخدمه عند التجارب ولكنه هو الشخص الذى نحبه ونذكره كل أيام حياتنا .

ساعات التأمل ونداء العمل

(مرقس ١ : ٣٥ — ٣٩)

عندما يطّلع الفرد على أحداث كفرناحوم نجد أن يسوع لم يكن له وقت يستريح فيه ، ولكن يسوع يعرف تماماً أنه يجب أن يتقابل مع الآب ، فإنه وإن كان طريقه فى الحياة هو طريق العطاء لكنه يحتاج إلى ينبوع يستمد منه لنفسه القوة لهذا الطريق ، ومعنى هذا أنه يجب أن يصلى .. يجب أن تكون له فرصة ليقابل أباه السماوى . يقول دكتور يلدين فى كتابه الصغير عادة الصلاة « إن الصلاة معناها نداء النفس إلى الله » فإن أهمل الإنسان الصلاة فهو مسئول عن جهله وإهماله فى « إضافة إمكانات الله الغير محدودة إلى إمكاناته القاصرة الضعيفة ففى الصلاة تعطى الفرصة لحكمة الله الفائقة لتتغذى حكمتنا القاصرة » هذا ما عرفه يسوع ، لقد عرف أنه لكى يعطى يجب أن يأخذ ، قبل أن يقابل الجماهير المحتاجة يجب أن يقابل الله الآب . وإن كان يسوع قد احتاج إلى الصلاة فكم بالحرى نحن ؟

ولكن حتى هناك فى مكان الصلاة ذهبوا إليه ، ولم يشأ يسوع أن يوصد بابه فى وجوههم حتى وهو فى خلوته .

يقول أحد مشاهير الأطباء : إن واجب الطب هو « الشفاء فى بعض الأحيان والراحة فى كثير من الأحيان والعزاء فى كل وقت » . ويقول آخر : « إن واجب الطبيب هو أن يساعد الناس على أن يحيوا وأن يموتوا ، فهذه هى الحقيقة الإنسانية المؤكدة » وهذا كله كان يفعله يسوع . فلم يكن يسوع كبقية الناس الذين يقفلون أبوابهم على أنفسهم ليعيشوا فى سلام بعيداً عن الآخرين ومشاكل الآخرين ، كلا فنداء الأجساد المنهكة ، والحاجة الملحة كان أقوى فى أذنيه من صوت جسده المتعب الذى يبغى الراحة ، ولهذا فقد قام من صلاته ليساعد الجماهير . فالصلاة لا تعمل العمل الواجب أن نعمله ، إنها تعطينا القوة لكى نعمله .

وهكذا بدأ يسوع رحلة تبشيرية فى مجامع الجليل ، ومع أن مرقس يذكر خبر هذه الرحلة فى عدد واحد إلا أنه لابد أنها استنفدت أسابيع طويلة بل شهوراً وكان كلما ذهب ليبشر كان يشفى . ولقد كانت هناك ثنائيات لم يفصل يسوع بينها :

١ — فهو لم يفصل الكلام عن العمل ، لم يكتف بالكلام والتبشير ، إن الكلمة ليست كل

شيء ، فكان متى تكلم يشفع كلامه بعمله ، فماذا كان ينتفع منه الإنسان لو كان قد دعاه إلى الله ثم تركه يتلوى فى حاجته ؟ لكن يسوع كان يظهر كلمته فى عمله . يخبرنا فوزدك عن تلميذ عزم على الدراسة ففتش عن مكتبه عامرة واشترى كرسيا مريحا ووضعه فى مكان هادىء جميل ثم أمسك بالكتاب وبدأ يغط فى النوم ، هذا بالضبط ما يفعله الرجل الكثير الكلام بغير عمل .

٢ — إنه لم يفصل الجسد عن النفس : هناك اتجاهات فى المسيحية تتصرف كأن الجسد لا يعنيها فى شيء ما ، لكن حقيقة الأمر أن الإنسان جسد وروح ، وعلى المسيحية أن تفيهما معا ، نعم لا ننكر أن هناك حالات فيها يستطيع الإنسان أن يتمتع بالعشرة مع الله رغم فقره الشديد وبطنه الخاوية وجسده العارى ، ولكن يجب ألا نجعل هذه الحالة دافعاً إلى أن نترك هذا الإنسان فى بؤسه الجسدى هذا ، فالمرسلون لم يكتفوا أن يحملوا الكتاب المقدس وحده للقبائل البعيدة ، ولكنهم حملوا معهم المدرسة والمستشفى ، إن الإنجيل الاجتماعى ليس ترفا لا لزوم له لكنه أمر ولازم فى تقديم كلمة الخلاص ، فالرسالة المسيحية هى رسالة الروح والجسد معاً .

٣ — لم يفصل السماء عن الأرض : هناك من يحاول أن يعيش للسماء فقط وينسى كل شيء عن الأرض وبذلك يتحول إلى عالم خيالى غير عملى ، وهناك من يهتم بالأرض فقط ويترك السماء ويظن أن الصلاح صلاح مادى فقط . لكن يسوع ربط الاثنين معاً وكان يعلمنا أن نصلى حتى تتحقق إرادة الله على الأرض (متى ٦ : ١٠) ، نعم لقد نظر إلى الأمام حينما تلتقى السماء بالأرض وتصبح إرادة الله هى الشريعة والحاكم المطلق كما فى السماء كذلك على الأرض .

شفاء الأبرص

(مرقس ١ : ٤٠ — ٤٥)

يعتبر مرض البرص فى العهد الجديد من أشد الأمراض وأكثرها فظاعة وعندما أرسل يسوع تلاميذه قال لهم « اشفوا مرضى ، طهروا برص » (متى ١٠ : ٨) فحياة الأبرص أقسى وأبأس حياة إنسانية ، ويقول ى . و . ج ماسترمان فى مقاله فى القاموس « Jesus & the gospels » « لا يوجد هناك مرض يجرد المريض من إنسانيته لسنين عديدة مثل مرض البرص » . وهناك أنواع ثلاثة منه :

١ — هناك البرص الدرنى ، يبدأ هذا النوع بنوبات من النوم العميق ونوبات من الآلام القاسية فى المفاصل ، وحينئذ تظهر على الجسم وخصوصاً على الظهر ، بقع متماثلة عديمة اللون ، وعلى هذه البقع تظهر درنات وردية اللون ثم تنقلب رمادية ويصبح الجلد سميكا . ثم تتجمع الدرنات فوق الوجنتين والشفتين والجبهة وعندئذ تتغير السحنة حتى يفقد المريض منظره ويصبح شكله كما قال الأقدمون « كالأسد » ، وبعد ذلك تأخذ هذه الدرنات فى الكبر والتقيح ويسيل منها سائل عفن ، ثم يسقط حاجبا العينين ويصبح النظر زائغاً ويبح الصوت لتقرح الأوتار الصوتية ثم تتقرح اليدان والقدمان ورويداً رويداً ليصبح المريض كتلة من اللحم المتقرح ويمكث المرض غالباً تسع سنوات

يصبح فيها المريض سريع الغضب ثم يصاب بعدها إما بالجنون أو بالإغماء الطويل ثم الموت .

٢ ــ أما النوع الثانى فهو البرص المخدر وأعراضه الأولى هى نفس أعراض النوع السابق ، لكن الأذى فى هذا النوع يصيب الجهاز العصبى فيفقد الجزء المصاب منه حساسيته دون أن يشعر المريض بأى ألم . وقد لا يعرف ماذا يحدث له حتى يحس ببعض الحروق والالتهابات ولكنه يتحقق أخيراً أن الألم لا يوجد فى الموضع الذى كان يشعر أنه يؤلمه . وكلما تفاقم المرض وفتك بالجهاز العصبى ظهرت بقع عديمة اللون وتبدأ هذه البقع تظهر فى الأصابع ثم تبدأ هذه فى التآكل ثم تصيبها مع أصابع القدم تقرح مخيف وتزول أصابع كل من القدمين واليدين وقد تتآكل كلها ويمتد المرض لمدة ٣٠ سنة وهى عبارة عن موت بطىء مرعب للجسد .

٣ ــ أما النوع الثالث فهو النوع الأكثر انتشاراً وهو عبارة عن خليط بين البرص الدرنى والبرص المخدر .

هذه هى أعراض البرص الحقيقى ، ولا شك أنه كان فى فلسطين أيام المسيح كثيرون مصابون بمثل هذا المرض المروع ، ولكن مما ورد فى سفر اللاويين ١١ ومما جاء فى العهد الجديد يتضح أن هناك أمراضا أخرى تصيب الجلد قد أطلق عليها اسم البرص فمنها مثلا البقع البيضاء التى تصيب الجلد وتنتشر فيه ونسميها « البهاق » وتجعل الجسم « أبيض كالثلج » ومنها « القوب » الأحمر المنتشر كثيراً فى الشرق . وبحسب لاويين ١٣ : ٣٣ و٤٧ قد يصيب البرص الملابس والبيوت . وهذا كله يعنى أن مرض البرص ، أطلقه اليهود على كل مرض زاحف يصيب الإنسان أو الملابس أو البيوت ولعدم كفاية المعرفة الطبية لم يستطيعوا أن يفرقوا بين ذلك المرض المروع حقا وبين هذه الظواهر الجلدية القليلة الضرر .

وكانت معاملة الأبرص من أقسى المعاملات التى يقابلها البشر ، فهو يطرد من جماعة الناس وينعزل وحده ويسير بملابس ممزقة ورأس عارية مغطيا شفته العليا ، وأينما ذهب كان يحذر الناس من وجوده بصرخة عالية « نجس نجس » . ولقد ورثت القرون الوسطى المسيحية نفس هذه المعاملة عن اليهود ، فكان الكاهن فى ثيابه الرسمية وحاملا معه الصليب يقود الأبرص إلى الكنيسة ويصلى عليه صلاة الموتى إذ يعتبر حى ميت . وبعد ذلك يلبس ملابس سوداء يسكن فى بيوت البرص المخصصة ولا يستطيع أن يقترب من الكنيسة ولا أن يحضر قداساً بل قد ينظر إلى الخدمة من كوى مخصوصة ضيقة فى حائط المسكن . وعلى هذا فلم يكف الأبرص ما يعانيه من مرضه الجسدى بل كان يقاسى آلاما نفسية مبرحة وإنكسار قلب لأنه يعتبر فى المجتمع وباءً خطراً .

أما شريعة تطهير الأبرص فكان يقوم بها الكاهن لمن شفى من برصه وهى مذكورة فى لاويين ١٤ ، ومن المؤكد أن هذا الشفاء لم يكن من البرص الحقيقى . فهو مرض عديم الشفاء ، ولكنه شفاء من المرض الجلدى العادى وتجرى المراسيم هكذا : يفحصه الكاهن ثم يأخذ عصفورين ويذبح أحدهما على ماء حى (جارى) ثم يأخذ ... ويغمسها كلها مع العصفور الحى فى دماء العصفور المذبوح ثم يطلق العصفور حراً ، ثم يغتسل المريض ويغسل ملابسه ويحلق شعره ، وبعد سبعة أيام يفحصه الكاهن مرة أخرى ثم يحلق شعر رأسه وحواجبه وبعد ذلك يقدم ذبيحة من حملين وجدى

ماعز وتقدمه من ثلاثة أعشار دقيق ملتوتة بزيت ومعيار — من الزيت — طبعا تنقص هذه الكميات للفقراء ثم يلمس الكاهن أذن المريض اليمنى . وابهامه الأيمن وأصبع قدمه الأيمن ، ثم يفحصه للمرة الثالثة وبعد ذلك يعطيه شهادة شفائه وتطهيره من البرص .

ولأجل هذا يحدث صوت تعبير عن قلب يسوع وحنانه على الإنسان :

١ — إنه لم يطرد الرجل الأبرص ، سمع نداءه مع أنه محرم على الأبرص أن يتكلم إلى إنسان ولكن يسوع واجه البؤس الإنسانى بحنان وفهم .

٢ — ثم مد يده ولمسه . لمس النجس الذى تحرم الشريعة لمسه ، ولكن كان فى نظر يسوع غير نجس . كان نفسا بشرية بائسة .

٣ — وبعد أن طهره أرسله ليقوم بشريعة التطهير ، وبذلك تمم يسوع الشريعة فيسوع لم يكسر الناموس الطقسى بل قام به حين كان يجب أن يفعل .

هنا الحنان والقوة والحكمة .

الأصحاح الثانى

الإيمان الذى لا يمكن أن يختفى

(مرقس ٢ : ١ ـــ ٦)

بعد أن أكمل يسوع رحلته بين المجامع رجع مرة أخرى إلى كفرناحوم ، وسرعان ما انتشر خبر رجوعه فى كل الكورة المجاورة وحسب العادة تدفق الناس إلى البيت الذى كان فيه يسوع ؛ فقد كانت الحياة فى فلسطين مشتركة للجميع وكانت البيوت مفتوحة الأبواب لكل من يريد الدخول ، ولا يمكن أن ترى بابا موصدا إلا إذا أراد صاحبه أن يكون فى خلوة . ولم يكن للبيوت فى ذلك الوقت مداخل بل كانت الأبواب تفتح مباشرة على الشارع ولهذا فقد امتلأ المنزل بالناس إلى آخره ثم أحاطوا به حتى لم يكن موضع لقدم حواليه وكل هؤلاء جاءوا ليسمعوا كلام يسوع المعزى . وعلى حين فجأة ظهر وسط الجمع أربعة رجال يحملون بينهم رجلاً مفلوجاً وحاولوا أن يدخلوا إلى يسوع من الباب ولكنهم لم يستطيعوا من شدة الزحام ، ولم يقفوا مكتوفى الأيدى بل حاولوا طريقة أخرى . كانت سقوف المنازل فى فلسطين مسطحة وكان أصحابها يستخدمونها فى ساعات الراحة والهدوء ، وكانت هناك سلم خارجية تقود إلى السطح مباشرة ، وهذه السقوف كانت تصنع من ألواح خشبية مسطحة بين كل لوحين ثلاثة أقدام وتغطى الفجوات بينها بواسطة أعواد من الخشب محزومة . ويضعون عليها الطين ولهذا فقد كان من السهل ثقب هذا السقف بين لوحين ومن السهل أيضاً إصلاحه ، وهذا ما فعله الرجال الأربعة فقد صعدوا إلى السطح ونقبوا السقف ودلوا المريض عند قدمى يسوع ، وعندما نظر يسوع إلى المريض ابتسم ابتسامة الفاهم والمقدر لإيمان هذه الجماعة ثم التفت إليه وقال « يابنى مغفورة لك خطاياك » .

قد يستغرب كثيرون هذا القول ولكن الذى يعرف عقيدة الناس أيام يسوع يستطيع أن يفهم لماذا قال يسوع هذه الكلمات . لقد كان اليهود يربطون بين الألم والخطية ، فالشخص الذى يقاسى أى نوع من الآلام لابد أنه قد فعل خطية ما أنزلت عليه غضب الله ؛ لهذا القول نطق اليفاز التيمانى أحد أصحاب أيوب « أذكر من هلك وهو برىء ... » (أيوب ٤ : ٧) ويؤكد علماء اليهود القول نفسه عندما يذكرون أنه لا يمكن أن يبرأ إنسان من مرضه إلا إذا غفرت كل خطاياه . هذه العقيدة ليست غريبة على عصرنا بل هى مازالت تفشى إلى اليوم وخاصة بين القبائل البدائية فيقول دكتور بول تورنر « ألم يذكر المرسلون أن المرض فى نظر البدائى هو نجاسة ؟ حتى المسيحى منهم لايستطيع أن يشترك فى عشاء الرب وهو مريض » نحن لا ننكر ذلك فهناك أمراض كثيرة تنتج من خطية معينة إرتكبها المريض ، وهناك أمراض أكثر جاءت نتيجة خطية الوالدين ، لكن مع ذلك لا نستطيع فى كل وقت أن نربط بين الخطية والألم كما كان يفعل اليهود .

ولكن للقصة معان أعمق : فالمريض نفسه كان يهودياً ولابد أنه كان متمسك بنفس العقيدة ، فهو مريض لأنه خاطىء . ولابد أن هذا الشعور قد استولى على عقله الظاهر أو الباطن حتى أصابه

بالفالج ، فما أقوى تأثير العقل الباطن على حياة الإنسان . وكثيراً ما يذكر النفسيون قصة إحدى الفتيات كانت تلعب البيانو فى دار للسينما أيام الأفلام الصامتة جلست هذه الفتاة أمام البيانو لتؤدى عملها ، ولما أطفئت الأنوار وعم الظلام وانتشر دخان السجائر فى جو الدار إذ بأطراف الفتاة تتجمد ، ولما حاولت أن تتخلص من هذه الحالة لم تستطع بل شلت تماما . فحصها الأطباء فلم يجدوا سبباً جسمانياً لهذا الشلل ، ولكن بعد الفحص التاريخى لحياة هذه الفتاة عرف سبب هذا الشلل ، فقد حدث بعد ولادتها ببضعة أسابيع أن كانت نائمة فى مهدها وكانت أمها منحنية عليها وفى فمها سيجارة فسقطت شرارة منها على فراشها وأمسكت بها النيران ولكن سرعان ما أطفأوها ولم يمسها ضرر ما ، ولكن الحادثة اختزنت فى عقلها الباطن إلى هذه السن ، فحالما أطفئت الأنوار فى دار السينما وانتشرت فيها رائحة دخان السجائر قفز الهلع إلى عقلها الظاهر فأصابها بالشلل هكذا حدث مع بطل قصتنا هذه ، فهو كان يعتقد أنه قد ارتكب خطية عظيمة ، واستولت عليه هذه الفكرة بدرجة أنه سقط صريع المرض الذى كان يظنه أجرة على خطيته ؛ ولذلك كان أول ما فعله يسوع هو أنه أعلن له أن الله ليس غاضباً عليه فطمأنه كما يطمئن الإنسان طفلا خائفاً فى الظلام ، وانزاح حمل ثقيل من على ضميره فانزاح الشلل الذى أمسك به .

إنها لقصة جميلة هذه التى فيها يعلن يسوع لكل إنسان محبة الله قائلا « يابنى إن الله ليس غاضباً عليك .. لا تخف .. إرجع إلى بيت أبيك » .

المناقشة التى لا تجاوب

(مرقس ٢ : ٧ — ١٢)

كان التفاف الجماهير حول يسوع عاملاً على فتح عيون القادة عليه ، وخاصة أعضاء السنهدريم هو المجمع الأعلى لليهود ، فقد كان العمل الأول لهذه المنظمة هو حفظ الديانة من الانحرافات والهرطقات ومحاكمة كل مدع للنبوة . ويظهر من سياق قصة مرقس أن هذا المجمع أرسل جماعة يتجسسون عليه ليعرفوا مدى مطابقة عمله وتعاليمه للشريعة ، فجاءوا وجلسوا فى الأماكن الأولى وبدأوا يراقبونه وحالما سمعوه يقول للمفلوج مغفورة لك خطاياك صعقوا فمغفرة الخطايا ليست لغير الله ومن يحاول ذلك من الناس فإنما هو يتعدى على سلطان الله ويجدف عليه . وعقوبة التجديف هى الموت رجماً (لا ٢٤ : ١٦) ولكنهم لم يكونوا مستعدين أن يعلنوا اعتراضهم ، إلا أن يسوع الذى كان يعرف ماذا يجرى فى عقولهم اتخذ موقف المبادرة وتحداهم على أرضهم . إنهم يعتقدون أن المرض مرتبط بخطية ما ، فالمريض رجل خاطىء ، ولهذا فقد واجههم بالقول « أيهما أيسر أن يقال مغفورة لك خطاياك أم أن يقال قم احمل فراشك وامشى ؟ إن أى رجل يمكنه أن يقول « مغفورة لك خطاياك » فهذه جملة لا تخرج عن كونها كلمات لا يمكن أن تختبر عملياً ، أما أن يقال « قم احمل فراشك وامشى » فلها وضع آخر ولابد من البرهان العملى وإلا لظهر كذب المدعى ، ولهذا كان مضمون كلام يسوع هكذا « أنتم تظنون أن لا حق لى فى القول مغفورة لك خطاياك ولكن لاحظوا هذا » ثم نطق يسوع بكلمته وشفى المفلوج ووقع الكتبة فى الفخ الذى

نصبوه ففى عرفهم أن الرجل لا يمكن أن يشفى إلا إذا غفرت خطاياه . وها هو يشفى إذن فخطاياه قد غفرت ، إذاً فإعلان يسوع أنه يغفر الخطايا إعلان صحيح . ولهذا فقد تركهم فى اضطرابهم وفى غضبهم الشديد ، وظهر لهم أنه لابد من معالجة الأمر مع هذا الشخص المذهل وإلا لانهارت كل دياناتهم ، وبهذا كتب يسوع وثيقة موته .

إنها لحادثة صعبة ، ولكن ماذا كان يعنى يسوع بمغفرة الخطايا ؟ إنه يعنى ثلاثة أمور .

١ ـــ قد يعنى يسوع بهذا أنه يعلن غفران الله لخطايا الإنسان تماما كما فعل ناثان النبى مع داود ، فعندما جاءه وكشف له عن بشاعة خطيته ندم داود بحزن على خطيته فما كان من ناثان النبى إلا أنه أعلن له غفران الله له بقوله « والرب غفر لك خطيتك لن تموت » (٢ صموئيل ١٢ : ١ ـــ ١٣) فلم يكن ناثان هو الذى يغفر الخطايا بل كان يعلن غفران الله لداود ، هكذا فعل يسوع : إن الله هو الذى غفر خطية المفلوج ولم يعمل يسوع سوى أن أعلن له هذا الغفران . قد يكون هذا حق ولكنه تفسير غير كاف .

٢ ـــ يسوع فعل ذلك كوكيل عن الله : فهو الذى قال « الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى الدينونة كلها للابن » (يوحنا ٥ : ٢٢) فإذا كان الآب قد وكله على الدينونة فلابد أنه وكله أيضاً على غفران الخطايا . والتمثيل البشرى مع قصوره قد يوضح لنا هذه الحقيقة : فإذا وكل إنساناً آخر على كل أعماله وأعطاه السلطة أن يفعل كل شيء لأجله وباسمه فإنه يفعل ذلك لأنه يعتقد أنه يتصرف تماما كما يفعل موكله ، فكل فعل أو قول يصدر عنه فإنما يؤخذ على أنه صادر من الموكل . هكذا أمر يسوع مع الآب ، فقد وكله فى كل شيء وكل كلمة نطق بها إنما هى كلمة الله نفسه .

٣ ـــ ولكن هناك معنى آخر : فجوهر حياة يسوع يتلخص فى إظهار موقف الله الحقيقى من الناس ، وقد كانت عقيدة الناس فى الله أنه قاض عادل ولكنه جبار لا يرحم فى قضائه دائماً يطالب الإنسان ، ولكن يسوع أظهر عكس ذلك فقد أعلن أن الله أب محب شغوف بأن يغفر الخطايا . يقول لويس هندى « إنه كان يجهل والده وهو صبى صغير ولكن حادثة ما كشفت لعينيه قلب الآب حقيقة ، لقد كان يحترمه ويجله ولكنه كان يخافه ، ولكن فى يوم من أيام القيظ وكانت الرطوبة تملأ الجو ، بدأ الطفل يغمض عينيه فى الكنيسة لينام فقد داعب النوم عيونه ، ولما ثقلت أجفانه رأى ذراع أبيه يمتد إليه فخاف لأنه ظن أنه إنما أراد أن يهزه ليوقظه ، ولكن لدهشته وجده يحتضنه لكى يضعه فى وضع مريح لينام وحالا انفتح ذهنه على حب أبيه له ، الحب الذى كان يجهله هكذا فعل يسوع مع الناس . لقد أعلن لهم موقف الله منهم موقف الحب والغفران .. لقد عرف الناس الله على حقيقته فى حياة يسوع لأنه عندما جاء إليهم قال لهم هنا وفى هذه الساعة غفرت خطاياكم .

فهذه القصة هى إعلان لموقف الله ، إن يسوع يغفر الخطايا لأن الله محبة وغفور للخطايا .

دعوة الرجل المكروه من كل الناس

(مرقس ٢ : ١٣ — ١٤)

بدأ المجمع يوصد أبوابه فى وجه يسوع وبدأت الحرب بينه وبين قادة الديانة اليهودية ، وبدأ المشهد المروع الذى فيه نرى ابن الله مطروداً من بيت الله . فترك هو بدوره المجمع وذهب ليعلم على شاطىء البحيرة واتخذ من الهواء الطلق كنيسته ومن السماء الزرقاء خيمته ومن سفح الجبل منبراً له . ولكن التعليم على شاطىء البحيرة وفى الهواء الطلق لم يكن بدعة فى تلك الأيام فما أكثر ما كان يرى المعلم اليهودى وهو يسير ووراءه تلاميذه يسمعون كلامه ويتعلمون منه ، وهكذا بدأ يفعل يسوع كأى واحد منهم .

أما مقاطعة الجليل فقد كانت مركزا مهماً للمواصلات ، وقديماً كان يقال « اليهودية مغلقة عن العالم أما الجليل فهى باب مفتوح على كل العالم » وحيث أن فلسطين كانت حلقة الوصل بين أفريقيا وأوربا فقد كانت تمر بها طرق كثيرة ومهمة ، فهناك طريق البحر ، وقد كان من أعظم طرق العالم ، كان يبدأ من دمشق ماراً بقلب الجليل إلى كفرناحوم ثم جبل الكرمل فوادى شارون وغزه وينتهى فى مصر ، أما الطريق الثانى فيبدأ من عكا على ساحل البحر المتوسط ثم يتجه إلى عبر الأردن ويسير إلى صحراء العربية وينتهى حتى آخر حدود الإمبراطورية وقد كان طريقا تجارياً وحربياً فى ذات الوقت .

أما من الناحية السياسية فقد كانت فلسطين مقسمة إلى دويلات صغيرة . اليهودية وكانت ولاية رومانية يحكمها حكام رومانيون ، والجليل كانت تحت سيطرة هيرودس انتيباس بن هيرودس الكبير ، أما شرق الأردن فكان يحكمه فيلبس الابن الثانى لهيرودس ، وكانت مدينة كفرناحوم على الحدود ما بين شرق الأردن ومملكة الجليل ولهذا فقد كانت مركزاً للجمارك ، ولما كانت هذه الجمارك تفرض على الصادرات والواردات فلابد أن المدينة كانت مملوءة بجباة الضرائب ، فى تلك المدينة كان يعمل متى العشار . ومع أن متى كان يعمل لحساب هيرودس ولم يكن كزكا الذى خدم الرومانيين إلا أنه كان مكروها للغاية .

وقصة دعوة المسيح لمتى تعطينا فكرة واضحة عن شخصية متى ويسوع .

١ — كان متى رجلا مكروها لأن جباة الضرائب لم يعترف بهم المجتمع بل كان ينبذهم ولقد استغلوا هم بدورهم جهل الناس بالقوانين ومشكلات الضرائب وحاولوا أن يأخذوا منهم ما يستطيعون أخذه ، ودفعوا المبالغ المقررة للحكومة ثم حفظوا الباقى لأنفسهم ، وكانوا لذلك ممقوتين ليس من اليهود فقط بل من اليونانيين أيضاً فيضعهم لوسيون أحد كتابهم فى قائمة الزناة الغشاشين الفاسدين ولكن يسوع أحبهم ودعا الرجل المنبوذ من الجمع ، ولقد وهب صداقته للشخص الذى كرهه كل المجتمع .

٢ — ولابد أن متى كان فى ذلك الوقت يعانى عذاباً خفياً هو عذاب الضمير ، فمن المؤكد

أنه سمع عن يسوع ، فذهب مع الذاهبين إليه ووقف ينصت إليه ، ولابد أن كلمات يسوع القوية اخترقت الحجب إلى أعماق قلبه وبدأ يرى بشاعة نفسه وحالته وعمله فبدأ يكره نفسه ، ولكن إلى من يذهب ؟ إلى رجال الدين فى عصره ؟ هذا مستحيل لأنهم لا يقبلونه لأنه نجس فى أعينهم ولا يستطيع أن يقابلهم ، فماذا يعمل ؟ يخبرنا هوك ردوود عن حالة كهذه حدثت فى لندن فيقول إن امرأة سيئة السيرة من أحياء لندن الفقيرة كانت تعيش مع رجل صينى ليس بزوجها ولها منه طفل غير شرعى . حضرت هذه المرأة يوما ما إلى أحد الاجتماعات الدينية ، ولما وجدت فى نفسها ميلا إلى الحضور أخذت تتردد على هذا الاجتماع . ولكن جاءها واعظ الاجتماع فقال لها « سيدتى يؤسفنى أن أطلب منك ألا تحضرى هذا الاجتماع مرة أخرى ، فالسيدات هنا هددن بالانقطاع عن الحضور إذا حضرت هنا مرة أخرى » ، وهنا حملقت المسكينة فى وجهه وقالت له : « سيدى إذن أين تذهب خاطئة مثلى ؟ » ولكن لحسن الحظ وجدها جيش الخلاص وقادها إلى المخلص . هذا بالضبط ما حدث مع متى فقد ظل منبوذاً إلى أن التقى به من جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك .

٣ — وتكشف هذه القصة جانباً من حياة يسوع ، فلقد دعا متى عندما كان سائراً على شاطىء البحيرة ، بمعنى أنه فى سيره العادى لمح الفرصة مواتية للخدمة فانتهزها فى الحال ، كما قال أحد العلماء « حتى فى سيره لم يكف عن الخدمة » إنه كان دائم الاستعداد ، كم يكون الحصاد وفيراً لو كنا نبحث عن أناس للمسيح أثناء سيرنا فى الشوارع المزدحمة بالناس ؟

٤ — ولهذا السبب ضحى متى أكثر من أى تلميذ آخر ، لقد ترك كل شىء بأعمق ما يحمله هذا التعبير من معنى . لقد كان سهلاً على بطرس ويعقوب ويوحنا أن يرجعوا إلى عملهم ، فالسفينة والشبكة والبحيرة موجودة ، أما متى فكان كمن حرق كل سفنه وحطم الكبارى من ورائه لكى لا يرجع إلى الوراء ، حدث هذا فى لحظة تصميم حاسمة ، ترك عمله وكان من المحال أن يرجع إليه مرة أخرى . يقول أحد مشاهير الرجال وكان قد اعتاد أن يقطع مسافات طويلة سيراً على الأقدام ، إنه عندما كان يصادف مجرى من المياه صعب العبور لا يتوقف للتفكير بل كان يخلع سترته فى الحال ويلقى بها إلى الجانب الآخر من المجرى وبذلك يضمن لنفسه عدم التردد فى عبوره . هذه أعمال عظيمة تحتاج إلى عزائم حاسمة ، هكذا فعل متى .. ترك كل شىء والتصق بيسوع .. ولم يكن متى مخطئاً فى عمله هذا .

٥ — ولم يخسر متى بل كسب الكثير ، على الأقل ربح ثلاثة أشياء :

(أ) ربح يدين نظيفتين ، وكان فى إمكانه أن يواجه العالم بكل شجاعة وجرأة . نعم لقد فقد الكثير من كماليات الحياة وملذاتها ، وأضحت المعيشة صعبة المنال ، ولكنه مع ذلك صار نظيف اليدين ، ومتى تطهرت اليدان تطهر العقل .

(ب) فقد عمله ولكنه ربح عملا أعظم وأمجد . قيل عنه أنه ترك كل شىء ما عدا شيئاً واحداً ، قلمه . يعتقد كثير من العلماء أن متى لم يكتب كل الإنجيل الأول المسمى باسمه « إنجيل متى » ولكنه كتب أهم جزء فيه وهو تعاليم يسوع ، فأسلوبه المنظم وعقله الرياضى المرتب ساعداه على جمع تعاليم يسوع فى مجموعات جميلة تعتبر أمجد ما كتب إنسان ، هذه المجموعات يتضمنها إنجيل

متى ، وبذلك يصبح متى أول من قدم للبشرية كتابا عن يسوع .

(ج) أما الشيء العجيب حقا فهو أن قراره الحاسم فى اتباع يسوع أعطاه ما كان يصبو إليه قبلا ، أعطاه شهرة لم يكن يحلم بها ، فكل البشرية تعرف الآن متى الذى اقترن اسمه بقصة حياة يسوع ، فلو رفض الدعوة لعاش مغموراً بغيضا كريها ، ولكنه سمع وأطاع فأعطاه الله الشهرة الكاملة .. إن الله يعطينا أكثر جداً مما نظن ونعتقد .

حيث الحاجة أكبر

(مرقس ٢ : ١٥ — ١٧)

ويستمر يسوع فى خروجه عن القانون فى نظر جماعة المتزمتين ، فعندما دعا يسوع متى ، عمل له هذا فى بيته وليمة عظيمة ، ولم يقتصر على ذلك بل أراد أن يشارك الآخرين الفرحة التى وجدها عندما وجد مخلصه ، فدعا زملاءه فى العمل إلى هذه الوليمة . طبعاً لم يجرؤ أن يدعو واحدا من أشراف مجتمعه كالفريسيين فذلك من المحال . وجاءت هذه الزمرة المنبوذة المكروهة وقبلها يسوع فى صحبته وقبل هو أن يكون معهم . وهنا يكمن الاختلاف الأعظم بين يسوع ورجال الدين فى عصره . فلم يكن فى جماعة الفريسيين والكتبة مكان لخاطيء ولم يكن يجرؤ واحد من الخطاة أن يواجه نظرة الازدراء والاحتقار لو وجد فى هذه الجماعة . فوجود شخص كهذا يتزلزل له الكيان الفريسى . ففى فلسطين انقسم المجتمع إلى طبقتين : طبقة الناموسيين وهم الذين يهتمون بالناموس ويحفظونه ، وطبقة أخرى مغايرة اسمها « شعب الأرض » وهم جماعة العوام الذين لم يعيروا للدين أو الناموس أى اهتمام ، وكان محظوراً على الطبقة الأولى أنه تتعامل مع الثانية ولا خلطة ولا صداقة ولا حديث ولا رفقة سفر ولا شركة عمل بينهم ، وقد كان يسهل على الواحد منهم أن يلقى بابنته إلى الوحوش على أن يزوجها لواحد منهم ، وكان من المستحيل أن تجد أحد أفراد الطبقتين فى بيت من بيوت أفراد الطبقة الثانية ، وعلى هذا فقد حطم يسوع بذهابه إلى بيت متى وجلوسه مع العشارين والخطاة كل تقاليد مجتمعه وعاداته .

ولكن ينبغى ألا يتبادر إلى الذهن أن كل « شعب الأرض » هؤلاء هم جماعة من فاسدى الأخلاق لأنهم خطاة . فكلمة خاطيء تعنى أحد شخصين : إما الشخص الذى يكسر القوانين الأخلاقية ، وإما الشخص الذى لا يتمم الطقوس الدينية . فقد وضع المجتمع الشخص الذى يأكل لحم الخنزير فى مصاف الشخص الزانى ، ومن لا يغسل يديه بالطريقة الطقسية فى نفس المستوى الذى يضع فيه من يمد يده للسرقة والقتل . وضيوف متى الذين دعاهم إلى وليمته التى عملها ليسوع كان خليطا من النوعين ، نوع منهم خاطيء لأن سلوكه الأخلاقى كان شائنا ، أما النوع الثانى فكان خاطئا لأنه لم يكن يتمم تقاليد الكتبة والفريسيين .

وعندما ألقوا فى وجه يسوع بتهمة مخالطة العشارين والخطاة ، كان جوابه عليهم بسيطا ومفحما ، لقد قال « إن الطبيب عادة يذهب إلى مكان المرضى حيث تكون الحاجة إليه ، فالأصحاء لا

يحتاجونه ، هكذا أفعل أنا ، إذ أذهب إلى الجماعة التى تحتاج إلى » . وقد ذكر يسوع جوابه هذا فى كلمات مركزة « ع ١٧ » فجعل البعض يخطئون فهمه فيظنون أن يسوع قصر عمله على ذوى السمعة الرديئة ، ولكن هذا خطأ ، إن معنى كلام يسوع هو أن الشخص الذى يظن فى نفسه الصلاح والبر هو شخص فقد الإحساس بالحاجة ولهذا فهو يضع الحواجز بينه وبين يسوع ، أما الشخص الذى يشعر بأنه قد أخطأ وسقط فهو الشخص الذى يحس بحاجته إلى الطبيب الشافى الذى يعالجه ، ومن هو طبيبه سوى يسوع ؟

ويستطيع الدارس أن يستشف موقف اليهودى المتزمت من الخطاة فهو موقف :

١ — يتسم بالاحتقار :

يقول الربيون « إن الجاهل لا يمكن أن يكون تقيا » حتى الفلسفة اليونانية لم تخل من هذا التحقير فقد روى عن هيروقليطس الفيلسوف اليونانى الارستقراطى أنه قال لأحدهم عندما حاول أن يضع محاوراته فى كتاب حتى يستطيع العوام أن يقرأوها ويفهموها « أنا هيروقليطس فلماذا تجذبوننى هنا وهناك أيها العاميون ؟ إننى لم أتعب لأجلكم ، لقد تعبت لمن يفهمنى فقط ، إن واحدا منهم يساوى ثلاثين ألفا منكم ، ولكن ألوفكم الكثيرة لا تستطيع أن تعمل شخصاً واحداً يفهمنى » هكذا اتفقت الفلسفة اليونانية مع الشرائع اليهودية فى تحقير الرجل العامى أما يسوع فقد جاء إليهم وجلس بجوارهم لكى يرفعهم إليه .

٢ — يتسم بالخوف :

لقد خشى الكتبة والفريسيون أن يجلسوا إلى هؤلاء الخطاة لئلا تصيبهم عدواهم ونجاستهم ، مثلهم فى ذلك مثل الطبيب الذى يخاف أن يقترب من المريض فتصيبه العدوى ، أما يسوع فقد نسى نفسه فى سبيل خدمة الغير . وقد أوحى موقفه هذا إلى شخص مثل س . ت شود المرسل العظيم أن يقول :

« بعض الناس يحبون أن يعيشوا قرب أجراس الكنائس والمعابد أما أنا فأريد أن أجرى بعيداً ولو إلى الجحيم لأنقذ خروفاً » .

إن الرجل الذى يحمل فى قلبه الحقد والخوف من الآخرين لا يستطيع أن يكون صياداً للناس .

الزمرة السعيدة

(مرقس ٢ : ١٨ — ٢٠)

كان الصوم عادة متأصلة فى كل يهودى مدقق . نعم لم يكن هناك صوم إجبارى فى الديانة اليهودية سوى يوم الكفارة العظيم حينما كانت الأمة كلها تصوم معترفة بخطاياها وشرورها ، لكن اليهودى المدقق كان يصوم يومين فى كل أسبوع (الاثنين والخميس) ، وكان صومه يبدأ من السادسة صباحاً إلى السادسة مساءاً وبعدها يأكل أى طعام يريده .

لم يعارض يسوع الصوم ، فالصوم فى ذاته عمل مستحسن إن كان الهدف منه ساميا . كأن يدرب الإنسان نفسه على الحرمان من طعام محبوب فلا يستعبد له ولا يطيش عقله لو فقده إلى الأبد ، أو أن يقدر عطية الله المشتهاه بعد أن يحرم بعض الوقت . فمحبة الإنسان لبيته تزداد بعد أن يغيب عنه مدة من الزمن . هذه أغراض سامية للصوم ، مدعاة لإنكار النفس . لكن الأمر مع الفريسيين كان على النقيض من ذلك ، لأنهم اتخذوا من الصوم شعاراً للاستعلاء وجذب الانتباه ، إذ كان الصائم يغفل غسل وجهه ودهن رأسه ثم يلبس المسوح وبذلك يظهر للناس صائماً فيمدحونه ، ولكنه لم يكن يكتفي بمدح الناس بل كان يحاول أن يجذب انتباه الله أيضاً . وأقبح الصوم هو ما كان يهدف إلى الرياء أو أن يكون إتماماً لفريضة لا نابعاً من القلب والإحساس بالحاجة .

ولقد اشتكى اليهود من كسر تلاميذ يسوع لهذا التقليد ، فرد عليهم هو كعادته بتشبيه جميل هو تشبيه بنى العرس ، فلم يكن من عادة العروسين اليهوديين أن يقضيا شهر العسل بعيداً عن المنزل كما يفعل عرائس هذا العصر ، بل كان الأسبوع الأول الذى يلى الزفاف مباشرة أسبوع العمر كله إذ كانو لا يدخرون وسعا فى ملئه بالسعادة والفرح .. تقام فيه الولائم .. وتستمر الزينات ويدعى الأصدقاء المقربون ليشاركوا العروسين فرحتهما فكان يطلق عليهم لقب « بنو العرس » وكانت التقاليد تعفيهم من كل فريضة تقلل من بهجة أفراحهم مثل الصوم مثلا . ولقد أطلق يسوع على تلاميذه هذا اللقب « بنو العرس » وبهذا رسم لنا طبيعة الحياة المسيحية الحقيقية .. إنها حياة الفرح وهل هناك أدعى إلى الفرح من اللقاء بيسوع والسير معه ؟ هناك قصة تروى عن شخص يابانى اسمه توكنشى إيشى . كان مجرماً شريراً لم يعرف قلبه الرحمة .. وكم تلطخت يداه بدماء أبرياء كثيرين من رجال ونساء وأطفال ، قبض عليه يوما ما وأودع السجن ، وفيما هو هناك زارته اثنتان من السيدات الكنديات وحاولتا أن تكلماه ولكنه لم ينطق بحرف واحد بل كان ينظر إليهما نظرات قاسية مرعبة ، فتركتاه بعد أن تركتا معه نسخة من الكتاب المقدس مع أمل ضعيف فى أن يقرأ شيئاً فيه . لكن شيئاً ما شغله وبدأ يقرأ أصحاحات فى الأناجيل وحالما وصل إلى قصة الصلب انفتح قلبه وعرف مخلصه . وحينما جاء السجان ليقوده إلى خشبة الإعدام لم يجده أمامه ذلك الوجه الصارم القاسى بل وجد وجها تعلوه الابتسامة والبهجة فاندهش ، نعم لأنه لم يعلم أن إيشى قد نال الولادة الجديدة واختبر الفرح الحقيقى الذى هو ثمرة الحياة المسيحية .

ولكن القصة تنتهى والغيوم تلبد الجو إذ يقول « حين يرفع العريس عنهم » إنه لم يحدد قوله ولكنه كان يرى أمامه الموت .. كان يرى الصليب فلم يخف ولم يحد عن الطريق بل سار إلى مصيره المحتوم بكل جرأة وشجاعة خليقين بكل إعجاب .

ضرورة الاحتفاظ بشباب العقل

(مرقس ٢ : ٢١ و ٢٢)

كان يسوع يعرف أن رسالته جديدة وأن سلوكه الإجتماعى يختلف عن سلوك أولئك اليهود المتزمتين المتمسكين بأهداب التقاليد ، وكان يعرف أيضاً طبيعة الناس المتشككة المترددة إزاء كل

حق جديد ، وهو لهذا يطلب من صاحب أى رسالة جديدة أن يكون له العقل الراجح والعزيمة الماضية .

ولم يكن هناك من يضارعه فى استخدام التشبيهات المنزلية فمن خلال الأعمال والأشياء البسيطة يستطيع أن ينفذ بالسامع إلى الله ، فيقوده من الأشياء التى ترى إلى التى لا ترى ، فالأرض أمامه مملوءة بالسماء ، وعلاقته بالآب كانت هكذا وثيقة حتى أنه رآه فى كل شيء ومن خلال كل عمل . يذكر أحدهم عن أحد الوعاظ الاسكتلنديين الأتقياء أنه كثيراً ما رافقه فى نزهات خلوية طويلة ، كانا يقضيان الوقت فى أحاديث مختلفة ، ويقول هذا الرجل إن هذا الواعظ كانت له المقدرة الفذة فى أن يحول كل حديث مهما كان اتجاهه وهدفه إلى الله . هكذا كان يسوع أينما كانت عيناه تنظران كان يرى الله هناك .

١ ـــ لقد تكلم عن خطورة وضع رقعة جديدة فى ثوب عتيق . إن الكلمة التى يستخدمها تعنى أن قطعة القماش التى تستخدم كرقعة كانت جديدة لم تستعمل من قبل فعندما تحاك فى الثوب العتيق ثم بعد ذلك تبتل بالماء فإنها تتقلص فتقطع « الملء » ويصير الخرق أردأ . هكذا قد يأتى الوقت حينما يفوت أوان الترقيع ولا يبقى هناك مفر من عملية خلق جديدة . ففى القرون الوسطى شعر لوثر أن الترقيع لم يعد ينفع فى إصلاح مفاسد الكنيسة الكاثوليكية فلا أقل من الإصلاح الكامل ، وكان الحال كذلك مع جون وسلى فى إنجلترا عندما حاول إصلاح كنيسة إنجلترا من الداخل دون أن يتركها ولكنه لم يستطع واضطر إلى تركها وتأسيس جماعة جديدة أمينة . وهناك أمثلة أخرى كثيرة تبين أن الترقيع لا ينفع فى كثير من الأحيان .

٢ ـــ أما التشبيه الثانى فهو تشبيه الخمر والزقاق . ففى فلسطين لم يعرف الناس الأوانى الزجاجية لحفظ الخمر ، بل كانوا يستخدمون لهذا الغرض أزقة من الجلد . وكلما كان الزقاق جديداً كان جلده أكثر مرونة فيتحمل ضغط الغازات الناتجة من الخمور المتخمرة المحفوظة فيه ، ولكن عندما يأخذ فى القدم فإن الجلد ييبس ويصبح أقل مرونة فينفجر من ضغط الخمر . وهكذا يطلب يسوع مرونة الذهن فى تقبل الحقائق الروحية . يذكر ج . افندلى اقتباساً عن أحد أصدقائه هذه العبارة « إذا وصل الإنسان إلى نتيجة محددة لا يحيد عنها .. مات » بمعنى أن العقل عندما يثبت على طريقة محددة وفى مكان محدد ويصبح ولا طاقة له ولا قابلية لتقبل الحقائق الجديدة فإنه يموت . ويظهر ذلك فى وضوح عندما تتقدم السن بالناس فإن تفكيرهم يتوقف عند حقائق معينة وبذا ينفرون من كل جديد ، وهكذا تجف حياة الناس وتعجز عن تقبل الحقائق الجديدة . يذكر ليزلى نيوبجن إنه عندما كانوا يبحثون مسألة تكوين كنيسة جنوب الهند المتحدة كان السؤال المتكرر دائماً هو « ولكن إلى أين نحن ذاهبون ؟ » وفى آخر المطاف وقف أحدهم يرد على هذا القول بكل جرأة وصراحة فقال « إن المسيحى يجب ألا يسأل إلى أين يذهب ، فابراهيم خرج وأطاع وهو لا يعلم إلى أين يذهب ، ويعقوب ذلك الرجل العجوز عندما كان على فراش موته بارك حفيده وبعدئذ سجد على رأس عصاه ، وهذه العصا هى وسيلة الترحال حتى فى فراش الموت كان يعقوب مستعداً أن يذهب إلى آفاق جديدة » .

التقوى الحقيقية والمزيفة

(مرقس ٢ : ٢٣ ــ ٢٨)

مرة أخرى يصطدم يسوع بتقاليد الكتبة والفريسيين . ففى أحد السبوت كان يسير مع تلاميذه ، وكان التلاميذ يقطفون سنابل القمح . كان هذا العمل عادياً فى كل يوم ما داموا لا يستخدمون المنجل (خروج ٢٣ : ٢٤) ، ولكن إذا حدث ذلك فى يوم السبت فإن الوضع يختلف ، فلقد عمل الفريسيون قائمة بالأعمال التى يحرم على اليهودى القيام بها فى يوم السبت وكانت ٣٩ عملا ومن ضمنها الحصاد والدرس والتدرية وعمل الخبز ، وهذا ما فعله تلاميذ المسيح قطفوا السنابل وأخرجوا منها القمح واستخدموها كطعام ، إن هذا تفكير سقيم بالنسبة لنا ، أما لليهود فقد كان هذا العمل هو الخطية المميتة .

وحالما رأى الفريسيون ذلك هاجموا المسيح وتلاميذه ، وقد كان من المنتظر أن يوقف يسوع تلاميذه عن هذا العمل ، ولكنه لم يفعل ، بل جاوبهم بنفس طريقتهم ، فذكر لهم قصة داود عندما كان هاربا من الموت وكان جائعاً هو ومن معه ، فعرج على خيمة الاجتماع ودخل يطلب خبزاً ولكنه لم يجد سوى خبز الوجوه الذى كان يقدم كتقدمة للرب على مائدة مذهبة طولها ٣ أقدام وإرتفاعها قدم ونصف وعرضها نصف قدم وتوضع أمام الحجاب الذى يفصل قدس الأقداس عن القدس وكان خبز الوجوه يوضع أسبوعا ثم يستبدل بغيره ولا يجوز لغير الكهنة أكل هذه الخبزات المستبدلة ، ولكن داود تناول من هذا الخبز وأكل ، إنها الحاجة الملحة . وبهذا أظهر يسوع أن الأسفار المقدسة تعلن أن الحاجة البشرية لها الأهمية الأولى فى نظر الله أكثر من أى شريعة حتى ولو كانت شريعة إلهية .

قال السيد « السبت إنما جعل للإنسان لا الإنسان للسبت » وهذا أمر بديهى إذ قد خلق الإنسان قبل شريعة السبت ، ولهذا فلم يخلق السبت ليستعبد الإنسان ويجعل منه عبداً لنواهٍ وأوامر كثيرة بل خلق لكى يضفى على حياته بهجة وعمقاً روحياً .

وتعطينا هذه القصة دروساً كثيراً ما ننساها :

١ ــ إن المسيحية ليست ديانة نواه وشرائع وتقاليد . فيوم الأحد هو يوم مسيحى مقدس ولكنه ليس كل شيء فى المسيحية ، فمن يظن أن المسيحية ليست سوى التدقيق فى حفظ يوم الأحد وعدم القيام بأعمال دنيوية فيه بل بالعبادة واجتماعات الكنيسة والصلاة وقراءة الكلمة .. من يظن ذلك فهو يفكر فى مسيحية سهلة ، فعندما يغمض الإنسان عينيه عن الحق والرحمة والمحبة للآخرين ويستبدل كل هذه ببعض الأعمال الطقسية فإنه لا يعرف شيئاً عن الديانة . فالمسيحية اشتهرت فى كل العصور بأنها الديانة التى تعمل الكثير لا التى تحرم الكثير .

٢ ــ إن الحاجة البشرية تعتبر فوق كل حاجة أخرى وكل إقرارات الإيمان تؤكد هذا الحق وتعتبر أن الاهتمام بحاجة البشر واجب مشروع كل يوم حتى يوم الأحد . ولو وقفت الشعائر الدينية عقبة

فى سبيل معونة إنسان محتاج لكانت شعائر خاوية غير نافعة ، فالإنسان أهم من الطقوس . ومحبة الله تظهر جليا فى محبة الأخوة .

٣ ــ إن أفضل طريقة لاستخدام الأشياء المقدسة وإظهار قصد الله فيها هو استخدامها فى مساعدة الإنسان . ولإيضاح ذلك يمكن أن نذكر هنا القصة الرائعة التى تسمى « المجوس الرابع » وتقول القصة إن أربعة من المجوس تعاهدوا أن يتقابلوا فى مكان ما فى الصحراء لكى يقودوا قافلة كبيرة ويذهبوا ليسجدوا للملك المولود كما يرشدهم النجم الذى ظهر فى المشرق . وكان المجوس هم كسربر ، ملكيور ، بلتاسر ، وأرثابان . لقد جهز هذا المجوسى الرابع أرثابان هديته التى كان سيقدمها للملك وهى عبارة عن ثلاثة جواهر : ياقوتة زرقاء وأخرى حمراء وجوهرة تفوق كل ثمن . وذهب ليقابل أصدقاءه الثلاثة فى الصحراء ، وقد بقى على وقت الرحلة وقت قصير . ولكنه فى طريقه رأى شبحا ملقى على الأرض فتقدم منه فوجده سائحاً غريباً يئن من الحمى ، واحتار أرثابان هل يبقى لمساعدة الرجل ؟ لعله لا يدرك القافلة بعد ذلك فوقت الرحيل قد أزف ، ولكنه فضل أن يبقى ليعين هذا المسكين ، وبقى معه حتى شفى ، ثم أسرع لمقابلة القافلة ولكن بعد فوات الأوان ، فاضطر أن يستأجر جمالا ومرشدين واحتاج للمال واضطر أن يبيع الياقوتة الزرقاء وهو حزين لإنه لا يستطيع أن يقدمها للملك ، ثم سافر إلى فلسطين ولكنه وصل إلى هناك بعد أن كان الصبى يسوع قد هرب مع أبويه إلى مصر خوفا من هيرودس ، فاضطر أن يلجأ إلى بيت ليقيم فيه وهناك شاهد المذبحة القاسية التى قتل فيها جنود هيرودس الأطفال الأبرياء . وكان فى البيت الذى لجأ إليه طفل عزيز على والديه ، ورأى أرثابان الفزع والخوف الذى يملأ البيت كلما اقترب الجنود منه ففكر أن يعمل عملا فقام لتوه ووقف على الباب حتى جاء الجنود فأعطاهم الياقوتة الحمراء ورجاهم أن يتركوا هذا البيت ففعلوا ونجا الطفل من القتل ورجع الفرح الطاغى إلى هذه الأسرة وفرح أرثابان معهم . ثم مضى يتجول سنين طويلة يبحث عن الملك إلى أن رجع إلى أورشليم بعد أكثر من ثلاثين سنة . وكان يوم صلب المسيح ، وأحس أن دافعا يدفعه إلى الجلجثة . لعله يجد الملك هناك فيقدم له جوهرته الثمينة ، ولكنه فى طريقه صادف فتاة تسابق الريح محاولة الهرب من جماعة العسكر الذين جروا وراءها ليقبضوا عليها ، وعرف أن أباها غارق فى الديون وأن صاحب الدين أراد أن يأخذ الفتاة جارية عنده وفاءً لهذا الدين ، وصرخت الفتاة فيه « أنقذنى .. أرجوك » وتردد أرثابان كثيراً ولكنه عزم أخيراً وأخرج الجوهرة وأعطاها للجنود وأنقذ الفتاة . وفجأة اظلم الجو وحدثت زلزلة مروعة وتطايرت قطع من الأحجار وأصابت إحداها رأس أرثابان فسقط مغشيا عليه فحملته الفتاة على حجرها . وبعد مدة تحركت شفتاه وسمعته يقول : « لا لا ياسيدى ــ متى رأيتك جائعاً فأطعمتك ؟ أو عطشانا فسقيتك ؟ متى رأيتك غريباً فآويتك أو عريانا فكسوتك ؟ متى رأيتك مريضاً أو مسجونا فجئت إليك ؟ ثلاثين سنة وأنا أفتش عليك ولكنى لم أجدك ولم أر وجهك ولم أقدم لك خدمة واحدة ؟ » ولكن جاءه صوت هامس من بعيد فى نبرة عذبة يقول « الحق أقول لك بما أنك فعلت بأحد إخوتى هؤلاء الأصاغر فبى قد فعلت ، وظهرت ابتسامة جميلة على الوجه المنطلق إلى السماء لأنه عرف مليكه ولأنه قبل هداياه .

إن أمجد طريقة لاستخدام الأشياء المقدسة هى أن نخدم بها الآخرين . لقد أوصد الناس يوما

ما الكنيسة فى وجه الأطفال لأنهم ظنوها أقدس من أن تهتم بهم فيكفيها أن تقوم بعباداتها وخدماتها الأخرى ، ولكن الأشياء تكون مقدسة حقيقة عندما تسد احتياجات الناس . فخبز الوجوه لن يكون مقدساً إلا عندما يشبع رجلاً يموت من الجوع ، ويوم السبت لا يقدس إلا إذا امتلأ بخدمة المحتاجين المعوزين ، إن الحكم الفيصل فى كل ذلك هو المحبة وليس الناموس .

الأصحاح الثالث

تصارع الأفكار

(مرقس ٣ : ١ ــ ٦)

تعتبر هذه الحادثة نقطة حاسمة فى حياة يسوع وإرساليته . فقد كان من المنتظر أن يحجم يسوع عن الذهاب إلى المجمع بعد أن بدأ الصراع بينه وبين رؤساء المجمع يأخذ طابع العلنية ، ولكنه كان رجلاً شجاعا لا يهرب من المواقف الحرجة ، ولهذا ذهب إلى المجمع حيث وجد سفارة من السنهدريم جاءت خصيصاً لكى تراقبه وتحكم على تصرفاته وتعاليمه . ويلوح أن السنهدريم سمع عن يسوع وأعماله فرأى أعضاؤه ــ وهم الأوصياء على معتقدات الناس وحماة الناموس ــ أن يرسلوا هذه السفارة . فجاءت وجلس أعضاؤها فى المقاعد الأولى . لم يكن همهم الأول هو العبادة بل مراقبة أعمال يسوع وأقواله .

وقد حدث أنه كان فى تلك الساعة فى المجمع رجل يده يابسة . ويؤخذ من النص اليونانى أن الرجل لم يولد هكذا بل إن حادثة ما شلت ذراعه . ويذكر إنجيل العبرانيين (وهو كتاب مفقود ما عدا أجزاء بسيطة منه) أن هذا الرجل كان يعمل فى نحت الأحجار ولهذا فقد كان عمله يتوقف على سلامة يديه ، فلما عجز عن العمل وخجل من الاستجداء جاء إلى يسوع طالبا منه المعونة . وكان فى استطاعة يسوع أن يتجاهله وألا ينظر إلى ناحيته ، ولكن الموقف لم يكن يتطلب الدبلوماسية الملتوية ، ولم يكن هو بالرجل الذى يغمض عينيه فى هذه المواقف فعزم على أن يعاون هذا المحتاج مهما كانت المتاعب .

وبالطبع كان اليوم يوم سبت حيث يحرم فيه كل عمل بما فى ذلك علاج المرضى . وكان الناموس صريحا وقاطعا فى ذلك . ولم يكن يسمح بأية عناية طبية إلا لمن هم فى خطر الموت : كإمرأة تضع طفلا أو شخص أصيب بالدفتريا ، وحتى إذا سقط حائط على شخص فيمكن أن تزال الأنقاض من فوقه فإن وجد حيا أسعف حتى لا يموت ولكن إن وجد ميتا فتترك جثته مكانها إلى أن ينقضى يوم السبت . وإذا حدث وكسرت ذراع شخص فى يوم السبت فيتركها بدون علاج إلى اليوم الثانى ، وإن قطعت إصبعه فيربط الجرح بدون تضميد ، ومعنى ذلك كله أنهم يحاولون فقط حفظ الحياة من الموت بعلاجات بسيطة . وقد يصعب على ذهن الإنسان العصرى أن يصدق ذلك فعليه أن يرجع إلى التاريخ ، وخاصة ما دونه يوسيفوس ، المؤرخ اليهودى المشهور ليعرف صحة ذلك . فهو يصف كيف كان يتصرف المحاربون القدامى فى يوم السبت ، فيذكر عنهم أن الثوار فى بدء حركة المكابيين امتنعوا عن أن يحاربوا يوم السبت وحاصرهم الجيش السورى فدخلوا إلى الكهوف ، وطلب منهم قائد الجيش أن يستسلموا ولكنهم رفضوا فما كان منه إلا أن أحرقهم داخل كهوفهم ومكثوا ساكتين يحترقون بالنار دون أن يفعلوا شيئاً لأنه كان يوم سبت ولا يمكنهم أن يكسروه . ومرة أخرى استغل هذه العقيدة القائد الرومانى بومباى فى حصاره لأورشليم ، فقد كان يبنى قلعة

عالية بجوار الهيكل ، ولم يمكن أن يبنيها إلا فى يوم السبت حين وقف اليهود مكتوفين لا يعملون شيئاً فأهلك منهم بومباى الكثيرين لأجل ذلك . من هذا نرى أن موقف اليهودى يوم السبت كان متزمتا لا يتسم بأى شيء من المرونة .

وكان يسوع يعلم ذلك ، وكان يعلم — إلى جانب ذلك — أن حياة هذا الرجل لم تكن فى خطر وكان يمكن أن ينتظر يوما آخر دون أن يحدث له أى ضرر ، ومع ذلك فقد كان يسوع يريد أن يواجه الموقف بكل صراحة ، فطلب من الرجل أن يقف ، فوقف ورآه الجميع ، ولعل يسوع كان يقصد أن يراه الحاضرون فيشعروا بتعاسته وتتولد فى قلوبهم الرحمة والشفقة على الغير ، بل لعله أراد أن يشفيه أمام الكل فيشهد جميع الحاضرين على هذا العمل ؛ ولهذا بدأ عمله بأن سأل العارفين سؤالين متتاليين : الأول « هل يحل فى السبت فعل الخير أو فعل الشر ؟ » وبهذا وضعهم فى حيرة : هل يمكنهم أن ينكروا جواز فعل الخير فى السبت ؟ وهل يمكنهم أن يجيزوا فعل الشر فيه ؟ وماذا كان سيفعل يسوع ؟ أليس من الخير ألا يترك رجلا فى تعاسته هذه بل أن يقبل إلى معونته ويشفى يده ؟ ثم كان السؤال الثانى « تخليص نفس أو قتل ؟ » وبهذا السؤال أصاب سهمه كبدهم ، فقد كان يفكر هو فى إنقاذ هذا الرجل ، أما هم فلم يفكروا إلا فى قتله هو ، فأيهما يفعل الخير يوم السبت ! هو أم هم ؟ وعجزوا عن الجواب ، وعندئذ خرجت منه كلمة القوة وشفى الرجل ، فخرج الفريسيون واتفقوا مع الهيرودسيين فى تدبير مؤامرة لقتله .

وهذا يبين المدى الذى قد يذهب إليه الفريسى فى كراهيته . ففى الظروف الطبيعية كان يعامل الهيرودسيين على أنهم نجسون لا يحل له أن يتعامل معهم لأنهم خونة يعملون فى بلاط ملك نجس ويتعاملون مع الرومانيين . ولكن فى سبيل تنفيذ مؤامرة ضد يسوع فإنه — أى الفريسى — يتفق مع هؤلاء النجسين ليساعدوه على ذلك . ما أقسى الكراهية التى لا تتوقف عند أى اعتبار مهما كان .

وأهمية هذه الحادثة تظهر فى إظهار الصراع بين الأفكار الدينية المختلفة : —

١ — فالديانة فى عرف الفريسى هى القيام بأعمال طقسية من فرائض وشرائع ، فعندما كسر يسوع إحدى هذه الشرائع حكموا عليه بأنه رجل شرير . مثلهم فى ذلك مثل الإنسان الذى يظن أن الديانة لا تزيد عن الذهاب إلى الكنيسة وقراءة الكتاب المقدس والصلاة على الطعام وممارسة الصلاة العائلية والقيام بكل الأعمال الظاهرية التى يعتبرها الناس من صلب الديانة ، ولكنه مع ذلك لا يخدم أخا ولا يحمل للآخرين ذرة عطف تدفعه إلى بعض التضحية من أجلهم . شخص كهذا يخفى نفسه فى تزمته وتمسكه العقيم بظواهر ديانته بينما يسد أذنيه عن صوت الحاجة البشرية .

٢ — أما الديانة فى مفهوم يسوع فهى الخدمة التى تنبع من المحبة لله والمحبة للأخوة ، إن الطقوس شيء تافه بجانب المحبة العاملة .

صديقنا أخانا وربنا

ما هى الخدمة التى تطلبها لنقوم بها

لا نتبع اسما ولا رسما ولا طقسا

بل أن نتبعك

إن أهم شيء فى العالم فى نظر يسوع لا أن نقوم بالطقوس بطريقة صحيحة بل أن نلبى نداء إخوتنا المحتاجين .

فى وسط الجماهير

(مرقس ٣ : ٧ ـــ ١٢)

لم يكن يسوع مستعداً أن يدخل فى صراع علنى مع الرؤساء فترك المجمع وذهب إلى شاطىء البحيرة ، ولكن عمله هذا لم يكن بدافع الخوف أو العجز عن مواجهة العواقب ، ولكن لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد . وأمامه الكثير الذى يجب أن يعمله قبل أن يدخل فى هذا الصراع ، ولهذا تركهم ومضى إلى البحيرة ، وهناك تدافعت الجموع وراءه وتزاحمت عليه ، جاءوا من بلاد بعيدة ! من كل قرى الجليل ومن أورشليم حيث ساروا حوالى مائة ميل لكى يسمعوه ، ومن أدومية فى أقصى الجنوب فيما بين فلسطين والجزيرة العربية ، ومن عبر الأردن فى الشرق . ومن بلاد أممية من فينيقية وصور وصيدا على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى الشمال الغربى .. من كل هذه الأماكن والبلاد جاءت الجماهير إليه لكى تسمعه وتتعرف عليه ، وكان الجمع كبيرا حتى أنه جعل سفينة فى البحيرة على أهبة الاستعداد لأن تبتعد عن الشاطىء فى حالة الهياج وحتى المرضى الذين جاءوا طالبين الشفاء لم يستطيعوا أن ينتظروا لمسته بل اندفعوا إليه بكل قوة .

ولكن مشكلة خاصة واجهت يسوع وهى مشكلة أولئك الذين بهم أرواح نجسة . ومهما كان تفسيرنا العصرى لهذه الظاهرة الغامضة لكن علينا أن نعلم أن هؤلاء الناس كانوا يعتقدون أن قوة شريرة خارج أنفسهم قد امتلكتهم وأخضعت كل قواهم . وكانوا ينادون يسوع باسم « ابن الله » . وهنا يجب أن نأخذ حذرنا فى معالجة هذا اللقب فلا نظن أنهم كانوا يقصدون معنى لاهوتيا أو فلسفيا كما نفهمه نحن فى عصرنا الحديث ، بل كانوا يقصدون به معنى آخر أكثر بساطة مما نعرف ، فقديما كان ملوك مصر يدعون « أبناء رع » ، ومن أيام أغسطس قيصر كان القياصرة يعرفون بأبناء الآلهة . أما العهد القديم فقد أطلقه على أربع فئات من المخلوقات :

١ ـــ أطلقه على الملائكة : ففى تك ١٦ : ٢٠ يرى بنوا الله ـــ الملائكة ـــ بنات الناس أنهن حسناوات وفى ١ يو ١ : ٦ يظهر أبناء الله مجتمعين معا أمام الله . فابن الله هو اللقب الطبيعى للملاك .

٢ ـــ وأطلقه على الأمة الإسرائيلية قاطبة فيقول : « من مصر دعوت ابنى » (هوشع ١١ : ١) ثم يقول إسرائيل ابنى البكر خروج ٤ : ٢٢ .

٣ ـــ وأطلقه أيضا على الملك ففى ٢ صم ٧ : ١٤ يعطى الله الوعد لداود أن نسله الملوكى

يكون له ابنا وهو يكون له أبا .

٤ ــ وآخر الكل أطلق فى كتابات ما بين العهدين على الرجل الصالح إذ يقول : ستكون ابنا للعلى وسيحبك أكثر من أمك . سيراخ ٤ : ١٠ .

فى كل هذه المواضع نجد أن ابن الله تطلق على الشخص القريب من الله الذى له صلة خاصة به .

وقد نجد نفس هذا المفهوم فى العهد الجديد فتيموثاوس هو ابن لبولس الرسول إذ هو أقرب إلى نفسه ويفهم غرضه أكثر من أى شخص آخر (١تى ١ : ٢ و١٨ ، وفيلبى ٢ : ١٩ ــ ٢٢) وكذلك مرقس دعى ابنا لبطرس لأنه استطاع أن يعرف عقل بطرس وتفكيره معرفة عميقة فتكون له صلة عميقة به (١ بط ٥ : ١٣) . وهكذا يستخدم العهد الجديد هذا اللقب فى بساطته ، فأينما قابلنا هذا اللقب على صفحاته فلا نظن أن المقصود برهنة عقيدة التثليث مثلا ، بل لنفهمه على أنه الطريقة التى حاول بها الناس أن يعبروا عن العلاقة الخاصة بين يسوع والله . وبهذا المعنى كان ينطق هؤلاء المرضى بأرواح نجسة بهذا اللقب . فقد كانوا يعتقدون أن الشياطين التى تملكتهم تخاف وترهب هذا الشخص الذى له هذه العلاقة الخاصة بالله .

ولكن لماذا أمرهم يسوع بشدة أن يسكتوا ؟ والسبب بسيط واضح ، فقد كان يسوع هو المسيا ، ولكن مفهوم المسيا عنده كان يختلف اختلافا جوهريا عن مفهومه عند اليهود ، فهو يفهمه على أنه مركز للخدمة والتضحية ، فالمسيا هو الشخص الذى يعمل لأجل الآخرين ولو سار إلى الصليب ، أما هم فقد فهموه على أنه الشخص الذى يقود اليهود إلى المجد والنصرة العسكرية على الرومان . فلو عرفه الناس أنه هو المسيا ــ وخاصة فى الجليل ــ لاندلعت الثورات ولتبعه الناس مسلحين . وكم من أشخاص ادعوا أنهم المسيا وقادوا عصابات مسلحة ولكن حركاتهم كلها باءت بالفشل .

إن يسوع لم يرد أن يعلن عن نفسه قبل أن يعلمهم ويؤهلهم لتقبل فكرة المسيا الخادم المضحى ، وإلا لكان ضرر الإعلان أشد خطورة وقسوة وبذلك تضيع إرسالية يسوع ــ إرسالية الحب والفداء فى تيار قومية متعصبة متعطشة للقتال وسفك الدماء .

الجماعة المختارة

(مرقس ٣ : ١٣ ــ ١٩)

فى هذا الفصل نجد يسوع يأخذ قراراً حاسماً . فلقد اختار نوع الرسالة التى يقدمها للبشرية ، ثم عين الطريقة التى يقوم بها لتقديم هذه الرسالة ، فجال فى الجليل يكرز ويشفى المرضى ، فكان تأثيره على الرأى العام كبيراً . وهنا برزت أمامه مشكلتان عمليتان : الأولى : كيف يمكن أن تبقى رسالته حية عاملة حتى ولو أصابه مكروه على يد الرؤساء ــ وهو ما يضعه أمام عينيه دائما ؟ والثانية : ما هى الطريقة المثلى التى يمكن أن ينشر بها هذه الرسالة فى عصر لم تكن فيه دور للنشر

ولا كتب مطبوعة يمكن أن تصل إلى أكبر عدد ممكن من الناس .

وكان الحل الأمثل لهاتين المشكلتين هو أن يختار جماعة من الناس يطبع على حياتهم رسالته فيخرجون من حضرته ليحملوا للناس رسالة عملية حية ، وهذا ما عمله السيد تماما .

إن من أبرز وأهم الأمور فى المسيحية أنها بدأت بجماعة من الناس ، والإيمان المسيحى منذ البداية ظهر فى جماعات تحيا معا فى محبة وسلام ، ليس هذا هو طريق الفريسيين .. طريق الانفصال عن الناس ، فالفريسى هو الشخص المنفصل على عكس الطريق المسيحى الذى جعل الناس تعيش معا ولأجل بعضهم البعض .

ولكن هذه الجماعة التى بدأت بها المسيحية كانت مكونة من أفراد متباينة مختلفة الطباع والأمزجة ، جاءوا من أوساط متباينة ، فقد جمعت إلى جانب متى العشار الرجل الذى خان بلاده فعمل مع الأعداء .. جمعت معهم سمعان القانوى الذى يسميه لوقا — بحق — بالغيور ، وهم جماعة الوطنيين المتطرفين المتعصبين الذين وقفوا مستعدين فى كل حين لسفك الدماء وتخليص بلادهم من احتلال الرومان . وهكذا كانت الآراء والنظرات المتباينة إلى هذا الحد فى هذه الجماعة المسيحية الأولى ، لكن يسوع صهرهم ليعيشوا معا فى سلام ومحبة هادفين إلى غرض سام واحد .

ومن هم أفراد هذه الجماعة إذا قسناهم بالمقياس البشرى ؟ هم جماعة لا يحلم أى إنسان يقود حركة ضخمة كيسوع أن يختارهم .. إنهم جماعة حرموا من العلم والثروة ومن المراكز الدينية أو الدنيوية .. جماعة عادية بكل ما تعنيه هذه الكلمة . ولكنهم مع ذلك قد امتازوا بأمرين فى غاية الأهمية : الأول هو أنهم اختبروا لمسة يسوع السحرية فأحسوا أن فيه شيئا إليه يجذبهم ويجعلهم يتخذونه سيدا لهم ، والثانى أنه كانت لهم الشجاعة الكافية أن يعلنوا ذلك على الملأ . نعم أعلنوا ذلك أمام الجميع وهم يعلمون أن سيدهم هذا قد اختار الطريق الضيق الخطر الذى قد يؤدى إلى الموت ، فكسر كثيرا من العادات والتقاليد التى يرعاها رؤساء ديانتهم ، جلس مع الخطاة والعشارين فاتهموه بأنه خاطىء وهرطوق لقد تركوا كل شىء من أجله وساروا وراءه وهم مفتوحى الأعين يعرفون طريقهم جيدا .. فمهما قيل عنهم وعن أخطائهم الكثيرة . لقد كانوا مخلصين لسيدهم بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان .. وهذه هى المسيحية الحقيقية .

ودعاهم يسوع إليه لسببين ، الأول : لكى يكونوا معه على الدوام فلا يتركونه أبدا .. غيرهم كان يأتى ويذهب . بعض الذين أحاطوا به قد التصقوا به ولكن إلى حين ، ولكن هؤلاء التصقوا به وتعبوا معه وربطوا حياتهم بحياته . أما السبب الثانى فلكى يرسلهم ليكونوا ممثلين له مخبرين الجميع عنه .. لقد ربحهم لنفسه وأراد أن يربح بهم العالم .

ولكى يؤهلهم للعمل الذى دعاهم إليه جهزهم يسوع بأمرين : الأول أنه أعطاهم رسالة .. ورسالته هى شخصه ، فكانوا الداعين إليه . قال أحد الحكماء إن المعلم الناجح الذى يسمع له الناس هو الشخص الذى يكون تعليمه نابعا من حياته وشخصيته . وإن علم تعليم غيره فتكون عنده العاطفة المتأججة لهذا التعليم ونشره . والناس يسمعون دائما للشخص الذى عنده شىء يقوله لهم . هذا ما أعطاه يسوع لهم . ثم أعطاهم القوة ، كان عليهم أن يخرجوا شياطين ولهذا فقد أعطاهم

قوته .

إن أردنا أن نعرف ما هى التلمذة الحقيقية ليسوع فما علينا إلا أن ندرس حياة هؤلاء التلاميذ .

القرار الخاص به

(مرقس ٣ : ٢٠ و ٢١)

كثيراً ما تفاجئنا كلمة من شخص ما نحس أن وراءها خبرة مريرة قاسية . ومن هذه الكلمات ما قالها يسوع حين كان يعدد الصعوبات التى يواجهها أتباعه إذ قال « إن أعداء الإنسان أهل بيته (متى ١٠ : ٣٦) » . فقد أضحت أسرة يسوع إحدى صعوبات رسالته لأنهم ظنوه مختلا . ويجب إرجاعه إلى البيت ولو بالقوة . ولكن كيف توصلت هذه الأسرة إلى هذه النتيجة :

١ ـــ لقد ترك يسوع بيته وعمله فجأة ، فلقد كان هو نجاراً ناجحاً يكفيه دخله مع أسرته ليعيشوا عيشة كريمة ، ولكنه فجأة يترك هذا العمل ثم يذهب متجولا فى البلاد وليس له أين يسند رأسه ؟! أى حكمة فى ذلك ؟

٢ ـــ لقد اتضح أن الصراع بينه وبين قادة الدين اليهودى لا مفر منه ، وجماعة كالكتبة والفريسيين ليس من السهل الوقوف فى وجوههم ، فهم جماعة تستطيع أن تؤذى الذين يخرجون عليهم ولن يستطيع إنسان أن يفلت من أيديهم ، ولهذا السبب ظن الناس أنه من الحكمة أن يهادنوهم ويطيعوهم ، فهم دائماً فى مركز القوة .

٣ ـــ لقد بدأ يسوع يكّون مجموعة خاصة به ، وما أغربها من مجموعة فقد ضمت أفراداً متنافرين مختلفين فمنهم الصياد الجاهل ، والغيور المتعصب ، والعشار الخائن ، إنها مجموعة لا يفكر أى إنسان عاقل ـــ يحاول أن يقود حركة ما ـــ فى التعرف عليها أو أن يصاحبها .

وبعلمه هذا كسر يسوع القوانين الثلاثة التى يتبعها الإنسان فى تكوين حياته ومستقبله :

١ ـــ فهو لم يهتم بالضمان الاجتماعى ، وهذا أهم ما يرجوه كل إنسان ويعمل لأجله فكل شخص يرغب عملا ومركزا مضمونا حيث لا تهدده ضائقات مادية أو مالية .

٢ ـــ وهو لم يهتم بالأمان والناس دائما يفتشون عن العمل الآمن ، فالأمان عندهم أهم من المبادىء الأخلاقية ، بل من قيمة العمل نفسه ، ولذا فهم يحذرون المخاطر القاسية فى العمل .

٣ ـــ ظهر أنه يخالف كثيراً من عادات وتقاليد المجتمع ، لم يهتم كثيراً بما يقوله الناس عنه ، وهذا ليس طبع الأكثرين . فهم ـــ كما قال عنهم هـ . ج واز « إن صوت جارهم أعلى من صوت الله فى آذانهم » وعبارة « ماذا يقول الناس » هى أول ما ينطق به إنسان فى سبيل إنجاز عمل .

إنّ ما كان يخيف أصدقاء يسوع هو أنه اتخذ طريق المخاطرة الذى لم يجرؤ أحد من قبله أن يتخذه .

عندما كان يوحنا بنيان فى السجن صرح أنه كان خائفا وفى ذلك يقول « إن سجنا قد ينتهى بشنقى هو ما يفزعنى » إنه لم يكن يرغب أن يموت مشنوقاً . ولكن جاء اليوم الذى فيه خجل من نفسه ومن خوفه هذا فقال : « إننى أخجل أن أقابل الموت بوجه شاحب وركب مرتعشة من أجل هدف سام كهذا » . وأخيرا وصل إلى النتيجة أنه عندما يصعد إلى المشنقة فإنه سيدخل إلى سعادته الأبدية مع يسوع فلا يهمه سواء أعرف طعم السعادة هنا أم لم يعرفها .. « فإن لم يأتنى الله فإنى سأذهب إليه سواء مغمض العين أم مفتوحها إن عن طريق المشنقة أم عن غيرها » . وهنا يصرخ « فياربى إن كنت ستأتى وتمسك بى فافعل من فضلك وإلا فإنى سألقى بنفسى لأجلك » .

وهذا بالضبط ما تصور المسيح أن يعمله « سأقاسى من أجل اسمك » هذا هو شعار حياته وهذا فقط وليس — الضمان والأمان — يجب أن يكون شعار المسيحى وينبوع حيويته وعمله .

حلف أم غزو ؟

(مرقس ٣ : ٢٢ — ٢٧)

لم يشك قادة اليهود يوما فى مقدرة يسوع على إخراج الشياطين ، فقد كان كثيرون غيره يفعلون الرق والتعاويز ، تماما كما يفعل الكثيرون فى هذه الأيام فى الشرق . ولكنهم مع ذلك عزوا مقدرته هذه إلى حلف بينه وبين رئيس الشياطين أى كما يقول أحد المفسرين « عن طريق الشياطين الكبار استطاع أن يخرج الشياطين الصغار » ، فعمله هذا — كما اعتقد اليهود — لم يخرج عن كونه ممارسة السحر الأسود .

ولكن لم يكن من الصعب على يسوع أن يشجب هذه التهمة ، فقال لهم : إن كان حقاً إن الشيطان الأكبر هو الذى يطرد الشياطين الصغار فقد انقسمت مملكته .. وعليكم أن تتخيلوا ماذا يجرى عندما يحدث الانقسام الداخلى فى أمة أو فى بيت ، فلو فعل الشيطان هذه الجهالة لكان قد هدم مملكته بيده . ولكن التفسير الحقيقى هو أنه لا يستطيع أى شخص أن يسلب شخصاً آخر ما لم يخضعه أولا ويربطه وبعد ذلك يسلبه . فانهزام الشيطان إذن ليس دليلاً على معاهدة بين يسوع وبين الشيطان ولكنه برهان قاطع على أن يسوع أقوى منه وبمجيئه بدأت مملكة الشيطان فى الاندحار ، وفى هذه القصة نرى أمرين :

١ — إن يسوع يقبل الحياة على أنها صراع بين قوة الشر وبين الله ، وكذلك فلم يضيع وقته فى مباحثات نظرية لا طائل تحتها ، فلم يحاول مثلا أن يدرس أصل الشر وكيفية انتشاره ، ولكنه دخل فى الصراع مباشرة . وما أكثر ما نسقط فى هذا الخطأ إذ نكثر من المجادلات العقيمة فى طبيعة المشكلات دون أن نعمل شيئاً لمعالجتها مثلنا فى ذلك مثل الرجل الذى يهب من نومه فيرى النار تلتهم منزله وبدلا من أن يندفع بكل قوته وإمكانته فى إخماد الحريق يجلس بكل هدوء ممسكا بكتاب يبحث عن أصل الحرائق وكيفية انتشارها وطرق إخمادها .. إن يسوع لم يكن من هذا الصنف من الناس ، لقد عرف أن جوهر المأساة فى الحياة هو الصراع المرير بين الخير والشر فدخل الى

الميدان وأعطى الآخرين القوة ليتبعوه .

٢ ـــ لقد اعتبر يسوع أن هزيمة الأمراض هى جزء من هزيمة الشيطان ، وعلى هذا الأساس اهتم بشفاء الأجساد نفس اهتمامه بشفاء النفوس . ولأجل ذلك فإن الطبيب والعالم اللذين يواجهان تحدى الأمراض يشاركان فى هزيمة الشيطان ، فعمل الطبيب مكمل لعمل المبشر ، ولا يوجد هناك تعارض بين هدفيهما ، إنهما حليفان يقفان جنباً لجنب فى حرب ضروس ضد الشر .

الخطية التى لا تغتفر

(مرقس ٣ : ٢٨ ـــ ٣٠)

لكى نفهم هذا النطق المهول فعلينا أن نعرف الظرف الذى فيه نطق يسوع بهذا الكلام ؛ وقد حدث ذلك عندما اتهموه أنه ببعلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين ، فبدلا من أن يروا فى عمله هذا محبة الله المتجسدة رأوا فيه قوة الشيطان .

وأول ما يتبادر إلى الذهن هو أن يسوع عندما تكلم عن الروح القدس لم يكن يقصد المعنى المسيحى الذى نفهمه نحن الآن ، فمفهوم الروح القدس وعمله هذا لم يعلن إلا بعد تمجيد يسوع وحلوله يوم الخمسين ، لكن يسوع وهو يكلم اليهود كان يقصد المعنى الذى يفهمه اليهود .. أى المعنى المعلن فى العهد القديم . وإذا تصفحنا أسفار العهد القديم يتضح لنا أن للروح القدس عملين :

(١) إعلان الحق الإلهى للناس .

(٢) إعطاء الناس البصيرة والمعرفة لكى يتعرفوا على هذا الحق . وهذه النظرة هى المفتاح لهذا النطق .

★ ـــ إن الروح القدس عندما يدخل فى حياة الناس يمكنهم من التعرف على الحق الإلهى ، ولكنهم إذ يرفضون استخدام هذه الموهبة فانهم يفقدونها ، تماما كالرجل الذى يفقد إبصاره عندما يعيش فى الظلام أو الذى يعجز عن الحركة إذا نام على فراشه سنوات طويلة أو الذى يفقد لذة الدراسة إذا امتنع عن الدراسة طويلا .

هكذا يحدث مع الإنسان الذى يرفض إرشاد الروح القدس فإنه يعجز عن معرفة حق الله . إذ رآه فالشر فى نظره يصبح خيراً والخير يصبح شراً .

★ ـــ ولكن لماذا لا تغفر مثل هذه القضية ؟ نسمع تعليقات أشهر المفسرين : يقول هـ . ب سويت « إنها فقدان المقدرة على التمييز بين منبع الخير ومصدر الشر وبذلك تصبح كارثة أخلاقية لا يشفيها حتى التجسد نفسه » . ويقول ا . ح . رولنسون « إنها الشر المطلق » كأنما نرى فيها بؤرة الفساد وجوهره . أما بنجل فيقول إن كل خطية هى بشرية ما عدا هذه ، فهى خطية شيطانية . ولكن لماذا نصفها هكذا ؟ دعنا أولا نعرف تأثير يسوع على حياة الناس : إن الأثر الأول الذى يحدث فى الإنسان الذى يقف وجهاً لوجه مع يسوع لأول مرة هو أن يرى ظلام حياته وعدم

استحقاقه فى مقابل طهارة جمال يسوع ونقاوة محبته ، وهذا ما جعل بطرس يصرخ قائلاً : أخرج من سفينتى يارب لأننى رجل خاطىء » (لوقا ٥ : ٨) . ونفس هذا الاختيار يذكره توكتشى إيشى فى قصة حياته إذ يقول « عندما قرأت قصة الإنجيل لأول مرة توقفت وأحسست بوخز شديد فى قلبى كأنما غرست فيه مسماراً طويلاً .. هل أسمى ذلك محبة المسيح ؟ هل أسميها حنانه على ؟ لا أدرى ماذا أسميها ، ولكنى أعرف شيئاً واحداً هو أن قلبى القاسى قد تغير » . هذا الإحساس بالتفاهة وعدم الاستحقاق فى مقابلة يسوع يولد فى القلب ندماً وتوبة ، وهذه التوبة هى الخطوة الأولى فى طريق مغفرة الخطايا . أما إذا رفض الإنسان أن يسمع دعوة الروح القدس وكرر هذا الرفض كلما تكررت هذه الدعوى فإنه ينحدر إلى حالة من التبلد الحسى حتى أنه لا يستطيع أن يرى شيئاً ما من جمال يسوع وحلاوته ، وبهذا يفقد إحساسه بتفاهته وخطيته ، ومن هنا يضل الطريق فلا يعرف طريق التوبة لأنه لا يشعر بخطيته ، ومتى رفض التوبة فقد حرم من غفران خطيته .

تقول إحدى الأساطير عن لوسيفر إن كاهناً لاحظ بين من حضروا القداس إنساناً أكثر مهابة وجلالا من أى شخص آخر ، ولم يعرفه الكاهن ولكن بعد انتهاء الخدمة طلب منه هذا الشاب أن يقبل منه الاعتراف ، وبدأ يذكر خطاياه ، وكانت كثيرة ومرعبة حتى أن الكاهن نظر إليه فى خوف ورعب قائلا « لابد أنك عشت طويلا لترتكب كل هذه الخطايا الفظيعة التى لا حصر لها » ، فأجابه الشاب « إن اسمى لوسيفر وقد سقطت من السماء قبل بدء العالم » وعندئذ قال الكاهن « مهما يكن فمحبة الله تستطيع أن تغفر لك كل هذه الخطايا ، فقط أن تندم عليها » ، ولكن الشاب رفض أن يظهر التندم وقام من مكانه وذهب . إنه لم ولن يندم وبذلك يسير فى الطريق المحتوم طريق الهلاك .

لا يوجد إلا طريق واحد لغفران الخطايا وهو طريق التوبة ، ولكن إذ يرفض الإنسان إرشاد الله فإنه يفقد إحساسه ومعرفته بما هو صالح وما هو شرير ، إنه يفقد معرفته لحالته الشريرة الفاسدة وبذلك لا يستطيع أن يأتى تائباً ونادماً .. هذه هى الخطية ضد الروح القدس . فطالما يشعر الإنسان بطهارة يسوع وصلاحه يحس بخطيته وذنبه حتى وإن بقى فيها وغرق فى الأوحال لكن هناك باباً مفتوحاً له للرجاء ، أما إذا تبلد الإنسان فأضحى يسوع لا شىء بالنسبة له فإنه يتقسى ولا يستطيع حتى التجسد نفسه أن يحرك قلبه الحجرى القاسى .

القرابة وأساسها

(مرقس ٣ : ٣١ — ٣٥)

هنا يضع يسوع الأساس الصحيح للقرابة ، فالقرابة لا تبنى فقط على أساس جسدى ، فقد يصبح الغريب الذى لا يمت لى بأية قرابة جسدية أكثر قربا لى من كل أقربائى حسب الجسد فما هى القرابة الصحيحة ؟

١ — إن الأساس الأول لها هو الخبرة المشتركة خصوصاً إذا قالها الشخصان فى ظروف واحدة .

وكثيراً ما يقال إن الشخصين يصبحان صديقين عندما يبدأ أحدهما يقول للآخر « هل تتذكر » وعندئذ يذكر خبرة مشتركة لهما . عندما تقابل أحدهما مع أمرأة زنجية قال لها « أظنك تتألمين عندما تعرفين أن فلانة قد ماتت » ولما لم تظهر عليها علامات التأثر قال لها « لقد رأيتكما تضحكان معا فى الأسبوع الماضى .. ولابد أنكما كنتما صديقتين حميمتين » فأجابت « نعم لقد كنا صديقتين .. لقد تعودت أن أضحك معها »، ولكن لكى يكون الشخصان صديقين حقا ينبغى أن يبكيا معاً » هذه حقيقة أساسية ، فالخبرة الواحدة تربط الشخصين برباط متين ، والمسيحيون لهما الخبرة الواحدة وهى غفران الخطايا .

٢ ــ الأساس الثانى هو الاهتمام الواحد ، يقول ا . ح كيدجوين فى كتابه « الكتاب المقدس فى التبشير » : إن العقبة الكأداء التى يقابلها موزعو الكتاب المقدس ليس فى بيع الكتاب بل فى أن يدفعوا الناس على قراءته . ولقد دأب أحد الموزعين فى الصين قبل أن تصبح شيوعية أن يذهب من بيت إلى بيت ومن متجر إلى آخر لكى يحث الناس على دراسة الكتاب . وكم كان يحزن عندما يلاحظ أن قراءه قد فقدوا الحماسة وكادوا يتوقفون عن ذلك . ولكنه فعل بحكمة عندما حاول بنجاح أن يجمعهم معاً فى مكان واحد وقت دراسة الكتاب ، وبهذه الطريقة كون الكنيسة . وهكذا يرتبط الأفراد فى مجموعة متماسكة . فالاهتمام الواحد يربط الأفراد معاً برباط الصداقة العميقة . وهل هناك رباط أمتن من ذلك الذى يربط المسيحيين معاً وهو اهتمامهم بتعميق معرفتهم بالمسيح .

٣ ــ الأساس الثالث هو الطاعة الواحدة . لقد كان التلاميذ أفراداً مختلفين فى تفكيرهم وعقائدهم . فهناك العشار كمتى ، والوطنى المتعصب كسمعان القانونى ولا شك فى أنهم كانوا يوماً ما يبغضون بعضهم البعض ، ولكن هذه الكراهية زالت وحلت محلها الصداقة الكاملة عندما قبلوا معاً يسوع المسيح سيداً ورباً . ألا يحدث ذلك دائماً فى الجندية عندما تجند الدولة أناساً يأتون من أسر وأمكنة متباينة مختلفة ، ولكنهم سرعان ما يأتلفون معاً إذ يخضعون لقانون جيش واحد . فعندما يخضع الناس لسيد واحد يصبحون أصدقاء . نعم ويحبون بعضهم البعض عندما يحبون يسوع .

٤ ــ والأساس الرابع هو الهدف الواحد ، وهذا الأساس أعظمها جميعا ، وهنا يكمن درس عميق للكنيسة . وعندما يتكلم ا . م كيرجوين عن الاهتمام المتجدد لدراسة الكتاب يتساءل « هل هذا علامة على إمكانية معالجة الحركة المسكونية على أساس كتابى بدلاً من أساسها الكهنوتى ؟ » . وطالما كانت الكنائس تتجادل فى كيفية سياسة خدامها ، وطريقة سياسة كنائسها ، وكيفية إجراء طقوسها فلن تستطيع أن تتحد معاً . فالأساس الوحيد الذى عليه تستطيع الكنائس المختلفة أن تبنى وحدتها هو أن تجعل من ربح النفوس للمسيح الهدف الأسمى لها . فإن كان الهدف الواحد يربط الناس معاً فلا يوجد هناك هدف أسمى وأعظم من الهدف المسيحى . فالمسيحيون الذين خبروا الامتيازات يدعون الآخرين ليشاركوهم امتيازات ملكوت السماوات . وحينما تتحد الكنائس فى هذا الهدف الأسمى فكل اختلاف بينها سوف ينتهى إلى الوفاق الكامل .

الأصحاح الرابع

التعليم بالأمثال

(مرقس ٤ : ١ و ٢)

فى هذا الفصل تجد يسوع يبدأ مرحلة جديدة إذ أنه هجر المجمع وذهب إلى شاطىء البحيرة لكى يعلم ، وبهذا أظهر يسوع أنه كان مستعداً أن يغير مكان تعليمه وطريقته إن دعت الحاجة إلى ذلك ، فلم يعد المجمع مكاناً لتعاليمه ولم يعد شعب المجمع هم سامعوه بل صارت البحيرة منبره وشعب الأرض هم سامعوه .

يذكر جون وسلى أنه كان — لفترة طويلة — مخلصا لكنيسة انجلترا وتقاليدها ولكنه يوما ما تلقى دعوة من صديقه جورج هويتفيلد ليعظ العمال فى الهواء الطلق ، وقد كان هويتفليد يعظ الآلاف من عمال المناجم وكانت مئات النفوس تقبل المسيح يومياً ، ولكن جون وسلى رأى فيها دعوة شاذة فهو لم يتعود الوعظ خارج الكنيسة بمقاعدها المريحة ومنبرها الفخم . وفى هذا يقول « إننى لم أستطع أن أهضم مسألة الوعظ فى الخلاء بعيداً عن الكنيسة ونظامها ، إن خلاص النفوس بعيداً عن الكنيسة أمر غير معقول » . ولكنه ذهب ورأى النتيجة وآمن بها . ويقول « لم أعد أعارض الوعظ بعيداً عن الكنائس لأنى رأيت النتيجة بنفسى ، إنها حقيقة لا تنكر ، هكذا كان الحال مع المسيح فلابد أن كان بعض اليهود من المتزمتين اغترهم تعليم يسوع للجموع بعيداً عن المجمع ، ولكنه كان حكيما فى عمله يعرف متى وكيف يدخل الطرق الجديدة فى عمله . لعل كنيسته تتخذه مثالا لها وتفتش عن طرق جديدة تقدم بها الإنجيل .

هذه المرحلة الجديدة التى بدأها يسوع كانت تحتاج إلى طريقة جديدة للتعليم ، فاختار الأمثال ليعلم بها الناس .

فما هو المثل ؟ المثل لفظيا هو شىء يوضع بجانب شىء آخر : أى أنه شىء يقارن بشىء ثان . فالمثل هو قصة أرضية توضع بجانب حقيقة سماوية لتوضحها ، حق أرضى يشرح الحق السماوى حتى يستطيع الناس أن يفهموه ويلمسوه . ولكن لماذا استخدم يسوع هذه الطريقة ؟ لماذا أكثر من استخدامها حتى أضحت من مميزات تعليمه وحتى أطلق عليه : سيد الأمثال ؟

١ — إن السبب الأول والأهم فى انتهاجه طريقة المثل فى التعليم هو جذب انتباه الجماهير ، وتوصيل الرسالة كاملة إليهم ؛ إن الجمهور الذى جاء ليسمع يسوع لم يكن جمهور المجمع الذى يضطر إلى البقاء لنهاية الكلام سواء فهم الكلام أم لم يفهمه ، لكنه كان جمهوراً آخر يستطيع أى واحد منهم أن يتركه فى أى وقت يشاء .. إنه ليس مكان العبادة . فكان على يسوع أن يثير اهتمامهم بما يقول وإلا لبقى وحده . يقول فيليب سيدنى فى قصيدة « سر الشاعر » « بقصة جميلة قد جاء إليكم .. بقصة قد تجذب الطفل عن لعبه والشيخ عن المدفأة » .

إن الطريقة المثلى لجذب انتباه الجماهير هى القصة وقد فعل يسوع ذلك .

٢ — إن طريقة التعليم بالأمثال كانت طريقة مألوفة لدى المعلمين والسامعين من اليهود ، والعهد القديم يحوى كثيرا من هذه الأمثال . أشهر مثل الذى ساقه ناثان النبى لداود عندما سرق بتشبيع من زوجها عن النعجة التى سلبها الغنى من الفقير (٢ صم ١٢ : ١ — ٧) والربيون اليهود زاولوا هذه الطريقة حتى لقد قيل عن الربانى ميار Meir إن ثلث تعاليمه كانت قوانين والثلث الثانى كان تفاسير أما الثلث الأخير فكان أمثالا . ولعل مثلين من أمثلة المعلمين اليهود تكشف الطريقة التى بها علموا بالأمثال : المثل الأول قاله المعلم يهوذا الأمير (١٩٠ ق . م) عندما سأله أنطونيو الإمبراطور الرومانى كيف يمكن أن يكون هناك ثواب وعقاب فى الآخرة إذا كان الروح والجسد سينفصلان ويستطيع كل منهما أن يلقى اللوم على الآخر فى ارتكاب الخطايا ؟ فأجاب المعلم بهذا المثل « أحد الملوك كان يمتلك حديقة بها إحدى الثمار النادرة . وقد وضع لها رجلين لحراستها أحدهما أعمى والآخر أعرج . وفى أحد الأيام قال الأعرج للأعمى إننى ألمح ثمرة جميلة هناك احملنى لكى أقطفها ونأكلها معاً ، فحمله الأعمى وهكذا أخذا الثمرة وأكلاها معا . ويوما ما جاء الملك وطلب الثمرة فلم يجدها ولما سأل الأعرج عنها قال له « إننى أعرج لا أستطيع أن أصل إليها » وسأل الأعمى فأجاب « إننى أعمى ولا أستطيع حتى أن أراها » . فماذا يعمل الملك ؟

إنه يضع الأعرج فوق الأعمى ويدينهما معا . هكذا يفعل الله إنه يرجع الروح إلى الجسد ثم يعاقبهما معا على خطيتهما .

أما المثل الثانى فقد قال الرباى زيرا عندما رفع مرثاه على ابنه أبين الذى مات فى سن الثامنة والعشرون « ملك كان له كرم استأجر عددا من العمال ليعملوا فيه ، وكان أحدهم ذكيا نابها ، فماذا يعمل الملك ؟ استدعاه من بين العمال وسار معه فى الحديقة يتكلمان معا . وعندما جاء العمال مساء ليأخذوا أجرتهم أعطى هذا العامل الذكى أجراً كأى واحد منهم ، فتذمر الباقون قائلين : « كيف يأخذ مثلنا وهو لم يعمل غير ساعتين بينما تعبنا نحن اليوم كله ؟ » فأجابهم الملك قائلا « لماذا أنتم غاضبون ؟ إن هذا الشاب قد عمل فى مدى ساعتين قدر ما عملتم أنتم طيلة النهار فاستحق أجر اليوم كله » هكذا الرباى أبين بن زيرا . لقد استوعب فى مدى ٢٨ سنة ما لا يستطيع الناس أن يستوعبوه فى أقل من مائة عام ولهذا فقد تم عمله ونقل إلى الفردوس قبل أترابه ولن يفقد آخرته فى النهاية .

ومن هذا نرى أن يسوع قد استخدم أسلوباً فى التعليم كان مألوفاً عند اليهود ويستطيعون أن يفهموه .

٣ — والسبب الثالث الذى لأجله استخدم يسوع طريقة التعليم بالأمثال هو أنه أراد أن يجعل الأفكار المعنوية محسوسة ملموسة حتى يستطيع أن يفهمها الناس . فمعظم الناس لا يفهمون إلا بالصورة . فمثلا نستطيع أن نتكلم عن الجمال ساعات طويلة ولكننا لا نفهم الجمال على حقيقته إلا عندما نرى شخصاً جميلاً ، ونستطيع أن نتكلم عن الصلاح ولا نفهمه إلا عندما نرى عملا صالحاً ؛ فكل كلمة يجب أن تتجسد ، وكل فكرة يجب أن تتحقق فى شخص ، وعندما تكلم العهد

الجديد عن الإيمان لم يتكلم كلاماً مجرداً ولكنه وضع إبراهيم مثلاً للإيمان ، تجسد الإيمان فى شخص . وهكذا فعل يسوع لأنه كان معلماً حكيما ، فلم يجابه العقول البسيطة بالأفكار المجردة بل وضعها فى صور .. فى أعمال .. جسدها فى شخصيات وهكذا فهمها :

٤ — وأخيراً هناك الميزة العظمى للمثل وهى أنه يجبر الإنسان أن يفكر لنفسه . فالمعلم لا يعطى المتعلم المعلومات جاهزة بل يدفعه لأن يستقرىء ويكشف الحق لنفسه ، ولعل أكثر الطرق التعليمية خطأً فى تعليم الطفل هى أن تفكر له وتعمل له عمله .. أنت لا تنفعه عندما تحل له مشكلة الحساب وتكتب له مقال الإنشاء .. إنك تنفعه إن ساعدته لكى يفكر لنفسه . وهذا ما قصد إليه يسوع ، فالحقيقة التى يكتشفها الإنسان لنفسه يكون لها ضعف تأثير الحقائق التى يتسلمها من الغير . فيسوع أراد أن يجعلهم يتعبون فى التفكير .. لم يرد أن يريح عقولهم بل أن يدعها تعمل وتشتغل ، لم يرد أن يأخذ عنهم مسئوليتهم بل أن يحملهم إياها ، ولهذا فقد علمهم بأمثال وشجعهم على أن يفكروا لأنفسهم . وعندما يفكر الإنسان فى المثل الذى يقدم له ويستخرج الحقيقة التى تكمن خلفه عندئذ يستطيع أن يقول بحق : إن هذه الحقيقة قد أضحت ملكه هو .

من الأرض إلى السماء

(مرقس ٤ : ٣ — ٩)

وعندما نؤجل تفسير هذا المثل إلى أن نصل إلى تفسير مرقس له ، ولنأخذه الآن كعينة للأمثال التى نطق بها يسوع . كان المنظر شاطىء بحيرة . ويسوع جالس فى سفينة تبعد قليلا جداً عن الشاطىء .. وشاطىء البحيرة ينحدر ببطء شديد فيكون مدرجاً طبيعياً يقف عليه السامعون .. وينظر يسوع فجأة ويشير بيده إلى رجل يعمل فى حقله ويقول : « أنظروا هوذا الزارع قد خرج ليزرع » هنا يكمن جوهر طريقة التعليم بالأمثال .

١ — بدأ يسوع من القريب ليصل إلى البعيد .. من الشىء الذى يحدث هنا على الأرض لكى يصل بالسامعين إلى ما يحدث فى السماء .. من الشىء الذى يراه الناس إلى الغير منظور .. من الشىء الذى يعرفه كل الناس إلى الشىء الذى لم يعرفوه بعد ولم يختبروه . وهذه كانت طريقة يسوع العبقرية فى التعليم ، إنه لم يربك عقول السامعين بالأمور الغريبة الغامضة ، بل بدأ معهم بالأشياء التى يفهمها الأطفال البسطاء .

٢ — وبذلك برهن يسوع عن اعتقاده أن هناك ارتباطاً بين الأرض والسماء ، فلم يكن من رأيه أن الأرض ما هى إلا بقعة جرداء .. بل أعلن بتعليمه هذا أن الله يمكن أن يعلن نفسه فى كثير من حوادثنا اليومية ، وكما يعبر وليم تمبل « لقد علم يسوع الناس أن يروا الله فى حياتهم اليومية .. فى شروق الشمس .. فى نمو النبات وفى سقوط الأمطار .. ألم يكن هذا ما قاله الرسول بولس : « لأن أموره الغير منظورة ترى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات » (رومية ١ : ٢٠) . فهذا العالم فى نظر يسوع ليس عالماً ضائعاً شريراً ولكنه التعبير الظاهرى عن عمل الله ومجده . فى كاتدرائية

القديس بولس يرقد جثمان المهندس كرستوفرين الذى بنى هذه الكاتدرائية ، وعلى قبره كتبت هذه العبارة اللاتينية « إن أردت أن تنظر إلى جسده فانظر حولك » . وبالمثل تضمنت تعاليم يسوع هذا القول : « إن أردت أن ترى الله فانظر حولك » . فقد رأى أن علامات كثيرة تكمن فى الأشياء العامة تقود أى إنسان يستطيع أن يقرأها جيداً إلى الله .

٣ ــ إن جوهر الأمثال إنها بنت وقتها .. تخرج من يسوع سهلة بسيطة ، فلم يعمل يسوع شيئاً سوى أن ينظر حوله ، ويرى الزارع يبذر ، فيتخذ من هذا العمل مادة يتصل بها إلى الشعب ، إنه لم يدخل إلى حجرة الدرس ، ولم يحاول أن يؤلف قصة ، إن سر عظمة الأمثال أن يسوع فكر فيها وكونها فى لحظة واحدة ، إن متطلبات الفرصة الحاضرة هى التى خلقتها . وفى هذا يقول س . ح . كادو « إن المثل هو فن قد صيغ لقصد الخدمة والصراع فى نفس الوقت ، ولهذا السبب فصياغة الأمثال الأصيلة نادرة فهى تعتمد على شىء كبير من الفن الذى يتجلى وقت الأوقات العصيبة . ففى الأمثال الثلاثة المشهورة فى الكتاب نجد هذا الأمر : فالمثل الذى قاله يوثام (مص ٩ : ٨ ــ ١٥) ؟ عن الشجر هرب بعد أن نطق به . والثانى الذى قال ناثان لداود عن النعجة التى سلبها الغنى من الفقير (٢ صموئيل ٢ : ١ ــ ٧) كان يعرف أنه يقول لجبار قد يقتله . والمثل الثالث الذى نطق به يسوع عن الكرامين الأردياء نطق به وهو يذكر فيه موته .

وهكذا فأخص خصائص المثل أنه فن يقال فى وقت النضال ، وليس مقطوعة شعرية أو موسيقية تكون وقت الهدوء والطمأنينة . ففى قمته نجد عمقاً فى المشاعر وحساسية وشجاعة كاملة تدفع القائل إلى عدم الخوف والتهيب من المواقف الخطرة ، وعندما نعجب بأمثال يسوع لنذكر أنه قالها بدون تجهيز بل كانت بنت الساعة .. وهذا يزيد من إعجابنا بمقدرته الفنية وشجاعته الفائقة .

٤ ــ هذا يجىء بنا إلى مناقشة الكيفية التى بها نفسر المثل . فالأمثال قيلت لتسمع لا لتقرأ ، ولم تقال لكى يبحثها الشخص فقرة فقرة ولا كلمة كلمة . إنها قيلت لا لكى تدرس بل لكى تحدث تأثيراً ورد فعل عاجل . وهذا يعنى أن المثل لا ينبغى أن يدرس « كالمجاز » فالمجاز به يدرس بالتفصيل ، والقصة تخفى معان يجب أن يبرزها القارىء وأشهر مثل على ذلك قصة سياحة المسيحى « فكل حادثة فيها وكل شخص له معنى رمزى . ولهذا فالقصة المجازية كتبت لكى تقرأ لا لكى تسمع . فهى تحتاج إلى البحث والفحص . أما المثل فهو قصة قيلت مرة وسمعت مرة واحدة . ولهذا فعندما نقرأ المثل ينبغى ألا نفكر فى تفاصيل دقيقة وماذا تعنى بل أن نبحث عن الفكرة المقصودة منه . إنه من الخطأ أن نقطع المثل إلى أجزاء لكى نعرف ماذا يعنيه كل جزء .. إن أروع طريقة لمعرفة المثل ولفهمه هى أن تسأل نفسك « ما هى الفكرة التى أبرقت من فم يسوع عندما نطق بهذا المثل ، والتى قصدها لكى يكون لها التأثير الأسمى على عقل السامع » ؟ وبهذا نستطيع أن نعرف أمثال المسيح وتفسيرها .

سر الملكوت

(مرقس ٤ : ١٠ ــ ١٢)

يعتبر هذا الفصل من أعقد الفصول وأصعبها ، فنحن نواجه كلمة سر ملكوت الله . وكلمة سر كلمة فنية يونانية ، فهى لا تعنى شيئاً معقداً لا يفهم ، ولكنها تعنى شيئا معلقا عن الشخص الذى لم يختبره ، ولكنه واضح لمن اختبره .

ولقد كان من أهم مميزات العصر الذى كتب فيه العهد الجديد انتشار الديانات السرية ، وسبب انتشارها أنها كانت تعد الداخلين إليها بالإتصال بأحد الآلهة والعشرة معه ، وبذلك تزول كل مخاوفه والآية التى يقابلها فى الحياة والموت .

ولقد كانت معظم هذه الديانات تبنى على أسطورة إله يتألم ويموت ويقوم من الموت ، وكل طقوس هذه الديانات تدور حول قصة هذه الآلام . وكانت إحدى هذه الديانات وأشهرها هى تلك المتعلقة بأسطورة ايزيس المصرية . وهذه الأسطورة تتلخص فى أنه كان هناك ملك صالح حكيم اسمه أوزوريس ، له أخ شرير يكرهه اسمه سيت . ولقد دبر سيت الشرير لأخيه مؤمراة مع سبعين شخصا آخرين لكى يقتلوه ، فدعاه يوما إلى وليمة وهناك أغراه أن يدخل فى صندوق يشابه الكفن يلائمه تماما ، ففعل أوزوريس ذلك بسلامة نية . ولكنه حالما دخل قفلوا عليه الغطاء بسرعة ثم حملوه وألقوه فى النيل . وبحثت عنه إيزيس زوجته المخلصة أياما طويلة ، وأخيراً وجدته وحملته إلى المنزل . ولكن فى يوم ما جاء سيت الشرير إلى البيت وهى غائبة وسرق الكفن مرة أخرى وقطع جسد أخيه أربع عشرة قطعة ونثرها فى طول مصر وعرضها . فجنت إيزيس وخرجت مرة أخرى لتفتش على جثة زوجها ولما وجدت القطع المتناثرة ركبتها مرة أخرى بعضها على بعض ثم نفخت فيها الحياة ، ومن ذلك الوقت أضحى الملك الخالد للأحياء والأموات . هذه إحدى الأساطير التى بنيت عليها الديانات القديمة . بقى أن نعرف كيف كانت تجرى الطقوس عموماً . كان الشخص الذى يريد أن يدخل الى هذه الديانة يقوم بتطهيرات وصيامات وتصوف طويل إلى أن يتفهم عمليا معنى القصة أو الأسطورة ، وعندئذ يحضر طقسا تمثل فيه الأسطورة تمثيلا عمليا من آلام وموت وقيامة الإله وانتصاره على الموت ، وكانت تصاحب هذه التمثيلية الموسيقى والبخور والأغانى الدينية وبذلك تضفى على الجو رهبة وروعة . وحالما تنتهى الطقوس يشعر العابد أنه قد أصبح واحداً مع الإله فى آلامه ونصرته ؛ هذه الوحدة تنقله من الموت إلى الخلود ، وتصبح هذه الطقوس التى لا معنى لها لكل شخص خارجى ، شيئاً له كل الأهمية للمتعبد . هذا هو المعنى الأساسى للكلمة اليونانية « موستريون » .

إذن ماذا يعنى العهد الجديد عندما يتكلم عن « سر » ملكوت السموات ؟ قطعا إنه لا يعنى أن الملكوت بعيد عن الإنسان غامض مبهم لا يفهم ، ولكنه يعنى أنه شيء لا معنى له للشخص الذى لم يسلم قلبه وحياته ليسوع ، أما الشخص الذى اتخذ يسوع سيداً وربا لحياته فهو الذى يعرف حقيقة ملكوت الله .

لكن صعوبة هذا الجزء لا تكمن فى كلمة سر بل فى النطق الذى ذكره يسوع بعد ذلك فلو أخذناه على علاته لاستنتجنا منه أن يسوع قصد من الأمثال أن يخفي قصده وغرضه عن الناس العاديين فلا يفهموه ، ولكننا نربأ بيسوع أن يفعل ذلك وهو الذى أراد أن الجميع يأتون إليه ، إنه لم يستخدم الأمثال ليخفى قصده عن الإنسان العادى بل لكى يساعده على أن يكتشف الحقيقة لنفسه فيفرح بها وتصبح ملكه . فكيف إذن صيغت هذه العبارة . إنها أصلا اقتباس من . إشعياء ٦ : ٩ ، ولقد كان سببا فى مخاوف كثيرة واختلافات متعددة مدة قرنين من الزمان قبل مجىء المسيح . ويحسن أن نترجمها حرفيا « الترجمة من عمل و . وى اوسترلى » .

« إذهب اذهب وقل لهذا الشعب : استمروا فى سماعكم ولكن لا تفهموا استمروا فى نظركم ولكن لا تروا . غلظ قلب هذا الشعب ثقلت آذانه وأطمس عيونه لئلا ينظر بعيونه ويسمع بآذانه ويفهم بقلبه فيشفى مرة أخرى » .

هذا يعنى — بدون مواربة — أن الرب يأمر إشعياء أن ينتهج طريقا فى تعليمه يطمس به أذهان الناس فلا تفهم ، ولهذا السبب فقد اضطر مترجمو الترجمة السبعينية — وهى الترجمة اليونانية للعهد القديم — أن يغيروا النص فى ترجمتهم هكذا :

« اذهب وقل لهذا الشعب : ستسمعون سمعا ولكن لا تفهمون ، وإبصارا ستبصرون ولكن لا تفهمون لأن قلب هذا الشعب قد غلظ وسمعهم قد ثقل وعيونهم أقفلت . لئلا يوما ما ينظرون بعيونهم ويسمعون بآذانهم ويفهمون بقلوبهم ويتغيرون وأنا أشفيهم » .

ووجه الاختلاف هنا أن السبعينية جعلت الناس هم الذين يغلظون قلوبهم — وليس الله كما تذكر النسخ العبرية — حتى لا يفهموا رسالة الرب لهم . وتفسير هذا الاختلاف هو العجز عن تصوير الصوت البشرى فى الورق ، وإشعياء كان ينطق هذه الرسالة فى سخرية ثم فى يأس ، ولكن الاثنين كانا يخرجان من الحب الذى يكنه لهذا الشعب وكأنه كان يقول : لقد أرسلنى الله لأعلن الحق لهذا الشعب ، ولكنهم أغلقوا عقولهم ولم يريدوا أن يسمعوا فكنت كمن يخاطب أحجاراً ميتة . كأنما الله قد أغلق عقولهم فلم يعودوا يفهمون .

وهكذا كان الأمر مع يسوع فإنه كان يريد أن يدخل الحقيقة فى عقول الناس ولكنه كان ينظر إليهم فيجد فيهم غباوة وبطء شديدين ، فالتفت إلى تلاميذه قائلاً : « هل تذكرون ما قاله إشعياء عندما حمل رسالته التى أخذها من الله إلى هذا الشعب ؟ وعندما وجد الشعب غبياً وبطيئاً فى فهمه . هل تذكرون أنه قال عنه : إنه هكذا غبى كأنما الله قد طمس ذهنه حتى لا يفهم . هكذا أشعر أنا فى هذه الأيام » . قال ذلك لا عن تشفى وحقد وكراهية ولكن بدافع المحبة المتألمة الحزينة التى حاولت أن تهب وأن تعطى ولكنها وجدت الصدود والرفض من الآخرين . فعندما نقرأ هذا الجزء دعنا نقرأه ونحن نذكر أن يسوع لم يكن غاضبا ولكنه كان حزيناً متألماً لأنه أحب إلى المنتهى . إننا بذلك لا نرى الله وهو يطمس أعين الناس وأذهانهم ، بل نرى أناسا قد سدوا أذهانهم بكيفية لم يجد فيها الله رجاء فى فتحها وإعطائها احتياجها .. لينقذنا الرب من حالة مروعة كهذه .

الحصاد مؤكد

(مرقس ٤ : ١٣ — ٢٠)

لابد أن السامعين فهموا هذا التفسير لأنه لم يكن غريبا عليهم إذ بناه الرب على الأعمال اليومية المألوفة . وقد أظهر السيد فى تفسيره أربعة أنواع من الأرض :

١ — النوع الأول هو الأرض الصلبة التى تمتد بجوار الطريق ، كانت الحقول فى فلسطين عبارة عن قطع ضيقة من الأرض ممتدة طوليا إلى مسافات بعيدة ، وكان يفصلها بعضها عن بعض طريق من الحشيش الأخضر أضحت صلبة لكثرة السير عليها . وكانت البذور تسقط عليها بإحدى طريقتين : إما أنها كانت تنفلت من يد المزارع وهو يلقى بالبذار على الأرض ، وإما أنها كانت تسقط من كيسه الذى كان يحمله الحمار ، فقد كان المزارع يضع كيس البذار على حماره ، ويقطع هذا الكيس من أحد أطرافه ، ثم يقود الحمار جيئة وذهابا ، تاركا البذار تسقط على الأرض ، ولابد أن بعضها كان يسقط من فتحة الكيس على جانبى الطريق . وحالما تسقط البذار على جانبى الطريق — بطريقة أو بأخرى — فإن الطيور كانت تأتى وتلتقطها . هذه الأرض الصلبة المجاورة للطريق تشابه قلوب بعض الناس فهى لا تنفتح للمسيحية حتى تدخلها لأنهم لا يهتمون بذلك ، وعدم اهتمامهم بها راجع إلى عدم جديتهم فى تفهمهم لها . وكثيرون يجهلون عمق المسيحية ، لا لأنهم ضدها ، بل لأنهم لا يبالون بها ، كأن يعتقدون أنها غير صالحة لحياتهم ، فلا داعى للاهتمام بها ، وقد نوافقهم على ذلك لو كانت الحياة سهلة لينة كل الأيام ، ولكن كثيراً ما يأتى الوقت حين يكتشف الإنسان أنه يحتاج إلى قوة خارجة عن نفسه ، أعظم من قوته ، ليواجه بها الحياة المتجهمة المملوءة بالأزمات .. وكثيراً ما يكون ذلك .. وللأسف متأخراً .

٢ — الطريق الثانى هو الطريق الصخرى ، وتربة الجليل أو معظمها ، عبارة عن قشرة رقيقة من الأرض الصالحة للزراعة ، تكمن تحتها طبقات صخرية غير صالحة لنبات أو أية زراعة ، فعندما تبذر البذرة تنمو حالا ، ولكن عندما يصل جذرها إلى الأحجار يعجز عن أن يخترقها فلا يجد غذاء له فيجف وتضربه الشمس فيموت ، وهذه الظاهرة تكشف لنا على أنه قد نبدأ بداية حسنة ، كما يفعل النبات ، ولكن نعجز عن أن نكمل .

وقد قال أحد الرعاة « إن ربح نفس للمسيح يحتاج إلى ٥ ٪ من العمل أما حفظها فى علاقة معه فيحتاج إلى ٩٥ ٪ » . وما أكثر الذين دخلوا المسيحية ، ولكن الذين بقوا فيها أقل بكثير . ولهذا الفشل سببان : الأول هو فشل الإنسان فى حساب النفقة والثانى هو أنهم أعجبوا بالمسيحية إعجاباً ضحلا سطحياً ولكنهم لم يفتحوا لها القلب . والمسيحية لا تعيش فى المساومات وأنصاف الحلول : فإما أن تمتلك كل الحياة وإما لا شيء ، ولا يستطيع الإنسان أن يشعر بالأمان الكامل ألا إذا سلم نفسه تسليما كلياً للمسيح :

هل هناك أية قوة تحت الشمس

تحاول أن تجتذب قلبى وتشاركك فيه ؟

اخرجها وتملك وحدك

ياإله

ياألله كل حركة فى قلبى .

٣ ــ أما النوع الثالث من الأرض فهى المملوءة بالشوك . وكان الشوك كثيراً يملأ التربة الفلسطينية وسبب ذلك أن الفلاح الفلسطينى كان كسولا يكتفى بقطع أعلى الأشواك أو يحرقها ويترك جذورها ، وبهذا يعطى الفرصة للجذور أن تنمو مرة أخرى متكاثرة متوحشة . وهذا ما يحدث فى الحياة الروحية ، فقد تمتلىء الحياة بالإهتمامات العادية فلا تبقى مكاناً للمسيح فيها كما قال الشاعر « إن هموم هذه الحياة قد تصبح كالغبار العالق حتى أننا ننسى لا لأننا نريد ذلك بل لأننا نجبر عليه » : ولكن كلما تعقدت الحياة كلما شعرنا بالحاجة إلى التأكد من أن حياتنا نحن تسير فى الطريق الصحيح ، فهناك عوامل كثيرة تحاول أن تحجز المسيح من أن يكون الأول فى حياتنا .

٤ ــ أما النوع الأخير من الأرض فهى ذات التربة العميقة الخالية من الأحجار والأشواك ، وإذا أردنا أن ننتفع بالرسالة المسيحية فلننتبه إلى الدروس الثلاثة التى يحتويها هذا المثل :

(أ) يجب أن نسمع هذه الرسالة ؛ ولن نستطيع أن نسمعها ما لم نصغ إليها . إن طابع حياة الكثيرين منا هو أنهم يتكلمون كثيراً فلا يسمعون غير صوت أنفسهم ، ويجادلون كثيراً فلا يقدرون أن يصغوا للغير ، ويتحمسون لأفكارهم فينسون أفكار المسيح ، ويتحركون كثيراً فلا يكون عندهم الوقت للهدوء والتأمل .

(ب) يجب أن نقبلها فعندما نسمع الرسالة المسيحية يجب أن نضعها فى عقولنا . ولكن ما أغرب هذه العقول البشرية ، إنها تماماً كالأجسام ، تتكتل كل قواها ضد أى شىء غريب يدخل إليها وتطرده ، فالعين مثلا تغمض لا إرادياً إذا حاول أى جسم غريب أن يدخل فيها ، وهكذا العقل فإنه يقفل بابه حالما تطرقه بعض الأفكار التى لا يستسيغها ، وقد يكون الحق مؤلما فيتصلب العقل فى عدم قبوله ، إذ يعتبره شيئا غريبا عنه ، ولكن كم من المرات التى نحتاج فيها إلى هذه الجرعة المرة من الحق والنور لكى نعرف أنفسنا ونستفيد ، فإن أوصدنا مسالك عقولنا فى وجه الحقائق فإننا سنقابل الكوارث ونحن لا ندرى .

(ج) يجب أن نحولها فى حياتنا إلى **طاقة عملية** . يذكر السيد أن المحصول وفير جداً ثلاثون وستون ومائة ، ولكن ليس هذا بالكثير على تربة الجليل البركانية الشهيرة . وهكذا الحق المسيحى يجب أن يوضع فى عمل .. فى حركة ، فالمسيحى لا يستطيع أن يبرهن على مسيحيته أمام التحديات الكثيرة بالنظريات بل بالأعمال .

ولكن هذا التفسير هو تفسير من جلس وقرأ المثل وتمعن فيه ، ولكن هذا لم يكن سهلا للذين سمعوه من فم يسوع ، لقد قاله لجموع كثيرة ، ولا يمكن لهذه الجموع أن تستنتج منه دفعة واحدة كل هذه المعانى ، لكن هناك معنى واحد فهمه السامعون وهو : **مع أن جزء من البذار قد ضاع لكن الحصاد فى النهاية سيكون وفيرا** . لقد قال يسوع هذا المثل للتلاميذ الخائفين ليزيل عنهم

اليأس ، لقد رأوا سيدهم يطرد من المجمع ورسالته فى كثير من الأحيان لا تأتى بثمرها فيئسوا وخافوا ولكن يسوع فى هذا المثل قال لهم : « صبراً .. اعملوا عملكم . أبذروا البذار . واتركوا الباق لله .. إن الحصاد سيكون ضخماً وفيراً »

النور الذى ينبغى أن يرفع عاليا

(مرقس ٤ : ٢١)

الأعداد من ٢١ ــ ٢٥ من هذا الأصحاح أعداد فى غاية الأهمية لأنها تكشف النقاب عن المشاكل التى كانت تواجه كتّاب الأناجيل ؛ ففيها نجد أربعة أقوال للمسيح : ففى عدد ٢١ مثل المصباح ، عدد ٢٢ من إعلان ما يقال فى السر ، عدد ٢٤ عن المجازاة التى ينالها الإنسان عما فعل ، عدد ٢٥ يذكر أن من له سيعطى ويزداد . هذه الأقوال الأربعة التى نجدها فى مرقس جنباً إلى جنب ، نجدها مبعثرة هنا وهناك فى إنجيل متى ، فالمثل الأول يظهر فى (متى ٥ : ١٥) ، والثانى فى (متى ١٠ : ٢٦) ، والثالث فى (متى ٧ : ٢) ، والرابع فى (متى ١٣ : ١٢ ، ٢٥ : ٢٩) . ولهذا السبب يجب أن نكون عمليين ولا نحاول أن نبحث عن خيط يربط هذه الأمثلة أو الأقوال الأربعة لأنه لا يوجد ما يربطها معاً ، إنها أقوال منفصلة ويجب أن ندرس كل واحد على حدة .

ولكن كيف يحدث هذا ؟ كيف يحدث أن مرقس يكتبها متتابعة بينما ينثرها متى فى إنجيله هنا وهناك ؟ السبب بسيط : لقد كان يسوع بليغاً ذا أسلوب نفاذ ، فكانت كل كلمة يقولها تدخل إلى أعماق الذاكرة ولا يمكن أن تنسى ، وإلى جانب ذلك لابد أنه كان يكرر كثيراً من تعاليمه .. لقد كان واعظاً متجولا ينتقل من مكان إلى مكان ومن جماعة إلى أخرى ، فلابد ــ والحالة هذه ــ أنه كرر كثيرا من أقواله وأمثاله . ولابد أن الناس سمعوها وحفظوها ، ونتيجة لذلك كان الناس لا يتذكرون أقوال يسوع الحية المؤثرة ولكنهم فى نفس الوقت نسوا الموقف الذى قيلت فيه ، ولهذا فقد جاءت أقوال كثيرة له لا يعرف بالضبط المناسبة التى قيلت فيها . فظهر ما يسميه الناس بالأقوال « اليتيمة » ، ولهذا السبب ينبغى علينا أن ندرس كثيراً من أقوال المسيح القوية الأخاذة كل على حدة .

وأحد هذه الأقوال الحية قوله هذا : لا يعقل أن إنسانا يضىء سراجا ويضعه تحت المكيال أو تحت السرير ، بل على المنارة حتى يراه الناس ويساعدهم على رؤية الأشياء . لابد أن يوضع فى مكان عام ليراه كل الناس . ولنا فى هذا القول درسان :

١ ــ أعطى الحق لكى يراه الناس : إنه لم يقصد به أن يخفى عن الأعين . نعم لا ينكر أنه كثيرا ما يكون إعلان الحق خطراً على قائله .. كثيراً ما يسبب الاضطهاد والألم لمن يعلنه ، ولكن مع ذلك ينبغى على المسيحى أن يقف بجانب الحق ولو كان ضداً لكل الناس ، ومن أمثلة الرجال الأقوياء للحق لوثر ، فقد اكتشف لوثر أن صكوك الغفران ، التى بموجبها يستطيع أى إنسان أن يشترى غفرانا لخطاياه ، باطلة وضد الكتاب ، وعندما اكتشف ذلك لم يسكت بل كتب خمساً

وتسعين بنداً ضدها ، وذهب إلى كاتدرائية كل القديسين فى وتنبرج وألصق اعتراضاته هناك . وقد كانت العادة أن تلصق على باب هذه الكنيسة الملحقة بالجامعة المناقشات العلمية المحضة . ولهذا فقد كانت أهم مكان لإعلان الرأى ؛ والأهم من ذلك فقد كان اليوم الذى أعلن فيه لوثر اعتراضاته هذه وألصقها على باب الكاتدرائية هو يوم تذكار بناء هذه الكنيسة فامتلأت بالناس الذين جاءوا من كل فج وصوب . وبهذا أعلن لوثر أنه رجل قوى ... فلو تمسك بالحذر والدبلوماسية لما أخرج إعتراضاته إلى الوجود ، ولو كان يفتش عن الأمان والاطمئنان لما رضى أن يلصقها على باب الكاتدرائية ، ولو كانت نفسه تهمه لما لصقها فى ذلك اليوم المشهود المزدحم بالناس ، ولكن لوثر لم يكن يهتم بهذه كلها قدر ما كان يهتم بإعلان الحق الذى اكتشفه . وهكذا قد يأتى وقت فيه نعرف تماما ماذا يجب أن نفعل وماذا يجب أن نتكلم ولكن مع ذلك نحجم عن العمل والكلام لأننا نخاف من النتيجة المرة والعواقب الوخيمة لكن لنتذكر هذا أن سراج الحق يجب أن يرتفع لأنه أهم من كل الرغبات ، إنه أبقى من الحياة ومن النفس ذاتها .

٢ ــ القصد من مسيحيتنا أن يراها الناس : ولقد كان هذا الإعلان قاسيا على المسيحيين الأوائل . فقد كان يعنى الموت . وسبب ذلك أن الدولة الرومانية امتلكت العالم المعروف فى ذلك الوقت . ولكى تترابط أجزاء هذه الإمبراطورية الواسعة بدأت عبادة الإمبراطور . وصار الإمبراطور رمزا للدولة وتجسيداً لها ونصب الإمبراطور إلها يعبده كل الرعايا ، عبادة ليست روحية كما نفهمها ، ولكنها عبادة سياسية ، بمعنى أن الشخص بعدما يقدم ذبيحة للإمبراطور الإله يعطى شهادة أنه مخلص للدولة ، وبعد ذلك يستطيع أن يعبد أى إله يشاء . وهاكم إحدى الشهادات .

« إلى أولئك المسئولين عن الذبائح : أنا ريوس أكيوس من قرية ثيوكسانيس وأولاده إيياس وهيرا القاطنين بقرية ثيادلفيا نعلمكم أننا نقدم ذبائحنا الآن وفى حضرتكم كما هو مطلوب منا ، قد ذبحنا وسكبنا سكائبنا وذقناها ولذلك نسألكم أن تعطونا شهادة بذلك والسلام » .

ثم تردف هذه الشهادة بالقول : « نحن سريناس وهرمس نشهد أنكم قدمتم الذبائح » .

وكل ما كان يجب أن يفعله المسيحى هو أن يقوم بهذه الأعمال الرسمية ويأخذ شهادة بذلك ويعيش بأمان ، ولكن التاريخ يخبرنا أن آلافا منهم ماتوا لأنهم رفضوا أن يعملوا ذلك . كان يمكنهم أن يخفوا مسيحيتهم عن الناس ويعيشوا فى أمان مسيحيين فى الخفاء ولكنهم لم يفعلوا . إنهم كانوا يعتقدون أن المسيحية حق يجب أن يشهدوا له ويعلنوه . إنهم عرفوا أين يقفون وقد وقفوا بكل شموخ وعزة ، وكم نحن مدينون لإيمانهم هذا .

الحق الذى لا يمكن أن يخفى

(مرقس ٤ : ٢٢ و ٢٣)

إن عقيدة يسوع الراسخة هى أن الحق لا يمكن إخفاؤه ، ومهما عملوا ففى النهاية سوف يعلن ، ويتحقق هذا الأمر لسببين :

١ ــ لطبيعة الحق نفسه . ففي الحق عنصر خالد لا يمكن أن يفنى ، قد يرفض الناس أن يواجهوا الحق ، وقد يعاندوه وقد يحاولون تشويهه ، ولكن « الحق عظيم ولابد أن ينتصر في النهاية » . في القرن السادس عشر اكتشف كوبرنيكوس أن الأرض ــ بخلاف ما كان يتمسك به الناس في عصره هي التي تدور حول الشمس ، ولكنه لم يستطع أن يعلن ذلك إلى أن حان وقت وفاته ، بعد ٣٠ سنة من اكتشافه الخطير هذا ، طلب من أحد الناشرين أن ينشر له اكتشافه هذا ففعل هذا وهو في غاية الرعب ؛ ومات كوبرنيكوس وترك المعمعة لآخرين من بعده . وفي أوائل القرن السابع عشر آمن العالم جاليليو بنظريات كوبرنيكوس ، وأعلن رأيه ، فثارت الكنيسة عليه واستدعى إلى محكمة التفتيش في روما ، فذهب وهناك أجبر على أن ينكر عقيدته ففعل ، طالبا السلامة . وكان مما قيل رداً على النظرية الجديدة إن الفرض الأول وهو أن الشمس هي مركز الكون لا تدور فرض سخيف علمي ضد الكتاب المقدس . ولاهوتيا يعتبر فكر هرطوقي ، والفرض الثاني القائل إن الأرض هي التي تدور حول الشمس سخيف ومن الوجهة الفلسفية خاطىء ، ولاهوتيا يعتبر ضد الإيمان » . وسكت جاليليو لمدة سنوات إلى أن جاء يوربان الثامن ، فاعتقد أنه بابا مستنير عن سابقه ، فتجرأ وأعلن رأيه مرة أخرى ، ولكنه كان مخطئا في عقيدته ، فسرعان ما وقف أمام المحكمة وأجبر على أن يعلن إنكاره لرأيه وأن يختم هذا الإنكار بخاتمه ففعل ، وأنقذ من الموت ولكنه لم ينقذ من السجن ، وجاء في إنكاره هذا القول « أنا جاليليو في سن السبعين مسجون وعلى ركبتي وأمام قداستكم وأنظار بعيني إلى الكتاب المقدس وألمسه بيدي .. أنكر وألعن الهرطقة القائلة إن الأرض تدور حول الشمس » . ومع ذلك لم تسامح الكنيسة جاليلو وأنكروا عليه أن يدفن بعد موته في مقابر الأسرة .

ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية وحدها ، حتى لوثر نفسه ثار ضد هذا الاكتشاف فقال « لقد صدق الناس ما قاله عالم فلكي غريب يقول إن الشمس ثابتة والأرض هي التي تدور حولها ، إن هذا الغبي يريد أن يقلب كل علم الفلك ، ولكن الكتاب المقدس يعلن أن يشوع أوقف الشمس ولم يوقف الأرض » . ولكن الوقت يمر ويصبح هذا الاكتشاف عقيدة ثابتة يعرفها كل إنسان ويؤمن بها سواء أكان رجل دين أم علمانيا .

ومن هنا نعلم أن القوة قد تستطيع أن تحطم الناس وقد تضحك من العلماء وتستخفهم ولكنها لا تستطيع أن تخفي الحق . يقول اندراوس مليفيل « ليس في مقدورك أن تقتل أو تسجن الحق » ، قد تضحك من الحق وتخفيه وتعطله ولكن الوقت سيعلن ثورة الحق أخيرا ويحطم معانديه ، فليتأكد كل إنسان أنه لا يحارب الحق .

٢ ــ لطبيعة نفوسنا وحياتنا وسلوكنا . إن أول شيء يفعله الرجل الذي يخطىء هو أن يختفي ، وهذا ما فعله آدم وحواء (تك ٣ : ٨) . ولا يستطيع إنسان أن يخفي الحق ، وإذا فعل فإنه يعيش تعيسا كل حياته ، وفي النهاية . من ذا الذي يستطيع أن يخفي سرائره عن الله ؟ لابد أن يتحقق قول السيد « وما من خفي إلا ويستعلن » . دعنا نحيا عالمين وفاهمين أن الله يكشف كل حياتنا لنعش في نقاوة ولتكن سرائرنا نظيفة فإننا لن نحتفظ بالسر مهما أطلنا في إخفائه .

ميزان الحياة

(مرقس ٤ : ٢٤)

هناك توازن ملحوظ فى مجرى الحياة .

١ ـــ هذه حقيقة واضحة فى **الدراسة** : فكلما تعمق إنسان فى درس موضوع من المواضيع كلما عرف عنه واستفاد منه . قيل عن البارثيين القدماء إنهم لم يكونوا يسمحون لأولادهم بالطعام ما لم يتصبب جبينهم بالعرق من كثرة الشغل ، وعندئذ يتلذذون بالطعام ، هكذا الدراسة ، فكلما تعب المرء فى الدراسة كلما أحس باللذة والسرور والاكتفاء ، وهذا ينطبق تماما على دراسة الكتاب المقدس فكلما تعمقنا فى دراسته كلما شبعت نفوسنا منه ؛ حتى تلك الأجزاء التى نظنه عند قراءتها قراءة سطحية ، أنها صعبة وغير مجدية . حتى هذه الأجزاء عندما ندرسها بعمق نجتنى منها أعذب وأشهى الثمار الروحية . إن الدراسة السطحية لأى موضوع غير مجدية ومملة ، ولكن الدراسة العميقة الواعية هى التى تترك العقول مملوءة ومنتشية .

٢ ـــ وهى حقيقة معروفة فى **العبادة** : فالمؤمن الذى يأتى بيدين مملوئتين إلى بيت الله لابد وأن يأخذ على قدر ما أعطى . وهناك ثلاثة أمور خاطئة قد نسقط فيها عندما نأتى إلى بيت الله للعبادة .

(أ) قد نأتى فقط لكى نأخذ ؛ وإذا جئنا كذلك فإننا لا نجد ما يكفى نفوسنا الطامعة : لا نجدها فى الموسيقى ، ولا فى الترنيم ، ولا فى العظة .. إننا نجىء إلى الكنيسة كأننا جئنا إلى ملهى حيث توضع كل البرامج لتسليتنا . هذا خطأ .. يجب أن نأتى للكنيسة لا لكى نأخذ فقط بل لنعطى أيضاً . فالعبادة هى عمل جماعى يشترك فيه كل العابدين كل على قدر طاقته ومعرفته . فليكن شعارنا إذن « ماذا نعطى » وليس فقط ماذا نأخذ ؛ ومتى دخلنا الكنيسة فى روح الخدمة والتعاون فإننا سنحصد من العبادة عمقاً وكفاية لأنفسنا .

(ب) قد نأتى غير منتظرين .. نأتى فقط لأننا تعودنا على المجىء .. إنها ساعة من حياتنا نقضيها وكفى .. هذا أيضاً خطأ إننا نأتى إلى العبادة لنتقابل مع الله ، وعندما نقابله لنتأكد أننا سنأخذ الكثير .

(ج) قد نأتى غير مستعدين .. وكم من مرة ذهبنا إلى بيت الله بدون استعداد ذهنى أو قلبى .. نذهب كأننا ذاهبون إلى تجارتنا أو مكاتبنا .. هذا خطأ . إننا ننال الكثير جداً لو جئنا مستعدين لو وقفنا لحيظات قبل خروجنا إلى الكنيسة فى صلاة صامتة . لو رفعنا قلوبنا إلى الله قبل أن ندخل إلى بيته . قال المعلم اليهودى « إن من يصلى وحده قيلا ، فهو الذى يصلى أحسن الكل فى الصلاة الجماعية »

٣ ـــ وهى حقيقة اختبارية فى **العلاقات الشخصية** « إن أكثر الحقائق وضوحاً هى أننا نقرأ حياتنا فى وجوه الآخرين : فإن كنا عصبيين لنا طبيعة غاضبة فإننا نلمح عدم الرضا على وجوه الناس . وإن كنا ناقدين متصيدين لأغلاط الغير ، فلابد أن نرى الآخرين كذلك تجاهنا ، إذ كنا

نشك في الناس ولا نثق فيهم ، فالناس بدورهم يشكون فينا . إن أردنا أن يحبنا الناس فلنحبهم .. إن أردنا أن نكسب صداقة الناس فلنظهر صداقتنا لهم ولأن يسوع وضع ثقته في الإنسان ، وضع الإنسان ثقته في يسوع وآمن به .

شريعة الزيادة

(مرقس ٤ : ٢٥)

قد يبدو هذا القول — لأول وهلة — صعباً ، ولكن الحياة هي أكبر برهان على صدقه وأصالته .

١ — فهو صادق من ناحية المعرفة فكلما تعمق المرء في المعرفة كلما أصبحت له الإمكانية في زيادة معرفته ، فلن يستطيع أن يعرف الأدب اليوناني ما لم يتقن قواعد اللغة اليونانية ، ولن يتذوق الموسيقى ويعرفها ما لم يتعرف على تركيب السيمفونية وبنائها ، وبذلك يحس بالكثير من السعادة . أما إذا تخاذل عن زيادة معرفته ، فالمعلومات التي كانت عنده ستصدأ وتتحلل ثم تضيع ، فكم من مرة درس الصبي لغة أجنبية ، ولكنه حالما ترك المدرسة ترك دراسة هذه اللغة فنساها و لم يعد يذكر منها شيئاً . فكلما زادت معرفة الرجل كلما تمكن من الاستيعاب ، وكلما كان كسولاً كلما عجز عن المعرفة وفقدها . والمثل اليهودي يقول « إن الطالب يجب أن يعامل كالعجل الصغير الذي يزاد له الثقل كل يوم » . ففي طريق المعرفة لا نستطيع أن نتوقف وإلا فقدنا الطريق نفسها .

٢ — وهي صادقة من ناحية الجهد المبذول ، فكلما كان الرجل قوياً كلما كان في إمكانه أن يزداد قوة في حدود طاقته الجسمانية ، وكلما درب جسده كلما إزداد قوة ولكنه إذا تخازل وترك جسده بدون عمل أو جهد ، وعاش حياة ناعمة فقد قدرته ولياقته البدنية وهنا يجب أن نتذكر أن أجسادنا — كأرواحنا — هي لله وحرام علينا أن نهمل أجسادنا لدرجة أن تصبح غير لائقين للعمل الذي يجب أن نقوم به .

٣ — وهي صادقة من ناحية المهارات : فكلما درب الإنسان يده أو عينه أو عقله كلما زادت مهارته في عمله ، ولكنه إذ قنع بما حصل عليه ولم يحاول أن يعمل جديداً أو يتدرب على شيء جديد أو مهارة جديدة . إذا فعل ذلك فسوف يبقى حيث هو ، ولربما رجع إلى الوراء . إن المهارة التي لا نحسنها سوف نفقدها .

٤ — وهي صادقة من ناحية حمل المسئولية : وكلما أحس الإنسان بالمسئولية كلما كان أهلا لتحمل مسئولية أكبر ، وكلما عزم أن يعمل عملا كلما كان قادراً على العمل . ولكن إذا أهمل مسئولية وأتخذ يتخلص مما وضع عليه فإنه يفقد لياقته وقدرته كإنسان مسئول ويعجز عن أن يتخذ قراراً في المواقف التي تواجهه . وما أكثر ما نبر يسوع على أن مجازاة العمل الطيب هي عمل أكثر ومسئولية أكبر . ومن أوضح قوانين الحياة هي أنه كلما انتصر الإنسان زادت مقدرته على النصرة وكلما تكاسل كلما ضاعت عليه الفرص وكلما فقد ما عنده .

النمو الغير منظور والنهاية المؤكدة

(مرقس ٤ : ٢٦ — ٢٩)

لم يذكر هذا المثل إلا فى مرقس وحده . ومعنى ملكوت الله ههنا « حكم الله » إنه يعنى ذلك اليوم الذى فيه يخضع جميع الناس لمشيئة الله وتصبح هذه المشيئة ظاهرة مسيطرة فى الأرض كما سيطرت فى السماء ، وهذا هو القصد الذى يقود الله الكون إليه . وفى هذا المثل القصير نجد لأنفسنا عدة دروس :

١ — أنه يكشف عن **عجز الانسان** ، فالفلاح لا يستطيع أن يجعل البذرة تنمو ، ولا يفهم كيف تنمو ، إن الحياة سر فى قلب البذرة نفسها ، لا تستمده من الفلاح لأنه لا يملكه .

والإنسان فى عجزه لا يستطيع أن يخلق شيئاً ، قد يكتشف القوانين ، وقد يغير ترتيب الأمور ، وقد يهيىء الفرصة للنمو ، ولكنه لا يستطيع أن يوجد شيئاً من العدم . وإذا طبقنا هذه القاعدة على ملكوت الله عرفنا أنه يعجز عن خلقه لأنه ملكوت الله إنه عمله . قد يعطل نمو هذا الملكوت وقد يوجد فيه الاضطراب ، وقد يساعد على إمتداده وعمله ، ولكن الذى ينمى ويخلق هو الله وحده .

٢ — إنه يكشف شيئاً عن **طبيعة الملكوت** : جدير بالذكر أن يسوع كثيراً ما كان يستخدم أمثلة النمو فى الطبيعة ليشرح مجىء ملكوت السموات .

(أ) النمو فى الطبيعة **غير ملحوظ** : فلا يمكن أن نلمسه إذا راقبناه مراقبة مستمرة ولكن إذا نظرنا إلى النبات فى فترات متباعدة فإننا نلاحظ الفرق ، وهكذا الأمر مع الملكوت . فلو قارنا نمو الملكوت فى يومين أو سنتين متتاليتين لا يمكن أن نلاحظ الفرق . أما إذا راقبناه فى قرنين متتاليين فإننا نلاحظ فرقاً كبيراً .

فى سنة ١٨١٧ زارت اليزابيث فراى سجن نيوجيت فرأت حوالى ثلاثمائة إمرأة وعدد لا يحصى من الأطفال فى عنبرين صغيرين يطبخون ويأكلون وينامون على الأرض ولم يكن يهتم بشئونهم غير رجل عجوز وابنه ، وعندما رأوها إلتفوا حولها كالوحوش : عراة يستجدون منها بضع ملاليم ليشتروا منها الخمور ، ثم رأت ولداً فى التاسعة من عمره محكوم عليه بالإعدام لأنه سرق شيئاً لا يساوى أكثر من بضعة ملاليم .

وفى سنة ١٨٥٣ أضرب النساجون حتى يزيدوا أجرهم وكان سبعة بنسات ونصف فى اليوم ، وأضرب عمال المناجم فى ستافورد لأن أجرهم فى الأسبوع كان شلنين

ونصف . هذه الأمور التى لا يتخيلها عقل كانت جارية وحقيقية ، ما أبعد الفرق بين الأمس واليوم . إن ملكوت الله أظهر نموه فى هذه المدة من السنين لكنه نمو غير منظور

(ب) النمو فى الطبيعة **مستمر** : إنه لا يتوقف ، ليلا ونهاراً تنمو الأحياء . إن عمل الله عمل مستمر هادف إلى الأمام دائماً بعكس عمل الإنسان المتذبذب الذى يخطو إلى الأمام خطوة ويرجع خطوتين .. ولكن فى سكون وهدوء تسير أعمال الله .

يجرى الله قصده عبر السنين والأجيال .

يجرى الله قصده والوقت يقترب من يوم الكمال .

يقترب الوقت .. الوقت المؤكد المجىء .

عندما تمتلىء الأرض من مجد الرب كما تغطى المياه البحر .

(ج) النمو فى الطبيعة **حتمى** : لا توجد قوة تضارع قوة النمو .. فجذر الشجرة يستطيع أن يحطم الصخر ولا يمكن أن تقاوم ... وهكذا الأمر مع ملكوت الله ، فبالرغم من ثورة الإنسان وعصيانه يسير ملكوت الله إلى الأمام ، ومن ذا الذى يستطيع أن يعوق الله عن إجراء قصده ؟

٣ ــ إنه يكشف عن وقت **النهاية** : فلابد أن يأتى وقت الحصاد ، وعندما يأتى ذلك اليوم تجمع الثمار إلى المخزن أما الحشائش والتبن فتحرق ، وكلا العمليتين وجهان لعملية واحدة وعندما نذكر ذلك اليوم نحس أن علينا واجبات ثلاثة .

(أ) يجب أن نتحلى **بالصبر** : فالانسان فى طبيعته ابن الساعة ، يعيش فى اللحظة التى يحيا فيها ، يفكر ويعمل بوحى الساعة ؛ أما الله الأزلى فهو الذى يجمع الزمان والمكان كله تحت ناظريه . يقول المرنم عنه « لأن ألف سنة فى عينيك كيوم أمس قد عبر وكساعة فى الليل » (مز ٩٠ : ٤) .

ولهذا : ينبغى أن نستبدل قلقنا وتسرعنا بالتأنى والصبر خاضعين لإرادة الله الذى يعرف كل شىء .

(ب) يجب أن نحتفظ **بالرجاء** : إن من أهم سمات هذا العصر اليأس والخوف ، يأس من الكنيسة ويأس من العالم ، خوف فى الحاضر ، وخوف من المستقبل وكما يقول هـ . ج ويلز: « لقد بدأت الإنسانية حياتها فى الغابات والعراء وسوف تنتهى محطمة فى أحياء فقيرة مهدمة . وفى الفترة فيما بين الحربين الماضيتين قال سير فيليب جيبس: « لو خرجت إلى الشارع وعرفت أن الغازات السامة قد ملأت المدينة فلن أمد يدى وأمسك بالقناع لأخفى وجهى به ، بل سأتنفس بعمق لآخذ كمية ضخمة من الغاز السام لأنى حينئذ سأعلم أن لعبة البشرية قد انتهت » . هذه هى الروح التى تسيطر على العالم .. واليأس والتشاؤم ولكن هل تستطيع هذه الروح أن تتغلب على من يؤمن بالله ؟ قد يحزن المؤمن ، ويتألم من جراء الخطية ولكنه لن ييأس .

أيها العامل مع الله لا يرهب قلبك

بل اعرف الله واعرف من هو

وفى وسط الظلمات الدامسة وسط المعركة

سوف تعرف أين تضرب ضربتك .

لأن الحق دائماً حق ما دام هناك الله

ولابد أن ينتصر هذا الحق .

ولو شككت فإنك لست مخلصاً .

ولو ضعفت فأنت خاطىء .

(ج) يجب أن نكون فى **حالة الإستعداد** : عندما يأتى وقت النهاية يجب أن نكون مستعدين له .. يجب أن نستعد لمقابلة الله ، فلو أهملنا و لم نستعد سوف يأتى اليوم الذى نجد فيه أنفسنا وسط الأزمة .. ولكن إن تحلينا بالصبر الذى لا ينهزم وإن احتفظنا بالرجاء الذى لا يفشل ، وإن بقينا فى حالة الاستعداد الذى يرى الحياة فى نور الأبدية .. إن فعلنا ذلك فسوف نكون بنعمة الله ، جاهزين لوقت النهاية .

من الصغر إلى الاتساع

(مرقس ٤ : ٣٠ ـــ ٣٢)

فى هذا المثل يذكر السيد صورتين مألوفتين لكل سكان فلسطين : الصورة الأولى أو التشبية الأول هو « حبة الخردل » وتستعمل هذه الحبة عادة فى ابراز ضآلة الحجم ، فإن قيل عن الإيمان إنه « مثل حبة الخردل » كان معناه : أصغر مقدار من الإيمان معروف ولكن هذه الحبة الصغيرة تنمو فتكون شجرة أطول من قامة الإنسان ، تحبها الطيور وتأتى لكى تتآوى فيها .

أما الصورة الثانية فهى تشبيه الممالك الكبيرة بالشجرة ، وتشبه الأمم الخاضعة لها بالطيور التى تقف على أغصانها (حزقيال ١٧ : ٢٢ . الخ ، ٢١ : ١ ـــ الخ ، دانيال ٤ : ١٠ و ٢١) . فالشجرة تعبر عن إمبراطورية ضخمة تسيطر على ممالك أخرى تجاورها .

١ ـــ لا تيأس من البداية الصغيرة : قد نشعر عندما نبدأ عملا ما أنه صغير ، ولكن ينبغى أن نعرف أن العمل متى تكرر فإنه يكبر ويعطى النتائج الباهرة ، مثله فى ذلك مثل الصبغة : فعندما نحاول أن نلون الماء فى وعاء كبير فإننا نسقط نقطة نقطة فى الماء ويبدأ الماء فى التحول رويداً رويداً حتى يتحول أخيراً إلى اللون المطلوب .. قد لا يتأثر لون الماء من النقطة الأولى أو الثانية .. ولكن إن والينا العمل فإننا نحصل على النتيجة المرغوبة . وهكذا نحن قد نبدأ عملا فنحس أن البداية لا تستحق كل هذا التعب الذى نبذله ولكن لنتذكر هذا أن كل شىء لابد له بداية .. والبداية دائماً صغيرة . إن واجبنا أن نبدأ ونعمل قدر استطاعتنا . هذا الجهد سوف يثمر ثماره الحلوة بمرور الوقت

واستمرار العمل .

٢ ــ هذا المثل يظهر امبراطورية الكنيسة . عرفنا سابقا أن الشجرة الضخمة والطيور تتآوى فيها تشير إلى إمبراطورية ضخمة ، وهكذا أعلن السيد مصير الكنيسة ، إنها بدأت بشخص واحد ولكنها سوف تصل إلى العالم كله . ويظهر صدق هذا القول فى ناحيتين .

(أ) لأنها تتسع لكل الأفكار ولكل أنواع المدارس اللاهوتية ، مرات كثيرة نتصرف كأشخاص تصرفات لا تليق إذ نعتبر أن كل الذين لا يتفقون معنا فى الفكر والعقيدة هم مخطئون دائماً ، وياليت الروح الذى ملأ جون وسلى فجعله يقول « نحن نفكر وغيرنا كذلك يفكر ولا حق لى فى معارضة كل انسان يختلف عنى وجعله يحيى كل انسان يقابله » هل قلبك كقلبى ؛ إذاً أعطنى يدك ولنتعاون معا » أقول ليت هذه الروح تملأنا نحن أيضاً ، فقد يكون مستحسنا أن نتأكد أننا على حق ولكن : أن نظن الآخرين مخطئين فهذا ما لا يقبله عقل .

(ب) لأن تتسع لكل الأمم . عندما بنيت إحدى الكنائس أرادت اللجنة المشرفة على البناء أن تفتش على شعار يمكن أن يرسم على شباكها الضخم ، وأخيراً اهتدت إلى هذا القول .

حول عرش الله جيش .. من صغار طاهرين

وكلفوا أحد الفنانين العظام لينفذ هذا الشعار ، وبدأ يعمل ، وأحس بنشوة طاغية فى عمله .. وفى ليلة من الليالى كان قد قارب على الانتهاء من الصورة حلم حلماً : حلم أنه سمع صوتاً فى معمله ، فجرى إلى مصدر الصوت فرأى شخصاً آخر ممسكاً بالفرشاة والألوان محاولا أن يجرى تعديلاً فى الصورة : فصرخ فيه ألا يفعل وألا يضيع معالمها ، ولكن الغريب قال له « لقد ضيعت أنت معالمها » فقال الرجل « وكيف » قال لأنك لونت وجوه الناس حول العرش بلون واحد هو الأبيض ، مع أنك تمتلك ألوانا كثيرة ، كأنك ظننت أن الرجل الأبيض وحده هو الذى يقف أمام الله والآن دعنى أغير ألوان الناس ، لأن كثيرين سمعوا دعوتى » « دعوتك .. ومن أنت ؟ » أجاب الغريب أنا الذى قلت من زمن طويل « دعوا الأولاد يأتون إلى ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات ، ولا أزال أقولها إلى الآن » . وعرف الفنان أنه السيد نفسه . وحالما فهم ذلك اختفى السيد عن ناظريه ، ونظر الفنان إلى الصورة ووجدها أجمل كثيراً من شكلها الأول ففيها الأبيض والأصفر والزنجى والقمحى .. وكل الألوان . وفى الصباح استيقظ واندفع إلى معمله ولكنه وجد صورته كما كانت من قبل . فأمسك بالوانه وفرشاته وبدأ يغير فى الوجوه ويجعل العرش السماوى محاطا بأجناس كثيرة ولم يهمه أن اللجنة كانت قادمة ذلك الصباح لتسلم الصورة . وعندما جاءت اللجنة قال أحد أعضائها بكل لطف « نعم إنها عائلة الله فى بيته » نعم إنها عائلة الله فى بيته . إن الكنيسة كحبة الخردل تصبح شجرة تتآوى فى أغصانها كل الطيور ، لا توجد هناك حواجز تحجز الإنسان عن الله أو عن أخيه الإنسان .

المعلم الحكيم والمتعلم النابه

(مرقس ٤ : ٣٣ و ٣٤)

فى هذا الفصل يرتسم أمامنا المعلم الحكيم والمتعلم النابه فالمعلم الحكيم هو الشخص الذى يعطى تعاليمه على قدر مدارك المتعلمين .. وهذا هو الدرس الأول فى التعليم الناجح . وهناك خطران يجب أن يتجنبهما المعلم الناجح :

(أ) يجب أن يتجنب عرض نفسه : فالمعلم الذى يحاول أن يجذب الانتباه لنفسه هو معلم فاشل ، حسنا أن يهتم بطريقة عرض الموضوع ولكن الأحسن والأفضل منه هو أن يهتم بالموضوع نفسه ؛ التعليم ليس وسيلة لإظهار لباقة المعلم ومدى علمه ولكنه إفادة المتعلم ، ولهذا فليس من الذكاء فى شيء أن يتكلم المعلم شيئاً فوق مدارك المتعلمين ، إن الذى يضرب السهم فوق الهدف لا يزيد شيئاً عن ذاك الذى يضربه تحت الهدف . كلاهما مخطيء . المعلم الماهر هو من يحب درسه أكثر مما يحب نفسه .

(ب) يجب أن يتجنب الشعور بالتعالى فالتعليم لا يعنى أن تعطى الناس شيئاً بل أن تتعلم معهم ومنهم شيئاً ، وقديماً قال أفلاطون إن التعليم هو إخراج ما فى ذاكرة الناس من معلومات يعرفونها من قبل وهم لا يدرون . إن من يقف على المنبر ويكلم الناس باستعلاء معلم فاشل .. التعليم هو تعاون بين المعلم والمتعلم لاكتشاف شيء جديد .

وهناك بعض الصفات التى يجب أن يتحلى بها المعلم :

(أ) يجب أن يتحلى **بالإدراك العميق** : فإحدى ضعفات الرعاة هى عدم تقديرهم للصعوبة التى يجدها الرجل العلمانى فى تفهم مرادهم ، ولكن المعلم الحقيقى هو من يفكر بعقل المتعلمين ويرى الأشياء من خلال عيونهم ؛ هو من يقدر موقفهم ويضع نفسه فى مركزهم ، وبهذا يستطيع أن يعطيهم ما يفيد .

(ب) يجب أن **يتحلى بالصبر** : قال هليل (المعلم اليهودى الكبير) : « الرجل العصبى لا يمكن أن يكون معلما ناجحاً » . وأولى صفات المعلم هى أن يضبط نفسه ، ولقد كان من عادة المعلمين اليهود أن يعيدوا شرح الموضوع مرة ومرات حتى يفهمه التلاميذ ، كل ذلك بدون عصبية أو غضب . وهذا بالضبط ما كان يسوع يفعله .

(ج) يجب أن يتحلى **باللطف** : لقد كان قانون التعليم اليهودى يمنع العقاب وخاصة ما يحقر التلميذ ، وكان على المعلم دائما أن يشجع الطالب . وتقول حنة بوكان « لا تحقر الشباب » وما أسهل أن يُظهر المعلم براعته فى توبيخ التلميذ ومحاولة لذعه بالكلمات الشديدة ، ولكن هذا التوبيخ سوف يضر الاثنين معاً . والمعلم اللطيف لا يعمل ذلك أبداً .

على أن هذا الفصل لا يقتصر على إظهار فضائل المعلم الناجح فقط بل يظهر كذلك صفات المتعلم الناجح ، إذ يظهر طبيعة هذه الدائرة الضيقة من التلاميذ التى تحيط بالمسيح .

(د) فالمتعلم الناجح لا يتعلم **لكي ينسى** : يجب أن يتفكر فيما سمعه وتعلمه حتى يكتشف ما فيه من حق لنفسه . يقول ابيكتيتس الفيلسوف الرواقى « إن التلميذ الغبى يخزن أما الذكى فهو الذى يستخدم ما يسمعه ويتعلمه ، فالغنم لا تتقيأ ما تأكله لتظهر للراعى كم أكلت بل تهضم ما أكلته وتحوله إلى صوف ولبن . هكذا المتعلم يجب أن يفتكر فيما تعلمه وأن يطبقه على حياته حتى يصبح جزءاً من نفسه .

(هـ) والمتعلم النابه يجب **ألا يترك معلمه** : بعد أن انتهى يسوع من تعليمه تركته الجموع لكن جماعة صغيرة التصقت به ولم تتركه حتى يشرح لهم المثل ، فنحن نحتاج إلى التعليم العظيم بقدر ما نحتاج إلى المعلم العظيم . فرسالته الحقيقية ليست فيما يقوله بل فيما يكونه ، ولهذا فكل من يريد أن يتعلم من المسيح فليصحبه ، وإن فعل ذلك فلسوف ينال ليس فقط علماً بل حياة .

السلام فى حضرته

(مرقس ٤ : ٣٥ ــ ٤١)

تعتبر بحيرة الجليل من البحيرات المضطربة ، التى تهب عليها العواصف فجأة وبدون توقع ، وكما قال أحدهم « قد يحدث أن تهب عاصفة شديدة فجأة بينما لا تجد فى الجو علامة على أية عاصفة ، فالفتحات المختلفة من الشمال الشرقى والشرق تجذب الرياح القادمة من أعالى حوران ومن قمم حرمون وتدفعها على هذه البحيرة الضيقة فتسير بقوة شديدة فترتفع الأمواج فى هذه البحيرة فجأة وتحدث العاصفة المروعة فجأة ، وأهالى تلك المنطقة يألفون هذه الظاهرة الغريبة .

وفى تلك الحادثة التى يذكرها هذا الفصل ، كان يسوع فى المؤخرة حيث كان يجلس كبار المسافرين عادة ، وإلى جواره رجل آخر يمسك بالدفة لكى يدير السفينة .

ومن المناسب أن نلاحظ أن الكلمات التى نطق بها يسوع ليسكت البحر هى نفس الكلمات التى أخرج بها الشياطين ، ولقد كان الناس فى القديم يعتقدون أن الأرواح النجسة تعمل بنفس القوة فى الطبيعة لخلق العواصف المخربة وغيرها من الظواهر التى تعمل على الإضرار بنفس الإنسان وحياته . (لاحظ مرقس ١ : ١٥) .

وفى تفسير هذه الحادثة قد نقلل من شأنها كثيراً لو أخذناها فقط من الناحية الطبيعية . نعم إنها معجزة عظيمة وغريبة فعلها يسوع نقرأها وندهش لعظمتها ، لكننا إذ نفسرها أيضاً تفسيراً مجازياً ، بمعنى أن التلاميذ فى وسط العاصفة الشديدة لمسوا الهدوء وأحسوا بالسلام عندما عرفوا أن يسوع فى وسطهم ، كما أن كل مؤمن فى وسط عواصف الحياة عندما يتحقق من وجود يسوع تنتهى كل المخاوف وتزول كل الاضطرابات المزعجة .

١ ــ فهو يعطينا سلاماً فى وسط **عواصف الحزن** : فعندما نفقد عزيزا علينا نجد يسوع بجوارنا يهدىء عواصف الحزن ، إنه يحول ظلمة الموت إلى نور الحياة يعلن لنا المجد السماوى ، ويكشف

عن سر محبة الله العميقة . كان البستانى يحب زهرة جميلة جداً فى البستان الذى يعمل فيه ، ويوما ما عندما استيقظ من النوم وجد أن الزهرة قد اختفت فانزعج واضطرب وأخذ يشكو لكل من يقابله ، وأخيراً قابل صاحب البستان وأخبره عن حزنه على فقد الزهرة ، فأجابه السيد قائلا « لقد أخذتها لنفسى » . وهكذا يفعل يسوع إذ يؤكد لنا أن الذين فارقونا قد ذهبوا إلى الآب وسوف نقابلهم .

٢ ـــ يعطينا السلام فى وسط **المشاكل** : وخصوصاً عندما تلفنا بالشك والخوف . وفى أحيان كثيرة نقف فى مفترق الطرق لا ندرى أى سبيل نسلك ، ولكن عندما نرفع وجوهنا إلى أعلى قائلين « يارب أى طريق تريدنى أن أسلك » . عندئذ ينفتح الطريق الأمين . إن المشكلة ليست فى أننى مرات كثيرة أجهل ما أعمله ، بل فى أننى لا أحاول أن أحمل شكى وجهلى هذا إلى الله ، ولكن عندما نخضع لإرادة الله نتمتع بالسلام الكامل الحقيقى .

٣ ـــ يعطينا سلاماً فى وسط **القلق** : إن أقسى عدو للسلام هو القلق . القلق لأجل أنفسنا والقلق لأجل من نحب ، ولكن يسوع يكشف لنا عن الله الآب الذى يحب أولاده ، ولا يسمح لهم بالبكاء بل يمد يده ويمسح دموعهم ، إن محبته لهم تفوق محبتنا لهم . فى هذا نجد سلام وراحة .

الأصحاح الخامس

طرد الشياطين

(مرقس ٥ : ١ ــ ١٣)

هذه قصة حية وهى من ذلك النوع الذى يجعلنا نقرأ ما بين السطور ، فموضوعها غريب عن اختبارنا فى هذه القرون الحديثة ، بينما كان مألوفاً كثير الانتشار أيام يسوع .

وقد ربطنا هذه الحادثة بما سبقها ــ وهذا ما كان يقصده مرقس ــ فلابد أنها حدثت بعد غروب الشمس بوقت طويل ، وهذا مما يزيد فى رعبها . عدد ٣٥ من الأصحاح السابق يذكر أن يسوع ركب السفينة مع مرافقيه عندما أخذ النهار يميل وكان عرض البحيرة حوالى خمسة أميال فى المكان الذى عبر فيه يسوع (طول البحيرة ١٣ ميلا وأقصى اتساع لها ٨ أميال) . وفى طريقهم قابلتهم العاصفة إلى أن وصلوا إلى الجرف . وكان مملوءا بالكهوف الضيقة التى استخدمها سكان تلك المنطقة فى دفن موتاهم ، وكان الناس يعتقدون أن هذا المكان هو أحد الأمكنة الصالحة لسكنى الشياطين . فمن عادة الشياطين أن تسكن فى الغابات والكهوف والأمكنة القذرة الموحشة . ولهذا فقد سكن هناك فى ذلك المكان الموحش هذا الرجل المملوء بالأرواح الشريرة . ولم يجرؤ أحد أن يسير فى ذلك المكان فى هذا الوقت لئلا يقابله شيطان فيؤذيه وخصوصاً إذا لم يكن معه نورا أو سلاحا .

أما عن هذا الرجل فقد كان يعرف أنه مملوء بالأرواح النجسة ، وعندما كان يتكلم كان يستخدم تارة لفظة المفرد وأخرى صيغة الجمع ، وعندما سئل عن اسمه ذكر أن اسمه لجئون : وقد تعنى هذه اللفظة أحد أمرين : فقد تعنى عدداً كثيراً من الشياطين إذ أن اللجئون كان اسم فرقة رومانية عدد رجالها حوالى ستة آلاف عسكرى . وقد كان اليهود يعتقدون أن الهواء مملوء بالشياطين وأن حوالى ألف منهم على يمين كل إنسان وعشرة آلاف على يساره . وكانوا يظنون أيضاً أن ملكة الأرواح لها حوالى ١٨٠٠٠٠ مائة وثمانون الفاً من الأرواح الشريرة التى تقف فى طريق كل إنسان لتوقعه فى الخطر . هذا من ناحية العدد . ولكن الرجل ربما كان يعنى شيئاً آخر وهو أن اللجئون هو رمز للغدر والقسوة وسفك الدماء ، وقد تكون تلك الكلمة مرتبطة بحادثة فظيعة حدثت أمام عينى هذا المسكين . فاللجئون بهذه الصفة رمز وعلامة على التخريب .

ولقد كانت هذه حالة خطرة فيها حاولت الأرواح أن تتمرد بعد أن أمرها أن تخرج من الرجل المسكين ، فسأله عن اسمه ، وهناك عقيدة أن من يعرف اسم الشيطان فقد امتلك ناصيته واستطاع أن يهزمه . وعندما خرجت الشياطين طلبت أن تذهب إلى الخنازير التى كانت موجودة فى تلك المنطقة وعندما أذن لها اندفعت من على الجرف وغرقت .

إن صعوبة هذه القصة تكمن فى عدم خبرتنا نحن ، فقد يظن الرجل الحديث أن هذا الرجل كان مملوءا بالأوهام والخيالات ، ولكن حتى ولو اعتقدنا ذلك جدلا فلنذكر أن هذا الرجل كان

يعرف تماما أنه مملوء بالشياطين ، فلا نستهين بهذه الحالة المروعة التى اجتازها هذا الرجل .

ولكن على الجانب الآخر من الصورة نجد أولئك المتعصبين الذين استشاطوا غضباً عندما وجدوا أن شفاء الرجل قد كلف الناحية التى يقطنون فيها مجموعة كبيرة من الخنازير ، ولا شك فى أن هذا رأى أعمى إذ يفضلون مصير الخنازير على مصير هذه النفس الخالدة التى خلقها الله على صورته . ونحن وإن كنا نذبح الحيوانات والطيور لكى نعيش على لحومها ونقوى أجسادنا أفليس بالأحرى أن نسر أن إنساناً ــ خلق على صورة الله ــ قد شفى نفسياً وروحياً حتى ولو كلفنا ذلك مجموعة من الخنازير؟ نعم إن الله يحب كل المخلوقات التى صنعتها يمينه ولكن هناك أفضليات فاصل بينها ، ولابد أن الإنسان عنده يساوى الآلاف منها . فهو منه وله .

الذين طلبوا من يسوع أن يتركهم

(مرقس ٥ : ١٤ ــ ١٧)

عندما رأى رعاة الخنازير ما حدث هربوا إلى المدينة وأخبروا الناس بما حدث ، فأسرع الناس إلى حيث كان يسوع ، ونظروا إلى الإنسان الذى كان مجنونا فرأوه جالساً ولابساً وعاقلا . وعندئذ حدثت المفاجأة : لقد طلبوا من يسوع أن يترك قريتهم فى الحال . أليس هذا موقفاً غريباً ؟ فبدلا من أن يفرحوا لأن إنساناً منهم قد رجع إلى حالته الطبيعية وحياته العادية يحزنون لأجل مجموعة من الخنازير تموت منهم ، بدلا من أن يطلبوا من يسوع أن يبقى معهم ليعمل معجزاته العجيبة ، يطلبون منه أن يترك تخومهم ، لماذا ؟ هل لأن رجلا شفى وخنازيرهم ماتت ؟ نعم إنهم عاشوا فى هذا الروتين ، ولقد جاء شخص قلب لهم روتينهم العادى فليلفظوا هذا الغريب .. ليخرج يسوع . هذه هى صيحة المعركة للعقل البشرى « لا تقلقنى » . لقد كان مطلب هذه الجماعة أن يتركهم يسوع لوحدهم .

١ ــ لقد قالوا : **لا تقلق راحتنا** « وهذه هى الطبيعة البشرية » ، فإن قال أحدهم لجماعة يعيشون فى بحبوحة من العيش : سأعطيكم عالماً فيه تعيش الكثرة من الناس فى راحة وطمأنينة ، بدلا من عالمكم الحزين هذا ، وفى سبيل ذلك ستهتز حياتكم أنتم وتتنازلون عن ملذاتكم وحياتكم المترفة .. فما رأيكم ؟ » إن الجواب الطبيعى لذلك « أتركنا نسير كما نحن .. أترك الأمور كما هى » هذا هو ما يحدث فى هذه الأيام التى فيها تسير القوى فى اتجاه إسعاد الغالبية من الناس على حساب أن تتنازل القلة المترفة عن شىء من ترفها وتنعمها . وهذا هو السبب الرئيسى فى الشكوى العالية التى تطلقها هذه القلة المترفة ، إنهم يتكلمون كثيراً عن فضلهم على الحياة وأعمالهم فى سبيل الخير ، ولكن الحقيقة هى أنهم يدينون للحياة بكل شىء .. وعندما يضحون بشىء من غناهم فهم لا يضحون بما للحياة عندهم . ونحن لا نملك شيئاً كل ما لنا من الله .. إنه أعطانا الخلاص .. أعطانا مجد السماء فى مقابل بعض التضحيات الأرضية . إن الطبيعة البشرية هى التى لا تريد الإزعاج فى سبيل راحة الغير ، ولكن الطبيعة الإلهية هى التى تضحى من راحتها لكى يستريح الآخرون .

٢ ـــ يقولون « لا تمس ممتلكاتنا » لا يوجد من يسهل عليه التفريط فى ممتلكاته ، وكلما تقدم العمر بالإنسان كلما تمسك بما يمتلك . ويذكر بورور أن المنجمين كانوا يكسبون معيشتهم بأن يخبروا صغار السن أنهم سيصادفون المسرات ولكبار السن أنهم سيصبحون أثرياء « لأنهم يعرفون الطبيعة البشرية ويعرفون أن آخر رغبة تموت فيها هى محبة المال . ومن يريد أن يعرف مقدار تمسك الشخص بمبادئه وديانته فليعرف : كم يضحى من أجل هذه المبادىء أو هذا الإيمان .

٣ ـــ يقولون « لا تمس ديانتى » .

(أ) يقول الناس أحياناً « لا تتكلم عن الأمور المقبضة ، دعنا فى فرحنا » . ولقد أشار أدموند جوس إلى نقص كبير فى مواعظ الواعظ الشهير جيرمى تايلور إذ قال « إن هذه المواعظ تعتبر من أعظم ما قيل فى اللغة الإنجليزية ، ولكنها مع ذلك تخلو من أصوات الحياة الحقيقية التى أحاطت بالواعظ ، « فلم نسمع منها صوت الفقراء وأنينهم ، ولم نر فيها صورة الألم والحزن ، لأولئك الذين رفعوا عيونهم إلى فوق صارخين مستنجدين ، أيضا لم نسمع صدى أصواتهم ، بل عاش الواعظ بعيداً عن هذه الخلائق المسكينة » . إن كثيرين من وعاظنا يعيشون على العقائد واللاهوت ، ولكنهم يتركون ما يحيط بالإنسان من مشكلات فى وعظهم ، لربما كان ذلك لأن كنائسهم طلبت منهم ذلك ، ولكن لنذكر أن كلام يسوع عن الله لم يثر عليه الأعداء ولكن كلامه عن الإنسان وحاجاته هو الذى أثار المتزمتين فى أيامه .

(ب) ويقولون « **لاتدع العلاقات الشخصية تزعجنا فى ديانتنا** » يذكر جيمس بورنز قصة غريبة عن إنجيلا فوليجراس المتصوفة الإيطالية الشهيرة وعن مدى تحللها من الارتباطات العالمية فى سبيل صلتها بالله ، فيذكر عنها أنها قالت « يوماً ما شاءت إرادة الله الصالحة أن تموت أمى التى عاقتنى كثيراً عن اتباع الله ، ثم مات زوجى ، وفى وقت قصير مات كل أولادى ، ولقد كان هذا استجابة لصلاتى التى رفعتها إلى الله عندما بدأت أسير فى طريقى .. طريق التخلص من كل العلاقات العالمية والارتباط بالله وحده ، ولم أهتم كثيراً بموتهم ومع ذلك شعرت ببعض الحزن » . معنى ذلك أن عائلتها كانت العقبة الوحيدة فى سبيل ديانتها ، ولكم نجد الكثيرين من هذا النوع الذى يفضل العمل فى اللجان العامة عن عمله فى منزله ، فاللجان لا تتعب كثيراً كما تفعل الخدمة فى البيت ، ورغم الخدمة التى يؤديها هؤلاء فى الكنيسة ولجانها ، لكن الله يرى أنهم اتجهوا اتجاهاً غير صحيح :

(ج) « **لا تدع عقيدتى تهتز** » هناك بعض الناس يعتقدون أن أفضل عقيدة لنا هى ما كان يتمسك بها آباؤنا ، وبذلك لا يريدون أن يعرفوا أى جديد لأنهم لا يريدون أن يتعبوا عقولهم فى البحث والتنقيب . إن صنفاً كهذا عنده جبن فكرى وسبات عقلى وتخدير نفسى ، وهذه كلها أمراض فظيعة .

لقد طرد الجدريون هذا الإنسان المزعج لهم ، المقلق لراحتهم ، وكم من أناس بيننا يحاولون أن يفعلوا هذا .

شاهد للمسيح

(مرقس ٥ : ١٨ — ٢٠)

إن أهم شيء فى هذا الفصل هو ذكر المكان الذى حدثت فيه هذه المعجزة : وياكوبوليس أو المدن العشر . هذه المدن العشر لها أهمية خاصة وامتيازات ليست للمدن الأخرى ، كانت تقع على الجانب الشرقى من نهر الأردن ما عدا واحدة واسمها سيزوبوليس ، أما التسع الباقية وهى : بيلا ، ديون ، جيراسا ، فيلادلفيا ،جدارا ، رافانا ، كاناثا ، هيبوس ، دمشق ، فكانت جميعها تقع على الشاطىء الشرقى للأردن ، ولقد تأسست هذه المدن فى أثناء الفتوحات الواسعة التى قام بها الإسكندر الأكبر ، فكانت مدناً إغريقية ، كل ما فيها ينطق بالمدنية اليونانية . أما وضعها السياسى فكان وضعاً غريباً فمع وجودها فى سوريا لكنها كانت مستقلة لها مجلسها النيابى ، وعملتها الخاصة ، وإدارتها المستقلة ، كان لها الحرية فى التحالف التجارى والعسكرى مع غيرها . واستمر حالها هكذا حتى أخضعها المكابيون فصبغوها بالصبغة اليهودية ، ولكنها تحررت من اليهود على يد بومباى الإمبراطور الرومانى ، وصارت تدفع الجزية للرومان وتقدم أبناءها للخدمة العسكرية . وعندما وجدت نفسها ضعيفة اتحدت فى تحالف عسكرى لصد الغزو العربى أو اليهودى . أما ديانتها فكانت ديانة اليونان بآلهتها الكثيرة ومعابدها الكبيرة ، ومسارحها الضخمة ، فى هذه المدن الأممية ذهب يسوع وعمل معجزاته .. فأعلن بذلك أن المسيحية ليست ديانة أمة واحدة أو جنس واحد ، بل للجميع . ليست لليهود فقط بل للأمم أيضاً . نعم كانت هذه هى الشرارة الأولى التى أطلقها السيد فى المدن التى أنجبت : فيلوديموس الفيلسوف الرواقى الشهير الذى عاصر سيشرون ومليبجر سيد الأمثال اليونانية . ومينبوس الساخر وتيودورس الشاعر الذى كان معلماً لطيباريوس الإمبراطور .. وكانت هذه الشرارة بدء عصر جديد .

ومن هذه العجالة نستطيع أن نعرف السبب الذى لأجله أرسل يسوع الرجل إلى بلاده :

١ — ليكون شاهداً للمسيحية ، إنه شهادة حية متحركة مقنعة مفحمة على ما يستطيع يسوع أن يفعله للإنسان . إن مجدنا ليس فى ما نعمله ليسوع بل فى ما يعمله فينا يسوع ، إنه يخلقنا من جديد . هذا برهان المسيحية القاطع .

٢ — إنه البذرة الأولى التى سوف تكبر لتصبح حصاداً جباراً . لقد بدأت المسيحية صلتها الأولى بالحضارة اليونانية فى المدن العشر . نعم لقد بدأ هذا اللقاء الذى ألهب العبقرية اليونانية بواسطة رجل كانت به أرواح نجسة وشفاه يسوع .. لابد أن يبدأ يسوع بإنسان .. فلماذا لا يبدأ بى وبك كل فى دائرته ومجتمعه ؟؟

فى ساعة الحاجة

(مرقس ٥ : ٢١ — ٢٤)

تكمن فى هذه القصة كل عناصر المأساة فالمأساة تكمن فى مرض الأطفال كما حدث لابنة يايرس رئيس المجمع . كانت هذه الفتاة فى سن الثانية عشرة أى على أعتاب النضج كأى امرأة ، حسب العوائد اليهودية . أما يايرس نفسه فقد كان رجلا له أهميته الخاصة فى المجتمع اليهودى لأنه كان رئيس المجمع : وهذه الوظيفة تخوله الإشراف الكلى على كل ما يجرى فى المجمع . كان يشرف على الخدمة الدينية ، وإن كان لا يشترك فيها ، كان يشرف على الإدارة ويرتب كل عمل إدارى بكل نظام وتدقيق .. كان رجلا له المركز الكبير .. وكان فى مجيئه إلى يسوع علامات كثيرة لا تفوتنا .

١ — من المقطوع به أن يايرس — كرئيس للمجمع — كان ينظر إلى يسوع كشخص خارج على ديانته ، مطرود من المجمع ، ولا يجوز ليهودى مخلص أن يتعامل معه ، كان هذا هو رأى يايرس ، ولكن الرجل كان عظيما لدرجة أنه **نسى كل تعصبه** عند ساعة الحاجة ، فجاء إلى يسوع طالباً منه المعونة . وفى نهاية المطاف ما هو التعصب ؟ أليس هو الحكم على الأشياء قبل فحصها ؟ لذلك فهو شر كبير وعقبة كأداء فى سبيل كل تقدم ، فلم يكن هناك نوع من التقدم فى ميدان من الميادين البشرية إلا وكان التعصب عدواً قاسياً له ، وعندما اكتشف سير جيمس سمسون الكلوروفورم كمخدر خاصة فى حالات الولادة كان التعصب والتحيز واقفاله بالمرصاد . وقيل عن الكلوروفورم « إنه البركة التى اخترعها الشيطان ليريح النساء ، ولكن لكى يحول وجوههن عن الله فلا يصرخن طلباً للمعونة فى وقت الشدة » . إن التعصب لعنة بغيضة تحرم صاحبها من كثير من البركات .

٢ — نسى مركزه الكبير : هل يأتى شخص مثله ، رئيس مجمع اليهود ، ليرتمى عند قدمى معلم متجول طالباً منه المعونة ؟ نعم لقد جاء ، ففى ساعات الحاجة ينسى الإنسان مركزه ومجده ليخلص حياته أو نفسه من الضائقات . ألم يفعل ذلك نعمان السريانى عندما جاء إلى إليشع طالباً منه الشفاء ؟ كان ينتظر من إليشع أن يستقبله ، ولكن ذلك لم يفعل ؛ وماذا وصف له للعلاج ؟ أن يغطس فى مياه الأردن العكرة . أليس فى سوريا مياه أنقى من هذا النهر ؟ ولكن نعمان نسى عظمته فتركه البرص . هناك قصة مشهورة عن ديوجنيس الفيلسوف الساخر : فقد قيل إنه وقع أسيراً فى الحرب وبيع كعبد ، وبينما هو فى سوق النخاسة يعرض للبيع كان ينظر إلى السادة الذين جاءوا ليشتروا العبيد ، فرأى رجلا واقفاً فقال لمن يمسك به « بعنى لهذا الرجل ، إنه يحتاج إلى معلم » واشتراه الرجل ثم سلمه إدارة منزله وتعليم أولاده . وكان الرجل يكرر القول « لقد كان يوماً حسناً عندما دخل ديوجنيس بيتى لقد استفاد الرجل لأنه تنازل عن عظمته . ولكم تمسك إنسان بمركزه ولم يرد أن يتنازل عنه فحرم من بركات عظيمة .

٣ — نسى **كبرياءه** : لقد بذل هذا الرئيس جهداً كبيراً ليدرب نفسه على أن يطلب المعونة من يسوع ويصبح مديوناً له . فكل إنسان يتمنى ألا يكون مدينا لأحد بشىء بل أن يبقى دائما سيد مصيره . ولكن الخطوة الأولى فى المسيحية هى أن نشعر بديننا الكبير لله .

٤ ـــ لقد نسى **اصدقائه** : قد نتخيل أن أصدقاءه قد عرفوا أنه سيذهب ليطلب المساعدة من ذلك الناصرى ، ونستطيع أن نتخيل أنهم عارضوه وحاولوا أن يثنوه عن عزمه . ونبنى رأينا هذا على أمر غريب فعله وهو مجيئه بنفسه إلى يسوع وعدم إرسال رسول خاص يستدعيه فى وقت تحتاج ابنته إلى وجوده . أليس من المعقول أن أصدقاءه رفضوا أن يذهبوا إلى يسوع ؟ وعندما أحسوا أن الوقت يفوت بسرعة ألم يسرعوا إليه ويطلبوا منه ألا يتعب المعلم ؟ ولكنه كسر كل مشورة الأصدقاء ، بل ورأى كل الناس . ولعل أحكم الناس من ظن الآخرون أنه يتصرف بحماقة .

هنا إنسان نسى كل شيء ما عدا شيئاً واحداً هو أن يطلب المساعدة من يسوع ، ولأنه نسى ذلك فإنه سيذكر إلى الأبد أن يسوع هو المخلص .

الرجاء الأخير للمعذب

(مرقس ٥ : ٢٥ ـــ ٢٩)

هذه قصة إمرأة كانت تعانى من مرض كان منتشراً بكثرة فى تلك الأيام وكان يسبب كثيراً من الألم والتعب : مرض النزيف . ولقد اهتم التلمود بهذا المرض وعلاجه فوضع له مالا يقل عن ١١ علاجا مثل الأدوية المقوية أو القابضة ، ولكن كانت هناك أنواعاً أخرى من العلاج تبنى على الخرافات : كحمل رماد بيضة نعامة فى خرقة من التيل صيفاً ، ومن القطن شتاءا ، أو حمل سنبلة من القمح تؤخذ من مزود أتان بيضاء . ولابد أن هذه المرأة قد جربت كل هذه الأنواع سواء أكانت طبية أم خرافية ولكنها لم تستفد شيئاً بل صارت إلى حال أردأ صحياً وطقسيا (لاويين ١٥ : ٢٥ ـــ ٢٧) ولعل مرقس يتهكم على الأطباء عندما يذكر أنها أنفقت كل ما عندها ولم تستفد شيئاً بل صارت إلى حال أردأ ، ولا عجب فقد كان الأطباء دائماً محل انتقاد وتهكم : فيذكر أحدهم أنه ذهب إلى أطباء العيون وكانوا يدهنون عينيه بمراهم ، ولكن كلما أكثروا من علاجهم كلما ضاع نظر عينيه (طوبيت ٢ : ١٠).وفى المشنا ، وهى مجموعة التقاليد ـــ نجد نصيحة إلى الوالدين عن نوع الحرف التى يستحسن أن يعلموها للأبناء تسير هكذا « قال الربای يهوذا : إن أردأ الحرفيين هم سائقو الحمير ، وأكثرهم هدوءاً هم سائقو الجمال . وأكثرهم صلاحا هم الملاحون . ولكن أفضل الأحياء سيذهب الى الجحيم . وأفضل الجزارين هم أبناء عماليق » . ولكن إلى جانب ذلك يوجد هناك من يعطى الأطباء حقوقهم مثل كتاب يشوع بن سيراخ ـــ وهو كتاب من كتب الأبوكريفا ـــ عندما يقول :

علم الطبيب التعليم اللائق بمهنته ، لأن الله أمامه لهذه الخدمة .

فمن الله يأخذ الحكمة ومن الملك يأخذ المكافأة

إن مهارة الطبيب ترفع رأسه وتوقفه فى حضرة العظماء

لقد خلق الله الدواء من الأرض فلا تدع إنساناً محتاجاً يرفضه

بواسطة هذه الأدوية يخفف الطبيب الألم : كما يجهز صانع الأدوية الدهن حتى لا يتوقف عمل الأطباء ولا تنعدم الصحة من الأرض .

فلنعط مكاناً للطبيب ولا نبعده بعيداً لأننا فى حاجة إليه لأنه كثيراً ما تنجح مشورته وأعماله .

وهو أيضاً يصلى ويطلب من الله أن يجعل تشخيصه للمرض صحيحاً ودواءه الدواء المناسب للمرض .

ولكن الأطباء لم يستطيعوا أن يمنحوا هذه المسكينة الشفاء فذهبت إلى يسوع . ولكن فى تفكيرها قابلتها مشكلة عويصة : إنها لا تستطيع أن تواجه يسوع فى وسط الجموع المزدحمة وتطلب منه أن يشفيها فماذا تعمل ؟ لقد فكرت واهتدت إلى تفكير ، لتذهب وتلمس هدب ثوبه . ولقد كان كل يهودى تقى يلبس الرداء ويعمل به أربعة أهداب فى كل نهاية من ثوبه هدب طويل وذلك إطاعة للوصية الموجودة فى عدد ١٥ : ٣٨ — ٤٠ وذلك لكى يعلن أنه عضو فى شعب الله المختار . وذهبت هذه المرأة ولمست هدب يسوع وأحست بالشفاء التام يسرى فى جسدها .

هذه قصة امرأة يئست من كل شيء وأخيراً جاءت إلى يسوع . ولكم جاء الكثيرون مثلها إلى يسوع عندما فشلوا فى كل محاولة فعلوها . قد يفشل إنسان فى مقاومته للتجربة بعد الجهاد العنيف ، ولكن فى يأسه يصرخ « يارب نجنى إننى أهلك » . قد يعمل ويعمل إلى أن يحطمه العمل ، ولكن عندما يجد أن قوته قد فنيت يصرخ طلباً لقوة الله ؛ قد يحاول أن يصل إلى الكمال ولكنه يجد نفسه وقد انحدر فى الهاوية أكثر من قبل فيصرخ إلى يسوع .

إنه من الأفضل ألا نبقى بعيداً عن يسوع إلى أن ترغمنا الظروف على الإرتماء عند قدميه ، ولكن لو حدث ذلك لا تيأس فإنه سيقبلنا ، إنه لن يرسلنا فارغين .

ثمن الشفاء

(مرقس ٥ : ٣٠ — ٣٤)

فى هذا الفصل تتمثل ثلاث شخصيات .

١ — نعرف شيئاً عن يسوع : فهو قد بذل الكثير من نفسه عندما شفى هذه المرأة ، وهذا هو قانون الحياة ، فلن يستطيع المرء أن ينجح فى عمل ما لم يضع جزءاً من نفسه فيه . فالموسيقار لن يستطيع أن يخرج الموسيقى العالمية ما لم يضع نفسه فيها ، والممثل لن يستطيع أن ينجح فى عمله ما لم يسكب فيه نفسه ، ولن يستطيع أن يصل إلى القمة إن كان يسير ميكانيكياً على القواعد الموضوعة له ، ينبغى أن تكون دموعه دموعا حقيقية ، وشعوره لابد أن يكون نابعا من أعماقه . والواعظ الناجح هو الذى يشعر بعد أن ينزل من منبره أن جزءاً من نفسه قد أعطى للناس . يقول متى أرنولد الناقد الأدبى المشهور عن الطبقة الوسطى : « أنظر إلى هؤلاء الناس ، إلى ملابسهم إلى كتبهم التى يقرأونها ، إلى تفكيرهم . أليست خسارة لن تعوض بمال أن يكون الشخص واحداً

منهم » ؟ قد تكون هذه الكلمات خيالية ، ولكنها تخرج من شعور الاحتقار والاشمئزاز ، وشخص ينظر إلى الناس هكذا لن يستطيع أن يساعدهم ، ولكن استمع إلى موسى وهو يتضرع إلى الله أن يمحوه من كتابه إن أصر على هلاك هذا الشعب (خروج ٣٢ : ٣٠ — ٣٢) استمع إلى بولس وهو ينطق فى شعر ماير عندما نظر إلى العالم الضائع :

عندئذ أحسست بالدافع الذى يملأ نفسى بالقوة

دافع قوى مثل صوت البوق

ماذا أعمل لخلاصهم ، ولو هلكت لحياتهم

أموت ليعيشوا هم . أنفق لأجلهم أجمعين .

إن عظمة يسوع تكمن فى أنه كان مستعداً أن يدفع ثمن مساعدته للناس وهذا الثمن هو حياته نفسها . فإن أردنا أن نقتفى آثاره فلا نكتفى بأن ندفع من أموالنا بل أن ننفق من نفوسنا فى سبيل الآخرين .

٢ — نرى شيئاً عن التلاميذ : أنهم كانوا يهتمون كثيراً بما يدعى « الذوق العام » ، لقد ظنوا أن يسوع متطرف فى سؤاله عمن لمسه ، لأنه محاط بالناس من كل ناحية ، وبهذا أظهروا أنهم كانوا يجهلون مقدار الثمن الباهظ الذى كان يسوع يدفعه فى سبيل خدمته للناس ، وهذا ما يحزن النفوس الحساسة : إن الناس لا تقدر ما يتألمون به ومنه ، قد لا نختبر شيئاً ما ، فلا نقدر إحساسات أولئك الذين يجتازونه ، فنجرح فى مرات كثيرة شعور أولئك الذين نحبهم ، قد نصلى لأجل الذوق العام ، ولكن من الأفضل أن نصلى أن يعطينا الله الإحساس الرقيق حتى نعرف أعماق نفوس الناس .

٣ — يظهر شيئاً عن المرأة : إنه يخبرنا عن التعزية التى ينالها الشخص بعد أن يعترف بما فعله ، قد يكون من الصعوبة بمكان أن يعترف الإنسان ، ولكن ما أن يفعله يحس بالراحة . فقد زال الخوف من قلب هذه المرأة وأحست بالراحة ، وعندما اعترفت رأى الحنان يتدفق منه :

لا تدع ضميرك يعيقك عن التقدم إليه

لأنك غير مستحق فلن يقبلك

فكل الاستحقاقات التى يطلبها منك

هو أن تشعر بحاجتك إليه

إنه ليس من الصعب أن تعترف لشخص يستطيع أن يفهمك كيسوع

الرغبة والرجاء

(مرقس ٥ : ٣٥ ــ ٣٩)

إن عادات الجنازات اليهودية كانت قاسية ومروعة ، فقد كان يغلب عليها طابع الهلع للفراق الأبدى ، ولم يكن فيها أى نوع من الرجاء المسيحى .

فحالما يموت شخص ما ، كانت الصرخات العالية ترتفع فى البيت حتى تعلن هذا الخبر ثم تعلو أيضاً بجانب القبر ، ثم يجلس الحزانى بجوار الميت يطلبون منه أن يكلمهم ، يقرعون الصدور ، ويجزون الشعر ويشقون الملابس . وكان شق الملابس يسير بحسب قواعد مرعية : فالملابس تشق قبل موارة الجثة فى التراب بقليل ، ويجب أن يشق الثوب إلى حد مكان القلب بحيث لا تنزل أسفل الصدر ، وإن كان الميت أباً أو أما شق الثوب من ناحية الشمال على القلب ، ولكن فيما عدا ذلك فالناحية اليمنى . أما المرأة فتشق ثوبها الخارجى فقط فى الخفاء بحيث تلبس ثوبها الأسفل مقلوباً حتى لا يظهر شيء من جسدها . ويستمر الشخص لابسا ثوبه المشقوق سبعة أيام ثم يقفله كيفما اتفق ولكن فى نهاية الثلاثين يوما يصلح الثوب .

وإلى جانب ذلك كان الضرب على الناى ضرورة ملحة فى الجنازات ، ففى العالم القديم كله : اليهودية ، اليونان ، روما وغيرها كان الناى يرافق الجنازة وكان أفقر إنسان يستدعى اثنين من لاعبى الناى ليرافقا جنازة زوجته ، ويقول و . تايلر فى كتابه « Dictionary of christ and the gospel » إن لاعبى الناى ساروا فى جنازة الإمبراطور كلوديوس قيصر ، وعندما وصلت الأخبار إلى أورشليم عن سقوط يوتاباتا **Jotapata** فى يد الجيوش الرومانية استأجر معظم الناس لاعبى الناى ليقفوا فى وسط جموع الحزانى .

وهكذا كان أنين الناى وصراخ الحزانى ، ومخاطبة الجثة ، وتمزيق الملابس ، وجز الشعر كل هذه جعلت من البيت اليهودى فى وقت الجنازات مكاناً مروعاً مقبضاً

وفى أثناء الجنازة يمنع صاحب الميت من العمل ومن السفر . لا يلبس حذاء ولا يدهن نفسه . يجلس معصوب الرأس غير حليق ، يمنع من قراءة الشريعة أو الأنبياء ، لأن قراءة هذه الكتب يعد فرحا ، ولكن قد يقرأ أيوب أو إرميا أو المراثى ، لا يأكل إلا فى بيته ويمتنع عن أكل اللحوم وشرب الخمر .. لا يخرج من قريته إلا بعد ثلاثين يوما ، لا يستخدم مائدة بل يجلس على الأرض ، وكان يأكل بيضا مغموسا فى الرماد أو الملح وكانت هناك عادة غريبة وهى أن يخلى منزل الميت وثلاثة منازل على كل جانب من الماء حال حدوث الوفاة لأن الناس كانوا يعتقدون أن ملاك الموت كان يغسل سيفه من أقرب مكان للمياه . وإذا كان الميت صغيراً ولم يكن قد تزوج فإن خدمة زواج تجرى عند الدفن ، وطيلة مدة الجنازة لا يتبع الحزين الوصايا لأنه يعتبر مجنوناً من الحزن .

وكان يجب على الحزين أن يذهب إلى المجمع وعندما يقابله الناس كانوا يقولون « مبارك من يواسى الحزين » وتوجد صلاة تقال على اللحم فى بيت الحزن :

« مبارك أنت ياالله سيدنا ملك الكون ، إله آبائنا ، خالقنا ، فادينا ، مقدسنا ، قدوس يعقوب ، ملك الحياة ، الصالح ، أو عامل الصلاح ، إله الحق ، القاضى العادل الذى يحكم بالعدل ، الذى يأخذ النفس فى القضاء ويحكم لوحده فى الكون ، الذى يفعل ذلك بحسب مشيئته وحسب طرقه فى المحاكمة ، ونحن شعبه ، وعبيده ، وفى كل شيء يجب أن نحمده ونباركه ، الذى يحفظ شعبه فى كل مصائبه ويحفظنا فى هذه المصيبة . ومن هذا الصباح سيأتى بنا إلى الحياة والسلام . عز ياالله سيدنا كل حزانى أورشليم ، عَزّهم فى حزنهم ، وفرّحهم فى مصابهم كما تعزي الأم ابنها . مبارك أنت يا الله معزى صهيون الذى تبنى أورشليم » .

ويعتقد أن هذه الصلاة كتبت بعد كتابة العهد الجديد ولكنها تصف بصدق ماذا كان يحدث فى بيت هذه الفتاة .

الاختلاف الذى يعمله الإيمان

(مرقس ٥ : ٤٠ ـــ ٤٣)

إن أحلى كلمة ترن فى الآذان فى هذا الفصل هى « طاليثا قومى » وهى كلمة آرامية معناها « أيتها الصبية قومى » والأمر العجيب هنا هو كيف تدخل هذه الكلمة الأرامية فى هذا الكتاب اليونانى ؟ لماذا تبقى هناك ؟ السبب واحد : وهو أن مرقس سمعها من بطرس ؛ وقد كان بطرس أحد الثلاثة الذين اختيروا ليدخلوا مع يسوع إلى الداخل ، وسمع بطرس يسوع يقول لهذه الفتاة : « طاليثا قومى » ، وكان وقعها قوياً على مسامعه ؛ فلصقت فى ذاكرته ، ولم تستطع السنون أن تمحو منها تلك النغمة المحببة اللطيفة ، فأضحى لذلك يرددها فى نبرتها الأصلية ، فلم تستطع اللغة اليونانية أن تمحو ذكراها . وفى هذا الفصل نجد المتناقضات توضع بعضها بجانب البعض .

١ ـــ فهناك اليأس بجانب الرجاء .. يأس الحزانى ورجاء يسوع .. أولئك يقولون « لا تتعب المعلم .. لا شيء يمكن عمله الآن » ويسوع يقول « لا تخف .. آمن فقط » . ما أكبر الهوة بين نبرة اليأس والفشل ونبرة الرجاء والقوة .

٢ ـــ هناك الحزن الجامح بجانب الثقة الهادئة : فهناك الصراخ والعويل وجز الشعر وشق الثياب وهنا الهدوء والثقة وضبط النفس .

ولكن ما سبب هذا الاختلاف الكبير ؟ سببه ثقة يسوع الكاملة فى الله ، فأقسى التجارب وأمر الضيقات نستطيع أن نقابلها ومعنا الله ، لقد ضحكوا عليه لأنهم ظنوا أن رجاءه لا أساس له ، ولكن الحياة المسيحية تعرف أين نصرتها فالغير مستطاع عند الناس هو مستطاع عند الله ، إن ما لا يستطيع أن يتخيله الناس يستطيع أن يحققه الله . لقد ضحكوا عليه ولكن ضحكهم تحول إلى إندهاش وتعجب عندما قامت الصبية ، ليس هناك موقف لا يستطيع الإنسان أن يواجهه ـــ حتى ولو كان الموت ـــ ما دام يواجه كل شيء وهو يشعر بمحبة الله فى المسيح يسوع ربنا .

الأصحاح السادس

بلا كرامة فى وطنه

(مرقس ٦ : ١ — ٦)

عندما جاء يسوع إلى الناصرة وضع نفسه فى مأزق حرج ، فهو يأتى إلى المدينة التى تربى فيها . ولا يوجد هناك أقسى من المكان الذى نبت فيه الشخص وعرفه الجميع . عرفوا أصله وفصله ومنبته ، ولم يأت ، كشخص عادى تغيب عن بلده ورجع إليها ، ولكنه رجع كمعلم يهودى كبير له مجموعة من تلاميذه ، كما كانت العادة فى ذلك العصر ، وعندما جاء دخل إلى المجمع وبدأ يعلم ، واستقبله الناس بالتهكم لا بالتعجب ، لأنهم يعرفون أهله ، وتعثروا فيه .. لقد ولدت معرفتهم له احتقاراً لتعاليمه .

ولقد رفضوا أن يصغوا إليه لسببين

١ — لقد جابهوه بالكلام أليس هذا النجار ؟ والكلمة المترجمة نجار هى تكتون : Teckton ومعناه الشخص الذى يعمل فى الخشب ، ليس فقط قاطع أخشاب بل رجل مهنته أن يحيل الخشب إلى شكل من الأشكال ، وكان هؤلاء الناس منتشرين قديماً وخاصة فى القرى والمدن الصغيرة . يستطيع الواحد منهم أن يعمل كل شيء من حظيرة الفراخ إلى المنزل الكبير .. إنه يعمل بيديه بأشياء بسيطة وآلات قليلة كل الأشياء . لقد كان يسوع واحداً منهم . لكن الناس لم يحتقروا يسوع لكونه عاملا فى الخشب أو نجاراً ولكن لكونه عاملا .. يعمل بيديه .. إنه من عامة الشعب .. رجل بسيط . قد تسمع عن ول كركس أحد قادة الحركة العُمالية العظماء يذكر هو عن نفسه أنه عمل حداداً بأجر أسبوعى قدره خمسة شلنات أسبوعياً ، ولكنه برع وأصبح أمهر وأشجع العمال ، ثم دخل الميدان السياسى وانتخب قائداً للعمال وعمدة الحى العمالى فى لندن .وفى مرة كان يقف فى وسط جمع حاشد سمع سيدة تقول باحتقار « كيف ينتخبون رجلا كهذا عمدة ؟ إن شكله لازال على شكل العمال » فالتفت إليها وقال نعم « ياسيدتى إننى لازلت عاملاً » وهكذا كان أهل الناصرة يحتقرون يسوع لأنه كان عاملا ، ولكننا نحن نرى فى ذلك قمة مجده ، لأننا نعرف أن الله عندما زار أرضنا لم يفرق بين إنسان وآخر ، لقد عاش حياة الناس الفقراء البسطاء ، إن الأصل والعمل لا يؤثران فى رجولة الفرد كما قال بوب .

إن قيمة الإنسان فى شخصه واحتياج الناس إليه

أما باقى الأشياء فهى كالإطار الخارجى

لنحذر دائماً من أن نقدر قيمة الإنسان بالأمور الخارجية الظاهرية ونترك القيمة الأساسية الحقيقة التى هى شخصيته واحتياج الناس له .

٢ — قالوا : أليس هذا ابن مريم : « ألسنا نعرف إخوته وأخواته » . من هذا القول يتضح أن

يوسف قد مات ، ونستطيع أن نعرف شيئاً عن حياة يسوع لقد كان ابن ثلاثين سنة عندما مات ، ولم يخرج إلى الخدمة إلا فى سن الثلاثين (لو ٣ : ٢٣) . وكثيراً ما كان المرء يتساءل : لماذا تأخر هكذا فى رسالته والعالم كله كان يحتاج إليه ؟ السبب لأنه أخذ على عاتقه مسئولية أسرته الصغيرة ، وظل يعمل ليعولهم إلى أن كبروا وتحملوا هم مسئولية المنزل وعندئذ خرج ليؤدى الرسالة . لقد كان أمينا فى الدائرة الصغيرة فأعطاه الآب المسئولية الكبرى . كان توماس كامبل الشاعر المشهور يعرف أن أباه لا يفهم شيئا فى الشعر ، ولكنه لما أخرج أول ديوان له أرسله إلى أبيه ، فأمسك الوالد بالكتاب ولم يلتفت إلى ما بداخله بل إلى تجليده الفاخر وقال « من كان يظن أن توم يكتب هذا الكتاب ؟ » . ففى مرات تولد الصلة لا احتراما متزايداً بل عدم معرفة ، وقد نكون قريبين ممن لنا بدرجة ألا نعرف عظمتهم .

وكانت نتيجة كل هذا أن يسوع لم يستطع أن يعمل معجزة واحدة ، إن الجو كان غير صالح لعمل المعجزات وهناك بعض الأشياء لا يمكن عملها فى الجو الغير صالح لها .

١ — إن من يرفض أن يشفى لا يمكن شفاؤه . تذكر مارجوت اسكويت عن موت ن . تشمبرلين الذى أدى فشل سياسته إلى انكسار قلبه ، وتقول إنها قابلت طبيبه الخاص لورد هوردر وقالت له « هل أنت طبيب حقا ؟ فلقد كان تشمبرلين أكبر من ونستون تشرشر قليلا وكان رجلا قويا .. فهل كنت تحبه ؟ » فأجاب هوردر « نعم كنت أحبه جدا ، وأحب كل من لا يحبهم الناس ، لقد رأيت كثيراً من الناس ، لقد كان تشمبرلين يقاسى من الشعور بالخجل ، وكان يود لو أنه مات ، وعندما يتمنى الموت لا يستطيع أى طبيب أن ينقذه من الموت » . قد نسميه إرادة الحياة أما الشيء المهم فيه فإنه بدون هذا الإحساس لا يستطيع الإنسان أن يعيش .

٢ — لا يمكن أن يثمر الوعظ فى الوسط الذى لا يرغب وعظا . لو عرف أعضاء الكنائس أن نصف نجاح العظة يتوقف عليهم لتغيرت كنائسنا ، إن موقف المستمعين الناقد البارد يضعف عزيمة أعظم الوعاظ ، أما إذا كان المستمعون فى حالة توقع وانتظار فإن أضعف الوعاظ سيكون له أعظم التأثير .

٣ — لا يمكن أن يكون هناك سلام فى مكان لا يريد السلام : من يريد أن يعيش بالكراهية يكره الناس ، ومن يريد أن يسيء فهم الناس يسهل عليه أن يفعل ذلك ، ومن يريد ألا يعرف غير وجهة نظره لا يسمع للآخرين ، ولكن إذا اتحد الناس فى محبة يسوع وفى محبة بعضهم البعض فإن أبعد الناس سيتحدون معا فى المسيح .

إن مسئولية ضخمة وضعت علينا ولا نستطيع أن نتخلص منها وهى إما أن نكون واسطة فى دفع العجلة إلى الأمام وامتداد ملكوت الله ، وإما أن نعطله ، إما أن نفتح الباب له وإما أن نوصده فى وجهه .

بشيرو الملك

(مرقس ٦ : ٧ ـــ ١١)

نستطيع أن نفهم هذا الفصل جيداً لو عرفنا ماذا كان يلبس اليهود ، فاليهودى كان يلبس عادة خمس قطع من الملابس :

١ ـــ القميص وهو اللباس الداخلى ، وهو عبارة عن قطعة من القماش حيكت من الجنب ، مثل الكيس الذى له فتحتان من الجانبين لدخول الذراعين وكان هذا القميص يباع بدون فتحة للرأس وذلك لسببين : لكى يظهر أنه لم يستعمل بعد ولأن الفتحات تختلف بين الرجال والنساء ، ففتحة الرأس عند النساء يجب أن تكون أكبر حتى تستطيع المرأة أن ترضع طفلها ، وقد يعمل لهذا القميص أكمام ، وقد يكون مفتوحاً من الأمام ويقفل بواسطة أزرار .

٢ ـــ الرداء الخارجى واسمه العباءة أو الشملة ، وكان يستخدم رداء فى النهار وغطاءً بالليل . إتساعه سبعة أقدام وطوله أربعة أقدام ونصف ، وأكمامه على الجانبين . عادة يصنع من قطعتين من القماش إتساع كل منها سبعة أقدام وارتفاعها أكبر قليلا من قدمين ، وتكون الحياكة من على الظهر ، أما الأردية الغالية الثمن فكانت تعمل من قطعة واحدة كرداء يسوع (يوحنا ١٩ : ٢٣) وقد كان الرداء اللباس الرئيسى .

الشىء الثالث هو المنطقة : وهى تربط على القميص والرداء معاً ويمكن أن يربط القميص تحت المنطقة إذا كان الشخص يعمل أو يجرى ، أو فوق المنطقة لكى يحمل شيئاً ، وكانت المنطقة من طبقتين عرض كل منهما قدم ونصف وكانوا يحملون أموالهم بين الطبقتين .

٤ ـــ لباس الرأس : عبارة عن قطعة من التيل أو القطن حوالى ياردة مربعة وقد تكون بيضاء أو زرقاء أو سوداء ، أحيانا تعمل من الحرير الملون ، وتلف حول الرأس بطريقة تحمى الرقبة والجبهة والعينين من حرارة الشمس ، وتربط على الرأس بحزام من الصوف المرن .

٥ ـــ وأخيراً هناك الصندل . وهو عبارة عن قطعة من الجلد المستطيلة أو الخشب ، أو الأعشاب القوية المجدولة وبها أمكنة تربط بها أشرطة من الجلد تربطها بالقدم .

أما الكيس فهو أحد شيئين :

(١) ربما يكون حقيبة السفر العادية وهى مصنوعة من جلد الماعز ، وقد يسلخ جلد الجدى كما هو بأرجله الأمامية والخلفية ، ورقبته ، ويوضع شريط فى كل نهاية ويحمل على الكتف وفيه يضع المسافر أو الراعى أو الحاج زاده من جبن وزيتون وخبز بقدر يكفيه يوما أو يومين .

(ب) وربما كان يقصد شيئا آخر ، بالكلمة اليونانية المترجمة كيس هى بيرا Pira وهى نفس الكلمة التى تترجم « كيس الجمع » التى كان يحملها الكهنة وخدام الآلهة لكى يجمعوا فيها تقدمات للآلهة ومعابدها ، وكان الناس يسمونهم « اللصوص الأتقياء الذين يسعون من قرية إلى أخرى » .

ويوجد رسم لأحد العبيد السوريين يقول إنه يجمع ملء سبعين كيسا من الفضة لآلهته .

فإذا كان يسوع يقصد الأولى فإنه يعنى أنهم لا يثقلون أنفسهم بحمل الزاد ، فالله سوف يعتنى بهم ، وإذا كان يقصد المعنى الثانى فهو إنما يحذرهم من تقليد غيرهم لئلا تفشل خدمتهم .

هناك أمران آخران .

١ ـــ كان الناموس يوصى بأن كل من يدخل المكان المقدس يجب أن يترك عصاه وحذاءه ومنطقة ماله ، فكل الأشياء العادية يجب أن يتخلص منها المتعبد ، ولربما قصد يسوع بوصيته ألا يحملوا كيسا ولا زادا ، وأن يعتبروا البيوت التى يدخلونها بيوتا مقدسة يجب أن يدخلوها فى نفس الحالة التى يدخلون فيها الهيكل .

٢ ـــ كانت الضيافة واجبا مقدسا فى الشرق ، فعندما يدخل رجل غريب إلى قرية ما فإنه لا يفتش عن مكان يستريح فيه ، لأن القرية تهتم به دون أن يسأل ذلك ولقد أخبر يسوع تلاميذه أن الناس قد يقفلون بيوتهم فلا يقبلونهم ويسدون آذانهم فلا يسمعون لهم ، ففى هذه الحالة ينبغى عليهم أن يتركوا المكان بعد أن ينفضوا غبار أرجلهم . ولعل هذه الوصية تشير إلى قول التقاليد أن تراب الأرض الأممية نجسة ، واليهودى الذى يدخل فلسطين من أى مكان آخر يجب عليه أن ينفض الغبار النجس الذى علق به من أرض الأمم ، وكأن يسوع يقول لهم إذا رفضوا أن يسمعوا لكم فافعلوا كما يفعل اليهودى المتمسك ، وبهذا لا تكون هناك صلة بينكم وبينهم .

ومما سبق نعلم أن العلامة المميزة للتلمذة المسيحية هى البساطة ، والثقة الكاملة والكرم الذى دائماً يعطى دون أن يطالب .

رسالة الملك ورحمته

(مرقس ٦ : ١٢ و ١٣)

هنا مختصر لما قام به الاثنا عشر عندما أرسلهم يسوع :

١ ـــ أعلنوا قدوم رسالة يسوع : إن الكلمة التى استخدمت هى نفس الكلمة التى يستخدمها البشير الذى يسبق الملك ، وعندما ذهبوا لم يبتدعوا رسالة بل قدموا رسالة ، إنها ليست رسالتهم بل رسالة الله ، إنها لم تبن على ما كانوا يعتقدون بل هى ما سمعوه من الله .. مثلهم فى ذلك مثل نبى العهد القديم عندما كان يفتتح رسالته بالقول « هكذا قال الرب » . إن الرسالة المؤثرة هى التى تأتى من الرب أولا .

٢ ـــ لقد حملوا للناس رسالة الملك : وتتخلص هذه الرسالة فى الكلمة « توبوا » ومعنى توبوا أى غيروا تفكيركم واتجاهكم وبالتالى سلوككم .. أى تغيير القلب والعمل . فالتوبة مؤلمة لأنها التحقق من خطأ ما نعمله .. إنها مزعجة لأنها تعنى تغيير الحياة كلية ، وهذا ما لا يريده الناس . تقول الليدى إسكويث عن جماعة « إنهم يتخبطون نحو الموت » . وهذا هو طبع الكثيرين ، إنهم يكرهون

تغيير حياتهم ، فالحياة دائما تميل إلى الغروب فلا داع لتغييرها . إنهم يكرهون الحركة . إن الخاطىء الذى اختار طريقه والذى حدد هدفه ساعيا إليه بكل قوته أفضل من هؤلاء السلبيين الواقفين الذين لا هدف لهم . فى رواية كوفاديس نقرأ عن فينسيس الرومانى الذى أحب فتاة مسيحية ، ولما لم تقبله زوجاً لأنه غير مسيحى ذهب وراءها إلى الاجتماع السرى للمسيحيين وهناك سمع بطرس يعظ ، وأحس أن شيئا ما يحدث فى داخله ، وعرف أنه لو تبع هذه التعاليم الجديدة لا حترقت حياته الأولى وضاعت ثم نبت مكانها حياة جديدة مملوءة بالحركة والحيوية ..

هذه هى التوبة .. والتغيير .. هى لكل إنسان ، إن التغيير لا يقصد به اللصوص والقتلة والزناة وغيرهم من الخطاة العتاة فقط بل يقصد بها أيضاً أولئك الكسالى الأنانيين الذين لا يهتمون بغيرهم . إن التغيير من عبادة النفس إلى عبادة الله شيء موجع ولكنه لازم . فى رواية البؤساء يقول الأسقف عن جماعة الكسالى « إننى أرعبهم دائماً ، لأن شيئاً غريبا يصدمهم فى كلامى . إن حضورى بينهم يشعرهم كأنما الباب قد ترك مفتوحاً والتيار الشديد يهب عليهم » . إن التوبة ليست شعوراً عاطفيا .. التوبة هى ثورة .. هى تغيير لكل الحياة .

٣ ــ لقد قدموا للناس رحمة الملك : إنهم لم يقدموا لهم طلبه المزعج بل معونته المستمرة ، لقد قدموا لهم شفاء من الأرواح النجسة : فالمسيحية تهتم بشفاء الروح والجسد ، إنها تهتم بشفاء الأخلاق المنحلة والأجساد المحطمة . ولهذا فقد اهتموا بالدهن بالزيت ، لأن الزيت كان دواءً عاما لكل الأمراض . فقد قال جالين الطبيب الإغريقى المشهور « إن الزيت هو أفضل الأدوية للجسد المتألم » ، ولكن الزيت فى يد خادم المسيح أضحى يحمل امتيازاً آخر .. إنه يساعد فى شفاء الجسد ولكن مع هذا الشفاء يعطى الروح القدس شفاء الروح . إن قوة الله أضحت معروفة حتى فى الأشياء العادية .

وهكذا حمل التلاميذ للناس رسالة الملك ورحمته .. وهذا العمل لا يزال العمل الأساسى والرئيسى للكنيسة اليوم وإلى منتهى الأيام .

ثلاثة أحكام على يسوع

(مرقس ٦ : ١٤ و ١٥)

لقد انتشرت أخبار يسوع فى طول البلاد وعرضها حتى وصلت إلى أسماع هيرودس . ويلوح أن هيرودس قد سمع مؤخراً عنه لأنه كان يسكن طيباريوس ، وهى مدينة أممية لم يذهب إليها يسوع ولا أحد من تلاميذه . ولكن بعد أن امتلأت البلاد بأخباره لم يكن من الممكن أن يستمر هيرودس فى جهله بقصته . وفى الفصل الذى أمامنا نجد أحكاماً ثلاثة على يسوع :

١ ــ حكم **الضمير المعذب** : لقد قتل هيرودس يوحنا المعمدان ، وحاول أن ينسى ، ولكنه لم يستطع فقد عاد ضميره يعذبه ، وهل يستطيع الرجل الشرير الذى عمل عملا شنيعاً كهذا أن يستريح ؟ إن المجرم يعتبر العالم كله ضداً له ، ولا يستطيع أن يتهرب من نفسه لأنه لا يستطيع

أن يهرب من تفكيره فى جنايته التى عملها ، أما حياته الظاهرية فهى حياة المعذب .. لأنه يخاف لئلا تصل إليه يد العدالة أو يد الانتقام .

منذ سنوات هرب رجل من السجن ولكنه عاد إليه بعد ٤٨ ساعة فى حالة مروعة من التعب والجوع والإرهاق ، وبدأ يصف هروبه بقوله « مطارداً .. مطارداً طيلة الوقت .. لا فرصة لى للأكل .. لا فرصة لى للنوم ، لقد كنت هارباً كل الوقت لأنى كنت مطارداً » . هذه الكلمة مطرود أو مطارد هى الصفة الحقيقية لحياة المجرم . وهكذا كان هيرودس بعد أن قتل يوحنا المعمدان . لقد طاردته أفكاره ولم يستطع أن يهرب منها . ما أبشع حياة الخطية إنها حياة مطاردة .

٢ ــ حكم **المتعصب لوطنه** كان معتقد أن يسوع هو إيليا . أما قصة مجىء إيليا فهى جزء لا يتجزأ من عقيدة اليهود عن المسيا . لقد تباين التفكير اليهودى فى حقيقة شخصية المسيا وموعد مجيئه ، ولكن الرأى الذى كان يتمسك به غالبيتهم هو أن المسيا سيكون ملكا جباراً فاتحاً ، سيأتى بسيفه ويخضع كل العالم لليهود فيحكمونه . ولكن قبل أن يجىء ذلك اليوم ، سيظهر إيليا ليعد الطريق له . ولقد بقى اليهود على هذه العقيدة إلى يومنا الحاضر ، ففى عشاء الفصح تراهم يتركون مقعداً خاليا اسمه « مقعد إيليا » ، ويضعون كأسا من الخمر أمامه ، إنه « كأس إيليا » ثم يفتحون الأبواب لعل إيليا يدخل بقوة معلنا مجىء المسيا المنتظر .. وعلى أساس هذه العقيدة ظن كثيرون من المتعصبين أن يسوع الناصرى هو بنفسه إيليا ، إنهم رأوا فيه تحقيقا لأطماعهم ، فبدلا من أن يتخذوا من يسوع سيداً يطيعونه ومعلماً يسمعون لكلمته ، أرادوا أن يروا فيه آلة لتحقيق مآربهم العالمية . إنهم لا يفكرون فى المسيح بقدر ما يفكرون فى أنفسهم .

٣ ــ حكم الشخص الذى كان ينتظر أن يسمع صوت الله . ذلك الذى ظن أن يسوع هو النبى لقد كان اليهود يتوقون إلى سماع صوت الله كما كان فى القديم .. ثلاثمائة عام كاملة سكت الله فيها ولم يسمعهم صوته .. لقد ملت آذانهم سماع المناقشات العقيمة والمحاضرات الأخلاقية ، إنهم يريدون أن يسمعوا صوت الله نفسه .. يتطلعون لسماع العبارة « هكذا قال الرب » . ولقد سمعوا هذا الصوت من يسوع . فظنوه أنه النبى المنتظر .. لقد كان يسوع أكثر من نبى ، لقد كان صوت الله ، لقد كان قوة الله ، لقد كان حياة الله نفسه . ولكن أولئك الذين ظنوه نبيا كانوا أكثر قربا إلى الحقيقة من هيرودس المعذب الضمير والوطنى المتعصب ليهوديته .. لقد كانوا مستعدين أن يخطوا الخطوة الثانية حتى يروا أن يسوع هو ابن الله .

انتقام امرأة شريرة

(مرقس ٦ : ١٦ ــ ٢٩)

فى هذه القصة نجد البساطة الكاملة لدراما تاريخية هائلة :

١ ــ مكان الرواية : قلعة ماخيروس ، وهى قلعة موحشة مقامة على بقعة بعيدة عن العمران ومحاطة بنتوءات صخرية ضخمة جعلتها من أقسى وأقوى قلاع العالم ، ويستطيع الواقف فيها أن

يرى الشاطىء الشرقى للبحر الميت ، وهناك يلاحظ الخطاطيف المثبتة فى الحوائط التى لابد أن يوحنا المعمدان كان مربوطا فى واحد منها . فى هذه القلعة الموحشة جرى آخر فصل من فصول حياة يوحنا المعمدان .

٢ ـــ شخصيات الرواية: كانت الروابط الزوجية فى بيت هيرودس معقدة ومتشابكة لا يستطيع أى مؤرخ أن يفصلها على حقيقتها . فعندما ولد يسوع كان هيرودس الكبير ملكا ، وكان هو الذى أمر بقتل أطفال بيت لحم (متى ٢ : ١٦ ـــ ١٨) وفى أوائل حياته تزوج عدة مرات ، ولكنه لما تقدم فى السن بدأ الشك ينتابه ويقلقه حتى صار الشك مرضه المستعصى حتى دفعه أن يقتل أسرته واحداً تلو الآخر ، مما جعل اليهود يتندرون بالقول « من الأفضل أن يكون الشخص خنزير هيرودس من أن يكون ابنه » . فقد قتل ابنه انتيباس من زوجته الأولى دوريس ، ثم قتل ابنيه الآخرين ، اسكندر وارستوبولس ، من زوجته الثانية مريم المكابية . ثم تزوج من إمرأة أخرى إسمها مريم وأنجب منها فيلبس وتزوج فيلبس من ابنة أخيه أرستوبولس الذى قتله أبوه وأنجب منها سالومى التى رقصت أمام هيرودس حاكم الجليل .

ولم يكتف هيرودس الكبير بذلك بل تزوج مرة رابعة من امرأة اسمها ملثاكى وأنجب منها ولدين : أرخيلاوس ثم هيرودس انتيباس الذى رقصت أمامه سالومى .

أما فيلبس زوج هيروديا وأبو سالومى فلم يرث شيئا من ممتلكات أبيه ، ولهذا عاش فى روما عيشة البذخ والترف كأى مواطن رومانى عادى . وفى أحد الأيام زاره أخوه هيرودس انتيباس حاكم الجليل فى روما ، وهناك أغرى زوجته هيروديا أن تهجره وتذهب معه إلى الجليل ففعلت : وكانت الفضيحة تكمن فى :

١ ـــ أنها كانت ابنة أخيه غير الشقيق :

٢ ـــ أنها كانت زوجة أخيه غير الشقيق .

أما قبل ذلك ، فكان قد تزوج من ابنة ملك من ملوك العرب ولما طلقها ثار أبوها لشرفها وحارب هيرودس وتغلب عليه .

أما قصة زوجات هيرودس الكبير فلم تنته إلى هذا الحد بل تزوج مرة خامسة من امرأة اسمها كليوباطرة من أورشليم وأنجب منها فيلبس الذى عين حاكما من قبل روما : فيلبس هذا تزوج من سالومى الآنفة الذكر التى كانت .

١ ـــ ابنة أخيه غير الشقيق .

٢ ـــ ابنة ابنة أخيه هيروديا (هيروديا ابنة أرستوبولس ابن هيرودس الكبير) فكان بذلك فى مقام جدها .

ولكى يسهل تتبع هذه الشجرة يحسن أن نضعها فى جدول هكذا فى الصفحة التالية : ـــ

وهكذا يرى الدارس أن التاريخ لم يحفظ فى سجلاته أسماء أسرة كبيرة فيها هذه الزيجات المتداخلة

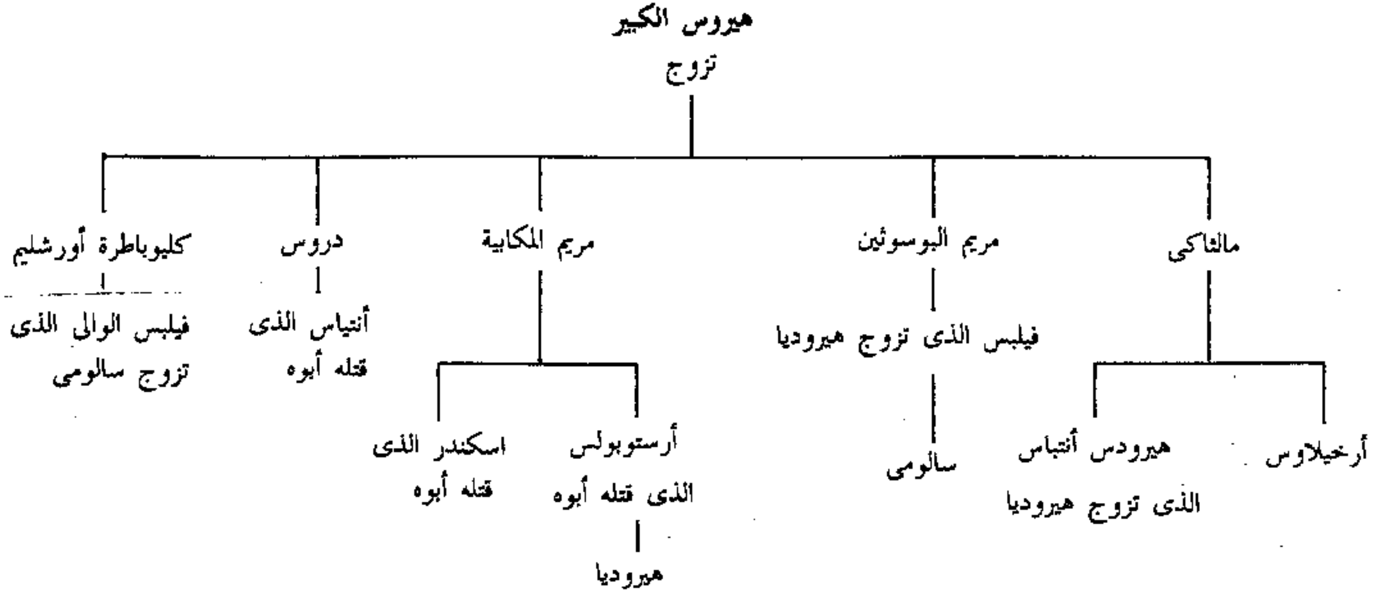
هيروس الكبير
تزوج
مالثاكى
مريم البوسوئين
مريم المكابية
دروس
كليوباطرة أورشليم
أرخيلاوس
هيرودس أنتباس
الذى تزوج هيروديا
فيلبس الذى تزوج هيروديا
سالومى
أرستوبولس
الذى قتله أبوه
هيروديا
اسكندر الذى
قتله أبوه
أنتياس الذى
قتله أبوه
فيلبس الوالى الذى
تزوج سالومى

كأسرة هيرودس، هذه الزيجات التى بدأها هيرودس بالزواج من هيروديا التى كانت ضد كل قانون وخاصة الناموس اليهودى .

ولهذا السبب وقف يوحنا ضد هذه الدعارة العلنية ، ولم يخف وجه هيرودس ولا جبروته ، وبهذا استحق يوحنا أن يسجل فى ذكراه الصلاة الآتية .

« أيها الإله القوى يامن سندت عبدك يوحنا المعمدان وأرسلته ليعد الطريق » أمام ابنك الحبيب بالمناداة بالتوبة ، اجعلنا أن نتتبع كلامه وحياته المقدسة فنتوب حقاً كما نادى ، وقد تكلمت فيه كما تكلم فينا معلنا الحق موبخا الرذيلة ، ودعنا أن نتحمل الألم لأجل الحق مثله » .

ولم يستطع هيرودس أن يفعل شيئاً ضد يوحنا بالرغم من توبيخه إياه ، لأنه رأى فيه إنساناً مخلصا صالحاً ، ولكن هيروديا كرهته وأرادت أن تنتقم منه ، وانتظرت الفرصة حتى واتتها فى يوم ذكرى ميلاد هيرودس . ففى ذلك اليوم أقام هيرودس وليمة كبرى لعظمائه ، وفى وسط الفرح دخلت سالومى لترقص وحدها وكان الرقص الذى تؤديه عاراً على أية عائلة محترمة ، لأنه كان مهنة الزوانى فى ذلك الوقت ، ولكنها لم تحترم مركزها كأميرة ، ولم تحترم الضيوف الكبار الذين حضروا الوليمة ودخلت لتقوم بهذا الخزى .. وسر هيرودس وأراد أن يجزل لها المكافأة ، واستشارت أمها ، وانتهزت هذه الفرصة وطلبت رأس يوحنا ، وكان لها ما طلبت .

ونستطيع أن نتعلم بعض الدروس من هذه الشخصيات :

١ ــ لقد كشف هيرودس نفسه أمام الجميع :

(أ) لقد كان خليطاً من المتناقضات : كان يخاف يوحنا ويحترمه ، فى نفس الوقت يرهب لسانه ولكنه يصغى إليه . وهكذا تكون الطبيعة البشرية دائماً ؛ كما يذكر بوسل فى « يوميات لندن » إنه كان يجلس فى الكنيسة يستمتع بالعبادة وفى نفس الوقت يفكر فى « كيف يقضى ليلة حمراء بعد العبادة » ، وبهذا كان موزعا بين الرذيلة والفضيلة . ويذكر أحد القضاة عن المجرمين الذين دافع عنهم والذين أدانهم « قد يحاولون أن يهربوا ولكنهم لا يستطيعون ، قد تجد فيهم شيئاً من النبل ، كل حياتهم يحاولون أن يجربوا شيئاً من الفضيلة ولكنهم لا يقدرون » . هكذا كان هيرودس : « كان يخطىء وفى نفس الوقت يخاف من يوحنا ويحبه ، كان يكره رسالته ولكنه لم يستطع أن يخلص نفسه من سلطان تأثيرها . لقد كان هيرودس بشراً .. وهل يستطيع كثيرون أن يقولوا غير ذلك .

(ب) كان هيرودس رجلا يتصرف حسب عواطفه : لقد أعطى وعده لسالومى فى ساعة لم يكن يشعر بما يقول .. لعله كان تحت سلطان الخمر ، ولكن الرجل العاقل هو الذى يعد ويعرف ماذا يفعل ، هو الذى لا يندم أنه قال كلمة وهو فى حالة الغضب أو السكر ، يقول بعد أن يفكر ، ومتى قال كان جازما فى قوله .

(ج) كان يخاف من أقوال الناس ، لقد حفظ كلمته ووعده لسالومى خوفا من تهكم الحاضرين عليه ، لم تكن عنده الشجاعة الكافية أن يعترف بخطئه ، وكم من أناس لم يستطيعوا أن يعترفوا أنهم أخطأوا ثم عملوا أعمالا أسفوا عليها بعد ذلك . إنهم يخافون الناس أكثر من الحق .

٢ — وفى هذه القصة تنكشف أمامنا طبيعة هيروديا . نعم يذكر لها التاريخ قصة فيها بعض العظمة ، وهى أن زوجها هيرودس ذهب إلى روما ليطلب من الإمبراطور أن يعطيه لقب ملك ، ولكن الإمبراطور طرده ثم نفاه إلى غابة ، ويومئذ قيل لهيروديا إنها تستطيع أن تبقى حيث تريد فلا داعى لنفيها هى ، ولكنها رفعت رأسها بكبرياء وقالت « أريد أن أكون حيث يكون زوجى » . ولكن رغم ذلك كانت امرأة شريرة . ويقول المثل اليهودى لا يوجد أشر من المرأة الشريرة ولا أبر من المرأة الطيبة ، ويؤكد أحد علماء اليهود أنه يفضل كثيراً أن تتزوج امرأة طيبة من رجل شرير عن أن يتزوج رجل طيب من امرأة شريرة . فالمرأة الطيبة ترفع الرجل الشرير من حمأته ، أما المرأة الشريرة فتجر الرجل الطيب إلى الرذيلة . إن مشكلة هيروديا أنها أرادت أن تزيل الرجل الذى واجهها بالحق من الوجود لكى تفعل خطيتها وهى مستريحة ، إنها تريد أن تخطىء بدون أن يعاقبها أحد . لقد تخلصت من يوحنا ولكن هل تستطيع أن تتخلص من الله ؟

٣ — وتتكشف شخصية يوحنا المعمدان : أنه رجل شجاع ، لقد كان رجل الخلاء والأماكن الفسيحة ، ولهذا فقد كان أقسى عقاب له هو السجن ، ولكن يوحنا فضل الموت عن الكذب ، عاش للحق وفضل أن يموت لأجله . إن الذى يتكلم بكلمة الله يخاطب ضمائر الناس : ولأن كثيرين قد أماتوا ضمائرهم ، فرجل الله الذى يوبخهم يكون مجازفا بحياته ونفسه .

أشجان الجموع

(مرقس ٦ : ٣٠ — ٣٤)

عندما رجع التلاميذ من إرساليتهم أخبروا يسوع بكل ما صنعوا ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يختلوا بأنفسهم ولا بيسوع لأن الجموع كانت متقاطرة عليهم ، فأخذهم يسوع إلى موضع خلاء على الجانب الآخر من البحيرة ليستريحوا قليلاً .

وفى هذا الفصل ، نستطيع أن نلمس التوازن الحقيقى للحياة المسيحية ، فالحياة المسيحية الحقيقية هى الدخول إلى المخادع لمقابلة الله ثم الخروج من هناك لمقابلة الناس ، ثم الدخول مرة أخرى والخروج ، إن الحياة الطبيعية دليل واضح على ذلك فهى التوازن بين العمل والنوم ، فلن يستطيع إنسان أن يعمل ما لم يأخذ كفايته من الراحة والنوم . ولن يذوق حلاوة النوم ما لم يعمل حتى التعب ، وهو فى هذا الأمر معرض إلى خطر مزدوج ، فقد يعمل الإنسان إلى حد الإرهاق بدون أن يعطى نفسه قسطا من الراحة ، ومن الناحية الأخرى قد يستريح طويلا جداً فلا يتعب نفسه ولا يعمل . وهذا المسيحى : إن راحته فى الله وعمله مع الناس ، فعندما يدخل إلى مخدعه . يسمع صوت إلهه ويسمع الله صوته مجدداً بذلك قواه الروحية وبذلك يستريح ، لأن لا راحة له بعيداً عن إله الحياة ، ولا قوة ثابتة إلا من رب القوة الذى يمنحها إياه فى ساعة الصمت والسكون . فالتعبد الحقيقى هو الذى تظهر ثماره فى الخدمة الحقيقية ، فالإنسان الذى يريد أن يختلى مع الله لكى يترك إخوته ولا يلبى صوت حاجتهم هو إنسان أنانى لم يعرف الله .. إن توازن الحياة المسيحية هى فى التبادل المستمر بين خدمة الله وخدمة الأخوة .. بين المخدع والسوق .

لكن الراحة التي كان يسوع ينشدها مع تلاميذه لم تتحقق له ، لأنه ذهب إلى الجانب الآخر من البحيرة فى السفينة ، ويلوح أن الهواء كان ساكنا فكانت السفينة بطيئة فلم تستطع أن تقطع الأميال الأربعة التى أمامها قبل أن يصل الناس إلى نفس المكان مع أنهم ــ أى الناس ــ ساروا مسافة عشرة أميال . وبهذا وجدوا يسوع قد وصل لتوه فلم يستطع أن يستريح . ولو كان يسوع شخصا نظير كل الناس لتضايق ، لأنهم قطعوا عليه خلوته مع إخوته ، وأنكروا عليه الراحة التى ينشدها ، ولكنه لم يتضايق بل رحب بهم ، ونظر إليهم فى إشفاق ومحبة ، رآهم متعبين مملوءين بالحاجة والشجن ، ففتح قلبه ليعطيهم ما يطلبون منه ولم يجدوه فى شخص سواه ، فقد رآهم كخراف لا راعى لها ..

١ ــ فالخراف بدون راعيها تضل الطريق ، وهكذا نحن لو تركنا لأنفسنا لضللنا طريقنا .. إنهم كما يقول لورد كايرنز « أطفال ضلوا فى يوم مطير » ، أو كما يعبر دانتى على لسان أحدهم « استيقظت فوجدت نفسى فى غابة فسيحة مظلمة لا طريق واضح فيها » . نعم فالحياة متشبعة ولا نستطيع أن نطرقها بدون يسوع فإنه يرشدنا .

٢ ــ ولن نستطيع أن نجد المراعى . ونحن فى حاجة إلى تقييم نفوسنا لكى نستمر فى عملنا ، نريد الإرشاد الذى يخرجنا بعيداً عن نفوسنا وفق أتعابها ، وإذا فتشنا عن هذه الحاجة بعيداً عن يسوع فإننا نبقى فى جوعنا وعطشنا وضعفنا ، ففى يسوع وحده نجد الطريق والمرعى .

٣ ــ الخراف بدون الراعى معرضة للأخطار ، لا تستطيع أن تحمى نفسها من اللصوص أو من الوحوش الضارية . والدرس الأعظم الذى نأخذه من الحياة هو أننا لا نستطيع أن نحيا وحدنا فلا طاقة لنا بمواجهة التجارب ولا العالم الشرير ، أما مع يسوع فنحن نحتفظ بنفوسنا فى حمايته وثيابنا بيضاء فى قداسته .

القليل الذى تكاثر فى يد يسوع

(مرقس ٦ : ٣٥ ــ ٤٤)

يبدو أن تأثير هذه المعجزة كان كبيراً حتى أنها ذكرت فى الأناجيل الأربعة دون سائر المعجزات الأخرى ، ومن دراسة إنجيل مرقس يتضح أن هذه القصة جاءت على لسان شاهد عيان ، مما يؤيد أن مرقس نقلها رأسا عن لسان بطرس التلميذ . لنتأمل الآن بعض تفاصيلها الحية :

يذكر مرقس أن الآكلين جلسوا على الحشيش الأخضر ، وهذه ذكريات شاهد عيان وذكرى اخضرار الحشيش يوحى بأن المعجزة حدثت فى منتصف أبريل تقريبا ، فهذا الفصل هو موعد الاخضرار ، ولابد أنها حدثت بعد منتصف النهار بكثير لأن الشمس كانت تغرب فى الساعة السادسة . وجلوسهم فى صفوف خمسين ومائة يذكر القارىء بصفوف الخضروات التى كانت تزرع ، فالكلمة التى يستخدمها هنا « براسيا » هى نفسها التى كانت تستخدم على صفوف الخضروات .. وعندما يذكر الكاتب أنهم أخذوا اثنى عشر قفة يذكر القارىء بعادة كانت منتشرة

عند اليهود ، فقد كان على كل يهودى مسافر أن يحمل معه قفته ذات الفوهة الضيقة التى تتسع رويداً رويداً حتى تصل إلى أكبر اتساع لها عند قاعها . وهناك سببان لهذه القفة ، الأول : لكى يحمل فيها اليهودى خبزه وهو فى غربته ، حتى يتأكد أنه يأكل الخبز الطاهر طقسيا ، والثانى هو لكى يجمع فيها كثير من الشحاذين ما يأخذونه من الإحسان ، ولهذه الأسباب كانت هذه القفة موضع تندر من غير اليهود . فعندما يقول إنهم رفعوا اثنى عشرة قفة كان معنى ذلك أنها القفف التى كان يحملها التلاميذ معهم .

والشيء المهم فى هذه القصة أنها تحمل فى ثناياها مقارنة بين موقف يسوع وموقف التلاميذ يظهر فيما يأتى :

١ ـــ موقفهم من الحاجة البشرية : عندما رأى التلاميذ أن النهار قد مال وأن الجموع كانت جائعة متعبة قالوا للمسيح « إصرف الجمع » ، بمعنى أنهم متعبون محتاجون دعهم يفتشون لأنفسهم عن طعام ومكان يبتاعون منه ، ولكن يسوع قال لهم « أعطوهم أنتم ليأكلوا » ، كأنه يقول « هم متعبون محتاجون يجب أن نعتنى نحن بهم . هذان موقفان نجدهما كثيرا فى الحياة ، قد يقف اثنان أمام جماعة بائسة محتاجة إلى المعونة : فيقول الأول « لا شأن لى بهم دعهم يخدمون أنفسهم » ، ويقول الثانى « إنهم يحتاجون إلىّ دعنى أحاول خدمتهم » .

٢ ـــ موقفهم من الطاقة البشرية : عندما قال لهم يسوع : أعطوهم أنتم ليأكلوا عمل فيلبس حسابه بسرعة وقال إنهم يحتاجون إلى مائتى دينار ، والدينار هو عملة فضية رومانية تساوى ما يقرب من ستة قروش الآن ، وكان الدينار ، يساوى أجر العامل الواحد يومياً . فكأن التلاميذ قالوا للمسيح ليس لنا أى شيء .. إنهم يحتاجون إلى أجرة عمل لمدة ستة شهور كاملة حتى نعطيهم خبزاً فقط . أصرفهم . لقد أحسوا أنهم غير كفء لهذا العمل . ولكن يسوع يطلب ما معهم فقدموا له خمسة أرغفة ، وكانت الأرغفة صغيرة ، مصنوعة من الشعير الذى يعتبر أقل أنواع الخبز ؛ وقدموا له سمكتين لا تزيدان عن حجم السمك الصغير المملح ـــ وقد كانت شواطىء البحيرة مشهورة بسمكها المملح ـــ الذى كان يغزو كل أسواق العالم . لكن يسوع أخذها وفى يديه صارت هذه الأشياء الصغيرة التافهة أشياء كبيرة تكفى لآلاف الأشخاص .

نعم وقد نظن أننا لا شيء والمواهب التى لنا لا تنفع شيئاً لأنها قليلة وضعيفة .. ولكن أعط هذا القليل ليسوع ، دعه يتسلمه فى يديه ، ولا تكن متشائماً كما كان التلاميذ ، ولسوف ترى أن القليل فى يد يسوع قد صار كثيراً ونافعاً . إن الإنسان لا يستطيع أن يتخيل كم يعمل الرب بنا وفينا لو سلمنا نفوسنا فى يد يسوع .

التغلب على العاصفة

(مرقس ٦ : ٤٥ ـــ ٥٢)

بعد أن أشبع يسوع الجمع الجائع أرسل تلاميذه إلى عبر البحيرة قبل أن يصرفهم ولكن مرقس

لم يذكر السبب الذى لأجله فعل يسوع . ولعل يوحنا يعطى جواباً على ذلك عندما يذكر أنه كانت هناك خطة لخطف يسوع وجعله ملكا . ولقد كان يسوع ضد هذه الفكرة ورفضها رفضاً قاطعاً فى تجربته فى البرية ، ولهذا فقد أرسل تلاميذه بعيداً عنه فى هذه الساعة الحرجة حتى يمنعهم من السقوط فى التجربة والاندفاع فى ذلك التيار . ولقد كانت الجليل مهداً لهذه الحركات العنيفة ، وكانت عيون الحكام مفتوحة ، فلو اشتموا رائحة حركة كهذه لانقضوا عليها ، وبهذا تنهار حركة يسوع . ولهذا السبب أرسل يسوع تلاميذه قدامه ، ثم سكن الجماهير وودعهم .

ثم ذهب إلى الجبل ليصلى ، كان محتاجا إلى الآب لأن مشكلات شديدة تواجهه . فهناك مشكلة اليهود المتعصبين الذين كرهوه بسبب وبدون سبب ، وهناك هيرودس الذى بدأ يشك فيه ، وهناك الغيورون السياسيون المتعصبون الذين يريدونه مسيا سياسياً . إنها مشكلات عويصة ثقلت على كتفيه وقلبه .

ومكث يسوع بضع ساعات مع الآب . ثم قام من الصلاة ليذهب لمعونة أصدقائه . ولكن كيف ؟ قلنا إن ذلك اليوم كان ، غالباً ، فى منتصف أبريل ، أى فى موسم عيد الفصح ، وكان القمر بدراً ينير الكون ، وكانت الليالى تطول إلى ١٢ ساعة ، من الساعة السادسة مساءً إلى السادسة صباحا ، وكانت تقسم إلى أربعة أقسام ، يسمى كل قسم بالهزيع : الأول من ٦ — ٩ مساءً ، الثانى من ٩ — ١٢ منتصف الليل ، الثالث من ١٢ — ٣ صباحاً ، الرابع من ٣ — ٦ صباحاً . ففى الساعة الثالثة صباحاً قام يسوع من الصلاة ، ونظر إلى الجبل ثم إلى البحيرة التى كانت تبعد أربعة أميال ، ورأى تلاميذه فى السفينة معذبين يغالبون العاصفة الشديدة ، فلم يقف ، أنهى صلاته ، إن وقت العمل قد جاء .. أحباؤه فى خطر .. نسى نفسه .. نسى مشاكله ، وأسرع إلى البحيرة لينقذهم .. هذا هو مجد يسوع ..

ولكن ماذا حدث ؟ كيف هدّأ يسوع الموج ، إنه سر يفوق عقولنا ، إننا نعرف شيئاً واحداً أن العاصفة قد هدأت .. هكذا حينما يكون يسوع بجوارنا فإنه يسكن كل العواصف والأمواج الثائرة .

فى تفسير لهذه القصة يقول أغسطينوس « لقد جاء سائراً على الأمواج ، وهكذا يضع كل أمواج الحياة الثائرة تحت قدميه .. فيا أيها المسيحى لماذا تخاف ؟ » هذه حقيقة واضحة اختبرتها الأجيال الطويلة وعرفها عدد لا حصر له من الناس ، فعندما يرافقنا المسيح تهدأ العواصف .. يصبح العجيج سلاما .. والمستحيل ممكناً ، والصعب سهلا ، والموت منهزما .. إن السير مع المسيح معناه الإنتصار على العواصف .

الجموع الباحثة

(مرقس ٦ : ٥٣ — ٥٦)

حالما وصل يسوع وتلاميذه إلى الضفة الثانية للبحيرة رأى الجموع تحيط به مرة أخرى . وفى

بعض الأحيان كان يسوع ينظر إلى الجموع نظرة تعجب ، ففى كل هذه الجموع لم يجد شخصاً واحداً جاء لكى يعطى .. كلهم جاءوا لكى يأخذوا ، لكى يستفيدوا منه .. وبعبارة أوضح .. لكى يستخدموه ؛ ولكن أما كنا نلمس الفارق الكبير لو كان هناك فى وسط هذا الجمع الحاشد بعض الأفراد الذين جاءوا لكى يعطوا ؟ .. نعم إننا نحتاج إلى يسوع .. هناك بعض الأشياء التى لا نستطيع أن نجدها بعيداً عنه ، ولهذا فإننا نأتى إليه لنأخذ ، ولكن أليس من العار أن نأتى لكى نأخذ دون أن نعطى .. ولكنها الطبيعة البشرية .

١ — بعض الناس وخصوصاً الشباب ، يقفون هذا الموقف من بيوتهم . فيظنون أنها مكان للراحة .. للطعام والشراب . يأخذون منها كثيراً .. هذا حق ، ولكن البيوت أيضاً تحتاج إلى الكثير ، ويجب على كل شخص أن يخدم فى البيت .. أية خدمة .

٢ — وبعضهم يقف نفس الموقف من الأصدقاء .. فهناك من لا يرسلون خطاباً لأصدقائهم ما لم يكونوا محتاجين لشىء ما . إنهم يظنون أن الناس خلقت فقط لكى تقدم لهم المساعدة عندما يحتاجون إليها ، وبعدئذ لا يفتكرون فى أى شخص سوى أنفسهم .

٣ — وبعضهم يقفه من الكنيسة : فالكنيسة هى المكان الذى يعمد فيه أولاده ويزوجهم ثم يصلى على موتاهم . فلا يرى هناك ما لم تكن له حاجة مثل هذه . وضميره فى ذلك يعترف أن الكنيسة قد أوجدت له . لخدمته .. أما ماذا يجب أن يقدمه هو للكنيسة فهذا شىء لا يفكر فيه .

٤ — بل هناك من يقف الموقف ذاته من الله نفسه .. فلا يذكرونه ما لم يكونوا فى حاجة ملحة .. كل صلاتهم طلبات قد تتحول فى مرات كثيرة إلى أوامر ، كما قال أحدهم : إن الله عندهم مثل « صبى الجرس » فى الفنادق الأمريكية .. إنه يظهر فى الحال ليقضى كل طلباتك عندما تدق الجرس .. أليس هذا من العار .

وهنا إذا وقفنا هنيهة لكى نمتحن أنفسنا أفلا نشعر أننا جميعاً مذنبون ؟ كم يكون فرح قلب يسوع عندما يجدنا مرة واحدة نأتى إليه مستعدين أن نقدم له محبتنا .. خدمتنا ، إخلاصنا .. بدلا من أن نقدم إليه طلباتنا وأوامرنا ..

الأصحاح السابع

الطاهر والنجس

(مرقس ٧ : ١ — ٤)

هذا الفصل له أهمية قصوى لأنه يبين الخلاف الحقيقي بين يسوع وبين معلمي الناموس . ولقد بدأت المحاجة الفاصلة التي نراها في هذا الفصل بسؤال هو .. لماذا لا يسلك تلاميذه بحسب تقليد الشيوخ ؟ . ولكي نبدأ هذه المناقشة وجب علينا أن نعرف شيئاً عن هذه التقاليد .

إن كلمة الناموس كانت تعني أحد أمرين : الأول هو الوصايا العشر والثاني هو الكتب الخمسة الأوائل التي تسمى بكتب موسى . وكانت هذه الكتب الخمسة تحوي مبادىء عامة للسلوك يطبقها كل إنسان على حياته الخاصة كما يستطيع أن يفهمها . نعم يوجد فيها بعض الأحكام والقوانين التي كانت تحكم بعض أوجه الحياة بالتفصيل ، ولكنها — في غالبيتها كانت مبادىء عامة . واستمر الإسرائيليون مكتفين بهذه المبادىء العامة إلى أن ظهر بينهم طبقة من الناس اسمها « الكتبة » — حوالي القرن الرابع قبل الميلاد — لم تكتف بهذه المبادىء ، فأخذت على عاتقها عملية شاقة تتضمن تفسير وتقنين هذه المبادىء فحولوها إلى بضعة آلاف من الأحكام المتشابكة التي تحكم كل حياة الناس تقريباً ، فلم تعد حياة الناس تخضع لمبادىء يفسرها المرء كيفما أراد بل لقوانين وأحكام محددة ملزمة . واستمرت هذه القوانين والأحكام في صيغة شفوية غير مكتوبة إلى وقت طويل بعد الميلاد ، حتى جمعت في كتاب اسمه المشنا . هذا عن معنى كلمة تقليد . أما كلمة شيوخ فهي لا تعني هنا كبار رجال المجمع ورؤسائه بل تعني **القدماء** أمثال هلليل وشماي الذين درسا الناموس دراسة عميقة وكان لهم ضلع كبير في التفقه والتقنين .

وفي هذا الفصل يظهر نوعان من الطقوس اليهودية المشهورة :

الأول وهو غسل اليدين قبل الأكل ، والغسل هنا لا يقصد به ناحية صحية بل هي إجراءات طقسية ، ولهذا فقد استخدموا لغسل اليدين كلمة يونانية لها تاريخ طويل هي كلمة « كوينس Koinos » . هذه الكلمة تعني أصلا عام أو عمومي ، ثم تغيرت فصارت تعني « شيء عمومي غير مقدس » أي أنه ليس مفرزاً لخدمة دينية ، ثم تغيرت هنا وصارت تطلق على « شيء غير طاهر طقسياً » . فالأكل هنا هو بيد غير طاهرة طقسياً . وكانت هناك طريقة خاصة لغسل اليدين قبل وأثناء تناول الطعام . فالمياه التي تغسل بها الأيدي كانت موضوعة في أواني مخصوصة من الحجر حتى تكون طاهرة طقسياً — الأواني والمياه أيضاً . وكانت طريقة الغسيل هكذا : يرفع الشخص يديه إلى أعلى ثم يصب عليها كمية مخصوصة من المياه تنزل على الأيدي على الأقل إلى المعصمين ، وبعد أن يحك معصميه بكفتي اليدين على التوالي . يجب أن يتأكد أن كل اليد قد إبتلت بالماء . ولكن إلى هذا الحد يكون الماء الذي صب على يديه نجساً ، لأنه لامس يدين نجستين ، ولهذا فيخفض المغتسل يديه إلى أسفل ، ويصب كمية محدودة من الماء من على المعصمين ، فينزل إلى الأصابع ،

وبذلك تكون اليدان قد طهرتا طقسياً .

وكان كل من يرفض أن يقوم بهذا الطقس يعتبر مذنباً فى عينى الله ، إنه لا يوبخ لإهماله الصحى أو الأدبى بل إهماله الدينى ، وكانوا يعتقدون أن كل من يهمل تطهير يديه يتعرض لأن يمتلكه روح نجس اسمه شيبتا ، ثم يصاب بالفقر والهلاك ، ويضحى الخبز الذى يأكله خبزاً عفناً . وكان هذا الطقس مهماً فى عيونهم حتى أن أحد معلمى اليهود دفن فى مقابر الهراطقة لأنه اعتبره طقسياً غير نافع وأهمله .. بل قيل إن أحد الربيين سجن فى سجن رومانى وكانوا يعطونه كمية محددة من الماء فكان يفضل أن يستعمل هذه الكمية فى تطهير يديه ولا يبقى منها شيئاً ليشربه .. وأخيراً مات عطشاً .

هذا هو جوهر الديانة فى نظر الفريسيين والكتبة ، إنها لا تزيد عن كونها طقوساً وأحكاما متعددة .. أما الحياة السامية الأخلاقية .. والخدمة المقدسة فقد دفنت تحت أكوام من الوصايا .

والأعداد الأخيرة فى هذا الفصل تشرح معنى النجاسة الطقسية ، فالأشياء النجسة ليست بالضرورة قذرة ، بل قد تكون فى غاية النظافة ولكنها تعتبر غير طاهرة طقسياً : وفى سفر اللاويين ص ١١ — ١٥ وسفر العدد حتى ١٩ يشرح موسى الأشياء الغير طاهرة : فبعض الحيوانات غير طاهرة (لاويين ١١) ، والمرأة بعد الولادة تستمر أربعين يوماً غير طاهرة ، والأبرص غير طاهر ، ومن يلمس جسد ميت يصبح نجسا .. ومن يصبح نجسا ينجس كل شيء يلمسه .. الأممى غير طاهر وطعامه نجس وكل ما يلمسه أو يملكه يعتبر نجساً . ولهذا فعندما كان يرجع اليهودى من السوق كان يغطس فى ماء طاهر ليتطهر .

ولهذا كانت الأوانى تتنجس عندما يلمسها شخص نجس أو إن وضع فيها طعام نجس ، وكانت تحتاج إلى التطهير ، وفى المشنا فصول كثيرة تشرح كيفية تطهير الأوانى ، وهاك أمثلة لذلك : الإناء الفخارى الفارغ قد يتنجس من الداخل ولكنه لا يتنجس من الخارج مهما حدث له ، وإذا تنجس يجب أن يكسر إلى قطع صغيرة جداً ويلقى إلى الخارج ، وإن بقى منه جزء يتسع لكمية من الزيت تكفى لدهن طرف إبهام اليد فإنها تعتبر نجسة . أما الطبق المسطح إذا كان بغير حافة فإنه لن يتنجس مهما حدث له ، ولكن إن كان له حافة فقد يتنجس . إذا كانت الأوانى الجلدية أو الزجاجية أو المصنوعة من العظام مسطحة فإنها لا تتنجس مطلقا ، أما إذا كانت مجوفة فإنها قد تتنجس داخلا وخارجا . وإن تنجست يجب أن تكسر إلى قطع قد تحوى رمانة متوسطة الحجم . الأوانى الفخارية النجسة يجب أن تكسر وغيرها قد يطهر بالماء أو الغلى أو النار ، أما الأوانى المعدنية فيجب أن تجلى . المائدة ذات الأرجل الثلاث قد تنجس أما إذا كسر فيها رجل أو اثنين فلا يمكن أن تتنجس ، أما إذا كسرت الأرجل الثلاث فيمكن أن تتنجس فحينئذ يستخدم مثل لوح الخشب وهذا يمكن أن يتنجس . الأشياء المصنوعة من المعدن يمكن أن تتنجس ما عدا الباب أو الترباس أو القفل أو المفصلات أو مطرقة الباب . الخشب الذى يدخل فى الحديد يمكن أن يتنجس أما الحديد الذى يدخل فى الخشب فلا يتنجس ، ولهذا فالمفتاح الحديدى بأسنان خشب قد يتنجس أما المفتاح الخشب بأسنان حديد لا يمكن أن يتنجس .

هذه هى التقاليد التى وقف يسوع ضدها ، فقد قدسها الكتبة والفريسيون ، واعتبروها جوهر الديانة ، ومن يقوم بها يرضى الله ، ومن يكسرها فقد ارتكب خطية شنيعة ، ولهذا فقد اعتبروا أن يسوع رجلاً شريرا لأنه لم يهتم بهذه الطقوس . ومن هنا يظهر الرأيان السائدان فى معنى الدين : فاليهود يقولون إن الدين هو الطقوس أما يسوع فيقول إن الدين هو محبة الله ومحبة القريب . قد ندرس هذا الأمر فى الفصل المقبل ، ولكن يحسن أن نقول هنا إن يسوع والفريسيين لا يتفقان أبداً فى مفهوم الديانة الحقيقية .

شرائع الله واحكام الناس

(مرقس ٧ : ٥ ــ ٨)

عندما اتهم الكتبة والفريسيون تلاميذ المسيح بامتهان التقاليد وكسر الأحكام . ثم تساءلوا عن سبب ذلك . كان رد يسوع عليهم هو نفس قول إشعياء فى (إش ٢٩ : ١٣) عندما اتهم الشعب بأنه يكرم الرب بشفتيه أما قلبه فمبتعد عنه بعيداً . وبهذا القول يوجه يسوع إليهم تهمتين :

١ ــ إتهمهم بالرياء : والكلمة « هوبوكريتيس hupokritos » المترجمة إلى رياء لها تاريخ طويل .. فهى جاءت من فعل يعنى « يجاوب » ثم تطورت إلى أن تعنى شخص يجاوب « إجابة مكتوبة » أى يمثل أو يقول شيئا ليس له . وأخيراً تطورت فأضحت تعنى شخصا يعيش حياة التمثيل .. ليس القول فقط بل كل الحياة . وهذا الوصف ينطبق على الشخص الذى يعتقد أن الديانة ما هى إلا أحكام وفرائض ، فمتى ظن أنه يحفظ مجموعة من الفرائض ويعمل مجموعة من الطقوس يكون متدينا ومرضيا لله فقد أضحى مرائيا ، لأنه يفعل ذلك ظاهريا فقط ولكن قلبه وحياته فهى بعيدة عن الله ــ عن الحق والحياة . فالفريسى فى أيام المسيح : قد تجد قلبه مملوءا بالحقد على جاره ، وقد تجده مملوءا بالغيرة والمرارة والكبرياء ، ولكن هذا لا يهم عنده مادام يداوم على تطهير يديه ويحافظ على طقوس الناموس . فالطقوس تهتم بالمظاهر ولا صلة لها بالقلب والحياة .. تخدم الرب ظاهريا وتعصاه داخليا ، فكم من إنسان يصلى فى كل حين ولكن حياته مملوءة بالدم .. مثل ذلك الإنسان الذى كان يطارد عدوه بسكين حادة ليقتله ، وعند ما حل وقت الصلاة ، وقف وصلى صلاة سريعة ، ثم قام من صلاته وأخذ فى مطاردة عدوه .. وبذلك كانت الصلاة جملة عارضة فى عمل هذا الرجل وهو محاولة القتل . هذا هو الرياء . نعم ولا توجد هناك خطية أبشع ولا أكثر انتشارا من خطية الاعتقاد بأن الديانة هى الأعمال الخارجية ولا شىء غير ذلك . هل تذهب إلى الكنيسة ؟ هل تقرأ الكتاب المقدس ؟ هل تشترك فى كل المشروعات المالية .. هل تهتم بكل لجان الكنيسة ؟ هذا حسن ولكنها ليست المسيحية ، إن المسيحية تتلخص فى الإجابة على هذا السؤال : ما هو موقفك من الله ومن جارك ؟ فإن كان قلبك مملوءاً بالحقد والحسد والغيرة والمرارة والكبرياء ، فثق أن كل فرائض وطقوس العالم لا تنفعك شيئاً سوى أن تدمغك بأنك مرائى :

٢ ــ أما الاتهام الثانى الذى تضمنه قول المسيح هو أنهم استبدلوا صوت الله بمجموعة من

الفرائض والطقوس والأحكام . إن الذى يرشدهم فى حياتهم ليس صوت الله بل هذه المناقشات والمباحثات العقيمة التى تكثر حول استنباط الأحكام والتقاليد . إن المباحثات الاجتهادية ليست هى الأساس للديانة الحقيقيه . الديانة ليست وليدة العقل البشرى .. الديانة تأتى لا من سماع صوت العقل المجتهد فى القوانين والأحكام بل من سماع صوت الله الهادىء الخفيف والإصغاء إليه .. هذه هى الديانة .

الفريضة الآثمة

(مرقس ٧ : ٩ — ١٣)

يعتبر هذا الجزء من الفصول الصعبة فى تفسيرها ، ومصدر هذه الصعوبة يكمن فى معنى الكلمة : قربان ، ويلوح أنها كلمة لها تاريخ يتكون على الأقل من مرحلتين :

١ — فالكلمة تعنى عطية وخاصة تلك التى تقدم إلى الله : أو بمعنى آخر توضع على المذبح . وكل قربان يقدم إلى الله يفرز تماما عن كل شىء ولا يمكن أن يستخدم فى أى غرض آخر غير هذا الغرض المقدس . إنه مال حرم على الاستخدام العالمى وأفرز لكى يكون لله . هذا هو القربان . ولو كان الأمر قد توقف إلى هذا الحد لكان للقربان غرض سام ، لكن الناس استخدموا القربان فى غرض أنانى مكير . فعندما يعلن إنسان ما أن ما عنده قد أوقف لله وأصبح قربانا فلا يستطيع أى إنسان أن يستخدمه لغرض آخر ، وبذلك تهرب كثيرون من دفع ديونهم ، فإنهم يعلنون أن أموالهم قد أضحت قربانا ولا يمكنهم أن يتصرفوا فيها ولو لدفع دين إنسانى ، عليهم دين إلهى وهو ألزم وأقوى ، ولكن المديون يستطيع أن يدفع شيئاً بسيطاً من ماله لله ويتصرف هو فى الباقى . وبذلك استخدم القربان فى ابتزاز أموال الغير وعدم دفع الديون المستحقة . بل لقد أضحى القربان عاملا أساسياً فى كسر وصية الله تجاه الوالدين : فقد يستطيع أن يوقف ماله لله ويطلق عليه لقب « قربان » وعند ما يطلب منه والده مساعدة يعيشان منها : يعتذر بأنه أوقف ما له لله . وهكذا كان القربان واسطة لكسر الوصية التى هى بوعد .

٢ — ولكن كلمة قربان تطورت فأضحت نذرا عاماً لا يمكن الرجوع فيه ، فإن أعلن شخص ما أن شيئا من ممتلكاته قد صار قرباناً ، فإنه لا يمكن أن يتصرف فيه بعد ذلك . وإن قال شخص ما إلى آخر : إن هذا المال الذى آخذه منك أو أعطيه لك قد صار قربانا ، فإن أحدهما لا يستطيع أن يتصرف فيه . وإن أعلن ابن ما أن ماله قد أضحى قربانا فلن يستطيع أن يساعد والديه فإنه لن يستطيع الرجوع فى هذا الكلام مهما تاب وتراجع .. لقد انتهى كل شىء ومهما احتاج الوالدان ، إن الأمر أضحى لا فى يد الابن بل فى يد تقاليد الشيوخ القاسية التى لا ترحم .

ولهذا السبب فقد هاجم يسوع هذا التقليد . إن الكتبة والفريسيين وضعوه فى المرتبة الأولى ووضعوا الحاجة البشرية فى المرتبة الثانية ، وهذه هى كارثة الديانة التقليدية . إن تقاليد الآباء أولا ، ولكن يسوع يعلن أن محبة الله ومحبة الإخوة يجب أن تكون قبل كل شىء ، إنها القانون والناموس

الإلهى ، فلا يجب أن نفضل عليها التقليد البشرى .

النجاسة الحقيقية

(مرقس ٧ : ١٤ ــ ٢٣)

لعل هذا الفصل يعد أعظم ثورة قادها شخص فى التاريخ وإن كان لا يظهر لنا كذلك :

فبعد أن أعلن يسوع أن غسل الأيدى لا ينفع شيئاً .. بل إن التمسك بتقاليد الآباء يبطل وصية الله ويهملها .. يتقدم فينطق بما هو أغرب وأعجب .. إنه يقول « إن ما يدخل جوف الإنسان لا ينجس الإنسان ، لأنه يدخل إلى الداخل ثم يتخلص منه الجسم فى طريقه الطبيعية ، ولعلنا نمر على هذا القول مروراً دون أن نعرف ماذا كان يعنى لليهودى . فلم يوجد يهودى استطاع أن يصدق أو أن يتصور هذا القول . إنه يقرأ فى لاويين ١١ عن الحيوانات النجسة التى يجب ألا يلمسها أو يأكل منها ولا يستطيع أن يحيد عن هذه الوصية الصريحة ، ويتمسك بها تمسكا لا نستطيع أن نتخيله إلا بإيراد بعض الأمثلة عليه : ففى الفترة التى تسمى ما بين العهدين « حاول أنطيوخيوس ابيفانس » الملك السورى أن يمحو اليهودية كدين ، وكان من ضمن ما عمله أنه حاول أن يجبر اليهود على أن يأكلوا لحم الخنزير ، ولكنهم بذلوا أنفسهم بالمئات للموت ولم يخضعوا لهذا الأمر . « ولكن كثيرين من اليهود تمسكوا بوصية إلههم ولم يأكلوا نجسا ، إنهم فضلوا أن يموتوا على أن يأكلوا لحما نجسا فينقضوا العهد المقدس ولذلك ماتوا » (١ مكابين ١ : ٦١ و ٦٢) . وفى سفر المكابيين الرابع (ص ٤) نقرأ قصة مروعة عن سيدة عجوز كان لها سبعة أبناء رفضوا جميعاً أن يأكلوا لحم الخنزير . فحاول العتاة أن يجبروهم على ذلك فقطعوا لسان الابن الأول وأصابعه ولكنه لم يرضخ لهم فأماتوه ، ثم جزوا شعر الابن الثانى وسلخوا جلد رأسه ولكنه أبى أيضاً أن يأكل فأماتوه .. وهكذا حتى قتلوا الأبناء السبعة تحت عينى أمهم ، ولكنها لم تتحرك ولم ترد أن تأكل فقتلوها آخر الكل .

هذا هو مقدار تمسك اليهود بناموسهم ، وفى وجه هذا التزمت القاسى وقف يسوع وبكلمة واحدة من فمه حكم على أن هذه التقاليد لا تنفع الإنسان ولو أكل الإنسان لحم الخنزير فإنه لن يتنجس .. ولا عجب أن ذهل التلاميذ وصعقوا .

وعلى هذا الأساس أعلن يسوع أن الأشياء لا يمكن أن تكون نجسة أو طاهرة بالمعنى الطقسى ، ولكن النجاسة الحقيقية والطهارة الحقيقية تكون فى الإنسان ، ونجاسة الإنسان وطهارته لا تأتى لأسباب طقسية كأكل لحوم الخنزير مثلا ، ولكنها تتولد من أعماله .. من قلبه .. من تفكيره . فالإنسان لا الشىء هو المعرض للنجاسة والطهارة . ولقد كان هذا التعليم جديداً ومزعجاً لكل يهودى .

دعنا الآن نعدد الأشياء التى حسبها المسيح نجسة وتنجس الإنسان :

الشيء الأول هو الأفكار الشريرة « ديالوجيز ماى (dialogiso moi) فكل عمل ردىء يعمله الإنسان لابد وأن يسبقه فكر شرير يتحول إلى دافع شرير .

ثم الزنى « بورناياى Porneiai » هذه كلمة متسعة تعنى كل المغامرات الجنسية . ثم السرقة : كلوبتاى kloptai هناك كلمة أخرى يونانية تستعمل للسرقة وهى ليستيس وهى رئيس عصابة مثل باراباس (يوحنا ١٨ : ٤٠) ، وقد يكون رئيس العصابة رجل فائق الشجاعة مع أنه خارج على القانون . أما الكلمة هنا فتعنى شخص سارق مخادع لا شرف له كيهوذا (يوحنا ١٢ : ٦) .

ثم الطمع بليونكسياى pleonexiai وهى كلمة مركبة من مقطعين تعنى « يريد أكثر » . وقد وصفت بأنها « لعنة الإمتلاك » أو أنها الروح التى تحب أن تمتلك ما ليس لها .. الشهوة الرديئة لمال الغير ، إنها الشهوة لامتلاك الأشياء لا لحفظها بل لتبديدها فى الملذات الشريرة . ويقول عنها كولى « إنها الرغبة للربح لا لقصد الربح بل لتبذيره فى مظاهر كاذبة مخادعة » فالطمع ليس الرغبة فى امتلاك المال فقط بل امتلاك المال لمحاولة التفوق على الآخرين واستعبادهم . وهى رغبة لا تنتهى كما يقول أفلاطون « إنها كالإناء المثقوب لا يمتلىء أبداً » . وهذا حق متى كانت رغبة الإنسان موجهة للأشياء لا الله .

ثم هناك **اعمال شريرة** ، وهى المترجمة « خبث » فى الترجمة العربية . هناك كلمتان فى اليونانية تترجمان « شرير » الأولى وهى كاكوس kakos وهى تعنى الشخص الشرير فى طبيعته . أما الثانية فهى بونيروس poneros وهى تعنى الشخص الشرير شراً إيجابياً بمعنى أنه يؤذى غيره ، ويقول عنه بنغال « إنه الشخص المتدرب فى عمل ما هو ضار فيعرف كيف يؤذى الناس » ، ويصفه جيرمى تايلور « إنه الخبيث ، هو الشخص الماهر الذى يفرح فى المصائب ويسر عندما يؤذى جيرانه إنه الدهاء والأذية » فهو الشخص الشرير الذى يحاول أن يحول الآخرين إلى أشرار ، ولهذا فقد أطلق هذا اللقب على الشيطان نفسه .

ثم **مكر** إن هذه الكلمة تشتق من كلمة تعنى أوقع فى الفخ ، أى أن الإنسان يسلك بمكر حتى يصطاد شخصاً أو شيئاً آخر ، كما فعل اليونانيون قديماً عندما عجزوا عن قهر طرواده أرسلوا لها هدية عبارة عن حصان أبيض ضخم جداً علامة على حسن النية ، وفتح أهل طروادة الأبواب وأخذو الحصان ، وفى أثناء الليل نجح جماعة من جنود اليونان كانوا مختبئين داخل الحصان فى كسر جوانبه وبدأوا فى القتل والنهب فى مدينة الطروادين هذا هو المكر .

ثم **عهارة** أسيليجيا وهى تعنى حالة النفس عندما ترفض كل نظام ولا تخضع لأية قواعد اجتماعية أو أخلاقية . فإن الإنسان الذى يتصف بهذه الصفة هو شخص قد فقد كل الإحساس بالخجل ولا يتردد فى عمل أى شر دون أن يشعر بأى وازع اجتماعى مثله فى ذلك مثل ايزابل التى بنت مذبحا ضخماً للأصنام فى أورشليم دون ما خجل .. إن الشرير قد يخفى خطيته أما العاهر فيخطىء علنا .

ثم العين **الشريرة** أى أنها العين التى تنظر إلى نجاح وسعادة الآخرين وتود أن تحولهما إلى فشل وسقوط .

ثم **تجديف** إذا استخدمت هذه الكلمة ضد إنسان فهى تعنى إفتراء ، أما إذا استخدمت ضد الله فهى تعنى تجديف .. إنها السب ضد الله أو إنسان .

ثم **الكبرياء** : هوبيرافانيا huperephania وهي تعنى حرفياً إظهار علو الإنسان فهى تصف الإنسان الذى يحتقر كل شخص ما عدا نفسه . أما الشيء المهم فى هذه الكلمة فهو أن الكبرياء قد لا تكون ظاهرة بمعنى أن الإنسان يحتقر الآخرين فى قلبه ظاناً أنه أعظم منهم بينما هو يسلك بتواضع أمام عيونهم ، وتقول الأسطورة اليونانية إن العمالقة من أبناء تارتاروس وجى أرادوا أن يثيروا الأعاصير فأسقطتهم العاصفة هيرقوليس . إن الكبرياء تعنى التدخل فى شئون الله ومحاولته الوقوف ضده ولهذا قيل « يقاوم الله المستكبرين (يعقوب ٤ : ٦) إنها رأس كل الرذائل .

وأخيراً **الجهل** : أفروزونى aphrosune» إنها لا تعنى الجهل عقليا بل الجهل الخلقى . إنها تصف الرجل الذى يتصرف بحماقة .

إنها قائمة مرعبة حقاً هذه التى يذكرها يسوع ، وإنها هى التى تنجس الإنسان حقا ، ولكن يسوع يذكرها هنا لنا لا ليدينتا بل لكى يدعنا نفحص أنفسنا فحصاً دقيقاً ، لعل أحد منا مصاب بأحد هذه الأمراض الروحية فيذهب إلى الطبيب الروحى لكى يشفيه .

الإعلان أن العالم للمسيح

(مرقس ٧ : ٢٤ — ٣٠)

هذه الحادثة تعتبر من أكثر حوادث حياة المسيح إثارة لما يكتنفها من ظروف وللمكان الذى حدثت فيه .

مكان الحادثة : صور وصيدا مدينتان فينيقيتان فى سوريا ، ويحد فينيقية من الجنوب جبل الكرمل ومن الشرق الجليل ومن الغرب البحر . وكانت صور تبتعد ٤٠ ميلا جنوب غرب كفرناحوم ومعنى اسمها الصخرة ، وذلك لأنها تقبع عند صخرتين عظيمتين على شاطىء البحر يبلغ ارتفاع الصخرة حوالى ٣٠٠٠ قدم ، وهاتان الصخرتان خلقتا من صور ميناءًا شهيرا من قديم الأزمنة ، وكذلك مدينة حصينة ليس من السهل الاستيلاء عليها . ولقد كان سكانها من البحاره المهرة الذين كانوا أول من عرف مواقع النجوم فاستخدموها فى معرفة الطريق فى وسط البحر ولذلك تمكنوا من الإبحار نهاراً وليلاً فى وسط البحور ، فوصلوا فى سفنهم إلى شواطىء إنجلترا ثم ساروا حول شواطىء أفريقيا .

أما صيدون فكانت تبعد ٢٦ ميلا شمال صور و ٦٠ ميلاً شمال غرب كفرناحوم : وكانت لصور ميناء مهم على البحر الأبيض المتوسط . ومع أن المدينتين كانتا فى سوريا إلا أنهما كانتا مستقلتين لكل منهما ملكها وعملتها وآلهتها .. وكانتا متنافستين فى كل شيء وعلى العموم فقد زاعت شهرتهما قديماً .. ولكن بمرور الأيام بدأ نجم صيدون يأفل للانحلال الخلقى الذى ملأها وبدأت صور تتفوق عليها .. ولكن استمرت شهرة بحارة المدينتين واسعة وسمعتهما لا يدانيهما سمعة كثير من بحارة العالم .

١ ـــ إن أمجد وأروع ما يقابلنا هنا أن يسوع ذهب إلى الأمم ، وهذه الحادثة لم تأت عفواً بل لابد أن يسوع قد قصدها ؛ فإذ نراه فى الفصل السابق يعلن أنه لا يوجد شىء اسمه نجس وطاهر طقسيا ، هكذا يعلن فى هذه الحادثة أنه لا يوجد شعب نجس أو طاهر طقسياً وكل إنسان وكل شعب له مكان فى ملكوت الله ، وبذلك صفع التقاليد اليهودية صفعة مميتة : هذه التقاليد التى حرمت على اليهودى أكل كثير من الأطعمة والاتصال بكافة الأمم . لأنهم نجسون . ولابد أن يسوع خرج إلى الأمم ليستريح بعض الوقت من عداوة اليهود : فالكتبة والفريسيون اتهموه بأنه خاطىء ، وهيرودس بدأ يشك فيه ، وأهل الناصرة حاولوا أن يقتلوه ؛ ولم يشأ أن يواجه المصير المحتوم لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد فذهب إلى الأمم وبذلك تم ما هو معلوم فى مشيئته هو أن رفض اليهود هو قبول للأمم .

٢ ـــ ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك : فهذه المنطقة ـــ منطقة صور وصيدا ـــ تنتمى فرضا إلى أرض إسرائيل ولقد حاول سبط أشير أن يخضعها ولكنه فشل فى ذلك (يشوع ١٩ : ٢٨ ـــ ٢٩) . فبقيت بعد ذلك كأنها لهم وهى غير خاضعة لحكمهم . ولكن لنتأمل هنا ، إن ماعجزت عنه الأذرع القوية والأسلحة الفتاكة عملته المحبة ، فهذه البلاد التى لم يستطع أن يخضعها إسرائيل الأرضى ، فتحها إسرائيل الروحى فى شخص يسوع فهى إذن ليست منطقة غريبة . إنها من ضمن ممتلكات شعب الله فامتلكها يسوع الممثل الحقيقى لهذا الشعب . لقد امتلكها بالمحبة .

٣ ـــ أما القصة نفسها فتحتاج إلى بصيرة نفاذة لفهمها : فعند ما جاءت المرأة الفينيقية تطلب من يسوع أن يشفى ابنتها أجابها يسوع « ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب » . يبدو هذا القول للوهلة الأولى قاسياً .. فالكلاب لم تكن محبوبة ، كما نحبها نحن الآن .. لم تكن الحارس الأمين ، بل كانت مخلوقات بائسة تدل على الإهانة . وكان اليونانيون يعتبرون المرأة الفاسدة التى تتصرف بدون خجل أنها « كلبة » وبهذا المعنى استخدمها اليهود أيضاً إذ قيل « لا تعطوا القدس للكلاب » (متى ٧ : ٦ ، فيلبى ٣ : ٢ ، رؤ ٢٢ : ١٥) . ولهذا فقد أطلقوها على الأمم . ويقولون إن الربای يشوع ابن لاوى عندما رأى النعم والبركات عند الأمم قال « إذا كان الأمم يتمتعون بهذه النعم : فكم يكون نصيب شعب الله ؟ إن هذا يشبه ملكا دعا جماعة إلى وليمة عظيمة ، ولما جاءوا دخلوا ووقفوا على باب بيت الوليمة فرأوا كلابا كثيرة تخرج من الداخل وأفواهها مملوءة برؤوس الطير ولحم العجول وغير ذلك فقال بعضهم لبعض : إذا كانت الكلاب قد استولت على كل هذا النصيب فكم تكون أنصبة المدعوين أنفسهم ؟ هكذا الأمم الكلاب قد أخذوا شيئاً كثيراً ولابد أن شعب الله سيأخذ أكثر بما لا يقاس » (إش ٥٦ : ١١) . ومهما حاولنا أن نخفف من وقع الكلمة فلا ننسى أن الكلاب كانت تستخدم فى السب ، فكيف نفسر كلام يسوع للمرأة ؟

(أ) إن يسوع لم يستخدم الكلمة المعتادة التى تطلق على الكلاب المتوحشة المنطلقة فى الشوارع بل استخدم الكلمة التى تعنى الكلاب الصغيرة الموجودة فى البيوت التى تتخذ كلعبة محبوبة . وبهذا خفف وقع الكلمة كثيراً .

(ب) ونفس نبرة صوته : لقد كانت الطريقة التى تكلم بها مهذبة مرحة غير جارحة . ونبرة

الصوت قد تزيل سموم الكلمة إن قيلت هكذا ، ولكنك لو وصفت إنساناً بأنه « شجاع » ولكن نطقتها بلهجة الاحتقار لأضحت هذه الكلمة سباً مفزعاً .

(ج) وفى كل حوادث حياته لم يغلق يسوع الأبواب نهائياً ، فقد قال أولا : إن البنين يجب أن يطعموا أولا ولابد أن الطعام الباقى يعطى للكلاب المحبوبة . وبهذا يعلن أن اسرائيل له الأولوية فى تقديم الإنجيل له ، ولكنه ليس الوحيد فى ذلك ، فالإنجيل للجميع يهودا وأمما . ولقد كانت المرأة اليونانية لها قوة الإدراك ورأت ابتسامة على وجه يسوع .. وعرفت أنه لم يغلق الباب فى وجهها ، بل بالعكس ، إنه يفتحه رويداً رويداً ، فقالت نعم أنا أعلم أن الأطفال يأكلون أولا ، أفلا تعطينى من الفتات الساقط ؟ وقد كان الفتات يتساقط لأن الناس تعودوا أن يأكلوا بأيديهم لا بالشوك والسكاكين . ونظر إليها يسوع وعطف عليها ، لقد كان إيمانها منيراً لم يستطع مرض ابنتها بالبيت ، وامتحان إيمانها على يدى يسوع أن يطفئا الابتسامة التى على وجهها ، والنور الذى فى قلبها فنالت ما أرادت ، ألا يشبه عملها هذا بالأمم الذين قبلوا من يدى المسيح الخبز الحى النازل من السماء الذى رفضه اليهود فى قساوتهم ؟ لقد كانت قصة حقيقية ولكنها فى الوقت نفسه ترمز إلى موقف عالم الأمم الذى قبل الإنجيل .

يعمل كل شىء حسناً

(مرقس ٧ : ٣١ ــ ٣٧)

تعتبر هذه الرحلة ــ لدى القراءة الأولى ــ رحلة غريبة ، فقد أراد يسوع أن يذهب إلى الجليل فبدلا من أن يسير من صور إلى الجنوب سار إلى الشمال إلى صيدون ، ولقد اندهش كثير من علماء الكتاب لذلك فظنوا أن هناك خطأ فى العدد ، وصيدون يجب أن تخرج من هذا العدد ، ولكننا نؤمن أن العدد صحيح ، ونعتقد أن الرحلة ، كما ذكر أحد العلماء ، كانت طويلة جداً بحيث استغرقت ثمانية شهور كاملة . ولقد كانت رحلة السكون الذى يسبق العاصفة ، وفيها اختلى يسوع بتلاميذه ولابد أنه كشف ذاته لهم فى تعاليمه وحياته ، ولا عجب أن اعترف بطرس اعترافه العظيم حالا بعد هذا الأصحاح . (مرقس ٨ : ٢٧ ــ ٢٩) . إن يسوع يبقى مع الناس مدة طويلة يعلمهم ويفتح عيونهم .

وعندما وصل يسوع إلى ديكابوليس أو المدن العشر احضروا له إنسانا أصم أخرس ، والخرس هنا يعنى النطق بصعوبة ، ولابد أن الاثنين يسيران معاً ، فعدم السمع يجعل الكلام صعباً غير مفهوم . وفى هذه المعجزة نرى حلاوة يسوع وهو يعامل المرضى الذين يأتون إليه :

١ ــ لقد أخذه بعيداً عن الجماهير وهو بذلك يظهر إحساسه وعطفه على رجل أصم . إن المرضى عموما ، والصم خاصة ، يضطربون كثيراً فى كثير من المواقف . ولعل الأصم أكثر حساسية من الأعمى لأنه عندما يرى انساناً يتكلم إليه ويحس أنه لا يسمعه يزداد اضطرابا ، ولهذا فقد أخذه يسوع على جانب لكى لا يجرح إحساساته .

٢ ـــ وتصرف يسوع معه كما يتصرف مع شخص أصم . فلقد وضع يديه فى أذنيه ، وكان الناس يعتقدون آنئذ أن البصق يشفى من بعض الأمراض . ويذكر أحد مؤرخى الرومان : أن رجلين أحدهما أعمى والآخر أعرج جاءا إلى القيصر فسبسيان طالبين منه أن يبصق فى عينى الأعمى وعلى الرجل الأعرج ، لأنهما رأيا فى الحلم أنه لو فعل ذلك فسيشفيان . وفعل الإمبراطور بعد تردد وشفى الإثنان (سويتوبناس : حياةفسبسيان ٧) .

ثم نظر يسوع إلى السماء ليعلن للناس أنها قوة الله التى تشفى . إن القصة كلها تظهر بوضوح أن يسوع لم يعتبر المرض حالة أمامه بل إنساناً ، وهذا الإنسان له احتياج خاص ومشكلة بعينها .. وفى شعور فياض ومحبة غامرة تصرف معه بحيث لم يجرح شعوره ولا إحساساته .

وعندما انتهى من شفاء هذا الرجل اعترف الناس أنه فعل كل شىء حسناً وهذه هى نفس الكلمة التى قيلت عن الله أثناء الخليقة (تك ١ : ٣١) ، وهذا حق .. فعندما جاء يسوع وهو يحمل الشفاء لأجساد الناس والخلاص لارواحهم . لقد كان يخلق من جديد . فى البدء كان كل شىء حسنا ، لكن الخطية شوهت الإنسان ، وهنا يجىء يسوع ليرجع الجمال الذى وضعه الله فى العالم بعد أن أفسدته الخطية .

الأصحاح الثامن

حنان وتحد

(مرقس ٨ : ١ ــ ١٠)

هناك أمران مهمان يتصلان بهذه الحادثة :

١ ــ الأول هو تحنن يسوع على الجموع . إن الشيء المذهل في يسوع هو اهتمامه الكبير بالناس ، وهذا الاهتمام لا ينسى أقل الاحتياجات ، لقد مكثت الجموع أياما ثلاثة معه ، وتذكر أنهم سيرجعون إلى بيوتهم وأنهم سيسيرون طويلا ولابد أنهم سيجوعون ، وهذا أمر مذهل في يسوع . إن الناس يظنون أن من يهتم بالروح لا وقت لديه للاهتمام بالجسد ، إن من يعلم الناس الحق ومحبة الله والقريب لا يهتم بما سيحدث لهم في رجوعهم ، ولكن يسوع لم يفعل ذلك . إن جسد الناس مهم مثل أرواحهم ، وإشباعهم بالخبز لا يقل أهمية عن إشباعهم بالكلمة المقدسة . إنه ليس كالبشر الذين لا يهتمون بالمساعدة مثل ذلك الصديق الذى قابلته في أحد المؤتمرات ، وكان يقص على مسامعي أخطار الطريق التى سنذهب فيها . وذكر أنه قابل وهو آت إلى هنا عربة مغروزة في الأرض . فلما سألته عما فعله وهل ساعد السائق ؟ أجاب « أنا ؟ أنا لا أساعد هؤلاء .. إنني مشغول » . هذه هي الطبيعة البشرية إنها تتجنب متاعب مساعدة الناس لكن الطبيعة الإلهية دائمة المساعدة .

٢ ــ هناك التحدى : عندما طلب يسوع من تلاميذه أن يعينوا الجموع ويعطوهم ليأكلوا . حالا ذكروه أنهم في صحراء ولا يوجد هناك مكان قريب لشراء طعام لهم ، وعندئذ سألهم يسوع « ماذا عندكم حتى يمكنكم أن تساعدوا به ؟ » وبهذا تحول حنان يسوع على الجموع إلى تحد لتلاميذه الذين أرادوا أن يلقوا بالمسئولية عن أكتافهم . كأنما يقول لهم . لا تقل في نفسك أنك تستطيع أن تساعد لو عندك ما تساعد به ، فلابد أن لديك شيئاً ، قدمه لمعونة الغير وانظر ماذا سيحدث لك . من أمتع الأعياد اليهودية عيد الفوريم الذى بدأ في سفر أستير ، في هذا العيد يحاول الناس أن يساعدوا بعضهم البعض ، حتى الشخص الفقير فإنه يتقاسم ما عنده مع شخص أفقر منه « هكذا يسوع إنه لا ينتظر حتى تتحسن الأحوال فيقدم المساعدة .. إنه يقدمها ويطلب منا أن نقدمها الآن ولكل الناس » .

هناك شيء مهم وراء هذه القصة :

الأول : هو أن هذه الحادثة حدثت في محيط المدن العشر ، فما الذى دفع هذا الجمع الغفير أن يلتف حول يسوع ؟ أربعة آلاف شخص لماذا ؟ قد تظن أن شفاء هذا الرجل الأصم الأخرس قد دفع الجموع أن يأتوا إلى يسوع ، وهذا حق ، ولكن أحد المفسرين ذكر شيئاً جميلاً فقال : إن يسوع في ص ٥ : ١ ــ ٢٠ شفى الرجل المجنون الذى كان به اللجئون ، وحاول الرجل أن يتبعه ولكنه أمره أن يذهب إلى عشيرته لينادى كم صنع به الرب ورحمه ، ويلوح أن مناداة الرجل قد أتت ثمارها ، فبينما طلب الناس من يسوع من قبل أن يترك تخومهم إذ بهم الآن يتجمعون من حوله

ويزحمونه طالبين أن يسمعوا منه ، ولابد أن كثيرين وجدوا نفوسهم عندما جاءوا إلى يسوع بمناداة هذا الرجل .. هل عرفنا الآن وكم تعمل شهادة هادفة تخرج من فم رجل قد اختبر فعل يسوع ؟ يقول يوحنا بنيان إنه تجدد بعد أن سمع أربعة سيدات يذكرن كيف افتقدهن الرب وأعطاهن الميلاد الجديد . هذا هو ثمر المناداة الحقيقية .

أما الأمر الثانى هو أن الكلمة التى ترجمت سلة هنا تختلف عن الكلمة التى ترجمت قفة فى ٦ : ٤٤ . الكلمة فى الأصحاح السابق تعنى القفة التى كان يستخدمها اليهود فى حمل طعامهم وهى ضيقة من أعلى متسعة من أسفل ، أما السلة هنا فهى التى كان يستخدمها الأمم وهى مثل « السبت » وهى نفس السلة التى أنزل فيها بولس ليهرب من دمشق (أعمال ٩ : ٢٥) . كما قلنا إن هذه الحادثة حدثت فى المدن العشرة وغالبية سكانها من الأمم : أفلا يرمز هذا إلى أن المسيح أشبع فى هذه المعجزة الأمم كما أشبع بالمعجزة الأولى اليهود ؟ وإذا وضعنا القصتين جنبا إلى جنب أفلا نستطيع أن نميز محبة الله واهتمام الله بالجميع (يهوداً وأمما) فى كل شىء روحاً وجسداً ؟ أفلا تشير هذه الحادثة إلى أن الله فتح الباب أمام الأمم كما فتحه أمام اليهود من قبل ؟ إنه يمد يديه فيشبع الجميع غير ناظر إلى أجناسهم .. إنه يحبهم جميعا .. فى اليهودية .. أو فى المدن العشر .

العميان الذين يطلبون آية

(مرقس ٨ : ١١ — ١٣)

كان طابع العصر الذى عاش فيه المسيح إيمانه بالأعمال الخارقة للطبيعة ومحاولة رؤية الله فى الأشياء الغير عادية ، وكانوا يظنون أن المسيا عندما يأتى سيقوم بحوادث إعجازية .. سنرى بعضها فيما بعد .

ولقد نجح المسحاء الكذبة فى اجتذاب الناس إليهم إذ وعدوهم بأنهم سيعملون معجزات هائلة ، فبعضهم وعد الناس بأنه سيشق مياه الاردن ، وآخر وعدهم بأنه سيسقط أسوار المدينة بكلمة واحدة . ولقد طلب الفريسيون معجزة كهذه من يسوع .. معجزة تشق الأفق وتبهر الناس شرقاً وغرباً .. مثل هذه المعجزات لا يقر بها يسوع . إن طالبى هذه المعجزات هم جماعة من العميان الذين لا يستطيعون رؤية يد الله فيما حولهم .. فالمفتوح العينين يستطيع أن يراها فى نبات الحقل وفى خميرة الخبز وفى الزروع التى تكسو جوانب التل . إن الله لا يغزو العالم من الخارج إنه فى داخله .. إنه صانعه وهو يعمل فيه كل شىء .. إن المؤمن لا يرى الله فى الكنيسة فقط بل يراه فى كل مكان .. إنه لا يجده فى الأمكنة المقدسة فقط بل فى كل مكان .. وهذا ما عبر عنه الشعراء .

تقول اليزابيث بارت :

« السماء والأرض معا هما عليقة فيها النار الإلهية المقدسة » .

« والمفتوح العينين وحده هو الذى يرى .. أما غيره فجالس فى الظلام » .

ت ى ادوارد يقول :

« الحديقة هى مكان لله ينمو فيها الزهور . إنها مكان الراحة والسلام » .

« يسألون عن آية وفى كل يوم تشرق الشمس .. وتبزغ النجوم فى الليل » .

« وكل صباح يسقى الندى الزهور .. والقمح ينضج فى وقت الحصاد .. هذه هى الآية » .

فكل من له عينان ينظر بهما وكل من له قلب فهيم يرى الآية فى إشراق الصباح ومجىء الليل .. إن الحوادث اليومية التى نراها أمامنا هى العلامة الحقيقية لوجود الله وجوده .

الفشل فى التعلم من الاختبار

(مرقس ٨ : ١٤ ــ ٢١)

هذا الفصل يلقى أضواء كاشفة على تفكير التلاميذ وفى طريقهم قال لهم يسوع « تحرزوا من خمير هيرودس والفريسيين » . ولقد اندهش التلاميذ من كلام المسيح إذ ظنوه أنه يتكلم عن الخبز وتذكروا أنهم لم يحملوا معهم خبزا مع أن يسوع لم يقصد ذلك . إن كلمة خميرة عند اليهود كانت تدل على الشر فهى جزء من الدقيق المختمر الذى يستطيع أن يحول الدقيق كله إلى خمير . وهى تمثل العدوى المتنقلة ، وهى تعنى عند اليهود ما نقصده نحن عندما نقول لاهوتيا « الخطية الأصلية » أو « الطبيعة الشريرة » . كما يصلى الربای الكساندر « إن إرادتك المعلنة هى أن نعمل إرادتك . ولكن الذى يمنع هو الخميرة التى فى الدقيق والعبودية التى فى ممالك العالم لعلك تخلصنا من كل هذا » . فكأن يسوع يقول لهم : تحرزوا من تأثير الفريسيين وتأثير هيرودس ، إنه تأثير شرير . فما هو قصده فى ذلك ؟

رأينا فيما سبق أن الفريسيين كانوا يطلبون آية (أى عملا جباراً) ، وكانوا فى قوميتهم المتعصبة التى تكره الجميع ينتظرون المسيا الذى يشهر سلاحه . وهكذا كان يفعل هيرودس : إنه أراد أن يبنى حكمه على القوة والسلاح . فكأنما ملكوت الله فى عرف الاثنين هو ملكوت القوة والجبروت . ويلوح أن يسوع كان يؤهل التلاميذ للإعلان العظيم الذى كان سيعلنه .

إنه هو مسيح الرب .. أو المسيا . فعندما يعرفون ذلك ينبغى عليهم ألا يفكروا كما يفكر الفريسيون وهيرودس .

ولكن هذه الحقيقة لم يستطع التلاميذ أن يفهموها ، لم يكن تفكيرهم واهتمامهم ينحصر فى تلك الأمور السامية بل فى الخبز .. إنهم لم يحضروا معهم خبزاً .. وهل يمكن أن يبقوا هكذا جائعين ؟ ولكن يسوع سألهم سؤال الأب الذى يرى طفله جاهلا لشىء ما . سألهم عما أخذوه من الخبز عندما أشبع الجمع الكثير بالأرغفة القليلة كأنه يقول لماذا تقلقون لأجل هذه الأمور التافهة ؟

إن الأمر المؤلم هو أننا لا نعرف إلا نصف الحقيقة من اختبارنا ، فننظر إلى الحياة حولنا ونجد

فيها ما فيها وإذ بنا نمتلىء من التشاؤم . ولكن هناك اختبارات أخرى نواجهها فكم من مرة جزنا فى الأحزان ولكن تعزينا ، وصادمتنا التجارب و لم نسقط ، ودهمنا المرض ولكن شفينا ، وقابلتنا المشاكل ولكنها حلت ، ووصلنا إلى نقطة الفشل ولكننا انتصرنا ، وكدنا أن نتحطم ولكن أنقذنا . فلو تعلمنا الدرس حقيقة لعرفنا أنه لا مكان هناك للتشاؤم إن الله هو الذى يقودنا فى كل الطريق إلى المكان الأمين .. إن دروس الماضى تظهر لنا الله القوى الأمين الصالح .

رجل أعمى يتعلم كيف يرى

(مرقس ٨ : ٢٢ ــ ٢٦)

كان العمى ولا يزال لعنة الشرق الكبرى . نظراً للأمراض المنتشرة ولضوء الشمس الساطع ، ولما كان الناس يجهلون قواعد الصحة والطب فقد كانت لعنته أشد وأفتك أيام المسيح ، وما أكثر ما ترى الشخص وقد تكاثر الذباب على عينيه المريضتين فتنتقل بذلك العدوى إلى الكثيرين . وهذه القصة لم ترد إلا فى مرقس ولكننا نجد فيها أشياءً فى غاية الأهمية :

١ ــ نلاحظ هنا أيضاً تقدير يسوع للمواقف ، لقد أخذ هذا الأعمى بعيداً عن الناس خارج قريته ، لماذا ؟ لأن هذا الرجل قد ولد أعمى لم يألف وجوه الناس ولا الألوان ولا أى شيء يرى ، وكم تكون شدة إنفعاله حينما يجد نفسه فجأة يرى أشياء لا يعرفها ؟ إنها خبرة قاسية ، فالأفضل له أن يعطى بصره بعيداً عن الناس حتى تكون إنفعالاته أقل شدة . وهكذا يفعل كل طبيب عظيم وكل معلم عظيم .. إن الطبيب العظيم يقدر موقف المريض الذى يعالجه .. يدخل إلى عقله وينظر بعينيه ويتقمص شخصيته فيقدر مواقفه .. وكذلك المعلم العظيم : إنه يدخل عقل تلميذه ، يقدر ظروفه ومشاكله ، وبذلك يستطيع أن يقدم له المعونة المناسبة فى الوقت المناسب .. هذا هو سر عظمة يسوع . ليت الله يعطينا نعمة تقدير المواقف والظروف هذه .

٢ ــلقد استخدم يسوع طريقة يستطيع أن يفهمها هذا المريض . فاستخدم البصق الذى كان يعتقد الناس أنه عامل كبير على الشفاء ، إن هذا ليس بغريب علينا فإننا كثيراً ما نضع إصبعنا المجروح أو المحروق فى فمنا ، لقد كان يسوع حكيما فى ذلك إذ يحاول أن يدخل العقول ما يريده وبالطريقة التى يفهمونها ، لقد كانت العظمة قديماً فى أن يتكلم الإنسان أو يعمل شيئاً لا يفهمه الناس ، ولكن يسوع كان أعظم من هذا إذ تصرف بطريقة بسيطة يفهمها الرجل البسيط .

٣ ــ تنفرد هذه المعجزة عن بقية معجزات المسيح بالتدرج ، فكل معجزاته حدثت فجأة وعلى دفعة واحدة ، أما هذه فقد حدثت تدريجياً . وفى هذا الأمر رمز إلى معرفة حق الله .. إننا لا نستطيع أن نعرف حق الله دفعة واحدة عندما تنفتح أعيننا الروحية بل نعرفه بالتدريج .

وهذا خطأ الكثيرين من الخدام فى حقل الله إذ يعتقدون أن الإنسان متى نال نعمة المسيح أو متى صار عضواً فى الكنيسة فقد عرف كل الحق ، هناك فرق بين اكتشاف غنى المسيح وبين التمتع بذلك الغنى . إننا لو مكثنا مئات وألاف، وملايين السنين فإننا لا نستطيع أن نفهم ونختبر إلى التمام

محبة المسيح ولطفه . ويعبر ف . و . مايرز على لسان بولس قائلا :

لا يفتكرن إنسان أنه فجأة فى لحظة ينتهى كل العمل .

فمع أنك تبدأه فى فجر حياتك لكنك لن تنهيه فى آخر أيامك .

إن التجديد الفجائى ممكن ، ولكن فى كل يوم يجب أن يتجدد الإنسان . ففى مجد الله ونعمته ينمو المؤمن يوماً بعد يوم .

الاكتشاف العظيم

(مرقس ٨ : ٢٧ — ٣٠)

كانت قيصرية فيلبس خارجاً عن الجليل فى مقاطعة فيلبس ، وكانت مدينة لها تاريخ طويل : فاسمها الأول كان بعولة لأنها كانت مركزاً لعبادة البعل ، وإلى الآن يطلق عليها اسم بانياس لأنها شهدت مولد الإله الإغريقى .. إله الطبيعة بان . ومن بطن كهف على جانب التل الذى تقع عليه يتساب مجرى يقال عنه إنه منبع نهر الأردن ، وهناك أيضا يظهر هيكل عظيم أبيض بناه فيلبس على اسم قيصر إمبراطور روما وإله ذلك العالم.فى هذا المكان بعينه عرف بطرس أن هذا النجار الجليلى هو مسيح الله الآتى إلى العالم . نعم فى هذا المكان الذى تربع فيه البعل أجيالا طويلة معبوداً من الجميع فى هذا المكان الذى يتلألأ فيه معبد القيصر فعبده الناس كإله . فى هذا المكان الذى يحكى قصة المدينة اليونانية والقوة الرومانية .. وفيه يحكى الأردن تاريخ إسرائيل الطويل .. فى هذا المكان اكتشف بطرس أن معلمه هو ابن الله القدوس وهذا كله يظهر مدى سيطرة شخصية يسوع إذ فاقت كل تلك التيارات التى تحيط بهم ولم تظهر فى نوره سوى ظلام وظلال .

جاءت هذه الحادثة فى منتصف إنجيل مرقس حيث تظهر أزمة حياة المسيح على الأقل أمام عينيه هو ، فهو يرى الصليب يمتد أمامه ، والساعة قد قربت .. ولكن قد نجح فى عمله ؟ هل لقيت رسالته قبولا بعد كل ذلك التعب ؟ إن نجاح رسالته هو أن يرى الناس الله فيه فيعرفونه من هو ؟ إنه يتوقف على كتابة رسالته على قلوب حية فينطبع فيها الهدف الذى ينظر إليه ؛ ولهذا ففى هذه الساعة الفاصلة وضع يسوع كل عمله ورسالته تحت الامتحان فى سؤال سأله للتلاميذ : من يقول الناس إنى أنا ؟ وهنا أجاب التلاميذ بترديد الإشاعات التى يذكرها الناس عنه .. إيليا أو يوحنا أو أحد الأنبياء . وبعد فترة صمت رهيبة يوجه يسوع السؤال إلى تلاميذه : وأنتم من تقولون ؟ وفجأة تنبلج الحقيقة فى عقل بطرس ويعرف ماذا كان يعتمل فى داخله ، وماذا كان يحس به ولا يستطيع أن يعبر عنه .. فجأة يعرف أن هذا الرجل ما هو إلا مسيا .. المسيح .. مختار الله وابنه .. وفى هذا الجواب رأى يسوع أن رسالته قد نجحت .

وهنا نقف أمام نقطة غريبة مرت فى حياة التلاميذ من قبل ولم نجد عنها جوابا وهى أمر يسوع إلى التلاميذ ألا يخبروا أحداً .. لماذا هل هناك من داع ؟ لو لم نجد عنها جوابا لأضحى الإنجيل

غامضا غير معقول . ولكن الجواب يتوقف على مفهوم يسوع للمسيا ، وإن أردنا أن نعرف عمق هذا المفهوم فما علينا إلا أن ندرس مفهوم المسيا فى الأوساط اليهودية المختلفة وبذلك نعرف السبب الذى لأجله يأمر السيد تلاميذه بإخفاء حقيقته :

التفكير اليهودى عن المسيا

لم يكف اليهود يوما من الأيام عن الاعتقاد فى أنهم شعب الله المختار ، وأنهم كشعب لهم مكانتهم المختارة بين الأمم ، ومجدهم الذى يفوق كل مجد ، ولقد ظنوا أولا أنهم يستطيعون أن ينالوا ذلك المركز السامى بالوسائل العادية ، فقد كان لهم ملك عظيم رفعهم فى مجد : هذا الملك هو داود ، وقد انتظروا أن الله يرسل لهم ابنا لداود يقودهم من نصرة إلى نصرة سياسيا وعسكريا وروحيا (إشعياء ٩ : ٧ ، ١١ : ١ ، إرميا ٢٢ : ٤ ، ٢٣ : ٥ ، ٣٠ : ٩) . ولكن الأيام تمر وقدرتهم العسكرية تضعف وتنكسر تحت أقدام القوى العالمية الجبارة : أشور تسبى الأسباط العشرة وتحطم قوميتهم ، وبابل تسبى يهوذا وتحطم قدرتها .. بعد ذلك يتبادل الفرس واليونان والرومان السيادة عليهم ، وظل اليهود قرونا طويلة لا يعرفون طعم الملك ولا حتى الاستقلال أو الحرية الكاملة ، فبدأوا ينظرون إلى أعلى ، إلى تدخل الله بطريقة معجزية لكى يرفع الشعب .. نعم إنهم لم ينسوا أن داود ملكهم سيملك عليهم ولكن بطريقة فائقة فوق الطبيعة . ولقد ظهر هذا الرأى بالأخص فى الفترة التى تسمى « ما بين العهدين » ، حيث ظهرت مجموعة من الكتابات تدعى « الكتابات الرؤيوية » . والرؤيوية تعنى « كشف المستقبل » وفى هذه الكتب أعلن مفكرو اليهود كثيراً من الآراء عن المسيا ، وقد تأثر العصر الذى عاش فيه يسوع بها ، ولهذا فعلينا أن ندرس هذه الآراء والأحلام ونضع فى مقابلها رأى يسوع فى عمل المسيا .

فى هذه الكتب تظهر هذه الأفكار الرؤيوية التى نرتبها هنا حسب الترتيب الذى عمله شورر مؤلف الكتاب المشهور « تاريخ الشعب اليهودى فى أيام المسيح » .

١ ــ قبل ظهور المسيا ستأتى على العالم ضيقة عظيمة مثلها مثل المخاض الذى لا تنجو منه أى امرأة قبل ولادة الطفل . هذا هو مخاض ولادة عصر جديد ، فى هذه الضيقة سيرى العالم آلام وتحطيم لم ير مثله من قبل . « ستتحول الكرامة إلى عار والقوة إلى ضعف والمنظر يقبح والجمال يذبل ، وتتملك الأنانية على كل فرد ، ويغطى الألم من كانوا يعيشون فى سلام ، ويغضب الكثيرون فيؤذون الآخرين ، ويقودون الجيوش لإراقة الدماء ، ثم يفنى الجميع معاً » (٢ باروخ ٢٧) . « سيصبح هناك زلازل ، وحروب ، وكرب أمم ، وبلبلة فى القادة ، واضطراب فى الرؤساء » (٤ عزرا ٩ : ٣) .

« وينطلق سيف نار من السماء إلى الأرض وتسقط الصواعق الجوية على الناس ، وتهتز الأرض أم كل الكون تحت يدى الأزلى . ويصعق سمك البحر وحيوانات البر وطيور السماء وأرواح الناس من رؤيته . وتنهدم قمم الجبال والتلال وتصبح الهاوية منظورة للجميع ، وستمتلىء الكهوف بالموتى وتسبح الصخور فى الدماء التى تملأ الوادى ، وسيدين الله بالحرب والسيف والصواعق الجوية

والأحجار والأمطار والموت ، سيقتلع كل حيوانات البر ، وسترتوى الأرض من دماء القتلى وتشبع حيوانات البر منهم » . (The Scbylline oracle . 3 . 363) وتعدد المشنا علامات مجيء المسيا فى القول « يزداد التسلط ويكثر الطمع ، حتى أن الكرمة تعطى ثمرها ولكن لا يكون خمر ، وتضل الحكومات ولا يكون هناك تعليم ، ويصبح المجمع بيتا للدعارة ، يبيد الجليل ، ويذهب السكان من مكان إلى مكان فلا يجدون مأوى لهم .. تحتقر حكمة الحكماء ، ويزدرى صلاح الصالحين ، ويختفى الحق ، يسب الغلمان الشيوخ ، ويحتقر الابن أباه والابنة تثور ضد أمها والكنة على حماتها وأعداء الإنسان أهل بيته » .

هكذا يصبح العالم قبل مجيء المسيا فى تفكك وهلاك وثورات .

٢ ــ فى وسط هذا الخراب الشامل يظهر إيليا النبى ليعد الطريق للمسيا فيرد قلب الآباء على الأبناء ويضمد كل جرح ويزيل كل خصام ويرد كل مسلوب إلى أصحابه وبذلك يأتى وقت مجيء المسيا .

٣ ــ وأخيراً يظهر المسيا : إن كلمة المسيا هى نفسها المسيح : الأولى عبرية والثانية يونانية وكلاهما تعنى مسيح الله الذى يملكه الله ملكا . إن كلمة مسيح هى لقب وليست اسم علم . وقد بقى الناس يعتقدون أنه يأتى من نسل داود ولكن الأغلبية كانت تتمسك بالقول إنه رجل جبار سيأتى من السماء ليخلص شعب الله .

٤ ــ تتحد كلمة الأمم ضد المسيا « يقوم الملوك ضد هذه الأرض لهلاك أنفسهم ، يحاولون إبادة مقدس العلى ورؤسائه ، ويحاصر الملوك الملعونون وجيوشهم المكان المقدس ، ولكن الله سيتكلم مع هؤلاء الضالين الجهلاء بصوت راعد وسيدينهم ويهلكهم بيد قوية : (Scbylline Oracle(3 : 373-372 . « وعندما تسمع الأمم صوت المسيا يتركون بلادهم وحروبهم ويجتمعون ليحاربوه » .. (٤ عزرا ١٣ : ٣٣ ــ ٣٥) .

٥ ــ والنتيجة خراب شامل لهؤلاء الأعداء . ويقول فيلو « إن المسيا سيسود المعركة ويحطم كل الأمم » . ويقول كاتب أخنوخ « يوبخ الناس على فسادهم وعدم صلاحهم ، يوبخهم فى وجوههم على خياناتهم ، وبعد ذلك يبيدهم .. ولن ينجو أحد فى تلك الأيام ، ولا يستطيع واحد أن يهرب ، ولن يكون لهم سيف فى الحرب ، ولا درع ولا حديد ولا نحاس ولا صفيح ولا رصاص فكلها تبيد من وجه الأرض (أخنوخ ٥٢ : ٧ ــ ٩) .

سيكون المسيا أعظم فاتح مخرب فى التاريخ إذ يبيد أعداءه جميعاً .

٦ ــ يتبع ذلك تجديد أورشليم .. إما بالتطهير أو بنزول أورشليم الجديدة من السماء ، أى أن المنازل القديمة ستطوى وتوضع فى الجديدة « وتجدد الأعمدة وتصبح أكبر من الأولى » (أخنوخ ٩٠ : ٢٨ و ٢٩) .

٧ ــ ويجتمع كل اليهود المشتتين إلى أورشليم الجديدة . ولازال اليهود يصلون إلى هذا اليوم « إرفع يدك واجمع شعبك المشتت من أقاصى الأرض » ، ومزامير سليمان تقول « اضرب بوقك

فى صهيون لتجمع قديسيك ، وسمع أورشليم مناداة المبشر ، إن الرب رحم أورشليم . ارتفعى يا أورشليم وانظرى إلى أبنائك من الغرب والشرق يجتمعون إليك . من الشمال والجنوب يأتون إلى الرب بفرح . من الجزر البعيدة يأتون والجبال تصير سهولا فى طريقهم وتكثر الممرات فى التلال والأشجار تظللهم ، وتعطيهم رائحتها الطيبة . حتى يمر اسرائيل فيها . البسى عزك يا أورشليم لأنك رحمت . ليتم الرب وعده لإسرائيل ويمجد أورشليم . رحمة الله على اسرائيل » (مزمور سليمان ١١) إنه عالم جديد لاسرائيل .

٨ — تكون فلسطين مركزاً للعالم وتخضع الشعوب لها . أحيانا يكون خضوع سلام « وتقول الجزر والمدن كم أحب الله هذا الشعب لأن كل شيء يعمل لخيرهم ، هيا بنا نذهب لنخضع للملك الملك القوى الإله الأبدى .. لنذهب فى موكب إلى هيكله » (Scdy . Orac . 3 : 690 FF) .

ولكن كثيرون يعتقدون أن الأمم ستبيد وبذلك تفرح اسرائيل .

« يظهر ليعاقب الأمم ويبيد أصنامهم . وستسعدين يا اسرائيل وترتفعين فوق أجنحة النسور . بمعنى أن نسر روما سيزول وتزول الأمم والرب يبقى . ستنظرين من على وترين أعداءك فى الجحيم وستعرفينهم وتفرحين » (ادعاءات موسى ١٠ : ٨ — ١٠) . إنها صورة قاتمة .. الأمم تبيد واسرائيل تفرح . حتى موتاهم سيقومون ليشاركوا فى العالم الجديد .

٩ — أخيراً تأتى الأبدية وهى السلام والصلاح الأبديان .

هذا هو تفكير معاصرى المسيح عن المسيا .. إنه تفكير قاس متعصب ، هدام منتقم . نعم إنه ينتهى بملك الله ولكن ملكه يبنى على دماء الناس . والآن ضع تفكير يسوع فى مقابل هذا التفكير . فلا عجب إذن إن كان عليه أن يعلم تلاميذه من جديد معنى المسيا . ولا عجب إن صلبوه أخيرا بتهمة الهرطقة .. لا مكان للصليب عند اليهود .. والمحبة المضحية لا يعرفونها .

المجرب يتكلم بلسان صديق

(مرقس ٨ : ٣١ — ٣٣)

إذا ذكرنا ما قيل سابقا نستطيع أن نفهم هذه الحادثة .. لقد فهم التلاميذ منذ طفولتهم معنى المسيا .. إنه الفاتح العظيم الذى لا يقهر .. فكيف يواجههم يسوع بهذا المعنى الغامض الغير معقول ؟ هل يتألم المسيا ؟ لا عجب إن انفجر بطرس معترضاً .. !

ولكن لماذا وبخ السيد بطرس بشدة ؟ لأن المسيح كان فى تلك الفرصة يحارب الشيطان لا وجها لوجه كما حدثت فى تجربة البرية بل فى شخصية صديق .. لقد جاءه المجرب مرة أخرى يغريه أمام الموت أن يتخذ طريقه لا طريق الله طريق التضحية والموت .

إنه لمن الغرابة والفظاعة بمكان أن يتقمص المجرب شخصية صديق محبوب . قد تسلك طريقاً مستقيماً صالحا ولكنه صعب وقاسى يتطلب التضحية ، فنجد فى لحظة العزم صديقاً مخلصاً يتدخل ،

وبنية مخلصة يحاول جهده أن يثنينا عن هذا الطريق الصالح . أعرف شخصا سلك هذا الطريق فأتاه صديقه قائلا : « أذكر أنك زوج وأب مسئول .. فلن تستطيع أن تفعل ذلك » . قد يحبنا الأصدقاء ويحاولون أن يمنعونا عن ارتكاب الصعاب .

فى رواية « جارث ولينيت » يذكر تينسون قصة الابن الأصغر للوط وبليسنت ، حينما أراد أن يختار الطريق الصعب ، جاءته أمه قائلة :

« ألا ترحم وحدتى .. إن أباك عجوز ينام كقطعة من الخشب لا يتحرك . إن أخويك فى بلاط الملك أرثر . فامكث معنا لأنك مازلت ولداً . وإذا مكثت فسأسعدك وأزوجك أميرة » ، وكلما حاول الابن أن يعدد لها الأسباب التى لأجلها عزم أن يكون فارساً فى بلاط أرثر ردت عليه أمه بكل قوة .. ولكنه قال لها :

أماه .. كيف تبقينى ملتصقا بك .. إنه عار . لقد أصبحت رجلا وسأعمل عمل الرجال .. سأتبع الشىء الرفيع .. سأتبع المسيح الملك .

سأتكلم الصدق وأعيش الطهر .. سأصلح المعوج .. سأتبع الملك . وإلا لما ولدت ؟ لقد عزم جاريت ورأى الرؤيا المجيدة .

إن أقسى هجوم للمجرب هو عندما يأتى على لسان صديق يريد خيرنا .. وهذا ما حدث ليسوع فى ذلك اليوم .. ولهذا إنتهر بطرس بشدة . لنحذر من الصوت الحنون الصدوق إذا أراد أن ينسينا صوت الله .

طريق التلمذة

(مرقس ٨ : ٣٤ و ٣٥)

هذه الأعداد القليلة الباقية فى هذا الأصحاح هى قلب الحياة المسيحية .. ولو وضع الإنسان فى قلبه عدداً من هذه الأعداد بحيث تمتلك عليه حياته لكان كافيا له فى الطريق .. ولهذا فسوف ندرسها عدداً عدداً .

شيئان واضحان للوهلة الأولى فى هذا الفصل :

١ — أمانة يسوع المطلقة . فعندما دعا تلاميذه ليتبعوه لم يغرهم بشىء عالمى .. لقد أنار لهم الطريق الذى ينتظرهم .. لم يفرشه بالورود .. لم يعدهم بالسلام ولا بالمجد بل طلب منهم أن يستعدوا لحمل الصليب وانكار النفس .. وعدهم بالألم ونظرة الإزدراء التى تلقى عليهم ، وهذه هى أمانة القادة العظام . عندما تسلم ونستون تشرشل قيادة الأمة أثناء الحرب العالمية الثانية ، لم يكن لديه ما يعد به الأمة سوى العرق والدم والدموع . وبعد أن سقطت روما فى يد أعدائها سنة ١٨٤٩ قال غاريبالدى الجندى الإيطالى الشهير لجنوده « أيها الجنود لقد فشلت كل جهودنا وليس لدى ما أهبه لكم سوى الجوع والعطش والصعاب والموت . ولكنى مع ذلك أدعو كل من يحب أمته

أن يتبعني » . وهكذا كان موقف يسوع : لم يحاول أن يستجدى تلمذة الناس له بالمواعيد التى لا تصدق .. بل حاول أن يثير فيهم الرجولة والقوة والجهاد .. إنه وعدهم بالعمل والجهاد فى طريق صعب ولكنه سام . إنه جاء لا لكى يجعل الحياة سهلة بل ليخلق رجالاً عظماء .

٢ — إن يسوع لم يطلب من الناس أن يعملوا ما لم يعمله هو بنفسه ، وهذه أيضاً إحدى خصال القائد الحكيم القدير . قيل عن الإسكندر الأكبر إنه استطاع أن يقطع حوالى ثلاثة آلاف وثلاثمائة غلوة فى إحدى عشر يوماً ، عندما كان يطارد داريوس الفارسى ، وهذا ما لم يفعله قائد مثله فى التاريخ . ولكنه مع رجاله كانوا فى حالة من العطش القاتل . ويقول بلوتارك « إن الإسكندر وجنوده رأوا قافلة من المكدونيين تحمل قربا مملوءة بالمياه ، فسألهم لمن يحملونها ، فأجابوا إنهم يحملونها لأطفالهم وعائلاتهم ، ولكنهم أضافوا وإننا لا نهتم بمن لنا قدر اهتمامنا بك وبحياتك ، وملأ أحدهم آنية من الماء ليعطيها له ، ولكنه عندما حمل الآنية ونظر حوله ورأى الجنود يتطلعون إلى نقطة مياه ، قال لهم : « لا » خذوا هذه المياه ، فلماذا أحيا أنا وهم يموتون ، ورفض أن يشرب وهو فى شدة اللهفة على الماء ، وحالما سمع جنوده ذلك قفزوا على جيادهم وصرخوا هيا بنا .. سنغلب العطش والتعب أيضاً » . نعم ما أسهل أن يتبع الجنود قائداً لا يفعل ما يطلب من جنوده ألا يفعلوه . وفى إحدى المناقشات قال القائد الرومانى المشهور كوينتس فابيوس كونا كتيتور لأحد القواد : « تقول إن هذه العملية الصعبة لا تكلف إلا حياة قليل من الناس ، فهل أنت مستعد لأن تكون أحد هؤلاء القلائل » . وهكذا يسوع إنه لم يجلس هناك فى مكانه الأمين يتلاعب بحياة الناس ، ولكنه طلب منهم ما جاء ليواجهه هو بنفسه .. إنه طلب منهم أن يحملوا الصليب ، لأنه هو حمل الصليب .

٣ — وطلب يسوع ممن يريدون أن يتبعوه أن ينكروا أنفسهم . وقد نفهم معنى هذه الجملة إذ وضعناها حرفياً « قل لا لنفسك » و « نعم » للمسيح يجب أن يقول « لا » للرغبة الطبيعية فى الراحة والاسترخاء ، ولمحبة النفس ، وللرغبات النفسية التى تدفعه أن يحس ويمس ويذوق ما ليس له ؛ ثم يقول « نعم » لصوت يسوع المسيح وأمره . يجب أن يقول مع بولس : فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فى . لا يعيش لذاته ولا ليتبع رغباته ولكن ليتبع يسوع . وفى ذلك الاتباع سيجد الحرية الكاملة .

من يضيع حياته يجدها

(مرقس ٨ : ٣٦)

الوزنات ، والحياة كلها هى إحدى الأشياء التى يمكن حفظها وتوسيع مداها باستخدامها ، ولكن إن تركت بغير عمل صدئت وانتهت . والتاريخ مملوء بالرجال الذين بذلوا حياتهم فنالوا الحياة الأبدية ، ومن أمثلة ذلك الراهب الشرق الفقير تليماخوس . فقد أحس ذلك الراهب أنه يشتاق أن يعتزل العالم ، ينبغى أن يذهب إلى الصحراء ليجد الله فى الصلاة والصوم والعبادة المستمرة ، وذهب إلى الصحراء واستمرت عبادته . ولكن يوماً ما بينما كان ينتهى من صلاته المعتادة أحس

بشعور مفاجيء غريب .. شعر أنه مخطيء .. إن محبته لله هى محبة أنانية .. إنه لم يتجرد من أنانيته . وعرف أنه إن أراد أن يخدم الله فليخدم إخوته . فكم من المدن المملوءة بالناس ، وكم من الناس الخطاة المحتاجين إلى المسيح .. هؤلاء كلهم يحتاجون إلى معونته وإلى عمله . وهنا اقتنع وودع صحراءه وذهب إلى أعظم مدينة فى ذلك العصر .. إلى روما بعد مسيرة طويلة . وتصادف أن كان ذلك اليوم يوم دخول القائد العظيم استيلخو آتيا من هزيمة المغول ، وكان لابد أن يسير الموكب .. موكب الفاتحين وذهب الموكب يتقدمه استيلخو وبجانبه الإمبراطور إلى ساحة الألعاب ، وتبع تليماخوس هذا الموكب حتى يرى ماذا يحدث فى روما المسيحية . وجلس حوالى ثمانين ألفا من الناس يلاحظون السباق ولما انتهى بدأ الشيء المثير الذى ورثته روما المسيحية من روما الوثنية .. بدأت لعبة الدم . ولكن بدلا من أن يلقى بالمسيحيين للوحوش ، كان الأسرى الأشداء يحاربون بعضهم البعض وبدأ اللعب الخطير المتوحش ، ورأى الراهب النفوس التى مات المسيح من أجلها تقتتل ، ورأى أتباع المسيح يهتزون طربا لمرأى الدم ، واهتزت نفسه حزنا ، ولم ينتظر بل قفز من على السور إلى ساحة الألعاب ووقف بين المتصارعين فزجر الجمهور ، فدفعوه بعيداً ، ولكنه دخل مرة أخرى بينهم ، فطلب الجمهور من المتصارعين أن يقتلوه ، وخضع القائد وأمر أحدهم فرفع سيفه وهوى به على رأس تليماخوس فسقط ميتاً . وعندئذ ساد صمت رهيب على الجموع .. وانبلج تفكير جماعى رهيب .. كيف يقتل هذا الرجل المقدس بهذه الكيفية ، وحدث توبيخ نفسى قاتل وانتهى اللعب فجأة .. وانتهى إلى الأبد . ويختم جبون قصته بقوله « إن موت تليماخوس كان أقوى من حياته » لقد أضاع نفسه عن إخوته فوجدها لحياة أبدية .

لقد أعطانا الله حياتنا لننفقها لا لنحفظها ، فلو فكرنا قبل كل شيء فى ملذاتنا ، فى راحتنا ، فى ضمان حياتنا .. لو حاولنا أن نخلى حياتنا من الأتعاب على قدر المستطاع ، لو أوقفنا مجهودنا على أنفسنا فقط .. لو فعلنا ذلك إننا نفقد أنفسنا بهذا العمل ، ولكن لو أوقفنا حياتنا وانفقناها على خدمة الآخرين لو نسينا الصحة والراحة فى سبيل خدمة يسوع وشعب يسوع إننا بذلك نربح أنفسنا . ماذا كان يحدث للعالم لو أحجم العلماء والأطباء المخترعون عن المخاطرة ؟ ماذا كان يحدث للحياة لو رفض كل الناس أن يعيشوا للآخرين بل لأنفسهم ؟ فماذا يحدث لو رفضت السيدات أن ينجبن أطفالاً ؟ ماذا يحدث لو أنفق كل واحد ماله على نفسه ؟ إن جوهر الحياة هو إنفاقها إنه من الأفضل جداً للإنسان أن يحترق لا أن يصدأ ، فهذه هى طريق الله .

القيمة العظمى فى الحياة

(مرقس ٨ : ٣٧)

قد يعتقد إنسان ما أنه قد نجح نجاحاً كبيراً فى الحياة ولكنه يكتشف أخيراً أن حياته كانت تافهة . إن حياتنا وقيمتها تتوقف على تقديرنا للقيم المختلفة ، وبقدر ما يختلف تقديرنا للقيم بقدر ما تختلف حياتنا .

١ ـــ فبعضهم يضحى بشرفه لأجل المال ، ففى سبيل المال يضحى بنفسه ، كما يذكر جورج

مكدونالد عن أحد التجار الذى كان يستخدم إبهام يده فى سرقة جزء من القماش إذ يقول عنه « إنه يأخذ من نفسه ليضع فى كيس نقوده » . إن السؤال الحقيقى الذى يجب أن نواجهه إن آجلا أم عاجلا هو : ما هو تقدير الله لحياتنا ؟ إن الله هو الذى يجب أن نواجه موقفنا قدامه .

٢ ـــ قد يضحى رجل بالمبدأ فى سبيل كسب شعبية . قد يحاول إنسان ما أن يتجنب الكثير من المتاعب بأن يكون مرنا فى كل موقف ، وقد يجد الإنسان نفسه فى مأزق عندما يثبت على مبدأه ، كما يصف شكسبير الكاردينال ولسى الذى خدم هنرى الثامن عندما قال على لسانه : « لو خدمت إلهى بنصف الغيرة والحماس التى خدمت بها ملكى لما تركنى هكذا فى شيخوختى عاريا فى يد أعدائى » .

إن السؤال الأخير الذى يجب أن يواجهه كل إنسان ليس « ماذا يظن الناس فى ذلك » بل « ماذا يظن الله فى ذلك .. » ليست الشعبية بل حق الله وحده هو الحكم الأصح لحياتنا .

٣ ـــ قد يضحى إنسان بالأبدى فى سبيل الزائل . يريد إنسان أن ينجح ، ولكنه يتبع طريق النجاح الرخيص .. قد ينكب الكاتب على كتابة التوافه ويترك الجليل من الأعمال ، قد يؤلف الموسيقى الرخيص من الموسيقى ويترك السيمفونيات ، قد يختار إنسان عملا سهلا ويترك الخدمة المضحية ، قد تسير المرأة فى سبيل الحرية الكاذبة وتترك السبيل الصعب فى تربية أولادها . قد يصرف الإنسان حياته فى الأشياء الصغيرة ويترك الأمور العظيمة . كل ذلك لأجل الشهرة والمال .. ولكن ذلك سوف يزول وينمحى .

٤ ـــ ونلخص كل ما سبق فى القول : قد يضحى إنسان بالحياة الأبدية فى سبيل الحياة الفانية . إننا نجنب أنفسنا الطريق الأعوج لو عرفنا أننا لله . هناك أشياء مفرحة ولكنها وقتية . إن الأبدية هى المحك الذى يجب أن نختبر به كل الأشياء والأعمال .

إن الرجل الذى ينظر إلى الأشياء كما ينظر إليها الله لا يمكن أن يعمل أعمالا يفقد فيها نفسه وحياته .

عندما يأتى الملك إلى خاصته

(مرقس ٨ : ٣٨ ، ٩ : ١)

أول ما يقابلنا فى هذا الفصل هو ثقة يسوع المطلقة بالانتصار .. فمع أنه كان يتكلم عن الموت .. ومع أنه كان يضع الصليب أمام عينيه ، إلا أنه هنا يتكلم بلغة الانتصار .. يتكلم كمن انتصر فعلا على كل قوات الجحيم .

وفى الجزء الأول من هذا الفصل يظهر أمرٌ طبيعىّ يتحكم فى الحياة : فعندما يأتى الملك فى الملكوت سيجزل العطاء لمن أخلصوا له ، وهذا حق .. فلا يحق لإنسان لم يتعب ولم يزرع أن ينتظر حصاداً ولا يمكن لإنسان لم يشارك فى معسكر العمل أن يشارك فى موكب النصرة . وكأنما

يسوع يقول هنا : « إن المسيحية ستكون فى عالم صعب قاس فى مواجهته لها ، فمن يخجل منى ومن كونه مسيحى ومن مسلكه كمسيحى فلن يتوقع أن يشارك فى أمجاد ملكوت الله » .

أما الجزء الثانى من هذا الفصل (٩ : ١) فقد سبب للناس حيرة شديدة : لقد قال : إن من القيام ههنا قوماً « لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله آتيا بقوة » . وظن كثيرون أنه يقصد بذلك مجيئه الثانى .. وإن كان كذلك فلابد أنه قد أخطأ فى ذلك ، وهذا ما يستنكرونه على يسوع . لكنهم هم فى ذلك مخطئون . إنه لم يقصد مجيئه الثانى ؛ بل يقصد شيئاً آخر نستطيع أن نعرفه لو عرفنا تفكير يسوع وظروفه . لقد وصل يسوع حالا من الأراضى الأممية المتسعة ، وفى ذلك الوقت لم يكن قد سمع فى فلسطين عن رسالته إلا عدد قليل نسبيا من اليهود ، فإذا قسنا فلسطين التى لا تزيد عن ١٢٠ ميلا طولا وأربعين ميلا عرضا وعدد سكانها يتراوح ما بين ٣ أو أربعة ملايين نسمة .. إذا قسناها بالعالم الخارجى نقول إن المسيحية تعتبر لا شيء بالمرة فى ذلك العالم .. زد على ذلك تلك المعارضة القاسية التى واجهها يسوع فى فلسطين نفسها من جانب الفريسيين والكهنة ورجال السلطة .. إن موقفا كهذا لا يشجع أكثر الناس تفاؤلا على أن يرى أى نجاح للمسيحية فى هذا العالم ، بل لابد أن تزول وتنتهى من العالم . إن هذا المنطق من الوجهة الإنسانية منطق صحيح حق . لكن لنلق نظرة واحدة على ما حدث .. لم تمض ثلاثون عاما حتى رأينا المسيحية تكتسح فلسطين وسوريا وتغزو مصر وخاصة الإسكندرية .. وتدخل آسيا الصغرى واليونان وتتربع فى قلب روما حتى أسبانيا .. لقد اتسعت كمد لا يمكن أن يوقف . كل ذلك حدث فى حياة الكثيرين الذين رأوا المسيح .. فلم يكن يسوع بذلك مخطئا لقد كان كلامه الحق المطلق .

إن الأمر المذهل فى حياة يسوع أنه لم يعرف اليأس مطلقا .. ففى وجه غباوة الناس ، وفى وجه المعارضة الشديدة ، وفى وجه الموت والصليب لم يعرف اليأس ولا الاستسلام ، إنه كان واثقاً أن الغير مستطاع عند الناس مستطاع عند الله .

الأصحاح التاسع

المجد فى قمة الجبل

(مرقس ٩ : ٢ ــ ٨)

نحن الآن أمام حادثة مغلفة بالأسرار فلنحاول أن نتلمس طريقنا فيها . يقول مرقس إنها حدثت بعد ستة أيام من حادثة قيصرية فيلبى ، أما لوقا فيقول بعد ثمانية أيام .. لا يوجد اختلاف بين الاثنين . لأن كليهما يعنيان « أسبوعا » ولهذا لم تختلف الكنيستان الشرقية والغربية على جعل يوم ٦ أغسطس هو يوم ذكرى التجلى . أما من وجهة مكان الحادثة فقد ذكر التقليد أنها حدثت على جبل تابور حتى أن الكنيسة الشرقية أسمته حادثة التجلى « الطابورى » ، ولكننا نعتقد أن هناك خطأ فى ذكر هذا المكان لأن تابور فى جنوب الجليل وقيصرية فيلبى بعيدا فى الشمال عن الجليل ولم يكن جبل التابور سوى ١٠٠٠ قدم ارتفاعا تعلوه قلعة ضخمة فهو لا يصلح لمثل هذه الحادثة المقدسة .. إن جبل حرمون الذى يشمخ إلى ٩٢٠٠ قدم والقريب من قيصرية هو المكان المعقول لهذا الحدث العظيم .

وإننا إن كنا لا نستطيع أن نذكر بالتفصيل ماذا حدث فى ذلك الوقت ، ولكننا بكل خشوع وإجلال نتقدم لنفهم شيئا منه .

يذكر مرقس أن ثياب يسوع كانت تلمع ، وقد استخدم الكلمة « ستلباين Stilbein» التى تعنى اللمعان الذى يصدر من نحاس مجلو أو من الذهب أو من أشعة الشمس الذهبية . وعندما انتهت الحادثة يذكر أن سحابة ظللتهم ، والسحابة تشير فى العهد القديم إلى حضور الله . ففى السحابة قابل الله موسى ، وحضر إلى خيمة الشهادة ، وحل فى هيكل سليمان بعد تدشينه .. وكان اليهود يعتقدون أن المسيا سيأتى فى السحابة إلى هيكله . (خروج ١٦ : ١٠ ، ١٩ : ٩ ، ٣٣ : ٩ ، ١ ملوك ٨ : ١٠ ، ٢ مكابيين ٢ : ٨) . فنزول السحابة هى التعبير الرسمى عند اليهود أن المسيا قد جاء .

وللتجلى أهميتان :

١ ــ لقد كان التجلى مهما بالنسبة ليسوع ، فهو الختم الأبوى على القرار الذى اتخذه وهو أن يثبت وجهه لكى ينطلق إلى أورشليم ليواجه الصليب . وهذا الختم جاء فى صورتين :

(أ) مجىء موسى وإيليا إليه . وكان موسى ممثلا للناموس لأنه تسلمه من الله أما إيليا فكان أول الأنبياء وأعظمهم ، وكان اليهود يتطلعون إليه ليسمعهم صوت الله . ومجىء الاثنين بهذه الصفة معناه الموافقة على عمله .. معناه أن فى يسوع تحقيق كل رجاء الماضى . معناه تحقيق التاريخ واكتماله فيه ، معناه أن يسوع هو الذى يقود الحق إلى النصرة .

(ب) مخاطبة الآب له ، وكما كانت عادة يسوع ذهب إلى الآب وقال له : « لتكن إرادتك »

فإنه فوق جبل التجلي نال هذه الموافقة والتشجيع على الذهاب .. إن يسوع فوق جبل التجلي عرف أنه يسير ويعمل الصلاح المطلق .

٢ ــ وكان مهماً بالنسبة للتلاميذ :

(أ) لقد هزهم تصريح المسيح أنه ذاهب إلى أورشليم ليموت ، وكان هذا الإعلان إنكاراً بكل ما يعرفونه عن المسيا ، فاضطرب تفكيرهم ، وبدأ رجاؤهم ينطفىء ، وقلوبهم تنكسر .. ولكن حادثة جبل التجلي تعطيهم الرجاء حتى ولو لم يفهموا ماذا حدث ، سواء أصلب أو لم يصلب ، فهاهم يسمعون صوت الله يعلن أنه ابنه الحبيب .

(ب) جعلتهم شهوداً للمسيح ، والشاهد هو الذى يرى ثم يعلن . وهنا على جبل التجلي يشاهدون مجده وعندئذ تملأ هذه الحادثة حياتهم وذاكرتهم وقلوبهم . وبذلك يشهدون للناس . لقد شاهدوا فشهدوا

مصير النذير (يوحنا المعمدان)

(مرقس ٩ : ٩ ــ ١٣)

لابد وأن التلاميذ الثلاثة كانوا غارقين فى التفكير وهم نازلون من على الجبل . ولكن يسوع بدأ كل شيء بوصية وجهها للتلاميذ ألا يقولوا لأحد عنه . فيسوع كان يعرف أن عقل التلاميذ كان لا يزال مملوءاً بالتفكير اليهودى عن المسيا ، فلو أخبروا الناس عما رأوا من مجد وبهاء ، لو أخبروا عن ظهور مجد الله على السحابة ، لو أخبروا عن ظهور إيليا وموسى .. لو فعلوا ذلك ماذا كان يكون تأثيره على التفكير الشعبى ؟ ألا يدل ذلك ــ بحسب عقلية الشعب ــ على أن هذه مقدمة على ظهور مجد الله فى الانتقام من الأمم ورفعه شعب اليهود ؟ إن التلاميذ يحتاجون أن يتعلموا من هو المسيا ، ولا شيء يعلمهم ذلك حقيقة ، ويكشف لهم عن عمق هذا المعنى سوى الصليب والقيامة .. عندما يرونه يصلب ثم يقوم ، عندئذ يعرفون أن مجد التجلي لم يكن مقدمة لإظهار مجد إله منتقم ، بل مجد الآب المحب فى شخص ابنه يسوع المسيح .

وعندما تكلم يسوع عن القيامة ظهروا أنهم لا يستطيعون أن يفهموا معنى القيامة هذه ، والدليل على ذلك هو أنهم عندما رأوا يسوع معلقا على الصليب ظنوا أن نهاية كل شيء قد أتت . ونحن نعذر التلاميذ لأن يسوع عندما علمهم عن المسيا كان يعلمهم شيئا لم يسمعوا عنه ولم يتخيلوا أن شيئا كهذا ممكن الحدوث .

وهنا بدأ التلاميذ يسألون سؤالاً ظل محيراً لهم : إن كان يسوع هو المسيا : فأين إذن إيليا الذى يسبق مجيئه ؟ (ملاخى ٣ : ٥ و ٦) . إن شخصية إيليا كان لها أهمية خاصة عند اليهود . فإنهم يعتقدون أنه لازال عاملا فى السماء والأرض من أجلهم ، ويقول أحد الأحاديث التقليدية : إن إيليا سيظهر قبل مجيء المسيا بثلاثة أيام .. يقف فى اليوم الأول على أحد الجبال رافعا مرثاه على

الأرض المهجورة ، وعندئذ ينادى بصوت عال يسمع فى أقاصى الأرض قائلا « سلام يأتى على الأرض .. سلام يأتى على الأرض » . ثم ينادى فى اليوم الثانى « خير يأتى على الأرض .. خير يأتى على الأرض » ، ثم ينادى فى اليوم الثالث « خلاص يأتى إلى الأرض .. خلاص يأتى إلى الأرض » ، ثم يرد كل شىء .. يقيم المعوجات ويطهر الأمة ويصحح الطقوس ويقضى للمظلومين . هذا هو إيليا فهل جاء ؟ ماذا حدث له ؟

وكان جواب يسوع مفهوما لكل يهودى . « لقد جاء إيليا وعمل به الناس ما أرادوا لا ما كان الله يريده » . وكان يسوع يقصد يوحنا وكيف سجن وقتل . ومن هنا واجههم مرة أخرى بالمصير الذى ينتظره وينتظرهم « فإذا كانوا فعلوا ذلك بالنذير فماذا يفعلون بالمسيا . » لقد قلب يسوع موازين تفكيرهم : كانوا ينتظرون التدخل الإلهى القوى .. مجىء إيليا ، ظهور المسيا ، وانتصار اليهود ، ولكنه يواجههم بموت إيليا وقتله ، ويموت المسيا على الصليب . ولكنهم لم يفهموا ، وعدم فهمهم راجع إلى نفس السبب الذى لأجله يفشل كل إنسان عندما يتمسك بتفكيره وطريقه ولا يريد أن يعرف طريق الله الصحيح . إنهم تمسكوا برغبتهم وإرادتهم لا بإرادة الله ومشيئته . إن خطأ تفكير البشر أعماهم عن معرفة إعلانات الله .

النزول من على الجبل

(مرقس ٩ : ١٤ ــ ١٨)

إن النزول من على الجبل هو العمل الذى لا يريده بطرس . لقد استحسن البقاء . هناك مجد وبهاء .. قرب من الله لماذا لا يبقون هناك وليعملوا المظال الثلاث ليسوع ولموسى ولإيليا ؟ ولكن جوهر الحياة الحقيقى ليس هو المكوث المستديم على الجبل ، « ليس الوحدة مع الله بل الاتصال بالناس » فلو قفل الإنسان مخدعه على نفسه ، ثم قفل أذنيه عن صراخ المحتاجين ثم قفل قلبه عن كل العالم الخارجى .. لو فعل ذلك لفقد معنى الشركة الحقيقية مع الله . إن الشركة مع الله تخلق منا شخصيات أكثر فائدة ومنفعة لإخوتنا .

لقد جاء يسوع من الجبل ليرى موقفاً دقيقاً قدامه ، شخص أحضر ابنه المصاب بالصرع إلى التلاميذ لكى يشفوه ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ، وعجزهم هذا أعطى الكتبة والفريسيين فرصة لكى يجادلوهم ويحقروا من شأنهم وشأن معلمهم أيضاً ، وهذا ما يجعل الموقف أكثر حساسية . وهذا ما يواجهنا فى الحياة .. إن فشلنا فى حياتنا المسيحية .. وفشلنا فى إظهار قوة الحياة الجديدة التى نلناها لا يحقرنا نحن فقط بل يحقر المسيح أيضاً ، وفى هذا يقول ا . ف مورى فى كتابه « التعليم المسيحى » إن بعض الناس يظنون أن الكنيسة هى المجتمع الفائق الطبيعة ، جسد المسيح ، العروس التى بلا غضن .. حاملة إنجيل المسيح .. محفل المفديين المقدس .. وإلى غير ذلك من الألقاب الرومانتيكية ولا يريدون أن يعرفوا « أن الكنيسة هى أنت وأنا الذين نعمل فى غمار العالم » إن مركز الشخص لا يهم ، إن المهم فى أعين الناس هو سلوكه بهذا يحكمون عليه وعلى سيده . ولهذا فقد رأى الكتبة فى هذه الحادثة أنها فرصة ذهبية للنيل من مركز يسوع .

ووصل يسوع وعندما رآه الناس اندهشوا .. بالطبع لم يكن ذلك للمجد الذى احتواه على جبل التجلى ، فذلك قد انتهى وقته ، وإلا فما فائدة تحذيره لتلاميذه ألا يقولوا لأحد عن التجلى وهو يبقى آثاره ؟ بل لأن الناس لم يروه مقبلا . ظنوه بعيداً وانغمسوا فى مناقشاتهم ، ولكنهم وجدوه فجأة بينهم فاندهشوا . وهذا يعلمنا أمرين :

١ ــ أن يسوع واجه المواقف الصغيرة بنفس الثقة والشجاعة التى بها واجه المواقف الهائلة ، لقد واجه الصليب بثقة واطمئنان وواجه هذا الموقف تحت الجبل بنفس الحالة ، إن من خصائص الطبع البشرى أن يواجه شدائد الحياة بشجاعة . ومرات كثيرة بتحد ، ولكن فى مرات كثيرة يقابل صغائر الأمور بقلق وغضب ، ولكم واجه شخص ما كارثة صعبة بثبات ورباطة جأش ، وفى الوقت نفسه فقد أعصابه لأن قطاراً فاته أو تأخرت وجبة الطعام عن موعدها . أما يسوع فقد كان ثابتاً فى أية حالة وأى موقف والسبب فى ذلك لأنه كان يرى الله فى كل وقت من الأوقات كما فى المواقف اليومية الروتينية ، بعكس ما نفعل نحن إذ نحاول نرافق الله فى أوقات الحياة بينما نواجه المواقف الصغيرة بقوتنا نحن وبذلك نفقد صوابنا فى مواجهتها .

٢ ــ إنه كان يحمل نفس الحب والتضحية للفرد الواحد كما للعالم كله .. لقد جاء ليخلص العالم ، ومع ذلك فقد أعطى نفسه كلية للفرد الواحد ، وهذا بعكس الكثيرين الذين يمتلئون غيرة وحماسة لخلاص البشرية ولكنهم يغضبون إذا وقف فرد واحد فى طريقهم يحتاج إلى المعونة والمساعدة ؛ يحاولون أن يبشروا العالم ويستنكفون أن يحملوا البشارة إلى شخصية تسكن بجوارهم . ولكن الحب الأصيل الحقيقى هو الذى يوجه للفرد بنفس السهولة والاهتمام اللذين يوجه بهما إلى العالم .

صرخة الإيمان

(مرقس ٩ : ١٩ ــ ٢٤)

يبدأ هذا الفصل بصرخة ألم تخرج من قلب يسوع « أيها الجيل المعوج ... » لقد كان على الجبل ونزل وهو مملوء بالعزم والقوة على مواجهة تحدى قوات الشر الفداء العالم ، ولكنه يرى هؤلاء التلاميذ الذين اختارهم ، التلاميذ الذين صرف الليالى الطوال يعدهم ويعلمهم ليكونوا خاصة له ليحملوا رسالته . هؤلاء التلاميذ الذين يعتمد عليهم فى مستقبل العمل .. يراهم واقفين مضطربين عاجزين أمام موقف بسيط !! هل شعر فى تلك اللحظة بشعور الشخص الذى يئس من محاولة رفع الناس وتغييرهم إلى ما هو أحسن ؟ هل رأى أن عمل السنين والأيام الطويلة قد فشل ولم يأت بثمر ؟ لماذا يقفون هكذا وكأنهم لم يكونوا معه ، ولم يتعلموا منه كيف يواجهون المواقف ؟ هذا الموقف المحزن .. كيف يقابله يسوع ؟ لقد صاح « قدموا إلى الولد » نعم عندما نيأس من تغيير العالم دعنا لا نقف يائسين مضطربين بل لنقم ونعمل العمل الصغير الذى أمامنا .. لقد فعل يسوع هكذا ، إنه رأى مستقبل الرسالة فى يدى جماعة كهؤلاء ولم يقف ساكنا بل عرف أنه يجب أن يعمل هذا العمل الصغير الذى أمامه .. فقال « قدموا إلى الولد » إن لم تستطع أن تخلص العالم

فحاول أن تقود جارك إلى المسيح .. إن لم تستطع أن تبني السور كله فلا تيأس بل ابن أمام بيتك كما يقول كنجسلي :

اعمل أقرب عمل إليك حتى وإن رأيت أن من الغباء أن تعمله

ساعد الكلاب العرجاء إن قابلتها لتنال نصيبها

إن أسلم طريقة لمواجهة اليأس والفشل هي أن تفعل ما تجده يدك

وهناك أمر آخر مهم وهو كلمة يسوع لوالد المريض عندما وضع له قواعد حدوث المعجزة « إن كنت تؤمن .. » ليست هذه الكلمة حقيقة لاهوتية فقط ، إنها حق عام فإن تقابل أمراً ما بروح الفشل وعدم الرجاء فالأمر لابد وأن يفشل ، ولكن إن قابلت الموقف بروح الإيمان والثقة فإنك تخلق الجو الصالح لنجاحه .. يقول كافور إن الرجل السياسي يحتاج فوق كل شيء إلى « الإحساس بأن كل شيء ممكن » . إن اللعنة التي أصبنا بها هو إحساسنا « بأن أشياء كثيرة جداً مستحيلة » ولهذا فالمعجزات لا تحدث بيننا الآن .

إن موقف الوالد يعلمنا درساً مفيداً في حياتنا : لقد جاء إلى يسوع ، ولكن لم يجده لأنه كان على الجبل ، فالتجأ إلى تلاميذه ، ولكن التلاميذ فشلوا في أن يساعدوه فاهتز إيمانه في التلاميذ وفي يسوع نفسه ، حتى أنه عندما جاء يسوع من الجبل قال له « أعنا إن كنت تستطيع » ولكنه عندما وقف أمامه وجها لوجه انفجر لهيب الإيمان مرة أخرى وصاح « أؤمن ياسيد .. ولكني أشعر ببعض الشكوك فأزلها من قلبي ومن حياتي » . مرات كثيرة نيأس من الكنيسة فلا نجد فيها ما كنا نطلبه منها ونيأس من الخادم لأننا لم نره بالصورة التي ننتظرها . دعنا لا نيأس .. إن فشلت الكنيسة فسيدها باق .. وإن لم يعجبنا الخادم فلننظر إلى يسوع نفسه .. إن نظرنا إلى يسوع نفسه هو الذي يجعلنا نكسب المعركة .. فالإيمان يجب أن يتجه إليه هو .

سبب الفشل

(مرقس ٩ : ٢٥ ــ ٢٩)

يلوح أن يسوع قد أخذ الوالد وابنه بعيداً عن الجمهور ، ولكن الجمهور عندما سمع صياح الوالد والولد ، جرى إليهما ، وعندئذ قال يسوع كلمته وشفي الولد بعد أن سقط مصروعا .

وعندما اختلى التلاميذ بيسوع سألوه عن سبب فشلهم أمام هذا المريض بالذات . إنهم يذكرون نجاحهم الباهر في إرساليتهم ، ويذكرون كم من الأرواح النجسة قد خرجت من المرضى بأمرهم وعلى كلمتهم (مرقس ٣ : ١٤ ــ ١٥) ، فلماذا يفشلون الآن ؟ ولقد جاء اليهم جواب يسوع بسيطاً قاطعاً : إن هذا الشفاء يحتاج إلى الصلاة . وكأنه يقول لهم « لقد منحتم القوة ، ولكنكم لم تستطيعوا أن تحافظوا عليها لأنكم لستم في شركة مع أبيكم السماوي ، بالصلاة » .

وهنا نجد لأنفسنا درساً خطيراً : فقد يهبنا الله بعض الوزنات ، وقد تكون وزنات لها ثقلها

وجلالها .. ولكن هذه الوزنات الضخمة تزوى وتنتهى ما لم تكن هناك صلة عميقة بيننا وبين الله . فقد يمنح الله أحدنا موهبة الوعظ ، فإن لم تكن له شركة بالله ، يصبح هذا الوعظ مجرد خطيب ماهر لا أكثر ولا أقل . وقد يمنح آخر موهبة الترنيم ولكن المرنم يصبح مجرد مغنى محترف ما لم يدعم موهبته بالصلاة لله .. إن كل صاحب وزنة ولو كان يكسب معيشته فيها لابد وأن يخضعها لله ، ولابد له ، وهو يؤدى دوره فى الحياة ، أن يعرف أنه يخدم بها الله . لقد اعتادت مغنية الأوبرا جنى لند أن تصلى لله قبل أى حفلة قائلة « إلهى ساعدنى أن أخدمك هذه الليلة » .

وبدون الشركة مع الله يفقد المرء شيئين ضروريين مهما كانت وزنته عظيمة :

١ ـــ يفقد الحيوية .. يفقد القوة الحية التى تضفى العظمة على كل عمل . فيصبح العمل بدونها جسداً جميلا ولكن بدون روح ، يصبح عملا فنيا وليس تقدمة شكر لله .

٢ ـــ يفقد التواضع .. فبدلا من أن يستخدم الإنسان موهبته لمجد الله يستخدمها لمجد نفسه فتفقد فضيلتها ، وبدلا من أن يقدم الله .. يقدم نفسه فتفقد روح الجمال .

لنحذر .. إن التلاميذ أخذوا القوة من المسيح ولكنهم لم يغذوها بالصلاة فضاعت منهم هذه القوة . فعندما يعطينا الله الموهبة تضيع منا ، لو استخدمناها لأنفسنا فلنحفظها حية فعالة عاملة ، وذلك بالصلاة لله الذى وهبها لنا .

مواجهة النهاية

(مرقس ٩ : ٣٠ ـــ ٣١)

هذان العددان يعتبران حدا فاصلا لمرحلة فى حياة يسوع ، لقد ترك الجليل حيث الأمان والنجاة وأخذ يصعد إلى أورشليم حيث العداوة والصليب . ولذلك أراد يسوع أن يختلى بتلاميذه بعيداً عن الجمهور ، لأنه أراد أن يترك رسالته فى بدى جماعة يعدهم ويكتب هذه الرسالة على قلوبهم . لقد كان من السهل عليه أن يترك وراءه تعاليما وفلسفة ، ولكنه يعلم أن التعاليم لا تؤثر ما لم تكتب على قلب جماعة يفهمونها ، ولو إلى درجة قليلة ، حتى يستطيعون حملها إلى الآخرين ليس بكلامهم فقط بل فى حياتهم أيضاً .

وهنا يعطيهم يسوع تحذيراً أشد ، لأنه يضيف عليه كلمة مؤلمة « لأن ابن الإنسان يسلم إلى أيدى الناس » . فلأول مرة هنا يعلن أن هناك خائناً فى وسطهم سيسلمه إلى أيدى الناس . لقد عرف يسوع اتجاه تفكير يهوذا ، وعرف أين يقوده هذا التفكير .. ربما لم يكن يهوذا فاهما لنفسه قدر ما كان يفهمه يسوع . ولذلك فكلمات يسوع لم تكن تحذيراً لهم ، وتقرير الحقيقة فقط ، ولكنها كانت تحمل دعوة خفية ليهوذا أن يترك المنحدر الذى ينحدر إليه تدريجيا ويثوب إلى رشده .

ومع ذلك استمر التلاميذ فى عدم فهمهم .. إن العقبة الكأداء فى سبيل فهمهم هو القيامة .. لقد عرفوا من تحذيره شيئاً ما خطيراً لابد وأن يحدث .. ولكن القيامة فقد كانت صعبة على

أفهامهم .. كانت معجزة تفوق خيالهم .. فاستمروا إلى النهاية لا يفهمون عنها شيئاً ، ولم يهضموها إلا بعد أن حدثت أمام عيونهم .

ولما لم يفهموا صمتوا عن السؤال والاستفهام .. إنهم يشابهون فى ذلك رجلا عرف أمراً ما ، ولما خاف منه كف عن معرفة التفاصيل . كالمريض الذى يسمع تقرير الطبيب عنه ويعرف أنه خطير ، هذا المريض يكف عن السؤال ومعرفة التفاصيل لسبب واحد بسيط وهو أن يخاف أنه يعرف أكثر .. هذا كان حال التلاميذ فى تلك اللحظة .

قد تدهش نحن لعدم قدرة التلاميذ على فهم الإعلانات الواضحة هذه ، ولكن لا ندهش لأننا لسنا أحسن حالا منهم ، فالعقل البشرى فيه المقدرة الغريبة على رفض ما لا يريده . فلقد سمعنا ، كما سمع غيرنا ، الرسالة المسيحية ، وعرفنا كما عرف غيرنا ، المصير المؤلم الذى يؤدى بنا لعدم قبولها ، ولكننا مع ذلك نعرف ونفرح لقبول الأشياء التى توافقنا فيها ، أما ما لا يوافق حياتنا ومزاجنا فعقولنا تغلق دونه ، ونبقى فى تجاهل تام يقود إلى جهل مطبق .

الطموح الحقيقى

(مرقس ٩ : ٣٢ ــ ٣٥)

لا يوجد فى إنجيل مرقس ما يظهر أن التلاميذ لا زالوا يجهلون الخدمة العظمى التى لأجلها جاء يسوع .. ولا شيء فى إنجيل مرقس أحزن قلب يسوع ، قدر هذه المناقشة والمجادلة التى جرت بين التلاميذ فى الطريق إلى كفرناحوم . إلى الآن هم فى أحلامهم الأرضية يفكرون فى ملكوت يسوع تفكيرا أرضيا .. هم رؤساء الدولة معه وهو ملك فوق الممالك الأرضية . ولكن رغم كل هذه المناقشة فقد كانوا فى أعمق أعماق قلوبهم مقتنعين بخطأ تفكيرهم . حتى عندما سألهم عما كانوا يجادلون سكتوا وأحسوا بالخجل ولم يجدوا ما يدافعون به عن أنفسهم . بل لعلهم عندما عرضت كل أفكارهم أمام ناظرى يسوع أحسوا أنها تافهة ؛ فكم من مرة تشاجروا فيما بينهم على من هو الأعظم فى ملكوت السموات ، ولكن عندما بدأ يسوع يناقشها معهم ، عرفوا فى قلوبهم أن تفكيرهم تافه لا يعقل أن يفكروا هم فيه . وهل هذا هو موقفنا فى حياتنا ؟ إننا نفكر فى أمور كثيرة قد تكون تافهة وليست مستقيمة مع الحياة المسيحية الحقه ، ولكن عندما نعرضها على يسوع نحس بتفاهتها وعدم جدواها . فلو استطعنا أن نتساءل قبل أن نقدم على عمل ما ، هل أستطيع أن أفعل هذا وها هو يسوع يرافقنى ؟ لو فعلنا ذلك لاختلفت حياتنا وسلوكنا كثيرا عما هى عليه ..

وكان على يسوع أن يأخذهم بالحزم فى هذه المسألة ، فجلس كما يفعل كل معلم يهودى يريد أن يعطى لتلاميذه درسا ، ثم ناداهم إليه ، وأراهم أن العظمة الحقيقية فى ملكوت السموات ليست فى أن تكون سيدا بل فى أن تكون خادما أمينا . وفى هذا الإعلان لم يمح يسوع الطموح بل رقاه وجعله إلى هدف أسمى ، فبدلا من طموح السيادة وضع طموح الخدمة ، وبدلا من طموح الامتلاك والخوف على كل شيء وضع طموح مساعدة الآخرين والعمل على إسعادهم .

يظن البعض أن ما يضعه يسوع أمام تلاميذه ما هو إلا مثل أعلى يستحيل تحقيقه فى الحياة ، ولكنهم فى ذلك مخطئون ؛ فلو فتشنا التاريخ عن عظماء الرجال الذين حفظ اسمهم فى سجل المجد لوجدناهم أولئك الذين خدموا الإنسانية ممثلة فى رعيتهم أو جيرانهم أو إخوتهم أو غير ذلك ؛ أولئك ضحوا بأنفسهم لأجل الجميع . وعندما وقف بلدوين رئيس وزراء إنجلترا ليرثى أحد كبار رجال الدولة قال « إننى كرئيس وزراء أستطيع أن أكتشف فى بعض المواقف الحساسة أعماق الطبيعة البشرية ، وقد عرفتها فى هذا الراحل لقد عرفت حقيقته فى موقفين يعتبران ضربة قاسية له ، الأول عندما فضلت أنا عنه لرئاسة الوزارة ، والثانى عندما أخبرته أنه يجب أن يوضع فى عمل خاص لا يريده هو ومع ذلك فلم أجد منه أى تعبير عن عدم الرضا لا فى القول أو العمل .. لم يشك ولم يتذمر ، بل ذهب إلى عمله وهو يعرف أنه يجب أن يخدم أمته فى أى مكان يختار فيه » . وهناك قصة عن رجل من اسبارطة كان فى غاية الحكمة وكان مرشحاً ليكون أحد ثلاثمائة يحكمون أسبارطة .. ولكن لما أعلنت الأسماء لم يكن اسمه بينهم .. فقال له صديقه « أننى آسف .. كان يجب أن يعرف الناس مقدرتك فى حكم البلاد .. ولكنه رد على صديقه قائلا « إننى مسرور أن أجد فى اسبارطة ثلاثمائة رجل أفضل منى يستطيعون أن يحكموها » . إن إنكار الذات نادر ولكنه مجيد وعظيم فى أعين الجميع .

وإننى أعتقد أن أعقد مشكلات الاقتصاد تحل ، وأكثر آلام السياسة تزول وأمرّ انقسامات الكنيسة التى تهدد وحدتها وروحانياتها تختفى لو نظر الناس لا إلى ما لأنفسهم بل إلى ما لغيرهم ، ولو وضعوا فى اعتبارهم أن خدمة الغير أهم من الأنانية والطموح للسيادة والتحكم فى الآخرين .

وبهذا وضع يسوع أعظم وأمجد حقيقة فى التاريخ عندما أعلن أن العظمة الحقيقية فى الخدمة لا فى السيطرة .

مساعدة المحتاجين هى خدمة للمسيح نفسه

(مرقس ٩ : ٣٦ و ٣٧)

لازال يسوع هنا يعالج مشكلة الطموح ويبين النافع من الضار فيه . دعا ولداً وأقامه فى وسطهم : إن الولد يمثل الشخص الذى يحتاج إلى من يعطيه شيئا . إنه لا يستطيع أن يمنح الآخرين ما يحتاجون إليه . إنه يعتمد على الغير ، وعندئذ قال يسوع « إنكم إذا رحبتم بالفقراء المعوزين .. الذين ليس لهم المقدرة الاجتماعية أو المادية ، بل هم المحتاجون إليكم دائما .. إذا رحبتم بهؤلاء وقبلتموهم فإنكم إنما تقبلوننى أنا بل وتقبلون الله نفسه » إن الطفل يمثل المجتمع الذى يحتاج إلينا وإلى خدمتنا .

وبهذا يحذرنا يسوع من موقف ، كثيراً جداً ما نقع فيه وهو أننا نسعى لإقامة علاقتنا مع الأغنياء الموسرين الذين لهم النفوذ والسيطرة ونترك أولئك المحتاجين إلينا الذين يعتمدون على خدمتنا وعملنا .. نسعى إلى المجتمعات التى نأخذ منها لا المجتمعات التى يجب أن نعطيها ، ولهذا فهو يشدد على أن نفتش على من نعطيه لا من نستفيد ونأخذ منه ، وبذلك نخدم المسيح نفسه . أليس هذا

تكراراً لما قاله مرة أخرى « فكلما فعلتم بأحد أخوتى هؤلاء الأصاغر فبى فعلتم » ؟ .

درس فى عدم التعصب

(مرقس ٩ : ٣٨ — ٤٠)

كان الناس فى أيام المسيح يصابون كثيراً بأرواح نجسة ، وكان بعض الناس يحاولون إخراج هذه الأرواح بواسطة اسم روح من الأرواح القوية . وبينما كان التلاميذ فى رحلتهم التبشيرية رأوا جماعة من اليهود يستخدمون اسم يسوع فى محاولة إخراج الشياطين فاغتاظ يوحنا وبقية التلاميذ من هؤلاء الذين يفعلون هكذا وهم ليسوا بتلاميذ للمسيح .. لقد اعتبروها سرقة . ولكن يسوع لم ينظر إليها هكذا ، بل قال لهم إن إنساناً يفعل ذلك لا يسهل عليه أن يكون عدواً لنا ، ثم وضع هذا المبدأ الخطير : « من ليس علينا فهو معنا » . وكل واحد منا بدون استثناء ، يحتاج إلى هذا الدرس :

١ — حرية الفكر والتفكير مكفولة لكل إنسان ، وكل واحد يستطيع أن يفكر لنفسه ويصل إلى نتائجه بمحض إرادته ، ويجب على كل إنسان آخر أن يحترم تفكير أخيه هذا . يقول وليم بن « لا تحتقر ولا تعارض مالا تفهم » . وفى بعض الترجمات الجديدة « العهد الجديد فى الإنجليزية البسيطة » تترجم يهوذا ١٠ « الذين يتكلمون باحتقار عما لا يفهمون » . وهذا مرض شائع بين المسيحيين . وهنا يجب أن نذكر أمرين :

(أ) هناك طرق كثيرة تؤدى إلى الله ، أو كما يقول تنيسون « الله يعلن نفسه فى طرق كثيرة » . ويقول سرفانتس « إن الله يحمل أتباعه إلى السماء فى طرقات مختلفة » . فكما أن الأرض كروية ويستطيع إنسانان أن يتلاقيا مرة أخرى حتى ولو سارا فى طريقين متعاكسين ، هكذا الله نستطيع أن نذهب إليه فى طريقين مختلفين . أو كما كانت روما عاصمة العالم القديم وكل طريق كان يقود إليها هكذا الله . هذا ما يجب أن تتعلمه كل كنيسة تظن أنها تملك الطريق الأوحد إلى السماء ، أو أنها قد استحوزت على كل الخلاص ، فلا خلاص إلا فيها .

(ب) إن الحق أكبر من أن يحيط به فرد واحد ، فأساس عدم التعصب ليس فى الكسل الفكرى وقبول أى شيء وكل شيء بدون تمحيص ، بل فى تحقق المفكر فى أنه لا يستطيع أن يعرف الحق كله كما قال أحدهم « إن عدم التعصب يعنى احترام كل تفكير محق ، يعنى أن الحق يعلن نفسه بطرق مختلفة ، يسكن بيوتاً متباينة . ويلبس ملابس كثيرة التنوع .. إنه يعنى احترام الفكر الإنسانى وتكريمه فلا نحاول أن نخضعه لميكانيكية عمياء .. إن عدم التعصب هو المحبة التى هى أعظم من الرجاء والإيمان » . إن التعصب معناه الديكتاتورية الجاهلة لأن المتعصب شخص يظن أن الحق لا يسكن إلا عنده .

٢ ـــ حرية الكلام مكفولة لكل فرد وهي حرية عزيزة على كل فرد ، ومع ذلك فلها حدودها ، فنحن نستطيع أن نحارب من يريد أن يهدم العقيدة والمدنية ، ولكن نحاربه لا بالقوة الجسدية بل بالحجة والإقناع كما قال فولتير « إنني أكره ما تقول ولكن أضحي بنفسي لأكتسب لك الحق في أن تقول ما تشتهي » .

٣ ـــ يجب أن نذكر أن الحكم الصحيح على أية عقيدة أو نظام هو نوع التأثير الذى ينتجه . وكما قال أحدهم « الكنيسة لا تهم أى إنسان إنما المهم هم الناس الذين تربيهم » . والسؤال المهم هو ليس « كيف تسير الكنيسة ؟ » بل « ما هو نوع الناس الذين تنشئهم الكنيسة ؟ » . هناك أسطورة شرقية تقول إن أسرة كانت تمتلك خاتماً ثميناً كل من وضعه في إصبعه تحول إلى رجل سامى الخلق محبوبا من الناس .. وكان الابن يتوارثه عن الأب ، وكان تأثير الخاتم مستمراً في كل جيل إلى أن وصل إلى رجل كان له ثلاثة أبناء يحبهم بنفس الدرجة ولكنه لا يعرف لمن يعطى الخاتم . فما كان منه إلا أن صنع خاتمين آخرين يشابهان ذلك الخاتم مشابهة تامة ، وعند موته جعل كل ابن يختار أحد الخواتم الثلاثة .. ومات . ولم يعرف الأبناء الثلاثة أى الخواتم هو الخاتم الأصيل ، فذهبوا إلى القاضى واحتكموا له . ولما أمسك القاضى بالخواتم قال لهم « إنني لا أستطيع أن أميز بين الثلاثة ولا أستطيع أن أعرف الخاتم الحقيقى ، ولكن الشخص الذى يستطيع ذلك هو أنتم » فاستغربوا كلامه وسألوه عن كيفية ذلك فقال لهم « سيروا بين الناس بالحق أسلكوا بالاستقامة واعملوا الخير وسوف يظهر منكم من امتلك الخاتم الأصيل » هكذا الأمر .. إن العقيدة تثبت أو تسقط بحسب نوع الناس الذين يعيشون فيها .

٤ ـــ قد نكره العقيدة ولكن لا نكره من يعتقد بها .. قد نزيل التعليم ولكن لنحذر من إزالة المتعلم .

الثواب والعقاب

(مرقس ٩ : ٤١ و ٤٢)

إن التعاليم الموجودة في هذا الفصل بسيطة صادقة مباشرة :

١ ـــ إنها تظهر أن كل من يقدم خدمة لأجل المسيح لا يضيع أجرها . والسبب في ذلك أن الخدمة تقدم لأناس يحبهم المسيح ، والمسيح يحب كل الناس وإذن فكل خدمة لكل إنسان لا بد وأن تعطى أجرها . إن لكل إنسان حقاً علينا لأنه لو كان المسيح على الأرض لخدم كل الناس . والخدمة التى يطلب السيد منا أن نقدمها هى خدمة بسيطة يستطيع كل إنسان أن يفعلها ، كأس ماء بارد . إنه لم يطلب من الناس أن يقدموا ما لا تستطيع طاقتهم أن تحتمل .. إنها تقدمة بسيطة صغيرة ولكن في معناها كبيرة وعظيمة . تذكر إحدى المرسلات في أفريقيا قصة جميلة اختبرتها في حياتها : قالت إنها كانت تشرح

للفصل الصغير الذى تعلم فيه هذه الآية بالذات ، وعلمت البنات أن يقدمن الخدمة لكل إنسان محتاج . ويوما ما وفيما كانت هذه المرسلة تجلس فى فراندة بيتها شاهدت جماعة من الحمالين يحملون أحمالا ثقيلة وهم فى غاية العطش . ثم رأتهم يلقون بأحمالهم ليستريحوا . ولم يكونوا ينتظرون أية معونة من الناس حولهم لأنهم من قبيلة أخرى . ولكن المرسلة رأت مجموعة من البنات التلميذات فى فصلها يخرجن من الفصل وهن يحملن جراراً بها مياه وتقدمن فى حياء وخجل إلى الحمالين وأعطيناهم المياه فتلقف الحمالون الماء وشربوا وهم فى غاية الدهشة والفرح من هذا العمل المجيد . وفرحت البنات إذ نفذن وصية المسيح حرفيا . إن العالم يحتاج إلى المحبة التى تظهر فى هذه الأعمال البسيطة كما قال أحدهم إن الحسنة هى « أن تهدى ضالا وتسقى عطشانا وتبتسم فى وجه أخيك » .

٢ — ولكن العكس صحيح أيضا . إن من يعثر الأخ الأصغر يستحق العقاب القاسى الأبدى . وحجر الرحى المذكور هو الحجر الضخم جداً . فقد كان هناك نوعان من الرحى فى فلسطين : الأول نوع صغير تستخدمه النساء فى البيوت والثانى هو طاحونة تديرها البهائم . والكلمة المذكورة هنا تعنى الحجر الكبير ، وهذا يعنى أن الموت أكيد لمن يعلق فى عنقه هذا الحجر الضخم . ويذكر يوسيفوس أن الجليليين الذين قاموا بالثورة ضد روما أغرقتهم روما بهذه الطريقة القاسية .

والحق يقال إن من يخطىء فى حق نفسه يستحق العقاب ولكن من يخطىء فى حق الغير ويدفعه للخطأ فيستحق عقابا أقسى . وهناك قصة و . هنرى كاتب القصة الأمريكى الشهير تقول : إن أحد الرجال ماتت زوجته وكان له ابنة وحيدة . وكان الرجل عاملا ، فكان يترك ابنته فى البيت فكانت تلعب فى الشارع . وعندما كان يرجع إلى المنزل كانت الفتاة تنطلق إليه وتطلب منه أن يلعب معها قليلا ولكنه كان يدفعها عنه ويجبرها أن تذهب للشارع وتلعب وتتركه يمدد رجليه ويقرأ جرائده . واستمر الحال كذلك إلى أن ابتلع الشارع الفتاة وضلت الطريق وأضحت فتاة خاطئة . وماتت الفتاة .. وذهبت إلى الآخرة ورآها بطرس فقال للمسيح . لنلق بها خارجا إلى الجحيم ، ولكن المسيح نظر إليها بلطف وقال له : لا .. اتركها ، ثم نظر بشدة وقال : « هناك شخص آخر يستحق أن يلقى فى الجحيم . إنه الأب الذى ترك ابنته تضل فى الشوارع » . نعم فالشخص الذى يعثر أخاه هو الشخص الذى يستحق العقاب الشديد .

الهدف الذى يستحق كل تضحية

(مرقس ٩ : ٤٣ — ٤٨)

هذا الفصل يوضح فى أسلوب شرقى الحق الأساسى ، إن هناك هدفا أمام الإنسان . يستحق أن يضحى من أجله . ففى الناحية الجسدية قد يرضى إنسان ما أن يضحى بطرف من أطرافه — يده أو رجله — لينقذ حياته من موت أكيد لو بقى ذلك الطرف . هذا الحق له وجود أيضاً فى الناحية الروحية .

وهناك أحاديث يهودية عن صلة الأعضاء بالخطية مثل : « العين والقلب سمساران للخطية » أو

« العين والقلب خادمان للخطيئة » أو « الشهوات تملأ الشخص الذى يرى فقط » أو « ويل لمن يتبع عينيه لأن العينين زانيتان » . وهناك غرائز فى الإنسان وبعض الأعضاء التى تخدم الخطية . ولكن مع ذلك ينبغى ألا نأخذ قول يسوع حرفياً بل أن نفهمها بهذا المعنى « إن هناك أهدافاً فى الحياة تستحق كل تضحية مهما غلت » .

وفى هذه الآيات إشارات كثيرة عن « جهنم » وهى كلمة تتكرر فى العهد الجديد كثيراً (متى ٥ : ٢٢ و ٢٩ و ٣٠ ، ١٠ : ٢٨ ، ١٨ : ٩، ٢٣ : ١٥ ، ٣٣ ، لوقا ١٢ : ٥ ، يعقوب ٣ : ٦) وهى تأتى من الكلمة هنوم أو وادى بن هنوم ، وهو وادى كئيب له تاريخ شرير ، ففيه أحرق أحاز الأطفال إذ عبرهم فى النار (٢ أخبار ٢٨ : ٣) وفعل منسى هذا الأمر أيضاً (٢ أخبار ٣٣ : ٦) ولهذا فقد أعلن يوشيا فى إصلاحه أن وادى ابن هنوم هو وادى نجس (٢ ملوك ٢٣ : ١٠) ، ولهذا فقد استخدم فى حرق الفضلات التى يلقيها فيه ساكنو أورشليم . ومن ذلك عاشت فيه الديدان واستمر دخانه قائما . وهذا هو أصل الصورة التى تقول « إن ناره لا تطفىء ودوده لا يموت (إشعياء ٦٦ : ٢٤) . ثم أضحى رمزاً للمكان الذى فيه تهلك أرواح الأشرار . ويقول معلمو اليهود « إن الخاطىء الذى يحتقر كلمات الناموس سيرث الجحيم » . لقد أضحى رمزاً لمكان العقاب .

ولكن ما هو الهدف الذى لأجله ينبغى للإنسان أن يقدم على كل تضحية ؟ لقد أطلق عليه يسوع اسم « الحياة » مرتين ، ومرة اسم « ملكوت الله » . فما معنى ملكوت الله ؟ فى الصلاة الربانية نستطيع أن نجد التعريف : ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض . وهاتان الطلبتان متوازيتان مثلها فى ذلك مثل كل الشعر العبرى الذى يتكون عادة من عبارة تليها عبارة أخرى إما مرادفة لها أو مفسرة أو مكملة للمعنى . وعلى هذا الأساس فملكوت الله تعنى ذلك المجتمع الذى فيه تسود مشيئة الله . فمن يعمل مشيئة الله هو الشخص الذى دخل ملكوت الله فعمل مشيئة الله إذن هو الهدف الذى قد لأجله ينبغى أن يضحى الإنسان بكل شيء . فمشيئة الله هى الشيء الأسمى فى حياتنا الذى يملأنا بالسلام .

ولقد اعتقد أوريجانوس أن كلام المسيح كلام مجازى وهو يعنى به الكنيسة وليس الفرد ، بمعنى أن الكنيسة تقطع العضو الفاسد بدلا من أن يفسد كل الأعضاء . ولكن الحقيقة غير ذلك ، فالأمر شخصى جداً يخص كل إنسان وهو يعنى أن الإنسان لأجل إطاعة مشيئة الله قد يضطر لقطع عادة من العادات أو صديق من الأصدقاء أو عمل من الأعمال . وهذا العمل من خصوصيات كل فرد بعينه فلا يستطيع أن يعمله إنسان لآخر . وقد يكون القطع هذا قاسياً مؤلما كأنه عملية جراحية فى الجسم ، ولكنه أمر ضرورى لمن يريد أن يعيش الحياة الحقيقية التى تخضع لإرادة الله فتمتلىء بالسلام الكامل . إنه صعب ولكنه من ضرورات الحياة الحقيقية .

ملح الحياة المسيحية

(مرقس ٩ : ٤٩ ــ ٥٠)

هذه الأعداد الثلاثة تعد من أصعب الأجزاء فى العهد الجديد ، وكثيراً ما اختلف المفسرون فى تفسيرها ، وسبب هذه الصعوبة ليست فى الكلمات ولا الأسلوب بل يكمن فى عدم ترابط هذه الأعداد معاً فكأنها ثلاثة أقوال منفصلة قالها المسيح فى ثلاثة مواقف منفصلة جمعت معاً فى هذا المكان ؛ ويميل كثير من المفسرين إلى اعتبارها هكذا . لأنهم يقولون إن يسوع كان ينطق بهذه الإعلانات فى بعض المواقف ، وكان السامعون يحفظون هذه الأقوال القوية ولكنهم ينسون الموقف الذى قيلت فيه ، ولهذا فكانوا يجمعون هذه الأقوال معاً لتشابهها معاً . ويقولون إن هذه الأعداد من نفس هذا الصنف .

وسواء أكانوا محقين أم غير محقين فإننا هنا سنعامل كل عدد على حدة :

١ ــ كل واحد يملح بنار . هذا يرجع بنا إلى العبادة اليهودية عندما كانوا يقدمون الذبائح . فقبل تقديمها على مذبح المحرقة كانوا يضعون الملح على الذبيحة وكان هذا الملح يسمى ملح العهد (لاويين ٢ : ١٣ ، عدد ١٨ : ٩ ، ٢ ، أخبار ١٣ : ٥) ، وهو ضرورى لقبول الذبيحة ، وكان يسوع يقول : « قبل أن تقبل الحياة المسيحية يجب أن يملح بنار كما كانت كل ذبيحة تملح بملح ، هذه النار هى التى تجعل هذه الحياة مقبولة لدى الله . فماذا يعنى ذلك ؟ للنار عملان :

(أ) التطهير : إن النار هى التى تنقى المعدن فتعزل الشوائب ويبقى المعدن نقياً بعد ذلك . فهى إذن تشير إلى تطهير الحياة .. إنها تعنى التدريب على هزيمة الخطية فتتنقى النفس . فالحياة المملحة بالنار هى الحياة التى تنقت بواسطة قبول عمل الله وطاعته الكاملة وقبول إعلاناته .

(ب) الإبادة : فالحياة التى جازت فى الاضطهادات والتجارب والمتاعب ونجحت ، هى الحياة المقبولة لدى الله . وكل من قبل راضياً ضياع ممتلكاته ، بل وضياع حياته لأجل يسوع المسيح تكون حياته ملحت بالنار .

فهذا القول الأول يعنى الحياة التى ظهرت بالتدريب والمضايقات هى الحياة المقبولة لدى الله .

٢ ــ أما العدد الثانى فهو أصعب فى تفسيره ، وإن كنا هنا نذكر أحد التفاسير فإننا لا نشك أن هناك تفاسير كثيرة أخرى . ما معنى أن الملح إذا فقد ملوحته فهو لا يملح ؟ إننا نفهم ذلك إذ عرفنا خصائص الملح ، فهناك خاصيتان مهمتان :

(أ) أنه يعطى طعماً جيداً للطعام . وكلنا يعرف طعم البيضة أو أى طعام إذا أكلناه بدون ملح .

(ب) والملح يستخدم لحفظ الأشياء من الفساد ، وكان اليونانيون يعتقدون أن الملح يعمل عمل الروح فى الجسد . فاللحم المذبوح لو ترك لنفسه ليفسد ولكنه لو حفظ فى الملح لبقى طازجا ، وكذلك المسيحى فإنه يعيش فى وسط عالم وثنى .. عالم لا يعرف مبادئه ، وهذا العالم يتصف

بأمرين وخصوصاً فى عهد الكنيسة الأولى :

١ ــ إنه مضايق ولا يطاق ، وهو فى نفس الوقت عالم قلق ، وما كان انغماس هذا العالم فى الترف الواسع إلاعلامة على قلقه وعدم معرفته للحياة الحقيقية كما قال م . أرنولد الشاعر :

لقد امتلأ ذلك العالم بالاحتقار والحياة الفاسدة .

وجعل القلق من حياة الناس جحيما .

وكان الأمراء الرومان يناموں فى حجراتهم المترفة .

يأكلون ويشربون ، ثم يصومون ويتقشفون .

ويتوجون أنفسهم بالزهور .

كل ذلك ليقضون الساعات الطويلة المرعبة .

ففى هذا العالم المتعب القلق الذى ينحدر نحو التعفن جاءت المسيحية وكان عليها أن تعطى طعماً جديداً لهذا العالم وتحفظه من الفساد .

٢ ــ كان العالم منحلا ، ولكم امتلأت روما إلى أنفها بالفساد والانحلال ، ولكن فيها جاءت المسيحية وكان عليها أن تكون ترياقا لذلك السم القاتل وتحمى المجتمع كما يحمى الملح الطعام من الفساد .

وكأنى بيسوع إذن يقول « العالم يحتاج إلى الطعم الطيب والحفظ من التعفن ، ولا يمكن أن يهبهما له إلا المسيحى ، فلو فقد المسيحى هذه الصفات فمن أين للعالم بها ؟ » فإن لم يملح المسيحى العالم ، إن لم يتغلب على ما فيه من قلق واضطراب بقوة المسيح فكيف يحيا هذا العالم المسكين ؟

٣ ــ ليكن لكم ملح فى أنفسكم وعيشوا فى سلام كل واحد مع الآخر . الملح طاهر فى نفسه ، وفى العالم القديم عرف الناس أنه لا يوجد أنقى من الملح لأنه يأتى ــ كما كانوا يعتقدون من أطهر مصدرين « الشمس والبحر » . ودلالة نقائه هو بياضه الناصع . وعلى هذا يمكن أن نقول « ليكن فيكم الروح المطهر .. الروح القدس .. ليطهركم من الأنانية وحب الذات وكراهة الآخرين .. ليطهركم من الغضب والقلق والحقد .. وعندئذ تستطيعون أن تعيشوا فى سلام مع الناس حولكم . وبمعنى آخر كان المسيح يقول : إن الشخص الذى طهر من محبة الذات وامتلأ بالمسيح هو الذى يستطيع أن يحيا حياة الحب مع الآخرين حوله ..

الأصحاح العاشر

للخير أم للشر

(مرقس ١٠ : ١ — ١٢)

استمر يسوع فى طريقه إلى الجنوب فوصل إلى اليهودية ولكنه لم يدخل إلى أورشليم وهكذا كان يقترب من النهاية خطوة خطوة . وفى مكان ما جاءه جماعة من الفريسيين لكى يسألوه عن مشكلة حيرت كل المدارس اليهودية الدينية وهى مشكلة الطلاق . ولسنا ندرى بالضبط ماذا كانت الدوافع الحقيقية وراء هذا السؤال ، هل كانوا يريدون أن يعرفوا رأى يسوع ليستنيروا به فى هذه المشكلة ؟ لابد أن يسوع تكلم مرات أخرى عن الزواج بواحدة وبأكثر من واحدة . فهل كانوا يريدون أن يسموه مناقضاً لكلامه فى مرات سابقة ؟ أم أنهم أرادوا أن ينقلوا كلامه إلى هيرودس الذى كان قد طلق امرأته ، وبذلك يدفعونه إلى أيدى ذلك القاتل ؟ أم أنهم أرادوا أن يظهروا مدى كسره للتقاليد والناموس فيتخذونها علة ضده ويهلكونه ؟ ومع أن شيئاً من هذا لم يكن واضحاً ، لكن الأمر المؤكد هو أنهم حملوا إليه مشكلة ليست فى حقيقتها مشكلة أكاديمية ، تبحث بين جدران المدارس ، بل هى مشكلة يومية شعبية تمس الناس فى أقدس مقدسات حياتهم .. الأسرة .

ومن الناحية النظرية كان الزواج اليهودى يعد المثل الأعلى للزواج ، فالطهارة الروحية كانت المثل الأعلى لليهودى وهى أهم الفضائل الأخلاقية . ولقد قالوا : « يصبر الله على كل خطية ما عدا النجاسة . النجاسة تجعل الله يترك شعبه . يجب أن يضحى اليهودى بنفسه فى سبيل ألا يعبد الأصنام أو يقتل أو يزنى » إن المذبح نفسه يبكى عندما يطلق الرجل امرأته » . هذه مثل عظيمة . ولكن الحياة العملية أظهرت غير ذلك وعكس ذلك .

إن المشكلة فى الحياة الأسرية اليهودية كانت تكمن فى نظرة الرجل للمرأة فلم يكن ينظر إليها كشخص نظيره بل كمتاع يملكه ؛ فهو حر يتصرف فيها كما يشاء ، ويستطيع أن يطلقها كما يشاء ولأتفه الأسباب ، بينما لا تستطيع هى أن تطلقه إلا لأسباب قاهرة ، كأن يصاب الزوج بالبرص أو يشتغل فى صناعة محتقرة كدبغ الجلود مثلا ، أو أن يغتصب عذراء ، أو أن يتهمها باطلا فى سلوكها قبل الزواج . هذه هى الأسباب التى لأجلها تستطيع المرأة أن تطلب من زوجها أن يطلقها .

ولقد بنى اليهود مسألة الطلاق على ما جاء فى (تثنية ٢٤ : ١) « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شىء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته » . وكانت وثيقة الطلاق فى بداءتها بسيطة « ليكن هذا منى كتاب طلاقك وخطاب إطلاقك من عصمتى وتحريرك حتى تستطيعى أن تتزوجى من تريدين » . ولكن بمرور الأيام تعقدت الوثيقة وصارت هكذا « إنه فى يوم — أسبوع — شهر — سنة — من العالم . بحسب التاريخ المستعمل فى مدينة — الموجودة على شاطىء نهر — أنا فلان الفلانى وبأى اسم أنادى ، حاضر هذا اليوم — مواطن من مدينة — بحسب رغبتى وبدون ضغط خارجى . أنكرك وأرسلك لأهلك

وأبعدك يافلانة الفلانية بأية اسم تدعين ويمكنك أن تتزوجى من تريدين فلا يعيقك أحد . هذا هو خطاب طلاقك وإنكارك وانفصالك عنى بحسب ناموس موسى واسرائيل » . وكانت تحتاج إلى كاتب ماهر ليصيغها ثم يجب أن تقبل على يدى ثلاثة قضاة ثم تحفظ فى السنهدريم . لقد كان الطلاق سهلا .

لكن المشكلة كلها جاءت من تفسير هذا العدد السابق وخصوصاً التعبير « إذا وجد بها عيب شىء » . ولقد انقسم الفكر اليهودى إزاء هذا التعبير إلى مدرستين : المدرسة الأولى مدرسة شماى فسرت العيب بأنه عيب الزنى فقط وقال شماى المعلم الأكبر « لتكن المرأة رديئة رداءة إيزابل إمرأة أخاب ولكن إن لم تكن زانية فلا يمكن أن تطلق » ، أما المدرسة الثانية فهى مدرسة هليل وقد فسرت هذا العيب على أنه شىء لا يعجب الزوج ، فمثلاً : قد يعتبر عدم مهارة المرأة فى عمل الطعام عيباً تطلق عليه ، وكذلك إن امسكت بمغزلها وغزلت فى الطريق أو إن كلمت شخصاً غريباً أو إن سمع صوتها من بيت الجيران . بل ذهبت مدرسة أكيا إلى أبعد من ذلك فقالت : إن راقت إمرأة أخرى فى نظر الزوج فإنه يستطيع أن يطلق زوجته . وبذلك أضحى الطلاق منتشراً لأسباب واهية إن لم يكن بدون سبب ، حتى أن النساء ترددن فى الزواج لأنهن عرفن أنه مشروع غير مضمون . ولهذا فقد وقف يسوع بجانب المرأة وأراد أن يكون الزواج فى مركزه المناسب .

ونلاحظ هنا بعض الأشياء : أولا أن يسوع قد اقتبس من التشريع الموسوى ولكنه أضاف بأن موسى قد وضع هذا التشريع لقساوة قلوبهم . وهذا التعبير إما أنه يعنى أن موسى لم يجد أحسن من هذا التشريع لهذا الشعب القاسى ، وإما أنه وجد أن الطلاق قد انتشر بشكل فظيع فأراد أن يحد منه فوضع هذا التشريع حتى لا يتفشى كالوباء . وبهذا يكون (تثنية ٢٤ : ١) عبارة عن تشريع وضع لغرض مخصوص فى موقف معلوم و لم يقصد به البقاء الأبدى . أما المكان الذى اقتبسه هو وبنى عليه رأيه فهو فى تلك (١ : ٢٧ ، ٢ : ٢٤.) حيث يقول إن الله خلق ذكراً وأنثى فى رباط واحد دائم لا يستطيع أى تشريع بشرى أن يفصمه . إنه تشريع طبيعى من صميم الكون الذى لا تتغير قوانينه بحث يصبح الاثنان واحداً .

ولكن المشكلة هنا تكمن فى أنه بينما ينفى مرقس الطلاق بتاتاً نجد متى يذكر حالة واحدة يجوز فيها الطلاق وهى الزنى ، ومتى صادق فى ذلك إذ أنه يكتب لليهود ، وفى الحقيقة نستطيع أن نلمس ذلك فى قصة مرقس أيضاً ، لأن الزنى يقطع العلاقات الزوجية حتما . فعندما ارتكبت هذه الخطية أصبحت العلاقة غير ممكنة وصار الطلاق جائزاً جداً .

لكن الشىء الأساسى فى هذا الفصل هو أن يسوع حزن عندما رأى حالة البيت والأسرة محطمة ، فأراد أن يذكر أولئك الذين ظنوا أن الزواج وجد للمتعة فقط ، ولكنه مسئولية أيضاً ، ورابطة روحية عميقة . إن يسوع بذلك كان يبنى دعامة قوية تسند البيت المتداعى .

لمثل هؤلاء ملكوت السموات

(مرقس ١٠ : ١٣ ــ ١٦)

كان من عادة الأمهات اليهوديات أن يحضرن أطفالهن خاصة فى عيد ميلادهم الأول إلى أحد كبار معلمى اليهود لكى يضع يديه عليهم ويباركهم ، ولهذا فقد جاءت الأمهات إلى يسوع بأطفالهن لهذا السبب عينه .

وجمال هذه القصة وعمقها يظهران فى الظرف الذى حدثت فيه ، فلقد كان يسوع سائراً إلى أورشليم وهو يعلم أن شبح موته مخيم عليه ، إن المأساة لابد آتية ولابد أنه كان يفكر فيها كثيراً ، ولكن رغم هذا كله وجد الوقت الذى فيه يقبل هؤلاء الأطفال إليه . رغم ظلال الألم الكبير الذى كان يلوح فى الأفق فتح يسوع ذراعيه لهم وانفتح قلبه فرحا بهم فابتسم . ولابد أنه لعب معهم بعض الشيء . ولهذا السبب عينه أراد التلاميذ أن يبعدوهم عنه . إنهم ليسوا غلاظ القلوب لا يحبون الأطفال ، إنهم أرادوا أن يوفروا الوقت ليسوع ، إنه مثقل ، إنه ينظر إلى المأساة فلماذا لا يتركونه الآن وحيداً ، لماذا يتعبونه أكثر من ذلك .. ولكن رغم كل ذلك قال يسوع « دع الأولاد يأتون إلىّ » .

وهذه القصة تكشف لنا بعمق عن شخصية يسوع . فالشخص الذى يهتم بالأولاد والذى يهتم به الأولاد ، لابد أنه شخص بشوش الوجه ، يبتسم ويضحك من قلبه ، ليس من طبعه التكشير والغضب ، ولهذا وجد الأطفال جرأة أن يجروا إليه . ولقد قيل « إن المسيحى الحقيقى هو من تجد الأطفال يلعبون حول داره وأمام بيته » . هذه القصة أوضحت حلاوة شخصية يسوع .

« لمثل هؤلاء ملكوت السموات » فما هو الشيء الذى يراه يسوع فى الأطفال ؟

١ ــ **تواضعه** : إن الطفل متواضع بطبعه ، إنه لم يتعلم بعد أن يفكر فى قيمته الاجتماعية ومكانته العامة . إن الأطفال الذين يهتمون بالمظاهر قلة تكاد تكون معدومة ، وإن وجدوا فهم ضحية تربية خاطئة . إن الطفل متواضع .

٢ ــ **طاعته** : قد يعصى الطفل بعض الأوامر ولكنه مطيع بطبعه ، إنه لم يتعلم بعد الاستقلال المفتعل الذى يفصله عن الآخرين وعن الله .

٣ ــ **ثقته** : وهذه تظهر فى أمرين :

(أ) فى قبوله للسلطة : إنه يظن أن أباه يعرف كل شيء وهو صادق فى كل قول . وقد يكتشف نقص هذا الاعتقاد ولكن بعد أن يكبر ، ولهذا فهو يثق فيه .

(ب) ثقة فى الآخرين : إنه لا يتوقع أن يكون الشخص الآخر شخصاً رديئاً . إنه يصادق الغرباء ، ولقد قال أحد عظماء الرجال : إن أعظم مدح سمعه فى حياته هو عندما جاءه أحد الأطفال الغرباء وطلب منه أن يربط له حذاءه .

فالطفل يثق فى العالم كله .. قد يكون هذا خطرا عليه لأن هناك أشراراً لا يستحقون هذه الثقة ولكن الطفل يثق فى الكل ولا يعتقد الشر فى أحد .

٤ — **للطفل ذاكرة صغيرة** : لم يتعود أن يحتفظ بالكراهية والمرارة بعد ولو عومل بالقسوة . إنه ينسى نسياناً تاماً حتى أنه لا يحتاج إلى أن نطلب منه المسامحة .

ولهذا : فلمثل هؤلاء ملكوت السموات .

كم من الصلاح تحتاج

(مرقس ١٠ : ١٧ — ٢٢)

هذه القصة تعتبر من أقوى قصص الأناجيل .

١ — إن الطريقة التى بها جاء هذا الشاب إلى المسيح كانت طريقة غريبة على شخص غنى ارستقراطى . فهو يأتى ساجداً أمام نبى فقير من الناصرة يسير فى طريق الحكم عليه بالموت .. ثم يبدأ قوله بسرعة : « أيها المعلم الصالح » ولكن يسوع يجيبه بسرعة أيضاً ويقول له « لا تتملق .. لا صالح إلا الله » وبهذا ألقى على هذا الشاب المتحمس ماءً بارداً ، ويلوح أن سلوك هذا الشاب الغريب جاء نتيجة للحظة حماسية عاطفية شديدة ، ولكن يسوع أظهر سلطانه الشخصى عليه وظهر ذلك فى ناحيتين : الناحية الأولى هى أن يسوع لم يؤخذ بالعواطف ، ولم يضرب على الحديد الساخن كما يرى الكثيرون ذلك . إنه يقول للشاب : إنتظر .. تأمل وفكر فيما أنت قادم عليه إنه لا يجمد الشاب فى موقفه .. إنه لا يصده ، بل يحاول أن يدع هذه العاطفة تخضع لسلطان التفكير وإلا لانهار كل البنيان بمجرد أن تخمد . على كل إنسان أن يحسب النفقة قبل أن يتقدم للعمل .

الناحية الثانية هى أن يسوع أشار إلى الله مباشرة . وهو هنا يعلمنا درساً نحن فى شديد الحاجة إليه : إن الوعظ والتعليم ينبغى أن يوجها الناس إلى الله لا إلى شخصية الواعظ أو المعلم . إن الخطر الأكبر يكمن فى أن المتعلم يتعلق بالواعظ ويترك الله ، إننا لا ننكر أن الحق الإلهى يأتى عن طريق شخصية وأن الإخلاص لهذه الشخصية مهم لفهم الحق الإلهى ، ولكن يجب أن يعطى الحق الإلهى الفرصة الأولى ويفضل عن الشخصية .. الله أولا .

٢ — وهنا يتضح بكيفية واضحة أن احترام الغير وما يمتلك غير كاف فى المسيحية ، إن الشخص المحترم هو شخص عظيم ولكنه ليس مسيحياً حقيقياً . ولقد اقتبس يسوع الوصايا التى تعبر عن الحياة المحترمة ، وعرف أن الشاب عملها كلها . لكن هذه الوصايا ، باستثناء الوصية الخاصة بالعلاقات الأسرية ، كانت وصايا سلبية . إنه يحتاج إلى أكثر من ذلك . إن العلاقة المسيحية هى علاقة إيجابية إنه لا يكفى أنك لا تعمل ضرراً للناس ، بل يجب أن تعمل خيراً فيهم .. يجب أن تحبهم هنا . يقول السيد لهذا الشاب : إن حياتك ناقصة .. يعوزك شىء واحد .. وهذا الشىء هو أهم عنصر فى حياة إنسان يحب الحياة الأبدية .

٣ — هنا يواجه يسوع الشاب بتحد حقيقى كأنه يقول له « أخرج من وقارك الشخصى هذا ،

كف عن تفكيرك . إن الحياة الأبدية هى ألا تعمل شيئاً ضاراً .. إعمل خيراً فى الناس وأنت تجد الحياة الأبدية والسعادة الكاملة . أخرج عن نفسك وعن ممتلكاتك ، لقد كنت محترماً فلم تسرق الآخرين ولكنك لم تكن مسيحيا فتعطى الآخرين وتقاسمهم ما عندك .. إنك لم تظلم ولم تغش ولكنك لم تساعد ولم تحب ولم تضح » . إن الحياة المحترمة هى ألا تؤذى أحداً أما الحياة المسيحية هى أن تنفع الكل ، ماذا يظن هذا الشاب فى المسيحية ؟ كم تكلفه ؟ إن يسوع يقول له « هل تريد مسيحية تكلفك كل ما تملك ؟ » فيقول الشاب « أريد المسيحية ولكنى لا أريد أن أتكفل بشيء مما تطلب » وهنا يكمن مرض هذا الشاب . المرض الذى أصيب به كثيرون من المسيحيين إنه لم يرد المسيحية الكاملة .. إنه أراد المسيحية بما فيها من امتيازات ولكن المسيحية التى تدفع .. المسيحية التى تتكفل ، فلم يرد منها شيئاً .

ونظر يسوع إلى الشاب وأحبه .. إن هذه النظرة تحوى أشياء .

(أ) إنها تحوى المحبة التى تدعوه .. إنه لم يكرهه .. لقد أحبه محبة عظيمة ، وهذه المحبة دفعته لأن يطلب منه ما طلب .

(ب) وكان فيها تحدى لمروءته .. إنها نظرة تدعوه لأن يترك حياته الناعمة الأنانية ليدخل إلى الحياة المسيحية الجريئة .

(ج) إنها نظرة الحزن ، وهو حزن أصيل قارس ، لأنه حزن الرجل الذى رأى إنساناً اختار بمحض إرادته طريق الرفض ، عمل ما لا يحل عمله ورفض ما لا يحل رفضه .

وهكذا ينظر إلينا يسوع ، إنها نظرة المحبة الداعية والمتحدية لمرؤتنا والحزن على رفضنا اذا رفضنا لا سمح الله ..

خطورة الغنى

(مرقس ١٠ : ٢٣ ــ ٢٧)

رفض الشاب الغنى دعوة يسوع ومضى حزيناً ، ولابد أن عينى يسوع وعيون الجمع الواقف معه تتبعت هذا المسكين إلى أن غاب عن الأنظار ، وهنا يلتفت يسوع إلى من حوله ويقول « ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت السموات » ولقد استخدم كلمة كرنيماتا Krcmata التى يعرفها أرسطاطوليس بأنها « كل الأشياء تقاس قيمتها بالأموال » . ولقد ذهل التلاميذ عندما سمعوا قول يسوع هذا ولا ندهش نحن من انذهالهم لأن قول يسوع قلب كل المعايير اليهودية رأسا على عقب . فقد كان اليهود يعتقدون أن الغنى هو علامة من علامات رضا الله على الغنى ، ولولا أن الإنسان صالح لما رضى الله عنه وأعطاه المال الوفير ، وهذا ما يؤيده قول المزامير : « كنت فتى وقد شخت ولم أر باراً تخلى عنه ولا ذريته تلتمس خبزاً » (مزامير ٣٧ : ٢٥) . ولابد أنهم حاولوا أن يناقشوا يسوع فى هذا القول ، لأن الرجل الغني هو الرجل الذى يدخل ملكوت الله بسهولة

تامة . ولكن يسوع يكرر قوله مرة أخرى بطريقة أكثر وضوحاً « ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله » . ولم يكن هناك من استطاع أن يرى خطورة الغنى والنجاح أكثر من يسوع ، فما هى هذه الأخطار ؟

١ ــ إن الثروة تشجع الإنسان على التمسك بهذا العالم ، فلديه ما يربطه به ، لديه ما يهتم به حتى أنه من الصعب عليه أن يتركه أو ينساه . وعندما رأى أحدهم إحدى القلاع وما تحويه من الغنى قال « هنا أشياء تجعل التفكير فى الموت صعباً جداً » إنها ثبتت أنظار الإنسان على هذه الدنيا .

٢ ــ وإذا تمسك بالعالم جعلته يفكر فى كل شيء بلغة المال لا بلغة القيمة الحقيقية . كتبت زوجة أحد الرعاة خطاباً إلى إحدى الصحف تقول فيه : لقد ولد أبناؤها فى الجبال وشبوا وترعرعوا فى بساطة ومحبة وإخلاص . ولكن يوماً ما وجد أبوهم عملا فى المدينة ، وسكنت الأسرة كلها فى المدينة ، وبدأ الأولاد يحسون بحياة المدينة وينجرفون إليها وتغيروا من بساطتهم وإخلاصهم إلى مستوى منحط من الأخلاق ، وهنا تصرخ الزوجة فى خطابها « أيهما أفضل أن يحيا الإنسان فى الجبال وهو يتحلى بالإخلاص والبساطة أم يعيش فى وسط هذه المدينة فيقيس كل شيء بالمال ؟ » . نعم إن المتمسك بالعالم يظن أن كل شيء يمكن أن يشترى بالمال ، إن كل قيمة لا تثمن إلا بالمال وينسى أن هناك قيما لا يستطيع المال مهما كثر أن يشتريها . إنه من المحزن أن يفكر الإنسان فى أن يشترى كل شيء بماله .

٣ ــ إن مغزى كلام يسوع أن امتلاك الأموال هو أمران :

(أ) أنه اختبار شاق للإنسان : فقد يجوز مائة رجل فى اختبار الفقر وينجحون ولكن القليل جداً من يثبت فى تجربة الغنى ، فالغنى كثيراً ما يخلق من صاحبه رجلا متعجرفاً متكبراً مستبداً . إن الرجل الحقيقى هو الذى يثبت فى تجربة الغنى .

(ب) إنه مسئولية : فالإنسان يقاس بأمرين : كيف جمع أمواله وكيف ينفقه ، وبكثرة ما حصل بكثرة ما تقع من مسئولية عليه ، فهل يستخدمه إستخداماً أنانياً أم استخداماً كريماً ؟ أيستخدمه كأنه ملكه لوحده أم كأنه وكيل عن الله ؟

وحالا ظن التلاميذ من كلام يسوع أن الخلاص مستحيل على الجميع إذن . ولكن رد عليهم يسوع « عند الناس غير مستطاع ولكن ليس عند الله ، « لأن كل شيء مستطاع عند الله » . الرجل الذى يتكل على ماله لا يستطيع أن يخلص أما الذى يثق فى قوة الله المخلصة ينال الخلاص . هذا فكر يسوع وبولس وهو الفكر الأساسى فى كل الإيمان المسيحى .

المسيح ليس مديناً لأحد

(مرقس ١٠ : ٢٨ ــ ٣١)

بدأ عقل بطرس يعمل ، وبدأ لسانه يسرع فيعبر عما يعتمل فى قلبه وعقله . لقد رأى الشاب

يرفض دعوة يسوع « اتبعنى » ولقد سمع يسوع يعلن أن المسكين لم يقدر أن يدخل ملكوت السموات ، وهنا بدأ يذكر تلك الدعوة التى وجهت له هو وزملاؤه التلاميذ ، ثم يذكر كيف تركوا كل شيء وقاموا ليتبعوه ، فماذا سيكون لهم نتيجة لذلك ؟ ولقد جاوبه يسوع ، وإجابته تقع فى ثلاثة أقسام :

١ ــ قال يسوع إن أحداً لا يعطى شيئاً للملكوت الله إلا ويأخذ مائة ضعف . ولقد حدث ذلك فعلا فى أيام الكنيسة الأولى ، فقد حدث كثيراً أن اعتنق أحدهم العقيدة المسيحية فما كان من أسرته إلا أن طردته من بيتها ، فخرج من المنزل والأسرة ، لا ليتشرد ، بل ليجد مئات البيوت تفتح له ومئات الأسر تستقبله ؛ وأبرز مثال على ذلك هو بولس نفسه ، فعندما أغلق فى وجهه منزل أسرته ذهب إلى أسرته المسيحية الكبرى لا فى أنطاكية فقط بل فى دمشق وأورشليم .. فى أوربا وأسيا الصغرى ، فى فلسطين واليونان فى كل مكان وجد البيوت والأسر المسيحية . إنه يقول عن أم روفس إنها أمه (رومية ١٦ : ١٣) وعن أنسيموس إنه ابنه (فليمون ١٥) . إن أسرته الجسدية رفضته فاحتوته أسرته فى المسيح . بينما كان أحد المرسلين يخدم فى وسط الهنود الحمر الذين اتخذوا من الرعد والبرق آلهتهم ، إنذهلوا عندما سمعوه يصلى إلى الله الآب . وجاء إليه شيخ القبيلة وقال له « هل تقول إن الله أبوك » أجاب المرسل « نعم إنه أبى » وهل يمكن أن يكون « أبى أنا أيضاً ؟ » قال المرسل « إنه أبوك » فأجاب الشيخ وهو يمد يده إلى المرسل « إذن أنت أخى .. هات يدك » نعم إنه أخوه . قد يضحى إنسان بالربط الأسرية ولكنه يجد أسرة متسعة إتساع الأرض والسماء .

٢ ــ ولكن يسوع يضيف شيئين لذلك :

(أ) إنه أضاف أن هناك **اضطهاد** وبذلك قطع حبل التفكير المادى الذى يغرى السامعين بأن ينغمسوا فيه . إن المكافأة ليست مادية . وبذلك يظهر يسوع فى مجد أمانته لأنه لم يمنح الناس طريقاً سهلا . إن طريق المسيحية طريق صعب . ثم إنه لم يرش إنساناً بل تحدى الجميع ، إنه يقول لهم « نعم لقد وضعت لك المكافأة ولكن إن كنت تستحقها . إن كنت رجلاً مغامراً » .

(ب) أما الشيء الثانى الذى أضافه فهو فكرة العالم الآتى : إنه لم يعد مكافأة فى العالم الحاضر ، إنه لا يتاجر هنا . الله لا يملك فقط هذا العالم لكى يصفى حسابه مع الناس . إنه يملك العالم الآتى أيضاً .

٣ ــ ثم يضع تحذيرا « لأن كثيرين أولون سيكونون آخرين وآخرون أولين » إنه تحذير لبطرس الذى ربما أحس بالفخر وبأنه سينال المجازاة ولكن يسوع قال له « إن الحكم مع الله وقد يذهل العالم عندما يعرف الحكم الإلهى ، وقد يظن أحدهم أنه فى المقدمة ، فيجد نفسه فى آخر الصف . إنه تحذير من الكبرياء ، إن القرار النهائى فى يد الله الذى يعرف خفايا القلوب .

النهاية تقترب

(مرقس ١٠ : ٣٢ ــ ٣٤)

هذا وصف حي مؤثر لصورة حية قوية تخفي أعمق أسرار الطبيعة البشرية ، فحياة يسوع الآن تدخل المراحل الأخيرة ، لأنه ثبت وجهه نهائياً إلى أورشليم . ولقد كان مرقس قاطعاً فى تحديد إتجاهات المسيح وخدمته ، فبعد خدمته فى الجليل سار إلى الشمال إلى مقاطعة قيصرية فيلبس ، ثم الرحلة إلى الجنوب ثم قضاء بعض الوقت فى الجليل ، ثم الرحلة إلى اليهودية عن طريق عبر الأردن ثم تأتى الرحلة الأخيرة ، الطريق إلى أورشليم .

هذه الصورة تظهر شيئاً عند يسوع .

١ ــ **وحدته** : ساروا فى الطريق وكان يتقدمهم .. وحيداً .. وأحسوا بالخطر الداهم فارتبكوا واضطربوا و لم يستطيعوا أن يسألوه شيئاً . وكان على يسوع أن يقرر وحده فلو شارك التلاميذ فى هذا القرار لحاولوا جهدهم أن يثبطوا عزمه . وهناك بعض الأمور التى يجب أن يواجهها الإنسان لوحده .. وبعض الطرق التى يطرقها بنفسه ، ولكنه مع ذلك ليس وحيداً ، إنه يجد نفسه مع الله ، إن الله لا يتركه .

لا شيء أمامى .. لا شيء خلفى .. إنما هو الإيمان

ولو سقطت فى هذا الفضاء النهائى .. سأجد نفسى مثبتاً على صخرة .

كان يسوع وحيداً .. ولكنها وحدة وقوفه مع الآب وجهاً لوجه .

٢ ــ **شجاعته** : لقد ظهرت شجاعة يسوع المطلقة هنا . لقد ذكر مرقس أن يسوع أعلن ثلاث مرات عن المصير الذى يواجهه ، ولكن فى كل مرة كانت الصورة تقسو عن سابقتها ، ففى المرة الأولى كان إعلاناً بسيطاً (مرقس ٨ : ٣١) ، المرة الثانية أضاف الخيانة (٩ : ٣١) والمرة الأخيرة هنا أضاف الإهانة والبصق والاستهزاء . وكأنما أراد يسوع أن يكشف للتلاميذ رويداً رويداً عما ينتظره ولكنه مع ذلك كان شجاعا . والشجاعة فى حقيقتها نوعان : النوع الأول هو شجاعة رد الفعل . أى أن بعض الناس عندما يواجههم موقف عصيب فجأة ينقلب من شخص هادىء إلى شخص جبار ، إنه يصبح قويا يواجه كل المتاعب .. إنها شجاعة بنت ساعتها لم يفكر فيها الإنسان من قبل . ولكن هناك نوع آخر من الشجاعة وهى التى ترى المصير المحتوم من قبل أن يحدث ، وبذلك يعطى للشجاع فرصة للرجوع وعدم مواجهة الموقف ، ولكنه مع ذلك يواجه بقلب ثابت ذلك الموقف دون الهروب ، هذه هى الشجاعة النبيلة . إن المواجهة الثابتة الغير مضطربة أو مهتزة هى الشجاعة السامية حقاً ، ولو لم يكن هناك من مقياس أسمى لقلنا إن يسوع كان أشجع شجعان الأرض .

٣ ــ **شخصيته المحبوبة** : لقد أيقن التلاميذ أن يسوع فى طريقه إلى الموت لقد أعلن لهم ذلك ..

وفى الوقت نفسه كانوا يوقنون أنه هو المسيا الذى انتظروه طويلا ، ولكن وضع الاثنين جنباً إلى جنب أمام كل يهودى فلابد أنها تكون معادلة مبتورة لا تعنى شيئاً مهماً .. وهذا ما جعل التلاميذ يضطربون ، كيف يكون المسيا وكيف يموت ؟ ولكن مع ذلك فلم يستطيعوا أن يرجعوا إلى الوراء .. لقد أحبوه .. لقد رأوا فيه صديقهم الأكمل .. إن محبتهم الأصيلة تلك المحبة التى ثبتت رغم القلق والغموض الذى يكتنفهم ، هذه المحبة نحتاج إليها كلنا . إن شخصية يسوع شخصية طاغية محبوبة رغم ما يقابل فى حبها من عنت وقلق واضطهاد .

مطلب الطموح

(مرقس ١٠ : ٣٥ ــ ٤٠)

هذه القصة كاشفة تعلن عن بعض الأمور .

١ ــ إنها تعلن لنا شيئاً عن مرقس نفسه . هذه القصة كتبها متى فى إنجيله (متى ٢٠ : ٢٠ ــ ٢٣) .. ولكنه لم يذكر أن التلميذين هما اللذان سألا يسوع بل أن أمهما هى التى جاءت وسألت يسوع عن هذا المركز ويلوح أن متى رأى فى هذا المطلب شيئا لا يليق برسول أن يطلبه . لكن مرقس يذكر أن الطلب جاء من التلميذين نفسيهما ، إنه عرف أن التلاميذ لم يكونوا مجموعة من القديسين بل هم جماعة من الناس العاديين لهم عيوبهم ونقصاتهم فرسم هذه النقصات . عندما طلب كرمويل من مصور القصر أن يرسم صورة له ، رسمها بحيث أخفى عيوبا كانت فى وجهه ، ولما رآها كرمويل ردها قائلاً : « إرسمنى وارسم عيوب وجهى » . هكذا فعل مرقس ، لقد كان دقيقا فى رسم ملامح التلاميذ . إن يسوع كان يرافق جماعة عادية ولقد أظهر فيهم قوته الخلاقة .

أ ــ إنها تكشف لنا شيئاً عن يعقوب ويوحنا :

(١) إنها تكشف عن طموحهما .. لقد ظنا أن النصرة النهائية قاربت وأن يسوع سوف يتوج ملكا إذ هو المسيا المنتظر ، فأرادا أن يكونا الأوائل فى ملكوته . لا يكون ذلك لأنهما كانا دائماً من المجموعة المقربة ليسوع : بطرس ويعقوب ويوحنا ، وقد يكون لأنهما رأيا أنهما أرفع ــ اجتماعياً ــ من الباقين ، فأبوهم كان غنياً حتى أنه يستأجر آخرين ليعملوا معه . على العموم لقد كان قلبهما مملوءا بالطموح الدنيوى . أرادا أن يكونا الأوائل فى ملكوت الله .

(ب) وتكشف عن عدم فهمها ليسوع . إن المشكلة ليست فى أن هذا المطلب قدم ليسوع لكن المشكلة المحيرة هى الوقت الذى قدمت فيه . لقد أعلن يسوع مرة تلو المرة أنه ذاهب إلى الموت والاستهزاء والإهانة ، وكان إعلانه فى هذه المرة واضحاً قاطعاً ، ولكنهما لم يفهماه .. لم يعرفا فيه غير مسيا القوة والملك العالمى . ذهنهما كان مغلقاً عن كل فهم آخر .. لم يفتحه إلا الصليب نفسه .

(ج) ولكن رغم ما قيل ويقال عنهما فقد كانت هناك حقيقة لامعة فى حياتهما أظهرتها هذه

القصة . إنهما لا يزالان يؤمنان فى نصرة يسوع . لقد تبعاه كناصرى نجار خرج ليعلم الناس ، تبعاه وهما يشعران أن كل القيادة اليهودية المتعصبة قد وقفت ضده ، تبعاه وهو يعلن أنه سوف يذهب إلى أورشليم ليعذب ويموت . إنهما رغم ذلك لا زالا يؤمنان به وفيه . ومهما قلنا إنهما مخطئان فى تصورهما لكن تبقى حقيقة واحدة لامعة وهى إيمانهما فى يسوع وحبهما العميق له .

٢ ــ إنها تكشف عن مقياس العظمة فى نظر يسوع . يستخدم يسوع هنا إستعارتين من الحياة اليهودية : إستعارة الكأس وإستعارة المعمودية . أما مسألة الكأس فقد كان من عادة الملوك أن يعطوا ضيوفهم الكأس بأيديهم ، فأضحى الكأس رمزاً إلى الحياة والخبرة التى يعطيها الله للناس : كأسى ريا » (مزمور ٢٣ : ٥) تعنى السعادة التى يهبها الله للمرنم . وعندما يرى نصيب الأشرار القاسى يقول : « لأن فى يد الرب كأساً وخمرها مختمرة ... » (مزمور ٧٥ : ٨) وعندما يذكر إشعياء المصائب التى قاساها الشعب يستعير الكأس لذلك « شربت من يد الرب كأس غضبه » (إش ٥١ : ١٧) . فأضحى الكأس إستعارة للخبرة التى ينالها الإنسان من الرب . أما الاستعارة الثانية فهى المعمودية . والكلمة فى أصلها تعنى غطس وقد استخدمت فى تركيب معنى للمجهول بمعنى « يغطَّس » وهى تستعمل فى وصف حالة الإنسان الذى يغرق فى خبرة عارمة كأن نقول عن المسرف « إنه غرق فى الدين » وعن السكير إنه « غارق فى الشراب » وعن الحزين إنه « غارق فى حزنه » وعن الصبى فى الإمتحان إنه « غارق فى الأسئلة » وعن السفينة الغارقة إنها « غارقة تحت الأمواج » ، وهذا ما عبر عنه المرنم فى مزمور ٤٢ : ٧ « كل تياراتك ولججك طمت على » وفى مزمور ١٢٤ : ٤ « إذاً لجرفتنا المياه لعبر السيل على أنفسنا » فالإستعارة هنا لا صلة لها بالمعمودية فى معناها الخاص بل أنها تعنى شيئاً آخر ، فكأن يسوع يقول « هل تستطيعون أن تحتملوا مرارة التجربة التى أحتملها أنا ؟ هل تستطيعون أن تواجهوا التغطيس فى الكراهية والألم والموت كما أعطيت أنا أن أجوز فيها ؟ » لقد كان قصد يسوع أن يظهر لهذين التلميذين أنه بدون صليب لا يمكن أن ينالا الملكوت فالصليب هو المقياس الحقيقى للعظمة . ولقد جاز هذان التلميذان هذه المعمودية .. فقد قتل يعقوب (أعمال ١٢ : ٢) . وتعذب يوحنا فى أواخر حياته مع أنه لم يمت قتلا . لقد قبلا تحدى يسوع .

٣ ــ وأخيراً أخبرهم يسوع أن نهاية الأشياء كلها فى يد الله ، إن تقرير مصير كل إنسان من عمله هو ، ونلاحظ هنا أن يسوع لم يشأ أن يتعدى على عمل الآب بل كانت حياته خضوعاًمستمراًله . وأعلن أن إرادة الأب هى التى يجب أن تكون على الأرض كما فى السماء .

ثمن خلاص الإنسان

(مرقس ١٠ : ٤١ ــ ٤٥)

لقد أثار عمل يعقوب ويوحنا شعور الغضب بين بقية التلاميذ لأنهم ظنوا أنهما سيسرقان كل امتياز منهم وهبت بينهم المناقشة الحادة عن أيهم أعظم فى ملكوت السموات ، وكان الموقف خطيراً هدد بضياع كل ما عمله يسوع معهم لولا أنه اتخذ قراراً حاسماً . دعاهم إليه وأخذ يوضح لهم جليا معنى العظمة الحقيقية فى ملكوت السموات ، ومدى اختلافها عن المقاييس العالمية ، فالعالم

يقول : كم من الناس تحكم ؟ ما هو حجم الجيش الذى يخدمك ويلبى طلباتك ؟ فى كم من الرقاب تتحكم ؟ ولقد لخص جاليا الإمبراطور الرومانى ذلك بقوله : « إنه أصبح قادراً أن يعمل ما يريد فى أى إنسان آخر » . أما ملكوت الله فتتلخص العظمة فيه فى الخدمة ، فهى ليست تسخير الناس لخدمتك بل تسخير نفسك لخدمة الغير .. وشعارها ليس كم من الخدمة أحصل من الناس بل كم من الخدمة أؤدى لهم .

كثيراً ما نظن أن تفكير يسوع هذا ووصيته ما هما إلا مثل عليا لا يستطيع إنسان أن يحققها فى هذا العالم ، ولكن لو أمعنا النظر فى الحياة لعرفنا أن هذه سنة الحياة الحقيقية ، فبقدر ما يعطى الإنسان من خدمة بقدر ما يأخذ أجراً أدبيا منهم ، فالشركة التجارية التى تؤدى خدمات أكثر للناس هى الشركة الناجحة الرابحة ، والرئيس الذى يدير عملا ما قد يسهر طويلا فى الليل يؤدى خدمته وعمله بينما يترك مرؤوسيه عملهم قبل انقضاء النهار . إن كارثة الناس هى أنهم يريدون أن يربحوا أكثر ما يمكنهم بأقل عمل يعملون ، ولكن العالم سيتغير إلى أفضل وأعظم لو امتلأ الناس بالمحبة والتضحية والعمل للآخرين . وهذا ما يقوله كبلنج فى حديثه لابنه :

إذا فكرت فى كم أجر تتقاضى ، وكيف يطعمونك ويلبسونك .

ياابنى لا تذهب إلى البحر، فالبحر لا يحتاج إليك .

وإن بدأت تناقش كل أمر ، وتجادل الناس عن نفسك .

ياابنى لا تذهب إلى الأرض ، فالأرض تنجح بدونك .

وإذا بدأت تتباهى بما عملت وتتفاخر بقيمة مخترعاتك .

قد تزورك الملائكة ولكن العالم فى غنى عنك ياعزيزى .

إن العالم يحتاج إلى جماعة اتخذت من الخدمة مثلها العليا فحققت قول يسوع هذا . ولكى يريهم الطريق أعطاهم يسوع نفسه مثلا عندما قال « لأن ابن الإنسان لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » . لو أراد يسوع أن يكون أنانياً لحول تلك القوة الهائلة إلى خدمة ذاتية ، ولكنه جاء ليبذل نفسه فدية عن الكثيرين .

هذا القول السابق : يذل المسيح نفسه فدية عن كثيرين يعتبر من أمجد وأروع ما أعلنه المسيح إن كان هناك تفاضلا فى إعلاناته ، ولكن كثيراً ما شطح الناس بخيالهم لتصوير هذا العمل الكفارى العظيم ، فيقول أوريجانوس مثلا : إن البذل هذا لم يكن لله بل للشيطان ، فالمسيح أعطى نفسه للشيطان فأماته لكى يطلق البشر أحراراً ، ولكن الشيطان عندما أراد أن يتصرف فى المسيح أضاع قوته ونفسه » . ولما أحس جيروجورى النيسانى أن هذا التفسير مرعب لأنه يضع الشيطان نداً لله يساوم معه قال « إن الله جعل ابنه ضعيفاً بالتجسد وأحس الشيطان بذلك فأراد أن ينقض عليه ، ولكنه كان مخدوعاً فقد انغلب وكسرت شوكته » . وبعد ذلك بمائتى عام قال أحد اللاهوتيين ، إن الله أراد أن يصطاد الشيطان فجعل ناسوت المسيح طعماً ومن لاهوته صنارة ، فأراد الشيطان

أن يبتلع الطعم ولكن الصنارة أمسكت بلوثيان ــ الحية القديمة وقتلته ، هذه شطحات فى تفسير عمل المسيح الكفارى ، قد لا نستطيع أن نعرف مدى عمق ومجد عمل المسيح على الصليب .. هذا سر يفوق كل عقولنا البشرية المحدودة ، لكننا نعرف ونختبر فى حياتنا هذه الحقيقة ، إن يسوع لأجل خلاصنا وفدائنا بذل نفسه كفارة عنا وفتح الطريق لنا إلى الله .

معجزة على جانب الطريق

(مرقس ١٠ : ٤٦ ــ ٥٢)

قاربت مسيرة يسوع على الانتهاء فلم يبق له سوى خمسة عشر ميلا ليصل إلى أورشليم وكانت الطريق تخترق أريحا تلك البلدة الكبيرة ولابد ليسوع أن يمر فيها ، وكانت العادة اليهودية أنه عندما يذهب أحد المعلمين إلى أورشليم كان الناس يحيطون به ويستمعون إلى تعاليمه ومناقشاته ، ولهذا فقد التف حول يسوع الكثيرون . وهناك عادة أخرى وهى أن كل صبى يهودى يصل إلى سن الثانية عشر من عمره ويسكن فى دائرة قطرها خمسة عشر ميلا حول أورشليم لابد أن يعيد الفصح فى أورشليم ، ولكن هناك كثيرون لا يستطيعون أن يتمموا هذا الفرض فكل ما يعملون هو أن يذهبوا إلى الذاهبين إلى العيد ليشيعوهم فى طريقهم ، وبهذا أضافوا مئات أخرى حول يسوع ، وإلى جانب ذلك فقد كان يسكن أريحا عدد كبير من الكهنة واللاويين . لأن مجموع الكهنة الذين كانوا يخدمون فى الهيكل لم يكن يقل عن عشرين ألفا ، ومثل هذا العدد من اللاويين ، وبالطبع لم يخدموا دفعة واحدة ، بل انقسموا إلى ستة وعشرين نوبة يخدمون فيها بالتبادل ، ولابد أن كهنة أريحا واللاويين الساكنين فيها لم يكونوا قد ذهبوا بعد إلى العيد فلما سمعوا عن يسوع ، ذلك الجليلى الثائر ، ذهبوا لكى يروه بأعينهم . كل هذا جعل الجمع يتزاحم بشدة حول يسوع .

ولكن فجأة تنطلق صرخة هائلة من رجل أعمى اسمه برتيماوس عرف أن يسوع يمر فى هذه البوابة الشمالية ، إنه أراد أن ينتهز فرصة العمر فصار يصيح وينادى يسوع لكى يرحمه ، وحاول الذين يسمعون يسوع أن يسكتوه ، ولكنه لم يرد أن ينصت لأحدهم ، إنه يريد أن يهرب من عالمه المظلم ، وسمعه يسوع وأمر بأن يحضره إليه فجاء . وهنا نستطيع أن نلمس بعض الأشياء .

١ ــ نلاحظ الإلحاح الشديد الذى أظهره برتيماوس لمقابلة يسوع . إنه سمع عنه وأراد أن يقابله . إن الحاجة لم تكن نتيجة رغبة فى رؤيته فقط بل كانت نتيجة الحاجة الملحة ولأجل ذلك تمكن من أن يراه .

٢ ــ وكانت اجابته لطلب يسوع سريعة لدرجة أنه ألقى بردائه لأنه أحس أنه يعطله ، لقد أحس أنها الفرصة الوحيدة له فأراد أن يغتنمها بأى ثمن ولا يضيعها . وما أكثر ما نضيع فرصة يسوع لنا « انتظر حتى أنتهى من هذا العمل ، انتظر حتى أحسن نفسى قليلا .. حتى أعمل هذا أو ذاك .. ثم تضيع الفرص الذهبية .

٣ ــ كان بارتيماوس يعرف بالضبط ما يريد .. إنه يريد نظرة . مرات كثيرة نبدى اعجابنا

يسوع بطريقة غامضة سطحية .. إن أردت أن تأتى إلى يسوع تعال إليه محددا طلبك . إنك تذهب إلى الطبيب وأنت تعرف بالضبط موطن الألم وتشير له إليه ، وعندما تقدم إلى طبيب أسنان لا تسأله أن يخلع لك أية سنة ولكنك تشير إلى سنة معينة ليخلعها : هكذا تعال إلى يسوع وأنت تعرف ماذا تريد منه ، وهذا يتطلب منا فحص أنفسنا وامتحانها حتى نعرف ماذا نريد .

٤ ـــ لم يكن بارتيماوس يعرف يسوع معرفة تامة : كان يناديه « ابن داود » . هذا لقب المسيا ولكنه المسيا الغازى الجبار ، وهذا ما أراد يسوع أن يمحوه من عقل التلاميذ ولكن مع ذلك ورغم معرفته الخاطئة نال ما طلب لأن قلبه كان مملوءًا بالإيمان . وهذا ما نريد أن نفهمه نحن : إننا لا نستطيع أن نفهم يسوع . لا نستطيع أن نصل إلى عمق شخصيته وعمله .. ولكننا نستطيع أن نؤمن به وبذلك ننال . قال أحد الكتّاب « قد تطلب من الناس أن يفكروا ولكن ليس معنى ذلك يصيروا لاهوتيين قبل أن يكونوا مسيحيين » . إن الصلة الأولى هى صلة شخصية . علاقة إيمان ومحبة ليسوع .. إنها مناداة قلب محتاج ، وبذلك ننال .

٥ ـــ وعندما نال بارتيماوس طلبه ورجع له نظره لم يترك يسوع بل تبعه فى شكر عميق . جاء إليه أعمى ومحتاج ثم تبعه مفتوح العينين شاكراً ثم انتهى إلى اخلاص عميق ، وهذه هى طريق التلمذة ليسوع .

الأصحاح الحادى عشر

مجىء الملك

(مرقس ١١ : ١ — ٦)

هنا نجىء إلى المرحلة الأخيرة من هذه الرحلة ، فبعد أريحا جاءت أورشليم وها هى تظهر للرائى ، وهنا يجب أن نلاحظ شيئا مهما بدونه لا نستطيع أن نفهم القصة : ففى الأناجيل الثلاثة الأول لا نعرف غير زيارة واحدة إلى أورشليم ، بينما نلاحظ أن إنجيل يوحنا يذكر ثلاث زيارات (يوحنا ٢ : ١٣ ، ٥ : ١ ، ٧ : ١٠) ، والقارىء السطحى يحس أن هناك تناقضا بين الروايتين ، ولكن لدى التأمل العميق يزول كل تناقض . فمع أن الأناجيل الثلاثة الأولى كانت قصيرة فحاولت أن تذكر الوقائع المهمة فى رسالة يسوع والتى اعتبروها ضرورية للتبشير ، إلا أنها لا تنفى الزيارات المتكررة ليسوع إلى أورشليم كما يظن الكثيرون . فهناك تلميحات كثيرة تدل على أنه زارها كثيرا قبل ذلك . فصداقته مع اليعازر ومريم ومرثا فى بيت عنيا لم تتولد فى الحال بل إنها كانت سابقة على هذه الزيارة الأخيرة .. وكذلك يوسف الرامى تلميذ يسوع المتخفى لابد أنه رأى يسوع مرارا فى أورشليم ، وفوق ذلك فإعلان يسوع المثبت فى (متى ٢٣ : ٣٧) الذى فيه قال إنه أراد أن يجمع أورشليم كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها يثبت تماما أن يسوع حاول مرات أن يكسب أورشليم إلى تعاليمه ولكنها رفضت . فيسوع لابد أنه زار أورشليم مراراً ، ولابد أنه كان يفكر فى هذا الدخول الانتصارى ، ولابد أنه دبر له ، وهذا هو السبب الذى لأجله نجد صاحب الأتان يترك أتانه للتلاميذ عندما سمع أن الرب محتاج إليه .. إن يسوع لم يخضع للظروف أو يبنى قراراته بمحض الصدفة .. إنه رجل مفكر يدبر كل أمر .

أما بيت فاجى فمعناها بيت التين فقد كانت من أعمال أورشليم لا تبعد عنها سوى ميل واحد ، وقد كانت الحد الأقصى الذى لا يستطيع أى يهودى أن يتخطاه يوم السبت مشيا ، أما بيت عنيا فمعناها بيت البلح فقد كانت القرية التى يسكنها كثير من الآتين إلى العيد .

لقد كانت من عادة أنبياء اسرائيل أن يعلنوا كلمة الرب بطرق خاصة ، فعندما يرون أن الناس قد سدت آذانها يقومون بعمل درامى يجبر الناس على الإصغاء (١ ملوك ١١ : ٣٠ — ٣٢) ، إنها عظة عملية ، هذا ما قصده يسوع فى دخوله الانتصارى ، إنه أراد أن يقوم بهذا العمل ليعلن للشعب أنه المسيا .. ولكنه مسيا السلام . ففى زكريا جاءت النبوة « افرحى جدا ياابنة صهيون .. نادى ياابنة أورشليم ، هوذا ملكك عادل ومخلص ... » (زكريا ٩ : ٩ ..) إن ركوب المسيا على حمار كان علامة السلام . فقد كان الحمار حيوانا نبيلا فى تلك الأيام ولم يكن محتقرا كما نحتقره اليوم ، وقد كان الملوك يركبون الخيول فى الحرب ولكنهم فى أوقات السلام كانوا يركبون الحمير . ولهذا السبب جاء يسوع إلى أورشليم راكبا على هذا الحمار .. إنه جاء ليعلن أنه رجل السلام وملك المحبة .

ولكن الناس قابلوه بلقب ابن داود الذى وصفته مزامير سليمان بقولها « أنظر أيها الرب يقام لهم ملكهم ابن داود ، فى الوقت الذى تراه لكى يملك على اسرائيل عبدك ، ومنطقه بالقوة حتى يسحق رؤساء الظلم ، ويخلص اسرائيل من الأعداء الذين يدوسونها إنه بالحكمة سيطرد الخطاة من الميراث وسيسحقهم كما يسحق الفخارى آنية . بقضيب من حديد سيحطمهم ، ويزيل الأمم الشريرة بكلمة فمه وتهرب الأمم من زجره ، ويوبخ الخطاة على فكر قلوبهم . ستخافه الأمم قدامه لأنه سيضرب الأرض بكلمة فمه إلى الأبد » (مزامير سليمان ١٧ : ٢١ — ٢٥ و ٣٩) هذا هو الملك الذى كان الناس ينتظرونه ، وعرف يسوع ذلك ، ولهذا فقد جاء إليهم وديعاً ومتواضعاً ومعلناً أنه ملك السلام .. إنه ناقض كل تصوراتهم .

الآتى

(مرقس ١١ : ٧ — ١٠)

كان الأتان بكرا لم يركب عليه أحد ، وهكذا كان كل حيوان يستعمل لغرض مقدس (عدد ١٩ : ٢ ، تثنية ٢١ : ٣)

وهذه الصورة التى يذكرها الإنجيل فى دخول المسيح تعطى فكرة عن انتظارات اليهود وكيف كانوا متأهلين لاستقبال المسيا . بل إن نفس هذا الاستقبال حدث من قبل مائة وخمسين سنة . عندما استقبل اليهود سمعان المكابى بعد أن هزم السوريين « ولقد دخل فى الثالث والعشرين من الشهر السابع فى السنة المائة والحادية والسبعين بالشكر وسعف النخيل والناى والقيثار والدفوف والأغانى لأنه قد سحق أعداء اسرائيل (مكابيين ١٣ : ٥١) . لقد استقبلوا المسيح كذلك استقبال الفاتحين الغزاة لأنهم كانوا يريدون هذا المسيا .

وحتى الهتاف وإلقاء ثيابهم على الأرض قد فعلوه عندما مسح ياهو الرجل الدموى ملكا (٢ مل ٩ : ١٣) . وقد استعاروا مزمور ١١٨ : ٢٦ « مبارك الآتى باسم الرب » فى هتافهم وفى هذا الهتاف نجد ثلاثة أشياء .

(١) إنه الهتاف الذى يستقبل به الحجاج أيام الأعياد فى أورشليم .

(ب) « الآتى » هو لقب من ألقاب المسيا عرفه به اليهود هكذا .

(ج) ويجدر أن نذكر هنا المناسبة السابقة التى قيل فيها المزمور (١١٨) الذى اقتبست منه هذا الهتاف . ففى ١٦٧ ق . م حاول انطوخيوس ابيفانس أن يزيل كل معالم اليهودية ليبقى السيطرة للثقافة اليونانية ، فاعتبر الختان وإحراز نسخة من الناموس جريمة تؤدى للموت ، نجس أروقة الهيكل حيث أقام عبادة زيوس فيه ، قدم الخنازير ذبائح على المذبح ، حول كثيرا من الأروقة إلى أمكنة دعارة .. هذا أثار يهوذا المكابى فبدأ يحارب حتى انتصر بعد معارك وحشية سنة ١٦٣ ق . م ، وهناك فى أورشليم جددوا العبادة فى الهيكل وتغنى الناس بهذا المزمور (١١٨) وبدأ من عيد التجديد .

لقد أراد يسوع أن يدخل إلى أورشليم مسيا المحبة والسلام لكنهم أرادوا أن يحولوا الموكب إلى موكب مسيا الحرب والغزو .

أما كلمة « أوصنا » فهي ليست كما نفهمها كلمة الحمد والتسبيح ، بل هي الكلمة التي يهتف بها الناس أمام الفاتح ومعناها « خلص الآن » (٢ صموئيل ١٤ : ٤ ، ٢ ملوك ٦ : ٢٦) إنها مناداة إلى الله أن يتدخل بسرعة ويرسل المسيا ليحطم الأعداء .

وهنا ظهرت شجاعة يسوع العظيمة لو كان هناك شخص آخر لدخل أورشليم فى هدوء وتخفى مبتعدا عن الرؤساء ، الذين أرادوا أن يقتلوه . لقد جاء إليهم وأخبرهم أن كل ما يتمسكون به خاطىء ، لقد كان كمن يريد أن يجتث عقيدتهم من أساسها ، لكنه لم يفعل ذلك كشخص محارب غاز ، ولكنه بالمحبة والحنان أراد أن يدعوهم إلى طريق أفضل .. ما أشجع المحبة المضحية .

الهدوء الذى يسبق العاصفة

(مرقس ١١ : ١١)

هذا العدد يظهر لنا صفتين خاصتين بيسوع :

١ — إنها ترينا يسوع يعد عدته للمعركة النهائية .. لقد كان يسوع رجلا نظاميا يدرس كل شيء ويقرر كل شيء وعيناه مفتوحتان على النتائج .. إنه فعل هنا كما يفعل القائد الذى يجمع كل معلوماته ويستعد لإعطاء الأمر للمعركة الفاصلة .

٢ — إنها ترينا المكان الذى استمد منه قوته : فقبل أن يذهب إلى المعركة ذهب إلى بيت عنيا . إلى الخلوة مع أبيه السماوى .. ولأنه كان دائم المواجهة مع الله تمكن من أن يواجه الإنسان بشجاعة نادرة .

وهنا نرى شيئا خاصا بالتلاميذ . لقد كانوا معه ، وكانوا يظنون أن يسوع إنما يواجه التحدى بروح انتحارية . وفى مرات كثيرة نلومهم على جبنهم وتركهم إياه فى معركته النهائية ، ولكن لنذكر أنهم رغم عدم معرفتهم الواسعة بما يحدث استمروا ملازمين إياه .

التينة الغير مثمرة

(مرقس ١١ : ١٢ — ١٤ و ٢٠ و ٢١)

هذه القصة تأتى على شطرين ولكننا سندرسها ككل . فقد حدث الشطر الأول منها فى صباح أحد الأيام ثم حدث الشطر الثانى فى صباح اليوم الثانى وبين الاثنين حدثت حادثة تطهير الهيكل من البائعين والمشترين .

وتعد القصة أصعب وأعقد قصة فى هذا الإنجيل ، ولقد ثارت ضدها اعتراضات كثيرة نجملها

فى اثنين .

١ ـــ قال بعضهم إن القصة تظهر كأنها ليست صحيحة وليست من مقام يسوع حتى يقوم بها ، ومع أنها قد تنسب إلى بعض صانعى المعجزات لكنها لا تليق بيسوع لسبب بسيط وهو أن يسوع فى كل خدمته رفض رفضاً باتاً أن يستخدم قوته فى خدمة ذاته ونفسه ، فلم يرض أن يحيل الحجارة إلى خبز ليشبع جوعه ، ولم يرد أن يهرب من أعدائه مع أنه كان يستطيع ذلك ، فكيف إذن يستخدمها الآن فى قتل شجرة لم يجد فيها تينا ليأكله .

٢ ـــ قال آخرون إنه من غير المعقول أن يطلب يسوع ثمراً من الشجرة فى ذلك الوقت بالذات ، فكان لابد أن ينتظر إلى أواخر مايو حتى تثمر ولكنه لعنها فى منتصف أبريل ، فلو فعل يسوع ذلك لكان ذلك ظلماً . ولقد رد بعضهم على ذلك بالقول إن يسوع كان يطلب شيئاً أخضر . ولكن هذا القول غير معقول أيضاً ، لأن التين الأخضر ردىء لا يستطيع أحد أن يأكله .

ولكننا نحن نعتقد أن يسوع فعل ذلك لسبب أعمق من عدم وجود تين فى الشجرة ، إنه فعل ذلك كعمل رمزى .. مثل عملى كما فعل الأنبياء قديماً ، ويمكن أن نفسر هذا المعنى بأحد أمرين :

١ ـــ إنها دينونة من يعد ولا ينفذ . فالشجرة كانت تعد بالثمر ولكنها لم تثمر وفى هذا تشبه أمة إسرائيل . فكل تاريخها كان انتظاراً لمجىء المسيا ، وعندما يجىء سوف يستقبلونه بكل بهجة ويقبلونه ملكا عليهم ، ولكنه عندما جاء رفضوه ولم يتمموا ما كان ينتظره الجميع منهم مثلهم فى ذلك مثل رجل قيل عنه وهو صغير « إنه سيصبح شيئا كبيراً » ، ولما كبر ولم يصبح ما انتظره الناس قال « يمكنه أن يصبح شيئاً لو أراد » ، ولما كبر ولم يصبح شيئاً قال الناس « كان يمكن أن يصبح لو كان يريد » هذه هى إسرائيل ، لقد كانت انتظارات الناس فيها عظيمة ولكنها خيبت كل انتظار .. فاستحقت اللعنة .

٢ ـــ إنها دينونة الاحتراف بدون عمل : إن عمل الشجرة هو الإثمار ولكنها لم تثمر والعهد الجديد دائما يعلن أن الثمر هو العلامة المميزة للحياة الحقيقية : « من ثمارهم تعرفونهم » (متى ٧ : ١٦) « اصنعوا أثماراً تليق بالتوبة » (لوقا ٧ : ٨) « ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات بل من يفعل إرادة أبى » (متى ٧ : ٢١) فما لم تعمل الديانة على خلق الإنسان خلقا جديداً وتجعل حياته وحياة الآخرين أكثر سماحة ومحبة واستقامة فلن تكون ديانة حقيقية بل هى ديانة احتراف .

ومع ذلك فإننا نعتقد أن القصة فى غاية الصعوبة .

غضب يسوع

(مرقس ١١ : ١٥ ـــ ١٩)

نستطيع أن نفهم هذه القصة جيداً لو رسمنا صورة واضحة لأقسام الهيكل . والكتاب المقدس

يستخدم كلمتين يونانيتين يترجمان إلى « هيكل » . الأولى « هيرون » hieron وتعنى كل المنطقة التى يقع فيها الهيكل . وكانت هذه المنطقة تغطى قمة جبل صهيون وهى حوالى ٣٥٠ فدانا . أما الكلمة الثانية فاسمها « ناؤوس » nāos وهى مبانى الهيكل المقدسة وكانت منطقة الهيكل تحاط بسور ضخم يتراوح طول ضلعه ما بين ١٠٠٠ ، ١٣٠٠ قدم ، تضم داخلها أروقة كثيرة غير مبانى الهيكل . كان الرواق الأول من داخل هذا السور هو رواق الأمم . وكان يسمح للأمم أن يدخلوا فيه وفى نهايته أقاموا سوراً منخفضاً مكتوباً عليه نواهى عديدة لمنع الأمم من أن يتعدوه إلى الداخل وإلا فعقاب من يدخله الموت . وفى داخل هذا السور المنخفض كان هناك رواق آخر اسمه رواق النساء أو الحريم وفيه تجتمع النساء ولا تتعداه المرأة ما لم تكن قد حضرت لتقديم الذبائح . ومن داخل رواق الحريم كان هناك رواق ثالث اسمه رواق الإسرائيليين الذى يجتمع فيه الشعب فى الأعياد والمناسبات الضخمة ، وفيه يعطى الشعب الذبائح للكهنة . أما الرواق الداخلى فهو رواق الكهنة . هنا فى رواق الكهنة يبنى الهيكل وهو أقدس مكان فى المنطقة كلها وهو ما سبقت الإشارة إليه باسم ناؤوس .

أما المكان الذى حدثت فيه هذه الحادثة فكان رواق الأمم أى الجزء الخارجى من منطقة الهيكل ، وقد كان المقصود منه قبلا أن يكون محل استعداد للصلاة ولكنه أيام يسوع حول إلى أغراض عالمية حيث أخذوا يبيعون ويشترون فيه . وزاد الطين بلة أن هذا البيع لم يكن إلا نهبا وسلبا للمعيدين ، وكان النهب يسير بطريقتين :

الأولى عندما يدفع اليهودى ضريبة الهيكل . فقد كانت لا تدفع إلا بشاقل القدس ، وكان على كل فرد يهودى يقيد أن يدفع هذ الضريبة كل سنة ، وهى ما تساوى عشرة قروش ، وهى مبلغ كبير إذا ذكرنا أن أجر العامل اليومى فى ذلك الوقت لم يكن يتعدى القرشين يومياً . وبالطبع كان المعيدون يحملون أموالاً غريبة من جهات متعددة من العالم ، وكان عليهم أن يستبدلوها بعملة مقدسة ليدفعوها ؛ فكان الصيارفة يفعلون ذلك لهم فى مقابل قرشين لكل ضريبة ، وإن زاد المبلغ فيدفع قرشين آخرين ، بمعنى أن كل معيد ينبغى له أن يدفع أربعة قروش . أى أجر يومين لعامل مسكين .

أما الطريقة الثانية فكانت أكثر بشاعة وهى تكمن فى بيع الحمام . فقد كان الحمام يدخل فى بند الذبائح وكان على المعيدين أن يشتروا زوج الحمام من داخل منطقة الهيكل حتى يضمنوا لياقة الذبيحة لأنهم كانوا يعتبرون أية حمامة تأتى من الخارج مهما كانت ، أنها غير لائقة ولذلك اضطر الجميع أن يشتروا من حمام الهيكل ، وهنا يحدث الاستغلال البشع . فزوج الحمام الذى كان يمكن أن يشترى بعشرة قروش من خارج الهيكل كانوا يبيعونه فى الهيكل بمبلغ جنيه أى أنهم يضيفون على الثمن الحقيقى حوالى عشرة أضعافه وقد يزيد أحياناً ، حتى أن بعض معلمى اليهود الكبار ثاروا على هذا الوضع ، ولكنها كانت فريضة رؤساء الكهنة . ولا عجب فقد كانت المشادات والمشاحنات والمساومات الحامية تملأ منطقة الهيكل ، ورأى يسوع فى كل هذه العملية شيئاً لا يليق .

وكان هناك شيء آخر أثار يسوع وجعله يتخذ عملاً حاسماً يذكره عدد ١٦ إذ يقول إنه منع أى إنسان أن يعبر الهيكل بمتاع . وذلك أن من قوانين الهيكل أن كل من يمر فى منطقة الهيكل

كان عليه ألا يحمل عصاً أو مزوداً أو حذاءًا ، وكان لهذا القانون قصده ، إذ قدس هذه المنطقة وجعل الناس لا يأتونها إلا للصلاة ، ولكن اليهود كسروا هذا القانون وداسوا هذه المنطقة المقدسة ، ولهذا ثار يسوع عليهم ، لا لأنه كان يخضع لهذا القانون ، بل لكى يوبخهم على ريائهم وجشعهم فأظهر لهم أنهم فى سبيل ربح قبيح يكسرون قوانين وشرائع هيكلهم ، مبرهناً لهم ذلك من نفس الكتب المقدسة (إشعياء ٥٦ : ٧ ، إرميا ٧ : ١١) .

ويمكن أن نقول إن غضب يسوع اشتعل لهذه الأسباب .

١ ــ للاستغلال البشع الذى وقع على المعيدين ، فسلطات الهيكل لم تعامل المعيدين لا كجماعة جاءت للصلاة ولا حتى كآدميين بل كأشياء يستخدمونها لأغراضهم الذاتية . إن استغلال الإنسان لأخيه الإنسان يثير غضب الله وخصوصاً إذا اتخذ الدين ستاراً له .

٢ ــ لأن الناس دنسوا مكان الله المقدس فاتخذوا منه مكاناً للتجارة الجشعة ، لقد حولوه إلى انتهازية بشعة .

٣ ــ وكان غضب يسوع أعمق فى أنه يقتبس إشعياء ٥٦ : ٧ حيث يريهم أن بيت الصلاة هو لجميع الشعوب بينما أوقفه اليهود لأغراضهم وحرموا الأممى من دخوله وإلا لكان عقابه الموت . إنهم كسروا وانتهكوا قصد الله السامى .

قواعد الصلاة

(مرقس ١١ : ٢٢ ــ ٢٦)

هناك بعض الأقوال يذكرها مرقس فى ثنايا هذا الأصحاح ، وإن كان متى ولوقا يذكرانها فى أمكنة أخرى ، فمثلا يذكر متى كلام يسوع عن الإيمان فى مناسبة تختلف عن هذه المناسبة التى يذكرها مرقس (متى ١٧ : ٢٠) ، وهكذا يفعل لوقا (لو ١٧ : ١٦) ، والسبب فى ذلك هو أن يسوع كان يكرر إعلاناته فى مناسبات مختلفة حيثما دعت الحاجة إليها . هذه الأعداد التى أمامنا تضع لنا ثلاثة قواعد للصلاة :

١ ــ الصلاة يجب أن تكون **صلاة إيمان** : كانت عبارة **ينقل الجبال** عبارة مألوفة لكل يهودى وخاصة للمعلم الحكيم ، فالجبال كانت استعارة للصعاب وخصوصاً الصعاب العقلية ، فالمعلم الحكيم الذى يستطيع أن يتغلب على مشكلات التلاميذ العقلية هو معلم يستطيع أن ينقل الجبال . وهكذا يذكر يسوع التلاميذ أن جبال الصعاب والمشكلات لا يمكن حلها وإزالتها إلا بالصلاة . قد يكون هذا التصريح بسيطا ولكنه يعنى مبدأين فى غاية الأهمية والصعوبة :

الأول هو أن نحمل كل مشكلاتنا إلى الله ، وهذا الأمر فى غاية الصعوبة على أنفسنا فمشكلاتنا تكمن بالأكثر فى أننا نرغب أن نقتنى ما لا يجب أن نفكر فيه ونرفض ما يجب أن نقتنيه ، وأن نعمل ما لا ينبغى عمله ونحجم عن الواجب ، وأن نفكر فى المحرمات ونحرم ما يجب أن نركز فيه

عقولنا ، ولهذا فخير امتحان للمشكلات هو « هل أستطيع أن أحملها إلى الله فى الصلاة » ؟

أما الثانى فهو استعدادنا لأن نخضع لإرشاد الله فى أعمالنا . ففى معظم الأحيان نأتى إلى الله طالبين الإرشاد ونحن لا نقصد منه سوى الموافقة على رغباتنا . ولكن لنكن متواضعين ومتشجعين أن نأتى إلى إلهنا مستعدين أن نخضع لإرشاده ، لأنه لا فائدة من مجيئنا إليه بطلب الإرشاد فى أمر قد قررنا فيه قراراً حاسما قاطعاً لا رجعة فيه .

٢ ـــ الصلاة يجب أن تكون صلاة **انتظار وتوقع** : يجب أن تكون صلاة رجاء .. ومن المسلم به ، حتى فى الأمور اليومية ، أن ما ننتظره موقنين أننا سنحصل عليه ، يكون أسهل كثيراً مما لو قطعنا الرجاء فى حدوثه . فالمريض الذى يثق فى الطبيب الذى يعالجه تكون له فرصة للشفاء أكثر من المريض الذى لا يثق فى أى طبيب معالج . وهكذا الصلاة التى ترفع إلى الله فى رجاء وتوقع حقيقى . فعندما نصلى يجب ألا نصلى لأنه فرضت علينا الصلاة بل لأننا نطلب من أبينا شيئاً نريده . قال أحدهم « لقد صليت فى حياتى كثيراً ، وفى كل مرة أجثو فيها للصلاة أحاول أن أقنع نفسى بأن الله قد استجاب بعضاً من صلاتى فى الماضى . ولكن فى قرارة نفسى أعتقد أن رغباتى تقضى لى متأخرة .

٣ ـــ يجب أن تكون صلاة **محبة** : فالرجل المملوء بالبغضاء لا يستطيع أن يصلى ، ولا يمكن أن تستجاب صلاته ، والسبب لذلك بسيط : فإنه يظن أنه يصلى إلى الله فى الوقت الذى لا تربطه بالله أية علاقة . إن العلاقة التى تربط اثنين معاً هى الطبيعة والميول المشتركة أو الهدف المشترك ، فأين إذن العلاقة بين هذا الرجل المملوء بالبغضاء والله الذى هو محبة ؟ إن الكراهية قد حجبت هذا الرجل عن الله . ولكن إن أراد هذا الرجل أن يصلى صلاة مستجابة فليركع أولا أمام الله بكل تواضع وخضوع ويطلب منه أن يطهر قلبه من هذه البغضاء للناس ويطهره من كل مرارة ويملأه بالمحبة ، وعندئذ فقط يستطيع أن يتكلم مع الله ويعرف أن الله يسمع صلاته ويستجيبها له بحسب كرمه الفائق .

سؤال مكير وجواب قاطع

(مرقس ١١ : ٢٧ ـــ ٣٣)

على جانبى دار الأمم من الجنوب والشرق كان فى الهيكل رواقان الشرق اسمه رواق سليمان ، وهو عبارة عن « بواكى » مبنية على أعمدة كورنثية طولها ٣٥ قدم . أما الجنوبى فكان يدعى الرواق الملكى وهو أكثر ضخامة وروعة ، وهو مكون من أربعة صفوف من الأعمدة الرخامية ، محيط كل عمود ستة أقدام وطوله ٣٠ قدما ، ومجموعها ١٦٢ عمودا . وكان من عادة معلمى اليهود أن يجلسوا تحت هذه الأعمدة فيجتمع من حولهم طلبتهم ومحبى علمهم ويسمعون منهم ، ولم تكن هذه عادة اليهود فقط : بل كانت منتشرة أيضا فى بلاد اليونان ، ولعل أوضح مثل لهذه العادة هى مدرسة الرواقيين ، فلقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى المكان الذى كانوا يتلقون العلم فيه .

كان يسوع يقف فى ذلك المكان حين جاء إليه جماعة من الكهنة والشيوخ والكتبة مرسلة من قبل السنهدريم ، لكى يتساءلوا عن السلطة التى استند عليها شخص مثله فى طرد هذه الجماعة ، كان التساؤل طبيعيا ولكنه كان مكيراً ؛ فلو أجاب أنه استمد سلطانه من شخصيته لقبضوا عليه كشخص معتوه لأنه خلق هذه الضجة الكبرى ويخشى أن يفعل أكثر من ذلك . ولو أجاب أن سلطانه جاء من الله مباشرة لقبضوا عليه كشخص مجدف ، لأن الله لا يرضى بخلق هذه الضجة ، وفهم يسوع قصدهم الخبيث وأراد أن يجاوبهم ولكن بأن يوقفهم أمام الحق فيعرفوا أنفسهم وخبثها . ولهذا أجابهم بقوله « أستطيع أن أجيبكم لو أنكم أجبتم على سؤالى : هل كانت معمودية يوحنا من الله أو من الناس » . وفهموا هم ماذا قصد يسوع وعرفوا ضلالهم ، وقالوا فيما بينهم : لو أجبنا إنها كانت من الله فلابد أنه سيسألنا عن الدافع الذى دفعنا للوقوف ضده وعدم الإيمان بكرازته التى كانت تنصب على الإشارة إلى يسوع أنه هو المسيا ؛ ولو أجبنا بالنفى لهاج الشعب علينا لأن الشعب يعتبره نبيا شهيداً . ولهذا قالوا فى حيرة وضعف ، لا نعرف . وعندئذ قال يسوع « ولا أنا أقول لكم » . وبهذا الموقف كشفوا أنفسهم جماعة أضعف من أن يواجهوا الحق ، ومن يضعف عن مواجهته يظل يتذبذب ويعرج بين الفرقتين حتى يجد نفسه فى موقف الضعف والتخاذل . قد يعترف الإنسان الذى يواجه الحق بشجاعة بأنه مخطىء ، ولكن اعترافه هذا سيخلق له المركز السامى . فالخوف من مواجهة الحق هو أمر مخزى مخجل .

الأصحاح الثانى عشر

الرفض والجزاء

(مرقس ١٢ : ١ ــ ١٢)

ذكرنا فيما سبق ، عندما كنا نفسر بعض أمثال المسيح ، أن هذه الأمثال ينبغى ألا تفسر تفسيراً مجازيا ، لأنها قيلت أصلاً ، لا لتكتب بل لتسمع ، وفيها فكرة أساسية يفهمها السامع كما قصدها المسيح . لكننا أمام هذا المثل نجد أنفسنا أمام شيىء فيه بعض الاختلاف عن الأمثلة الأخرى ، ففيه يتضح أن يسوع لم يقصد فكرة واحدة فقط دون النظر إلى التفاصيل بل إنه قصد التفاصيل التى وضعها فيه .. ولذلك فنحن سنفسر المثل فى تفاصيله .

صاحب الكرم هو الله ، والكرم هو بيت إسرائيل وهذه صورة مألوفة فى العهد القديم (إشعياء ٥ : ١ ــ ٧) . هذا الكرم زود بكل ما يحتاج إليه حقل الكروم ففيه المعصرة التى تعصر العنب لتحيله إلى خمر ، وفيه البرج الذى يحفظون فيه المحصول ويحتمى فيه حراس الكرم .. لقد زود بكل شيء .

أما الكرامون فهم قادة الشعب فى كل أجيال هذه الأمة . والعبيد هم الأنبياء وغيرهم . فلقد لقب الأنبياء بالعبيد : كموسى وهرون وداود وكل الأنبياء (يشوع ١٤ : ٧ ، ٢٤ : ٩ ، ٢ صموئيل ٣ : ١٨ ، عاموس ٣ : ٧ ، إرميا ٧ : ٢٥ ، زكريا ١ : ٦) .

أما الابن فهو يسوع نفسه . ولابد أن غالبية السامعين كانوا يعرفون ماذا كان يقصد يسوع ، وعرفوا الشخصيات التى عناها .

أما القصة نفسها فلم تكن نادرة الحدوث فى فلسطين ، فقد كانت البلاد مملوءة بالاضطراب العمالى نظراً لغياب أصحاب الممتلكات خارجا عن البلاد ، وذلك إما لأنهم كانوا رومانيين يسكنون فى روما أو لأنهم كانوا فلسطينيين يطلبون الراحة والترف خارجها . وكانت الشريعة تسمح لصاحب الكرم المتغيب أن يطلب ثمراً من كرمه بعد خمس سنوات من زراعته (لاويين ١٩ : ٢٣ ــ ٢٥) ، لأن إيجار هذه الكروم لم تكن يدفع أموالا بل تؤخذ نسبة مئوية من الثمر .

١ ــ وهذا المثل يحوى كثيراً من الحقائق التى تحتاج أن نعرفها عن الله .

(أ) كرم الله : ويظهر فى القيام بعمل كل ما يلزم الكرم والكرامين حتى لا يتعبوا فى أعمالهم ، وهذا هو شأن الله معنا فى كل حياتنا .. إنه كريم جداً مع الناس .

(ب) **ثقته فى الناس** : لقد ترك الكرامين ليخدموا فى الكرم لأنه وثق فيهم وفى قدرتهم على القيام بهذا العمل ، أفليس هذا ما عمله مع كل إنسان حينما يتركه حراً فى حياته ليختار ما يشاء ؟ قال أحدهم « إن أحب شيء إلى نفسى هو أن الله تركنى أتصرف فى حياتى بالقدر الذى يشعرنى بأنه يثق فى » .

(ج) **صبر الله عليهم** : إن الله أعطى الكرامين فرصا كثيرة ليوفوا ما عليهم من ديون ، إنه عاملهم بالصبر والمحبة التى لا يستحقونها .

(د) **انتصار عدله** : قد ينتهز الناس فرصة صبر الله عليهم ولكنهم يجهلون أن الدينونة آتية ولابد ، قد يصبر الله على العصيان ولكنه لا يهمل العاصى إلى الأبد .

٢ ــ وهذا المثل يحوى بعض الحقائق عن يسوع .

(أ) إنه لم يعتبر نفسه عبداً بل ابنا ، إنه ليس من سلسلة الأنبياء ، إنه الكلمة النهائية التى نطق بها الله .. وفى هذا الإعلان يتحدى يسوع كل السلطات اليهودية لأنه فيها يعلن أنه هو المسيا .

(ب) لقد عرف أنه سيموت . فالصليب لم يكن مفاجأة له بل كان نهاية الطريق الذى اختاره ، وبهذا أعلن عن شجاعة نادرة المثال .

(ج) كان يعرف أن النصرة النهائية له ، قد يقتل ويموت ولكنه كان يعرف أنها ليست النهاية ، فبعد الرفض يأتى التمجيد .

٣ ــ وهذا المثل يحوى بعض الحقائق عن الناس .

(أ) هناك سبب واحد يختفى وراء سلوك هؤلاء الكرامين وهو أنهم ظنوا أن صاحب الكرم بعيد عنهم جداً فلا يستطيع أن يفعل شيئاً . إنه فى نظرهم ميت . وهذا موقف الكثيرين من الله .. إنهم يسلكون بعناد وغباوة كأن الله لا يراهم ولا يسمعهم .

(ب) من يرفض مسئوليته وامتيازاته فلابد بأن تؤخذ منه وتعطى لآخر ، فاليهود إذ رفضوا الدعوة تحول السيد إلى الأمم .

وينهى المثل بالاقتباس من مزمور ١١٨ : ٢٢ و ٢٣ الحجر الذى رفضه البناؤن هوذا قد صار رأس الزاوية . وحجر الزاوية هو الحجر الأساسى فى المبانى ولقد اقتبسه كثيرون من كتّاب الوحى (أعمال ٤ : ١١ ، ١ بط ٢ : ٤ و ٧ ، رومية ٩ : ٣٢ و ٣٣ ، أفسس ٢ : ٢٠) . وهو يشير أصلا إلى اسرائيل لأنهم كانوا يظنون أنفسهم أنهم أهم حجر فى بناء الكون ، ولكنها أهملت وانحطت فى نظر العالم ، ولكن كاتب المزمور كان يرى أن الله سيعود ويعلن مجد اسرائيل مرة أخرى . ولكن الكتّاب المسيحيون رأوا أن هذا الحجر هو المسيح نفسه وخاصة بعد موته وقيامته .

قيصر والله

(مرقس ١٢ : ١٣ ــ ١٧)

لقد كان وراء هذا السؤال الخطير المكير قصة طويلة مريرة تبدأ بهيرودس الكبير الذى مات سنة ٤ ق م ، فقد كان هذا الملك ملكا على كل فلسطين يدفع جزية إلى روما فى مقابل أن أعطته استقلالا داخليا واسعاً . وعند موته قسم ملكه بين ثلاثة من أولاده ، فأعطى الجليل وبيريه إلى

هيرودس وأنتيباس ، أما شرق الأردن وما يجاورها فقد أعطاه لفيلبس ، وأعطى أرخيلاوس السامرة واليهودية . ولقد سلك انتيباس وفيلبس بكل حكمة فاستمرا فى حكمها أما أرخيلاوس ففشل فى ملكه فما كان من روما إلا أن حولت مملكته إلى ولاية رومانية تحكم حكما كاملا من قبل روما ، وكان ذلك إبتداء من سنة ٦ م . وكان من عادة الرومان أن يحكموا ولاياتهم بطريقتين مختلفتين : الطريقة الأولى هى التى يحكمون بها الولايات الهادئة المسالمة . إذ يضعونها تحت إشراف مجلس الشيوخ فيحكمها بواسطة قناصل ، أما الولايات المشاغبة فيشرف عليها الإمبراطور نفسه فيحكمها بواسطة ولاة ، تعاونه فصائل كبيرة من الجنود الرومانية ، وكانت اليهودية من هذا الصنف من الولايات .

ولقد كان أول عمل يقوم به كيرينيوس والى اليهودية هو التعداد الذى قصد به تنظيم دفع الضرائب وتنظيم الإدارة ، وقبل الناس المسالمون هذا العمل ، أما غيرهم فقد رفضوا وحاولوا إثارة الشغب ، وكان يتزعم حركة الشغب هذه رجل اسمه يهوذا الذى أثار الشغب بقوله إن الجزية لا تفضل العبودية . وبما أنهم شعب الرب فينبغى ألا يستعبدوا لأحد بل ينبغى أن يموتوا قبل أن يخضعوا لإنسان ، ولكن الرومانيين عرفوا كيف يخرسوه إلى الأبد ، لكن ظل شعاره فى أذهان الناس « لا جزية لروما » .

أما هذه الجزية فكانت ثلاثة أنواع :

(أ) الضريبة التى على الأرض وهى تشمل عشر الحنطة وخمس الخمر والتمر وكانت تدفع عينية أو مالا .

(ب) ضريبة الدخل وكانت ١ ٪ من دخل الفرد .

(ج) ضريبة الرأس وكان يدفعها كل رجل يتراوح عمره ما بين ١٤ — ٦٥ سنة وكل امرأة تتراوح ما بين ١٢ — ٦٥ سنة ومقدارها دينار للفرد الواحد ولم يعف منها أى فرد .

وعندما جاء الفريسيون والهيرودسيون إلى يسوع دخلوا إلى موضوعهم عن طريق التملق ، لكى يزيلوا كل شك من عقل يسوع من جهتهم ، فيدفعونه إلى أن يتكلم بكل صراحة .

وكان سؤالهم غاية فى المكر والدهاء . لقد ظنوا عندما وجهوه إليه أنهم قد وضعوه فى المأزق الحقيقى : فلو وافق على دفع الجزية فقد شعبيته الواسعة وإن لم يوافق لفقد حياته بين يدى الرومان كشخص ثائر متعصب .. لقد ظنوا أنهم إنما قد أمسكوا بيسوع بين أصابعهم .

لكن يسوع طلب منهم دينارا ، ويظهر أنه لم يكن يمتلك دينارا واحداً ، ولما أمسك به سألهم عن صاحب الصورة التى عليه . ولاشك أن تلك الصورة كانت صورة طيباريوس قيصر ومن حولها كتب « طيباريوس قيصر ، أوغسطس الإلهى ابن أوغسطوس » ، وعلى الوجه الآخر كتب « الكاهن الأعظم للأمة الرومانية » . ولابد أن نفهم المبادىء الثلاثة التى تمسك بها الناس من جهة العملة حتى نستطيع أن نفهم القصة :

١ ـــ العملة علامة القوة : فالفاتح الغازى أو الثائر المنتصر يثبت نصرته أو تملكه بأن يضع صورته على العملة ، وبهذا يضمن سلطانه وحكمه .

٢ ـــ وأينما سارت العملة هناك كان سلطان الملك سائدا ، وكان سلطان الملك وهيبته تقاس بمساحة البلاد التى تستخدم فيها عملته .

ولأن صورة الملك واسمه كانا على العملة كانت هذه العملة تعتبر ملكا له . ولهذا فقد كان جواب يسوع بهذا المعنى « لأنكم تستخدمون عملة طيباريوس فإنكم بذلك تعترفون بسلطانه عليكم ، وإلى جانب ذلك فإن هذه العملة هى ملكه الخاص لأن صورته واسمه عليها . فإذا أعطيتموها له فإنكم إنما تعطونه حقه .. فأعطوها له ولكن اعلموا أن هناك جانبا من الحياة يختص بالله وحده ولا سلطان يقتصر عليه » .

صار هذا القول مبدءًا أبديا وضع الحدود بين القوة المدنية والدينية . ويقول أحد الساسة الكبار « إن هذه الكلمات أعطت للقوة المدنية قدسية لم تكن لها ، وحدوداً لم تعرفها من قبل .. وكانت نهاية لكل إدعاء بشرى بالكمال وأساساً راسخاً للحرية الإنسانية » . لقد كانت هذه الكلمات داعية إلى حقوق الدولة وحرية الضمير .

وعلى العموم فقد وضع العهد الجديد ثلاثة مبادىء تحكم الصلة بين الفرد والدولة :

١ ـــ الدولة مقامة من الله : فقوانين الدولة تحكم العلاقات الفردية والجماعية وبدونها تصبح الحياة محطمة ، وخدمات تيسر الحياة على الفرد فهى التى تمده باحتياجاته من المياه والمواصلات والضمان الاجتماعى وغيره .. وبذلك تجعل من الحياة عملا أسهل .

٢ ـــ لا يصح أن يتمتع الإنسان بكل هذه الامتيازات وفى الوقت نفسه يتهرب من المسئوليات . ومن المؤكد أن الدولة الرومانية أدت للعالم خدمات جليلة لم يكن يحلم بها ، فقد أوجدت نوعاً من الاستقرار والسلام . طاردت عصابات الطرق وقراصنة البحر ، ونشرت العدل بين الناس . وحقا قال جود سبيد : « لقد كان من أمجاد الدولة الرومانية أنها نشرت السلام فى عالم مضطرب ، وتحت سيطرتها عاشت آسيا الصغرى والشرق فى أمان واستقرار لم يعرفاه من قبل ، وكان الفرد تحت ظلها يباشر عمله بيسر وسهولة .. يجد لقمة العيش .. يراسل أحباءه ويسافر بكل اطمئنان . والفضل للقوة الرومانية » .

ولهذا فليس من الإنسانية أن يعيش الإنسان فى دولة كهذه ولا يؤدى واجبه من نحوها .

٣ ـــ ولكن هناك حدود : فلقد قال أبوت : « كانت العملة ملكا لقيصر لأن صورته كانت عليها ، والإنسان ملك الله لأن صورة الله فيه (تكوين ١ : ٢٦ و ٢٧) . وعلى هذا فالإنسان يقدم للدولة كل إخلاصه وحبه وعمله : وفى نفس الوقت ينبغى أن يكون هو والدولة التى يخدمها ملكا لله ، وإن تصارع حق الدولة مع حق الله فإن الله أولا . وعلى العموم فإن المسيحية تجعل الإنسان مواطنا صالحا أكثر من أى شخص آخر .

الأفكار الخاطئة عن الحياة الآتية

(مرقس ١٢ : ١٨ ـــ ٢٧)

هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها الصدوقيون على مسرح الحوادث فى إنجيل مرقس . والصدوقيون حزب يهودى صغير ولكنهم يكونون الطبقة الأرستقراطية فى الشعب .. فمنهم رئيس الكهنة ، بل وغالبية الكهنة ينتمون إليهم .. وكانت لهم ارتباطاتهم بالرومان ، فكانت الطبقة الحاكمة دائماً تخرج من صفوفهم . هذا وهم يختلفون كثيرا عن الفريسيين ، فهم لا يتمسكون إلا بالكتب المكتوبة وخاصة أسفار موسى الخمسة ، ويرفضون رفضاً باتا أى نوع من تقاليد الشيوخ التى يتمسك بها الفريسيون بشدة ؛ وبنوا عقيدتهم على إنكارهم للقيامة أو وجود روح أو ملاك ، على أنها لم تذكر فى أسفار موسى .

وجاء جماعة منهم إلى يسوع لكى يجربوه فى عقيدة القيامة ويحاولون إظهارها فى صورة مضحكة . وانصب سؤالهم على الزواج من أرملة الأخ المتوفى الذى لم ينجب نسلا ـــ وقد كان هذا الزواج مبنيا على ما جاء فى (تثنية ٢٥ : ٥ ـــ ١٠) . بمعنى أنه إذا مات رجل دون أن ينجب نسلا فينبغى على أخيه أن يتزوج زوجته ويعتبر أن الطفل الأول ابنا لهذا الأخ المتوفى ، وقد يموت الأخ الثانى والثالث وقد تتزوج إلى سابع أخ . وإذا ما أنجبت ابناً أُعتبر للأخ الأول . وهذا الزواج كان المقصود منه أحد أمرين : إما لحفظ اسم الأسرة وإما لحفظ الميراث داخل العائلة . ولم يكن اليهود وحدهم فى هذا الأمر فقد كان عند اليونان تقليد يشابهه : فلو كان أب يونانى يمتلك بعض الممتلكات ولم يكن له إلا ابنة واحدة . فكان الميراث لا يؤول إلى الابنة بل إلى زوجها أو ابنها ، وكان يمكن للأب أن يترك الابنة والميراث لأى رجل يختار على شرط أن يتزوج هذه الابنة ، وإن مات الأب دون أن يعمل شيئا فيستطيع أقرب رجل إلى الابنة أن يتزوجها ويأخذ الميراث . كان القصد كله حفظ الميراث فى الأسرة .

ولقد كان سؤال الصدوقيين يتلخص فى حالة مبالغ فيها من حالات هذا الزواج المعمول به فى اليهودية .. إمرأة تزوجت رجلا فمات دون أن ينجب فتزوجها الأخ الثانى لينجب لأخيه نسلا ولكنه مات دون أن ينجب أيضا ، وهكذا دواليك إلى الأخ السابع ، وفى نهاية الكل ماتت المرأة . ففى القيامة لأيهم تكون زوجة .. وهنا سكت الصدوقيون منتفخين ظانين أنهم قد حطموا كل عقيدة القيامة .

وكان جواب يسوع ينقسم إلى شطرين :

١ ـــ طبيعة القيامة وأسلوبها إذ بيّن أن القوانين الطبيعية الجسدية تنتهى فيبطل الزواج ويصبح الناس كملائكة الله . ولم يكن كلام يسوع هذا جديداً على أسماع اليهودى ، ففى سفر أخنوخ يقرأون « ستتمتعون بفرح عظيم كملائكة الله » . وهكذا يؤكد باروخ فى كتابه « ويعلم الربيون هذه العقيدة عينها لاطعام ولا شراب ولا ولادة ولا بيع ولا شراء ولا حسد ولا كراهية ، ولكن الصلاح يتوج الرؤوس ويصبح الجميع مملوئين بمجد الله » . لقد كانت فكرة يسوع أن الحياة الآتية

لا تقاس ولا تفهم بحسب قوانين الحياة الحاضرة .

٢ — حقيقة القيامة : وهنا يوجه يسوع للصدوقيين نفس سهمهم فيجاوبهم من قلب الكتب التي ظنوها لا تبرر حادثة القيامة .. أسفار موسى الخمسة ففي خروج ٣ : ٦ يقول الله إنه إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب ، وحيث أنه إله أحياء لا إله أموات فلابد أن هؤلاء أحياء عنده ، وإن كانوا أحياء فلابد أن القيامة موجودة وحقيقية . وهزم يسوع الصدوقيين على نفس أرضهم .

قد تبدو هذه القصة بعيدة عن اختباراتنا ، ولكننا نجد فيها حقيقتين أبديتين :

١ — لقد أخطأ الصدوقيون بأن تصوروا السماء بصورة أرضية محضة وهذه غلطة الكثيرين . فقد تصورها الهنود الحمر أنها تحوى أجمل الصيد لأنهم كانوا بطبيعتهم صيادون ، وتعتقد إحدى القبائل المقاتلة أن السماء هي المكان الذى يقاتلون فيه طول اليوم ، وفى الليل يقوم الأموات ويشفى الجرحى ، ويقضون كل الأمسيات فى ولائم يشربون الخمور فى كؤوس تصنع من جماجم الأعداء . وكان اليهود يكرهون البحر ففكروا فى سماء لا يوجد فيها البحر . وهكذا كره كل شعب الألم والحزن وظنوا السماء مكانا تزول فيه الأحزان وبهذا خلقوا السماء تلائم حالتهم .

هنا تفكير شخصى ذاتى ولكن فيه كثير من الحق . ولكننا نحن لا يسعنا إلا أن نقول ما قاله بولس : « ما لم تره عين و لم تسمع به أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يتقونه » (١ كورنثوس ٢ : ٢٩ ، إش ٦٤ : ٤) .

٢ — وبنى يسوع عقيدة القيامة على حقيقة ارتباط الله بالرجل المستقيم وأبدية هذه العلاقة . فعندما يدخل الإنسان فى شركة مع الإله الأبدى تصبح شركة أبدية . « إن الله لن يكف أن يكون إلها لمن أحبوه وخدموه » . وقال المرنم « لأننى دائما معك أمسكت بيدى اليمنى برأيك تهديني وبعد إلى مجد تأخذنى » (مزمور ٧٣ : ٢٣ و ٢٤) . إنه لا يتصور أن علاقته بالله سوف تنقطع . وبعبارة أخرى : لا يوجد إلا شيء واحد خالد وهو المحبة .

المحبة لله والمحبة للقريب

(مرقس ١٢ : ٢٨ — ٣٤)

لم يكن هناك اتفاق معقود بين خبراء الشريعة الموسوية وهم الكتبة وبين الصدوقيين ، فبينما اهتم الكتبة اهتماما بألفاظ بتفسير الشريعة تفسيراً واسعاً ، ولهذا أقاموا حولها سياجا من التقاليد الشفوية التى تغطى كل نواحى الحياة .. تقريبا ، رفض الصدوقيون هذا التقليد و لم يقبلوه بتاتا ، ولهذا السبب فرح هذا الكاتب عندما سمع يسوع يسكت اعتراض الصدوقيين ويشجب منطقهم .

وجاء هذا الكاتب بسؤال إلى يسوع لما ثارت حوله المناقشات العديدة ، وانقسم الفكر اليهودى تجاهه إلى مدرستين : المدرسة الأولى أرادت أن توسع فى الشريعة توسعا ضخما لا يحده حدود حتى تستطيع أن تغطى نواحى الحياة وبذلك سنوا آلافاً من القوانين والنواهى ، أما المدرسة الثانية

فقد حاولت أن تجمع كل الناموس فى جملة واحدة . فقد قيل مرة إن أحدهم طلب من هليل أن يذكر الناموس وهو يقف على رجل واحدة فكان جوابه : « ما تكرهه لنفسك لا تفعله فى جارك ، هذا هو الناموس كله أما الباقى فهو تفسير له . إذهب وتعلم » . وسبقه اكيبا بالقول : « إن أعظم ما فى الناموس هو مبادؤه العامة » ، وسمعان الصالح قال : « يستند العالم على ثلاثة دعائم : الشريعة ، العبادة ، عمل المحبة » . ويقدم ساملبا أحد المعلمين دراسة وافية فيقول إن موسى أخذ من الرب ٦١٣ وصية (٣٦٥ منها بحسب أيام السنة ، ٢٤٨ على عدد أجيال الناس .) ولكن داود جاء فأنقص هذا العدد كله إلى ١١ وصية فى مزمور ١٥ ، ثم جاء إشعياء فأنقصها إلى ستة فقط (إش ٣٣ : ١٥) وميخا اختصرها إلى ٣ (ميخا ٦ : ٨) ، واختصر حبقوق الكل فقال : « البار بالإيمان يحيا » (حبقوق ٢ : ٤) .

وكان السبب فى انقسام اليهود إلى هاتين المدرستين هو تقييم الوصايا نفسها فبينما قال البعض إن هناك بعض المبادىء تعتبر جوهرية وفى غاية الأهمية دون غيرها قال آخرون إن كل الوصايا والشرائع والطقوس تقف على قدم المساواة . ومن يحاول أن يفاضل بينها فإنه يحطم ناموس الله .

وعلى هذا فقد كان سؤال هذا الكاتب ليسوع سؤالاً مهماً حياً لبنى جيله . ولكى يجاوب يسوع على هذا السؤال وضع وصيتين معاً :

١ ــ الأولى « اسمع يااسرائيل الرب إلهك رب واحد ... » . وهذه الجملة هى أساس عقيدة التوحيد عند اليهود (تثنية ٦ : ٤) . وهى جزء من الصلاة التى تسمى « شماع » أى « يسمع » وهى تأتى من أول كلمة « إسمع » . وصلاة « الشماع » هذه تستخدم فى ثلاثة مواقف :

(أ) فهى الصلاة التى تبدأ بها الخدمة فى المجمع ، وتقال كاملة وهى موجودة فى ثلاثة مقاطع ، مأخوذة من ثلاثة أمكنة من أسفار موسى (تثنية ٦ : ٤ ــ ٩ ، ١١ : ١٣ ــ ٢١ ، عدد ١٥ : ٣٧ ــ ٤١) .

(ب) توضع أجزاؤها الثلاثة فى صناديق جلدية وتعمل عصائب للجبهة ولليد (متى ٢٣ : ٥) يلبسها اليهودى المتمسك عندما يذهب للصلاة ليتذكر عقيدته دائما .

(ج) وتوضع فى صندوق صغير اسمه « ميزوزا » ويثبت فى باب منزل كل يهودى وفى باب كل حجرة فيه . ولهذا فكل يهودى كان يعرف هذه الوصية معرفة جيدة .

٢ ــ أما الثانية فهى « تحب قريبك كنفسك » (لاويين ١٩ : ١٨) ، لكن يسوع فى اقتباسه هذه الوصية عمل شيئاً واحداً فيها وهو أنه حولها من تقييدها وتحديدها وجعلها مطلقة ، فالقريب عند اليهودى هو اليهودى أخيه ، لكن يسوع حوّل معنى القريب إلى شىء أوسع وأعظم فأضحى القريب هو كل إنسان .

أما الشىء الجديد الذى أدخله يسوع هنا فهو ربط الوصيتين معاً وجعلهما وصية واحدة ، فى هذا الأمر لم يسبقه معلم واحد . نعم كانت هناك اتجاهات خفيفة نحو هذا الأمر وخاصة فى كتابات « عهد البطاركة الاثنى عشر » ففى عهد يساكر ٥ : ٢ يقول : « تحب الرب وتحب القريب ،

وتشفق على الفقير والضعيف » . ثم فى ٧ : ٦ من نفس السفر « أحببت الرب وأحببت كل إنسان من كل قلبى » . وفى عهد دان ٥ : ٣ نجد : « تحب الرب كل أيام حياتك ، وبعضكم بعضاً من قلب صادق » .

ولكن يسوع وحده هو الذى جعل من الوصيتين وصية واحدة ، وجعل الديانة تتلخص فى محبة الله ومحبة القريب .. بمعنى أن محبة القريب هى العلاقة الوحيدة لمحبة الله .

ولقد قبل هذا الكاتب هذا القول فقال إن محبة الله والقريب أعظم من الذبائح ، وبذلك أعلن أنه وصل إلى أعمق ما وصلت إليه اليهودية ، فمن قبل قال صموئيل « هل مسرة الرب فى المحرقات والذبائح كما فى سماع صوت الرب ... » (١ صموئيل ١٥ : ٢٢) ، وردد هوشع نفس هذا القول : « أريد رحمة لا ذبيحة » (هوشع ٦ : ٦) . إن العبادة السهلة التى تهتم بالذبائح ، بالطقوس ، ببناء الكنائس ، لا تنفع ، فهى التى جعلت الكاهن واللاوى يريان الجريح المحتاج ويعبران عنه لأنهما كانا ذاهبين إلى الهيكل ليقوما بخدمة الطقوس . أما العبادة الحقيقية فهى عبادة المحبة والإحسان .. هى العبادة التى لا تقام فى الهيكل فقط بل تقام فى كل الحياة ، فيصبح الإنسان كله ملكا لله .

لقد أحب المسيح الشاب لأنه ارتفع عن مستوى تفكير عصره ، ونظر إليه نظرة الدعوة والمحبة ، ولعله كان يقول له : لقد تخطيت كثيراً من الحواجز والعقبات ، والآن لست بعيداً عن ملكوت الله .. فهل تقبل ؟

ابن داود

(مرقس ١٢ : ٣٥ ـــ ٣٧)

هذه القصة وإن كانت تبدو لنا نحن صعبة وغريبة فى إتجاهاتها ومناقشاتها لكنها سهلة ومألوفة لدى كل يهودى سمعها بينما كان يسوع يذكرها فى أروقة الهيكل . ولكى نفهمها ينبغى أن نعلم أن كلمة « المسيح » وهى ترجمة للكلمة اليونانية كريستس Christos وللكلمة العبرية مسيا messsiah لم تكن اسم علم بل كانت لقبا . فهى تعنى « الشخص الممسوح من الله » . وكان يطلق على الملك هذا اللقب لأنه كان يمسح بدهن المسحة عندما كان يتوج ملكاً للأمة . ولهذا فعندما كان يسوع يسأل « كيف يقول الكتبة إن المسيح هو ابن داود ؟ » ، لم يكن يشير إلى نفسه مباشرة ، بل كان يقصد أن يسأل كيف يقولون إن المسيح .. الملك الممسوح من الله هو ابن داود ؟ » .

ولقد اقتبس يسوع مزمور ١١٠ : ١ لكى يدعم قوله ، وهذا المزمور كان يعتبر من مزامير المسيا أو مسيح الرب ، وفيه يتساءل داود من الرب عن مجيء المسيا كأنه سيده وربه ، فكيف يقول عنه إنه سيده إن كان هو ابنه ؟

فماذا كان يقصد يسوع هنا ؟ . إن لقب ابن داود كان أكثر الألقاب استخداماً فى الكلام عن المسيا ، وهذا واضح فى العهد القديم (إشعياء ٩ : ٢ — ٧ ، ١١ : ١ — ٩ ، إرميا ٢٣ : ٥ — إلخ ، ٣٣ : ١٤ — ١٨ ، حزقيال ٣٤ : ٢٣ ... إلخ ، ٣٧ : ٢٤ ، مزامير ٨٩ : ٢٠ .. إلخ) وبه خاطب الجموع يسوع (مرقس ١٠ : ٤٧ إلخ ، متى ٩ : ٢٧ ، ١٢ : ٢٣ ، ١٥ : ٢٢ ، ٢١ : ٩ و ١٥) . وفى كل كتابات العهد الجديد إتضح أن يسوع كان من صلب داود وخاصة فى سلسلتى نسبه فى متى ولوقا (رومية ١ : ٣ ، ٢ تيموثاوس ٢ : ٨ ، متى ١ : ١ — ١٧ ، لوقا ٣ : ٢٣ — ٢٨) . ففى سؤاله هذا لم يقصد يسوع أن ينكر أنه من نسل داود بل كان يقصد المسيا ليس فقط ابن داود بل هو أعظم بكثير من ذلك إنه رب داود وسيده .

وتكمن المشكلة فى أن هذا اللقب « ابن داود » حوّل إلى لقب المسيا الفاتح الغازى الذى يقود الأمة إلى النصرة بقوة السلاح ، فهو لقب سياسى قومى يعبر عن مطامع اليهود فى تكوين ملكوت أرضى مجيد . ولهذا فلم يرض يسوع أن يجعل هذا اللقب وحده يقتصر على معرفة الناس به ، إنه أعظم من ذلك إنه رب . إن الناس ينبغى أن تتجه أفكارها لا إلى المسيا الغازى بل إلى الرب .. إنه لم يأت لتكوين مملكة أرضية بل ليأتى بالناس لله .

وعلى هذا فهو هنا يكرر محاولاته فى إزالة فكرة المسيا المحارب الجبار من عقول الناس ويضع مكانها فكرة المسيا عبد الرب الذى يأتى بالناس إلى نور محبة الله الكاملة .

ديانة خاطئة

(مرقس ١٢ : ٣٨ — ٤٠)

أعتقد أن الجزء الثانى من العدد ٣٧ يتبع هذا الفصل وليس الفصل السابق كما يظهر ذلك فى الترجمات الحالية وبحسب التقسيم العددى الحالى للإنجيل ، فالناس لابد وأنها كانت تسمع يسوع بفرح عندما كان يوبخ الكتبة والفريسيين لا عندما تسمع مناقشة لاهوتية . وبهذه المناسبة يحسن أن نذكر أن التقسيم العددى للكتاب المقدس ليس مضبوطا فى كل حالة فقد قيل إن الذى قسمه إلى آيات وأعداد هو الراهب استيفانوس ، وقد قام به فى طريقه من مدينته إلى مكان طباعة الكتاب المقدس .

وفى هذا الفصل يوجه يسوع إتهامات قاسية إلى الكتبة منها :

أنهم يحبون أن يسيروا لابسين طيالسة واسعة طويلة ، ولقد كانت هذه الأردية الواسعة فى الشرق تعنى الغنى والعظمة ، فمن يلبسها هو رجل لا يعمل ويسير بكل هدوء ؛ وهذا دليل على غناه وعظمته . وقد تعنى شيئاً آخر كما ورد أيضا فى متى (٢٣ : ٥) إذ يطيلون الأذيال ويعملون أهدابا طويلة لها (عدد ١٥ : ٣٨) ، والأصل فى ذلك هو إظهار أنفسهم أنهم شعب للرب ، ولكن الأمر تغير وأضحى الأمر هو إظهار أنفسهم فقط وجذب الانتباه إلى شخصياتهم .

وهم يحبون التحيات فى الأسواق حيث ينادون بكلمة « ياأبى » أو « يامعلم » وهذه المناداة تشبع شهوتهم لحب الظهور .

ويحبون أن يتخذوا المقاعد الأولى فى المجامع ، وكان فى كل مجمع توجد مجموعة من المقاعد فى الأمام تواجه جمهور الحاضرين وتلاصق الصندوق الذى فيه تحفظ الدرج المقدسة ، ومن يجلس هناك هو شخص مكرم مرموق ينظر إليه بتبجيل .

يحبون الجلوس فى المكان الأول فى الولائم . والأمكنة فى الولائم كانت ترتب ترتيبا خاصا على شمال ويمين المضيف فكانوا يحبون هذه الأمكنة العالية .

ويسلبون بيوت الأرامل : وهذه كانت عادة فريسية وحشية ذكرها يوسيفوس مرات فى كتاباته إذ قال : « إن الفريسيين عظّموا أنفسهم كجماعة ماهرة فى تفسير الشريعة الإلهية وتقليدات الآباء ، ولهذا فهم مختارو الله .. وفى مرات كثيرة كانوا يدبرون مؤامرات قاسية وكثيرا ما كانوا يوجهونها ضد بعض النساء » . وكانت هذه الفكرة تتلخص فى أن الكاتب كان يظهر نفسه أنه يعمل فى ناموس الله بدون مقابل ، فكانت حاجاته تخدمها يداه ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يوحى إلى الناس أن الكاتب لابد أن يعيش فى سعة حتى يستطيع أن يعمل فى خدمة الناموس ، فكان يعيش على هدايا بعض النساء والرجال . وكل من يقدم هذه العطايا له قدره عند هؤلاء الكتبة أما الذين لا يعطون ما هو مفروض عليهم أن يعطوه فكان الفريسيون والكتبة يجبرونهم على الدفع بطرق ملتوية .. وخاصة النساء .

أما الصلاة الطويلة التى يقدمونها فكانت مملة ، إنها لا تقدم إلى الله بل للناس . إنهم يقفون ليصلوا فى أمكنة يستطيع الجميع أن يروهم منها يصلون .

فى هذا الفصل القاسى يعلمنا يسوع بعض الأمور :

١ ــ إنه يحذرنا من مرض الكبرياء . وكثيرون يظنون أنهم أخذوا مراكزهم فى الكنيسة لأنهم استحقوها وليس لأنهم عرفوا أن يخدموا منكرين ذواتهم كخدام لله . إنهم يظنون أن المركز الكنسى امتياز لا مسئولية .

٢ ــ إنه يحذرنا من مرض حب الظهور . طبعا كل إنسان يحب أن يعامل باحترام لكن المسيحية تقول إن الأساس هو إنكار الذات لا تعظيمها . هناك قصة قيلت عن أحد الرهبان ، فقد أرسل إلى أحد الأديرة ليكون رئيسه ، وقد كان متواضعاً بدرجة أنه لما وصل إلى الدير ظنه الرهبان واحداً من الرهبان البسطاء جداً فأرسلوه ليعمل فى المطبخ ، وظل يعمل بكل همة ونشاط إلى أن جاء يوم زار فيه الأسقف هذا الدير واكتشف الأمر وارتفع الراهب المتواضع إلى مكانه اللائق به . إن الشخص الذى يدخل الخدمة لكى يحترمه الناس سيظل طيلة خدمته يعمل فى المكان الخاطىء إذ أنه يخدم نفسه لا المسيح .

٣ ــ يحذرنا من استخدام الدين لمصالحنا الشخصية لرفعة مراكزنا ، لنوال ما نشتهيه . إنه يحذر أولئك الذين يظنون أن يأخذوا كثيراً من الدين لا أن يعطوا الكثير له وفيه .

أعظم عطية

(مرقس ١٢ : ٤١ ــ ٤٤)

هناك بوابة اسمها : « باب الجميل » تقع ما بين دار الأمم ودار النساء فى الهيكل ، ويلوح أن يسوع ذهب إلى ذلك المكان ليستريح قليلا بعد تعب المناقشات الحادة والتحديات الصعبة . وكان فى مقابله فى دار النساء ثلاثة عشر صندوقاً للتقدمات اسمها « الأبواق » لأن شكلها كان يشابهها ، وكان لكل صندوق غرض خاص يدفع له الناس فيه ، فبعضها لشراء حنطة والآخر لشراء الزيت وهكذا .

وعندما جلس يسوع هناك رأى أناسا يقدمون عطاياهم ، ولكنه لمح من بينهم إمرأة مسكينة ألقت بفلسين ، ووزن يسوع ما دفعته المرأة مع ما دفعه الأغنياء . وعندئذ قيم هذه العطايا وقال : إن المرأة أعطت أكثر من الجميع لأنها أعطت كل احتياجها بينما أعطوا هم من فائض ما عندهم .

ونجد لأنفسنا عدة دروس للعطاء :

١ ــ لتكون العطية حقيقية يجب أن تكون بتضحية ، وقيمة العطية لا تهم ولكن مقدار ما كلفت المعطى .. ليست الكمية ولكن مقدار التضحية . ولكم يخجل الكثيرون منا عندما يقرأون هذه القصة ، فمشاركتنا فى عمل الرب لا تشتم فيها رائحة التضحية بل إنها مشاركة بالفضلات التى تسقط من موائدنا ، قد يكون هذا الموقف علامة على ضعف الكنيسة بل والمسيحية أن العطايا تؤخذ من الناس الذين يظنون أنهم إنما يدفعون لأنهم يريدون أن يشتروا بثمن ما دفعوه إما مدحاً أو سروراً أو تمتعاً .

٢ ــ العطاء الحقيقى هو العطاء الذى يتصف بروح المغامرة ، وإلا لأبقت هذه الأرملة فلساً واحداً معها ، وهذا الفلس بالنسبة لها له قيمته ؛ ولكنها أعطت كل ما عندها . وعملها هذا عمل رمزى ، فما أندر ما نعطى كل شىء للمسيح ، لكننا نعطى جزءا من نشاطنا ونحتفظ بالباق ، جزءا من وقتنا ونحتفظ بالباق ، جزءا من حياتنا ونحتفظ بالباق ، إننا قليلا ما نعطى بتضحية كاملة .. نعطى كل ما عندنا .

٣ ــ إنه من الممتع والمشجع حقاً أن الشخص الذى أبرزه المسيح واحتفظ العهد الجديد بشخصيته كمثال على التضحية والعطاء السخى هو الشخص الذى دفع فلسين . فقد نشعر أننا لا نمتلك شيئاً من المال أو شيئاً من المواهب التى تهز العالم ، ولكن لنضع القليل جدا الذى لدينا فى يد المسيح وهو يفعل به أكثر جداً مما نتخيل أو نفتكر .

الأصحاح الثالث عشر

يعتبر الأصحاح الثالث عشر من أصعب الأصحاحات فهماً للتفكير الحديث والسبب فى ذلك هو أنه كتب من وجهة النظر اليهودية وامتلأ بالتفكير اليهودى الذى لم يعد التفكير الحديث يحتمله كثيراً ، فالصور التى يستخدمها يسوع غير معروفة لنا وغير مفهومة . ولكن مع ذلك لا نستطيع أن نضرب صفحاً عن هذا الأصحاح لأنه مهم جداً للعقيدة المسيحية وخاصة عقيدة المجىء الثانى .

وعقيدة المجىء الثانى أصبحت مشكلة عصرنا بل وكل العصور ، فلقد انقسم الناس تجاهها إلى فريقين : فالواحد يهمل هذه العقيدة إهمالا تاماً كأنها لا تكون جزءًا من التراث المسيحى ، والثانى يهتم بها ويدرسها لدرجة أنها أضحت بالنسبة لهم العقيدة المسيحية الوحيدة . ويمكن أن نقرر والحالة هذه أن فكرة صحيحة عن هذا الأصحاح قد تصحح تفكيرنا بعض الشىء عن هذه العقيدة المهمة .

وأهم ما نعمله الآن هو أن ندرس التراث اليهودى بخصوص هذه العقيدة .. ندرس عناصره وأفكاره ونحلله .. ثم ندرس هذا الأصحاح جزءاً جزءاً وأخيراً نحاول أن نستخلص منه حقائق ثابتة دائمة لابد أن تبقى فى الكنيسة .

يوم الرب :

هناك فكرة مهمة يجب أن نبدأ بها هذا البحث ، ولابد أن نرجع إليها مرات كثيرة إذا أردنا أن نعرف اتجاهات هذا الأصحاح . هذه الفكرة هى أن اليهود فى كل عصورهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، ويعتقدون أنهم يوماً ما سوف يرتقون إلى المكانة اللائقة بهم . ولكنهم بعد جهاد عنيف لسنوات طويلة قاسية هجروا الفكرة القائلة بأنهم قد يصلون إلى هذه المكانة التى ينتظرونها عن طريق الوسائط البشرية ، وبدأوا يتمسكون بالفكرة بأن الله لابد وأن يتدخل تدخلا فعلياً وقوياً ليأتى بذلك الوقت السعيد . والوقت الذى فيه يتدخل أطلقوا عليه اسم « يوم الرب » . ولقد قالوا إن يوم الرب هذا سوف يسبقه أيام ضيقة عظيمة .. أيام قاسية ومرعبة ، ثم يقبل هذا اليوم العظيم جباراً قوياً يزعزع أساسات السماء والأرض ويوقف الجميع أمام الدينونة الرهيبة ، وبعد أن يصفى الناس والعالم يخلق أرضاً جديدة وسماء جديدة .

هذه العقيدة يتضارب فيها النقيضان . ففيها التفاؤل الذى لا يمكن أن ينهزم ، الذى يؤمن بأن الله لابد وأن يتدخل لنصرة شعبه ، وفيها التشاؤم المرير الذى يؤمن بأن العالم قد وصل إلى درجة من الفساد لا يمكن معها إصلاحه . لابد من تغييره تغيراً كلياً .

دعنا ندرس بعض فصول العهد القديم لنعرف شيئاً عن يوم الرب هذا .

« .. فى جميع الأسواق نحيب وفى جميع الأروقة يقولون آه آه ، ويدعون الفلاح إلى النوح وجميع عارفى الرثاء للندب ، وفى جميع الكروم ندب ، لأنى أعبر فى وسطك قال الرب . ويل للذين يشتهون يوم الرب . لماذا لكم يوم الرب هو ظلام لا نور ، كما إذا هرب الإنسان من أمام الأسد فصادفه الدب أو دخل البيت ووضع يده على الحائط فلدغته الحية ؟ أليس يوم الرب ظلاماً لا نوراً وقتاماً

ولا نور له » (عاموس ٥ : ١٦ — ٢٠) .

ولولوا لأن يوم الرب قريب قادم كخراب من القادر على كل شيء .. لذلك ترتخى كل الأيادى ويذوب كل قلب إنسان ، فيرتاعون تأخذهم أوجاع ومخاض يتلوون كوالدة ، يبهتون بعضهم إلى بعض ، وجوههم وجوه لهيب .. » (إشعياء ١٣ : ٦ — ١٦) .

وهكذا نجد الأصحاحين الثانى والثالث من يوئيل مملوئين بالويلات القاسية عن يوم الرب . وتتوالى الفصول فى العهد القديم لتصف يوم الرب المفاجىء المرعب الذى يهز كيان الناس والعالم ، سيطوى العالم فى خراب كامل ، وهيئة الطبيعة وقوانينها سوف تقتلع وسوف ينظر الناس الإله الديان آتياً فى دينونة رهيبة .

وهناك ما ينبغى أن نلاحظه فى تاريخ اليهود ، فإنه فى الفترة التى تسمى « ما بين العهدين » قضى اليهود معظم هذه السنوات تحت سيطرة خارجية قاسية ، ولهذا السبب تمسكوا بشدة بعقيدتهم فى يوم الرب ، وحاولوا أن يرسموه ويرسموا ماذا يمكن أن يكون فيه ، ولما لم تكن هناك لغة واقعية علمية تستطيع أن تصف ذلك اليوم فقد استعاضوا عنها بلغة الرؤى ، وظهرت الكتب المكتوبة بهذا الأسلوب الرؤوى التى عادة ما يسمونه : « أبو كاليبتك apocalypses » وتعنى كشف أو إعلان . هذه الكتب الرؤوية كتبت فى أسلوب شعرى لا نثرى ، إنها رؤى لا كتابة علمية .. إنها ليست تاريخاً واقعياً نمسك بكل تفاصيله ونبنى عليه حقائق ثابتة .

وفى هذا الفصل يستخدم يسوع بعض تعبيرات هذا الأسلوب الرؤوى ، لأنها اللغة التى يسهل على الناس فهمها ، ولكنه كان يعرف كما كان سامعوه يعرفون أن هذه اللغة هى عبارة عن صور تعطى فكرة عما يفعله الله عندما يتدخل بقوة فى التاريخ .

الاتجاهات المختلفة :

يمكن للقارىء أن يلاحظ اتجاهات مختلفة فى التفكير فى هذا الأصحاح ، ويلوح أن كتبة الأناجيل جمعوا كل أقوال يسوع عن المستقبل ووضعوها معاً ، ولهذا فيستطيع أى قارىء أن يميز بين خمسة اتجاهات يتكلم عنها يسوع فى هذا الأصحاح :

١ — هناك نبوات عن خراب أورشليم (١٣ : ١ و ٢ و ١٤ — ٢٠) لقد تنبأ يسوع عن خراب هذه المدينة وتمت نبوته عام ٧٠ م فأبيد الهيكل وضاعت كل معالم الشعب بالقسوة والجبروت الرومانى .

٢ — تحذير عن اضطهادات مقبلة (٩ — ١٣) إن أتباع يسوع سيجوزون فى اضطهادات ومرائر لا يتخيلها العقل ، وقد سبق فقال لهم عنها .

٣ — تحذيرات بخصوص أخطار الأيام الأخيرة (٣ — ٦ و ٢١ و ٢٢) سيقوم أناس يحاولون بلبلة الأفكار وتحريف الإيمان ، ولقد حدث ذلك ، وما أكثر ما سمع الناس لعقولهم المتكبرة وسدوا آذانهم عن صوت الله ، ولهذا أراد يسوع أن يحمى جميع تلاميذه من البدع والضلالات التى سبق

فرآها .

٤ ــ إنذارات بخصوص المجيء الثانى : (٧ و ٨ ، ٢٤ ــ ٢٧) ولقد ذكر المجيء الثانى فى الأسلوب الذى ذكر فيه يوم الرب فأضحى المجيء الثانى ويوم الرب ممتزجين معاً ، ولقد استخدم يسوع نفس اللغة التى استخدمها الرؤويون ، ولهذا فإن كنا لا نأخذ كلام الرؤى حرفياً فلا ينبغى أن نأخذ كلام يسوع وتصويره للمستقبل على أنه كلام حرفى ، إنه يستخدم لغة العصر الذى يفهمها معاصروه .

٥ ــ إنذارات بخصوص وجوب السهر (٢٨ ــ ٣٧) فإذا كان الإنسان يعيش دائما متوقعا إنبلاج الأبدية فى كل ساعة ... وإذا توقع تدخل الله فى كل وقت وإذا توقع إنبلاج السماء ومجىء إبن الإنسان وبعد ذلك النهاية .. وإذا كانت كل هذه الأوقات معروفة لدى الله وحده وجب علينا أن نكون ساهرين .

وبهذا نستطيع أن نفسر هذا الأصحاح .. فإذا ذكرنا هذه الاتجاهات الفكرية التى تكوّن هذا الأصحاح ، وإذا ذكرنا أن يسوع تكلم عن مجيئه الثانى بنفس الأسلوب الذى يستخدمه العهد القديم فى الكلام عن يوم الرب فإننا نستطيع أن نفهم هذا الأصحاح جيداً .

ولهذا فسوف نتقدم لدرس هذا الأصحاح لا فى أعداد متتالية كما فعلنا من قبل بل ندرس بطريقة موضوعية أى نقسمه إلى مواضيع وندرسه .

خراب مدينة

(مرقس ١٣ : ١ و ٢)

ولنبدأ دراسة هذا الأصحاح بالتكلم عن الهيكل ثم المدينة التى خربت . لقد كان الهيكل الذى بناه هيرودس إحدى عجائب الدنيا ، فلقد بدأ فى إقامته من ٢٠ ــ ١٩ ق . م ولم يكن قد انتهى بناؤه بعد أيام المسيح . وكانت مبانيه فوق جبل المريا ولم يشأ هيرودس أن يسوى قمة الجبل حتى يبنى هذا البناء الضخم فوقه ولكنه عمل له مسطحاً صناعياً ضخماً على أربعة جدران قوية قواها بمجموعة من الركائز الضخمة لكى تتحمل ثقل المبانى . ويقول يوسيفوس إن بعض الأحجار التى استخدمت فى البناء كانت غاية فى الضخامة طولها ٤٠ قدماً وعرضها ١٨ قدماً وارتفاعها ١٢ قدماً ، ولهذا فلا عجب أن اندهش التلاميذ عندما ذكر لهم يسوع أنه لن يبقى حجر على حجر من هذه الأحجار الجبارة . وكان المدخل الرئيسى للهيكل من الجنوب الغربى حيث ارتبطت مبانى الهيكل والمدينة نفسها بقنطرة هائلة فوق واد متسع ، كانت هذه القنطرة مقامة على أقواس ضخمة إتساعها ١ / ٢ ٤٢ قدما استخدمت فى بنائها أحجار طولها ٢٤ قدما . كان عمق الوادى حوالى ٢٢٥ قدما واتساع الصخرة التى ارتكزت عليها القنطرة ٣٢٤ قدما ، وكان اتساع القنطرة نفسها ٥٠ قدما . وكانت تؤدى إلى الحجرة الملوكية مباشرة حيث بنيت من صفين من الأعمدة الرخامية الكورنثية عددها ٣٧ عموداً ، كل واحد قطع من قطعة واحدة من الرخام .

أما مبانى الهيكل نفسها فقد وصفها يوسيفوس فى قوله « إن الواجهة كانت تذهل جميع الناظرين إليها فقد طليت بمادة ناصعة البياض وغطى جزء كبير منها بأطباق ذهبية لا يستطيع أى إنسان أن يثبت نظره فيها ، فبريقها اللامع كان لا يقل شدة عن بريق الشمس نفسه ، ولكن هذا اللمعان كان مرشدا للحجاج إذ كانوا يرونه من مسافات شاسعة . أما أحجام الأحجار التى أقيم منها الهيكل فكانت ضخمة جدا فطولها حوالى ٢٠ مترا وارتفاعها متران وعرضها ثلاثة أمتار .

هذه هى المبانى الجبارة الهائلة التى ظنها التلاميذ باقية إلى الأبد ، وصعقوا عندما أنبأهم يسوع بأنها سوف تزول ولا يبقى فيها حجر على حجر لا ينقض وتمت نبوة المسيح بعد أقل من خمسين عاما من نطقها .

« إن كبرياء الإنسان ومجده لا ينفعان » فكل ما يبنيه ويتعب فيه من أبراج وحصون سوف يتهدم ، ولكن قوة الله هى قلاعى وحصونى فى كل ساعة ووقت .

آلام مدينة

(مرقس ١٣ : ١٤ — ٢٠)

فى هذا الفصل يصف يسوع الكوارث الفظيعة التى تحل على أورشليم فى حصارها وسقوطها . وكان قصده من ذلك هو أن يحذر الناس منها ليهربوا بمجرد أن يروها آتية فى الأفق ، ولكنهم فعلوا عكس ما قاله لهم ، فبدلا من أن يهربوا تجمعوا فى وسطها وهناك قتلتهم السيوف وماتت الآلاف الكثيرة .

أما عبارة « رجسة الفساد » فقد وردت أولا فى سفر دانيال (دانيال ٩ : ٢٧ ، ١١ : ٣١ ، ١٢ : ١١) ومعناها الحرفى « الفساد المرعب » وقد ذكرت لتصف ما عمله أنطوخيوس ابيفانس الذى حاول أن يستبدل الديانة اليهودية بالعبادة والمدنية اليونانية ، فقدم الخنزير محرقة على المذبح وأقام شعائر الديانات اليونانية . ثم أقام تمثالا كبيراً للإله « زيوس » وأمر الناس أن يعبدوه ، ويقول سفر المكابيين . « فى الخامس عشر من شهر كاسلو فى سنة ١٤٥ أقاموا رجسة الفساد على المذبح وبنوا المذابح الوثنية فى كل يهوذا » . فرجسة الفساد هى المذابح الوثنية وكل ما كان يتصل بها ، وهكذا كانت نبوة يسوع أيضا ، فقد رآها آتية ، وقد حدث ذلك سنة ٤٠ م عندما حاول الإمبراطور المجنون كاليجولا أن يقيم تمثاله ليعبد كإله فى وسط الهيكل رغم نصيحة الذين أحاطوا به ، ولم ينقذ الأمر إلا موته فى سنة ٤١ م .

فماذا كان يعنى يسوع برجسة الفساد ؟ لقد كان اليهود ينتظرون ليس فقط المسيا الذى يخلصهم ولكنهم كانوا ينتظرون ظهور قوة جبارة مضادة هى عبارة عن تجسيد حى للشر ، سماها بولس « إنسان الخطية » ، ورأى يوحنا أن القوة الرومانية هى هذه القوة الشريرة ، وهذا ما عبر عنه يسوع فى نبوته فى رجسة الفساد فكأنه يقول « يوما ما قريبا جدا سترون قوة الشر وقد أعلنت فتهجم على المكان المقدس وتحاول أن تحطمه » وبذلك عبر عن الحوادث الآتية بتعبيرات شائعة .

وفى سنة ٧٠ م ميلادية سقطت أورشليم بعد أن حاصرها بنطس الرومانى ، وقصة حصارها وسقوطها تعد من أقسى صفحات التاريخ فلقد مات الشعب داخل المدينة وهم مكدسون فى وسطها بمئات الألوف ، مزقتهم المجاعات والانقسامات وسيف الرومان ، ولقد وصف يوسيفوس هذه النهاية فى الجزء الخامس من كتابه « حروب اليهود » « ٩٧٠٠٠ أخذوا أسرى ، مليون ومائة ألف قتلوا بالجوع والسيف . ولقد اتسعت المجاعة فأبادت عائلات وبيوتا بأسرها ، وامتلأت العليات بالنساء والأطفال الذين ماتوا جوعا ، وتكدست الجثث فى الحوارى ، وتجول الشباب والصبيان كالأشباح فى المدينة والأسواق وكانوا يتساقطون واحد بعد الآخر . ولم يستطع إنسان أن يدفن موتاه ، ولما حاول بعضهم كانوا يدفنونهم مع الموتى ولقد دفن الناس أنفسهم أحياء ولم تكن هناك مراثى ولا أحزان لأن المجاعة أخمدت كل عاطفة بشرية ، وجاء على المدينة صمت هائل . ولقد فتش كثيرون عن الجيف والجثث التى ما كانوا يطيقون أن يروها بأعينهم وأكلوها ، وكانوا يمضغون جلود أحذيتهم ، وبلغ الأمر أن ذبحت إحدى الأمهات ابنها وأكلته وأعطت جزءا منه لبعض الناس » .

الطريق الصعب

(مرقس ١٣ : ٩ — ١٣)

لقد تمت نبوة يسوع وماتت مئات الألوف وسط المدينة أما الذين سمعوا صوته وأخذوا بنصيحته فقد نجوا من هذا العذاب البشرى الذى يفوق كل وصف .

نأتى الآن إلى النبوة عن الاضطهادات وفى الحق لم يترك يسوع أتباعه يجهلون ما ينتظرهم هم ، إن يسوع يفتح عيون الناس على الحقيقة دائما .

أما التسليم إلى المجالس وأيدى الرؤساء والجلد فى المجامع فقد عنى به يسوع الاضطهاد الذى يقع عليهم من اليهود . فقد كان السنهدريم هو المحكمة اليهودية العليا ، ولكن فى كل قرية ومدينة كان هناك نوع من هذه المجامع تحكم على الهراطقة بالجلد العلنى . أما الحكام والملوك فقد عنى بهم الرومان . كما حوكم بولس أمام السلطات الرومانية من أمثال فيلكس وفستوس وأغريباس .

ولقد كان للإيمان المسيحى أثره الكبير فى تقوية الشهداء الذين واجهوا كل ما يمكن أن يتخيله إنسان من اضطهادات ولكن فى شجاعة وعزم . لقد كانوا أميين بسطاء فقراء ولكن كانوا فى ثباتهم مثلا للصبر والشجاعة والرجاء .

أما مسألة عداوة الإنسان لأهل بيته فقد كانت إحدى لعنات المجتمع الرومانى ، فلم يكن يتردد بعض الناس أن يبلغوا عن أقربائهم إلى الرؤساء بأنهم غير مخلصين للدولة .

ولقد قيل إن أحد الرعايا الألمان فى عهد هتلر قبض عليه وسجنوه وعذبوه عذابا عظيما ولكنه تحمل عذابه بشجاعة وصبر دون شكوى أو تذمر . ثم أطلق سراحه ، ولشدة انذهال الناس الذين عرفوا قصة شجاعته أنهم سمعوا نبأ انتحاره ، ولكنهم أخيراً عرفوا سبب ذلك لقد علم الرجل بعد

خروجه أن ابنه هو الذى وشى به لدى السلطات فقبض عليه وعومل هكذا فلم يمكنه أن يتحمل الصدمة رغم شجاعته . بل إن عداوة الأقرباء ذكرت فى كتب الأبوكريفا على أنها إحدى ضربات الأيام الأخيرة . « ولسوف يهاجم الأصدقاء بعضهم البعض فجأة » (٤ إسدراس ٥ : ٩) . « وسيكرهون بعضهم البعض ويحاربون بعضهم البعض » (٢ باروخ ٧٠ : ٣) . « وسيكره بعضهم البعض الكبير ضد الصغير ، والصغير ضد الكبير ، الفقراء ضد الأغنياء ، والمنحطون ضد العظماء . (اليوبيل ٢٣ : ١٩) .. وهكذا . إن الحياة ستنقلب جحيما عندما يختفى الإخلاص وتزول المحبة ولا تبقى روابط عائلية .

ولقد كره الناس المسيحيين واتهموهم بأنهم سحرة مشعوذون ، والسبب فى ذلك لأن المسيحية دخلت عميقا فى الربط العائلية ، وكان المسيحى يحب المسيح أكثر من إخوته أو أولاده أو والديه . ولكن الكراهية زادت بسبب موقف المسيحيين الذى أثار الشكوك فيهم ، ولعل ذلك كان راجعا إلى الإشاعات الخبيثة التى أطلقها الكثيرون عليهم وخاصة اليهود ، وأهم هذه الإشاعات هى أن المسيحيين هم أكلة لحوم البشر وذلك راجع إلى سوء فهم لفريضة العشاء الربانى .

فى هذه كلها يتحقق قول السيد « من يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص » فالحياة ليست موقفاً ولا معركة واحدة بل هى سباق مستمر .. سلسلة من المعارك ومن يصبر فيها إلى المنتهى فهذا سينتصر . ويخبرنا ج . ج جيفرسون عن أحد مشاهير الرجال أنه رفض أن يكتب تاريخ حياته فى إبان نجاحه وقال « لقد رأيت كثيرين جداً يسقطون صرعى الفشل بعد النجاح الضخم » فالحياة ليست مضمونة إلا بعد النهاية ، ولقد رأى يوحنا بنيان أن من أبواب السماء نفسها توجد مسالك تؤدى إلى الجحيم .

أخطار الأيام الأخيرة

(مرقس ١٣ : ٣ ـــ ٦ ، ٢١ ـــ ٢٣)

لقد أنبأ يسوع تلاميذه أن بعض المضللين سيظهرون فى الأيام الأخيرة ، ولقد ظهر بالفعل كثير من البدع والهرطقات ليس بعد ذلك الوقت بكثير . وهناك ثلاثة أسباب رئيسية للهرطقات .

١ ـــ الهرطقة تنبع من محاولة الشخص تكييف العقائد بحيث تتوافق مع حالته الروحية وبهذا ينطبق قول كاتب المزمور « قال الجاهل فى قلبه ليس إله » إن هذا الجاهل ليس إنسانا غبيا عقليا ولكنه غبى روحيا ، وهذه النتيجة لم يصل إليها عقليا فأنكر وجود الله ولكنه حاول أن يستبعد الله من حياته ، لأن الله بالنسبة له شىء لا يطاق ولا يحتمل . فالله إذن غير موجود . إن إحدى الهرطقات أو الضلالات الشائعة هى ضلالة « ضد الناموس » . ويسير الجاهل فى مناقشته هكذا : نحن الآن لسنا تحت الناموس ، وهذا حق . نحن الآن فى عهد النعمة ، وهذا حق . ونعمة الله تكفى لكل خطية فهى أعظم من أن تعجز عن غفران أية خطية ، وهذا حق . إذن دعنا نخطىء لكى نعطى الفرصة لهذه النعمة العظيمة لتعلن عن نفسها وعن مجدها . دعنا نعمل ما نريد » . وهكذا يكيف الجاهل نعمة الله على حسب هواه .

وهناك هرطقة أخرى وهى أن الروح أهم من الجسد . الروح كل شيء والجسد لا شيء ، وإن كان كذلك فالإنسان يستطيع أن يعمل كل شيء بجسده وهذا لا يهم لأن الجسد تافه . فلا داعي لأن نضطرب ولنعطه كل احتياجاته وشهواته . وبهذا يكيف العقيدة لتوافق رغباته . وإذا نظرنا إلى عقيدتى مجيء المسيح والسماء والجحيم ورأينا كيف أن المسيحيين يحاولون أن يسقطوهما من العقائد لأنهما لا توافقان الذوق الحديث لعرفنا أن المسيحية تقف الآن فى مواجهة بدعة جديدة .

٢ ـــ والهرطقة تنشأ ثانية من تأكيد حقيقة على حساب الحقائق اللاهوتية الأخرى ففى بحث صفات الله مثلا قد نخطىء إذ نرجح صفة على صفة أخرى . فمثلا لو فكرنا أن الله قدوس فقط فلا نستطيع أن نقترب منه أو نكون علاقة معه بل نفكر فى إله بعيد ومنفصل انفصالا تاما عن العالم ، ولو فكرنا فى عدل الله فقط لعشنا حياتنا فى خوف دائم منه ، ولو فكرنا فى إله المحبة فقط لكانت ديانتنا ديانة العواطف والإحساسات التى لا تقف أمام الحقائق الأخرى . ففى العهد الجديد نجد أصحاحات أخرى تلازم لوقا ١٥ ولابد من وجود تناقض ظاهرى فى المسيحية : فالله المحب هو الله العادل .. الإنسان حر لكن الله يدير ويدبر كل شيء .. الإنسان يعيش فى الزمان ولكنه مخلوق خالد . واستقامة الرأى فى الديانة تشبه إنسانا يسير على حد سيف لو مال إلى الشمال أو اليمين يسقط ، يجب أن نرى الحياة ككل .

٣ ـــ والهرطقة تقوم ثالثة من محاولتنا تكييف الديانة بحسب أمزجة الناس ، وبهذه الكيفية يزول مجد الديانة .. يزول منها التوبيخ والتواضع والمسئولية الأخلاقية . إن عمل رجل الدين هو أن يغير الناس ليسيروا حسب الديانة لا أن يغير الديانة لتسير حسب مزاج الناس .

٤ ـــ والهرطقة تقوم من الانقطاع عن الشركة المسيحية ، فكلما فكر الإنسان وحده كلما كان قريبا من منطقة الخطر . هناك تقليد الكنيسة .. هناك مركز الكنيسة كعمود الحق فيجب أن نصدق هذا ، ومن يجد نفسه منفصلا فى تفكيره عن هذا كله فليفتش فى نفسه فالخطأ قد يكون فيه .. إن الكنيسة الكاثوليكية محقة فى قولها : إن الإنسان لا يستطيع أن يقول إن الله أبوه قبل أن يقول للكنيسة « أمه » .

٥ ـــ وتقوم الهرطقة أخيراً من محاولة الإنسان أن يكون واضحا كل الوضوح . وهنا نجد التناقض الظاهرى واضحا . فبينما نريد أن نجعل عناصر إيماننا واضحة مفهومة للجميع نعجز عن أن نحتوى اللاهوت الغير محدود فى عقولنا المحدودة ، ولهذا فاللاهوت الأنيق المحدد الموضوع فى تقسيم كامل هو لاهوت مشكوك فيه متناقض ، لأن اللاهوت ليس رياضة ولا هندسة ، « فالجاهل وحده هو الذى يريد أن يضع السماء فى عقله لأن عقله سينفجر ، أما الحكيم فهو من يضع رأسه فى السماء » . فعندما نفكر فى ذكاء وعبقرية لنتذكر أن هناك أسراراً عميقة لم نصل إليها بعد .. ما علينا إلا أن نقف أمامها بخشوع نعبد ونصلى ونمجد ، وكما قال ترتليان « إننا نؤمن لأننا لا نستطيع أن نفهم كل شيء » .

مجيئه الثانى

(مرقس ١٣ : ٧ و ٨ و ٢٤ ــ ٢٧)

هنا يتكلم يسوع عن مجيئة الثانى موضحا إياه بثلاث صور مأخوذة من « يوم الرب » كما ورد فى كتابات اليهود والعهد القديم .

١ ــ فيوم الرب يسبقه حروب . ويقول عزرا « اضطرابات فى أمكنة وقلاقل فى الناس وكرب فى الأمم وقلق للرؤساء وزمجرة فى الأمراء » (٩ : ٣) وفى مكان آخر يقول : « وسيغشى ساكنى الأرض ذهول ودهشة وسيحاربون بعضهم بعضا . مدينة تحارب أخرى ومكان ضد آخر وشعب يقوم على شعب ومملكة على مملكة » . ويقول كتاب آخر « ملك يأسر ملكا ويأخذ أرضه ومملكة تحطم مملكة فيهرب حكامها إلى أرض أخرى . وتتغير الأرض وتغير البرابرة على اليونان ويمتصون ثروتها ويجابه الناس الهلاك بها » (نبوات ساب ٣ : ٦٣٣ ــ ٦٤٧) .

ويشير باروخ إلى اثنى عشر شيئا تسبق العهد الجديد « أولا قلق ثم ذبح العظماء وثالثا موت كثيرين ورابعاً قتل بالسيف وخامسا جوع وقحط وسادسا زلازل ورعب وثامنا أرواح شريرة تهجم وتاسعا سقوط نار وعاشرا الظلم وحادى عشر شر وفساد وثانى عشر اضطراب من جراء هذه الضربات » وعندما يتكلم يسوع عن الحروب فإنه يستعيد هذه الصور اليهودية .

٢ ــ يوم الرب يسبقه ظلام الشمس والقمر : والعهد القديم مملوء بهذه الصورة (عاموس ٨ : ٩ ويوئيل ٢ : ١٠ ، ٣ : ١٥ وحزقيال ٣٢ : ٧ و ٨ ، وإشعياء ١٣ : ١٠ ، ٣٤ : ٤) . وكتابات اليهود أيضاً مملوءة بذلك (٢ عزرا ٥ : ٤ ــ ٧ وباروخ ٣٤) .

٣ ــ ومن ضمن صور يوم الرب هو رجوع اليهود إلى فلسطين . والعهد القديم مملوء بذلك (إشعياء ٢٧ : ١٣ ، ٣٥ : ٨ ــ ١٠ وميخا ٧ : ١٢ وزكريا ١٠ : ٦ ــ ١١) .

ولكن لنذكر هذا أن يسوع عندما كان يتكلم عن مجيئه الثانى لم يعط جدول أوقات أو خريطة يرسم فيها المستقبل ، إنه يستخدم الصور التى استخدمها اليهود لكى يقرب صورة مجيئه الثانى إلى العقول .

ولكن من المهم أن نلاحظ أن ما ذكره يسوع كان يحدث حقيقة : فحروب البرابرة على الحدود الرومانية ، والزلازل التى حدثت فحطمت لودوكيا وابتلعت بومباى والمجاعة التى حدثت فى روما أيام كلوديوس قيصر .. لقد كانت الاضطرابات عظيمة حتى أن أحدهم قال « إن الآلهة لم تفتش على الناس لتخلصهم بل لتهلكهم » . ولكن هناك شىء واحد مهم ويقينى وهو أن يسوع سيأتى مرة أخرى .

اصحوا

(مرقس ١٣ : ٢٨ ــ ٣٧)

هناك أمران تجدر ملاحظتهما فى هذا الفصل :

١ ــ ظن بعض العلماء خطأ أن يسوع عندما قال إن هذه الأشياء تحدث فى هذا الجيل أنه كان يقصد مجيئه ، وظنوا أن نبوته لم تتحقق ، ولكنه فى الحقيقة كان يقصد لا مجيئه الثانى بل عن خراب أورشليم ، لأنه هو يعترف صراحة أن ابن الإنسان لا يعرف ساعة مجيئه . فنبوته اختصت بأورشليم والهيكل .

٢ ــ إن يسوع قال إن ابن الإنسان لا يعرف اليوم ولا الساعة التى يأتى فيها ، ويترك أشياء كثيرة فى يد الله وهو بذلك يوبخ أولئك الذين يظنون أنهم يعرفون أكثر منه ويرسمون خرائطاً لمجيئه .. إنه تجديف .

٣ ــ وبعد ذلك يظهر الرب النتيجة العملية لهذا كله . نحن كأناس ينتظرون سيدهم متى جاء ولكنهم لا يعرفون متى ، فلا داعى للخوف الهستيرى لكن لنعلم أن يوما ما سيكمل عملنا .. إننا نعيش عيشة مقدسة فلا نهتم كثيراً متى يأتى بل لنجعل كل يوم مقدساً حتى إذا جاء وواجهناه لا نخجل منه . إن الحياة كلها تكون استعداداً لمقابلة الملك .

هذا الأصحاح صعب ولكن لنا فيه حقائق مجيدة :

١ ــ إن الذى يعرف أسرار التاريخ هو رجل الله فقط ، لقد رأى يسوع خراب أورشليم بينما لم يره غيره لأنهم لم يكونوا لله . وهكذا كل من يريد أن يقود أمة يجب أن يقوده الله أولا . إن الإنسان الذى يعرف الله هو الإنسان الذى يستطيع أن يعرف تدبيره .

٢ ــ إنه يخبرنا حقيقتين عن المجىء الثانى :

(أ) إنها تخبرنا أن الحق الموجود فى هذه العقيدة قد ننساه عند ضيقتنا .

(ب) إن الصور التى يرسمها يسوع هى صور يهودية ذكرها ليفهم الناس بلغتهم ، ولهذا فعندما نحاول أن نبنى فوقها حوادث واقعية تاريخية فإننا نحصل على الطريق الذى رسمه هو . إننا نعرف شيئا واحداً وهو أن التاريخ يسير ويتقدم ولا بد من الكمال .. بالمجىء الثانى .

٣ــ إنه يخبرنا أن الجاهل هو الشخص الذى ينسى الله وينهمك فى العالم ، أما الحكيم فهو الذى يذكر دائما أنه يجب أن يكون مستعداً للنداء ومتى فعل ذلك فالنهاية لن تكون خوفا وانزعاجا بل فرح المنتصرين .

الأصحاح الرابع عشر

العمل الأخير يبدأ

(مرقس ١٤ : ١ و ٢)

من هنا يبدأ العمل الجماعى الأخير الذى قام به يسوع . وكان ذلك قرب عيد الفصح . إن الفصح والفطير عيدان منفصلان لا يجب الخلط بينهما . فالفصح يقع يوم ١٤ نيسان أو ١٤ أبريل تقريبا أما الفطير فهو عبارة عن سبعة أيام تلحق بعيد الفصح . عيد الفصح عيد كبير يحفظ سبتا للرب أما عيد الفطير فهو عيد صغير قد تعمل فيه الأعمال « الهامة والتى تسبب الخسائر بتوقفها » . اليوم العظيم هو يوم الفصح .

وعيد الفصح هو أحد الأعياد الثلاثة — الفصح ، الخمسين ، المظال — التى فيها ينبغى على كل يهودى قد بلغ سن الرشد ويسكن حول أورشليم فى دائرة قطرها ١٥ ميلا أن يعيدها فى أورشليم نفسها . ولهذا العيد طبيعتان :

(أ) له طبيعة تاريخية (خروج ١٢) ففيه يذكر الإسرائيليون كيف خلصهم الرب من مصر بعد أن ضربها بعدة ضربات شديدة كان آخرها موت الأبكار ، ولكن الإسرائيليون ذبحوا فى بيوتهم حملانا ورشوا دماءها على القائمتين والعتبة ، وبذلك عبر الملاك المهلك عن بيوتهم . وقبل أن يخرجوا من مصر كان عليهم أن يأكلوا هذا الحمل مع فطير غير مختمر . هذا ما يعنيه الفصح تاريخيا .

(ب) له طبيعة زراعية : إذ فيه يبدأ حصاد الشعير ، وفى ذلك اليوم يحضرون حزمة من الشعير ليرددونها أمام الرب (لاويين ٢٣ : ١٠ و ١١) . ولا يمكن أن يباع المحصول الجديد أو يشترى إلا بعد ترديد هذه الحزمة .

وكان اليهود يستعدون لهذا العيد استعدادا هائلا : فكانوا يدرسون ويعظون عنه فى المجامع وفى المدارس ، حتى يستطيع أن يعرف الكل طبيعة هذا العيد ومجده . وكانوا يفعلون شيئا غريبا وهو أنهم كانوا يبيضون القبور التى على جانبى الطريق . فقد كان اليهود أحيانا يدفنون موتاهم بجانب الطريق ، وكانت أحكام الشريعة تقول إن من يلمس قبر ميت فقد تنجس لأنه لمس الميت ، فلهذا فقد كان الحجاج يخافون أن يلمسوا القبور فى طريقهم إلى أورشليم فكانت السلطات تبيض القبور فتظهر للناس واضحة فيبتعدون عنها . وكان الحجاج فى طريقهم ينشدون بعض المزامير الخاصة واسمها مزامير المصاعد (مزامير ١٢٠ — ١٣٤) أى المزامير التى كانوا يرنمونها فى صعودهم إلى أورشليم ، ويقال إن مزمور ١٢٢ كان المزمور الذى يرنم عندما يصعد الحجاج آخر مرتفع لهم نحو المدينة .

وكانت أورشليم فى تلك الأعياد تزدحم إزدحاما شديدا فقد كان يحضر إليها حجاج من كل أمة وشعب لأن أمنية كل يهودى هى أن يأكل الفصح ولو مرة فى أورشليم قبل أن يموت ، ولهذا فقد كانت العائلات تفتح بيوتها للحجاج ، ولما كانت المدينة تضيق بمن فيها ، كانوا يذهبون إلى

بيت فاجى وبيت عنيا . وهناك ملحوظة ذكرها يوسيفوس توضح الازدحام الشديد الذى يسود أورشليم فى تلك الأعياد فقد قال إن أحد حكام اليهود أراد أن يبرهن لنيرون أهمية الديانة اليهودية فعمل تعدادا لما يذبح من الخراف فى عيد الفصح فوجده ٢٥٦٠٠٠ حملا . ولما كانت الشريعة تسمح لعشرة بأن يشتركوا فى حمل ، ولهذا نستطيع أن نخمن أن حوالى ثلاثة ملايين نسمة تفد إلى أورشليم فى ذلك العيد .

ولهذا فقد كانت السلطات اليهودية تهتم كثيراً جداً بتلك الأيام . ففى عيد الفصح يرتفع الإحساس بالقومية وبالظلم فى آن واحد إذ يذكر اليهود كيف أن الرب قد خلص آباءهم من يد فرعون ، وكانوا يودون أن يتخلصوا من الرومان . وكان الحاكم يأتى من قيصرية عاصمة حكمه إلى أورشليم ومعه بضعة كتائب من الجيش الرومانى ويعسكرون فى قلعة أنطونيو المشرفة على الهيكل ، وبذلك يستطيع أن يحفظ صمام الأمن من الإفلات .

ولقد عرفت السلطات اليهودية هذا الأمر وأحست أنه يجب أن يقبضوا على يسوع سراً وإلا اضطربت المدينة ، ومتى اضطربت تعجز أية قوة على إخمادها فى ذلك الوقت .

لقد كان آخر عمل يقوم به يسوع فى مدينة مكتظة بالناس جاءوا ليذكروا خلاصهم فى الماضى من العبودية . وهم يجهلون أن خلاصهم من عبودية الشر تم على يدى مسيح الله الذى يقطن بينهم وهم لم يعرفونه بعد .

المحبة المسرفة

(مرقس ١٤ : ٣ — ٩)

إن أهمية هذه القصة تكمن فى أنها تكشف عن آخر عمل رحمة وُجِّه ليسوع .

كان يسوع فى ذلك الوقت يتناول طعام الغذاء فى بيت سمعان الأبرص فى بيت عنيا . وكان اليهود فى الولائم لا يجلسون بل يتكئون فوق وسائد على أيديهم اليسرى ويأكلون بأيديهم اليمنى . وبينما كان يسوع يأكل جاءت إمرأة من ورائه ومعها قارورة من الطيب الخالص . لتسكبه عليه . كانت العادة أن يضع الضيف بضع قطرات من العطور على رأس الضيف عندما يدخل منزله ، ولكن هذه المرأة فعلت شيئا كبيراً فقد سكبت الطيب كله ، وكان طيبا نادراً وغالى الثمن جدا إذ كان من الناردين الذى يؤخذ من نبات نادر ينمو فى بلاد الهند ، وليس ذلك فقط بل إنها كسرت القارورة ، وكسرها معناه أنها تقدر يسوع كأمجد ضيف قد دخل البيت فلا يستحق إنسان غيره أن يدهن بالطيب . ولكن الأمر الذى رآه يسوع ولم تره هذه المرأة ولا الحاضرون هو أن كسر زجاجة الطيب معناه تكفين هذا العزيز الذى يدهن به ، فقد كانت العادة أن يكسروا زجاجة الطيب الذى يدهن به جسد الميت ثم تجمع بقايا الزجاجة وتوضع مع الميت فى كفنه . ولو أن المرأة لم تقصد مطلقا هذا المعنى لكن هذا ما حدث .

ولقد أثار هذا العمل غضب بعض الحاضرين فقد كان ثمن الطيب يساوى أجر سنة كاملة للعامل اليهودى ، ولهذا فقد كان من المخجل أن يبعثر مثل هذا الطيب بهذه الكيفية الغريبة ، لكن يسوع عرف تفكير قلوبهم ورد عليهم من نفس الكتاب المقدس « الفقراء معكم فى كل حين (تثنيه ١٥ : ١١) . وكأنه يقول : تستطيعون أن تمدوا يد المعونة لأى فقير تريدون لأنهم معكم . أما بالنسبة لى أنا فلن تقدروا أن تفعلوا شيئا .. لقد عملت ذلك لتكفينى .

هذه القصة ترينا كيف يتصرف الحب :

١ ــ لقد ذكر يسوع عن هذا العمل أنه عمل حسن » وفى اللغة اليونانية توجد كلمتان تصفان الحسن : الأولى أجاثوس agathos ومعناها الطاهر ــ بالمعنى الأخلاق ، والكلمة الثانية كالوس Kalos ومعناها الشيء الجميل المحبوب . الكلمة الأولى قد تعنى الطاهر ولكنها قد تعنى الصعب . فالإنسان الطاهر قد يكون قاسياً صارما . أما الكلمة الثانية فتعنى أن حسنه فيه الجمال والجاذبية ولقد وصف يسوع عمل المرأة بالكلمة الثانية أى أنه محبب جميل فيه الجاذبية .. ما أعظم ما يعود للكنيسة بالنفع لو كان عملها عملا محببا جذابا جميلا ؟!

٢ ــ إن المحبة الأصلية هى محبة مسرفة فى نظر الناس . إنها لا تجلس لتحسب هذا أو ذاك . إنها تعطى كل ما تستطيعه .. ولو أمكنها لأعطت كل العالم ، ومع ذلك فالعطية فى نظرها صغيرة . هناك نوع من المغامرة فى عنصر المحبة الحقيقية .

٣ ــ والمحبة عندما تعمل فإنها تعمل كأنها الفرصة الأخيرة لها فى العمل . ومن مصائب الحياة أننا عندما تتحرك مشاعرنا لعمل الخير نؤجل عمله ظانين أن فرصة أحسن سوف تسنح لنا لنقدم فيها خدمة أكبر من هذه ، ولكن قد لا تأتى الفرصة مرة أخرى . قد نخجل أن نرسل خطاب شكر لشخص عمل لنا خدمة ، قد نخجل أن نعبر بالكلام عن شكرنا ومحبتنا لشخص ما ، قد نخجل أن نقدم لشخص هدية بسيطة أو كلمة خاصة . قد نخجل أن نفعل ذلك ونميت هذا الشعور لأنه صغير بل ونؤجله إلى أن تحين الفرصة لأن نعمل شيئا أعظم من ذلك ، وقد لا يأتى هذا الوقت أبداً . وما كان أجمل الحياة لو عمل الناس عملا جميلا حسنا مثلما عملت هذه المرأة بأول فرصة تسنح . لقد أثلجت قلب يسوع بعملها هذا .

٤ ــ ويمكننا أن نلاحظ هنا ثقة يسوع اللانهائية فى الآب . إنه يرى الصليب أمامه ، ولكنه يثق أنه ليس نهاية المطاف ، سوف ينتصر وسوف يخبر بقصتها فى العالم كله . إن قصة هذه المرأة ومدى حبها وتضحيتها سوف تكون جزءا حيا من الإنجيل .

الخائن

(مرقس ١٤ : ١٠ و ١١)

يضع مرقس كفنان عبقرى ، متناقضات صارخة جنبا إلى جنب ليعمل منها قصة حياة المسيح الجبارة . وها هو هنا يرسم بالظلال السوداء صورة الخيانة الكئيبة بجوار النور الباهر الذى شعته

المحبة فى عمل هذه المرأة العظيمة .

وذكرى يهوذا تهز القلب حزنا وكآبة .. فقد صوره دانتى وهو ملقى فى أسفل طبقات الجحيم المملوءة بالثلوج المتراكمة .. تلك الطبقة التى خصصت لا للأشرار الملتهبين بالغضب الحاد بل للأشرار المحترفين الذين يعملون فى صمت وعناد وقساوة ضد محبة الله .

ومع أن كلمات مرقس لا تترك مجالا للتفسير فإننا نستطيع أن نلمح شيئاً وراء العمل الذى عمله يهوذا .

١ ــ الجشع : فى (متى ٢٦ : ١٥) نجد يهوذا يذهب إلى السلطات اليهودية ويطلب ثمنا لتسليم يسوع لهم ، ويساوم معهم حتى يصل المبلغ إلى ثلاثين من الفضة . ولقد أنار لنا يوحنا الطريق إذ أعلن أن هذه السلطات كانت تفتش وتبحث عن أسلم الطرق لتسليمه للحكومة وقتله . ويلوح أنهم خصصوا مبلغا من المال لأى إنسان يسلم يسوع (يوحنا ١١ : ٢٧) تماما كما كانوا يفعلون مع كل الخارجين عن القانون ، ولقد ذهب يهوذا لأنه كان يريد المال .. لقد كان سارقا ولصا (يوحنا ١٣ : ٦) . لقد كانت شهوة المال عند يهوذا شديدة دفعته إلى أن يبيع سيده . ولكم أعمت شهوة المال الكثيرين فجعلتهم يفكرون فى كم سيربحون لا فى مشروعية الوسيلة التى يربحون بها . لقد عرف يهوذا كم كلفه طمعه ولكن معرفته جاءت متأخرة .

٢ ــ وكان وراءها الحسد والغيرة : يقول أحد شعراء الألمان : إن يهوذا عندما تبع المسيح مع الاثنى عشر كان شابا موهوبا فاضلا يبشر بمستقبل باهر ولكن الغيرة المرة من يوحنا الذى صار التلميذ المحبوب حولت تلك المواهب إلى رماد شر . إن ما نعرفه يقيناً هو أن شجارا عنيفا كان ينشب بين التلاميذ عن أيهم الأعظم فى ملكوت السموات ، ولكن بقية التلاميذ تغلبوا على تلك المواقع وضبطوا أنفسهم ، أما يهوذا فكانت غيرته عمياء أعمته عن كل خير وساقته إلى الشر .

٣ ــ ولابد أن كان وراءها الطموح . وفى الأناجيل يظهر التلاميذ كثيرا وهم ينتظرون ويطلبون ملكوتا أرضيا يتبوأون فيه أعلى المراكز ، ولابد أن يهوذا كان يشاركهم هذا الطموح الخاطىء ، ولابد أنه كان الأول فيهم الذى اكتشف خطأ عقيدتهم هذه وبذلك تحول حبه الشديد ليسوع إلى كراهية قاتلة . وهكذا يؤدى الطموح الخاطىء بصاحبه . إن الطموح الحقيقى هو الذى يبنى على المحبة والشرف والعمل الحسن ، وبذلك يصل إلى ما يصبو إليه صاحبه .

٤ ــ هناك بعض المفكرين من يظنون أن يهوذا لم يكن يقصد بخيانته ليسوع أن يقوده إلى الصلب والموت .. إنه قصد شيئا آخر غير الذى حدث . فلقد كان المسكين وطنيا متعصباً متحمساً ، ورأى فى يسوع القوة والإمكانية على تحقيق آمال أمته ، ولكنه لما رأى يسوع لا يقوم بذلك العمل ذهب إلى سلطات اليهود وباعه لهم لا لكى يميتوه بل لكى يجبر يسوع على العمل ، كان يظن أن يسوع سوف يخلص نفسه ويبدأ عمله العظيم لليهود ، والدليل على ذلك أنه عندما رأى أن خطته سارت فى الطريق المضاد لتفكيره مضى ورمى ثمن الخيانة وشنق نفسه (متى ٢٧ : ٣ ــ ٥) . وإن صح ذلك فمأساة يهوذا تعد أقسى مأساة فى التاريخ البشرى .

٥ ــ يتفق يوحنا ولوقا معا على أن يهوذا قد دخله الشيطان (لوقا ٢٢ : ٣ ، يوحنا ١٣ :

٢٧) . وقد نقول إن الأمر كله يتلخص فى أن يهوذا أراد أن يجعل يسوع يعمل ما يريد هو لا أن يعمل هو مايريد يسوع ، لقد تبع يسوع لا ليكون واحداً من أتباعه بل ليجعله يتمم له كل خطته ويحقق أحلامه ، لم يستسلم لسيده بل أراد أن يجعل سيده يستسلم له ؛ ولكنه عندما رأى يسوع يسير فى طريقه المرسوم كرهه وخانه وسلمه للأعداء . إن أساس عمله هذا هو خطية الكبرياء ، فالكبرياء هى أن يحاول الإنسان أن يكون وأن يعمل ما يريد لا أن يكون وأن يعمل ما يريده الله ، هذه هى خطية الشيطان وما نذر نفسه له .. إنه الآن ينفذ كل شيء ضد إرادة الله .. هذه الروح تجسمت فى يهوذا .

نحن نشمئز عند تفكيرنا فى يهوذا ، ولكن دعنا نذكر هذا : أنه سقط لأنه كان جشعاً حاسداً طموحاً متكبراً فهل نحن أفضل بكثير منه ؟ هذه الخطايا هى التى جعلت يهوذا يخون يسوع ويسلمه وهى بنفسها ما زالت تدفع الكثيرين أن يخونوه فى كل جيل وعصر .

الاستعداد للعيد

(مرقس ١٤ : ١٢ — ١٦)

قد لا نحتاج أن نذكر أن يسوع كان مرتبا ومنظما فى كل حياته ، فلم يكن يترك الظروف وحدها لتسيره ، وقد ظهر ذلك — كما رأينا — فى قصة ترتيبه للدخول الإنتصارى عندما أرسل تلميذيه ليحضرا الأتان وعرفنا أنه لابد وأن كان له مع صاحبه اتفاق سابق . وبالمثل نجد فى هذه القصة حالة أخرى فى تنظيم يسوع لحياته . فهو إذ يطلب من تلميذيه أن يذهبا إلى أورشليم فيجدا هناك شخصاً حاملا جرة ، لابد وأنه كان يعرف هذا الشخص ولابد أنه اتفق معه على تمضية الفصح . وحمل الجرار لم يكن عملا عاديا للرجال بل كانت النساء فقط يحملن الجرار . فإنسان كهذا يحمل جرة كان لابد وأن يكون اتفاقا سابقاً بينه وبين المسيح .

وكانت البيوت اليهودية الكبيرة تقسم إلى غرف ، وفوق السطح كانت توجد غرفة مخصوصة صغيرة إسمها العلية ، وكان يمكن أن يصعد إليها أى زائر عن طريق سلالم خارجية فلا يدخل داخل المنزل . هذه العلية كانت تستخدم كمخزن أو فى تمضية وقت الراحة أو الصلاة ، ولكن الاستعمال الخاص لها كان استعمالا تعليميا إذ كان المعلم اليهودى يجلس هناك مع تلاميذه يعلمهم ويفسر لهم الكتب .

هناك شيء آخر ينبغى أن نعرفه وهو كيفية تقسيم الأيام عند اليهود ، فقد كان اليوم يبدأ فى الساعة السادسة من المساء السابق ، فيوم السبت مثلا كان يبدأ الساعة السادسة من مساء الجمعة وينتهى فى السادسة من مساء السبت .

وهنا نتساءل : ما هى الاستعدادات التى يقوم بها اليهود ليوم الفصح ؟

العمل الأول هو اخلاء المنزل من الخمير ، فكل رب بيت يجب أن يفتش البيت كله لئلا يوجد فيه خميرة أو خبز مختمر . ويفعلون ذلك لأنهم يذكرون يوم خروجهم من مصر (خروج ١٢)

عندما كانوا فى عجلة شديدة من أمرهم وكان عليهم أن يأكلوا بغاية السرعة فلم يكن هناك وقت للخبز المختمر ، فأمرهم الرب أن يأكلوا فطيراً من غير خمير . زد على ذلك عقيدة اليهود فى الخمير فإنهم كانوا يرمزون للشر بالخمير ، فهى رمز الفساد والانحلال ولهذا فقد كان رب البيت يمسك بمصباح ويفتش فى البيت بطريقة طقسية عن كل خمير ليخلص البيت منه . وقبل التفتيش يصلى :

« مبارك أنت أيها الرب إلهنا ملك الكون الذى قدستنا بوصيتك وأمرتنا أن نتخلص من الخمير » .

وبعد الانتهاء يقول رب البيت أيضا :

كل الخمير الذى فى حوزتى ما رأيته وما لم أره ليفسد وليكن كتراب الأرض » .

يجىء بعد ذلك ذبح حمل الفصح ويكون ذلك بعد الظهر قبل حلول مساء العيد . وكان يجب على العابد أن يذبح حمله بنفسه . وحالما يقطع رقبة الحمل كان واحد من الكهنة الواقفين فى صفين طويلين يأخذ دمه فى إناء ذهبى أو فضى ثم يسلمه إلى الكاهن الواقف بجواره وذلك يسلمه لآخر حتى إلى الكاهن الواقف بجوار المذبح فيسكبه على المذبح ، وكان الدم مساو للحياة فى نظر كل يهودى . وبعد ذلك يسلخ الحمل وتوضع الكوارع والشحم على المذبح لأنها قدس للرب . وبعد ذلك يرجع العابد إلى بيته ويشوى الحمل بتمامه شيا . لا يسلقه ولا يطبخه ولا يدع شيئاً يلمسه بل يحمله على قضيب من حديد ويشويه شيا .

أما المائدة فكانت على شكل مربع مفتوح من أحد جوانبه ، وكانت منخفضة يجلس إليها الضيوف على وسائد مستندين على الكوع الأيسر ويستخدمون اليد اليمنى فى الأكل .

وكانت هناك أشياء مهمة يجب على اليهودى أن يقوم بها ، ولابد أن قام بها تلاميذ السيد :

١ ـــ دم الحمل وهو يذكرهم كيف حفظت بيوتهم فى مصر من ضربة الملاك المهلك .

٢ ـــ الخبز الفطير وهو يذكرهم كيف أكل آباؤهم بعجلة وسرعة عند هروبهم من مصر .

٣ ـــ إناء به ماء ملح ليذكرهم بالدموع التى سكبها آباؤهم فى بيت العبودية وبالبحر الأحمر الذى جازه آباؤهم بمعجزة عظيمة .

٤ ـــ الأعشاب المرة : فجل برى ، سريس ، البقلة المباركة والخس وغيرها لتذكرهم بالمر الذى شربه آباؤهم فى بيت العبودية .

٥ ـــ هناك عجينة اسمها « كاروشيث » وهى خليط من التفاح والبلح والفول وغيرها لتذكرهم بالطين الذى حولوه إلى لبن فى مصر وفيها بعض عصى القرفة لتذكرهم بالتبن .

٦ ـــ أربعة كؤوس من الخمر المخلوط بالماء ، وكانت الكؤوس التى يشربونها فى أوقات مخصوصة أثناء الأكل تذكرهم بمواعيد الله الأربعة المذكورة فى خروج (٦ : ٦ و ٧)

أخرجك من تحت أثقال المصريين	أخلصك بذراع ممدودة
أخلصك من العبودية	أجعلك شعبا لى وأكون لك إلها

هذه هى الاستعدادات التى كان يقوم بها كل يهودى عند اقتراب عيد الفصح إذ يذكرون كل ما حدث لهم بالتفصيل عند إخراج الرب لهم من مصر . فى هذا العيد نفسه جلس مخلص العالم كله ومحرره ليأكل الفصح مع تلاميذه .

آخر صيحات المحبة

(مرقس ١٤ : ١٧ ـــ ٢١)

وبدأ عيد الفصح وجلس يسوع وتلاميذه للأكل ، وكانت الطريقة التى يأكلون بها الفصح هى نفسها منذ أن بدأ الفصح فى مصر ما عدا فارق واحد وهو أنهم فى مصر أكلوه على عجلة وبسرعة لأنهم كانوا عبيداً هاربين من العبودية ، أما الآن فإنهم يأكلونه متكئين علامة أنهم أصبحوا أحراراً لهم بيوتهم وأمتهم المستقلة .

وكانت كلمات الكتب المقدسة على لسان يسوع دائماً ، وكان يذكر فى تلك الفترة كلمات المرنم فى (مزمور ٤١ : ٩) ، وفى هذه الحادثة نجد عدة أمور عظيمة .:

١ ـــ كان يسوع يعرف تماماً ما يجرى من حوله ، وماذا سيحدث له ومع ذلك فلم ينثن إلى الوراء وهذه هى الشجاعة الكاملة ليسوع . يقول هوميروس إنهم قالوا لأخيل إنه إن ذهب إلى المعركة فسوف يقتل فأجاب أخيل « ولو فأنا هنا لكى أتقدم » . نعم كان يسوع هنا لكى يتقدم .

٢ ـــ كان يسوع يعرف قلب يهوذا . إن الأمر الغريب هنا هو أن التلاميذ لم يستطيعوا أن يعرفوا شيئا ولم يشكوا فى يهوذا وإلا لكانوا أوقفوه بالقوة ، لأن يهوذا حاول أن يخفى كل شىء عنهم ونجح فى ذلك ولكنه لم يستطع أن يخفى شيئا عن يسوع ، إنه يعرف أعماق قلوب الناس .

لأن أفكارنا عريانة أمام ناظريك وخطايانا السرية مكشوفة أمام ناظرك الطاهر . نعم « طوبى لأنقياء القلب » .

٣ ـــ فى هذه الآيات نجد يسوع يمنح يهوذا أمرين :

(أ) نداء المحبة الأخير ، كأنه يقول له « أنا أعرف ماذا ستعمل أفلا تتوقف إذن ؟ »

(ب) التحذير الأخير ، لقد عرفه بالنتائج الفظيعة لما يدور فى عقله ولما يدبره الآن ومع ذلك فهو لم يجبره على شىء . كان يمكن ليسوع أن يوقف يهوذا فلا يستطيع أن يفعل شيئاً ، كان يمكن أن يجبر بقية تلاميذه بذلك وبعدئذ لا يستطيع يهوذا أن يخرج حياً من تلك الغرفة ، ولكن يسوع تركه حراً ، وهذا هو الموقف البشرى كله : إن الله يحذرنا وينذرنا ولكنه يتركنا أحراراً لأنه خلقنا عاقلين نقدر الظروف التى نجتازها .. إن المسئولية النهائية فى الخطية والهلاك تقع على الإنسان إذ يصم أذنيه على تحذير وإنذار محبة الله ويعمل ما يريده .

تقول إحدى الأساطير اليونانية إن جماعة من المغنين المشهورين كانوا يجلسون على الصخور فى

البحار ويغنون أحلى ما عندهم عندما يرون سفينة قادمة ، وعندما كان البحارة يسمعون الغناء الجميل كانوا ينجذبون إليه وبذلك تصطدم سفنهم بالصخور وتتكسر . ولقد عالج اثنان من رؤساء البحار هذا الأمر : الأول كان يجبر البحارة على ألا يسمعوا هذه الأغانى فيسد آذانهم ويربطهم فى المركب بالحبال فلا يستطيعون قيادة السفينة إلى الهلاك أما الثانى فقد كان يغنى على قيثارته أغانى أجمل وأحلى مما كان يأتى من على الصخور وبذلك يجذب البحارة إليه ويبعدهم عن الغناء المهلك . هكذا يفعل الله ، إنه يدعونا دعوة أحلى وأمجد من الدعوة التى تأتينا من العالم والخطية لعلنا نرجع فلا نهلك .. إنه لا يجبرنا بل يدعونا بالحب .

رمز الخلاص

(مرقس ١٤ : ٢٢ ــ ٢٦)

يجب أولا أن نتبع الخطوات التى تسير فيها أكلة الفصح حتى نستطيع أن نفهم ماذا كان يفعل يسوع وتلاميذه فى تلك العلية .

١ ــ كأس القادوس : أو كأس القداسة أو الانفصال وهذا يعنى فصل هذه الأكلة عن كل الأكلات الأخرى . يصب رب الأسرة الكأس ثم يصلى ويشرب ويعطى كل أهل البيت ليشربوا .

٢ ــ غسل اليدين أولا . كان على من يأكل الفصح أن يغسل يديه ثلاث مرات بالطريقة التى شرحت فى أصحاح ٧ .

٣ ــ قطعة من الأعشاب تغمس فى الماء المملح وتؤكل . قد يكون ذلك لفتح الشهية ، ولكن فى أصلها كان العشب يشير إلى الزوفا التى تغمس فى الدم أما الماء المملح فكان يشير إلى دموع الشعب فى أرض مصر ثم إلى مياه البحر الأحمر التى اجتازوها .

٤ ــ كسر الخبز : وهناك بركتان تذكران عند كسر الخبز « مبارك أنت أيها الرب إلهنا ملك الكون الذى تعطى من الأرض خيرات » أو « مبارك أنت أيها الآب السماوى الذى تعطينا الآن خبزنا كفافنا » . وعلى المائدة كانوا يضعون ثلاث دوائر من الفطير الغير مختمر ، وكانت تؤخذ الوسطى وتكسر ، وكانوا يأكلون جزءاً صغيراً منها ليتذكروا أنهم إنما كانوا يأكلون الفتات المتساقط من المصريين وأن العبد لم يأكل من رغيف واحد كامل ، وعندما كانوا يكسرونه كان رب البيت يقول « هذا هو خبز الضيق الذى أكله آباؤنا فى مصر ، فمن هو جائع فليأت ويأكل ومن هو محتاج فليأت ويعيد الفصح معنا » . أما اليهود المعاصرون فيضيفون « هذه السنة نحفظ الفصح هنا أما السنة القادمة ففى أرض إسرائيل . هذه السنة كعبيد أما الآتية فسنتحرر » .

٥ ــ ذكر قصة الخلاص ، وتسير هكذا : يسأل أصغر شخص موجود على المائدة عن السبب الذى يجعل هذا اليوم متميزاً عن كل الأيام ، ولماذا يعملون كل هذا . وعندئذ يبدأ رب البيت فى قص حكاية الخلاص العظيم الذى عمله الرب مع شعبه مبتدئاً من الأول حتى عبورهم البحر الأحمر .

فالفصح عند اليهود ليس طقساً لكنه ذكرى لخلاص عظيم .

٦ ــ عندئذ يرنم الحاضرون مزموري (١١٣ ، ١١٤) وهما جزء من مجموعة اسمها مجموعة الحمد (١١٣ ــ ١١٨) وهي أول ما يحفظه الولد اليهودي عن ظهر قلب .

٧ ــ عندئذ يشربون الكأس الثاني واسمه كأس « هاجاداه » أو كأس التفسير أو الإعلان .

٨ ــ عندئذ يغسل كل الحاضرين أيديهم إستعداداً للأكل .

٩ ــ وعندئذ تقال البركة « مبارك أنت أيها الرب إلهنا الذي تنبت ثمراً من الأرض ، مبارك أنت ياالله الذي قدستنا بوصيتك وجمعتنا لنأكل فطيراً» .

١٠ ــ توضع بعض الأعشاب المرة في وسط قطعتين من الفطير ثم تغمس في « الكاروشيث » . هذه تسمى باللقمة . وهي تذكرهم بالعبودية التي ذاقوها في مصر .

١١ ــ عندئذ تبدأ الوجبة الأصلية . فيأكلون الحمل كله فلا يبقى منه شيء ، وإذا بقي فيحرقونه في النار ولا يستخدمون أي شيء منه في أية وجبة أخرى .

١٢ ــ غسل الأيدي مرة أخرى .

١٣ ــ بقية الفطير يؤكل .

١٤ ــ صلاة الشكر التي فيها يطلبون مجيء إيليا ليعلن المسيا . ثم يشربون الكأس الثالثة وهي كأس الشكر : وتجرى البركة عليها هكذا « مبارك أنت أيها الرب إلهنا ملك الكون الذي خلقت ثمار الكرمة » .

١٥ ــ الجزء الثاني من مزامير الحمد (١١٥ ــ ١١٨) .

١٦ ــ الكأس الرابع ثم مزمور ١٣٦ الذي يدعى مزمور الحمد الأعظم .

١٧ ــ صلاتان قصيرتان « كل أعمالك تسبحك أيها الرب إلهنا ، وكل قديسيك الأبرار الذين يعملون مسرتك وشعبك بيت إسرائيل يرنمون بفرح عظيم ويحمدون ويعظمون ويمجدون ويخشعون ويعطون الملك لاسمك ياالله إلهنا ، لأنه حسن الحمد لك ومبهج الترنم لاسمك من الآن وإلى الأبد أنت الله » .

« وكل نفس حية تحمد اسمك أيها الرب إلهنا ، وكل روح بشر تمجدك وتذكر أعمالك أيها الرب إلهنا لأنه من الآن إلى الأبد أنت الله وبجوارك لا إله آخر مخلص وفاد » .

وهنا تنتهي طقوس الفصح ، ونعتقد أن يسوع قد أخذ البندين ١٣ ، ١٤ وحولهما إلى نفسه وكانت الترنيمة ١٦ هي التسبيحة التي رنموها وخرجوا .

والآن ماذا فعل يسوع ؟ وماذا كان يريد أن يضع في حياة تلاميذه وعقولهم ؟ لنرجع إلى الوراء ونتأمل بعض الأعمال التي قام بها الأنبياء .. لقد كانت أعمالا رمزية تبقى في ذاكرة الشعب عندما

ينسون الكلمات ، فالنبى أخيّا يقطع ثوبه ، إلى اثنتى عشر قطعة علامة على تقسيم مملكة إسرائيل (١ ملوك ١١ : ٢٩ — ٣٢) ويضع إرميا النير على عنقه علامة للعبودية ويكسر حنانيا النير (إرميا ٢٧ ، ٢٨ : ١٠ — ١٢) وهذا ما كان يعمله حزقيال دائماً (حزقيال ٤ : ١ — ٨ ، ٥ : ١ — ٤) . هذا ما فعله يسوع لكى يذكر التلاميذ بعمله من أجلهم حتى يرتسم فى حياتهم وقلوبهم ويقول لهم « أنظروا : كما يكسر هذا الخبز سيكسر جسدى من أجلكم وكما ينسكب هذا الكأس هكذا ينسكب دمى من أجلكم » .

ولكن ماذا كان يقصد عندما ذكر أن الكأس هو للعهد الجديد بدمه ؟ إن العهد عنصر مهم من عناصر الديانة اليهودية . فأساس هذه الديانة هو أن الله دخل فى عهد مع هذا الشعب عند جبل سيناء ، أى دخل فى صلة وعلاقة معهم (خروج ٢٤ : ٣ — ٨) . ولقد كان جوهر هذا العهد مبنياً على الشريعة وحفظها ، فإن حفظ الإسرائيليون الشريعة فإنهم يبقون فى عهدهم مع الرب ، أما إذا كسروها فهم قد نقضوا العهود . ولم يأت يوم فيه أتم اليهود شريعة إلههم فأدانهم الرب .. إنهم شعب صلب الرقبة . وهنا يأتى يسوع ويقول لتلاميذه « إنى أدخل معكم فى عهد آخر .. عهد جديد صلة جديدة لا تبنى على الشريعة ولكن على دمى .. ولأن دمى يعبر عن المحبة فهذا العهد هو عهد الحب » . فهذه الصلة الجديدة هى صلة الحب لا الناموس ، وأضحى الناس أحراراً من الناموس وصاروا فى حماية محبة الله العميقة . هذا هو الجوهر الذى لا يخطئه العقل فى عمل يسوع .

فشل الأصدقاء

(مرقس ١٤ : ٢٧ — ٣١)

إن أعظم ما يثير إعجابنا فى يسوع أنه لم يقابل موقفاً لم يكن مستعداً له . كان يعرف أن بعضهم سيعارضه ويعاديه ويسىء فهمه ، وقد عرف أن أصدقاءه سيخونونه ، كان يعرف الصليب وآلامه وكان مستعداً لمواجهة كل شىء . ولكن الشىء الذى كسر قلبه أكثر من أى شىء آخر هو أنه كان يعلم أن أحباءه سيتخلون عنه ساعة التجربة . إن الإنسان يحتاج إلى صديق فى وقت التجربة أكثر من أى وقت آخر ، ولكن فى هذا الوقت بالذات يهرب تلاميذ السيد ويتركونه . وبترك أصدقائه له يكون يسوع قد جاز كل تجربة وضيقة فى الحياة . فى قصة اسمها « الثبات » يتكلم المؤلف عن شخص اسمه بطرس اتخذ شعاراً له فى حياته « الحياة لا تهم ولكن الشجاعة فى مواجهة الحياة » . يقول بطرس هذا عندما وصل قمة الجبل « مبارك عذاب الجسد وآلامه ، مباركة الخسائر وخيانة الأصدقاء وإنكار الحب ، مبارك فشل كل رجاء أرضى ، مبارك الحزن والألم والصعاب التى تتطلب الشجاعة .. مبارك كل هذا لأنها تصنع منى رجلا » .عندما يركع بطرس ليصلى يقول : « إصنع منى رجلا لا يخاف أى شىء بل يستعد لمواجهة كل الأشياء : الحب ، الصداقة والنجاح . سواء وُجد كل هذا أم لم يوجد .. اجعلنى شجاعا » .

لقد أظهر يسوع أكثر من أى إنسان عاش على الأرض ثباتاً ، وظهر أنه يسير فى الطريق الحق

مهما كانت الظروف ، حتى أننا نحبس أنفاسنا عندما نتأمل بطولة يسوع المنقطعة النظير .

وعندما أخبر يسوع تلاميذه عن تركهم إياه لم يصدق ولم يتخيل ذلك ، ولم يكن بطرس كاذباً ، إنه لم يكن أقل من ذلك القائد الذى أسروه وأوقفوه أمام حبل المشنقة وطلبوا منه أن يتخلى عن مليكه فقال « قد تخلعون رأسى من بين كتفى ، ولكنكم لا تستطيعون أن تخلعوا قلبى من بين أضلعى » . نعم كان بطرس صادقا إلا أنه نسى واحداً يكمن فى الكلمة « تشكون » . إن هذه الكلمة تأتى من « اسكانديليتزن » «Skandalizein» وهى تعنى الطعم الذى يوضع فى الفخ ليجر رجل الطير إليه فى ساعة من ساعات الضعف ، لقد نسى بطرس ضعف الطبيعة البشرية ، نسى التجربة الشديدة التى يوجهها الشيطان فى ذلك الوقت .. لقد كان بطرس واثقاً أزيد مما يجب .

ولكن مع ذلك لنذكر أن قلب بطرس كان مع يسوع ، حتى فى سقطته كان يحب يسوع ، ونحن نحب ألف مرة تلك الحرارة .. حرارة المحبة التى قد تفشل أحياناً ولكنها تقوم من كبوتها مرة أخرى ، أكثر من برودة الكراهية المسمومة التى ملأت قلب يهوذا .

لتكن إرادتك

(مرقس ١٤ : ٣٢ ـــ ٤٢)

إننا نرتعش أحياناً ونحن نقرأ هذه الكلمات لأننا نقتحم وحدة يسوع مع الآب . لقد كان من الخطورة بمكان أن يستمر يسوع فى العلية ، فعين السلطات تراقبهم ولو بقوا هناك لضاع الجميع . فخرج يسوع وذهب إلى بستان جثيمانى ، ويلوح أنه بستان أحد أصدقاء يسوع الأثرياء عمله لنفسه وتعود يسوع أن يذهب إليه . ونفهم ذلك من عقيدة اليهود فى قداسة أورشليم الفائقة التى جعلتهم يحرمون عمل بساتين فيها ، فكان أثرياء اليهود يعملون لهم جنات فى الخارج ، وكان يهوذا يعرف مكان يسوع ولذلك ذهب إليه مباشرة .

وعندما جاء يسوع إلى البستان كان يحتاج أكثر من أى وقت مضى إلى الصداقة : صداقة البشر وصداقة الآب . إنه ليس حسناً أن يبقى الإنسان وحده (تكوين ٢ : ١٨) . قد لا يستطيع الصديق أن يفعل لنا شيئاً .. قد لا يستطيع أن يشاركنا التجربة . ولكننا نحتاج إليه وقت التجربة .. نحتاج إلى وجوده .. إلى أذنيه لتسمع لنا .. إن مجرد وجوده هو تعزية لنا . ومن المدهش ومن المحزن أن يرى التلاميذ الذين أكدوا بشدة أنهم ، ولو قتلوا ، لن يتركوا يسوع . لم يستطيعوا أن يقضوا معه ساعة واحدة .. ولكنهم معذورون .. فتعب اليوم كله .. والاضطراب والقلق الذى كانوا يعانونه قد هد أبدانهم فارتموا على الأرض وناموا .

هناك أشياء واضحة أمامنا فى هذا الفصل :

١ ـــ إن يسوع صلى لكى تعبر عنه هذه الكأس ، وكانت نفسه حزينة جداً حتى الموت . لقد كان يعرف الصليب .. يعرف آلام الموت .. يعرف التضحية الجبارة الهائلة وهو يرى الحياة تنفتح أمامه .. ولكنه مع ذلك كان مملوءاً بالإيمان الشجاع الذى يسير حتى ولو فى الظلام والكرب .

٢ ــ خضع لإرادة الآب . « أبا » هى الكلمة الآرامية « لأبى » فيسوع لم يخضع لإله يلعب بحياة الناس ويلهو بآلامهم ، لا يهتم بشىء .. إنه لم يخضع للحظ أو القدر القاسى ، بل كان خاضعاً للآب .. نعم كان هو الآب حتى فى هذا الوقت الهائل الذى يتطلب فيه مسئولية لا يطيقها البشر . عندما قتل الأعداء ريتشرد كاميرون قطعوا يديه ورأسه وحملوها إلى أبيه الذى كان مسجوناً لنفس السبب الذى من أجله قتل ابنه . ولما قدموها له سألوه إن كان يعرفها فرفعها وقبلها وقال « نعم أعرفها إنها جزء من جسم ابنى . ابنى الحبيب .. ولكنه الرب .. وصالحة هى إرادته ومشيئته التى لا تتركنى ولم تترك ابنى .. إنما خير ورحمة يتبعاننى كل أيام حياتى » .

عندما ندعو الله أبانا تهون علينا كل البلايا وتصبح الحياة سهلة .. قد لا نفهم ما يحدث أمامنا ولكننا نتأكد من أن « يد الآب لا تسيل الدموع من عين الطفل الغالى عبثاً) هذا ما عرفه يسوع وهذا ما جعله ينطلق إلى الصليب فى ثبات .

لنلاحظ كيف انتهى الفصل لقد أقبل مسلمه فماذا فعل يسوع ؟ لم يهرب وما كان أسهل هروبه .. كلا إنه واجه الموت .. إنه لم يتثن ولم يهرب .

القبض عليه

(مرقس ١٤ : ٤٣ ــ ٥٠)

مع أن قصة مرقس قصة مختصرة لكنها هنا رواية متكاملة الأطراف نجد من شخصياتها :

١ ــ **يهوذا** : كان يهوذا يعرف أن الناس تعرف يسوع حالما تراه لأنها تعودت أن تراه ، لكن ظلام الليل والمشاعل بين الأشجار وظلال الأغصان الكثيفة ، هذه كلها تحتاج إلى شخص متأكد من المعرفة حتى يقبض عليه ، وكانت العلامة التى وضعها لهم هى القبلة .. وكانت القبلة شيئاً مألوفاً بين التلميذ ومعلمه ، فعندما كان التلميذ يجىء إلى معلمه كان يقبله وهكذا فعل يهوذا . لكن الأمر المحزن أن يهوذا لم يقبل يسوع قبلة التلميذ للمعلم بل قبلة المحب لحبيبه . فقبلة التلميذ لمعلمه اسمها « فيلاين » أما قبلة المحب فاسمها « كاتافيلاين » Kataphilein . ومعنى ذلك أن يهوذا استخدم أقدس علامة فى خيانة يسوع .. إنها لم تكن قبلة عادية طبيعية بل قبلة المحب استخدمها فى الخيانة .

٢ ــ **الجمع** : جاء الجمع ــ كما يقول مرقس ــ من قبل الكهنة والكتبة والفريسيين أى أنهم جاءوا من قبل السنهدريم . ولقد كان للسنهدريم عساكره الخاصة حتى فى وجود الرومان والعساكر الرومان بينهم ، وفى سيرهم إنضم إليهم لفيف كبير من الشوارع . لقد جاءوا وهم يظنون أنهم سيقابلون بالقوة ولهذا استعدوا لسفك الدماء وإشاعة الرعب إنهم هم مصدر الرعب لا يسوع .

٣ ــ هناك رجل يستل سيفه ويضرب : يخبرنا يوحنا (يوحنا ١٨ : ١٠) أنه كان بطرس ويلوح أن مرقس حذف الاسم لأن ذكر اسمه لم يكن مأمون العواقب عند كتابة هذا الإنجيل .

لكن يوحنا استطاع أن يذكر من هو الذى ضرب لأن كتابة الإنجيل كانت متأخرة . قد يكون من الخطأ أن يستل أحد سيفه ويضرب إنساناً من الخلف فيقطع أذنه . ولكننا نسر إذ نجد إنساناً يضرب ضربة واحدة من أجل يسوع .

٤ ــ **التلاميذ** : لقد تحطمت أعصابهم و لم يستطيعوا مواجهة الموقف . لقد خافوا أن يشاركوا يسوع مصيره ويقتلوا مثله فهربوا .

٥ ــ **يسوع نفسه** : فى وسط هذا البحر من الاضطراب كان يسوع وحده يمثل الهدوء والثبات التام . فهو الذى كان يوجه الأمور كلها لا عساكر السنهدريم . لقد انتهى نضال وكفاح البستان وخرج ليتمم إرادة الله الأمينة .

شاب ما

(مرقس ١٤ : ٥١ و ٥٢)

هذان العددان يظهران كأنهما غريبان عن هذا الفصل ، فهما لا يضيفان جديداً إلى هذه القصة . وإلى جانب ذلك فإننا لا نجدهما فى متى ولوقا مع أن الاثنين يتبعان مرقس فى ترتيب قصته وحوادثه بأمانة تامة ، إلا أنهما يتركان هذه الحادثة بدون أن يشيرا إليها من بعيد أو قريب . وهنا نتساءل : لماذا يذكرها مرقس هنا ؟ السبب بسيط وهو أن هذا الشاب كان هو مرقس بعينه ، وكأنه يقول ، إذ يذكر هذه القصة : « لقد كنت هناك » مع أنه لا يذكر اسمه .

وإذا ذكرنا أن سفر الأعمال يذكر أن بيت مريم أم مرقس كان هو المكان الذى اتخذته الكنيسة ليكون مقراً لاجتماعاتها (أعمال ١٢ : ١٢) نرجح أن هذه العلية التى قضى فيها المسيح تلك الليلة الأخيرة لم تكن سوى فى هذا البيت .. وعلى هذا الأساس استمرت الكنيسة فى اجتماعاتها فيه .. وهذا يظهر أمامنا إمكانتان :

(أ) قد يمكن أن يكون مرقس حاضراً العشاء الأخير . لقد كان غلاما صغيراً لم يهتم بأمره أحد ولكنه أعجب بيسوع ، فعندما خرج مع تلاميذ تبعه فى الوقت الذى كان يجب أن يكون فى فراشه ، ولم يكن لابسا سوى إزار من كتان ، ربما كان مرقس هناك بين الأشجار يرى ويسمع ما يحدث حوله . وهذا يفسر لنا مشكلة واحده وهى : من الذى كان يعرف قصة صراع يسوع فى البستان ؟ ومن هو مصدرها إذ كان التلاميذ قد ناموا ساعتها ؟ لابد أنه كان مرقس ذلك الصبى الذى وقف وراء الأشجار يرقب بطله العظيم وهو يناضل فى البستان .

(ب) وقد يمكن أن يكون ذهاب مرقس إلى البستان قد حدث بطريقة أخرى . من قصة يوحنا (يوحنا ١٣ : ٣٠) نعلم أن يهوذا خرج إلى رؤساء الكهنة قبل انتهاء العشاء وأحضر جند الهيكل وجاء إلى البيت ولكنه لم يجد يسوع أو تلاميذه فبدأ يسأل ويناقش وعرف أنه ذهب إلى البستان ، وفى أثناء ذلك استيقظ مرقس من النوم وسمع اللغط والضوضاء فما كان منه إلا أنه التف بالإزار وخرج وراء الجمع ورأى ذلك المنظر الذى حدث فى البستان .

ومهما كانت الظروف والطريقة التى جاء بها إلى هذا المكان لنذكر شيئاً واحداً وهو أن مرقس يذكر هذه القصة عن نفسه .. لم يستطع أن ينسى تلك الليلة ، وكان متواضعاً فلم يرد أن يذكر اسمه ولكنه وضع ختمه وإمضاءه وكأنه يقول « أنظروا لقد كنت أنا هناك عندما كنت ولداً صغيراً » نعم نقرأ هذا القول فيما بين السطور .

المحاكمة

(مرقس ١٤ : ٥٣ و ٥٥ ــ ٦٥)

كانت الأمور تتحرك بسرعة إلى قضائها المحتوم :

وفى تلك الأيام كانت سلطة السنهدريم محدودة وغير مطلقة نظراً لسيطرة السلطة الرومانية عليه ، وكان عليه أن يجزم فى الأمور الدينية فقط ، ولم يكن عمله سوى عمل المدعى العام الذى يوجه التهم ولكنه لا يستطيع أن ينفذ الحكم ، لأن سلطة التنفيذ كانت من اختصاص السلطات الرومانية .

وليس هناك شك فى أن السنهدريم ــ ليتخلص من يسوع ــ كسر كل قوانينه التى تشرحها المشنا واحدة فواحدة . ومع أن بعضاً من تلك القوانين والإجراءات لم تكن سوى مثل عليا لا تطبق لكن هناك قوانين أخرى كان يجب أن تطبق فى محاكمة يسوع لكنهم كسروها كلها .

كان السنهدريم ، محكمة اليهود العليا ، يتكون من واحد وسبعين عضوا من كهنة ــ صدوقيين ــ وكتبة وفريسيين وشيوخ . وإذا غاب بعضهم عن الاجتماع يجب أن يملأ مكانهم الشاغر فى تلك الجلسة . وكانت الجلسات تسير تحت إشراف وإدارة رئيس الكهنة ، وكان الأعضاء يجلسون فى نصف دائرة حتى يستطيع كل عضو أن يرى ما يجرى أمامه وفى مواجهتهم كان تلاميذ المعلمين اليهود يجلسون ، وقد يشتركون فى الدفاع عن المتهم لا فى إدانته ، أما مكان الاجتماع الرسمى فيجب أن يكون فى قاعة « الحجر المنحوت » ولا يمكن أن يصدر قرار يوافق عليه إلا فى هذه القاعة . أما وقت الاجتماعات فينبغى أن يكون نهاراً ، ولا يجوز أن يجتمع ليلا أو فى أيام الأعياد . وفى أثناء المحاكمة كان يجب أن يفحص الشهود كلا على حدة ويجب أن تكون الشهادة متطابقة تماماً حتى يؤخذ بها وبعد أن يصدر الحكم يجب أن تمضى ليلة كاملة قبل أن يعلنه المجتمع فيصبح نافذ المفعول لعل المحكمة تراجع نفسها .

هذه هى قواعد اجتماع السنهدريم كمحكمة وكيفية سير الدعوة ، فإذا تأملنا فى محاكمة يسوع نجدهم قد كسروا هذه القواعد ، فهم قد اجتمعوا ليلا وفى غير المكان الذى يجب أن يجتمعوا فيه ، ولم يعط كل واحد من الأعضاء قراره بنفسه ، ولم تمض ليلة على إجراءات القضاء وتنفيذ الحكم . وهكذا .

أما بخصوص الشهود فلم تتفق كلمتهم ، ولعل أحدهم سمع كلام يسوع فى الهيكل عن نقض الهيكل ، ثم سمعه وهو يكلم تلاميذه عن أحجار الهيكل التى ستنقض ولا يبقى منها حجر على حجر فجاء بالشهادة أمام المحكمة ، ولكن الشهود لم يتفقوا على شىء . وتقول قصة للابوكريفا : إن

مجموعة كبيرة من الشهود دخلوا ليقدموا شهادة لم يردها أعضاء المحكمة فقد شهد أحدهم أنه كان أعمى وقد شفاه يسوع وآخر قال إنه شفاه من برصه وآخر من عرجه ورابع من الفالج وغير ذلك .

ولما رأى رئيس الكهنة ذلك أمسك بالأمر بين يديه ووقف يسأل يسوع سؤالاً يحرمه القانون ، إنه سؤال أساسى يدع المتهم يوجه التهمة لنفسه وليس من المعقول أن يسأل إنسان أن يدين نفسه .. ولكن رئيس الكهنة لم يكن يهتم بالقانون قدر اهتمامه بقتل يسوع ، فوجه هذا السؤال إليه « هل أنت هو ابن الله المبارك ؟ » . ولما رأى يسوع أن كل شيء قد انتهى أجاب بالإيجاب . وقد كان هذا عين ما يطلبه السنهدريم فحكم على يسوع بالموت نتيجة التجديف . وهنا نرى مرة أخرى بعض صفات يسوع .

١ ــ كان شجاعاً : لقد عرف أنه سيموت ، ولكنه لم يتردد فنطق بالصدق ، ولو كان قد أنكر التهمة لعجزوا عن محاكمته .

٢ ــ كان شديد الثقة ومع أنه كان يرى الصليب أمام ناظريه لكنه كان يتكلم واثقاً من النصرة النهائية .

إنه من المآسى القاتلة أنهم ينكرون العدالة على من جاء ليهب الناس الحب ويحقرونه بطريقة خشنة فظة .

الشجاعة والجبن

(مرقس ١٤ : ٥٤ و ٦٦ ــ ٧٢)

كثيراً ما نظلم بطرس عندما نقرأ قصة إنكاره لأننا نؤكد بشدة مسألة الإنكار ، ولكن لو عرفنا كل الظروف لأشفقنا عليه كثيراً واتخذنا حذرنا نحن لئلا نسقط . لقد أظهر بطرس إلى تلك اللحظة شجاعة نادرة .. بل شجاعة مغامرة إذ يقف هو وحيداً وبيده سيفه ليضرب عبد رئيس الكهنة متحدياً كل هذا الجمهور الضخم المتعطش للدم ؟ وبعد ذلك ماذا يعمل ؟ يذهب إلى نفس البيت ــ بيت رئيس الكهنة ــ الذى يخدم فيه هذا الرجل ؟ لقد هرب الباقون أما هو فالتصق بيسوع .. وهناك فى وسط الجمع وقف يصطلى لأن الليلة كانت باردة ، ولابد أنه كان ملتفا فى ردائه ، لكن أحدهم ألقى بقطعة من الخشب فى النار فارتفعت ألسنة النار وأضاء المكان وظهر بطرس وعرفوه أنه من تلاميذ يسوع . ولنتأمل هنا أمرين هامين : الأول هو أنه بدأ يحلف ويلعن نفسه ولكنه لم يلعن يسوع أبداً ــ إنه لم ينكره هو بل أنكر معرفته به .. الأمر الثانى أنه كان من السهل عليه أن يهرب ، ولكن رغم كل المضايقات استمر باقيا مسمراً فى نفس المكان ليعرف ماذا يجرى ليسوع فى الداخل . وبينما هو ينكر علاقته بيسوع ويقسم ويشتم نفسه إذ بالديك يصيح وتتغير نوبة الحراسة عند الحرس الرومانى وكان بطرس فى آخر إنكاره . وحالما تسمع أذناه الصوت يتذكر بطرس وينكسر قلبه . هنا يجب أن نكون على حذرنا لقد سقط بطرس سقطة الرجل الشجاع ، لقد انكسر كل

الرجال ولكن قبل أن ينكسر هو . لقد تقدم كثيراً عنهم حتى قارب أن يصل إلى النهاية وهناك سقط . إننا نعجب من شجاعة بطرس أكثر مما نصدم بسقطته .

* * *

ولكن هناك شيء آخر ، لنذكر أن هذه القصة لم تجيء إلا من بطرس نفسه وكما نذكر أن إنجيل مرقس ما هو إلا ذكريات بطرس ، ولابد أن هذا الشيخ كان يذكر قصة إنكاره لسيده عدة مرات .. كأنه يقول « هذا كل ما عملت ولكن يسوع لم يكف عن أن يحبنى » سقط أحد عندما كان أحد الوعاظ العظام داخلا إلى مكان الاجتماع استلم خطابا من رجل وقرأه فوجد فيه قصة سقطة شريرة سقط فيها هو من مدة طويلة قبل أن يتجدد ، وكتب له هذا الرجل قائلا « إن كنت صادقا فى وعظك فاذكر على المنبر هذه القصة . وأخذ هذا الواعظ هذا الخطاب وقرأه أمام الجمهور الغفير ثم قال لهم « أنظروا ماذا كنت وكيف كنت أتصرف ، ولكن يسوع أحبنى كثيراً .. كثيراً جداً حتى أنه افتدانى وخلصنى » هذا ما كان يقوله بطرس .. انظروا كيف أنكرته وكيف استمر فى محبته لى .

إن قصة جبن بطرس وإنكاره تتحول إلى قصة شجاعة ومجد إذا قرأناها بلياقة

الأصحاح الخامس عشر

صمت يسوع

(مرقس ١٥ : ١ ـــ ٥)

عندما جاء الصباح اجتمع السنهدريم مرة أخرى لكي يثبت ما حكم به على يسوع أثناء الليل . ولما لم تكن لهم السلطة على تنفيذ الحكم على يسوع فقد حملوه إلى بيلاطس . وهناك كما يخبرنا لوقا ظهرت كراهية اليهود على أشدها ضد يسوع . فلم يكتفوا أن يوجهوا إليه التهم الدينية كمجدف على الله وكاسر للشريعة ومحطم لتقاليد الآباء لعلمهم أنها لا يهتم بها الوالى الرومانى بيلاطس . فما كان منهم إلا أن اتهموه تهما سياسية . اتهموه أنه يدعى الملك وأنه يفسد الشعب وأنه طلب ألا تعطى جزية لقيصر .. (لوقا ٢٢ : ١ و ٢) . اتهموه بذلك وكانوا يعلمون أنهم كذبة ، وكذلك عرف بيلاطس كذبهم . وسأل بيلاطس يسوع عما إذا كان ملك اليهود ، فرد عليه يسوع رداً غريبا « أنت تقول » وهو يعنى ذلك هكذا : « قد أكون قد صرحت أنى ملك اليهود ، ولكنى لست ملكا كما تفهمون ، ومملكتى ليست من هذا العالم ، أنا لست ثوريا سياسيا .. إننى ملك فى ملكوت المحبة » فاقتنع بيلاطس بذل ، ولكن على ما كان يقتنع على قدر ما كانت نفوس اليهود السوداء تظهر فيوجهون إليه الاتهام تلو الآخر .

وكان بيلاطس يسأل يسوع ولكنه لم يكن يجاوب بل ظل صامتا . فى أحايين كثيرة كان الصمت أبلغ من كل كلام :

١ ـــ فهناك صمت القلب المندهش المعجب . وفى مرات كثيرة نصفق أو نهتف لمن يمثلون أو يخطبون إعجابا بهم ولكن متى زاد إعجابنا فإننا نصمت فى حضرتهم وقد يظهر إنسان بنظرة واحدة من عينيه شكراً أعمق وأعظم مما تقوله آلاف الكلمات المكتوبة فى قواميسنا .

٢ ـــ وهناك صمت الاحتقار فقد تسمع كلام أحدهم أو سؤاله أو حجته ، وبدلا من أن ترد عليها كلمة بكلمة محتقرا إياها ما عليك إلا أن تدير ظهرك له وتتركه بدون جواب فيحس الاحتقار والخزى أضعاف المرات .

٣ ـــ وهناك صمت الخوف ! فهناك من يحبس الخوف الكلام فى فمه .إن جبنه الروحى أو النفسى يؤثر على لسانه فلا يستطيع أن يتكلم فلا يعمل سوى أن يصمت صمت الخزى .

٤ ـــ وهناك صمت القلب الحزين : وفى مرات كثيرة يجرح الإنسان فيحزن ولا يستطيع أن يجد كلاما يعبر به عن حزنه أو اعتراضه أو غضبه فيسكت . والحزن الأعمق هو الحزن الصامت الذى يفوق الغضب والتوبيخ وأى صنف من الكلام .

٥ ـــ هناك صمت الكارثة أو المأساة وهذا صمت لأنه لا يوجد كلام . وهذا بعينه كان صمت يسوع . لقد عرف أنه لا يوجد أى ارتباط أو تفاهم بينه وبين اليهود ، وعرف أن بيلاطس لا

يمتلك الشخصية العميقة التي يكملها هو ، عرف أن وسائل الاتصال وكيفيته قد انقطعت تماما . فقد أسدلت الكراهية ستارا حديديا بينهم وبينه ، وضعف بل جبن بيلاطس عن أن يعمل شيئا .

إنه لموقف مرير أن يجد الإنسان نفسه غير مقتنع بالكلام لأن الكلام لا فائدة منه .. لينقذنا الله من هذه المواقف .

رغبة الجماهير

(مرقس ١٥ : ٦ ـــ ١٥)

لا نعرف شيئا كثيرا عن باراباس سوى ما تذكره الأناجيل عنه فقد كان قاتلا ولصا لم يكن نشالا ولم يكن لصا مكيرا بل كان قاطع طريق شريرا . ويلوح أنه كان واحدا من جماعة اسمها « سيكارى » أى « حاملو الخناجر » امتلأت بهم فلسطين ، وكانوا يحملون خناجرهم تحت أرديتهم . وهم مستعدون لاستعمالها فى كل وقت ولأجل أتفه الأسباب ، كانوا وطنيين متعصبين لذا كان باراباس محبوبا لدى الرعاع الذين جعلوه مثلا لهم .

ولكن ما هو السر الكامن وراء هذا الجمع الذى وقف خارجا يرفض يسوع ويطلب أن يصلبوه بدلا من باراباس ؟ هل هو نفس الجمع الذى سار أمام يسوع منذ أسبوع مضى يرحب به كملك . وابن داود ؟ أعتقد لا . إنه جمهور يختلف كل الاختلاف . إن الجمع الذى رحب بيسوع قد أخذ على غرة ولم يعرف بخبر القبض عليه . نعم لقد هرب التلاميذ ولابد أنهم نشروا خبر القبض ، ولكن الناس لم تكن تتخيل أن السنهدريم سيكسر قوانينه ويحاكم يسوع ليلا فانقضى الليل والصباح ولم يتجمع أحد من محبى يسوع .

أما هذا الجمع فقد كانوا جماعة أخرى .. إن الشعب يعرف أن الوالى سيطلق لهم سجينا فى كل عيد ، ويلوح أن الإشاعة خرجت أن السجين المطلوب هو باراباس ولهذا خرج محبو باراباس إلى دار الولاية لكى يستقبلوا بطلهم ومثلهم الأعلى ، وبينما هم ينتظرون هناك لوح بيلاطس لليهود بعزمه على إطلاق يسوع لهم بدلا من باراباس ، فجن جنونهم وصرخوا طالبين هذا اللص .. وعرف رئيس الكهنة أنها فرصة عظيمة فأشعل حماسهم وطلب من الرعاع أن يصرخوا طالبين صلب يسوع . هذا هو سر الجموع التى رحبت بيسوع والتى طلبت صلبه وفى طلبهم لباراباس ورفضهم ليسوع كانت الجماهير :

١ ـــ تفضل كاسر الناموس على محب الناموس . إحدى الكلمات التى تترجم « خطية » فى العهد الجديد هى « أنوميه . anomia أى بلا ناموس . وفى قلب الإنسان ميل طبيعى إلى الفوضى وكسر الناموس والحياة التى بلا قيود أو نظام .. ويقول أحد أبطال رواية من روايات كبلنج :

أرسلنى إلى مكان شرق السويس حيث يبدو الحسن هناك سيئا حيث لا توجد وصايا عشرة بل يفعل الإنسان ما يريد .

نعم هناك أوقات فيها تتمنى أنه لو لم تكن هناك وصايا عشر ، لكان هذا الجمع كان المثل الواضح للإنسانية بلا نظام .

٢ ـــ كانوا يفضلون الحرب على السلام : طلبوا قاتل ورفضوا رئيس السلام . هذه هى البشرية التى لم تقض أكثر من ١٣٠ سنة فى سلام طيلة الثلاثة آلاف سنة الماضية . إن الناس كثيرا ما يحاولون فض المشكلات بالحرب وهى لا تفض إلا بالسلام والمحبة .. وكان هذا الجمع من هؤلاء القوم .

٣ ـــ اختاروا الكراهية والقسوة بدلا من المحبة : لم يكن لباراباس غير قلب حقود وخنجر حاد ، ولم يكن ليسوع سوى القلب المحب الشفوق ، واختار الرعاع باراباس ورفضوا يسوع . إنها طريق الخطية والبغض .

هناك كلمة مؤلمة قاسية . وهى « ولما جلدوه » وكانوا يلوون جسد المذنب ليا فيظهر ظهره فيضربونه بآلة عبارة عن سيور من الجلد بها قطع مدببة من الرصاص والعظام فكانت تقطع ظهره ، وكانت أحيانا تقلع العين وكانت تميت الإنسان وكان بعضهم يجن تحت ضرباتهم . ولكن القليل من كان يتماسك ويشعر بعذابها وهكذا فعل يسوع .

استهزاء العساكر

(مرقس ١٥ : ١٦ ـــ ٢٠)

انتهى الحاكم الرومانى من إجراءات محاكمته ونطق بالحكم قائلا « الحكم هو أن هذا الرجل يجب أن يصلب » ثم التفت إلى الحرس وقال لهم « جهزوا الصليب » ، ثم ذهب وأسلم يسوع ليد العساكر . ومكث يسوع فترة بين يدى عساكر الوالى ، الذين كانوا يعيشون فى دار الولاية يحرسونها ، إلى أن يجهزوا له صليبه وهناك بدأوا يستهزئون به .

وأعتقد أن هذا الجزء من إجراءات محاكمة المسيح وصلبه كان أقل الأجزاء إيلاما على نفسه فهو لم يكن بدافع الكراهية والحقد الشديد كما كان يبدو تصرف اليهود إزاءه ، ولا بدافع الجبن والخوف من تحمل المسئولية كما كان يتصرف الوالى . إنما كان يسوع بالنسبة للعساكر أحد الرجال الذين يقادون إلى الصليب فأضحى مثار استهزائهم وضحكهم ، فأحضروا له رداءا ملكيا وبدأوا يسجدون له .

وكان هذا العمل هو بدء السخرية بالمسيحية كلها ولقد كانت المسيحية وجهة استهزاء الكثيرين ، ولقد وجد كثير من الكتابات والرسومات على حوائط بومباى تثير الضحك على المسيحيين ، ومنها أن أحدهم رسم حماراً ورسم مسيحيا يركع أمامه ثم كتب تحتها : هذا الرجل يعبد إلهه . فعندما يسخر الناس بالمسيحيين وعندما يستهزئون من عبادتهم وعقائدهم وتصرفاتهم فليذكر كل مسيحى أنهم إنما قد فعلوا لسيدهم من قبل .. بل وكانوا يزدادون سخرية وهياجا عليه كلما أوغل هو فى الهدوء والثبات .

الصليب

(مرقس ١٥ : ٢١ ــ ٢٨)

وإجراءات الصليب عند الرومان دائماً واحدة لا تتغير ، فعندما يعدون الصليب يحمله المحكوم عليه إلى مكان التنفيذ ، وفى سيره يحيط به أربعة عساكر على شكل مربع وأمامهم يسير جندى حاملا لوحة كبيرة مكتوب عليها الجناية التى بسببها حكم عليه بالصلب ثم يسير الموكب فى أطول طريق حتى يستطيع أكبر عدد من الناس أن يشاهدوه فيكون لهم بمثابة تحذير وإنذار . وحالما يصلون إلى مكان التنفيذ يلقون بالصليب على الأرض ثم يلقون بالمصلوب عليه ويسمرون يديه ويربطون رجليه بغير مسامير ويضعون بين ساقيه قطعة من الخشب تتحمل ثقله عندما يرفعون الصليب إلى أعلى فلا تنقطع يداه ثم يثبت الصليب هنا ، وهو ليس مرتفعاً ، ثم يترك المصلوب هناك عدة أيام إلى أن يموت من الجوع والعطش والعذاب . وقد يستمر المصلوب أسبوعا وقد يصاب بالجنون من شدة العذاب .

ذلك اليوم كان يوما قاتماً بالنسبة لسمعان القيروانى الذى سخره الرومان ليحمل صليب يسوع الذى لم يقو على حمله . وكان للرومانى السلطة على تسخير أى إنسان فى فلسطين ليعمل أى عمل يريد مادام شعار السلطة على كتفه ؛ وكان سمعان القيروانى من أفريقيا ، ولابد أنه جاء إلى أورشليم ليأكل الفصح ولو مرة واحدة فى حياته فى رحاب الهيكل ، ولابد أنه مكث نصف عمره يوفر تكاليف الحج إلى الهيكل . ولابد أن سمعان كره هذا العمل وأبغضه وحاول أن يتخلص منه ، ومن الممكن أن يكون قد ألقى بالصليب على الأرض واستعد لترك ذلك المكان حالما وصلوا إلى مكان التنفيذ ، ولكن شيئاً أمسك به وأوقفه .. شيئا ما فى يسوع نفسه ، ولابد أن صلة وثيقة توطدت بينه وبين يسوع المصلوب والمقام فأضحى من ضمن أتباعه الذين حملوا صليبه مكرهين أولا ثم محبين مضحين بعد ذلك . ونقرأ عنه أنه أبو روفس واسكندر اللذين وجدا فى كنيسة رومية ، ولابد أن مرقس يذكر ذلك لأن الناس فى رومية ، التى كتب فيها الإنجيل ، يعرفونه . وبهذه الكيفية يرسل بولس الرسول تحياته إلى « روفس المختار فى الرب وأمه أمى » ولابد أن هذه الصلة بنيت على أساس متين . هذا الأساس مذكور فى أعمال ١٣ : ١ عندما نقرأ أن من بين الذين شيعوا بولس فى خدمته وإرساليته من أنطاكية سيمون النيجيرى وهو سمعان الأفريقى .

أيمكن أن نقول إن كل هذا قد حدث وأن سمعان القيروانى قد أضحى واحداً من ضمن قادة الكنيسة فى أنطاكية الذين ساعدوا فى الإرسالية الأولى للأمم ؟ وهل يمكن أن نقول إن المسيحى يوما ما كان يقاسى مرارة التسخير لأجل يسوع ولكنه عندما وصل إلى الجلجثة تحول إلى عابد ومضحى لأجل المسيح .

وحاول أحد الجنود أن يسقى يسوع الخل الممزوج بالمرار حتى يقويه على تحمل الآلام .. وكانت بعض النسوة الرحيمات القلب من أورشليم يحضرن هذا الشراب لكى يعملن على تخفيف آلام هؤلاء

المساكين . ولكن يسوع رفض أن يشربه ، لقد آثر أن يشرب الكأس إلى الثمالة . قيل عن أحد رجال الله المشهورين إنه سأل الطبيب إن كان هناك أمل فى شفائه ، فأجاب الطبيب بالنفى ، فقال رجل الله « إذن إمنع عنى الأدوية والمخدرات أريد أن أذهب إلى إلهى فى كامل وعيى » .

وكان من عادة الأربعة العساكر الذين يحيطون بالمصلوب أن يقتسموا ثيابه وكانت ثياب اليهودى خمس قطع : الرداء الخارجى والداخلى والحذاء والمنطقة وغطاء الرأس ، وكانوا يقتسمون الأربعة أما الخامس وهو الرداء فكانوا يلقون قرعة عليه لأنهم لا يجدون فائدة من تقسيمه . وهكذا فعل مع يسوع اقتسموا ثيابه وعلى لباسه ألقوا قرعة .

لقد صلب يسوع بين لصين ، ولقد كان هذا العمل رمزا لحياته كلها ، فإنه فى كل خدمته كان يخالط العشارين والخطاة لكى يربحهم إلى ملكوت السموات .

المحبة اللانهائية

(مرقس ١٥ : ٢٩ ـــ ٣٢)

لقد وضع اليهود آخر تحديات أمام يسوع : « إنزل من على الصليب ونحن نؤمن بك » لقد كان طلبا خاطئا يناقض تماما ما جاء يسوع لأجله . لقد وعدوا أنهم يؤمنون به لو نزل من على الصليب ، ولكننا نحن نؤمن به لأنه لم ينزل من على الصليب . إن يسوع قد جاء ليظهر حب الله للبشر ، وكان هو المحبة المتجسدة . فلو رفض يسوع الصليب لما كانت هناك محبة إلهية غير محدودة . فالصليب هو العلامة التى ترى أن محبة الله ليست محدودة .. إنه لا يوجد هناك خط لا تتعداه هذه المحبة .. إنه لا يوجد شىء لا تستطيع تلك المحبة أن تفعله . ولكن يسوع سار كل الطريق إلى الصليب .. يسوع أظهر أنه تألم من أجل البشر وشرب كأس الموت والعذاب إلى آخره . إنه يعلن أن الله قد أحب البشر هذه المحبة اللامحدودة حتى أنه قاسى فى سبيلهم كل شىء .

لو جاء يسوع من على الصليب لما كان هناك رجاء فيه ولكننا فى الصليب نحن نريح أنفسنا على عطف الله اللانهائى .

المأساة والانتصار

(مرقس ١٥ : ٣٣ ـــ ٤١)

نأتى الآن إلى آخر منظر من مناظر المأساة القاسية ، وكأنما الطبيعة خجلت من أن ترى بشاعة ما فعل البشر فخفت أنوارها وزلزل زلزالها . دعنا ننظر إلى الناس الذين كانت لهم صلة بهذا الموقف المروع .

١ ـــ يسوع نفسه : قال يسوع شيئين :

(أ) إلهى إلهى لماذا تركتنى . هناك سر فى هذه الصرخة لا نستطيع أن نتطلع إليه ولكننا قد نستطيع أن نقول شيئاً . لقد جاء يسوع إلينا ، اتخذ طبيعتنا البشرية وجاز فى كل ضيقاتنا ، عمل عملنا وواجه تجاربنا .. عرف فشل الأصدقاء وعداوة الأعداء وجبن المستهترين .. عرف الجوع والعطش .. عرف كل شيء ما عدا شيئا واحداً لم يعرفه وهو الخطية ومرارة نتائج الخطية . والذى تعمله الخطية هى أن تفصل الإنسان عن الله ، ولهذا فلم يكن يسوع إلى الآن قد جاز فى تلك النيران الملتهبة نيران الانفصال عن الله . ولكن يسوع الآن يحمل خطايا ويتحمل نتائجها .. ولهذا فهو يختبر تلك المرارة ، مرارة حجب الله وجهه عنه لأنه حمل كل الخطايا .. إنه لم يعمل خطية ولكنه جاز فى اختبار نتائج الخطية فعرف كيف يكون الإنسان عندما ينفصل عن إلهه . وكانت خبرة قاسية محطمة لنفس لم تعرف البعد عن الله . ولكنه جاز فيها وانتصر . ولهذا فإننا لا نخشى أن نجيء إليه ونحن فى كورة بعيدة منفصلين عن الله لكى يردنا إليه .. نأتى إليه لأنه يعرف حالتنا وجاز فى اختبار ، إنه تجرب فى كل شيء مثلنا .

(ب) هناك الصرخة العالية المذكورة فى (لوقا ٢٣ : ٤٦ ، متى ٢٧ : ٥٠) مع أن يوحنا لم يذكرها بل قال إن يسوع مات بعد أن قال « قد أكمل » (يوحنا ١٩ : ٣٠) . وفى النص الأصلى « أكمل » هى كلمة واحدة . وربما صرخ يسوع بهذه الكلمة صرخة النصرة والرجاء . لقد تمم عمله ولقد كسب معركته ، وبعد أن جاز فى الظلام المروع جاء النور وذهب إلى إلهه فى نصرة .

٢ ـــ هناك الواقفون الذين أرادوا أن يروا إيليا آتيا إليه .. إنه رأى فى الصليب شيئا تجب معرفته ولكن الصليب بكل ما فيه وما يحيط به لم يبعث فى نفوسهم الشعور بالخشوع والرهبة أو حتى الشفقة .. إنهم أرادوا أن يتفرجوا على موت يسوع .

٣ ـــ وهناك قائد المئة وهو جندى رومانى جبار حارب فى معارك كثيرة ورأى كثيرين يموتون ولكن لم ير إنسانا يموت مثل هذا الإنسان ، وعرف انه ابن الله . لو عاش يسوع وعلم وشفى لجذب الكثيرين إليه .. ولكن الصليب وحده هو الذى يصالح الناس مع الله .

٤ ـــ النساء الواقفات من بعيد . كن مختارات مكسورات القلوب محطمات من الحزن ولكنهن كن هناك . لقد أحببن فلم يستطعن أن يتركنه ، إن المحبة تلتصق بالمسيح حتى وإن لم يستطع العقل أن يعرف السبب . إن المحبة وحدها هى التى تعلمنا المسيح وتجعلنا نراه فى وسط التجارب القاصمة .

هناك شيء آخر يجب أن نلاحظه : انشقاق حجاب الهيكل الذى يفصل قدس الأقداس يخبرنا بأمرين رمزيين :

(أ) انفتح الطريق إلى الله . لم يكن قدس الأقداس مفتوحا لإنسان سوى رئيس الكهنة مرة واحدة فى السنة ، ولكن الآن انشق الحجاب وانفتح الطريق إلى الله .

(ب) فى قدس الأقداس كان يسكن الله بنفسه ولكن فى انشقاق الحجاب استطاع الناس أن يروا الله وجها لوجه .. لم يعد الله محتجباً لا حاجة للناس بأن يفتشوا ويخمنوا ويفلسفوا . فمن يرد أن يرى الله فلينظر إلى يسوع « من رآنى فقد رأى الآب » .

الرجل الذى وهب يسوع قبره

(مرقس ١٥ : ٤٢ ــ ٤٧)

أسلم يسوع الروح حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر يوم الجمعة قبل السبت . وكان وقت الاستعداد للسبت . فلم يكن هناك وقت للتلكؤ ، لأن السبت الذى فيه يمنع كل عمل كان على الأبواب . ولهذا فقد تصرف يوسف الرامى بسرعة لكى يدفن جسد يسوع .

لم تكن العادة أن تدفن أجساد المجرمين المصلوبين بل كانوا يتركونهم حتى يموتوا ثم يلقون بجثثهم فى العراء لتأكلها الكلاب والطيور المتوحشة ولقد قيل إن اسم الجلجثة ومعناه الجمجمة ، جاء من كثرة الجماجم الموجودة فوقه ولكن جسد يسوع لم يترك هكذا بل لقد ذهب يوسف الرامى إلى بيلاطس لكى يطلبه فاندهش الوالى لموت يسوع هكذا مبكراً ، ولما علم يقينا بموته سمح ليوسف بأن يأخذه .

يوسف الرامى هذا بطل دراسة غريبة :

١ ــ إن يوسف هو المصدر الحقيقى لقصة المحاكمة أمام السنهدريم ، لقد هرب التلاميذ ولم يكن واحد منهم حاضراً ، فلابد أن تأتى هذه المعلومات من واحد كان يراقب فى هذه الجلسة . ومن المحتمل جداً أن يكون هذا الشخص هو يوسف الرامى . وإن صح ذلك فيكون ليوسف ضلع كبير فى كتابة الأناجيل .

٢ ــ هناك مأساة حقيقية فى حياة يوسف تذكرنا بحياة الكثيرين : لقد كان عضواً فى السنهدريم ولكننا لم نسمع كلمة واحدة منه أو عنه دفاعا عن يسوع ، ولم يتضح أنه تدخل فى المحاكمة من أجله . ولكنه أعطى يسوع قبره . لقد قدم خدمة له عندما مات ولكنه لم يفعل شيئاً له وهو حى . هذه مأساة الكثيرين الذين يحتفظون بالزهور لقبور الذين ماتوا بينما لم يقولوا لهم كلمة واحدة حسنة فى حياتهم . ولكم تتغير الدنيا لو أظهرنا شعورنا الحقيقى للناس فى حياتهم وليس فقط بعد موتهم .

٣ ــ ولكننا ينبغى ألا نغالى فى إيلام يوسف الرامى . فإن صليب يسوع قد فعل فى حياته أكثر جداً مما فعلت حياته فعندما رآه يعلّم ويحيى ويشفى إنجذب اليه ولكنه لم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة إيجابية نحوه ، ولكنه عندما رآه فى صليبه ــ ولابد أنه كان حاضراً عملية الصلب . انصهرت حياته فيه بالمحبة .. لقد سبقه قائد المئة وسار هو فى نفس الطريق .

لقد تحققت فيهما كلمات السيد : « وأنا إن ارتفعت أجذب إلىّ الجميع » (يوحنا ١٢ : ٣٢) .

الأصحاح السادس عشر

قولوا لبطرس

(مرقس ١٦ : ١ — ٨)

لم يكن هناك وقت لتحنيط جسد يسوع لأن السبت كان قد أزف ، ولكن عندما مضى السبت قامت النساء باكرا جداً وذهبن إلى القبر ليقمن بتلك الخدمة الأخيرة لمن أحببناه وأحبهن ، ولكنهن كن محتارات فيما بينهن من يرفع لهن الحجر . فالقبور لم يكن لها أبواب لكى تفتح ، وأمام فتحة القبر كان يوجد أخدود وفيه يوضع حجر دائرى أكبر كثيرا من طاقة النسوة لكى يرفعنه . ولكن عندما وصلن إلى القبر وجدن الحجر قد دحرج ووجدن داخله رسولا ذكر لهن أعظم خبر يمكن أن يتخيله إنسان .. لقد قام من بين الأموات .

هناك شيء واحد مؤكد وهو أنه لو لم يكن قد قام المسيح لما كنا قد سمعنا عنه . فالنساء اللواتى جئن إلى القبر جئن وقصدهن تحنيط جسد ميت عزيز ، والتلاميذ اعتقدوا أن كل شيء قد انتهى ، فما الذى يدفع هؤلاء أجمعين للقيام بهذه الحركة الكبرى ؟ الجواب البسيط هو أن شيئا ما قد حدث .. هذا الشيء ليس أقل من قيامة يسوع نفسه ، فالبرهان البسيط القاطع على قيامة المسيح هو وجود الكنيسة المسيحية . فالقيامة هى التى وهبت القوة لنسوة خائفات والفرح لتلاميذ حزانى ، والحياة للإيمان المسيحى . ومن القيامة نعلم :

١ — أن يسوع ليس شخصا موجوداً فى الكتب ولكنه هو حاضر . الذكرى مهما كانت عزيزة ستمحى والزمن كفيل بأن يزيل كل شيء . ولكن يسوع بقى لا كذكرى بل كحضور كامل موجود .. إنه ليس شخصا ندرسه ولكنه شخص نقابله .

٢ — إن الحياة المسيحية ليست « معرفة عن يسوع » ولكنها « معرفة يسوع » وهناك فرق ضخم بين الاثنين . قد أعرف الكثير جدا عن العظماء ولكنى لا أعرفهم شخصيا .. وهكذا بخصوص يسوع فقد يعرف أبسط إنسان يسوع أكثر ألف مرة من أعظم عالم لاهوتى درس مئات الكتب عن يسوع .

٣ — إن الإيمان المسيحى إيمان حى . إنه لا يقف لأن موضوعه يسوع الحى ، ولهذا فهناك حقائق وإعلانات جديدة يكشفها لنا يسوع فى حياتنا .

ولكن أثمن كلمة فى هذا الفصل هى : قولوا لإخوتى — **ولبطرس** . ولكم أثلجت هذه الكلمات قلب بطرس ، لابد وأنه قد تعذب بذكريات إنكاره إياه . وفجأة تأتيه رسالة منه ، له هو دون أى تلميذ بمفرده . إن من امتيازات يسوع أنه لا يفكر فى بطرس الذى أنكره بل فى العذاب الذى ذاقه هذا المسكين . فيسوع شغوفٌ جداً بأن يواسى الخاطىء التائب أكثر من شغفه بمعاقبته لخطيته .

لقد قال أحدهم « إن أعظم ما يعمله يسوع هو أنه يثق فينا حتى فى وقت هزيمتنا » .

إرسالية الكنيسة

(مرقس ١٦ : ٩ ـــ ٢٠)

كما سبق وعرفنا فى المقدمة أن إنجيل مرقس ينتهى إلى عدد ٨ من هذا الأصحاح أما عدد ٩ ـــ ٢٠ فلم نجده فى المخطوطات القديمة الموثوق بها ، ويلوح أن أحدهم قد لخص عمل الكنيسة وحياتها ووضع هذا الملخص ليكون بديلا عن تلك النهاية المبتورة . وكاتبها كان يعلم أن للكنيسة عملا مهما يجب أن تقوم به :

١ ـــ للكنيسة عمل وعظى : إن الوعظ هو واجب الكنيسة وواجب كل مسيحى حتى يمكن للعالم كله أن يعرف ويسمع الأخبار السارة عن يسوع وخلاص يسوع .

٢ ـــ للكنيسة رسالة شفائية : إن الكنيسة ينبغى أن تهتم بأجساد الناس مثلما تهتم بأرواحهم . فيسوع جاء لكى يشفى الروح والجسد معا .

٣ ـــ الكنيسة هى مجتمع القوة : ولا أقصد أن أقول إن المسيحى يمكن أن يشرب السم أو يدوس على الحيات فلا يحدث له شىء ما ، لأن وراء هذه الصورة جوهر آخر هو جوهر المسيحى الذى يستطيع أن يتعامل مع الحياة بقوة لا يستطيعها غيره من الناس .. إنه شجاع .

٤ ـــ الكنيسة لا تعمل هذا العمل لوحدها . فالمسيح فى وسطها يعمل فيها وبواسطتها وهو لن يتركها .

وهكذا ينهى الإنجيل بالإعلان أن :

« الحياة المسيحية هى الحياة التى تقضى فى حضرة وبقوة ذاك الذى صلب وقام »

آمين

دار الثقافة

دار الثقافة